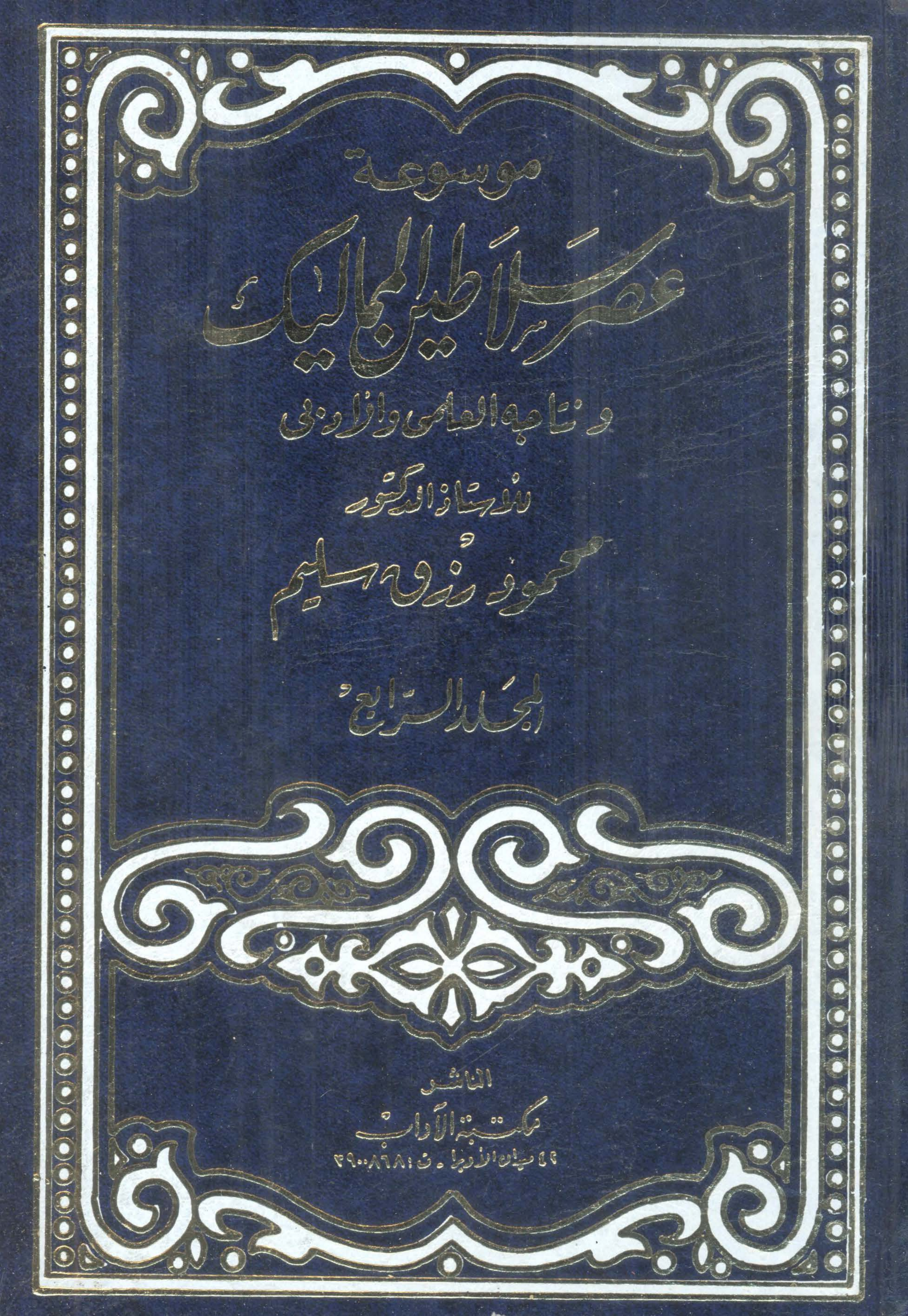

موسوعة
عصر سلاطين المماليك
ونتاجه العلمي والأدبي
للأستاذ الدكتور
محمود رزق سليم
المجلد الرابع
الناشر
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا . ت: ٣٩٠٠٨٦٨


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

عصر سلاطين المماليك

ونتاجه

العلمى والأدبى

تأليف الدكتور

محمود رزق سليم

المجلد السابع

وهو القسم الأول من الجزء الرابع

فى أثر البيئة المصرية فى الشعر

الطبعة الأولى

١٣٨٥ ﻫ - ١٩٦٥ م

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

دار الحمامى للطباعة
شارع الجيش - ٢ كنيسة الأرمن



في

التعريف بمنهج البحث ، ومعنى البيئة ، وأبواب الكتاب وفصوله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

— ١ —

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الخلق أجمعين .
وبعد . هذا هو المجلد السابع من موسوعتى « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » . ويتألف منه ومن المجلد الثامن التالى، الجزء الرابع من هذه الموسوعة، الذى به ينتهى بحثنا الشامل ، فى العصر المذكور .

وموضوع الجزء الرابع ، بمجلديه ، هو « أثر البيئة المصرية فى الشعر فى عصر المماليك » . حاولت فيه — بعد دراسة البيئة المصرية من أهم نواحيها — الربط بينها وبين النتاج الشعرى فيها ، لإيضاح مدى تأثيرها فى شعرائها ، ومبلغ استجابة هؤلاء الشعراء لوحيها .

وفى المجلدات السابقة طرقت بحوثا شتى وأبوابا متنوعة ، كانت دراسات لهذه البيئة . وفى الجزء الرابع الذى أقدم الآن قسمه الأول إلى القراء — أعنى المجلد السابع — أزيد الأمر وضوحا بدراسات وجيزة لنواحى البيئة ، ثم أبسط القول فى نتاجها الشعرى .

وقد يرى القارىء تغيرا فى منهج البحث فى هذا الجزء ، يميزه عن الأجزاء السابقة ، وفى الحق كان لكل جزء من الأجزاء الأربعة منهج ، لعله يتفق مع طبيعة موضوعه ، ويعين على حسن تناوله .

ومنهجى فى الجزء الرابع — وهو المنهج الذى أشرت إليه — وهو ربط البيئة بشعرها ، أو ربط الشعر ببيئته ، دفعنى إلى انتهاجه ما استبد بخاطرى من ضرورة

العمل لاستجلاء الشخصية المصرية أو بعض جوانبها ، وبخاصة فى عصر سلاطين المماليك ، لمعرفة مدى يقظة الشعب فيه نفسياً وعقلياً .

وكانت منذ حين ، قد برزت « النظرية الإقليمية » وأثارت جدلا ومناقشة ، وتعصب لها بعض الرواد تعصباً كاملا ، ورأى ضرورة دراسة الأدب بعامة ، والأدب المصرى بخاصة ، على أساسها وحدها . وذلك لقدرتها على إبراز معالم الأدب وإيضاح خصائصه وربطه بأسبابه البيئية ، وكذلك لقدرتها على إبراز معالم الشخصية التى أنتجته ، إلى غير ذلك من الأسباب .

وتأثرت البحوث الأدبية — ولا ريب — بما أثير حول هذه النظرية . واتجه بعضها إلى دراسة الأدب على أساس ربطه بمسبباته البيئية .

وهذا البحث الذى أقدمه ، فى الجزء الرابع بمجلديه ، وإن كان دراسة تفصيلية لشعر مصر فى عصر المماليك ، يقوم على أساس هذا الربط وحده ، ولكن توسلا إلى هدف أسمى وأهم ، وهو الوقوف على مدى يقظة شعب مصر فى العصر المذكور — كما أشرت .

وإذا كان اشتراك شعب من الشعوب ، فى فتح أو غزو أو دفع عدو ، أو كان اشتغاله بعلم أو صناعة أو تجارة ، يدل فيما يدل عليه ، على مستوى الحياة التى يحياها ، وعلى نوعها ، وعلى مدى اليقظة الإنسانية التى يتمتع بها ، فإن نشاطه الأدبى ، وبخاصة فى ميدان الشعر ، يدل على هذا المستوى وهذه اليقظة دلالة أوسع وأعمق وآصل . إذ أن الشعر رجع الحياة العاطفية الوجدانية — فى أغلب أمره . وهو أقوى اتصالا بأعمق المشاعر الإنسانية وأمتع الأحاسيس النفسية . والحياة العاطفية الوجدانية للإنسان هى الحياة الحقيقية التى يحياها . والشعراء ، فى جملتهم ، من الشعب وإلى الشعب . ومن ثم كان الشعر فى أكثر أمره ، من أصدق الأدلة على مدى اليقظة الحقيقية للشعب .

لهذا اتجهت إلى دراسة الشعر فى مصر ، فى عصر المماليك ، مع ربطه بأسبابه البيئية ، لأتبين مدى اتصاله بها ، ومدى استجابته لها وتعبيره عنها ، وتسجيله

لأحداثها المادية والمعنوية . ومن هنا أتبين مدى اليقظة الفكرية والعاطفية التي كان يحياها الشعب المصري حينذاك ، فأحكم له أو عليه .

ودراسة الشعر على أساس ربطه بأسبابه البيئية ، تعين على كشف تهمة التقليد والمحاكاة ، ومعرفة مدى صدقها . إذ أنها تبرز بوضوح لا يعتريه غموض ، وبصدق لا يعتوره شك ، حالة الشعراء ، وهم يترجمون عن بيئتهم ، أكانوا صادقين في شعورهم وخواطرهم نحوها ، متأثرين حقاً بأحداثها ، أم كانوا يستعيرون تجارب الآخرين ، ويتقمصون عواطفهم .

وإذا اتجهنا في هذا البحث نحو البيئة ، فدرسناها في شيء من التفصيل ، وعقبنا على ذلك بعرض شعرها مع الربط والتعليل ، وظفرنا من وراء هذا المنهج بنتائج محمودة ، لا نقول إن الشعر والأدب ثمرة لعوامل البيئة وحدها ، فإن ثمة عوامل أخرى ، قد يكون لها أثر كبير في توجيه الشعر والأدب ، والوصول بهما إلى مستواهما ، وذلك كالمواهب الفردية والدراسات الأجنبية غير الوافدة .

وعلى هذا نفترق عن نظرية « الإقليمية » بعض الافتراق . فإنها تقصر عوامل الأدب على العوامل المحلية دون سواها ، وترد إليها كل مظاهره ، وتتجاهل مواهب الفرد ، وتوسع في مجال الموازنة ، مصرة على أن تميز محلة عن أخرى .

ونحن لا نتعصب لمنهج بعينه . ولكننا نشعر أن دراسة البيئة والكشف عن أحداثها وعواملها ومؤثراتها المختلفة ، والبحث عن مدى أثرها في شعر شعرائها ، وعن مبلغ استجابة هذا الشعر لوحيها ، توصلا إلى فهم شخصية الشعب وخصائصها ، في إحدى حقبه ، وفهم مستواه من الحياة الصحيحة ، نشعر أن هذه الدراسة مجدية مثمرة ، تؤدي إلى أفضل النتائج وأدقها وأصدقها .

وقد تنبه القدماء إلى أهمية البيئة ، باعتبارها المؤثر في حياة الأدب . فابن سلام الجمحي - مثلا - في طبقاته يقسم الشعراء - غالبا - بحسب الفوارق الإقليمية ،

فيجعل ـ مثلا ـ شعراء المدينة طبقة ، وشعراء مكة طبقة ، وشعراء الطائف طبقة وهكذا . ـ والقاضى أبو الحسن الجرجانى فى وساطته يشير إلى أثر البيئة والموطن بجوار الطباع والخلق ، فى الشعر لفظا وأسلوبا ـ وابن رشيق فى عمدته ، يرى من حق أهل البادية أن يذكروا الرحيل والماء والجمل والصحراء .. الخ . ومن حق أهل الحاضرة أن يتحدثوا عن الصد والهجران والشراب والندمان والقصور الغناء ... الخ[1] .

وفى العصر الحديث دعا المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل إلى ضرورة دراسة الأدب المصرى مستقلا عن غيره[2] . ولهج الدكتور طه حسين بضرورة دراسة البيئات المختلفة ، مستقلة كل بيئة عن الأخرى ، دون نظر إلى التبعية السياسية ، توصلا لفهم شخصياتها الأدبية ، ويرى أن الفرد من آثار أمته[3] . ـ وتتركز النظرية الإقليمية أخيراً لدى الأستاذ أمين الخولى ، ويتعصب لها ، ويرى وجوب اتباعها وحدها منهجا فى الدراسات الأدبية ، إذا أردنا الكشف عن خصائص الأدب[4] .

وأعتقد أن الدعوة إلى دراسة الأدب ـ ومنه الشعر ـ على أساس الإقليمية أو البيئة ، والربط بينها ، وجدت استجابة كبيرة وقبولا حسنا لدى جمهور الباحثين المحدثين . فقد اتسمت بحوث كثير منهم بالاتجاه إليها واصطناعها ، اصطناعا جزئيا أو كليا ، وفى مدى ضيق أو متسع . بحسب مقتضيات ظروفهم . ومنهم من اتجه إلى دراسة الأدب المصرى . ومنهم من اتجه إلى دراسة غيره .

---

(١) راجع كتاب « مناهج الدراسة الأدبية » للدكتور شكرى فيصل ص ١٠٦ وما بعدها ـ وطبقات ابن سلام مقدمة وص ١٩٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ . والوساطة للجرجانى ص ١٨ تحت عنوان « أثر التحضر فى الشعر » . ـ والعمدة لإبن شيق ص ج ا تحت عنوان « باب المبدأ والخروج والنهاية » .

(٢) راجع كتابه « ثورة الأدب » .

(٣) راجع كتابه الأدب الجاهلى ومقدمته .

(٤) راجع كتابه « إلى الأدب المصرى » .

ومن هؤلاء الأستاذ عمر الدسوقى فى كتابيه « الأدب الحديث» . و « النابغة الذبيانى . والدكتور سيد نوفل فى كتابه « شعر الطبيعة فى الأدب العربى » . والمرحوم الدكتور محمد كامل حسين فى كتابيه « أدبنا العربى فى عصر الولاة » و «أدب مصر الفاطمية » . والدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى كتابها « النيل فى الأدب المصرى » . والدكتور زكى المحاسنى فى كتابه « شعر الحرب فى أدب العرب فى العصر الأموى والعباسى » . والدكتور أحمد الحوفى فى كتابيه « أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى » . و « الحياة العربية فى الشعر الجاهلى » . والدكتور محمد مصطفى هدارة فى كتابه « اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى » . والأستاذ الجليل أحمد الشايب فى كتابه « تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى » . والدكتور شوقى ضيف فى كتابه « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » . والمرحوم الأستاذ عباس العقاد فى كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » .

— ٢ —

البيئـــة :

ونعنى بالبيئة بعامة ، وطن المرء الذى يولد فيه ، وينتسب إليه ، ويدرج بين ربوعه ، ويعيش فى جوه وفوق أرضه وتحت سمائه وبين أهله . فتتفتح عينه على مرائيه ، ويتنبه خاطره على أحداثه ، وينطلق لسانه فيتكلم بلغته ، ويرى فى قومه عادات فيعتادها من صغره ، وتقاليد فيتبعها منذ نعومة أظفاره ، وتعاليم فيسترشد بها ، ودينا فيعتنقه ، وقيما خلقية فيتمسك بها .

ويشب بين أفراد أسرته ، وبين بنى وطنه ، فترتبطه بهم مشاعر كريمة ، تتأصل جذورها فى أعماق نفسه ، وتصله بهم صلات يكونها الإلف والمصلحة المشتركة ، والشعور بضرورة تبادل الحماية ، وبحتمية التعاون ، وبالتجانس النامى فى طيات نفسه ولفائف شعوره .

وهم لا ينفكون عنه ، وهو لا ينفك عنهم ، يجلس فى مجالسهم ، ويمشى فى أسواقهم ، ويطعم من طعامهم ، ويشرب من شرابهم ، ويتزيا بأزيائهم . ويتلهى

بملاهيهم . وينال قسطه من الرزق بين أيديهم ، وحظه من الثقافة والتجربة فى معاهدهم ، بمقدار ما تتيحه له ظروفه وظروفهم ، وبمقدار ما يسنح لهم من الثقافة المحلية أو الوافدة .

وهكذا ينشأ المرء فى هذا الوطن ، الذى فيه ولد أو نما أو جرب ، وتعلم واختبر ، ولاحظ وأفاد ، ورزق وعمل ، وشارك ونافس . ومعارفه الأولى منه ، ومشاعره الأصيلة عنه .

هذا الوطن أو المنشأ ، هو الذى نعنيه بالبيئة الكبرى . وهو ـ كما ترى ـ مجتمع ألوان من الحياة ، ومشتبك أنواع من المقومات الإنسانية ، كبيرة العدد ، ذات أثر بالغ فى حياة المرء ونفسيته ، وفى تفكيره وشخصيته ، وفى سلوكه ونتاجه .

ومن هنا تنشأ أهمية هذه البيئة بالنسبة للفرد . فهى ذات أثر فعال فى تكوين خلقه وتوجيه أفعاله وإنشاء عاداته ، ورسم طريق تفكيره . وهذه أمور تعيش وراء النتاج الأدبى الصحيح ، وهى دعائمه الأولى وحوافزه الكامنة .

ومن هنا أيضا تنشأ أهميتها بالنسبة لحياة الجماعة البشرية كلها ، التى تعيش مع هذا الفرد فى وطنه . فإن آثارها فيه وفيها ، آثار مشتركة غالبا . وتدل فى نتائجها ـ عادة ـ على روح هذه الجماعة دون غيرها ، وتتكلم عن إرادتها دون سواها .

ودراسة مجموع نتاج أفراد هذه الجماعة ، فى الأدب مثلا ، تؤدى إلى فهم روحها وإرادتها ، ومن ثم إلى معرفة شخصيتها وإلى تقديرها . وهذه المعرفة من أهم أهداف البحوث الأدبية .

والفرد ـ إلا ما شذ ـ هو فى جملة سلوكه واحد من هذه الجماعة التى يعيش فيها ، وشريك لها ـ غالبا ـ فى أحاسيسها وفى عواطفها وتفكيرها وأهدافها . وبذلك فهو يدل بجملة سلوكه عليها ، ويشير بنتاجه إليها نتيجة للمشاركة الوجدانية

الضرورية ، التى تدفع إلى سرعة الاستجابة بحافز من المتابعة الغريزية ، ونتيجة أيضاً لشعور الفرد بأنه عضو فى هذه الجماعة التى ينتمى إليها(١) .

وتتشعب عوامل البيئة المؤثرة فى الإنسان ـ الشاعر مثلا ـ والموجهة له ، تشعباً كبيراً . فمنها طبيعة بلاده ، وأحداث السياسة ووقائع التاريخ فيها ، والديانات المنتشرة بها ، وأحوالها الاقتصادية التى تتحكم فيها ، والألوان الثقافية التى تتلقاها ، والمستوى الحضارى الذى بلغته ، إلى غير ذلك .

ولما كان من العسير . الإلمام الشامل بجميع هذه العوامل والمؤثرات ، وبيان عملها وآثارها فى اتجاه الشعراء . وتفصيل النتاج الشعرى المستجيب لهذا الاتجاه ، قصرنا الدراسة على أربعة عوامل بيئية رئيسية ، نعتقد أنها جماع العوامل كلها . وهى العامل الطبيعى ، والسياسى ، والثقافى ، والاجتماعى . وتوسعنا فى مفهوم « العامل » . واعتبرناه « بيئة » مستقلة . ولهذا تحدثنا عن البيئة الطبيعية فالسياسية فالثقافية فالاجتماعية .

والبيئة الطبيعية:

نعنى بها ما يتصل بموطن الشاعر من شكل أرضه ومناخه وموقعه . أرضه وما فيها من علو أو انخفاض وجبل وسهل وصحراء وماء ، وخصب وجدب ، وزرع وضرع . ومناخه وماله من تطرف أو اعتدال ، ورطوبة أو جفاف ، وريح ونسيم ، وما يعرض فيه من صفاء وعبوسة ، ومن رعد وبرق ، ومن سحاب ومطر . وموقعه ومدى صلته بمواقع غيره من الأوطان ، وماله من أهميته فى التجارة أو الحرب مثلا ، وما يحف به من بحار أو بحيرات ، وما يحده من جبال أو أنهار أو صحراوات إلى غير ذلك .

---

(١) راجع كتاب « كيف يعمل العقل » لسرل برت تعريب الأستاذ محمد خلف الله ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨

وهذه البيئة الطبيعية وما يتصل بها من الموقع الجغرافى ، كانت ، ومازال ، صاحبة التكييف الأول المبكر لنفسية الأديب وطريقة تفكيره وتفسيره للحياة من حوله ، وحله لمعضلاتها ، لأن الأديب قصاراه — ولا سيما قبل أن يتعمق فى الثقافة — أن يعرف حقائق الكون من أجزاء بيئته التى يتنفس فيها ، ومن محتوياتها . وتتأثر نفسه بعواملها البارزة لحواسه . كما تتربى عاطفته وتثور ، وتتكون عاداته وأخلاقه ، لأول مرة ، فى أحضان هذه البيئة ، نتيجة لما تخلفه فيه مظاهرها ، وتبعثه فى أعماقه وباطنه . وهذه أهم دعائم أدبه وحوافزه . ومن هنا كان للبيئة الطبيعية آثار قوية مبكرة فى تكوين خصائص أدبه .

ومع اعترافنا بأن البيئة الطبيعية ليست وحدها صاحبة جميع الآثار المكونة لأمزجة شعوبها وطبائعهم ، نذكر ـ على سبيل المثال ـ أن حياة الصحراء الشاسعة الواسعة ، التى لاتحجب الأبصار فيها هضاب ولا مرتفعات ، وتتراءى سماؤها صحوا صافية ، تتألق نجومها وتتلألأ كواكبها . ويجابه فيها ساكنها وجه الطبيعة مكشوفا واضحاً فسيحاً ، تبعث فكره حراً ، وتنطق لسانه طلقا ، وتعوده الشجاعة والصبر لما فيها من المشاق ، وتحبب إليه الكرم لما يعتورها من الجدب .

والبيئة الزراعية الغنية بنباتها الزاهر وزرعها المثمر وشجرها الظليل ، تدعو إلى القناعة والتسامح ، وفيها تصفو النفوس وتتضح الضمائر ، ويزيد الإيثار . وهى ترغب فى الإيواء والمعونة ، وتعود الرضا والموادعة والاتكال ، بل ربما أماتت فى بعض النفوس حوافز الكفاح(١) .

وحياة البلاد الجبلية التى تحد فيها الأبصار ، وتحسر الأنظار ، وتتعرج الممرات ، وتضيق الطرقات ، ويكثر الوعر ، ويشق السير ، تدعو إلى اليقظة والحذر ، وإلى

---

(١) راجع «النابغة الذبيانى» الدسوقى للأستاذ عمر ، مقال ٢ تحت عنوان «الصحراء» .

الحيلة والترقب . وتدفع إلى التوجس والالتواء والغموض ، وقلة الكلام وكثرة العمل .

وهكذا ترى أن البيئة الطبيعية ذات آثار هامة فى تكوين أمزجة الشعوب وطبائعها ـ وإن لم تكن وحدها ـ وبذلك يختلف شعب عن غيره ، ويفترق قوم عن قوم آخرين . وبذلك أيضا يختلف أدب عن أدب .

ويقول « سرل برت » ، بعد أن تحدث عن الفوارق بين الشعوب بسبب اختلاف الجنس :

« إذا أردنا فروقا بينة بين قوم وآخرين ، فلنبحث عنها فى الطبع والمزاج . وهنا لا نجد مقاييس علمية نستعين بها ولكننا نعتمد على الملاحظة وما تكونه من فكرة عامة . وهما دليلان غير مأمونين . وعلى هذا فلنرجع إلى ثلاثة الأجناس الأوربية العظيمة .

إن السائح الإنجليزى لتبدو له هذه الفروق المزاجية واضحة رائعة . فأولئك الأجناس الجنوبيون ذوو الشعر الأسود ، قوم سريعو التأثر ، محبون للاجتماع كثيرو الكلام قليلو التريث ، مندفعون ، يفيضون حركة وحسن بديهة . وهم — بدورهم — إذا وصلوا إلى انجلترا ، قالوا إنه يخيل إليهم أنهم أتوا إلى شعب من التماثيل الشمعية . فالشمالى ذو الشعر الأصهب يبدو لهم مخلوقا أبكم بلغمى المزاج مستقلا متحفظا . والمادح الراضى — بالطبع — يصفنا بأننا رجال عمل أقوياء صامتون إلى حد ما . فإذا ما استثيرت نفوسنا ، صدرت عنا أعمال قوية عظيمة .

وإذا عبرنا عن هذه التفرقة فى لغة علماء النفس الحديثين ، قلنا إن الجنوبى منبسط ، والشمالى منطو أو منقبض . فالأول يظهر مابباطنه ، ميالا للتفتح سريع الإجابة للعالم الخارجى . والثانى يكبت انفعالاته ويبدو مشغولا بنفسه ، مركزا تفكيره فيها »(٢).

---

(٢) راجع « كيف تعمل العقل » لسرل برت » تعريب الأستاذ محمد خلف الله ص ١٦٥، ١٦٦.

ويوضح سرل برت حديثه أيضا ببيان صدى هذه الأمزجة أو الطبائع ، فى النتاج الفنى ، فيقول :

« وفنون الرسم والبناء والشعر والموسيقا ، تميل — فى كلتا وإيطاليا وفرنسا ـ نحو النوع الكلاسيكى . أما فى ألمانيا وانجلترا ، فتغلب على هذه الفنون الناحية الرومانسية . ففنون المجموعة الأولى شكلية عقلية ذات تقاليد ، تعبر عن نفسها فى وضوح واتزان وهدوء . أما الثانية فجامحة غير متزنة ، تقوم على التأمل الباطنى ، وتتدفق فى ثورة ومبالغة . وفن الأولى فن عام . فن قوم يعبرون عن شعورهم لغيرهم فى طلاقة وصراحة . أما فن الثانية فخاص فروى متصوف متمرد — وأحيانا فى غير نظام — على القيود الاجتماعية وفن إيطاليا صاف مشمس كمناخها . ولكن فن الشمال مثل جو الشمال ، معتم متقلب . والواقع أن الكثيرين يعتقدون أن جو الممالك المختلفة ومناخها ، مسئول عن أمزجتها وطباعها »[1] .

ويذكر سرل برت أن « بكل » فى كتابه « تاريخ الحضارة » أرجع الفروق بين الأجناس إلى البيئة الطبيعية . ويرى أن الأسكتلنديين أشداء نشيطون ، لأنهم يعيشون فى الجبال ، وأن الزنوج كسالى مبذرون ، لأنهم يسكنون المناطق الحارة الوفيرة الخيرات (٢)

ولا نغلو إذا قلنا إن الأديب والشاعر . معجمه الأول بما فيه من مفردات وتراكيب ، وما يحمله من تصورات وأخيلة وتشبيهات ، وما يدور حوله من موضوعات « منتزع من هذه البيئة ، وضرب من ضروب وحيها . وإن أدبه المبكر انعكاس لمفردات بيئته وأساليبها وموضوعاتها كما بدت فى مرآة نفسه . نعتقد أن هذه مسائل احتلت مكانها من البدهيات .

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧ (٢) المصدر السابق ص ١٧٠

وإنك لترى — مثلا — ساكن الصحراء يكثر فى حديثه — أو أدبه — من ذكر البيد والرمال والحرار والقفار والحصى والسماء والنجوم والأسود والذئاب والإبل والخيل والماشية ، والرحيل والخيام والأطناب . . . إلى غير ذلك وتشغله موضوعاتها ، وينتزع تشبيهاته وأخيلته من صفاتها وحركاتها وأعمالها .

وعلى هذا الغرار ، ترى ساكن الشواطىء يكثر من ذكر البحار والأمواج والاصطخاب والسفائن والأسماك والصيد والشباك . وساكن الحقل تدور فى أحاديثه الساقية والناعورة ، ويجرى الماء والرى والنهر والجدول والغدير ، ويبدو النبت والشجر والورق والثمر . . . إلخ

والبيئة السياسية :

هى ما يكتنف الوطن من عوامل السياسة الداخلية والخارجية ، وارتباطاته بغيره من الأوطان . وما يتصل بذلك كله من أحداث ووقائع وأخبار وصلات. ترمى كلها نحو تقرير أحوال الوطن فى حاضره وفى مستقبله ، وإلى تحقيق أهدافه فيها من ناحية حكمه وعلاقاته بغيره .

ولكل وطن فى داخل أسواره نظم للحكم قائمة ، وأشكال وأوضاع رئيسية مقررة ، تتناول هيئة الحكومة التى تشكل عليها وعلاقاتها بالشعب . سواء أكانت مكتوبة مسطورة ، أم جرى بها العرف وحفظتها التقاليد .

وهذه النظم والأوضاع ، هى مناط النظر السياسى فى داخل الوطن ، ومجال الرأى والتدبر بين أبنائه . وقد ينجم الخلاف ويشتد الجدل حول طوائف الشعب بعضها وبعض ، أو بينها وبين حكامها المتملكين زمام الأمور فيها . وقد يفترقون فرقاً تتنافس ويناهض بعضها بعضاً . ويندفع كل منهم بحسب نيته وطويته ، ويسعى إلى هدفه ، سواء أكان هذا الهدف هو وصوله إلى الحكم والقبض على ناصية الأمور ، ليصرفها بحسب رأيه وهواه ، أم كان رغبة فى إقرار نظام معين .

وقد يصل الأمر بينهم إلى الكيد والائتمار ، وإلى بذل الحيلة وجمع الأتباع واصطناع الأنصار ، وإلى التأويل والافتراء ، بل وإلى شن الحروب الأهلية .

وقد يسالم الشعب ويهادن حكامه . وقد يستسلم ويضعف ويكبت ويسكت . ويترك الأمور فى يد حاكم ظالم أو ملك مستبد ، أو متغلب غشوم ، يستأثر دونه بالرأى والقوة والمال والجاه ، ويصطنع معه من مفاليك الأتباع من يسلطهم على الشعب بسياطه ، ولا تعنيه إقامة عدل ولا دفع مظلمة ، ولا بناء مرفق ، ولا سعى تقدم ولا نشر لرخاء ، ولا جمع لكلمة ، ولا إحقاق لحق .

وقد لا يسالم الشعب ولا يهادن ، بل يتكتل أمام الخطر الجاثم فى داخل الوطن ، والرابض فوق قلبه لا يريم ، ولا يدعه يتنفس . فيتلاءم أبناؤه ، ويتعاون رجاله ، وتتآلف صفوفه ، ويقفز من بينهم من يرشحه القدر إلى مكان القيادة ، فيجمع الكلمة ويوحد الصف ويقوى الجبهة ، ويقود الكتيبة ، ليصل إلى الهدف.

ولكل وطن أيضاً أهداف سياسية خارج حدوده ، تتناول فيما تتناوله ، صلة الوطن بغيره من الأوطان قريبها وبعيدها . ولإقرار هذه الصلات : توفد الوفود ، ويرسل القصاد والسفراء ، وتبعث الرسائل ، وتهدى الهدايا ، وتقدم المعونات ، وتقام المؤتمرات ، للوصول إلى الأهداف أيضاً .

وترتبط هذه الأهداف بمشيئة الشعب أو بمشيئة حكامه . وتحرك هى ، أو تحركها ، رغبة فى فتح وغزو ، أو رحلة إلى كشف وإصلاح ، أو سعى إلى تأديب وردع ، أو نهوض إلى دفع عدو ودرء خطر ، أو مكافحة لمستعمر وطامع ، أو استجابة لنداء صديق ، أو استغاثة حليف .

لذلك كله ، تدبر الأموال ، وتفرض الضرائب ، ويجمع السلاح ، وتخزن الذخيرة ، ويعلم الجند ، وتكتب الكتائب ، وتجيش الجيوش ، وتدبر الخطط ، ويبذل الرأى ، وتعمل الحيلة ، وتشن الحروب الخارجية .

وترتبط السياسة الخارجية للوطن ، بسياسته الداخلية ارتباطا وثيقاً . وكل منهما ذات أثر بعيد فى الأخرى .

فى هذا المدار وما يتصل به ، يعيش الشاعر ، فيتصل إحساسه بما يجرى فيه . وما هو إلا أحد أفراد مجتمعه ، وهو عضو من أعضائه ، يحيا معه وسط أحداثه السياسية ، ويصيبه منها عادة ما يصيب سواه . ولا بد أن يكون لذلك صداه فى شعره . فيسجل أو يصف أو يحرض أو ينقم أو يثور أو نحو ذلك .

والبيئة الثقافية :

هى الوسط التعليمى ، والظروف التهذيبية التى نشأ فيها الأدباء ، وتأثروا بها ، والنظم التى ساروا عليها وأخذوا بها فى دراساتهم ، ونوع الدروس التى تلقوها والتى ازدادوا بها علماً ، وازدادت عقولهم بها نمواً وتهذيباً . والأساتذة الذين تلقوا عنهم ، والعلوم التى برع فيها أو تخصص هؤلاء الأساتذة ، وما يتصل بذلك من دور كتب ، ووسائل تشجيع للعلماء والطلاب على السواء . هذا إلى ثقافة النظراء المعاصرين والأنداد المنافسين .

وهذه البيئة ذات أثر بالغ فى الأدباء كتاباً وشعراء . فإذا كانت البيئة الطبيعية أو الاجتماعية مثلا — تزود الأديب بالغذاء الروحى والعاطفى ، فإن البيئة الثقافية تزبدعليهما مده بالغذاء الفكرى وخيال الشاعر إنما يصرفه قائدان هما العاطفة والفكر .

وكلما كان كل منهما على مقدار واسع من القوة والدقة والعمق ، قيضا للخيال مسرحا فسيحاً يجول فى أرجائه ، فتطفر إلى صفحته صور يبتكر ويبدع فيها ، ما شاءت له قدرته وبراعته . ثم ينفثها على اللسان فيوحى بألوان من الحكمة وضروب من البيان ، جملا مطربة وصوراً معجبة .

ويقرر بعض المفكرين أن الناس جميعاً متساوون فى الذكاء ، وأن مواهبهم الكامنة لا تحتاج فى تنبيهها وإيقاظها إلا إلى شيء من التربية (١) .

والتجارب المتكررة على الأفراد والشعوب ، تحقق صدق هذه النظرية إلى حد بعيد ، وتبرهن على أن عامل الثقافة قد يرجح عوامل البيئات الأخرى ، الجغرافية وغيرها ، فى تكوين النفسية والعقلية معا . ومن ثم فى تكوين النتاج الأدبى . فكثير من الأمم عاشت تحت خصائص الجنس وسلطان البيئة الطبيعية ، وما نشأ فى مجتمعها من عادات وتقاليد ، انتقلت ـ أو تنتقل ـ إلى حالة جديدة من النفسية والعقلية ، بتأثير ما طرأ عليها أو نضج فيها من ألوان الثقافة ، وأنها بسببها تحولت ـ أو تتحول ـ شخصيتها إلى شخصية جديدة ، ذات دعائم ومقومات جديدة .

وكذلك نستطيع القول عن الفرد . فبعض زنوج إفريقية يعلمون فى بعض البلاد الأوروبية ، ويقيمون فى تلك البلاد ردحا طويلا ، ويثقفون بثقافها ويتعلمون علوم أهلها ، فغدا بعضهم وهو لا يفترق عن زميله الأوربى فى عقليته ، فضلا عن عادته وعاطفته(٢) .

ويشير الأستاذ العقاد ـ رحمه الله تعالى ـ إلى ضرورة دراسة بيئات الشعراء تيسيراً لنقدهم . ويشيد بأثر البيئة الثقافية . ويبدو أنه ينسب إليها أكثر عوامل الأدب والمؤثرات فيه . فيقول ، وهو يتحدث عن مصر الحديثة :

« ومعرفة البيئة ضرورية فى نقد كل شعر ، فى كل أمة ، فى كل جيل . ولكنها ألزم فى مصر على التخصيص ، وألزم من ذلك فى جيلها الماضى على الأخص . لأن مصر قد اشتملت منذ بداية الجيل إلى نهايته على بيئات مختلفات،

---

(١) كيف يعمل العقل ص ١٩٠

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٠ وما بعدها .

لا تجمع بينها صلة من صلات الثقافة غير اللغة العربية ، التى كانت لغة الكاتبين والناظمين جميعاً . وهى حتى فى هذه الجامعة ، لم تكن على نسق واحد ، ولا على مرتبة واحدة ، لاختلاف درجة التعليم فى أنحائها وطوائفها . بل لاختلاف نوع التعليم بين من نشئوا على الدروس الدينية ، ومن نشئوا على الدروس العصرية ، واختلافه بين هؤلاء جميعاً ، وبين من أخذوا بنصيب من هذا وذاك [١]

ويقول أستاذنا المرحوم محمد عبد المطلب ، عن صلة ثقافة الشاعر بثقافة معاصريه وارتباطها بها وأثرها فيها :

« درجة كل امرىء فى عقله تابعة لطبقته وأبناء عصره . فإن كانوا ذوى ألباب كان ذالب وإن كانوا جهالا كان من الجهال . ثم هو فى تأثره بهم واستمداده، إما أن يكون فى عامة حاله ، بحيث ترتفع تصوراته ومداركه ، فتراه واسع الفكر سامى الإدراك ، صادق النظر ، بعيداً عن سفساف الجهالة ، فى الكلام وغير الكلام . وربما اختط لنفسه طريقاً مستقلا به ، ومنزعا ينفرد فيه ، حتى إنه ليخيل إليك أنه أمة وحده ، لايستمد من أحد ، على حين أنهم ينبوع عقله ومدد بحره . وإما أن يستمد ممن حوله فى نحو خاص من أنحاء القول والعمل ، ثم يتفرغ له حتى يصير كأنه من عند نفسه لما تصرف فيه .

والشاعر فرد من هؤلاء الأفذاذ . فتأثره بغيره من أهل طبقته أو ممن قبلهم ، إما أن يكون فى تكوين ملكته وتربية عقله ، والنهوض من درك الجهالة إلى شرف العرفان . وقد لا ترى فيه من الأثر أكثر من هذا .

وإما أن يكون فى نهج معين كأن يتبع شاعراً فى طريقته وينسج على منواله ، كما فعل ابن أبى ربيعة فى تقليده امرأ القيس . والغالب فى الشعراء أن يجمعوا بين الحالين » [٢].

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٣ ، للمرحوم الأستاذ العقاد .

(٢) الأدب العربى وتاريخه الجاهلى لمحمد عبد المطلب ص ١٧٤ ، ١٧٥

هذا ، وسترى أن شعراء مصر الحديثة ، انقسموا أنواعاً ومدارس ، اختلفت اتجاهاتها . بسبب اختلافهم الثقافى . وسنشير إلى ذلك فى فصل « التمهيد » .

ومهما يكن من أمر ، فالثقافة لها خطر كبير فى تكوين الشاعر وتوجيهه . ولا نقول إنها وحدها المنفردة بتوجيهه والتأثير فيه . ولا ريب أن الثقافة الواسعة الأفق ، تنتج أدبا واسع المدى ، يبدو فيها العقل الحصيف والذوق اللطيف ، والنظر الثاقب والرأى الصائب ، والذهن المتفق المبتكر ، والتصور الدقيق .

إلا أن الثقافة العلمية ، إذا أخذت بتلابيب الشاعر ، وتشبثت بفكره ، واستأثرت بعقله ، استغرقت حواسه واستهلكت الكثير من عاطفته وخياله . وأرسلته خلف الحقائق يتتبعها وحدها ، يجمعها ويحللها ، ويختبرها ويعللها . وبدا ـ لذلك ـ أدبه ذا قيمة خطيرة فى عالم الفكر ، ولكن تزايله السماحة والظرف ، والرقة واللطف ، وتغيض عنه البشاشة أو تكاد . ذلك لأنها قللت من عمل العقل الباطن الذى هو جماع وجداناته ومنبع فنه .

والبيئة الثقافية تزود اللسان باللغة وأدواتها ووسائلها الصحيحة ، فتكسب الشاعر مقدرة على التعبير بما تضعه أمام عينيه من نماذجها . وهى توضح له ما خفى عليه من أسرار بيان لغته . وتضع بين يديه حقائق الكون وحوادث التاريخ ، فيجد فيها وفى غيرها ، مدداً لأدبه لا ينضب .

ولذا كثيراً ما يدل الأدب ، لا بما فيه من أفكار وآراء فحسب ، بل بما فيه من معان جزئية وطرق تصوير ، على ما تعيه ذاكرة الأديب من الحقائق والمعارف .

والبيئة الاجتماعية :

قد تكون بعواملها الهامة المتعددة ، أقرب البيئات إلى نفس الشاعر . وقد تكون أوسعها أثراً فى توجيهه ونتاجه . كما أنها البيئة التى تنصهر فيها عوامل كثيرة

من عوامل البيئات الأخرى ، فتتصل بعواملها ، ويتكون من الجميع عوامل مشتركة أو موحدة ، يكون لها فى مجموعها ، أوضح الآثار .

وهى البيئة الشعبية الفسيحة التى تتجلى للشاعر فيها أحاسيس الشعب ومشاعر طبقاته . وتتكشف له فيها نفسيات الأفراد وتتشابك وتتهادف . وفى غمارها يستطيع الشاعر أن يتبطن الأمور ، ويتعمق المشاعر ، ويعلل التصرفات ويحلل الشخصيات .

وتتشعب مكونات هذه البيئة تشعبات لا حد لها . فهى تتناول النظم الإدارية المستقرة المطردة فى الدولة ودواوينها ، وتقاليدها المرعية فى مواكب الحكام وحفلاتهم واستقبالاتهم وزيارة أضيافهم . وتتصل بطبقات الشعب وطبيعة كل طبقة، وصلة كل منها بالأخرى ، وبالروابط التى تربطها وبمدى التعاطف والمودة بينها ، وبسريان روح التعاون بين أفرادها ، وشعور كل منهم بواجبه نحو مجتمعه ، ونهوضه إلى أدائه .

وتتعلق بالناحية الاقتصادية ودخل الدولة ومرتزق الأفراد وصناعاتهم وتجاراتهم وحرفهم ووسائل تعايشهم ، وآلامهم وطريقتهم فى التنفيس عنها ، وآمالهم وحيلهم فى بلوغها ، وعلاقاتهم العامة وصلاتهم الخاصة ونظام أسرهم ، ومدى نظر الرجل إلى المرأة ، والمرأة إلى الرجل ، وهما عماد الأسرة .

وتتعلق أيضاً بنهوض الدولة والجماعات والأفراد ، أو تراخيهم فى إنشاء المرافق العامة من أبنية وعمائر وجداول ومصارف ومساجد ومنازه . . إلى غير ذلك .

وتتصل بالمستوى الثقافى والحضارى الذى بلغته الأمة ، وطريقتها وألوانها وأهدافها فى كل ماتتعاطاه من شعاراتها وملابسها ومطاعمها ومشاربها ، واتصالاتها وزياراتها وتعارفها ومودتها وتزاوجها وتناسلها وأفراحها ومآتمها . ومدى ما يشيع بينها من عادات وقيم خلقية وفضائل تتمسك بها ، أو مجونيات ومباذل ومفاسد تأنس لها وتستروح إلى تعاطيها .

هذا ، إلى ما يعترى هذه البيئة من حوادث ووقائع عامة ، تمس شغاف القلوب وتتصل بمواطن الإحساس عند كل فرد ، فضلا عند الأديب . فيألم لنفسه ولقومه أو يفرح ويسر . وذلك كحوادث الجدب والقحط والغلاء النازل ، والوباء المتفشى ، والزلازل المدمرة ، والهزائم الفاجعة . وكنمو الثروة وزيادة الدخل وكثرة المحصول واطراد الرخاء ، والنصر والظفر بالعدو ، وسلامة الوطن ، إلى غير ذلك .

ويرجع بعض الباحثين الفروق بين الشعوب فى المزاج والطبائع ، وما يصدر عنهما ، إلى العادات والتقاليد .

ويقول سرل برت :

« إن العلة الأساسية فى الفروق بين الشعوب إنما هى العادات والتقاليد التى تتوارث من الماضى على مر العصور . فتشكل جيلا بعد جيل ، بوساطة المنزل والمدرسة والأدب القومى وكل العوامل الدقيقة فى الحياة اليومية (١) » .

ويقول :

« الآن أظن أن النقطة التى نستطيع التسليم بها هى أنه لا الجنس وحده ، ولا البيئة الجغرافية وحدها ، بمستطيعة تعليل التفاوت البين بين المدنيات المتعاقبة . فيكفى أن نتذكر كيف غلبت اللغة والعوائد الرومانية على نصف ممالك أوربا ، لنرى كيف تنتشر خصائص الشعب الواحد ، وراء الجنس أو البقعة التى أنبتتها(٢) » .

ويقول أيضا :

« وعلى هذا فالفروق الموجودة بين الممالك الآن تعتمد فى أساسها على هذه العناصر التى ترجع إلى التقاليد . فإذا ما أخذ شعب ما ، مدنية جزء من أقاصى العالم ،

---

(١) كيف يعمل العقل ص ١٦٩ (٢) المصدر نفسه ص ١٧٠

كما أخذ اليابانيون مثلا ثقافة الغرب وأمريكا — استطاع ، ولو فى الظاهر ، أن يغير خصائصه تغييرا كليا »(١) .

ويقول أيضا :

« إن العرف والأنظمة والعادات التى يتخذها قوم ما — لأنها تنبعث من طبعهم الأساسى أو تلائمه — تأخذ هى بدورها فى التأثير على ذلك الطبع وتقويته ودعمه عن طريق التقاليد المتجمعة . وأخيراً عندما يشعر الشعب بوجوده ، يبدأ فى تحديد أغراضه الخاصة به والتحدث عنها . وبهذا المعنى يصبح العقل القومى واعيا وشاعرا بنفسه معا »(٢) .

ونقول إن تعبير الشعب عن طريق شعره « من أصدق الوسائل للدلالة عليه .

والخلاصة :

أننا — فى الحق — نرى أن لكل بيئة من ألوان البيئة الكبرى ، آثارا فى تكوين الشاعر وأخلاقه وعاداته ، ونفسيته وعقليته . بل وفى خياله وعقله الباطن . ولا نستطيع بطريقة حاسمة قاطعة أن نحدد أثر أى البيئات فى فكرة أو تجربة وجدانية ، أو عمل أدبى . ولعل إحدى البيئات أشد أثراً وأوضح ، ولكنها ليست وحدها صاحبة الأثر كله .

وليس معنى ذلك أيضا أن ننكر لخصائص الفرد ومواهبه الفطرية ، واكتساباته من غير بيئته . بل نعترف بها وبآثارها وبتفاعلها مع آثار بيئته ، وإن لم يستعص علينا إرجاعها إليها . فإن الفنان من حيث ذكاؤه العام ، ومن حيث موهبته الخاصة ، رجل مزود بهبات فطرية نادرة . غير أن الفرق فى الدرجة لا فى النوع . فالمقدرة على خلق العمل الفنى — كالمقدرة على تذوقه — لا تتوقف

(٢،١) — كيف يعمل العقل ص ١٧٢ ، ١٧٣ ! على الترتيب .

على ملكة إضافية منعزلة عن مجرى حياتنا اليومية ، وهى فى درجاتها العليا ليست إلا إحدى ثمرات الحياة العقلية الطبيعية »[1] .

— ٣ —

وشعر مصر فى عصر سلاطين المماليك ـ وهو موضوع البحث ـ نعتقد أنه نتاج ضخم ، وآلاف مؤلفة من الأبيات والمقطوعات والقصائد القصيرة والطويلة ، طرق بها شعراؤها كل باب ، ونظموها فى شتى الفنون والأغراض — كما سترى — . ولبوا بها كثيرا من نداءات البيئة .

ونعتقد أن الموجود منه بين أيدينا قليل من كثير ، وسهم من جعبة . وأن كثيراً منه عبثت به أيدى الضياع والنسيان . ومنه ما فقد ، ومنه ما حمل ونقل وسرق . وفى سير كثير من الشعراء ما ينبىء بأن لهم دواوين مليئة فياضة ، وأنها تتكون من كذا مجلدا . ولكننا لا نجد لها أثراً . وذلك كالسراج الوراق وأبى الحسين الجزار .

والبقية الباقية من هذا الشعر — تتراءى فى بعض الدواوين المطبوعة كديوان ابن نباتة المصرى ، وصفى الدين الحلى ـ وإن لم يكن من صميم شعراء مصر ـ وتتراءى فى بعض الدواوين المخطوطة كديوان ابن حجر العسقلانى وبرهان الدين القيراطى وتقى الدين بن حجة الحموى - وتتراءى فى بعض المجاميع وكتب المختارات الشعرية كالتذكرة الصفدية وألحان السواجع ـ كلاهما لصلاح الدين الصفدى ، وكتأهيل الغريب لتقى الدين بن حجة الحموى . وهذه المجاميع لا تزال مخطوطة — وتتراءى فى خلال بعض كتب التاريخ والتقويم وموسوعاتهما كخطط المقريزى وسلوكه والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى ، ونهاية الأرب للنويرى ، وبدائع الزهور لابن إياس الحنفى . وأكثر هذه الموسوعات مطبوع — وتتراءى أيضاً بين

(١) كيف يعمل العقل ص ٢١٣ .

سطور بعض المؤلفات الأدبية أو العلمية الأخرى ، كحسن المحاضرة للجلال السيوطي وهو مطبوع - وكخزانة الأدب وثمرات الأوراق، وكلاهما للتقي بن حجة وهما مطبوعان . ومثل كوكب الروضة للجلال السيوطي ، وهو مخطوط . إلى غير ذلك مما تراه فى مراجع البحث .

وهذه البقية هى التى اعتمدنا عليها فى بحثنا هذا ، واستمددنا منها النصوص . ونحن ، وإن وصلنا ، اعتمادا عليها إلى أحكام أدبية ، نعتقد أيضا أنه لو أعيدت الدواوين الشعرية المغتربة ، وعثر على المفقود من دواوين الشعراء ، وجمع شعر هذه الفترة جمعاً أدنى إلى الدقة والضبط والتحقيق والملاءمة ، لعاون ذلك كله على إعادة الدراسة من جديد للوصول إلى أحكام أكثر صوابا وأصح تعليلا ، وأقدر على إبراز معالم الشخصية الشاعرة ، ومن ثم خصائص الشخصية المصرية .

وكل هذه دراسات ضرورية جداً ، لسد الثغرات الواضحة فى تاريخ مصر وتاريخ عقلية شعبها ونفسيته وإبراز خصائصه المميزة له .

وعصر سلاطين المماليك فى مقدمة فترات التاريخ المصرى الطويل ، التى يرمى فيها شعب مصر بالجمود والخمول ، وبقناعته فى أدبه بالتقليد والمحاكاة والركون إلى الصناعة اللفظية ولهذا هو فى حاجة قصوى إلى الدراسة وإلى معاودة الدراسة ، حتى نصل بالدليل القاطع الحاسم إلى الحكم له أو عليه .

من أجل ذلك رصدت هذه الموسوعة كلها ، لمحاولة إبراز معالم هذا العصر ، فى شتى نواحيه .

والجزء الرابع بمجلديه « السابع والثامن » خصص لدراسة شعره ، على أساس ربطه بالبيئة كما أشرت . وقد بذلت الجهد فى الاطلاع على نصوصه ، وجمع المتماثلات منها فى صعيد واحد ، ودراسة كل مجموعة ، والاستنباط منها ، وإيضاح ما فيها من فكرة أو عاطفة . مع الوقوف عند بعض النصوص الهامة بالشرح

والتحليل والنقد الدقيق وبيان المحاسن أو المساوىء . وذلك بعد دراسة البيئة ، ومع ربطه بها .

وأعتقد أنني بما صنعت ، قد طفت في نواحي العصر باحثا منقبا ، فجلوت غامضا ، وكشفت خبيئا ، وبدا لي شعراء العصر أبناء لمصر بررة ، وألسنة عنها ناطقة معبرة . وأنهم ، على الرغم مما حاق بهم من المثبطات والمعوقات التي من شأنها أن تقعد الهمة وتكبت الخاطرة وتعقل اللسان ، انطلقوا فنطقوا ، وعبروا فصدقوا . وكانوا لمصر صوتا أكد حياتها ، وأبرز شعبها حيا يقظا ، عاش بأفكار وعاش بمشاعر . وأن الأحداث لم تمر به وهو عنها لاه ، وأن الأيام لم تلج بابه ، وهو عنها غافل ، على الرغم مما اصطلح عليه من الأرزاء ، وعاناه من الشقاء .

وبعد هذه المقدمة التي أوضحت فيها أساس منهج البحث وفصلت فيه القول عن البيئة ، وعرفت فيه بعض التعريف بشعر العصر ، عقدت « تمهيدا » للبحث ، في فصل مستقل . جلت فيه جولة كبيرة في أرجاء الأدب العربي ، في بيئات شتى . ووقفت عند كل بيئة منها في دراسة عاجلة موجزة ، أوضحت فيها عواملها وتجاوب الشعر معها . وذلك من باب التمثيل والتدليل على صواب المنهج . وأنه من المستطاع اصطناعه في دراسات أدبية منتجة ، تتناول أية بيئة من بيئات الأدب العربي .

وتكون البحث بعد ذلك من بابين وخاتمة .

والباب الأول : لدراسة البيئات المصرية . وقد أوجزت فيه القول إيجازا مناسبا ، اعتمادا على ماسبق تفصيله من موضوعات في مجلدات هذه الموسوعة . وهو ذو أربعة فصول .

الفصل الأول . في وصف البيئة الطبيعية . وقد عنيت فيه برسم صورة واضحة

تقريبية لطبيعة البلاد المصرية ، كما كانت تتراءى فى عصر المماليك . وقد يبدو لأول وهلة أن طبيعة البلاد وأجزائها ومناظرها ، لا يعتريها التغير على مدى الأعوام والأيام ، إلا بحدث طبيعى خارق ، يغير من وجه الأرض . وهذا حق . غير أننا لحظنا أن ثمة أشياء فى هذه الطبيعة قد تتغير أشكالها ومرائيها على مدى العصور ، لأن يد الإنسان تتدخل فى تغييرها لذلك نشعر أنه من الواجب فى مثل هذا البحث أن نصور طبيعة البلاد - بقدر المستطاع - كما كانت تتراءى للأنظار فى العصر الذى نصف بيئات شعره .

ولذا ، أشرت إلى موقع مصر على البحر المتوسط، وهو البحر الرومى. وعلى البحر الأحمر، وهو بحر القلزم . وأشرت إلى شواطئها ومناخها وتضاريسها وجبالها وبحيراتها وصحراواتها ومجرى النيل فيها ، وما يتصل به من منبع ومصب وفروع وجزر ، وأشرت كذلك إلى ما كان هنالك من حدائق وبساتين ومنازه وخلجان وقناطر وجسور . بل أشرت إلى المدن والجبال والأهرام وأبى الهول .

وهذه المنشآت والآثار ، من صنع العلم والحضارة ، ولكنها تثبت منذ إنشائها أمام العين ، فتراها ماثلة بإطراد ، خالدة مع الزمن ، حتى إنه ليستقر فى النفس أنها جزء لا يتجزأ من طبيعة البلاد .

ولعل بعض ما ذكرت من أجزاء الطبيعة المصرية . لم يتناوله الشعر بالذكر ولا الوصف ، ولم يتجه إليه الشعراء بالحديث . ولكننى اضطررت إلى تسجيله استكمالا لصورة طبيعة مصر ، من شتى زواياها ، ما استطعت وبالقدر المناسب .

وإلى جانب ذلك بينت أهمية الموقع فى الرحلة والتجارة والعلم والغزو وأشرت إلى ما خلفه هذا الموقع بذلك فى شعب مصر من عادات وتقاليد .

وتحدثت عن النيل وبينت أهميته بالنسبة لهذا الشعب ، ومبلغ تعلق الشعب به وتقديره له ، واهتمامه بأنبائه وأنباء فيضانه ومقياسه ووفائه ، وما أورثه ذلك كله من عادات وصفات .

الفصل الثانى : فى وصف البيئة السياسية والواقع أننا فصلنا الحديث عن هذه البيئة فى المجلد الأول من موسوعتنا هذه ، لذلك أوجزنا القول هنا ، وبينا طبيعة تكوين دولتى المماليك البحرية والجركسية وكيفية استيلائهم على الحكم فى مصر بعد الأيوبيين ، وكيف تتابع سلاطينهم على عرشها ، وكونوا جميعا طبقة حاكمة مترفعة . واختصوا أنفسهم بأسباب القوة والغلبة ، وكيف نهضوا بأعباء السياسة والحرب والدفاع عن البلاد ضد الطامعين : وأشرت إلى سياستهم الخارجية ومبلغ ملاءمتها مع رغبات الشعب وأهدافه ، وإلى حروبهم مع التتار والفرنجة الصليبيين ثم العثمانيين ، وإلى أنهم حافظوا على استقلال هذه الرقعة من الوطن العربى الكبير — مصر والشام وحلب والحجاز — وما كان يتبعها . وأشرت إلى موقف الشعب من هذه السياسة .

كذلك تحدثت عن سياستهم الداخلية وعن حرمانهم الشعب كثيرا من حقوقه ، وعن فرضهم الضرائب المرهقة وتوهت بموقف الشعب من ذلك ، وأشرت إلى الفتن الداخلية وثورات العربان التى تعتبر من أبرز المقاومات الشعبية .

ونوهت بمواقف بعض رجال الدين إزاء ظلم الحاكمين ، وكان هؤلاء الرجال — إلى حد كبير — ألسنة الشعب وذادته ، إلى غير ذلك ،

الفصل الثالث : فى وصف البيئة الثقافية ، وقد تحدثت فى المجلدين الثالث والرابع من هذه الموسوعة عن هذه البيئة فى كثير من التفصيل ، لذلك أوجزت هذا القول فيها مبرزا أهم نواحيها .

وقد أوضحت الأسباب التى أدت إلى قيام حركة إحياء علمية بمصر ، جعلتها دارة العلم والأدب بعد العراق ، ومقصدا لطلابهما من مشارق الأرض ومغاربها فى شتى بقاع العرب والمسلمين . وتحدثت عن الحركة التعليمية ومراحلها ونوهت بالمدارس وأهميتها وألوان العلوم بها وأشرت إلى النتاج العلمى والأدبى .

الفصل الرابع : فى وصف البيئة الاجتماعية ، وقد تحدثت فيه عن طبقتى الأمة

وعن كثير من عاداتها وتقاليدها ورسمياتها وشعبياتها . وعن وظائف الدولة وأهمية الخلافة وألوان الوظائف . وأشرت إلى حسنات العصر ومساوئه . وأفصحت عن كثير من مظاهر الترف والبذخ ، وعن ألوان من ملاهى الشعب ومباذله وألعابه إلى غير ذلك .

والباب الثانى : فى بيان أثر هذه البيئات المختلفة فى الشعر ، ومعرفة مدى استجابته لمؤثراتها . وهو — فى الواقع — لباب هذا البحث جميعه وجوهره . وقد عقدت فيه كذلك أربعة فصول متتابعة بحسب تتابع فصول الباب الأول . ثم عقبت على هذه الفصول جميعها ، بفصل خامس لبيان أثر هذه البيئات فى النواحى الفنية للشعر ، فاستقام بذلك فى هذا الباب خمسة فصول .

الفصل الأول منها : فى بيان أثر البيئة الطبيعية المصرية فى الشعر ، وقد قدمته ببيان عن أثر هذه البيئة فى أخلاق المصريين وعاداتهم وتقاليدهم ، وطرق تفكيرهم وتعبيرهم . وأشرت إلى محبة المصريين لبلادهم وتقديسهم لنهرها المبارك نهر النيل العظيم . وتلمست أثر هذه الطبيعة الجميلة الكريمة الحانية فى شعر مصر حينذاك ، فوجدت شعراءها قد تغنوا بها وترنموا بأياديها وأشادوا بفضلها ، لقد ارتبطت بها عواطفهم ، ولهجوا بحب مصر والنيل وتقديسهما ، وأفصحوا عن حبهما بل وعشقهما والوجد بهما والتشوق إليهما . وكما تأثرت حياتهم تأثرا بالغاً بنهر النيل وبفيضانه ونقصانه وطغيانه ، تأثر شعرهم وكان صدى صادقاً لأحوال النيل وفيضانه ووفائه ، ومظهرا لعواطفهم نحوه ولمشاعرهم إليه .

وفى هذا الفصل عرضت الكثير من مقطوعاتهم وقصائدهم فى الحديث عن مصر والتغنى بالنيل ، وفى وصف ربيعيات مصر ومنازهها ومشاهدها المختلفة ، وأشرت إلى ما قالوه فى مقياس النيل ووفائه وكسر سد خليجه ، وما وصفوا به جزيرة الروضة ، وخواطرهم عن الأهرام وأبى الهول .

واخترت فى ذلك كله ، جملة من أشعار جمال الدين بن نباتة ، والزين بن الوردى والصلاح الصفدى ، والشهاب بن فضل الله العمرى ، والعلاء الوداعى . والبرهان القيراطى ، والشهاب المنصورى ، وغيرهم من شعراء مصر . وقد عرضتها عرضاً مرتباً بحسب الموضوعات .

وقد وقفت عند بعض هذه النصوص وقفة أطول ، فيها مزيد من الدراسة والتحليل ، ومن الاستيحاء والتفصيل .

وقفت مثلا عند قصيدة رائية طريفة للشهاب بن حجر العسقلانى الذى ذهب إلى حج بيت الله الحرام ، فلاحقه وهو فى طريقه حب مصر واشتياقه إليها ، فأخذ يتغنى بها ويذكر معاهدها ويشيد بفضلها ويبثها أشواقه إليها .

ووقفت مثلا عند قصيدة فائية جيدة للأديب الشاعر شمس الدين النواجى نظمها عام ٨٥٥ هـ فى وفاء النيل وكان النيل قد شح فى عامه السابق ، فشرقت الأرض وانتشرت الجدب وعم الغلاء وقلق الناس . فلما وفى النيل بعد ، تهللت النفوس وابتهجت القلوب واستبشر الناس وشكروا الله على آلائه . وانطلق النواجى يغرد بذلك تغريد الطير الفرح على فننه ، ويعبر عنه تعبير المبتهل العابد والمسبح الخاشع ، حتى بدت قصيدته الطويلة تسبيحة متبتل ، أو ترنيمة متهلل . وهى وحدها خير رد على من ينكر على شعراء مصر فى هذه الحقبة حبهم للنيل وتقديسهم له وتسجيلهم لفضله وشكرهم لأياديه ، وذلك لانصرافهم عنه إلى الصناعة اللفظية والحلية الأسلوبية .

ووقفت كذلك عند قصيدة « سرحة النيل » للشاعر المصرى اللبق فخر الدين ابن مكانس الذى أثار عشقه وهيامه إحدى سرحات النيل . فنظم فيها سرحيته العصماء التى تغنى فيها بجمالها ومحاسنها تغنى العاشق الوامق والمحب الواله . إلى غير ذلك .

والفصل الثانى : فى بيان أثر البيئة السياسية المصرية فى الشعر . وقد تحدثت

فيه عن مبلغ صلة الشعراء بهذه البيئة ، ومبلغ رعايتها لهم وأشرت إلى أنهم لم يجدوا منها التشجيع الكافى للنهوض بموحياتها ، ولم تعمل على تقريبهم تقريباً يدعوهم إلى الاستجابة لوحيها . وأنهم انقسموا أنواعا ، فمنهم أرباب الوظائف فى ديوان الإنشاء كابن عبد الظاهر والتقى بن حجة . ومنهم أرباب الوظائف فى القضاء والتدريس ونحوهما ، كابن حجر العسقلانى والبهاء السبكى . ومنهم المحترفون حرفا دنيا كالجزارة والوراقة والحمامية كأبى الحسين الجزار والسراج الوراق ومنهم من استنام للشعر والتكسب به كالجمال بن نباتة . وبينت أن هذا التقسيم الذى أدت إليه صلات البيئة السياسية بالشعراء كان له كبير الأثر فى نتاجهم السياسى وأبرزت من باب التمثيل والموازنة موقف كل من الشاعرين محي الدين عبد الظاهر ، وجمال الدين بن نباتة . لقد كان الأول أحد رؤساء ديوان الإنشاء ، فاتصل بحكم وظيفته السياسة ورجالها وحوادثها فترجم عنها وعاش الثانى محروما بعيداً عن مناصب الدولة ، فانصرف عن دنيا السياسة ولم يترجم عنها بشىء من شعره إلا لماما لا يناسب قدره ومنزلته فى الشعر . وأشرت إلى مخاوف الشعراء من بطش الحكام والرؤساء ، وأثر ذلك فى تلوين شعرهم وتوجيهه نحو وصف المعارك والحروب وأدوات القتال ، ممزوجا للسلاطين بالمدح والإطراء ، وللأعداء بالهجو والازدراء . وألمعت إلى اتضاح معالم السياسة العامة والنزعات الشعبية فى شعر الشعراء ، وأنها كانت تتجه نحو حماية الإسلام وبلاد العروبة والمحافظة عليها من أعدائها التتار والصليبيين وغيرهم .

وتتبعت فى إيجاز حوادث التاريخ المصرى من أول العصر إلى آخره تتبعا زمنيا مسلسلا رتيبا ، مشيرا إلى ما كان له منها أهمية وصدى فى الشعر . ووقفت بخاصة عند بعض المعارك الحاسمة وسجلت شيئاً مما قيل فيها من الشعر قصائد ومقطوعات ، مع الدرس والتحليل المفصل ، والمطابقة بين أقوال الشعراء ووقائع السياسة والحرب ، والاتجاهات الشعبية . — ومن باب التمثيل وقفت عند غزو الملك الظاهر بيبرس لبلاد سيس — وهى أرمينية الصغرى أوقيليقية — وفتحها سنة

ستمائة وأربع وستين هجرية . وقد كان يحكمها أمراء الأرمن الذين طالما مالئوا التتار والصليبين . وقد سجل هذا الفتح الشاعر محي الدين بن عبد الظاهر .

ووقفت أيضا عند غزو الملك الظاهر المذكور مدينة ألبيرة التي عبر من أجلها نهر الفرات بجنده فوق خيولهم ، فكان حدثا ساحرا رائعا ، وطلب بها التتار وتتبع فلولهم حتى أبادهم . فثارت حماسة الشعراء لهذا النصر المبين ، وتهللوا لهذه الشجاعة الخارقة ، وسجل الحادث منهم كثيرون كان من بينهم محي الدين بن عبد الظاهر ، وبدر الدين محمد بن يوسف المهمندار والشهاب محمود الحلبي وناصر الدين بن النقيب وموفق الدين الوزان . —

ووقفت أيضا عند غزو الملك المنصور قلاوون مدينة حمص واستيلائه عليها من التتار عام ٦٨٠ هـ . فحمد له هذا الظفر الشاعر محي الدين بن عبد الظاهر ، وابنه علاء الدين بن محي الدين بن عبد الظاهر ، وناصر الدين بن النقيب وغيرهم تخلدوه فى أشعارهم —

ووقفت أيضا عند ذلك الحدث التاريخى الرائع والمعركة الحاسمة فى تاريخ الإسلام والعروبة ، وأعنى بها فتح مدينة عكا واستردادها من يد الصليبيين على يد الملك الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٩٠هـ ، فلم تقم لهم قائمة بعد ، حتى العصر الحديث . وقد سجلها أكثر من شاعر من بينهم ابن ضامن الضبع ، وشهاب الدين الحلبي وشمس الدين بن الصائغ ، وبدر الدين محمد المنبجى البزاز .

وفى عام ٧٠٢هـ فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون وقعت بينه وبين التتار موقعة « مرج الصفر » المشهورة التى قضى فيها جيش مصر قضاء نهائيا على التتار ، ومن بعدها لم تقم لهم أيضا قائمة تذكر نحو مائة عام ، وأزال خطرهم نسبيا عن الوطن العربى . وقد تبارى الشعراء فى وصف المعركة وتسجيل وقائعها والإشادة بأبطالها ومنهم العلاء بن عبدالظاهر والبدر المنبجى . ونظم فيها الشاعر الأديب جمال الدين أبو بكر قاضى عجلون مطولة جيدة تقع فى نحو من مائة وخمسة عشر بيتا . وهكذا .

ولم أغفل على مدى العصر وحوادثه الدور الذى قام الزجل أو الشعر العامى، وقد كان له نشاط ملحوظ فى أبواب الشعر . وسد فراغا أحيانا لم يسده الشعر فى الميدان السياسى . — وكذلك لم أغفل أى لون شعرى آخر له متات بالبيئة السياسية ، ويترجم عن شىء يتصل بها ، ويكون رجعا لحدث من أحداثها وذلك كمراثى الملوك ومدائح الأمراء .

والفصل الثالث : فى بيان أثر البيئة الثقافية المصرية فى الشعر . وقد ألمعت فيه إلى الشعراء العلمـــاء وما أفادوه من الثقافة وأثر ذلك فى شعرهم . وإلى الشعراء الأميين وموقفهم أمام ما فاتهم من الثقافة . ثم إلى الشعراء المثقفين وما كان لهم من فضل فى مجال العلم والأدب والشعر ، متحدثا عن أسباب نشاط الشعر بتأثير من الثقافة ، منوها بأن منها الرغبة فى إظهار العلم والولوع بالبديع وانتعاش النقد الأدبى انتعاشا نسبيا .

ثم أخـــذت فى إيضاح نتائج ذلك فى باب الشعر ، فتحدثت عن نظم العلوم ، وعن الأسئلة والأجوبة العلمية ، وعن الألغاز والأحاجى ، وابتداع البديعيات ، ونظم الحكمة والمثل والنصيحة ، وعن الشعر الفلسفى والمذهبى ، وعن الشعر القصصى والتمثيلى ، وعن الاستجازات والإجازات العلمية والأدبية . وفى كل لون من هذه الألوان ترى روح العصر ورجع البيئة وأثر الثقافة ، كما ترى فى أكثر هذه الألوان نتاجا شعريا واسع المدى غزيرا .

وقد وقفت عند بعض النصوص وقفة أطول وأوسع دراسة وتحليلا ، ومنها على سبيل المثال أرجوزة الشاعر فخر الدين بن مكانس المسماة «اللطائم والأشناف» فتحدثت عنها وعما تحتويه من القصص الحكيمة ومن الأمثال والحكم . ومنها مسرحيات الأديب شمس الدين بن دانيال المسماة « طيف الخيال » ، فتحدثت عن كل مسرحية منها حديثا مناسبا .

والفصل الرابع : فى بيان أثر البيئة الاجتماعية المصرية فى الشعر ، أشرت فيه

إلى تأثر الشعراء البالغ بالبيئة الاجتماعية وعواملها ، على الرغم من عدم تشجيعها لهم ، إذ كانت هناك عوامل اجتماعية أخرى هيئت لهم سبيل القول . وذلك كالعلاقات الشخصية والإيحاء الشخصى ، والرغبة فى النقد الاجتماعى وحب التسلية فى أوقات الفراغ . وأشرت إلى ما انبثق من ذلك كله من ألوان الشعر كالنقد الاجتماعى ، والشعر البديعى ، والإخوانيات وأشعار المجون والمباذل والخمريات والغزل ، وما إلى ذلك .

وتحدثت عن أغراض شعرية أخرى أبرزتها ظروف المجتمع ، كالمديح النبوى وشعر الزهد والتصوف والشكوى وتسجيل الحوادث العامة ووصف أدوات المجتمع .

وفى خلال هذا الحديث وقفت عند بعض النصوص فى كثير من التحليل المفصل المعلل. ومن ذلك قصيدتان لشرف الدين البوصيرى الأولى فى نقد مستخدمى دواوين الدولة وما تفشى بينهم من ألوان النزاع والفساد والادعاء والسرقة . والثانية فى نقد الأسرة المصرية وما ينشب بين أفرادها من الخلاف بسبب ما تشبثت به من التقاليد والعادات المرذولة . واستطردت إلى ذكر ما نقدوا به الأتراك والمماليك والسلاطين والطوائف الدينية ، وما نقدوا به التعليم والمعلمين ، والتصوف والمتصوفين والرؤساء والقضاة وحملاتهم على الظلم والاستبداد وتنديدهم باختصاص بعضهم بالرزق دون بعض ، وباستشراء الرشوة وخطرها .

وعند حديثى عن المديح النبوى وبيان الأسباب الاجتماعية التى أدت إلى ازدهاره فى هذا العصر ، أشرت إلى بردة البوصيرى التى كانت من بواكير هذا الفن فيه ، وكان لها أثر ضخم فى نشاط فن المديح النبوى وفى نظم البديعيات اللذين كثر فرسانهما . فمن رجال المديح النبوى : ابن نباتة والشاب الظريف وابن دقيق العيد وابن الوردى والشهاب الحلبى والفتح بن سيد الناس . ومن رجال البديعيات : الصفى الحلى والعز الموصلى والتقى بن حجة ...

وبإزاء ماكان هناك من مديح نبوى ومن زهد وتصوف ، كان هناك المجون والخمريات والغزل ، ومن رجالها : ابن عبد الظاهر والفخر بن مكانس والشاب الظريف والبرهان القيراطى وابن دانيال الموصلى وصدر الدين بن الوكيل وغيرهم .

والفصل الخامس ، فى بيان النواحى الفنية لهذا الشعر . وقد تحدثت فيه عن الصفات التى غلب على الشعر اتسامه بها أو لمعت فيه لمعانا لافتا تحت تأثير عوامل البيئات المختلفة . ومن ذلك توخى السهولة والجنوح إلى الوضوح فى التعبير ، واصطناع البديع . مع بيان الأسباب الاجتماعية والثقافية ونحوها التى عاونت على توجيه الأساليب هذا الاتجاه . وأشرت فى دراسة وتفصيل وفى تدليل وتمثيل ، إلى اعتماد التعبير على الوصف والتصوير والتشخيص والقوالب البيانية . كما تحدثت عن الفكاهة والنكتة باعتبارهما من سمات الأساليب .

وكانت المعارضات والمناقضات والسرقات الشعرية ، اتجاهات واضحة فى أساليب الشعراء . فتحدثت عنها وعن دواعيها وأسبابها . كما تحدثت عن مطولاتهم ومقطوعاتهم . وعن الأوزان والقوافى ، وما اتصل بها من التواشيح والأزجال .

وكما أوضحت فى كثير من مراحل حديثى محاسن هذا الشعر ، أوضحت هنا فى هذا الباب كثيرا من عيوبه وسيئاته كاللحن واستعمال الدخيل والخروج عن متن اللغة ، واصطناع العامى من الألفاظ والعبارات والأمثال . ولم أغفل ، وأنا أتحدث عن ذلك ، بيان الأسباب والعوامل التى كان لها دخل فيه . إلى غير ذلك .

بهذا كله يتم البحث وقد أجملت فى خاتمته ما انتهيت إليه من النتائج التى بدت بدوا بارزا فى خلاله منذ أول سطوره إلى آخرها . وقد تبين أننى طفت فى نواحى العصر باحثاً منقبا فى أكثر زواياه ، فبينت معالمه وجلوت غوامضه ، وكشفت عن كثير بما تردد فيه من أفكار وخواطر ، وما جاش فيه من عواطف

ومشاعر . إننى جلت جولة واسعة فى أرجاء شعره ، وما خلفه شعراؤه فى دواوينهم وغير دواوينهم من قصائد ومقطوعات وأبيات ، فرايتهم أبناء مصر البررة ، وألسنتها الناطقة ، وتراجمتها المستجيبة المعبرة . وعلى الرغم مما حاق بهم من المثبطات والمعوقات التى من شأنها أن تقعد الهمة وتكبت الخاطرة وتعقل اللسان ، انطلقوا فنطقوا ، وعبروا فصدقوا . وكانوا لمصر صوتا أكد حياتها وأبرز شعبها حيا يقظا عاش بأفكار وعاش بمشاعر . وأن الأحداث لم تمر به وهو عنها لاه ، وأن الأيام لم تلج بابه وهو عنها غافل ، على الرغم مما اصطلح عليه من الأرزاء ، وما عاناه من ألوان الشقاء .

يحدثنا بذلك هذا الشعر الذى قرأناه واستوحيناه ، مع العلم بأنه بقية مما تركوا، وقبسات مما خلفوا . ولا أدرى ما ذا كان يكون حكمنا على العصر وأدبه ، وعلى شعره وشعبه ، لو أظفرتنا الأقدار بما ضاع منه وما غاب مع الأحقاب .

وبهذا البحث درسنا مصر الشاعرة فى عصر المماليك دراسة مفصلة محللة معللة، مبرزين عوامل بيئاتها المختلفة ، رابطين بين كل لون من الشعر وبين عوامله المؤثرة فيه ، بالقدر المستطاع مشيرين إلى مواطن القوة فى هذا الشعر ، وإلى مواطن الضعف ، معللين لها معا .

وهذا البحث هو رسالتى فى الدكتوراه التى تفضل فأشرف عليها الأستاذ الكبير عمر الدسوقى فكان له فضل عظيم فى نجازها . وقد أجريت بها هنا من التغيير والحذف والإيجاز ما اقتضاه النشر .

وبعد ، فالحمد لله على ما وفقنى إليه من خدمة تاريخ بلادى مصر العزيزة ، وتجلية أحد عصورها الأدبية . ولن يكون بحثى هذا آخر بحث يتناول العصر المذكور فى موضوعه ، بل إننى به فتحت الباب على مصراعيه لبحوث أخرى أرجو أن تكون أكثر توفيقا . وحسبى أننى عبدت أمامها الطريق وأوضحت المعالم وحددت الأهداف . والله المعين والموفق .

صفر سنة ١٣٨٥هـ - يونيو سنة ١٩٦٥ م　　　　　　المؤلف



في

بيان أثر بيئات مختلفة في نتاجها الشعري

تمهيـــد

في
بيان أثر بيئات مختلفة في نتاجها الشعرى

أشرنا فيما سبق إلى ما نعنيه بالبيئة . ورأينا أن أدب المجتمع الواحد تؤثر فيه ألوان من البيئات المختلفة .وركزنا الحديث فى بيان معنى كل بيئة ـ البيئة الطبيعية ، والسياسية ، والثقافية ، والاجتماعية ـ إذ رأيناها ، فى الجملة ، جماع البيئات التى تؤثر فى أدب مجتمع من المجتمعات .

وأشرنا كذلك إلى تأثيرات إجمالية نظرية ، لكل بيئة من البيئات الأربع .

وفى هذا الفصل نوضح ما أجملناه هناك نظريا ، بتطبيقات عملية من مواطن ومن عصور متعددة . وهى تطبيقات تعين على الربط والموازنة .

أولا : فى البيئة الطبيعية[1]

وما من موطن إلا وهو بيئة طبيعية لسكانه . له عليهم فضل الإيواء وتقديم الغذاء والماء وبالمقام والإلف وطيب الصلة ، تتم الروابط النفسية والعلاقات العاطفية بينهم وبينه . حتى تتراءى حسناته إليهم حسنا ، ونعمه عليهم جمالا وفضلا . فيعنى به شعراؤه ويشيدون ، ويترنمون بأدبه ويرددون ، ويفيضون فى الحديث عنه ، ويغرقون فى التعرف على أجزائه وأطرافه ، وينعتونها ويصفون أحوالها ويسجلون كل ما يتصل بها ، من شكل ولون وحركة وحس . ويتخيلون عنها

(١) راجع نهاية الأرب ج ١١ ففيه كثير من أشعار العرب فى أوصاف الطبيعة ونباتها .

ما شاءت لهم نفوسهم العاشقة لها الوالهة بها ويخلعون عليها من مشاعرهم مشاعر ، ومن أحاسيسهم أحاسيس. وبذلك كله يخلدونها ويخلدون وطنهم ويخلدون أنفسهم.

وهذا قدر مشترك بين شعوب الأرض قديمها وحديثها ، بعيدها وقريبها ، شرقيها وغربيها . مع تفاوت ، لابد منه ، فى المستوى والعمق والاتجاه .

ولعل عرب الجاهلية فى مقدمة أمم الأرض التى عشقت طبيعة بلادها، وأثرت هذه الطبيعة فى حياتهم تأثيراً كبيراً . أثرت فى حياتهم الاجتماعية ، فطبعتهم على الحرية والاعتزاز بالنفس والاعتماد عليها ، إذ ينشأ الحدث مطالباً بالكد والعمل وبالكدح فى سبيل حياته والمحافظة عليها . ونشأتهم على سماحة الفكر ووضوح القول وصراحة الحديث ، لامتداد صحاريها وتكشف معالمها .

وقد حصرت أكثرهم داخل جزيرتهم، قبائل مترحلة ، تطوف أنحاءها وتجوب أرجاءها ، طلبا لمواطن العشب والكلأ . ومع القبيلة نساؤها وأطفالها وإبلها وشاؤها وكلابها . لشيوخها الرأى والنصيحة ، ولشبانها المرابطة والسلاح. وماهم إلا جند يتسمون بالشجاعة والفروسية ، ويتصفون بالمغامرة والفدائية .

وفى وسط هذه الصحراء الواسعة ، والبيداء الشاسعة ، قد تتعرض القبيلة لمعتد يعتدى عليها ، أو آثم يسيء إليها فيذود عنها رجالها ، ويدفعون كيد أعدائها، ويمكنون لها فى العزة والكرامة، ويحرسون مجادتها، ويعلون ذكرها، ويحفظون أعراضها وأموالها .

هكذا عاش العربى فى بيدائه ، وهو ينتقل منها إليها ، ويلاقيها أنى سار ، لا يستطيع اتقاء بردها إذا اشتد ، ولا هجيرها إذا اتقد . تجابهه ويجابهها دون حجاب . فأورثته ذكاء وبديهة ، ودفعته إلى العمل والسرعة فيه ، والوصول إلى هدفه ، ورققت إحساسه ، وأرهفت شعوره ، فعاش بعاطفة جياشة منفعلة ، له مثل عليا اقتضتها طبيعة البادية ، وواقع الحياة فيها . فتغنى بها وسعى حثيثاً إليها ، وذلك كالكرم والنجدة وإغاثة الملهوف والوفاء بالوعد والشجاعة والصبر

والذكر الحسن . وعودته الحرية والطلاقة ، فلم تعرقل تفكيره ، ولم تعقل لسانه ولا تعبيره .(١)

وهكذا ترى الطبيعة الصحراوية فرضت على العرب أخلاقا خاصة ، وألزمتهم بتقاليد لايستطيعون عنها حولا، صارت لهم على مر السنين جبلة وطبيعة وفطرة . وقد انعكست هذه الطبيعة الخشنة على نفس العربي قوة وصرامة وجلدا .(٢)

وأما شعراء القبيلة ، فيتغنون بمجدها، ويشيدون بكرمها، ويسجلون حوادثها ومآثرها ، ويناخون بشعرهم عنها ، ويكيدون به لأعدائها .

وهم فى خلال أشعارهم هذه ، يصفون ما يسيرون فيه من صحراء مضنية ، ورمال مشقية ، وما يطرقونه من وهادها ونجودها ، وما يصطلون به من وهج الهجير فيها ، أو مايستظلون به من سماء صافية ذات شمس ضاحية ، أو قمر سافر، أو سماء محجبة ذات سحب كهام ، أو ملبدة ذات عارض ممطر .

ويهتزون لرعدها الصاخب ، وبرقها المضيء ، وضبابها الضارب ، ومطرها النازل ، ونباتها المستجيب ، وطيرها الغرد .

ويصفون ما يصحبهم من الخيل والإبل وكلاب الحراسة والصيد ، وما يلاقونه من حمر أو ثيران وحشية ، أو ذئاب ضارية . إلى غير ذلك مما جعل شعرهم أصدق مرآة لبيئته ، يرى فيه الرئى ملامحها ومعالمها وصورها المختلفة .

ولم يكتف الشعراء بالوصف السافر والنعت المباشر ، بل أعملوا الخيال وسرحوه غير بعيد ، وغذوه بذاخر من مشاعرهم الكامنة ووجداناتهم المستسرة. وعقدوا التشبيه وانتزعوا المماثلة ، ولاءموا المشاركة .

ولقد كان للصحراء أثر قوى فى هذا الشعر ، فهى التى أوحت للشاعر بأسلوب

---

(١) راجع النابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقى ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) راجع الفتوة عند العرب للأستاذ عمر الدسوقى ص ٢١ ـ طبع لجنة البيان العربى .

القصيدة وعناصرها ، وبما فيها من وحدة فكرية . فالشاعر الراحل إلى غرض من أغراضه ، أول ما يهيج الشعر فى نفسه ، مروره على ديار أحبته ورؤية مالها من آثار ودمن ، فينطلق يخاطبها ويذكر بوقوفه عليها ذكرياته الماضية، ثم يلتفت من حوله فيجد ناقته ـ مثلا ـ التى تصاحبه وتبلغه مقصده وتؤنسه فى رحيله، فينطلق وكأنه يخاطبها ويناجيها، فيصفها وينعت محاسنها ويذكر عاداتها وأخلاقها ، ويشبهها بالثور الوحشى أو الحمار الوحشى أو الظبى الشارد . ويستطرد إلى وصف هذا الثور أو غيره ، ثم يعود ويستدير إلى ناقتة بعد استطراده ، فتكون قد أوصلته ناقته إلى مقصده ، فيذكر هذا المقصد ، قتالا أو مدحا أو اعتذارا أو نحو ذلك .

وإذا كانت القصيدة لا ترتبط أجزاؤها ، ولا تتواصل معانيها الجزئية فى أبياتها المتتابعة ، فإن بينها هذه الوحدة الفكرية ، بل الشعورية التى تجعل منها كلا مترابطا فى نفس الشاعر ، كما أوحت به إليه بيئته .(١)

والشاعر بذلك كله يصف واقع حياته وواقع بيئته ومشاهدها . وهكذا ترى مبلغ مشاركة الطبيعة الصحراوية فى توجيه الشاعر فى فنه .

وقد وصف أوس بن حجر سحابا دانيا يلمع برقه ويهطل مطره فقال :

يامن لبرق أبيت الليل أرقبه فى عارض كبياض الصبح لماح
دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح
فمن بنجوته كمن بمحفله والمستكن كمن يمشى بقرواح
كأن ريقه لما علا شطبا أقراب أبلق ينفى الخيل رماح
فالتج أعلاه ثم ارتج أسفله وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح
كأنما بين أعلاه وأسفله ريط منشرة أو ضوء مصباح

---

(١) راجع النابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقى ص ١٥٢ فى سياق الفصل رقم ٢ عن الصحراء .

كأن فيه عشارا جلة شرفا   شعثاً لهاميم قد همت بإرشاح
بحا حناجرها هدلا مشافرها   تسيم أولادها فى قرقر ضاح
هبت جنوب بأولاه ومال به   أعجاز مزن تسح الماء دلاح
فأصبح الروض والقيعان ممرعة   مابين مرتتق منها ومنصاح(١)

بات الشاعر طول ليله يرقب هذا البرق ، وقد بدا من خلال سحاب أبيض كبياض الصبح يلمع . وقد دنا ماتدلى منه ، حتى ملأ سطح الأرض ، وانتشر فى وهده ونجده ، وكاد يلمسه بكفه ويدفعه ويزيحه عنه ، كل من قام . فاستوى فى ذلك من كان فى مرتفع من الأرض أو منخفض ومسيل منها ، ومن كان مطمئنا فى كنه وبيته ، ومن مشى فى أرض مستوية ظاهرة .

وقد بدت له أوائل هذا السحاب ، لما سمت إلى جبل شطب ، كأنها خواصر فرس أبلق ، ارتفع بياض تحجيله إلى نخذيه . وهو يسير على عجل . رماحا يطرد الخيل ويسابقها وكأنما ربطت بين أعلاه وأسفله ملاءات منشورة . أو جمع بينهما

---

(١) العارض : السحاب المعترض فى الأفق ـ الداح : اللامع ـ المسف : الدانى القريب ـ الهيدب : ما تدلى من السحاب ـ النجوة : ما ارتفع من الأرض ـ المحفل : مجتمع الماء ـ القرواح : بكسر القاف ، البارز الذى لا يستره من السماء شىء ـ ريقه : بفتح فكسر وتشديد ، أوله ـ شطب : بفتح فكسر ، اسم جبل ـ الأقراب : الخواصر جمع قرب بضم أوله ـ الأبلق : الفرس المسود المبيض ، أو ما ارتفع تحجيله إلى الفخذ ـ الثج : اختلط صوته ـ المنصاح : بضم أوله ، الفائض الجارى على الأرض ـ الريط : جمع ريطة نوع من الملاءات ـ العشار : جمع عشراء وهى الناقة التى مضى على حملها عشرة شهور أو ثمانية ، أو هى كالنفساء من النساء ، والعشار أيضا النوق تسمى به حتى ينتج بعضها ، والبعض ينتظر نتاجه ـ الجلة ، المسنة ـ الشرف : بضمتين جمع شارف ، وهو المسن الهرم من النوق ـ الشعث : المتفرقة أو الملبدة الشعر ـ اللهاميم : الغزيرة اللبن مفردها لهموم كعصفور ـ همت بارشاح : كادت تفطم فصيلها ـ القرقر : بفتح القافين ، الأرض المطمئنة اللينة ـ المزن : جمع مزنة وهى السحابة الماطرة ـ الدلاح : الكثير الماء ـ المنصاح : بضم أوله المتشقق : وعكسه المرتتق .

راجع الأبيات فى شعراء النصرانية ص ٤٩٣ ـ ومختارات ابن الشجرى ج ٢ ص ٤٨ ـ وتنسب الأبيات أيضا لعبيد بن الأبرص ـ راجع أغانى الطبيعة ص ٣٤ للدكتور أحمد الحوفى .

ضوء مصباح وذلك لاتصالهما أحـــدهما بالآخر ببياض من ضوء أو ضباب .

وقد اشتد بينه صوت الرعد قويا خشنا متواصلا . كأنه صوت نوق هرمة ملبدة الشعر غزيرة اللبن ، كاد فصيلها ينفصل عنها . فهى إليه شديدة الحنين وعليه صارخة الحنان . فغلظ صوتها واسترخت مشافرها، لأنها تتحسس أولادها الراعية فى أرض مستوية لينة فسيحة واضحة .... الخ . .

والأبيات نموذج من الشعر الجاهلى الجيد ، فى سماح اللفظ وملاءمة الجرس وقرب الخيال . وإن تخللته ألفاظ غريبة غرابة الصحراء ، وصلدة صلادة صخرها، كالقرواح والمنصاح واللهاميم والقرقر والدلاح . . إلخ . إلا أن ذلك لا تبدو صنعة فيه ولا تكلف ، أو فيه الصنعة الجارية مجرى الطبع .

وبين الأبيات وحدة تشد بعضها إلى بعض . وهى وحدة المعنى ووصف هذا البرق والسحاب وصفاً منسقا مرتباً ، يرسم تطور صورته من لدن بدايته إلى نهايته، ومن لدن أخذ الشاعر يرقبه بالليل حتى دنا منه وملأ بمياهه البقاع ، واتصل أعلاه بأسفله ، ورعد فيه الرعد ، وسحت مياهه فأمرعت منها القيعان .

ولعل هذا النهج ـ وهو نهج أوس بن حجر ـ لم يكن نهجا مطرد الاتبـاع فى الجاهلية . إذ جرى أغلب شعرائها على وحدة البيت وعلى نمط مما أشرنا . أما أوس فقد كان معنيا بتهذيب شعره .

وترى تشبيهاته منتزعة من بيئته ، لقد استخدم أدواتها وأجزاءها فى إيضاح صوره وإبراز معانيه . فشبه ـ مثلا ـ ريق السحاب لما علا الجبل فكساه بياضا ، بأقراب جواد أبلق يطرد الخيل. وصور ما يصل أعلاه بأسفله ، بالريط المنشرة ، أو بضوء المصباح . وما يدوى فيه من أصوات الرعد ، بأصوات النوق التى تسيم أولادها ، وتناديها وقد بحت حناجرها . . .

ووصف طرفة بن العبد ناقته فى معلقته المشهورة بنحو ثمانية وعشرين بيتا . وكاد يستنفد فى الوصف جميع أجزائها وصفاتها . فقد وصف عظامها ووثاقة خلقها واكتناز لحمها وضخامة فخذيها ، وفقارها المتداخلة وعلو جسمها وطول عنقها ، وصلابة جمجمتها ، وتبسط خدها ، وضخامة مشفرها ، ولمعان عينيها ، وشدة عدوها ، إلى غير ذلك .

ونجتزىء فى هذا المقام منها بهذه الأبيات :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره   بعوجاء مرقال تروح وتغتدى

أمون كألواح الإران نصأتها   على لاحب كأنه ظهر برجـــد

جمالية وجناء تردى كأنها   سفنجة تبرى لأزعر أربد

تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت   وظيفا وظيفا فوق مور معبد(١)

وهكذا ترى طرفة يستعين على إذهاب همه إذا اعتراه ، بناقته الضامرة السريعة المأمونة العثار الشبيهة فى تماسكها وصلابتها بألواح التابوت ــ تابوت السادة ــ

وهو يزجرها بمنسأته ــ عصاه ــ ليوجهها إلى طريق واسع واضح ، مخطط كظهر البرجد ــ الكساء ــ

وهى تبارى عتاق الإبل ــ أو الخيل النجيبة ــ متبعة ساقا بساق ، وهى تسير فوق طريق مذلل لكثرة وطئه . .

---

(١) راجع المعلقة ، وفيها الأبيات ، فى جمهرة أشعار العرب ص١٧٣ ــ واحتضار الهم : حضوره ــ والعوجاء : الناقة الضامر ــ والمرقال : المسرعة فى مسيرها ــ والأمون : الناقة المأمونة العثار ــ والإران : التابوت ــ واللاحب : الطريق ــ والبرجد : الكساء ــ والجمالية : الشبيهة فى قوتها بالجمل ــ والوجناء : العظيمة الوجنات لقوتها ــ وتردى : تسير بين عدو ومشى ــ والسفنجة : النعامة ــ وتبرى : تتعرض ــ والأزعر : الذى قل ريشه وتفرق : أو الذى لا شعر له ــ والعتاق : الخيل النجيبة ــ والناجية : الناقة السريعة ــ والوظيف : ما بين الرسغ والركبة ــ والمور المعبد : الطريق المزلل الموطوء والمستوى ــ ونصأتها : زجرتها .

ووصف امرؤ القيس فى معلقته ، الليل وطوله ، ورأى نجومه وكأنها ثابتة لا تتحرك ، فقال :

فيالك من ليل كأن نجومه — بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها — بأمراس كتان إلى صم جندل[١]

ووصف جواده الذى يصاحبه فى رحلات صيده ومغامراته ، ووصف ضخامته وسرعته وحركته فقال :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها — بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا — كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه — كما زلت الصفراء بالمتنزل[٢]

وذكر البرق الوامض الذى يضىء سناه :

أصاح ترى برقا أريك وميضه — كلمع اليدين فى حبى مكلل
يضىء سناه أو مصابيح راهب — أمال السليط بالذبال المفتل[٣]

وذكر مطره الذى اقتلع الدوح:

فأضحى يسح الماء حول كتيفة — يكب على الأذقان دوح الكنهبل[٤]

وذكر الطيور الفرحة بالمطر ، والسباع الغرقى فيه :

---

(١) المغار الفتل : المشدود الفتل — ويذبل : اسم جبل — والثريا : نجم — والمصام : الموضع والموقف — والأمراس : الحبال ، وهى جمع مرس بفتحتين ، والمرس جمع مرسة بثلاث فتحات وهى الحبل : — وصم الجنادل : صلب الحجارة .

(٢) الوكنات : الأعشاش — والمنجرد : القصير الشعر — وقيد الأوابد : قيد الوحوش : يعنى فرسه لسرعته كأنه قيد لها فى طرادها — والهيكل : الضخم — والكميت : الأحمر المسود — واللبد : الصوف المتلبد — والصفواء : الحجر الصلد الضخم .

(٣) الحبى : السحاب يشرف من الأفق على الأرض ؛ أو هو الذى بعضه فوق بعض — والمكلل : السحاب كأن عليه غشاء — والسليط : الزيت .

(٤) كتيفة : مكان — ودوح الكنهبل : شجر عظام .

تأتى مكاكى الجواء غدية صبحن سلافا من رحيق مفلفل
كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل (١)

وعلى هذا الغرار وصف شعراء الجاهلية أجزاء بيئتهم الطبيعية ومشاهدها المختلفة ، كما تراءت لعيونهم ، وكما أحبتها نفوسهم .

ومن ذلك وصف الحارث بن عباد للسحاب وريح الجنوب . ووصف خفاف ابن ندبة للبرق والسحاب والغيث والسيل ، ووصف عدى بن زيد العبادى للبرق ، ووصف النابغة الذبيانى للسحاب والمطر . ووصف أبى دؤاد وزهير وعبد بنى الحسحاس والأعشى وساعدة بن جؤية وتأبط شرا ، والمسيب بن علس وغيرهم.(٢)

وقد صور النابغة الذبيانى معركة بين الثور الوحشى وكلاب الصيد . تصويرا بديعا فى رائيته الممتعة « عوجوا لحيوا » .

ووصف الأعشى الروضة . والصمة بن عبدالله ربيع نجد وصيفها . وخفاف ابن ندبة الضباب والسيل . وذكروا فى أشعارهم العرار والنخيل والشجر والكرم والحماط والزنبق والقرنفل والفلفل والحنظل ، إلى غير ذلك .(٣)

وقد اهتموا بوصف هذه الأشياء ، لما لها من صلة وثيقة بحياتهم ، وعلاقة متينة بمعيشتهم . لقد صارت جزءا منهم ارتبطوا بها وارتبطت بهم . فمن حقها عليهم أن يذكروها ، بل أن يتغنوا بها ، بل أن يخلدوها . — وقد فعلوا .

وهدأت جذوة شعر الطبيعة ، منذ جاء الإسلام . إذ شغل الشعراء بالدعوة

---

(١) المكاكى : جمع مكاء ضرب من الطير ـ والسلاف : الخمر ـ والأنابيش جمع أنبوش وهو أصل البقل أو الشجر المقتلع بأصله وعروقه ـ تراجع الأبيات فى جمهرة أشعار العرب ص ٨٧ .

(٢) راجع أغانى الطبيعة للدكتور الحوفى ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٠ وما بعدها ـ راجع أيضا نهاية الأدب ج ١١ .

الدينية . ثم فتحت فى عهد عمر — رضى الله عنه — الأقطار المجاورة لجزيرة العرب : الشام ومصر والعراق وفارس . ونزحت جوالى العرب إلى هذه الأمصار الجديدة ، وأخذوا فى استيطانها . فرأوا فيها مشاهد جديدة لم يألفوها فى جزيرتهم ، وبيئات طبيعية فاتنة غنية ملئت حسنا وجمالا ، بأنهارها الجارية ، ورياضها الضاحكة وثمارها المواتية ، بين جبال وسهول وشواطىء . فعاد العرب إلى تغنيهم بمفاتن الطبيعة ، ولكن على سنة القدماء ، من الوقوف بالأطلال ووصف الناقة ومشاق الرحيل ، ووصف الوحش الذى يصادفهم فى الطريق .

لقد أخذت هذه الظاهرة تعود إلى مسرح الشعر العربى ، واشتد بروزها فى عهد بنى أمية .

ولم يتجه الشعراء اتجاها يذكر إلى مفاتن الطبيعة الجديدة المتفتحة أمام نواظرهم فى الأمصار والحواضر . لقد اتجهوا بدلا منها ، إلى مناظر البادية ومافيها من رحلة وديار وإبل ونوق ووحش وغيره . .

ذلك حق الوطن الأول ! وميراث الآباء والأجداد ، ووديعة الماضى ، جذبت خواطرهم إلى الاقتداء بالأسلاف ، وبعث عهودهم مرة جديدة .

ولماذا لا يبعثونها فى هذا المجال ، وقد أصرت الدولة والناس على بعثها ، فى مجالات القبليات والعصبيات والحزبيات والمفاخرات ونحوها . . . ؟ لقد كادت تكون الحياة الأموية حياة جاهلية ، بما بعث فيها من ذلك ، وشجع عليه الخلفاء .

ولقد أصبح الشعر الجاهلى — وما يشبهه — فى مقدمة وسائل الثقافة وميدان النقاش والجدل ، وموضع الدرس والموازنة والنقد . فكان لذلك — كما ذكرنا — أثر فى جذب خواطر الشعراء حينذاك إلى تأثر القديم ومحاذاته ، فى الاهتمام بالبادية ومحتوياتها وصورها . . . غير أنهم — فى جملتهم — لم يبلغوا فى مجال الصدق مبلغ الأسلاف . ولم يندمجوا الاندماج النفسى الذى اندمجوه . ولعل

أصدقهم ذو الرمة فى وصف ناقته ، وقيس ليلى فى بعض غزلياته.(١)

فقد أطال ذو الرمة فى وصف الناقة وأحاط به إحاطة شاملة تدل على امتزاج شعوره وخاطره بها . أما قيس ليلى فقد كان يمزج غزلياته هذه بوصف الطبيعة ، حتى ليبدو أنه يعشــقها فيذكرها كلما ذكر حبيبته ، أو يذكر حبيبته كلما ذكرها . يقول .

ألا هل طلوع الشمس يهدى تحية   إلى آل ليلى أو دنو غروبها

ويقول :

وما طلع النجم الذى يهتدى به   ولاالصبح إلاهيجا ذكرها ليا

ومهما يكن من شىء ، فهذا عمر بن أبى ربيعة ، يفتتح إحدى قصائده بقوله :

قف بالديار عفا من أهلها الأثر   عفى معالمها الأرواح والمطر

بالعرصتين فمجرى السيل بينهما   إلى القرين إلى ما دونه البسر(٢)

وهذا الفرزدق يصف الذئب ، وقد صادفه فى طريقه ، بهذه الأبيات .

وأطلس عسال وما كان صاحبا   دعوت لنارى موهنا فأتانى

فلما دنا قلت أدن دونك إننى   وإياك فى زادى لمشـتركان

فبت أسوى الزاد بينى وبينه   على ضـوء نار مرة ودخان

فقلت له لما تـكشر ضاحكا   وقائم سيفى من يدى بمكان

تعش فإن واثقتنى لا تخوننى   نكن مثل من ياذئب يصطحبان

وأنت امرؤ ياذئب والغدر كنتما   أخيين كانا أرضعا بلبان(٣)

---

(١) راجع وصف الطبيعة وتطوره للأستاذ عمر الدسوقى وآخرين تحت عنوان « العصر الأموى » — وراجع شعر الطبيعة فى الأدب العربى للدكتور سيد نوفل ص ١١٧ وما بعدها .

(٢) راجع ديوان عمر بن أبى ربيعة ص٧ ط المطبعة اليمنية — وقيل إن القرينين جبلان — والبسر: ماء لبنى عقيل .

(٣) راجع ديوان الفرزدق — والأطلس . المغبر لونه إلى سواد — والعسال . المهتز — والموهن نحو نصف الليل أو بعده بساعة .

وهكذا تخيل الفرزدق فى الذئب شخصا يخاطبه ويدعوه موهنا ليأتيه ، ويدعوه إلى مشاركته زاده . واقتسم هذا الزاد بينه وبينه ، قاعدين حول النار يستدفئان . ولحظ منه توثبه للغدر والفتك ، فهدأ من توثبه ، لا خوفا منه ، ولكن حرصا عليه . وطلب إليه موادعته وموافقته ، ليعيشا صاحبين ، مع أن من خلق الذئب الغدر . . .

وينحو الأخطل نحو النابغة الذبيانى فى بعض قصائده ـ فضلا عن ديباجته ـ فشبه ناقته مثله ، بالثور الوحشى ، ثم استطرد فصور معركة بين الثور وكلاب الصيد ، فى قصيدة رائية ، كأنها رائية النابغة ، لو لا خمرياتها . ومطلعها .

تغير الرسم من سلمى بأجفار وأقفرت من سليمى دمنة الدار [١]

فيصف فيها الناقة . ويشبهها بالثور ثم يستطرد فى وصفه قائلا :

كأنها برج رومى يشيده لز بجص وآجر وأحجار
أو مقفر خاضب الأظلاف جادله غيث تظاهر فى ميثاء مبكار
فبات فى جنب أرطاة تكفئه ريح شآمية هبت بأمطار
يجول ليلته والعين تضربه منها بغيث أجش الرعد نيار
إذا أراد بها التغميض أرقه سيل يدب بهدم الترب موار
كأنه إذ أضاء البرق بهجته فى أصفها نية أو مصطلى نار
أما السراة فمن ديباجة لهق وبالقوائم مثل الوشم بالقار ... الخ[٢]

---

(١) الأجفار : موضع فى ديار بنى تغلب ـ والدمنة : آثار الدار والناس وما سودوا .

(٢) راجع ديوان الأخطل : وجمهرة أشعار العرب ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ـ والأخطل شاعر بنى أمية للدكتور السيد مصطفى غازى ـ ولزه : شده وألصقه : والمقفر : الذى خلا من أهله ، أو ذهب طعامه وجاع ـ وتظاهر : تعاون وتكاثر : والميثاء : الأرض السهلة : والمبكار : الأرض التى تعجل فى إدراك نباتها : والأرطاة : شجرة عظيمة والجمع أرطى : والنيار : الواضح المضىء : والموار : =

ويصف ذو الرمة الهاجرة وحرها بقوله :

وهاجرة حرها واقـــد　　نصبت لحاجبهـــا حاجبي

تلوذ من الشمس أطلاؤها　　لياذ الغريم من الطالب

وتسجد للشمس حرباؤها　　كما يسجد القس للراهب(١)

ولما انتقل الملك إلى بنى العباس ، واتخذوا بغداد عاصمة لهم ، أخذ العرب يدخلون فى دور حضارى واسع النطاق ، يقوم على دعائم من مدنية الإسلام وآداب العرب ، وحضارة الفرس وعلوم اليونان ، وغيرهم .

واتسع أفق الثقافة وزاد الرخاء ، وكثر المانحون من الرؤساء . وأقبل الناس على حياة الترف ومجالس الأنس وأنشئوا العمائر والقصور والحدائق والبساتين والبرك وأجريت الجداول ، وعمرت مشاهدالطبيعة بالحيوان الأليف ، والطير المغرد ، والنبت الجميل ، والزهر الباسم ، والشجرةالمظلة .

واستهوت هذه الطبيعة الجميله ، فيمن استهوتهم بأزهارها ورياضها وغيثها وبرقها ومجالى الجمال فيها ، الشاعر الكبير أبا تمام ، فاحتفى بالربيع واحتفل بمقدمه ، وصدر بأوصافه بعض مدائحه . فذكر رقة حواشي الدهر ، وتكسر الثرى فى حليه، وبذل المصيف ، وجدةالشتاء وفضل يده . وذكر المطر ، وقد أعقبه الصحو النضر والندى ، وقد ادهنت به لمم الثرى فكأنه عذاره . .

وود أبو تمام ، لو يعمر حسن الروض لتستمر به بهجة الأيام . وطلب إلى

= الكثير الحركة ، والبهجة : الحسن ـ و لأصفهانية : نوع من الثياب مصبوغ بالزعفران ـ والسراة : بكسر أوله أعلى كل شىء ، والمراد ظهر الثور : واللهق : على وزن جبل أو كتف ، الشديد البياض : والقار : الزفت أو شىء أسود يطلى به .

(١) راجع نهاية الأرب ج ١ ص ١٧ ط دار الكتب ـ وحاجبها : ما اطرد من رمالها وطال ، أو ما انتشر من ضوء الشمس فيها ـ والأطلاء : أبناء الوحش ـ

صاحبيه أن يرسلا نظريهما فى الأرض ليشهدا صورها البديعة ، ومرائيها الفاتنة ، من نهار مشمس طلع به زهر الربا فأقمر . ومن كل زهراء تترقرق بالندى فكأنهما عين تتحدر . . . إلى غير ذلك من مشاهد الطبيعة ، ومفاتن الربيع وألوانه الزاهية يقول :

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر وغدا الثرى فى حليه يتكسر
بذلت مقدمة المصيف حميدة ويد الشتاء جديدة لا تكفر

ويذكر المطر :

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من النضارة يقطر
وندى إذا ادهنت به لمم الثرى خلت السحاب أتاه وهو معذر

ويدعو صاحبيه لرؤية هذا الجمال ، ومنه النهار المشمس المقمر :

يا صاحبى تقصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمر .. الخ[1]

وينهج البحترى نهج أبى تمام ، ويضرب على أوتاره فى عشق الطبيعة الماثلة لعينيه ، فيجلو فيها شعرة فاننا . فيه من روحه فيض ، ومن نفسه قبس . ومن مشاعره استيحاء . ويعيش ردحا فى جو هذه الطبيعة الزاخر بالجمال يصف سحبها وغيثها . ويرى أن صوت رعدها ارتجاز وحنين . وأنها صادقة الوعد . وأن مطرها سفح دمع من غير وجد . ونسيمها نسيم ورد . وصوتها زئير أسد . ولمعها لمع سيوف الهند . . الخ

---

(١) راجع ديوان أبى تمام — وشعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ١٦٩ — والحواشى : الجوانب — وتتمرمر : تمور وتتحرك — واللمم : جمع لمة بكسر أوله ، وهى الشعر المجاوز شحمة الأذن — والمعذر : الذى بدأ عذراه ، والعذار جانب اللحية .

ذات ارتجــاز بحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع لغير الوجد لهـا نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتشرت مثل انتشار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد من وشى أنوار الربا فى برد
كأنما غدراتها فى الوهــد يلعبن من حبابها بالنرد[١]

وينطلق البحترى . فينطلق معه الربيع . ويضحك مقبلا عليه يختال ، وينبه النيروز أوائل الورد ، ويفتقه برد النـدى ، فكأنه يبثه حديثا كان مكتما . . . الخ . يقول :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من البشر حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوما[٢]
يفتقها برد النـدى فكأنه يبث حديثا كان قبل مكتما[٣]

وفى كثير مما ترى تشخيصا . خلع فيه الشاعر أحاسيسه وأخليته على موصوفه وأسند إليه ما يسند إلى الإنسان . لقد رأى فى تفتيق الندى للورد حديثاً ، ورأى فى ورق الشجر ، لباسا له موشى . . . الخ

ويسلط ابن المعتز حاسته البصرية على مشاهد الطبيعة ، بما لها من أشكال وألوان فتوحى إليه بضروب من الخيال والتصور ، يتأنق فى إبرازها ببراعة الصناع . وأبرز أدروانه إلى ذلك ، التشبيه . . . فالهلال منجل صيغ من فضة .

---

(١) راجع ديوان البحترى ـ والارتجاز : التصويت والإنشاد ونظم الرجز ـ والوشى : نقش الثوب ـ والبرد : الثوب ـ والوهد : الأرض المنخفضة ـ وحباب المـاء ، بفتح أوله فقاقيعه ـ والنرد : إحدى اللعب .

(٢) النيروز والنوروز أول يوم من السنة القبطية .

(٣) راجع ديوان البحترى .

والثريا هودج فوق ناقة . والقمر فى النجوم ملك فى مواكبه ، والشمس تتلو البدر ، فهما قدحان من ماء وخمر . والصبح يتلو المشترى ، وهو عريان يمشى فى الدجى بسراج ... يقول :

فى الهلال :

انظر إلى حسن هلال بدا   يهتك من إنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة   يحصد من زهر الدجى نرجسا[1]

وفى الثريا :

كأن الثريا هودج فوق ناقة   يحث بها حاد إلى الغرب مزعج
وقد لمعت حتى كأن بريقها   قوارير فيها زئبق يترجرج

وفى القمر :

قمر بدا لك مشـــرقا فى ليلة   حسن الدجى أذياله عن ذيله

وفى الشمس والبدر :

حتى رأيت الشمس تتـــلو البدر فى كبد السما
فـــكأنه وكأنهـــا قد حان من خمر وما

وفى الصبح :

والصبح يتلو المشترى فكأنه   عريان يمشى فى الدجى بسراج[2]

وهكذا سار كثير من شعراء العباسيين فى الطريق ، ووصفوا بدائع الطبيعة ومحاسن جمالها .

---

(١) يهتك : يكشف ويفضح — والحندس : بكسر أوله وثالثه ، الليل المظلم والظلمة .
(٢) ديوان ابن المعتز — وشعر الطبيعة فى الأدب العربى للدكتور سيد نوفل .

وانتقل الشعر مع العرب إلى بلاد الأندلس ، حيث الطبيعة المزدهرة الغنية ، والأرض الخصبة الثرية ، والأنهار الجارية الوفية ، والجداول الرقراقة المضية . . وحيث الأجواء المعتدلة ، والأنسام الوانية . والأمطار الحانية ، والسواحل الممتدة ، والهضاب العالية ، والجبال المخضرة ، والسهول الفسيحة ، والمراعى المعشبة ، والنبت الناجم ، والثمر الدائم ، والفاكهة الشهية ، والكروم الحلوة ، والأطيار المغردة ، والشجر الباسق ، والماشية والأنعام ... إلى غير ذلك .

فوجد الشعر فى طبيعة البيئة ، مراحا غير مراحه القديم ، وسعة من العيش بعد ضيق ، ومرحا من الحياة بعد ضنك ، وتبسطا من الأيام بعد قبض . فتبسطت أساريره ، وتفتحت قسماته ، وهش للحياة وبش . وتأثر بهذه الطبيعة المواتية تأثرا بالغا ، نقله من قسوة الصحراء إلى لين المدينة ، ومن صرامة البادية إلى رقة الحاضرة . وتم ذلك شيئا فشيئا ، حتى سلست عبارته ، وعذبت ألفاظه ، وغاضت عنه الغرابة والصلابة ، وتمشت فى أرجائه وحواشيه الموسيقا العذبة الوديعة ، وطبع بطابع هذه البلاد ، وظهرت فيه المجزوءات والموشحات ، وبدت فيه الرقة واللطف ، والرفاهة والترف . وصار للغة والأدب بذلك حياة جديدة . وأصبح الشعر أغانى نفسية هزجة ، وألحانا وجدانية متتابعة ، وأقبل الناس جميعا عربا وغير عرب ، على لغته السمحة ، فنسخت اللغات الوطنية . وأقبلوا على الشعر ينظمونه أفانين . وكأن الناس أصبحوا وقد طبعوا على قوله والتغنى به ، وما واتتهم الفرصة لذلك ، يحدون به فرادى وجماعات ، ويتغنون به عمالا وصناعا وزراعا .

ومن أبدع ما تغنوا به مظاهر طبيعة بلادهم ومشاهدها الجميلة الوسيمة ، التى راقت عيونهم ، وأمتعت نفوسهم ، وجذبت حواسهم ، بأشكالها المغرية ، وألوانها الزاهية ، وجودها الجزل ، وخيرها العميم ، وكرمها الغامر . حتى بدت أمام عيونهم روضة الدنيا وجنة الأرض .

وأخذت آثار البيئة تبدو آياتها عليهم ، رويدا رويدا ، لبالغ تأثرهم ببيئتهم

العربية الأولى . حتى إذا تم لهم الاستقرار وطاب بهم المقام ، اتضحت هذه الآثار عليهم ، وصارت أندلسية خالصة ، إلا ما اقتضته العربية المشتركة ، ومعجمها فى اللفظ والأسلوب وجرى أكثر شعرائهم على وصف الطبيعة فى سمائها ونجومها وسحابها وبروقها ورعدها ومطرها ، وأرضها وجبالها وسهولها وأنهارها وجداولها ، ومدنها ورياضها وحقولها ، وفاكهتها وزهرها وشجرها وثمرها وطيرها ، وغير ذلك .

واندمج كثير منهم فى هذه المفاتن ، وامتزج بها امتزاجا نفسيا بالغا ، لم نشهد له نظيرا فى شعراء المشرق . فأجادوا تصويرها ، وتعمقوا بعاطفتهم وإحساسهم فى نواحيها ، وأنشئوا منها أحياء نابضة ، وشخوصا محسة ، ومزجوا أنباءها بأنبائهم ، وخصائصها بخصائصهم ، وشبهوا بها واستعاروا منها .

ومنهم على تتابع عصورهم : ابن شهيد وابن هانىء وابن زيدون وابن خفاجة الأندلسى وصاف الطبيعة .

يصدح الحمام باكيا على فراق إلفه ، فيرى فيه ابن شهيد زميلا له وشريكا فى آلامه ووجده ، فيناجيه قائلا :

وقلت لصداح الحمام وقد بكى ... على الغصن إلفا والدموع تجود
ألا أيها الباكى على من تحبه ... كلانا معنى بالخلاء فريد
فصفق من ريش الجناحين واقفا ... على القرب حتى ما عليه مزيد
وما زال يبكينى وأبكيه جاهدا ... وللشوق من دون الضلوع وقود

وتفتن مناظر الروض عينى ابن هانى ، فيرى كأن نور الشمس ينشر فيه سبائكها الذهبية ، وكأن كئوس الراح تسرى بعبقها ورياها فى خلاله ، فيقول :

ألم تريا الروض الأريض كأنما ... أسرة نور الشمس فيه سبائك
كأن كئوسا فيه تسرى براحها ... إذا عللتها الساريات الحوائك

كأن الشقيق الغض يكحل أعينا ... ويسفك فى لباته الدم سافك[1]

ويمتزج الولوع بالطبيعة والتعلق بمحاسنها، بالولوع بالمحبوبة والتشوق إلى أيامها ومفاتنها، عند ابن زيدون . إذ يذكر حبيبته بالزهراء، فيمزج مشاعره نحوها، بمشاعره نحو الطبيعة :

إنى ذكرتـــك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله ... كأنه رق لى فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم ... كما شققت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيـــه حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقى ... بكت لما بى فجال الدمع رقراقا[2]

وقد ابتعد ابن خفاجة الأندلسى عن دنيا السياسة ومقتضياتها . وعزف عنها وأخلد إلى حياة من الدعة . أطلق فيها مشاعره تتجاوب مع مشاهد الطبيعة الجميلة التى ولهت نفسه وملكت عليه حسه . فاتخذها معشوقة ، وهب لها خواطره ووجداناته، ووجه إليه كل مخاطباته ومناجاته فهى عرسه الحلوة العطرة المزدانة وحبيبته السمحة المستجيبة . فنسيمها عليل وظلها ظليل ونورها طرف متنبه . وماؤها مبتسم وبرقها راية وسحابها كتيبة وأيكتهاريا متهادية . وأراكتهامعطوفة شاكرة ، وحمامها مرجع ، والروض نشوان من الصبا . . الخ . يقول :

---

(١) راجع شعراء الطبيعة ص ٢٥٤ — والأريض ، الروض المعجب للعين الذكى الخليق للخير — والساريات : السحب — والحوائك : الناسجة — واللبات : جمع لبة بفتح أوله ، وتشديد ثانية مع فتحه وهى النحر وموضع القلادة من العنق .

(٢) راجع ديوان ابن زيدون — والزهراء : بلد بالأندلس — والرقراق : المتحرك .

أحسن المدامة والنسيم عليل   والظل خفاق الرواق ظليل
والنور طرف قد تنبه دامع   والماء مبتسم يروق صقيل
وتطلعت من برق كل غمامة   فى كل أفق راية ورعيل
حتى تهادى كل خوطة أيكة   ريا وغصت تلعة ومسيل
عطف الأراكة فانثنت شكراً له   طرباً ورجع فى الغصون هديل
فالروض مهتز المعاطف نعمة   نشوان يعطفه الصبا فيميل الخ[1]

واستقر الإسلام بمصر وتوطنت العربية رويدا رويدا بعد الفتح العربى . وما زالت حتى انتشرت بها المحادثات والمخاطبات ، وغلبت على اللغات الوطنية ، شأنها هنا شأنها هناك فى بلاد الأندلس . وتفتحت خواطر الأدباء بها والشعراء . وما زالوا حتى صنعوا لمصر شعراً عربيا ينم عنها ويدل عليها مما أوحت به إليهم وألهمت خواطرهم .

وزاد اتضاح هذه الظاهرة فى عهد الفاطميين وما والاه . وأغرم شعراء مصر كما أغرم سواهم بطبيعة بلادهم ، وأخذوا يغنونها ويمزجون أهازيجهم عنها بالحب والخمر والطرب ، ومنهم أبو الفتح بن قلاقس وتميم بن المعز وابن سناء الملك والقاضى الفاضل وابن الساعاتى ثم البهاء زهير والجمال بن مطروح وغيرهم .

ويصور لك ابن قلاقس وجه الصباح يشق بضوئه غلالة الظلماء حينما ينحل عقد الجوزاء ، ويريك ازهار الربا متوجة بالأنداء ، ويجرى إليك النسيم فى فضل ردائه ، وينطق لك الحمام على منابر أيكه . . الخ .

شق الصباح غلالة الظلماء   وانحل عقد كواكب الجوزاء

---

(١) ديوان ابن خفاجة الأندلسى . — والرعيل : جماعة الخيل — والخوطة : الغصن الناعم — والأريكة : واحدة الأيك وهو الشجر الملتف الكثير — والتلعة : ما ارتفع من الأرض أو ما انخفض منها ، ضد ، وهى مسيل الماء أيضا ، وما اتسع من فوهة الوادى — والأراكة : الأيكة .

وتكللت تيجان أزهار الربا بغرائب من لؤلؤ الأنداء
وجرى النسيم يجر فضل ردائه متمرسا بمساقط الأنواء
وعلا الحمام على منابر أيكه يبدى فصاحة ألسن الخطباء(١)

وهذه الأبيات التى نظمها البهاء زهير متغنيا بأرض وطنه مصر العزيزة . وقد ملك عليه الشوق إليها قلبه وخلب الحنين لبه . إثر فراق ما راق ، وابتعاد دون ميعاد . فما هدأت له أحشاؤه ، ولا رقأت أجفانه ، واندفع يبثها فى بعاده ما اختلج فى نفسه من الأشواق ، ويكشف لها ما استكن فى قلبه من حب . وتلك إحدى نوازع الوطنية الصميمة التى يولدها الإلف وطول الصحبة وطيب المقام وجمال الصلة ، بين المرء ووطنه وأهله ، ناعما بين طبيعته الحانية ، وعشائره الوافية . والأبيات من النوادر المبكرة فى بابها ، أى فى حب مصر والوفاء لها والتشوق الأصيل إليها والاتجاه العاطفى نحوها . يقول :

سقى واديا بين العريش وبرقة من الغيث هطال الشآبيب هتان
وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى هنالك أوطانا إذا قيل أوطان
بلاد متى ما جئتها جئت جنة لعينك منها كل ما شئت رضوان
تمثل لى الأشواق أن ترابها وحصباءها مسك يفوح وعقيان
فيا ساكنى مصر تراكم علمتم بأنى مالى عنكم الدهر سلوان
وما فى فؤادى موضع لسواكم ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا فتهدأ أحشاء وترقأ أجفان(٢)

ونهض الشعر العربى فى مصر نهضة عظيمة فى العصر الحديث ، على يد عدة

---

(١) شعر الطبيعة ص ٢٨٧ .

(٢) المنتخب لطه حسين وآخرين ج ٢ ص ١٠٣ ط سنة ١٩٤٦ م — والشآبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر — والهتان : الكثير الانصباب — والعقيان : الذهب .

أفذاذ من شعرائها كالبارودى وحفنى ناصف وإسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم وأحمد شوقى ومحمد عبدالمطلب وعلى الجارم وعلى محمود طه وأحمدمحرم والكاشف وغيرهم من الأعلام .

ونضج شعر الطبيعة المصرية على يد بعضهم بما أوحته إليهم من أسرارها ، وأثارته فى نفوسهم من أخبارها وعاونت الثقافات الأجنبية المنتشرة ، وآدابها ومعارفها ، على هذا النضج . فضلا عن انتشار الثقافات العربية المختلفة .

وقد لفتت آيات الربيع خاطر البارودى ، فذكر بها مواسم لهوه فى عصر الشباب ، وطفق يصف هذه الآيات ما بين أغصان مائجة بيد الصبا كأنها طيور مرفرفة بأجنحة خضر ، وندى فوق الشقيق كمدامع خد ، وشمس مغازلة بأشعتها الذهبية كشرار على جمر ، ومرعى اللفظ وشى ديمة ، ومرمى الخطوة أجوع مثر ، حتى بدت المروج لعينه سماء تروق بأنجم زهر .

وقد ماجت الأغصان بين يد الصبا ... كما رفرفت طير بأجنحة خضر
كأن الندى فوق الشقيق مدامع ... تجول بخد أو جمان على تبر
إذا غازلتها لمعة ذهبية ... من الشمس رفت كالشرار على الجمر
ففى كل مرعى لحظة وشى ديمة ... وفى كل مرمى خطوة أجرع مثر
مروج جلالها الزهر حتى كأنها ... سماء تروق العين بالأنجم الزهر [1]

ومازال الشاعر حتى ملك عليه الريف المصرى لبه ونبه خاطره ووجه حسه[2]. فوصف صباحه المشرق الندى وتنفس النوار به ، والطيور المتكلمة فيه بلغاتها ورأى بطاحه عطرة كأن بكل قرارة منها عطارا ، وذلك لزهرها الرفاف على الغصون . ومعه الطير الغرد والجدول الزخار والرياح الطيبة المعتدلة مع الهواجر

---

(١) الجمان : اللؤلؤ — والوشى : نقش الثوب — والديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد وبرق — والأجرع : الرملة الطيبة المنبت لا وعوثة فيها .

(٢) راجع « فى الأدب الحديث » للاستاذ عمر الدسوقى ج ٢ ص ١٥٣ .

القصيرة وقد انتشرت أشجار النخيل باسقة كأنها العمد والمنار ، وقد عقدت سعفها في أعاليها وعلت ، وبدت بها عراجين بسرها كفتائل تمشت النار في أعاليها . . الخ . قال :

رف الندى وتنفس النور   وتكلمت بلغاتها الأطيار
وتأرجت سر البطاح كأنما   في بطن كل قرارة عطار
زهر يرف على الغصون وطائر   غرد الهدير وجدول زخار
ونواسم أنفاسهن طويلة   وهواجر أعمارهن قصار
والباسقات الحاملات كأنها   عمد مشعبة الذرا ومنار
عقدت ذلاذل سوقها في جيدها   وسمت فليس تنالها الأبصار
فأصولها للسابحات ملاعب   وفروعها للنيرات مطار
يبدو بها زهو تخال إهانه   فتلا تمشت في ذراها النار . . الخ[1] .

وأمعن شوقي في وصف الطبيعة المصرية ، وأفاض في وصف كثير من معالمها . وحسبنا هنا أن ننوه بوصفه للجزيرة وبمطولته البارعة في وصف النيل ومناجاته ، ووصف حضارة الدول على جانبيه . وبفرائده في مخاطبة الآثار المصرية ومنها عصماؤه في مناجاة أبي الهول . وبقصيدته المنقطعة النظير في وصف مملكة النحل . ولشوقي في مناجاة الربيع المصري ووصف مجاليه وآياته ، أبيات في أكثر من مناسبة .

ومنها أبياته الجيدة في مطلع قصيدته التي ردبها على تحية الذين كرموه في حفلة تكريمه عام ١٩٢٧ م .

مرحباً بالربيع في ريعانه   وبأنواره وطيب زمانه

---

(١) ديوان البارودي ج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ط بولاق سنة ١٩٥٣ — ورف : برق وتلألأ — والسرر : بضم ففتح جمع سرة بضم أوله وتشديد ثانيه مع الفتح وهي ، مكان السر من الصبي الذي تقطعه القابلة ، وهو هنا على التشبيه — والقرارة : ما اطمأن من الأرض — والذلاذل : أسافل القميص — والنيرات : النجوم — والزهو : البسر الملون — والإهان : عرجون البلح —

رفت الأرض فى مواكب آذا ... روشب الزمان فى عنفوانه
نزل الروض ضاحك البشر يمشى ... فيه مشى الأمير فى بستانه ...(١)

ومن مناجاته للنيل :

من أى عهد فى القرى تتدفق ... وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من ... عليا الجنان جداولا تترقرق
وبأى عين أم بأية مزنة ... أم أى طوفان تفيض وتفهق
وبأى نول أنت ناسج بردة ... للضفتين جديدها لا يخلق
تســـود ديباجا إذا فارقتها
فإذا حضرت اخضوضر الإستبرق.. الخ(٢)

ومن مناجاته لأبى الهول :

أبا الهول طال عليك العصر ... وبلغت فى الأرض أقصى العمر
فيالدة الدهر لا الدهر شب ... ولا أنت جاوزت حد الصغر
إلام ركوبك متن الرمال ... لطى الأصيل وجوب السحر
تسافر منتقلا فى القرون ... فأيان تلقى غبار السفر
أبينك عهد وبين الجبال ... تزولان فى الموعد المنتظر .. الخ(٣).

وحافظ إبراهيم ـ وإن لم يكن فى المقدمة بين وصاف الطبيعة المصرية ـ مع أنه شاعر النيل ـ أفلتت منه بعض أبيات دالل فيها على تأثره بمشاهدة الطبيعة . ومنها قصيدته الرائية الجيدة التى نظمها بمناسبة رحلته إلى إيطاليا عام ١٩١٣ م . وجمع فيها بين وصف مشاهد مصرية وغربية ، مع الموازنة بينهما . ومن أبدع قوله وصفه منظر البحر الثائر تحت السفينة « اسبيريا » ووصف بركان فيزوف ، وشمس إيطاليا وشمس مصر . ولعله أوحد شعراء العربية فى هذا الاتجاه .

وقد بدأ القصيدة ببيت هو منها كأنه العنوان . فحدث عن العاصف وشدته ،

(١، ٢، ٣) الشوقيات ـ والإستبرق ، الديباج الغليظ ، وهو النقش .

والبحر وثورته ، وتوالى أمواجه ، وتلاعبه بالسفينة ، وثبات السفينة وقوة عزيمتها ، قال :

عاصف يرتمى وبحر يغير   أنا بالله منهما مستجير
وكأن الأمواج وهى توالى   محنقات أشجان نفس تثور
أزبدت ثم جرجرت ثم ثارت   ثم فارت كما تفور القدور
ثم أوفت مثل الجبال على الفـــلك   وللفلك عزمة لا تخور
تترامى بجؤجؤ لا يبالى   أمياه تحوطه أم صخور
أزعج البحر جانبيها من الشـــد   فجنب يعلو وجنب يغور

ويوازن بين شمس مصر وشمس إيطاليا ، وبين جو مصر وجو إيطاليا. فيقول فى طرافة :

شمسهم غادة عليها حجاب   فهى شرقية حوتها الخدور
شمسنا غادة أبت أن توارى   فهى غربية جلاها السفور
جوهم فى تقلب واختلاف   غير أن الثبات فيهم وفير
جونا أثبت الجواء ولكن   ليس فينا على الثبات صبور[1]

وقد ساق حب المطابقة إلى هذه الدعوى التى ادعاها الشاعر فى الشطر الأخير ، ولا أساس لها من الصحة . وليست هذه هى المرة الوحيدة التى يوقع حب المطابقة هذا الشاعر الكبير ، ويورطه فى مزاعم غير صحيحة فى إطلاقها . فقد أراد أن يمدح مرة المرحوم أحمد لطفى السيد ،فقال له :

يا كاسى الأخـــلاق فى   بلد عن الأخـــلاق عار

---

(١) راجع ديوان حافظ ـ رجرجرت : صوتت وزمجرت : والجرجرة صوت البعير فى حنجرته ، وصب الماء فى الحلق ـ والجؤجؤ : الصدر .

ثانيا : فى البيئة السياسية

والأحداث السياسية فى الوطن ، من أمس الأحداث بعواطف أهله ، ومن أوثقها صلة بمشاعرهم . ولاعجب فهى ذات مساس بصميم حياتهم المادية والمعنوية. فإذا كانت ذات صلة بمطاعمهم ومشاربهم وبثروة بلادهم وخيرات وطنهم ، فهى ذات صلة بحريتهم وكرامتهم وشرفهم وأعراضهم . ولذلك ترى لها رجعا بعيدا وصدى بارزا فى شعر شعرائهم ، أو ينبغى أن يكون لها هذا الرجع والصدى .

إلا أن الحرية السياسية إذا كانت مكفولة للشعراء وغير الشعراء فى أحد الأوطان ، أو غامر الشعراء وقامروا بمصائرهم ، ولم يبالوا حاكما ظالما أو أميرا جائرا ، كان ذلك أدعى إلى انطلاقهم وإلى اندفاع ألسنتهم بالقول السائغ فى هذه الأحداث يسجلونها ويسجلون وقائعها وتفاصيلها واتجاهاتها . ومايكون لذلك من أدلة وعلل . وما تضطر إليه من مناقشة أو مجادلة ومحاجة . وحينئذ ترى نتاجهم مرآة صادقه لبيئتهم السياسية ومايتصل بها من حماسة وفخر ووصف وغيره .

فإذا لم تكن هناك حرية متاحة أو مغامرة جادة ، كان ذلك أوعى إلى كبت المشاعر وسجن الخواطر . فيخسر الأدب والتاريخ بذلك خسارة لا تعوض . وحينئذ لانظفر باللون السياسى فى الشعر إلامن جانب واحد ، هو الجانب الذى يرتضيه الحكام القائمون والأمراء المحكمون .

ويتناول شعر البيئة السياسية أحداث الوطن فى داخله وخارجه . كما يمتد إلى كل لون من الشعر يكون « الحاكم » وتصرفه محوراً أساسيا يدور حوله . لذلك يدخل فيه المديح وما قد يجر إليه من فخر أو هجاء أو رثاء أو نحوه .

ويربط الأستاذ عمر الدسوقى بين شعر البيئة السياسية فى مصر ، وبين وصف الطبيعة المصرية والتغنى بها ربطا طريفا ويرى أن شعراء مصر فى العصور المتأخرة

لم يلتفوا إلى الطبيعة المصرية ومافيها من جمال وفتنة ، لعدم شعورهم الوطنى أو إحساسهم القومى لأن هذا الشعور أو الإحساس من شأنه أن يدفع إلى الإعجاب بطبيعة البلاد فحبها والتعلق بها . (١) وهو تعليل جميل .

وشعر البيئة السياسية فى الجاهلية . يتمثل أوضح مايتمثل ، فيما نظمه شعراؤها فى معاركهم القبلية .

وقد يعتبر هذا الشعر القبلى لونا من الشعر الاجتماعى ، لأنه نتيجة انزاع فى مجتمع واحد ، ولكن إذا اعتبرنا أن كل قبيلة كانت تعيش كأنها دولة صغيرة ومجتمع مستقل ، بدا لنا النزاع المحتدم بين القبائل ، نزاعا سياسيا ، وبدا شعره لونا من الشعر السياسى . فلا بأس من التوسع فى اعتباره هكذا ، على هذا الأساس .

فقد كان العرب حينذاك يعيشون قبائل متفرقة متنازعة ينجم الخلاف بينها لاتفه الأسباب بسبب أرض أو مرعى أو مفاخرة أو مراهنة أو استعلاء أو ثأر أو عشق أو نحو ذلك . وكثيرا ما كان يقوم على أثر هذا الخلاف حروب مبيرة ومعارك دامية يخوضونها أبطالا صناديد وفرسانا مغاوير . وقد تشتد شدتها وتطول مدتها ، حتى تصل إلى أربعين عاما — مثلا — كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء . وتجد هذه الحروب والمعارك لدى شعراء القبائل المحتربة استجابة سريعة حادة متحمسة ، وتهز خواطرهم هزا عنيفا ، فينظمون فى وصفها ووقائعها وانتصاراتها وبطولاتها .

وكان الشعراء فى قبائلهم ألسنتهم الداعية وصحفهم المنشرة ومقاولهم الذادة ، يسجلون ويخلدون ويهددون ويتوعدون ، دفاعا عن شرف القبيلة وعرضها ومالها .

يقول ابن رشيق : « كانت القبائل من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها . وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون فى

---

(١) فى الأدب الحديث ج ٢ ص ١٥٣ .

الأعراس . ويتباشر الرجال والولدان . لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم » . (١)

ومن أشهر حروب الجاهلية ـ كما أشرنا ـ حرب داحس والغبراء ، وكانت بين عبس وذبيان ، بسبب رهان بين هاتين الفرسين .

ومن أشهر حروب الجاهلية أيضاً حرب البسوس وكانت بين بكر وتغلب ابني وائل . وكان كليب التغلبي ذا زهو وصلف وتيــــه ، وكان فارساً صنديداً اجتمعت له معد كلها ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجيبته وطاعته . وبلغ من بغيه أن كان يحمى موافع السحاب فلا يرعى حماه . ولا تورد إبل مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره . وكان قد تزوج جليلة بن مرة بن ذهل بن شيبان . وأخوها جساس ابن مرة وكان لجساس خالة تدعى «البسوس» بنت منقذ التميمية ، وكانت قد نزلت فى حماه . فمرت إبل لكليب فتفلتت ناقة البسوس واختلطت بإبله فوردت معها على حوضه ، فرآها كليب فأنكرها ، وصوب إليها قوسه فأصماها وخرم ضرعها . فنفرت الناقة وهى ترغو . وانتهت إلى البسوس ، فصرخت هذه وقذفت خمارها عن رأسها وصاحت « واذلاه واجاراه » وأنشأت تقول :

لعمرى لو أصبحت فى دار منقــذ لما ضيم سعد وهو جار لأبياتى ...الخ

فلما سمعها جساس سكنها وقال : « والله ليقتلن غداً جمل عظيم أعظم عقراً من ناقتك » . وترقب جساس فرصة فى كليب فطعنه فأذراه .

وكان المهلهل أخو كليب شاعراً وفارساً ، ولكنه كان منصرفاً إلى معاقرة الخمر والنساء اتكالا على أخوه كليب . فلما قتل كليب هاجت هائجته وثارت ثائرته . وأخـــذ يجمع للفتك ببنى بكر . ويندب أخاه ويرثيه بأكثر من مرثية ، ومن أبيــاته :

كليب لا خير فى الدنيا ومن فيها إذا أنت خليتها فيمن يخليها . . الخ

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٤٩ باب احتماء القبائل بشعرائها .

وتعددت لقاءات بنى تغلب بقبيلة بنى شيبان البكرية ، ومن انحاز إليها من قبائل بكر ، وتكررت أيامهم ، ومن بينها يوم واردات ويوم الذنائب ويوم عنيزة ، وكانت لتغلب على بكر وقد وصفه كليب ووصف غيره من الأيام فى قصيدة طويلة أولها :

أليلتنا بذى حسم أنيرى   إذا أنت انقضيت فلا تحورى

وكان الحارث بن عباد البكرى قد انقبض فى أهل بيته عن مشاركة بنى شيبان فى الحرب ، وقال : « لا ناقة لى فى هذا ولا جمل » . حتى اجتمعت إليه قبائل بكر ، بعد أن أثخن فيهم التغلبيون ، وقالوا له : « فنى قومك » ! فأرسل الحارث ـ ابنه أو ابن أخيه ـ بجيراً إلى مهلهل . وقال له : « قل له إنى اعتزلت قومى لأنهم ظلموك وخليتك وإياهم . وقد أدركت ثأرك وقتلت قومك » . فأتاه بجير ، فقتله مهلهل وقال له : بؤ بشسع نعل كليب » . فلما علم الحارث بقتله ، قال : نعم القتيل ودى بين الأخوين . ثم علم بأن المهلهل قتله بشسع نعل كليب ، فهاج وغضب وثار واستعد لحربه . وكان فارساً مغواراً وله فرس اسمها « النعامة » ، فانطلق ينشد :

لهف نفسى على بجير إذا ما   جالت الخيل يوم حرب عضال

ويقول :

قتلوه بشسع نعل كليب   إن قتل الرجال بالشسع غال
يا بجير الخيرات لا صلح حتى   نملأ البيد من رءوس الرجال

ويقول :

قربا مربط النعامة منى   لقحت حرب وائل عن حيال.. الخ[١]

واقتاد الحارث بنى بكر وحمل على التغلبيين حتى هرب مهلهل وتفرقت

---

(١) الحرب العضال : الشاقة المعيية ـ والشسع : قبال النعل ، بكسر القاف ، وهو زمام بين الأصبع الوسطى والتى تليها ـ ولقحت الحرب : كناية عن استعدادها للشر والامتداد ، ولقحت الناقة قبلت اللقاح . ـ والحيال : أن يحمل الناقة فلا تلقح .

قبائل تغلب وكادت القبيلتان تفنيان فى حرب مبيدة طاحنة حمقاء استمرت زهاء أربعين عاماً (١) .

ومن أشهر حروب الجاهلية أيضاً حروب امرىء القيس الشاعر ـ ابن أخت مهلهل ـ ضد بنى أســد . وكان أبوه حجر ملكا عليهم يدينون له بالطاعة ، كما دانت قبائل مضرية كثيرة لإخوته من أمراء كندة اليمنيين .

وكان حجر قد ظلم بنى أسد واستبد بهم وضربهم بالعصا حتى سموا « عبيد العصا » . فثاروا به وقتلوه . وكان قد أوصى بمتاعه لمن لايجزع عليه من بنيه . فكلهم جزع وبكى ، ما عدا امرأ القيس . وكان الخبر قد انتهى إليه وهو بدمون يلعب النرد . فلم يأبه للناعى ، حتى انتهى من لعبه . ثم التفت إلى الناعى ، وقال له : « ضيعنى صغيراً وحملنى دمه كبيراً . اليوم خمر وغداً أمر ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً » ، وأنشده :

خليلى ما فى اليوم مصحى لشارب ولا فى غد إذ ذاك بالكاس نشرب

وقال :

أرقت لبرق بليـل أهل يضىء سـناه بأعلى الجبل
أتانى حديث فكذبته بأمر تزعزع منــه القلل
بقتل بنى أســد ربهم ألا كل شىء سـواه جلل . . الخ

وبموت حجر بدأ امرؤ القيس عهـــداً جديداً من عهود حياته الواقعية والشعرية . وهب للأخذ بثأر أبيه من بنى أسد . وجمع لهم السلاح والجنود مستعيناً بأعمامه وغيرهم . ومثل شعره فى هذه الحقبة تطورات الحرب وألوان الاتصال بينه وبين بنى أسد وغيرهم ممن اقتضت الحرب الاتصال به .

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ج ٢ فى الشاهد ١١٠ ـ والعقد الفريد ج ٣ « كتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعها .

ووفد عليه وفد بنى أسد وفيهم الشاعر عبيد بن الأبرص ، والمهاجر بن خداش وقبيصة بن نعيم ، رغبة فى مصالحته ، فأبى إلا الحرب ، فطلبوا النظرة حتى تضع الحوامل فقال لهم : « أما النظرة فقدأ وجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها ولن أكون لعطيها سببا . وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك ، تحمل فى القلوب حنقا ، وفوق الأسنة عَلَقا :

إذا جالت الخيل فى مأزق ... تصافح فيه المنايا النفوسا

فانصرفوا عنه وقبيصة يقول له :

لعلك أن تستوخم الموت إن غدت ... كتائبنا فى مأزق الموت تخطر

ودهم امرؤ القيس بنى كنانة يحسبهم بنى أسد – وكان هؤلاء قد رحلوا – فقال له بنو كنانة لسنا لك بثأر ، فقال يذكر بنى أسد ، ومعهم علباء بن الحارث قاتل أبيه :

ألا يالهف هند إثر قوم ... هم كانوا الشفاء فلم يصابوا ... الخ

وما زال حتى رأى أتباعه من بنى بكر وتغلب ، أنه قد بلغ ثأره . فلم يقتنع . فانصرفوا عنه . فأمده « مرثد الخير بن ذى جدن الحميرى » – وهو أحد أقيال اليمن ، وكانت له به قرابة – بنحو خمسمائة مقاتل . ثم استأجر أناسا .

وظفر ببنى أسد ، كما قال فى شعره :

يادار ماوية بالحائـــل ... فالسهب فالخبتين من عاقل

ومنها قوله :

قولا لدودان عبيد العصا ... ما غركم بالأسد الباسل

قد قرت العينان من مالك ... ومن بنى عمرو ومن كاهل

ومن بنى غنم بن دودان إذ ... نقذف أعلاهم على السافل

ومنها :

نطعنهم سلكى ومخـــلوجة ... لفتك لأمين على النابل ... الخ

وقد أنكر عليه عبيد بن الأبرص قائلا :

يا ذا المخوفنا بقتل أبيه إذلالا وحينا
أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذبا ومينا ... الخ

إلى آخر هذه القصة .(١)

وعلى هذا الغرار ، مضت أيام العرب ووقائعها ، بين قبائلها . ومنها ما كان بين الأوس والخزرج ، وبين العرب والعجم .

وفى خارج إطار هذا النزاع القبلى ، تجد بعض شعراء الجاهلية ، يقصدون أمراء العرب بالحيرة أو الشام ، يمتاحون كرمهم ، وينشدون عطاءهم ، ويشيدون بمكارمهم ، كالنابغة وعلقمة وحسان ، فى رحيلهم إلى المناذرة والغساسنة .

ويتمثل شعر البيئة السياسية فى صدر الإسلام ، فى الشعر الدينى الذى نظمه الطرفان المتنازعان فى سبيل الدعوة الجديدة : المسلمون من جانب ، والمشركون من جانب . يتبادلون المفاخر ، ويصفون الحروب .

واستمر ذلك حتى دخل العرب فى دين الله أفواجا . فاتجه الشعر إلى الحديث عن الفتوحات ، وعن الأحداث الجلى فى عهد عثمان وعلى ، رضى الله عنهما .

ولنا أن نعتبر هذا الشعر ـ أيضا ـ من وحى البيئة الاجتماعية ، على أساس أن النزاع الدينى ظاهرة من ظواهر المجتمع ، وحالة من حالات أهل محلة واحدة . ولكننا نرى أيضا إلى جانب ذلك ، أن الدعوة الإسلامية لم تكن كأى نزاع دينى فى مجتمع واحد . لأنها امتدت إلى أصول الحكم وقواعد السياسة ، وقوضت

---

(١) راجع سيرة امرىء القيس فى شعراء النصرانية ج ١ ص٦ ـ وفى الأدب العربى وتاريخه فى الجاهلية لمحمد عبد المطلب ـ وفى العقد الفريد « أيام العرب » ـ وفى خزانة الأدب للبغدادى ـ وفى كتب المعلقات .

والسلكى : بضم فسكون ، الطعنة المستقيمة ـ والمخلوجة : الطعنة ذات اليمين وذات الشمال ـ واللأم السهم عليه ريش ـ والنابل : الحاذق بالنبل أى ضرب النبال .

دعائم النظام القبلى ، ووحدت العرب فى دولة ، وجعلت لهم خلافة ، إلى غير ذلك مما لونها باللون السياسى إلى حد بعيد .

وخير من يمثل هذه الحقيقة من شعراء المسلمين، حسان بن ثابت الأنصارى، الذى كان حينذاك شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومن قوله يرد على أبى سفيان ، فى همزيته :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى مغلغلة فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله فى ذلك الجزاء
فإن أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

وكان عبد الله بن الزبعرى ، قد هجا المسلمين بعد غزوة أحد ، وذكر هزيمتهم ، ووجه حديثه إلى حسان وهو قريعه ، فقال :

يا غراب البين أسمعت فقل إنما تنطق شيئا قد فعل

ويقول :

أبلغا حسان عنى آية فقريض الشعر يشفى ذا العلل

ويقول :

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل . . . الخ

فأجابه حسان من بحره ورويه ، يسفهه ويرد عليه قوله :

ذهبت بابن الزبعرى وقعة كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ونلنا منكم وكذاك الحرب أحيانا دول

إذْ شددنا شـدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبل ... الخ (١)

ومهما يكن من شيء فهـذا حسان بن ثابت الأنصارى يسجل غدر الأنصار بعثمان بن عفان الخليفة فى يوم مقتله ، ويعيرهم بعدم النهوض لمعاونته ضد الثائرين عليه فى يومه الأيوم — وقد كانت الثورة بسبب سياسة عثمان — مستثنياً منهم بنى عمرو بن عوف التى وفت بنذرها بمعونتها لأبى عبد الله الزبير فى تلك الحادثة . فقال حسان مصورا بعض جوانب اليوم ، وبعض مشاهد الحادث :

أوفت بنو عمرو بن عوف نذرها وتلوثت غـــدرا بنو النجار

وتخاذلت يوم الحفيظة إنهم ليسوا هنالـكم من الأخيار

ونسوا وصاة محمد فى صهره وتبـدلوا بالعـز دار بوار

أتركتموه مفردا بمضيعة تنتابه الغوغاء فى الأمصار

لهفان يدعو غائباً أنصاره يا ويحـكم يامعشر الأنصار

هلا وفيتم عنـدها بعهودكم وفـديتم بالسمع والأبصـار

جيرانه الأدنون حول بيوته غدروا ورب البيت ذى الأستار

إن لم تروا مددا له وكتيبة تهـدى أوائل جحفل جرار

فعدمت ما ولد ابن عمرو منذر حتى ينيخ جموعهم بصرار (٢)

قد أسس الإسلام إذن ، من قبائل العرب دولة موحدة منظمة ، وقرر لها دعائمها السياسية والاجتماعية أرقى ما تـكون الدول وتؤسس . فـكان لذلك صداه فى شعر البيئة السياسية — ولا ريب — فقـــد حول النزاع القبلى الصريح إلى نزاع حول الدولة .

(١) راجع ديوان حسان بن ثابت ، حرف الهمزة واللام — والمغلغلة : الرسالة المحمولة من بلد الى بلد — والأسل : جمع أسلة ، وهى الرماح — وأجأه : أرغمه على الهرب .

(٢) ديوان حسان بن ثابت — والصرار : كسحاب أو كـتاب، واد بالحجاز .

وختم عصر صدر الإسلام بهذه الفتن الطاغية والخلافات المستعرة ، فقتل عثمان ووقع الخلف بين على ومعاوية وانتهى الأمر بأن حارب المسلمون بعضهم بعضاً ، ثم وقعت خدعة التحكيم ، وانشق جيش على شعبتين ، ثم قتل على غيلة . وخلص الملك لمعاوية ، فأسس دولته الأموية عام ٤٠هـ .

وورثت هذه الدولة الجديدة رقعة من الأرض واسعة ، وممالك فسيحة فتحت فى عهد عمر رضى الله عنه . وهى جنات فى الأرض أنشأها الله : مصر والشام والعراق وفارس . فعملت على توسيعها والإضافة إليها حتى امتد ملكها من الأندلس والمحيط الأطلسى إلى أواسط آسيا وحدود الهند والصين .

وكانت مثقلة بأسباب الفتن والعصبيات والحزبيات ، وعمل بنو أمية على تغذية العصبية ، فعادت العصبية جذعة متشعبة : بين اليمنيين والمضريين ، وبين العرب والعجم : بل وبين بعض العلماء وبعض . وصارت الحزبية مدار سياسة الناس والدولة . وبرزت أربعة أحزاب قوية متنافسة كان لكل منها أثره فى كيان الدولة وحياة الناس . وهى متنافسة يناهض بعضها بعضا ، ولكل منها رأيه فى الحكم والخلافة ، ولكل منها أتباعه وأشياعه ، ولكل منها خطباؤه وشعراؤه ، كالأخطل من شعراء بنى أمية ، وكالكميت من شعراء آل البيت ، وكعبيد الله بن قيس الرقيات من شعراء آل الزبير ، وكالطرماح بن حكيم من شعراء الخوارج . وامتزجت فى أشعارهم الآراء السياسية والمدح والفخر والحماسة والهجاء إلى حد كبير .

وكانت حجة الأمويين فى أحقية الخلافة والملك أنهم طلاب ثأر عثمان ، وأنهم من قريش ، وأنهم أكفاء وأهل حزم وحسن تدبير وكرم وبراعة . لذلك نجد شاعرهم « الأخطل » يمدح عبد الملك بن مروان ، فيصف بنى أمية بالأصالة والذود عن الحق ، والصبر على المكاره ، وحسن الرأى وسعة الحيلة ، وعناية الله

بهم ، وقسوتهم على أعدائهم ، حتى يستسلموا لهم ، فيحلموا عليهم ، يقول :

في نبعة من قريش يعصبون بها ... ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق عيافو الخنا أنف ... إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
وإن تدجت على الآفاق مظلمة ... كان لهم مخرج منها ومعتصر
أعطاهم الله جداً ينصرون به ... لا جد إلا صغير بعد محتقر
لم يأشروا فيه إذا كانوا مواليه ... ولو يكون لقوم غيرهم أشروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا [1]

وتقوم حجة العلويين وآل البيت في أحقية الخلافة والملك على أنهم من بيت الرسول عليه السلام ، وأقرب الناس إليه . وأنهم من صميم قريش ، وأن الحديث الشريف يقول « الخلافة بين قريش » وأنهم أبلوا في نصرة النبي والدين أحسن البلاء وينفون حجة الأمويين في قولهم : إن النبي لايورث . . .

وفي هذه المعاني دارت أشعار شعرائهم . ويقول الكميت من إحدى هاشمياته وهي مطولته البائية المشهورة :

يقولون لم يورث ولولا تراثه ... لقد شركت فيه بكيل وأرحب
وعك ولخم والسكون وحمير ... وكندة والحيان بكر وتغلب

ويقول مبينا بلاء آل البيت في نصرة الرسول عليه السلام :

هم شهدوا بدرا وخيبر بعدها ... ويوم حنين والدماء تصبب
وهم رئموها غير ظئر وأشبلوا ... عليها بأطراف القنا وتحدبوا

---

(١) ديوان الأخطل . ـ والشعر السياسي للأستاذ أحمد الشايب ص ٨ ـ والأخطل شاعر بني أمية للدكتور السيد مصطفى غازي ص ١١٧ ـ والنبعة : واحدة النبع وهو شجر للقسي وللسهام ينبت في قلة الجبل ـ وهي هنا على التشبيه ـ يعصبون بها : يشدون بها ويحمون ـ الأنف : الأباة ـ والمعتصر : المخرج ـ والشمس ، بضم أوله جمع أشمس وهو الجموح الأبي .

فإن هى لم تصلح لحى ســواهم   فإن ذوى القربى أحق وأقرب.. الخ(١)

وكان عبد الله بن قيس الرقيات يحتج لقريش وينادى بالاعتزاز بها ، على أن تكون الأمور بيد آل الزبير ، منكرا أن يعتمد بنو أمية على اليمنية . ساخطا على هذه الفرقة القرشية :

حبذا العيش حين قومى جميع   لم تفرق أمورها الأهـواء
قبل أن تطمع القبائل فى ملك م قريش   وتشمت الأعداء
أيها المشتهى فنـــاء قريش   بيد الله عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قريش   لا يكن بعدهم لحى بقاء

ويمدح مصعب بن الزبير فيقول :

إنما مصعب شهاب من اللـــه   تجلت عن وجهه الظلمـاء
ملـكه ملك قوة ليس فيه   جبروت منه ولا كبرياء ... (٢)

ويقول فى بنى أمية :

أنا عنـكم بنى أمية مزو   ر وأنتم فى نفسى الأعداء

ومن الطريف أن تدور الأيام دورتها ويضطر عبيد الله بن قيس الرقيات هذا إلى مدح عبد الملك بن مروان بعد مقتل مصعب فيقول :

إن الأغر الذى أبوه أبو العـــاصى   عليه القباب والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه   على جبين كأنه الذهب(٣)

---

(١) هاشميات الـكميت ص ٢٠ ، ٢١ ـ والشعر والشعراء لابن قتيبة ـ والأغانى ـ ورئموها : عطفوا عليها ولزموها ، وقد رئمت الناقة ولدها ، عطفت عليه ولزمته ـ والظئر : العاطفة على ولد غيرها ، المرضعة له فى الناس ـ وأشبلوا عليها : عطفوا عليها وأعانوها ـ وتحدبوا : تعاقوا وتعطفوا .

(٢،٣) الشعر السياسى للأستاذ الشايب ص ٢١١ وما بعدها . والمنتخب للدكتور طه حسين وآخرين ج ٢ ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

فينقده عبد الملك ويقول له : تمدح مصعبا بأنه شهاب من الله ، وتمدحنى كأنى ملك العجم . . .

ويركن شعراء الخوارج إلى التمسك بتقوى الله والتعلق بتعاليم القرآن الكريم وبأنه لافضل لامرىء على آخر إلا بتقوى الله ، ولا دخل للنسب ولا الحسب ولا الجاه فى ولاية الحكم . وأن الخلافة يليها الأتقى ولو كان عبدا حبشيا ، وكانوا إلى الحماسة والفدائية أقرب .

وهذا أحد شعرائهم : « الطرماح بن حكيم » يقتاد جواده ويقذف بنفسه فى المهالك فرارا من بطش الخلفاء ، مغامرا فى سبيل نصرة مبادئه ومبادىء حزبه حتى الموت . وهو نموذج لكثير من أبطال الخوارج . يقول :

وإنى لمقتاد جوادى وقاذف ... به وبنفسى العام إحدى المقاذف

لأكسب مالا أو أؤول إلى غنى ... من الله يكفينى عداة الخلائف

فيارب إن حانت وفاتى فلا تكن ... على شرجع يعلى بخضر المطارف

ولكن قبرى بطن نسر مقيله ... بجو السماء فى نسور عواكف . الخ(١)

وحل العباسيون فى الملك والخلافة محل الأمويين ، إذ دالت دولتهم عام ١٣٢ هـ . ولم تدل معهم العصبية ولا الحزبية وبرزت المناهضة بين العباسيين والطالبين ، وبين العرب والعجم « الشعوبيين » . وكان لذلك صدى فى الشعر .

ويحتج مروان بن أبى حفصة للعباسيين على الطالبيين بقانون الميراث الإسلامى ، فيقول إن بنى البنات لا يرثون كما يرث الأعمام . ومعنى ذلك أن العباسيين أحق بالخلافة من الطالبيين .

ولما عقد المهدى البيعة لابنه الهادى ، قال مروان بن أبى حفصة يمدح المهدى :

---

(١) المنتخب ج١ ص ٧٢، ٧٣ ـ والشرجع : الكرسى المستطيل ـ والمطارف : الوسائد الحريرية.

يا ابن الذى ورث النبي محمدا دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون ـ وليس ذاك بكائن ـ لبنى البنات وراثة الأعمام(١)

فغضب الطالبون من مروان ، ورد عليه شاعرهم محمد بن يحي بن أبى مرة التغلبي يقول :

لم لا يكون وإن ذاك لكائن لبنى البنات وراثة الأعمام
للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام(٢)

ودعبل الخزاعى كان شيعيا يمدح العلويين ويهجو العباسيين . ويقول متعجبا متوجعا ، فى مدحة مدح بها على بن موسى الرضا ، بخراسان :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجمرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقسما وأيديهم من فيئهم صفرات
بنات زياد فى القصور مقيمة وآل رسول الله فى الفلوات(٣)

وضعفت نزعات السياسة رويدا رويدا ، وخبت جذوة مناهضتها للعباسيين على الأسس السابقة . واستعان العباسيون بالفرس ثم الترك فى أعمال الدولة وحمايتها . فدخلت عناصر جديدة . قضت على العصبيات والنعرات العربية . واتجه الشعراء حينذاك أكثر مما اتجهوا إلى خدمة الدولة والسير فى ركاب الخلفاء والملوك

---

(١) الشعر السياسى للأستاذ الشايب ص٦ ـ والمنتخب للدكتور طه حسين وآخرين ج٢ ص١٩٢ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الشعر السياسى ص١١ .

والرؤساء والقادة ومدحهم والمنافحة عنهم والإشادة بأعمالهم ووصف فتوحاتهم وتمجيد شجاعتهم ، إلى غير هذا مما يشبهه .

واتصل - مثلا — أبو نواس بالرشيد والأمين . واتصل أبو تمام بالمعتصم، والبحترى بالمتوكل ، والمتنبي بسيف الدولة الحمدانى ، وصارت مدائحهم لهؤلاء سجلا لكثير من أعمالهم فى سبيل الدولة .

وقد كانت قصيدة أبى تمام فى وصف فتح عمورية ، أعجوبة من أعاجيب المدح السياسى ، ونموذجا رائعا لوصف غزوة تمت فى سبيل الدولة وفى سبيل دينها ، وفى سبيل عزتها ونفوذها . ومثالا من أمثلة اتصال شعراء المديح بصميم العمل الرسمى .

وكان المنجمون قد أرادوا المعتصم على أن يؤجل موعد غزو المدينة إلى وقت أكثر مناسبة ، حسبما قرءوا فى الطالع . . . فأبى واستخار الله وغزاها ، فقيض له الحظ النصر الكامل، ففتحها ودك حصونها وأشعل النار فيها ، واستسلم له أهلها صاغرين . .

ويهزأ أبو تمام من المنجمين وكتبهم فى مطلع قصيدته فيقول :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

ويصف الحرب وبعض مشاهدها فيقول :

لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيهم بهيم الليل وهو ضحى ... يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغب. الخ(١)

(١) ديوان أبى تمام - وهبة الأيام للبديعى نشر المرحوم محمود مصطفى .

والمتنبي فى مدح سيف الدولة الحمدانى ، ووصف مغازيه أكثر من قصيدة ، ومنها بائيته التى مطلعها :

فدنياك من ربع وإن زدتنا كربا   فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

وفيها يذكر محاربة سيف الدولة للروم ، وفرارهم أمامه ، ويمدحه ويذكر جهاده :

هنيئاً لأهــل الثغر رأيك فيهم   وأنك حزب الله صرت لهم حزبا
وأنك رعت الدهر فيها وريبه   فإن شك فليحدث بساحتها خطبا
فيوما بخيل تطرد الروم عنهم   ويوما بجود تطرد الفقر والجدبا
سراياك تترى والدمستق هارب   وأصحابه قتلى وأمــواله نهبى
أتى مرعشا يستقرب البعد مقبلا   وأدبر إذ أقبلت يستبعد القربا
كذا يترك الأعداء من يكره القنا   ويقفل من كانت غنيمته رعبا(١)

وأغلب شعر البيئة السياسية فى الأوطان العربية ، يبدو أنه مشى على هذه السنة أمداً طويلا ، فى جملة أمره حتى العصر الحديث . أعنى عصر النهضة بمصر .

بدأ هذا العصر بمجيء الحملة الفرنسية على مصر ، فبدأ اتصالها بالخارج الذى كانت قد انقطعت عنه ، وانقطعت عنها أخباره منذ أمد طويل .

وقد كانت أهم دعائم النهضة استمرار اتصال مصر بالخارج بالبعثات التعليمية واستيفاد الأساتذة، وبالترجمة والنقل من الآداب والمعارف الأوربية . ثم بانتشار التعليم والمطابع والصحف ، وإقبال الشعب على الثقافة بأنواعها ، وإقبال قادته على تنبيهه وإيقاظه إلى حقوقه وواجباته السياسية والوطنية ، إلى غير ذلك .

ولقد كان لذلك أثر كبير فى يقظته السياسية ومطالبة الحاكمين بمراعاة حقوقه

---

(١) ديوان المتنبي .

وضرورة اشتراكه فى الحـكم درءا للظلم ومنعا للجور وضمانا لتحقيق المصلحة العامة . وتيسيرا لترقية مستوياته ، وتوصلا إلى مستقبل أعز وأكرم .

وفى سبيل هذه الغايات الوطنية النبيلة ، قامت ثوراته المتتابعة من لدن ثورة عرابى عام ١٨٨٢ م إلى ثورة جمال عبد الناصر المباركة عام ١٩٥٢م . وقد شهدت الأمة عددا من أفذاذها وأعلامها الوطنيين الأبطال ، ممن عملوا على إسعادها ورفعة شأنها وكسب حقوقها ومكافحة المستعمرين والحكام الفاسدين والمستغلين .

وانتهت ثورة عرابى بالاحتلال الإنجليزى المشئوم ، الذى ظل جاثما على أنفاس المصريين أكثر من سبعين عاما ، حتى طرده رجال ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م بقيادة جمال عبد الناصر .

وكانت مصر فى أوائل الاحتلال ذات صلة اسمية بتركيا ، وذات تبعية شكلية لها ، فكان يتداول عقول بعض أبنائها وقلوبهم ، الرغبة فى الاستقلال ، والإبقاء على الصلة بتركيا ، توصلا إلى إخراج المحتلين الإنجليز من أرضها .

وطالب أبناؤها فى ثوراتهم المتتابعة بإصدار دستور يجعل الشعب مصدر السلطات ، ليقضى بذلك على حكم الفرد الذى كان إحدى ذرائع الاحتلال . وصدر الدستور أكثر من مرة . وشهدت البلاد عدة هيئات نيابية فى مناسبات عدة .

بسبب هذه الحالة قامت الأحزاب السياسية بمصر ، وتعددت وتعادت وتنافست ، وتطورت بينها المنافسة حتى صارت سعيا إلى الحكم والوظائف وما زالت الأحزاب ذات أثر فى حياة البلاد ومعايشها واتجاهاتها ، بل وصحفها وتعليمها وتعليماتها ، حتى قضت عليها جميعا ثورة ٢٣ يوليو .

أعتقد أن الشعر بمصر فى هذه الحقبة إلى يومنا - على الرغم من ظروف السياسة وصعابها - كان مرآة لهذه الحياة السياسية . ووجدت البيئة السياسية فى شعرائها قلوبا مستجيبة وألسنة معبرة . وأن مجموع ما نظموه فى المجال السياسى ،

يعبر إلى حد كبير ، عن هذه الحياة ، بآمالها وآلامها ، وأدواتها ووسائلها ، وبماسادها من وفاق أو خلاف ، أو تعاون أو ائتمار ، أو هدف عام أو خاص . وما كان يتخللها من ثورات أو مفاوضات ، أو نحو ذلك .

ويضيق نطاق هذه الوجازة ، عن أن ترسم صورة صحيحة مكتملة ، لشعر البيئة السياسية فى هذه الحقبة ، بل هذا يستأهل رسالة مستقلة . ونعتقد أن ماحظيت به البيئة السياسية من نتاج الشعراء ، أوسع مدى وأفسح دائرة ، مما كان منه فى العصور الماضية .

ولعلك لن ترى شاعراً من شعراء مصر الحديثة ، عاش متواريا جملة ، عن المجال السياسى ، ولم يدل بدلوه فى الدلاء . إما بشعر سياسى خالص لوجه السياسة يشرح فيه وجهة نظر ، ويسوق أدلة . أو يصف حادثة وطنية ، وما صحبها من المشاعر . أو يتجه إلى حزب معين فيمجد بعض أعماله ، أو إلى الأحزاب جميعها فيخاطبها فى أمر يعمها ، وإما بشعر فيه مديح أو هجاء أو رثاء أو حماسة ، يصور فيه بطلا وطنيا أو جبانا مارقا إلى غير ذلك .

ومن لدن عرابى حتى اليوم ، والشعر الوطنى والقومى ، وما يتصل به من الأغانى والأناشيد ، ينظم معبرا عن نزعات البلاد ووقائع سياستها رساستها . وكذلك الشعر الهادف إلى الوحدة ، والداعى إلى جمع شمل العرب ، أصبح ، منذ ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ م ، فى مقدمة ألوان الشعر التى يقبل عليها الشعراء لأنها تلمس من الجمهور المصرى والعربى ، شغاف قلبه وأعصابه ، ويعبر عن آماله وعن عميق مشاعره ودقيق خواطره .

وقد خاض شعراء مصر ، غمار السياسة ، بشعرهم ، مستجيبين لنداء بيئتهم ، ومنهم : البارودى وشوقى وصبرى وحافظ وعبد المطلب والجارم والرافعى ومحرم الكاشف .

ويتفاوتون فى العقيدة والمبدأ ، وفى الاتجاه والوسيلة ، وفى الظروف والملابسات . فليسوا جميعاً سواء .

لقد كان البارودى أحد المبكرين . وكان – وهو الشاعر الفحل ، والرائد الأسبق للشعر الحديث – فارساً مغوارا ، ومحاربا صنديدا ، وضابطا فى الجيش ومشاركا فى الثورة العرابية ، وأحد رجالها البارزين وقد خاض جملة من الحروب عاناها وكابدها بنفسه . فوصفها ووصف معالمها ومشقاتها وبلاءه فيها ، ومن هنا كانت حماسياته وفخرياته ممزوجتين . وقد وصف الحروب التى عاشها والثورة التى شارك فيها ، وتحدث عن دوره من وجهة نظره . إلى غير ذلك . .

يقول من قصيدة فى وصف حرب إقريطش :

فالبدر أكدر والسماء مريضة ‏ ‏ والبحر أشكل والرماح دوان

والخيل واقفة على أرسانها ‏ ‏ لطراد يوم كريهته ورهان . . الخ [1]

ويعرض بالحاكم المستبد ، فيقول مهدداً متوعداً :

يأيها الظالم فى ملكه ‏ ‏ أغرك الملك الذى ينفد

أصنع بناماشئت من قسوة ‏ ‏ فالله عدل والتلاقى غد

ويحاول أن يبرىء نفسه من تبعته فى الثورة العرابية ، ويصف مبادرته إليها ثم تخاذل أصحابه ، وحنثهم بمواثيقهم ونصحه لهم :

دعونى إلى الجلى فقمت مبادرا ‏ ‏ وإنى إلى أمثال تلك لسابق

فلما استمر الجد ساقوا حمولهم ‏ ‏ إلى حيث لم يبلغه حاد وسائق

فلا رحم الله أمرأ باع دينه ‏ ‏ بدنيا سواه وهو للحق رامق

(١، ٢) راجع ديوان البارودى شرح الشيخ شريف ج ١ ص ١١٩ – وراجع « فى الأدب الحديث » للأستاذ عمر الدسوقى ج ١ تحت عنوان « الشعر السياسى » – والأرسان : جمع رسن بفتحتين الحبل ، وما كان من زمام على الأنف .

على أننى حذرتهم غب أمرهم   وأنذرتهم لو كان يفقه مائق(١)

وكان شوقى قبل عام ١٩١٤ م ، موظفاً بقصر الخديوى عباس الثانى ، ومقربا إليه ، فكان بحكم مركزه هذا شاعر القصر يصدر عما يصدر عنه صاحبه . وكان عباس قد ترجح بين الحملة على الإنجليز وبين موادعتهم ، كما تقلب بين الرغبة فى تحقيق المطالب الوطنية ومعاونة زعمائها ، وبين إغفالها وإغفالهم .

فكان شعر شوقى فى هذا الميدان رجعا — فى جملته — لسياسة عباس ولهواه .

ولكنه بعد أن نفى إلى الأندلس ، وعاد إلى مصر ، وابتعد بحياته عن حياة القصر ، وتغيرت به أوضاع الحياة ، ولم يعد مرتبطا بمنصب يخشى عليه من الضياع ، اتجه بجمع نفسه إلى الشعب ، فكان ـ فى جملته ـ شاعر الشعب فى هذا الميدان ، يرجع مشاعره ، ويغنى خواطره .

سافر سعد زغلول إلى أوربا للمفاوضة ، فأطلق عليه أحد الشبان طلقا ناريا ، وهو فى محطة القاهرة فأصابه . فرجع ولم يسافر ، وحمل للمعالجة . وضجت البلاد لهذا العدوان الآثم ، والتاعت التياعا بالغا . وخشيت على زعيمها آنذاك أن يناله الأذى ، وهو رمز آمالها .

وقد عبر شوقى عن شعورها إزاء هذا الحادث ، كما صوره تصويراً جميلا ، ورد فيه مايردده الشعب من أحلام وآمال . قال فى نونيته :

نجا وتماثل ربانها   ودق البشائر ركبانها

ويقول :

نجا نوحها من يد المعتدى   وضل المقاتل عدوانها

---

(١) راجع ديوان البارودى ، شرح الجارم ، ج ١ ص ٢٥٣ ـ وج ٢ ص ٣٣٧ .

وقى الأرض شر مقاديره لطيف السماء ورحمانها
ونجى الكنانة من فتنة تهـددت النيل نيرانها

وينعى على الشباب الجاهل اللاعب بالنار دون روية أو فطنة ، فيقول :

أرى مصر يلهو بحد السلاح ويلعب بالنار ولدانها
وراح بغير مجال العقول يجيل السياسة غلمانها

ويقول مخاطباً سعداً :

ويا سعد أنت أمين البلاد قد امتلأت منك أيمانها
فإن شئت فارض وإن شئت دع فأنت الحقوق وميزانها
ولن ترتضى أن تقد القناة ويبتر من مصر سودانها ... الخ[1]

ولما استفحل الخلف بين الأحزاب وعانت البلاد منه ما عانت ، عنفهم شوقى تعنيفاً قاسياً ، فى قصيدة نظمها فى الذكرى السابعة عشر لمصطفى كامل ، فقال وهو يعبر بذلك عن شعور الجماهير .

إلام الخلف ياقومى إلا ما وهذه الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما
وأين الفوز لا مصر استقرت على حال ولا السودان داما
وأين ذهبتم بالحق لما ركبتم فى قضيته الظلاما
لقد صارت لكم حكما وغنما وكان شعارها الموت الزؤاما .. الخ[2]

والشوقى فى مجال السياسة أبيات وطنية سائرة منها قوله فى وصف الوطن وحبه :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

---

(١) الشوقيات ج ١ ص ٣٣٢ - وصحيفة الأهرام إثر الحادث .
(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٧٤

ومنه فى حكم الفرد :

زمان الفرد يا فرعون ولى   ودالت دولة المتجبرينا

ومنه فى طلب الدستور ، مخاطبا الملك فؤدا :

فعجل يا ابن اسماعيل عجل   وهات النور واهد الحائرينا

ومنه فى الاحتياط لكراسى النيابة :

دار النيابة قد صفت أرائكها   لا تجلسوا فوقها الأحجار والخشبا

إلى غير ذلك .

وفى مراثيه لأعلام الجهاد الوطنى سطور وطنية ناطقة معبرة عن خواطر مصر وعما يجيش بصدور أبنائها .

وكان شوقى ـ كمصر ـ ذا هوى فى العروبة والشرق والإسلام . ولم يقصر عند كل مناسبة أن يظهر عواطفها إزاء هذه النواحى الثلاث . وفى عام ١٩٢٦ م أقيمت حفلة لإعانة منكوبى سوريا ، فنظم شوقى هذه القصيدة :

سلام من صبا بردى أرق   ودمع لا يكفكف يا دمشق

ومعذرة اليراعة والقوافى   جلال الرزء عن وصف يدق

ويقول :

وبى مما رمتك به الليالى   جراحات لها فى القلب عمق

ويقول ، وترى نزعة العروبة والوحدة فى أبياته :

نصحت ونحن مختلفون دارا   ولكن كلنا فى الهم شرق

ويجمعنا إذا اختلفت بلاد   بيان غير مختلف ونطق [١]

---

(١) الشوقيات ج ٢ ص ٨٨

ولحافظ إبراهيم فى باب الشعر السياسى والوطنى باع طويل وصراحة وصرامة. وبخاصة قبل أن يوظف بدار الكتب ويحرص على وظيفته حرصا عاق قلمه ولسانه ، وكبت مشاعره الوطنية فى صدره ، فندر إفصاحه عنها .

ومن أكثر قصائده الوطنية التياعاً وحرقة ، وأدقها تعبيراً عن مشاعر قومه ، قصيدته فى حادثة دنشواى المشهورة ، بعد صدور الحكم فيها . وقد سخر فيها من الإنجليز سخرية شديدة وقال :

ليت شعرى أتلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عادا
كيف يحلو من القوى التشفى من ضعيف ألقى إليه القيادا
إنها مثلة تشف عن الغيظ ولسنا لغيظكم أندادا

وينعى على المدعى العمومى « إبراهيم الهلباوى » الذى أيد الاتهام ، وكان ـ وهو المصرى ـ فى صف أكاذيب الإنجليز . فكان هو موضع السخط من الشعب . قال الشاعر يخاطبه :

أيها المدعى العمومى مهلا بعض هذا فقد بلغت المرادا
قد ضمنا لك القضاء بمصر وضمنا لنجلك الإسعادا
فإذا ما جلست للحكم فاذكر عهد مصر فقد شفيت الفؤادا
لاجرى النيل فى نواحيك يامصر م ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يا مصر م فأضحى عليك شوكا قتادا
إلى قوله : أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا (٢)

---

(٢) ديوان حافظ ج ٢ ص ٢١ ـ و« فى الأدب الحديث » للأستاذ عمر الدسوقى ج ٢ ص ١٠٢ الطبعة الثانية

ثالثا — فى البيئة الثقافية

وأثر الثقافة فى توجيه الآداب والشعر ، واضح ملموس ، سواء أكانت الثقافة محلية أم وافدة أجنبية ، واستجابتهما لأنواع الثقافة ، ظاهرة لا تنكر .

وقد كان للعرب فى جاهليتهم ، إمارات فى أطراف الجزيرة ذات حضارة ومدنية — كإمارات المناذرة فى الشرق ، وإمارة الغساسنة فى الشمال(١) ، وملك التبابعة فى الجنوب « اليمن » — فضلا عن مكة وعن المدينة « يثرب » ، الواقعتين على طريق تجارى قديم .

وكانت مكة ، بوجه خاص ، ونظراً لسوقها ووقوعها فى كنف البيت الحرام ، مركزا لحركة تجارية قوية(٢) .

ويدلك على مبلغ حضـــارة الغساسنة ، أبيات حسان بن ثابت والنابغة الذبيانى ، فيهم :

يقول حسان بن ثابت يمدحهم :

يمشون فى الحلل المضاعف نسجها   مشى الجمـــال إلى الجمال البزل

ويقول :

يسقون درياق الرحيق ولم تكن   تدعى ولائدهم لنقف الحنظل (٣)

ويقول النابغة الذبيانى فى مدحهم :

---

(١) راجع أمراء غسان لنولدكة ، تعريب الدكتور بندلى وآخر ، وبخاصة ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) راجع تاريخ الفلسفة فى الإسلام للأستاذ ت . ج دى بور ، تعريب الأستاذ أبى ريدة ص ٣ و ٤

(٣) البزل : جمع بازل وهو البعير الذى طلع نابه . — والدرياق : الترياق والخمر — والرحيق : الخمر أو أطيبها أو أفضلها . — والنقف : شق الحنظل .

رقاق النعـــال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب
تحييهم بيض الولائد بينهم وأكسيةالإضريح فوق المشاجب(١)

أما حضارة اليمن ، فقد تحدث عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال» ...

فكانت البلاد ذات زرع وضرع ، وبناء وهندسة . وقد أقيم فيها سد مأرب المشهور ، الذى هدمه سيل العرم ، فى نحو عام ١١٥ قبل الميلاد .

وقد كشفت حديثاً بعض النقوش اليمنية ، وتبين منها شيء من تاريخ سكان اليمن القدماء ، الذين كونوا بها دولا ذات حضارة من معينية وسبئية وحميرية ، يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد بعشرات السنين . وقد كانت لهم قدم راسخة فى المدنية ، وعرفوا بالبذخ والترف . لقد كانت حضارتهم وليدة التجارة ، وكانت ترد إليهم السلع من الهند والصين وجزر الهند الشرقية وسواحل إفريقية . وكانوا يفدون بها إلى الشام وإلى سواحل البحر المتوسط . فأفادهم ذلك غنى وثروة(٢) .

أما أغلب عرب الجزيرة العربية ، فقد كانوا يعيشون فى أرجاء الجزيرة ، أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، إلا قليلا منهم . وكانوا مع هذا ، على شيء من العلم الضرورى ، الذى تقتضيه حياتهم ومعيشتهم ، فى وسط هذه الصحراء الواسعة ، وذلك كعلم النجوم والطب عن طريق التجربة ، وكمعرفة الأنساب ، وحفظ الأخبار والسير والفراسة والزجر ، ونحو ذلك .

واعتقادنا أن هذه الألوان الثقافية ، كانت فردية ، ولم تكن عامة فى متناول كل إنسان . ويبدو أن التجربة والخبرة كانت أهم وسائل الثقافة . لذلك نجم من

---

(١) الحجزة : معقد الإزار . وهو الوسط والخاصرة ـ ويوم السباسب : هو يوم السعانين وهو من أعياد النصارى وكان من أيامهم ـ والإضريح : الخز الأحمر ـ والمشاجب : ما يعلق عليه الثياب .

(٢) راجع «النابغة الذبيانى» لعمر الدسوقى ص ٧ و ١٣ و ١٤ و ٢٤ و ٢٥ و راجع هامشها .

بينهم حكماء عقلاء ، وشعراء ممتازون ، يدل شعرهم على عقل حصيف ، وحس مرهف ذى ثقافة ومعرفة .

ولعل أثر الثقافة الجاهلية فى الشعر ، يبدو فى هذه المحاجاة ، التى وقعت بين عبيد بن الأبرص وامرىء القيس ـ إذا صحت روايتها ـ ولعلها أقدم محاجاة أو ملاغزة أدبية ، نسبت لأديب :

وقد قيل إن عبيد بن الأبرص ، كان يوجه السؤال إلى امرىء القيس ، عن شىء يعميه عليه بصفات غامضة واسعة الاحتمالات ، فيجيبه امرؤ القيس ، مفصحا عن حقيقة المسئول عنه .

وكانا قد تلاقيا . فقال له عبيد : « كيف معرفتك بالأوابد » ؟ . فقال : « قل ما شئت تجدنى كما أحببت » . فقال عبيد :

ما حية ميته قامت بميتها ... درداء ما أنبتت سنا وأضراسا

فأجابه امرؤ القيس :

تلك الشعيرة تسقى فى سنابلها ... فأخرجت بعد طول المكث أكداسا

فقال عبيد :

ما السود والبيض والأسماء واحدة ... لا يستطيع لهن الناس تمساسا

فأجابه امرؤ القيس :

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها ... روى بها من محول الأرض أيباسا[1]

ولعل أثر الثقافة أو التجربة ، باد أيضا فى حكمة زهير بن أبى سلمى . وبخاصة فى معلقته . وهى تدل على رجاحة عقل . ودقة نظر ، وعمق فهم لطبائع الناس وأخلاق المجتمع وحاجاته . مع معرفه بالله وباليوم الآخر . ويعد بعض حكمه من إرهاصات النبوة الجديدة .

---

(١) راجع شعراء النصرانية ج ١ ص ٩ ط بيروت ـ والدرداء : التى لا أسنان لها .

يقول زهير فى معلقته :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

ويقول :

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم . . الخ[1]

وبدهى أن أثر الثقافة فى الشعر ، لا يقتصر على بروزه فى شعر ثقافى ذى موضوعات علمية أو أدنى إلى العلم . فإن خطر الثقافة عظيم ، فهو يعين على خلق المعانى وتوليدها ، ويساعد على حسن إخراجها ودقة تصويرها ، فضلا عن تنبيه الخواطر إلى الموضوعات الكبرى والأحداث الهامة ، وإثارة العاطفة ، وإفساح المجال أمام الخيال .

إلا أنه لا شك أن ندرة الثقافة وانتشار الأمية وضعف اختلاط العرب حينذاك بغيرهم من الأمم ، كان له أثر فى النتاج الشعرى ، بدا أحيانا فى ضحالة المعانى وقربها وسطحيتها ، وفى سذاجة التشبيهات وحسيتها ، وفى قلق الارتباط بين أبيات القصيدة الواحدة ، إلى غير ذلك . وإن عج الشعر بالألفاظ الغريبة .

إلا أنه لا شك أيضا أن الأساليب الجاهلية بتراكيب جملها وعباراتها والملائمات الصوتية فيها نمت عن ذوق وموسيقا كانت فى جملة الأسباب التى قيضت لها سلطاناً وفرضت لها نفوذاً على أذواق الشعراء بعد العصر الجاهلى ، فظلت لهم نموذجا يحتذى ومثالا يقتدى به ، زمنا طويلا .

---

(١) راجع ديوان زهير بن أبى سلمى ، وكتب المعلقات . ونهاية الأرب ج ٣ ص٥٩ ـ والخليقة: الخلق والطبيعة ـ والمنسم خف البعير .

وأقبل الشعب العربي يجمع نفسه على الثقافة فى العصر العباسى بألوانها المختلفة من محلية لغوية وأدبية ودينية، ومن وافدة مترجمة عن اليونانية والفارسية والهندية فى علوم المنطق والفلسفة والحكمة والفلك والطب والتنجيم وغيرها . وبتوالى الأيام اكتسب الشعب ملكة علمية ومقدرة عقلية ، وبدت آثار الثقافة الجديدة على شعر شعرائه .

بدت فى الشعر بعامة، فى جميع بيئاته . وبدت فى موضوعاته ومعانيه وأفكاره. بدت - مثلا - فى الموضوعات فابتدع شعر العلوم والقصص وشعر الحكمة والفلسفة . وبدت فى المعانى والأفكار والتصورات ، فابتكرت ودقت وعمقت ورتبت ، وهذبت وولدت ، ودخلت المعانى العلمية والمصطلحات ميدان الشعر ، ولونت معانيه بألوانها ، إلى غير ذلك . وبدت فى الأساليب فدخلها التصنيع والهندسة والتعقيد واصطناع البديع والتأنق فى تخير اللفظ وترقيقه وإبعاده عن الغرابة والصلابة والحوشية[١] .

ولعل أبا تمام والمتنبي وأبا العلاء أمثل النماذج للتدليل على ذلك .

وقبل أن نعرض عليك شيئا من شعرهم . نذكر أن هناك نوعا من الشعر جديدا ظهر فى هذا العصر نتيجة مباشرة لانتشار الثقافة العلمية والإقبال على التعلم وشعر العلوم وذلك بنظم حقائقها شعرا فى مزدوجات أو أراجيز ، حرر الناظمون فيها أنفسهم من ربقة القوافى التقليدية . ويبدو أن الرغبة الأساسية من هذا النظم ، كانت تهدف إلى تيسير التعليم على الناشئة ، والمحافظة على العلم وحقائقه ، إذ الشعر أسهل فى الحفظ وأقرب استحضاراً من النثر . وقد نظموا فى علم النجوم والطب والنحو والتاريخ والفرائض والفلسفة وعلم الحيوان[٢] .

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى لشوقى ضيف ص ٩١ وما بعدها . انظر الفصل الثالث والرابع والخامس .

(٢) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى للدكتور محمد مصطفى هدارة ص٣٠٧ ومابعدها.

ويرى بعضهم أن الشعر التعليمي بدأ قبل ذلك ، في العصر الأموي . إذ كانت مجالس العلم والأدب واللغة قد انتشرت ، واتجهت أو اتجه بعض العلماء إلى العناية باللغة وجمع متونها وإبراز قواعدها . وكانوا يشافهون الأعراب لذلك ويستقدمونهم أو يقدمون عليهم ، وبرز حينذاك الرجاز من أمثال العجاج وابنه رؤبة ، فاصطنعوا الأراجيز وملئوها بالكلمات الغريبة ، حتى لتعتبر متونا لغوية . ويتضح أن هدفها إحياء اللغة ونشرها(١) .

ويبدو أن القصد إلى حفظ حقائق العلم ، بطريق نظمها شعراً ، كان من عمل العصر العباسي . ولعل أبان بن عبد الحميد اللاحقي من السابقين إلى ابتكار هذا النوع من الشعر ، أو من المكثرين منه . فقد نظم في الفرائض وفي تاريخ الفرس والعقائد الفارسية والهندية وفي الأسمار والأساطير الأجنبية . ويقال إنه نظم كتاب السندباد ــ وهو من أصل هندي ــ ونظم كليلة ودمنة وما فيها من حكم على ألسنة الحيوان في أربعة عشر ألف بيت(٢) .

ومن شعر أبان في فريضة الصوم :

هذا كتاب الصوم وهو جامع ... لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المنزل في القرآن ... فضلا على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبي ... من عهده المتبع المرضى . . الخ(٣)

ومن نظمه لكليلة ودمنة .

هذا كتاب أدب ومحنة ... وهو الذي يدعى كليلة دمنة
فيه دلالات وفيه شعر ... وهو كتاب وضعته الهند
فوضعوا آداب كل عالم ... حكاية عن ألسن البهائم . . الخ(٤)

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي لشوقي ضيف ص ٣٤٠ ، وما بعدها .
(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٣٦١ . ــ وفهرست ابن النديم .
(٣) المصدر السابق ص ٣٦٠ .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٦٢ .

وقد وجد هذا الشعر التعليمي رواجا كبيراً لدى الأندلسيين — كما سنشير إليه بعد — .

وتمثل أرجوزة الشاعر الكبير أبي العتاهية المسماة « ذات الأمثال » ناحية من نواحي الشعر التعليمي الذي ظهر في العصر العباسي ، ويعتبر أثراً مباشراً لانتشار الثقافات .

وهي في مجموعها قصيدة تهذيبية تتضمن المواعظ والحكم والنصح والتحذير . ويقف فيها أبو العتاهية من الناس موقف المعلم من تلاميذه ، ويدلل بها على مدى عقله وثقافته ، فضلا عما أخذ به نفسه من الزهادة والنسك بعد حياة لاهية أكثر فيها من التجربة . وهو يقول فيها :

ما انتفع المرء بمثـــل عقله   وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الشباب والفراغ والجدة   مفسدة للمرء أى مفسده
اصحب ذوى الفضل وأهل الدين   فالمرء منسوب إلى القرين . . الخ[١]

أما أبو تمـام فقد اتضحت ثقافة عصره على شعره بأكثر من مظهر في أغراضه المختلفة :

ومن ذلك لطف تصوره كقوله في أبي دلف العجلي .

جم التواضع والدنيا بسؤددها   تـكاد تهـــتز من أطرافها صلفا

وقوله في وصف شتاء خراسان الفارس :

يمسى ويضحى مقيما في مباءته   وبأسه في كلي الأقوام مرتحل

وقوله في هجاء أبي المغيث ـ وكان قد مدحه مراراً ممتاحاً كرمه ، فحرمه ولم يعطه ، وحجبه عن مجلسه ، فـدب اليأس في نفسه منه فهجاه ، فكان مما قاله :

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٦٦ .

هب من له شيء يريد حجابه ما بال لا شيء عليه حجاب
ما إن سمعت ولا أرانى سامعاً أبداً بصحراء عليها باب
من كان مفقود الحياء فوجهه من غـــير بواب له بواب

ومن مظاهر ثقافته ، حكمه ، وقد مهد بها السبيل أمام المتنبي وأبى العلاء . ولم تكن صادرة عن فلسفة خاصة ومبدأ مكتمل ، ولكنها منتزعة من المناسبات ، فى مقام مديح أو هجاء أو رثاء أو غيره . ولكنها تدل على عقلية واسعة أفرهتها الثقافة .

ومن حكمه قوله فى الحظ :

ينال الفتى من دهره وهو جاهل ويكدى الفتى فى دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا هلكن إذاً من جهلهن البهائم

ومن قوله فى الصبر :

ومن لم يسلم للنوائب أصبحت خلائقه طرا عليه نوائبا

ومنها قوله فى لون من الشجاعة :

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

ومنها قوله فى التنقل :

فإنى رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ومن مظاهر ثقافته : استدلالاته العقلية على قضاياه الشعرية كقوله :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

وقوله :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

ومنها إغرابه فى الخيال ، كقوله يمدح بحب القتال :

كأن به غـــداة الروع وردا   وقد وصفت له نفس الشجاع

وكقوله فى العطايا :

تـكاد عطاياه يجن جنونها   إذا لم يعوزها بنغمة طالب[١]

ولأبى تمام مظاهر أخرى كثيرة تدل على سعة تأثير الثقافة المعاصرة فيه .

وللمتنبي فى باب الحكم والأمثال مايربو على كل شاعر ، وتتصل حكمه وأمثاله بنواحى الخلق والمجتمع والسياسة وطبائع الناس .

ومنها قوله :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة   فلا تظنن أن الليث يبتسم

أعيذها نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم ممن شحمه ورم

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره   إذا استوت عنده الأنوار والظلم

وقوله :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله   وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

وقوله :

عش عزيزاً أومت وأنت كريم   بين طعن القنا وخفق البنود

وقوله :

كل حلم أتى بغـــير اقتدار   حجة لاجىء إليهـــا اللئام

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام (٢)

وقد عنى بعضهم بجمع حكم المتنبي . وقد جمعها صاحب الرسالة الحاتمية وأورد

---

(١) ديوان أبى تمام ـ وأخبار أبى تمام للصولى ـ والورد : الحمى .

(٢) ديوان المتنبى .

بجوارها حكم أرسطو المشابهة .

وكان المعرى شاعراً فيلسوفا مؤلفاً ذا رأى وعقيدة . وهو من أكرم ما أنتجت الحركة الثقافية العباسية القائمة على علوم العرب والعلوم المترجمة . وكان زاهدا عفا كريم النفس ، وكان متشائما يبغض الحياة ويدعو إلى الزهد فيها . وقد نعى على أبيه لأنه سبب وجوده . ولم يتزوج لئلا يكون سبباً فى إشقاء غيره ، وكان حائرا كثير التساؤل عن حقيقة الأديان ، وكان متكلما فى الأخلاق والمجتمع ناقدا للأوضاع ، عطوفا على الحيوان لا يأكل منه ما أحل ، نباتيا يجتزىء بالقليل .

وكان شعره صدى لكل أولئك ، وصدى للحياة الواقعية التى يحياها . وبدهى أنه لا يمثل بذلك نزعات العصر الذى يعيش فيه . غير أنه بما أفاد من الثقافة والعلم ، وبما حصل من المعرفة ، وبما درس من أحوال المجتمع ، وجه تفكيره وجهة كان لخصائصه الذاتية أثر فيه وفيما انتهى إليه من مبادىء .

ومن شعره فى جناية أبيه :

هذا جناه أبى علـــى وما جنيت على أحد

ومن عطفه على الحيوان :

تسريح كفك برغوثا ظفرت به   أبر من درهم تعطيه محتاجا

ويقول فى اختلاف الناس :

خلق الناس للبقاء فضلت   أمة يحسبونهـــم للنفاد

إنما ينقلون من دار أعما   ل إلى دار شقوة أو رشاد

وفى أديان الناس :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت   ويهود حارت والمجوس مضلله

اثنان أهل الأرض . ذو عقل بلا   دين وآخر دين لا عقل له (١)

---

(١) اللزوميات وغيره من دواوين أبى العلاء .

ويفلسف ابن الفارض نزعة التصوف . ويقول ـ هو ومن ينهج نهجه ـ بوحدة الوجود ، أى لا موجود إلا الله سبحانه . ولا موجود مستغن بذاته إلا وجود الله أما العالم فليس وجوده من ذاته ولا بذاته ولا لذاته ، ولا قوام له بذاته . وإنما هو عندهم «شأن» من شئون الله . وبعضهم يعبر بأنه فعل من أفعاله . ولذلك ما ثم إلا الله وأسماؤه وأفعاله .

ويقول بوحدة الشهود . وهى عندهم حال تستولى على بعض الصوفية ، يفقد صاحبها التمييز بين نفسه وبين ذات الله ، أو بين المخلوقات وبين الله ، فيرى أن الحوادث هى الله ، وأن الله يخاطبه بها(١) .

ويعبر ابن الفارض عن وحدة الوجود بقوله :

وفى الصحو بعد المحو لم أك غيرها ... وذاتى بذاتى إذ تحلت تجلت

ولما طاب المقام بعرب الأندلس فى بلادهم الجديدة الممتعة الخصبة الطيبة الهواء الجارية الماء ، وأمنوا على أنفسهم عادية الأعداء ، التفتوا إلى ألوان الثقافة وأنواع المعرفة يتدارسونها ويثقفون عقولهم بها ، ويتزودون بها خبرة فى الحياة وفهما للأمور . ونقلوا إلى بلادهم تباعا ، كتب المشارقة فى العلوم الشرعية والعربية ، ولم يعانوا الترجمة والنقل كما عاناها المشارقة ، اكتفاء بما نقلوه عنهم ، ولأنهم لم يختلطوا بأمم ذات حضارة سابقة لها كتب قيمة ، كالأمم التى خالطهم المشارقة .

وما زالوا حتى انتشرت ببلادهم العلوم والمعارف . وغلبت عليهم النزعات الأدبيه أكثر من سواها ، فلم يتعمقوا فى فلسفة ، ولم يتمسكوا بمذهب ،

---

(١) راجع الفلسفة الإسلامية للأستاذ ت . ج . دى بور ، تعريب الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

إلا من ندر من الخاصة . يقول المقرى : « وكل العلوم لها عندهم خطر إلا الفلسفة والتنجيم . فإن لها حظا عظيما عند خواصهم . ولا يتظاهر بها خوف العامة . فإنه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم ، أطلقت عليه العامة اسم «زنديق» وقيدت أنفاسه فإن زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة » ... الخ [1]

وهذه العبارة تمثل فى جملتها عامة الحال فى الأندلس . فقد كان كثير من ملوكها وفقهائها متعصبين ضد هـذه العلوم ، ولم يبح الاشتغال بها إلا أخيراً .

ويبدو مما مر أن الثقافة الأدبية — كما نوهنا — كانت صاحبة السيادة فى تلك البلاد . ولهذا لم يبرز من بين شعرائهم فيلسوف كالمعرى ، أو حكيم كالمتنبى ، أو مصنع كأبى تمام . وعاش شعرهم فى جملته سهلا سمحا غير بعيد الغور ، قريب التناول ، مقبولا من السمع ، مشوقا للنفس ، لمـا امتلأ به من هاجساتها وعواطفها .

وقد تجلى أثر الثقافة هناك فى مظاهر متعددة — فضلا عن تجليه فى بشاشة الأدب والشعر وسعتهما — ومنها ما نظمه الشعراء فى التصوف والحـكم والأمثال ، وفى حقائق العلوم وهذه فنون — كما رأينا — سبقهم بها المشارقة . ولـكن الأندلسيين فاقوهم فى نظم العلوم حتى صاروا أساتذة هذا الفن . ويبدو أن سبب ذلك أن علماء الأندلس كانوا شعراء أو العـكس . وهم نمط مما ستجده بمصر فى العصر المملوكى . لقد اجتمع لهم من العلم والمعرفة ، ومن المقدرة على نظم الشعر ، ما أوحى إليهم بتقييد شوارد العلوم وضبطها وضبط قواعدها فى قوالب شعرية تحفظها من الضياع وتعين على استحضارها وتعلمها .

ونظم ابن هانئ فى الحـكمة فقال :

إنا وفى آمال أنفسـنا طول وفى أعمـارنا قصر

---

(١) نفح الطيب للمقرى ص ١٠٢ ج ١ فى الباب الأول من القسم الأول .

لنرى بأنفسنا مصارعنا ... لو كانت الألباب تعتبر
مما دهانا أن حاضرنا ... أجفاننا والغائب الفكر .. الخ

وممن نظم حقائق العلوم : أبو طالب عبدالجبار ، نظم أرجوزة فى التاريخ[1] وأحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، نظم أرجوزة فى تاريخ بنى أمية بالأندلس[2]، وأرجوزة فى العروض[3]. والشاطبى نظم قصيدة « حرز الأمانى » فى القراءات . وابن مالك الأندلسى نظم الكافية والخلاصة المعروفة بالألفية ، فى النحو . إلى غير ذلك .

ومهما قيل فى هذا اللون من الشعر فهو نظم ثقافى على كل حال .

ولا تعتبر أراجيز التاريخ من الشعر القصصى أو ملاحمه ، لمزايلتها الخيال الشعرى والتصورات الأدبية الجميلة ، ووصف المعارك بما تتطلب من الحماسة ، وتمجيد البطولات ، إلى غير ذلك .

وكانت الثقافة فى مصر قد ركدت ركودا كبيرا فى العصر العثمانى ، بعد هذا الانتعاش الواسع الذى شهدته فى عصر المماليك . فقد عنى العثمانيون عناية كبيرة بتجريد مصر من كل دعائم النهوض . فأخذوا أموالها وكتبها ورجالها وأهل الفن فيها وأوقافها ، حتى أقفلت مساجدها ودور التعليم فيها . وجنوا بذلك على آدابها بعامة ، فصارت ضحلة ضيقة متعثرة .

ثم قيضت لمصر فى عصرها الحديث أسباب النهضة على نحو مابينا فيما سبق . فانتشر التعليم وفتحت المدارس وأرسلت البعثات إلى الخارج وترجمت كتب أجنبية ، وانتشرت الصحف والمطابع ، وطبعت مخطوطات عدة ودواوين شعرية.

---

(١) الذخيرة لابن بسام .
(٢) العقد الفريد ج ٣ .
(٣) العقد الفريد ج ٤ .

وأسست الجامعات ، ونظمت الدراسات العليا وقررت مجانية التعليم . وبذلك اتسع أفق الثقافة وجمعت بين القديم والجديد ، والشرقى والغربى . وحفلت بها دور التعليم والنوادى وقاعات المحاضرات ، وعمرها أعلام العلم والأدب والثقافة من كل لون . وبرزت العناية باللغة العربية الفصحى باعتبارها اللغة القومية .

كان لهذا صدى فى محيط الشعر — ولاريب — كان يقظة فى الأذهان وإثراء فى الأفكار ، وانطلاقا فى الأقلام ، واتجاها إلى التعبير عن حاجة البلاد فى كل نواحيها ، وعدم الوقوف أمام صنعة أو تصنيع ، وإن لم يخل الشعر جملة من الاهتداء بالقدماء ، والاقتداء بهم فى بعض مسالك الشعر .

ونضحت آثار الثقافة على الشعر فى جميـــع ميادينه . فى الميدان السياسى والاجتماعى — كما رأينا — ووجدت أغراض جديدة كمخاطبة الآثار وشعر القصة والشعر التمثيلى ، وكالشعر الوطنى والقومى والأغانى والأناشيد الوطنية .

غير أن آثار الثقافة لم تظهر فى حكمة تساق أو مثل يضرب ، أو فلسفة تشرح . — وإن لم يخل الشعر جملة من هـذه الاتجاهات — غير أن جد الحياة السياسية وجد الحياة الاجتماعية الجديدتين ، لم يدعا مجالا للتخصص فى مثل هذه الأغراض .

وأوضح مابدا أثر الثقافة . فى انطلاق الأفـكار ومحاولة التجديد ، وفى ابتكار المعانى ، ودقة التعبير عن حاجات الأمة . مع الخضوع — خضوعا ما — لبعض أساليب القدماء ومناهجهم ، بتأثير ثقافتهم القديمة ، أو الصلة التى تربطنا بهم .

وقد تعددت — مثلا — معارضات شعرائنا للأقدمين . ومن ذلك قصيدة توفيق البكرى فى رثاء أبيه . فإنه عارض بهـا قصيدة المتنبى فى رثاء جدته ، التى مطلعهـا :

ألا لا أرى الأحداث مدحا ولا ذما   فمـا بطشها جهلا ولا كفها حلما

ويقول البكرى :

سقت رحمة الله الضريح وما ضما   وروت به هاما وروت به عظما

يعز على العلياء أن يسكن الندى   ترابا وأن نلتقى به الحسب الضخما(١)

وعارض شوقى بردة البوصيرى فى مدح الرسول عليه السلام التى أولها :

أمن تذكر جيران بذى سلم   مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

فقال شوقى :

ريم على القاع بين البان والعلم   أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

وعارض شوقى ابن زيدون فى قصيدته التى مطلعها :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

فقال شوقى :

يانائح الطلح أشباه عوادينا   نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

وعارض شوقى سينية البحترى فى وصف إيوان كسرى التى مطلعها :

صنت نفسى عما يدنس نفسى   وترفعت عن جدا كل جبس

فقال شوقى أندلسيته التى مطلعها :

اختلاف النهار والليل ينسى   اذكرا لى الصبا وأيام أنسى

إلى غير ذلك .

وبتأثير الثقافة القديمة ظل بعض شعرائنا يتحدث عن الحيا والغيث ، وعن الناقة والجمل والهودج ، وعن الديار والمنازل ، وعن اللوى والرقمتين . .

ومن الطريف أن يحيي شوقى أم عباس فى عودتها من الخارج إلى مصر ، بقصيدة عصماء يبدؤها بقوله :

---

(١) شعراء مصر للمرحوم الأستاذ العقاد ص ٥٦ ، ٥٧

ارفعى الستر وحيي بالجبين　　وأرينا فلق الصبح المبين
وقفى الهودج فينا ساعة　　نقتبس من نور أم المحسنين
واتركى فضل زماميه لنا　　نتناوب نحن والروح الأمين
قد سقينا بحياك الحيا　　ولقينا حول يمناك اليمين . الخ(١)

واصطنع البارودى بعض ألوان البديع على نمط مسلم بن الوليد وابن المعتز .
ومنه قوله :

هذى الجزيرة فانظر هل ترى أحدا　　ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع

وقوله :

ونادى المنادى للصلاة بسحرة　　فأحيا الورى من بعد طى إلى نشر

وقوله :

دهر يغر وآمال تسر وأعمار تمر وأيام لها خدع

غير أننا إذا نشدنا الحكمة والمثل وجدناهما عند كثيرين من شعرائنا هؤلاء،
ينتزعونها من الملابسات ومقامات القول ، على نمط أكثر العباسيين . وهما على
كل ، نتيجة الثقافة العامة لا الخاصة ، أو ثقافة التجربة لا ثقافة النظر والدرس .

ومن حكم البارودى .

إن الحياة لثوب سوف تخلعه　　وكل ثوب إذا مارث ينخلع

وقوله :

والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر　　وإنما صفوه بين الورى لمع
لو كان المرء فكر فى عواقبه　　ماشان أخلاقه حرص ولا طمع(٢)

ومن حكم شوقى قوله ـ وقد انتزعه من المناسبة :

---

(١) الشوقيات ج ١ ص ٣١٩ .
(٢) ديوان البارودى .

من مات فى فزع القيامة لم يجد قدما تشيع أو حفاوة ساع

قاله فى رثاء المنفلوطى الذى مات يوم أطلق طلق نارى على زعيم البلاد إذ ذاك سعد زغلول. فشغل الناس بالحادث ولهوا عن وداع هذا الكاتب الكبير. وكان المنفلوطى فقيرا حسن التجمل أمام الناس ، يضغط أعصابه ليبدو أمام الناس غنيا مثريا ، حذرا من الإشفاق . فقال شوقى :

ولرب بؤس فى الحياة مقنع أربى على بؤس بغير قناع

والشوقى فى سياق رثاء الزعيم مصطفى كامل :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان

إلى غير ذلك من أمثاله .

وشوقى وغيره ممن يذهبون مذهبه فى الحكمة ، يصدرون فيها عن روح دينية كريمة ، هى سمة من سمات المجتمع المصرى .

وإلى جانب ذلك نشعر بمحاولة الشعراء أن يجددوا فى المعانى والتصويرات . ولا ريب أنهم أجادوا ذلك فى ميدان السياسية والاجتماع ، لامتلاء بيئتيهما بكل جديد .

ويصور شوقى جهل المتعالم هذا التصوير الجديد :

والجهل لا يلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا

لم يخل من صور الحياة وإنما أخطاه عنصرها فمات وليدا (١)

وقد نوهنا فيما سبق ، بالشعر القصصى والتمثيلى ، ويعتبران نصرا للأدب المصرى الحديث وما كان ذلك إلا بسبب تعاطى الثقافات والاطلاع على أدب الغرب والأدب اليونانى .

(١) أبيات شوقى عن الشوقيات .

ويعتبر من الشعر القصصى ، مطولة شوقى « صدى الحرب » (١) التى يصف فيها الوقائع التى جرت بين الدولة التركية واليونانية ، وكانت حينذاك ذات صلة بمشاعر مصر . ومنها « كبار الحوادث فى وادى النيل » لشوقى أيضاً ، التى وصف فيها حوادث مصر ودولها من لدن الفراعنة حتى زمنه(٢) . ومنها « عمرية » حافظ و « علوية » عبد المطلب . وملحمة محرم الكبرى فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومن الشعر التمثيلى . قمبيز . ومصرع كليوبترا . ومجنون ليلى ، وغيرهما لأحمد شوقى . وقيس ولبنى لعزيز أباظة .

وبتأثير الثقافة الجديدة ، اهتم النقاد المحدثون بتوجيه الشعراء نحو العناية بتهذيب شعرهم وصوغه على قواعد وفى اتجاهات معينة . فمنهم من دعا إلى العناية بالمعنى والفكرة ، وإلى وحدة القصيدة دون وحدة البيت . ومن دعا إلى العناية بالشكل والقالب ، أى بطريقة التصوير لأن ذلك هو مجال الفن ومجلاه . ومن دعا إلى الاهتمام بالمضمون أولا ، على أن ينتزع من الحياة الواقعة ومن ملابسات الأمة . ومن دعا إلى الانطلاق من الوزن القافية ، والوقوف باللفظ أو التعبير عند تمام الدفقة الشعورية ، وإلى غير ذلك من ألوان المناهج .

وفى رأينا أنه لم ينهض حتى اليوم مذهب بعينه محدد القواعد والأهداف ، مدعوم بأدلته القوية ، بحيث يأخذ بتلابيب الشعراء بعامة ، ويقهرهم على اعتناقه وتحذيه ، على أساس أنه المذهب الذى تتطلبه البيئة الحاضرة .

وعلى كل فقد كانت هناك ثمرة من حركة النقد ، عبر عنها الأستاذ عمر الدسوقى ملخصا ، فقال :

---

(١) أولها ، بسيفك يعلو الحق والحق أغلب .

(٢) أولها ، همت الفلك واحتواها الماء .

« وكانت الثمرة الطبيعية لكل هذه الآراء فى النقد وفى توجيه الشعراء أن تعددت مدارسه . فمدرسة آثرت الشعر التقليدى العربى فى روحه ومعانيه ، وتشبيهاته وأخيلته ، وموضوعاته وصياغته ، وإن لم تنج من التأثر بمظاهر الحضارة والنهضة القومية وتوجيه النقاد . ومن هؤلاء : عبد المطلب وتوفيق البكرى والجارم وإسماعيل صبرى ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد محرم .

ومدرسة جمعت بين القديم والجديد ، أخذت من الأول حسن الصياغة وطريقة القصيدة ، وتأثرت بالشعراء القدامى فى موسيقاهم ومعانيهم ، وعارضتهم ، وأخذت من الجديد بطرف فى الموضوعات ، والتشبيهات ، وأحيانا فى القالب ، وانفعلت بحوادث عصرها ، من مثل شوقى ومحمود طه المهندس .

ومدرسة قلدت ثم جددت باعتدال دون خروج فى الجملة على قواعد اللغة ، من أمثال مطران والعقاد والمازنى وأبى شادى ، والصيرفى وشيبوب .

ومدرسة آثرت أن تنحو النحو الغربى . وتهجر كل ما يمت إلى الشعر العربى بصلة . ومن هذه المدرسة شعراء المهجر . وأقرب المصريين إليهم شكرى .

أما شعراء الشباب ففيهم نزعات كثيرة لم تتركز بعد ، وهم يقلدون عدة مدارس غربية تقليدا لم يصدروا فيه عن حاجة طبيعية ، أو ضرورة اجتماعية أو سياسية ، كما فعل شعراء أوربا . بل أمعنوا فى التجديد والتقليد . فصار منهم الرمزيون ، والسرياليون ، والواقعيون ، والصوريون . إلى غير ذلك من المذاهب التى ما أنزل الله بها من سلطان فى مصر(١) .

---

(١) فى الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٣٣ فى نهاية الفصل الثالث .

رابعا ــ فى البيئة الاجتماعية

البيئة الاجتماعية أفسح البيئات أمام الشعر ، وأشدها تأثيراً فيه . إنها تتيح له آفاقا عدة . وتفتح أمامه أبواباً للقول لاحصر لها وفيها سعة من الحرية وفرصة للانطلاق . ويغلب أن يكون تعبيره عنها أوسع مدى ، ومظاهر آثارها عليه أوضح بياناً .

وبتأثير البيئة الاجتماعية يتجه الشعر اتجاهات خاصة ، ويطرق أبوابا بعينها .

وإذا كان الشعر الجاهلى قد عبر فأحسن التعبير ، عن ألوان بيئته ، وكان حسن الاستجابة لدواعيها ، فإنه عبر فصدق ، ونطق فأجاد ، عن بيئته الاجتماعية. لقد عودت هذه البيئة الصحراوية أهلها ، على تقاليد وعادات ونظم ، نطق بها الشعر وبينها .

لقد كان من عاداتهم ـ مثلا ـ عشق المرأة وعشق ديارها من أجلها ومن أجل ما لها من الذكريات فيها . لذلك وقفوا على ديارها بعد رحيلها وساءلوها وساءلوا دمنتها ونؤيها ـ وربما وقفوا على الديار لغير ذلك ـ (١) ووصفوا عادات المرأة وبخاصة المرأة المترفة الناعمة . وألمعوا إلى تأثير المرأة فى نفوسهم عند الحروب ـ على الرغم من أنه كان من عادة بعض القبائل وأد بعض بناتها لدمامتهن أو لخوف العار أو الفقر .

وعلمتهم بيئتهم الصحراوية وحياتهم القبلية وحياة الترحل أن يكونوا كرماء ويحبوا الكرم ويمجدوه ويدعوا إلى إكرام الضيف وغوث الملهوف والمحافظة على الجار والدفاع عنه . لأن كلا منهم عرضة لنزول الحاجة وانقطاع السبيل به والاضطرار إلى الاستغاثة والاستجارة .

ونشأتهم على الشجاعة والشهامة والاعتماد على النفس فى هذه البوادى التى

---

(١) النابغة الذبيانى ص ٥٢

لا حكومة فيها ولا شرطة ولا جيش منظم ، فاضطر كل فرد أن يكون جندى نفسه ، وكل قبيلة أن تكون كتيبة نفسها .

وإلى جانب هذا تحلوا بالعفة والحلم والعدل ، وحب الحرية والإباء ، والوفاء ، وكانوا يتمدحون بهذه الأخلاق والصفات ويفتخرون بها . كما افتخروا بحسبهم ونسبهم .

وإن كان قد شاع بينهم حب الخمر والتمتع بالنساء والمقامرة واتخاذ الرقيق والجوارى ، فقد كان منهم من يتخذ المقامرة مثلا فرصة للكرم . فيجود بما يربحه ويكرم به .

وإلى جوار هذه العادات ، كانت الوثنية دين عامتهم ، ولكنها الوثنية المبسطة الساذجة التى تفىء إلى الوحدانية عند المناسبة (١) وقليل منهم المتأله واليهودى والنصرانى .

ووجدت عاداتهم وتقاليدهم هذه ، وغيرها صدى فى شعر شعرائهم .

وهذا امرؤ القيس يفتتح معلقته المشهورة بذكر أحبابه ومنازلهم ، ويقف باكياً ويستوقف صاحبيه عليها ، قائلا :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجته من جنوب وشمال(٢)

وهكذا فعل النابغة فى افتتاح إحدى قصائده :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار   ماذا تحيون من نؤى وأحجار
أقوى وأقفر من نعم وغيره   هوج الرياح بهابى الترب موار(٣)

---

(١) النابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقى ص ٤٩ ، ٥٠ تحت عنوان الصحراء ص ٤٥

(٢) معلقات العرب للدكتور طبانة .

(٣) شعراء النصرانية . وجمهرة أشعار العرب ـ والنؤى : الحفير حول الخيمة أو الخباء ـ يمنع عنه السيل ـ والهابى : تراب القبر ، والتراب الثائر ـ والموار : الكثير الحركة .

ويصف الأعشى المرأة المترفة فيذكر بياضها وطول شعرها وأسنانها المصقولة ومشيتها المتريثة ، وهى عائدة من زيارة جارتها . ووسواس حليها ، وتراخى جسدها من شدة الترف والنعومة :

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوجل
كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل
تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل
ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختتل
يكاد يصرعها لولا تشددها إذا تقوم إلى جاراتها الكسل[1]

وامرؤ القيس يضوع المسك من صاحبتيه كأنه النسيم المعطر برائحة القرنفل :

إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصباجاءت بريا القرنفل

وكانت صاحبته إذا أضحت ترى فتيت المسك فوق فراشها ، وهى تنام حتى الضحا ، وذلك دليل الترف والدلال والسيادة .

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نئوم الضحا لم تنتطق عن تفضل[2]

وكانوا يستبسلون فى القتال استجابة لتحريضها ، ومخافة أن يسبيها الأعداء . يقول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا[3]

وكان تعلقهم بالكرم وحب الكرماء مضرب الأمثال ، ويصف حسان بن ثابت أبناء جفنة ـ الغساسنة ـ بقوله :

---

(١) ديوان الأعشى الكبير الدكتور محمد محمد حسين ـ والغراء : البيضاء ـ والفرعاء : النامية الشعر الطويلته — والعوارض: صفحات العنق ـ والوجى: الحافى — والعشرق : نبات — والزجل : الذى له صوت .

(٢) الحياة العربية للدكتور الحوفى ص ٢٩٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٥ .

يغشــــون حتى ما تهر كلابهم لايسألون عن السواد المقبل (١)

ويفتخر بالكرم والشجاعة والأبناء :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما (٢)

وأمر حاتم الطائى غلمانه بأن يشبوا النار ، وأن يوسعوا فيها لتكبر وتعلو ، حتى تجلب الضيفان . ويحبب إليهم أن يعجلوا بإشعالها:

إذا ما البخيل الخب أخمد ناره أقول لمن يصلى بنارى أو قدوا

توسع قليلا أو يكن ثم حسبنا وموقدها البادى أعف وأحمد (٣)

ويفتخر حسان بن ثابت بسيفه ولسانه :

لسانى وسيفى صارمان كلاهما ويبلغ مالا يبلغ السيف مذودى

ويتمدح عنترة بشجاعته وفروسيته وعفته :

وحليل غانية تركت مجدلا تمكو فريصته كشدق الأعلم

سبقت يداى له بعاجل طعنة ورشاش نافذة كلون العندم

إذ لا أزال على رحالة سابح نهد تعاوره الكماة مكلم

طورا يجرد للطعان وتارة يأوى إلى حصد القسى عرمرم

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم (٤)

وفى أبيات رقيقة مترفة يصف حسان بن ثابت معاقرته الخمر مع أصحابه بجلق :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول

---

(١) ، (٢) ديوان حسان .

(٣) الحياة العربية للدكتور الحوفى ص ٣١٥ .

(٤) معلقات العرب للدكتور طبانة ص ١٨٥ – تمكو : تصفر – والفريصة : واحد الفريص وهى أوداج العنق – الشدق : طفطفة الفم من باطن الخد – الأعلم: يريد الفرس – النافذة : القناة أو الطعنة – والنهد : الفرس الجميل الجسيم – والكماة : الشجعان مفردها كمى .

يمشون فى الحلل المضاعف نسجها مشى الجمال إلى الجمال البزل
ولقد شربت الخمر فى حانوتها صهباء صافية كطعم الفلفل
يسعى على بكأسها متنطف فيعلنى منها وإن لم أنهل
إن التى ناولتنى فرددتها قتلت قتلت فهاتها لم تقتل
كلتاهما حلب العصير فعاطنى بزجاجة أرخاهما للمفصل (١)

ويجمع طرفة بن العبد لذاذاته — وهى الخمر والحرب والنساء — فى قوله :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبق العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى إذا نادى المضاف محنبا كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء الممدد (٢)

ويسجل طرفة عاداتهم فى الدعوة العامة إلى الوليمة فى المشتاة :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر
حين قال الناس فى مجلسهم أقتار ذاك أم ريح قطر
بجفان تعترى نادينا من سديف حين هاج الصنبر
كالجوابى لا تنى مترعة لقرى الأضياف أو للمحتضر (٣)

ويذكر زهير بن أبى سلمى « الله » فى شعره ، « ويوم الحساب » :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم (٤)

---

(١) ديوان حسان بن ثابت .
(٢) معلقات العرب — والكميت : الخمر فيها سواد وحمرة — والمحنب : الفرس يبعد ما بين رجليه بغير اعوجاج — وسيد الغضا : يريد الأسد — والبهكنة : الشابة الفضة اللينة .
(٣) الأغانى .
(٤) معلقات العرب للدكتور طبانة .

ويقسم النابغة « بالله » للنعمان ليذهب ريبته .

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

وكان أمية بن أبي الصلت متألها ، وكان أكثر من ذكر الله في شعره في الجاهلية :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا   بالخير صبحنا ربي ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنه   مملوءة طبق الآفاق سلطانا .. الخ

وتطلع بنو أمية إلى الحجاز ـ بعد أن استقر بهم المقام بدمشق واتخذوها دار خلافة ـ فوجدوا بها بقية من الصحابة وناشئة من أبناء المهاجرين والأنصار ، الذين يعيشون على مجد آبائهم، ممن بنوا بسواعدهم وجهادهم وتفديتهم دولة العرب والإسلام . وأنهم لابد متطلعون إلى الملك متكلمون في السياسة مناهضون للدولة . فرأوا من حسن النظر وبعده أن يشغلوا بالهم بما يقعدهم في عقر ديارهم خاملين وادعين ، لا يتطلعون إلى ملك ولا يناهضون دولة . فأغدقوا عليهم المال والرواتب وأجزلوا لهم في العطاء(١) . فذاق هؤلاء طعم النعمة ـ وكانوا قد بدءوا قبل هذا يذوقونها ـ وجنح بهم الثراء إلى الترف ، وأغرتهم البلهنية بطلب اللذة فشغلوا بالمسامرة والمعاقرة(٢) ، ولهوا بالمنادمة . وفرغت قلوبهم من حب المجد والرياسة إلى العشق والمغامرات . فطابت لهم مجالس الأنس ومحافل الرقص والغناء ، وكثر من حولهم المعينون والمساعدون . واتضح ذلك في المدينة أكثر من سواها .

وهكذا أقبل الحجازيون منهم على حياة ترف ومجون سافرة متنقلة ، وأقبل

---

(١) الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية للدكتور شوقي ضيف ج ١ ص ٣٢ وما بعدها نشر دار الفكر العربي . وعمر بن أبي ربيعة عصره وحياته وشعره لجبرائيل جبور ج ١ ـ طبع بيروت سنة ١٩٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ عن الأغاني ج ١٥ ص ١٥ ـ وعمر بن أبي ربيعة لجبرائيل جبور ج ١ ص ٦١ وما بعدها .

أهل البادية منهم على حياة عشق عفة غالبا ، إذ لم ينالوا من أسباب الغنى والترف ما ناله أهل الحواضر . فكان للفاقة والحرمان أثر فى اتجاه كثير منهم إلى التقوى والتعفف[١] . والشعراء منهم يرتادون زوايا هذه الحياة ، ويعبون مما يعب منه قومهم ، فكان شعرهم صدى لحياتهم هذه .

ونشأ فى الحاضرة ـ مثلا ـ عمر بن أبى ربيعة ، غزلا صريحا رقيقا ، وقصصيا محاورا ، يتعقب النسوة ، ويطلع عليهن فى مآمنهن ، ويلاقى بعض معشوقاته منهن فى خدورهن ، ثم يعود واصفا قاصا مشبعا بذلك نفسه وفنه ، ومصورا حياته وحياة اللاهين من أبناء الحجاز ، ومتنبها إلى نفسية المرأة وحركاتها وإشارتها ، مدركا لأهوائها وعواطفها وخلجاتها[٢] .

ونشأ فى البادية ـ مثلا جميل بثينة ـ أوقيس ليلى ـ عاشقا صدق فى عشقه . ومحبا وهب نفسه لحبه ، وعفيفا لم يفجر ، ومتأبيا لم يفحش ، وعذريا لم يسف ولم يمن . وأودع فى شعره ماصور به حياته وحياة أمثاله من أعفاء نجد والبادية .

ويصف عمر بن أبى ربيعة فى رائيته ، مغامرته بزيارة معشوقته ليلا فى دارها بين حيها ، يقول :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت ... مصابيح شبت بالعشاء وأنؤر

وغاب قمير كنت أرجو غيوبه ... وروح رعيان ونوم سمـــر

ونفضت عنى النوم أقبلت مشية الـ ... ـحباب وركنى خيفة القوم أزور

فحييت إذ لاقيتها فتولهت ... وكادت بمكنون التحية تجهر

وقالت وعضت بالبنان فضحتنى ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر ..الخ

وقبع عمر فى خدر معشوقته ، إلى أن تقضى الليل إلا أقله ، فاحتارا كيف

---

(١) راجع جبرائيل جبور فى كتابه عن عمر بن أبى ربيعة ج ١ ص ١٨٩ .

(٢) مقدمة ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٨ ط بيروت سنة ١٩٦١ م .

يرحل ، ثم أخبرت أختيها، ثم خرجن وهو بينهن إلى أن جاوز الحى . . ويقص عمر هذه القصة تقول معشوقته يقول :

أقص على أختى بدء حديثنا ... ومالى من أن تعلما متأخر
لعلهمـــا أن تبغيا لك مخرجا ... وأن ترحبا صدرا بما كنت أحصر
فقامت كئيبا ليس فى وجهها دم ... من الحزن تذرى عبرة تتحدر
فقالت لأختيها أعينا عـــلى فتى ... أتى زائرا والأمر للأمر يقـدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتـــا ... أقلى عليك الهم فالخطب أيسر
يقوم فيمشى بيننا متنـكرا ... فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فـكان مجنى دون ما كنت أتقى ... ثلاث شخوص كاعبان ومعصر . . الخ[١]

ويصور جميل بثينة ولوعه وحبه وأصالة عشقه فيقول .

أقول لداعى الحب والحجر بيننا ... ووادى القرى لبيك لما دعانيا
فلم تنـكر الداعى ولـكن حبها ... أصيل ويبلى كالذى كنت باليا
فما أحدث النأى المفرق بيننا ... سلوا ولا طول اجتماع تقاليا
كأن لم يـكن نأى إذا كان بعده ... تلاق ولـكن لا إخال تلاقيا
خليلى إن لم تبـكيا لى ألتمس ... خليلا إذا أنزفت دمعا بكى ليا

ويقول :

وأنت التى إن شئت كدرت عيشتى ... وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التى مامن صديق ولا عدى ... يرى نضوما أبقيت إلا رثى ليا[٢]

وقيضت للشعوب فى عصر بنى العباس حرية واسعة ومساواة حرموها من قبل ، فى عصر بنى أميـــة الذين كانوا متعصبين للعرب . فازداد بسبب ذلك ،

---

(١) ديوان عمر بن أبى ربيعة ط بيروت
(٢) ديوان جميل للدكتور حسين نصار،

اختلاطهم وامتزاجهم بالمجاورة والمعاملة والمصاهرة ، ونتج من بعد من الجميع ، جيل عباسى، إسلامى الدين، عربى اللغة، فارسى الحضارة ، يونانى العلم . أوخذت عصبية العرب تتوارى، وتخمد فيهم جذوة التباهى بكرم الأصل والنجار . وأخذوا يدخلون فى طور حضارى واسع النطاق بعيد الآفاق ، انتشرت فيه ألوان الثقافة والمترجمات عن يونان وغيرها ، فى علوم مختلفة ـ وفق ما أشرنا ـ واتسعت الدواوين وغزتها النظم الفارسية. وتغيرت أشكال الدولة فى الزى والشعار وطرق المعيشة بما يناسب مستواها الحضارى ، وانفسح المجال أمام صناعتها وفنونها ، وبنيت العمائر والقصور والبساتين والبرك . وأقبل كثير من الناس على النعيم والتمتع بملاذ الدنيا . وظهرت مفاسد جديدة وانتشرت المجونيات والتبذل ، ومجالس الخمر والأنس والمنادمة والغناء والطرب . ورحلات الصيد والرياضة . وانتهز بعضهم فرصة حرية الرأى فكشفوا عن سريرتهم ودخيلة أفكارهم ، فظهر الزنديق والشعوبى والمتطرف . وظهرت العصبية بين العرب والعجم .

وأقبل الشعراء يصورون فى أشعارهم هذه الحياة الجديدة الحضارية بمحاسنها ومساوئها . فوصفوا قصورها وبساتينها ومجالس أنسها وبركها ومصايدها وصناعتها وأدواتها ، وما يجرى بها من مجون وخلاعة وتهتك وتهالك على الخمر ، أو تهالك على الزهد . وتغزلوا بالمذكر والمؤنث ، واتجه بعضهم إلى الأدب المكشوف . وأتوا فى كل أولئك بالرائع الممتع من حر الشعر ورقيقه . وهذبوا لفظه ورققوا أسلوبه بما يلائم الحياة المترفة ، ونأوا عن الغريب الجاف ، ونعى بعضهم على مسلك الجاهليين فى مفتتح قصائدهم من الولوع بمساءلة الدار ومخاطبة الأطلال .

ولم تخل الحياة حينذاك من كريم بذال يمدح، وشجاع صوال يمجد ، وعاقل رزين يطرى ، ومخلص أمين يثنى عليه ، ووفى حر يصادق ويحب ، ونزيه عف يود ويقدر ، ودمث مواضع يجل ويقتدى به .

وأبو نواس الذى اشتهر بمقارفة الخمر والتهالك على شربها ، استبدل وصفها بذكر الأطلال والديار فى مفتتح قصائده أحياناً ، فقال :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

ويقول :

لا تبك ليـــلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

ويقول واصفاً سكيراً :

ومستطيل على الصهباء باكـرها فى فتية باصطباح الراح حـــذاق
فـكل كف رآه ظنه قدحاً وكل شخص رآه قال ذا ساق

وهو الذى يقول فى عزة النفس :

ومسـتعبد إخوانه بثرائه لبست له كبراً أبر على الـكبر
إذا ضمنى يوما وإياه محفل يرى جانبى وعراً يزيد على الوعر.. الخ(١)

ومن مكشوف غزل بشار قوله :

يا عجباً للخلاف يا عجبا بنى الذى لام فى الهوى الحجر
حسبى وحسب الذى كلفت به منى ومنه الحديث والنظر
أو قبـلة فى خلال ذاك وما بأس إذا لم تحل لى الأزر
أو عضة فى ذراعها ولهـا فوق ذراعى من عضها أثر.. الخ(٢)

ويتغزل ابن الرومى فى « وحيد » المغنية فيقول :

ياخليلى تيمتنى وحيـــد ففؤادى بها معنى عميد
غادة زانها من الغصن قد ومن الظبى مقلتان وجيـد

---

(١) ديوان أبو نواس — والصهباء : الخمر .
(٢) ديوان بشار .

ومن دقيق وصفه لها ولصوتها قوله :

تتغنى كأنها لا تغنى — من سكون الأوصال وهى تجيد
لا تراها هناك تجحظ عين — لك منها ولا يدر وريد
من هدو وليس فيه انقطاع — وسجو وما به تبليد
مد فى شأو صوتها نفس كا — ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه — وبراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طورا ويحيا — مستلذ بسيطه والنشيد
فيه وشى وفيه حلى من النغ — م مصوغ يختال فيه القصيد . .[1]

ويصف ابن الرومى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به — يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
مابين رؤيتها فى كفه كرة — وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة — فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر[2]

ويصف البحترى بركة المتوكل الخليفة العباسى ، وما يبدو فيها من المحاسن وهو شعر حضارى وإن اتصل بشعر الطبيعة :

يامن رأى البركة الحسناء رؤيتها — والآنسات إذ لاحت مغانيها
بحسبها أنها من فضل رتبتها — تعد واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسها — فى الحسن طورا وأطوارا تباهيها

ويقول يصف مياهها :

تنصب فيها وفود الماء معجلة — كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة — من السبائك تجرى فى مجاريها

---

(١) (٢) ديوان ابن الرومى ص ٩٨ اختيار الكيلانى .

إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها . الخ(١)

ومنذ بدء عصر النهضة الكبرى بمصر ، انتعشت حياتها السياسية ، وتعددت فيها وسائل النهوض الثقافي الحضاري ، وأخذ مجتمعها يزيح عن كاهله مخلفات الماضي الثقيلة ، ويحاول جاهدا الوصول إلى مستوى أكرم وأسعد وأنبل . وذلك بإقامة وسائل الحضارة ، واصطناع أسباب المدنية الحديثة . ومنها نشر التعليم وإنعاش التجارة وإنشاء الصناعات وإقامة السدود والحواجز ، وشق الترع وتنمية الزراعة بالوسائل الحديثة ، وتسويق البضائع ، وتجميل المدن وفتح ميادينها وشق شوارعها ، وتزويدها بالبساتين والحدائق والشجر ، وتأسيس دور الكتب والمتاحف والخيالة والمسرح ، فضلا عن تعدد المطابع التي عكفت على طبع الصحف ، وطبع الكتب قديمها وجديدها .

وقد بلغت مصر في حياتها المعاشية بفضل ثورتها الأخيرة إلى مستوى حضاري أسمى ، ومن عناصره الثقافة والثروة والتحرر والابتداع والجد والتعاون .

وقد نبتت بها مشكلات اجتماعية كثيرة منها ما وجد سبيله إلى الحل ، ومنها مالا يزال محل النظر . وقد تناولها الكتاب والخطباء والشعراء بالحديث المفصل الطويل ، بين مؤيدين ومعارضين .

ومن هذه المشكلات : سفور المرأة وحجابها ، وتعليم البنت ، وتوظيف المتعلمة ، ونيابة المرأة ، ومشاكل التعليم وأهدافه ومناهجه . وإصلاح القوانين ومنها قوانين الأحكام الشخصية ، ومحو الأمية ، والاهتمام بشئون العمال والفلاحين والدعوة إلى التجديد ، وتقويم الأخلاق ، والدعوة إلى المحبة والتعاون ، والقضاء على العادات المسترذلة ، والعناية بسعادة الأسرة والطفل والحدث والمريض والمشرد ، وتحري العدالة والمساواة بين النظراء من موظفي الدولة ومن غيرهم . وتوزيع

---

(١) ديوان البحتري ص ١٦ طبع الجوائب — وحبك الماء بضمتين الجعد المتكسر منه . — والجوشن : الدروع ، مفردها جوشن .

الثروة بالطريقة الاشتراكية العادلة المنتجة، وموضوع زيادة النسل وصلته بالثروة العامة . والنزاع بين الفصحى والعامية . وإنهاض الفنون الشعبية. إلى غير ذلك .. ولم تخل هذه الحياة من مباذل الحضارات، ومجاناتها وتقليد الأوربيين فيها .

ولقد وجدت هذه المشاكل أو أكثرها صدى فى الشعر الحديث . وشارك شعراء مصر فيها بالرأى والحث والتوجيه والنقاش ، بأوفى نصيب . وصار كتاب الشعر صفحة مشرقة وسجلا رائعاً للنهضة الحضارية ولنزعات المجتمع .

ومن أطرف ما نظمه حافظ ابراهيم ، فى الدعوة إلى النهوض والتجديد أبيات من قصيدته فى حفل تكريم شوقى وهى قوله :

ملأنا طباق الأرض وجدا ولوعة	بهند ودعد والرباب وبوزع
وملت بنات الشعر منا مواقفا	بسقط اللوى والرقمتين ولعلع
وأقوامنا فى الشرق قد طال نومهم	وما كان نوم الشعر بالمتوقع
تغيرت الدنيا وقد كان أهلها	يرون متون العيس ألين مضجع
وكان بريد العلم عيرا وأنيقا	متى يعيها الإيجاف فى البيد تظلع
فأصبح لا يرضى البخار مطية	ولا السلك فى تياره المتدفع
وقد كان كل الأمر تصويب نبلة	فأصبح بعض الأمر تصويب مدفع
ونحن كما غنى الأوائل لم نزل	نغنى بأرماح وبيض وأدرع
عرفنا مدى الشىء القديم فهل مدى	لشىء جديد حاضر النفع ممتع
لدى كل شعب فى الحوادث عدة	وعدتنا ندب التراث المضيع(١)

ومن اجتماعيات حافظ : اللغة العربية تنعى حظها . والحملة على فوضى الرأى وعدم الثبات عليه. والمنافقة والطمع غير المشروع . وتحيته للناشئين . ومعاضدة الجامعة . والدعوة إلى العناية بالأطفال والعميان ، وإلى تعليم البنت . وهو صاحب هذا البيت المشهور :

---

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ١٣٠ .

والأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وإلى جانب ذلك كانت لحافظ مباذل ومجونيات وخمريات لا بأس من أن نذكرك منها بهذه الأبيات :

أوشك الديك أن يصيح ونفسى بين هم وبين ظن وحدس
يا غلام المدام والكاس والطا س وهيء لنا مكانا كأمس

ويقول :

واسقنا يا غلام حتى ترانا لا نطيق الكلام إلا بهمس
خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى يوم عرس(١)

ويمثل إسماعيل صبرى بغزله دورا من أدوار الغزل ، فى المجتمع المصرى الجديد ، وذلك فى قصيدته الغزلية التى منها هذه الأبيات :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء
فرقتهم فى الهوى ثاراتهم فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذى فيه للأنفس رى وشفاء
لا تذودى بعضنا عن ورده دون بعض واعدلى بين الظماء الخ (٢)

يقول الأستاذ العقاد — رحمه الله — : « وكان إسماعيل صبرى قد تلقى العلم فى فرنسا واطلع على آدابها وآداب الأوربيين فى لغتها . وكان من الاتفاق العجيب أنه اطلع على الآداب الفرنسية وهى فى حالة الذوق القاهرى من بعض الوجوه ، لأنها كانت تدين على الأكثر الأغلب بتلك الرفاهة الباكية التى كان يمثلها لامرتين وإخوانه الأرقاء الناعمون » .

---

(١) ديوان حافظ س ٢٤١
(٢) ديوان صبرى س ١٠٧

وقال أيضاً : « فهنا ذوق وكياسة ، وليس هنا عشق وحرارة . ولن تذكرنا هذه الأبيات بعاشق يهوى معشوقاً يقف عليه نفسه ويطلب إليه أن يقف عليه نفسه . وإنما تذكرنا بنديم قاهرى فى سهرة من سهرات الطرب يلتف مع صحبه بغانية أو مغنية ، يتلطف فى الزلفى إليها والثناء عليها . ولا يشعر من وراء ذلك بلوعة ولا غيرة من المنافسين ، قناعة منه بالراحة بين الأحزاب ، والعدل بين الظماء ، »[١] .

ويذهب الدكتور شوقى ضيف إلى أن هذا الغزل روحانى غير ملتاث برغبات الجسد ، وفيه تقديس للجمال وتصوير له فى خشوع . ومن ثم فلا بأس عنده من أن يفتن به غير الشاعر من رواد ناديه ، وأن ينعموا به ويستظلوا بلوائه[٢] .

ويعارض هذا الرأى الأستاذ عمر الدسوقى ، ويتساءل كيف أن صبرى « المهذب الرقيق الحاشية رجل النادى الذى اشتهر بأنه لا يفحش ، يطلب من محبوبته أن تنزع الثوب عن جسمها أمام الندامى ، لا بل أمام الملأ أجمعين ليروا تكوين سكان السماء . . . ولا شك أن هـــذه فلتة من فلتات صبرى ، ما فطن إليها »[٣] .

والأستاذ الناقد يشير إلى بيت الشاعر من هذه القصيدة :

وانزعى عن جسمك الثوب يرى الملا تكوين سكان السماء

وأعتقد أن الدافع ليس روحانياً كما يقول الدكتور شوقى ضيف ، فأى روحانية هذه التى بين رجل وامرأة غريبة عنه ، ثم أى روحانية هذه التى تدعو إلى التجرد للنظر فى محاسن الجسد .

وأعتقد أن الدافع لا يعدو أن كان الشاعر واقعاً تحت تأثير البيئة وتقاليدها وأوضاعها حينذاك . وقد كانت ترى فى المرأة « العامة » التى تخطر أمام أنظار

---

(١) شعراء مصر للمرحوم الأستاذ العقاد ص ٣٤ و ٣٥ .
(٢) دراسات فى الشعر العربى المعاصر للدكتور شوقى ضيف .
(٣) فى الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٨٠ .

الرجال . ـ راقصة أو مغنية أو ممثلة أو لاعبة أو عضواً فى النادى ـ أنها « جمال للجميع » وأنها نهب مقسم بين الناظرين ، لايليق أن يختص بها دونهم واحدمنهم. ولا تزال هذه النظرة قائمة فى مجتمعنا حتى اليوم .

هذا ، وإسماعيل صبرى قصير الباع فى الشعر الاجتماعى ، لا تكاد تجد فى ديوانه قصائد تنم عن اندماج مشاعره بمشاعر المجتمع على مستوى شوقى وحافظ . ولعل أجود ما نظمه فى هـــذا الميدان قصيدته التى قالها على لسان « فرعون » يخاطب المصريين ويستنهض هممهم إلى العمل وهى التى يقول فيها :

لاتقربوا النيل إن لم تعملوا عملا　　فماؤه العذب لم يخلق لـكسلان

ردوا المجرة كدا دون مورده　　أو فاطلبوا غيره ريا لظمآن

وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم　　لا تتركوا بعدكم فخرا الإنسان .الخ(١)

وكان الشاعر محمد عبد المطلب مدرساً يعانى شقاء المعلم فى عمـــله ، ويشعر بما كانت تعانيه طائفة المعلمين من عنت وإرهاق ، وإنكار الفضل وعدم التقدير ، وبما كانت تقاسيه من الحرمان لدى الدولة والمجتمع ، ولدى الخاصة والعامة معاً ، فلم تظفر بحقوقها أو مساواتها بغيرها من الطوائف المماثلة .

وفى حفلة أدبية أقيمت عام ١٩٢٤ م بنادى طلبة مدرسـة المعلمين العليا نظم قصيدته فى موضوع المعلم وفى مشاكله .

وقد بدأ بأبيات غزلية رقيقة ، كأنما أراد بها أن يثبت لنقاده مقدرته على نظم الشعر الحضارى الغزل ـ فضلا عن تعلقه ببدويته ـ . قال :

على النيل من سيف الجزيرة جؤذر　　هفا تائها والحسن بالتيه يأمر

مدل بريعان الصبا فهو ينثنى　　دلالا كما شاء الجمال ويخطر .... الخ

---

(١) ديوان صبرى ص ١٧٢ .

والواقع أن أستاذنا كان فى غزله مقلداً للقدماء فى افتتاحياتهم .

وقد أفاض فى وصف شقاء المعلم وبين للناس دأبه المضنى وعمله المتواصل وحقه المهضوم :

بنى مصر مابال المعلم كاسفاً   يرى الناس فيها يكبرون ويصغر
سبيل النبيين الكرام سبيله   يعم به الدنيا صلاحا فتعمر
سلوا عنه جنح الليل كم بات متعبا   تنام حواليه النجوم ويسهر
سلوا عنه عيناً قرح السهد جفنها   يخط عليها فى الظلام ويسطر ..الخ(١)

ولعل شوقى أكثر شعراء مصر الحديثة استجابة لأحوالها الاجتماعية وعواطف مجتمعها ، وأوضحهم أداء لصورها الحضارية فله قصائد فى : المديح النبوى ، وهو تعبير كريم عن مشاعر أهل مصر تجاه رسولهم الكريم .

ومنها :

سلوا قلبي غداة سلا وتابا   لعل على الجمال له عتابا ... الخ

ومنها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء   وفم الزمان تبسم وثناء ... الخ

ومنها :

ريم على القاع بين البان والعلم   أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم ...الخ

وقد حلت من قلوب الجماهير المصرية العربية محلها ، وغناها المغنون .

وله قصائد فى وصف آثار مصر :

منها :

أبا الهول طال عليك العصر   وبلغت فى الأرض أقصى العمر ...الخ

---

(١) ديوان عبد المطلب ص ١١١، ١١٢

ومنها :

درجت على الكنز القرون ومشت على الدن السنون .. الخ

ومنها :

قفى يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا ... الخ

وله قصائده فى العمال :

أيها العمال أفنوا العمر كداً واكتسابا . . . إلخ

وفى تحية الشباب وتكريمهم وحفزهم إلى العمل من أجل الوطن :

بأبى وروحى الناعمات الغيدا الباسمات عن اليتيم نضيدا ... الخ

وفى انتحار الطلبة :

ناشىء فى الورد من أيامه حسبه الله أبا لورد عثر ... الخ

وفى تكريم المعلم :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا ...الخ

وفى تكريم الأزهر :

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا وانثر على سمع الزمان الجوهرا ... الخ

وفى وصف الصحافة الحديثة :

لكل زمان مضى آية وآية هذا الزمان الصحف .. الخ

وفى تكريم المؤلفين من أصدقائه :

أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لى صاحباً إلا الكتابا ...الخ

وفى وصف البال :

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب .. الخ

وفى السفور والحجاب :

صداح يامك الكنا روبا أمير البلبل ... الخ

ويضيق المقام دون استيعاب محاسن شوقى فى هذا الباب — وهو وحده يعتبر مرآة ناصعة لكثير من أوضاع المجتمع المصرى الجديد ، وما اعترك فيه من الأفكار ، وما تشابك فيه من العواطف .

بهذه الأمثلة المتعددة ، التى سقناها فى هذه الوجازة ، من أوطان وعصور مختلفة ، نعتقد أننا دللنا على مدى ما كان لبيئاتها من آثار ضخمة فى الشعر ، وأن هذه البيئات صاحبة الأثر الأول والأكبر فى النتاج الشعرى . مع اعترافنا بما يكون لكل شاعر على حدة من خصائص ذات أثر . وأن الشعراء بنتاجهم هذا كانوا أبناء بيئاتهم البررة الأوفياء الذين عبروا عنها وسجلوا أحداثها وصوروا حياتها بما فيها من عواطف وأفكار .

ومصر موطن من هذه المواطن ، وعصرها المملوكى أحد عصورها الطويلة : وها نحن أولاء نحاول فى الفصول القادمة أن ندرس بيئاتها الأربع فى العصر المذكور ، دراسة فيها تفصيل وإحاطة مناسبة ، ونتلمس أثرها فى نتاج شعرائها ، لنعرف إلى أى مدى كانت استجابتهم لها وتأثرهم بوحيها ، وإلى أى مدى — تبعاً لذلك — بلغ مستوى حياتهم وحياتها .

الباب الأول

فى

وصف البيئات المصرية

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

فى

فى وصف البيئة الطبيعية

طبيعة مصر :

مصر بالأمس - فى عصر المماليك ــ هى مصر قبل الأمس ، وكما هى اليوم، فى طبيعتها التى خلقها الله عليها ، طبيعة موقعها ومناخها وفصولها ونباتها ، وتضاريسها ، ونيلها . لم تتغير على مدى السنين إلا لماما وغرارا فى بعض أجزائها.

اللهم إلا فى عصور ما قبل التاريخ يوم كانت أرضها هضبة عالية واسعة فسيحة، قليلة السكان مبعثرة القطان تتضام أجزاؤها ، وتتلاءم أطرافها . وتمتد فيها صحراء مترامية رملية ، إلى جهة الغرب ، ذات تلال وواحات وأغوار ، تتصل اتصالا مباشراً بصحراء إفريقية الكبرى ، وصحراء مترامية أخرى ، إلى جهة الشرق ، ذات صخور وجبال، تتعالى كلما شارفت ساحل البحر الأحمر ـ الذى يفصلها عن آسيا ـ حيث تمتد عليه شواطئها الشرقية . وكان يسمى بحر « القلزم » وفى شمال أحد خليجيه ـ وهو خليج السويس ـ كانت تتصل بصحراء سيناء ، حتى فصلت بينهما قناة السويس التى حفرت فى العصر الحديث .

وتأخذ هذه الهضبة فى الانخفاض فى اتجاهها الشمالى نحو البحر المتوسط ـ « البحر الرومى » ـ حيث تمتد شواطئها الشمالية .

ثم حدث ـ على ما يرويه بعض علماء الجغرافية ـ تشقق فى هذه الهضبة ـ التى هى جزء من الهضبة الإفريقية الشاملة ـ وذلك بفعل زلزال شديد ، صدع أرضها،

وشق سطحها ، وأقام بين جزئيها أخدوداً ضيقاً ، هيأ الماء المنحدر من أعاليه فى الجهات الاستوائية والحبشية ، أن يتدفق فيه ، فيملأ شعابه ويكون لنفسه مجرى ، ويسيل منحدراً نحو الشمال ، ماراً بصعيد مصر ، ثم إلى وجهها البحرى ، مكوناً فى أرضه دلتاه، صابا فى البحر المتوسط « جهة رشيد » ثم تفرع منه إلى الشرق فرع آخر ، اتجه شمالا نحو البحر المتوسط أيضاً صاباً فيه بجوار دمياط .

ومن طمى النهر وغرينه كسا النهر جانبيه ودلتاه طبقة خصبة . وكان لها منه على مدى الأيام الغـــذاء والكساء . ويبدو أن النهر تعددت فى دلتاه فروعه ، وشقت منه جداول عدة كانت تسمى خلجاناً(١) . وسنشير إليها .

هذا الماء أو النهر هو النيل المبارك السعيد ، الذى أجراه الله ـ منذ أجراه ـ لمصر حياة لها ، ومدا لوجودها ، ورزقا ميسراً لسكانها ، وأمناً وجمالا لقطانها .

لقد وهب النيل لمصر بمائه وطميه ، الرى والخصب والطعام والثروة . لقد نجم على جانبيه النبت ، واخضر العشب . ونما الشجر وازدهر ، وهوم الطير وبنى أعشاشه . ونزح الحيوان فاغتذى وروى عطاشه . واطمأن الإنسان ووفدت جماعاته ، لتعيش بجوار النيل على حفافيه ، وتقاربت شعباً وحد الوطن المشترك بينهم ، وجمع البلد الواحد بين قلوب أفرادهم(٢) .

ويجرى النيل فى مصر آتياً من السودان مرفوداً من الحبشة . فيمر على أسوان فى شق من الأرض ضيق ، حوله من كل جانب من جانبيه جبل هو جزء من الهضبة التى أشرنا إليها . ويستمر معه الجبلان إلى الشمال ، وهو يسير نحو دلتاه ، كأنهما حارسان . ويفصل كل جبل عن شاطئه القريب منه فاصل ضيق من أرض زراعية أخصبها النيل وكساها وسقاها .

---

(١) راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٢ — وخطط المقريزى ج ١ ص ١١٢ وما بعدها .

(٢) كتاب مؤتمر النيل ـــ بحث للدكتور سليمان حزين ص ٣٠

وننقل لك هنا شيئا فى وصف طبيعتها ، معتمدين على ماكتبه علماؤها فى العصر المملوكى فمن ذلك :

قول المقريزى عن تضاريسها :

« ويكتنفها فى العرض إلى منتهاها جبلان أحدهما فى الضفة الشرقية من النيل، وهو المقطم . والآخر فى الضفة الغربية منه . والنيل منشرف فيما بينهما. وهما جبلان أجردان غير شاخين ، يتقاربان جداً فى وصفهما من لدن أسوان إلى أن ينتهيا إلى الفسطاط . ثم يتسع ما بينهما ويتفرج قليلا . ويأخذ المقطم منها مشرقا ، والآخر مغرباً ، على رواب فى مأخذيهما وتفريج فى مسلكيهما . فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرماوتنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية[1] » .

ويقول القلقشندى : « والمقطم يسامت الفسطاط وربما أطلق على جميع الجبل . ويليه من جهة الشمال « اليحاميم » وهى الجبال المتفرقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرقى . وسميت كذلك لاختلاف ألوانها [2]» .

ويقول المقريزى : « فضل مابين عرض مـــدينة أسوان التى هى أوغلها فى الجنوب ، وعرض مدينة تنيس التى هى أوغلها فى الشمال ، تسعة أجزاء ونحو سدس جزء » [3] —

ويبدو أنه يعنى بالجزء ، ما نعنيه فى عصرنا بالدرجة العرضية .

وفى منخفضاتها الشمالية توجد عدة بحيرات منها بحيرة الفيوم ، ويعبر عنها بالبركة وهى بحيرة حلوة بالقرب من الفيوم . قيل : وفيها أسماك كثيرة تتحصل من صيدها جملة كثيرة من المال . وبها من آجام القصب والطرفاء والبردى

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٣

(٢) صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٠٩ و ٣١٠ و ٣١١

(٣) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٤

مايتحصل منه المال الكثير[١] .

وبحيرة بوقير وماؤها ملح ، وتقع بين الإسكندرية ورشيد ، وبها سمك كثير ومن أنواع الطير كل غريب . وبجوانبها الملاحات التى يحمل منها الملح إلى بلاد الفرنج وغيرها . هذا ، وقد غلب الرمل عليها فجفت فى زمان صاحب صبح الأعشى. ومات ماكان يصاد منها من السمك البورى ، وانتهى ماكان يتحصل منها من الملح المنعقد بسواحلها[٢].

وبحيرة نستروه . وماؤها ملح ، وتقع بالقرب من البرلس . وسميت باسم قرية قريبة منها اسمها نستروه وكانت تغل سمكا فى كل عام بنحو عشرين ألف دينار[٣] .

ويبدو أنها هى بحيرة البرلس الحالية .

وبحيرة تنيس . وماؤها ملح أيضاً ومتصلة بالبحر الرومى . ويصب فيها بحر أشموم المتفرع من فرع دمياط ، فيعذب لذلك ماؤها أيام زيادة النيل . وتقع شرق الدقهلية إلى جهة البحر (٤) .

ويبدو أنها هى بحيرة المنزلة الحالية .

ونما بمصر من النبات على جانبى النيل وخلجانه ، وفى أرضه وبساتينه ، كثير من أنواعه لا تعد ولا تحصى .

وقد ذكر القلقشندى من زروع مصر مايلى :

البر والشعير والذرة والأرز والباقلى والحمص والعدس والبسلا والجلبان واللوبيا والسمسم والقرطم والخشخاش والخروع والسلجم وبزر الكتان والبرسيم . وغير ذلك من الحبوب المقتاتة وغيرها .

وقال : وبها قصب السكر فى غاية الكثرة . والبطيخ ، والقثاء على اختلاف أنواعهـــا . والملوخيا ، والقلقاس ، واللفت ، والباذنجـان ، والدباء ،

(١و٢و٣و٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨

(٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٧و٣٠٨

والهليون ، والقنبيط ، وأنواع البقول المختلفة كالثوم ، والبصل والكرات والفجل وغيرها .

وقال : وأما رياحينها ففيها الآس والورد والبنفسج والنرجس والياسمين والنسرين والبان واللينوفر ، وأزهار المحمضات ، والريحان الفارسى على اختلاف أنواعه . والمنثور فيها بقلة ، وإنما كثر بالإسكندرية . إلى غير ذلك من الأنواع التى يشق استيعابها .

وقال : وأما فواكهها ففيها الرطب والعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والقراصيا والبرقوق والتفاح والكمثرى ، والسفرجل بقلة ، واللوز الأخضر ، والنبق والتوت والفرصاد والموز . ولا يوجد فيها الجوز والفستدق والبندق والإجاص إلا مجلوبا بعد جفافه . وإن زرع بأرضها شىء من ذلك لم يفلح . والزيتون فيها بقلة . ولا يستخرج منه زيت البتة . وإنما يؤكل ملحا .

وفيها من المحمضات : الأترج والحماض ، والكباد ، والنارنج ، والليمون ، على على اختلاف أنواعها .

وقال : وأما أصناف المطعوم ، ففيها ما يستطاب من الألبان والأجبان والعسل ، الذى لايساوى حسنا ، ولا يشبهه غيره من سائر الأعسال ، والسكر الكثير من المكرر ، والتبغ ، والوسط ، والنبات ـ ومنها يجلب إلى أكثر البلاد . قال فى « مسالك الأبصار » : وقد نسى به ما كان يذكر من سكر الأهواز .

وقال : وبها من أنواع الحلوى والأشربة المتخذ ذلك من السكر والأشربة الفائقة مالا يوجد فى غيرها من الأقاليم .

وقال : وبها من لحم الضأن والبقر والمعز ، مالا يعادله غيره فى قطر من الأقطار لطافة ولذة

وقال : ومن محاسنها ـ محاسن مصر ـ أن فاكهتها لايدوم نوع منها فى جميع السنة ، فيمل ، بل آتى كل نوع منها فى وقت ، فتتشوق النفوس إلى طلبه . ويكون

لقدومه بهجة . ولا يعترض على ذلك بدوام أكل الجنة . فإن الجنة أكلها لا يمل بخلاف مآكل الدنيا . ولأهل الرفاهية بذلك فرحة ، وتتغالى فيه فى ابتدائه ، مع أنه يجتمع فى الحين الواحد من الفواكه والرياحين مالا يحتاج معه فى زمنه إلى غيره .

وقال : قال المهذب بن مماتى فى « قوانين الدواوين » :

« بعثت غلاما لى ليحضر من فكاهى القاهرة ما وجد من أنواع الفاكهة والرياحين ، فأحضر لى منها الورد والنرجس والبنفسج والياسمين والمنثور والمرسين والريحان والطلح والبلح والجمار والخيار والبطيخ الأخضر والباقلى ، والتفاح ، والفقوس ، والأترنج ، والنارنج والأشباه ، والليمون ، والتمرهندى الأخضر ، والعنب والحصرم[١] » .

وروى المقريزى قال :

ومن محاسن مصر أنه يوجد بها فى كل شهر من شهور السنة القبطية صنف من المأكول والمشموم ، دون ماعداه من بقية الشهور . فيقال : رطب توت . ورمان بابه ، وموزهاتور ، وسمك كيهك ، وماء طوبة ، وخروب أمشير ، ولبن برمهات . وورد برمودة ، ونبق بشنس ، وتين بئونة ، وعسل أبيب ، وعنب مسرى[٢] » .

وروى هذه الرواية صاحب صبح الأعشى عن بعض الجوالين فى الآفاق الذى طاف أكثر المعمور من الأرض ـ واختلف عن المقريزى فى خروب أمشير ولبن برمهات ، فعكسهما . فقال : خروب برمهات ولبن أمشير[٣] .

وقال المقريزى فى ذكر خلجان النيل :

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ س ٣١١ و ٣١٢ ، ٣١٣ .

(٢) خطط المقريزى ج ١ س ٤٤

(٣) صبح الأعشى ج ٣ س ٣١٣

« قال أبو زهم : كانت الجنات بحافتى النيل من أوله إلى آخره من الجانبين ، ما بين أسوان إلى رشيد ، وسبعة خلج : خليج الإسكندرية ، وخليج سخا ، وخليج دمياط ، وخليج سدوس ، وخليج منف ، ، وخليج الفيوم ، وخليج المنهى ، متصلة لا ينقطع منها شىء ، وزروع مابين الجبلين كله من أول مصر إلى آخرها مما يبلغه الماء . وكان جميع أرض مصر كلها تروى يومئذ من ستةعشر ذراعا ، لما قد دبروا من قناطرها وجسورها »[1] .

وقال أيضاً

ومن محاسنها ـ محاسن مصر ـ أن صيفها خريف لكثرة فواكهه ، وشتاءها ربيع لما يكون بمصر حينئذ من القرظ والكتان[2] ، و « أن الذى ينقطع من الفواكه فى سائر البلدان أيام الشتاء يوجد بمصر »[3]

وقال أيضا

« وأرض مصر ذات أجزاء كثيرة ، ويختص كل جزء منها بشىء دون غيره. وعلة ذلك ضيق عرضها ، واشتمال طولها على عرض الإقليم الثانى والثالث . فإن الصعيد فيه من النخل والسنط وآجام القصب والبردى ومواضع إحراق الفحم وغير ذلك شىء كثير . والفيوم فيه من النقائع وآجام القصب ومواضع تعطين الكتان شىء كثير . وأسفل أرض مصر فيه من النبات أنواع كثيرة كالقلقاس والموز وغير ذلك . وبالجملة فكل بقعة من أرض مصر لها أشياء تختص بها وتتفضل عن غيرها »[4] .

أما مواشيها ووحوشها وطيورها ، فقد ذكرها القلقشندى فقال :

« أما مواشيها ، ففيها الإبل المستجادة ، والبقر العظيمات القدود ، والأغنام

---

(١) الخطط ج١ ص ٣٦ تحت عنوان « ذكر طرف من فضائل مصر » .

(٢و٣) الخطط ج ١ ص ٤٤

(٤) ـ الخطط ج ١ ص ٦٩

المستطابة اللحوم ، والخيول المسومة . والبغال النفيسة ، والحمر الفارهة ، مما ليس له نظير فى إقليم من الأقاليم ، ولا مصر من الأمصار .

وأما وحوشها . ففى براريها الغزلان ، والنعام ، والأرانب ، والثعالب ، والضباع ، والذئاب ، وغير ذلك . ويجلب إلى سلطانها الفيلة والزرافات ، وغيرها من الوحوش من البلاد القاصية ، والسباع من بلاد الشام من مملكته لتكون فى إصطبلاته زينة لمملكته .

وأما طيورها ففيها من الطيور الدواجن فى البيوت : الدجاج ، والإوز والحمام. ومن الطيور البرية : الصقر والعقاب والنسر والكركى ، واللغلغ والأوز التركى ، والمرزم والبجع والبشون والجرج ، والحجل والكروان ، والسمانى ، والبلبل . وسائر أنواع العصافير ، والأنواع المختلفة من طيور الماء .

ويجلب إلى سلطانها سائر أنواع الجوارح الصائدة ، على اختلاف أجناسها من أقاصى البلدان . ويقع التغالى فى أثمانها للغاية القصوى . » .. الخ[١]

هذه بعض خيرات مصر ، وأجزاء طبيعتها ، ومشاهدها ، كما تراءت فى العصر المملوكى وقبله . وما تزال ماثلة فيها حتى يومنا هـذا ، إلا ما ندر ، مما تناولته يد الطبيعة نفسها أو يد التهذيب ، فغيرت منه بالزيادة أو النقص .

وبسبب هذه الخيرات والثروة العظيمة ، وبسبب موقع مصر ، هذا الموقع المتوسط ، بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، فى دنيـا العالم القديم ، مما جعلها ممراً تجارياً هاماً ، وجعلها مرادا للسياحة والرحلة والتجارة بل ولطلب العلم ، وبالجملة بسبب أهمية موقعها هـذا كانت - وما تزال — موضع طمع الطامعين ولهج الغزاة الفاتحين من كل حدب وصوب ، من حول حدودها ، أو بعيداً عنها .

---

(١) ـ صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١٤.

وفى العصور الغابرة غزاها ـ مثلا ـ من الشرق العمالقة والفرس والعرب . ومن الغرب الليبيون ، ومن الشمال المقدونيون واليونان والرومان . ومن الجنوب النوبيون .

وفى العصور المتوسطة ، دهمها الفاطميون من الغرب وأسسوا فيها دولتهم التى ظلت زهاء قرنين وأكثر ، ووليها بعدهم الأكراد ، وأخذت فى هذه الأثناء تشتد حملات الصليبيين عليهما ، وهم فى الجملة أهل أوربا وبخاصة الفرنسيون والإنجليز .

ولما آلت سلطنتها إلى أمراء المماليك ، عانت مع الحملات الصليبية الوافدة إليها من أوربا ، حملات التتار الوافدة إليها من الشرق ومن قلب آسيا وبلاد الصين ، ثم ظهرت فى الأفق دولة العثمانيين النازلة من آسيا الصغرى . نصبرت مصر لهؤلاء الأعداء الثلاثة صبرا طويلا وكافحتهم كفاحا نبيلا ، حتى تغلب العثمانيون عليها أخيراً .

اضطر أهل مصر ، إذن ، بحكم موقعها ، وبحكم هـذا الطمع فى بلادهم ، أن يعيشوا منذ عصور الفراعنة حتى نهاية العصر المملوكى — وكما يعيشون فى لحظتهم الراهنة ـ ذادة مكافحين ينافحون دون أرضها ويجاهدون الغزاة عنها ، ويردون الطامعين فيها ، لذلك امتلأ تاريخهم بالحروب وأنبائها ، وفاضت حياتهم بالقتال وأخباره ، وأكثر ما حاربوا كانوا فى أرض فلسطين والشام ، وفى سبيل بلادهم العزيزة تحملوا كل تضحية فى النفس والمال ، وكل بذل فى الرأى والحيلة ، وكل مغامرة فى سبيل أهدافها وإعلاء شأنها ، والحفاظ عليها كريمة حرة عزيزة ، وعلى ثروتها موفورة ذاخرة ، ساعين ما استطاعوا إلى إقرار السلام ، والدعوة إلى التعاون والتفاهم والمودة ، عاملين على المشاركة فى بناء حضارة الإنسان .

ولا عجب فمصر لهم مصدر العطف والحنان ، ومصدر الأمن والاطمئنان . لهم فيها الهواء والماء ، والملبس والغذاء ، والمأوى والوقاء ، بل لهم فيها الأمل الذى

ينشدونه ، والحلم الذى يحلمونه . . ولهم فيها الرفيقة الوفية والأبناء . والأهل والصهر والأقرباء . والخلصان والأفياء . ولهم فيها مراحات اللهو والذكرى ، ومراتع الصبا وأربع الشباب .

هكذا كانت مصر فى عصر المماليك . هى أرض طيبة ، ونيل مبارك ، وخصب منتشر . ورخاء مقبل ، ونبت صاعد ، وشجر وارف ، وزهر ضاحك ، وثمر ناضج ، وطير مغرد ، وحيوان طيع ، وإنسان آمل عامل ، وعابد متوكل خاضع ، وشعب واع يقظ قانع ، وشكره لله دائم ، على ماوهب من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، مع مسالمة للصديق ، ومقاومة للعدو . دون منافقة فى إلف ، ولا فجور فى خصومة ، ولا دعوة إلى شر ، ولا نكول عن خير .

قال القلقشندى عن مصر :

« أما محاسنها ، فلا شك أن مصر ، مع ما اشتملت عليه من الفضائل ، وحفت به من المآثر ، أعظم الأقاليم خطراً وأجلها قدرا ، وأفخمها مملكة ، وأطيبها تربة ، وأخفها ماء ، وأحسنها ثمارا ، وأعدلها هواء وألطفها ساكنا .

ولذلك ترى الناس يرحلون إليها وفودا ، ويفدون عليها من كل ناحية ، وقل أن يخرج منها من دخلها ، أو يرحل عنها من ولجها ، مع ما اشتملت عليه من حسن المنظر وبهجة الرونق ، لاسيما فى زمن الربيع ، وما يبدو بها من الزروع التى تملأ العين وسامة وحسنا ، وتروق صورة ومعنى (١) »

ومصر واقعة فى المنطقة المعتدلة الشمالية ماعدا جزءا يسيرا فى جنوبها واقعاً فى المنطقة الاستوائية ، ولهذا تجد مناخها معتدلا فى جملته ، ويميل إلى الدفء فى أغلب أيام السنة ، مع سماء صافية تتلألأ نجومها . إلا أن بعض أسابيع فصل

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨٥

الصيف يشتد حرها ويتطرف ، وبعض أسابيع فصل الشتاء يزيد بردها ويشتد وتغيم سماؤها . ولكن هـــذا يسير ومحتمل بجانب المناخ المعتدل الدافىء الذى يصاحب أغلب السنة كما أشرنا . وهذا لا يمنع القول إن السواحل أكثر اعتدالا من الأماكن البعيدة عنها ، وبخاصة المواطن النائية فى صحراوات مصر ، فإنها إلى التطرف أميل ، وإلى القارية أدنى . فيزيد حرها أغلب الصيف وبردها أكثر الشتاء . وبلاد الصعيد فى جملة أمرها أبعد عن الاعتدال إذا قرنت ببلاد الوجه البحرى .

والملاحظ بناء على ماشرحنا ، أن فصول السنة على جانبى النيل ، لا تفترق فى مناخها افتراقا متباينا ، فهى فى جملة أمرها قريبة التماثل والتشابه . ولعل لذلك كله أثره فى اعتدال مزاج الشعب المصرى فى جملته أيضاً ، وعدم ميله إلى التطرف الشديد فى معالجة أموره ومشاكله ، وجنوحه أولا إلى الملاينة والمصانعة والتفاهم فى مسالمة وموادعة ، حتى إذا ما استنفد الجهدصبره ، واستغرق المشكل حيلته ، اشتد وعنف ، بعد أن رق ولطف .

ولا يفقد أبدا أمله ، وإن بلغ مشارف اليأس . هكذا عوده النيل ، فإنه مهما نقص فلا بد له من فيض ، ومهما تأخر فلا مناص له من قدوم ، ومهما شرقت معه الأرض ، فلا بد له من معاودتها بالوفاء ...

نهر النيل :

وليس بمستغرب أن يسوس النهر العظيم أخلاق الشعب الكريم ، وأن يطبعه بطابعه . وسترى كيف كان أثره الضخم فى نفوس أدبائه وشعرائه ، لقد سرح بخيالهم كل مسرح وراح به كل مراح ، وأطافه كل مطاف . فتصوروه حبيبا شغل قلب عروسه ، ومولا كريما يجىء بالفضة والذهب ، وملكا راعيا يتفقد أحوال رعيته ، إلى غير ذلك مما سنقصه عليك فى حينه .

ما يسلم الجغرافيون والمؤرخون القدامى — وهم يتحدثون عن النيل ومنابعه — من سرحات الخيال ومداعبات العاطفة .

ولعل الذي نسميه نحن اليوم خيالا ووهما ، كان فى تقديرهم حينذاك ضربا من الحقيقة . وهذا غاية ما يذهب النفس من السحر والبهر .

ولقد تتابعت حديثا رحلات الكشف إلى منابع النيل ومساقط مياهه فى كل ناحية . ودارت حوله من كل جانب ، حتى رأى الكاشفون هذه المنابع على حقيقتها رأى العين ، وصوروها عن خبرة ومعاينة ، ووضعوا لها المصورات الموضحة الدقيقة . وأصبحت المعلومات عن النيل فى هذه الناحية ، من مقررات العلم ومسلماته . ومجملها أنه ينبع من المنطقة الاستوائية ويمر على بحيراتها ويدخل أرض السودان فى منطقة بحر الجبل . ويسير إلى الشمال باسم النيل الأبيض ، إذ يلتقى بالنيل الأزرق وسوباط وعطبرة ، ويتلقى منها المياه القادمة من الحبشة ، وهى مياه فيضانه . ويصادفه عدة جنادل صخرية فى طريقه . ويدخل مصر بالقرب من حلفا ، سائراً نحو الشمال . حيث يتفرع إلى فرعيه فرع رشيد وفرع دمياط ، اللذين يصبان فى البحر المتوسط .

والمنبع الاستوائى هو المنبع الدائم حيث تسقط الأمطار الاستوائية الدائمة . والمنبع الحبشى هو المنبع الموسمى الذى يسقط فيه الأمطار الموسمية الصيفية هناك على جبال الحبشة ، بغزارة ، فتنحت وهى منهمرة جبالها وصخورها السوداء وتحيلها إلى هذا الغرين العجيب المخصب .

أما القدماء فقد ذهبوا مذاهب ، وهم مسحورون بجلال النيل كما سحر الأدباء والشعراء . وهم معذورون فى تصورهم وفى تقديرهم . فمن أين يأتى هذا النهر المبارك العظيم ، وبهذا الفيض الغامر من الماء العذب المخصب ، فيهب الحياة والرزق ، ويبشر بالأمل والسعادة ؟ لا بد أنه يأتى من جهة مباركة مقدسة ... لا بد أنه يأتى الجنة . فهو إذاً كوثرها ...

إن شعراء مصر - إلى وقتنا هذا - يقول أحدهم :

النيل العذب هـــو الكوثر والجنة شاطئه الأكبر

لقد ذكر المقريزى ، أو نقل ، أن النيل ينبع هو ونهر الفرات من سدرة المنتهى . وروى ما حدث به ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أنه قال : « نيل مصر سيد الأنهار . سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب . فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر ، أمر كل نهر أن يمده . فتمده الأنهار بمائها . وفجر الله له الأرض عيونا ، فأجرته إلى ما أراد الله عز وجل . فإذا انتهت جريته ، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره .(١)

وروى عن كعب الأحبار أنه قال : « أربعة أنهـار من الجنة وضعها الله فى الدنيا : النيل نهر العسل فى الجنة . والفرات نهر الخمر فى الجنة . وسيحان نهر الماء فى الجنة . وجيحان نهر اللبن فى الجنة .(٢)

وروى أن المسعودى قال : « نهر النيل من سادات الأنهار وأشراف البحار ، لأنه يخرج من الجنة ، على ما ورد به خبر الشريعة (٣) .

وروى المقريزى هذه القصة الطريفة ، وهى قصة رحلة كشف قديمة لمنـابع النيل . فقال ما ملخصه :

« كان الوليد(٤) بن دومغ العمليق قد خرج فى جيش كثيف ، يتنقل فى البلدان ويقهر ملوكها ، ليسكن ما يوافقـــه منها . ثم سنح له أن يخرج ليقف على مصب النيل ، فيعرف ما بحافتيه من الأمم . فأقام ثلاث سنين يستعد لخروجه . وخرج فى جيش عظيم ، فلم يمر بأمة إلا أبادها . ومر على أمم

(١) الخطط ج ١ ص ٨٠ ، ٨١
(٢) المصدر نفسه ص ٨١
(٣) المصدر نفسه ص ٨١
(٤) ذكره صبح الأعشى فى ج ٥ ص ٤٨٥ .

السودان وجاوزهم . ومر على أرض الذهب ، فرأى فيها قضبانا نابتة من ذهب . ولم يزل يسير ، حتى بلغ البطيحة التى ينصب ماء النيل فيها من الأنهار التى تخرج من تحت جبل القمر(١) . وسار حتى بلغ هيكل الشمس . وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر . وهو جبل عال ـ وإنما سمى جبل القمر ، لأن القمر لا يطلع عليه ، لأنه خارج من تحت خط الاستواء ـ ونظر إلى النيل يخرج من تحته ، فيمر فى طرائق وأنهاردقاق ، حتى ينتهى إلىحظيرتين ، ثم يخرج منهما فى نهرين حتى ينتهى إلى حظيرة أخرى . فإذا جاوز خط الاستواء ، مدته عين ، تخرج من ناحية نهر مكران بالهند . وتلك العين تخرج أيضاً من تحت جبل القمر ، إلى ذلك الوجه . ويقال إن نهر مكران مثل النيل يزيد وينقص وفيه التماسيح والأسماك التى مثل أسماك النيل ... »(٢)

ويبدو أن المراد بالحظيرتين والحظيرة ، البحيرات .

وروى المقريزى كذلك فقال : «وذكر قوم من أهل الأثر أن الأنهار الأربعة، تخرج من أصل واحد من قبة فى أرض الذهب ، التى من وراء البحر المظلم ، وهى سيحون وجيحون والفرات والنيل وأن تلك الأرض من أرض الجنة . وأن تلك القبة من زبرجد ، وأنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور » (٣)

ويستمر المقريزى فى نقل آراء الجغرافيين أو أشباه الجغرافيين ممن تحدثوا عن منابع النيل وحدسوا مساقطها ومخارجها ، ثم يخلص منها جميعا بأن يقرر رأيه الذى انتهى إليه فى هذا الموضوع ، على ضوء الآراء المتقدمة ، فيقول :

« والذى تحصل من هذا القول أن النيل مخرجه من جبل القمر ، وأن زيادته إنما هى من فيض البحر عند المد . فأما كون مخرجه من جبل القمر فسلم ، إذ

---

(١) القمر : بفتح أوله وثانيه ؛ أو بضم أوله وسكون ثانيه .

(٢) الخطط ج ١ ص ٨٤

(٣) المصدر نفسه ص ٨٤ .

لا نزاع فى ذلك . أما كون زيادته لا تكون إلا من ردع البحر له بما حصل فيه من المد ، فليس كذلك . نعم ، توالى هبوب الرياح الشمالية على وفور الزيادة ، وردع البحر له إعانة على الزيادة . ومن تأمل النيل علم أن سيلا سال فيه ، ولابد . فإنه لايزال أيام الشتاء وأوائل فصل الربيع ، ماؤه صافيا من الكدرة . فإذا فرغت أيام زيادته وكان فى غاية نقصه تغير طعمه ، ومال لونه إلى الخضرة . وصار بحيث إذا وضع فى إناء يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب . وسبب ذلك أن البطيحة التى فى أعالى الجنوب تردها الفيلة ونحوها من الوحوش ، حتى يتغير ماؤها ، فإذا كثرت أمطار الجنوب فى فصل الصيف ، وعظمت السيول الهابطة فى هذه البطيحة ، فاض منها ما تغير من الماء ، وجرى إلى أرض مصر . فيقال عند ذلك « توحم النيل » . ولا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير ويزاد عكره بزيادة الماء . فإذا وضع منه أيام الزيادة شىء فى إناء ، رسب بأسفله طين لم يعهد فيه قبل أيام الزيادة . وهذا الطين هو الذى تحمله السيول التى تنصب فى النيل حتى تكون زيادته منها . » (١)

ولما تحدث القلقشندى عن النيل ، أراح نفسه بادئ ذى بدء وقال : « أما ابتداؤه وانتهاؤه ، فاعلم أن ابتداءه من أول الخراب الذى هو جنوبى خط الاستواء ، المقدم ذكره ، ولذلك عسر الوقوف على حقيقة خبره » .(٢)

ثم قال : « وقد ذكر الحكماء أنه ينحدر من جبل القمر « بفتح القاف والميم كما هو المشهور . وإما بضم القاف وسكون الميم » . كما نقله فى « تقويم البلدان » عن ضبط ياقوت فى « المشترك » . وابن سعيد فى « معجمه » . (٣)

---

(١) المصدر نفسه ص٩٠ راجع ايضا مسالك الأبصار ج١ص٦٧ـ راجع أيضا ماكتب عن النيل فى حسن المحاضرة .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

ثم نقل القلقشندى أقوالا أخرى فى وصف منبعه وانحداره ومجراه وتنقله وجنادله وفروعه ، إلى غير ذلك . (١)

وهكذا ترى مبلغ تصوراتهم وخيالاتهم عن النيل وما يتصل به .

فيضانه ومقياسه :

وللنيل — كما نوهنا — موسم فيضان فى كل عام . يرتفع فى إبانه ماؤه فى مجراه رويدا رويدا فى يوليو وأغسطس وسبتمبر ، ويبلغ عادة فى سبتمبر أقصى ارتفاعه ويثبت فى اكتوبر ونوفمبر أو يأخذ فى النقص رويدا ، ثم ينقص إلى أن يشح ويبلغ نهاية نقصه فى إبريل ومايو ويونيو . وهى شهور التحاريق .

وسبب فيضانه — كما نوهنا أيضا — هبوط الأمطار الغزيرة على بلاد الحبشة فى موسم الصيف لهبوب الرياح الموسمية الصيفية عليها ، آتية من جهة الشرق مارة بالمحيط . فتمتلىء وديان الحبشة بالماء وهى روافد النيل وأهمها النيل الأزرق . فتتدفق فى مجراه ، وتربو على مياه منبعه الدائم الاستوائى .

وكانوا فى العصر المملوكى ـ كما اعتادوا ـ يضبطون مواعيد الفيضان والوفاء بالشهور القبطية ، لاطراد الحساب بها واتساق مواعيدها . ويبلغ النيل حد الوفاء عادة فى شهر مسرى .

وقال المقريزى :

« ويبتدىء النيل بالتنفس والزيادة بقية بئونة . وهو حزيران ـ وأبيب ـ وهو تموز ـ ومسرى ـ وهو آب . فإذا كان الماء زائداً ، زاد شهر توت كله ، وهو أيلول ، إلى انقضائه » (٢) .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٠ ، ٢٩١

(٢) الخطط ج ١ ص ٩٥ ط مطبعة النيل عام ١٣٢٤ هـ

وكان اعتماد الزراع فى مصر ، على مياه الفيضان وارتفاعها . فإذا بلغ الماء ستة عشر ذراعاً عم أراضى الحياض ، ولم تشرق الأرض ، وإذا نقص عنها خيف الشرق والجدب والقحط والغلاء ، وإذا زاد عنها إلى ثمانية عشر ذراعا خيف الغرق والبوار والأوبئة .

فإذا عم الماء الأرض بفيضانه وغطاها ، ثم نقص وتراجع ، انكشفت الأرض ، ثم أخذت سبيلها إلى الجفاف ، ويزرعها الزراع ، وينتظرونها إلى وقت الحصاد .

وهذا الرى ، وهو رى الحياض ، تشير إليه رسالة عمرو بن العاص إلى سيدنا عمر ، ويصف بها أرض مصر ، يقول :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء . طولها شهر . وعرضها عشر . يكتنفها جبل أغبر . ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات . ميمون الروحات . تجرى فيه الزيادة والنقصان . كجرى الشمس والقمر له أوان . . . يدر حلابه ويكثر فيه ذبابه . . ثمرة عيون الأرض وينابيعها . حتى إذا اصطخب عجاجه . وتعظمت أمواجه . فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض ، إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب . وزوارق كأنهن فى المخايل . ورق الأصايل . فإذا تكامل فى زورته ، نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته ، وطما فى درته ، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة . وذمة مخفورة . يحرثون بطون الأرض . ويبذرون بها الحب . يرجون بذلك النماء من الرب . لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم . فإذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى . وغذاه من تحته الثرى .

فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء . إذ هى عنبرة سوداء . فإذا هى زمردة خضراء . فإذا هى ديباجة رقشاء . فتبارك الله الفعال لما يشاء » (١) .

---

(١) راجع « الفاروق عمر » للدكتور محمد حسين هيكل ج ٢ .

ومهما قيل فى هـذا النص ، فهو يصور حالة مصر والأرض الزراعية فيها ، وفيضان النيل إليها وتغطيته لها وسقيها وكسوتها بالطمى ، ثم تـكشف مائه عنها ، وزرعها ، ثم ظهور نباتها أخضر ، وزهورها ذات ألوان .

ولها بذلك أربعة أدوار . مرة تـكون أرضها لؤلؤة بيضاء ، حينما يعلوها الماء ويعمها ، فتلمع تحت أشعة الشمس بيضاء ناصعة ، وتصبح قراها فى وسط هذا الماء الغامر ، كالجزر فى البحر ، تصل بينها الزوارق كالحمـــائم البيضاء أو غيرها ، لقلاعها المنشورة .

ومرة تـكون عنبرة سوداء ، حيثما يتـكشف من فوقها الماء وينحسر عنها عائداً إلى مجرى النيل بعد تغطية ورى ظلا أسابيع متعددة ، تتسرب منها بقاياه ، لنقص مياهه وانقطاع فيضه ، فتعود إلى مجراه ، فيخرج الزراع ليبذروا الحب ، وهم يرجون الثمار أو النمـاء من الرب .

ومرة تـكون زمردة خضراء ، وذلك إذا نبت النبت ، ونجم الزرع ، أخضر نضراً لينا ، كالحياة الجديدة الآملة . ويظل النبات هـكذا زمنا ، إلى أن يقترب من إبان نضجه

ومرة تـكون ديباجة رقشاء ، وثوبا مزخرفا فيه ألوان بهيجة وأشكال بديعة وتهاويل معجبة ، وذلك حينما تبدو الأوراق الخضراء ، والأزهار المتفتحة الملونة ، والثمـار الناضجة .

وقد ذكر المسعودى مصر فقال : « وصف الحكماء مصر فقالوا : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء .

فاللؤلؤة البيضاء ، زمان النيل ، والمسكة السوداء ، زمان نضوب المـاء عن أرضها ، والزمردة الخضراء ، زمان طلوع زرعها ، والسبيكة الحمراء ، زمان هيج الزرع واكتهاله » (١).

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨٥

وهذا الوصف ، هو الوصف نفسه الذى جاء فى رسالة عمرو بن العاص ، على وجه التقريب .

ولم تكن مصر تعرف فى قديمها الرى الصيفى « المستديم » بل عرفت ذلك فى العصر الحديث . فبنت السدود على النيل — وما تزال تبنيها — وخزنت المياه فى جزء من مجراه ، أو فى بحيرات صناعية متصلة به . ومن ثم استطاعت أن تستفيد من مياه فيضانه أكثر من قبل ، وأن تتحكم فيها ، ولو إلى حد ، وأن تنظم دورات زراعية فى الأرض ، متوالية يكثر بها المحصول ، ويتنوع . بدلا من الاقتصار على دورة واحدة كل عام .

ولكن فى العصور الماضية ـ وفى جملتها العصر المملوكى ـ كان المتبع « رىّ الحياض » وهو مرتبط ارتباطاً كلياً بمواعيد فيضان النيل ووفائه ونقصه وتخلفه وتراجعه . ولهذا اهتموا بمراقبته مراقبة دقيقة .

وورثوا هذا الاهتمام من أسلافهم . فقد أقاموا للنيل مقياساً يتبين عنده زيادة مائه ونقصه . وتعلقت نفوسهم بهذا المقياس علواً وانخفاضاً . فإذا علا الماء عنده زفت البشرى وعمت الفرحة وقرب الأمل فى اليسر والرخاء . وإذا نقص أو لم يف فى موعد الوفاء ، تبلبلت الخواطر وخيف الجدب وتوقع القحط والغلاء . وإذا زاد عن حده خشى الغرق وعمت الشكوى .

ولمقياس النيل تاريخ حافل . وقد أفرده بالبحث فى باب طويل ، صاحب « تقويم النيـــل » ويستخلص مما رواه ، ومما رواه المقريزى ، وأبو المحاسن ، والسيوطى وغيرهم ما يلى[1] .

١ — أن مصر عرفت مقاييس النيل قبل دخول الإسلام إليها . ومنها « مقياس

---

(١) راجع تقويم النيل لأمين سامى ج ١ ص ٦٥ وما بعدها . وخطط المقريزى ج ١ ص ٩٣ تحت عنوان مقاييس منيل وزيادته وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٢٠ تحت عنوان « ذكر المقياس » .

منف » ، قيل إن يوسف عليه السلام هو الذى بناه . ومقياس إخميم ، وقيل إن دلوكة الملكة العجوز أقامته ببلاد إخميم ، وقيل أقامت مقياساً آخر فى أنصنا .

٢ — أنه بنى بمصر عدة مقاييس بعد دخول الإسلام إليها . ومنها : مقياس قيل إن عمرو بن العاص بناه عند أسوان ، ثم عند دندرة ، ثم عند أنصنا . وقال المقريزى إنه بناه بحلوان . — ولعله بنى عدة مقاييس فى جهات متعددة . ومنها مقياس بناه عبد العزيز بن مروان والى مصر ، بحلوان عام ٨٠ هـ . ومنها مقياس بناه أسامة بن زيد التنوخى — وكان عاملا على خراج مصر — بجزيرة الروضة — فى خلافة الوليد بن عبد الملك . ثم أبطل . وبنى مقياساً غيره فى الروضة أيضاً عام ٩٧ هـ فى خلافة سليمان بن عبد الملك . ومنها مقياس أقامه الخليفة المأمون بالروضة أيضاً بدلا من مقياس أسامة الذى هدمه الماء ، وذلك عام ١٩٩ هـ . وقد أتمه الخليفة المتوكل العباسى عام ٢٤٧ هـ وهو أكبر المقاييس . وقد بنى فى ولاية يزيد بن عبد الملك على مصر . وقدم من العراق محمد بن كثير المهندس فتولى بناءه . — ومنها مقياس يقال إن أحمد بن طولون بناه فى الجزيرة أيضاً .

هذا وأهم المقاييس قبل الإسلام ، مقياس منف . وبعد الإسلام مقياس المتوكل بالروضة .

ومقياس الروضة هذا هو الذى ظل مستعملا طول عصر المماليك . وقد أمر الأشرف قايتباى عام ٨٨٦ هـ ، بتجديد بعض أماكنه وإصلاح أساسه (١) .

وقد روى المقريزى فى وصف المقياس ، ما يلى ، قال :

« والمقياس عمود رخام أبيض مثمن ، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه . وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعا . كل ذراع مفصل على أربعة

---

(١) بدائع ابن إياس ج ٢ ص ٢٠٥ .

وعشرين قسما متساوية تعرف بالأصابع . ماعدا الاثنى عشر ذراعاً الأولى ،فإنها مفصلة على ثمان وعشرين أصبعاً ،كل ذراع. والأذرع الأولى هى السفلى » .

وقيل فى سبب اختلاف تقسيم أذرعه ، ما يلى : — وقد ذكره المقريزى نقلا عن القضاعى عن الحسن بن محمد بن عبد المنعم . ونقله السيوطى أيضاً :

« لما فتحت العرب مصر . عرف عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ما يلق أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده فى مقياس لهم . فضلا عن تقاصره . وأن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار . وأن الاحتكار يدعو إلى تصاعد الأسعار ، بغير قحط .

فكتب عمر إلى عمرو ، يسأله عن شرح الحال . فأجابه :

« إنى وجدت ما تروى به مصر ، حتى لا يقحط أهلها ، أربعة عشر ذراعاً . والحد الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ، ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ، ستة عشر . والنهايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان ـ وهما الظمأ والاستبحار ـ اثنا عشر ذرعاً فى النقصان . وثمانية عشر ذراعاً فى الزيادة » .

هذا ، والبلد فى ذلك الوقت ، محفور الأنهار معقود الجسور عندما تسلموه من القبط ، وخميرة العمارة فيه .

فاستشار أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، علياً رضى الله عنه ، فى ذلك . فأشار أن يكتب إليه ، أن يبنى مقياساً ، وأن ينقص ذراعين من اثنى عشر ذرعاً ، وأن يقرما بعدها على الأصل ، وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعاً أصبعين ففعل ذلك ، وبناه بحلوان .

فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإرجاف ، وزوال ما منه كان يخاف . بأن جعل الاثنى عشر ذراعاً أربع عشرة ، لأن كل ذراع أربع وعشرون أصبعاً . فجعلها ثمانيا وعشرين ، من أولها إلى الاثنى عشر ذراعاً . يكون مبلغ الزيادة على

الاثنى عشر ثمانيا وأربعين إصبعاً . وهى الذراعان . وجعل الأربع عشرة ست عشرة . والست عشرة ثمانى عشرة ، والثمانى عشرة عشرين [١] .

وهذا التقدير لمناسيب مياه الفيضان ، لم يثبت تماماً فيما بعد ، وطرأ عليه تغيير وتعديل بلا ريب .

الاحتفال بوفائه :

وقد وكل بالمقياس من يلاحظ ارتفاع الماء عنده باستمرار ، إذا حان موسم الفيضان . ويبشر النـاس بكل زيادة ، ويصعد إلى السلطان بأخبارها بين الحين والحين .

واشتهر طيلة عصر المماليك اسم « ابن أبى الرداد » وكان مختصاً بمراقبة المقياس والبشارة بمناسيب الماء عنده .

وأصل ابن أبى الرداد هذا ، يرجع إلى الفقيه عبد الله بن عبد السلام بن أبى الرداد المؤذن ، وكان أصله من البصرة،فقدم إلى مصر وحدث بها . فلما بنى المتوكل مقياس الروضة عام ٢٤٧ هـ ، أمر ألا يتولى أمره إلا رجل من المسلمين ، فاختار القاضى بكار بن قتيبة ، بن أبى الرداد الفقيه ، لمراقبة المقيـاس ، وأجرى عليه الرزق .

وقد توفى ابن أبى الرداد المذكور فى عام ٢٦٦هـ ، وبقى عمله وراثياً فى ذريته، فظلوا يتوارثونه واحداً بعد آخر ، وظلوا كذلك طول العصر المملوكى .

وكان للنداء بالزيادة أثر هام فى حيـاة الناس والدولة معاً . والمعتاد أن حد الوفاء هو ستة عشر ذراعا ، وعندها يستحق الخراج وإذا لم يبلغ الماء هذا الحد، كان الشرق ، وإذا زاد على ثمانية عشر ذراعاً كان الغرق .

---

(١) راجع خطط المقريزى ج١ ص ٩٢ تحت عنوان « مقاييس النيل وزيادته » ـ وحسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ص ٢٢٠ تحت عنوان « ذكر المقياس » .

وكانوا يضبطون مواعيـــد الفيضان بالشهور القبطية [١] ، ويقع الوفاء ـ كما ذكرنا ـ عادة فى مسرى . فيحتفل السلطان أومن ينوب عنه بعيد وفاء النيل . وتختلف أبهـة الاحتفال وعظمته والعنـاية به باختلاف الأيام والظروف والشخصيات المحتفلة .

وكان الاحتفال تقليداً من تقاليد الدولة . فيرأس السلطان بنفسه هذا الاحتفال ـ كما فعل برقوق عام ٨٠٠ هـ ، والمؤيد شيخ عام ٨١٦ هـ والناصر بن قايتباى عام ٩٠٣ هـ ، والظاهر خشقدم عام ٨٧٠ هـ ، وكما شارك فيـــه قانصوه الغورى عام ٩١٧ هـ ـ .

أو ينيب السلطان نائبا عنه ـ والمعتاد أنه ينيب عنه نائب سلطنته أو أتابكى جنده . وقد يندب أميرا آخر من كبار أمرائه كالأستادار أو الدوادار .

ويجرى الاحتفال ــ عادة نهارا . ولعلها المرة الوحيدة التى احتفل بهذا العيد ليلا ، فيها ، وذلك عام ٩٠٣ هـ الذى رأس الاحتفال فيه النـاصر محمد ابن قايتباى .

ويجرى الاحتفال بأن يركب السلطان أومندوبه ، سفينة تتبعها سفن أخرى كثيرة ملأى برجال الدولة والجند ، تسير بهم إلى جهة المقياس بجزيرة الروضة ، فيشاهدونه ويشاهدون الماء عنده ومدى ارتفاعه ، ويخلقون عمود المقياس ـ أى يطلونه بالخلوق ، وهو نوع من العطور ـ ويدورون إلى موضع السد وهو فى فم الخليج الكبير ـ خليج أمير المؤمنين ـ فيكسر السد على مرأى منهم ، فتتدفق مياه النيل فى الخليج . ثم يأكلون ويشربون ويلهون أحيانا بضروب من اللهو ثم يعودون . وتكسر بعد ذلك سدود خلجان أخرى من خلجان النيل ، ويخلع السلطان الخلع ويهدى الهدايا .

---

(١) راجع بدائع الزهور لابن إياس فى خلال حوادث كل عام ـ وراجع النجوم الزاهرة لأبى المحاسن فى أعقاب كل عام . وراجع أيضاً تقويم النيل لأمين سامى .

وفى مناسبات الفيضان والوفاء وأعياده ، ينظم الشعراء مقطوعاتهم وقصائدهم وما توحى به إلى خواطرهم هذه الأيام الحافلة السعيدة ، كما تكتب البشارات النثرية بعبارات منظومة أدبية شاعرية . وتبعث إلى الجهات لتقرأ فيها إعلانا بالفيضان والوفاء .

وفى بعض السنين أمر السلطان بقراءة القرآن الكريم فى ليلة الاحتفال بجوار المقياس . وأمر بمبيت قضاة الشرع هناك .

واعتاد الناس فى يوم عيد الوفاء أن يخرجوا فى سفن نيلية يرتادون بها خلجان مصر ، أو يتجمهرون على جانبيها طلبا للهو والمتعة والتفرج والعبث .

وإذا لم يف النيل فى ميعاده ، صدر أمر السلطان فيخرج القضاة والناس للاستسقاء ، أو لقراءة القرآن والحديث وللدعاء ، طلباً للوفاء ، واستشفاعا إلى الله لإجراء الماء .

وفى عام ٨٦٦ هـ تأخر ماء الفيضان عن حد الوفاء فى ميعاده . فأفتى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى — أحد أعلام علماء الدين حينذاك — للسلطان خشقدم ، سلطان العصر ، بأن يستعين ببنى العباس صغاراً وكباراً ، وأن يضعوا فى أفواههم ماء . ثم يمجوه فى إناء ويصب فى فسقية المقياس ففعلوا فزاد . . . (١) .

وكما يستسقون طلبا للزيادة يستسقون طلباً للهبوط إذا طغى الفيضان وخيف الضرر . كما وقع فى عام ٧٦١ هـ .

خلجانه وقناطره :

يقول المقريزى :

« اعلم أن النيل إذا انتهت زيادته ، فتحت منه خلجان وترع . يتخرق الماء

---

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٧٤ ، ٧٥ — وتقويم النيل ج ١ ص ٢٢٣ .

فيها يمينا وشمالا ، إلى البلاد البعيدة عن مجرى النيل . وأكثر الخلجان والترع والجسور والأخوار ، بالوجه البحرى . أما الوجه القبلى وهو بلاد الصعيد ، فإن ذلك قليل فيه ، وقد ذهبت معالمه ودرست رسومه من هنالك »(١) .

وهو يعنى بالخلجان ، الجداول التى تشق فى إحدى النواحى ، وتستمد المياه من النيل ، أو من خليج آخر .

قال المقريزى :

« والمشهور من الخلجان . خليج منجا . وخليج منف . وخليج المنهى . وخليج أشموم طناح وخليج سردوس . وخليج الإسكندرية . وخليج دمياط . وخليج القاهرة . وبحر أبى المنجا . والخليج الناصرى ظاهر القاهرة »(٢) وقد أشرنا من قبل إلى رواية له أخرى عنها .

وقد ردد المقريزى قول ابن عبد الحكم عن أبى زهم السماعى : فقال : «كانت مصر ذات قناطر وجسور بتقدير وتدبير ، حتى إن الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها ، فيحبسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا »(٣) .

ونعتقد أن حبس الماء هنا لرى الناس ولضروراتهم ، لا لسقى الأرض وزرعها زرعا عاما للغلات الأساسية .

وعدد المقريزى مرة أخرى نقلا عن ابن الحكم ، هذه الخلجان بشىء من التغيير .

ونعتقد أيضاً أن هذه هى الحالة الغالبة فى مصر ، التى كانت أيام المماليك . فقد تعددت خلجان النيل حينذاك . بقصد إيصال الماء إلى الجهات النائية عن النيل ، ثم لحبس جزء منها لسقى الناس وضروراتهم ، على مدى أيام السنة . علما بأن مدينة كالفسطاط كانت تسقى من ماء النيل مباشرة ، لقربها منه ، ومدينة

---

(١) الخطط ج ١ ص ١١٢ تحت عنوان « ذكر الخلجان التى شقت من النيل »

(٢) الخطط ج ١ ص ١١٢.

(٣) الخطط ج ١ ص ١١٢ .

كالقاهرة ،كانت تستعين بالآبار فى بعض أيام السنة ، لبعدها عن ماء النيل . وتشرب من مائه بخاصة فى أيام دخوله فى الخليج[١] .

وفوق هذه الخلجان كانت تقام القناطر ، وقد تقام على جانبى إحدى القناطر محال للبيع والشراء والتفرج . وعلى جانبى هذه الخلجان كانت تنشأ الحدائق والبساتين والأبنية والعمائر ، والأسواق ، وتكثر الزروع ، ويزدحم الناس من السكان والمارة والمرتاضين . وقد يتصل مابين قنطرة وأخرى بالمبانى أو البساتين أو الأشجار المظللة .

وروى المقريزى قال : « اعلم أن قناطر الخليج الكبير عدتها الآن أربع عشرة قنطرة ، وعلى خليج فم الخور قنطرة واحدة ، وعلى خليج الذكر قنطرة واحدة ، وعلى الخليج الناصرى خمس قناطر ، وعلى بحر أبى المنجا قنطرة عظيمة، وبالجيزة عدة قناطر »[٢] .

وعلى سبيل المثال نذكر لك ما سجله المقريزى عن « قناطر الأوز » . وتصويره نعتبره نموذجا لما كان لغيرها ، على وجه الإجمال ، ويرسم منظراً من مناظر ذلك الزمان . قال :

« هذه القناطر على الخليج الكبير ، يتوصل إليها من الحسينية . ويسلك من فوقها إلى أراضى البعل وغيرها ، وهى أيضاً مما أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة . وأدركت هناك أملاكا مطلة على الخليج بعد سنة ثمانين وسبعمائة . وهذه القناطر من أحسن متنزهات أهل القاهرة ، أيام الخليج ، لما يصير فيه من الماء ، ولما على حافته الشرقية من البساتين الأنيقة . إلا أنها الآن قد خربت . وتجاه هذه القنطرة منظرة البعل — التى تقدم ذكرها عند ذكر مناظر الخلفاء — وبقيت آثارها إلى الآن . أدركناها يعطن فيها الكتان . وبها عرفت

(١) الخطط ج ٢ ص ١٨٦ .

(٢) الخطط ج ٣ ص ٢٣٧ .

الأرض التى هناك فسميت إلى الآن بأرض البعل . وكان هناك صف من شجر السنط ، قد امتد من تجاه قناطر الأوز ، إلى منظرة البعل ، وصار فاصلا بين مزرعتين ، يجلس الناس تحته فى يومى الأحد والجمعة ، للنزهة . فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم ونسائهم ، مالا يقع عليه حصر . ويباع هناك مآكل كثيرة .

وكان هناك حانوت من طين ، تجاه القنطرة ، يباع فيها السمك ، أدركتها وقد استؤجرت بخمسة آلاف درهم فى السنة ، عنها يومئذ نحو مائتين وخمسين مثقالا من الذهب ، على أنه لا يباع فيها السمك إلا نحو ثلاثة أشهر ، أو دون ذلك

ولم يزل هذا السنط إلى نحو سنة تسعين وسبعمائة . فقطع . وإلى اليوم تجتمع الناس هناك . ولكن شتان بين ما أدركنا وبين ما هو الآن . وقيل لها قناطر الأوز . » (١)

وقال المقريزى فى سياق حديثه عن « قنطرة الحاجب » وكانت على الخليج الناصرى الذى حفره الناصر بن قلاوون . وكانت تصل ما بين أرض الطبالة إلى منية السيرج « أى من جهة بركة الرطلى إلى أقاصى شبرا الآن » — قال المقريزى :

« ولما عمرت هذه القنطرة ، اتصلت العمائر فيما بينها وبين كوم الريش ، وعمر قبالتها ربع ، عرف بربع الزيتى . وكان على ظهر القنطرة صفان من حوانيت ، وعليها سقيفة ، تقى حر الشمس وغيره . » (٢)

وقد عنينا بالتنويه بالخلجان والقناطر هنا ، عقب حديثنا عن النيل ، لأنها تتمم طبيعته ، وتعتبر جزءاً من البيئة الطبيعية المصرية ، لصلتها الوثيقة بمياه

---

(١) الخطط ج ٣ ص ٢٤٠ .

(٢) الخطط ج ص ٢٤٦ .

النهر وبفيضانه ونقصانه ، وما ينشأ حوله من البساتين ، وما يؤسس من المنازه العامة والخاصة ، ذات الزروع والأشجار والأزهار . وإن كانت مظهراً من مظاهر الحضارة والمدنية ، ذا صلة بالحياة والبيئة الاجتماعية

منازه مصر والقاهرة :

ومنازه مصر والقاهرة كثيرة كانت حينذاك ، عدا الخلجان والقناطر . وكان القاهرى إذا احتاج إلى فرجة فى النيل مشى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور ، إلى موضع يعرف بالمقس . وجوها لا يبرح كدرا بما تثير الأرجل من التراب . (١)

وأحسن موضع فى ظواهرها للفرجة أرض الطبالة ، لا سيما أرض القرط والكتان . وكان يجرى فى هذه الأرض خليج ينور نوار الكتان على جانبيه (٢)

وكانت بركة الفيل فى ظاهر القاهرة وكانت دائرة كالبدر . والمناظر فوقها كالنجوم . واعتاد بعض السلاطين أن يركب فيها بالليل ، ويسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب (٣)

قال المقريزى :

« وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ، ومعظم عمارته فيما يلى القاهرة . فرأيت فيه من ذلك العجائب . وربما وقع فيه قتل بسبب المسكر ، فيمنع فيه الشرب . وذلك فى بعض الأحيان . وهو ضيق . عليه فى الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطارب والتهكم والخالعة . حتى إن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب . وللسرج على جانبيه منظر فتان . وكثيراً ما يتفرج فيه أهل الستر بالليل » . (٤)

---

(١) و (٢) الخطط ج ٢ ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٨٨ ـ وج ٣ ص ٢٦٢ .

(٤) الخطط ج ٢ ص ١٩ .

وخليج أمير المؤمنين ، أو الخليج الكبير ، وهو الذى يحتفل بكسر سده يوم الاحتفال بعيد الوفاء . حفر فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — عام ٢٣ هـ أيام حكم عمرو بن العاص . وكان يصل النيل ببحر القلزم — البحر الأحمر — ويبدأ من مصر ويمر على القاهرة وتجرى فيه السفن ، لتقرب بين الحجاز ومصر ، أيام الفيضان . وفى طريقه يمر على بستان « المشتهى » . قال المقريزى :

« وما برح هذا الخليج منتزها لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للنزهة ، إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف الآن بالخليج المصرى . »[١]

وقال : « قال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون : وفى سنة ٧٠٦ هـ رسم الأميران بيبرس وسلار بمنع الشخاتير والمراكب من دخول الخليج الحاكمى ، والتفرج فيه ، بسبب ما حصل من الفساد والتظاهر بالمنكرات ... الخ .[٦]

وقال عن الخليج الناصرى ما مجمله : « يخرج من بحر النيل ويصب فى الخليج الكبير . أنشأه الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٢٥ هـ من النيـــل مارا بناحية سرياقوس . وصار هذا الخليج مواطن أفراح ، ومنازل لهو ، ومغنى صبابات ، وملعب أتراب ، ومحل تيه وقصف ، فيما يمر من المراكب وفيما عليه من الدور . وما برحت مراكب النزهـة تمر فيه بأنواع الناس على سبيل اللهو ، إلى أن منعت المراكب منه وكانت عليه جملة من القناطر » ... الخ .[٣]

ومن أهم منازه القاهرة « بركة الرطلى » . وكانت من جملة أرض الطبالة . وعرفت ببركة الطوابين ، فقد كان يضرب فيها الطوب . فلما حفر الخليج الناصرى مر بجوارها ، وصب فى الخليج الكبير ، من بحرى أرض الطبالة . فروى ماؤه

---

(١) الخطط ج ٣ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) الخطط ج ٣ ص ٢٣٣ :

(٣) الخطط ج ٣ ص ٢٤١ .

أرض هذه البركة وملأها . وكان فى إحـدى زواياها نخل كثير وبجوار النخل شخص يصنع الأرطال الحديد،فنسبت إليه البركة وقيل: «بركة الرطلى» وبقيت النخيل مدة طويلة . وأقيم جسر بين البركة والخليج . فعمر المكان وتتابع الناس فبنوا الدور حول البركة حتى لم يبق بدائرها مكان خال . وصارت المراكب تعبر إليها من الخليج الناصرى ، وتدور تحت البيوت مشحونة بالناس فى أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف . وتظاهر الناس فى المراكب بأنواع المنكرات .

فإذا نضب ماء النيل وتراجع ، جفت البركة وزرعت بالقرط وغيره . وكان الناس يجتمعون فيها حينذاك بكثرة فى يوم الأحـــد والجمعة .

قال المقريزى : « وأدركت بهذه البركة من بعد سنة سبعين وسبعمائة إلى سنة ثمانمائة أوقاتا انكشفت فيها عمن كان بها أيدى الغير ، ورقدت عن أهاليها أعين الحوادث ، وساعدهم الوقت إذ الناس ناس ، والزمان زمان . . . الخ [١]

أقول: وقد ظلت هذه البركة على شىء كثير من عمارها وزهوها وزينتها ، وكان يسكن بالقرب منها كثير من أعيان الناس وظلت منزها للقاهريين ، إلى أن أبطل ملاهيها السلطان الأشرف طوماى باى فى آخر الدولة ، زمان اشتباكها مع العثمانيين ، فلحق البركة الخراب والبوار . [٢]

ومن المنازه « بركة الحبش» . قال المقريزى إنهـــا من أشهر برك مصر . وكانت فى ظاهر الفسطاط جنوبيها بين الجبل والنيل . قال : « وظلت عامرة إلى وقتنا هذا »

وقال : « وأحسن ماوصفت به بركة الحبش قول عيسى بن موسى الهاشمى أمير مصر وقد خرج إلى الميدان الذى بطرف المقابر . فقال لمن معه : «أتتأملون الذى أرى» ؟ قالوا : «وما الذى يرى الأمير» ؟ قال : أرى ميدان رهان . وجنان

---

(١) راجع الخطط ج ٣ ص ٢٦٣ ص ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٢) راجع بدائع ابن اياس تاريخ الغورى وطومان باى .

نخل . وبستان شجر ، ومنازل سكنى . وذروة جبل . وجبانة أموات ، ونهرا عجاجا . وأرض زرع ، ومراعى ماشية ، ومرتع خيل . وساحل بحر ، وصائد نهر . وقانص وحش . وملاح سفينة . وحادى إبل . ومفازة رمل . وسهلا وجبلا . فهذه ثمانية عشر منتزها فى أقل من ميل فى ميل . » (١)

ومن أحب المنازه إلى القاهريين جزيرة « الروضة » . وهى الجزيرة البارزة فى مجرى النيل بين الفسطاط والجيزة . وهذه الجزيرة لها تاريخ حافل عظيم . وقد اهتم بها العالم الكبير جلال الدين السيوطى ، فألف فيها مؤلفا قيما اسمه « كوكب الروضة » ، لايزال إلى اليوم مخطوطا . وقد حشد فيه كل المعلومات التى استطاع جمعها عن الروضة وتاريخها والملوك والأمراء الذين اهتموا بها ، والأبنية التى بنيت عليها ، والصناعات التى قامت فيها ، والبساتين التى أنشئت فى نواحيها ، والزروع والثمار التى نضجت فى أرضها ، ومبلغ صلتها بالنيل وفيضانه ومقياسه ، وما قيل فى ذلك كله من أحاديث وأخبار وسير ومن شعر ونثر . فهو كتاب جامع عظيم النفع ، يغنى عن أسفار ودواوين . وقد اعتمدنا كثيراً على أخباره ، وانتفعنا بما أورده من النصوص الشعرية ، وسيتبين لك هذا ، فى الفصل الأول من الباب الثانى ، من هذا البحث .

وتلخص أخبار هذه الجزيرة فى أنها كانت تسمى « الجزيرة » فقط أو « جزيرة مصر » . واتخذها الناس وبعض الأعيان بل الأمراء والسلاطين منزها ومفترجا يرتاضون فيه ، بل يقيمون . وقد أنشأ بها الإخشيد منزهاً خاصاً سماه « المختار » وعمره بالبساتين والدور والخزائن . ثم أنشأ بها الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، مكاناً نزها سماه « الروضة » ، وتردد إليها كثيراً . فصارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة . ثم إن الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله أحب حسناء بدوية تسمى « العالية » ، رغبت عن سكنى قصورة ، فبنى لها فى الروضة ،

---

(١) راجع الخطط ج ٣ ص ٢٤٩ .

مكاناً نزهاً جديداً بجوار المختار سماه « الهودج » ـ وكان بها مكان آخر يسمى « المشتهى » من المنازه التى أنشأها الفاطميون (١) . وهذه الجزيرة هى التى بنى فيها الملك الصالح نجم الدين الأيوبى « قلعة الروضة » وأسكن فيها مماليكه ، وسماهم « البحرية » .

وقال تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج فى كتابه « إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل » :

« وإنما سميت جزيرة مصر بالروضة لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها . وبحر النيل حائز لها ودائر عليها . وكانت حصينة وفيها من البساتين والثمار ما لم يكن فى غيرها . ولما فتح عمرو بن العاص مصر ، تحصن الروم بها مدة . فلما طال حصارها وهرب الروم منها خرب عمرو بن العاص بعض أبراجها وأسوارها ، وكانت مستديرة عليها ، واستمرت إلى أن عمر حصنها أحمد بن طولون فى سنة ٢٦٣ هـ ولم يزل هذا الحصن حتى خربه النيل »(٢) .

وقال على بن سعيد فى كتاب « المغرب فى حلى المغرب » :

« الروضة أمام الفسطاط ، فيما بينها وبين مناظر الجيزة . وبها مقياس النيل . وكانت متنزهاً لأهل مصر . فاختارها الملك الصالح بن الملك الكامل سرير السلطنة ، وبنى فيها قلعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء عالى السمك ، لم تر عينى أحسن منه . وفى هذه الجزيرة كان « الهودج » الذى بناه الخليفة الآمر ، لزوجته البدوية التى هام فى حبها » (٣) .

وقال زين الدين بن الوردى فى كتابه « فريدة العجائب وفريدة الغرائب » ، ما نصه :

---

(١) راجع الخطط ج ٣ ص ٢٨٩ .
(٢) كوكب الروضة للسيوطى ورقة رقم ١١
(٣) كوكب الروضة للسيوطى ورقة رقم ١١ .

« وقبالة الفسطاط الجزيرة المعروفه بالروضة . وهى جزيرة يحيط بها بحر النيل من جميع جهاتها . بها فرج ونزه ومقاصف وقصور ، ودور وبساتين . وتسمى هذه الجزيرة « دار المقياس » . وكانت فى أيام بعض ملوك مصر ، يجتاز إليها على جسر من السفن ، فيه ثلاثون سفينة . وكان بها قلعة عظيمة تخربت . وبها المقياس ، يحيط به أبنية دائرة على عمد ، وفى وسطه فسقية عميقة ، ينزل إليها بدرج من الرخام دائرة ، وفى وسطها عمود رخام قائم ، وفيه رسوم أعداد الأذرع والأصابع ، يعبر إليها الماء من قناة عريضة » (١) .

وروى المقريزى أن جميع الجزر التى فى النيل ، حدثت فى الإسلام ، ماعدا جزيرة الروضة(٢) .

هذا . ومن منازه القاهرة ومفترجاتها أيضاً « الأزبكية » ، التى أنشأها الأتابكى الأمير أزبك بن ططخ ، منذ عام ٨٨٠ هـ . وسنشير إليها وإلى « بركة الرطلى » أيضاً ، إشارة قريبة ، عند حديثنا عن البيئة الاجتماعية .

بحار مصر :

وتقع البلاد المصرية على بحرين عظيمين . إذ تمتـــد سواحلها الشمالية على البحر المتوسط الذى تقع عليه السواحل الشمالية لإفريقية ، والسواحل الجنوبية لأوربا . ويتصل بالمحيط الأطلسى عن طريق مضيق جبل طارق . ويمتد البحر المتوسط شرقا حتى تقع عليه السواحل الغربية لآسيا .

وتمتد السواحل الشرقية لمصر ، على البحر الأحمر ، الذى ينتهى من ناحية الشمال بخليجى السويس والعقبة . ومن ناحية الجنوب إلى مضيق باب المندب الذى يصله بالمحيط الهندى .

---

(١) المصدر نفسه ورقة رقم ١١ .

(٢) المصدر نفسه ورقة رقم ١٢ .

بحر الروم :

هو ما يطلق عليه الآن « البحر المتوسط » . وفى العصور الوسطى ، عرف ببحر الروم أو البحر الرومى ، وقد أضيف إلى الروم ، لسكنى أممهم عليه من شماليه . وقد يقال له أيضاً : « البحر الشامى » لوقوع سواحل الشام عليه .

وهو حد مصر الشمالى . وتطل عليه ـ آنذاك ـ عدة بلاد ، منها الإسكندرية ودمياط وتنيس والفرما والعريش وغيرها . هو نهاية مصب النيل .

ومخرجه من جهة الغرب ، بين الأندلس والمغرب ، سائرا إلى القسطنطينية . ويقال إن الإسكندر الجبار حفر مجراه من المحيط الغربى . وأن جزيرة الأندلس وبلاد البربر ، كانت أرضاً واحدة ، وكثر بين أهلهما النزاع ، فحفر زقاقاً بينهما ، وعقد عليه قنطرة ، وضع على طرفيها حراساً ، لا يسمحون بالمرور إلا بإذن .

فإذا خرج بحر الروم من هـذا الزقاق ، مر مشرقاً إلى بلاد البربر وشمال المغرب الأقصى ، إلى وسط بلاد المغرب ، على إفريقية وبرقة والإسكندرية وشمال التيه وأرض فلسطين ، والسواحل من بلاد الشام . ثم يعطف إلى أنطاكية فبلاد القسطنطينية .

وقيل إن فيه مائة وسبعين جزيرة عامرة ، فيها أمم كثيرة . منها صقلية وإقريطش .

وبعد الإسكندرية يسير شرقا إلى مصب فرقة النيل الشرقية . وبعدها إلى رشيد (١) .

بحر القلزم .

هو ما يطلق عليه الآن « البحر الأحمر » . وفى العصور الوسطى عرف ببحر

---

(١) الخطط المقريزية ج١ص ٢٦ تحت عنوان البحر الرومى ـ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٢٢٤ وما بعدها .

القلزم ـ بضم القاف والزاى ـ والقلزم واحد القلازم ، وهى الدواهى والمضايقات. ومنه « بحر القلزم » لأنه مضيق بين جبال . وعرف بذلك أيضاً ، لأنه كان بساحله الغربي فى شرق أرض مصر ، مدينة تسمى « القلزم » ، فسمى هذا البحر باسمها . وقد خربت .

وبحر القلزم خليج من المحيط الشرقى ، يجاوزه إلى بـــلاد اليمن ، مارا على سواحل مهرة ، أول بلاد اليمن ، ويمتد من شمالها على سواحل اليمن ، حتى ينتهى إلى مدينة عدن ـ فرضة اليمن ـ ثم إلى باب المندب ، وهو فرضة بين جبلين . ثم يمتد شمالا إلى الجحفة ، وهى ميقات الإحرام لأهل مصر ، ثم يتصل بينبع . ثم يجاوز مدين حتى يقارب أيلة ، وهى من كور مصر ، حتى ينتهى إلى فرضة الطور ، وهى مكان حط وإقلاع لمراكب الديار المصرية وما يصل إليها من اليمن وغيرها . ويمر فى الشمال حتى يصل إلى فرضة السويس . وهى مكان حط وإقلاع للديار المصرية أيضاً . وعنده ينتهى بر العرب ببحر القلزم . ثم يمتد موازيا لبلاد الصعيد ، حتى ينتهى إلى مدينة « القلزم » التى ينسب إليها هذا البحر ، ويقابلها من بر الحجاز أيلة ، ثم يسامت الطور ، ثم يمتد إلى القصير ، وهى فرضة قوص . ثم عيذاب فرضتها أيضاً . إلى سواحل السودان ، حتى يصير عندسواكن . ومايزال يمتد حتى يصل إلى رأس جبل المندب ، وهناك يضيق ثم يتصل بالمحيط . . .(١)

هـذا ، وكان بحر القلزم « البحر الأحمر » ، طريقا من طرق مصر ، إلى الحجاز واليمن ، فى عصر المماليك . سواء أكان ذلك للحج أم الزيارة أوطلب العلم والمجاورة . أو غير ذلك .

ويعتبر من أهم الممرات التجارية بين الشرق والغرب ، وطريقا لاستيراد سلع الهند وشرق إفريقية وغيرهما إلى مصر . وقد استفادت منه مصر فائدة

(١) الخطط المقريزية ج١ ص ٢٤ تحت عنوان بحر القلزم ـ وصبح الأعشى ج٣ ص ٢٤٢ .

ضخمة . إذ أكسب موقعها أهمية تجارية كبيرة . درت عليها أرباحا مالية طائلة .

ومنذ عهد السلطان الأشرف الغورى ، أخذ هذا الطريق يفقد جزءا كبيرا من أهميته بالنسبة لمصر ، وذلك بسبب كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، إذ أخذت السفن تدور حوله آتية من الغرب ، قاصدة إلى سواحل الهند وشرق إفريقية وغيرها .

وكان بحر الروم « البحر المتوسط » ، طريقا لاتصال مصر بالشام وسواحل إفريقية الشمالية ، وسواحل البندقية والأندلس ، ونحوها من ثغور جنوب أوروبا . وكان امتدادا لطريق البحر الأحمر إلى بلاد الغرب .

ولكنه كان مصدر خطر على مصر ، أيام الحروب الصليبية . وعن طريقه وفد صليبيو أوربا إلى سواحل الشام ومصر ، أكثر من مرة ونزلوا بدمياط فخربوها . وتلصصوا منه هم وقراصنة القبارصة ، فى سواحل الإسكندرية فنهبوها وعاشوا فيها فسادا أكثر من مرة ، فى العصر المملوكى .

والملحوظ أن بحار مصر ، لم تحظ بعناية كبيرة من شعرائها ، حينذاك ، مع أن البحار ومرائيها وشواطئها وأمواجها وتياراتها والسفن التى تتهادى على على سطحها من أجمل مشاهد الطبيعة المصرية .

ويبدو أن سبب ذلك ، اضطراب معلومات الناس حينذاك عن هذه البحار . كما أن الحركة العلمية والأدبية ، كانت مركزة ، إلى حد كبير ، فى مدينة القاهرة البعيدة عن هذين البحرين ، وأن البارزين من الأدباء والشعراء كانوا يعيشون فيها ، كدأبهم الغالب فى أكثر العصور ، وهو المعيشة فى العواصم ، حيث رجال الحكم ومرادات الجاه .

ومع ذلك سنظفر بأبيات طريفة ـ فيما بعد ـ للأديب شهاب الدين بن حجر

العسقلانى يصف فيها سفينته وهو ذاهب إلى حج بيت الله الحرام ، بالبحر الأحمر .

كما أننا سنظفر بأبيات أخرى لشعراء آخرين فى وصف « سفن النيل » .

مدن مصر .

وتنتشر مدن مصر وقراها ، على ضفتى النيل ودلتاه وشواطىء بحرها ، وهى أيضا مظهر حضارى ، أو مشهد من مشاهد حياتها الاجتماعية . ولكنها تربض فى أماكنها لا تنتقل ، وتقبع فى مواطنها ثابتة لا تريم ، فتكسب بطول المقام وإلف العين ، صفة الطبيعة الخالدة ، وتصبح قطعة من البيئة الطبيعية.

ويزيدها ما تقع عليه من النهر وجداوله ، أو البحر وثنياته ، لصوقا بطبيعة البلاد ، ويضفى عليها ذلك كله جلالا وقدسية .

ومن أشهرها لذلك العهد :

القاهرة :

العاصمة الخالدة ، مقر الحكومة المصرية اليوم ، وعاصمة الجمهورية العربية المتحدة الفتية . ومركز الثقافة العربية والإسلامية الحديثة ، ومنتدى السياسة العربية المكافحة .

وهى - اليوم - ممتدة من سفح المقطم إلى النيل ، مع اتساع كبير إلى الجنوب فى اتجاه حلوان ، وإلى الشرق فى اتجاه عين شمس والماظة .

وهى اليوم - فى عصرنا الحديث الثورى - من أكبر مدن الشرق وأجملها ، وأمثلها مدنية وحضارة . وهى أكثرها دور تعليم وجامعات ، وأفتنها مبانى ومنشآت ، فضلا عما بها من مخلفات العصور الماضية وآثارها، وبذلك جمعت بين قديمها التالد ، وحديثها الطريف .

ويقول عنها تقى الدين المقريزى ما ملخصه :

« إن القاهرة المعزية ، رابع موضع انتقل إليه سرير السلطنة ، من أرض مصر ، فى الدولة الإسلامية . وكان قبلها فى الفسطاط فالعسكر فالقطائع . إلى أن قدم القائد جوهر الصقلى بعساكر مولاه المعز لدين الله الفاطمى . فبنى القاهرة حصنا ومعقلا . وصارت دار خلافة ينزلها الخليفة بحرمه وخواصه . إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية . فسكنها من بعدهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم من وليه من أسرته على مصر . »

وكان صلاح الدين قد بنى قلعة الجبل . ويبدو أن أول من سكنها من ملوك الأيوبيين هو الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب . ومن ثم صارت هذه القلعة مقر الحكم وسكن الملوك إلى نهاية العصر المملوكى .[١]

ويقول المقريزى أيضا ، نقلا عن ابن عبد الظاهر فى كتابه « الروضة البهية الزاهرة » ، وعن غيره ، ما ملخصه :

« وفى الحقيقة ، قاهرة المعز التى أنشأها القائد جوهر ، عند قدومه من حضرة مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد ، إلى مصر فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، إنما هى ما دار عليه السور فقط . غير أن السور الذى أداره القائد جوهر ، تغير وعمل ، منذ بنيت إلى زمننا هذا ، ثلاث مرات . ثم حدثت العمائر فيما وراء السور من القاهرة ، فصار يقال لداخل السور : « القاهرة » . ولما خرج عن السور : « ظاهر القاهرة » .

ويقول أيضا ما ملخصه :

« والآن تطلق القاهرة على ما حازه السور الحجر الذى طوله من باب زويلة الكبير ، إلى باب الفتوح وباب النصر . وعرضه من باب سعادة وباب الخوخة ، إلى باب البرقية والباب المحروق .

---

(١) راجع الخطط المقريزية ج ٢ ص ١٥٧ تحت عنوان « ذكر القاهرة قاهرة المعز لدين الله » .

ثم لما توسع الناس فى العمارة بظاهر القاهرة . وبنوا خارج باب زويلة ، حتى اتصلت العمائر بمدينة فسطاط مصر . وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر ، إلى أن انتهت العمائر إلى الريدانية . وبنوا خارج باب القنطرة ، إلى حيث الموضع الذى يقال له « بولاق » ، حيث شاطىء النيل . وامتدوا بالعمارة من بولاق على الشاطىء إلى أن اتصلت بمنشأة المهرانى . وبنوا خارج باب البرقية والباب المحروق ، إلى سفح الجبل بطول السور . صار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين : أحدهما يقال له ، « القاهرة » ، والآخر يقال له « مصر » .

فأما مصر ، فإن حدها على ما وقع عليه الاصطلاح فى زمننا هذا الذى نحن فيه ، من حد أول قناطر السباع ، إلى طرف بركة الحبش القبلى ، مما يلى بساتين الوزير ، وهذا هو طول حد مصر . وحدها فى العرض من شاطىء النيل الذى يعرف قديما بالساحل الجديد ، حيث فم الخليج الكبير وقنطرة السد ، إلى أول القرافة الكبرى .

وأما حد القاهرة ، فإن طولها من قناطر السباع إلى الريدانية ، وعرضها من شاطىء النيـــل ببولاق ، إلى الجبل الأحمر . ويطلق على ذلك كله « مصر والقاهرة » .

وفى الحقيقة قاهرة المعز التى أنشأها القائد جوهر عند قدومه من حضرة مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد ، إلى مصر فى شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، إنما هى مادار عليه السور فقط . » [١]

وقد ملأها رجال العصر المملوكى — ملوكا وأمراء ورؤساء وأعيانا — بكثير من العمائر والمنشآت ، ومنهـا المساجد التى هى دور تعليم وعبادة . وسنشير إليها بعد .

(١) راجع الخطط المقريزية ج ٢ ص ١٧٧ تحت عنوان « ذكر حد القاهرة » ، وص ١٧٩ تحت عنوان « ذكر بناء القاهرة » .

وقد خصص المقريزى أكثر كتابه « الخطط » للحديث عن القاهرة وأجزائها وعمائرها إلى زمانه — وقد توفى المقريزى عام ٨٤٥ هـ فذكر المساجد والمدارس ودور الكتب والزوايا والشوارع والحارات والأزقة ، والمسالك والأبواب والمناظر والقصور ، والجداول والقناطر والجسور ، وغير ذلك .

ومن بين ما كتبه عنها كثير من معالمها فى العصر المملوكى .

الإسكندرية :

يقول المقريزى عنها ما ملخصه : «هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعا . وقد بنيت غير مرة . فلما كانت أيام اليونانيين ، جددها الإسكندر بن فيلبش المقدونى ، فعرفت به » . (١)

وتقع الإسكندرية على ساحل بحر الروم . وقد شهدت عصورا مختلفة . وكانت مركز علم وفلسفة ودين ، فى بعض هذه العصور . وبنيت فيها منارتها العجيبة ، وزودت بمكتبتها الشهيرة قديما . وأقيم فيها عمود السوارى المعروف .

وكانت أحد مراكز العلم كذلك فى عصر المماليك . ومن أوسع مدن مصر عمرانا حينذاك ، وأحد ثغورها التى تتجر مع الغرب .

وقد زارها كل من الأشرف قايتباى ، والأشرف الغورى ، زيارة حافلة .

وكانت هدفا للصوص الفرنجة وقراصنة قبرص وغيرهم فى العصر المملوكى .

تنيس :

كانت فى جزيرة وسط بحيرة تعرف ببحيرة تنيس ـ قرب دمياط ـ ويكون ماؤها فى أكثر الأيام ملحا ، لدخول ماء بحر الروم إليها عند هبوب الرياح الشمالية .

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٣٢ تحت عنوان « ذكر مدينة الإسكندرية » ـ راجع أيضا تقويم البلدان لأبى الفداء .

بلبيس :

قصبة الحوف . وكان بها أشجار ونخيل كثير ، وهى قاعدة الولاة بالحوف .
ويمر بها من الأنهار الآخذة من النيل حال زيادته ، نهر يعرف ببحر ابن سنجا .
قال المقريزى :

« وقد خربت منذ عهد الحوادث بديار مصر ، بعد سنة ست وثمانمائة ، بعد ما أدركناها وبها عمارة كثيرة ، وفيها عدة بساتين . وأهلها أصحاب يسار ونعم سنية . » (١)

دمياط :

كانت مدينة مسورة على البحر الرومى ، عند المصب الشرقى للنيل . ثم خربت ، وبنى بالقرب منها بليدة تسمى « المنشية » . وهى ذات أسواق وحمامات . وكان خراب دمياط عام ٦٤٨هـ . وكانت أسوارها من منشآت المتوكل الخليفة العباسى . وكان خرابها بسبب هجوم الفرنجة عليها المرة بعد المرة ، وبخاصة فى العام المذكور . فاضطر أرباب الدولة إلى هدمها ، تعويقا لهجوم الفرنجة ، ثم إنها جددت فيما بعد .

ويقول المقريزى :

« وأما دمياط الآن ، فإنها حدثت بعد تخريب مدينة دمياط ، وعمل هناك أخصاص . وما برحت تزداد إلى أن صارت بلدة كبيرة ، ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد . ودورها تشرف على النيل الأعظم . ومن ورائها البساتين ، وهى أحسن بلاد الله منظراً (٢) .

رشيد :

بليدة على غربى النيل ، عند مصبه فى البحر . ومصب النيل فى البحر عند

---

(١) تقويم البلدان لأبى الفداء ص ١١٩ ـ وخطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٦ .

(٢) تقويم البلدان ص ١١٧ — وخطط المقريزى ج ١ ص ٣٤٤، وما بعدها ، وص ٣٦١ .

رشيد خاصة يسمى « الأرمسية » ، وتخافه المراكب عند طلوعها فيه من البحر . ورشيد على مرحلة شرقى الإسكندرية . وهى ثغر جليل على ضفتى النيل والبحر الملح(١) .

المحلة :

مدينة كبيرة ذات أسواق . وهى قصبة كور الغربية من الديار المصرية . ويقال إن فى بلاد مصر مائة قرية يقال لكل منها : المحلة(٢) .

أسيوط :

إحدى قصبات الصعيد . قيل إن فى جهتها جبل الطير . وحديثه أن يحج إليها الطير فى كل سنة ، ويترك منها واحداً ملعقاً فى شقيف(٣) .

أسوان :

قال المقريزى : « أسوان فى آخر بلاد الصعيد . وهى ثغر من ثغور الإقليم يفصل بين النوبة وأرض مصر . وكانت كثيرة الحنطة وغيرها من الحبوب والفواكه والخضراوات والبقول . وكانت كثيرة الحيوان من الإبل والبقر والغنم . ولحمانها غاية فى الطيب والسمن . وكانت أسعارها أبداً رخيصة ، وبها تجارات وبضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة . ولا يتصل بأسوان من شرقها بلد إسلامى . وفى جنوبها جبل به معدن الزمرد . وهو فى برية منقطعة عن العمارة . وعلى خمسة عشر يوماً من أسوان ، معدن الذهب . ويتصل بأسوان من غربيها الواحات . ويسلك من أسوان إلى عيذاب ، ويتوصل من عيذاب إلى الحجاز وإلى اليمن والهند(٤) » .

(١ ، ٢) تقويم البلدان ص ١١٧ ،

(٣) المرجع نفسه ص ١١٣ .

(٤) الخطط ج ١ ص ٣١٩ تحت عنوان « ذكر مدينة أسوان » .

(٥) راجع هذه المدن وأخبارها فى الخطط المقريزية ج ١ ، وفى تقويم البلدان لأبى الفداء .

هذا ومدن مصر المشهورة فى تلك الحقبة كثيرة العدد . ومنها أيضاً : أنصنا والجيزة وحلوان وقوص وأسنا . . .

جبال مصر :

ذكرنا فى مطلع حديثنا عن طبيعة البلاد المصرية ، أن أرضها هضبة عالية يشقها نهر النيل هضبتين ، وتتراءى أجزاء من هاتين الهضبتين جبالا .

وقد عرف الأقدمون بعض هذه الجبال وتحدثوا عن أخبارها . وننوه هنا بشىء من ذلك .

قال المقريزى ماملخصه : أن أرض مصر بأسرها محصورة بين جبلين آخذين من الجنوب إلى الشمال قليلى الارتفاع ــ والمقريزى يعنى بأرض مصر نيلها وما حوله من الأرض الزراعية والمدن العامرة ـ ويقول : وأحدهما أعظم من الآخر . والأعظم منهما هو الجبل الشرقى المعروف بجبل لوقا . والغربى جبل صغير وبعضه غير متصل ببعض . والمسافة بينهما تضيق فى بعض المواضع ، وتتسع فى بعضها . وعلل عدم نباتهما بعلل ، منها : أنهما مالحان . وأن قوة طين مصر تجذب منهما الرطوبات الموافقة فى التكوين ولأن قوة الحرارة تحلل منهما الجوهر اللطيف العذب . وكذلك مياه الآبار منهما مالحة . وذكر أن هذين الجبلين يجففان مايدفن فيهما . فإن أرض مصر بالطبع قليلة الأمطار —

وقال : وتتعدد أسماء هذين الجبلين بحسب مواضعهما من الإقليم ، فيطل على الفسطاط وعلى القاهرة الجبل المقطم[1] .

جبل المقطم :

يتحدث المقريزى عن جبل المقطم حديثاً غريباً . فيذكر أن أوله من الشرق من الصين حيث البحر المحيط . وأنه يمر على بـــلاد الططر ، ويمتد إلى السند إلى

---

(١) الخطط المقريزية ج ١ ص ١٩٨ تحت عنوان ذكر الجبال .

جيحون . . الخ . حتى ينتهى إلى لبنان فالشام ، حتى يصل إلى بحر القلزم من جهة ، ويتصل من الجهة الأخرى ويسمى المقطم .

ويبدو أن المقريزى بهذه الدورة يربط سلاسل جبال آسيا بمقطم مصر ، ويرى أنها جميعا جبل واحد يتشعب ويمتد بأسماء مختلفة . ولذلك استمر مع امتداد المقطم على جانبى النيل حتى أوصله إلى جبال المغرب .

وقال: إنه عرف بمقطم بن مصرايم بن بيصر بن حسام بن نوح عليه السلام . وقيل إن مصرايم بن بيصر، كما كشف ما فى هذا الجبل من كنوز مصر وفيها الذهب والزبرجد والفيروزج وغير ذلك ، وقد وصف له عمل الصنعة - يعنى الكيمياء - جعل أمرها إلى رجل من أهل بيعة يقال له مقيطام الحكيم ، فكان يعمل الكيمياء فى الجبل الشرقى ، فسمى به المقطم .

وروى عن الكندى فى فضائل مصر أن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - سار فى سفح الجبل المقطم ومعه المقوقس فقال له :

ما لجبلكم هذا أقرع ليس به نبات كجبال الشام ، فلو شققنا فى أسفله نهرا من النيل وغرسناه نخلا ! فقال المقوقس : « وجدنا فى الكتب أنه كان أكثر الجبال أشجارا ونباتا وفاكهة(١) .

الجبل الأحمر .

قال المقريزى ما ملخصه . هذا الجبل مطل على القاهرة من شرقيها الشمالى ويعرف باليحموم . قال القضاعى: اليحاميم هى الجبال المتفرقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرقى وجبابها ، وتنتهى هذه الجبال إلى بعض طرق الجب ، وقيل لها اليحاميم لاختلاف ألوانها ، واليحموم كلام العرب ، الأسود المظلم —

وروى المقريزى عن ابن عبد الظاهر أنه قال عند ذكر الجبل الأحمر أن القضاعى ذكر أن اليحموم هو الجبل المطل على القاهرة ، ولا أرى جبلا يطل على القاهرة غيره(٢) .

(١ و٢) الخطط ج١ ص ١٩٨ تحت عنوان ذكر الجبل المقطم وص ٢٠١ وذكر الجبل الأحمر - وحسن المحاضرة ج١ ص ٦٧ .

جبل يشكر :

يقول المقريزى ماملخصه: «هذا الجبل فيما بين القاهرة ومصر - يعنى الفسطاط - عليه الجامع الطولونى .

قال القضاعى : جبل يشكر بن جديلة بن لخم ، وهو الذى عليه جامع ابن طولون . ويشكر بن جديلة قبيلة من قبائل العرب احتطت عند الفتح بهذا الجبل، فعرف بجبل يشكر لذلك .

وقال ابن عبد الظاهر : « وكان هذا الجبل يشرف على النيل ، وليس بينه وبين النيل شىء . وكان يشرف على البركتين ، أى بركة الفيل والبركة التى تعرف اليوم ببركة قارون » .

وعلى هذا الجبل كانت تنصب المجانيق التى تجرب قبل إرسالها إلى الثغور .

وقال المقريزى ما ملخصه :«ويجاوره جبل« الكبش » وكان قديماً يشرف على النيل من غربيه ، ثم لما اختط المسلمون مدينة الفسطاط بعد فتح أرض مصر ، صار الكبش من جملة خطة الحمراء القصوى [(١)] .

آثار مصر :

أغرمت بعض الأمم - فى القديم والحديث - بصنع الآثار ، كالأبنية والتماثيل والأدوات والحيوانات والمناظر المختلفة ، التى ترمز إلى معان خاصة ، لها فى حياة الأمة شأن وأثر ، فى العقيدة أو المدنية أو الصناعة أو نحو ذلك .

وتعيش هذه الآثار مع الأمم ، وتتتابع عليها الأيام ، وتحول عليها السنون ، وهى قائمة فى مكانها لا تريم ولا تتحرك . وتعتاد العين رؤيتها فى مكانها الثابت ، وتكتسب بمرور الزمن قداسة وإعجاباً ، قد لا يكونان لها حين بنائها وصنعها . بل اكتسبتهما من الدوام والاستمرار والإلف ، والصبر على مقاومة عوادى التلف.

---

(١) الخطط ج ١ ص ٢٠١ تحت عنوان « جبل يشكر » — وحسن المحاضرة ج ١ ص ٦٩

وتصبح بهذا الوضع كأنها جزء لا يتجزأ من طبيعة البلاد ، مع أنها فى أصل بنائها دليل على دين أو سياسة أو حضارة .

وكثيراً ما تصبح مصدر وحى وإلهام لأدباء الشعب وشعرائه ، فيحوكون من حولها الأساطير ، ويستوحون منها الحكم والأمثال .

والأهرام وأبو الهول من أشهر آثار مصر الخالدة . وهما من صنع الفراعنة القدماء . وهما دليل حضارة مصرية واسعة ، وفن دقيق ، وحياة روحية عميقة .

وقد رسخا على وجه الأرض فى صحراء مصر ، آلاف السنين ، لم ينل منهما القدم ، ولم تمسهما يد البلى ، بل قاما ومثلا مثول الجبال ، حتى أصبحا قطعتين غاليتين من طبيعة هذه البلاد .

وكانا موضع تفكير المصريين فى عصر المماليك[١] ـ شأنهما فى كل عصر ـ وإليك شيئاً من ذلك :

الأهرام :

يقول المقريزى : « اعلم أن الأهرام كانت بأرض مصر كثيرة جداً . منها بناحية بوصير شىء كثير ، بعضها كبار وبعضها صغار ، وبعضها طين ولبن ، وأكثرها حجر . وبعضها مدرج ، وأكثرهما مخروط أملس .

وقد كان منها بالجيزة تجاه مدينة مصر ، عدة كثيرة كلها صغار ، هدمت فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، على يد قراقوش . وبنى بها قلعة الجبل ، والسور المحيط بالقاهرة ومصر والقناطر التى بالجيزة .

وأعظم الأهرام ، الثلاثة التى هى اليوم قائمة تجاه مصر . وقد اختلف الناس فى وقت بنائها ، واسم بانيها ، والسبب فى بنائها . وقالوا فى ذلك أقوالا متباينة أكثرها غير صحيح » . . . الخ[٢] .

---

(١) راجع حسن المحاضرة للجلال السيوطى ج ١ تحت عنوان « عجائب مصر القديمة » و « ذكر الأهرام » ص ٣١ و ٣٣

(٢) الخطط المقريزية ج ١ ص ١٧٩ و ١٨٠

وقد أورد المقريزى بيانات وأخباراً كثيرة عن بناة الأهرام ، وأسباب بنائها وطريقته ، وعن أجزائها وأبعادها وأبوابها وحوائطها وممراتها ، إلى غير ذلك . وكلها مسائل تحتاج إلى مراجعة وتحقيق واسع .

ويقول شهاب الدين بن فضل الله العمرى ـ المتوفى عام ٧٤٨ هـ :

« ومن ذلك الأهرام بمصر ، وأجلها الهرمان بجيزة مصر ، وقد أكثر الناس القول فى سبب مابنيا له فقيل : هياكل للكواكب ، وقيل : قبور ومستودع مال وكتب ، وقيل : ملجأ من الطوفان ، وهو أبعد ما قيل فيهما ، لأنها ليست شبيهة بالمساكن .

وأقربها إلى الصحة ـ والله أعلم ـ أنها إما هياكل كواكب ، وإما مواضع قبور . ولقد فتح أكبرها فى زمان المأمون حين قدم مصر ، فلم يظهر منه ما يدل على ماوضع له . وعلى ألسنة الناس أنه وجد ذهباً ، فوزنه وحسب مقدار ماأنفقه فوجده ســـواء بسواء ، لا يزيد أحدهما على الآخر بشىء ، لعلمهم السابق أنه سينفق عليه مثل هذا المقدار . فوضع هذا المقدار بإزاء ما ينفق عليه . ووجدت هذا فى كثير من الكتب . فراجعت التواريخ الصحيحة والكتب المسكون إليها ، فلم أجد المأمون وجد به شيئاً ، ولا استفاد زائداً عما يعلم به الناس علماً .

وأدل الأدلة على أن أحدهما هيكل بعض الكواكب ، أن الصابئة كانت تأتى حقيقة تحج الواحد ، وتزور الآخر ، ولا تبلغ به مبلغ الأول فى التعظيم . والله أعلم بحقيقة أمرها وجلية أحوالها .

وهى أشكال لهبية ، كأن كل هرم لهبة سراج ، آخذة فى أسافلها على التربيع ، مسلوبة فى عمود الهواء ، آخذة فى الجو حتى إلى التثليث . ولولا استدارة سفل أبلوج السكر لشبهناها به وتحتمل أن يكون هذا الشكل موضوعاً لبعض الكواكب لمناسبة اقتضته .

ولقد أصعدت غير مرة ، ماراً على الأهرام بجميع بلاد الجيزة ، ورأيت منها ما دثر بعضه ، وما دثر كله . فإذا هى مصفحة البناء ، شيئاً على شىء ، لا فسحة

فى أوساطها ، كما تكون مساحات الدور بين الجدران . وإنما هى بناء ملتصق على بناء ، بعضها فوق بعض .

ووجدت بعض الأهرام مبنية بالطوب . وهذا أكبر دليل على أنها لم تتخذ ملجأ من الطوفان » .

وقال : « على أن الهدم قد شرع فى قلع هذه الآثار ، ونقل أحجارها إلى الأبنية والمساكن ، نبه لها الدهر طرفا غاقياً وقلباً غافلا . فأصبحت هاوية الأركان تابعة السكان ، فلقد صدق عليها المتنبي قوله :

أين الذى الهرمان من بنيانه من قومه ما يومه ما المصرع

تتخلف الآثار عن سكانها حيناً ويدركها الفناء فتتبع

وأن فيها لعبرة للمعتبر ، وتذكرة للمدكر . وآية لمن أناب . وتبصرة فى الدنيا لمن يلد للفناء ويعمر للخراب » (١) .

أبو الهول :

يقول شهاب الدين بن فضل الله :

« ومن ذلك أبو الهول . وهو اسم لصنم يقارب الهرم الكبير . فى وهدة منخفضة تقع دونه شرقاً بغرب . لا يبين من فوق سطح الأرض إلا رأس ذلك الصنم وعنقه ، أشبه شىء برأس راهب حبشى عليه غفارية . على وجهه صباغ أحمر إلى حوة . لم يحل على طول الأزمان وقديم الآباد . وهو كبير ، لو كان شاخصاً كله لما قصر عن عشرين ذراعاً طوله ، فى غاية مناسبة التخطيط .

ويقال إنه طلسم يمنع الرمل عن المزدرع . وزاد تحسين هذا القول إليهم وتصويره لهم ، أنه على نهاية الرمل إلى جهة المزروع .

---

(١) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ج ١ ص ٢٣٥ .

وفى أبى الهول يقول أبو منصور ظافر الحداد :

تأمل هيئة الهرمين وانظر وبينهما أبو الهول العجيب
كعماريتين على رحيــــل بمحبوبين بينهمـــا رقيب
وفيض البحر عندهما دموع وصوت الريح بينهما نحيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب تخلف وهو محزون كئيب (١)

ويقول المقريزى – ناقلا عن القضاعى وابن المتوج أيضاً — ما ملخصه : « هذا الصنم بين الهرمين عرف أولا ببلهيب . وتقول أهل مصر اليوم أبو الهول. وهو صنم الهرمين ، كبير من الحجارة لا يظهر منه سوى رأسه فقط . ويقال إنه طلسم ، لئلا يغلب على إبليز الجيزة . وجثته مدفونة تحت الأرض ويقتضى القياس بالنسبة إلى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعاً فصاعدا . وفى وجهه حمرة ودهان يلمع ، عليه رونق الطراوة . وهو حسن الصورة مقبولها ، عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسما .

ويقابله فى بر مصر قريباً من دار الملك صنم عظيم الخلقة والهيئة متناسب الأعضاء ، كما وصف ، وفى حجره مولود وعلى رأسه ماجور . الجميع من صوان ماتع . يزعم الناس أنه امرأة وأنها سرية أبى الهول المذكور . وهى بدرب منسوب إليها .

ويقال إن أبا الهول طلسم الرمل يمنعه عن النيل ، وأن السرية طلسم المـاء يمنعه عن مصر . وقد نزل فى سنة ٧١١هـ أمير يعرف « ببلاط » فى نفر من الحجاريين والقطاعين ، وكسروا الصنم المعروف بالسرية ، وقطعوه أعتاباً وقواعد ، ظنا أن يكون تحته مال ، فلم يوجد سوى أعتاب من حجر عظيمة » ... الخ .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٣٨ ـ وسجن يوسف شمال الأهرام على بعد منه فى ذيل خرجة من جبل فى طرف الحاجر ـ قاله صاحب المسالك .

وقال ما نصه : « وفى زمننا كان شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، قام فى نحو من سنة ٧٨٠ هـ لتغيير أشياء من المنكرات . وسار إلى الأهرام وشوه وجه أبى الهول وشعثه. فهو على ذلك حتى اليوم . ومن حينئذ غلب الرمل على أراض كثيرة من الجيزة . وأهل تلك النواحى يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضى فساد وجه أبى الهول . ولله عاقبة الأمور[١] » .

وتنتهى بذلك جولتنا حول بلاد مصر وبيئتها الطبيعية وأهم أجزاء هذه البيئة ، ومشاهدها ومناظرها . وهى مشاهد ومناظر تشعرك بالجلال وتوحى إليك بالقداسة ، وتحفزك إلى المحبة، لما فيها من هدوء ووداعة، وما تتسم به من نقاء وطهر ، وما تتصف به من حسن وفتنة وجمال . وما تتعطف به عليك من سماحة وكرم ، فى غير من . كما فهمها وتصورها أبناؤها حينذاك ، مع خيال وأسطورية .

وهى تغاير البيئة البشرية التى يحتدم فيها نزاع البشر وقتالهم حول المنفعة وتختلف فيها القيم ، وتصنع فيها التاريخ عوامل كثيرة لا حد لإحصائها ، أهمها نوازع الغرائز والأخلاق .

هذه البيئة السياسية — هى التى ننتقل إليها فى الفصل التالى ، فنحدثك عن طرف منها .

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٩٧ ـ راجع أيضاً حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١ تحت عنوان « ذكر عجائب مصر قديمة » .

الفصل الثاني

فى

وصف البيئة السياسية (١)

١ — قيام الدولة

وليت دولة المماليك حكم البلاد المصرية وما يتبعها من الأمصار ، فى المدة الواقعة بين سنتى ٦٤٨ هـ — ٩٢٣ هـ . وقسمها بعض المؤرخين دولتين هما : البحرية من سنة ٦٤٨ هـ إلى ٧٨٤ هـ ، والجركسية من سنة ٧٨٤ هـ إلى ٩٢٣ هـ .

وبدأ نشوء المماليك البحرية ، لما تربع على عرش مصر ، الصالح نجم الدين الأيوبى عام ٦٣٦ هـ ، واشترى لنفسه نحو ألف مملوك ، وبنى لهم قلعة فى جزيرة الروضة بالقرب من المقياس وسماهم « البحرية » .

وعنى بتربيتهم تربية عسكرية ، ثم اتخذ منهم جنداً وحرساً . وقد حفظوا له اليد ، وذكروا له الصنيع ، وكانوا عند حسن ظنه ، إذ دافعوا عن ملكه وبلاده دفاع المستبسل المستميت .

ولما غزا الصليبيون البلاد المصرية عام ٦٤٧ هـ ، ونزلوا فى دمياط وخربوها ، وساروا منها مع النيل إلى الجنوب ، التقى بهم جنود الصالح هؤلاء يقودهم أمراؤهم ، وهم فى مقدمة جيش كبير عاونه أهل البلاد معاونة كبرى . فهزموهم فى موقعتى

(١) أوجزنا الحديث عن البيئة السياسية فى هذا الفصل اعتماداً على مافصلناه عنها فى المجلدين الأول والثانى من هذه الموسوعة .

« المنصورة » و «فارسكور» ، وحملوهم خسائر فادحة ، وأسروا أحد كبار قوادهم وهو « لويس التاسع » ملك فرنسا ، وسجنوه فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان ، بالمنصورة ، كما هو مشهور .

ومات الصالح على فراشه قبيل المعركة . فكتم خبر موته ، ودبرت زوجته « شجرة الدر» الأمر ، حتى عاد ابنه المعظم « توران شاه » الذى كان مقيما فى حصن كيفا

وعاد « توران شاه » وأتم المعركة . ثم وقع بينه وبين زوجة أبيه « شجرة الدر » وأمراء البحرية ، نزاع أدى إلى قتله ، واختيار « شجرة الدر » سلطانة على البلاد . فلبثت قليلا ثم تنازلت عن السلطنة لأحد كبار أمراء البحرية وهو « عز الدين بن أيبك » الجاشنكير ، بعد مشورة الأمراء . فكان أول ملوك البحرية . وما عتم أن تزوج شجرة الدر . وكان ذلك فى ربيع الآخر عام ٦٤٨هـ .

وتوالى ملوك البحرية تباعا ، فكان من أبرزهم :

١ — المظفر قطز : وقد استطاع أن يوقع بالتتار فى موقعتين حاسمتين هما « عين جالوت » و « بيسان » . وقد حسم بهما شر التتار عن مصر بصفة نهائية .

٢ — الظاهر بيبرس: ويعتبر المؤسس الحقيقى لعظمة الدوله البحرية . وكان من قبل من مماليك الصالح الأيوبى . وقد قاد جيوش قطز فى حربه مع التتار . ووعده قطز بولاية حلب ، ثم لم يبر بوعده ، فتآمر بيبرس على قتله ، وأعلنه أتباعه سلطانا على مصر مكان قطز .

وكان قوى الشكيمة حاسم الرأى غيوراً على الإسلام ، بطلا فارساً مغواراً . فأكسب الملك هيبة ورهبة . وقد تمت فى عهده أمور على جانب كبير من الأهمية، منها إخضاع بلاد الشام والقضاء على الخارجين فيها . ودحر التتار وإذلال الفرنجة وهزيمة السلاجقة . وقد غزا وفتح جملة بلاد على طول طريقه الساحلى وغيره ،

إلى بلاد الأكراد . وفتح بلاد سيس وعبر الفرات بخيوله إلى ألبيرة طلباً للتتار، وغزا بلاد السودان واحتاز جزءاً منها . وهكذا امتدت سلطنة مصر فى زمانه امتداداً كبيراً .

وقد أقام بمصر خلافة عباسية ثانية ، بقيت إلى آخر العصر ، وعدد قضاة الشرع ، فنصب من كل مذهب من المذاهب السنية الأربعة قاضى قضاة ـ هذا عدا ما أنشأه من العمائر والمرافق النافعة .

٣ — المنصور قلاوون ، ويعتبر من أعظم ملوك الدولة البحرية ، وقد بنى « البيمارستان » المنصورى المشهور ، وغزا جملة غزوات موفقة ، ومن فتوحاته ، فتح طرابلس وحصن المرقب وحمص .

٤ — الأشرف خليل بن قلاوون ، وقد غزا وفتح جملة بلاد وحصون . ومنها مدينة عكا آخر قلاع الصليبيين فى الشرق ، ومنها قلعة الروم .

٥ — الناصر محمد بن قلاوون ، وقد حكم البلاد نحو ٤٢ عاما ، وقد استقرت مصر فى أيامه ، وهابتها الملوك وأهدوا إلى سلطانها ، ودانت له بلاد الشام ، وفر التتار من بأسه . وبعد أن هزموه فى موقعة « سلمية » كر عليهم فى موقعة « مرج الصفر » كرة صادقة هزمهم بها هزيمة منكرة .

وامتلأ عصره برجال العلم والأدب . وقسم الإقطاعات تقسيما جديداً عرف « بالروك الناصرى » . وحفر الخليج الناصرى عام ٧٢٥ هـ .

وانتقل الملك عام ٧٨٤ هـ إلى الظاهر برقوق ، وكان جركسيا . وبه بدأت الدولة الثانية وهى الدولة الجركسية ، وعاشت إلى الفتح العثمانى عام ٩٢٣ هـ .

واتبعت سياسة الدولة السابقة ، فى المحافظة على استقلال البلاد ، وصيانة ممتلكات السلطة المصرية ومكافحة أعدائها فى الخارج من التتار والصليبين والسلاجقة ، ثم العثمانيين .

وقد كانت الفتن الداخلية ومؤامرات العربان من أهم أسباب القلق واضطراب الأمن فى داخل البلاد ، وذلك فى الدولة البحرية . فزاد أمرها فى الدولة الجركسية زيادة كبيرة . فضلا عن اندلاع الفتن والفرقة والطائفية بين جماعات المماليك — وهم جند الدولة — وقد أدى ذلك فى النهاية إلى اضطراب الدولة وضعفها ثم القضاء عليها .

وأهم ملوك الجراكسة :

١ — الظاهر برقوق : كان قاسياً فاتكا وقد عمل على رد جيوش « تيمورلنك » التترى عن حلب . وأعدم كثيراً من منافسيه فى الملك .

٢ — المؤيد شيخ المحمودى : وهو الذى بنى جامعه المشهور بالقاهرة بجوار بابى زويلة .

٣ — الأشرف قايتباى : ولعله أعظم ملوك الجراكسة . حكم زهاء ثلاثين عاماً . وحفظ السلطنة سليمة بالرغم من كثرة الخارجين عليه . وقد غزا بلاد العثمانيين وأدبهم واحتل منهم مدينة « قيسارية » ، وأدب العربان الثائرين ضده . وفلل سيوف الفرنجة . فضلا عن منشآته النافعة التى منها برجه بالإسكندرية . وكان مشغوفاً بفرض الضرائب وجمع الأتاوات .

٤ — الأشرف قانصوه الغورى : الذى تولى السلطنة فى أحرج أوقاتها ، وقد تألبت عليها أعداؤها فى الخارج ولاسيما العثمانيون ، وتذاءبت عليها الفتن فى الداخل ولاسيما من الجند . وقد لقى العثمانيين فى معركة[1] « مرج دابق » عام ٩٢٢ هـ وقضى عليه فيها .

٥ — الأشرف طومان باى : الذى ولى السلطنة بعد الغورى . وكان العثمانيون زاحفين على الشام ومصر . وقد لقيهم مستبسلا مستميتاً فى الدفاع عن البلاد ، فى معركة

---

(١) مرج دابق شمال حلب .

« الريدانية » وغيرها . ولكنهم هزموه أخيراً وشنقوه على باب زويلة(١) .

---

٢ - أجناس المماليك

وقد كان وجود الرقيق ظاهرة اجتماعية ، انتشرت فى عصور مختلفة وفى أمم متعددة . وذاعت بين الأمم الإسلامية فى عصورها الوسطى . وعاون على ذيوعها كثرة الحروب وتفاقم الفتن فى غرب آسيا ووسطها . فكثر يتم الأطفال وفرار الجوارى ، وهانت فلذ الأكباد فعرضت فى الأسواق ، وراجت أعمال النخاسين .

وكثر استخدام الرقيق التركى والجركسى والمغولى والفارسى والكردى وغيره . وانتشر استخدام الرقيق فى مصر منذ ولاية أحمد بن طولون . وأصبحت مصر والشام سوقاً فسيحة لبيعه ، وأقبل سلاطينها وأمراؤها على شرائه ، وغالى بعضهم فى ذلك ورفع أثمانه . ونظراً لما كان ينتظره من المستقبل الباهر ولما كان يغدق عليه من عناية وعزوجاه ، ولما كان يرتقب له من إمارة أو سلطنة ، أقبلت الآباء تعطى أبناءها للنخاسين طواعية واختياراً ، ليبيعوهم فى مصر .

وقد حرص سلاطين المماليك وأمراؤهم - فى الدولتين البحرية والجركسية - على الاستكثار من الرقيق واقتنائه . واعتاد السلاطين شراء المماليك الجدد وتربيتهم تربية عسكرية واتخاذهم جنداً للدولة ، فكان منهم جنودها السلطانية . وقد يدفع الحظ بأحدهم وتؤهله شجاعته ومهارته وذكاؤه إلى العتق ثم إلى رتب الإمارة فالسلطنة(٢) .

---

(١) راجع فى تاريخ دولتى المماليك : المجلد الأول من هذه الموسوعة . وبدائع ابن إياس وسلوك المقريزى . والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وتاريخ دولة المماليك فى مصر للسير وليم موير .
(٢) راجع ما كتبناه عن هذا الموضوع فى المجلد الأول .

وسلاطين الدولة البحرية ينسبون فى جملتهم إلى الجنس التركى . وسلاطين الدولة الجركسية ينسبون فى جملتهم إلى الجنس الجركسى . ولكن بينهم جميعاً سلاطين ليسوا من الجنسين المذكورين . فقطز خوارزمى ، وكتبغا المنصورى من التتار . ولاجين وخشقدم روميان .

والأتراك والجراكسة قبائل متفرقة . فالمنصور قلاوون ـ مثلاً ـ من القبجاق ، من قبيلة برج أغلى . وهم فرع من الأتراك تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر « إتل » ـ الفلجا ـ جنوب روسيا الحالية(١) .

وقال المقريزى عن الجراكسة : « إنهم من اللاض والروس . وهم أهل مدائن عامرة وجبال ذات أشجار ، ولهم أغنام وزروع . وكلهم فى مملكة صاحب مدينة « سراى » قاعدة خوارزم . وملوك هذه الطوائف لملك «سراى» كالرعية . فإن واروه وهادوه كف عنهم . وإن لاغزاهم وحصرهم . وكم مرة قتلت عساكره منهم خلائق ، وسبت نساءهم وأولادهم وجلبتهم رقيقا إلى الأقطار . فأكثر المنصور قلاوون من شرائهم ، وجعلهم وطائفة اللاض جميعاً فى أبراج القلعة وسماهم « البرجية »(٢) .

وقال المقريزى فى موضوع آخر : « وبلغت عدة المماليك السلطانية فى أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة . فأراد ابنه الأشرف خليل ، تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك . وجعلهم طوائف ، فأفرد طائفتى الأرمن والجركس وسماها « البرجية » لأنه أسكنها فى أبراج بالقلعة . . . . وأفرد جنس الخطا والقبجاق وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمردية » .

---

(١) راجع تراجم سلاطينهم وأمرائهم فى كتب الأعلام كالدرر والمنهل والضوء . فضلا عما كتب عنهم فى السلوك والنجوم والبدائع . وراجع أيضاً هامش السلوك ج ١ ص ٦٦٣ — وصبح الأعشى ج ٤ ص ٤٥١ و ٤٥٦ و ٤٦٧ و ٤٦٨ .

(٢) راجع خطط المقريزى ج ٣ تحت عنوان « ذكر دولة المماليك الجراكسة » . وصبح الأعشى ج ٤ ص ٤٦٥ — وهامش السلوك فى آخر ترجمة قلاوون .

ثم قال : « ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاوون بجلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد . وبعث فى طلبهم وبذل الرغائب للتجار فى حملهم إليه ودفع فيهم الأموال العظيمة(١) » .

وعنى المنصور قلاوون بتنشئة المماليك تنشئة عسكرية دقيقة ، وعنى بطعامهم وشرابهم ولباسهم ومبيتهم وأسلحتهم إلى غير ذلك . واطردت العناية بهم والاستكثار من شرائهم فى عهد بنى قلاوون ، حتى بلغ عدد من اشتراه منهم الناصر بن قلاوون — على ما روى — نحو اثنى عشر ألف مملوك . وبلغ عدد جيوشه من هؤلاء المدربين نحو أربعة وعشرين ألفاً .

واقتدى كثير من الأمراء بسلاطينهم فى اقتناء المماليك ، واتخاذهم حرساً . وقد روى ابن حجر العسقلانى أن يلبغا الناصرى — الذى كان مملوكا للناصر حسن حفيد قلاوون ، ثم أعتقه ورقاه إلى الإمارة — استكثر من المماليك الجلبان وبالغ فى الإحسان إليهم والإكرام ، حتى صاروا يلبسون الطرز الذهبية العريضة ، ويركب معه منهم نحو ألف نفس . إذا وقعت الشمس عليهم تكاد من شدة لمعانها تخطف البصر . وبلغت عدة مماليكه ثلاثة آلاف . وكان يسكن الكبش بالقرب من قناطر السباع . فكان موكبه من أعظم المواكب(٢) .

---

٣ — طبقتا الأمـــة

وكانت الأمة المصرية فى العصر المملوكى تتألف من طبقتين متميزتين: الطبقة الحاكمة ، والطبقة المحكومة .

أما الطبقة الحاكمة فهى هؤلاء المماليك — من الأتراك أو الجراكسة — الذين

---

(١) خطط المقريزى ج ٣ تحت عنوان : الطباق بساحة الإيوان .

(٢) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١٢١٨ فى ترجمة يلبغا العمرى .

وصفناهم آنفاً ، وهم طبقة طارئة على البلاد توطنت فيها ، وتجددت عن طريق الشراء من الخارج ، طول العصر ، وكان منهم السلطان ، والأمراء ، وعامة الجند .

وأما الطبقة المحكومة ـ أعنى طبقة الشعب ـ فكان منها التجار وذوو الرفاهة والنعمة واليسار ، ومنها الباعة والسوقة والزراع والصناع والعمال ، ومنها طلاب العلم والفقهاء « المتعممون » . ـ وسنشير إلى ذلك فيما بعد أيضاً .

وهذه الطبقة هى عامة الشعب المصرى من الجنس العربى . ويمتزج بها كثير من العربان والأقباط ، ورواسب من اليهود والنصارى والروم والعجم والكرد والمغاربة ، وأوشاب من الترك والجركس والتتر .

ويختار السلطان عادة من بين الأمراء عن طريق الشورى أو القوة . وقد يجىء عن طريق الوراثة . ويقام له حفل عظيم يبايع فيه بالسلطة ، على نحو ما بينا فيما سبق .

وهو بدوره يرقى الأمراء ويعين الموظفين ويدير حركة الدولة ، وتتركز فى يديه إدارتها .

وقد استأثر الأمراء بوظائف الدولة الرئيسية . واستعانوا فى القضاء برجال الدين من المتعممين . وفى الكتابة ونحوها برجال القلم من المتعممين أيضاً . فكانت وظائف القضاء والكتابة وقفاً على هؤلاء وهم من أبناء الشعب[1] .

واستأثرت كذلك بالجندية . وبملكية الأراضى الزراعية إذ قسمتها إقطاعات يفرقها السلطان بحسب مشيئته وفقاً لمراتب الأمراء والجند .

والطبقة المحكومة ليس لها من أمر الحكم شىء . فهى تفلح الأرض وتسقى الزرع وتدر اللبن وتجنى الثمر ، لأهله من أصحاب الإقطاعات . أو تتجر وتعمل ، ثم تؤدى الضرائب التى تفرض عليها . وليس لها أن يسلك أحد منها فى سلك

---

(١) تحدثنا عن وظائف الدولة ومناصب الأمراء وغيرهم فى المجلد الأول .

الجندية ، ولا أن يملك الأرض الزراعية أو يؤجرها من السلطان . وإن كان قد سمح لأفرادها بأن يتعلموا فى المساجد(١) ، وأن يملكوا الدور ، وأن يؤجروها، وأن يزاولوا البيع والشراء ، وأن يحترفوا ما شاءوا من الحرف ...

---

٤ - موقف الدولة بين مسلمى العالم

وفى الوقت الذى سيطر فيه هؤلاء المماليك على مصر ، وحكموها هى ومايتبعها بقوة السلاح والفروسية . عاصرتهم أمم إسلامية عدة ، تقلبت بها الأحوال واختلفت صروف الزمان .

وكان التتار قد قضوا على الخلافة العباسية البغدادية نهائيا منذ عام ٦٥٦ هـ ، وأخذوا يحكمون العراق وما والاه شمالا وشرقا . وأخذوا يركزون هجماتهم على بلاد السلطنة المصرية فى الديار الشامية والحلبية . وبذلك دب النزاع بينهم وبين سلاطين مصر ، وظلت الحروب والوقائع سجالا بين الفريقين زمنا طويلا .

وعانت الدول الإسلامية فى أواسط آسيا من هؤلاء التتار ما عانت ، وزالت دول وجدت أخرى . وكان التتار وثنيين من قبل ، فما عتموا بعد سنين أن أسلم بعضهم وتنصر بعض . وانقسموا فيما بينهم دويلات ، تتابعت وتنازعت .

ثم كانت دول الإسلام فى المغرب قد اضطرب حبلها وانتكث فتلها ، وتوالت محنها . وكانت بلاد الأندلس قد وقع بعضها غنيمة فى يد البربر من ناحية، وضغط الفرنجة على جوانبها من ناحية أخرى ، حتى صار بأسها بينها شديدا ، وتفاقمت بين أهلها العداوات حتى تنازعوا فاقتتلوا .

وهكذا ترى ما كان يعانيه العالم الإسلامى ودوله من الشقاء . وتطلع سلاطين المماليك حينئذ ، فرأوا أن الله سبحانه وتعالى ، قد وهب لهم من مصر ملكا كبيرا

---

(١) تحدثنا عن الحركة العلمية والتعليمية بتفصيل فى المجلدين الثالث والرابع من هذه الموسوعة .

وأصبحوا به أقوى ملوك المسلمين على الأرض . ورأوا أن الأقدار قد ناطت بهم أمانتين كبيرتين ، عليهم أن ينهضوا بهما . وهما مكافحة التتار الطامعين فى الوطن العربى ، المقبلين على الفتك بالمسلمين والعرب . ومكافحة الصليبيين الذين كانوا إلى ذلك الحين ، لا تزال أطماعهم تراودهم لاحتلال أجزاء من الوطن العربى أيضا .

وبجوار ذلك كان عليهم النهوض بإحياء علوم الدين ، حتى يبعثوا منها ما طمست معالمه ، ويجددوا منه ما بلى ، ليعوضوا العالم الإسلامى عما فقده من أسفار العلم وذخائر الإسلام شرقا وغربا .

ورأوا أنهم بنهوضهم بذلك كله يدعمون بناء دولتهم ، ويرفعون صرح مملكتهم ، ويحلون من قلوب المسلمين والعرب أرفع محل وأفضل منزل .

وقد رأينا كيف أقام الظاهر بيبرس خلافة عباسية قاهرية بمصر ، وكسب بذلك لها كسبا أدبيا عظيما ،ولفت قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إليها ، وربطها بها . فكانت القاهرة ـ بلا مبالغة ـ عاصمتهم الروحية .

وعمل سلاطين المماليك ـ فى جملة أمرهم ـ على دوام الصلة بينهم وبين البلاد العربية والإسلامية ، بعامة ، واحتفظوا ـــ ما استطاعوا ـــ بالديار الحلبية والشامية والحجازية ، منضمة إلى البلاد المصرية تحت راية سلطنة واحدة ، بل وأضافوا أحيانا إليها أجزاء من شرق ليبيا وشمال السودان وضفاف الفرات وشمال حلب .

---

٥ ـــ معالم السياسة الخارجية

مما سبق تتراءى لك معالم السياسة الخارجية للدولة المملوكية . وتتلخص فى محاربة أعداء مصر والطامعين فى بلاد سلطنتها . وأبرزهم التتار والفرنجة والصليبيون وبعض أمراء التركمان ، ثم العثمانيون الذين أخذ نجمهم فى الصعود

رويداً رويدا ، حتى أخذا يهددون الدولة المصرية بصفة جادة ، منذ عهد الأشرف قايتباى .

التتار :

فلما فرغ هولاكو التترى من فتح العراق أرسل يهدد ملك دمشق الناصر — من بقايا الأيوبيين — ويراوده على تسليم دمشق . وفى إحدى رسائله إليه يقول :

أين المفر ولا مفر لهـــا رب   ولنا البسيطان الثرى والماء ...[١]

وأخذ فى الزحف فعلا على مدن الشام وحلب ، فأسقطها مدينة بعد أخرى ، ودخل فى طاعته كثير من حكامها ، وفر آخرون من وجهه .

فشعر سلطان مصر حينئذ — المظفر قطز — بخطر الغزو التترى ، يقترب من مصر ويهدد سلطنتها . وبخاصة عندما وافته الأخبار بأن طلائع التتار قد بلغت ظواهر دمشق ، وأنها أخذت فى النهب والسلب ، وفى القتل والأسر ، بدون روية وبغير وازع .

وتلقى قطز إنذارا من هولاكو ، وتهديدا مماثلا ، دعاه فيه إلى التسليم والطاعة. وقد أرسل هولاكو إنذاره مع أربعة من أمرائه ، وقد وصف بين سطوره مقدار سطوته وقوته ، ومبلغ بأسه وشدته ، وبسالة جنده وقادته ويقول :

« يا أهل مصر ، أنتم قوم ضعاف ، فصونوا دماءكم منى ، ولا تقاتلونى فتندموا »[٢] .

عندئذ جمع قطز أمراء دولته واستشارهم فى الأمر ، فأجمعوا على محاربة

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ، فى ترجمة الخليفة المعتصم بالله . وسلوك المقريزى ج ١ ص ٤١٥ .

(٢) بدائع الزهور لابن إياس ج ١ ص ٩٦ — وسلوك المقريزى ج ١ ص ٤٢٧ وفيه نص الرسالة .

التتار ، وردهم عن بلاد مصر وسلطنتها . وجمعوا عدداً ضخما من الجنود بينهم كثيرون من عربان الشرقية والغربية ، وعاونهم أهل البلاد بالمال والرجال جهادا فى سبيل الله والوطن .

وفى أواخر شعبان عام ٦٥٨ هـ خرج قطز ، ومعه الأمير بيبرس فى جيش لجب عظيم ، وأمر بإعدام رسل هولاكو . وسار إلى الصالحية ففلسطين ، حتى بلغ بجنده « عين جالوت» . فالتقوا بجموع هولاكو وكتائبه الضخمة فانتصروا عليهم انتصارا رائعا ، وهزموهم هزيمة ساحقة ، وتتبعوا فلولهم إلى « بيسان » ، فكانت بين الفريقين هناك معركة طاحنة أثخن المصريون فيها فى رقاب التتار وأبادوهم وغنموا منهم غنائم لاتحصى .

وقد تجلت فى هاتين المعركتين شجاعة المماليك وأمرائهم وبخاصة الأمير بيبرس الذى تجلى بمواهبه العسكرية .

وقد استطاع بيبرس بعد قليل أن يتخلص من سلطانه قطز ويقفز مكانه على عرش السلطنة عام ٦٥٨ هـ نفسه . فاعتلت عليه البلاد الشام بعض الاعتلال إذ خرج بها عليه الأمير « سنجر الحلبي » وأعلن بنفسه سلطانا عليها ، فأدبه بيبرس هو ومن معه .

وعاود التتار الزحف على الشام فجرد بيبرس جيشا قويا استعدادا للقائهم . وجاءته الأنباء أن التتار بلغوا الفرات وملكوا «ألبيرة » ، فلقيهم على ضفافه فى موقعة عظيمة دارت رحاها عليهم ، فقتل منهم خلق كثير وأسر عدد كبير ، وذلك عام ٦٧٠ هـ .

وفى عام ٦٧٥ هـ عاودوا الزحف فخف إليهم بيبرس واتجه إلى حلب ولقيهم فى معركة حامية أثخن فيهم بها إثخانا شديدا وفر ملكهم « أبغا » ، فاتبعه بيبرس إلى « الأبلستين » والتقى به مرة أخرى ، فانتصر بيبرس بعد أن قتل من جنود التتار

نحو مائة ألف نفس ، وهرب « أبغا » إلى جهة زبيد ، وبيبرس يطارده . ثم عاد بيبرس إلى « قيسارية » وحاصرها حتى استسلم له أهلها .

واستطاع بيبرس فى معاركه هذه مع التتار — ومع الفرنجة كما سنذوه — أن يفتح جملة من المـــدن والحصون كانت فى أيديهم أو يغزوها ، ومنها : ألبيرة ، والكرك ، وحمص ، وقيسارية ، وأرسوف وصفد ويافا ، والشقيف ، وأنطاكية ، وحصن الأكراد وصافيتا وبلاد سيس .

وسيرت المناشير بهذه الفتوح إلى شتى الأمصار ، مكتوبة بأساليبها الأدبية البارعة ، بأقلام النابهين من كتاب الإنشاء . ونظم فيها ، أو فى بعضها ، القصائد والمقطعات كما سيأتى بيانه . (١)

وآلت السلطنة بعد قليل إلى الملك المنصور قلاوون . وفى عام ٦٧٩ هـ أيام ولايته أغار التتار بزعامة الأمير « منكوتمر » أخى ملكهم « أبغا » على مدينة حلب . فخف إليهم المنصور فى عدد ضخم من جنده على ظهور الخيل . فجلا التتار عن حلب فارين من وجهه قبل أن يلحق بهم . ثم عادوا إليها فأغذ المنصور السير إليهم فتلاقوا على « المرج الأصفر » فى أوائل عام ٦٨٠ هـ فانهزم التتار شر هزيمة بعد موقعة دامية . وأوقع فيهم المنصور السبى والغنم .

وفى عام ٦٩٩ هـ فى عهد السلطنة الثانية للناصر بن قلاوون أخذ التتار فى الزحف على مدينة حلب مرة ثانية بقيادة ملكهم « غازان » بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، بجند يبلغ نحو مائتى ألف . فخرج الناصر محمد إلى لقائه بجند كثيف

---

(١) مما يذكر من مواقف بيبرس وحميته للاسلام والمسلمين ، أنه لما زحف هولاكو ملك التتار يريد حلب ، اضطرب ملكها الناصر الأيوبى وعظم خوف أمرائه وعسكره وكان لديه حينذاك بيبرس . فأخذ أحد الأمراء ، وهو زين الدين الحافظى يعظم شأن هولاكو ويشير بعدم الدخول معه فى حرب ، رأن يدارى بالدخول فى طاعته ، فصاح به الأمير بيبرس وضربه وسبه وقال له : «أنتم سبب هلاك المسلمين » . ثم فارقه إلى خيمته . وبعد قليل التحق بالمظفر قطز فى مصر وقاد معه الحملة ضد التتار فهزمهم فى عين جالوت — سلوك المقريزى ص ٤١٩ حوادث عام ٦٥٧ هـ .

وتلاقى الفريقان فى « سلمية » قرب بعلبك ، فدارت الدائرة على الناصر وجيشه ففر مهزوما إلى بعلبك ، ونهب التتار عتاده وذخيرته وأثخنوا فى جنده وفلوله .

وبهذا النصر تهيأ «غازان» لدخول دمشق وامتلاك الشام جملة . فتحول إليها. فخاف أهل دمشق وتشاوروا فى الأمر واستقر رأيهم على طلب الأمان . وأوفدوا إلى « غازان » وفدا لذلك ، فيه جمع من علماء الدين منهم بدر الدين بن جماعة ، وزين الدين الفارقى ، وتقى الدين بن تيمية الحرانى ونجم الدين بن الصرصرى وعز الدين بن تركى وعز الدين بن القلانسى وجلال الدين القزوينى وغيرهم . فأمنهم غازان .

ثم إن «غازان» حاصر قلعة دمشق مدة فلم يستطع الاستيلاء عليها لمناعتها ، فرحل عنها . وعهد بنيابة دمشق إلى الأمير « قفجق » أحد الأمراء المصريين ، وكان نائبا من قبل على الشام من قبل المنصور لاجين فخرج عنه وزين للتتار غزو الشام .

وعاد الناصر إلى القاهرة ولم يهدأ له بال فجهز جندا كثيفا زحف به على دمشق ، فأظهر له نائبها « قفجق » الخضوع . ثم عاد إلى القاهرة .

وما لبث حتى أعاد التتار الكرة على ضفاف الفرات عام ٧٠٠ هـ ، فخرج الناصر محمد بن قلاوون للقائهم . فلما بلغ غزة بلغه أن نائب حلب كسرهم كسرة حاسمة فروا على إثرها هاربين . فعاد إلى القاهرة .

وفى عام ٧٠٢ هـ تواترت الأخبار عن حلب أن أحد أمراء « غازان » وهو « قطلوشاه » قد دخلها فجأة بجملة من جنده واحتلوها . فبعث إليهم الناصر عدة من الجنود لإجلائهم ، ثم هب الناصر بجموع كثيفة ، فيها كثير من العربان ، وسار بهم إلى الشام . وكان « غازان » نفســـه قد قارب « حماة » فالتقى الجمعان فى « مرج راهط » (١) فدارت بين الفريقين معركة هائلة انفرط على إثرها عقد التتار

---

(١) يسمى أيضا « مرج الصفر » أو « شقحب » راجع العبر لابن خلدون .

ودارت الدائرة على « غازان» وجنوده . كانت هذه الموقعة إحدى المواقع الحاسمة بين التتار ومصر

وعاود التتار عبثهم بجهات حلب . فهم الناصر بتأديبهم فتراجعوا خوفا منه ، وبعد قليل وقف تيار اعتدائهم نسبيا ، حتى صار إلى السلطنة المصرية « برقوق » .

وفى عهد السلطان الظاهر برقوق هذا ، ظهر ملك للتتار قوى الشكيمة قاسى القلب محب للتدمير شبيه بهولاكو ، وهو « تيمورلنك » . وقد جمع جموعا كثيفة من أتباعه ، وزحف بهم من قلب آسيا ناسلا إلى غربها ، فبلغ تبريز وخربها وقتل أهلها . ودهم بلاد التركمان والأكراد وزحف متجها إلى بغداد .

وبعد قليل كر تيمورلنك ثانيا على بلاد الأكراد ، ثم حاصر البصرة . كل هذا وبرقوق آخذ فى الاستعداد للقائه . ثم خرج بجملة جنده إلى الشام فبلغ دمشق فى ربيع الآخر عام ٧٩٦ هـ . ومنها رحـــل إلى حلب . فعلم أن جنود « تيمورلنك » قد بلغت إلى « ألبيرة » على الضفة اليسرى لنهر الفرات ، فعبره برقوق بجنود مصر ليلا - وقيل إنهم كانوا ينفخون القرب ويجعلونها تحت بطون الخيل فيعبرون بها إلى الضفة اليسرى - . فأوقعوا بجنود التتار إيقاعا جزئيا وغنموا منهم أشياء كثيرة . ولكنهم لم يلتقوا فى معركة حاسمة. ورحل «تيمورلنك» بلا منازلة . فعاد برقوق إلى مصر .

وآلت السلطة بعد برقوق إلى ابنه النـاصر فرج عام ٨٠١ هـ . وفى عهده اعتدى جند « تيمورلنك » على بغداد . فاجتمع لصده صاحبها القان « أحمد بن أويس » ومعه « قرايوسف » أمير التركمان . وكسروا الجند كسرة بالغة وذلك عام ٨٠٢هـ. فلما انكسروا قصدوا مدينة «ملطية» وكانوا نحو سبعة آلاف نفس . ثم بعثوا إلى نائب حلب يطلبون إليه أن يخلى لهم مكانا لنزولهم . فهب نائب حلب ومعه نائب حماة بجنودهما ودارت بين العسكرين دائرة الحرب فانهزم النائبان هزيمة منكرة

وسمع سلطان مصر الناصر فرج بأنباء هذه المعارك ، فرسم لنائب الشام وصفد وطرابلس بأن يجمعوا ما استطاعوا من الجند وييمموا شطر حلب ويقيموا بها .

وفى أوائل عام ٨٠٣ ﻫ بلغ السلطان أن جنود تيمورلنك بلغوا مدينة « سيواس » وقتلوا أهلها ودفنوا بعضهم أحياء وأحرقوا البعض الآخر . وأن ملك بنى عثمان والقان أحمد بن أويس وقرا يوسف توجهوا إلى مدينة « برصا » هاربين من وجهة التتار .

ثم توالت الأنباء بأن تيمورلنك امتلك مدينة « عينتاب » وغيرها ، وأنه اقترب من حلب . ثم أرسل رسله إلى نائب حلب ، فضرب النائب أعناقهم وأخذ يستعد للقاء التتار ، وحصن مدينته بالمدافع والمكاحل والجنود . ولكن تيمورلنك استطاع أن يدهمه هو ومدينته ، وبطش به وبأهلها بطشا شديداً ، حتى كانت القتلى أكواما مكدسة فى شوارع المدينة . فطلب نائب حلب منه الأمان ، فأمنهم تيمورلنك وصارت المدينة وقلعتها فى يديه .

وسرى الألم والحزن فى نفوس المصريين لما أصاب حلب وأهلها . وأخذ السلطان فرج فى الاستعداد للقتال . ثم خرج بجند كثيف إلى غزة فدمشق . والتقى بالتتار فهزم طائفة منهم هزيمة منكرة فولوا الأدبار ، ثم وقع الخلف فى صفوف أمراء السلطان فعاد بهم إلى مصر .

وكان ذلك مشجعا للتتار . فزحفوا ثانية على دمشق ووقعت بينهم وبين أهلها معارك عدة ، ثم أرسل إليهم « تيمورلنك » للتفاهم معه . فذهب إليه القاضى « تقى الدين بن مفلح » الحنبلى ، ومعه خمسة من أعيان المدينة . وبعد لأى أمن التتار المدنية ، ففرح أهلها وفتحوا أبوابها لهم . وبذلك سقطت دمشق فى يد تيمورلنك . وما عتم أن فرض عليها الضرائب الباهظة وجباها له القاضى ابن مفلح . وجمع له ما لهم ودوابهم . ثم إنها لم تقنعه ، واعتذر له ابن مفلح ، فلم يقبل ووضعه فى القيد

هو وأعوانه . . وقسم تيمورلنك المدينة بين أعوانه فنزلوا بأنفسهم إلى نواحيها فجبوا الضرائب وجمعوا المال والدواب ، وقتلوا وهتكوا وعذبوا ما شاء لهم هواهم ، وأذاقوا المدينة بذلك سوء النكال . ثم أمر تيمورلنك بإحراق المدينة فأحرقت وأصبحت أطلالا بالية . وهذا جزاء الخوف والاستسلام والاختلاف . . .

واستمر ذلك نحو ثمانين يوما . ثم طلب تيمورلنك إلى السلطان فرج إطلاق سراح أحد أمرائه ـ وكان مأسوراً لديه منذ أيام برقوق ـ وهو «إطلمش» ، وكان من أقاربه . واعتذر له تيمورلنك عن إساءاته فأطلقه الناصر فرج على أن يطلق تيمورلنك ما عنده من الأسرى ويرحل عن بلاد الشام . فأطلقهم ورحل جملة إلى بلاد الشام .

حينئذ أرسل الناصر فرج الأمير « نوروز الحافظى » نائبا من قبله على الشام ليصلح أحوالها ويدبر أمورها ، ويعيد إليها الأمن والرخاء .

ومن لطف الله بالشام وبمصر أن هلك تيمورلنك ومات فى عام ٨٠٤ هـ — وقيل عام ٨٠٧هـ — (١) بعد أن ملك من أواسط آسيا إلى حدود الشام .

وهدأت فتن التتار بعد ذلك وركدت ريحها نسبيا ، بعد أن لبثت زهاءقرنين وهى شجا فى حلق مصر والشام ، وخطرا ماثلا علىسلطنة المماليك .

الصليبيون :

أما الصليبيون فقد كانوا شغلا شاغلا لسلاطين مصر فى هذه الحقبة ، كما كان التتار سواء بسواء . وربما كانوا أكثر شغلا لبالهم منهم ، ذلك لأنهم مسيحيون وظلوا علىمسيحيتهم ، أما التتار فقد كانوا وثنيين ثم أسلموا ، أوأسلم كثير منهم، وتفرقوا وكونوا دولا إسلامية .

والصليبيون أفاقون طامعون جملة فى الاستيلاء على بلاد العرب والمسلمين

---

(١) راجع ابن إياس حوادث عام ٨٠٤ هـ — وعجائب المقدور لابن عربشاه.

منذ أمد ، وما كانت الحروب التى وقعت بينهم وبين جيوش مصر فى العهد المملوكى إلا امتدادا لتلك الحروب الصليبية التى اشتهرت فى تلك العصور الوسطى مبتدئة فى عهد الفاطميين فالأيوبيين ، ثم امتدت فى خلال العصر المملوكى (١)

وقد وفدوا إلى هذه البلاد من أنحاء أوربا وبينهم أجناس مختلفة ، يقودهم بعض المغامرين من الملوك والقواد والرهبان من الإنجليز والفرنسيين وغيرهم ، يلبسون لباس الدين ويسترون أطماعهم تحت مسوحه .

وكانوا قد أسسوا لهم مستعمرات ، وملكوا مدناً على سواحل البحر الأبيض ببلاد الشام وحلب ، صارت مباءة الأوربيين . وقد جهد سلاطين مصر فى استردادها وإجلائهم عنها ، فكانت الحرب بينهما سجالا .

ومن أشهر من قاومهم من سلاطين المماليك الظاهر بيبرس ، فقد حاربهم واسترد منهم كثيراً من المدن التى انتزعوها فيما سلف أو أسسوها مستعمرات لهم . ومن بينها صفد وأنطاكية وقيسارية وأرسوف وطبرية ويافا والشقيف وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا والمرقبة وحلب وبانياس وطرسوس . وكان اشتغال بيبرس بمحاربتهم واقعاً على وجه التقريب ما بين سنتى ٦٦٤ هـ ، ٦٧٥ هـ (٢) .

ولما ولى الملك المنصور قلاوون أمر السلطنة فتح مدينتى المرقب وجبلة وحاصر طرابلس عام ٦٨٨ هـ ونصب عليها المجانيق ودخلها عنوة بعد ٣٤ يوماً. (٣) وأعد العدة لفتح عكا التى تعصت على من قبله ، وجهز لها جيشاً كثيفاً . ولما بدأ يخرج به من مصر دهمه المرض فمات بعد قليل (٤) .

---

(١) راجع تاريخ هذه الحروب فى كتاب « تاريخ دولة المماليك فى مصر للسير وليم موير » ص ١٠ تحت عنوان « مختصر تاريخى للحروب الصليبية » .

(٢) راجع سلوك المقريزى فى حوادث هذه الأعوام .

(٣ ، ٤) العبر لابن خلدون ج ٥ ص ٤٠١ وراجع أيضاً تشريف الأيام والعصور .

وخلفه ابنه الأشرف خليل فأعاد تجهيز الجيش، وسار به نحو عكا فى عام ٦٩٠هـ ونصب حولها ٧٥ منجنيقاً ، وحاصرها عدة أيام حصاراً عنيداً ثم اقتحمها عنوة وهدم أسوارها . ثم سار من بعدها إلى جبت وبيروت فافتتحهما . ويعتبر بعض المؤرخين سقوط مدينة عكا ومدن الساحل فى يد سلاطين مصر عام ٦٩١ هـ نهاية للحروب الصليبية[١] .

على أنه ثمة وقائع أخرى تلت هذه الحروب ، وهى تصور لنا ـ مع ما سبق ـ قصة هذه السياسة الخارجية للدولة ومدى اهتمامها بها واتصالها بأطرافها . ومن ذلك :

هجوم فرنجة جزيرة قبرص على ميناء الإسكندرية عام ٧٦٧ هـ وبقيادة حاجبهم فى أسطول عظيم ، يقال إنه بلغ سبعين مركباً مليئة بالعـــدد والعدة والخيول والفرسان . فباغت سكانها ونضحهم بالنبل وأحرق باب المدينة واقتحمها ، ففر أهلها منها وأصابهم فى فرارهم كثير من الأذى والسوء من عربان ضواحيها . أما فرسان قبرص فقد نهبوا من المدينة ما استطاعوا حمله ، وأسروا من أسروا . ثم عادوا إلى سفنهم وأقلعوا إلى حيث أتوا .

وكان نائب المدينة إذ ذاك قد فارقها للحج . وسلطان مصر إذ ذاك أيضاً ، الأشرف شعبان حفيد قلاوون ، ونائب سلطنته « يلبغا العمرى » ، فكتب كتيبة حين علم الخـــبر ، وساقها إلى الإسكندرية ، فوجدت هؤلاء اللصوص قد رحلوا عنها . فأمر بإصلاح ما أفسدوه . وهم بتشييد عمارة بحرية قوية . ولـكن الأيام لم تعاونه[٢] .

وروى ابن إياس فى هذه الواقعة أن نائب الإسكندرية جمع عدداً من عربان

---

(١) راجع سلوك المقريزى وبدائع الزهور فى تاريخ الأشرف خليل .

(٢) العبر لابن خلدون ج ٥ ص ٤٥٤ ، والبدائع ج ١ ص ٢١٤ .

البحيرة والتقوا بالفرنجة القبرصيين فى معركة حامية ، فانكسر النائب ومن معه وفروا من وجههم ، فأحرقوا باب رشيد ودخلوا منه إلى المدينة ، وعاثوا فيها فساداً ونهبوا وسلبوا وقتلوا كثيراً من المسلمين . ثم فروا قبل مجىء السلطان إليهم من القاهرة(١) .

ومما يذكر أيضاً أن السلطان الأشرف برسباى بعث فى عام ٨٢٩ هـ تجريدة قوية إلى قبرص ففتحها وأسر ملكها ـ جينوس بن جاك ـ وجىء به إلى القاهرة مصفداً فى الأغلال ، ومعه عدد من جنوده . وكان ملكهم راكباً وعليه خوذته وسلاحه . فأمر الأشرف برسباى بأن تعلق هذه الخوذة على باب مدرسته بسوق الوراقين لتكون عبرة وذكرى(٢) .

وفى عهد الأشرف قايتباى أخذت جموع من الفرنجة يتلصصون على سواحل مصر الشمالية ويباغتونها من حين إلى آخر ، وينهبون ما تصل إليه أيديهم ، ويأسرون من التجار وغير التجار من يقع لهم . وأكثروا من التلصص على سواحل الإسكندرية ودمياط .

فاهتم الأشرف قايتباى للأمر . وأخذ يعين لهم آنا بعد آن ، تجريدة بحرية تتبع آثارهم ، وترجع منهم ما استطاعت إرجاعه مما سلبوه ، وتعمل على قطع دابرهم .

وفى عام ٨٨٠ هـ وقعت إحدى حوادثهم فى مدينة الإسكندرية . إذ أغاروا عليها واحتالوا حتى أسروا عدداً من تجارهم . ومن بينهم بعض أخصاء السلطان ، وحملوهم إلى بلادهم . فأمر السلطان بالقبض على جميع تجار الفرنجة بثغر الإسكندرية ، وبعث أحد خواصه ، وهو « قيت الساقى » لتنفيذ الأمر .

---

(١) البدائع حوادث عام ٧٦٧ هـ .

(٢) راجع قصة هذه الواقعة ودخول جينوس مصر ووقوعه أمام برسباى . فى المنهل الصافى فى « برسباى » .

فاضطلع به وقبض عليهم ، وأمرهم بأن يراسلوا ملوكهم بما فعله السلطان بهم ليكون عبرة وعظة ؟ ولكى يطلقوا سراح تجار الإسكندرية، شرط الإطلاق سراحهم . — فتم الأمر وفق مشيئة السلطان[١] .

وفى عهد السلطان الغورى «٩٠٦ هـ — ٩٢٢ هـ» ، نشط البرتغاليون إلى إيذاء مصر بدافع من حقدهم عليها بسبب ما تجبيه من الضرائب على البضائع المارة بها بين الشرق والغرب ، إذ كانت مصر هى الطريق الوحيد بين الجهتين . فأخذوا فى التلصص على الشواطىء المصرية وغير المصرية من سواحل البحر الأحمر وشرق إفريقيا وجنوب آسيا ، يتلمسون السفن المصرية والمتاجر المصرية ليلحقوا بها السوء . وكان من نتائج نشاطهم كشف طريق رأس الرجاء الصالح الذى هدد مصر فى مورد من أهم موارد ثرائها .

وقد استغاث بالغورى عدد من أمراء الهند والعرب ، ممن تربطهم بمصر روابط اقتصادية ودينية . فاضطر الغورى إلى إنشاء عمارة بحرية عظيمة بقيادة أحد أمرائه ، لرد عدوان البرتغاليين وغيرهم من الفرنجة فى شرق إفريقية وبلاد العرب والهند. فظلت تكافحهم سنوات ولكنها لم تفلح أخيرا فى رد عدوانهم[٢].

العثمانيون:

ومن أنكى ما ابتليت به السلطنة المصرية ، قيام دولة الأتراك العثمانيين ، التى أسست على أنقاض الدول السلجوقية ثم الدول التترية المتبعثرة ، وملكت بلادا فى الأناضول وأرمينية وشمال الفرات ، وأخذت فى التوسع فى جميع الاتجاهات من حولها ، وطمعت فى أرض العرب .

---

(١) راجع ترجمة قايتباى فى بدائع الزهور .

(٢) راجع ترجمة الغورى فى بدائع الزهور ج ٥ — وتاريخ دولة المماليك للسير وليم موير ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

لقد أخذ النزاع بينهم وبين مصر يحتدم شيئاً فشيئاً ، منـــذ عهد الأشرف قايتباى « ٨٧٢ هـ - ٩٠١ هـ » . إذ عاونوا بعض الأمراء الخارجين عليه . فجرد على الخارجين حملة كسرت شوكتهم . ثم تنبه للعثمانيين أنفسهم ، فحاربهم أكثر من مرة وانتصر عليهم ، وعادت جيوشه ظافرة غانمة تسوق فى أصفادها عديداً من أسراهم .

ولقد خرجت إليهم فى عام ٨٩٣ هـ حملة مصرية كبيرة العدد بقيادة الأتابكى « أزبك بن ططخ » ، فأوقعت بهم وهزمتهم هزيمة منكرة ولوا بعدها مدبرين ، واستولت منهم على مدينة « أدنة » - أطنا - .

وخرجت إليهم حملةأخرى عام ٨٩٥ هـ ، فبلغت فى زحفها إلى آسيا الصغرى - موطنهم الأصلى - واستولت على مدينـــة « قيسارية » . ثم تصالح الفريقان وتبادلا الأسرى .

وهـكذا دفع قايتباى غائلة العثمانيين عن الوطن العربى ، ووقى مصر والشام وحلب وغيرها شرهم .

ولـكن خطرهم من بعد قايتباى أخذ يستشرى ويشـتد ، ولم يحسمه حاسم . حتى كانت الطامة الـكبرى التى أصابت مصر على يدهم . إذ أوقع سلطانهم سـليم الأول بجيش مصر فى موقعة « مرج دابق » عام ٩٢٢ هـ . وكان يقوده سلطانها الأشرف الغورى ، الذى مات فى المعركة . ومن ثم زحف جيش العثمانيين على حلب فالشام ثم على مصر ، فلقيه بها سلطانها الجديد الأشرف طومان باى . وبعد معارك قاسية ووقائع طاحنة منها موقعة « الريدانية » تم للعثمانيين فتح هذه البلاد فى أوائل عام ٩٢٣ هـ .

استقلال البلاد وبسط نفوذها :

ويتجلى لك من هذه الوجازة ، مدى مجاهدةسلاطين المماليك ، ومبلغ مكابدتهم

المشاق فى محاربة الطامعين فى سلطنة مصر وما يتبعها من البلاد . هادفين إلى المحافظة عليها وعلى استقلالها وعاملين على بسط نفوذها خارج حدودها .

وعلى الرغم من أن طبقة المماليك، طبقة طارئة على البلاد المصرية ، ومتجددة تجددا مستمرا عن طريق الخارج - كما نوهنا - لم تقاوم جماهير الشعب وجودهم مقاومة تذكر .

ويبدو أنهم اكتسبوا بالتوطن وبالدين المشترك - الذى هو دين البلاد أو أغلبيتها الساحقة - صفة المصرية . واتخذ سلاطينهم وأمراؤهم هـذه البلاد وطنالهم ، لا يعرفون لهم وطنا سواه . ولا بدع . فقد جلبوا إليه ونشئوا فيه ، وشبوا تحت سمائه وفوق أرضه ، وملأهواؤه صدورهم حياة وحركة ، وحاطتهم نعمه أينما ساروا ، واتسع لهم صدره بما لم يتسع به لهم صدر غيره ، وآل إليهم حكمه بحسب تقلبات الأحوال وتصاريف الأقدار ، إذ انتقل إليهم سهلا ميسرا عقب الدولة الأيوبية ، فكان فى جملته امتدادا لحـكمهم .

فلا غرابة إذاً أن نصبوا أنفسهم ذادة عنه ومدافعين ، وحاطوا استقلاله بكل ضرب من ضروب الصيانة . وغزوا باسمه فى كل مكان يحيط به ، ونشروا رايته على كثير من الآفاق المجاورة ، وأدخلوا فى حوزته جملة من البلاد ، وأحسنوا سمعته بين دول العالم المعروفة حينذاك بصفة عامة ، وبين دول المسلمين بصفة خاصة فانتشر بذلك صيت مصر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . وامتد ملـكها فى بعض أيامهم ، بل وفى معظم أيامهم إلى بلاد المغرب غربا ، والنـــوبة جنوبا ، والحجاز والشام وحلب وضفاف الفرات شرقا ، وإلى قبرص وغيرها من جزر البحر المتوسط شمالا .

لقد حافظوا على استقلال هذه البلاد ، وبطشوا بكل من بغى عليه ، أو اعتدى على طرف من أطراف هذا الوطن العظيم . لذلك شغلوا أنفسهم وجزءا كبيراً من زمنهم بالحروب الخارجية .

وحافظوا على بلاد الشام وحلب بصفة خاصة . وكانت حروبهم لهذين البلدين وفى سبيلهما وفى ربوعهما . اعتبروهما جزءا لايتجزأ من مصر ، فالمعتدى عليهما معتد عليها . وعنوا بهما عنايتهم بها . ونسقوهما نسقا إداريا مماثلا لنسقها . وقسموهما « نيابات » يليها أجل أمراء مصر ، وكان نائب دمشق أكبر نواب السلطنة بعد نائب السلطان بالقاهرة .

ومن أجل البلاد الشامية والحلبية ، اعتركوا مع التتار والصليبيين . وحاربوا دونهما أمراء التركمان وملوك فارس وبغداد ، وأمراء الأرمن وغيرهم ممن حفزتهم الأطماع إلى الاعتداء عليهما أو على أى جزء آخر من بلاد السلطنة .

الاهتمام بالوطن العربى والإسلامى :

وهكذا ترى مبلغ حرصهم على مصر وما يتبع سلطنتها . وهى إذ ذاك جزء كبير من الوطن العربى الواسع . لقد حفظوه موحداً مجموع الأطراف ملتئم الشمل ، يشعر سكانه فى كل قاصية منه ، أنهم سكان محلة واحدة .

ولم يقف جهدهم عند هذا الحد ، بل كانوا يمدون يد المعونة إلى كل من لجأ إليهم أو استنجد بهم من أمراء المسلمين وملوكهم .

نذكر ـ على سبيل المثال ـ الظاهر بيبرس . فقد عاون الخليفة المستنصر العباسى على رد عرش آبائه من التتار ، فجهزه بجيش . ولكن التتار تغلبوا عليه فى النهاية وهزموه[1] .

وساعد السلطان برقوق ، القان أحمد بن أويس صاحب بغداد فى زمانه ، ضد التتار[2] .

(١، ٢) راجع ترجمة بيبرس وبرقوق فى بدائع الزهور لابن إياس ، وفى سلوك المقريزى .

وبعث الغورى عمارته البحـــرية لمعاونة ملوك المسلمين بالهند ، والعرب بسواحل المحيط ، على الفرنجة البرتغاليين ، العابثين بشواطئهم وتجارتهم — كما أشرنا — .

وأرسل الغورى أيضاً رسله ، إلى ملوك الفرنجة يلفت نظرهم إلى ضرورة الرفق بمسلمى الأندلس وضرورة الكف عن إيذائهم ، فى نظير أنه يعامل الفرنجة المقيمين فى سلطنته معاملة حسنة . وهددهم بالإساءة إلى هؤلاء الرعايا ، إذا لم يستجيبوا إلى ندائه . لقد فعل ذلك حينما استغاث به صاحب الأندلس من حصار الفرنجة له(١) .

هكذا أتيحت فرص عدة لهؤلاء السلاطين ، بوءوا فيها مصر مركز الزعامة الحربية والسياسية والأدبية ، بين الأمم العربية والإسلامية وغيرها فى عصورهم الوسطى . وجعلوها موضع هيبة وإعظام من الدول الأخرى .

وقد كان من نتائج ذلك ، نشوء العلاقات والصلات بين مصر وغيرها من الدول . وترتب على هذا إرسال الرسل وتبادل القصاد والسفراء بينهما . وعلى سبيل المثال نذكر :

ا — من رسل مصر وسفرائها :

الأمير برسباى أمير آخور ثان ، بعثه الملك الأشرف إينال إلى السلطان محمد الفاتح يهنئه بفتح القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ .

والأمير يشبك الجمالى ، بعثه الأشرف قايتباى عام ٨٧٨ هـ إلى ابن عثمان ملك الروم أيضاً برسالة تتضمن الود والصداقة .

---

(١) راجع ترجمة الأشرف الغورى فى بدائع ابن إياس ج ٥ .

وتغرى بردى الترجمان ، بعثه الأشرف الغورى عام ٩١١ هـ إلى البترك ليمنع عبث الفرنجة بسواحل مصر .

والطواشى بشير ، بعثـــه الأشرف الغورى إلى بلاد اليمن والهند ، ليدعوا ملوكها إلى التعاون مع عسكره على قتل الفرنجة ـ البرتغاليين ـ بسفن التجارة فى المحيط الهندى .

ب — ومن رسل الدول إلى مصر :

رسل أرسلهم صاحب اليمن إلى الناصر بن قلاوون عام ٧١٢ هـ ومعهم هدايا نفيسة .

ورسول أرسله صاحب ماردين إلى الظاهر برقوق عام ٧٨٨ هـ يخبره بتحركات تيمور لنك التترى ، واستيلائه على تبريز وغيرها من المدن والبلاد .

ووفد بعثه بايزيد الأول ملك العثمانيين ، إلى الناصر فرج بن برقوق عام ٨٠٣هـ ومعه هدايا قيمة للسلطان وأمرائه ، ليحذره من تيمورلنك .

ورسول بعثه السلطان محمد الفاتح ملك العثمانيين إلى الأشرف إينال يخبره بفتحه مدينة القسطنطينية . وذلك عام ٨٥٧ هـ . وقد زينت القاهرة لهذه البشرى وعم أهلها الفرح العظيم .

ورسول قدم من لدن صاحب الهند الملك غياث الدين إلى الأشرف قايتباى ، ومعه هدايا قيمة للسلطان وللخليفة المستنجد بالله يوسف ، طالباً من الخليفة تقليدا له بولايته على إقليم الهند[١] .

---

(١) راجع أخبار هؤلاء القصاد فى المجلد الثانى من موسوعتنا هذه ـ وفى بدائع الزهور لابن إياس ، حوادث التواريخ المذكورة .

٦ - موقف الشعب من السياسة الخارجية

ولك أن تتساءل : ما موقف الشعب من هذه السياسة ؟ .

لقد كانت هذه السياسة والاتجاهات البادية فيها ، والحروب التى شنت فى سبيلها ، تهدف إلى حفظ كيان السلطنة المملوكية وعدم المساس بسكانها وأرضها وخيراتها ، وإبقاء استقلالها وكرامتها .

وهى سياسة ، وإن بدت فى صالح حكامها ، تدور ، فى الحق ، حول الدفاع عن الأرض العربية والتى أغلب سكانها من المسلمين ، سواء أكانوا بمصر أم فى البلاد التابعة لسلطنتها .

وهى تتفق ومصالح الشعب ورعاية حياته ومرافقه ، والحرص على حاضره ومستقبله فالمصلحة المشتركة نقطة الالتقاء . ولا سيما إذا وضعنا فى الاعتبار ، ما سبقت إليه الإشارة ، وهو أن المماليك ، بالرغم من أنهم غرباء ، لم يشعروا بهذه الغربة . وهم وإن كانوا لم يندمجوا فى صفوف الشعب ولم يصاهروا طبقاته مصاهرة تذكر ، يدل سياق الحوادث على أنهم اتخذوا مصر وطناً لهم ـ كما نوهنا ـ وارتضوها دار إقامة . عشقوها وجرى عليهم من المشاعر ما جرى على سكانها ، وأحسوا بضرورة المحافظة عليها والذود عن كيانها .

وقد وضعتهم الأقدار ذادةعن المسلمين ، وعن الوطن الإسلامى ، فى إحدى فترات تاريخه الحرجة . هذا إلى أنهم أقاموا حكومتهم ـ فى جملة نظمها لا فى تفصيلها ـ على النظم والتعاليم الإسلامية . وكان لعلماء الدين عندهم كلمة مسموعة ورأى مطاع ومشورة نافذة . وكانوا يفيئون إليهم الآونة بعد الأخرى لعرض فكرة أو دراسة مشكلة أو طلب نصيحة . وكثيرا ما كانوا ينطوون تحت كلمتهم .

وقد روى أن عز الدين بن عبد السلام ـ « ٦٦٠ هـ » ـ كان من أكبر الدعاة الذين حرضوا الملك المظفر قطز على قتال التتار الكفرة ، وصدهم عن ديار

المسلمين . وقد اتصل حبله بحبل الظاهر بيبرس ، وقيل إن بيبرس كان منقمعا تحت كلمته .

ويقول تاج الدين السبكي :

« إن التتار لما دهمت البلاد عقيب واقعة بغداد ... وجبن أهل مصر عنهم ، وضاقت بالسلطان ـ يعني المظفر قطز ـ وعسا كره الأرض ، استشاروا الشيخ عز الدين — رحمه الله — فقال : « اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر . » . فقال السلطان له : « إن المال في خزانتي قليل . وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار » . فقال الشيخ عز الدين : «إذا أحضرت ماعندك وعند حريمك ، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام ، وضربته سكة ونقدا ، وفرقته في الجيش ولم يقم بكفايتهم . ذلك الوقت اطلب القرض . وأما ما قبل ذلك فلا . » . فأحضر السلطان والعسكر كلهم ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ .

— وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيبة ، بحيث لايستطيعون مخالفته ، فامتثلوا أمره فانتصروا . » . (١)

ومن الضروري أن ننوه لك بموقف رجلين آخرين من رجال الدين — ورجال الدين ألسنة الشعب وذادته ـ ونحن بصدد الحديث عن السياسة الخارجية وموقف الشعب منها .

هذان الرجلان هما تقي الدين بن تيمية ، وجلال الدين السيوطي .

وابن تيمية — « ٧٢٨ هـ » — أحد فحول علماء الدين في هذه الحقبة ، ذوي الآراء الحرة والأفكار الجريئة ، وممن وهبوا أنفسهم لإصلاح الجماعة الإسلامية بل الإنسانية . وقد كانت آراؤه سببا في نشوء حركة فكرية عظيمة كان لها نتاج علمي جليل .

---

(١) طبقات الشافعية لتاج الدين السبكي ج ٥ في ترجمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

وقد كتب ابن تيمية رسالة سياسية جليلة أرسلها إلى « سرجواس » ملك جزيرة قبرص . وتسمى « الرسالة القبرصية » . (١)

والرسالة موجهة إلى ملك مسيحى خارج الدولة يحكم جزيرة ، مافتىء حكامها بين الآن والآن ، يغيرون على شواطىء مصر ويتلصصون على سواحلها . وكان يعيش فى هذه الجزيرة كثير من المسلمين .

والرسالة — وإن كانت فى ثوب نصيحة — تتناول كثيراً من العلاقات السياسية القائمة آنذاك .

ويبدو أن الملك سرجواس ، كان قد طغى وبغى ، وظلم من قبله من المسلمين . فبعث ابن تيمية إليه ينذره ويحذره ، أملا فى أن يقلع عن طغيانه وبغيه .

وقد كتبها فى جرأة وبغير رفق ، كأنه قائد يبعث إنذارا إلى عدوه . وطفق فيها يحدثه عن الله وأنبيائه وعن حكمة الخلق ، وعن منشأ الشرك ، وعن ضلال الرؤساء عن الشرع ، وعن بنى إسرائيل وقسوة قلوبها وعصيانها ، وعن المسيح وتمرد بنى إسرائيل عليه . ويحدثه عن ضرورة رعاية العدل والإنصاف بين رعيته من المسلمين . ونبهه إلى ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام ، مع نصارى زمانه من رعاية وحسن معاملة . وأخذ يهدده بأن يقع به مثل ماوقع للتتار الذين لم تغنهم كثرتهم أمام جنود المسلمين . . . الخ . (٢)

وتشعرك الرسالة بسعة باع بعض رجال الدين حينذاك ، ومبلغ اشتراكهم أحيانا فى سياسة بلادهم الخارجية .

وجلال الدين السيوطى — « ٩١١ هـ » — الذى ترك رصيدا ضخما فى ميدان العلم والتأليف ، أدلى بدلوه فى الدلاء . وكان هو الآخر أحد ألسنة الحق والشعب .

---

(١) تقع هذه الرسالة فى نحو ٤٠٠ سطر . ومنها نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية تقع فى ٣٣ صفحة تقريبا .

(٢) راجع هذه الرسالة والحديث عنها فى المجلد السادس من هذه الموسوعة .

وقد بلغه أن ملوك التكرور المسلمين . قد تفشى الظلم منهم للرعية وانتشرت محاباتهم لأتباعهم على حساب رعيتهم . وقد تجاوزوا فى أحكامهم حدود الله وأحكام الشريعة واتبعوا الهوى ، وصار قضاتهم — على مابدا — يحكمون بغير ما أنزل الله ، وفشت فيهم عادات ليست من الدين فى شىء ، ويظنون أنها من الدين .

لهذا كتب السيوطى إليهم ، وبخاصة إلى ملكهم « محمد بن صعفن » صاحب أكدر ، وإلى إخوته . ينصحهم ويردهم إلى حكم الله ويذكرهم بقوته سبحانه ، وبأنه أحق أن يخشوه ويتقوا عذابه . الخ(١) .

من هذا وذاك ، يتبين لك ملامح كثيرة من الاتجاه السياسى لشعب هذه البلاد ، وهو يرمى إلى المحافظة عليها والحرص على ممتلكاتها من أعداء المسلمين والعرب . والدفاع عن البلاد العربية والإسلامية ، والإبقاء الدائم على العلاقات الودية والأخوية بين مصر وبين العرب والمسلمين فى شتى بقاع المعمورة .

وهى سياسة تتفق فى جملتها ومصالح الطبقة الحاكمة . فلم يكن هناك خلاف بينهم بسببها ، ولهذا لم تكن هناك مناهضات أو معاكسات للسياسة الخارجية .

لقد نصب السلاطين أنفسهم ذادة ومدافعين عن الإسلام والعروبة ، فكان هذا هو المخدر الذى نوم الشعب عن مناهضة هؤلاء الغرباء ومقاومة وجودهم حكاماً فى بلاده .

بل كان الشعب ينهض فى كثير من الأوقات لمعاونتهم وقت الحرب ، فيقدم المال والرجال والطعام والدواب وما إلى ذلك من ضروب المعونة .

---

(١) رسالة السيوطى مخطوطة بدار الكتب المصرية ، ضمن مجموعة رقم ٤١٦ .

٧- معالم السياسة الداخلية

أما السياسة الداخلية ، فقد كان الأمر مختلفاً . وقد أشرنا إلى استئثار الطبقة الحاكمة بكل أسباب القوة والغلبة ، واستبدادها بكل وسائل المال والجاه والرأى ، دون الشعب . فقصروا مناصب الدولة الرئيسية - العسكرية - على أنفسهم . ولم يستخدموا من أبناء الشعب إلا من دعت إليه الحاجة الماسة ، وذلك فى مناصب القضاء والكتابة وما إليهما ، مما لا يحسنه طبقة المماليك .

فقد كان القضاء - فى جملته - شرعياً ، تتبع فيه أحكام الشريعة الغراء بحسب المذاهب الأربعة ، لهذا اضطروا إلى اتخاذ القضاة ونوابهم من بين علماء الدين . .

وكانت الكتابة فى ديوان الإنشاء وفى دواوين الدولة باللغـــة العربية ، فاضطروا إلى اتخاذ الكتاب والمنشئين من أبناء الشعب الذين يجيدون الكتابة .

وكان التعليم فى المساجد تعليما دينياً عربياً ، فاتخذوا العلماء معلمين ، وكذلك اتخذوا الخطباء والأئمة والمفتين ، « وكل هؤلاء من أبناء الشعب ، ومن خريجى المساجد ، المتعممين » .

وفتحوا المساجد أمام الشعب ، يتعلم فيها من تلهج نفسه بالتعليم . ووقفوا عليها الأوقاف ، وأغدقوا عليها المـال ، ورتبوا الدروس - كما سنشير إليه - .

ولكنهم إزاء ذلك ، لم يسمحوا لأحد من أبناء الشعب بالاندماج فى صفوف الجيش ، ولا أن يتعلم تعليما عسكرياً فى طباق القلعة كالمماليك . وملكوا الأرض الزراعية إقطاعات ، يوزعها السلطان على أمرائه وجنوده . وأطلقوا لأنفسهم العنان فى فرض الضرائب المرهقة ، وإقامة المصادرات الظالمة(١) .

---

(١) راجع موضوعات الجندية والوظائف والإقطاع والضرائب والمصادرات فى المجلد الثانى من هذه الموسوعة .

ولأنه كان بيدهم كل وسائل القوة ـ كما نوهنا ـ لم يكن الشعب ليستطيع معهم أن يصيب نجاحا لو حدثته نفسه يوما بمقاومتهم أو استنكار وجودهم .

على أن حكومتهم ـ وإن كانت فريدة بين الحكومات فى شكلها وتكوينها وتعاقبهم عليها ـ كانت مسبوقة بحكومات من قبلها أجنبية فى أصلها ، عن البلاد ـ كالفاطميين والأيوبيين ـ استأثرت أيضا بما استأثرت هذه به دون الشعب . فلم يكن الأمر جديداً عليه ...

وما دمنا بصدد الحديث عن البيئة السياسية ، لا نرى مناصاً من الإشارة إلى أمرين ، يصور كل منهما جانباً من جوانب هذه البيئة ، وهما الفتن الداخلية وثورات العربان .

الفتن الداخلية [١] :

لم تخل الدول التى حكمت مصر فى العصور الوسطى من قيام الفتن والمؤامرات الداخلية التى تحركها أطماع الرؤساء فى الحكم . ولكن الفتن التى قامت فى عصر دولتى المماليك، كانت من الكثرة بحيث لا نكون مبالغين إذا قلنا إن مصر لم تشهد صراعاً بين حكامها ومتملكى زمام الأمور فيها كما شهدته فى العصر المملوكى . ولعل طبيعة حكومة المماليك وتكوينها ذات دخل فى استشراء هذه الفتن وتفاقمها واطرادها . فإن المملوك الذى ورد إلى هذه البلاد رقيقاً ، لا يمنعه مانع من أن يحلم بالملك ووصوله إليه فى يوم من الأيام . وقد رأى بعينيه نماذج لذلك ماثلة . وقد ربى على الشجاعة والفروسية وأخذ بأسباب الفتوة ، ومارس أعمال الحرب والقتال . وكانت مواهب المملوك فى هذه المجالات ذات شأن كبير فى تقديره وفى تقدمه وترقيته، بل وفى جمع الأتباع من حوله إذا أصبح أميراً . ومن ثم يستطيع

---

(١) أخبار هذه الفتن فى بدائع الزهور وسلوك المقريزى والنجوم الزاهرة . فى التواريخ المبينة فى كل منها وفى تراجم الملوك المذكورين بها .

أن يعد العدة ويعمل الحيلة ويجمع الأتباع والأشياع ويأتمر ويثير الفتنة حتى يصل إلى هدفه . وكانت السلطنة أحب الأهداف ولذلك وبسببها كثيرا ما كان القتال يحتدم بين المتنازعين وتجرى الحروب والمعارك الأهلية .

ولا شك أن هذه الفتن كان لها دخل كبير فى تأخر البلاد نسبيا ، عما كان يمكن أن تتقدم إليه من رخاء ومدنية وسعادة . وقد كثرت هذه الفتن فى العهد الجركسى كثرة ملحوظة . وأدت الخلافات المحتدمة بين الأمراء المتنازعين فى سبيل الأطماع ، بل وبين الجنود أنفسهم وطوائفهم فى سبيل الاستئثار بالنفع والحصول على المال ، إلى تضعضع الجيش وتفتيت القوى ، حتى كانت كارثة الاحتلال العثمانى . وإليك أخبار بعض هذه الفتن ، على سبيل المثال :

وقد بدأت سلسلة هذه الفتن والمؤمرات من أول عهد الدولة بالحكم . وافتتحتها شجرة الدر الأيوبية التى تآمرت على زوجها «عز الدين بن أيبك» أول سلاطين البحرية ، فقتلته عام ٦٥٥ هـ . ومنها مؤامرة بيبرس على سلطانه المظفر قطز إذ اغتاله أثناء عودتهم من معركتهم الظافرة مع التتار ، ٦٥٨ هـ . ومنها مؤامرة الأمير « بيدرا » عام ٦٩٣ هـ على اغتيال السلطان الأشرف خليل بن قلاوون . وبعد اغتياله استقر رأى اتباع بيدرا على سلطنته ولقبوه « بالملك الأمجد » . غير أن أتباع الأشرف قتلوا « بيدرا » فى ليلته . ومنها الفتنة التى قامت عام ٦٩٣ هـ وبين الأميرين « كتبغا المنصورى » و « سنجر الشجاعى » وكان سلطانهما الناصر محمد بن قلاوون صغير السن إذ ذاك . فتنازعا واحتربا فى سبيل الاستئثار به وبالحكم معه . فقتل الشجاعى وخلع الناصر ، وتولى « كتبغا » السلطنة . ومنها الفتنة التى وقعت عام ٧٦٢ هـ بين السلطان الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون ، وبين مملوكه «يلبغا» وكان قد رقاه السلطان فأصبح فى مصاف كبار الأمراء . ولكن وقعت العداوة بينه وبين سيده فجمع كل منهما لزميله واقتتلا . ثم قبض على السلطان وخنق . وانفرد « يلبغا » بالحل والعقد فى عهد السلطان المنصور محمد

ابن حاجى الذى خلف عمه حسنا . ومنها الفتنة الطائشة الشعواء بل الثورة الجامحة الحمقاء التى أثارها الأمير « منطاش » مملوك الظاهر برقوق ، ضد سيده هذا ، وكان سبباً فى قلق سلطنته . وفر منه إلى بلاد الشام حيث ظل يعبث ضده فيها ، حتى شدد السلطان عليه وقتل . ومنها الفتن الجامحة التى وقعت فى عهد قايتباى بين أميرين من كبار أمرائه وهما أقبردى الدوادار ، وقانصوه خمسمائة . ومنها مؤامرة الأمير طومان باى ضد السلطان الناصر محمد بن قايتباى عام ٩٠٣ هـ إذ أعد له كميناً بالجيزة ودعاه إلى النزول عنده ليقضى ساعة هنيئة ، ثم اغتاله ووثب هو على السلطنة وتلقب بالعادل . ومنها فتن المماليك الجلبان ومشاغباتهم فى عهد الغورى – وقبله – بسبب رواتبهم ، حتى إن السلطان هددهم بالنزول عن عرشه ، فلم يزدادوا إلا شراسة وإصرارا ، وكانوا بسبب عداوتهم للمماليك القرانصة ، من أسباب فشل حملة الغورى ومن أسباب هزيمته فى مرج دابق .

ثورات العربان :

وهى لون من الفتن الداخلية . وإن كان القائمون بها من العربان أو البدو الضاربين فى أطراف البلاد بالشرقية والغربية والبحيرة والوجه القبلى ، وفى صحراء الشام وبادية بلاد العرب . وقد تعددت فتنهم وثوراتهم وشغلوا بال السلاطين واستنفدوا من الدولة مجهوداً كبيراً فى المال والرجال . ويغلب عليهم فيها طابع النهب والسلب وأخذ ما بيد الأتراك من مال وجاه . فيغيرون على الطريق ويقطعون المسالك . ويفجئون المدن ، بتدبير من رؤسائهم وأمرائهم . وإليك طرفاً من أخبارها .

فمنها فى عام ٦٥١ هـ ثورة عربان الصعيد والوجه البحرى بقيادة الأمير الشريف « حصن الدين بن ثعلب » وكان بجهة « دهروط » وهى ديروط . فقطعوا الطريق على السابلة . وتلصصوا على الشواطىء وقالوا « نحن أصحاب البلاد

وصرحوا بأنهم أحق بالملك من المماليك » . وبلغت عدتهم ١٢ ألف فارس . وقد قاومهم الترك بقيادة الأميرين « فارس الدين أقطاى » المستعرب ، « وفارس الدين أقطاى » الجمدار ، وشتتوا شملهم وشنقوا عدماً منهم وسجنوا زعيمهم(١) .

وفى عام ٦٩٩ هـ فى عهد الناصر بن قلاوون اختلفت قبيلتا جابر ومرديس بالبحيرة وأغاروا على أجرانها وأحرقوا ما فيها، فأرسل إليهم الناصر حملة تأديبية بقيادة الأمير « بيبرس » الدوادار المنصورى ، فكسروهم وأجلوهم وغنموا منهم وسبوا (٢) .

وفى عام ٧٥٤ هـ ثار عربان الصعيد بقيادة أحدهم واسمه « ابن الأحدب » شيخ قبيلة «عرك» وأشاعوا الفساد ونهبوا الغلال . وذلك فى عهد الصالح صلاح الدين ، فخرج إليهم بنفسه ومعه حملة بقيادة الأمير «طاز» و « شيخو العمرى » وغيرهما ، فقتلوا منهم نحو النصف غير الأسرى ، وغنموا خيلا وجمالا وغنما وسيوفاً . ثم طلب ابن الأحدب الأمان من السلطان فأمنه(٣) .

وفى عام ٧٨١ هـ فى عهد المنصور على بن الأشرف شعبان ، سطا نحو خمسة آلاف عربى من عربان البحيرة على مدينة دمنهور بزعامة كبيرهم «بدر بن سلام» فنهبوا الأسواق والبيوت والقرى من حولها فأرسل إليهم حملة بقيادة الأتابكى «برقوق» فشتتوا شملهم وقتلوا منهم نحو ألف وأسروا نساءا وصغاراً ، وغنموا مالا ودواب(٤) . ونظم القيم خلف الغبارى زجلا فى هذه الواقعة .

وفى عهد الأشرف قايتباى تعددت فتن العربان وثوراتهم فى الشرقية والبحيرة والصعيد . وكان منها فى عام ٨٧٥ هـ ثورة عربان الشرقية . وكان من شيوخهم « عيسى بن بقر » ، فعزله قايتباى وعين مكانه قريبه « صقر بن بقر » . وبعث جنداً

---

(١) السلوك ج ١ ص ٣٨٦ .
(٢ ، ٣) بدائع الزهور ج١ ص ١٢٢ ، ٢٠٠ .
(٤) البدائع ج ١ ص ٣٤٠و٣٤١ .

إليهم بقيادة الأميرين « تمر » حاجب الحجاب ، و « قانصوه الخفف » الإينالى . فعادوا فى صفر عام ٨٧٦ ﻫ وقبضوا على طائفة من المفسدين العرب وفيهم « موسى بن عمران » من رؤسائهم ، وغيره فأعدمهم السلطان(١) .

ومنها فى عهد قايتباى ثورة عربان البحيرة عام ٨٧٧ ﻫ فأدبهم الأمير « أزبك ابن ططخ » . وما هدأت هـــذه الفتنة حتى ثار عرب الشرقية من بنى وائل وبنى حرام . فخرج لتأديبهم الأمير « يشبك الدوادار » فى شوال عام ٨٧٩ ﻫ . وفى العـام المذكور ثار عرب عزالة بضواحى الجيزة ونهبوا خيول المماليك وقتلوا جماعة من غلمانهم وأطلقوا السجناء ، فساق السلطان عليهم جنداً لم يظفروا منهم بطائل . ثم وفد إليه شيخهم « مهنا بن عطية » وشفع فيهم بعضهم فأمنه السلطان وعفا عنه(٢) .

وفى عهد الغورى ثار العربان مراراً متهامرة فى الشرقية عام ٩٠٧ ﻫ . واعتدى عربان مكة بزعامة « الجازانى » على ركبى الحجاج المصرى والشـامى وقتلوا عددا من رجالها ونهبوا المال وعروا النساء وذلك عام ٩٠٨ ﻫ . وفى العام المذكور ثار عربان الشرقية والغربية وبلاد الصعيد ، قيل : وكادوا يملكون البلاد من أيدى مقطعيها « فجرد عليهم الغورى حملات تأديبية . (٣) إلى غير ذلك من أخبـار هذه الفتن .

---

(١) راجع أخبار فتن العربان فى عهـد قايتباى ، فى بدائع بن إياس ، فى ترجمة قايتباى ج ٢ ص٩٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٤ إلى ١٣٧ ؛ ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ .

(٢) بدائع الزهور فى سياق حوادث الأعوام المذكورة .

(٣) راجع البدائع ج ٥ فى تاريخ الغورى .

٨ — موقف الشعب من السياسة الداخلية

لكن على الرغم من أن أسباب الوعى القومى ، من ثقافات وتجارب وصلات أخرى ، مما له أثر فى يقظة المشاعر الوطنيـــة — على نسق مما نراه فى العصور الحديثة ـ لم تكن قد قيضت للشعب حينذاك ـ سنرى فى شعر البيئة الاجتماعية ، نصوصا شعرية ، تكشف بوضوح عن أشياء كانت تعتلج فى صدور الجماهير ، وفى نفوس الناس ، عبر عنها بعض شعرائهم بها .

لقد كانوا يضيقون ذرعا بالأتراك وباستبدادهم وجورهم ، وباختصاصهم أنفسهم بأسباب الرزق دونهم . وبتقلبهم فى النعيم ، مع حرصهم وشدة بخلهم وقسوة قلوبهم على الرعية . .

وكانوا ينقمون على فتن الجنود وعبثهم المستمر . ولاسيما نزولهم إلى الأسواق ونهبهم بضائعهم وهجومهم على المنازل وسرقة مافيها ، وإقلاقهم راحة المارة وخطف عمائمهم وما بأيدهم .

وكانوا يثورون ويضجون بالشكاية بين الحين والحين . وبخاصة عند فرض الضرائب المرهقة الظالمة .

غير أن هذه الحوادث قليلة ، ولم يتبلور الأمر فى مرة ، حتى يصبح رأيا عاما، يمكن أن يكون له تأثير فى تسيير دفة الحكم .

وقد أشرنا إلى فتن الأمراء ومؤامراتهم ، طمعا فى سبيل السلطنة أو المناصب والحكم . وأشرنا إلى أن الائتمار كان يتطور أحيانا إلى الاشتباك والقتال ، وإلى قيام حرب أهلية مهلكة ، كثيراً ما كانت تقع معاركها فى ميدان الرميلة بالقلعة ، أو حول القلعة . إذ كانت قلعة الجبل مقر الحكم ومبيت السلطان . وتقع أحيانا فى جهات أخرى .

وينقسم المحتربون قسمين متنازعين ، وليس الشعب أو فئة منه ، طرفا من

أطراف هذا النزاع . دائماً تحتدم المعركة بين بعض الأمراء وبعض ، ولا صلة للشعب بهذا الاعتراك، ولا يد له فيه . بل كان حكمه والتحكم فيه والسيطرة عليه، هي محل النزاع بين هؤلاء الأمراء .

ويبدو أن جماهير الشعب كانت تنظر إلى طوائف هذه الطبقة نظرة واحدة — في جملة الأمر — ولا تفضل طائفة على أخرى ، ولا تؤثر فرداً على آخر ، بل هم جميعا في نظرها سواء .

لذلك ما كان يثير اهتمامها — في هذه المعارك والمؤامرات الداخلية — انتصار هذا أو ذاك . ولا كان يقع في أملها أن يظفر أمير من المعتركين بآخر . لأنهم في نظرها سواء . وهما بالنسبة إليها كرجل واحد ، غالبهم ومغلوبهم . ومن ثم فهي لا تنصر فريقا منهما على سواه .

وأغلب الظن أن الجماهير ، كانت تقف من هذه الحروب الأهلية ، موقف المشاهد المتفرج بها ، مكتفية بألم مكتوم تحتفظ به ، وشائعات مضطربة تطلقها . . .

وكانت هذه الفتن والحروب كثيرة كثرة لافتة — كما أشرنا — ومع ذلك لم يتضح لها أثر يذكر في النتاج الشعري أو الأدبي إلا نادراً ، وذلك كالفتنة التي وقعت في أيام الملك الأشرف شعبان حفيد قلاوون وأدت إلى قتله ، فقد سجلها في زجلية فريدة، قيم الزجل في زمانه خلف الغباري . وكالفتنة التي وقعت بين الملك المؤيد شيخ المحمودي والأمير نوروز الحافظي نائب الشام حينذاك ، وأدت إلى وقوع الحرب بينهما ، وقتل الأمير نوروز ، فقد سجلها شاعره تقي الدين بن حجة الحموي في بعض قصائده .

أغلب الظن أيضاً أن العلاقة الشخصية — لا الروح الجماهيرية العامة — كانت الحافز إلى نظم هذا الزجل أو الشعر .

ولنا أن نستدل من ندرة هذا الاتجاه فى الشعر أو الزجل ، على ضعف صلة جماهير الشعب بهذا الضرب من النزاع الداخلى .

أما فتن العربان ، فإن جماهير الشعب كانت ـ ولا ريب ـ ناقمة عليها أشد النقمة . ونعنى بجماهير الشعب ، الزراع والصناع والعمال وأرباب الحرف والباعة والسوقة والتجار وعامة المثقفين ونحو ذلك ، وهى الجماهير التى منها تتكون الأغلبية العظمى للشعب .

وكانت فتن العربان ، تحمل بين أسبابها بعض الدوافع التى نستطيع وصفها بأنها دوافع وطنية ، إذ كانوا يقولون « إن البلاد بلادنا » . وكانت أهدافهم العامة، الثورة على الأتراك ـ الطبقة الحاكمة ـ والانتقاض عليها ، ومكايدتها .

ولكن ثوراتهم كانت تنحو من الناحية العملية ، إلى إلحاق الأذى بسكان الريف والمدن ـ وهم جماهير الشعب ـ ومفاجأتهم بين الوقت والآخر ، ونشر الرعب والفزع بينهم ، ونهب ما بأيديهم من الغلات والدواب وغيرها .

لهذا كانت ثوراتهم ـ كما أشرنا ـ موضع نقمة من هؤلاء السكان .

ولو أتيح لهذه الثورات ما يجعلها عامة وشاملة ، تضم إلى العربان جماهير الشعب ، مع التركيز وحسن القيادة وتوجيه الضربات إلى العنصر التركى أو الجركسى الحاكم ، توجيها مباشرا ، لكان للمسألة وجه آخر .

وسترى أن الزجل قد سجل أنباء بعض هذه الفتن والثورات ، ووصف ما تخللها من فساد وعبث ، وما كان فيها من نهب وسلب ، وما أشاعته من قلق وخوف .

وقد سجلها الزجالون وروح السخط عليها بادية، وعلامات الغضب على القائمين بها واضحة ، وإزجاء المديح للأتراك الذين قاوموهم وردوا عبثهم وقضوا على فتنهم ، بارز .

ونعتقد أن روح الشعب وشعوره نحوها ، هو الذى أملى ذلك على الزجالين .

وكانت الضرائب من أهم مايثير ثائرة جماهير الشعب، وذلك لفداحتها وظلمها وللطرق التعسفية التى كانت تجبى بها أحيانا .

وقد بدت هذه الثورة فى صور مختلفة .

منها : النصائح التى يقدمها بعض العلماء إلى السلطان .

وللشيخ محيي الدين النووى نصيحة ثمينة ، وجهها إلى الملك الظاهر بيبرس ، طلب فيها أن يرفق بالرعية ويعدل بينها ، ويلغى المكوس التى فرضها عليها .

وقيل إن الظاهر لما خرج إلى قتال التتار بالشام ، أخذ فتوى من علماؤها ، بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به ، ووقع العلماء بالفتوى ما عدا النووى ، فلما طلب اليه السلطان التوقيع امتنع . وقال له :

« إنى سمعت أن عندك ألف مملوك ، لكل منهم حياصة من ذهب ، وعندك مائة جارية لكل منهن حق من الحلى »

وطلب إليه أن ينفق ذلك أولا على الجهاد، ثم يفتيه بالأخذ من مال الرعية .

وأرسل النووى نصيحته هذه — أو رسالته — مع الأمير بدرالدين بيلبك أمير الشام حينذاك إلى السلطان .

فلما اطلع عليها السلطان ردها ، وأنكر ما جاء فيها ، وأجاب عليها إجابة خشنة أعترض بها على هذه النصيحة. فلما وقف النووى على إجابة السلطان، أرسل إليه رسالة جديدة ، فند فيها مزاعم السلطان واعتراضاته .

ويفهم من هذه الرسالة الجديدة أن اعتراضات السلطان تتلخص فيما يلى :

أولا : أن ما يفرضه من الضرائب ، حق للجنود لأنهم يقومون بواجب الجهاد ، بينما قعدت عنه الطوائف الأخرى .

وقد رد النووى بأن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد . والجهاد فرض كفاية . فإذا قرر له السلطان أجناداً مخصوصين ، أنفق عليه من بيت المال . وتفرق باقى الرعية المصالح العامة من الزراعة والصناعة وغيرها . ولايحل للسلطان أن يأخذ شيئاً من الرعية ، ما دام بيت المال عامراً بالمال ـ وقد كان عامراً .

ثانياً : أنه يرفض نصيحة الشيخ ، ويرى أنه كان أولى به أن يتقدم بها إلى الكفار . . .

وقد رد النووى متهكماً على السلطان بقوله : كيف يقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن ، بطغاة الكفار ؟ وبأى شيء كنا نذكر طغاة الكفار ، وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا ؟ » .

ثالثاً : أخذ يمن عليه بأنه قام مع جنوده بأعباء الجهاد وطرد الأعداء ، وأنه فتح كثيراً من البلاد والحصون .

وقد رد النووى على ذلك بأن حمد للسلطان جهاده ، وأن هذا هو واجبه ، وأن ثوابه مدخر له عند الله . وأن جهاد السلطان لا يعفى من تقديم النصيحة الواجبة إليه .

رابعاً : هدده بأنه سينتقم من الرعية ، بسبب هذه النصيحة .

وقد رد النووى على ذلك ، بسخرية لاذعة ، وبأنفة وكبرياء . قائلا : « وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة من العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه . وأى حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه .

وأما أنا نفسى ، فلا يضرنى التهديد ولا أكثر منه ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان . فإنى أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيرى . وما ترتب على الواجب ، فهو خير وزيادة عند الله تعالى . إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار . وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

وقد أمرنا رسول الله صلى عليه وسلم ، أن نقول الحق حيثما كنا . وألا نخاف فى الله لومة لائم . ونحن نحب السلطان فى كل الأحوال ، وما ينفعه فى آخرته ودنياه ، ويكون سببا لدوام الخيرات له ، ويبقى ذكره على مر الأيام ، ويخلد به فى الجنة ، ويجد نفسه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا »[1]

وهكذا ، ترى هذا الشيخ العظيم ، يقف من السلطان هـذا الموقف الصلب ، والسلطان فى جبروته وعنفوان قوته . ما هابه ولا خشى وعيده ، ورمى فى وجهه بكلمة الحق سافرة صارخة ، جريئة مدوية . خوفا على الرعية ، وحفاظا على الدين ، وصونا للحق .

ومنها أيضاً : وقوف بعض قضاة الشرع وعلماء الدين ، فى وجـه السلطان ، عندما يجمعهم مجلسا ليستشيرهم فى فرض ضريبة جديدة . فكان بعضهم يمانعه فى حزم وعدم تردد ، وفى إصرار . وفى أكثر الأحايين كان لذلك أثره فى منع الضريبة أو تخفيفها .

وقد حدثناك قريبا ، عن موقف الشيخ عز الدين بن عبد السلام من السلطان المظفر قطز حينما أراد فرض ضريبة على الرعية ، ليستعين بها على قتال التتار ، وذلك عام ٦٥٨ هـ .

ومن الحوادث المماثلة :

أن السلطان قايتباى ، احتاج فى عام ٨٩٦ هـ إلى مال ينفق منه على تجاريده ضد العثمانيين . فجمع القضاة الأربعة ، وطلب إليهم إقراره على فرض ضريبة ، مقدارها إيجار سنة على الأوقاف ، وعلى الأملاك بمصر والقاهرة ، سواء أكانت

---

(١) راجع حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ـ وفيه نص الرسالة الثانية للنووى — أما الرسالة الأولى فلم يسجل منها شىء .

أماكن أم أرضاً مزروعة ، أو حمامات أو طواحين أو أفراناً أو مراكب أو غير ذلك .

وبعد جدال شديد ، وتوقف ، وأخذ ورد ، اتفقوا على فرض إيجار خمسة أشهر فقط .

وأن السلطان قانصوه الغورى ولى السلطنة عام ٩٠٦ هـ والخزائن الشريفة خاوية على عروشها ، والجنود يثورون فى وجهه طلبا للنفقة والرواتب . فجمع مجلساً من الأمراء والخليفة والقضاة ، وطلب إليهم إقراره على الاستيلاء على أموال الأوقاف وعلى أرضها . وبعد جدال عنيف ، استقر الرأى على أن يأخذ من ريع الأوقاف سنة كاملة ، ومن إيجار الأملاك بالقاهرة وغيرها عشرة أشهر معجلة .

ومنها أيضاً ثورة جماهير الشعب نفسها على هذه الضرائب المرهقة . وكانت هذه الثورة نادرة . ومن أشدها ما كان فى زمن السلطان الغورى ، بسبب الضريبة التى قررها على أملاك القاهرة وغيرها ، ومقدارها إيجار عشرة أشهر عدا إيجار سنة كاملة من ريع الأوقاف – وهى الضريبة التى أشرنا اليها فى السطور السابقة .

وقد كانت طريقة الجباية تعسفية وكان فيها السجن والتعذيب والتزوير ، وسلط السلطان على الشعب عدداً من الأمراء الغلاظ لجمع هذه الضريبة .

ولما طالبوا بها أصحاب الأملاك ، أخذ هؤلاء يطالبون بها السكان ، ليدفعوها معجلة ، ليوافوا بها الجباة ، ويمنعون عن أنفسهم الإيذاء .

فاتسعت بذلك دائرة السخط والغضب ، وتجمهر القاهريون إثر صلاة يوم جمعة — ٨ المحرم عام ٩٠٧ هـ — وتعقبوا الأمراء وهم خارجون من الصلاة ، وبخاصة الأتابكى « قيت الرجبى » . وطالبوهم بالرحمة والعدل ، وبمخاطبة السلطان لتخفيف هذه الضريبة الفادحة .

وقد أخذ الأمير « قيت » وغيره من الأمراء ، فى التفلت من الجماهير وعدم الإصاخة إليهم، فأخذوا فى رجمه هو ومن معه ، فأصيب بعضهم ، وأعمل المماليك السيف فى الشعب ، حتى تفرق شمله .

وتكرر الحادث فى اليوم التالى ، وتعرضت الجماهير للأمير أزدمر المهمندار، فوعدهم بالتوسط لدى السلطان الغورى ، لتخفيف الضريبة .

وكانت النتيجة أن اكتفى السلطان بفرض إيجار سبعة أشهر ، بدلا من عشرة .

من هذا وذاك تتبين لك ملامح الاتجاه الشعبى بشأن السياسة الداخلية . — فضلا عن السياسة الخارجية .

وسترى حينما نعرض لدراسة الشعر فى البيئتين السياسية والاجتماعية ، مدى لهذه الاتجاهات جميعها ، مع التعليل والتعليق عليه .

الفصل الثالث

فى

وصف البيئة الثقافية (١)

تمهيـــد :

لكى نتحدث عن البيئة الثقافية ، ينبغى أن نعرف أولا ، أن البلاد المصرية عريقة ، منذ عصورها الأولى الغابرة ، فى ميادين العلوم والآداب والفنون ، وفى مضمار الحضارة والمدنية . وبدت آثار اشتغالها بذلك فى ميادين شتى من ميادين حياتها ، فى معابدها وهياكلها وآثارها ومخطاتها ، وفى أهرامها وأبى هولها ، وفى نقوشها وبرديها . وفى مدارسها ومصنوعاتها ، مما تتحدث عنه كتب التاريخ والآثار الماثلة حتى اليوم .

هذا كله غنى عن البيان ، وغنى عن التعريف . وقد كانت مصر فى ذلك ، معلمة العالم الأولى . أو على أقل تقدير ، إحدى معلماته البارزات .

ولا ريب أنها انفردت دون سائر معلماته بألوان من العلوم والفنون ، والفلسفات والصناعات ، لونت حضارتها ، فصارت نسيج وحدها ولم تشاركها فى ذلك معلمة أخرى .

وتوالت عليها تباعا عصور مواتية معاونة ، تفسح لها الطريق فى مضمار رسالتها الإنسانيه التى دأبت على تبليغها للناس . ومنها عصور معوقة مثبطة ، تغلق أمامها السبيل ، فتنهنه من نشاطها ، وتحد من مجلتها .

---

(١) فصلنا الحديث تفصيلا وافيا عن موضوعات الثقافة ومايتصل بها، فى المجلدين الثالث والرابع من هذه الموسوعة . ولهذا أوجزنا الحديث هنا إيجازا مناسبا للمقام ، وسطرنا مادعت إليه ضرورته .

ولكنها فى كل حالة ، تكمن فى طواياها ، نواياها الفطرية ، ورغباتها الطبيعية ، وتصميمها الأكيد فى الانطلاق فى ميادين العلم الفسيحة ، لتهيء لنفسها وللناس ، مايرجون من السعادة والرفاهية والخير . وهى فى ذلك تترقب الفرص وتتحين المناسبات .

ومنذ أن بنى بها مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط ، بعد الفتح العربى ، وهى تشهد ألوانا من حلقات العلم والأدب ، تتسع وتضيق ، وفقا لمقتضيات الظروف . وأخذت تصطبغ فى اتجاهاتها الثقافية ، بالألوان الإسلامية والعربية . وشارك فى ذلك كله مسجد عمرو ومسجد ابن طولون من بعده .

وغزا الفاطميون البلاد المصرية عام ٣٥٨ ﻫ . ومنذ ذلك الوقت ، وحركة العلم فيها دائبة ، ونشاط الأدب فيها لايهدأ .

وأسس الفاطميون قاهرتهم المعزية العتيدة . وفى وسطها أقاموا الجامع الأزهر المجيد ، واتخذوا منه دار عبادة ، ودار دراسة ، ودار دعاية لمذهبهم الشيعى .

وقفوا على أثره ، بإنشاء جامع الحاكم بأمر الله ، وغيره من الجوامع فى مدينة القاهرة . وشهدت البلاد منذ ذلك الحين ، عددا من أبنائها النابهين ، يبرزون فى مجالات العلم والأدب ، وفى ميادين الكتابة والشعر ، وفى آفاق الصناعة والفن ، فضلا عن ذخيرتها من الكتب .

واتسع نطاق التعليم فى عهد الأيوبيين ، الذين استولوا على حكم البلاد بعد الفاطميين ، منذ عام ٥٦٧ ﻫ . فأسسوا عددا جديداً من مدارس العلم فى القاهرة وغيرها .

وقد عنوا بنشر فقه المذاهب السنية الأربعة ، وحديث الرسول عليه الصلاة

والسلام . ومذهب الأشاعرة . وعفوا آثار المذهب الفاطمى . وقضوا على كثير من مؤلفات علمائه ودعاته .

ويعتبر العصر الأيوبى فى جملته ، امتدادا للعصر الفاطمى ، من ناحية النشاط العلمى والأدبى — فيما عدا المذهب الشيعى وفلسفته — وشهد العصر الأيوبى ، فيما شهد ، عددا جديداً من رجالات العلم والأدب ، ومن أهل الإنشاء والشعر ، من أبناء هذه البلاد ، لايقلون عن نظرائهم من أبناء الأمصار العربية والإسلامية المعاصرة لهم ، إن لم يفوقوهم ويزيدوا عليهم فى إتقان الصناعة وسعة الإنتاج .

وحسبك أن تعلم أن من بين مخضرمى الدولتين الفاطمية والأيوبية ، القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى الكاتب الشاعر العظيم ، والسياسى الكبير ، وزير صلاح الدين الأيوبى ، وقد انعقد له لواء الزعامة الأدبية ، بما استن من مناهج فى الكتابة والشعر ، ظلت مرعية من بعده ، متبعة ، مئات السنين .(١)

مصر دارة العلم والأدب

ومنذ فتح العرب مصر ، انتشر فيها الإسلام ولغته العربية ، وأخذت آدابها تصطبغ بصبغة إسلامية عربية . وتبعت — فى جملتها — آداب العواصم الإسلامية الحاكمة .

وقد تكون إقليمية الآداب المصرية ، بدت فى عدة مظاهر ، ضرورة نشوئها فى هذا المصر — أعنى البلاد المصرية — وربما فى الموضوع . إلا أن الإقليمية لم تتضح فى الأسلوب ، وفى المعانى الجزئية ، وطريقة تصويرها ، وطريقة معالجة الموضوع . وظلت اللغة بما لها من تقاليد وأوضاع ، أثيرة فى التعبير . وبخاصة بسبب هذا الراسب الغائر فى أعماق النفس العربية ، الذى يحبب إليها محاكاة القدماء .

(١) راجع مقدمة ديوان القاضى الفاضل ، للمرحوم الدكتور أحمد بدوى .

وفى الحق ، كانت اللغة المشتركة ، وأساليبها الموروثة ، وآدابها القديمة ، وأساليب القرآن الكريم ، ومناهج الفكر الإسلامى فى معالجة الموضوع ، ذات آثار ضخمة ، فى تضاؤل إقليمية الآداب القومية ، فى كل مصر من الأمصار العربية المفتتحة .

ولكن مما لاريب فيه أن دولة الخلافة العباسية ، لما قيضت لها أسباب القوة والوحدة ، فى قرنيها الأولين — على وجه التقريب — كانت آدابها وآداب بغداد — العاصمة — من السعة والسمو والقوة ، بحيث كانت نموذجا وقدوة لآداب غيرها من الأمصار التابعة .

فلما انفصلت هذه الأمصار عنها ، أخذت الظاهرة تتغير وتتحول . وبدأ هذا التحول منذ العصر الفاطمى يتضح رويدا . وطرأت أفكار ومذاهب وفلسفة وحضارة ذات ألوان ، تفارق إلى حد كبير ، ما كان منها فى بغداد . بل أخذت روح المنافسة والتسابق وحب التفوق ، تبرز ، فى تناول العلوم والآداب .

ومن هنا أخذت الإقليمية تتضح فى هذه العلوم والآداب . واستمر لها هذا ، فى العصر الأيوبى ، حتى قوى ساعدها فى العصر المملوكى .

بدأت دولة سلاطين المماليك عام ٦٤٨ هـ . فشهدت المصرع الأخير لدولة الخلافة العباسية ، وشهدت سقوط عاصمتها بغداد ، على يد التتار الوثنيين ، بقيادة ملكهم هولاكو ، وذلك عام ٦٥٦ هـ .

وبسقوط بغداد ، وزوال دولة الخلافة ، ضاق ميدان العلم والأدب بها . وقد أباد التتار عددا لا يحصى من علماء بغداد وأدبائها ، وفر من وجههم آخرون . وأتلف التتار آلافا مؤلفة من ذخائر العلم والأدب ونتاج الفكر العربى الإسلامى ، مما جهد فيه أبناء هذه الدولة العظيمة ، زهاء خمسة قرون . وبذلك قضى التتار على نتائج جهاد علمى متواصل فى هذه القرون ، أو عملوا على إخفائه

أو تشويهه . وهو حلقة مجيدة فى سلسلة المعرفة الإنسانية .

وتلفت المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، يبحثون لهم عن ملجأ يلجئون إليه ، ودارة رحيبة الصدر حانية تحتضن علومهم وآدابهم . وتكون مركزاً لها ومحوراً لأمصارها المختلفة ، القاصية منها والدانية . فلم يجدوا غير مصر وسلطنتها المملوكية وشعبها البر الكريم .

ووافق ذلك هوى فى نفس هذا الشعب ، إذ التأمت هذه الرسالة مع ماهو كامن فى طواياه من زمن بعيد ، من نوايا فطرية ، ورغبات طبيعية ، وتصميم أكيد ، فى أن يكون أداة إنسانية سامية ، تتخذ العلم والأدب وأسباب الحضارة ، وسيلة فعالة للترفيه عن الناس ، وإسعاد البشرية ، وتيسير الخير لها .

هذا ، فضلا عن العامل الجديد الطارىء على الحياة المصرية ، منذ الفتح العربى والذى أصبح أهم العوامل جميعاً ، التى تدفعها للسير قدما فى طريقها القويمة ، طريق الخير . والذى تعلقت به نفوس الغالبية الكبرى من سكانها ، وأصبح حافزا أساسيا للفرد والمجتمع فى سلوكهما ، وأعنى بذلك العامل : الإسلام .

وقد أراد الله سبحانه وتعالى ، أن يقيم من دولة المماليك — فى هذه الآونة العصيبة من تاريخ المسلمين — حاجزا منيعا ، فى سبيل تدفق سيل التتار ، كما رأيت .

وكان ذلك بدافع من عصبية مصر للإسلام والمسلمين . وبدافع حماسة شعبها الدينية ، التى حفزت إلى مقاومة أعداء الاسلام أو الغرب ، من تتار وصليبيين ، أو عثمانيين وغيرهم .

وكان من حسن سياسة سلاطينها حينذاك . أن فسحوا فى مصر مكانا لخلافة عباسية جديدة . بوءوا فيها أحد سلائل خلفاء بنى العباس . فأعادوا بذلك للخلافة شيئاً من سيرتها . ووجهوا بعملهم هذا أنظار المسلمين والعرب . فى شتى أمصارهم

إلى مصر . والفتوا قلوبهم وأرواحهم إلى القاهرة ، باعتبارها عاصمتهم الجديدة ، ومتبوأ خلافتهم المجيدة . . .

واكتسبت مصر بذلك . مكانا فى الحياة الإسلامية ، وفى المجال العربى ، جديدا . وأصبحت عاصمتها مركزا تطيف به قلوب المسلمين قاطبة . وصارت أبوابها الحصن والحصين ، والركن الركين ، الذى يلوذ بأكنافه ذوو الحاجات العليا من أبناء البلاد الإسلامية ، ملوكا وأمراء ، وعلماء وأدباء ، وغيرهم .

وعاونها على الترحيب بهم وبآمالهم ، خيرها الموفور ، وجناها الرطب ، وماؤها العذب ، وصدرها الرحب ، وكرمها الخصب . ففاء إلى حماها كثير من الناس . ويسقط الطير حيث يلتقط الحب . . .

بذلك استعدت مصر لأن تكون مركز العلوم والآداب الإسلامية والعربية . وأن ينتقل إليها النشاط فى ذاك بعد العراق . وأن تحل القاهرة محل بغداد . وأخذت من ثم ، تملك الزمام ، وتقتعد مقعد الزعامة . وهيأ لها أهلها وسلاطينها ، ماعاونها على بلوغ هذه الغاية .

ولم تكن بلاد المغرب والأندلس ، فى هذه الظروف ، بأسعد حالا من العراق الذى وقع فريسة لعبث المحتلين . فقد أخذت الفتن تتفاقم فيها ، وتتجدد بين أهلها وحكامها ، حتى فتكت بها ، وأطمعت فيها أعداءها .

أما الشام . فقد كانت — كما علمت وفى جملة أمرها — فى عداد بلاد السلطنة المصرية . وهى ، وإن ظلت مسرحا واسعاً للفتن ، وللحروب الدامية ، بين السلاطين وأعدائهم ، شاركت مصر ، إلى حد كبير ، فى حمل رسالة العلم والأدب ، وصارت دمشق وحلب وغيرهما من عواصم الشام ، مركزا لهما ، مع تأثرها بالثقافات المصرية .

ولا نغلو إذا قلنا إن هذا العصر ، عصر ازدهار الثقافة المصرية ، التى فرضت نفسها على كثير من الأمصار العربية .

شهادة ابن خلدون :

ويحسن أن نعرض عليك ماسجله العلامة ابن خلدون « ٨٠٨هـ » ، فى مقدمته تحت عنوان « فصل فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع » .

لقد وازن ابن خلدون فى هذا الفصل ، بين أهل المغرب ، وعلم أهل المشرق قبيل عهده ، وإلى عهده ، ونوه بانتشار العلوم والصنائع فى المشرق . وبخاصة فى القاهرة . قال :

« وقد بقيت فاس وسائر أقطار المغرب ، خلوا من حسن التعليم ، من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان . ولم يتصل سند التعليم فيهم . فعسر عليهم حصول الملكة والحذق فى العلوم . وأيسر طرق هذه الملكة ، فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية . فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها .

فتجد طلاب العلم منهم ، بعد ذهاب الكثير من أعمارهم ، فى ملازمة المجالس العلمية ، سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون . وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة . فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف فى العلم والتعليم .

ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل ، تجد ملكته قاصرة فى علمه ، إن فاوض أو ناظر أو علم . وما أتاهم القصور ، إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده . وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم ، لشدة عنايتهم به . وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية ، وليس كذلك .

ومما يشهد بذلك فى المغرب ، أن المـــدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ، ست عشر سنة وهى بتونس خمس سنين .

وهذه المدة بالمدارس ، على المتعارف ، هى أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم ، حصول مبتغاه من الملكة العلمية ، أو اليأس من تحصيلها . فطال أمدها فى المغرب لهذه المدة ، لأجل عسرها من قلة الجودة خاصة ، لا مما سوى ذلك .

وأما أهل الأندلس ، فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم ، لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين .

ولم يبق من رسم العلم فيهم ، إلا فن العربية والأدب . واقتصروا عليه . وانحفظ سند تعليمه بينهم ، فانحفظ بحفظه .

وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين . وأما العقليات فلا أثر ولا عين .

وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها ، بتناقص العمران ، وتقلب العدو على عامتها ، إلا قليلا بسيف البحر ، شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها . والله غالب على أمره .

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه ، بل أسواقه نافقة ، وبحوره زاخرة ، لاتصال العمران الموفور ، واتصال السند فيه . وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم ، قد خربت ، مثل بغداد والبصرة والكوفة .

إلا أن الله تعالى ، قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك . وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق . ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب ، فلم تزل موفورة . وعمرانها متصلا ، وسند العلم بها قائماً .

فأهل المشرق ، على الجملة ، أرسخ فى صناعة تعليم العلم ، بل سائر الصنائع . حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق، فى طلب العلم ، أن عقولهم على الجملة ، أكمل من عقول أهل المغرب ، وأنهم أشد نباهة وأعظم كيسا ، بفطرتهم من نفوس أهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم فى حقيقة الإنسانية . ويتشيعون لذلك ويولعون به . لما يرون من كيسهم فى العلوم والصنائع . وليس كذلك . وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار ، الذى هو تفاوت فى الحقيقة الواحدة . . . الخ[١]

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، تحت عنوان « فصل فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع » .

النشاط العلمى

أسبابه ووسائله

أشرنا فى مناسبة سابقة إلى «التعليم العسكرى» الذى اختصت به طائفة المماليك ولم يسمح لأحد من أفراد الشعب بالاندماج فيه والتخرج به .

وكان مكانه قلعة الجبل وطباقها . وتدور براجه على تحفيظ شيء من القرآن الكريم ، وتعلم القراءة والكتابة . ثم القيام بالتدريبات الرياضية المختلفة ، التى تهدف إلى تقوية الجسم وتكوينه تكوينا يساعده على الأعمال العسكرية وحركات القتال . ثم مزاولة أعمال الفروسية والمهارة والفتوة . مثل ركوب الخيل ورمى النشاب واستعمال القسى والطعن بالرماح ، والضرب بالسيوف ، إلى غير ذلك من أدوات القتال والحرب .

أما النشاط العلمى الذى نقصده هنا ، فهو الاشتغال بالعلوم والآداب الإسلامية العربية . وقد احتضنته الدولة إلى حد كبير . وحفزت إليه همم العلماء واتخذت من الوسائل ما ييسر له أن يؤتى أكله المطلوب .

وقد دفع إلى ذلك — كما أشرنا — الاحتلال التترى للعراق . وإبادة العلماء وإتلاف النتاج العلمى والقضاء على الحضارة العباسية .

وكذلك الاحتلال الصليبي لسواحل الشام . والخوف على الدين الإسلامى الحنيف . أن يقضى عليه وعلى تراثه ، هؤلاء الصليبيون .

كان لهذا كله ، رد فعل عظيم فى الدولة المملوكية . فجندت إمكانياتها لصد عادية هؤلاء الأعداء جميعاً . فشنت عليهم الحروب . ودارت بينها وبينهم رحى القتال .

وإلى جانب ذلك ، قاموا بحركة إحياء علمية ، دعما لدولتهم ، وبعثا لشباب الدين وقوته ، وإعادة لمجد علومه وإبقاء لسلسلتها موصولة الحلقات ، للأجيال القادمة .

واستعانت البلاد بمن فر إليها من علماء المشرق والمغرب ففسحت لهم فى كنفها ، ورحبت بهم فى ربوعها . فتولى كثير منهم التأليف أو التدريس أو الفتوى . أو غير ذلك . سواء أكان فى مناصب رسمية أوغير رسمية .

واستمر وفود هؤلاء العلماء مطردا على وجه التقريب ، إلى مصر والشام - طيلة العصر . فعاون ذلك على دفع نشاط الحركة العلمية والتأليفية .

وقد بلغت مصر بأبنائها وبالوافدين عليها ، كثيراً من أهدافها فى مجال البحث العلمى والأدبى .

ومن الوافدين — على سبيل المثال — : ابن خلكان الإربلى(١) . وابن مالك الأندلسى (٢) . وابن أبى حجلة المغربى (٣) . وابن منظور الإفريقى (٤) . وابن خلدون المغربى (٥) .

وممن فر إلى مصر : كمال الدين بن العديم ، هجر مدينة حلب ، هاربا من التتار إلى الناصر محمد بن قلاوون فأقام بمصر حتى مات .(٦)

---

(١) راجع فوات الوفيات ج ١ — وطبقات السبكى ج ٥ — والنجوم الزاهرة ج ٧ — وحسن المحاضرة ج ١ فى المؤرخين - وشذرات الذهب ج ٥ .

(٢) راجع السلوك ج ١ ص ٦١٣ - وفوات الوفيات ج ٢ - وطبقات السبكى ج ٥ - والنجوم الزاهرة ج ٧ - وشذرات الذهب ج ٥ .

(٣) راجع المنهل الصافى ج ١ - والدرر الكامنة ج ١ رقم ٨٢٦ - وحسن المحاضرة ج ١ فى باب الشعراء .

(٤) راجع الدرر الكامنة ج ٤ رقم ٧٢٥ - وحسن المحاضره ج ١ ص ٢٥٥ - وشذرات الذهب ج ٦ ص ٧٦ - وجورجى زيدان ج ٣ .

(٥) راجع الضوء اللامع ج ٤ رقم ٣٨٧ - وحياة ابن خلدون للخضر حسين - وابن خلدون لمحمد عبد الله عنان .

(٦) تاريخ اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٣ .

وكذلك كمال الدين المعروف بابن الأستاذ — المتوفى عام ٦٦٢ هـ — رحل إلى مصر من حلب ، لما دهمها التتار ، واشتغل مدرسا بالمدرسة الشيخونية .[١]

وهاجر من حران إلى دمشق عام ٦٦٧ هـ ، والد ابن تيمية الحرانى ، ومعه ولده هذا — تقى الدين المشهور — وكان إذ ذاك ، حدثا صغيرا . فشب وتعلم ، ونما وتفقه . ثم كان بمصر والشام ، مدرسة جامعة ، ذات فكرة وذات هدف ، وذات جهاد ووسيلة فى سبيلهما .[٢]

وذكر فى كتاب « طبقات الحنابلة » لمحمد جميل شطى ، عدد من العلماء الذين هاجروا من بغداد ، فراراً من التتار حينما دهموها .

وقد كانت غيرة السلاطين والأمراء ، على الدين ، وحماستهم له ، وتمسك كثير منهم بأهدابه ، فى مقدمة الأسباب التى دفعتهم إلى المعاونة لتجديد علومه .

وقد عظموا أهل العلم ، وقدموهم فى مناسبات كثيرة ، واستشاروا بعضهم مراراً فى أمور الدولة العليا ، وسمعوا لشكاياتهم ، وأجابوا ملتمساتهم . بل توجس بعضهم خيفة منهم — كما رأينا عند إشـــارتنا إلى الشيخين الجليلين : العز بن عبد السلام ، ومحيى الدين النووى .

وروى أن الملك الظاهر بيبرس ، حضر مرة إلى دار العدل فى قضية بينه وبين أحد الأمراء ، أمام القاضى ابن بنت الأعز ، فقام الناس تعظيما له ، إلا القاضى ، فقد أشار إليه السلطان بعدم القيام[٣] .

وروى أن الملك المنصور لاجين ، حضر إليه مرة ، الشيخ تقى الدين بن دقيق

---

(١) السلوك ج ١ ص ٥٢٣ — وحسن المحاضرة ج ١ ص١٦٣ — وطبقات السبكى ج ٥ — والنجوم الزاهرة ج ٧ .

(٢) الدرر الكامنة — فوات الوفيات ج١ — وطبقات ابن مفلح — ومختصر طبقات الشطى — وجلاء العينين للآلوسى — وجورجى زيدان ج ٣ .

(٣) حسن المحاضرة للجلال السيوطى ج ٢ ص ٧٤

العيد القشيرى ، فقام إليه السلطان ، وقبل يده . فلم يزد الشيخ عن قوله له : « أرجوها لك بين يدى الله » .[١]

وروى أن الملك الظاهر برقوقا ، لما أنشأ مسجده ، وقرر فيه شيوخا يتولون التدريس ، كان من بينهم الشيخ علاء الدين السيرامى ، مدرس الحنفية وشيخ الصوفية . وقد بالغ برقوق فى تعظيمه ، حتى فرش له سجادته بيده .[٢] إلى غير ذلك .

وشعر العلماء بمسئوليتهم ، ولا سيما أن الظروف قد واتتهم . فمن شعب متعلق بهم سامع لإرشادهم ، ملتمس لنصيحتهم وملوك ورؤساء يهابونهم . وقد فسحوا له من جنابهم ، وأسسوا لهم دور التعليم وأوقفوا عليها الأوقاف ، ورتبوا لشيوخها الرواتب ولطلابها المعونات ، من مال وطعام وكسوة ومسكن فى بعض الأحيان .

فرأى العلماء فى هذه الفترة الحاسمة الخطيرة ، من تاريخ العالم الإسلامى ، أن يغذوا السير ، ويقبلوا على التدريس والتعليم ، وعلى الفتوى والتأليف . واندفعوا بحماسة بالغة ، ونفوس متوثبة ، حتى قاموا بحركة إحياء علمية جليلة ، هى مثار العجب ومحل الفخر لمصر .

واتخذوا اللغة العربية أداة للتعبير فى المخاطبة والدرس والتأليف وغير ذلك . كما اضطرت الدولة إلى اصطناعها فى دواوينها ، ورتبت أمر رسائلها العليا ، فكانت تكتب بأساليب أدبية ، يدبجها كتاب « ديوان الإنشاء » .

دور التعليم :

وإنشاء دور التعليم يعتبر وسيلة أساسية لتنشيط الحركة العلمية ، ونشر العلم ،

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١١٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٦٣ .

وذلك لما تضمه من المدرسين والطلاب ، ولما يقرر فيها من المناهج والدروس . وهى البيئات الطبيعية التى ينبت فيها العلم وينمو ويزدهر .

وتتمثل دور التعليم حينذاك ، فيما أنشىء من المدارس والمساجد ، وما شيد من الخوانق والأربطة والزوايا . سواء أكانت فى القاهرة أم غيرها من البلاد . لتدرس فيها علوم الدين ومذاهب فقه أهل السنة ، وما يتصل بها .

وكان إلى جوارها ، مكاتب صغيرة ملحقة ، لتعليم الصغار مبادىء القراءة والكتابة ، وشيئاً من العلوم الأولية مع تحفيظ القرآن الكريم .

وقد فتحت هذه الدور التعليمية ، ليتعلم فيها من يشاء من أبناء الشعب . وهذا التعليم هو ما نسميه « بالتعليم الشعبى » .

وكانت مدارسه بمثابة جامعات علمية عظيمة الشأن ، نعتقد أن الجامعات الحديثة تقتبس شيئاً من نظمها .

وقد كان التعليم فيها بالمجان . ولا يرهق فيها الطالب بتحديد سن معينة ، ولا يرغم على الاستماع لشيخ بذاته ، ولا يكلف حضور درس معين . بل كان حراً إلى حد بعيد ، فى اختيار درسه وشيخه ، وفقا لميوله الشخصية .

هذا فضلا عما كان يدر عليه من ألوان البر والمعونة ، وعما هيىء له من دور الكتب المختلفة .

وقد بدا حرص كثير من الشيوخ ، على بعض طلابهم ، فكانوا لهم من ملازمتهم . كذلك حرص بعض الطلاب على شيوخهم فدأبوا على ملازمتهم . وبهذ أخذ العلم ينتقل من جيل إلى جيل، وأصبح الشيخ يورث علمه تلميذه، وأضحى التلميذ يخلف شيخه ، وربما زاد عليه .

ولم يكن إنشاء دور التعليم ــ المساجد والخوانق ونحوها ــ سياسة عامة للدولة، مرسومة

مقررة بتخطيط محدد ، كما هو الشأن فى العصر الحديث . ولكن قصاراه أنه كان رغبة فردية للسلاطين يتنافسون فى إبرازها زلفى إلى الله وصدقة على الشعب ، لا لأن ذلك حق الشعب ينبغى أن يؤدى إليه .

ومهما يكن من أمر ، فقد ملئوا القاهرة وغيرها ، بهذه الدور ، واقتدى بهم الأمراء والرؤساء . وبلغ ما أنشىء فى القاهرة وحدها ، نحوا من سبعين مدرسة . وكان هناك مدارس فى الإسكندرية ومنية بنى خصيب ومنفلوط ، وأسيوط وبوتيج وإخميم وسوهاج وقوص وإسنا وأسوان وبلبيس ، ودمياط ورشيد والمحلة وغيرها . فضلا عن خوانق الصوفية ونحوها(١). ومن مدارس القاهرة : المدرسة الظاهرية أنشأها بيبرس . والمنصورية أنشأها المنصور قلاوون . والمارستان المنصورى أنشأه قلاوون أيضاً ـ والصاحبية أنشأها بهاء الدين بن حنا ـ ومنها مدرسة برقوق ، ومدرسة المؤيد وغيرهما.

وجرت العادة بافتتاح هذه الدور ، باحتفال يتقدم فيه المنشىء فى ركب ، ويتصدر بالدار مجلساً ، ويشرع أحد الشيوخ فى إلقاء درس ـ فقها أو حديثاً مثلا ـ ثم تمنح المنح وتمد الموائد ويسقى الشراب . وقد يلقى بعض الشعراء أبياتا مناسبة للمقام .

وقد أنشأ الملك الظاهر بيبرس مدرسته « الظاهرية » التى بخط بين القصرين . وتم بناؤها عام ٦٢٢هـ . وجملها وأوقف عليها أوقافا طائلة ، وألحق بها خزانة كتب عظيمة ، وبنى بجوارها مكتبا لتعليم الصبية القرآن الكريم ، وأجرى عليهم الطعام والشراب ورتب للمدرسة دروسا فى فقه المذاهب الأربعة ، وفى القراءات .

واحتفل بافتتاحها احتفالا شائقا ، تناظر فيه العلماء ، وتبارى الشعراء ،

---

(١) راجع : « الانتصار » لابن دقماق ج ٥ ـ وخطط المقريزى ج ٤ ـ وتقويم النيل لأمين سامى ج ١ ص ٢٠٢ ـ وحسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ـ وغيرها من كتب التاريخ العام ـ وفيها تفصيل لأخبار المدارس .

ومدت الموائد الحافلة . وكان شعراؤها ثلاثة :

أبو الحسن الجزار ومن شعره :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ومن يتعالى فى الثواب وفى الثنا

والسراج الوراق ، ومن شعره :

مليك له فى العلم حب وأهله فلله حب ليس فيــه ملام

وجمال الدين يوسف بن الخشاب ، ومن شعره :

قصد الملوك حماك والخلفاء فافخر فإن محلك الجوزاء . .

فلما فرغوا من إنشادهم ، أفيضت عليهم الخلع(١) .

وقد بقى إلى جانب هذه المدارس الجديدة — عدد من المدارس والمساجد المنشأة من قبل ، كالجامع الأزهر ، وجامع ابن طولون ، وجامع الحاكم بأمر الله، ظلت الدراسة فيها مزدهرة زمناً طويلا .

واهتم منشئو هذه الدور التعليمية ، بأن تبقى مفتحة الأبواب ، عامرة بطلاب العلم ورواد المعرفة ، فأوقفوا عليها أوقافا طائلة من دور ورباع وأسواق وغيرها، وجعلوا نظرها إلى ذريتهم من بعدهم — وربما لكى تنتفع هذه الذرية(٢) .

غير أنه كثيرا ما عبثت الأيدى بهذه الأوقاف . فكان لذلك أثر فى اضطراب سير الدراسة بهذه المدارس .

وكانوا يجرون على الطلاب — أحيانا — خبزا يوميا ويهدون إليهم أردية صيفية وشتوية ، ويوزعون عليهم الكعك ونحوه فى عيد الفطر ، واللحوم فى عيد النحر ، ويعد لهم الطعام فى رمضان .

---

(١) راجع خطط المقريزى ج٤ — وحسن المحاضرة ج٢ ،

(٢) راجع أخبار هذه الأوقاف فى المجلد الثانى من موسوعتنا هذه .

ويجرون لرواتب على الشيوخ والمدرسين ، وعلى الطلاب المقيمين ، ويعاونونهم بألوان من البر فى المناسبات .

خزائن الكتب :

وكثيراً ما كانت تزود دور التعليم ، بمكتبات تضم ذخائر العلم والأدب ، لتعاون الشيوخ والطلاب معا على جهادهم العلمى .

وكان بعض السلاطين مولعا باقتناء الكتب ، كالناصر حسن بن الناصر ابن قلاوون .

وكذلك بعض الرؤساء . فقد روى أن القاضى نجم الدين يحيى بن حجى — وكان من أعيان الرؤساء بمصر والشام — لما مات وجد عنده أكثر من ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة(١) .

ومن خزائن الكتب التى اشتهرت بالقاهرة حينذاك : خزانة جامع الحاكم بأمر الله ، زوده بها الأمير بيبرس الجاشنكير وخزانة جامع الخطيرى ببولاق زوده بها منشؤه الأمير عز الدين إيدمر الخطيرى وخزانة القبة المنصورية ، وقيل إنها كانت تحتوى على عدة أحمال من الكتب النفيسة فى مختلف العلوم ، وقفها المنصور قلاوون . وخزانة جامع المؤيد شيخ ، وقد حول إليها مئات من الكتب كانت بقلعة الجبل ، وأضاف إليها نحو خمسمائة مجلد أهداها إليه كاتب سره الناصرى بن البارزى . وخزانة المدرسة المحمودية التى أنشأها الأستادار جمال الدين محمود ـ قيل إنها كان بها كتب الإسلام من كل فن . إلى غير ذلك(١) .

---

(١) بدائع الزهور ج ٢ حوادث ربيع الأول عام ٨٨٨ هـ

(١) راجع الخطط المقريزية ج ٤ ص ١٣٢ ، ٢٤٢ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ .

الاتجاه التعليمي :

وكان أكثر هذه الدور التعليمية مؤسسا بمدينة القاهرة ، إذ كانت مقر السلطان ومجتمع الأمراء ، وقاعدة الجند ، ومحل الدواوين . ومهوى الرؤساء ، ومثابة الطامحين ، ومراح الجاه .

وقيدت الحركة التعليمية في هذه الدور ، بالاتجاه الذي يرسمه منشئوها . ولكن اتجاهاتهم كانت تلتقي عند هدف واحد . وهو إحياء علوم الدين الإسلامي ، وتجديد شبابها وقوتها .

ويتضح لنا هذا ، من أخبار المدارس . إذ كان يذكر بينها أن منشيء مدرسة « كذا » قرر بها درسا في فقه الحنفية ـ مثلا ـ أو درسا في التفسير ، أو الحديث ، وأكثرها من دروس الدين .

ولا غرابة في ذلك . ففضلا عن الهدف الذي أشرنا إليه من هذا النشاط التعليمي ، كانت العلوم الدينية وما يتصل بها من فنون اللغة العربية ، هي وسائل الثقافة الأولى ، في الأمم العربية والإسلامية ، في تلك العصور .

ولم تكن علوم أخرى ، تذكر بجوارها ، وتسمو في الأهمية إلى ما سمت هي إليه . وقد كانت هناك بجوارها علوم أخرى كالطب والهندسة والفلك . ولكنها لم تبلغ ما بلغته علوم الدين واللغة . وكان الأمر — في تلك العصور الماضية ، مختلفا اختلافا واضحا ، عما نشهده في عصرنا الحديث ، من الاهتمام الضخم الأصيل بهذه العلوم الكونية .

وعلى سبيل المثال ، كان يدرس بالجامع الأزهر ، علوم الدين بمذاهبه الأربعة ، والحديث والتفسير واللغة والأدب والوعظ . وانقطع لطلب العلم نحو ٧٥٠ طالبا ، من أمم شتى ما بين عجم وزيالعة ، ومن أهل ريف مصر ، ومغاربة . وذلك حتى عام ٨١٨ هـ — على ما رواه المقريزي . وقد قال أيضاً :

« فلا يزال هذا الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه ، والاشتغال بأنواع الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر » .

على أنه لابد من وقفة قصيرة ، إزاء مؤسسة علمية ، أقيمت فى ذلك الزمان، وتعتبر أعجوبة من أعاجيبه ومحمدة من محامده . ونعنى بها المارستان المنصورى الذى أنشأه المنصور قلاوون عام ٦٨٢ هـ .

وهو مستشفى عظيم ، أنفق عليه قلاوون من مال مصر ، أموالا طائلة ، وأوقف عليه نحو ألف ألف درهم سنوياً .

وكان ينقسم جملة أقسام ، منها : قسم للحميات ، وآخر للرمد ، وآخر للجراحة . وآخر للأمراض النسوية ، وآخر للإسهال .

وجهز بصيدلية تطبخ فيها أنواع الأدوية . وزود بما يحتاج إليه من أدوات وأسرة وموظفين .

وقد أسست به قاعة تلقى بها دروس الطب على الطلاب . وضمت إليه خزانة كتب قيمة .

هذا . وقد كانت سياسة مصر ، خلال تلك العصور ، ترمى إلى الترحيب بأبناء العرب والمسلمين ، على تباين أوطانهم — كما رأيت — فكانوا يفدون إليها بغية العلم وغيره . وكانت لا تفرق بينهم وبين أبنائها ، بل تفسح لهم من صدرها ، وتوسع لهم فى رحابها ، وتغدق عليهم من العلم والمال ووسائل الراحة ، ما يعينهم على بلوغ إرتبهم .[1]

---

(١) راجع أخبار المساجد والمدارس ، فى خطط المقريزى ج ٤ — وفى الانتصار لابن دقماق ج ٤ — وفى المجلد الثالث عن موسوعتنا هذه .

مـواد التعليم :

وقد أشرنا إلى أن علوم الدين واللغة كانت فى مقدمة المواد التعليمية . وكان من بينها فقه المذاهب الأربعة وعلوم الحديث وتفسير القرآن الكريم . وأصول الفقه ، والقراءات ، وعلم الكلام ، والصرف ، ودروس الوعظ . .

ويليها فى الأهمية مــــواد اللغة العربية ، كالأدب والنحو والبلاغة ، ثم المعقولات من منطق وطب وفلك وتقويم ورياضة .

وعنوا عناية بارزة ، بفنون التاريخ ، كالتاريخ العام ، وتاريخ مصر والقاهرة ، والسيرة النبوية ، وسير الأعلام ، وتراجم الرجال والطبقات ، وتاريخ الخطط ، واتضح هذا فى مؤلفاتهم .

ونقل ابن دقماق أن جامع ابن طولون ، كان يدرس فى عهد الملك حسام الدين لاچين — عام ٦٩٦ هـ — الفقه والحديث والقرآن والطب . وأن الجامع الأزهر اتسع فيه نطاق الدراسة — عام ٦٦٥ هـ — فتناولت الحديث والعلوم العقلية والنقلية .[١]

وروى المقريزى عن عبد الرحمن بن الصائب الحنفى ، أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر ، بضعا وأربعين حلقة ، لإقراء العلم ، لا تكاد تخلو حلقة منها من التدريس أثناء اليوم . وذلك قبل وباء عام ٧٤٩[١] .

وذكر السير وليم موير ، قال :

« إنه بنى فى عهد المماليك مدارس وكليات لتعليم الناس علوم الطب والفلسفة والفنون والعلوم الرياضية والطبيعية »[٢] .

---

(١) التعليم فى مصر ، ص ٤ ، ٥ .

(٢) تاريخ دولة المماليك للسير وليم موير ، تعريب محمود عابدين وسليم حسن ، ص ١٨٩ .

الكتب الدراسية :

وباستقراء تراجم الأعلام ، نستطيع القول إن من الكتب التى كانت موضع العناية ، حينذاك ، للحفظ والدراسة : المنهاج الأصلى للنووى . والشاطبيتان فى فى القراءات . والعمدة لحافظ الدين النسفى فى أصول الفقه ، والكافية لابن الحاجب فى العربية . ومختصر القدورى فى الفقه . والأربعون حديثاً النووية . وتلخيص المفتاح فى البلاغة . والجعبرية فى الفرائض . والخزرجية والهداية لابن الجزرى . والكنز فى فقه الحنفية . وألفية ابن مالك فى النحو . ومختصر أبى شجاع . ونظم قواعد الإعراب لابن الهائم . وإيساغوجى فى المنطق . وفصيح ثعلب فى متن اللغة . وكتب الحديث ومنها موطأ مالك وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم .

اختيار الشيوخ :

وكانت هناك عناية عظيمة ، باختيار الشيوخ لتولى التدريس ، من بين المشهورين ، ومنهم على سبيل المثال :

بالمدرسة الصلاحية : تقى الدين بن رزين . وتقى الدين دقيق العيد القشيرى . وبرهان الدين الخضر السنجارى . وتاج الدين بن بنت الأعز . وتقى الدين بن بنت الأعز . والبهاء السبكى وبرهان الدين بن جماعة . والسراج البلقينى .

وبالمدرسة الكاملية ، وهى دار الحديث : أبو عمرو فتح الدين بن سيد الناس . وبدر الدين بن جماعة . والحافظ زين الدين العراقى ، وسراج الدين ابن الملقن .

وبالمدرسة الظاهرية القديمة : تقى الدين بن رزين لفقه الشافعية . ومحب الدين بن العديم لفقه الحنفية . والحافظ شرف الدين الدمياطى للحديث . وكمال الدين القرشى للقراءات .

وبالمدرسة الظاهرية الجديدة « مدرسة برقوق » : علاء الدين السيرامى ، وقد

ولى مشيختها وتدريس فقه الحنفية . وأوحد الدين الرومى لفقه الشافعية وشمس الدين بن مكين لفقه المالكية ، وصلاح الدين بن الأعمى لفقه الحنابلة . وأحمد زادة العجمى لتدريس الحديث . وفخر الدين الضرير لتدريس القراءات . وسراج الدين البلقينى للتفسير والوعظ .

وبالجامع المؤيدى : شهاب الدين بن حجر العسقلانى لفقه الشافعية . ويحيى بن محمد البجائى المغربى لفقه المالكية ، وعز الدين عبد العزيز البغدادى لفقه الحنابلة ، وبدر الدين محمود العنتابى لتدريس الحديث . وشمس الدين محمد بن يحيى للقراءات . وشمس الدين محمد بن سعد الديرى لفقه الحنفية ، وقد ولى مشيخة الصوفية بالجامع (١) .

مراحل الدراسة وإجازاتها :

وتنقسم مراحل التعليم الشعبي ـ بحسب استنباطنا ـ ثلاثا ، وكل منها غير محدود بسن معينة ولا بمدة محددة ، وهى :

الأولى : مرحلة الصغر ، وفيها يدخل التلميذ مكتبا يحفظ فيه القرآن الكريم ويعلم شيئاً من الخط والإملاء ونحوهما .

والثانية : فى بدء الشباب وفيها يكب الطالب على كتب العلم كالفقه والحديث والأصول والنحو والصرف ، ومنها المتون وبعض الكتب التى سبق لنا ذكرها . فيحفظ الطالب منها ما وسع جهده وقدرت عليه طاقته وسمت إليه همته ، وعاونه عليه استعداده . ثم يعرض محفوظاته على شيوخ من جلة عصره . فإذا اقتنع أحدهم بما عرضه عليه فاختبره ووجده حافظاً جيد الحفظ ، منحه « إجازة عراضة » وهى شهادة باجتيازه المرحلة الثانية .

---

(١) راجع أخبار المدارس فى حسن المحاضرة ج ٢ . والانتصار ج ٤ ، والخطط ج ٤ ـ والمجلد الثالث من موسوعتنا هذه .

وكلما جمع الطالب من هذه « الإجازات » عدداً أكبر كان ذلك أدعى إلى تقديره ، وأدل على سعة مجهوده ومبلغ إقدامه على ارتياد العلم . ويعد ما حفظه من الكتب والمتون فى فنون مختلفة رصيدا علمياً وذخيرة هامة تعينه وترشحه وتعده للمرحلة التالية ، وهم أهم المراحل .

والثالثة : فى إبان الشباب وينعه وقوته . وهى أهم المراحل كما ذكرنا . ويعكف فيها الطالب على الدراسة والبحث الواسع العميق المستوعب ، ويدخل ميدان الجدل والمناقشة معاً ، وطور الفهم والتساؤل والموازنة والحكم . حتى يستقيم لسانه ويثبت جنانه ويحصف عقله ويتفتق ذهنه وتجود قريحته ويستنير رأيه . ويستقصى فى سبيل ذلك كتباً عدة فى الفقه أو الحديث أو النحو أو القراءات أو نحوهما استقصاء ، دراسة وفهماً ، على شيخ أو أكثر من شيوخ العلم ، يختاره أو يختارهم بمحض رغبته وملء حريته . وكلما كان الطالب له شيوخ كثيرون ، ومن الشيوخ الممتازين كان ذلك أدعى إلى تقديره وأيسر إلى بلوغه أربته من العلم ، وأدل على جديته فى طلبه . — ومن الطريف أن تعلم أن الشيخ محي الدين النووى كان وهو طالب يحضر اثنى عشر درساً فى اليوم[١] .

وإذا أتم الطالب دراسة مادة من مواد العلم كالفقه مثلا أو الحديث فى أحد كتبه اختبره فيها شيخه اختباراً موكولا إلى مشيئته وإرادته ، لا دخل لأحد غيره فيه . والشواهد العملية تدل على دقة هذا الاختبار ومراعاة الأمانة العلمية فيه . فإذا نجح الطالب فى اختبار شيخه منحه الشيخ « إجازة » بالفتوى ، أو التدريس أو رواية الحديث مثلا أو القراءات أو غير ذلك . ويحرص الطالب الممتاز عادة على أن يجمع الكثير من هذه الإجازات العلمية التى تتعدد بتعدد شيوخه عادة . وكثيراً ما ترى الطالب فيما بعد يؤلف « معجماً » لشيوخه الذين درس عليهم ويتحدث عن علاقته بهم وعن تاريخهم ومحاسنهم .

---

(١) راجع ترجمته فى طبقات الحفاظ للذهبى .

وكما اتجه كثير من الطلاب إلى إجادة فقه أحد المذاهب الأربعة والتخرج فيه، اتجه كثيرون أيضاً إلى إجادة الحديث رواية ودراية . واعتمدوا فى ذلك اعتماداً كبيراً جـــداً على مشافهة شيوخ الحديث الحفاظ الذين يحفظونه مشافهة عن شيوخهم بسند موصول ، وربما بعدة روايات وأسناد . ولهذا توالت طبقات الحفاظ والرواة فى هذا العصر وكثر عددهم فى كل طبقة .

وكانت « إجازات العراضة » و « الإجازات العلمية » بالفتوى أو التدريس أو رواية الحديث تكتب بعبارة أدبية بارعة يراعى فيها السجع والمحسنات البديعة المتبعة فى الأساليب الأدبية إذ ذاك . كانت هذه الإجازات بأسلوبها ، لا بموضوعها ، مظهراً من مظاهر الأدب فى ذلك العصر(١) .

وفيها يشهد الشيخ بأن تلميذه قد عرض عليه ، أوقرأ وفهم كتاب كذا. وأنه أجاد ما حفظه حفظاً ، أو أجاد ما فهمه فهماً ، ويضفى الشيخ على تلميذه آيات الحمد والثناء ، ويأذن له فى « الإجازة العلمية » بمزاولة التدريس أو الفتوى أو رواية الحديث مثلا ، ويوصيه بالتخلق بصفات العلماء . وتكتب الإجازة بالفتيا بخط خاص وعلى ورق خاص(٢) .

وينبغى ملاحظة شيئين :

الأول:أنه ما من متعلم مثقف فى هذا العصر إلا وقد أخذ من هذه الدراسات الدينية العربية بنصيب،بل كان لابد له من أن يتمذهب بأحد المذاهب الأربعة ، وأن تضم نسبته إلى مذهبه ، إلى اسمه ، فيقال فلان بن فلان الشافعى ، مثلا أو الحنفى .

وكل ذى علم أو فن من غير العلوم الدينية ، كالمنطق والطب والفلك ، لابد

---

(١) راجع صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٢٧ ، ٣٢٢ـ وديوان ابن الوردى ص ١٧٤ وبهما أنواع من الإجازات .

(٢) راجع صبح الأعشى ج ١٤ ص٣٢ .

له أن يمر بهذا الضرب من التعليم الذى قوامه علوم الدين ثم علوم اللغة . فيأخذ منه بنصيب ، ثم يلوى عنانه إلى مايريد التخصص فيه من الطب أو الفلك أو المنطق مثلا .

ترى ذلك ماثلا بوضوح فى تراجم الأعلام الذين برزوا فى غير العلوم الدينية أو العربية ، فإن قصة حياتهم تروى فيها عادة خط سيرهم فى هذا التعليم أولا .

حتى علماء العربية الذين تخرجوا فى النحو أو البلاغة، أو أدباء العربية الذين برعوا فى الكتابة أو الإنشاء ، كان لابد لهم من اجتياز مراحل التعليم الدينى أو بعضها على الأقل . وترى هذا ماثلا أيضاً فى تراجمهم .

الثانى : أن ثمة إجازة أخرى غير ما ذكرناه وهى « الإجازة الأدبية » ، وهى إذن برواية آثار أدبية ومؤلفات نثرية أو شعرية .

وهذا الضرب ليس من الإجازات العلمية . ولكنه لون من ألوان المجاملات بين الأصدقاء وضرب من ضروب التقدير ومظهر من مظاهر الصداقة بين صديق وصديق ، أى المجيز والمجاز .

وهذا الضرب يسبقه عادة « استدعاء » أو « استجازة » أى طلب إجازة . يتقدم به الصديق طالب الإجازة إلى المجيز يسأله أن يأذن له فى رواية آثاره الأدبية ، فيكتب له الآخر هذه « الإجازة » إذنا بالرواية فيصبح وكأنه راوية من رواة أدبه .

والاستجازة والإجازة فى هذا المجال ، رسالتان يتقارض الصديقان فيهما الثناء والتقدير ، ويتبادلان الحمد وذكر المآثر . ويكتبانهما بالأسلوب الأدبى البديعى المتبع حينذاك .

ومن أمثلتهما استجازة صلاح الدين الصفدى لابن نباتة برواية آثاره الأدبية « وإجازة » ابن نباتة له بذلك[1] .

---

(١) راجع خزانة الأدب باب التورية . والوافى بالوفيات ج ١ ـ والدرر الكامنة ج ٤ رقم ٥٨٥ .

نشعر مما سبق بيانه أن العلماء قد وجدوا أسبابا عدة ووسائل كثيرة أتيحت لهم تحفز إلى النشاط العلمى ، وهيء لهم من نجاح العمل والدأب ما وسعه الجهد ذلك الحين ، وما يشجع على المضى قدما فى إحياء علوم الدين وما إليها من وسائل المعرفة .

ففتحت المدارس وأوقفت عليها الأوقاف الدارة ورتبت الأجور والرواتب للعلماء والطلاب وأغدقت المعونات بين الآونة والأخرى ، وزودت المدارس بدور الكتب ، ورفعت منازل العلماء . إلى غير ذلك مما رأيت وسمعت . وأدى ذلك إلى منافسة كريمة بينهم كان لها أثر عظيم فى نتاج علمى جليل .

وقد دأب العلماء على التعليم وتخريج الطلاب ـ كما رأيت وترى ـ وكذلك دأبوا على التأليف والتصنيف ، حتى أصبحت البلاد المصرية مراح العلم ومورد الأدب وميدان الفن .

وننقل إليك ما شهد به العلامة ابن خلدون « ٨٠٨ هـ » ، وما سجله فى مقدمته عن مبلغ العلوم والفنون ، ومبلغ العناية بهما فى البلاد المصرية ، لعهده ، قال :

ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم ، إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر ، وحضارتها مستحكمة ، منذ آلاف السنين . فاستحكمت فيها الصنائع ، وتفننت . ومن جملتها تعلم العلم . وأكد ذلك وحفظه ، ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب . وهلم جرا .

وذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم ، لماله عليهم من الرق أو الولاء ، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته ، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط . ووقفوا عليها الأوقاف المغلة ، يجعلون فيها شركا لولدهم ، بنظر عليها أو نصيب منها . مع ما فيها غالباً من الجنوح إلى الخير ، والتماس الأجور فى المقاصد والأفعال . فكثرت الأوقاف لذلك .

وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه ، بكثرة جرايتهم . وارتحل إليها الناس فى طلب العلم من العراق والمغرب . ونفقت بها أسواق العلوم ، وزخرت بحورها . والله يخلق ما يشاء »[١] .

تشجيع المؤلفين :

غير أننا بالرغم مما سبق بيانه ، لم نجد من الحوادث والوقائع ما يدلنا على أن المؤلفين من العلماء وجدوا ما يشجعهم على التأليف والمضى فيه ، تشجيعاً يناسب ما بذل لهم فى النواحى الأخرى ، وما هيىء لهم من الوسائل التى أشرنا إليها .

ونعنى أنهم لم يجدوا تشجيعاً مغرياً ينهض فى نفوسهم عامل الإقدام ويغريهم بالمغامرة الواسعة فى سبيل التأليف ووفرته وجودته : سوى الوظائف التى كانوا يلونها .

وربما صادفتنا بعض وقائع التشجيع . ولكنها فى جملتها أريحية فردية ، وهوى وقتى وهزة إلى الجود وجيزة مقتضبة ، لاتقاس على نظائرها فى العصور السابقة .

ومن هنا نشعر شعوراً قوياً بجلال هذا الإقدام العجيب من العلماء الذى اقتحموا به ميدان التأليف واضطلعوا بأعبائه . فأية قوة نفسية تلك التى كانوا يدخرونها بين ضلوعهم . وأية شجاعة قلبية تلك التى كانوا يحتازونها بين حناياهم . إن بعضهم ، بل كثيراً منهم ، يعتبر هاوياً من هواة التأليف ، فقد تعددت مؤلفاته فى شتى العلوم حتى بلغت المئات . مما لامثيل له فى عصور أخرى .

على أننا — وقد اعترفنا بضعف هذا العامل — عامل التشجيع المادى للمؤلفين — باعتباره حافزاً من حوافز الاشتغال بالتأليف ، وأنه لا يرقى فى

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون تحت عنوان « فصل فى أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة » — وتقويم النيل ج ١ ص ٣٠٢ ومصر والنيل ص ١٥ ، لأمين سامى .

جملته إلى مستوى غيره من الحوافز ، لا نرى مناصاً إنصافاً للعصر ، من أن نذكر لك بعض نماذج هذا التشجيع . فمن ذلك :

ما ذكره ابن أبى حجلة المغربى عن كتابه « ديوان الصبابة » . فقد قال فى مقدمته : إنه احتفظ لنفسه بهذا الكتاب بعد تأليفه حتى برز له مرسوم شريف من الملك الناصر حسن بطلبه فقدمه إليه .

وكذلك روى ابن أبى حجلة عن كتابه « سكردان السلطان » فإنه ألفه للسلطان الناصر حسن أيضاً .

وكلا الكتابين فى جملتهما ، من كتب الأدب . — ولم يشر المؤلف عما شجعه به السلطان من التشجيعات المادية .

وذكر السيوطى أنه ألف كتابيه « الأساس فى فضل بنى العباس » و « رفع البأس عن بنى العباس » للخليفة المتوكل على الله أبى العز عبد العزيز « ٩٠٣هـ »[١].

وألف المؤرخ أبو بكر بن أبيك كتابه « كنز الدرر وجامع الغرر » للسلطان الناصر محمد بن قلاوون[٢] .

وروى أن السلطان الأشرف الغورى ألفت له كتب . ومنها كتاب « نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار القرآنية » لحسين بن محمد الحسينى . وكتاب « الكوكب الدرى فى مسائل الغورى » . وقد نشر الكتابان ملخصين عام ١٩٤١م باسم « مجالس الغورى » .

وروى جورجى زيدان ، أن محمداً القوصوى الطبيب ألف للغورى بإشارة منه كتابه الطبي « كمال الفرحة »[٣] .

وروى جورجى زيدان أيضا أن عماد الدين موسى بن محمد اليوسفى المصرى

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٩٢ .

(٣) جورجى زيدان ج ٣ ص ٢٥٤

«٧٥٩هـ» ، ألف للسلطان الظاهر جقمق كتابه «كشف الكروب فى معرفة الحروب وهو فى الفنون العسكرية .

وروى أيضاً أن محمد بن لاجين الحسامى الطرابلسى الرماح ألف كتابه فى الفروسية وهو بغية القاصدين فى العمل بالميادين ، للأمير سيف الدين الماردينى الذى كان نائب حلب.

وأن حسن بن عبد الله العباسى ألف كتابه «آثار الأول فى تدبير الدول» للسلطان المظفر بيبرس الجاشنكير المنصورى .

وأن محمود بن إسماعيل الجيزى ألف كتابه «الدرة الغراء فى نصائح الملوك والولاة والوزراء» للملك الظاهر أبى سعيد جقمق العلائى .

وأن شهاب الدين الأشرفى ألف كتابه «البرهان فى فضل السلطان» للسلطان الظاهر خشقدم[1] .

وهذه المؤلفات التى ذكرها جورجى زيدان ليست فى صميم العلوم أو الآداب الإسلامية . ومع ذلك فلم يشر المؤلف عما أعطى هؤلاء المؤلفون من المنح المادية لقاء مؤلفاتهم .

هذا ومن الكتب التى ألفت أيضاً للسلاطين أو الأمراء :

«سيرة الملك المؤيد شيخ» : كتبها شمس الدين بن ناهض الفقاعى ما بين نظم ونثر ، للملك المؤيد وقدمها إليه عام ٨١٨هـ[2] .

«سيرة الملك الظاهر جقمق» كتبها له شهاب الدين بن عربشاه . ورأيت منها نسخة مصورة تصويرا شمسيا .

«روض المناظر» . كتبه قاضى القضاه محب الدين بن الشحنة المتوفى عام

---

(١) راجع جورجى زيدان ج ٣ ص ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ١٨٢ تباعا.

(٢) خزانة الأدب لابن حجة ص ٨٠

«٨١٥هـ» إجابة لرغبة الأمير عماد الدين محمد نائب السلطان بقلعة حلب . وبهذا الكتاب حديث عن المخلوقات والمشاهير وغير ذلك(١) .

« تذكرة الملوك إلى أحسن السلوك » ألفه أحد الفضلاء برسم السلطان الغورى . وبه سير ملوك ووزراء وقضاة (٢).

نتائج النشاط العلمى

أجيال العلماء والأدباء والمؤلفين :

وتتابعت طبقات العلماء ، وتتالت أجيال الأدباء ، على مدى العصر وتوالى أيامه. وهذه نتيجة طبيعية لحركة التعليم الدائبة ، ولوفود الطلاب إلى دور التعليم من كل حدب وصوب ، وعنايتهم بتحصيل العلم وفهمه .

وقد زخر العصر بالعدد الوافر ، من علماء المذاهب الأربعة ، والعلماء المجتهدين ذوى الآراء . وزخر بكثير من المتصوفة وأهل الكلام والمنجمين والفلكيين والمؤرخين . وغيرهم . وكذلك تتابعت طبقات المؤلفين من بينهم .

وكان أكثرهم عدداً علماء الدين ورجال المذاهب وحفاظ الحديث ، ويليهم رجال الأدب واللغة وعلومها ، ثم غيرهم .

وكتب سير الأعلام والطبقات ، خير شاهد على ما نقول . وهى وفيرة زاخرة بسيرهم ، عامرة بأخبارهم .

ومنها فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى . والوافى بالوفيات للصفدى ، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى ، والضوء اللامع للسخاوى ، وعقد الجمان للبدر العينى .

(١و٢) فهرس دار الكتب ج ٥

ومنها طبقات الشافعية للتاج السبكى ، وطبقات الحفاظ لشمس الدين الذهبي، وطبقات النحويين واللغويين للجلال السيوطى ، وطبقات الحنفية لعبد القادر القرشى ، وطبقات الحنابلة لابن رجب البغدادى الدمشقى . إلى غير ذلك .

وهذه الكتب مليئة بأنباء علماء مصر فى هذه الحقبة . ومن بينها ما ترجم لأعلام فترة من فتراتها خاصة . وذلك كالدرر الكامنة ، فهى فى تراجم أعيان المائة الثامنة ، وكالضوء اللامع ، فهو فى أعيان القرن التاسع .

ومن باب التعريف بهذه الأسفار الزاخرة ، نذكر لك ـ على سبيل المثال ـ واحداً منها : وهو الضوء اللامع .

مؤلفه شمس الدين السخاوى تلميذ القاضى المؤرخ شهاب الدين بن حجر العسقلانى . ويقع الكتاب فى اثنى عشر جزءاً . وموضوعه تراجم أعلام القرن التاسع الهجرى الذين عاشوا فيه وشهدوا جزءاً منه . وهو حلقة هامة فى سلسلة كتب تراجم أعلام العصر المملوكى : وهو الحلقة التالية لكتاب ابن حجر العسقلانى المسمى « الدرر الكامنة » الذى ترجم فيه لأعيان المائة الثامنة .

ويحتوى كل جزء منه على نحو ألف ترجمة . وتبلغ جملة تراجمه نحواً من خمسة عشر ألف . وكلهم من رجال قرن واحـــد فقط وهو التاسع الهجرى . وبينهم كثيرون ممن رآهم السخاوى أو سمع بهم من معاصريه ، إذ أنه عاش فى القرن التاسع المذكور ومات عام ٩٠٢ هـ. فأدى بكتابه هذا جميلا لا ينسى لمعاصريه إذ خلد ذكرهم وسجل محامدهم . ولولاه لضاع اسم كثير منهم كما ضاع غيرهم .

وحقيقة أن السخاوى جمع فى كتابه هذا بين أصناف شتى من الأعلام فبينهم السلطان والأمير والقاضى والوزير والكاتب والشاعر والفقيه والمجتهد والشافعى والحنفى والمصرى والشامى والحجازى، وغير هؤلاء وهؤلاء من ألوان الرجال فى كل فن وكل صناعة وكل منصب وكل موطن ، ممن عاش فى القرن التاسع الهجرى فهو كتاب جامع عظيم .

ونصيب علماء مصر وأدبائها وطبقات فقهائها وأفذاذها فى كل علم وفن وصناعة هو نصيب الأسد، فقد خلد الرجل أسماء مئات منهم نبغوا وبرزوا فى قرن واحد وهو القرن التاسع.

وتحدث فى ترجمة كل منهم عن اسمه ولقبه وكنيته وموطنه ومسكنه ودراسته وشيوخه وتخرجه فى علومه أو صناعته، ووظائفه التى تقلب فيها ووقائع حياته وأخلاقه ومسراته ومساءاته، وأقاربه وأبنائه وتلاميذه ومؤلفاته ومدى أهمية هذه المؤلفات، إلى غير ذلك من مقتضيات الترجمة الفنية العاجلة.

وحقيقة أيضاً أن الرجل لم تطرد تراجمه على هذا الغرار دائماً، ولكنه اتبع هذا المنهج فى كثير من هذه التراجم، وبخاصة فى تراجم أنداده ومعاصريه الذين عاشوا معه تحت سماء القاهرة، وفيمن عاشوا وعاصروا شيخه ابن حجر أيضاً - توفى عام ٨٥٢هـ - وهذا على وجه التقريب.

وبعد فهذا كتاب من كتب، تعرضت لبيان فضل علماء مصر وأدبائها فى العصر المملوكى، وبيان عددهم وطوائفهم وطبقاتهم ومآثرهم.

ومن هذه الكتب جميعاً تتضح لنا ضخامة هذه الأعداد وسعة هذه الطبقات ونفاسة هذه المآثر.

وقد نشط كثير من هؤلاء الأفذاذ إلى التأليف أو الفتوى أو التدريس أو الإمامة أو الخطابة الدينية أو الوعظ. وشغل الواعون منهم مناصب القضاء ونيابة الحكم وكتابة الإنشاء وما يناسبهم من وظائف دواوين الدولة علياها وغير علياها، كالوزارة والحسبة.

وشغف بعضهم بالمحاورات والمناظرات فى علوم الدين وعقائده ورد الشبه، ودفع الشذاذ، ومكافحة أصحاب المذاهب الخارجة كالجهمية والمعطلة ونحوهما، وما كان أكثرها حينذاك. وخف بعضهم لوضع الرسائل العاجلة فى ذلك. فكان للبلاد من وراء ذلك كله حركة فكرية عظيمة نافعة قيمة ممتعة، كما سنوضحه فى مقام آخر.

نماذج من العلماء والأدباء :

ونضع بين يديك ، ثبتا وجيزاً بأسماء بعض علماء العصر وأدبائه ، نماذج وأمثلة فحسب ، لا استقصاء فيها ولا استيعاب . وأنى لك ذلك ؟ .

فنهم بترتيب الوفيات على وجه التقريب :

من رجال الحديث :

المنذرى المصرى ، والرشيد العطار ، والفتح بن سيد الناس ، والذهبي ، وعز الدين ابن جماعة ، وزين الدين العراقى ، وولى الدين أبو زرعة العراقى ، وابن حجر العسقلانى ، وبدر الدين محمود العينى ، وشهاب الدين القسطلانى .

ومن علماء الشافعية :

تاج الدين بن بنت الأعز ، وابنه تقى الدين ، وتقى الدين بن رزين . وزين الدين بن المرحل ، وبدر الدين بن جماعة ، وابنه عز الدين ، والعماد الإسنوى ، وأخوه جمال الدين . وابن الملقن . وابن العماد الأقفهسى ، والجلال المحلى ، وعلم الدين البلقينى . وشرف الدين المناوى .

ومن علماء المالكية :

شرف الدين السبكى ، وتاج الدين الفاكهانى ، وعبد الواحد بن شرف الدين ابن المنير . وابن الحاج العبدرى الفاسى ، صاحب كتاب المدخل ، والزواوى ، وتقى الدين بن الإخنائى ، وشمس الدين بن مكين ، وبهرام بن عبد الله . وابن خلدون صاحب المقدمة ، وشمس الدين البساطى ، وعبدة بن على الأنصارى الزرزائى .

ومن علماء الحنفية :

وجيه الدين القوصى ، وكمال الدين بن العديم ، وفخر الدين عثمان الماردينى ، وفخر الدين الزيلعى . وتاج الدين بن مكتترم ، وأمير كاتب الإتقانى ، والسراج

الهندى ، وأكمل الدين البابرتى ، وبدر الدين محمود الكلستانى ، وقارىء الهداية والكمال بن الهمام ، وتقى الدين الشمنى . وأمين الدين الأقصرائى .

ومن علماء الحنابلة :

نجم الدين الحرانى ، وموفق الدين المقدسى . وناصر الدين الكنانى العسقلانى وعماد الدين الحنبلى . ونور الدين الحكرى ، وجلال الدين البغدادى نزيل القاهرة ونجم الدين الباهى . وابن مغلى والذين الزركشى .

ومن علماء القراءات :

ابن وثيق ، والناشرى ، والكمال الضرير ، والرضى الشاطبى ، والراشدى ، والحرائدى ، وسحنون ، والمزراب ، والشطنوفى على بن يوسف ، وشمس الدين الواسطى ، وابن الصواف ، والزرازرى والزراتيتى .

ومن علماء نحو اللغة :

أمين الدين المحلى ، وحافى رأسه محي الدين الإسكندرانى ، وابن مكرم الإفريقى صاحب لسان العرب ، وجمال الدين بن هشام المصرى ، والسمين شهاب الدين الحلبى نزيل القاهرة ، وبهاء الدين بن عقيل ، وبدر الدين الدمامينى .

ومن علماء المعقولات وما يتصل بها كالطب والحكمة والتنجيم :

نجم الدين الإدفوى جعفر بن مطهر ، كان طبيباً وفيلسوفا وشاعرا . وعلاء الدين بن النفيس شيخ الطب بمصر وكان مشاركا فى الفقه والأصول والحديث والمنطق والعربية وشمس الدين الأصبهانى كان بارعا فى الأصول والجدل والمنطق مشاركا فى النحو والشعر وغيرهما . وعلاء الدين الباجى كان إماما فى المنطق والأصول . والصفى الهندى كان فقيها أصوليا متكلما . وعلاء الدين بن صغير قيل إنه كان أعجوبة زمانه فى الطب . وقنبر بن عبد الله الشروانى كان ماهرا فى العلوم العقلية والعلامة محي الدين الكافيجى كان إماما فى المعقولات .

ومن المؤرخين :

ابن خلكان، وبيبرس المنصورى، وابن المتوج، والكمال الإدفوى، والنويرى، وابن الفرات، وابن دقماق، والأوحدى، والمقريزى، والبدر العينى، وابن تغرى بردى، وابن حجر العسقلانى، والسخاوى، والجلال السيوطى، وابن إياس الحنفى .

ومن الأئمة المجتهدين :

العز بن عبد السلام، ومحيي الدين النووى، وتقى الدين بن دقيق العبد القشيرى، وتقى الدين بن تيمية الحرانى، وتلميذه شمس الدين بن القيم، وتقى الدين السبكى، وجلال الدين السيوطى، وزين الدين زكريا الأنصارى(١) .

هذا وسنشير إلى الكتاب والشعراء فى الصفحات التالية عند حديثنا عن الثقافة الأدبية .

حركة التأليف .

أما نشاط حركة التأليف، فهو فى الحق مثار العجب، فقد وضع كثير من العلماء مؤلفات عظيمة القيمة. والمؤلفات هى الثمرة الخالدة والأثر الباقى على الزمن. والوصلة الصالحة بين ماضى العلم ومستقبله .

ولمصر بهذه المؤلفات التى وضعها بنوها فى هذه الحقبة، الفخر كل الفخر. إذ ماجت ميادين العلم على اختلافها بما صنفوه وألفوه . وقد استطاعوا بحق أن تكون مؤلفاتهم حلقة ذهبية فى سلسلة العلوم الإسلامية والعربية، كان وجودها ضروريا لحياة هذه العلوم .

وتبلغ هذه المؤلفات عدة آلاف . وحسبك أن تعلم أن بعض العلماء ـ كابن

---

(١) راجع تراجمهم جميعاً فى كتب تراجم الأعلام، وكتب الطبقات . ـ وراجع أيضاً حسن المحاضرة ج ١، تحت عناوين : « فقهاء الحنفية » « فقهاء المالكية » . . الخ .

حجر وابن يتيمية والجلال السيوطى مثلا ـ تبلغ مؤلفاته مئات . فقد قيل إن مؤلفات ابن تيمية تربو على خمسائة . وابن حجر على مائة وخمسين . والسيوطى على ستمائة .

وكانت هذه الكتب تملأ ـ بلا ريب ـ دور الكتب فى القاهرة . بجوار ماتقتنيه من كتب العصور السابقة . فلما فتح العثمانيون مصر عام ٩٢٣ هـ وأزالوا حكم المماليك،نهبوا هذه الذخائر العلمية فيما نهبوا وحملوها إلى القسطنطينية. ولايزال كثير منها مغتربا عن وطنه حتى اليوم ، ومبعثرا فى عواصم أوربا .

ونحن فى أشد الحاجة إليها لنكشف على أضوائها تاريخنا وحقائقه وشخصيتنا وسماتها ومقوماتها .

وقد جدت الهمة فى أيامنا ، بفضل ثورتنا المجيدة . لإعادتها ولو مصورة . ولإخراجها فى أثواب قشيبة .

وأكثر الكتب عددا كتب العلوم الدينية كالفقه بمذاهبه والحديث بألوانه متنا ومصطلحا وشيوخا وشروحا ، وكالتصوف .والتفسير ، والقراءات،وأصول الفقه ، والكلام .

وأقل منها عددا كتب العربية ككتب النحو والصرف والبلاغة ومتن اللغة ، وكتب الأدب والنقد .

وأقل منها عددا كتب العلوم الكونية والمعقولات ، ككتب الطب والفلك والتقويم والمنطق والحكمة والتنجيم والسياسة ومعرفة الحروب أو فنون القتال ، وحياة الحيوان والنبات وسياسة التعليم . إلى غير ذلك .

وينبغى أيضاً قبل عرض هذه النماذج أن نسجل ظاهرات أربع :

الأولى : أن علم التاريخ ، على الرغم من أننا لم نجد له بروزا معدودا بين

المواد الدراسية زخر العصر بكتبه ، وامتلأ بزخائره القيمة مع اختلاف اتجاهاتها وموضوعاتها .

ولعل سبب ذلك شعور علماء العصر بما أصاب تاريخ المسلمين والعرب وكتبه ، من البوار والتلف . وكتب التاريخ هى السجل الأول والمرجع الأصيل لمحامد الأمة ووقائع حياتها ومقومات شخصيتها وأخبار أفذاذها. وهى بذلك أولى ببذل العناية والجهد . وقد كانت كتبهم نمطا من هذا ، فضلا عما اتصف به بعضها من الاتجاه إلى الضبط والنقد وإبراز المآخذ .

وقد تنوعت هـــذه المؤلفات التاريخية تنوعا دل على النضج والفهم الدقيق لمقتضيات تاريخ الأمة وما ينبغى أن يكون عليه . فمن كتب فى التاريخ العام ، إلى تراجم الأعلام إلى كتب التراجم المفردة ، إلى كتب السيرة النبوية، إلى كتب تاريخ مصر والقاهرة ، إلى كتب الخطط والآثار ، إلى تاريخ المدن والأمصار . وغير ذلك .

وينبغى أن نقف وقفة قصيرة عند حديثنا عن كتب التاريخ ، بعدما نوهنا به . لمالها من القيمة والنفاسة البالغة فهأنتذا قد رأيت مظهر العناية بهذا الفن إذ تضافرت الجهود فى هذا العصر ، وتضاعفت الهمم وتنافست العقول على إخراج هذه المؤلفات الثمينة .

ويتصف بعضها بالطول والتفصيل . ويضم كثير منها تسجيلات لوقائع تاريخية ربما تعرض استطرادا ، ولكنها عظيمة القيمة ذات أثر واضح فى رسم صورة العصر أو الشخصية أو الواقعة ، رسما فيه دقة وفن .

ومن ذلك وصف المؤلفات وأخبار المناظرات والمجادلات وما ألف بسببها من الرسائل ، وتدوين نصوص من منثور الكلام ومنظومه . وتسجيل طرف أدبية وحوادث فكاهية ، وألوان من عادات الفرد والجماعة وتقاليدهما . وأخبار الدواوين والموظفين واختصاصاتهم وتنقلاتهم ، والوقائع الجانبية التى تقع على

هامش الحدث التاريخى . وما إلى ذلك. ونقد الشخصيات ووصف صلاتهم المختلفة وجدهم أو هزلهم ، وصلابتهم أو لينهم ، وشجاعتهم أو جبنتهم . وضبط الأعلام من الرجال والمدن والمواضع . ومن أمثلها فى هذا كله وفيات ابن خلكان والضوء للسخاوى .

ويتكون من بعض كتب تراجم الأعلام سلسة فريدة بين كتب تراجم العصور ، يكمل أحدها الآخر ، ومن أمثال ذلك كتاب الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى يؤرخ فيه لأعلام القرن الثامن . ثم كتاب تلميذه شمس الدين السخاوى « الضوء اللامع » يؤرخ فيه لأعلام القرن التاسع . وهكذا .

الثانية : أن محصول التأليف من كتب الحكمة والفلسفة قليل . وهذه الظاهرة نتيجة حتمية لمنطق التعليم وسياسته العامة التى سبقت إليها الإشارة . ذلك لأن النية كانت متجهة إلى إحياء علوم الدين أولا وقبل كل شىء ، بعدما أصاب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها على أيدى أعداء الدين والمسلمين . فكانت علومهم أولى بالعناية وأجدر بالإحياء . فكان لذلك أثره الحتمى فى محصول التأليف .

ومما يلاحظ أن كثرة ضخمة من علماء مصر والشام استجابوا فى تعلمهم وهم طلاب إلى هذا الاتجاه. ومن ثم كانوا فى مستقبلهم رجال فقه ودين ، وأكبوا على التأليف فى ميدان علوم الدين. حتى شهدنا منهم هذا النتاج الضخم الذى سنشير إليه . ورأينا منهم هذا العدد الوفير من علماء المذاهب الأربعة الذين أشرنا إليهم. فى حين أن الذين اتجهوا منهم إلى إجادة المنطق أو الحكمة أو الفلسفة أو ما يسمونها بالمعقولات ، عدد قليل . وعدد ممن برزوا من هذا الصنف لم يكونوا أصلا من أبناء هذه البلاد . بل وفدوا إليها من جهات آسيا ومما وراء بلاد العراق . وفدوا إليها وقد اكتمل علمهم ـ ولو إلى حد ـ وهناك فى تلك الأصقاع النائية كانت العناية جادة إلى إتقان علوم اللسان والفلسفة بدافع من الحكام غالباً .

ومن العلماء الوافدين : شمس الدين الأصبهانى محمد بن محمود ، برع فى الأصول والجدل والمنطق . ولد بأصبهان واشتغل ببغداد وقدم القاهرة فولى قضاء قوص واشتغل بالتدريس . ومات بالقاهرة عام ٦٨٨ هـ .

والصفى الهندى محمد بن عبد الرحمن، كان فقيها أصوليا متكلما مجادلا . ولد بالهند ودخل مصر فأقام بها أربع سنين وانتقل إلى دمشق يدرس ويفتى ويصنف ومات بها عام ٧٥٠ هـ .

وتاج الدين التبريزى أبو الحسن على بن عبد الله . نزيل القاهرة كان عالما فى علوم كثيرة ، ومات بالقاهرة عام ٧٤٦ هـ .

وشمس الدين الأصفهانى محمود بن عبد الرحمن ، برع فى العقليات وكان عارفا بالأصليين . واشتغل بتبريز وقدم مصر فولى التدريس بالمدرسة المعزية ، مشيخة خانقاه قوصون . وصنف . ومات مطعونا عام ٧٤٩ هـ بالقاهرة .

وقنبر بن عبد الله الشروانى، اشتغل فى بلاده وقدم مصر فاشتغل بالتدريس بالجامع الأزهر . وكان ماهراً فى العلوم العقلية ومات عام ٨٠١ هـ .

وسيف الدين السيرامى محمد بن عيسى . وكان عالماً فاضلا نشأ بتبريز ووفد على حلب ، واستدعاه الظاهر برقوق إلى مصر ، فقرره شيخاً بمدرسته ، ثم ولى غير ذلك . ومات عام ٨٠١ هـ .

وشمس الدين الهروى بن عطاء الله . ولد بهراة واشتغل فى بلاده بالعلوم ، وفاق فى العقليات ، ثم قدم القاهرة فاشتغل بالقضاء وكتابة السر ، ومات فى عام ٨٢٩ هـ .

وعلاء الدين البخارى على بن محمد ، نشأ ببلاده وتعلم على أبيه وعمه وغيرهما . ورحل إلى الأقطار حتى برع فى المعقول وصار إمام عصره . وقدم القاهرة وتصدر للإقراء وأخذ عنه غالب أهلها . ومات عام ٨٤١ هـ[1] .

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ باب ذكر من كان بمصر من أرباب المعقولات .

إلى غير هؤلاء .

ومع ما تقدم نلاحظ أن الاشتغال بالحكمة والفلسفة وما إليها ، وإن بد على هذا النحو من الضيق والقلة ، كان ينقصه العمق أيضاً والابتكار . ولعل فى مقدمة أسباب هذه الظاهرة أن بلادنا باكتفائها نفسياً وعقلياً بصواب أوضاع دينها وتعاليمه ، لم تشعر بحاجتها إلى الفلسفة ولا التعمق فيها . كان هذا ديدنها وأغلب الظن أنه سيبقى كذلك . ولعل للطبيعة المصرية السمحة السهلة نفسها أثراً فى ذلك ، وهى ببيئتها الزراعية التى كانت غالبة عليها ، ترى أن رزقها يأتيها رغداً كل يوم بكفاح ليس وراءه مشقة ، وببساطة لا يعوقها عقادة . فكان لذلك أثره فى نزعة الفكر ومستواها واتجاهها ولونها . على أنه كان هناك عوض لهم عن الاشتغال بالفلسفة ، ذلك هو اشتغالهم بالجدل والكلام ، وبالمناظرة فى العقيدة والرد على الفرق . ففلسفوا أفكارهم وأساليبهم وإن دارت فى جملتها فى النطاق الإسلامى — وسنعود مرة أخرى إلى هذا الحديث .

الثالثة : أن محصول التأليف فى علوم اللغة العربية قليل أيضاً بالنسبه لما ألف فى علوم الدين والحديث . وهذه الظاهرة واضحة فى كتب الأدب والنقد أيضاً ، أكثر من وضوحها فى كتب النحو والصرف والبلاغة ومتن اللغة . ويبدو أن السبب فى ذلك هو أيضاً طغيان الرغبة فى نشر علوم الدين والحديث ، لما سبق بيانه . ولأن السلاطين والعامة معاً كانوا يقدرون العلماء أكثر من تقديرهم للشعراء — مثلا — ويجلون الفقيه والمحدث أكثر مما يجلون الكاتب والأديب ، ولأن كثيراً من مناصب الدولة كمناصب القضاء والتدريس والخطابة والإمامة ، كان يختار لها فقهاء الشرع .

الرابعة : أن هذا العصر يتهم بأنه عصر المتون والمختصرات، وعصر الشروح أيضا . ولا أدرى فيم الاتهام ولم ، مع أن هذه الظاهرة طور طبيعى فى تاريخ

التأليف ولا بد أن يعقب طور التوسع والتخصص فى التأليف، طور يقرب لطلاب العلم وناشئته تناول العلم، ويعاونهم على بلوغ إربتهم منه فى وجازة وعجلة، وبخاصة صغار المثقفين. ويجمع لهم حقائق العلم فى متون يسهل حفظها فاستحضارها وقت الدرس، لتكون موضع المناقشة والشرح. ومن ثم يعمد بعض المدرسين بعد إلى تناول المتون بالشرح مرة أخرى ليجلى ما قد يكون غامضا بها، ويفصل ما قد يكون مجملا. وهكذا.

والعصر الذى نحن بصدده صادفته بواعث هذه الظاهرة، فهو عصر إحياء وبعث وتجديد، وعصر تعليم ونشر للثقافة، مع رغبة كامنة فى العجلة، ولهفة مختبئة فى الوصول. وهذا من شأنه أن يدفع إلى الاختصار ووضع المتن، ومن ثم إلى الشرح والتحشية.

ولا نشك فى أن المتون والمختصرات، قد حفظت من العلم جوهره ولبابه، وقامت - ولا تزال تقوم - بدورها الكريم فى مسرح التعليم، من ذلك العصر البعيد، إلى عصرنا الجديد.

ونذكر لك على سبيل المثال عددا من المتون والمختصرات والشروح، فمن ذلك:

نخبة الفكر لابن حجر العسقلانى متن فى مصطلح الحديث وألفية ابن مالك الأندلسى. متن فى النحو. والشاطبية متن فى القراءات. ومختصر الروضة فى فقه الشافعية لمحيى الدين الفرضى - والروضة للنووى - ومختصر الكفاية فى فقه الشافعية أيضا لشهاب الدين بن النقيب. وكنز الدقائق متن فى فقه الحنفية لأبى البركات النسفى «٧١٠ هـ». وتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للجلال القزوينى، لخص فيه مفتاح العلوم للسكاكى.

ومن الشروح: التوضيح للقزوينى شرح فيه كتابه «تلخيص المفتاح». ولألفية ابن مالك شروح كثيرة ومنها شرح للبابرتى، وآخر لابن الصائغ محمد

ابن عبد الرحمن ، وآخر لابن عبد الدائم الحلبي . والمجموع لمحي الدين النووى وهو شرح كتاب مهذب الرافعى فى فقه الشافعية . وحواشى الروضة وهى تعليقات على روضة النووى ، ألفها سراج الدين البلقينى . إلى غير ذلك ، مما سترى نظيره فيما سيأتى .

والعجيب جداً فى أمر هذا العصر ـ عصر المتون والمختصرات ، ثم شروحها والتحشية عليها ـ أنه عصر الموسوعات الجامعة .

لقد برزت النزعة الموسوعية فيه بروزا دل على نهم فى جمع المعلومات وحشد الحقائق . ولو كانت معلومات يخيل إليك أنها مبعثرة لا جامع لها ، وحقائق يتمثل لك أنها متنابذة لا تلاؤم بينها . وبحنكة وكياسة وذوق يبتدعون لها المناسبات والملائمات ، فتجمع وتحشد بغير نبو ولا شذوذ ولا قلق . فما بالك بما لا بعثرة فيها ولا تنابذ بينها .

وقد ألبسوا هذه المعلومات حلة قشيبة ، فبدت زاهية لاجتماع الإلف فيها مع إلفه ، والترب إلى تربه . وهذا فى رأينا ، من أجل الأعمال فى ميدان التأليف .

ويبدو أن السبب فى ذهاب علماء العصر إلى الطرف الآخر أيضا من طرفى التأليف ـ وطرفا التأليف هنا هما الاختصار والموسوعية ـ واحد . وهو غرض تعليمى يرمى إلى عرض أكبر كمية علمية مستطاعة من معارف السابقين والمعاصرين على أنظار الناشئة ، لتزويدها بها وإنضاجها من طريقها . هذا فضلا عن السبب الرئيسى والهدف الأصيل وهو عملية الإحياء والبعث .

وقد برزت العقليات الموسوعية فى عصر المماليك وجنحت إلى التأليف الجامع ، لتكون للناس مراجع وللعلم مصادر ، سهلة المورد ميسرة المقصد .

وقد كانت الظروف مهيأة لبروزها . ذلك لأن العصر العباسى كان قد انتهى بعد أن برزت فيه نزعة التخصص ، فوفرت المؤلفات ، كل منها فى علم أو فى فن . وجاء العصر المملوكى على إثره ، وشغف الناس بحفظ التراث القديم حرصاً عليه

وإبقاء له . فجد العلماء فى جمعه وتنسيقه فى صعيد واحد ، فنتجت الموسوعات ، وظهرت فى كل علم وفى كل فن .

والجلال السيوطى مثل جيد للعقلية الموسوعية . وقد ألف نحو ستمائة كتاب ورسالة بين مطول وموجز ، وفى فنون شتى منها التاريخ ومنها الفقه والحديث وتاريخ القرآن والتفسير والنحو وطبقات النحاة وطبقات المفسرين وفى اللغة وفقهها . وغير ذلك . — وفى كل مؤلف على حدة تسيطر عليه هذه النزعة . فهو شديد الولوع بحشد الروايات والأخبار ، وسوق النصوص والأحاديث التى تجمعها جامعة .

وينظر إليه بعض الناس بسذاجة ، ويعتبرون عمله سرقة أو نقلا ، ولو عانوا ما عانى ماعتبوا ولا لاموا ، فما يعرف الشوق إلا من يكابده .

والموسوعات — على وجه الإجمال — نوعان : نوع تناول علوما شتى وفنوناً مختلفة كالتقويم والأدب والتاريخ والقصص والشعر والنثر . ومن أمثلته البارزة : نهاية الأرب للنويرى . وصبح الأعشى للقلقشندى . ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى .

ونوع لم يتناول إلا علماً واحداً بذاته . ولا تكاد تطالب علما من العلوم الهامة التى اشتغل بها أبناء العصر إلا وفيه موسوعات عدة . ونضرب لك أمثلة لبعضها ، فمنها :

فى التاريخ : الوافى بالوفيات للصفدى وهو فى تراجم الأعلام ويقع فى نحو خمسين مجلداً ، والمنهل الصافى لأبى المحاسن . والضوء اللامع للسخاوى مثله ويقع فى اثنى عشر مجلدا . والنجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ، وبدائع الزهور لابن إياس الحنفى . وخطط المقريزى .

وفى الفقه : الكفاية لابن الرفعة فى فقه الشافعية . ويقع فى عشرين مجلدا .

والمجموع وهو فى شرح المهذب ، مؤلفه النووى فى فقه الشافعية ، والفتاوى المصرية لابن تيمية فى فقه الحنابلة .

وفى الحديث : نذكر — وحسبنا هذا — ثلاثة مؤلفات لا نظير لها فى أهميتها وسعتها فى أى عصر أدبى حتى اليوم ، وكلها فى شرح البخارى . وهى : فتح البارى لابن حجر ، وعمدة القارى للبدر العينى ، وإرشاد السارى للقسطلانى . وهى من مفاخر مصر فى عصر المماليك .

وفى النحو : مغنى اللبيب لابن هشام . والأشباه والنظائر للسيوطى .

وفى التفسير : الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، للسيوطى ؛ فى ثلاث مجلدات ضخمة ، مخطوطة بدار الكتب . — والبحر المحيط لأبى حيان .

وفى اللغة : لسان العرب لابن منظور الإفريقى فى عشرين مجلدا . ويعتبر أوسع معاجم العربية .

وفى الأدب : المستطرف للأبشيهى ، وخزانة الأدب لابن حجة الحموى ، وحياة الحيوان للدميرى .

نماذج من المؤلفات :

وبعد ذلك ، نسجل لك ثبتا موجزاً بألوان من المؤلفات ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ تدلك على مبلغ جهد علماء مصر ، فى هذه الحقبة ، ومثابرتهم على إحياء العلوم .

فمن كتب تراجم الأعلام :

الطالع السعيد للأدفوى . وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى . والإصابة فى تمييز الصحابة ، ورفع الإصر عن قضاة مصر كلاهما لابن حجر العسقلانى . وطبقات الشافعية للتاج السبكى . وطبقات الحفاظ للذهبى ، وطبقات المفسرين للسيوطى .

ومن كتب السيرة النبوية :

عيون الأثر لابن سيد الناس . ومختصر السيرة للبرهان البقاعى . والزهر الباسم لأبى عبد الله مغلطاى . ومختصر السيرة لعز الدين بن جماعة . والخصائص النبوية للجلال السيوطى .

ومن كتب تاريخ مصر والقاهرة :

السلوك للمقريزى . ونزهة الأنام لابن دقماق . والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن . وحسن المحاضرة للسيوطى وبدائع الزهور لابن إياس المصرى .

ومن كتب تاريخ المدن والأمصار الأخرى :

زبدة حلب فى تاريخ حلب لكمال الدين بن العديم . وتاريخ الإسكندرية لوجيه الدين بن العماد . ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، ومختصر تاريخ بغداد للسمعانى ، وضع المختصرين ابن منظور الإفريقى .

ومن كتب التاريخ العام :

وجيز الكلام للسخاوى . والبحر الزاخر لأبى المحاسن . وزبدة الفكرة لبيبرس المنصورى . والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء . والدول الإسلامية لشمس الدين الذهبى . والبداية والنهاية لابن كثير . والعبر لابن خلدون .

ومن كتب السير ، وهو التى يؤرخ كل منها أحد الأعلام :

تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ـ قلاوون ـ لمحيى الدين ابن عبد الظاهر . والألطاف الخفية ـ فى سيرة الأشرف خليل بن قلاوون ، لمحيى الدين بن عبد الظاهر أيضا . وعجائب المقدور فى أخبار تيمور لشهاب الدين ابن عربشاه . والتأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر ـ جقمق ـ لابن عربشاه أيضا : وتاريخ الناصر قلاوون ـ وبنيه لشمس الدين الشجاعى . والدرة المضية فى تاريخ الظاهر برقوق لمحمد بن صرصراء . والسيف المهند فى سيرة الملك

المؤيد ـ شيخ ـ للبـــدر العيني . والقول المستظرف في تاريخ الملك الأشرف ـ قايتباي ـ لأبي البقاء بن الجيعان .

ومن كتب الخطط والآثار :

الروضة البهية في خطط القاهرة المعزية ، لمحي الدين بن عبد الظاهر . والانتصار بواسطة عقد الأمصار لصارم الدين بن دقماق . والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقي الدين المقريزي :

ومن كتب التقويم :

تقويم البلدان لأبي الفداء . وفريدة العجائب لسراج الدين بن الوردي . ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري . ونهاية الأرب للنويري . ومباهج الفكر لجمال الدين بن إبراهيم الوطواط .

ومن كتب فقه الشافعية وأصوله :

الروضة للنووي . والفتاوى الموصلية لابن عبد السلام . والكفاية لابن الرفعة . والابتهاج في شرح المنهاج ، للتقي السبكي . والمجموع في شرح المهذب ، للنووي . وتكملة المجموع ، للتقي السبكي . والوافي في شرح التنبيه ، للجلال السيوطي .

ومن كتب فقه الحنفية وأصوله :

شرح الهداية للبرهان الواسطي . وشرح الجامع الكبير لفخر الدين المارديني المعروف بابن التركاني . وشرح متن الكنز لفخر الدين الزيلعي . والبناية في شرح الهداية للبدر العيني . وفتح القدير للكمال بن الهمام .

ومن كتب فقه المالكية وأصوله :

الذخيرة للشهاب القرافي . وشرح مختصر ابن الحاجب للزواوي . وشرح المدونة له أيضاً . وشرح مختصر ابن الحاجب لخليل بن إسحق الجندي . وشرح

مختصر ابن إسحق الجندى ، لبهرام . والشامل لبهرام أيضاً . وشرح أصول ابن الحاجب لبهرام أيضاً .

ومن كتب فقه الحنابلة وأصوله :

الفتاوى المصرية لتقى الدين بن تيمية ، وتحقيق الفرقان بين الطلاق والإيمان . ورسالة فى حكم السماع والرقص ، وزيارة القبور والاستنجاد بالمقبور . كلها لابن تيمية أيضاً . وكبار الكبائر لابن القيم . وزاد المعاد فى حج خير العباد - فى الفقه والتصوف ، لابن القيم أيضاً . والفروع لشمس الدين بن مفلح . وشرح المقنع لقدامة ، وضعه شمس الدين بن مفلح فى نحو ثلاثين مجلداً .

ومن كتب تفسير القرآن الكريم وما يتصل به :

الدر النظيم لتقى الدين السبكى . والدر المنثور للجلال السيوطى . وله أيضاً : ترجمان القرآن ، والإتقان وتفسير الجلالين والأخير للسيوطى وللجلال المحلى . وتفسير القرآن لعلم الدين البلقينى . وتفسير سورة الإخلاص للتقى بن تيمية . وتفسير المعوذتين وتفسير قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين» . وهما لابن تيمية أيضاً . وأمثال القرآن لابن القيم . والبحر المحيط لأبى حيان النحوى .

ومن كتب الحديث وما يتصل به :

الاقتراح لابن دقيق العيد . وكشف المغطى فى شرح الموطا ، للسيوطى . وشرح البخارى للسراج البلقينى . وشرح الترمذى لابن سيد الناس . وشرح مسلم لعيسى الزواوى . ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، وضعه فخر الدين الماردينى . وشرح حديث النزول ، لابن تيمية وجلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الانام ، لابن القيم . والأربعون حديثاً النووية . وفتح البارى لابن حجر ، وعمدة القارى للبدر العينى ، وإرشاد السارى للقسطلانى ، والثلاثة فى شرح البخارى . - كما أشرنا -

ومن كتب التصوف والعقائد :

الحكم لابن عطاء الله . وشرح عمدة النسفى ، لابن دقيق العيد . والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، للتقى بن تيمية . ومدارج السالكين لابن القيم . واجتماع الجيوش الإسلامية لغزو المرجئة والجهمية ، لابن القيم أيضاً .

ومن كتب القراءات :

شرح الشاطبية لابن عبد الدايم . والمقدمة الجزرية وهى منظومة لشمس الدين إبى الخير الجزرى الدمشقى . والنشر فى القراءات العشر له أيضاً . وكتاب القراءات لمعين الدين النكراوى الإسكندرانى . والمقصد لزكريا الأنصارى .

هذا . أما كتب العربية فسنشير إليها .

الأسئلة والأجوبة والفتاوى والمناظرات :

وهذه بعض نتائج النشاط العلمى ، وظاهرة من ظاهراته . ونعنى بالأسئلة الاستفتاءات العلمية التى توجه إلى رجال الدين فى مشكلة ما ، من مشاكل الفقه أو العقيدة أو غيرهما ، مع طلب الإجابة أو الفتوى .

والمناظرات حوار وخطابة متبادلة ، فى أحد الموضوعات أو المشاكل العلمية.

وانتشار هذه الظاهرة فى عصر المماليك ، حجة بالغة على يقظة الوعى الدينى ، ودليل على أن النشاط العلمى قد وجد صداه عند جمهور الناس ، فضلا عن المثقفين .

ويبدو أن الجمهور وجد فيها غنية عن التطلع إلى الفلسفة ومعارف الفلسفة . ولعل فى جملة أسباب نشاطها ، كثرة المعاصرين من الفرق غير السنية ، كالخوارج والرافضة والجهمية والمعطلة والقدرية والجبرية ومبتدعة الحنابلة .

وقد ركز علماء المذاهب الأربعة اهتمامهم فى محاربة هؤلاء المتطرفين والشواذ وتزييف آرائهم ، خوفا على العامة من الفتنة .

والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، كان فى مقدمة العلماء المناضلين . وقد تعرض له مبتدعة الحنابلة ـ قبيل العصر المملوكى ـ وأغروا به الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبى ، حاكم دمشق إذ ذاك . وكان الأشرف يجل الشيخ ولكنه التأم شمله ببعض هؤلاء المبتدعة الذين يقولون بالحرف والصوت ، ويقعون فى التجسيم ، وزينوا له مذهبهم ، وأفهموه أنه مذهب السلف الصالح .

وذكروا له أن الشيخ عز الدين أشعرى. يخطىء من يقول بالحرف والصوت ويقول إن الخبز لا يشبع . والماء لايروى والنار لا تحرق ... وأنه بذلك يخالف مذهب السلف .

وكتبوا استفتاء فى هذه المسائل إلى الشيخ . فكتب فتواه واضحة وقرر فيها مذهبه وهو مذهب السلف الصحيح . وبين أنه مذهب أهل السنة والجماعة . وحمل على المبتدعة حملة شعواء .

وهنا صدق الملك الأشرف ، ما قيل فى حق الشيخ ، فحرمه الفتوى ، وحرم عليه الاجتماع بالناس ، وألزمه بيته . ثم ما زال حتى اتضحت له حقائق الأمور ، فأصلح ما بينه وبين الشيخ .

وللشيخ عز الدين كتابه المسمى « مسائل الطريقة فى علم الحقيقة » ويعرف « بالستين » . لأنه يحتوى على ستين سؤالا وأجوبتها، وهى فى العقائد والتصوف والأخلاق[١] .

والشيخ تقى الدين بن تيمية الحرانى كان من أبرز علماء مصر فى هذا الميدان ، ومن أجرئهم فى إبداء رأيه . ولقد خلق بذلك جوا علمياً حياً ، فيه المحاجة والمناظرة والمساءلة وتأليف الرسائل ، وفيه أيضا المحاكمات والسجن ...

---

(١) راجع ترجمة عز الدين بن عبد السلام فى طبقات الشافعية للتاج السبكى ج ٥ — وراجع رسالته « مسائل الطريقة » .

واشتهر بآرائه الجريئة على عرف زمانه، فى الطلاق وزيارة القبور وفى الوسيلة وغير ذلك. وتكلم فى العقائد على طريقة السلف . فاعتقد الاستواء والنزول والعين واليد. إلى غير ذلك، دون تمثيل أو تشبيه أو تكييف . وهو لايؤول فى القرآن ولايقول فيه بالمجاز : وحمل على المتصوفة المنتمين إلى ابن عربى وابن سبعين ونحوهما ممن يقولون بوحدة الوجود والاتحاد ، وحارب شواذ الطوائف الإسلامية . وألف فى ذلك مؤلفات كثيرة من بينها كتابه « الإيمان » ورسالته « العقيدة الحموية الكبرى » .

وقد تعرض ابن تيمية بسبب آرائه وحملاته ، إلى مناهضة الصوفية له ، ومكايدتهم واتهموه بالقول وبالتجسيم وقاومه علماء السنة وقامت معارك بينه وبينهم ومناظرات ، طورا بالمناقشات والمجادلات الشفوية ، وطورا ، بوضع الرسائل . وأرسلت إليه الأسئلة والاستفتاءات فى شتى مسائل الدين والعقيدة . وقد رد عليها وأفتى ، فى دروسه ومناظراته ورسائله .

واستطاع الصوفية وغيرهم إيغار قلب السلطان عليه ، فحوكم أكثر من مرة وسجن[1] .

وشمس الدين بن القيم ، كان تلميذا لابن تيمية ونمطا منه . لقد اقتدى به فى حرية الرأى والتمسك بعقيدة السلف الصالح . واتجه إلى التصوف السليم ، وأخذ يرد الشبه ويدفع الباطل ، ويرد على السائل ويحاور المناظر . وفاضت كتبه بالحديث عن العقائد ، وتصحيح فاسدها . وابتدع فى كتابه « شفاء العليل » مناظرتين طريفتين إحداهما بين رجل من السنية ورجل من الجبرية . والثانية بين رجل من السنية ورجل من القدرية . وأدار الحوار بينهما فى لباقة وأدلة ومنطق . وتناول فيهما موضوع « عمل العبد » ، وما يتصل به من التوحيد والعقاب

---

(١) راجع ترجمة ابن تيمية فى المجلد الرابع من موسوعتنا هذه .

وغير ذلك (١) .

والعلماء الذين اشتهروا بالمناظرات المذهبية ورد الشبه ، وإجابة السائلين ، كثيرون .

ومنهم علاء الدين الباجي المتوفى عام ٧١٠هـ . وقد قيل : قال الشيخ الأصفونى كنا عند ابن دقيق العيد ، فقال « يافقهاء حضر شخص يهودى يطلب المناظرة » . قال : فسكتنا . فبادر الباجي فقال : « أحضروه فنحن بحمد الله ندفع الشبهة » .

وحكى الباجي عن نفسه قال : إن ابن تيمية ، لما دخل القاهرة ، حضرت فى المجلس الذى عقدوه له . فلما رآنى قال : « هذا شيخ البلاد » . فقلت : « لاتطرنى ماهنا إلا الحق » . وحاققته فى أربعة عشر موضعا . فغـــير ما كان كتب به خطه (٢).

ومن العلماء المناظرين أيضاً :

برهان الدين الزرعى(٣) . وقاسم بن قطلوبغا(٤) . وزين الدين بن المرحل(٥). وبهاء الدين السبكى محمد بن عبد البر(٦) . ونجم الدين بن الرفعة (٧) وابن قاضى شهبة . وبرهان الدين بن ظهيرة ، تناظرا بين يدى قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر العسقلانى(٨). وعلاء الدين بن مغلى ونظام الدين السيرامى ، كانا يتناظران

---

(١) راجع ترجمة ابن القيم فى المجلد الرابع من هذه الموسوعة .

(٢) راجع الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٣٣٢ ـ وطبقات الشافعية للتاج السبكى ج ٦ ص ٢٢٧ . فى ترجمة العلاء الباجي .

(٣) شذرات الذهب ج ٦ .

(٤) الضوء اللامع ج ٦ رقم ٦٣٥ .

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٦ .

(٦) الدرر الكامنة ج٣رقم ١٣١٦ .

(٧) الدرر ج ١ رقم ٧٣٠ .

(٨) الضوء اللامع ج ٧ ص ١٥٥ .

بين يدى الملك المؤيد شيخ [١] والبساطى والعلاء البخارى تناظرا فى فتنة ابن الفارض ، وحكم بينهما الكمال بن الهمام [٢] إلى غير ذلك .

فتنة ابن الفارض :

وقعت فتنة بين العلماء ، بسبب ابن الفارض ، عام ٨٧٥هـ فى عهد الملك الأشرف قايتباى . وقد أثارها اختلاف الناس فى فهم أبيات من قصيدته التائية .

ومنهم من أخذ بظاهر لفظه ، فنسبه إلى الحلول والقول بالاتحاد ، وحكم بفسقه وكفره . وعلى رأس هذا الفريق الشيخ برهان الدين البقاعى ، ومحب الدين بن الشحنة قاضى قضاة الحنفية ، وولده القاضى عبد البر ، والشيخ نور الدين المحلى ، وقاضى القضاة عز الدين المحلى ، وتبعهم جماعة كبيرة من العلماء . .

ومنهم من أول كلامه ، ولم ينسبه إلى فسق أو كفر ، أو حلول أو اتحاد . وعلى رأس هذا الفريق العلامة محيي الدين الكافيجى ، والشيخ قاسم بن قطلوبغا ، وبدر الدين بن الغرس ، ونجم الدين بن يحيى بن حجى ، وجلال الدين السيوطى ، وزكريا الأنصارى ، وتاج الدين بن شرف .

وتناظر الفريقان ، واحتدم بينهما الأمر ، وألفت الرسائل من كلا الطرفين وكتبت استفتاءات وفتاوى . ومقالات عدة . وامتدت الفتنة حتى اشترك فيها شعراء العصر .

ولما طال الخطب وخيفت الفتنة على العامة ، أرسل استفتاء ، بأمر السلطان إلى الشيخ زكريا الأنصارى ، فى الموضوع . فكتب فتواه متضمنة أن ألفاظ ابن الفارض لا تحمل على ظاهرها ، وإنما تؤول بحسب اصطلاحات الصوفية .

---

(١) الضوء ج ٦ ص ٣٥ .

(٢) الضوء جـ٨ ص ١٣٩ فى ترجمة الكمال بن الهمام .

وقد حسم بفتواه هذه الفتنة ، التى لبثت زمنا وهى مدار حديث ومناظرة وجدل وتأليف[1] .

الثقافة الأدبية

رأيت كيف كانت المعارف الدينية والثقافة العلمية الإسلامية ، غامرة عامرة . ولهذا لم تستطع الثقافة الأدبية أن تبرز فى المقدمة وفى الطليعة .

ولكن علينا أن نضع فى الاعتبار أن اللغة العربية - والعربية الفصيحة - كانت أساس الدراسة والتعليم فى المواد العلمية كافة . فهى المضروب المشترك فيها جميعا . فلا بد من مرور الطالب على الثقافة اللغوية فيما قبل ، ليستطيع بها أن يشق طريقه فى وسط هذا الخضم الواسع الفسيح ، الذى - على الرغم من تباين موضوعاته مع موضوعات االغة الأصلية - يحتاج من يشقه إلى رصيد من هذه الموضوعات يعينه فى اقتحامه .

ولا بد أن الطالب كان فى دور الصغر وفى مرحلته التعليمية الأولى ، ينال قسطا مناسبا من فهم اللغة ونحوها وصرفها ومطالعة نصوص أدبها . ولكن ، إن كان، فلا بد أنه قسط يسير .

وفى المرحلة الثانية - مرحلة الحفظ - نرى كثيرا من الطلاب يعكفون - فيما يعكفون عليه - على كتب اللغة ومتون فنونها ، فيحفظون منها قدرا كبيراً فى بعض الأحيان . تلحظ هذا فى تراجم المئات منهم التى سجلتها كتب الأعلام . ومن هذه الكتب - على سبيل المثال - الكافية لابن الحاجب فى علوم العربية . وتلخيص المفتاح فى البلاغة . وألفية ابن مالك ، وملحة الأعراب . ونظم

(١) راجع المجلد الثانى من موسوعتنا هذه . وفيه تفصيل لهذه الفتنة .

قواعد الإعراب لابن الهائم ، وفصيح ثعلب فى اللغة .

وهذا معناه أن الطالب الذى يستعد بحفظها ، لدراستها وفهمها والتعمق فيها والتخرج بها فى المرحلة الثالثة .

وفى المرحـــلة الثالثة نرى مواد العربية وآدابها ، مشاركة فى الدراسة مشاركة ما .

فمما أثر مثلا فى هذا الباب عن أهل اللغة أنفسهم، أن أمين الدين المحلى أحد أئمة النحو بالقاهرة ـ قيل عنه إنه تصدر لإقرائه وانتفع به الناس .

وأن حافى رأسه « محيي الدين الإسكندرانى » كان من أئمة العربية وتصدر لإقرائها زمانا . قال عنه أبو حيان : كان شيخ أهل الإسكندرية فى النحو وتخرج بها أهلها .

وأن الرضى الشاطبى كان إمام عصره فى اللغة ، وقيل عنه إنه تصدر لإقرائها اهرة ،وأخذ عنه الناس وروى عنه أبو حيان وغيره .

وأن أبا حيان أثير الدين ، كان نحوى عصره ولغويه ومقرئه . وكان قد تتلمذ بمصر على البهاء بن النحاس وأخذ عنه . وما زال حتى تقدم فى حياة شيوخه واشتهر اسمه وألف الكتب المشهورة ، وأخذ عنه أكابر عصره . ولما مات رثاه الصلاح الصفدى فكان مما قاله فيه :

شارك من ساواه فى فنه ... وكم له فن به استأثرا
دأب بنى الآداب أن يغسلوا ... بدمعهم فيه بقايا الكرى
والنحو قد سار الردى نحوه ... والصرف للتصريف قد غيرا
واللغة الفصحى غدت بعده ... يلغى الذى فى ضبطها قررا . . . الخ

وأن جمال الدين بن هشام المصرى، أتقن العربية حتى فاق الأقران بل الشيوخ وتخرج به خلق كثيرون ، وانفرد بالفوائد الغريبة والمباحث الدقيقة .

وأن بهاء الدين بن عقيل أخذ القراءات عن التقى الصائغ ، ودرس اللغة وعلومها على العلاء القونوى والجلال القزوينى وأبى حيان . وله شرح التسهيل، وشرح الألفية .

وبدر الدين بن الدمامينى الإسكندرانى ، عانى الآداب ففاق فى النحو والنظم والنثر، وشارك فى الفقه وغيره . وتصدر بالجامع الأزهر لإقراء النحو، وصنف حاشيته على مغنى اللبيب وشرح التسهيل . ومات عام ٨٢٧ هـ بالهند(١) .

وأن جلال الدين السيوطى روى عن نفسه فى ترجمته ،أنه أخذ الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ وقال : « ولزمت فى الحديث والعربية شيخنا الإمام العلامة تقى الدين الشبلى الحنفى ، فواظبته أربع سنين ، وكتب لى تقريظا على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع فى العربية تأليفى(٢) » .

على أنه فى الاستطاعة أن نعود إلى تلمس ثقافات القضاة وعلماء المذا أنفسهم وحفاظ الحديث ، بل كل صنف من هؤلاء الفضلاء ، فسترى أن الأدبية أو قل التثقف بعلوم اللغة وفنونها ، أساس من أسس ثقافتهم بنال ولا تنس أن من بين هؤلاء الفضلاء الكاتب المنشىء البارع ، والشاعر المبدع الرقيق . فمن أين لهم هذا ؟ لابد أنهم تمرسوا من قبل ، بعلوم اللغة وأدبها .

وهذا شهاب الدين بن حجر العسقلانى فقيه الشافعية وحافظ الحديث وشارح البخارى ، مال إلى التأليف فى التاريخ وهذا نزوع أدبى بلا ريب . وقد روى أنه فى مبكر دراسته مال إلى الأدب واشتغل بطلبه ، ونظم الشعر . ثم مال إلى طلب الحديث والفقه. ولما نضج لم ينس الأدب ولا هجر الشعر . وله ديوان مخطوط فى دار الكتب .

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ فى ذكر من كان بمصر من أئمة النحو واللغة .
(٢) حسن المحاضرة ج ١ ترجمة مؤلف الكتاب .

وتقى الدين بن رزين قاضى قضاة الشافعية ، قيل فى دراسته إنه حفظ كثيرا من كتب الفقه والأصول والنحو والكلام والقراءات ـ ووجيه الدين البهنسى ، كان فقيها عالما بالأصول والنحو ـ وتقى الدين بن دقيق العيد القشيرى ، درس الفقه والأصول والحديث والنحو ونبغ فيها وكان له باع طويل فى الشعر والكتابة والوعظ ـ وشمس الدين بن القيم ، درس علوما مختلفة ومن بينها علوم العربية والنحو ، حتى اشتهر بأنه نحوى ـ وتقى الدين السبكى قاضى قضاة الشافعية ورأسها فى زمانه ، درس علوما عدة ونبغ فيها ومنها النحو أخذه عن أبى حيان ـ وزكريا الأنصارى شيخ الإسلام لازم أبا حيان مدة وأخـــذ عنه علوم العربية . وشمس الدين بن عمار ، لازم محب الدين بن هشام فى دروس العربية والصرف .

وإذا ذهبت تبحث فى تاريخ أكثر المنشئين والشعراء ، تراهم أخذوا من العلوم المختلفة بنصيب وافر ، وشاركوا فى عدة فنون منها فنون العربية وآدابها . وأن منهم من لازم أحد شيوخ الأدب ليأخذ عنه ويتمرس بذوقه ومذهبه .

ونعتقد أن الأمر فى نشر الثقافة الأدبية ـ فضلا عما سبق بيانه ـ كان يرجع إلى حد ما إلى وجود ديوان الإنشاء فى هذه الدولة ، واهتمام السلاطين به واعتمادهم عليه فى علبا رسائلهم . وكانوا يتريثون فى اختيار كتابه ومنشئيه وبخاصة صاحب الديوان ـ أى رئيسه ـ أو كاتب السر ، كما لقب فيما بعد . فقد بلغ مركز كاتب السر فى بعض العهود أن كان أقرب رجال الدولة إلى سلطانها وأعرفهم بأمورها وأكثرهم توجيها لها . ولذلك وجب التريث .

وكانت مراسلات الدولة الواردة والصادرة ، من خارجها إليها وبالعكس ، ترد إلى الديوان أو تصدر عنه . وكاتب السر هو الذى يعرض الوارد على السلطان ويقرؤه له ، ويتشاور وإياه فيه ، ويتلقى أمره وإرشاده بالرد عليها ، ثم يكتب الرد ، أو يكلف أحد المنشئين فى الديوان بكتابته .

هذا فضلا عن جميع أوامر التعيين، وبخاصة عليها. وكذلك ألوان المكاتبات الأخرى، كانت تصدر عن الديوان وبقلم كاتب السر أو كبير من منشئي الديوان. ومنها العهود والبيعات والتقاليد والبشارات والمناشير والمراسيم والتواقيع وما إلى ذلك.

وكانت وظائف الديوان — وبخاصة وظيفة كاتب السر — أمل الكاتب والأديب، لما تدره من مال، وترفع إليه من منزلة، وتهيئه من جاه. وكان السلاطين — كما نوهنا — يتريثون فى اختيار كاتب السر وينتقونه من ذوى الفضل وأرباب العلم والفقه، ومن أهل القلم الممتازين، فضلا عما يكون قد اشتهر به من دهاء وسعة حيلة وذكاء وكياسة.

وبهذا يندفع الناشىء الآمل المتطلع إلى المنصب والمال والجاه، إلى إجادة هذا الفن، وهو فن الأدب والكتابة، ودراسة آدابها وأحكامها ورسومها، ليذكى مقدرته ويصل إلى امتلاك زمامها. ولعل حظه فيما بعد يدفع به إلى إحدى وظائفها فى الديوان، وقد يقفز به إلى كتابة السر.

ولا شك أن إجادة فن الأدب والتمرس بالإنشاء، يحتاج إلى فسحة من الوقت وسعة من الصبر والتجربة فى دراسة فنون اللغة بشتى ألوانها وفروعها، ودراسة أدبها والاطلاع على مناهج القدماء والمعاصرين فى النثر والشعر، ليكون الكاتب خبيراً بها وعلى ذكر منها، لأنها ولا ريب تزيده فراهة وحذقا.

وقد أفاض شهاب الدين القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى» فى ذكر صفات الكاتب وما ينبغى له من ألوان الثقافة والمعرفة. وقد عد الكتابة أشرف الصناعات. وكذلك فعل النويرى فى نهاية الأرب.

وفى رأينا أن القلقشندى — أو النويرى — وهو يكتب كتابه هذا، ويذهب فيه هذا المذهب، يعبر فى جملته عن ذوق عصره واتجاهه وتقديره لفن الإنشاء، إذ كان معتمد الدولة ومناط تحركها ومحل نظامها وموضع أسرارها.

ولا ريب أن مناصبه أصبحت بذلك أمل الآمل كما نوهنا . فلا غرابة أن أكب على أدواته ووسائله ليجمعها لنفسه ، ويتسلح بها توسلا إلى الوصول إلى هذه المناصب . وما أدواته ووسائله إلا فنون اللغة وآدابها ، أو هى على الأقل أولى هذه الأدوات والوسائل .

ولماذا نحار فى إثبات وجود هذه الدراسات أو الثقافات الأدبية ، والأدباء أنفسهم ـ سواء أكتابا كانوا أم شعراء ، كفونا مئونة الحيرة ومشقة الإثبات، بما خلفوه لنا من جليل المؤلفات فى علوم العربية وآدابها . أيقتدرون عليها ويؤلفون فيها وينسقون فى أبوابها ويحلون من مشاكلها ويبتدعون الجديد فيها ، دون سابق دراسة وبحث وتمحيص ، ودون سابق تلمذة وتلق عن الشيوخ ؟ هذا محال .

وقد سبق لنا أن نوهنا ببعض هذه المؤلفات . ولا بأس من أن نعود إليها بشىء من التفصيل فنقول :

كتب النحو والصرف :

لعل النحو والصرف فى مقدمة فنون العربية ، التى حظيت من العناية بنصيب أوفر . فقد وضعت فيهما أسفار قيمة ، وعرف بهما رجال أفذاذ .

ونحن لا ننكر أن نحويى هـذا العصر ـ فى جملتهم لا فى تفصيلهم ـ لم يأتوا بجديد ممتع ولا بمبتكر رائع . وقصارى جهودهم بذلت فى توضيح مسائل النحو وتوجيه قواعده والاستدلال لها . مع عرض الآراء المتناقضة أحيانا ، والموازنة بينهما أحيانا أخرى وترجيح أحدها .

ونحا بعضهم إلى وضع المتون ثم إلى شرحها ، ثم إلى شرح هـذا الشرح أو اختصاره . وذلك على نمط مما كان يفعل علماء الدين بكتب الفقه . وزادت التحشية على المؤلفات ، والاستدراك عليها ، حتى نتج من ذلك كله نتاج وفير فى هاتين المادتين : النحو والصرف .

غير أننا لا نرى مناصا من التنويه بأن بعضهم كانت له فى بحوثه شخصية وقوة ونضج ، يشعرنا بأنه كان حسن التذوق لمادته ، عميق الفهم كامل الإلمام ، دقيق الملاحظة والموازنة ، جديد التوجيه والتعليل ، وأفضل الأمثلة لذلك : جمال الدين بن هشام المصرى . ذلك العلامة الذى قال فيه ابن خلدون : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من من سيبويه » .

ونشير فى هـــذا المقام إلى جالية علماء الأندلس بالمشرق ، وعلى رأسها جمال الدين بن مالك الأندلسى الذى وفد إلى بلاد الشام فى عهد الملك الظاهر بيبرس ، وتتلمذ له كثير من الناشئة . وانتشرت فى الشام ومصر وغيرهما كتبه ومنظوماته ، كالألفية والتسهيل ، فأصبحا محورا أساسيا من محاور البحث والتعليق والتأليف .

وكذلك أبو حيان أثير الدين الأندلسى . فقد وفد على مصر وتتلمذ لبعض رجالها ، وتتلمذ له من بعد عدد ناشئتها ، أفادوا منه ، وكانوا من بعده أعلاما فى التدريس والتأليف .

وإليك بعض المؤلفات والرسائل فى هذين الفنين :

ألفية بن مالك وهى منظومته المشهورة . وله أيضا التسهيل . والكافية الشافية ، وهى أرجوزة فى أكثر من ٢٧٥٠ بيتا لخص منها ألفيته . وسبك المنظوم وفض المختوم ، ولامية الأفعال . وإيجاز التعريف . وشواهد التوضيح .

ولجمال الدين بن هشام المصرى : مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب . وشذور الذهب . وقطر الندى وبل الصدى . والجامع الصغير . والروضة الأدبية . وموقد الأذهان والإعراب عن قواعد الإعراب .

وللجلال السيوطى : البهجة المضية فى شرح الألفية والأشباه والنظائر فى النحو . والفريدة فى النحو والصرف والخط . والنكت على الألفية . والفتح القريب

وهو شرح على مغنى ابن هشام . والاقتراح فى أصول النحو . وجمع الجوامع وهو مختصر فى النحو . شرحه مؤلفه بكتاب آخر هو همع الهوامع . وشرح شواهد المغنى . وشرح الكافية فى التصريف . وله غير ذلك .

ولأبى حيان الأندلسى : شرح التسهيل . والارتشاف . وتجريد الأحكام لسيبويه — وكلها فى النحو . وعقد اللآلىء فى القراءات . وله فى التفسير : البحر المحيط وقد مزج مباحثه بمباحث النحو .

ومن شروح ألفية ابن مالك : شرح لشمس الدين بن الصائغ محمد بن عبدالرحمن . وشرح لابن عقيل . وشرح لبدر الدين المرادى . وشرح لأكمل الدين البابرتى . وشرح لناظر الجيش محب الدين بن عبد الدائم محمد بن يوسف . وشرح لجمال الدين عبد الرحيم الإسنوى .

ومن شروح تسهيل ابن مالك : شرح لم يتم لجلال الدين المحلى . وشرح للبدر الدمامينى . وشرح لبدر الدين المرادى . وشرح لشهاب الدين السمين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم نزيل القاهرة . وشرح لبهاء الدين بن عقيل . وشرح لمحب الدين بن عبد الدايم .

ومن الكتب الأخرى : شرح قواعد ابن هشام ، لجلال الدين المحلى . وحاشية على مغنى اللبيب لبدر الدين بن الدمامينى . والكناش للملك إسماعيل أبى الفداء . ومفتاح الإعراب لأمين الدين المحلى . والألغاز النحوية لخالد الأزهرى . وقصيدة فى المقصور والممدود لشمس الدين الهوارى الشاعر . وبلوغ الأرب بشرح شذور الذهب لزين الدين زكريا الأنصارى . والمناهج الكافية فى شرح الشافعية . له أيضاً .

ومن كتب العروض والقوافى : كتاب العروض لابن مالك الأندلسى . وكتاب القوافى لبدر الدين الدمامينى وجواهر البحور وهو فى العروض ،

للدماميني أيضاً . وشفاء العليل فى علم الخليل لأمين الدين المحلى . والعنوان فى معرفة الأوزان له أيضا . وجلوة الأمداح الجمالية ، في حلتي العروض العربية ، وهى قصيدة فى العروض لشهاب الدين بن عربشاه .

ومن كتب متن اللغة وما يتصل به : لسان العرب لابن منظور . والمصباح المنير لأحمد بن على المقرى الفيومى . والمسترجل فى الكنى لشمس الدين الذهبي . والمقتنى فى الكنى له أيضاً . والمزهر للجلال السيوطي . ومختصر أساس بلاغة الزمخشرى ، لشهاب الدين بن حجر العسقلانى .[1]

وبقيت ـ لاستكمال عناصر الثقافات الأدبية ـ سطور نحدثك فيها عن كتب البلاغة والنقد ، وعن المجاميع الأدبية نثرها وشعرها .

وينبغى قبل أن نعرضها عليك ،أن نحدثك عن عاملين مهمين كان لهما أثر بارز فى توجيه الثقافة الأدبية ، وبخاصة فى فن الأسلوب ، وهما الدراسات القرآنية ، ومنهج القاضى الفاضل .

الدراسات القرآنية .

أعتقد أن عناية الأدباء والنقاد حينذاك بدراسة أساليب القرآن الكريم وطريقة نظمه ، كانت ذات أثر فى إقبالهم على اصطناع البديع ، فكان عماد الفن الأسلوب عندهم . وذلك بدافع الإعجاب بنظم القرآن هذا النظم الفريد .

وقد كان القرآن وأساليبه موضعاً لدراسات كثيرة متنوعة ، منذ فجر الإسلام حتى يومنا هذا ، ومنها دراسة نظمه وطرق أدائه . غير أن هذا الضرب من الدراسة لم يخلص مرة لفن نقد الأسلوب وحده ، بل ظل ممتزجاً بالهدف الأصيل

---

(١) مرجع معرفة هذه المؤلفات : كتب تراجم الأعلام ، وفهرس دار الكتب ، وجورجى زيدان . — راجع أيضاً حسن المحاضرة وطبقات الشافعية للسبكى ، وكتب الطبقات الأخرى ومنها بغية الوعاة .

فى بيان الإعجاز أو شرح الآيات وبيان الأحكام مثلا . أما النقدات الفنية الخالصة فكانت تعرض بين الآن والآن . غير أنها أخذت تنشط ويزيد خطرها ، وتنظر إلى نظم القرآن باعتباره أمثل نموذج للأساليب الفنية ، هذه النظرة التى صاحبتها منذ بدء أمرها .

واتضحت هذه النظرة فى كتب النقاد ، التى من متأخرها كتاب « المثل السائر » لابن الأثير — المتوفى قبل العصر المملوكى بسنوات معدودة — حيث يقول مثلا ، وهو يتحدث عن علم البيان : « وكنت قد عثرت على ضروب كثيرة منه فى غضون القرآن الكريم لم أجد أحداً ممن تقدمنى تعرض لذكر شىء منها . وهى إذا عدت كانت فى هذا العلم بمقدار شطره »(١) .

وقد تأثر بآراء ابن الأثير — ولا ريب — أدباء العصر المملوكى ونقاده .

وكلما تحدث النقاد عن أحد ألوان البديع ، استشهدوا له أولا بأمثلة من القرآن الكريم . واتضحت هذه الظاهرة فى كتب البلاغيين قبل هذا العصر . إلا أنها لدى النقاد والبلاغيين فى العصر المذكور اتضحت بشكل مطرد تقريباً . حتى إن ابن حجة الحموى استدرك على ابن المعتز عند حديثه فى كتاب « البديع » عن المذهب الكلامى حيث قال « إنه لا يعلم ذلك فى القرآن . » — فقال ابن حجة : « وليس عدم علمه مانعاً علم غيره . ولم يستشهد على المذهب الكلامى بأعظم من شواهد هذا النوع . وأبلغها قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ٢) .

واعتبار النقاد والأدباء أن نظم القرآن الكريم يحتوى على كل الألوان البديعية ، وحرصهم على الاستشهاد عليها بأمثلة من القرآن ، وعثورهم فعلا على هذه الأمثلة ، دفعهم إلى تحرى أساليبه والاقتداء بها فى أساليبهم . بدا ذلك فى أساليب الكتاب المنشئين ، وفى أساليب الشعراء كذلك . ولكن كان عند الأول أوضح وأوسع .

---

(١) المثل السائر ص ٢ — فى مقدمته .

(٢) خزانة الأدب لابن حجة باب المذهب الكلامى .

وقد تكلم القلقشندى فى كتاب «صبح الأعشى» عن السجع ـ مثلا ـ فعقد له فصلا طويلا . وقد استوفى فيه الحديث عنه وعن أنواعه ونظام فقراته وعددها . واستشهد لكل نوع بما قال بآيات من القرآن الكريم ، ناقلا أكثر ما قال عن ابن الأثير والشهاب الحلبي .

وسنعود إلى الحديث عن الدراسات القرآنية فى مناسبة قادمة .

منهج القاضى الفاضل :

هذا الجو الفنى الذى عاشوا فيه ، والذى نشأ من ذوق العصر واتجاهه إلى الحلية بدافع من انتشار الحلية والزينة والألوان والأصباغ فى شتى نواحى معيشتهم وحياتهم الاجتماعية ، ومن طريقة تذوقهم للنظم القرآنى ، فسح الطريق أمام منهج القاضى الفاضل فى أساليب الكتابة والشعر ، أن يكون المنهج الأمثل الذى يحتذونه ، إذ أنه يلتئم وهذا الجو .

وقد يكون هذا المنهج نفسه عاملا من عوامل تهيئة هذا الجو . فقد كان القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى من كتاب الدولة الفاطمية . ثم شهد انتقال ملك مصر إلى صلاح الدين الأيوبى ،وعاونه على أمور دولته . فكان له من علمه وأدبه وذكائه وسن منصبه ،ما عاون على فرض منهجه هذا فى زمانه وبعد زمانه ، وورث العصر المملوكى علم الأيوبيين وأدبهم ومناهجهم على وجه التقريب ، فكانت من أهم دعائم الثقافة فى زمانهم ، وكذلك الثقافة الأدبية . وهى وثيقة الصلة بأدب الفاضل ومنهجه . ولا عجب ، فقد اتخذه كتاب العصر المملوكى وشعراؤه نموذجاً وقدوة . وصار الأدباء والنقاد عندما يعرضون لذكر الفاضل يضفون عليه آيات الثناء والإطراء،ويعترفون له بالفضل والسبق والإمامة ، حتى إنهم كانوا يشبهون به ويضربون المثل بأدبه عند المناسبات فى الشعر والنثر .

وذكر ابن حجة الحموى ، القاضى الفاضل فقال : « كان نظم القاضى الفاضل ـ

رحمه الله ـ ونثره كفرسى رهان . ولكنه نثر أكثر مما نظم وأجمع الناس على أنه أتى مع الإكثار بالعجائب . وذكر قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان فى تاريخه : «أن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد . وهو يجيد أكثرها» . ولعمرى إن الإنشاء الذى صدر فى الأيام الأموية والأيام العباسية نسى وألغى بإنشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعانى المخترعة والأنواع البديعية . والذى يؤيد قولى قول العماد الكاتب فى الخريدة أنه فى صناعة الإنشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع »(١) .

ونعتقد أن لنبوغ القاضى الفاضل فى استعمال التورية ، أثراً فى إعجاب أدباء عصر المماليك به وفى مشيهم تحت رايته . وذلك لأن التورية ـ فى الحق ـ عنصر أصيل من عناصر التعبير المصرى ، ومظهر بارز من مظاهر الذوق المصرى .

هذا فضلا عن نبوغه فى اصطناع أنواع أخرى ذات صلة بهذا الذوق ، كالاستخدام والاقتباس والتضمين والتوجيه والتلميح مثلا .

وقد أشاد ابن حجة بذكر الفاضل عند كلامه فى «خزانة الأدب» عن التورية ، وعده أنه هو الذى عصر سلافتها .

وقد كان لافتتانهم بأدبه أثر فى إقبالهم على معارضته فى بعض ما كتب . والمعارضة الأدبية فى الشعر أو النثر ، دليل ضمنى على الإعجاب والتقدير ، وعلى الاقتداء(٢) .

وغلب منهج الفاضل كذلك ، على أذواق النقاد ، فصاروا وقصاراهم الاهتداء بهديه وترسم خطاه ، فى أكثر ما تناولوه من مسائل النقد .

---

(١) عن ثمرات الأوراق .

(٢) فى تذكرة الصفدى ج ١٣ رسالة للقاضى الفاضل ، وبها معارضة ابن عبد الظاهر لها . وفى خزانة الأدب ص ٤٣١ — وكذلك فى ثمرات الأوراق . رسالة للفاضل ، وأخرى لابن حجة الحموى يعارضه فيها .

والحق أنه قد شارك الفاضل فى صنع أذواق النقاد ، أدباء غيره ، عاشوا قبله ، وبعده . وبخاصة النقادمنهم والبلاغيون ، أمثال ابن المعتز وقدامة والجرجانى وابن سنان وابن أبى الأصبع ، وابن الأثير صاحب المثل السائر . ولكن على الرغم من هذا ، كان منهج الفاضل صاحب السلطان الأقوى .

واتضح ذلك فيما كتبه الشهاب الحلبى فى كتابه «حسن التوسل» ، والقلقشندى فى «صبح الأعشى» . وتقى الدين بن حجة فى «خزانة الأدب» ، من مسائل النقد والبلاغة والحديث عن الأسلوب .

ونحن نعتبر هذه الكتب وأمثالها ، عناصر هامة من عناصر الثقافة الأدبية حينذاك ، وهى أيضاً بعض نتائجها[1] .

وهناك مظاهر أخرى ، أو نتائج ، تدل فى جملتها على أن الثقافة الأدبية ، كانت على جانب من النشاط ، لا بأس به ، وأنها لم تكن تعانى من الضيق والسطحية ، كل ما رميت به .

ومن ذلك :

كتب البلاغيين :

ويبدو أن رغبتهم فى بعث القديم ونشره وإحيائه ، دفعتهم إلى أن يعيشوا فى فلكه ، ويدوروا فى مداره . فمضوا قدما فى شرح المختصرات ، واختصار الشروح .

وعلى رأسهم جلال الدين القزوينى ، الذى دار فى فلك السكاكى ـ وهو من رجال البلاغة فى العصر الأيوبى ، وواضع كتاب «مفتاح العلوم» فى البلاغة وغيرها ـ وقد لخص القزوينى القسم الخاص بالبلاغة فى «مفتاح العلوم» ،

---

(١) راجع باب النقد والنقاد ، فى المجلد السادس من هذه الموسوعة .

وسمى هذا التلخيص « تلخيص المفتاح » . ثم شرح تلخيصه هذا فى كتاب آخر، سماه « الإيضاح » .

وممن سار مسار القزوينى . أكمل الدين البابرتى ،وبهاء الدين السبكى ، وجلال الدين السيوطى ،وزكريا الأنصارى وغيرهم كثيرون . ولكل منهم شرح أو أكثر على كتاب « التلخيص » الذى وضعه القزوينى .

والموسوعات :

وقد أشرنا إليها من قبل . ومن بينها :

صبح الأعشى ، للقلقشندى : وأساسه الحديث عن صناعة الكتابة وما يتصل بها من آدابها وأطوارها فى الدول الإسلامية ، ونموها ودواوينها ورسومها ونماذجها وقد تحدث عن تاريخ هذه الدول وجغرافيتها ، وعن أنواع رسائلها ومكاتباتها داخل دواوينها وخارجها ، إلى غير ذلك .

ومسالك الأبصار ، لابن فضل العمرى : وأساسه الحديث عن تقويم البلدان ووصف أحوالها . وقد امتلأ باستطرادات أدبية طريفة ، وغيرها .

ونهاية الأرب للنويرى : وأساسه الحديث أيضا عن جغرافية العالم وتاريخ الأمم من لدن آدم ، وعن الإنسان وما يتعلق به وما له من خلق وفن وأدب ، وتحدث فيه عن الكتابة وماينبغى لها من أدوات . وذكر الحيوان وأنواع النبات، وما يتصل بذلك كله من عجائب وحوادث وقصص وشعر ونثر .

والمجموعات الأدبية :

وهى كتب جمعت فأوعت من ألوان الشعر والنثر ، ما بين قديمها ومعاصرها . وفيها الحكم والرسائل والمكاتبات والجد والمجون والعظات والنقدات ،والقصص وغير ذلك . ومنها على سبيل المثال :

التذكرة الصفدية . لصلاح الدين الصفدى . قيل إنها ثلاثون مجلداً . ويوجد

منها عـدة أجزاء مخطوطة بدار الـكتب المصرية . وتحتوى على فصول أدبية ومختارات من الشعر والنثر ، وأحاديث عن الصفات والأخلاق إلى غير ذلك .

وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى ، وقد طبع أكثر من مرة . وهو مجموعة من النـكت والروايات والرسائل النثرية ، من مختلف الألوان ، وبه قصص عن الأطباء والأجواد والبخلاء ، والعلماء والحمق .

والمستظرف للأبشيهى : ويشتمل على ثمـــانية وأربعين بابا فى مختلف الموضوعات ، ما بين شعر ونثر . ومنها باب فى العقل . وباب فى الذكاء . وباب فى الحمق . وباب فى القرآن وفضله . وباب فى الأمثال السائرة .

وحلبة الـكميت لشمس الدين النواجي : وموضوع الحديث عن الـكميت ـ الخمر ـ ويحتوى على خمسة وعشرين بابا وخاتمة ، ما بين شعر ونثر .

ومنها على هذا النسق :

نسيم الصبا لابن حبيب الحلبي . ومقامات السيوطى . ومقامات ابن الوردى. وسجع المطوق لابن نباتة . وتأهيل الغريب لابن حجة الحموى . وسكردان السلطان لابن أبى حجلة المغربى . والـكنز المدفون للجلال السيوطى . وشروح الرسائل الأدبية أو القصائد الشعرية السائرة . ومن ذلك « سرح العيون » فى شرح رسالة ابن زيدون الهزلية لابن نباتة المصرى . و « تمام المتون » للصلاح الصفدى فى شرح رسالة ابن زيدون الجدية . ومثل شرح قصيدة « بانت سعاد » لابن هشام المصرى . وشروح البديعيات . وألحان السواجع للصفدى . وجنان الجناس له أيضاً ، وكشف اللثام لابن حجة الحموى إلى غير ذلك .

هذا عدا دواوين الشعراء : كابن نباتة ، والقيراطى ، وابن حجر ، والشاب الظريف ، والبوصيرى ، والفخر بن مكانس ، وابن الوردى ، وابن سيد الناس اليعمرى ، وابن ابى حجلة المغربى . وغيرهم كثيرون .

وبعد : هذه كلها لمحات وجيزة وسريعة ، تلقى أضواء على الثقافة فى عصر المماليك فى ناحيتيها العلمية والأدبية . وكان لذلك رجعه البعيد المدى فى شعر الشعراء ، مما سنحدثك عنه فى حينه .

الفصل الرابع

فى

وصف البيئة الاجتماعية[1]

البيئة الاجتماعية تتراءى فيها مجموعة النظم والترتيبات والقواعد ، التى تسير الدولة على مقتضاها ، وعلى رسومها ، فى داخل البلاد ، ومجموعة العادات والتقاليد التى يسير عليها الشعب ، ويتبعها فى طـــرق معيشته ، والمستوى الحضارى الذى بلغه .

وهى بذلك وثيقة الصلة بالبيئة السياسية ، لعلاقتها بنظم الدولة وإدارتها — مثلا — ووثيقة الصلة بالبيئة الثقافية ، لما للثقافة من تأثير كبير فى توجيه العقلية والنفسية الشعبية ، اللتين عليهما مدار الحياة الاجتماعية ، وبروز ما فيها من العادات والتقاليد والحضارة والفن .

بل هى ذات ارتباط لا ينكر ، بالبيئة الطبيعية ، كذلك . فإن البيئة الطبيعية — مثلا — هى التى تهيىء للشعب لون معيشته ومستواها . وهى المستند الأصيل الذى يعتمد عليه فى اقتصادياته . والاقتصاد من أهم دعائم الحياة الاجتماعية .

فلا عجب ، حينئذ ، ونحن نتحدث عن البيئة الاجتماعية ، إذا تناولنا بعض عناصر السياسة أو الثقافة أو طبيعة البلاد ، لما لهذه العناصر من دخل وتأثير فى توجيه الحياة فى هذه البيئة .

ولا بأس أيضاً ، إذا نحن عاودنا الحديث فى بعض ما أوردناه فى البيئات الأخرى لمناسبة المقام .

---

(١) فصلنا الحديث عن موضوعات البيئة الاجتماعية فى المجلد الثانى من هذه الموسوعة . ولهذا أوجزنا الحديث هنا بما يناسب المقام .

الطبقة الحاكمة

ومن المناسب فى مطلع الحديث عن طبقتى الأمة ، أن نذكر ما رواه القلقشندى ، إذ قال ما ملخصه : « إن الدولة الأيوبية خالفت فى نظمها وترتيب الدولة كثيراً مما كان عليه الحال فى الدولة الفاطمية . وجرت على ترتيب دولة عماد الدين زنكى بالموصل ، ودولة ابنه نور الدين محمود بالشام . ثم جاءت الدولة التركية وقد تنقحت نظم الدولة وتهذبت . فنقلت أحسن مافيها وسلكت سبيله ، وتهذبت حتى فاقت سائر الممالك »(١)

وقد نوهنا بأن البلاد كان بها طبقتان متميزتان : حاكمة ومحكومة .

وتعتبر الطبقة الحاكمة من الجنس التركى ، فى الدولة التركية . ومن الجنس الجركسى فى الدولة الجركسية . وإن لم تخل واحدة منهما من وجود عناصر أخرى . وقد أشرنا إلى ذلك .

وكانت هذه الطبقة تتجدد — غالبا — عن طريق شراء المماليك جددا من الخارج . ثم يربى المملوك فى طباق القلعة — عادة — تربية عسكرية ، كما ذكرنا ، ثم يندمج فى عداد المماليك السلطانية ، وهم جنود الجيش . ثم قد يرفعه حظه إلى الترقى إلى الإمارة ، والصعود فى سلكها . ثم قد يدفعه حظه أيضاً إلى الوصول إلى السلطنة . . .

وتتألف هذه الطبقة ، من السلطان والأمراء والمماليك السلطانية . ويلحق بهم الخليفة وإليك وجازة عن كل قوة من هذه القوى الأربع . (٢)

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ تحت عنوان « من أحوال ما عليه ترتيب المملكة .. الخ » .

(٢) راجع الخطط المقريزية ج ٣ ص ٣٤٨ تحت عنوان « دار النيابة » وما بعدها . — وبدائع الزهور فى حوادث عام ٩٠٨ هـ ، ٩٢٢ هـ .

ا — السلطان :

متى تمت السلطنة لأحد الأمراء ، وصار سلطانا على البلاد ، أصبح بيده الأمر والنهى ، والحل والعقد . وصار مصدر السلطات وولى الأمر الشرعى . وهو الذى يعين ويعزل ويرقى ، ويفرق الإقطاع ، ويقرر الحرب ، ويفرض الضرائب ، وينفق المال على مرافق البلاد ، ويشترى المماليك للدولة ، وينفق عليهم ويربيهم ، ويعدهم للحراسة والقتال ، ويعتقهم ، إلى غير ذلك من المهام . فهو محور الدولة ، وعليه مدارها .

وقد يكون السلطان فى أصله ، مملوكا ترقى إلى الإمارة فالسلطنة عن طريق الغلبة والقوة ، كالملك الظاهر بيبرس . — وقد يكون وارثاً لأبيه المملوك ، أو أخيه ، كالملك السعيد بن بيبرس ، فقد ولى السلطنة بعد أبيه . وكالناصر محمد بن قلاوون ، فقد ولى السلطنة بعد أخيه .

ويشتور الأمراء المقدمون — أمراء المئين — عادة فيما بينهم ، حينما يخلو كرسى السلطنة ، ليختاروا أميراً من بينهم ، أو وارثاً ، لولايتها .

وقد تكررت نصوص المؤرخين ، فى مناسبات تعيين السلاطين ، فقالوا مثلا : « فوقع الاختيار على فلان . . . ليكون سلطانا . » وهى تشعر بوجود رأى وشورى قبل ولاية السلطنة . ويقع هذا سواء أكان السلطان قد وثب إلى السلطنة بطريق الغلبة والائتمار ، أم الوراثة . وفى الحالة الأولى تكون الشورى شكلية ، وتتم بين أتباع الأمير المختار (١) . وفى الحالة الثانية . تكون —

(١) عندما خلع الأمراء الملك السعيد بن بيبرس ، عرضوا السلطنة على قلاوون فامتنع ، فولوا سلامش بن بيبرس ، وكان صغير السن . وبعد قليل جمعهم الأمير قلاوون وحدثهم فى أمر سلامش وصغر سنه ، فاستقر رأيهم على خلعه ، وتولية قلاوون . — راجع سلوك المقريزى ج ١ ص ٦٥٦ ، ٦٥٨ .
واشتور الأمراء حين تولية الغورى ، واشتوروا بعد مقتله واختاروا الأشرف طومان باى . وهكذا — راجع بدائع الزهور فى ترجمة هذين الملكين .

غالباً — إقرارا لعهد السلطان الزائل ، إلى ابنه - مثلا - بالسلطنة .

وكثيراً ما كان السلطان القائم يعهد بالسلطنة من بعده لابنه — مثلا — وتكتب له بذلك صورة عهد . وقد يقره الأمراء بعد زواله ، أو لا يقرونه .

وولاية السلطان لسلطنته ، وتصرفاته وأحواله. تشكل جانباً كبيراً من عادات الدولة وتقاليدها . فمنها :

---

١ — حفلة توليته :

بعد استقرار الرأى على أن يتولى أمير معين ، أمر السلطنة ، تقام له حفلة تولية ومبايعة . يجتمع فيها الخليفة وقضاة الشرع الأربعة وسائر الأمراء . ويكتب تقليد للسلطان بالسلطنة، يتلى فى الحفل . وهو على لسان الخليفة العباسى، يوليه فيه شئون المسلمين . ويتقدم الخليفة نحو السلطان فيبايعه ويعهد إليه ، ثم يليه قضاة الشرع فالأمراء .

ويلبسونه بعد ذلك شعار السلطنة ، وهو عمامة سوداء لها عذبة مذهبة ، وجبة سوداء ، وسيف ثمين ذو حمائل .

ثم تقدم إليه فرس بسرج ذهبى مزدانة بثياب وحلى. ويسير فى موكب وسط هذا الجمع — وهم بملابسهم الرسمية ، « الشاش والقماش » — ويشقون به وسط القاهرة أحيانا ، أو يبدءون من أماكن قريبة من القلعة . ويقصدون بها القصر الكبير . حيث يجلسونه على سرير المملكة . وتنشر على رأسه ، وقت مسيره ، « القبة[1] والطير » ، وهما من شعارات المملكة ، ويحملهما أكبر الأمراء مقاماً .

ويقبل له الأمراء الأرض ، فيخلع خلعه عليهم ، ويرقى منهم من يشاء إلى

---

(١) القبة كالمظلة . والطير كان من الذهب . وقد غيرها الأشرف الغورى عام ٩٢٠ هـ ، واتخذ عوضا عنهما الجلالة والهلال الذهبى - راجع بدائع الزهور حوادث عام ٩٢٠ هـ .

المناصب الشاغرة . وينفض الحفل (١) .

ويختار له لقب كالأشرف ، وكنية كأبى النصر ، وينادى باسمه فى آفاق السلطنة .

حفلات الاستقبال :

ويقيمها السلطان بمناسبات عدة ، منها حفاوته بضيف كبير ، أوسفير خطير. وكانت تراعى فيها تقاليد وأوضاع مقررة .

ويرسل السلطان ـ عادة ـ إلى القادم من يلقاه فى طريقه قبل دخول القاهرة . ويهيء له منزلا مناسبا لإقامته ، ويعين له من يقوم بحراسته وخدمته ، ويعاونه بشيء من المال وغيره ، ويهدى إليه .

ويقام الاستقبال فى « الحوش » السلطانى بالقلعة . ويحضر السلطان بملابسه الرسمية ، وحوله الأمراء ورجال الدولة ، فيجلس على « الدكة (٢) السلطانية » . والبسط الثمينة من حولها مفروشة معدة .

فإذا قدم المحتفى به ـ وفى صحبته أحد رجال السلطان ـ قام له السلطان ـ عادة وسلم عليه ورحب به ، ودعاه إلى الجلوس ، وتبادلا الحديث .

ثم يخلع عليه خلعة نفيسة ، ثم ينصرف القادم بموكبه إلى مسكنه (٣) .

٣ — خروج السلطان من القاهرة وعودته إليها :

اعتاد الأمراء والرؤساء وأهل القاهرة ـ غالبا ـ أن يحتفوا بالسلطان عند

---

(١) راجع بدائع الزهور فى حفلة مبايعة بيبرس وبرقوق والغورى .

(٢) كانت « الدكة السلطانية » الموضع الرسمى لجلوس السلطان فى الاستقبالات ، وقد ألغاها الغورى وبنى عوضاً عنها « المصطبة السلطانية » . فلما سلطن الأشرف طومان باى ، أعاد « الدكة » وألغى « المصطبة » .

(٣) راجع استقبال الغورى للأمير العثمانى قرقد بيك ، فى بدائع الزهور ج ٤ حوادث عام ٩١٥ هـ.

خروجه منها فى موكبه ، أو عند عودته إليها ، وذلك بمناسبة حرب خارجية ، أو زيارة لإحدى نواحى البلاد أو الذهاب إلى الحج ، ونحو ذلك .

عندئذ تقام الزينات فى أماكن مروره ، فتنصب الأعلام وترفع الثريات الزيتية المختلفة الألوان ، وتعلق قطع المنسوجات الملونة ، إلى غير ذلك .

ويسير فى ركبه ، احتفالا به ، وتوديعاً له ـ أو استقبالا ـ عدد كبير من الرؤساء والأمراء وحولهم الجنود والحراس ، وتمتلىء الطرقات وشرفات المنازل بالمشاهدين .

وقد يكون الاحتفال به عند عودته أبلغ وأبهج . وكثيراً ما تهدى إليه الهدايا . وقد يمنح هو ويهب ويرقى ، بمناسبة هذه العودة .

واعتاد محتسب القاهرة أن ينادى فى سكانها بضرورة إقامة الزينات ، بهذه المناسبات [1] .

٤ — الفرح بشفائه من مرضه :

وقد يمرض السلطان ثم يشفى ، فيعلنون بفرحهم لشفائه . وقد مرض الأشرف الغورى عام ٩١٩ هـ بارتخاء جفونه حتى خيف عليه العمى ، وامتنع من النزول لمزاولة شئون الدولة . ثم شفى ، فأقيمت له زينة بالغة فى أرجاء القاهرة ، بعد أن نادى محتسبها بذلك . وكان مجتمع الزينة فى « بركة الرطلى » ، فامتلأت بالقناديل والثريات ، وعلقت على وجوه المنازل والمحال ، الأعلام وقطع المنسوجات ما بين صفراء وحمراء وغيرها . وانتشرت فرق الموسيقى فى نواحيها . وأخذت الزوارق فى البركة تنقل المرتاضين والمتفرجين من مكان إلى آخر . وترددت على شواطئها أصوات المغنين والمغنيات ، وظل الناس يسمرون طوال الليل ، ويترددون على مجالس الأنس والسماع ، ويتسلون بمشاهدة الألعاب النارية ـ « إحراقات النقط » ـ .

(١) راجع بدائع الزهور فى حوادث عام ٩١٨ هـ . وبينها أخبار زيارة الغورى للفيوم .

وامتدت الزينات إلى الفسطاط ، وبولاق وسوق الخانكاه وحارة زويلة وخان الخليلي وغيرها . وأقام الأمراء والرؤساء معالم الزينات على بيوتهم . واستمرت الزينة مقامة سبعة أيام متوالية(١).

---

٥ – جلوسه للقضاء :

وأراد سلاطين المماليك أن يتشبهوا بالسلف فى تفقد أحوال الرعية والنظر فى المظالم. فجلسوا فى مجلس القضاء للفصل فى الشكايات والخصومات. واصطحبوا معهم قضاة الشرع .

ولم تطرد هذه العادة . بل من السلاطين من جلس للقضاء فى أيام معينة . ومنهم من لم يواظب على هذه العادة الحميدة . ومنهم من هجرها جملة ، ومنهم من أناب عنه أحيانا نائب سلطنته .

وممن جلس للقضاء : الظاهر بيبرس ، والأشرف خليل بن قلاوون ، وأخوه الناصر محمد ـ ومن نواب السلطنة : عز الدين إيدمر الحلى، عن الظاهر بيبرس(٢) وسلار المنصورى عن الناصر محمد بن قلاوون(٣) .

وتقدم الشكاوى والمظالم على اختلاف أنواعها إلى السلطان حينذاك . فيستشير فيها قضاة الشرع ، ويحكم بما يراه ، وهو لا يخرج عن رأيهم .

ويقول ابن فضل الله العمرى ، واصفا مجلس السلطان فى دار العدل للقضاء :

« إذا جلس السلطان للمظالم، جلس عن يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة، ثم الوكيل عن بيت المال ، ثم الناظر فى الحسبة . ويجلس عن يساره كاتب السر . وقدامه ناظر الجيش وجماعة من الموقعين ، تكملة حلقة دائرة .

---

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث شعبان عام ٩١٩ هـ .
(٢) سلوك المقريزى ج ١ ص ٥٠٣ و٧٧٢ — والخطط ج ٣ ص ٣٣٣ و٣٣٨ .
(٣) السلوك ج ١ ص ٥٥٠ .

وإذا كان ثم وزير من أرباب الأقلام ، كان بينه وبين كاتب السر . وإن كان الوزير من أرباب السيوف، كان واقفاً على بعد، مع بقية أرباب الوظائف.

ويقف من وراء السلطان ، صفان عن يمينه ويساره من السلاحدارية والجمدارية والخاصكية .

ويجلس على بعد تقديره خمسة عشر ذراعاً من يمنة ويسرة ، ذوو السن من أكابر أمراء المئين ، وهم أمراء المشورة . ويليهم من دونهم من أكابر الأمراء وأرباب الوظائف وقوفا . وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة .

ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان، الحجاب والدوادارية ، لإحضار قصص الناس ، وإحضار المساكين و تقرأ عليه . فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه . وما كان متعلقاً بالعسكر ، تحدث مع ناظر الخاص وكاتب السر فيه » .

وقال أيضاً :

« وهذا الجلوس يكون يوم الاثنين ويوم الخميس . إلا أن القضاة وكاتب السر لا يحضرون يوم الخميس »[١] ..

وقد روى القلقشندى ما يفيد أن تعديلا طفيفا ، دخل على هذا النظام . وأهم ما فيه جلوس القاضى الشافعى والمالكى عن يمين السلطان ، والحنفى والحنبلى عن يساره[٢] .

والذى بنى « دار العدل » الظاهر بيبرس ، وجلس فيها للفصل فى الخصومات عام ٦٦٢ هـ . ثم هجرت لما بنى المنصور قلاوون « الإيوان » بدلا منها . ثم هدمها ابنه الناصر محمد ، وأحل مكانها « الإيوان » وجمله ، وجلس فيه للقضاء والنظر

(١و٢) حسن المحاضرة ج ٢ص ٩٢ تحت عنوان « ذكر جلوس السلطان فى دار العدل للمظالم » وخطط المقريزى ج ٣ ص ٣٣٣ تحت عنوان « ذكر خدمة الإيوان بدار العدل » — وصبح الأعشى ج ١ ص ٤٤ و٤٥ تحت عنوان « هيئته فى جلوسه بدار العدل لخلاص المظالم - والسلاحدارية . . الخ أنواع من هرمس السلطان وخدمه ، راجع المجلد الأول من موسوعتنا هذه .

فى المظالم يومى الاثنين والخميس . واقتدى به أبناؤه من بعده . ولما ملك برقوق استبدل به « الاصطبل السلطانى » وجلس فيه للقضاء يومى الأحد والأربعاء ، ثم استبدل بهما السبت والثلاثاء ، ثم ضم إليهما يوم الجمعة[١] .

---

٦ — جلوسه للعلم والمناظرة :

وفى أخبار المدارس والمساجد ، ترى أن المنشىء ـ سلطاناً أو أميراً ـ كان يحتفل بتمام البناء وافتتاح الدراسة . ويتصدر مجلساً علمياً يلقى فيه أحد شيوخ المدرسة درساً فى الفقه أو الحديث ـ مثلا ـ

وقد يتصدر السلطان مجلساً يتناظر فيه هو وبعض أئمته وعلمائه فى بعض المشاكل الدينية أو نحوها .

ولما افتتح الظاهر بيبرس مدرسته « الظاهرية » ، سمع حينذاك مناظرات العلماء وقصائد الشعراء .

ولما أنشأ برقوق مسجده ، عين شيوخه ، وكان من بينهم العلامة علاء الدين السيرامى مدرس الحنفية وشيخ الصوفية . وقد سمع برقوق لدرسه بل فرش له سجادته بيده[٢] .

ولما أنشأ المؤيد شيخ مسجده ، كان من بين شيوخه شهاب الدين بن حجر العسقلانى . فأقبل المؤيد عليه يستمع درسه ، وهم ابن حجر بالقيام تعظيما للمؤيد فمنعه من القيام[٣] .

واشتهر الأشرف الغورى بمجالسه العلمية . وكان إمامه وغيره من العلماء

---

(١) الخطط ج ٣ تحت عنوان « دار العدل القديمة » ، وتحت عنوان « الإيوان » وفى نهاية « ذكر النظر فى المظالم » .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٣ .

(٣) الخطط ج ٤ ص ١٣٩ .

يتناظرون معه ، ويتحاورون فى مسائل شتى . وفى كتاب « مجالس السلطان الغورى » صور من هذه المناظرات والمحاورات .

---

٧ — زواج السلطان ـ أو الأمير ـ :

لم يكن زواج السلطان أو الأمير ، خاضعا لاعتبارات سياسية ومشيئة عامة . وكان كل منهما حراً فى اختيار زوجته . غير أن هـذه المصاهرات كانت محصورة ـ فى أغلب أمرها ـ بين أسر الطبقة الحاكمة . وندر أن امتدت إلى الأسر الشعبية .

وعلى سبيل المثال : تزوج الأمير يشبك الدوادار ، ابنة الملك المؤيد أحمد ابن إينال . ثم توفيت ، فتزوج أخت الأمير قانصوه خمسمائة .

وكان قانصوه خمسمائة متزوجا ابنة الأتابكى أزبك بن‌ططخ . وكان أزبك هذا متزوجا ابنة الملك الظاهر جقمق .

وقد يتزوج السلطان أكثر من واحدة ، ولا غضاضة عليه ، فقد كان العصر عصر التسرى بالجوارى .

وقد يتزوج السلطان أرملة أحد الأمراء أو مطلقته ، وقد تتزوج هى بعد وفاته بأمير أو سلطان . حتى ولو كان ابنها من المتوفى ، صار سلطان العصر مكان أبيه . بل قد تتزوج رجلا كان مملوكا لزوجها .

وعلى سبيل المثال . تزوج السلطان برسباى أرملة الظاهر خشقدم . وتزوج السلطان الناصر بن قايتباى مطلقة الأمـير « كرتباى » ، واسمها « خوند مصر باى الجركسية » . ويبدو أنها كانت فاتنة ، فقد رغب فيها أكثر من رجل . وتزوجها بعد زوجها الناصر ، خاله قانصوه بن قانصوه ، الذى صار سلطانا من بعده .

وتزوج السلطان العـادل طومان باى « خوند فاطمة » ابنة العلائى على بن خاص بك ، وهى التى كانت زوجة الأشرف قايتباى . وتزوج الأشرف جان بلاط

قبل سلطنته ، أم الملك الناصر بن قايتباى ـ زوجة قايتباى من قبل ، وأخت قانصوه بن قانصوه ، الذى صار ملكا من بعد . . . الخ(١) .

ويغلب فى حفلاتهم عند الزواج ، حب الظهور والمفاخرة والمغالاة فى إعداد المتاع . والاجتماع للغناء والرقص والسماع ، والدق على الدف والزغردة . . الخ.

ولما تزوج الأمير قانصوه خمسمائة ، ابنة الأتابكى أزبك بن ططخ ، حفيدة الظاهر جقمق عام ٨٩٢ ﻫ ، عقد عقدهما بجامع القلعة بحضور القضاة الأربعة وأعيان الأمراء والناس ووزعت عليهم « زبادى » صينى بها سكر ، وأوعية فاكهة .

وحمل الجهاز نحو أربعمائة حمال . وقيل إنه أنفق فى إعداده نحو مائتى ألف دينار . وزينت الأزبكية ـ حيث دار الأب ـ بأبهى زينة ، فى ليلة الزفاف . وركب الأمير قانصوه ، من باب السلسلة وأمامه الأمراء المقدمون « بالشاش والقماش » ـ الملابس الرسمية ـ وبين يديهم الخاصكية بالشموع ، حتى بلغوا الأزبكية(٢) .

ولما تزوج الملك العادل طومان باى « خوند الخاصكية » عام ٩٠٦ ﻫ ، خرجت من بيتها بقنطرة سنقر ، فى محفة زركش ، وأمامها رءوس النوب والحجاب والخاصكية ، وهم « بالشاش والقماش » . وأمامها الوالى ونقيب الجيش والزمام عبد اللطيف . وأعيان الناس والمباشرين والطواشية . ومعها نحو مائتين من أعيان نساء الأمراء والعظماء .

فلما وصلت إلى باب الستارة بالقلعة ، فرشت لها الشقق الحريرية تحت حوافر بغال المحفة ، ونثر عليها خفائف الذهب والفضة . وحمل الزمام فوق رأسها القبة والطير ، حتى جلست بقاعة العواميد . وأمامها فى موكبها الصرر وطست وإبريق من البلوك ومنديل كبير من الزركش .

---

(١) راجع تراجم هؤلاء السلاطين والأمراء فى الضوء اللامع وبدائع ابن إياس ، وفى المجلد الأول من هذه الموسوعة .

(٢) بدائع الزهور ج ٢ حوادث عام ٨٩٢ ﻫ .

والموسيقا تصدح خلال ذلك . واستمر الابتهاج بقدومها فى القلعة ثلاثة أيام[1] .

ب — الأمراء :

والأمراء هم قادة الجند ، وهم الفئة التالية للسلطان فى الحكم ، والمنفذة لأمور الدولة . ويغلب أن يكون الأمير مملوكا فى الأصل ، تربى فى طباق القلعة تربية عسكرية فصار جندياً ثم دفعت به مهارته وجده إلى صفوف الإمارة .

ويتولى الأمراء أهم مناصب الدولة ولا سيما العسكرية منها . وهم فى الغالب أربع طبقات بحسب الألقاب : ١ ـ أمراء المائة المقدمون ، وتلك أرفع المراتب ويختار من هذا الصنف كبار الموظفين مثل نائب السلطنة والأتابكى وحاجب الحجاب . ٢ ـ أمراء الطبلخاناه ـ أو أمراء الأربعين ـ وهم أقل مرتبة . ٣ ـ أمراء العشرة . ٤ ـ أمراء الخمسة .

وأهم وظائفهم : نائب السلطنة ، ونائب إقليم أو قلعة كدمشق والإسكندرية وحلب ، ونائب غيبة ينوب عن السلطان إذا خرج فى تجريدة مثلا . والأتابكى: وهو أمير الجند ـ القائد الأول . وحاجب الحجاب: وهو قاض له أعوان ويفصل فى منازعات الأمراء والجنود وقضايا الدواوين ، وبعض القضايا المدنية . وأمير مجلس: ويشرف على الأطباء ومن إليهم وأمير سلاح: وهو رئيس رجال السلاح من مماليك السلطان ويوكل إليه الإشراف على السلاح وإعداده . وأمير آخور: وينظر فى الاصطبلات السلطانية وخيولها . ورأس نوبة : ويشرف مباشرة على المماليك السلطانية . والأستادار : ويشرف على البيوت السلطانية وما تحتاج إليه من طعام وشراب وخدم وغير ذلك . والدوادار: يبلغ رسائل السلطان ويقدم إليه المظالم والبريد مع كاتب السر . وأميرجاندار : ويطلب توقيع السلطان على

---

(١) بدائع الزهور ج ٢ حوادث عام ٩٠٦ هـ .

المناشير والرسائل ونحوهما. وأمير جاندار: يعاون الدوادار وكاتب السر، ويستأذن للدخول على السلطان وينظم مواكبه وغير ذلك. والجاشنكير: يعاون الأستادار فى إعداد الموائد السلطانية وغيرهما. والخازندار: يعاون ناظر الخاص فى الإشراف على الخزائن السلطانية. وشاد الشرابخاناه: يشرف على أشربة السلطان وفاكهته وحلواه. وأستادار الصحبة: يشرف على المطابخ السلطانية والأطعمة والموائد. ووالى القاهرة: يحفظ الأمن فى المدينة. والوزير: ينظر فى الأمور المالية من تحصيل وإنفاق وتعيين المباشرين. وناظر الخاص: يشرف على أموال السلطان. وناظر الجيش: ينظر فى الإقطاعات بمصر والشام ويكاتب عنها ويشاور السلطان فيها. والمحتسب: ينظر فى شئون القاهرة ويراقب العمال والصناع والتجار ومن إليهم والمشبوهين. وهناك وظائف أخرى.

وقد تنقلت الاختصاصات بين الوظائف المختلفة، كما أبطلت بعض الوظائف أحيانا واستجد غيرها. وقد تعاد.

وقد أجمل ابن إياس ذكر هذه الوظائف التى كانت قائمة فى الدولة عام ٩٢٢ هـ وعدد أفرادها على وجه التقريب فروى ما ملخصه: أن الأمراء المقدمين كانوا ستة وعشرين، منهم من يشغلون وظائف فعلا، ومنهم بدون وظائف فعلية والأولون تسعة أمراء ووظائفهم: أمير كبير «أتابك». أمير مجلس أمير سلاح أمير آخور. أمير رأس نوبة النوب. حاجب الحجاب. الدوادار الكبير. الأستادار. كاشف الكشاف.

وأن نواب البلاد الشامية والحلبية هم: نائب حلب طرابلس. حماة صفد القدس. الكرك. ومن النواب من كان يشغل أكثر من نيابة واحدة حينذاك - وأمراء الطبلخاناه الموظفون: شاد الشرابخاناة. الزردكاش الكبير. تاجر المماليك، أستادار الصحبة، رأس نوبة ثان، الحاجب الثانى، والى الشرطة، المهمندار، نقيب الجيش، شاد الشون، الترجمان، معلم المعلمين، أمراء رءوس

نوب كثيرون ـ قال ابن إياس : تكامل فى هذه السنة من الأمراء الطبلخاناه والعشرات فوق الثلثمائة أمير .

ومن كبار المباشرين ـ وهم من المتعممين ـ كاتم السر وناظر ديوان الإنشاء. نائبه . ناظر الجيش . مستوفيا ديوان الجيش . ناظر الخاص ناظر الأوقاف . الوزير . ناظر الدولة ، كاتب المماليك ، ناظر الإصطبل ، مستوفى ديوان الخاص، ناظر الزردخانة ، مستوفى ديوان الجيش الشامى ، المتحدثان فى الخزائن الشريفة ، المتحدث فى وظيفة الزمامية ، المتحدث فى الديوان المفرد ، البردار ، المتحدث فى الشئون السلطانية ، ـ وغيرهم من المباشرين وأعيان الدولة .

يضاف إلى من تقدم ، أعيان الخدم الطواشية والخاصكية ، وهؤلاء من الجنود ـ لا الأمراء ـ وقد قال عنهم ابن إياس : « فى هذه السنة تكاملت الخاصكية ، فبلغت نحو ألف ومائتى خاصكى من مشتريات السلطان(١) .

ح ـ الجنود السلطانية :

وهم عصب الجيش ، وقوته العاملة . وكانوا يجلبون من خارج البلاد ، أرقاء ، يربون تربية عسكرية فى أبراج قلعة الجبل . واهتم السلاطين بجلبهم باطراد ، كما بذل بعضهم عناية خاصة بتربيتهم كالمنصور قلاوون .

وقيل إن مشتريات قلاوون منهم ، بلغت اثنى عشر ألف مملوك(٢) ، وقيل إن مشتريات ابنه الناصر محمد بلغت نحو اثنى عشر مملوك أيضا ، وبلغت جملة مماليك جيوشه نحو أربعة وعشرين ألف .

وفى الدولة الجركسية ، درج بعض السلاطين على اقتناء مجموعة من المماليك تعرف باسمه خاصة . ومن هنا تعددت طوائفهم ـ فضلا عن طائفية الجنس

(١) بدائع الزهور ج ٣ فى حوادث عام ٩٢٢ هـ .

(٢) تقويم النيل لأمين سامى ص ١٦١ .

الأصيل — فكان منهم الخشقدمية والبرسبايية والقايتبايية إلى غير هؤلاء وكان ذلك فى جملة أسباب تنافسهم وتنازعهم .

وفى الفصول السابقة نوهنا بمعلومات كثيرة عن هؤلاء الجنود ، فحسبنا ذلك.

د — الخلفاء :

أنهى التتار خلافة العباسيين عام ٦٥٦ ﻫ . وكانت سلطنة مصر قد آلت إلى أمراء المماليك . وبلغ بيبرس إلى سلطنتها . فرأى بثاقب نظره أن يعيد فى مصر سيرة الخلافة العباسية من جديد، لتكون دعامة فيها للسلطنة ويستمد منها السلطان سلطته الشرعية . فأقامها ابتداء من عام ٦٥٩ ﻫ . وأقر فيها أحد أعقاب العباسيين وبايعه الخلافة . ومن ثم بايع الخليفة بدوره بالسلطنة ، ووكل إليه أمور المسلمين[١] .

وتوالى خلفاء بنى العباس فى منصب الخلافة بطريق الوراثة ، حتى دهم العثمانيون البلاد وأنهوا سلطنة المماليك عام ٩٢٣ﻫ، فحملوا الخليفة العباسى حينذاك — وهو المتوكل على الله — إلى القسطنطينية ، حيث تنازل — على ما قيل — للسلطان سليم الأول العثمانى عن الخلافة . وبهذا تحولت عن العرب إلى الترك . وتحول مركزها من القاهرة إلى القسطنطينية[٢] .

ولم تكن تتم بيعة سلطان من سلاطين هذه الحقبة إلا إذا بايعه بها وعهد بشئونها إليه خليفة عصره وأوانه . وبهذه المبايعة ينعقد له لواء السلطنة ويصبح صاحب الأمر والنهى الشرعى فى البلاد .

وبذلك يعتبر الخليفة ـ أو طائفة الخلفاء ـ عنصرا أساسيا من عناصر الطبقة الحاكمة ، وإن لم يكونوا من الجنس التركى أو الجركسى[٣] .

ولا نشك فى أن هذا الوضع الذى ابتدعه بيبرس بشأن الخلافة كان بارعا

---

(١) سلوك المقريزى حوادث عام ٦٥٩ ﻫ .

(٢) بدائع ابن إياس ج ٣ حوادث عام ٩٢٣ .

(٣) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى . وحسن المحاضرة عند كلامه عن الخلفاء .

ونافعا ، إذ أضفى على سلطنة المماليك صفة الشرعية ، وعاون على نشر الروح الإسلامية والحماسة الدينية التى كانت البلاد العربية والإسلامية فى أشد الحاجة إليها ، لاتخاذها دعامة قوية فعالة لرد عادية التتار والصليبيين وأشباههم من أعداء العروبة والإسلام . كما أنه عاون على حفز علماء المسلمين وعلماء القاهرة على تجديد علوم الدين وآدابه ، ومن ثم صارت القاهرة ـ عاصمة السلطنة ـ محورا للنشاط العلمى والأدبى الإسلاميين ، واقتعدت مصر معقد الزعامة والتوجيه بالنسبة للعالم الإسلامى والعربى .

هذا كله لا يمنعنا القول إن الخليفة العباسى فى مصر ـ بالرغم من سلطته الكبيرة ومنزلته العظيمة ـ كان أقرب شبها بمشايخ الطرق الصوفية فى زماننا ، لا حول لهم ولا قوة . وما هذه السلطة أو المنزلة إلا ضرب من الشكليات فحسب ، ولم يعد الخليفة أن كان موظفا مأجورا يتقاضى مرتبه بأمر السلطان . وكان السلطان وحده صاحب الرأى فى اختيار الخليفة ، وفى إبقائه فى منصبه أو إقصائه عنه[١] .

وقد يصحب السلطان الخليفة معه إذا خرج إلى قتال ، أو ذهب إلى رحلة ، أو برز فى يوم زينة وحفل . وقد يستدعيه لشهود مجلس يبرم فيه أمر هام كتقرير حرب أو فرض ضريبة . ويكون استدعاؤه للحضور فقط لا للاشتراك فى إبداء الرأى[٢] .

ولم أجد فيما قرأت من تاريخ الخلفاء من كان منهم له رأى مسموع وكلمة نافذة ، بل لقد كان لبعض رجال الصوفية جاه عند السلاطين أكثر من الخلفاء ـ كأبى السعود الجارحى مثلا ـ فقد اجتمع لديه أمراء الدولة عقب هزيمة الجيش فى مرج دابق عام ٩٢٢ هـ واتفقوا بمشورته على سلطنة طومان باى[٣] .

(١،٢) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى . وحسن المحاضرة عند كلامه عن الخلفاء .

(٣) بدائع ابن إياس حوادث ٩٢٢ هـ .

ولا نذكر إلا الخليفة المستعين بالله العباسي الذى اتفق الأمراء على أن يتولى السلطنة عقب مقتل فرج بن برقوق ، خوفا من احتدام النزاع بين الأميرين الكبيرين شيخ ونوروز . لكن لبث هذا قليلا ثم قفز شيخ إلى السلطنة[١] .

الطبقة المحكومة

تتألف هذه الطبقة — وهى عامة الشعب وجماهيره — من أكثرية ضخمة من السلالات العربية ، يختلط بها ويمتزج بالجوار أو الصهر أو المعاملة أو نحو ذلك من وسائل الاختلاط والامتزاج ، عدد من القبط ، وهم سلالات المصريين من قبل الفتح العربى ، وعدد من اليهود والروم والكرد والمغاربة والترك والجركس والتتار ومن إلى هؤلاء وهؤلاء من رواسب الأمم الطارئة والدول الوافدة فيما سبق من العصور وفى هذا العصر . وهم قلة بالنسبة لأكثرية العرب .

ومن العسير على الباحث أن يرسم للقارىء صورة متكاملة لمجتمع هذه الطبقة على حدة ، تكون واضحة المعالم متواصلة الأطراف ، لعدم وجود المراجع المتخصصة فى هذا الموضوع . وما هناك إلا متناثرات مبعثرة — قد يساق بعضها عرضا واستطرادا فى خلال كتب التاريخ كبدائع ابن إياس وخطط المقريزى وسلوكه ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، وحسن المحاضرة للجلال السيوطى . وكتب أخرى كالمدخل لابن الحاج ، والتعريف بابن خلدون وإغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى . ونحوها من الكتب .

من هذه الكتب استقينا معلوماتنا ، ونسقنا بينها حتى استقامت . ولعل فيما نورده منها مايقنع القارىء فى تصور هذا المجتمع الذى عاش فيه أسلافنا ، وما كان لهم من أوضاع وعادات وتقاليد ، سنرى أن شيئاً منها لا يزال راسبا فى نفوسنا ، ومرعيا فى تصرفاتنا ، ومقدما فى مجتمعنا الحديث .

---

(١) بدائع ابن إياس ج ١ حوادث عام ٨١٥ هـ .

وروى المقريزى أن هذه الأمة التى يتألف منها المجتمع المصرى حينذاك كانت سبعة أقسام هى :

١ — أهل الدولة . وهم السلطان والأمراء وكبار الجنود .

٢ — أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .

٣ — الباعة وهم متوسطو الحال من التجار . ويقال لهم « أصحاب البز » . ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة .

٤ — أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف .

٥ — الفقراء وهم جل الفقها وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة .

٦ — أرباب المصانع والأجراء وأصحاب المهن .

٧ — ذوو الحاجة والمسكنة ، وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم[١] .

ونلاحظ أن المقريزى لم يفصل بين طبقتى هذه الأمة ، وهم طبقتان متميزتان تختلف إحداهما عن الأخرى اختلافا كبيرا ، كما سبق بيانه أكثر من مرة . فطبقة حاكمة ، وطبقة محكومة . الأولى من الترك أو الجركس وبيدها زمام الحكم والسياسة والحرب والقوة والمال والجاه . الثانية أكثرها من العرب ، وتعيش أكثر ما تعيش بعيدة عن أسباب القوة والجاه . وظلت الأولى طيلة مدة حكمها تتجدد من خارج البلاد عن طريق الشراء . والثانية تتجدد من داخلها كما تتجدد سائر الشعوب . وظلت الأولى فى جملة معايشها مستبدة ومستعلية عن الاندماج فى غمار الطبقة الثانية أو الامتزاج بها إلا فيما تتطلبه ضرورة الحكم ، وإلا فى بعض حوادث فردية كمصاهرة مثلا ، لا اطراد لها .

---

(١) اغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٢ للمقريزى .

كما نلاحظ أن المقريزى أضاف الكثير من أجناد الحلقة إلى القسم الخامس، وهو الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم — مع أن أجناد الحلقة هم قوم من جنود الدولة تنفق عليهم وتخرج لهم الإقطاعات . وبلغ عددهم فى عهد الناصر ابن قلاوون ثمانية آلاف وتسعمائة واثنين وثلاثين فارسا[١] .

على أن كثيراً من الفقهاء كان من المستطاع أن يكونوا القسم الثانى مباشرة، عقب أهل الدولة الذين هم السلطان والأمراء وكبار الجند . ذلك لأن هذه الطائفة هى طائفة المثقفين فى الأمة ، بل ومن بينها المتخصصون فى العلم أو الأدب ، والذين تخرجوا فى الفقه والحديث مثلا ، أو فى الكتابة والإنشاء والشعر . ومن حقهم أن يكونوا القسم الثانى ، بسبب أن الدولة كانت حينذاك فى أشد الاحتياج إلى معونة كثير منهم ، فى شتى أمورها المتصلة بالقضاء وديوان الإنشاء، بل والوزارة والحسبة فى بعض الأحيان ، ومناصب الدواوين التى تحتاج إلى كتاب لضبط الأمور والتسجيل والحساب وما إلى ذلك — هذا إلى أنه أغفل منها المنشئين والشعراء فلم يبرزهم بوضوح .

بهذا كله تعتبر هذه الطائفة « الشعبية » من رجال الدولة ومن الحكام . بل كان أهل الدولة مثلا كالسلطان منطوياً أحيانا أو منقمعا أحيانا تحت كلمة أحد رجال هذه الطائفة ممن برز فى علم أو تقوى وخلق وحسن رأى — وقد سبق لنا التنويه بما كان من ذلك عند حديثنا عن الظاهر بيبرس وسلطان العلماء العز ابن عبد السلام .

ونلاحظ أيضا أن المقريزى جعل السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون عالة عليهم ، قسما . فهل كان هذا الوضع ضروريا فى تقسيمه ؟ وهل كان هناك من الأسباب القوية ما دفعه إلى جعلهم قسما قائما برأسه ، وطائفة متميزة بنفسها.

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٥٠ تحت عنوان « ذكر جيوش الدولة التركية وزيها وعوائدها » .

أفكانت من الكثرة ومن المذلة والمسكنة ، ومن فداحة ما ترهق به الطوائف الأخرى ، بحيث تلفت نظر مؤرخ كبير دقيق كالمقريزى ، فيضطر إلى جعلها قسما مستقلا ؟ قد يكون .

وعلى كل ، فالأقسام الستة الأخيرة هى التى تتكون منها الطبقة المحكومة - باستثناء أجناد الحلقة - وهم أكثر الشعب وأغلب الأمة ، وهم اليد العاملة فيها وفى ميادين حياتها كافة - باستثناء ميدان السياسة والحرب - وهم موضوع نظر الدولة وتصرفها . فعليها يقع عبء العمل فى الحقل وفى الصناعة والتجارة ، وعلى كاهلها تحمل الضرائب الدائمة والمؤقتة ، وهم الذين يكابدون مشقة الكدح فى سبيل العيش ويقاسون مرارة الحياة إن وقع جدب أو غرق أو نزل طاعون أو نحو ذلك من الكوارث العامة المجتاحة وهم - غالبا - موضع المحاكمة والمؤاخذة والمصادرة والغرم ، وما يتصل بذلك من سجن أو تعذيب أو نحوه .

وفى السطور التالية نحدثك عن بعض صور حياة هذه الطبقة وما مر بها من ألوانها الحلوة والمرة . مع العلم بأننا أشرنا عند حديثنا عن البيئة السياسية عن نصيب هذه الطبقة من الحياة السياسية وحقوقها فيها .

التعليم والجيش .

رأينا مما مر ، أن البلاد كان بها نوعان من التعليم :

التعليم العسكرى : وكان مقره طباق قلعة الجبل ، وكان مقصورا على طائفة المماليك ، كما أشرنا ، ولم يسمح لأحد من أبناء الشعب بالاندماج فيه . كأن أبناءه لايصلحون للحرب والقتال والدفاع عن الوطن . مع أن حروب مصر قديمها وجديدها برهنت على عكس ذلك . والمتبادر إلى الذهن أن هذه السياسة اتبعت لكى تبقى أسباب القوة والفروسية بيد الأتراك ، وبها يستبقون ملكهم ويظلون فى البلاد سادة دون أن يتفلت أحد من أبنائها إلى الحكم .

والتعليم الشعبي : وكان مقره فى المساجد والمدارس وقد أوقفت عليه الأوقاف ، ويسرت به سبل العلم لطلابه من أبناء الشعب والوافدين عليه . غير أنه لم يكن يعنى به، لأنه حق الشعب ، ولكن زلفى إلى الله وقربى ـ وقد تحدثنا عن ذلك كله فى شيء من التفصيل فى الفصل السابق .

ملكية الأرض الزراعية :

شهدت الأرض الزراعية فى هذا العصر ، دورا من أدوار الإقطاع . ويقول المقريزى :

« واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد إقطاعات ، بمعنى ماعليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية . وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم . لايعرف هذه الأبذة التى يقال لها اليوم « الفلاحة » ، ويسمى المزارع المقيم بالبلد « فلاحا» قرارا فيصير عبداً قنا لمن أقطع تلك الناحية . إلا أنه لايرجو قط أن يباع ولاأن يعتق، بل هو قن مابقى ، ومن ولد له كذلك »(١) .

ويبدو أن استئثار المماليك بالحكم دفعهم إلى الزعم أن «الفلاحين» لايصلحون للجندية ولا للحكم والرياسة .

وقد انساق المؤرخ ابن إياس ، بتأثير هذه النزعة السائدة فى زمانه إلى قوله عن « شمس الدين بن عوض » أحد رؤساء زمانه هذا ، إنه « لما صار فى جملة الرؤساء ، لم يخرج عن طبع الفلاحين الذى ربى عليه . فكانت عمامته عمامة

---

(١) الخطط ج ١ ص ١٣٨ ـ والأبذة : يبدو أنها تعبيرعامى حينذاك ومعناها الآفة أو التقليدالسيىء ويبدو أنها باقية حتى اليوم بالمعنى المذكور .

الفلاحين ، وكلامه كلام الفلاحين . كأنه فلاح قحف ، كما جاء من وراء المحراث ، ولم ينطل فى رياسته . فكان كما قيل :

فقـــيه ريف يقول إنى ‏ ‏ ‏ برعت فى العـلم والرواية
فقلت لاشك أنت عندى ‏ ‏ ‏ تصلح للدرس والدراية »(١)

ونظام الإقطاع أن تقسم الأراضى الزراعية قطعا ذات مساحات مختلفة يختص السلطان نفسه بنسبة منها معينة ، ويفرق البقية على الأمراء والجنود ، بحسب مراتبهم وبحسب مشيئته . أما عامة الشعب فقد حرمت ملكيتها وإيجارها .

واشتهر فى عصر المماليك نظامان أو « روكان » . « الروك الحسامى » وهو التقسيم الذى أجراه الملك المنصور لاجين . « والروك الناصرى » وهو التقسيم الذى أجراه الناصر محمد بن قلاوون ، عام ٧١٥ هـ . وهو الذى استمر العمل به طول العصر على وجه التقريب بتعديلات طفيفة . ويقضى بأن يختص السلطان بعشرة قراريط من أربعة وعشرين . والباقى وهو أربعة عشر قيراطا توزع على الأمراء والجنود .

وصاحب الإقطاع يستغله بحسب مشيئته . ويستخدم الزراع المقيمين فيه . ولا يورثه لذريته ، بل يرد إلى السلطان عند موته أو إذا غضب السلطان عليه فنزعه منه .

وكان هذا عاملا أساسيا ومباشراً فى تقسيم الأمة طبقتين : الطبقة الحاكمة ـ السلطان والأمراء والجنود ـ وهى منغمسة فى الترف والنعيم وحب الظهور ـ والطبقة المحكومة ـ وهى فى جملتها ، مغمورة فى شظف العيش وشقاء الحياة . وسترى صدى لهذا فى شعر الشعراء .

---

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث عام ٩٢٠ هـ .

الوظائف العامة :

وكانت الوظائف العسكرية مقصورة على الأمراء والجنود ، ومنها نيابة السلطنة والأتابكية والأستادارية وغيرها .

أما مناصب القضاء والكتابة وما إليهما ، فكانت توكل إلى النابهين من « المتعممين » وهم أبناء الشعب المتخرجون فى المساجد ، ممن عرف نبوغهم فى الفقه أو الإنشاء . واشتهروا بالعلم والأدب ـ وقد نعم كثير من هؤلاء ، بسبب الوظائف ، بألوان من الجاه والنعيم وبالقرب من الهيئة الحاكمة ، فكان لبعضهم شيء من الأمر والنهى . والكلمة المسموعة .

ومنهم من رجال الشرع : العز بن عبد السلام فى عهد بيبرس . وسراج الدين عمر البلقينى فى عهد برقوق ، وأمين الدين يحي الأقصرائى فى عهد قايتباى ، وزين الدين زكريا الأنصارى فى عهد الأشرف الغورى .

ومنهم من رجال العلم والأدب : محي الدين بن عبد الظاهر فى عهد بيبرس وابنه فتح الدين فى عهد قلاوون . وشهاب الدين بن فضل الله العمرى وأخوه علاء الدين ، فى عهد الناصر بن قلاوون . وناصر الدين بن البارزى والتقى بن حجة الحموى فى أيام المؤيد شيخ .

التقاضى :

كان القضاء فى العصر الأيوبى فى يد رجال الشافعية . وجرى المماليك على هذا فى بدء دولتهم . وفى عام ٦٦٠ هـ وكان قاضى القضاة فى البلاد هو تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، وكان متشددا فى أحكامه . فرسم له السلطان الظاهر بيبرس أن يستنيب عنه فى الأحكام مدرسى المدرسة الصلاحية ، وهم ثلاثة من مذاهب أخرى : صدر الدين سليمان الحنفى ، وشرف الدين عمر السبكى المالكى ، وشمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى ، فاستنابهم عنه ، وحكم كل منهم بمذهبه ،

فيما يعرض عليه من الخصومات[1] فكان ذلك خطوة فى سبيل تعدد القضاة .

ورأى بيبرس بمشورة بعض أمرائه ، أن ييسر على المتخاصمين سبيل التقاضى وذلك بأن يقيم من كل مذهب قاضى قضاة ، وقد تم ذلك فى عام ٦٦٣ هـ[2]

وأمام قضاة الشرع كان المتخاصمون من أفراد الشعب ، بل من كلتا الطبقتين يقفون للإدلاء بأقوالهم وللتقاضى ، فيما عدا ما كان يختص به حاجب الحجاب من أنواع القضايا .

أعمال البر :

وترجحت تصرفات السلاطين والأمراء والرؤساء ، بين الحسنات والسيئات. وكان من حسناتهم القيام بأعمال البر والإحسان ، زلفى إلى الله سبحانه وتعالى ، أو صدقة على الشعب ورحمة بالناس ، أو حبا فى الظهور والمباهاة ، وكسبا للصيت والحمد . أو توسلا إلى حفظ شىء من الإقطاع تنتفع منه الذرية ، وذلك بطريق الوقف ، أو غير ذلك .

ومن أعمال البر ، إنشاء المدارس والمساجد . وإجراء الرواتب والمعونات على شيوخها وطلابها ، ورصد الأوقاف عليها . وقد كان لذلك أثره المباشر فى قيام الحركة التعليمية ونشاط التأليف ، كما أشرنا .

ومما يذكر — فى هذا المقام — أن الملك المنصور قلاوون رتب للمستشفى المنصورى الذى أنشأه ، ألف دينار فى كل يوم . فضلا عما أوقفه عليه من الضياع

---

(١) سلوك المقريزى ج ١ ص ٤٧٢ ، وتروى هذه الحادثة بروايات مختلفة لا تختلف فى جوهرها.

(٢) السلوك ج ١ ص ٥٠١ ، ٥٣٩ — وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١ ، ج ٢ ص ١١٢ — وطبقات السبكى ج ٥ ص ١٣٥ — وصبح الأعشى ج ٤ ص ٣٤ نقلا عن النويرى فى نهاية الأرب — وبدائع الزهور ج ١ ص ١٠٣ ، وفيه أن التعدد وقع عام ٦٦٠ هـ . وراجع أيضاً المجلد الثانى من موسوعاتنا هذه .

والأملاك والبساتين(١) .

ولما وقعت زلزلة عام ٧٠٢ هـ بالبلاد المصرية وتهدمت بسببها جملة من المبانى والمساجد ، ومنها جامع الحاكم بأمر الله ، والمدرسة المنصورية ، وجامع عمرو وغيرها ، قام فريق من الأمراء بترميمها على نفقتهم الخاصة(٢) .

وروى عن الظاهر برقوق ، أنه أوقف بلدا بالجيزة ، ينفق إيراده على الحجاج المنقطعين بالحجاز . وأنه خصص فى كل يوم من رمضان بقرة تذبح وتطبخ وتفرق على الفقراء ومعها ألف رغيف . وأنه يفرق كل عام سبعة آلاف إردب قمح فى الزوايا والمزارات . وأنه تصدق فى مرضه آخر حياته بمائتين وخمسين ألف دينار على العلماء والفقراء (٣) .

وأمثال هذا كثيرة . وقد كانت من العادات الحسنة المطرودة .

الضرائب :

فرض الضرائب على سكان البلاد ، ضرورة من ضرورات الدولة ، إذ هى مصدر من مصادر إيراداتها ، ومعتمد من معتمدات إنفاقها على مرافقها المختلفة .

وقد كانت الأراضى الزراعية فى عصر المماليك ، إقطاعات ، كما بينا ـ فكان المقطعون يؤدون عنها الخراج ، وإلى جانب ذلك كانت تفرض الضرائب على الملاك والتجار والسوقة وأهل الحرف ونحوهم. ولا شك فى أن بعض هذه الضرائب كان مرهقا وظالما ، وكان يجبى أيضاً بطريقة قاسية مهينة أحيانا ، الأمر الذى كان مثار الألم والشكوى .

وكان بعض السلاطين ينتهز فرصة استعداده للخروج إلى حرب ، أو إرسال

---

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ١١٦ ط بولاق .
(٢) المرجع نفسه ص ١٤٦ .
(٣) المرجع نفسه ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

حملة تأديبية ، أو نحو ذلك ، لكى يسوغ فرض الضريبة . وربما فرضها ليسد بها فم عدد من جنوده الثائرين عليه .

ومن الحق أن نذكر أن بعض السلاطين ـ كالناصر بن قلاوون ـ كان يلغى شيئاً من الضرائب المقررة ، أو يخفف منها ، فيكون ذلك سبباً فى لهج الناس بالثناء عليه والدعاء له . وقد أبطل الناصر المذكور « مكس ساحل الغلة » وكان درهمين على الأردب للسلطان ، ويلحق به نصف درهم .

ومن الضرائب ـ على سبيل المثال ـ :

١ — نصف السمسرة : وكان البائع يدفع عما يبيعه بمائة درهم ، درهمين تقريباً للدلال . فقرر على الدلال دفع درهم من الدرهمين . وهو «نصف سمسرته» . فأخذ الدلال يحتال على البائع لاستيفاء هذا الدرهم منـــه . فكان هذا مثارا لشكوى الباعة .

٢ — مقرر الحوائص والبغال : وهو ضريبة تجبي من أهل المدن . ومقدارها ثلثمائة درهم عن الحياصة ، وخمسمائة عن البغل[١] .

٣ — مقرر السجون : وكان كل مسجون يدخل السجن ـ بريئاً أو مظلوماً ـ يدفع للسجان ستة دراهم ، ولو لم يقم بالسجن غير لحظة .

٤ — مقرر الفرسان : ضريبة يجبيها ولاة النواحى فوق كل ضريبة . فمن يدفع درهما ضريبة أصلية . يدفع مثله ضريبة إضافية .

٥ — حماية المراكب : ضريبة تجبي من كل راكب فى مركب ، زيادة عن أجر المركب .

٦ — حقوق القينات : ضريبة تجبي من أهل الدعارة ومرتكبي المنكرات .

---

(١) الحياصة سير يشد به حزام السرج .

٧ — مقرر المشاعلية : ضريبة يدفعها أصحاب المنازل ، نظير كسح الأفنية ومحال القذارة . وكان لهذه الحرفة عمال مخصوصون ولكل جهة ضامن ـ مقاول أو محتكر ـ لا يقوم بالعمل فيها غيره . ولذلك كان يشتط فى فرض الأجر[١] .

٨ — وفى عام ٦٥٨ هـ فرض المظفر قطز ـ بمناسبة حروبه ـ على أهل مصر والقاهرة ، دينارا على كل ذكر أو أنثى . وأجرة شهر من إيجار الأملاك والأوقاف . وطلب من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلة . ومن ضرائب الأراضى الأهلية ، ثلث ما فرض عليها معجلا . ومن الغيطان والسواقى أجرة شهر . وغير ذلك[٢] .

٩ — وفى عام ٨٠٣ هـ ، فرض السلطان فرج بن برقوق ـ بمناسبة حروبه ـ أجرة شهر على بلاد المقطعين وأملاك القاهرة وضواحيها . وعشرة دراهم عن كل فدان من البساتين مائة درهم .

وأخذ الجباة يفتحون المتاجر قوة واقتداراً باحثين وراء المال ، زاعمين أن السلطان يريد الاقتراض من مال التجار . فمن وجدوه من التجار وقت البحث ، أخذوا نصف ماله . ومن لم يجدوه جردوا متجره مما فيه من مال ومنسوجات .

وأخذ من أوقاف الجوامع والمساجد والمارستان المنصورى ، أجرة شهر واحد .

وقد أوذى الناس فى هذه الضرائب وفى جمعها أذى كثيراً ، وصودرت أموال وسجن رجال . وقام الأمير « يلبغا السالمى » الأستادار بجبايتها . وقيل إنه

---

(١) راجع هذه الضريبة وغيرها فى خطط المقريزى ج ١ عند حديثه عن الروك الناصرى :

(٢،٣) بدائع الزهور ج ١ ص ٩٦ ، ٣٣٠ .

أخذ لنفسه منها أضعاف ما أورده إلى السلطان . فعلم السلطان بذلك فقبض عليه وسجنه وعزله من منصبه (١) .

١٠ — وفى عام ٨٧٢ هـ ، أراد الأشرف قايتباى ـ بمناسبة حروبه ـ أن يستولى على أموال الأوقاف . فجمع مجلساً من الأمراء والخليفة المستنجد بالله العباسى وقضاة الشرع الأربعة ، وشيخ الإسلام أمين الدين يحي الأقصرائى ، فتجادلوا فى الأمر ، وأغلظ له الأقصرائى القول ، وأنذره بسوء عاقبة العمل وخوفه من الله تعالى ، ونصحه بالاكتفاء بما فى بيت المسلمين من المال أولا ، ثم يأخذ من أموال الأمراء والجند وحلى نسائهم ، ثم أخيراً من مال الأوقاف . على أن يأخذ ما يحتاج إليه فقط . فرضى السلطان مرغما . ولكنه عاد بعد سنين فأخذ من مال الأوقاف .

إلى غير ذلك من الضرائب .

العقوبات :

وكانت هناك عقوبات متنوعة تنتظر المتهمين والمغضوب عليهم . ومن ذلك :

السجن : وقد تعددت السجون وشهدت عدداً كبيراً ـ مع تتابع الأيام ـ من أمراء الدولة وقادتها وعظمائها ومن أعيان الناس . ومن هذه السجون :

الجب : وكان بالقلعة ويحبس فيه الأمراء . وقيل إنه كان مخيفاً مزعجاً مظلماً كريه الرائحة ، فيه كثير من الخفافيش . وقد أنشأه المنصور قلاوون عام ٦٩١ هـ ، وما زال حتى ردم بأمر ابنه الناصر محمد (٢) .

وحبس المعونة . وكان بالقاهرة منذ العصر الفاطمى . ثم هدم فى عهد الناصر بن قلاوون أيضاً (٣) .

---

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٩٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٥ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٣٠٦ ، ٣٤٦ — والسلوك ج ١ ص ٣١ — وبدائع الزهور ج ٤ حوادث عام ٩١٩ هـ .

(٣) الخطط ج ٣ ص ٣٠٥

وخزانة شمايل : نسبة إلى الأمير «علم الدين شمايل» والى القاهرة فى العصر الأيوبى. وهو الذى سعى فى بنائها . قيل إن هذا السجن كان بشعا متعبا . وقد سجن فيه الملك المؤيد شيخ المحمودى — قبل سلطنته ـ فنذر لله إذا أبلغه إلى السلطنة أن يهدم هذا السجن ويحوله إلى مسجد . فلما صار سلطانا هدمه وبنى مكانه مسجده المشهور بجوار باب زويلة[1] .

ومن السجون أيضاً المقشرة بجوار باب الفتوح . والعرقانة . والحجرة وهى خاصة بالنساء .

وكانت هناك فى المدن الأخرى ـ عدا القاهرة ـ كالإسكندرية ودمياط والكرك ـ وكانت هناك سجون فى بيت الوالى وبعض بيوت الأمراء وهذه الأخيرة يسجن فيها ـ عادة ـ كبار الرجال من السياسيين ونحوهم[2] .

الإعدام والتعذيب :

ولذلك طرق منها حز الرأس وإشهار الجثة . وقد ينادى عليها : « هذا جزاء من خالف السلطان . هذا جزاء من صنع كذا.. » والمنادون ـ وهم المشاعلية ـ قد يوقدون المشاعل إذا كان الوقت ليلا .

ومنها التوسيط، وهو طرح المحكوم عليه أرضا ، ثم ضرب وسطه بالسيف . ومنها. استعمال الخازوق، وهو عمود طويل مخروط الرأس يغرز فى الأرض ويثبت المحكوم عليه فوقه ، ثم يجذب إلى أسفل ـ ومنها : الشنق بالحبال ـ

ومن طرق التعذيب : التسمير فى الأخشاب ، والإشهار مع هذا فوق الدواب والقيد بالحديد والضرب بالمقارع ، وقيد الأرجل والضغط عليها بمعاصير وكسارات

---

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٣١٣ ـ و ج ٢ حوادث عام ٨٢٢ هـ

(٢) راجع فى أخبار السجون . خطط المقريزى ج ٢ تحت عنوان « ذكر السجون » ـ وبدائع الزهور ج ١ ص ١٨٤، ١٨٧ ـ و ج ٤ فى حوادث عام ٩١٦ إلى ٩٢

وعصر الأصداغ والأيدى . وإحراق الأصابع بالنار . ووضع خوذة محماة فوق الرأس . وغير ذلك .

الزلازل والطواعين :

ونزلت بالبلاد جملة زلازل وطواعين ، كان لها أثر كبير فى مضاعفة شقائها ، إذ تهدمت أبنية وقتلت نفوس ـ وقد بذلت عناية محمودة فى كثير من الأحايين . فرمت الأبنية ، وأقيمت المستشفيات ، وعولج المرضى . ووريت الجثث ، وأقيمت لها المغاسل العامة . ووزعت على المصابين الأموال والأطعمة والأكسية .

ومن الزلازل الفاجعة زلزال عام ٧٠٢هـ ، فى عهد الناصر بن قلاوون . وقد شعر الناس به فى أماكن متعددة ، ولا سيما فى الإسكندرية ، إذ هدم أسوارها وعدداً من أبراجها ، وجزءا من مناراتها ومآذنها . وفاض البحر فطغى على بساتينها . وفى القاهرة هدم أكثر الجامع الحاكمى ، وجملة من المآذن ، وجدران جامع عمرو بن العاص ، وتشققت أجزاء من جبل المقطم ، وتهدم كثير من الدور ، وامتد الزلزال إلى دمشق والكرك والشوبك وصفد وكثير من بلاد الشام .

وعاودتهم الزلازل مرات فى مدى عشرين يوما ، حتى ظن الناس أنها القيامة . فروعوا وملك الخوف قلوبهم ، وخرجوا إلى العراء وأقاموا فى الصحراء حتى هدأت الاهتزازات ، وهبت فى عقبها رياح سوداء لافحة لم يطقها كثير من الناس .

وقد قام الأمراء بترميم ما تهدم وما سقط من مساجد ومآذن وأبراج وأبنية ، ومنهم الأميران « سلار » و « سنقر الأعسر »[1]

---

(١) بدائع بن إياس ج ١ ص ١٤٦ ـ سلوك المقريزى ج ١ ص ٩٤٢ .

ومن الزلازل ما حدث عام ٨٨١ﻫ وعام ٨٨٦ﻫ ، وعام ٩١٦ ﻫ (١) .

وأما الطواعين والأوبئة العامة فكانت أكثر وقوعا من الزلازل وأعم شراً منها وأمعن أثرا فى نفوس الناس ، حتى سجلها كثير من الشعراء ونظموا فيها القصائد والمقطوعات .

ومن أروعها ذلك الطاعون الجارف الذى وقع عام ٧٤٩ﻫ فى عهد الملك الناصر حسن حفيد قلاوون لقد قيل إنه مات به فى شهرى شعبان ورمضان نحو تسعمائة ألف إنسان . وقيل كان يخرج من القاهرة فى اليوم الواحد أكثر من عشرين ألف جنازة . وظل فى البلاد زمنا طويلا حتى هلك بسببه عدد لا يحصى من الفلاحين ، فبارت الأرض وأقفرت وكثر الجـــدب وعم الخراب . وأصيبت الحيوانات وهلكت الكلاب والقطط والوحوش وارتفعت أسعار السلع وزاد الغلاء ، وخرج الناس للدعاء كما يفعلون فى الاستسقاء (٢) .

وفى عام ٧٦٩ﻫ وقع وباء جارف جديد وفشا فى القاهرة فشوا ذريعا حتى قيل كان يخرج منها فى كل يوم اثنا عشر ألف جنازة (٣) .

وقد وقع فى عهد الأشرف قايتباى أكثر من طاعون من الطواعين العامة المهلكة ، ومنها طاعون عام ٨٩٧ ﻫ . والطريف أن ابن إياس المؤرخ يتحدث عن هذا الطاعون ويعجب من بطء مجيئه إذ كان قد مضى على سابقه نحو ستة عشر عاما ! فكأن الناس لكثرة ما وقع بهم من الطواعين اعتادوا حلولها بين فترة وأخرى ، فلما عوق هذا الطاعون فى هذه المرة ثار عجبهم من بطئه . .

ويعلل ابن إياس مجىء الطاعون بقوله : « وكان فى مدة انقطاعه عن مصر ،

---

(١) راجع البدائع ﺣ ٢ حوادث الأعوام المذكورة وسلوك المقريزى ج ١ ص ٩٤٢ .

(٢) بدائع ج ١ ص ١٩١ ، ١٩٢

(٣) بدائع ج ١ ص ٢٢٢

كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور المماليك فى حق الناس» .
فكأنما يجعل هذه الأمور من أسباب وقوع الطاعون . ولذلك قال بعد : « وقد
روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من قوم يظهر فيهم الزنا
إلا أخذوا بالفناء» .

وقيل: أحصى عدد من مات بسببه فكان نحو مائتى ألف إنسان . ونظم الشيخ
بدر الدين الزيتونى زجلية جيدة سجل فيها هذا الحادث[1] .

وفى أوائل عام ٩١٩ هـ ظهر طاعون لحق بالأطفال والعبيد والجوارى ! ثم
فتك بالناس فتكا ذريعاً ، وزاد خطره حتى ألقى الرعب فى القلوب ، وفر بسببه
كثير من الناس بأولاده وأهله إلى جبل الطور ، لأنه ـ كما قيل ـ لا يقربه الطاعون ! .

قال ابن إياس : إن بعض الأطباء أشار على السلطان ـ الغورى ـ بأن يلبس
فى أصابعه خواتم من الياقوت الأحمر . فإنه يمنع الطاعون . فأخرج من الذخيرة
فصين منه ثمينين صاغهما على قطع من الذهب خاتمين . وكان يلبسهما فى المواكب .
قال ابن إياس : فعد ذلك غريباً وخصوصا من سلطان تركى[2] .

وعلى هذا النمط أو قريب منه وقعت طواعين مختلفة فى أعوام متعددة منها
عام ٦٧١ هـ ، ٧٩١ وعام ٨٠٧ هـ ، ٨١٣هـ ، ٨١٩هـ ، ٨٢١هـ ، ٨٣٣هـ ، ٨٤١هـ ،
٨٤٩هـ ، ٨٥٣هـ ، ٨٦٤هـ ، ٨٧٣هـ ، ٨٨١هـ ، ٩٠٢هـ ، ٩١٠هـ ، ٩١٢هـ وغير
هذه الأعوام [2] .

الجدب والغلاء :

وكثيراً ما عم الجدب وانتشر القحط فى البلاد بسبب نقص الفيضان أو زيادته

---

(١) بدائع ج ٤ حوادث عام ٩١٩ .
(٢) راجع بدائع الزهور فى حوادث الأعوام المذكورة .

أو أى سبب آخر . وينجم عن ذلك عادة انتشار الغلاء وزيادة الأسعار . وعانى الناس بسبب ذلك كله من قسوة الزمن وضيق العيش ، الشيء الكثير . فلننظر إلى بعض حوادث الجدب والغلاء ولننظر وقع ذلك فى النفوس وأثره فى تصرفات الناس . وكثيراً ما وجدوا من السلطان والأمراء معاونة فى هذه المحنة ومساعدة على دفعها أو تخفيفها .

ومن شر هذه الحوادث ما وقع عام ٦٩٥ هـ فى عهد كتبغا المنصورى . فقد شح النيل فأجدبت الأرض وقل الثمر، فارتفعت أثمان الحاجات ، وبلغ سعر أردب القمح مائة وسبعين درهما وكذلك الفول ، وبيع رطل اللحم بسبعة دراهم ، والبيضة بأربعة دراهم . والتفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة بثلاثين درهما . والدجاجة بخمسة عشر درهما .

واشتد الأمر على الناس وشق الغلاء وأعجزهم الشراء ، وضجوا بالشكاية ، واختلطت عليهم الأمور ، فأكلوا الكلاب والحمير والبغال والخيل وقيل بيع الكلب السمين بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة دراهم . ثم أرسل الله عليهم الجراد بوفرة عظيمة ، فأقبلوا على تناوله . وبيع منه كل أربعة أرطال بدرهمين .

وامتد الغلاء إلى البلاد الشامية والحجازية وكل ممتلكات السلطنة المصرية . وأعقب ذلك فناء عظيم ومات الناس جماعات وفى الطرقات . وقيل إن الملك العادل كتبغا كفن على نفقته فى مدة يسيرة نحو مائتين وسبعين ألف إنسان .

ثم كشف الله عن الناس هـــذه الغمة ، وأزال الكرب ، بعد انقضاء هذا العام (١) .

وفى عام ٧٣٦ هـ فى أيام السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون اشتد بالناس الغلاء وعدم الخبز من الأسواق . وبيع الأردب من القمح بسبعين درهما . فأمر السلطان بفتح مخازن غلاله ففتحت، وبيع منها للناس بثمن رخيص، فصلح الأمر

---

(١) بدائع ج ١ ص ١٣٣ .

وانخفضت الأسعار وبلغ ثمن أردب القمح ثلاثين درهما وزالت الشدة.(١) .

وفى عام ٨٥٢ هـ فى عهد السلطان جقمق انتشر الغلاء وارتفع سعر القمح والفول والشعير ، وبلغ ثمن أردب القمح خمسة دنانير أشرفية ، ثم بلغ سبعة . وغلت الأسعار حتى أسعار روايا الماء ، وشرقت البساتين لعدم وفاء النيل ، وذبلت الأشجار وماتت الدواب . واضطرب بسبب ذلك حبل الأمن فى البلاد ، وخرج العامة عن شعورهم حتى اعتدوا على بعض الرؤساء . واستمر الغلاء نحو عامين ورثى بعض الشعراء الخبز رثاء فكاهيا(٢) .

وعلى هذا الغرار ترى حوادث القحط والجدب والغلاء ومضاعفاتها وآثارها فى أعوام كثيرة منها أعوام : ٦٦١ هـ ، ٧٠٦ هـ ، ٧٧٥ هـ ، ٨٧٥ هـ ، ٨٩٢ هـ ، ٩١٤ هـ ، ٩١٦ هـ ، ٩١٧ هـ ، ٩١٨ هـ وغيرها .

ومما يذكر أنه فى غلاء عام ٨٩٢ هـ كان السبب الاضطراب فى أسعار النقد . وقد اختفى الخبز من الأسواق . وأخذ المحتسب يضرب باعة الخبز لعدم إعدادهم له وإظهاره للناس وعرضه للبيع . وهكذا ترى ملامح من المجتمع القديم لاتزال ماثلة حتى اليوم فى مجتمعنا الحديث .

مظاهر البذخ والمنشآت :

الحق أن هذا العصر شهد فى جملة ما شهد ، تقدما فى فن العمارة ومنافسة شديدة فى بناء المساجد والخوانق والسبل والزوايا والأربطة . وتشييدها على نسق عظيم من فخامة البناء عادة . وسعته وتجميله بالزخارف وتزيينه بالأدوات ذات الصناعة الفنية الدقيقة ، وذلك كالمنابر والزجاج والثريات . إلى غير ذلك .

وهو دليل على ما كانت البلاد تنعم به من خيرات وفيرة وثروة طائلة سواء منها ماجبى من داخلها وما جبى من خارجها بسبب المرور فى أرضها .

---

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ (٢) بدائع ج ٢ ص ٣١ ، ٣٢ .

على أن هذه الثروة الواسعة كان ينعم بها السلطان والأمراء ومن فى حكمهم من رجال الدولة وأعيان الناس ، بينما حرمتها الطوائف الكادحة العاملة ، التى عاشت أغلب زمانها فى ضيق وضنك

ويدلك على هذه الثروة ووفورها وسعتها ، هذه المواكب والاحتفالات وما إليها ، مما كانت تقام للسلاطين أثناء تحركاتهم ورحلاتهم وأثناء استقبالاتهم وأفراحهم . وكذلك الأمراء والرؤساء .

ويدلك أيضاً عليها هذه المقتنيات النفيسة والمشتريات الغالية التى كانت تعج بها دور هؤلاء الكبار . فضلا عن المنشآت التى أشرنا إليها . ومن بينها – بلا ريب – منشآت عامة نافعة .

وإليك مثلا .

أنشأ الناصر محمد بن قلاوون . فما أنشأه : ترعة المحمودية الممتدة من فوة إلى الإسكندرية لتنشيط التجارة والنقل بين النيل والبحر المتوسط .

ويبلغ عدد ما شيده الناصر من المساجد نحو ثلاثين مسجدا . عدا عدة مدارس أخرى .

وقد أنفقت زوجته فى سفرها إلى الحج نحو مائة ألف دينار . وأنفق هو على زواج ابنه مالا كثيرا لا يحصى . وأوقد فى القصر ثلاثة آلاف مصباح . وقد مر أمامه الأشراف ومعهم مماليكهم يحملون المصابيح بأيمانهم فاستغرق ذلك جزءا كبيرا من الليل . واجتمع نساء الأمراء فى القاعة الكبيرة ومرت كل واحدة منهن أمام العروس حانية رأسها ومقدمة بيدها هدية العرس . ثم وقفن صفوفا وأخذن يرقصن وينقرن بالدف ويغنين .

ويقال إنه استهلك فى هذا الزواج ١٨ ألف رأس من السكر ، وذبح ٢٠ ألف رأس من الماشية .

هذا وكان الناصر يغدق على مماليكه ويكثر عطاءهم حتى أصبح مقام المملوك

عنده مما يرغب فيه ويسعى عليه ، وحتى حيكت بسبب هذه العطايا القصص والحكايات الطريفة .[1] وصار لديه من المماليك نحو ٢٥ ألف مملوك كما أشرنا .

العادات والتقاليد:

نسجل فيما يلى ألواناً من عادات هذا المجتمع وتقاليد الناس فيه بما يضفى عليه أضواء تكشف لك عن سلوكهم فى الحياة وطرقهم فى المعيشة ومستواهم من الفهم والحضارة .

ولا نزعم أننا بكل ماكتبنا وما نكتب نكون قد وفينا الحديث فى هذا الموضوع ، ونكون قد كشفنا لك كل ما يتعلق بهذا المجتمع وأهله والعائشين فيه ، حتى نستطيع أن نتصوره ماثلا أمامك بجميع معالمه وملامحه وأطرافه وتفاصيله وظلاله . كلا لا نزعم ذلك ، وإنما هى محاولة لتوضيح صورة تقريبية لهذا المجتمع تستطيع من ورائها تصوره تصوراً مريحاً مقبولا تطمئن إليـــه ، ومناسباً لهذا البحث الطويل .

فمن هذه العادات والتقاليد ، سوى ما مر :

فى الخطبة والزواج :

ليس لدينا مرجع واف مفصل يوضح عاداتهم فى هذا الموضوع ، مع حيويته وتكراره وضرورته للحياة . ولكننا اعتمدنا على تمثيلية كتبها شمس الدين بن دانيال الموصلى فى كتابه « طيف الخيال » فى فهم هذا الموضوع وتصوره . والتمثيلية ، وإن لم ترق إلى مستوى التاريخ المحقق ، تلقى أضواء كاشفة تتبين من ورائها حقائق لا بأس بها ؛ يستطاع الاعتماد عليها والوثوق بهـا ، عندما نفتقد الوثائق التاريخية . بل لعل فى التمثيلية من مظاهر الدقة والصدق ما يدعو إلى الوثوق بها والطمأنينة إليها فيما تؤرخه .

---

(١) تاريخ دولة المماليك للسير وليم موير ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

ولا يبعد ما تصوره التمثيلية فى هذا الباب ، عما كان يجرى به العرف فى بلادنا إلى وقت قريب ولا يزال يجرى به حتى اليوم فى بعض الأوساط والبيئات .

ذلك هو أن يكلف الخاطب المتقدم للزواج ، « خاطبة » ، وهى امرأة عجوز عادة لها صلة بالناس ومعرفة بالأسر ، ولها حيل كثيرة ومنافذ متعددة تسلك منها للوصول إلى غايتها . ولها مقدرة فى ربط الأمور بعضها ببعض ، وجلب أخبار العذارى والسيدات المتعرضات للزواج ، ووصف مالهن من ملاحة وأخلاق وما يملكن من أموال ...

يكلفها المتقدم للزواج بأن تختار له واحدة من هؤلاء . ويشترط عليها شروطا كثيرة فى الطول والعرض واللون والحسن والخلق والمال والمعرفة والخبرة وما إلى ذلك من شروط .

وما عليها إلا أن تنطلق ساعية باحثة تتلمس له طلبته بين الأسر ، وتتحسس له غايته بين العذارى ، حتى يقع خاطرها الكريم وذوقها السليم على واحدة أو أكثر تتحقق فيها الشروط ، وتكتمل فيها الأوصاف ، فتنطلق بأخبارها إليه وتقص قصتها عليه ، دون أن يراها أو يشاهدها . وتؤكد له هى أنها كاملة الأوصاف .

وربما صدقها ووقع كلامها فى نفسه موقع القبول ، فيقدم على طلب يدها من ذويها ...

فإذا تم الاتفاق بين الطرفين حدد موعد لعقد الزفاف والدخول ، وأخذت العروس أو أهلها فى إعداد العدة وتجهيز الأثاث وما إلى ذلك .

وفى الموعد المحدد يجتمع الناس ، ويحضر العاقد والشهود ، فيخطب العاقد خطبته التقليدية ويثنى على العروسين ويذكر المهر معجلة ومؤجله . ـ ويبدو أن المغالاة فى المهور كانت من تقاليد الزمان وعرفه . إذ أن المهر كان فى هذه التمثيلية : « مائة معجلة وأربعة وأربعين مؤجلة » ...

وعند تمام العقد يطلق البخور ويرش ماء الورد على الحضور . ثم ينفح الزوج الخاطبة بعض المال لتشترى الشمع وتؤجر الماشطة وتحضر المغانى وتتم الجلاء...

وفى موعد محدد يفد الزوج فى وسط جلبة وتدوية. ويدخل إلى العروس وسط الجمع ، ويكشف عن وجهها النقاب . . فإما تبـــدى له قمر السماء وشمس الضحا ، فاستراح واطمأن ، ودعا للخاطبة وشكر لها حسن سعيها ولطيف وعيها ، ويستبشر بحياة موفقة سعيدة ، وأيام طيبة فريدة . وإما يتبدى له شيطان له مشافر الجمل ، وأجفان مكحولة بالعمش وخدود مضرجة بالنمش . . . الخ فيثور ويسخط ويتشاءم . . الخ .

ولا تخلو حفلات الزواج ـ كما لا تخلو اليوم ـ من حمقى من الرجال أو النساء أو الأطفال يثيرون الشغب ويحدثون الضجيج ، وبسببهم ينشأ سوء التفاهم بين الأطراف ، فيعكرون بذلك جو الزفاف .(١)

أوقات السمر والمغنون والمغنيات :

وكانوا يسمرون فى مناسبات كثيرة ، سواء منهم الحاكم والمحكوم . ومن المناسبات حفلات الزواج والختان ، وكذلك نزول السلطان إلى إحدى المنازه خارج القاهرة كالمطرية والأزبكية أو المقياس أو الأهرام . وكذلك تمام إنشاء إحدى المؤسسات النافعة كمسجد أو قصر وحديقة . أو ختام موسم فصل لعب الكرة .

ومن المعتاد إعداد أحواض كبيرة تملأ بشراب السكر والليمون ، ويسقى منها الناس ، أو توزيع لون من ألوان اللبن . أو مد موائد الأطعمة الشهية .

---

(١) راجع طيف الخيال لابن دانيال الموصلى مخطوط بالمكتبة التيمورية .

وكان لبعض السلاطين مضحكون يضحكونهم فى مثل هذه المناسبات . وقد روى ابن إياس أن الغورى كان له نديم يضحكه يدعى « الشنقجى العجمى » يلعب بالصحون النحاسية والجريد .[١]

وروى المقريزى أن الناصر محمد بن قلاوون كان له مضحك يسليه فى مجالسه[٢]

وكانوا يستعينون فى حفلاتهم وسمرهم بالطبل والزمر والرقص وبالمغنين وبالمغنيات وضاربى آلات العزف ، ويطلقون على المغنى لفظ « الريس » وعلى المغنية « الريسة » ، وعلى المضحك واللاعب المسلى لفظ « الريس » أيضاً .[٣] ، كما كانوا يتلهون أحياناً بإحراقة النفط أو بمشاهدة خيال الظل أو سماع فرق التنكيت .

وينصبون المغنى « دكة » يجلس عليها وحوله المستمعون . — وقد يصحب هذا كله تناول الشراب .

وقد حظى العصر بعدد من المغنين والمغنيات ، يبدو لنا مما قاله عنهم المؤرخون استطراداً أن كثيراً منهم كان ذا مقدرة فائقة فى فنه وذا صوت جميل ، كما كان قديراً على تأليف الأغانى وتلحينها فى آن واحد ، فاجتمع فيه الهبات الثلاث . مثل نور الدين على بن رحاب ، والصلاح الثعلبى القوصى وابن القرداح .

ومما يسر اللهو والسمر كثرة المقتنى من الغلمان والجوارى الأرقاء ،وانتشار هذه الظاهرة فى بيوت كثيرة من بيوت الحكام والرؤساء والمتشبهين بهم .

وقد روى ابن إياس أن السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى ، لما خلعه الأتابكى يلبغا العمرى من السلطنة ، أدخله دور الحريم بالقلعة ، فاستمر مقيما فى غبوق وصبوح لا يفيق من السكر ساعة . وعنده جوقة جوار مغنيات نحو عشر يدققن بالطارات عند الصباح والمساء .

وروى أن هذه كانت عادة رؤساء مصر تغنيهم المغنيات . وآخر من فعل ذلك

---

(١) البدائع ج ٤ حوادث عام ٩٢١ هـ (٢) الخطط ج ١ ص ١٤٦

(٣) راجع طيف الخيال لابن دانيال الموصلى .

من أعيانها هو الأمير جمال الدين محمود الأستادار . ثم بطل ذلك مع جملة ما بطل من محاسن عيشة الأكابر بالديار المصرية[١] .

ومن اشتهر من المغنين : ناصر الدين محمد المازونى القاهرى ، ولما مات رثاه الشهاب المنصورى . وابن رحاب وهو نور الدين على ، وكان ذا شهرة فائقه ، وكان يستدعى كثيرا لإحياء ليالى الملوك والأمراء وإبراهيم بن الجندى . وشمس الدين محمد بن حلة . وعلى بن غانم . والناصرى محمد بن قجق . والصلاح الثعلبي القوصى . والتقى بن الثقة الإسنائى . وابراهيم بن بابى « بفتح الباءين » . وابن القرداح أحمد ابن محمد بن على . وغيرهم .

ومن اشتهر من المغنيات : خديجة الرحابية . وعزيزة بنت السطحى . والريسة إنعام الخاصكية ، والريسة خديجة أم خوخة . وبدرية بنت جريعة ، وهيفة اللذيذة ، وأصيل القلعية .

ومن أرباب الآلات : محمد بن عونية العواد . وجلال السنطيرى والبوالقة وابن الليمونى .

ومن المحبظاين: محمد الريس فتات العنبر . كان رئيس المحبظين فى زمانه . وأستاذاً فى صنعة الخيال .

قال ابن إياس : « وفاق فى ذلك « بريوه »[٢] . وسنتحدث عن لعبة الخيال فى سطور قادمة .

---

(١) ابن إياس ج ١ ص ٢١٢

(٢) راجع فى أخبارهم ابن إياس ج٢ حوادث عام ٨٦٢هـ، ٨٧٥ هـ ، ٩٠٤ هـ ٩٠٥ هـ، ص٧٦ ، ١٥٦، ١٦٣، ٢٠٨ ، ٢١٣، ٢٥٧، ٢٤٢، ٢٨١، ٣٤٧، ٣٥٢، ٣٦٨ ، ج ٤ حوادث عام ٩٠٦ ٩١٣هـ، ٩١٧هـ ، ٩١٨هـ ، ٩٢٠هـ، ٩٢٢هـ، ٩٢٦ هـ ، ٩٢٨ ، والطالع السعيد رقم ٥٩، ١٩١ وبدائع ابن إياس ج ٣ ص ٣١٢ — والضوء اللامع ج ١ رقم ٣٢ — وج ٢ رقم ٥٧ ، ٢١٣

في الختان :

وكانوا يعنون بالختان عناية كبيرة ولا سيما ختان الذكور ، ويقيمون من أجله الحفلات . وكلما عظمت مكانة أهل الحفل عظم اهتمام الناس به : فتزين وجوه المنازل والحوانيت المجاورة لمنزل الأسرة المحتفلة . وتوقد الشموع ويقبل الناس للتهنئة وتقدم الهدايا ويغني المغنون والمغنيات وتمد موائد الأطعمة والحلوى وقد تعرض بين الألعاب المسلية .

وروى ابن إياس قصة ختان أولاد القاضي كاتب السر ابن مزهر . وكانت عام ٨٨٦ هـ بمنزله في بركة الرطلي . فأم المنزل كثير من الأمراء المقدمين والعشرات وزاره الأمير جمجمة العثماني - وكان إذ ذاك ضيفاً في مصر - وقضى الليلة هناك .

وأوقد الناس منازلهم وجملوها بالقناديل حتى انقلب الليل نهاراً لشدة الضوء . وانتشرت الزينات هنا وهناك حتى جذبت إليها الأنظار فتوافد الناس نحوها زمرا للتفرج بمشاهدتها . وامتلأت بركة الرطلي بالمراكب وركابها . وجلس المغني « ابن رحاب » وغيره من المغنين والمغنيات يطربون الحضور . بأصواتهم الشجية وربح بائعو الحلوى أرباحاً وفيرة في تلك الليلة . وبعث القاضي ابن مزهر إلى كل بيت في البركة عشرة أرطال من الزيت ، ومائدة فيها مالذ وطاب من الطعام . وقد عني القاضي ابن مزهر بهذه الليلة عناية كبيرة ، بناء على أمر السلطان قايتباي ، إذ كانت له عناية بالأمير العثماني جمجمة . فأحب أن يبهجه بالمبالغة في هذه الحفلة(١) . . .

ومن أمتع ليالي الختان كذلك ، ليلة ختان ابن الملك الأشرف قايتباي نفسه ، وكان ذلك عام ٨٩٤ هـ وفي شهر رجب . وقد استمر الحفل به سبعة أيام متصلة . وزينت طرقات القاهرة وأسواقها ، واجتمع سائر المغنين لإطراب

---

(١) بدائع ابن اياس ج ٢ ص ٢٠٨ .

بالصياح كأنها صيحة الوداع . ويختلطن بالرجال حافيات . ويصحب الجنازة أحيانا «كفارة» ، وهى خبز ونحوه ، يوزع على العامة قصد الصدقة أو الظهور وقد يذبحون خرافا على القبر يوزعون لحومها .

وفى طريق الجنازة تفرش الحصر أو البسط ، يجلس عليها القراء يقرءون القرآن الكريم أو الأوراد أو نحو ذلك . ويتقدمها طوائف من محترفى القراءات يسمونهم «الفقراء» ويصلى على الميت فى مسجد حيث يكون بعض الناس جلوسا فى انتظاره . ثم يسعى به إلى قبره فيقبر ، وينادى «المدير» بالتقدم للعزاء .

وتقام فى دار الفقيد — عادة — ثلاث ليال تقرأ فيها آيات الذكر الحكيم ، ويسعى الناس إليها لتقديم العزاء . وكثيراً ما يعنون باليوم الثالث للوفاة . وأيام الخميس الثلاثة الأولى ، ويوم الأربعين . فيتبادر النساء لتقديم العزاء ثانيا ، ويصحن ويولولن ويلطمن الخدود ، وهن لابسات الملابس السوداء أو الزرقاء . ويسمعن النادبات وهن يندبن الفقيد ويلطمن الخدود عليه ، ويسودن الوجوه ويحثون التراب فوق الرؤوس ويدققن الدفوف ، وفى رقابهن غلالات سود .

ومن المعتاد تقديم الطعام للمعزين والمعزيات ، وتجميل القبور ، وبناء الدور بجوارها للإقامة والمبيت أحيانا ، حيث يطعمون ويشربون ويوقدون الشموع والقناديل ، ويختلط الرجال بالنساء .

وحاول بعض السلاطين — مثل بيبرس والغورى — وضع حد لهذه المفاسد ، فلم يوفق(١) .

فى الموالد والمواسم :

واطرد حب المصريين لإقامة الموالد والاحتفال بالمواسم الدينية ، من لدن العصر الفاطمى ، للنفع والتسلية وإشباع النزعة الدينية . ومنها مولد الرسول عليه

---

(١) راجع المدخل لابن الحاج ج ١ ص ٢٥٠ ، ج ٣ ص ٢٣٣ — وبدائع الزهور ج ٤ حوادث عام ٩١٠ هـ ، ٩١٧ هـ — ج ٢ ص ٢٩٥ .

الصلاة والسلام كل عام . ويهتم السلطان بإحيائه ، ويجتمع فى ليلته الكبيرة مع القضاة الأربعة وأعيان الأمراء والمباشرين فى حوش القلعة . وقد تنصب لهم خيمة كبيرة مزدانة ، وتمـــد موائد الطعام ، ويمنح السلطان بعض الخلع أو الوظائف ، بهذه المناسبة .

ويحيون مولد الإنبابى فى المحرم أو صفر أو ربيع الأول من كل عام . وتضرب من أجله نحو خمسمائة خيمة فى الجزيرة تجاه بولاق . وتقام بها سوق تجارية مؤقتة للبيع والشراء .

وفى عيد رأس السنة الهجرية ، ينزل السلطان – عادة – إلى ميدان القلعة ، ويتقدم إليه القضاة والأمراء بالتهنئة ، وكثيرا ما تمد الموائد بالأطعمة الشهية فى ذلك اليوم للمهنئين[1] .

فى شهر رمضان :

وكان رمضان من أجمل المواسم الدينية التى يحتفلون بها . وإذا اقترب أطلق السلطان سراح بعض المسجونين ، وقضى ديون بعضهم وقد يجمع بين المتخاصمين فيصلح بينهم . واشتهر الغورى بكثير من هذه الصنائع .

ويعد ناظر الحسبة أو محتسب القاهرة ، كميات من اللحم والغنم والدقيق والسكر وغيرها ، لتفريقه على الفقراء والمحتاجين . وثبتت هذه العادة ، حتى أصبحت بمثابة ضريبة تقليدية يدفعونها . ومن هرب من دفعها ، تكلم الناس عنه ولهجوا بهروبه .

ويتبرك السلطان بقراءة صحيح البخارى . فيأمر القراء بقراءته فى قصره ، ثم يختم فى القصر الكبير بالقلعة بحفل مشهود يجتمع فيه الأمراء والقضاة والعلماء والأعيان . ويوزع الهبات ونحوها .

(١) راجع المدخل ج ٢ ص ٢٢١ – والبدائع ج ٤ حوادث عام ٩١٣ هـ إلى ٩١٦ هـ .

وقد يقرأ البخارى فى الأزهر أو جامع القلعة ، بدلا من قصر السلطان . كما أنه قد يختم بفنائها .

وتهيأ خلع العيد . وهى أثواب يوزعها السلطان على من يختاره من الناس . وتزف هذه الخلع فى أواخر رمضان فى موكب حافل ، يتقدمه ناظر الخاص .

ويستعين الناس على الإشعار بدخول وقت السحور بالأذان فى المساجد ويقولون عبارات متعارفة حينذاك ومنها : « تسحروا . كلوا واشربوا » . وآيات من القرآن الكريم كقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » وقوله تعالى : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا » . ويتبعون ذلك بالتغنى وإنشاد القصائد . ويستعينون مع الأذان المذكور ، بالدق على الطبول ، والمناداة فى الطرقات ، وبقرع الدور على سكانها ، وبإضاءة المصابيح ، حتى ينتهى وقت السحور ، فتطفأ ، فيعلم الناس دخول وقت الفجر[1] .

فى عيدى الفطر و الأضحى :

ويخرج السلطان بموكبه فيهما فيصلى بجامعه الذى أنشأه ، أو بغيره ، وفى صحبته الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الناس وبعد عودته يصعدون لتهنئته . ويهب خلعه لمن يشاء منهم .

وكان من عاداتهم أن ينزل الوزير من القلعة فى يوم عيد الفطر ، إلى داره ، فى موكب حافل . فيركب بغلته ، ويضع على رأسه « طرحة » بيضاء ، وتحت عمامته « عرقية » مذهبة ، تسمى « الطاسة » ، ويتقلد سبحة بأكر من العنبر . وتسير أمامه «الأوجاقية» بثياب حريرية صفراء تعرف «بالتتريات» ، ويقودون

---

(١) المدخل ج ٢ ــ والبدائع ج ٤ حوادث عام ٩١١ هـ ، ٩١٣ هـ ، ٩١٨ هـ .

جنائب الوزير ، وأمامه « مبخرة السلطان » وبها البخور . ـ وقد استمرت هذه العادة زمنا ثم أبطلت . وآخر من فعلها من الوزراء ، الصاحب علاء الدين على ابن الأهناسى المتوفى عام ٨٧٠ هـ . ثم اضمحل أمرها وانقضى . حتى أصبح الوزير « تغرى برمش » فى عهد الغورى إذا نزل من القلعة ، لا يشعر به أحد .

ويغلو الناس فى العيدين ، فى الخروج إلى المقابر رجالا ونساء ، ويقع هناك مفاسد . ويغالون فى عيد الفطر فى إعداد الكعك والخشكنان — البسكويت — والبسندود والسمك المشقوق — لعله البكالاه — ويحشى الكعك بالعجوة ويرش عليه ماء الورد . ويشترى النقل . وكثيراً ما تعانى الأسر المشاق بسبب ذلك ويحتدم بينها النزاع .

وفى عيد الأضحى يتبارون فى ذبح الأضاحى . وقد يخالفون السنة فيذبحون قبل الميعاد الشرعى .

وتطوف جماعات من العذارى يسمين « بنات العيد » ، فى الطرقات والأسواق على التجار والعلماء وعلى المنازل ، يجمعن ما جادت به المكارم ، ومعهن الدفوف يدققن عليها ويغنين (١) .

فى عيد النوروز :

وفى أول السنة القبطية ـ وأول شهر توت ـ كان من أهم المواسم فى مصر . وفيه كان يحمل إلى أكابر أقباطها هدايا كثيرة من أصناف الفاكهة ، كالرمان والموز والسفرجل والتفاح الشامى والبلح والعنب والتمر القوصى والبطيخ الصغير والرطب والخوخ المشعر ، وقدور « الهريسة » المحشوة بلحوم الدجاج ، وغير ذلك من الحلوى .

---

(١) المدخل لابن الحاج ج ١ — وبدائع الزهور ج ٤ حوادث عام ٩١٢ هـ ، وكل عام فى حوادث رمضان — وج ١ ص ٢٦٠ .

ويتعرض فيه طوائف من الرعاع لأعيان الناس ليبتزوا منهم ضريبة خاصة ، بهذه المناسبة ، ومن يمتنع يؤذونه برش الماء السخن عليه ، أو قذفه بالبيض النيء ، أو صفعه بالنعال والأخفاف .

وقد شدد السلطان برقوق على مرتكبي هذه العادة ، حتى أبطلها عام ٧٨٧ هـ .

وكان بعض الناس ينتهز فرصة هذا العيد للهو المحرم بشرب الخمر أو الزنا ، وربما بالقتل(١) .

في عيد وفاء النيل وكسر الخليج:

وإذا بلغ النيل حد الوفاء ، احتفلوا ثاني يوم وفائه ، احتفالا شائقا ، وكسروا سد الخليج الكبير . ويقوم السلطان برياسة هذا الاحتفال وبكسر السد ، وكثيرا ما يقوم مقامه نائب السلطنة أو الأتابكي أو غيرهما من كبار الأمراء .

ويركب سفينة كبيرة ـ تسمى « الحراقة » وسميت أحيانا « الذهبية » ـ تتبعها سفينة أخرى برجال الدولة ، والناس متجمهرون للرؤية والتفرج ـ إلى جهة مقياس النيل ، فيطلونه بالخلوق — وهو نوع من العطر — ثم يكسرون السد ، فيجري ماء النيل أمامهم في الخليج ، ثم يعودون فيلهون ويطعمون ويشربون .

وقد يأمر السلطان بقراءة القرآن بجوار المقياس قبيل الوفاء . وقد يبيت هناك قضاة الشرع . وقد تمد الموائد وتخلع الخلع ، وتعرض الألعاب المختلفة بهذه المناسبة .

في موسم الحج وخروج المحمل :

إذا اقترب موسم الحج في كل عام ، أخذ الناس والدولة في الاستعداد له ،

(١) راجع بدائع الزهور ج ١ ص ٢٦٣ — وخطط المقريزي ج ٥ ص ٣٨٩ تحت عنوان « ذكر النوروز » — والسلوك ج ١ هامش ص ١٣٦ .

ولخروج الحجاج . وكان من أهم مظاهره ، إعداد المحمل والخروج به إلى الأقطار الحجازية ، ومعه هدايا مصر وكسوة الكعبة المكرمة(١) .

وقد قال ابن فضل الله : « يخرج الركب من مصر بالمحمل السلطانى والسبيل المسبل للفقراء والضعفاء والمنقطعين ، بالماء والزاد والأشربة والأدوية والعقاقير والأطباء والكحالين ، والمجبرين والأدلاء ، والأئمة والمؤذنين ، والأمراء والجند والقاضى والشهود ، والدواوين والأمناء ، ومغسل الموتى ، فى أكمل زى وأتم أبهة .

وإذا نزلوا منزلا أو رحلوا مرحلا ، تدق الكئوسات وينفر النفير ، ليؤذن بالرحيل والنزول » (٢) .

وللحج ركبان : الركب الأول ، وركب المحمل . ويعين السلطان لكل منهما أميراً ويصحبه عدد من الجنود ، ويخرج فى صحبته من يشاء من الحجاج . ويخرج الركب الأول مبكراً عن ركب المحمل .

ويعرض ركب المحمل على السلطان مرتين . الأولى فى رجب والثانية فى شوال غالبا . وبهذه المناسبة يقوم « الرماحة » ـ طائفة من الجنود ـ بألعابهم العسكرية التى تنم عن فروسية ومهارة ، وهم فى ملابس حمراء .

ويحتفى النـاس بعرض المحمل حفاوة بالغة ، فيزينون منازلهم ومتاجرهم بالمنسوجات الملونة والقناديل والشموع وغير ذلك . وينشدون الأناشيد ويغنون الأغانى ويبذلون المعروف (٣).

---

(١) تقويم النيل ، فى ترجمة الظاهر بيبرس .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤ .

(٣) راجع ما كتبناه عن المحمل والحج فى المجلد الثانى من هذه الموسوعة ، وراجع أنباءهما فى حسن المحاضرة وتقويم النيل وبدائع الزهور ونحوه ، عند الحديث عن حوادث رجب وشوال فى كل عام .

فى الألعاب :

وانتشرت جملة من الألعاب للتسلية أو إظهار المهارة ، أو الكدية والاستجداء ومن ذلك :

ألعاب الرماحة : « وهى ألعاب عسكرية تنم عن فروسية ، يقوم بها فريق « الرماحة » بملابسهم الحمراء أثناء عرض المحمل . وممن اهتموا بها الظاهر برقوق والأشرف الغورى .

لعب الكرة . واهتم بها السلاطين والأمراء وزاولوها بأنفسهم فى مواسم معينة . على ظهور الخيل .

تعليم الحيوانات : واهتموا بتربية الحيوانات لتعليمها ألوانا من الأصوات والحركات . ويقول ابن خلدون : « ولقد بلغنا فى تعليم الصنائع عن أهل مصر . غايات لا تدرك . مثل أنهم يعلمون الحمر الإنسية والحيوانات العجم من الماشى والطائر ، مفردات من الكلام والأفعال يستغرب بدورها ، ويعجز أهل المغرب عن فهمها » (١) .

طيف الخيال : وانتشرت عندهم لعبة « طيف الخيال » أو نسميه نحن « خيال الظل » . وهى شخوص تحرك على شاشة فيظهر ظلها عليها بوساطة الضوء . وتمثل قصصا وحكايات . ويحركها وينطق عنها أشخاص ذوو معرفة بهذا الفن . ـ ومن أروع أمثلة قصص هذه اللعبة ، تمثيليات « طيف الخيال » لابن دانيال الموصلى .

ومن بينها تمثيلية يعرض فيها ملعبو الحيوانات — الدببة والأسود والفيلة والقردة . . . الخ — فضلا عن أصحاب الحرف — كالخاطبة ، والمضحك واللاعب على الحبل . . . الخ (٢) .

---

(١) المقدمة ص ٣٠٤ (٢) راجع طيف الخيال مخطوط بالخزانة التيمورية فهرس الألعاب .

في المجون والتبذل واللهو :

لم يبرأ هذا العصر ـ كغيره ـ من النزوع إلى المجون والتبذل ، ومن تناول أسباب اللهو والتسلية . وقد رأينا فيما مر ، ألوانا من ذلك . ومنها أيضا .

الخروج إلى المنازه : كالسير فى النيل بالزوارق . والرياضة على شاطئيه ؛ والذهاب إلى البساتين ، فى جزر النيل وغيرها . والارتياض فى البرك وعلى شاطئها وفى حيها .

ومن أحب المنازه إليهم جزيرة الروضة ، والأزبكية وبركة الرطلى . وكانت كل منها مليئة بأسباب اللهو وأدوات المجون . وفيها الأطعمة والأشربة ، والظلال والمستكنات والمناظر الجميلة .

ويبدو أن تعاطى الخمر والحشيشة كان شائعا فى العصر المملوكى شيوعا كبيرا . وكان لتعاطيهما أماكن مقصودة ومحال منتشرة معهودة . تلتمس غالبا فى الليل . وشاركت بعض ديارات النصارى فى ذلك بمقدار(١) . كما كان بعضهم يهيىء لذلك مجلسا فى داره أو حديقته ، ويدعو إليه من يشاء من أحبابه . ويزود بما يلذ من الطعام ويروق من الحلوى ويستحسن من الندمان .

ولا ريب أن انتشار الرق حينذاك ، وسهولة اقتناء الرقيق ـ غلاما أو جارية ـ عاون على فشو هذه المفاسد ونشر جو من الإباحة والتحرر من قواعد الخلق والدين . ولقد فاضت بذلك بيوت كثير من الشعراء .

ولعل حياة الكبت السياسى الذى كان يعانيه الشعب ، والذى ولد فيه اتجاها إلى الشكوى والأنين ، وحياة الحرمان من خير بلاده وبرها وثمراتها ، التى دعته إلى التألم المكتوم من ضنكه وشظفه ، لعل ذلك كله هو الذى دعاه أيضاً إلى أن

---

(١) راجع مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٥٨ ، ٣٦٦ فى دير بلوزان ودير شمران وغيرها من الديارات .

يتنفس ويتفرج عن طريق اللهو والمجون والتبذل ، تعويضاً عن كبته وحرمانه. وكثيرا مايعدو الإغراق فى المجون آثار الشجون ـ وامتزج ذلك فى حياته وفى أدبه بضروب من النكت والفكاهات والسخريات .

وقوى هذا التلهى ، بروز النساء إلى الطرقات متبرجات بزينة . وقصدهن أحيانا إلى الأســواق والحمامات العامة ، وإلى المنازه ، ونزولهن إلى البرك والاغتسال فيها ، فيثير ذلك كله فى الرجال ما يثير ، ويدعوهم إلى الغزل والإغراء .

وحاول الظاهر بيبرس وغيره ، إبطال كثير من مفاسد العصر ومباذله ، فلم يصب إلا نجاحا مؤقتا . ويقول المقريزى :

« وكتب السلطان ـ يعنى الظاهر بيبرس ـ بإزالة الخمور وإبطال الفساد والخواطىء من القاهرة ومصر وجميع أعمال مصر . فطهرت كلها من المنكر . ونهبت الحانات التى جرت عادة أهل الفساد الإقامة بها . وسلبت جميع أحوال المفسدات وحبسن حتى يتزوجن . ونفى كثير من المفسدين . وكتب السلطان إلى جميع البلاد بمثل ذلك[1] » .

النزاع بين الطوائف والأجناس :

نقصد بالطوائف والأجناس ، الأتراك والجراكسة الحكام، والعرب المسلمين الذين يكونون الأكثرية الشعبية ، والقلة القبطية وأوشاب اليهود والروم ومن إليهم من رواسب الأمم قبل الفتح العربى وبعده . ويضاف إليهم بعض المتعممين من القضاة وأشباه القضاة من الذين بلغوا مرتبة الرياسة والحكم .

نستطيع القول إن النزاع بين هذه الطوائف والأجناس كان على أشده ،

---

(١) السلوك جـ ١ ص ٥٧٨ حوادث عام ٦٦٧ هـ .

أو قل إن العداوة والبغضاء كانت على أحرها . ولا سبيل إلى الالتقاء أو التفاهم أو المهادنة .

وليس من الضرورى أن يتخذ النزاع طريقا عمليا أو يسلك مسلكا فعليا ، فيحتدم ويشتد الصدام فى حوادث ووقائع معينة، حتى نستدل بذلك على وجوده . وليس من الضرورى أن تقفز العداوة والبغضاء من الصدور والنفوس إلى الأيدى فتتشابك ، وإلى الألسنة فتتلاحى ، حتى نستدل بتشابكها وتلاحيها على وجود العداوة والبغضاء .

وإنما مما لاريب فيه أنه كان هناك نزاع ، وكانت هناك بغيضة . فالأتراك والجراكسة حكام مسلطون ورؤساء غاشمون، احتازوا السلطة قوة وقهرا ، وملكوا لأنفسهم أسباب القوة والقهر . واحتازوا المال والجاه والثراء الضخم وهيئوا لأنفسهم أسباب احتيازها . وعاشوا فى ترف ونعيم ولذة واستعلاء ، وحرصوا دائما على أن يعيشوا كذلك وعصموا حياتهم من أن يعتريها هوان أو ذلة ، أو يلحقها شظف أو حرمان .

وبينما هم كذلك إذ نرى الأغلبية الشعبية تعيش فى حرمان وشظف ، بل وفى هوان وذلة . ولا تستطيع أن تجلب لنفسها الخير ، أو تهيء لعيشها الرخاء ، أو تجنب حياتها أسباب الشقاء . فلا ريبة حينذاك فى حقدها على هؤلاء الحكام ، وكراهيتها لهم . تكبت هذا حينا وتبديه حينا ، وتترفق فى كبته وتخدع نفسها ، وتتلطف فى إبدائه وتفكه أملها . فالنزاع إذن قائم ، ولكن مجاله النفوس وميدانه الصدور ، لم يتخذ قط مظهرا له عمليا إيجابيا هادفا إلى تغيير أو تحوير أو تحويل . وسترى مصداق ذلك فى بعض ماجمجمت به خواطر الشعراء ، وقد أمنوا مكر الحاكمين واطمأنوا إلى أن مايهجون به لن يرقى إلى أسماعهم ولن يطرق آذانهم .

ولم يكن الأقباط يستخدمون فى دواوين .فاستخدموا .وأصبح لهم حظ واضح فى هذه الدواوين . وبخاصة فى ضبط حسابها وإيرادها ومصروفها وصرف رواتب

موظفيها . ويبدو أنه لم يكن ثمة رقابة قوية من الأتراك على هـــذه الدواوين ومحاسبة كتابها وموظفيها على ما يأخذون وما يدعون ، وعلى ما يخطئون فيه أو يصيبون . فكان ذلك أدعى لعبثهم وأدنى لفسادهم فأهملوا وسرقوا وحرموا وغشوا . وتداعى أفراد كل طائفة بعضهم إلى بعض . فتعاونوا وتآمروا . فكان من وراء ذلك طوائف وأجناس ، منهم المستأثر ومنهم المحروم . ومن بينهم الغاصب ، ومن بينهم المغصوب . وبسبب ذلك كله ثارت العداوات واحتدمت الخلافات . وصارت الدواوين مراحا لفوضى ناشبة وقلق مستقر .

تلحظ ذلك كله فيما سنعرضه عليك من شعر البوصيرى ، عند حديثنا عن أثر هذه البيئة الاجتماعية فى شعر شعرائها . فقد قدم إلينا وثيقة لا تـكذب ، ونصاً لا يريب .

عصائب النساء وعمائم اليهود والنصارى :

وما دمنا استطردنا إلى ذكر مفاسد النساء ، وإلى ذكر اليهود والنصارى ، وبلغنا بذلك خاتمة هذا الفصل، فلنفـكهك بحديث وجيز عن عصائب النساء ،وعن عمائم اليهود والنصارى . وفى الحديث بعض ملامح المجتمع .

أما عصائب النساء : فقد كان النساء إلى عهد الأشرف قايتباى يلبسن على رءوسهن عصابات ذات قنازع وسراقوسات حريرية ، ويخرجن بذلك إلى الأسواق . فرسم قايتباى للأمير « يشبك الجمالى » المحتسب فى رجب عام ٨٧٦ هـ بأن ينادى فى القاهرة بمنع ذلك ، وألا تلبس المرأة إلا عصابة طولها ثلث ذراع مختومة من جانبيها بختم السلطان ! ! وشدد فى ذلك على بائعى العصائب ، وشدد النـكير على كل امرأة تخرج من بيتها بعصائبها المقنزعة أو سرقوسها الحريرى ، وإن لا تضرب وتشهر فى الأسواق .

فاضطر النسوة إلى لبس العصابة الطويلة عند خروجهن ، ولـكن كارهات .

أو عدم لبس العصائب مطلقا . ولبسن المقنزعة داخل المنازل . وقال فى ذلك الأديب زين الدين بن النحاس .

أمر الإمام مليكنا بعصائب فى لبسها عسر على النسوان
فقلقن ثم أطعنه ولبسنها ودخلن تحت عصائب السلطان

واستمر الحال كذلك مدة ، ثم عاد النسوة إلى ما كن عليه من قبل[1] .

أما عمائم اليهود والنصارى : فقد اتجهت نية بعض السلاطين إلى جعل عمائمهم من ألوان خاصة تمييزاً لها عن عمائم المسلمين .

ومن السلاطين الناصر محمد بن قلاوون ، رسم فى عام ٧٠٠ هـ لليهود أن يلبسوا عمائم صفراء ، وللنصارى أن يلبسوا عمائم زرقاء ، وللسامرية أن يلبسوا عمائم حمراء . وأعلنهم بذلك نداء فى مدينة القاهرة ، وكان النصارى ـ أى القبط ـ من قبل ، يلبسون عمائم بيضاء كعمائم المسلمين .

قيل : وكان سبب ذلك أن بعض المغاربة كان جالسا بباب القلعة . فدخل بعض الكتاب الأقباط بالديوان ، وهم بعمائمهم البيض فبالغ فى تعظيمهم على اعتبار أنهم مسلمون . ثم تبين أنهم أقباط . فشكا ذلك إلى السلطان الناصر فرسم بما سبق بيانه .

وفى عام ٧٥٤ هـ رسم السلطان الصالح صلاح الدين بأن تكون عمائم النصارى عشرة أذرع لا غير .

ونذكر بهذه المناسبة أن السلطان المذكور ، رسم أيضاً بألا يستعان بهم فى ديوان ، ولا يركبوا دابة مكارى مسلم . وإذا مروا بالمسلمين ترجلوا ، ولا يدخلوا الحمام إلا والصليب معلق فى أعناقهم[2] .

---

(١) بدائع بن إياس ٢ ج ص ١٣٢

(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٣ ، ٢٠١

ويذكر السير وليم موير : « أن القوانين التي أصدرها الناصر محمد بن قلاوون بشأن النصارى ، ترجع إلى أن حكومة أرجون أرسلت وفداً إليه تطلب أن يسمح بفتح بعض كنائس خاصة ، وبفك أسير مسيحي . فأجاب السلطان هذا الملتمس . وعاد الوفد ، ومعه الأسير . ثم رأى السلطان أن يأخذ عن الأسير فدية ، فبعث في أثر الوفد – وكان عائداً إلى الإسكندرية ليبحر منها – فرفض الأسبان دفع الفدية وأسروا رسل السلطان معهم وفروا بهم . فأوغر ذلك صدر السلطان . وأصدر ما أصدر من القوانين .

وكان حتما على اليهودي أن يلبس عمامة صفراء ، والنصراني زرقاء ، ونساؤهم غطاء خاصا على صدورهن يميزن به . وحرم عليهم حمل السلاح . وأذن لهم بركوب البغال ، بشرط أن تكون أرجلهم من ناحية واحدة ، وأمرهم بتعظيم المسلمين في مناسبات عدة . . إلى غير ذلك .

ثم إنه بعد مدة عمل على إنصافهم وطمأنينتهم . وقد حدث أن استعار بعض المسيحيين بسطا ومصابيح من أحد المساجد للاحتفال في يوم عيد لهم ، فاندفع بعض المتعصبين وخربوا كنائسهم . فعاقبهم الناصر .

وهناك حوادث مشابهة غير هذه الحوادث »(١) .

وبمناسبة عصر الناصر ، نذكر ما روى من أن أخلاق النساء فسدت في زمانه وصرن يخرجن متبرجات . ففرض ضريبة فادحة على كل متبرجة من نساء الطبقة العليا ، وعين امرأة للإشراف على تنفيذ هذا الأمر(٢) .

وبعد فحسبنا ما مر ببيانه من ملامح البيئة الاجتماعية ، ومعالم المجتمع المصري

(١و٢) تاريخ دولة المماليك للسير وليم موير ص ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٩١

فى العصر المملوكى . وقد تناولناها من زوايا متعددة ، تتضافر على رسم صورة واضحة . ولم نذهب مبعدين إلى آخر أطراف كل زاوية ، إذ أوجزنا رعاية المقام ، ولما سبق لنا تفصيله فى مجلداتنا السابقة .

فلنسر قدما إلى الباب الثانى من هذا البحث ـ أثر البيئة المصرية فى الشعر ـ لننظر فى شعر العصر وصلته ببيئاته ومدى استجابته لوحيها .

الباب الثانى

فى

بيان أثر البيئات المصرية فى الشعر

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول
في
بيان أثر البيئة الطبيعية في الشعر

أشرنا فيما سبق إلى أهمية البيئة الطبيعية فى حياة الأديب والشاعر ، ورأينا أنها ذات صلة وثيقة بأدبه وشعره . كما درسنا طبيعة مصر ، وما يتصل بها من موقع ومناخ ونسيم ، ومن سماء وأرض . ومن نيل وجداول ومقياس وبساتين ومنازه ، وغيرها ، فى الحقبة التى نؤرخ شعرها . فماذا كان أثرها فى شعرائها ، وما مبلغ استجابتهم لها .

ومن المناسب أن نذكر لك هنا ما تحدث به الدكتور الفاضل عبد اللطيف حمزه فى مقدمة كتابه « الحركة الفكرية[1] عن « الشخصية المصرية » ، وهو يؤرخ حركة الفكر فى مصر فى الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية .

وقد أرجع عوامل تكوين هذه الشخصية إلى جملة مؤثرات أهمها البيئة والموقع . ورأى أن من أهم عناصر هذه الشخصية الميل إلى السهولة والوضوح والاستقامة والاستقرار والذوق. ولهذه العناصر آثار كثيرة فى الأدب المصرى . وله فى أدب مصر العربية شواهد لا تحصى .

وسترى فى الفصل الخامس الذى نعقده للحديث عن النواحى الفنية لهذا الشعر المملوكى نماذج منه وأمثالا لا حصر لها تؤكد ذلك .

ولا يمنعنا هذا من أن نضيف إلى ما تقدم أن المناخ — وإن كان من لوازم البيئة والموقع — له أثر ممتاز فى صفاء القرائح المصرية واعتدال مزاجها ، وفى لطافة حس المصريين ورقة ذوقهم وخفة نقدهم وسماحهم .

---

(١) الحركة الفكرية فى دولة الأيوبيين و المماليك البحرية ، للدكتور عبد اللطيف حمزة — المقدمة .

على أن الذوق الرقيق ، وإن كان من نتائج الموقع والمناخ ، ربما كان أيضا قد تولد فى مصر بسبب عوامل ترتبت عليهما إذ أن مصر بلاد متوسطة بين أمم العالم القديم وبين شعوبه المتحضرة ، وشواطئها ممتدة على طول بحرين عظيمين ، كانا وما يزالان أهم — أو من أهم — معابر التجارة والرحلة . لهذا كانت مصر ممرا للمسافرين بين الشرق والغرب .

وفضلا عما اكتسبه سكان مصر ، وبخاصة سكان شواطئها وثغورها وحواضرها ، من أرباح مادية ، ومن ثقافات علمية وأدبية ، ومن تقاليد وعادات وافدة ، اكتسبوا إلى جانب ذلك ، الذوق واعتدال المزاج . ولم يكن ذلك لأن الهابطين إليها والمارين بها ، قوم أولو ذوق ومزاج معتدل . وإنما لأن المصريين بلوا منهم ألوانا كثيرة من الأذواق والأمزجة . فوازنوا بينها ، وعرفوا متعدلها من متطرفها ، وسليمها من سقيمها ، وسهلها من معقدها . فاكتسبوا خبرة فى فهم الأذواق والتمييز بينها ، وهذا هو الذوق الأصيل . فلا غرابة أن جروا فى حياتهم — أو على الأقل فى جوانب منها — على نهج من الذوق والفهم ، وعلى نسق من اعتدال المزاج والتسامح .

والتمييز بين الأذواق ، والحكم عليها ، هو النقد . وتعدد النماذج أمام الناقد يعينه على الوصول إلى حكم أكثر صحة وصدقا وصوابا . وهكذا توطن حب النقد ومقارنة شيء بشيء ، وموازنة صناعة بصناعة ، فى أذواق المصريين . ولعل ذلك ذو صلة بتولعهم بالبديع وصناعته ، وتنافسهم فى إجادة أنواعه . كما أنه — بلا ريب — ذو وصلة ببروز روح النقد فى شعرهم ، فبدا — كما سترى فى الفصول القادمة — لاذعا مرا . وإن كان سطحيا عابرا عبور المسافرين إلى مصر والهابطين إليها . وأضاف إليه اعتدال المزاج والتسامح ، صوبا من تهكم وفكاهة .

وعلى الرغم من أن البيئة الطبيعية فى مصر ، دعت أهلها إلى شيء من الكدح والكفاح والدأب ، لم تعلمهم — إذ ذاك — بجانب هذا إلا الرضا بالقضاء والقدر ،

والاستسلام لمشيئتهما. مع الأمل المطرد المتجدد ، دون اليأس القاتل. ومع العمل، ولو الوئيد ، والاعتقاد بالمجهول دون شق حجبه وأستاره ومعاناة الوصول إليه والتحكم فيه .

ولعل ذلك كان ، لأن التربة الزراعية هكذا كان دأبها فى العصور الماضية ـ قبل أن تنتشر فى ربوعها عوامل اليقظة ـ تنبت لهم كثيرا مما يحتاجون إليه من الغذاء ، ولو لم يبذلوا فى سبيله كفاءه من العمل والتعب . وهذا هو جود التربة وكرم الخصب ، اللذان يغريان بالكسل والاتكال . . .

كان هذا فى الزمن القديم ، لا الحديث ، فكانت النفوس تعيش أبدا آملة ، لا يعتريها اليأس ولو فى أشد الأوقات حرجا وشدة . وإنما تفيض عندها بالشكاية الوديعة المسالمة . وتنسب أسبابها إلى الزمان وصروفه .

ولعل ذلك له دخل فى استسلام هذا الشعب للدول الفاتحة المتعاقبة عليه ، ولحكم الفرد فيها . وقد عاون على هذا الاستسلام الفهم الخاطىء لمقتضيات الدين.

والبيئة الطبيعية فى مصر ، أجمل ما فيها نيلها وجداوله ، والأرض الطيبة الخصبة على شاطئيه ، حيث ينمو الزرع والشجر ، وينبت لأهلها الغذاء والثمر . فى صعيدها أو فى دلتا النهر . وكذلك شواطئها . وما عدا ذلك هضبة عالية فى غرب النيل مسطحة تقريبا، تتخللها الرمال والواحات، على نحو ما وصفنا فى مطالع هذا البحث كله، وهضبة مثلها فى شرقه جبلية ذات مرتفعات ، تضرب إلى سواحل البحر الأحمر . . هذا إلى مناخ معتدل دافىء .

ولا ننكر أن يد الإنشاء والإصلاح والتجميل ، كانت تتناول أجزاء هذه البيئة من آن إلى آن ، فتسوى أرضها أو تحفر غدرانها ، أو تنشىء خلجانها ، أو تهيء بساتينها ، أو تنوع نباتها ، أو تنمى أشجاها ، أو تفتح أزهارها ونوارها ، أو تتعهد حيوانها وطيورها ، أو تجرى دولاباتها ، أو تدير سواقيها ونواعيرها .

كما لا ننكر أنها كانت تنشىء الدور وتعلى القصور ، وتشيد الأبنية الفارهة ، والعمائر الضخمة ، والمساجد الجامعة ، وتزود هذا وذاك بالجميل من الزخرف والجديد من الصنع والفن .

ويمثل هذا كله على جانبيها ويعيش ، حتى يتحول بمضى الزمان وتتابع الأيام ، واطراد وقوع العين عليه ، وندرة التغيير فيه ، إلى جزء من أجزاء الطبيعة المصرية ، ـ كما تحولت الأهرام ـ ، وإن كان مظهرا فى الأصل من مظاهر الحضارة .

وبالرغم من هذا كله ، ينبغى أن نذكر مرة أخرى أن مناظر الطبيعة المصرية ، فى جملتها ، قليلة ، وهى مع قلتها كثيرة التشابه ، تتشابه أجزاؤها على جانبى النيل وفى دلتاه ، حيث تطرد الزراعة ويتجانس النبات ويتشابه الشجر والزهور والثمر . كما يتشابه الحيوان والطير .

وتعدد المناظر واختلافها وتغايرها فى أجزاء البيئة الواحدة ، له أثره ـ بلا ريب ـ فى خيال الشعراء . فهو يعينهم على تعدد المشاعر وتوليد الأحاسيس المتغايرة ، وكثرة التصورات الذهنية والنفسية ، وحسن الموازنة والمفاضلة . وكل ذلك له دخل كبير فى ثراء الصور الشعرية وتنوع الأخيلة .

لنأخذ هذا فى الاعتبار ، ونحن بصدد محاسبة شعراء البيئة المصرية فى ذلك الزمان البعيد . ولندخل فى حسابنا أيضا ما نشاهده فى بيئتنا حتى اليوم ، من رتابة ونظام مطرد ، أو يكاد يكون مطردا ، فى مناخها وفصولها ، وما يتصل بهما من مشاهد الطبيعة . فإن مناخ مصر ـ كما علمنا ـ لا يكاد فى جملته يختلف فى فصل عن فصل ، ولا فى يوم عن يوم ، وإذا اختلف فليس ثمة اختلاف جوهرى جذرى ، كالذى بين طرفين متناقضين .

حتى النيل نفسه ـ وهو مظهر النعمة ومصدر الخير ، ومحرك الطبيعة فى أجمل مرائيها ، فضلا عن أنه الجزء الأهم والأساسى بين أجزاء الطبيعة المصرية ـ يكاد يسير فى حياته رتيبا منظما ، لا تكاد تختل فيه هذه الرتابة ، ولا يتأخر فيه هذا النظام .

أقول : فلنضع هذا كله فى الاعتبار ، ونحن بصدد محاسبة الشعر فى إحدى حقب مصر الطويلة ، على ما كان لديهم من إحساس بطبيعة بلادهم ، وعن مدى تأثير هذه الطبيعة فى نتاجهم الشعرى .

وسنرى أنهم كانوا لها قلوبا والهة ، ونفوسا محبة ، ومشاعر مرهفة ، وألسنة معبرة واصفة .

لقد كان للبيئة الطبيعية فى مصر أثر بالغ فى شعر شعرائها فى العصر المملوكى.

برز هذا فى الوصف . وكان الوصف لديهم معرضا حافلا . تناولوا فيه كل ما تراءى لهم ، ووقع تحت بصرهم ، من أجزائها . لقد وصفوا حدائقها وما دار حولها من جداول ودواليب ونواعير ، وما عاش من حيوانات وطيور ، وما نما من أفنان ، وازدهر من أغصان ، وتفتح من أزهار ، ونضج من ثمار .

لقد عشقوا النيل وقدسوه ، ووصفوا ماءه وتياره ولونه . لقد خاطبوه وتغزلوا فيه ، وأبدعوا فى ذكر فيضانه ووفائه وخلجانه ومقياسه ، واحتفوا بكسر الخليج وحفلات الوفاء ولعب الزوارق ولهو الأمواج . وشببوا بما نما على حفافيه من البساتين والمنازه ، وما مال على شاطئيه من السرح والشجر . وتشوقوا إليه إذا اغتربوا ، وحنوا إلى أرضه ورياضه إذا نأوا وابتعدوا . بل لقد داروا مع سواقيه إذا دارت ، وأنوا مع دواليبه إذا أنت . . .

لقد عشقوا محاسن هذه الطبيعة المصرية ، وأشادوا بمصر وما شب فى أحضانها من ألوان الجمال .

لقد امتزجوا بأجزاء هذه البيئة . حتى انتزع بعضهم منها تشبيهاته وتورياته ، وانتفعوا فى ذلك بمرائيها ومشاهدها . لقد ساروا مع رياحها إذا سارت . ومالوا مع أنسامها إذا مالت ، وضحكوا مع ورودها ، إذا ضحكت وقصوا وحكوا مع طيورها إذا قصت أو حكت .

لقد اندمجوا فيها ، وشخصوها أحياء موحية ومستجيبة ، وبادلوها عاطفة

بعاطفة ، ومسرة بمسرة . ونصبوا منها أشخاصا شاعرة محسة . فمصر أم لولدان . وداعية لبنين ، ومدافعة عن أبناء . وصوروا نيلها واهبا للخصب ، وما نحا للغنى، وملكا يذود جيوش المحل عن أرضها ، ويدفع كتائب الغلاء عن أهلها ، وهو يتصرف بلب وفهم وبإرادة وعلم ، وهو ذو شيم كريمة لا تنافسه فيها الأنهار ، وحسبك من هذه الشيم الوفاء . . . .

وخاطبوا برقها وأنسامها وحملوها أمانة التحية ورسالة الشوق ، وداعبوا رياضها حتى اغتبقت غصونها وضحكت أزاهيرها . إلى غير ذلك مما سنفصله .

ومن ذلك ترى إلى أى حد تأثرت نفوسهم ومشاعرهم وحواسهم معا بها . وإلى أى حد عبروا عما شعروا به من ذلك ، سواء فى قرارة نفوسهم أم من متناول حواسهم ، فكانوا مستجيبين لها ملبين لإلهامها .

ولعلنا فيما سنقصه عليك من ذلك، نستطيع أن نقضى على الأسطورة الممجوجة أو الفرية المدعاة ، من أنهم إزاء طبيعة بلادهم كانوا يعانون ضيقا فى النفس ، وبلادة فى الحس ، ونقصا فى الشعور ، وسذاجة أو قصورا فى التعبير ، وندرة فى الاستجابة وتلكؤا فى التلبية . وبخاصة فيما يتعلق بنهرهم المبارك ، نهر النيل .

وسنقصر حديثنا فى هذا الفصل على الوقوف لدى « الموضوعات » التى تتصل بالبيئه الطبيعية أكثر من اتصالها ببيئة غيرها . تاركين غيرها من الموضوعات لما هو ألصق بها وأنسب لها من البيئات الأخرى .

حب مصر وذكراها

ومصر ، منذ الذي لا يعشقها ، وهى البلد الحنون ، والموطن المئلاف ، والمراح لحدب والسكن السمح ، والمكان الخصيب والمربع الرحيب ، الرخى الأنسام ،

الرضى الأيام محل النيل ومجراه ، به ماؤه وشاطئاه . .

بلغ حبها من قلب صلاح الدين الصفدى ، وحبه لأهلها ، أن رأى أن من طاف حول الدنيا بأمصارها ، وجال فى الأرض وأقطارها ، ولقى فى طوافه وتجواله ألوانا من الناس ، وأجناسا من الخلق ، ولكنه لم ير مصر ، ولم ينعم بالنزول إليها . ومشاهدة ربوعها ، وبقرب أهلها ، فكأنه لم ير الدنيا ولم ير الناس . يقول :

من شاهد الأرض وأقطارها والناس أنواعاً وأجناسا
ولا رأى مصر ولا أهلها فما رأى الدنيا ولا الناسا(١)

ولعله يعبر عن هذا الشعور نفسه ، ولكن بتصوير آخر ، وبشكل مغاير ، وبتكرار — لعمرى — يدل على صدق شعور . وذلك أنه شاهد فى مصر عجائب ، ما رآها غيره من الناس . وهى أن الدنيا تسود فى عينيه فى كل ناحية منها يرحل إليها ولا تبيض إلا إذا ما كان فى أرض النيل ، مصر الرحبة الكريمة السمحة .

وأعتقد أن الشاعر يرمز بالسود والبياض فى بيتيه التاليين ، إلى الجدب والخصب ، أو إلى ضيق العيش وسعته ، أو إلى عبوسة اللقاء والفرحة به .

يقول الشاعر :

رأيت فى أرض مصر مذ حللت بها عجائبا ما رآها الناس فى جيل
تسود فى عينى الدنيا فلم أرها تبيض إلا إذا ما كنت فى النيل(٢)

والمعنى ـ كما ترى ـ ذو صلة بمعنى بيتيه السابقين ، ينبع من الشعور نفسه . الذى ينبعان منه ولا تحس فيهما بتكلف فى سوق الطباق بين تسود وتبيض .

---

(١) بهجة الناظر للسيوطى .
(٢) المصدر نفسه .

وزين الدين بن الوردى ينهج فى شعوره وإحساسه نهجا مماثلا ، يفارق فى التصور والخيال فمصر عنده هى الدنيا وساكنوها لديه هم الأنام . فإذا كان الصفدى قد اعترف بأن هناك أرضا غير أرضها ، وأناسا غير أناسها ، ولكن أرضها هى أحرى بأن تكون الدنيا ، وناسها أجدر أن يكونوا وحدهم هم الناس، فإن ابن الوردى اعتبر مصر هى الدنيا وأهلها هم الأنام . يقول :

ديار مصر هى الدنيا وساكنها   هم الأنام فقابلها بتقبيل
يامن يباهى ببغداد ودجلتها   مصر مقدمة والشرح للنيل(١)

وقد أخذ صلاح الدين الصفدى هذا المعنى وبعض اللفظ ، فقال :

ركبت فى النيل يوما مع أخى أدب   فقال دعنى من قال ومن قيل
شرحت يا نيل صدرى اليوم قلت له   لا تنكر الشرح يا نحوى للنيل(٢)

ويقسم ناصر الدين أبو بكر بن عمر بن سلار — المتوفى عام ٧١٦ هـ — أن مصر هى الجنة العليا ، وأن أبناءها هم الولدان ، وأن روضها هو الفردوس ، وأن نيلها هو الكوثر ، وذلك فى بيتيه :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما   هى الجنة العليا لمن يتفكر
فأولادها الولدان من نسل آدم   وروضتها الفردوس والنيل كوثر (٣)

أما علاء الدين الوداعى فيتشوق إلى مصر وسكانها وإلى عهدها الخالى . ويستروى الأحاديث عن نيلها ريا لشوقه وسقيا لوجده وذلك فى قوله :

رو بمصر وبسكانها   شوقى وجدد عهدى الخالى
وصف لى القرط وشنف به   سمعى وما العاطل كالحالى

---

(١) تأهيل الغريب فصل الأنهار — وبهجة الناظر للسيوطى ورقة ٨٣ — وديوان ابن الوردى ص ٢٥٢

(٢) المصدر نفسه .   (٣) الدرر الكامنة ج ١ رقم ١٢١٠ .

وارو لنــا يا سعد عن نيلها حديث صفوان بن عسال (١)

ويدنو الشاعر إبراهيم المعمار من الواقع ولا يهيم فى دنيا الخيال . ويقول فى بساطة ، إن مصر منزل مستحسن سواء منه شرقه أو غربه . ويأسره حب الاقتباس فيذكر الصعيد الطيب ، عن طريق آى القرآن الكريم . فيقول :

ما مصر إلا منزل مستحسن فاستوطنوه مشرقا أو مغربا
هذا وإن كنتم على سفر به فتيمموا منه صعيداً طيبا (٢)

ويبدو أن جهة المقياس كانت تستأثر بالكثير من الزوار ، وتجذب إليها العدد الجم من المحبين . ويورى الشاعر الأديب شهاب الدين المنصورى بالمقياس تورية لطيفة ، ويدعو الزوار والمحبين أن يقضوا أوقاتهم بمصر ، فهى أوقات سرور لا تمل . وأوقات السرور قصار . فليتنهزها المرء ولا يعجل عنها بالمسير .

وعلى لسان مصر يقول الشاعر ما جال بخاطره :

تقول لنــا مصر أنا خير موطن ولا ناس فى الأمصار أظرف من ناسى
فإن تلك أوقات السرور قصيرة فلا تقطعوها فى بالمقياس (٣)

ولشاعر مصر الكبير جمال الدين بن نباتة ، أشواق حارة ، وحنين لا يهدأ ، إلى مصر وملاعبها وذكرياتها ، وإلى النيل ورياضه . لقد طوحت به النوى ونزحت الدار ، فعاش بعيداً عن وطنه المحبوب وبلاده الأثيرة ، يعانى لوعة البعد وألم الفراق .

---

(١) تأهيل الغريب باب الأنهار — وبهجة الناظر للسيوطى ورقة ٧٣ — وحلبة الكميت للنواجى ص٢٩٧ .

(٢) بهجة الناظر ونزهة الخاطر للسيوطى ورقة ٨٣ .

(٣) بهجة للناظر للسيوطى ورقة ٨٤ .

لقد فارق مصر إلى ربوع الشام . فانتهب الشوق إليها نفسه ، وصار يتغنى بها وبنيلها مخصب الثرى ومغنى الورى وقاتل المحل . يقول :

وإنى لمشتاق إلى ظـــل روضة   على النيل أروى العيش منها عن النضر
لئن حثنى باب البريد إلى مصر   لقد حثنى باب الزيادة فى النذر
إلى مصر يحلو نيلها مخصب الثرى   فيغنى الورى فى الحالتين عن القطر
وتقبيل حلو الغزو للمحل قاتل   حلاوته سكب وجنديه يجرى [(١)]

وتذكر بعض أهله الذين تركهم فى مصر ، فتأوه لهم ولمصر ولذكرياته بها . فقال :

بأبى الخـدود العاريات من البـكاء   اللابسات من الحرير جلاببا
النابتـات بأرض مصر أزاهرا   والزاهرات بأرض مصر كواكبا
آها لمصر وأين مصر وكيف لى   بديار مصر مراتعا وملاعبا
حيث الشبيبة والحبيبة والوفا   فى الأقربين مشاربا وأصاحبا
والطرف يركع فى مشاهد أوجه   عقدت به طرر الشعور محاربا
والطرف سلم كيفما حاولته   لا مثل دهرى فى دمشق محاربا [(٢)]

وها هو ذا يتجه إلى البرق السارى إلى آفاق مصر ، فقد ذكره ما عذب من زمان النيل . ويضرع إليه أن يحدثها عن أدمعه وعن نار قلبه ، ويندب إليها عمره وصباه ، وتلك لعمرى ومضة نفسية ملتاعة .

يقول الشاعر :

يا سارى البرق فى آفاق مصر لقد   أذكرتنى من زمان النيل ما عـذبا
حدث عن البحر أو دمعى ولا حرج   وانقل عن النار أو قلبى ولا كـذبا
واندب على الهرم الغربى لى عمرا   لحبذا هرم فارقته وصبا [(٣)]

وفى لوعة المشتاق وأنة الباكى ولهفة العاشق ، يهب ابن نباتة هذه الأبيات

(١) ديوانه ص ١٩٦ .   (٢) ديوان ص ٢٦ .
(٣) ديوان ص ٣١ .

التالية لمصر ، يودعها كثيراً من آلامه وأحلامه ، وذكرياته وأمنياته ؛ وما هى إلا طاقة نفس وإفاقة حس .

يصرح الشاعر بأن الشوق دعاه إلى ذكر حماه ويدعو لمصر بسقى الغوادى ، ويذكر إليها زمان وصاله فيها ، وصباه الطيب فى ربوعها ، وما كان حوله من وجوه بيض تجتلى ، وشعور سود تسحب ، وما جد عليه من أمر النوى ، وما لاعه من البعد ، وما أمله من الخير فى العودة . . . .

يقول الشاعر فى عبارة جزلة فى رقة ، وخلة فى عذوبة :

دعاه لذكر الحمى مذهب وشوق أقام فما يذهب
أمصر سقتك غوادى السرور وجادك من أفقها صيب
ذكرت زمانك حيث الوصال وحيث الصبا طيب طيب
وبيض الوجوه بها تجتلى وسود الشعور بها تسحب
وكم قمر فيك سافرت عنه وعقرب أصداغه غيهب
فما كان بالسفر المستجاد وقد أطلع القمر العقرب
وإن حف بى للنوى مهلك فكم صح لى باللقا مطلب
وإن طمعت فى ليالى الحمى مناى فكم قد فشا أشعب
وقد يحسب المرء ما فاته فيأتيه أضعاف ما يحسب
لعمرك ما الصبح بالمستنير وقد فاتنى ذلك المغرب . . . الخ[1]

وهام الأديب البارع شهاب الدين بن فضل الله العمرى هياماً شديداً بمصر ونيلها ورياضها ، وعشق مغانيها ومجانيها ، ومفاتنها ومحاسنها .

لقد كتب عنها فى سياق رسالة له منثورة ، بعث بها إلى الأمير الجاى الدوادار ، أبياتا تنم عن حب أصيل ، وشعور بقدسيتها جميل نبيل ، بلغ به حد الفخر والتيه . وإن خلطه بمدح لممدوحه . فقد قال له :

---

(١) ديوانه ص ٥٠١ .

بلد أنت ساكن فى رباها   بلد تحسد الثريا ثراها
قد تعالت إلى السماء بسكنا   ك فألقت على البطاح رداها
جمد الطل فى الزهور فخلنا   أنه عقد جوهر لرباها
وجرى النيل فى الرياض فقلنا   كسرت فوقه المغانى جلاها
مثلما أنت فى معانيك فرد   هى فرد البلاد فى معناها (١)

وشبيه بذلك مانظمه أيضا وأطال فيه وأبدع ، وأجاد فيه وأمتع . وهو قوله يصف مسك أرض مصر ، وريا الروض وعطر الريح واغتباق الأغصان ، واهتزاز صفاح النيل . ويذكر سفائنه التى كالجبال ، وصهواتها الساكنة بينما الأفق حديقة خضراء مزهوة ، والمجرة نهر يتدفق ، والليل زنجية فى وشاحها تقوده الجوزاء ... إلى غير ذلك من المشاهد الطبيعية الفاتنة الجميلة ، التى يدل وصفه لها على امتزاج مشاعره وامتلاء نفسه بطبيعة بلاده ومحاسنها ، وعلى مدى تأثير هذه الطبيعة والمحاسن فيه .

يقول :

ما بين أكناف البطاح   مسك يذر على الرياح
من حيث يلتى الروض فى   أزهارها ريان ضاحى
والريح فى السحر البهيم   يطير مسكى الجناح
يسرى فتغتبق الغصو   ن به على عين الصباح
والنيل فى تياره الـ   منصب مهتز الصفاح
وبه السفائن كالجبا   ل تجول أمثال القداح
فركبت من صهواتها   دهماء ساكنة الجماح
حراقة تجرى على اسـ   ـم الله فى الماء القراح
والأفق مثل حديقة   خضراء مزهرة النواحى

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر ما قيل فى الأنهار والأشجار .

تحكى المجرة بينها نهرا تدفق فى أقاحى
واقتادت الجوزاء للسيل البهيم إلى الرواح
فكأنه زنجية حذفت بأطراف الوشاح[1]

والعجيب من أمر شهاب الدين بن حجر العسقلانى – وهو الفقيه الحافظ وقاضى القضاة – أن يسافر إلى حج بيت الله الحرام ، فيأبى إلا أن يملكه الشوق إلى مصر ، غب رحيله عنها ومفارقته لها ، فيذكرها ويذكر أهلها ويذكر معاهدها ومراتعها ، ويستحث الزمان ليعيده إليها ، لكى يهتز نشوان من فرح اللقيا ، والطمأنينة بالرؤية والأنس بالأمن . وهو فى ذكرى أيامها ينشق نسيمات الشمال معطرة بأرج أرضها ، ويودع هذه المشاعر فى قصيدة عصماء .

وها هوذا الأديب البارع يتساءل فيهما عن مصر تساؤل الملهوف المشوق المغرم ، وعن موعد اللقاء بها ، فيقول :

متى تنجلى يا أفق مصر بأقمار وأروى عن اللقيا أحاديث بشار
وأقرأ آى الوصل من صحف أوجه مواضع ختم اللثم فيها كأعشار[2]
وأهتز كالنشوان من فرح اللقاء ولا منة عندى لكاسات خمار
إلى مصر واشوقاً لمصر وأهلها تشوق صب للنوى غير مختار
ويا وحشتى يا مصر منك لبلدة لداخلها بالأمن بشرى من البارى
تهب نسيمات الشمال بأرضها فينشق منها الأنف جونة عطار
محسدة لا قدح فيها لعائب على أن زند الفضل من أهلها وارى
إذا فاخروها قام صارم نيلها بمقياس صدق كاسرا كل فخار

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ما قيل فى الأنهار والأشجار . — والصفاح : الجوانب — وحذفه بالعصا : رماه بها .

(٢) الأعشار : جمع عشر ، يريد بها هنا الكثرة .

مراتع لذاتى وملهى شبيبتى ... ومبدأ أوطانى وغاية أوطارى
ومنزل أحبـــابى ومنزه مقلتى ... ومطلع أقمارى ومغرب أفـكارى
لبست ثياب اللهو فيهـا خلاعة ... وقامت على خلعى عذارى أعذارى

وينساق الشاعر إلى وصف رحلته التى فارق بها مصر إلى الحجاز ، ويثور به الوجد بمصر وبأحبابه فيها ، حتى يذكر أن النوى رمته ، وأنه امتطى مطية — يعنى السفينة — فيها غرائب وأسمار . وأنها تبطىء إذا ركد الموج ، وتسرع إذا أسرع . وأنها وهى « جارية » استرقت من فيها من العبيد والأحرار وأنه يديم عليها منادمة القرآن وقراءة الأذكار . . . ومن لطيف تصوره فى وصفها أنه وهو مسافر ، مقيم بها ، وأنها وهى منزل ، تسير أبداً . .

يقول ابن حجر :

رمتنى النوى حتى ركبت مطية ... أحاديثها فيهـا غرائب أسمـار
إذا السهل أوفى أبطأت فى مسيرها ... وتسرع فى الأمواج سيراً بأوعار
وجارية لـكنها تسترق من ... تبطن فيها من عبيد وأحرار
إذا رحلت فى البطن تمشى سريعة ... على ظهرها فاسمع عجائب أخبار
ولا خير فيها غير أن نزيلها ... نديم لقرآن مديم لأذكار
وأعجب ما أحـكيه أنى مسافر ... مقيم ولـكن منزلى أبدا سارى ...الخ

وما لبث الشاعر بعد سروح خياله وانسيابه بانسياب الموج والسفينة ، فعاش بينهما بمصورته مدة ، أن عاد إلى حنينه الأول ، وإلى وصف أشواقه إلى بلاده وإلى أهلها وإلى أحبابه فيها ، الذين تتمناهم روحه وتهتدى بهم بصيرته ويتنور بضيائهم بصره ، ويتيسر على يديهم عسره . فهم بذلك سعادته فى الدنيا والآخرة معا . لذلك نزلوا بقلبه فعمر بحبهم ، فما بالهم يشعلون به — وهو دارهم — نار الأشواق . . .

يقول الشاعر :

وأنتم منى روحى وهدى بصيرتى   وتنوير أبصارى وتيسير إعسارى
نزلتم بقلبى وهو عمـــار حبكم   فأحرقتم دار الضيافة بالنــــار

ويقول - ولعله يقصد زوجته أو أحد أبنائه - مخاطباً نسمات الريح ، أن تبلغ إليها سلامه ، فهى « روحه المقيمة فى داره » ويضرع إليها أن تسمح لمقلته بنوم يحظى فيه بوصل من طيفها . . .

يقول :

فيـانسمات الريح بالله بلغى   سلامى على روحى المقيمة فى دارى
سليها تسامح مقلتى بمنامها   لتحظى بطيب الوصل من طيفها السارى .. الخ

إلى آخر هذه القصيدة الممتعة فى بابها(١) .

ومن طرائف الشاعر العذب المبدع برهان الدين القيراطى ، هذه الأبيات التى وصف فيها مدينة الإسكندرية وصف المحب المغرم . فما يوافى معهدها حتى يطاق فى أرجائها عينه فتسبح وتطوف لتنتهب مافيها من جمال ومحاسن . وكل ناحية من نواحيها ، وكل مظهر من مظاهرها ، فيه غنم ومتعة ، وفيه حسن وفتنة ، وفيه رزق ويسر . .

والحق أن الشاعر لم يطف فى شوارعها بقدميه ، ولكن بروحه . ولم يسمع بها إلا هزار الوصل ، ولم ير إلا خدودا كأمثال الرياض ، ووجوها كالمصابيح ،

يقول الشاعر :

إســـكندرية إن وافيت معهدها   فقـــل لعينيك فى ساحاتها سيحى
فثغرها الأشنب الصبحى ذوشنب   حالى به حال مغبوق ومصبوح
ياصاحبى لبـاب السدرة ارتقيا   لمنتهى باب رزق ثم مفـــتوح

---

(١) ديوان ابن حجز العسقلانى : مخطوط - والجونة : سليلة مغشاة أدما ، تكون مع العطارين .

تمشت الروح منا فى شوارعها ذات ارتياح فكل شارع الروح
ياصاح صاح هزار الوصل فابتغ لى راحا بها راحة للجسم والروح
حيث الخدود كأمثال الرياض زهت وأزهرت بوجوه كالمصابيح[1]

ومصر المصرى ، وطنه المحبوب ومحل ميلاده ومجمع أوطار فؤاده . بها أهله وأحبابه ، وأبناؤه وأقرباؤه . وفيها ملاعب صباه ، ومسارح مرحه وملهاه . قضى بها أطيب أوقاته ، وسجل جميل ذكرياته وربط الود فيها بين قلبه وقلوب لداته . وذاق طعم الوفاء ، وإن تقلب بين السعادة والشقاء . فهى لذلك قطعة من نفسه ، ومتجه عاطفته وحسه .

وهو يشتاق إليها ، وهو بين يديها . فما بالك إذا غاب عنها وقضى عليه قاضى البين بفراقها ، رحلة إلى علم أو سعيا إلى رزق ، أو رياضة إلى منزه ، أو قصدا لأداء فريضة . أو غير ذلك . فكيفما كان من حاله ، تنازعه إليها الأشواق ، ويتطلع إليها فى الآفاق ، فيخاطب البرق ، ويحمل الريح ، ويستجوب النسيم ، ويظمأ إلى النيل . .

ويقول ابن نباتة مضمنا تضمينا تصرف فيه ، يخاطب البرق :

يا بارقا من نواحى مصر مبتسما بلغ تحية هامى الدمع منهمل
واذكر إذا هب معتل الصبا جسدى فربما صحت الأجساد بالعلل[1]

ويخاطب النسيم فيقول :

وأعد يانسيم أخبار مصر ربما طارح العليل العليلا

---

(١) ديوان البرهان القيراطى ورقة رقم ١٤٠ — مخطوط — والأشنب . ذو الشنب وهو الرقيق العذب الريق الكثير الماء .

(٢) ديوان ابن نباته ص ٣٨٣ .

أنت لاشك من صبا أرض مصر   فلهذا أرى عليك قبولا (١)

ويستشفع بدموع شوقه إلى العودة ليروى ظمأه من ماء النيل ، فيقول :

وهل إلى أرض مصر زورة لشج   بسائل من دموع الشوق ملحاح
وهل أباكر بحر النيل منشرحا   فأشرب الحلو من أكواب ملاح(٢)

الولوع بالنيل

ولقد رأيت فى بعض ما مر من الأبيات ، مظاهر ولوعهم بنهر النيل . والنيل منذ الزمن القديم ، نهر مصر المبارك الذى تنبثق فيها الحياة بسببه ، لأهلها وأرضها ونباتها وحيوانها .

وقد بلغ حبه عند قدماء المصريين حد العبادة والتقديس . وما زال حبه متوارثا بين بنى مصر ، جيلا بعد جيل ، يظهرونه بمظاهر مختلفة .

لذا كان ، وما زال ، مصدر وحى وإلهام لشعرائها، يعبرون بشعرهم له عن مكنون حبهم وتقديسهم ، ويسطرون ما يقع فى خيالهم عنه من بديع الصور ، ويدلون بذلك على امتزاج نفوسهم به . وهم فى ذلك مرآة الشعب الذى يعيش سنته يراقب فيضان النيل ونقصانه ، ويترقب أيام الفيضان ترقب الظمآن ... فإذا وفى النهر ونبه مقياسه على بلوغه حد الوفاء ، سرت بين صفوفه وجموعه معالم البشرى والفرح . وتوافدوا يحتفلون به ، وعلى رأسهم حكامهم ، متمشين مع إرادتهم . والشعراء بين هذا وذاك يسطرون ويسجلون ويصفون ، ويعبرون عن هذه المشاعر .

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ٥٥١ .
(٢) ديوان ابن نباته ص ١٠٦ .

وقد جرى الحال على هذا المنوال فى العصر المملوكى ـ كما روينا من قبل. وكان نهر النيل موضع الحب ومكان القداسة ومحل الحفاوة المستمرة، من الشعب وحكامه وشعرائه وأدبائه. وإذا وافى كتبت بأنباء وفائه البشارات النثرية، بقلم فنى بديع، يعبر عن أجمل المشاعر والأحاسيس وأنبل العواطف، نحو هذا النيل العظيم، وتقرأ فى الآفاق. وتصدر هذه البشارات من كتاب ديوان الإنشاء عادة. ونسج غيرهم من الكتاب على منوالهم.

وإذا لم يبلغ النيل حد الوفاء ـ فى ميعاد الوفاء المعتاد ـ ضجوا بالشكاية وأعلنوا بالخوف وخرجوا للاستسقاء..

وإذا زاد عن حد الوفاء وخشى الغرق وخيف التلف، فزعوا وارتاعوا ورجوا الله أن يهدىء من فورته ويطامن من ثورته..

هذه ظاهرة معتادة فى كل عام إما فيضان ووفاء وشكر، وإما نقص وجدب وغلاء وشكوى. وإما غرق وخوف. ولكل هذا صدى فى الشعر فى كل عام.

وهكذا ترى لديهم الشغل الشاغل عن النيل. ولم يقصر الشعراء، كما يقول بعض الأدباء (١)، فى إبداء شعورهم نحو النيل، والتعبير له عن مشاعر المصريين نحوه أو تصوير حبهم له. وكيف وهو مصدر اليمن والبركة لهم، ومنبع الخير والرزق. وعليه فى جملة الأمر مدار حياتهم وقوام معيشتهم.

ثم كيف وقد رأينا مظاهر الولوع فيما مر من الأبيات، مما نظمه الوداعى وابن نباته وابن فضل الله وغيرهم..

إنه لمن التعسف فى الحكم أن نستقرىء قليلا من النصوص الشعرية، فى موضوع خطير كهذا، ولا نستوعب. ثم نصدر الحكم بناء عليها لجا قاسيا لا إنصاف فيه ولا عدالة.

---

(١) راجع كتاب «النيل فى الأدب المصرى» لكاتبته الفاضلة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ص ١٤٨ وما بعدها.

كما أنه من التعسف فى الحكم أن نقف أمام نص من النصوص الشعرية ، فى الموضوع نفسه ، قد يكون حب الصناعة أملاه ، بل قل ، حب العبث فى الصناعة ، فنبرز ما فيه من العبث ، ونحكم بناء على هذا حكما نعطيه صفة العموم والشمول .

ونقول : « عبث وصناعة وافتعال » . ولا نلق بالا إلى ما وراء اللفظ ، وإلى ما يهدف إليه الشاعر .

لقد قال صلاح الدين الصفدى :

قالوا علا نيل مصر فى زيادته   حتى لقد بلغ الأهرام حين طما
فقلت هذا عجيب فى بلادكم   أن ابن ستة عشر يبلغ الهرما[1]

وكان النيل إذ ذاك . قد بلغ فيضانه حد الوفاء وهو ستة عشر ذراعاً . وقيل أنه فى ذلك الوقت ارتفع إلى الأهرام . فسجل الشاعر هـــذا الحادث ، وساق خلال تسجيله تعجبه من أن يصل الماء الأهرام ، وهو فى علو ستة عشر ذراعا فقط . إنه إذا زاد بعدها ، يخشى الغرق على البلاد حقاً ، وتعم الشكوى ويزيد الخوف . أما قبل ذلك فهذا حد الوفاء . فإذا كان قد وصل إلى الأهرام ، كان الأمر جديراً بالتعجب .

هذا هو الذى سجله الشاعر . وصب الشاعر حديثه بطريق التورية والمداعبة ، ولا ينكر ما فى ذلك من النزعة الأدبية . فإن الشعر ليس ديواناً للحقائق العلمية بمقدار أنه ديوان للتصورات الأدبية والأخيلة الجميلة المثيرة .

ومن الظلم أن نحاسب الشاعر هنا على توريته وما فيها من صناعة ، ونغفل ماعدا ذلك . ونتهمه بأنه أسير صناعته لا أسير النيل . وأنه فكر فى توفيتها حقها ، ولم يوف النيل حقه من الحديث عنه وإظهار الحب له .

إن الشاعر لم يشغله شاغل فى بيتيه غير النيل . والتورية زائدة فوق ما شغله .

---

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ .باب ذكر ما قيل فى النيل من الأشعار . ـ وبهجة الناظر ونزهة الخاطر للسيوطى ورقة ٨٣ .

لقد أراد أن يسجل زيادة النيل وبلوغه وهو فى ستة عشر ذراعا ، إلى الهرم ، وتعجبه من ذلك . فسجله عن طريق التورية . ويدهى أنه لم يرد أن يصوغ تورية، فرفع من أجلها النيل إلى الهرم . .

وغنى عن البيان أن اتجاه الشاعر إلى تسجيل هذه الظاهرة النيلية ، إنما هو مظهر لحبه للنيل وعنايته به واهتمامه بظواهره ، ويشعر هذا بارتباطه به عاطفيا .

وليس من الضرورى أن أصارح محبوبى فى كل لحظة وفى كل حديث ، بأنى « أحبه وأقدسه وأوثره . . الخ » فإنه ليكفيه منى فى هذا المجال أحياناً أن أسأل عن غيابه أو إيابه ، ورحيله أو وصوله ، أو صنف طعامه وشرابه ، أولون ردائه وثيابه . . وفى هذا ما فيه من عاطفة جميلة ومشاعر نبيلة . يستشعرها المحبوب ، تنم عن حب أكيد وشوق جديد .

وعلى هذا نستطيع أن نتقبل بيتى مجير الدين بن تميم .

ما زالت أنذره عيونا حوله خوفا عليه أن يصاب فيعثرا

فأبى وزاد تماديا فى جريه حتى هوى من شاهق فتكسرا(١)

فقد رأى النهر متدافع التيار متمادى الجرى . فملأه الخوف عليه أن يعثر — والخوف أحد مظاهر الحب — ولكن النهر قد زاد تماديا . فلقيته العيون فى طريقه فأصابته فتكسر .

وهو وصف تصويرى عاطفى معا ، كانت الاستعارة والتورية بعض أدواته . ويبدو أن النهر كانت تعترضه حينذاك بعض العيون المقامة . ولعلها كانت على خلجانه . . ونستبعد أن يكون هذا فى نهر النيل . .

وتلحظ فى البيتين اتجاه الشاعر إلى التشخيص . وإلى تعقيل النهر وحسبانه حيا يخاطب ويحس ويفهم ويأبى ويتمادى ويصاب . — وسنعرض لبيتى ابن تميم فى سطور قريبة مرة أخرى .

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر الأنهار — وراجع النيل فى الأدب المصرى ص ١٨٩

ويذهب الخيال بأديب مصر الكبير ، محي الدين بن عبد الظاهر ، فيسرح به فى مسارح الفتنة ، ويثير فى نفسه ثائرة العجب ، ويمضى به من معنى حسن إلى معنى حسن ، حيث يتصل المعنيان ويتعاكسان . ويقلبان الشاعر بين الإحساس بالإعجاز وبالإعجاب ، فيقول :

نيل مصر لمن تأمل مرأى　　　حسنه معجز وبالحسن معجب
كم به شاب فودها وعجيب　　　كيف شابت بالنيل والنيل يخضب[1]

والبيت الثانى غاية فى الدقة تصوراً وتصويراً ، مع سهولة ألفاظه ووضوحها . لقد ذهب خيال الشاعر مع النيل . وهو يروى الأرض فيسقى الزرع وينمى النبات ويفتح الزهر ، فيبدو أبيض مشرقا يملأ فود مصر بياضه . والنيل بمائه وبطينه ويكسو الأرض خضابا . وهكذا اجتمع اللونان فى خيال الشاعر : البياض والاحمرار . وهما معا من صنع النيل وفعل يديه ، وهما مظهراً إخصابه . وذهب الخيال إلى اعتبار البياض شيباً ، والاحمرار خضابا . واجتمع الاثنان . وصانعهما معا النيل ، وهذا مثار العجب ومحل الإعجاب . . ولعل الشاعر فى قوله « والنيل يخضب » يورى بلفظ « النيل » ويقصد الصبغ . وفى البيتين يبدو الارتباط الوثيق بين حياة مصر وبين النيل ، بهذا التأثير والتأثر .

ورأى الشاعر شمس الدين بن دانيال الموصلى إقبال النيل راويا فى تدفقه حديثا عذبا مسلسلا . فعلل ذلك تعليلا لطيفا ، هو سنحة من سنحات الخيال ورقيق التصور . مزج فيه مزجا جميلا بين معانى الرى والكرم ، كما مزج بين معانى الرى والرواية .

لقد رأى النيل فى أرضه شقيقه ، فأكرمه بأن ضمخها له بمائه المصندل . والمناسبة واضحة بين التضميخ ولون الشقيق ، والشقيق يسقى من هذا الماء .

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر ما قيل فى النيل من الأشعار .

فى كل ذلك أوصاف وصناعة ، ولا ريب . ولكنها متجهة إلى إبراز محاسن النهر وكشف مفاتنه ووجوه إبداعه وجمال صنعه .

يقول الشاعر :

كأنما النيل الخضم إذ بدا   يروى حديثا وهو ذو تسلسل
لما رأى الأرض بها شقيقه   ضمخها بمائه المصندل[1]

ويتحدث ناصر الدين بن النقيب عن النيل . وكأنما هو إنسان ذو دراية وإرادة . وله عناية بضبط أوقاته وله رأيه فى ذهابه وإيابه . وفى فهمه وتقديره لمواعيد حاجة الناس إليه .

ويقول :

كأن النيل ذو فهم ولب   لما يبدو لعين الناس منه
فيأتى عند حاجتهم إليه   ويمضى حين يستغنون عنه[2]

ولا أدرى بالضبط ، متى كان الناس يستغنون عن ماء النيل ، فى ذلك الزمان . لعل ناصر الدين بن النقيب ـ وهو لاريب شاعر فطن ـ يرى أن ذلك وقت التحاريق . وهو وقت ، فى زمانه ، لم يكن الناس يزرعون الأرض فيه . أو لم يكن الزراع فى حاجة ماسة إلى مائه لسقيها ، إذ كان الرى رى حياض .

وبدهى أن الشاعر يقصد بمجىء النيل ومضيه ، فيضانه وتحاريقه .

وأعتقد أن لو عاش ابن النقيب إلى زماننا ، لغير رأيه . بعد أن انتشر الرى المستديم ، وأقيمت على النيل مشروعات خزن المياه ، وتقسيم السنة إلى دورات زراعية بحيث لاتخلو أرض من زرعة أو من تمهيد لها ، وأصبحت الأرض لاتستغنى عن الماء طول العام .

---

(١) حسن المحاضر ج ٢ باب ماقيل فى النيل من الأشعار .
(٢) المصدر نفسه .

ويتحدث إيدمر التركى عن سحر النيل وكيميائه ، ويبين كيف استطاع أن يحيل لجين تربته ذهباً . ثم وقف راقصاً مبتهجاً بما أشاع من حسن ، وما نشر من جمال . وطفق يغنى ومغانى مصر تسمعه ، ونسمة الريح ترقص الأغصان على أنغامه وأناشيده .

يقول الشاعر :

كيمياء النيل خالصة قد أتتنا منه بالعجب
كان من ذوب اللجين فقد عاد بالتدبير من ذهب
راقص بالحسن مبتهج فهو فى عجب وفى طرب
ومغانى مصر تسمعه نغمة الشادى بلا صخب
ونسيم الريح لاعبه فى خلال الروض بالقضب(١)

وهكذا ألف الشاعر فى أبياته الثلاثة الأخيرة حفلا بهيجا فيه الراقص والمغنى والسامع اللاعب بالقضب . .

ويتناول الشاعر نفسه ، منظر النيل وجداوله المنسابة منه ، وهو مقبل سعيد ، وماؤه يتدفق فى جداوله رقراقاً مثل السلسل ، فيأتلق الحسن بذلك ويشرق . وتكثر ألوان الجمال ما بين مورد ومصندل . وينطلق ماؤه فى قيد الرياح . فيآله من مطلق مسلسل . . .

ويتجه الشاعر إلى زوارق النيل ، فيراها جميلة المرأى وهى تتحرك على رقاب الأمواج تسعى بها كما تسعى حيات لينة لدنة ركبتها عقارب . . والأسماك من تحتها فضة مما جمد من ذائب مائه .

يقول الشاعر :

انظر إلى النيل السعيد المقبل والماء فى أنهاره كالسلسل
أضحى يريك الحسن بين مورد من لونه حينا وبين مصندل

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ما قيل فى النيل من الأشعار — وكوكب الروضة ص ١٤٨ .

ويمر فى قيـــد الرياح مسلسلا   يا حسنه من مطلق ومسلسل
وترى زوارقه على أمواجـه   منسوبة للنـــاظر المتأمل
مثل العقارب فوق حيات غدت   يسعى بهـا فى عدوها ما يأتلى
وكأنمـا أسمـاكه من فضة   من جمد ذائب مائه من أول(١)

وبين سعادة النيل وإقباله ، ومائه المسلسل المورد المصندل . والزوارق الجميلة ، التى هى موضع النظر والتأمل ، والأسماك الفضية . شذ الشاعر بذكر العقارب والحيات(٢) ، وإن كان التشبيه بهما محبوكا .

وبرهان الدين القيراطى تحلوله موارد النيل ومصادره ، ويدعو ألا يبعد عنه شاطئه ، ويفضله على أنهار الشام ، ويرى له شيما وأخلاقاً حسنة محمودة لا تفاضله فيها الأنهار الأخرى .

ويشبب الشاعر بمن حول النيل من الملاح الحسان ، وما ينبت حوله من غصون بان . . .

يقول الشاعر :

خليلى بحر النيل لا شط شطه   موارده تحلو لنـــا والمصادر
فدع عنك أنهار الشآم ولا تـكن   لـكوثره بالنزر منها تـكاثر
له شيم فى الحسن ظاهرة علت   تدور على الأنهار منها الدوائر
بجانبه تمسى المـــلاح كأنها   بساتين فيهـــا للعيون مناظر
فكم غصن بان فيه للعين نرجس   وللخد ورد عاطر الزهر ناضر(٣)

وإذا زاد بحر النيل ، رأى فيـه البرهان القيراطى عجائب وحسنا وفضلا لا يخفى عن ذوى الفضل ، إذ يصبح ماؤه سكر المذاق وتلعب أمواجه وتتراقص ،

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ما قيل فى النيل .
(٢) كما تقول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ـ راجع كتابها «النيل فى الأدب المصرى» ص ١٨١ .
(٣) ديوان القيراطى ورقة رقم ١١٦ .

وتدور من فوقها الجوارى . . وتجبر القلوب بكسر سد خليجه . .

يقول القيراطى :

إذا زاد بحر النيل زاد عجائبا	وحسنا وفضلا ما اختفى عن ذوى الفضل
حلا منـــه ماء سكرى مذاقه	بإجماع أهل الذوق والعقد والحل
يروق لإخـــوان الصفاء مكرراً	فأكداره عين الصفاء لمستحلى
وكم لعبت أمواجـــه وتراقصت	ودارت به تلك الجوارى على رجل
وجبر قلوب الناس فى كسره كما	بمقياسه قد جاز مقياس ذى العقل (١)

وجبر قلوب الناس فى يوم كسر السد ، حقيقة لا مجاز ، وواقع لا صنعة فيه ، وإن بدا طباقا ، وطباق ذاكرة — كما يسميه الدكتور شوقى ضيف(٢) — وذلك لأن فى يوم كسر السد تقام الحفلات وتوزع الصدقات ، وتروج الأسواق للبيع والشراء . هـذا فضلا عن أنه يرمز إلى وفاء النيل ، وبوفاء النيل يستحق الخراج . وهو إيذان بسق الأرض وتسجيل لإنجابها بالحصاد والثمر . وفى كل هذا جبر لقلوب الناس . . .

وحقيقة استغل الشعراء لفظى «الجبر والكسر» فى كثير من الأبيات التى تحدثوا فيها عن خليج النيل وسده . وساقوا المطابقة بينهما فيها . . وتلك بركة من بركات النيل ، وجانب من الثراء الذى يهبه . وليس الثراء اللفظى أو المعنوى ، وإعطاء القدرة على التصرف فيه ، شيئا قليلا . . على رغم المكابرين . .

وكما استغلوا هذين اللفظين ، استغلوا ألفاظ: «الوفاء . والزيادة . والماء الحلو . والماء السكرى . والكمال . »وغيرها من ملابسات النيل .

والبرهان القيراطى أحد هؤلاء الشعراء . وفى جملة شعره عذوبة ورقة ، ومعنى وجمال تصوير وعمق شعور معا .

---

(١) ديوان القيراطى ورقة رقم ٩٩ .

(٢) راجع الفن ومذهبه فى الشعر العربى عند كلامه عن أبى تمام .

وقد زاد النيل فى عام ، فعبر عن الزيادة «بالسمو» . واعتبر جرى مائه فوق الحصباء والجنادل مددا لفخارها على النجوم والشهب . ويقول فى ذلك :

سما نيل مصر كل بحر وجدول ... فأبحرها تعنو له والجداول
جرى فوق حصباء الجنادل فاعتلت ... وفاخرت الشهب الحصى والجنادل (١)

ولعب بلفظى « الوفاء والكسر » فقال :

جفنى وجفن الحب قد أحرزا ... وصفين من نيلك يا مصر
جفنى له يوم الوداع الوفا ... وجفنه الساجى له الكسر (٢)

واستعمل « الكمال والزيادة » فنسبهما إليه مع «الفضل» . كما نسب إلى تياره الأوصاف والشيم الطاهرة . . قال :

لنيل مصر كمال فى زيادته ... وفضله غير مخفى ومكتتم
إذا بدت لك من تياره شيم ... رأيته طاهر الأوصاف والشيم (٣)

و « حلا » نيل مصر فى ذوقه فكان « سكراً » أغنى النديم عن « السكر » . لذلك يطلب إليك « تكراره » . هكذا بلغ ماء النيل لدى البرهان القيراطى ، فى حلاوته ، مبلغ الخمر ، بل فاقها لأنه يغنى عنها ، ولا يشعر النديم معه بحاجة إليها . يقول القيراطى :

حلا نيل مصر فهو فى الذوق سكر ... وأمداحه فى كثرة عدد القطر
فكرر على سمعى أحاديث وصفه ... فسكرها يغنى النديم عن السكر (٤)

وتبارى الشعراء وتسابقوا ، فى وصف كسر الخليج وبيان فضله وذكر ميعاده ، وما يتصل بذلك أيام فيضان النيل .

---

(١) ديوان القيراطى ورقه رقم ١٠٩ .

(٢ ، ٣ ، ٤) ديوان القيراطى ورقة رقم ١١٨ .

وذكروا المقياس ووروا بأذرعه وأصابعه ، وشببوا به وبمنازهه ، وسجلوا له أياما من أيامه ولياليه .

ويقول إياس بن عبد الله الذهبي — المولود عام ٦٨٧ هـ ، فى كسر الخليج :

كسر الخليج وكان ذلك نعمة ... سرت قلوب المسلمين بسره
ومن العجائب والغرائب أنه ... جبرت قلوب المسلمين بكسره[١]

ومثله قول الشاعر شمس الدين بن المشد :

لله در الخليج إن له ... تفضلا لا نزال نشكره
حسبك منه بأن عادته ... يجبر من لا يزال يكسره[٢]

ويذكر ابن إياس الحنفى المؤرخ ، وفاء النيل وكسر خليجه وجبر القلوب به ، ويورى فيها وفى غيرها ما شاءت له صناعته ، قال :

يا نيل مصركم يد لك بالوفا ... أوليتنا بالكسر جبرا دائماً
قد زدت قبل الكسر خمس أصابع ... كرما فكانت للوفاء خواتما[٣]

وينتزع تقى الدين بن حجة الحموى توريته من ملابسات النيل . فيقول وهو يمدح الملك المؤيد شيخا يوم كسر الخليج — وكان قد بلغه أن الأمير نوروز الحافظى ثار فى وجهه ببلاد الشام ، ووصل إلى غزة محاربا — ويتنبأ ابن حجة بهزيمة نوروز ، فتتحقق نبوءته :

أيا ملكا بالله صار مؤيدا ... ومنتصبا فى ملكه نصب تمييز
كسرت بمسرى نيل مصر وتنقضى ... وحقك بعد الكسر أيام نيروز[٤]

والنيروز عيد يعقب يوم الكسر . وقد قتل نوروز الحافظى بعد قليل .

---

(١) الدرر الكامنة جـ ١ رقم ١٠٩٦ .
(٢) الدرر الكامنة جـ ٣ رقم ١١٦٨ .
(٣) بدائع الزهور جـ ٤ حوادث عام ٩١٥ هـ
(٤) تأهيل الغريب باب بقية المدائح .

وللشهاب المنصورى دفقة شعورية عميقة ترجمها شعرا ، طاف به وبأبياته حول النيل فى عيد وفائه ، حتى أودعها مرائيه ومشاهده .

لقد حمد الله فى أول أبياته على وفاء النيل ، واعتبر ذلك وفاء من محبوب ، ووفاء المحبوب مأمول . ونعى فى آخر أبياته على من يرغب عن نيل مصر ، واعتبره غافلا ، وعالنه بأن قلبه مجبول على حب هذا النيل .

وما بين البيتين صور وأخيلة ، من صور النيل ومشاهده الجميلة ذات الحسن وذات النعمة . وبذلك كله صارت أبيات هـذا الشاعر تسبيحا نبيلا ودعاء لله وصلاة ، فى يوم الوفاء .

ولقد تابعت عين هذا الشاعر الوصاف ، جواد النيل فى جريه ورأى زبد الأمواج يحجل سيقانه . والنيل لا يسعى إلا إلى الخير ونشر الخصب . ورأى حببه طافيا ينثره ، فكأنه منهل للراح . ونسيم الصبا يباكره فى الصباح فيجعد صفحته فتبدو كاللأمة . والريح تسل أمواج النهر صوارم تقتل محل الأرض . والسفن على سطحه جوار غادية مزدانة ، تزورك وتصلك وتهب لك ما تشتهى دون عسر ولا ممانعة ، فإزارها قبل أن تلقاك محلول . ! فما أطوعها . !

ويأبى خيال الشاعر البارع وإحساسه العميق إلا أن يقيم من الأمواج والشط وخرير الماء والروضة والأغصان والزهر وأوراق الدوح وعناقيدها وغيرها ، حفلا ، أو قل عرسا مكتملا تغشيه الفرحة ويحدوه السرور .

فالشط دف والأمواج تلعب به ، والخرير يغنى باطراد ، وجزيرة الروضة غانية حسناء شغل النيل قلبها ، والأغصان تميس وترقص وتشرب من الماء فيحلو ريقها . وقد لبست من حلل الزهر الخضر ما لبست ، ووضعت على سورها الأكاليل ، وامتدت أوراق الدوح خياما مظللة ، ولاحت العناقيد كالقناديل . وتدلت العثاكيل قلائد من الياقوت تحلى بها النخيل . . إلى آخر ما صور .

إن هذا الفرح الشامل ، والحفل الملتئم ، إنما شمل نفس الشاعر والتأم معها . جال فى خاطره ونما فى خياله ، واتسعت له نفسه . ثم فاض على لسانه معبرا عما وعاه فى حسه الباطن من فرح بالنيل واحتفال بوفائه .

قال الشهاب المنصورى :

الحمد لله أوفى وعــده النيل — إن الوفاء من المحبوب مأمول
جرى جـوادا فمن داراته غرر — له ومن زبد الأمواج تحجيل
ينظم الحبب الطـافى وينـثره — كأنه منهل بالراح معلول « معلول » « ممْلُولو »
كأنه والصبـا صبحـا تجعـده — من نسج داود فى الهيجا سراويل
كأن أمواجه والريح تنشرهـا — صوارم بظباهـا المحـل مقتول
كأنمـا السفن غادات جـرين به — لهـا المراسى شنوف أو مراسيل
من كل جارية كالخـود زائرة — إزارها قبـل أن تلقاك محـلول
كـأنمـا الشط والأمواج تلطمه — دف لها وخرير المـاء موصول
كـأنمـا الروضـة الغناء غانيـة — بحسنها قلب هـذا النيـل مشغول
أغصانها من غصون الدوح مائسة — وريقها من زلال المـاء معسول
من سندس الزهر الزاهى لها حلل — خضر ومن سورها العالى أكاليل
ومدت الدوح من أوراقها خيما — ومن عنا قيدها لاحت قنـاديل
وللنخيل إذا ماست قلائد من — حمر اليواقيت حاكتهـا العثاكيل
لا غرو أن سحرت عينى وخيل لى — بأنهـــا ذهب وهى المشاتيل
يا من له رغبة عن نيل مصر أفق — قلبى على حب هذا النيل مجبول[1]

وبدر الدين البشتكى يذهب هذا المذهب فى حب مصر وعشق نيلها ، واحتفال

---

(١) كوكب الروضة للسيوطى ورقة رقم ١٤ — والشنف : بفتح الشين القرط الأعلى ، أو معلاق فى قوف الأذن ، والقوف أعلى الأذن أو مستدارسمها .

نفسه بوفائه ، وابتهاج خاطره بما يصاحب الوفاء من مظاهر الحياة والنشاط .

وهو على حبه لمصر وكرامتها عنده إلى درجة يهون معها على نفسه أن تهون دونها ، وتبقى لها هى قداستها وكرامتها ، يتأبى قليلا على هواها ، ويتردد دون الإقامة فيها . . . فلعل هناك من أمور الحياة ما كان يشق عليه ، ويدفعه حينذاك إلى هذا التأبى والتردد . ولقد ذكر أنه « رأى ربيع العيش فيها محرما » ، وأن النيل « إذا ماطمى ازداد الفتى ظمأ » . . . أعتقد أن هذه رموز إلى ما كان يشق عليه حينذاك ويشقيه ، من ضيق عيش أو تنكر حياة ، أو جحود صديق ، أو نحو ذلك من أكدار الحياة .

على أن الشاعر ما لبث أن عاد الصفاء إلى نفسه ، وعاد الحب طاغيا على إحساسه ، وشاع الفرح والرضا على مشاعره ، فنضح هذا كله على أبياته هذه التى تضمنتها إحدى مدائحه للقاضى برهان الدين بن جماعة يقول :

خليلى من مصر أشيرا على فتى	يهون عليه أن يهون وتكرما
أأرحل عنها أم أقيم فإننى	رأيت ربيع العيش فيها محرما
نعم وأنال النيل فى مصر إنه	إذا ماطمى يزداد فيها الفتى ظما
على أننى أهوى هواه وناظرى	إذا ما جفاها أنجم الدمع أنجما
فذلك أيام الوفاء بروضة	وشملى على منثورها قد تنظما
إذا المشتهى المعشوق جاد بمنتهى	مرامى وبالمقياس همى تقسما
وكم من حسود سره سوء حالتى	فلما رآنى فى البريم تبرما
كأن الغصون المائسات رواقص	شربن مداما حل ثم محرما(١)

والشاعر يتحدث فى أبياته عن جزيرة الروضة وعن بعض منازه مصر بها ، وهى المشتهى والمعشوق ، كما سنشير إليه بعد .

---

(١) كوكب الروضة للجلال السيوطى ص ١٦

وعلى نمط من هذا الشاعر ، يمدح شهاب الدين بن حجلة المغربى الأمير يلبغا العمرى يوم كسره الخليج . وما يلبث وهو فى غمرة المدح ، حتى ينساب إلى النيل، فيعمر بذكره وبأوصافه ونعت مشاهده ، عددا من أبياته .

وهى من قصيدته التى مطلعها يذكر فيه حبيبه ويقول :

أتانى من نحو الحبيب بشير ... فكدت إليه بالسرور أطير

حييت إذا ما لاح دينار خده ... فإنى إليه ما حييت فقير

وهو مستهل بارع ، كما ترى ، لمناسبته لموضوع القصيدة ، ولأنه يحدث بوضوح عن نوع العاطفة التى دفعت الشاعر إلى النظم ، وهى العاطفة التى صاحبته فى جميع أبياته . وتلك دليل صدق شعوره .

فالشاعر أتاه بشير من قبل حبيبه . ولا بد أنه بشره بوصوله أو بوصاله ، فكاد من أجل ذلك يطير سرورا . وبين المعانى ، وبين وفاء النيل ، مناسبة واضحة .

وبعد أبيات من هذا النمط . انتقل الشاعر إلى ذكر النيل والتشبيب به . واندفع به شغفه إلى التحليق بخياله والطواف بصورته ، ليجمع من زوايا خاطره ما استطاع من محاسن النيل ومفاتنه .

لقد رأى قلاع الزوارق البيضاء رايات عليه معلنة بالوفاء . ورآه حصنا لمصر حصنها فى علا سعدها ، وبه دارت سواقى مصر فى كل روضة تقتل الجدب وتثير الخصب . وطير الماء يبشر فتعم الفرحة ، وحباب مائه كأنه كواكب تضيء. وكأن ماءه يزحف بكتائب وعسكر جرار . وشقيق الروض حول إقاحه خدود وثغور ، وقدود الغيد فى روضه غصون فوقها بدور . . الخ

بهذا النغم المشحون بالمحبة ، المليء بالتقدير ، يسوق ابن أبى حجلة أبياته . فيقول :

أرى الراية البيضا على النيل بالوفاء ... إذا لاح لى قلع عليه كبير

وحصن مصرا فى على السعد عندما   غدا وله حول المنازل سور
وبات به محل البلاد مفرقا   وبات لميت القلح فيه نشور
ودارت سواقى مصر فى كل روضة   على مثلها كان الخصيب يدور
وبشرطير الماء فيه غرابه   فكاد بأرياش القلاع يطير
نعم طار فوق الماء وهو محلق   وعم البرايا فرحة وسرور

ومنها :

كأن حباب الماء فيه كواكب   تضىء فتبدو تارة وتغور
كأن لزحف الماء فيه كتائب   لعسكرها الجرار فيه عبور
كأن شقيق الروض حول أقاحه   خدود على وجه الربا وثغور
كأن قدود الغيد فى الروض حوله   غصون ومن فوق الغصون بدور(١)

ومدح ابن أبى حجلة أيضا خليفة عصره أمير المؤمنين المعتضد بالله أبا الفتح أبا بكر ، عام ٧٦٢ ﻫ ، فانساب أيضا الانسيابة نفسها ، إلى النيل ، ووثب بخياله إلى صوره الجميلة ، الوثبة نفسها .

فيراه إذا ما بدا الخليفة وماؤه كدر . صفا به عين البرية وشنف سمع الأرض بالقرط ، وحلى جيد الروض بالزهر ، فباح نمامه بطيبه . وجلا خد الشقيق بحمرته . ويرى له تكرما ، وهو فى أرض الكرم ، فيسقى أشجارها ويواليها ... الخ .

يقول ابن أبى حجلة عن النيل ومصر ، ويورى ببعض ألفاظه :

إذا ما بدا والماء فيها مكدر   رأينا به عيش البرية صافيا
يشنف سمع الأرض بالقرط دائما   ويترك جيد الروض بالزهر حاليا
يذكرنى رشف الثغور أقاحها   ولم أك ناسيها ولا متناسيا
فكم روضة نمامها عرف طيبه   إذا ما أمنا عدله بات واشيا

---

(١) كوكب الروضة ص ٨٧ .

بفم على خد الشقيق إذا غدا   بروضته الفيحاء بالحال جاليا
فللنيل فى أرض الكروم تكرم   يروى بها أشجارها والدواليا .. الخ[١]

ومما يدلك على أن النيل كان شغلا شاغلا لشعراء مصر – وإذا نحن لم نستثن منهم واحد فى هذا المقام لا نكون مبالغين – أن أحدهم وهو الأديب بدر الدين ابن الحاجب نظم فيه مجموعة من الأشعار مستقلة ، سماها « مقطعات النيل » .

قال الجلال السيوطى : « إن بدر الدين هذا ، نظم مقطعات النيل وأفردها فى ديوانه فى جزء منه سماه بهذا الاسم . » . وهى مقطعات كثيرة العدد تدور حول وصف النهر وبيان محاسنه ووصف مائه ورياضه ومقياسه ووفائه ، إلى غير ذلك . وقد سجلها السيوطى – أوسجل بعضها – فى كتابه « كوكب الروضة » .

ومن هذه المقطعات قوله :

قد فاح للرياض نشر عطر   أطيب من روائح الشباب
وكيف لا والنيل يسقى دوحه   من مائه المصندل المذاب[٢]

ومنها قوله :

فى النيل طين ومسك   ثناؤه خير عطر
فاعجب له حين وافى   ممسكا وهو يجرى[٣]

ومنها :

محاسن بحر النيل لم تحص عدة   فقد طاب مسموع لهن ومنظور

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦١ ، ١٦٢ — وقوله . بدا ، يريد الخليفة المعتضد بالله العباسى ، إذ أن الأبيات قبل فى مدحه . ورأينا به أى بالنيل . — ويشنف : يضع الشنف أى القرط — أو يسمع الألحان .
(٢) (٣) كوكب الروضة ص ١٥٤ .

تخلق بالوصف الجميل على المدى   وزاد على حسن الوفا وهو مكسور[1]

ويضج الناس ويجأرون بالشكاية كما نوهنا ـ إذا لم يصل ماء الفيضان إلى حد الوفاء — وهو ستة عشر ذراعا ـ إذ أنهم فى عامهم ، يتوقعون الجدب فالقحط فالغلاء فالجوع والخوف ، فالأدواء والأوباء والمنية .

وكان الشعراء لسانهم فى إعلان هـذه الشكاية ، وفى وصف ما يعانونه من مضاعفات عدم الوفاء .

وشكوى الشعراء فى هذا الباب أوثق صلة بالفصل الرابع الآتى الذى نحدثك فيه عن أثر البيئة الاجتماعية ، فلنرجئها إلى حينها .

على أن نشير فى وجازة إلى شيء منها لمناسبة حديثنا عن نهر النيل . فلقد بلغ ارتفاع فيضانه فى عام ٦٩٣ هـ إلى خمسة عشر ذراعا وثلث . فغلت الأسعار وتضاعفت نتائج هذا الغلاء .

وقد قال شهاب الدين البزاغى فى ذلك قصيدة طويلة سنشير إليها فى الفصل الرابع المذكور . وهى التى قال فى أوائلها :

ولما غاض بحر النيل فاضت   دموع من محاجرهم سجام
ومد به من الأموات سـيل   لنقص عبابه من تمام . . الخ[2]

وفى عام ٧٠٩ هـ توقف النيل عن الوفاء أيضا وارتفعت أصوات الشكاية . وقد نظم الشهاب محمود الحلبى الأديب الكاتب الشاعر أبياتا طلية تمثل وجهة من وجهات الشعب ، ووصف فيها بعض أحواله حينذاك وما يعانيه ، ونعود إلى ذكرها أيضا فى الفصل الرابع .

وننوه هنا بالوجهة التى اتجهها الشاعر ، وهى مخاطبة النيل وسؤاله عن جريانه

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٥ .

(٢) كوكب الروضة للسيوطى ١١٣ .

ووفائه . أبأمر من ربه يجرى ويفى ، أم بأمر من عند نفسه . فإذا كانت الأولى فليجر وليف . وإذا كانت الثانية فلا داعى للجرى ولا الوفاء ، والله كفيل بأن يبسط بره فى البلاد . كما بسطه فى بلاد غيرها ، لا يجرى النيل فيها .

يقول الشاعر :

يأيها النيل المبارك إن تكن   من عند ربك تجر فاجر بأمره
أو إن تكن من عند نفسك آتيا   فالله يبسط بره فى بره
كم من بلاد لست تعرف أرضها   ملأ الإله بيوتها من بره .. الخ (١)

وهذه عقيدة إسلامية سليمة . وقد وضع دستورها العالى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، فى كتاب كتبه إلى النيل — على ماروى — فى حالة مماثلة ، وقال له هذا القول .

وفى عام ٨٥٤ هـ لم يف النيل ، فشرقت الأرض ووقع الغلاء . وقد نظم فى ذلك الأديب الشاعر شمس الدين النواجى ، أكثر من مقطوعة أو قصيدة .

ومن ذلك قصيدته التى أولها :

لرب العلى نشكو أذى القحط والغلا   وما مسنا فيه من الضر والبلا(٢)

وسنعود إلى هذه القصيدة فى الفصل الرابع أيضا .

تسبيحة النوجى أو تغريدته :

وفى العام التالى وهو عام ٨٥٥ هـ وفى النيل كعادته ، فامتلأت القلوب بشرا ، والنفوس مسرة ، وزتلت المشاعر لشكر الله والحمد على آلائه وأنعمه .

وقد بدا ذلك على لسان الأديب الشاعر شمس الدين النواجى نفسه . فنظم

---

(١) كوكب الروضة للسيوطى ص ١١٩ ونسب الأبيات إلى الشيخ نور على سبط عمر بن الفارض . والأبيات مثبتة أيضا فى الدر الفاخر « للدواداری ونسبها إلى الشهاب محمود الحلبى وهو مانرجحه . وفى البيت الأول جزم الفعل بلا جازم .

(١) كوكب الروضة ١٥٣ص .

قصيدة فريدة فى مشاعرها مليئة بالعاطفة جياشه بالشكر والثناء، مزوجة بمختلف الأوصاف للنيل . مما يحدونا إلى تسميتها بتسبيحة النواجى أو تغريدته أو ترنيمته، وهى خالصة لوجه النيل ، فى أكثر من خمسين بيتا .

لقد بدأ لحمد الله سبحانه وتعالى . وبين سبب ذلك هو أن الله تأذن للنيل فوافى ووفى . لأن فى وفائه الخير والبر والبركة ، وفيه الخصب والنماء ، وفيه الرخص والرخاء . — ومما يضاعف الحمد ويدعو إلى كثرة الثناء على الله تعالى أن هذا الوفاء جاء عقب انقضاء العام المنصرم ، عام ٨٥٤ هـ ، الذى عانت البلاد من جرائه ما عانت. فأذهب الله عنها العناء وبل غلة قلبها بهذاء الوفاء . يقول .

الحمد لله وافى نيلنا ووفى وبل غلة قلب كان قد نشفا

وها هو ذا ماء الحياة يعود منهمرا إلى الزرع ، جاريا فى مجاريه ، فياضا بأياديه. وهو بها كلف وإليها دنف ، فيحيى موات الزرع على جانبيها ، ويعيد الحياة على ضفتيها ، ويجتث المحل ويقطع الجدب ويزيل السقام وينشر البرء والشفاء . . يقول :

وعاد ماء حياة الزرع منهمرا إلى مجاريه فياضا بها كلفا
نعم جرى الماء فى عود الحياة ودب البرء فى السقم ممزوجا بكل شفا

هذا النهر الكريم الطيب عنصره ، الرضى خبره ومخبره ، اللذيذ ريه ومرتشفه، إنما يهمى ينبوع كوثره من الجنان ، وما أولى من الجنان أن يكون مصدره ، وجوهرها يحدث عنه جوهره . يقول :

من الجنان هما ينبوع كوثره يا طيب عنصره ريا ومرتشفا
جرى على أجمل العادات منبسطا ولا توقف يوما لا ولا وقفا

وفى البيت الثانى يقظة عاطفية فذة نبيلة . لقد سجل الشاعر أن النيل جرى على أجمل عاداته ، وأنه لم يتوقف . والعبارة فى قوله: «ولا توقف يوما» تحتمل العموم . وهو الاحتمال الذى نفسرها به . والمعنى أن النيل لم يتوقف قط لا فى هذا العام ولا أى

عام آخر . لقد تناسى الشاعر ـ أو نسى نفسه ـ فى نشوة الوفاء ، أن النيل لم يف فى العام الماضى ، وأنه قال فى ذلك شعرا . وهكذا غفرت المحبة الذنب المحبوب ونسيت ما له من ذنوب . . . (١)

ويمثل النيل فى خيال الشاعر ، ملكا ، إنما جاء ووافى لينظر فى أمر رعيته ، وليكشف عنها الضر ، ويدبر لها الخير .

كأنه ملك وافى لينظر فى　　أمر الرعية إن ضرا رأى كشفا

وقد استعد لمقاتلة الجدب ودفع الضر كفاح الغلاء . فلبس جوشنا مزردا حاكته له كف الصبا ، وساق من خلفه جيشا عظيما لجبا من أمواجه ، زحف به على جيش الغلاء . وطاف به البلاد وجاب الأرض وهو يقتفى أثر الغلاء فى كل مكان ، لكى يمحوه ولكى يصلح ما أتلفه . وكأنما هو يتحرى المواقع التى تحتاج إلى سقى فيسقيها ، والمعاهد التى تشرئب إلى الرى فيرويها . يقول :

حاكت لجو شنه كف الصبا زردا　　بجيش موج على جيش الغلا زحفا
طاف البلاد وجاب الأرض مقتفيا　　آثاره يتلافى منــــه ما تلفا
كأنمــا يتحرى فى تعهــــده　　مواقع السقى أنى سـار أو عـكفا

والأدلة على تحريه مواقع السقى ، ما تراه بصعيد مصر ، فكم به من منية يعمها ، وما تراه به من فلك جوار عليه فى أسنى مطالعها . وما تراه من بحر يوسف الذى أبدى أحسن منظر ، وما تراه بحلوان لمـا أهدى إليها حلاوته ، فجذبت إليها أهل الشوق إلى اللقاء ، والمدنفين . يقول :

كم منية من صعيد الأرض يعمها　　بالمسح من وجهها القبلى ما انـكشفا
باهى بهـا الفلك فى أسنى مطالعها　　جواريا ذات ألواح تلت صحفا
وبحر يوسف أبدى حسن منظره　　بالصب فى ألف يوم قد صفا وصفا
ومنذ أهدى بحلوان حلاوته　　راقت ببال مشوق للقا دنفا

---

(١) لشمس الدين النواجى قصيدة لامية فى شكوى الجدب والغلاء بسبب نقصان النيل عام ٨٥٤ هـ ، راجع كوكب الروضة للسيوطى ص ١٣٥ — وأشرنا إليها قبل سطور .

واستمر الشاعر واستمرت عاطفته وخياله فى إبراز هذه المحاسن والصفات التى اتسم بها هذا النيل الوافى الجرىء الذى ماشاب مفرقه هرم ، ولا رجف قلبه من هول . وجاء ركضا وسيم الوجه رئيفا شافيا منحدرا من أعلى الصعيد ، يقذف إلى الورى أرزاقها،حتى ضرب الفسطاط وانعطف حول المقياس ، فدقت البشائر فى مصر بقدومه ، وأشير إليه بالأصابع بل بفيض فضل أياديه . . . يقول الشاعر :

ما شاب مفرقه الميمون من هرم ولا أبو الهول منه قلبه رجفا
بل جاء ركضا وسيم الوجه يسبح فى تياره وعلى التكرور كم رأفا
قد زيد فى حرثه فانساب منطلقا فدانه وسقى ماء الحيا وشفا
وافى بمفرده من قوص منحدرا فى كلة وبأرزاق الورى قذفا
مخلقا لعمود الصبح قد ضرب الفسطاط حين رأى المقياس وانعطفا
دقت بشائره فى مصر وانتشرت راياته بقلوع آذنت بوفا
وافى يشار إليه بالأصابع بل بفيض فضل أياد عهدها سلفا
أرخى على الناس ستر العدل فانتشروا فى روضة من شذاها أصبحت أنفا(١)

وامتدت مياه النيل ودارت حول سوق الأشجار ، فطوقتها خلاخيل ، وغذتها فبدا عليها من طلعها تحف من القلائد . والنبت كان فى وحشة إليه ، والأرض تحلت بحلل من أياديه ، ولبست شنفا من قرطه . وأصبحت الأرض بسعة مياهه فيها وانتشارها على سطحها تحكى السماء . بينما أصبحت السماء نفسها تحكيه ـ تحكى ماءه بانتشاره فوق سطح الأرض ـ بما بها من أنجم وبروج . . . فكلاهما جرت فيه الأفلاك . وكأنما النيل مرآة مصقولة جليت بالصقل وصفت كما صفا . يقول الشاعر :

---

(١) الفدان الثور أو الثوران يقرن بينهما للحرث . ـ والكلة بكسر أوله ، الكلال والإعياء . والستر الرقيق ، وغشاء رقيق يتوقى به من البعوض .

صيغت خلاخيل للأشجار منه ومن قلائد الطلع حلى جيدها تحفا
واستوحش النبت حتى الأرض فى حلل تجلى ومن قرطه قد ألبست شنفا
تحكى السماء وتحكيه حلى وغلى وأنجما وبروجا كم حوت شرفا
كلاهما جرت الأفلاك فيه وقد حفت بحافته الأملاك فائتلفا
كأنما هـو مرآة لها جليت بالصقل أوهى مرآة صفت وصفا

واستمر الشاعر فى تغريدته أو ترنيمته يحدث عن النيل وفضله ، وعن مائه وكرمه ، وعن جماله ومشاهده . فى أبيات على نمط بما أوردناه من هذه القصيدة الفريدة . حتى رآه قد رق طبعا حتى إنه ليؤثر فى الحجر :

قد رق طبعا فما أحلى زوائده فى الذوق لو مر فى قلب الصفا لطفا

ولا يقيس به ابن ماء السماء ولا ابن زائدة ، ولا أبا دلف ، أولئك الذين عرفوا بالجود واشتهروا بالسماح ، بل هم قطرة منه :

فما ابن ماء سمـاء وابن زائدة وقاتل المحل جودا أو أبو دلفا
إلا كقطرة ماء منه قد قطرت بل كلهم من ندى راحاته اغترفا

وتأسر الشاعر عقيدته الإسلامية مرة أخرى ، فيرى أنه لو لم يكن للنيل من مفخرة إلا أنه جرى ليروى آثار النبي لكفاه بذلك فخراً . . . وهكذا تتدخل العقيدة فتوجه الشاعر نحو مايريده من التورية اللطيفة المداعبة فى لفظ « آثار النبي » فإن الشاعر — ولا ريب — يقصد به المكان المعروف جهة الفسطاط . . وإلا فما هى آثار النبي التى يرويها النيل ؟

يقول الشاعر :

لو لم يكن فى سراه من أقاصى أسـوان وقوص إلى أن عاد وانصرفا
إلا ليروى آثار النبي ومن روى الورى بغوادى كفه لكفى

واستمر الشاعر فى ملابسات لفظه هذا ، فقال مرفها عن عاطفته الدينية ومشبعا لها :

محمد صاحب الحوض الروى إذا ... ما جاءه الوارد الظمآن ملتهفا
من نال منه شرابا فى القيامة لم ... يظمأ وصادف ريا فيه كل شفا
من نيـــل منهله كم راح مغترفا ... ظـام وبالفضل منه جاء معترفا

وتلمس ظرف الشاعر ولطف حسه ودقة تخيره لألفاظه فى هذه الأبيات الثلاثة ، بخاصة ، وهو يتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد تخيرها من « وادى المياه » لمناسبة الحديث عن النيل . فالحوض والروى والوراد والظمآن والشراب والرى والمنهل والمغترف والظامى . كلها من هذا الوادى . . وهذا ذوق شعرى جميل لا ينـكر . .

واستمر الشاعر فى روحانيته هذه حتى اتجـه بجمع نفسه إلى الله سبحانه وتعالى « منزل الغيث » ، يدعوه ويجأر إليه بالدعوة أن يرفع عن مصر الغلاء ، ويقيها ناره التى عفت ربع الرخاء ، وأن يدرك أمته الضعيفة بمغفرته وحنانه ورحمته . ويختم تسبيحه هذا بالصلاة على رسول الله . يقول الشاعر :

يا منزل الغيث فضلا بعد ماقنطوا ... وناشر الرحمة العظمى بحسن وفا
ارفع بفضلك عن مصر الغلا وقنا ... صعيـــد نار بها ربع الرخاء عفا
لبيك لبيك داركنا بمغفـــرة ... وجد حنانيك وارحم أمة ضعفا
وصل أزكى صلاة والسلام على ... نبيـك المصطفى الراقى الذراشرفا
ما انهل فى الجدب غيث قدطغا لجنى ... أيانع الزهر كف الخصب واقتطفا[1]

وهكذا اختتم الشاعر تسبيحه بلفظ « أنهل والجدب ، والغيث ، وجنى ، وأيانع الزهر ، والخصب . والاقتطاف » .

وبعد فلعل هذه القصيدة تقنع الـكثيرين ممن يتهمون شعراء العصر ،

---

(١) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

بانصراف نفوسهم عن وعى ما ينبغى من عواطف ومشاعر نحو هذا النيل المبارك، وبضيق تعبيرهم عنها ، وبتلهيهم دون وصفه ، إذا عرضوا له ، بالصناعة اللفظية . . .

وأود أن أضيف إلى ما عرضته من مظاهر عواطفهم ومشاعرهم نحو النيل ، أحد اتجاهاتهم بها . لقد اتخذوا من النيل موضوعا للإلغاز ، وهى وسيلة من وسائل وصفه وبيان محاسنه .

ومن ذلك ما نظمه بهاء الدين أبو حامد السبكى إلى صديقه صلاح الدين الصفدى ملغزا فى النيل ، وذلك فى قصيدة طويلة . وقد رد عليه صلاح الدين الصفدى حالا هذا اللغز ، بقصيدة أخرى من بحره ورويه .[1]

ونظم الشهاب المنصورى لغزا فى النيل كذلك ، فكان من أبياته :

حلو اللمى أحببت من إدباره ... مثل الذى أحببت من إقباله
حسن الشمائل لا يمل وصاله ... أبدا ومن لمحبه بوصاله
طلق المحيا إن بدا متبسما ... قرت عيون نسائه ورجاله
فى كل وقت يشتهى لا سيما ... فى حال بكرته وفى آصاله
قطع الطريق أقل ما يعزى له ... والناس تشكره على أفعاله
ومن العجيب العجز عن إمساكه ... مع لين جانبه وقرب مناله[2]

وحسبنا ما بينا دليلا على ما نعتقده ، من أن النيل حل من الشعراء محل القداسة والمحبة ، ونزل منزل الإجلال والتقدير . وأنهم ذهبوا فى التعبير عن عواطفهم نحوه كل مذهب ، وراحوا خلف وصف مفاتنه كل مراح ، وانهم

---

(١) كوكب الروضة ص ١٤٢ ، ١٤٣ وفيهما نص اللغز والرد عليه .

(٢) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٤٣

عرفوا فضله وكرمه ، وشكروا له جوده وسماحه ، والتمسوا منه بره وخيره .

وسنرى فيما يلى ، صفحات لهم أخرى ، فى حب النيل وطبيعة مصر ، ووصف مشاهدهما .(١)

الروضة والمقياس

وجزيرة الروضة القائمة فى مجرى النيل بين الفسطاط والجيزة ، ـ وكذلك مقياسها ـ كانت إلى ذلك العصر من أهم منازه مصر . وكانت مجلى من مجالى الطبيعة ، لما فيها من حدائق يانعة وبساتين رائعة ، ولما فيها من نخيل وأزهار وأثمار . فضلا عن منازهها المتعددة فى جوانبها ، كالمشتهى وغيره . وفضلا عن منظر النيل الجميل . وقد أحاط بها وسورها بمائه . والسفن والزوارق تغدو وتروح من حولها ، تحمل المرتاضين واللاهين والمتفرجين بها ، مابين إخوان وخلان ، وعشاق ورفاق . يأنسون بارتيادها ويطمئنون إلى أحضانها ، وينعمون بنعمة الهدوء والأمن فيها ، ويتفرجون برؤية مقياسها ، ويذكرون فضل الله عليهم ونعمته بنيلها . وينالون من ثمارها اللطيفة وتحت ظلالها الوريفة ، ما يلتذون به ويبتهجون ويسعدون .

والشعراء كانوا فى هذا المألف النضير ، مشاعر حساسة وعواطف جياشة ، وأخيلة مصورة ، وألسنة معبرة . بل كانوا أنغاما حالية وأناشيد حادية .

قيل كان يسكن الروضة كثيرا ، الشاعر المتصوف سيدى محمد بن وفا ، فأضفى على الروضة من شعره أبياتا روحانية صافية ، أسكنها صورا من صورها جميلة وعدها

(١) من الطرائف ما نقله السيوطى فى كوكب الروضة ص١٤٤ ، من خط الشهاب الحجازى ، ونسبه إليه ظنا — مفاخرة طويلة فى ٩٩ بيتا ، على لسان النيل والبحر المالح ، يزهو كل منهما بنفسه ، ويفخر على الآخر ، فى شكل حوار متتابع ، كل مرة فى بيتين . والمفاخرة بالموال العامى .

نعمة من النعم الجليلة ، التى يشكر الله سبحانه وتعالى عليها . قال منها :

رأيت رياض القدس فى روضة الرضا   على نيــل مصر بين تلك المناظر
مناظرها للنــاظرين مشارق   وفيها وجوه كالبـدور البوادر

ومنها قوله :

وتحكى طيورا عاليات رءوسها   على النيل فيها سابحات الشخاتر
ويشبه سيب الماء فيها صوارما   بأيدى الهناسلت لسلب النواظر
عليها جلال الله جل جــلاله   وفيها سرير السر بين السرائر (١)

ويدعو صلاح الدين الصفدى بالسقى لمصر وماحوت من الأنس والأناس ، ومن المحاسن والمفاتن فى المقياس ، قال :

سقيا لمصر وما حوت   من أنسها وأناسها
ومحاسن فى مقسها   تبدو وفى مقياسها
ومسرة كاساتها   تجلى على أكياسها
وسطور قرط خطها البـ   ارى على قرطاسها
ولطافــة بجــلالة   تبــدو على جلاسهـا
ونواســم كل المنى   للنفس فى أنفاسهـا
ومراكب لعبت بها م   الأمواج فى وسواسها (٢)

ويتشوق ابن نباتة المصرى إلى منازل المقياس ، وتجرى من أجلها مدامعه ، وهو مغترب بالشام يشتى بالحنين إلى وطنــه ، فيقول مع التورية النباتية الطريفة :

أرق له بالشام نيل مدامعى   يجريه ذكر منازل المقياس

---

(١) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٦   (٢) كوكب الروضة ص ٧٦

سقيا لمصر منازلا معمورة ... بنجوم أفق أو ظباء كناس
وطنى سهرت له وشابت لمتى ... ونعم على عينى هواه وراسى
من لى به والحال ليس بآسن ... كدر وعطف الدهر ليس بقاسى (١)

ويتجول ابن أبى حجلة فى الروضة ، فيرى سماءها وغيمها ندا ، ونداها كاسيا خمائل السندس ، وسفنها من حولها عرائس مقبلة كالجوارى الكنس . فيقول :

أو ما ترى غيم السماء كأنه ... ند يلوح لنا بأفق المجلس
والروضة الفيحاء باكرها الندى ... وكسا خمائلها رياض السندس
والسفن تبدو كالعرائس حولها ... قد أقبلت مثل الجوارى الكنس (٢)

ويأخذ ابن أبى حجلة فى تأليف مهرجان راقص مزدان ، من آلاف روضة المقياس وهو بذلك يعكس عليها مشاعره وخواطر نفسه .

فهذه ورقاؤها تغنى على عيدانها وتشدو بألحانها . والطل كالدر قد تناثر عقده ، والتأم من حبانه تيجان رصعت رءوس الزهر . بينما برز البحر — النيل — فى برده وقد رقت حواشيه وصقلته الريح ... الخ .

يقول :

وكأننا فى روضة المقياس والـ ... ورقاء قد غنت على العيدان
وشدت بلحن معرب فاعجب لها ... أرأيت أعجم معرب الألحان
فالطل در قد تناثر عقده ... والزهر منه مرصع التيجان
والبحر قد رقت حواشى برده ... والريح تصقله بغير توان (٣)

ويمتد نظر الشاعر الوصاف مجير الدين بن تميم ، إلى روضة المقياس ، فيلتقط منها صورها الجميلة ومشاهدها البديعة ، ذخيرة لشعره التصويرى المبين ، الذى

(١) ديوان ابن نباتة ص ٢٦٤ (٢) كوكب الروضة السيوطى ورقة ١٣
(٣) المصدر نفسه .

لا يقنع بالصورة الجامدة أو الحائلة ، بل يبث فيها من معالم الحركة المنظورة والمسموعة ، ومن الألوان والظلال ، مايجعلها حية نابضة متكاملة مثيرة .

يقول مجير الدين :

نظم الهـواء بلؤلؤ الأنداء عقدا لجيـد الروضة الغناء
شق الشقيق هناك منه جيوبه وتسلسلت فيـه جوارى المـاء
وبدا الأقاح وثغره متبسم لمـا تباكت أعـين الأنواء
وتناشـدت أطيارها ما بينهـا بلغاتهـا كتناشد الشعراء
وأتوا بمـا نشدوه فى أشعارهم بغرائب دقـت على البلغاء
ألقى الهزار عليهم من درسه فتـجادلوا كتجادل الفقهاء

والحركة المنظورة واضحة فى « نظم الهواء لؤلؤ الأنداء عقدا »، وفى « شق الشقيق الجيوب » ، وفى « تسلسل جوارى المـاء » . وفى « الثغر المبتسم » ، وفى تباكى أعين الأنواء » .

والحركة المسموعة واضحة فى صوت شق الجيوب . وصوت الماء لتسلسل الجوارى ، وفى تناشد الأطيار ، وفى إلقاء الهزار درسه .

والظلال والألوان واضحة فى لون لؤلؤ الأنداء ، والشقيق ، وثغر الأقاح .

وعلى نمط مما تقدم جرى الشاعر الأديب بدر الدين البشتكى ، فى الابتهاج بروضة المقياس ، وفى وصفها ووصف مرائيها ومشاهدها الجميلة . فقال وذكر « المعشوق » وهو أحد منازهها :

انظر إلى مقيـاس مصر وغن لى من روضة المعشوق فى عشاق
وافخر بمصر على البـلاد فنيلهـا يقضى على الأوصاف باستغراق

وتخلخلت منه الغصون ومذ علا　　دارت دوائره على الأســـواق
لله فى أفق الجزيرة ملعـــب　　كانت نجوم السعد فيـــه رفاقى
حيث الصبا تصبي اللبيب لأنهـــا　　تملى عليـــه مصارع العشاق
تتعانق الأغصان مع إصغائها　　لسماع نوح الورق فى الأوراق
فترى بأذن العارفين تجاهلا　　أمقام وصـل أم مقام فراق (١)

مفترجات مصر

وما دام النيل قد أسلمنا إلى روضته ومقياسه ، حيث المنازه العامرة والحدائق الناضرة ، لابد أن نعرج على بعض منازه مصر ، مما تجلت فيه الطبيعة بأعراسها ، وتحلت بزينتها ، فاجتذبت إليها نفوس الشعراء فتغنوا بها ولفتت خواطر الأدباء فشدوا بها .

وقد سماها جلال الدين السيوطى فى كتابه « بهجة الناظر ونزهة الخاطر » : « مفترجات مصر » فالتزمنا هذه التسمية لدقتها وطرافتها .

ومنها « المرصد » . وفيه يقول علاء الدين الوداعى مع التورية :

وليـلة عاش ســـرورى بهـا　　ومات من يحسدنا بالـكمد
بت مع المحبوب فى روضة　　وبات من يرقبنا بالمرصـــد (٢)

ومنها « المشتهى » بجزيرة الروضة . وفيه يقول شهاب الدين المنصورى موريا به وبالروضة أيضا ، فى غزل :

أسـفر وجهـــا ورنا مقلة　　ياخجلة البـدر وظبي الصريم

(١) كوكب الروضة للسيوطى ورقة رقم ١٦　　(٢) بهجة الناظر للسيوطى ورقة رقم ٨٣ .

في مشتهى وجنتـه روضـة تنزهوا بوجـه قمرى وسيم (١)

ومنهـا « حليمة » . وهي جزيرة كانت قد ظهرت قبالة المقياس قال فيها إبراهيم المعمار موريا :

جزيرة البحر هامت بهـا عقول سـليمة
لما حوت حسن معنى وبسـطة مستقيمة
فـكم يخوضـون فيهـا وكم مشـوا بنميمـة
ولم تزل ذا احتمال ماتلك إلا حايمة (٢)

ومنها « قناطر أم الخمس » بالجيزة . وفيها يقول برهان الدين القيراطي متماجنا موريا بمجونه :

قناطر الجـيزة كم قادم عليك يلقى فيك أقصى مناه
أتاك قـوم لاطة فانحنى ظهرك للوطء وصب المياه (٣)

ومنها « قنطرة التكة وخليج الذكر » . وقد قال فيهما المعمار مع التورية الماجنة :

ياطالب التـكة نلت المنى وفزت منهـا ببلوغ الوطر
قنطرة من فوقهـا تـكة وتحتهـا تلقى خليج الذكر (٤)

قال السيوطي عنهما كانا مكان الأزبكية .

ومن المفترجات العظيمة بركة الأزبكية التي أنشأها الأمير أزبك بن ططخ الأتابكي عام ٨٨١ هـ . وقد سبق لنا عنها حديث . وفيها يقول الشاعر شمس الدين القادري مشيداً بمحاسنها ومجالي الجمال فيها :

يا حسنها بركة بالحسن ما برحت تزهو على سائر الخلجان والبرك
تجمع الحسن فيهـا من معادنه فأصبح الحسن فيها غـير مشترك
جفت بداراتها الأقمار فهي لهم تضيء في حندس الديجور والحلك

---

(١) المرجع نفسه ورقة رقم ٨٥ . (٢) المرجع نفسه ورقة ٨٥ ـ وقال : ذا ، وصوابها ذات .
(٣) المرجع نفسه ورقة ٨٦ ـ وديوان القيراطي ورقة ١١٧ . (٤) المرجع نفسه ورقة ٨٦ .

مرآة حسن فربات الجمـال بهـــا مثل الشموس ترى فى دارة الفلك
وعندما نصبت أشراك بهجتها صادت طيور قلوب الناس بالشرك

ومنها « بركة الرطلى » وقد سبق لنا عنها حديث أيضاً . وكانت تعرف قديماً بأرض الطبالة .. [١]

وقد قال فيها شمس الدين بن الصائغ :

انظر إلى بركة الرطلى مبتهجاً واشرح محاسنها يأيها الحاكى
المـاء والنبت والحور الحسان بها كأنها جنـــة حفت بأمـلاك[٢]

وقال الشهاب المنصورى :

دعوتك فانهض مسرعاً يا أخا الفضل لتشرب أرطالا على بركة الرطلى
فقد سل كف الخصب سيف خليجه ليضرب عنق الجدب أو هامة المحل
وقـد مدت الأدواح أيدى غصونها إلى النيل يستحلى لمـاه ويستحلى[٣]

وقال أيضاً فى الجسر الذى بهذه البركة :

وفى ليــلة بالجسر فيها تجاسرت يداى على شرب المدامة بالرطـل
وقد نسج الآرام فى ضـوء بدرها فإن خفن من واش تسترن بالظل
فقم نجتليهـا من غزال مسلط بـكسرة أجفان على صحـة العقل[٤]

ومنها « بركة النيلوفر » التى بالأميرية . وقد قال فيها صفى الدين الحلى يصف نيلوفرها قبل غروب الشمس وبعده .

رأيت فى البركة نيــلوفرا نسيمه يشــبه نشر الحبيب
مفتح الأجفان من نومه حتى إذا الشمس دنت للمغيب
أطبق جفنيه على عينـــه وغاص فى الـبركة خوف الرقيب[٥]

من (١) إلى (٥) — بهجة الناظر للسيوطى ورقة رقم ٨٧ . (٢، ٣) — المصدر نفسه ، (٤) المصدر نفسه ورقة ٨٨ . (٥) المصدر نفسه ورقة ٨٨ .

نكتفى بذكر هذه المقترحات أو المنازه نموذجاً لغيرها ولنحث الخطا إلى الربيعيات وما يتصل بها .

الربيعيات وما يتصل بها

وتحدث الشعراء — فضلا عما تحدثوا — عن الرياض بعامة ، فوصفوا الربيع إذا أقبل إليها . والمياه والجداول إذا انسابت نحوها . وأدواحها إذا نمت . وأغصانها إذا تدلت ، وهاماتها إذا تتوجت ، وبسطها إذا اخضرت . وأرضها إذا ضحكت ، وأزهارها إذا أشرقت وابتسمت ، وثمارها إذ نضجت ودنت ، وألوانها إذا تنوعت فأعجبت ، وفروعها إذا رقصت وتثنت، ورياحينها إذا دارت وتعطرت . ودرر الطل إذ عقدت وكللت ، وظلالها إذا امتدت ، وطيورها إذا تغنت .

إلى غير ذلك من مذاهب الشعراء ومسارح خيالهم ، مما صوروه فأبدعوا ، وافتنوا فيه وأمتعوا ، حتى صار لهم فى هذا الباب نتاج مقبول وجهد محمود . وشارك شعراء الشام فيه بنصيب عظيم لما لبيئتهم من غنى وثراء بمشاهدها الجميلة ومناظرها المتنوعة . فلا بأس إذا كنا نسوق إليك أثارة مما نظموا ، من باب الموازنة .

ومحيي الدين بن عبد الظاهر أديب مصر الكبير ، الذى له نتاجه الضخم فى باب النثر وفى ميدان العلم، والذى استأثر به ديوان الإنشاء زمناً طويلا ، فكان كاتب رسائله ، ومدبج المدائح الشعرية للملوك ، مما سنفصله لك تفصيلا فى الفصل القادم ، أدلى بدلوه فى الدلاء ، ونظم فى الربيعيات والرياضيات .

ومن أولى منه بذلك ، وقد ملك زمام القلم وتصريفه نثراً أو شعراً . ومن أولى منه بأن تبهره مناظر الطبيعة وتسحره محاسنها . فينعت بطحاءها ويصف

روضها ، ويذكر غيثها المبكر ، ويجرى مع عيونها الدامعة فى محاجرها ، وينساب مع نهرها اللجينى ، ويدق مع حصاه الأبيض والأحمر ، ويمتد مع برد ظلالها المسهم ، ويتموج مع طرس صفحة مائها المجعد ، ويلحظ عذار نباتها إذا بقل ، ومسارقة شعاع الغزالة لأغصانها إذا تحول وانتقل ... الخ .

يقول محي الدين بن عبد الظاهر يصف بطحاء :

وبطحاء فى واد يروقك روضها	ولاسيما إن جاد غيث مبـــكر
تلاحظها عـين تفيض بأدمع	يرقرقها منـــه هنالك محجر
بهـا فاض نهر من لجين كأنه	صفـائح أضحت بالنجوم تسمر
كأن حصاه إذ بدا منـه أبيض	وأحمر دمع فى خدود تنثر
وإن لا فبرد بالظـــلال مسهم	وإن لا فطرس بالتجعد يسطر
وما لاح فى جنبيـه نبت وإنمـا	تبدى عذار منه فى الخد أخضر
وكم غازلتـــه للغزالة مقلة	تسارق أوراق الغصون فتنظر
ويشرق منـه كل حسن فينبرى	حياء لديه وجهها وهو أصفر
إذا فاخرته الريح ولت عليلة	بأذيال كثبـان الربا تتعثر
به الفضل يبدو والربيع وكم غدا	به الروض يحيا وهو لاشك جعفر [1]

وزار الشاعر المبدع صفى الدين الحلى البلاد المصرية فى نحو عام ٧٢٣ هـ ، وكان ملك العصر هو الناصر محمد بن قلاوون ، وكاتب سره علاء الدين بن الأثير . فقربا إليهما الشاعر الكبير ، واحتفلا بمقدمه .

وقد مدح صفى الدين الملك الناصر حينذاك بثلاث قصائد عذبة جيدة . ومنها مدحته المشهورة التى شبب فى صدرها بربيع مصر ، وما خلعه على رياضها من حلل جميلة ، وما لونها به من ألوان زاهية ، وما بعثه فى أرجائها من فتنة .

---

(١) مطالع البدور فى منازل السرور للعلامة الغزولى — ج ١ مخطوط بالمكتبة الأزهرية .

وهكذا أثرت فى نفسه طبيعة هذه البيئة المصرية ، حتى أطلقت اللسان بضروب البيان .

يقول صفى الدين :

خلع الربيع على غصون البان	حللا فواضلها على الكثبان
ونمت فروع الدوح حتى صافحت	كفل الكثيب ذوائب الأغصان
وتتوجت هام الغصون وضرجت	خد الرياض شقائق النعمان
وتنوعت بسط الرياض فزهرها	متباين الأشكال والألوان
من أبيض يقق وأصفر فاقع	أو أزرق صاف وأحمر قان
والطل يسرق فى الخمائل خطوه	والغصن يخطر خطرة النشوان
وكأنما الأغصان سوق رواقص	قد قيدت بسلاسل الريحان
والشمس تنظر من خلال فروعها	نحو الحدائق نظرة الغيران
والطلع فى خلل الكمام كأنه	حلل تفتق عن نحور غوانى .
والأرض تعجب كيف تضحك والحيا	يبكى بدمع دائم الهملان . . .(١)

ويعتبر الشاعر الفحل مجير الدين بن تميم من أبرع الوصافين لمظاهر الطبيعة ، والمعنيين بها ، المستجيبين لسحرها ، ومن أكثرهم إنتاجاً فى بابها ، ومن أرقهم فى وصف الورود والجداول والدواليب . وهو من شعراء الشام وحماة

قال ابن حجة الحموى :

« ومن التشابيه البديعة قول بعضهم :

كم وردة تحكى بسبق الورد	طليعـــة تسرعت من جند
قد ضمها فى الغصن قرص البرد	ضم فم لقبلة من بعـــد

قلت : دخل مجير الدين بن تميم إلى حديقة هذه الوردة ، فزادها تقوية بقوله :

---

(١) ديوان الحلى باب الناصريات .

سبقت إليك من الحدائق وردة ... وأتتك قبل أوانها تطفيلا
طمعت بلثمك إذ رأتك فجمعت ... فمها إليك كطالب تقبيلا »(١)

واهتز خاطر الأديب شهاب الدين أحمد بن منصور الدمياطى — ويعرف بابن الجباس — إذ رأى رمانة مشقوقة يتساقط منها الحب . فشق عليه ما كانت تكتمه فى حشاها من اللظى ، ثم تشققت عنه عقائق ، هى دموعها .. . فقال :

كتمت هوى قد لج فى أشجانها ... وحشت حشاها من اظى نيرانها
فتشققت من حبها عن حبها ... وجداً وقد أبدت خفا كتمانها
رمانة ترمى بها أيدى النوى ... من بعد مارمت على أغصانها
فاعجب وقد بكت الدموع عقائقا ... لا من مآقيها ولا أجفانها(٢)

وهذه تحفة شعرية فريدة ، يجود بها قلم هذا الشاعر الثبت — ابن الجباس — حشدت لها نفسه الجياشة خاطرها النفاذ وخيالها الوثاب ، وبيانها المصور ، وفنها البديع. فتتبعت — والمشاعر تصحبها ، والعواطف تمثل لها — شجر الموز فى حديقته ، وقد نبتت كتائبه ، وجمعت حشوده ، وينعت عراجينه ، وشققت كامه عن زهره ، وانتظمت أمشاطه ، وقامت سوقه ، ونشرت ظلاله .. فجنى منه الثمر وقطع ، فاصفر ورقه ، وحالت حالته ، كالمتيم الذى أذابه الكمد من طول وجده . . . .

ويرسم لك الشاعر بمقدرته ، صورة حضارية بديعة ، تدلك على إحدى جوانب المدنية حينذاك . فقد شبه الموز ، وهو فى عراجينه يانعا على شجره ، بفروع شعر غانية عقصتها بعد ضم ما انتشر منها ، وتركت منه شرابة مرسلة من خلفه :

---

(١) تأهيل الغريب باب الربيعيات .
(٢) نهاية الأرب للنويرى ج ١١ ص ٤ ١ ط دار الكتب .

ويصور لك أمشاطه مكاحل من زمرد منظمة . وسوقه عمداً حانية أواوينها على جدره . وأشجاره حاملة لها طفلا على يدها تقيه الحر ، وهو فى خمره . وساقها صقيل كساق العروس، أميط مئزرها فبان وشى خضابها . . إلى غير ذلك من الصور الماثلة فى أبياته .

يقول الشاعر :

كأنما الموز فى عراجنـــه	وقد بدا يانعا على شجره
فروع شعر برأس غانيـة	عقص من بعد ضم منتشره
كأن من ضمـــه وعقصه	أرسل شرابة عـلى أثره
كأن أمشاطه مكاحل من	زمرد نظمت على قـدره
كأنمـا زهره الأنيق وقد	شقق عنـه كمام مستتره
نظام ثغر يزينـــه شنب	ممتزج شهـــده بمعتصره
كأن قامات سوقه عمـــد	حنت أواوينها على جدره
كأن أشجـاره وقد نشرت	ظلال أوراقها على ثمره
حاملة طفلها عـــلى يدها	تقيه حر الهجير فى خمره
كأنما ساقه الصقيـل وقد	بدت عليه رقوم معتبره
ساق عروس أميط مئزرها	فبان وشى الخضاب فى حبره
تصاغ من جوهر خلاخلها	فتنجلى والنثار من زهره
حدائق خففت سناجقها	كأنها الجيش أم فى زمره (١)

(١) الشرابة : خيوط أو شعر يجتمع للتخفيف . وقد تتخـــذ الشرابة من الحرير للزينة . وأمشاطه : عراجينه تبدو منها أصابعه ، — والأواوين : جمع إيوان وهو الصفة العظيمة — بتشديد الفاء فى الصفة وهى موضع للاصطفاف . وصفة مسجد الرسول عليه السلام موضع فيه مظلل ، كان يبيت به « أهل الصفة » وهم أضياف الإسلام .
=

وكل آيانه فباهـــرة تبين فى ورده وفى صدره
كأنمـا عمره القصير حكى زمان وصل الحبيب فى قصره
كأن عرجونه المشيب أتى يخبر أن حانه انقضا عمره
كأنه البدر فى الـكمال وقد أصيب بالخسف فى سناقمره
كأنه بعد قطعـه وقد اصـ فر لما نال من أذى حجره
متيم قد أذابه كـمد يبيت من وجد على خطره
معلق بالرجاء ظـــاهره يخبر عما أجن من خبره
يطيب ريحا ويستلذ جنى على أذى زاد فوق مصطبره
كأنه الحـــر حال محنته يزيد صبرا على أذى ضرره

وصور مجير الدين بن تميم ، قصة حب وغرام بين النهر ودوحه . ويتخلل القصة هيام ووجد ، وغدو ورواح وطلب ووصال ، وبعاد وصد ، وشكوى وأنين ، ويأس وأمل وقنوع ، وتلك كلها مشاعر الشاعر وخواطره .

يقول مجير الدين :

ونهر بحب الدوح أصبح مغرما يروح ويغـدو هائما بوصـالها
إذا بعدت عنـه شكا بخريره جفاها وأمسى قانعا بخيالها[1]

والتشخيص باد فى البيتين ، كما بدا فيهما التعليل الأدبى والبيتان مليئان بالحركة :

= والخمر : بضمتين ، جمـع خمار بـكسر أوله ، وهو النصيف يغطى به الرأس أو يستر الوجه . والحبر : جمع حبرة مثل عنب وعنبة ، نوع من الثياب ، وضرب من برود اليمن — والسناجق : الأعلام — وحانه : حان له ، عدى الفعل بنفسه — وأجن : أخفى . راجع نهاية الأرب للنويرى ج ١١ — ص ١٠٩

(١) تأهيل القريب باب الأنهار .

حركة النهر وحركة الدوح . ويرمى الشاعر بقوله : « قانعا بخيالها » إلى صورة الدوح فى صفحة الماء . فالصفحة مرآة ، والصورة مستقرة فى قلبها . وهكذا شأن العشاق . . .

وكرر مجير الدين بن تميم ، هذه المعانى والصور ، مرة أخرى ، بعد أن بدل بعض مشاهدها . فجعل الأغصان تطيل فى صدودها وجفاها ، وجعل النهر — للوعته وطول وجده — يجرى لاثما أقدامها . والشاعر ما بين هذا وذاك ، يسوق تعليلاته الأدبية الطريفة .

يقول مجير الدين :

والنهر مذ علق الغصون محبة   أضحت تطيل صدوده وجفاه
فتراه يجرى لاثما أقدامهـــا   وخريره يشكو الذى يلقاه

وقد اتصل حبل المودة والإلف بين النهر والأهواء . كما اتصل — فى خيال مجير الدين بن تميم — بين النهر والأغصان . ولكن الأهواء فى هذه المرة هى التى تستجيب للنهر ، وإن شق عليها الأمر ، وهو وقد خالفها طاعت له وتوسلت إليه بأزهار الأغصان تسرقها منها وتلقيها بين يديه مغازلة مداعبة منادية، فيلوى بها عنان سيره ويجرى . .

يقول مجير الدين :

ونهر خالف الأهواء حتى   غدت طوعا له فى كل أمر
إذا سرقت حلى الأغصان ألقت   إليه بها فيأخذها ويجرى (١)

وأخذ ابن تميم بجمال الجدول وسحره ، وخشى عليه مغبة العيون من حوله ، إن هو ظل فى تدفقه أن تنفد العيون حسنه . فأنذره فأبى وتمادى . وكانت عاقبة

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب الأنهار .

أمره أن هوى من شاهق فتكسر . . . ولعل عيونا مقامة فى جسر ، كانت على طريق النهر .

وهكذا أجاد ابن تميم حبك هذه الحادثة الجانبية فى حياة النهر . وأجرى فيها من ألوان العاطفة والانفعال ما أضفى عليها حركة وحرارة . وذهب فى التعليل . على عادته ، إلى الطريف مما يفطن إليه خياله الأدبى الخصب .

قال مجير الدين .

يا حسنه من جدول متدفق يلهى برونق حسنه من أبصرا
مازلت أنذره عيونا حوله خوفا عليه أن يصاب فيعثرا
فأبى وزاد تماديا فى جريه حتى هوى من شاهق فتكسرا[1]

ولم يقل ابن تميم هذه الأبيات فى نهر النيل بالذات[2] . على ما نعتقد ـ إذ أن مجراه خال من المنظر الذى رسمه الشاعر ، وهو تكسره من شاهق . وهذا لا يرى إلا فى مجراه الأعلى الاستوائى . . أما فى مصر فلا تعترضه إلا جنادل وصخور يعلوها أو ينفلت من بين فرجها .

هذا . ويبدو أن مجير الدين بن تميم درس حياة النهر كلها ، من لدن شبابه إلى هرمه وقسمها أدوارا وقصصا ، فى كل قصة منها نزعة وعاطفة . فبعد أن هام بالأغصان وخالفته ، اتجه إلى الأهواء فخالفته أو خالفته وسدر فى غيه وجرى فى مجراه على هواه ، ولم يبال بالعيون الواقفة له فى طريقه بالمرصاد . فكانت عاقبته أن هوى من شاهق وتكسر .

وما إن تكسر ماؤه ، حتى أقام أحبابه وألافه عليه مآتما ! فهذا دولاب يبكيه ، وغصن بأوراقه يلطم حزنا عليه ، وورق فوق دوحه ترثيه . . . وتلك عاقبة الغى والهوى .

---

(١) حسن المحاضرة ج٢ باب الأنهار ـ (٢) راجع « النيل فى الأدب المصرى » ص١٨١

يقول مجير الدين :

تكسر الماء لما أن جرى فغدا الدولاب يندبه شجوا ويبكيه
وأصبح الغصن بالأوراق ملتطا والورق فوق كراسى الدوح ترثيه(١)

ويكمل صلاح الدين الصفدى قصة النهر . وذلك بإيضاح أحد جوانبها ، أيام كان النهر فى سيادته وحوله النسيم يخدمه . ويعلل لذلك .

يقول صلاح الدين :

النهر مولى والنسيم خديمه هذا كلام لست فيه أشكك
لو لم يكن فى خدمة النهر انبرى ما كان يصقل ثوبه ويفرك(٢)

وهذا التشخيص الذى تراه فى الأبيات أو كثير منها ، باد فى أساليب الشعراء فى هذا الباب . إذ يأبون إلا أن ينسبوا للروضة أو البستان أو النهر ، حياة حافلة بشتى العواطف والأحاسيس ، حياة فيها إرادة وعزيمة ، وفيها تفكير ورأى وتدبير . ومن هنا يقفز خيالهم إلى التعليل الأدبى الجميل الممتع .

ولعلك تجد مصداق ذلك فى قول محيي الدين بن عبد الظاهر :

روض به أشياء ليست فى سواه تؤلف
فمن الهزار تهازر ومن القضيب تقصف
ومن النسيم تلطف ومن الغدير تعطف (٣)

(٢،١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر الأنهار .

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر ما قيل فى الأنهار — والتقاصف : التكسر والاجتماع، كالتقاصف ، واللهو واللعب على الطعام — وهزره بالعصا : ضربه بها على جنبه ، وغمز وطرد وضحك ،، ولعل المراد بالتهازر هنا : التضارب والتضاحك —

ويطوف عز الدين الموصلى بالروضة طواف العاشق . فتبهره مجاليها وتأسره مرائيها . فيرى فى صفحاتها آيات الجمال . لقد نقشت أرضها إبر الحيا وطرزتها . ودارت أشجار السرو من حولها كالسوار ، أو كالخلخال . وغياضها مدبجة بادية الألوان . وأغصانها الند ، وأوراقها السندس. وأزهارها الياقوت والبلور ، والدراهم بين الدنانير . وظلها ثوب يجمعه النسيم تارة ، وتارة يفرقه . ونهرها كالسيف الصارم . . .

يقول الموصلى :

وروضة نقشتها للحيا إبر	فأصبحت بين تطريز وتزهير
مثل السوار لها سرو أحاط بها	من سلسل هى منه ذات تسوير
أو كالخلاخيل للأدواح دار على	سوق لها مطلقا فى زى مأسور
تحت الرياض غياض دبجت فبدت	ألوانها ذات تشهير وتشذير
أغصانها الند والأوراق سندسه	والزهر عرق ياقوتا ببلور
والزهر بين شعاع الشمس تحسبه	دراهما نثرت بين الدنانير
والظل ثوب إذا مر النسيم به	فالروض ما بين مهتوك ومستور
ونهرها زائر بالخصب يؤذننا	كصارم فى سبيل الله مشهور (١)

وجال الموصلى بالروض جولة أخرى . فماذا رأى فيه ، وماذا أحس منه ، وما هى انطباعاته عنه ؟ لقد رآه معجبا بنجم زهره الذى تحسده الأنجم الزهر . ورأى غدره قد زردت أثوابها من خوف النسيم ، ودبجته ألوان زهره . وكست أغصانه حلل ورقه . وأعربت له ورقه عن ألحانها فى الدوح قيانا دونها الستر ...

وهكذا ترى فى روضه هذا ، العجب والحسد وزرد الأثواب ، والخوف ،

---

(١) مطالع البدور فى منازل السرور للعلامة الغزولى ج ١ — مخطوط بالمكتبة الأزهرية . — والتشذير : التفريق — والتشهير : الإعلان .

والتدبيج والكسوة ، والإعراب والألحان والقيان المتسترة . . الخ . وهذه لعمرى حياة نابضة حافلة . . .

يقول الموصلى :

وروض بنجم الزهر أصبح معجبا　　فتحسده من جنسه الأنجم الزهر
ومذ أرجف الماء النسيم تدرعت　　مزردة الأثواب من خوفها الغدر
فللروض تدبيج بألوان زهره　　وللغصن من أوراقه الحلل الخضر
فراع نظيرا من جنان جناسه　　لحلى الضحى زهر وحلى الدجى زهر
وأعربت الألحان فى الدوح ورقه　　فكن قيانا دونها أسبل الستر
وأسفر للإصباح خد مورد　　ومن قبله حيا بريحانه الفجر (١)

ومن وصاف شجر السرو ، الأديب الكبير شهاب الدين محمود الحلبى . وقد جلاها عرائس لفت عليهن الملاء ، وشمرن الأزر فبدت سوقهن . . قال :

والسرو مثل عرائس　　لفت عليهن الملاء
شمرن فضل الأزر عن　　سوق خلاخلهن ماء
والنهر كالمرآة تبـ　　صر وجهها فيه السماء (٢)

ودخل الشاعر بدر الدين البشتكى إلى روضة ، فراعه بها حيا يجرر ذيله ، وورد كالخد المحمر يرشه الندى بدمعه ، ونرجس عاشق لم تغمض له عين . . . فقال :

وروضة جرر فيها الحيا　　ذيلا فلم يعطش ولم ينزع
كأنما الورد وقطر الندى　　محمر خد رش بالأدمع
يعشقه النرجس من أجل ذا　　لم يغمض العين ولم يهجع (٣)

والشهاب المنصورى يعده محبوبه بلقاء فى روضة ، فيعجل الشهاب إلى زيارتها

---

(١) مطالع البدور للغزولى .　　(٢) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر ما قيل فى الأنهار .
(٣) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٦ .

مترقبا ، وخواطره بالوصال وآماله بالقرب ، وثقته بالتمتع القريب بمحبوبه ، منظارات وضعت أمام عينيه . فرأى من ورائها ما فى الروضة ، فإذا كل ما فيها وصال وقرب ، وبوح بالسر وإفشاء للحب ، وسكر وميل ، وولوع وجنون ، واستشفاء وغذاء ، وميل أعطاف ، وحياء فى رغبة ، وعوذة من حاسد ، ورياضة لنافر ، واستمتاع بطيب شذى ، ونزهة طرف ، ونيل آمال . . . .

عواطف لعمرى وأحاسيس متجانسة متوافقة ، ترجع إلى حالة نفسية واحدة ، وتدل على شعور صادق ، وانفعال لازيف فيه .

يقول الشهاب المنصورى :

نم صبا روضتنا بالشذى	ونهرها باح بسر القذى
والغصن الذى فيه أثماره	قد مال سكرا قبل أن ينبذا
فى روضة زاد ولوع الصبا	بها فإن هب عليها هذى
إن صدحت ورق بأوراقها	تغرى اللذاذات بطرد الأذى
نسيمها رطب لداء شفا	وعرفها مسك لروح غذا
قد وعد المحبوب فيها بأن	يزور إن صح فيا حبذا
غصن إذا ميل أعطافه	فيا حياء الغصن منه إذا
عوذته بالله من حاسد	وليته يرثى لمن عوذا
قد سلبت ألحاظه مهجتى	ولم أجد لى منه مستنقذا
وروضة راضت رشا نافرا	عليه شيطان القلى استحوذا
بت بها من دوحها ناعما	بين شذى الطيب وطيب الشذى
نزهت طرفى فى جنى هذه	ونلت آمالى من وصل ذا (١)

وللبرهان القيراطى فى الرياض ، جولات وجولات . وقد دخل مرة روضا

---

(١) كوكب الروضة ص ١٤ .

منها ، فإذا به يملؤه الزخرف ، والظلال تشنف أغصانه ، والحمائم تساكن أفنانه ، والنسيم يسعى رسولا ، وإذا بمجلسه فيه يلتئم بأنسه ...

فيقول :

الروض يا صاح زخرف	والغصن بالظل شنف
وبين أوراق دوح	ورق الحمام ترفرف
تصيح تصدح سجعا	تشدو تغرد تهتف
وللنسيم رسول	أتى لنا بملطف
وتم مجلس أنسى	فلم يكن فيه مرجف
وما تخلف عنه . . .	إلا امرؤ متخلف . . (١)

ولعل القيراطي يريدمن لفظ «متخلف» هنا ، مايراد منهافى العصرالحاضر . . وهو « غير متحضر » .

على أن الملاحظ أن القيراطي يمزج ـ غالبا ـ ربيعياته بخمرياته . فترى منهما مزاجا سائغا شرابه . وفى تائيته البارعة التى مدح بها تاج الدين السبكى ، ـ وكأنه يعارض بها تائية ابن نباتة فى مدح كمال الدين بن الزملكانى ـ طاف وهو يتنقل فى أبياتهامن بيت إلى بيت ، بهذه الربيعيات الخمرية ، أو الخمريات الربيعية الغزلة . .

يقول القيراطي من تائيته هذه الجزلة .

تشوقنى ألفات الروض مائلة	من النسيم سكارى وهى دالات
ولى من الورق فى أوراقها طرب	كأنهن على العيدان قينات
وللرياض أزاهير مدبجة	وللجنان ثياب سندسيات
روض تمسكت فيه بالصبا وله	مع الصبا نفحات عنبريات
ما قارنت فيه أقمارى شموس طلا	إلا قضت بالمنى تلك القرانات
يطوف بالشمس فيما بيننا قمر	نيران خديه للعشاق جنات
جلا الحميا عروساً فى الكئوس لها	من الحباب عقود لؤلؤيات الخ(٢)

---

(١) ديوان القيراطي ورقة ٩٦ . (٢) ديوان القيراطي ورقة ٤٣ .

وقريب من هذه الأبيات قوله :

جدد العيش بالشراب العتيق ثم واصل صبوحنا بالغبوق
وأدرها على العيون كئوساً صفوها في غنى عن الراووق
واسقنيها على رياض شقيق بنت كرم تحكى رياض شقيق
صاغ ياقوتها شباكاً من الدر م عليها تصيد عقل المفيق
يا خليلي وصاحبي ورفيقي ونديمي وناصحي وصديقي
إن ورد الكئوس في روض ورد فيه يعصى الخليع كل شفيق[١]

والتفت الشعراء إلى الدواليب والنواعير وما دار مدارها . ومنهم مجير الدين ابن تميم ، الذى قرن فى بيتيه التاليين بين النهر ودولابه . إذ رأى أنهما تجمعهما معاً جامعة البكاء وجرى الدمع وسيل العيون . فتساءل علام هذا النحيب ؟ ثم علم أن النسيم قد «ضاع» بينهما، فجرى النهر باحثاً عنه ، ودار الدولاب يتفقده . . .

يقول مجير الدين :

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى ودمعهما بين الرياض غدير
كأن نسيم الروض قد ضاع معهما فأصبح ذا يجرى وذاك يدور[٢]

ولعب شعراء كثيرون — فى باب الدواليب — بلفظ « ضاع » . وقد مهد به ابن نباتة لذكر دوران ناعورته وبكائها على « الضائع » وهو نشر الربا . يقول :

وناعورة قسمت حسنها على واصف وعلى سامع
وقد ضاع نشر الربا فاغتدت تدور وتبكى على الضائع[٣]

---

(١) ديوان القيراطى ورقة رقم ١٤٢ — وفى البيت الخامس تكرر لفظ رفيق فى كل من الضرب والعروض . فغيرنا العروض بلفظ صديق .

(٢) تأهيل الغريب فصل الدواليب . (٣) المرجع نفسه .

والآن آن لنا ، وقد أشبعنا القارىء من الحديث عن مشاعر شعراء مصر وعواطفهم نحوها ونحو نيلها وما يتصل به من رياض ومنازه وحدائق وربيعيات، حتى رأى القارىء مدى استجابتهم لوحى هذه البيئة الطبيعية ، آن لنا أن نزيده إشباعاً بذكر « سرحة النيل » و « مصائد الشوارد » .

سرحة النيل :

وإذا ذكرت ربيعيات مصر وروضيات نيلها ، ذكرت فى مقدمتها « سرحة النيل » . ونعنى بها تلك السرحة التى خلدها الشاعر الفحل فخر الدين بن مكانس فى شعره .

روى جلال الدين السيوطى ، قال :

« قال الصاحب فخر الدين بن مكانس : كان على شاطىء النيل سرحة كأنها قبة زمرد ، أو فسطاط زبرجد . فاقترحت جماعة الأصحاب وبنو الآداب . أن تنظم صورة الحال ، بشرط الارتجال . على أسلوب الأرجانى فى وصف الشمعة :

نمت بأسرار ليل كاد يخفيها وأطلقت قلبها للناس من فيها

والمنازى فى فضل الوادى :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم

وحمدة بنت تقى الأندلسية فى وصفه :

أباح الدمع أسرارى بواد له فى الحسن آثار بوادى

فقلت : لا تركض خيول الارتجال فى هذا المجال . ولا تستبق بداية الأذهان فى هذا الميدان . لأن تسمحوا فى الانتظار بليلة ، ربما تنجح فى اختياركم الحيلة .

فأذعن كلانا إلى ما شاء صاحبه من الاقتراح . فقلت عند تنفس الصباح :

يا سرحة الشاطىء المنساب كوثره على اليواقيت فى أشباه حصباء » .. الخ[1]

(١) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٠٧ .

وسجل ابن مكانس بعد ذلك قصيدته فى وصف السرحة وتخليدها .

هذه القصيدة فورة من فورات الشاعرية ، وسنحة من سنحات الفن . وكم جلس ابن مكانس فى ظلال سرحته هذه وتقلب فى أفيائها ، فرآها قد كرم منبتها ، وطاب فى كنف النيل غرسها ، ورسا أصلها على شاطئه ، ونما فرعها على صفحة كوثره . وحلالها المقام معه ، لأنها وليدته أو حبيبته . فصفا لها ماؤه ، ووفى حباؤه . فضحكت له بنورها الألاق ،وزهرها البراق . وانثنت عليه بأغصان لدان ، وأفنان حسان .

لقد أثارت هذه السرحة بمفاتنها فى نفس ابن مكانس ، وساوس الشياطين ، وهواتف أبالسة الشعر . فناجاها بهـذه القصيدة الفريدة التى خلدتها بين لداتها ، وأبرزتها دون أخواتها .

ولقد راعه جمالها وجلالها ، وأعجبه منها سموقها إلى السماء فى أنفة وكبرياء . وامتداد أفنانها على صفحة الماء . فنظر إليها نظر العاشق المشغوف والمحب الواله . وامتزجت نفسه بنفسها ، وحلق بخياله فى أجوائها . فأخذت هى تملى على خاطره بديع الوصف ، وترسم له روائع الصور .

فطفق ينعت قوامها من الأخمص إلى الذؤابة . كأنها وهى العجوز الشمطاء كاعب حسناء . ولم لا ؟ وهذا نورها يبسم من الفرح ، فيغاديه من الغيم كل بكاء . وتداعبها الأنواء ، وتفاكهها السحب بالماء . وإذا توهج القيظ فاستشرى داؤه وأعجز دواؤه ، طبته عن علم وخبرة ، وشفته من رمضائه فى لطف وقدرة . وهى لذلك مقيل ندمان ، ومغنى حمائم . لا بل مرتع ظباء ، وفناء درماء . . . .

وإذا صفق الموج من تحتها طربا ، نقطته بأزاهيرها ، ما بين صفراء فاقعة ، وبيضاء ناصعة . وإذا جاش النهر بخريره ، مالت إليه ، كأنها أذن مصغية يلقى إليها بسره . فيريها جزاء لذلك ، محاسنها فى مرآته ، ومفاتنها على صفحاته . .

وقد خلع عليها القدم قدسية ، فأصبحت كدير راهب . إذا اعتلى بلبلها ذرا

أغصانها ، ملأ سواد الليل بترتيله ، فتخاله مسبحا داعيا ، وعابدا مصليا ومناديا..

على هذا الضرب من الخيال الفريد والوصف الجديد ، نظم ابن مكانس سرحيته العصماء . وقد بدأ مطلعها بهذه المناجاة ، قال :

يا سرحة الشاطىء المنساب كوثره ... على اليواقيت فى أشكال حصباء
حلت عليك عزاليها السحاب إذا ... نوء الثريا استهلت ذات أنواء
وإن تبسم فيك النور من جذل ... سقاك من كل غيم كل بكاء

وقال :

يا طبة بدواء القيظ عالمة ... أنت الشفاء لدى الرمضا من الداء
لاصوح الدهر منك الزهر وانبجست ... عليك كل هتون الودق سوداء

وقال :

خمائل الروض منشاها ومرضعها ... ضرع النميرين من نيل وأنواء
فاستمهدت دوحها المخضل وافترشت ... نجم الربا ورمت عرشا على الماء
قريرة العين بالأضواء باردة الـ ... ـقلب الذى لم تنله غير سراء
مقيل ندمان بل مغنى حمائم بل ... كناس آرام بل أفناء درماء
قديمة العهد هزتها الصبا فصبت ... فهى العجوز تهادى هدى مرهاء
لا يدرك الطرف أقصاها على كلل ... حتى تعود له لحظا لحولاء
وصوت بلبلها الراقى ذرا غصن ... فى حلة من دمقس الريش دكناء
يقرع ناقوس ديرى على شرف ... مسبح فى سواد الليل دعاء(١)

---

(١) العزالى : جمع عزلاء ، وهى مصب الماء من الراوية — والودق : المطر — والنوء : النجم مال إلى الغروب ، وسقوط النجم فى المغرب مع الفجر وطلوع نجم آخر . قال فى المصباح : وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط من النجوم وقيل إلى الطالع ودرم الكعب : بكسر الراء ، وواراه اللحم فلم يبن له حجم ـ وهى درماء كاسية ـ ومرهت عينه : بكسر الراء ، خلت من الكحل أو فسدت لتركه ، أو ابيضت حماليقها — والدمقس : الإبريسم أو الخز أو الديباج أو الكتان ـ والإبريسم هو الحرير .

والقصيدة — وتقع فى أكثر من ستين بيتا على هـذا النسق — وصفية عاطفية ، خالصة لوجه السرحة . ولم يقتصر الوصف فيهـا على الناحية الحسية ، كما رأيت ، بل خلع الشاعر على سرحته ضروبا من الإحساسات النفسية والانفعالات العاطفية . فكما وصف ارتفاعها وكلال البصر دونه ، ونشأتها بين خمائل الروض ، ورضاعها من النميرين : النيل والأنواء . وأغصانها وما فيها من لين ، وأزهارها وما بها من وضاءة ، وظلهاوماله من وروف ، وتصفيق الموج من تحتها وترقرقه ، وخرير النهر إليها وجيشه ، وصفحة مائه وصفاءها . . . إلى غير ذلك . . .

نقول كما وصف ذلك ، نسب إليها أيضـا ألوانا من الأوصاف المعنوية : فنورها يبسم . وظلها يطب من القيظ ، ويشفى من داء الهجير . وقلبها لم تنل منه غير السراء . وعينها قريرة . وأنها صبت ، وأنها تتهادى .. إلى غير ذلك .

وقد وصفها بمعنويين متناقضين ، اقتضى كل منهما المقام : أحدهما أنها تصبو كما تصبو العجوز ! فقال : « قديمة العهد هزتها الصبا فصبت. فهى العجوز . . » الخ . وشأن الصابية امتلاء القلب بالشجو ، وترنح العطف من الهوى . . .

ثم عاد الشاعر فنفى عنها الصبوة وامتلاء القلب . وذلك حينما راح يوازن بين ما فى نفسها وما فى نفسه . وبين ما تحتمله فى ضلوعها ، وما يشوده فى حناياه . فبدت له حسناء خالية الفؤاد من الهوى ! والحسناء إذا وثقت بجمالها واطمأنت إليه ، ولم يعبث الحب بقلبها ، استطاعت أن تعبث بالقلوب ...

وهكذا استطاعت سرحة ابن مكانس أن تعبث بقلبه وتبعث فيه الغيرة ، وتتهكم به وتميل إلى سواه . . . قال :

خلية حين أحنيت الضلوع على نار الشجوى بهـا لاحب لميـاء
تهـكمت بى فمـا أحنت أضالعها على الهواء وأحنتها على المـاء

ويمتاز ابن مكانس فى سرحيته ، بأنه عنى – بجوار وصف السرحة وصفا حسيا ومعنويا ـ بوصف مالابسها من الحوادث اللصيقة بها ، والمرائى الدائرة حولها .

وقد يجنح بعض الشعراء فى قصائده الوصفية ، عن وصف موضوعها إلى ملابساته البعيدة . أما ابن مكانس فقد نظم فى صميم موضوعه ، ولم يخرج عنه إلا نادراً . ولم يخرج عنه إلا إلى مايتصل به ، ولم يخرج عنه إلا ليعود إليه .

ونستطيع أن نعدد الموضوعات الجزئية التى طرقها بوصفه . فمنها : المناجاة والتذكر ، وذكر الظل ونعت المنبت ومافيه من خمائل ، وما يجوده من ماء . ولين الغصون واهتزاز قوامها وارتفاع الفروع . وتغريد البلابل ، وتصفيق الموج . وتساقط الزهر ، وتغضن اللحاء . إلى غير ذلك مما يتصل بالسرحة اتصالا مباشراً .

وقد أبدع ابن مكانس بعد ذلك ، فى وصف النهر بعدة أوصاف ، منها أنه مرآة بدا فيها الحسن واللألاء . وبأنه يزرى بنهر الأبلة ، وبأنه عند تحريك النسيم له يبدو كفرند السيف . إلى غير ذلك . .

ومن هذه الأبيات قوله :

مالت على النهر إذ جاش الخرير بها ... كأنها أذن مالت لإصغاء
كأنما النهر مرآة وقد عكفت ... عليه تدهش فى حسن ولألاء
ذو شاطىء راق غب القطر فهو على ... نهر الأبلة يزرى أى إزراء
كأنه عند تحريك النسيم له ... فرند سيف نضته كف جلاء

ومنها :

كأنه حين يبدا زرقه وصفا ... راووق عين بوجه الأرض شهلاء

ومما يذكر أن تقى الدين بن حجة الحموى روى – عندما ذكر أبيات ابن مكانس هذه ـ البيتين التاليين للأرجانى وهما :

كم طعنة نجلاء تعرض بالحمى   من دون نظرة مقلة نجلاء
فتحدثا سرا لخول قبابها   سمر الرماح يملن للإصغاء

ثم رجح أن يكون ابن مكانس قد ولد منهما بيته :

مالت على النهر إذ جاش الخرير به   كأنها أذن مالت لإصغاء[1]

وانتقل ابن مكانس بعد وصف النهر ، إلى ذكر الحمامات الشادية على أراك السرحة ، بين هذه الحدائق الفيح حتى أطربت عيدانها ، وأرقصت أغصانها . فقال :

من كل ورقاء فى الأفنان صادحة   بين الحدائق فى فيحاء زهراء
ورق تغنت بتحنان رقين على   عيدانها فاله فى مغنى وغناء

ثم عاد إلى السرحة يذكر خطاب ظلها وأحباب ناديها . وقد برئت قلوبهم فى رحابها من الحقد ، وخلصت من الشحناء ، فلم يعد لهم رابطة إلا الوداد . ولا جامع إلا اللهو ، الذى لا مكر فيه ، والمجون الذى لا ندم بعده . قال :

باكرتها فى سراة من أصاحبها   لا ينطوون على حقد وشحناء
يداعبون بمعنى شعرهم فأروا   ود الأحبة فى ألفاظ أعداء
من كل شيخ مجون فى شباب فتى   يقرى المجون بقلب غير نساء
يسعى إليها على جرداء جارية   من آلها كهلال الأمن حدباء

انتقل الشاعر فى البيت الأخير — كما ترى — انتقالا لطيفا إلى وصف السفينة ، يركبها الأحباب المرتاضون فى أمانة النهر وحراسة تياره . وشبهها بهلال الأمن ، لا بهلال الشك . فقد استسلم فوقها اللاهون المجون استسلام المؤمن لقدره ، فى وداعة ورضا واطمئنان .

وهذه السفينة « نوحية الصنع » . فلعل الشاعر كنى بذلك عن قدمها ، إذ هى

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة .

معودة — من زمن بعيد — أن تحمل العشاق والمحبين وتوصلهم إلى غاياتهم ، وتحفظ الخفى من مكنوناتهم وأسرارهم : وكم أثقلوا ظهرها وآدوا منكبيها ، وما اشتكت منهم عناء ولا بكت إعياء ....

أو لعل الشاعر يرمز إلى دقة صنعها ، وإلى أنها مباركة طيبة ، فيها الأمن والأمان والنجاة .

لذلك كله تزهو السفينة بنفسها ، وتفخر على الجياد الغر والعتاق الضامرة . وقد بدت كالعروس تتهادى فى زينتها ، وكالورد تتبختر فى مشيتها . فتزيد بذلك جو العشاق أنسا وبهجة ، وتسحر عيونهم بما زها عليها من ألوان فاتنة . قال ابن مكانس :

نوحية الصنع والإحكام منشأة تسير ما سيرت من غير إعياء
سوداء تحكى على الماء المصندل شا مة على شفة كالشهد لعساء
ساجية ألبستها الصانعون لها من التدابيج مايزهو بصنعاء
غريبة ذات ألوان وأجنحة لم أدر تعزى لروض أو لعنقاء
لم يستطع شأوها أو سيرها عنق غر الجياد على كد وإنضاء

وكما تخلص الشاعر إلى وصف السفينة فى رفق ، تخلص من وصفها إلى أبيات خمرية منتشية ، فأبدع ماشاء له قلمه وإلهامه ، فجمع فى وصف الخمر بين الشمطاء والعذراء . الشمطاء لنفاستها وقدم عهدها ، والعذراء لأنها مختومة لم تفض ، وبكر لم تقرب . وأجاد فى وصف إبريقها الذى إذا انحنى فركوع دعّاء ، وإذا صوت فتسبيح فأفاء . .

وبتناولها ينتظم شمل نادى السرحة ، ويلتئم مجلس رواده . . . يقول ابن مكانس :

كم قد نعمنا بها عيشا بساقية شمطاء تجلى على الجلاس عذراء
مما تخيرها كسرى وأودعها رب الخورنق فى قوراء جوفاء

حمراء صرفا وصفرا إن مزجت لها ... كم من يد فى سواد الليل بيضاء
راحا إذا ركع الإبريق يمزجها ... سمعت من صوته تسبيح فأفاء
أم السرور التى أبقى الزمان بها ... جزء الحياة وقد ألوى بأجزاء
فعاطينها على طل الندى سحراً ... فإن ترياقها موتى وإحيائى

اختتم ابن مكانس سرحيته الفريدة بأبيات ذكر فيها شيئاً من لهوه ، وطرفا من مجونه ، وتقلبه بين الشادى والشادية ، وبين العود والناى ، وبين الحدائق ذات البنفسج الفياح والزهر النفاح ، منوها أن من دأبه أن يأخذ من اللهو بنصيب . وأنه لاينوح — كغيره — على طلل ، ولا يندب خليطا ، ولا يبكى على أحياء . يقول :

أما أنا لست نواحا على طلل ... ولا خليط ولا نداب أحياء
تركته لأناس كالتيوس غنوا ... عن المدام بدر الإبل والشاء
يعزون للشعر لكن من جهالتهم ... لم يعرفوا بين إيطاء وإقواء
من كل ألكن عند البحث منقطع ... كأنه واصل والشعر كالراء . .[1]

مصائد الشوارد :

وما دمنا بصدد الحديث عن الربيعيات والروضيات ، لانرى بدا من الإشارة العابرة الوجيزة إلى هذه المزدوجة البارعة التى نظمتها يراعة الشاعر الكبير جمال الدين بن نباتة المصرى ، وهى قصيدته «مصائد الشوارد» :

وقد كان ابن نباتة أمير شعراء مصر فى زمانه بلا منازع ، بل أمير شعراء

---

(١) القصيدة فى ديوان فخر الدين بن مكانس — مخطوط بدار الكتب المصرية — ومطالع البدور فى منازل السرور للعلامة الغزولى ج ١ مخطوط بمكتبة الأزهر — وروض الآداب للشهاب الحجازى مخطوط بمكتبة الأزهر ° — وكوكب الروضة للسيوطى مخطوط بدار الكتب المصرية ص ١٥٧ . وواصل هو واصل بن عطاء ، وكان لايحسن نطق الراء ،

المشرق . ولد فى مصر ونشأ بين ربوعها ، وتثقف بثقاف أدبائهما ، وتفتحت عينه أول ما تفتحت على ملاعبها ومرابعها ولها فى مراحاتها . وثملت نفسه بمفاتن طبيعتها ومحاسنها .

ولكن عاجله الفراق . فنزح عنها لضيق عيشه بها ، متكسباً بشعره فى دمشق وحماة . وهناك احتفل الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة بمقدمه ، وأكرمه ، فمدحه وأطال فى مديحه وأجاد . ثم اتصل من بعده بابنه الملك الأفضل فحظى عنده كما كان من قبل عند أبيه .

ورافق ابن نباتة مرة ، ركاب الملك الأفضل . وكان قد خرج إلى رحلة صيد ، ومعه رجاله وغلمانه وحرسه وخدمه وطهاته وأدوات صيده من رماح وقسى وسهام وبزاة وصقور وكلاب ، وأدوات لهوه وأنسه .

فسجل ابن نباتة هذه الرحلة الممتعة فى مزدوجته البارعة . ووصف فيها كل ما ذكرناه لك . وكل ما مر عليه ورآه من طبيعة أحراج حماة وما يعيش فى زواياها من صيد سمين . ووصف الشجر والزهر والثمر ، والطير والأرض والسماء ، ووصف الغلمان والبزاة والصقور إلى غير ذلك . فكانت قصيدة جامعة رائعة ، استغرقت نحو ١٧٠ بيتا من جيد الشعر .

وهكذا ظفرت حماة وبيئة حماة الطبيعية ، من ابن نباتة ، بما لم تظفر به منه مصر ، وهو وليدها وناشئها وشاعرها ولكن هذه عاقبة حرمانها له ، وتفريطها فيه .

وإليك بعض أبيات هذه الفريدة . قال فى أولها :

أثنى شذى الروض على فضل السحب	واشتملت بالوشى أرداف الكثب
ما بين نور مسفر اللثام	وزهر يضحك فى الأكمام
إن كانت الأرض لها ذخائر	فهى لعمرى هذه الأزاهر
قد بسطتها راحة الغمائم	بسط الدنانير على الدراهم

أحسن بوجه الزمن الوسيم   تعرف فيـــه نضرة النعيم
وحبـذا وادى حمـاة الرحب   حيث زها العيش به والعشب . الخ[1]

ويقول صاحب كتاب « شعر الطبيعة » إن بائية ذى الرمة التى تبلغ مائة وثلاثين بيتا لم تظفر العربية بمثلها طولا ، فى شعر الطبيعة (٢) . ونقول إن « مصائد الشوارد » لابن نباته أطول منها . . .

رحلة صيد الملك الأشرف خليل :

وذكرتنى « مصائد الشوارد » ورحلة الملك الأفضل ، برحلة قبلها للصيد ، قام الملك الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٩٠ هـ . لقد خرج مع أمرائه ورجاله وبين جنده وحرسه ، ومعه أدوات صيده ورماته ، إلى رحلة صيد اتجه فيها نحو قرى البحيرة ومنها دخل مدينة الإسكندرية .

وضربت خيامه جهة الأهرام . وأخذ رماة الصيد يرمون . وعرضوا عليه أن يرمى معهم فيصيد الطير بالبندق . فأبى واستنكف ، وترفع وتعفف ، أن ينزل إلى مستوى الرماة ، وأن يقتل الطير على طريقتهم فى صيده وقتله . . .

ونظم الشاعر الكبير محي الدين بن عبد الظاهر فى هذا قصيدة . . لم يذكر فيها شيئا مما رآه من مجالى الطبيعة إبان الرحلة ، ولا وصف مزاولة الصيد . وحبس اهتمامه فيما كان من أمر الملك الأشرف ، وتعففه عن الصيد ، كأنما لم يعجبه من الرحلة إلا هذا التعفف . وكال له المديح كيلا . . .

لو اتجه فى قصيدته كما اتجه ابن نباته من بعد فى أرجوزته ، لكان للأدب منه ثراء ، ولشعر الطبيعة منه غنى .

---

(١) ديوان ابن نباتة ـ فى آخر الديوان .
(٢) كتاب شعر الطبيعة فى الأدب العربى للدكتور سيد نوفل ص ١٤٧ .

ولعله — والله أعلم — وصف الرحلة فى مفتتح القصيدة . ولكن لم يسجل منها المؤرخون إلا أبيات المديح .

وقد قال فى أول الأبيات المسجلة ، وفيها مبالغة غير مستساغة :

ما يدعى السلطان إلا لمن   يـكون أعلى منه مقدارا
والأشرف السلطان من دونه   قد خلق العالم أطوارا
لأجل هذا ما رمى بندقا   ونال بالجارح أوطارا
وليس بالواجب ذاك الذى   يسميه بالواجب من مارى
حاشاه من تبديل أقواسه   أو يبدل الأوتار أوتارا . . (١)

الأهرام :

والأهرام — وإن كانت من صنع الإنسان ، ومما أقامه على سطح الأرض ، وتدل على حياة مصرية قديمة اجتماعية ، حافلة ، اشترك فى بنيانها الدين والعقيدة من ناحية ، والحكم المستبد والمستوى الاقتصادى والصناعى من ناحية أخرى ، — رسخت على ظهر هذه الأرض ، ولم يعترها من التغيير والتبديل ما يعترى سائر ما يبنى الإنسان ، واعتادت العين رؤيتها جزءا لا ينفصل من طبيعة صحراء مصر الغربية . حتى صارت امتدادا لها ، وأعجوبة باقية من أعاجيب مصر الخالدة ، التى يسعى إليها الناس من كل حدب ، سائحين حاجين ، ليروا فيها ما يملأ العين جلالا والنفس روعة .

وقد توثب خيال بعض شعراء مصر ، فدار حول الأهرام ، واستوحى منها ما استوحى من عو صوره .

(١) قصة الرحلة والقصيدة ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ من « الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية » ــ خليل بدار الكتب ط أوربا .

وقد طار الأديب القاضي فخر الدين عبد الوهاب المصرى ، بخياله حولها وحلق فى جوها ، فرآها من عظات الدهر . وتذكر ما قاله فيها الأدباء ، وما نظمه الشعراء . ونظر إليها فإذا هى فى رأى عينه ، جبال شامخة تكاد أن تمتد فوق الأفق . وكأن كسرى جالس على قمتها ، وسفحها إيوانه . فأخذ يمجد خلودها على الزمان ، وثباتها على حره وبرده ، وعلى غيره وصروفه ، دون أن تتأثر بإحراق الشمس أو عصف الرياح ، أو جريان السيل .

ويتساءل الشاعر – وهو فى تساؤله متعجب معظم – هل هى أوثان عابد ، أو مثوى لروح قائد ، أو مأوى له من طوفان ، أو مرصد لراصد . أو هل اختارها القائد ملجأ يعود إليه لأنه يؤمن برجعة روحه بعد موته . لذلك يحشد فيها كنوزه ، ويحفظ جسمه ، ليأمن عليهما من بوائق الدهر . . . إلى غير ذلك من المشاعر والأفكار التى أثارها منظر الأهرام فى نفس الشاعر .

وإليك هذه الأبيات ، قال :

أمبانى الأهرام كم من واعظ	صدع القلوب ولم يفه بلسانه
أذكرتنى قولا تقادم عهده	أين الذى الهرمان من بنيانه
هن الجبال الشامخات تكاد أن	تمتد فوق الأرض عن كيوانه
وكأن كسرى جالس فى سفحها	لأجل مجلسه على إيوانه
ثبتت على حر الزمان وبرده	مددا ولم تأسف على حدثانه
والشمس فى إحراقها والريح عند	د هبوبها والسيل فى جريانه
هل عابد قد خصها بعبادة	فمبانى الأهرام من أوثانه
أو قائد يقضى برجعة نفسه	من بعد فرقته إلى جثمانه
فاختارها لكنوزه ولجسمه	قبرا ليأمن من أذى طوفانه
أو أنها للسائرات مراصد	يختار راصدها أعز مكانه
أو أنها وضعت بيوت كواكب	أحكام فرس الدهر أو يونانه

أو أنهم نقشوا على حيطانها	علما بحار الفكر فى بنيانه
فى قلب رائيها ليعلم نقشها	فكر يعض عليه طرف بنانه [١]

وجاز الشهاب المنصورى بالهرمين ، فوقف أمام جلالهما مشدوها معجبا ، مأخوذا بروعة بنائهما وجمال تشييدهما ، وطيب إخائهما ، وإقامتهما هكذا متجاورين فى هذه الصحراء الشاسعة ، واقفين على أبوابها فى ثبات وترقب . فأخذ يستوحى منهما العبر بعقله ، ويستلهم من وقفتهما الصور بخياله . وخالهما مسافرين عرفا المحل ، أو عاشقين تواصلا بالرغم من رقيبهما أبى الهول ، أوحائرين تطلعا إلى السماء يستهديان نجمها ، أو ظامئين استسقيا صوت الحيا . ويقول الشاعر :

إن جزت بالهرمين قل كم فيهما	من عبرة للعاقل المتأمل
شبهت كلا منهما بمسافر	عرف المحل فبات دون المنزل
أو عاشقين وشى بوصلهما أبو الـ	ـهول الرقيب فخلفاه بمعزل
أو حائرين استهديا نجم السما	فهداهما بضيائه المتهلل
أو ظامئين استسقيا صوب الحيا	فسقاهما عذبا روى المنهل
يغنى الزمان وفى حشاه منهما	غيظ الحسود وضجرة المستثقل [٢]

الهلال :

والهلال من مجالى الطبيعة الفاتنة . وقد وثب إليه خيال الشاعر شرف الدين الطائى ، فوجده سوارا جميلا تزدان به حسناء . ووجد الزهرة قريبة منه ، فهى جوهرة ركبت على قفله . . وهذا لعمرى خيال رجل متحضر . .

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٩٦ فى حديثه عن الأهرام ، وروى أنه وجدها مكتوبة بخط شهاب الدين بن أبى حجلة الذى قال إن الناظم أنشدها له عام ٧٥٥ هـ . راجع أيضا : الذيل الأول لثمرات الأوراق لابن حجة . ص ١٦٩ ط المطبعة الوهبية عام ١٣٠٠هـ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ باب ذكر الهرمين .

قال الشاعر :

كأن الهلال بجو السماء　　وقد قارب الزهرة النيرة
سوار لحسناء من عسجد　　على قفله ركبت جوهرة(١)

وسما إليه الشاعر المبدع ابن نباتة المصرى فجمع فى وصفه اثنى عشر تشبيها . صاغها بعبارته الجزلة . ويبدو أن جوهر هذه التشابيه مألوف فى وصف الهلال . غير أن للشاعر هنا ـ ولا ريب ـ تصرفا فى تخريج وجوه الشبه أو بعضها .

وقد رآه قوسا موتورا على مهج الأعداء . ومخلبا مده نسر السماء يخيف الطير ، ومنجلا انعطف للحصاد ، وخنجراً مرهفاً . ونعلا من تبر مهدى إلى جواد ملك أو أمير ، وراكعاً يشكر الله على فضـــله ، وحاجباً أشمط يفضح عمر صاحبه . وزورقا انحدر فى بحر الظلام ، وشفة مائلة إلى كأس . ونصف سوار طرحه كف الدجى . وقطعة قيد لمأسور ، ونون رمضان سقطت لما مضى الشهر .

قال ابن نباتة :

كأن شكل هلال العيد فى يده　　قوس على مهج الأعداء موتور
أو مخلب مده نسر السماء لهم　　فكل طائر قلب منه مذعور
أو منجل بحصاد القوم منعطف　　أو خنجر مرهف النصلين مطرور
أو نعل تبر أجادت فى هديته　　إلى جواد ابن أيوب المقادير
أو راكع الظهر شكراً فى الظلام على　　من فضله فى السما والأرض مشكور
أو حاجب أشمط ينبى بأن له　　عمراً له فى ظلال الملك تعبير
أو زورق جاء فيه العيد منحدراً　　حيث الدجى كعباب البحر مسجور
أو لا فقل شفة للكأس مائلة　　نذكر العيش إن العيش مذكور
أو لا فنصف سوار قام يطرحه　　كف الدجى حين عمته التباشير

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ باب ذكر الهرمين .

أو لا فقطعة قيد فك من بشر أخنى الصيام عليه فهو مأسور
أو لا فمن رمضان النون قد سقطت لما مضى وهو من شوال محصور[1]

والأبيات من قصيدة رائية لابن نباتة ، مدح بها الملك المؤيد صاحب حماة ، وإليه يشير فى بعض الأبيات بقوله : ابن أيوب .

وقد ذكر ابن حجة فى ديوان شعره « الثمرات الشهية » - وكان هو قد عارض رائية ابن نباتة برائية على نمطها — « أن ابن نباتة شبه الهلال هـذه التشبيهات ، وهى من السبعين تشبيها . التى ذكرها الشيخ صلاح الدين فى شرح اللامية »[2] .

ويعنى ابن حجة بشرح اللامية ، شرح الصفدى للامية الطغرائى المعروفة بلامية العجم . واسم الشرح « الغيث الذى انسجم » .

ولم يشر ابن حجة إلى أى الشاعرين أخذ من الآخر . ونرجح أن الصفدى هو الذى أخذ من ابن بناته ، أو اقتدى به لأن هـذا كان ديدنه — ثم زاد عليه ما زاد .

وقد نظم الصفدى — حقا — عدة مقطوعات فى وصف الهلال بخاصة ، سماها « رصف اللآل فى وصف الهلال » . وقد ضم الجلال السيوطى إليها مجموعة أخرى من نظم الشعراء فى وصف الهلال ، وسمى الجميع « رشف الزلال فى وصف الهلال[3] » .

وفى مقطوعات الصفدى تراه قد اعتمد كثيرا فى تشبيهاته على تشبيهات غيره ، ومنها ماهو مألوف ، ومنها غير المألوف . ويبلغ عدد هذه المقطوعات نحو ٤٣

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ١٨٦ — ورصف اللآل فى وصف الهلال ص ٧٤ ، ضمن مجموعة رقم ١١٧١ بالمكتبة الأزهرية ط الجوائب عام ١٣٠٢هـ .

(٢) راجع ديوان ابن حجة الحموى « الثمرات الشهية » مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٣) رشف الزلال يوجد ضمن المجموعة رقم ١١٧١ بالمكتبة الأزهرية ط الجوائب .

مقطوعة . لم يبلغ بها مستوى ابن نباتة ، من الجزالة ودقة الصنع وحسن الخيال .

ومن تشبيهات الصفدى فى هـذه المقطوعات : تشبيهه بمقص فتح لقص ذيل السماء . وبالمحجبة التى رآها خليلها فبدا له منها حاجب، واختفى الآخر . وبالحاجب المقلوب من رجل أسود أشيب . وبالوتد الذى جره الطنب فاعوج . وبالقرص من مرآة صدئة طوق بعضها بالذهب . وبالمتعب الذى انحنى ظهره . وبالمنحنى الذى يفتش عن شبابه فى التراب ، وبالصدع فى زجاجة . وببقايا الطحين فى جانب الرحى . وبشارب ظامىء شرب لبنا لم يمسحه . وبالنون وبالنوى وبالقوس دون الوتر . وبالفخ . وبالزريدة من الفضة لاح بعضها فى سابغة من حديد . وبالنعل الملتاث بالطين . وبذباب حسام فتق بحده الغمد ، وبالسر فى الضمير . وبالشعرة البيضاء فى وجه الغـــدير . وبالسوار وبالدملج ، وبالطوق وبالصدغ وبالحاجب وبالعذار . وبمرآة الخد ، وبالفتر الممتد . وبأثر الظفر فى تفاحة . وبفم بثر غطى إلا جزءا منه . وبالمحراب المنعكس ، وبالقنديل ، وباللبب الأبيض فى صدر الفرس الأدهم . وبالماء يبقى فى أسفل الحوض وبعطفة الجدول فى الروض . وبالزورق وبعقصة العجوز . وبالراكع ، وبطالب المجد المتعب . وبالشعرة البيضاء فى حاشية الرداء الأزرق . وبتجويف القاف . وبطية الأعكان من ناهد . وبغبب مستحسن فى حنك . وبالمنجل . وبناب الفيل . وبمخلب الرئبال . وبنون رمضان . وبالغار تدخله ظباء الثريا . وبمنطقة خصر . وباللثام . وبخشكنانجة فى صحن صينى[1] . وبكرة من عنبر . وبعوذة من لجين . وبالخلخال ، وبحق الحلى بعض ما فيه قرط الثريا . . الخ .

ومهما يكن من شىء فلا نملك للصفدى إلا الإعجاب به وبمجهوده ، فى جمع هذه التشبيهات أو تصورها ، وصبها فى قالب شعرى ، باق حتى اليوم . وفى مجهوده دلالة قوية على أن الهلال شغل من نفسه جانباً كبيرا . . وإن كانت تشبيهاته له

---

(١) الخشكنانجة : يبدو أنها نوع من الكعك أو « البسكويت » .

حسية لم يجنح بها إلى عاطفة ، أو يتحول إلى مناجاة نفسية .

وإليك بعض أبيات مقطوعاته :

قال يشبهه بمن يفتش عن شبابه فى التراب :

يقول هـلالنا فى كل شهر مقالة ذى عناء واكتئاب
مضى زمن ولى وجه مليح أفوق به على الخود الكعاب
وقد أصبحت منحنيا كأنى أفتش فى التراب على شبابى(١)

وقال يشبهه بالمحجبة :

كأن هلال الأفق لما بدا لنا ولاحظه كل بعين مراقب
محجبة لما تراءت لصبها بدا حاجب منها وضنت بحاجب(٢)

وقال يشبهه بمرآة خد :

حكى هلال الأمس لما مضت له ثلاث واعتلى واستنار
مرآة خد بعضها ظاهر والبعض منها فى غلاف العذار (٣)

وقال يشبهه بالشعرة البيضاء فى الرداء الأزرق :

وبدا هلال الأفق والأقوام بين مكذب فى أمره ومصدق
فكأنما هو شعرة بيضاء قد علقت بحاشية الرداء الأزرق(٤)

وقد أتى خيال ناصر الدين بن النقيب فى تشبيه الهلال ، بصورة خيالية بعيدة ، وإن كانت حسية ، إذ قال :

أعملت فكرى فى السماء وقد بدا فيها هلال جسمه منهوك
فكأنما هى شقة ممدودة وكأنه من فوقها مكوك (٥)

(١و٢و٣و٤) رصف اللآل للصفدى ضمن مجموعة بالمكتبة الأزهرية رقم ١٧٧١ ط الجوانب عام ١٣١٢ هـ
(٥) رشف الزلال فى رصف الهلال للسيوطى ، ضمن المجموعة السابقة .

وشبهه البرهان القيراطى بالزورق ، ولكن بعد تصور لطيف ، إذ رأى شهب السماء غارقة فى ماء النيل، وفى جملتها الهلال ، فقال :

وتمثلت فى النيل شهب سمائنا   فكأنها فيه قلوب تخفق
ولقد عجبت لها نجوما كلما   سحبت على الأفلاك فيه تفرق
لا تنكروا غرق الهلال بمائه   إن الهلال كما علمتم زورق (١)

ونكتفى فى هذا الفصل بالدراسة التى أسلفناها . وقد تبين منها ـ ولاريب ـ مبلغ تأثير بيئتنا الطبيعية فى شعرائنا إبان عصر المماليك ، وشهدنا مبلغ استجابتهم لها وتلبيتهم لندائها ، وتسجيل مشاعرهم نحوها ، ووصف معالمها من زواياها المتعددة. ولا حاجة بنا إلى أن ننبه ـ بعدما بيناه ـ على مدى يقظتهم النفسية والفكرية معا وعمق تأثرهم بهذه البيئة عمقا بدت معالمه فيما نظموه . لقد استطاعوا بتمكن هذا التأثر من نفوسهم ، أن يمدوا صناعتهم الفنية بأدواتها ووسائلها الضرورية ، التى أمكنهم بها أن يحسنوا هذه الصناعة . فجمعوا بذلك بين صدق التجربة وإجادة الصناعة .

ونحن ـ بعد ذلك نتابع خطانا إلى ميدان آخر . وهو ميدان البيئة السياسية ، لنطلع على مجهودهم فيه ، وانطباعاتهم عنه وتجاوبهم معه .

---

(١) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٥٢

الحمـــد لله

تم طبع المجلد السابع من كتاب عصر سلاطين المماليك

ونتاجه العلمى والأدبى

وذلك فى ربيع الثانى سنة ١٣٨٥ هـ – وأغسطس سنة ١٩٦٥ م

ويليــه المجلد الثامن

وأوله الفصل الثانى من البـاب الأول

فى

بيـان أثر البيئة السياسية فى الشعر

مراجع المجلد السابع

مرتبة بحسب حروف الهجاء

١ ـ ابن نباتة أمير شعراء المشرق للأستاذ عمر موسى باشا ـ نشر دار المعارف .

٢ ـ الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين .

٣ ـ الأدب العربى وتاريخه للأستاذ الشيخ محمد عبد المطلب .

٤ ـ الأدب العربى المعاصر للدكتور شوقى ضيف .

٥ ـ الأدب المقارن لفان تيجم ، معرب ، طبع ونشر دار الفكر العربى .

٦ ـ اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى . للدكتور محمد مصطفى هدارة . . طبع دار المعارف .

٧ ـ أخبار أبى تمام لأبى بكر الصولى .

٨ ـ الأخطل شاعر بنى أمية ، للدكتور السيد مصطفى غازى . نشر دار الثقافة بالإسكندرية .

٩ ـ الأشباه والنظائر لجلال الدين السيوطى .

١٠ ـ الأصول الفنية للأدب للأستاذ عبد الحميد حسن .

١١ ـ إغاثة الأمة بكشف الغمة لتقى الدين المقريزى .

١٢ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .

١٣ ـ أغانى الطبيعة للدكتور أحمد الحوفى .

١٤ ـ أمراء غسان لنولدكة ، تعريب الدكتور بيدلى وآخرين .

١٥ ـ ألحان السواجع لصلاح الدين الصفدى ـ خط بدار الكتب المصرية .

١٦ ـ بدائع الزهور لابن إياس الحنفى .

١٧ ـ بهجة الناظر ونزهة الخـاطر للجلال السيوطى ـ خط بدار الكتب المصرية .

١٨ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .
١٩ ـ تاريخ الخلفاء للجلال السيوطى .
٢٠ ـ تاريخ دولة المماليك للسير وليم موير ، تعريب محمود عابدين وسليم حسن .
٢١ ـ تاريخ الفلسفة فى الإسلام للأستاذ ت . ج . دى بور ، تعريب الأستاذ أبو ريدة .

٢٢ ـ تاريخ مصر فى العصور الوسطى للدكتور على إبراهيم حسن .
٢٣ ـ تأهيل الغريب لتقى الدين بن حجة الحموى ـ خط بدار الكتب المصرية ، ومعهدالإسكندرية الدينى .

٢٤ ـ تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور لمحيى الدين بن عبدالظاهر طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومى .

٢٥ ـ التطور والتجديد فى الشعر الأموى للدكتور شوقى ضيف ـ طبع دار المعارف .

٢٦ ـ التعليم فى مصر لأمين سامى .
٢٧ ـ تقويم البلدان لأبى الفداء إسماعيل .
٢٨ ـ تقويم النيل لأمين سامى
٢٩ ـ ثورة الأدب للدكتور محمد حسين هيكل .
٣٠ ـ جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى .
٣١ ـ جلاء العينين للآلوسى .
٣٢ ـ الحركة الفكرية للدكتور عبد اللطيف حمزة .
٣٣ ـ حسن المحاضرة للجلال السيوطى .

٣٤ ـ حلبة الكميت لشمس الدين النواجى .
٣٥ ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتور أحمد الحوفى . نشر مكتبة نهضة مصر .
٣٦ ـ خزانة الأدب لتقى الدين بن حجة الحموى .
٣٧ ـ خزانة الأدب للبغدادى . نشر عيسى الباب الحلبى .
٣٨ ـ الخطط لتقى الدين المقريزى . طبع مطبعة النيل بمصر عام ١٣٢٤ ﻫ .
٣٩ ـ دراسات فى الشعر المعاصر للدكتور شوقى ضيف — طبع دار المعارف .
٤٠ ـ الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى .
٤١ ـ الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر « ابن قلاوون » لأبى بكر الدوادارى تحقيق هانس روبرت رويمر .
٤٢ ـ ديوان ابن أبى حجلة المغربى — خط بمكتبة الأزهر .
٤٣ ـ ديوان ابن حجر العسقلانى - خط بمكتبة الأزهر ، ودار الكتب المصرية .
٤٤ ـ ديوان ابن حجة الحموى « جنى الجنتين » — خط بدار الكتب المصرية .
٤٥ ـ ديوان ابن خفاجة الأندلسى .
٤٦ ـ ديوان ابن الرومى — اختيار الكيلانى — طبع مطبعة حجازى .
٤٧ ـ ديوان ابن زيدون .
٤٨ ـ ديوان ابن المعتز .
٤٩ ـ ديوان ابن نباتة — نشر القلقيلى .
٥٠ ـ ديوان ابن الوردى — طبع الجوائب .
٥١ ـ ديوان أبى تمام — نشر دار المعارف .
٥٢ ـ ديوان أبى نواس .
٥٣ ـ ديوان الأخطل .

٥٤ ـ ديوان إسماعيل صبرى ـ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٥٥ ـ ديوان الأعشى الكبير ، تحقيق الدكتور محمد محمد حسين ـ نشر مكتبة الآداب بالجماميز .
٥٦ ديوان البارودى بتحقيق الجارم ، وأيضا بشرح الشيخ شريف
٥٧ ـ ديوان البحترى .
٥٨ ـ ديوان بشار .
٥٩ ـ ديوان البوصيرى .
٦٠ ـ ديوان جميل ـ تحقيق الدكتور حسين نصار .
٦١ ـ ديوان حافظ إبراهيم ـ طبع دار الكتب .
٦٢ ـ ديوان حسان بن ثابت .
٦٣ ـ ديوان الشباب الظريف .
٦٤ ـ ديوان الصبابة لابن أبى حجلة المغربى
٦٥ ـ ديوان صفى الدين الحلى ـ طبع النجف الأشرف .
٦٦ ـ ديوان عمر بن أبى ربيعة ـ طبع المطبعة اليمنية .
٦٧ ـ ديوان فخر الدين بن مكانس ـ خط بدار الكتب المصرية .
٦٨ ـ ديوان الفرزدق .
٦٩ ـ ديوان برهان الدين القيراطى ـ خط بمكتبة الأزهر .
٧٠ ـ ديوان المتنبى .
٧١ ـ ديوان محمد عبد المطلب ـ طبع ونشر مطبعة الاعتماد .
٧٢ ـ الذخيرة لابن بسام .
٧٣ ـ رشف الزلال فى وصف الهلال للصلاح الصفدى .
٧٤ ـ رصف اللآل لجلال الدين السيوطى .
٧٥ ـ روض الآداب لشهاب الدين الحجازى .
٧٦ ـ رياض الألباب لشمس الدين النواجى . خط بمكتبة الأزهر .

٧٧ ـ زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة لبيبرس الدوادارى — مصور بمكتبة جامعة القاهرة .

٧٨ ـ سلوك المقريزى — تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة .

٧٩ ـ السيف المهند فى تاريخ الملك المؤيد « شيخ » لبدر الدين العينى - مصور بدار الكتب المصرية .

٨٠ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى .

٨١ ـ شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى للمرحوم عباس محمود العقاد .

٨٢ ـ شعراء النصرانية .

٨٣ ـ شعر الحرب فى أدب العرب فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة . للدكتور محمد زكى المحاسنى — نشر دار المعارف .

٨٤ ـ الشعر السياسى فى عصر بن أمية للأستاذ أحمد الشايب ـ نشر مكتبة النهضة المصرية .

٨٥ ـ شعر الطبيعة للدكتور سيد نوفل ـ نشر مكتبة الخانجى بمصر عام ١٩٤٥ .

٨٦ ـ الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية للدكتور شوقى ضيف .

٨٧ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

٨٨ ـ الشوقيات ـ لأحمد شوقى ـ طبع مطبعة مصر .

٨٩ ـ صبح الأعشى للشهاب القلقشندى ـ طبع دار الكتب .

٩٠ ـ الضوء اللامع لشمس الدين السخاوى .

٩١ ـ الطالع السعيد لكمال الدين الأدفوى .

٩٢ ـ طبقات ابن سلام ـ لابن سلام الجمحى .

٩٣ ـ طبقات الحفاظ لشمس الدين الذهبى .

٩٤ ـ طبقات الحنابلة لمحمد جميل الشطى .

٩٥ ـ طبقات الشافعية لتاج الدين السبكى .

٩٦ ـ طيف الخيال لابن دانيال الموصلى .

٩٧ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، لولى الدين بن خلدون .
٩٨ ـ عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، اشهاب الدين بن عربشاه .
٩٩ ـ عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم ـ نشر مكتبة الآداب بالجماميز ، ووزارة الثقافة والإرشاد القومى . مجلد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦
١٠٠ ـ عقد الجمان لبدر الدين العينى - مصور بدار الكتب المصرية .
١٠١ ـ العقد الفريد لابن عبدربه.
١٠٢ ـ العمدة لابن رشيق القيروانى — نشر المكتبة التجارية — طبع مطبعة حجازى بمصر .
١٠٣ ـ عمر بن أبى ربيعة ـ حياته وشعره الأستاذ جبرائيل جبور .
١٠٤ ـ الفاروق عمر للدكتور محمد حسين هيكل .
١٠٥ ـ فى الأدب الحديث للأستاذ عمر الدسوقى - نشر دار الكتب .
١٠٦ ـ فى الأدب المصرى للأستاذ أمين الخولى .
١٠٧ ـ فتح العرب لمصر لألفرد بتلر ، تعريب الأستاذ محمد فريد أبو حديد .
١٠٨ ـ الفتوة عند العرب للأستاذ عمر الدسوقى .
١٠٩ ـ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف .
١١٠ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ـ طبع بولاق .
١١١ ـ كتاب مؤتمر النيل للدكتور سليمان حزين وآخرين .
١١٢ ـ كوكب الروضة لجلال السيوطى ـ خط بدار الكتب المصرية .
١١٣ ـ كيف يعمل العقل للسير سيرل برت — تعريب الأستاذ محمد خلف الله — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
١١٤ ـ الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية — سيرة الأشرف خليل ابن قلاوون . تأليف محى الدين بن عبد الظاهر - طبع أوربا .
١١٥ ـ المدخل لابن الحاج العبدرى الفاسى .
١١٦ ـ مسالك الأبصار لشهاب الدين بن فضل الله العمرى .

١١٧ ـ مطالع البدور فى منازل السرور ، للعلامة الغزولى — خط بمكتبة الأزهر
١١٨ ـ معلقات العرب للدكتور بدوى طبانة .
١١٩ ـ مقدمة ابن خلدون .
١٢٠ ـ مناهج الدراسة الأدبية فى الأدب العربى للدكتور شكرى فيصل — نشر الخانجى بمصر .
١٢١ ـ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، لأبى المحاسن بن تغرى بردى — خط بمكتبة الأزهر .
١٢٢ ـ النابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقى .
١٢٣ ـ النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى — طبع دار الكتب المصرية .
١٢٤ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للمقرى .
١٢٥ ـ نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى — طبع دار الكتب — ومخطوط بها وبمكتبة جامعة القاهرة .
١٢٦ ـ النيل فى الأدب المصرى للدكتورة نعمات أحمد فؤاد — طبع دار المعارف .
١٢٧ ـ هاشميات الكميت طبع مطبعة الموسوعات بباب الخلق بمصر .
١٢٨ ـ هبة الأيام بأخبار أبى تمام ، للبديعى الموصلى — إخراج محمود مصطفى .
١٢٩ ـ الوساطة للجرجانى .
١٣٠ ـ وفيات الأعيان لشمس الدين بن خلكان .

فهرس الموضوعات

فهرس أعلام المجلد السابع

ت

ص

ط

ظ

ع

ك

ل

ن

انتهى

الخطا والصواب

وقعت بعض الأخطاء المطبعية ، وهي لاتغيب عن فطنة القارىء الكريم ومنها :

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٢١/١٢	الدسوقى للأستاذ عمر	للأستاذ عمر الدسوقى
٨/١٤	فروى	فردى
٢/٢٢	فضلا عند	فضلا عن
٢/٢٨	توهت	نوهت
١٢/٣٠	انتشرت الجدب	انتشر الجدب
٨/٣٦	الأزراء	الأرزاء
٩/٤٥	الصفراء	الصفواء
١/٤٦	كأنى	كأن
٢٠/٤٦	الطبيقه	الطبيعة
٢١/٤٦	نهاية الأدب	نهاية الأرب
٨/٥٣	يحت	يحث
١١/٥٣	حسن الدجى	جنح الدجى
١٣/٥٣	تفسلو	تتلو
١٤/٥٣	قد حان	قدحان
١٨/٥٤	يتعنون	يتغنون
١/٦٤	لم يلتفوا	لم يلتفتوا
٧/٦٥	اجتمت	اجتمعت
٩/٦٥	جليلة بن	جليلة بنت
٢٠/٧٣	واحدةالمنبع	واحدة النبع
٢٠/٧٣	للقشى	للقسى

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٢/٧٤	كان عبدالله	كان عبيد الله
١٦/٧٥	والطالبين	والطالبيين
١٨/٨٠	يعبر	تعبر
١١/٨١	كريهته	كريهة
١٠/١٠٥	عاداتهم	عاداتهم
٢/١١٣	أوخذت	وأخذت
٢٢/١١٣	مواضع	متواضع
١٣/١٤٧	ذرعا	ذراعا
١٦/١٥١	ابن الحكيم	ابن الحكم
٢١/١٧٩	السلطة	السلطنة
١١/١٨٩	ملكم	ملكهم
١٠/١٩٣	إلى بلادُ الشام	عن بلاد الشام
٢٢/١٩٦	ووقوعه	ووقوفه
٢٢/٢١٤	الرجل	الزجل
٩/٢٢٧	المملكة	الملكة
٣/٢٥٢	استقضاء	استقصاء
١٨/٢٥٢	عبدة	عبادة
٢٢/٢٥٢	مكترم	مكتوم
٦/٢٥٣	الذين	الزين
٩/٢٥٣	الحرائدى	الجرائدى
٢/٢٥٩	بد	بدا
١٦/٢٨٠	الأسلوب عندهم	عندهم الأسلوب القرآنى
٧/٣٧٢	معلول معلول	معلول
١٦/٣٧٩	تسبيحه النوجى	تسبيحة النواجى
٢٠/٣٧٩	الشيخ نور	الشيخ نور الدين
١١/٣٩٢	يستحلى لماه	تستحلى

عصر سلاطين المماليك

ونتاجه العلمي والأدبي

تأليف الدكتور

محمود رزق سليم

المجلد الثامن

وهو القسم الثاني من الجزء الرابع

في أثر البيئة المصرية في الشعر

الطبعة الأولى

١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

دار الحمامى للطباعة
شارع الجيش - ٢ كنيسة الأرمن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله ، جلت نعمته ، وعظمت منته ، والصلاة والسلام على نبيه الكريم سيدنا محمد سيد الخلق ومعلم الأمم ، وعلى آله وأصحابه .

وبعد : هذا هو المجلد الثامن من موسوعة « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » . ومنه ومن المجلد السابع يتألف الجزء الرابع ، الذى تحدثنا فيه عن البيئة المصرية فى عصر المماليك ، وأثرها فى الشعر .

والمجلد الثامن يتضمن من الباب الثانى أربعة فصول وهى :

الفصل الثانى : ويتحدث عن أثر البيئة السياسية فى الشعر .

الفصل الثالث : ويتحدث عن أثر البيئة الثقافية فى الشعر .

الفصل الرابع : ويتحدث عن أثر البيئة الاجتماعية فى الشعر .

الفصل الخامس : ويتحدث عن الخصائص الفنية للشعر .

وذلك كله على نسق ما بيناه فى مقدمة المجلد السابع ، بتفصيل .

وقد أتبعنا ذلك بخاتمة تضمنت نتائج هذا البحث ومقترحاتنا المستقاة منه ، وبعض الاستدراكات .

وبهذا المجلد أكون قد أنهيت إخراج هذه الموسوعة الكبيرة . وإننى أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلها نافعة للناس ، بمقـــدار ما قصدت منها وجهه الكريم ؟

المؤلف

ربيع الثانى سنة ١٣٨٥
أغسطس سنة ١٩٦٥

الفصل الثانى

فى

اثر البيئة السياسية فى الشعر

الشعر بين دوافع البيئة وموانعها

نعرض فى هذا الفصل لآثار البيئة السياسية فى الشعر . ونقصد بهذه الآثار كل شعر له صلة بالرجال الرسميين باعتبارهم رسميين . نعرض لهذه الآثار إيجابا وسلباً . إذ أن البيئة السياسية بدوافعها تخطو بالشعر خطوات إلى الإمام فى سبيل التعبير عنها وتسجيل حوادثها ومراثيها المختلفة ونزواتها وتقلباتها . وبموانعها تقف فى سبيل الشعر فتكبت أنفاسه وتعوق تياره ، فتتسرب الأنفاس إلى سبل أخرى ، ويتدفق التيار من وراء ذلك إلى مجارى جديدة . وربما تكبتها وتعوق تيارها جملة .

وقد كانت البيئة السياسية فى العصر الذى نتحدث عنه ذات دوافع وموانع . فقد كانت حوادثها ووقائعها صاخبة مدوية متتابعة ، لم تفرغ البلاد منها فى الخارج والداخل. أما فى الخارج فقد شغلت البلاد وسلاطينها وأمراؤها وجيشها بحروب التتار والصليبيين « الفرنجة » ، ومن ورائهم شعب محزون ينظر ، وأمة ملتاعة تترقب ، وإمكانيات واسعة تحشد وتجمع وتساق وتستهلك ، وأيد عاملة تسخر وتحرم ، وتعين وتساعد ، فى صبر عميق يكتم فى طياته الألم ، وتريث واسع يترجح بين ثناياه الأمل ، وإيمان وثيق ينبثق منه الرجاء فى عون القدر . والدولة ماضية فى حروبها لاتنى ، وفى تجهيزاتها لاتمل ، وفى تجريداتها لاتهدأ . وتعيش بين انتصاراتها وفتوحاتها آنا ، وبين اندحاراتها وتراجعها آنا آخر وترجح البلاد فى

الأولى امتدادا للرقعة وسعة فى السلطان وهزيمة للعدو وزهوا بالنصر ، فتعم البشائر وتمتلىء النفوس فرحا . وتحسر فى الثانية فتنحسر وتضيق ويجرؤ عليهما عدوها ، فتتداعى فى حزن وابتئاس وهكذا دواليك .

وأما فى الداخل فقد شغلت البلاد وحكامها بفتن داخلية لا أول لها ولا آخر : مغامرات من الطامعين فى العرش تنجم عنها حروب أهلية ، ومكايد مبيتة ، وثورات من العربان فيها النهب والسلب والخوف والقلق .

والشعراء رجع البيئة ، ومرآة لأحاسيس الأمة ، وصدى فى شعرهم لهذا الدوى الصاخب لحوادثها ووقائع حياتها . فكان عليهم أن يسجلوها ويخلدوا ذكرها ويفصلوا القول فيها ويشيدوا بمواضع الفخار منها ، ويترفقوا بأسباب الهزيمة فيها . فصنعوا ذلك ولكن على وحى وريبة ، وعلى حرج وضيق ، فإن ماخلفوه فى هذا الباب من الشعر ، لايوائم جلال مامر من الحوادث والحروب بالبلاد ، ولا ماعانته من تكالب أعدائها عليها ، ولا من تسلط الطامعين فيها ، ولا ماجمعوا لها من كيد عظيم . وبحسبك التتار وجيوشهم الجرارة ، وهى عديد الحصى ،لاتمل من إراقة الدماء والنهب ، وبحسبك الصليبيون وأوشاب ما اجتمع لهم من مرتزقة الغرب الأفاقين ، وما زعموه من دين . وبحسبك العثمانيون وماتنزت به نفوسهم من آمال وأطماع فى الأرض العربية ، وماعرفوا به من حيلة ودس وشراء ذمم وكيد .

لعل الشعراء قد صنعوا مايوحى به إليهم الضمير الشعرى ، وما تستوجبه عليهم أمانة الشعر التى حملتهم الأقدار إياها عن بلادهم ، ثم ضاع ما أنتجوه مع الزمان فأرخى عليه ذيل النسيان .

ولقد كان هناك طائفة من الأدباء ، وهم رؤساء دواوين الإنشاء وكبار كتابه وهم شديدو الصلة بالحكام ولا سيما السلاطين أولو الأمر ، وذلك بحكم منصبهم . وكثيرا ماكان السلطان يصحب معه فى تحركاته وحروبه كاتب سره ، أو من يقوم

مقامه ، ليكتب له التقاليد والمناشير والتباشير ونحوها ، التى يقتضيها المقام ، خلال تحركاته أو حروبه . ويغلب على هؤلاء نظم الشعر . فلا بد أنهم سجلوا شيئاً منه . ولو اجتمع لنا هذا القليل لوجدنا فيه للقول فسحة ، وللحديث سعة ، وللدراسة ميدانا ، وللاستنباط مسلكا ، والأضواء الجديدة على تاريخنا سرجا . ومع هذا فلدينا من هذا القليل أثارة ، ومن هذا النادر بقية، سنشير إليها .

ولم يكن للسلاطين سياسة متبعة ولا أريحية واسعة فى إثابة الشعراء ، حتى يكون لهذه الإثابة أثر فى تشجيعهم على القول والتسجيل والتفصيل والوصف والمدح تباعا ، وحتى يكون لنا من الشعر كتاب واسع الصفحات كثير السطور ، نقرأ فيه ما يكمل التاريخ أو يفسره ، أو يجلى غامضه ، أو يصحح خطأه ، أو يعدل التواءه .

ومن باب أولى ، لم تكن لهم - وربما وبسبب عجمتهم - سياسة متبعة ولا خطة مرسومة فى تقريب الشعراء والسماع لهم والإصاخة لنصحهم إذا وجهوا . ولهذا كان الشعراء إذا تحدثوا فى أحداث السياسة وأخبار الحروب وأنباء الانتصارات ، وذكروا العدو وما بيت ، والزاحف وما أعد ، كثيرا مايلتوون نحو المدح وما يقتضيه ، أو نحو الهجو وما يستلزمه . ولم يتحدثوا فى صميم السياسة واتجاهاتها .

على أنه لم يكن لكل شاعر هذه الحظوة لدى السلاطين والحكام . بل لقد كان المقربون إليهم — بحكم وظائفهم — قلة ، بينما الكثرة الكاثرة والعدد الأكبر لاتدرى الدولة عن وجوده خبرا ، ولا تعرف لمكانه أثراً ، إلاقليلا .

وإذا أضفت إلى ذلك عاملا قد يكون له أهمية كبيرة فى كبت الشعراء والإقلال من أهميتهم فى نظرهم ونظر الناس : استطعت أن تقدر ظروف شعراء هذه الحقبة حق قدرها . ذلك العامل هو انصراف بعض الملوك من آل قلاوون، برقوق وقايتباى وغيرهم إلى معاضدة الزجالين واستنشادهم والسماع إليهم وإثابتهم - وربما

كان لعجمتهم دخل فى هذا أيضاً — وبذلك نضج الزجل نضجاً محمودا . وراجت سوقه ونفقت بضاعته ، وشارك الشعر الفصيح فى كثير من أبوابه ، كالوصف والغزل والمدح والرثاء وتسجيل الحوادث ونحو ذلك — على ما سنرى — بل لقد ترى الزجل ينفر إلى الميدان ، وقد وجب القول وطاب النظم وهيىء المجال للحديث ، فيصول ويجول ويحدث ويفعل ويسجل ، بينما لا ترى للشعر جولة ، ولا لأبياته صوتا . . . وهذا كله ـ على ما نرى ـ بسبب تسرب اليأس إلى نفوس الشعراء من حماية الدولة وتشجيعها .

بذلك تسرب إذا اليأس من الدولة وعوامل تشجيعها إلى نفوس الشعراء . ودفع بهم — على الأقل — إلى ميدان غير ميدان سياسة الدولة وحروبها وما يقتضيه هذا من ألوان القول . ومنهم من دفعه يأسه بعيداً عن هذه البلاد شعبها وحكومتها معا ، وفر إلى ميدان جديد لعله يجد فيه مراحات للقول ومتسعات للشعر يتنفس فيها ويجرى تياره فى مجاريها .

وهذه هى الموانع التى أشرنا إليها ، وتلك هى آثارها السلبية .

اتجاه ابن نباتة :

وأصدق مثال وأدق دليل نسوقه فى هذا المقام جمال الدين بن نباتة المصرى . الذى كان — ولا ريب — أمير الشعراء فى زمانه غير مدافع . إنك إذا تصفحت ديوانه وقرأت تبيانه، لا تعثر فيه على قصائد ذات قيمة تنبىء عن ملك عظيم من ملوك مصر ، أو أمير كريم من أمراء مصر — إلا لماما لماما — ولقد كان ابن نباتة يعيش فى زمان الناصر محمد بن قلاوون ، هذا الزمان الذى امتلأ بالحوادث وتخللته الاضطرابات والفتن ، وبحسبك أن تعلم أن الناصر نفسه خلع من عرشه مرتين ، وبعد كل مرة عاد . . . . لم يسجل ابن نباتة فى شعره شيئاً من حوادث ذلك الزمان، ولا أشار إلى شىء من تقلبات السياسة فيه أو أثارة من فتنه وحروبه. لقد ترك البلاد جملة ونزح عنها إلى دمشق وحماة ليجد فيهما مرتزقا ، ولشعره

متنفسا . وهناك فى حماة بدت الآثار السلبية للبيئة عليه . فلقد قربه ملك حماة المؤيد إسماعيل ، واحتفل بمقامه وأغدق عليه . وكذلك فعل ابنه الملك الأفضل معه — وكانا تابعين من أتباع الناصر فى نائبين من نوابه — فظفر الشعر من لدن هذا الشاعر الكبير بجملة من القصائد الجيدة القوية المليئة التى سجلت مآثر هذين الملكين الكريمين وأشادت بمحامدهما فأخلدت ذكرهما . ومدحهما بما يعيد إلينا ذكرى أبى تمام والمعتصم ، أو ذكرى البحترى والمتوكل ، أو ذكرى المتنبى وسيف الدولة بن حمدان . وظفرت منه أحراج حماة بتلك الفريدة التى سماها « مصائد الشوارد » والتى مدح بها الملك الأفضل ، ووصف رحلة الصيد التى خرجها إلى تلك الأحراج ، وما تضمه تلك الأحراج من مباهج الطبيعة ومفاتنها .

ويبدو أن اللون السياسى الذى كان يصبغ جو القاهرة ، كان هو اللون نفسه الذى يصبغ نياباتها . أعنى بذلك أنه مهما كان للشاعر حينذاك من صلة بالسلطان والرؤساء ، لم يكن للشاعر حرية فى أن يتناول أحداث السياسة كافة ، إذا هو تعرض لذكرها . لم تكن له سعة من الحرية لتناولها من جميع نواحيها وأطرافها . وأن يعبر عنها وفق مشيئته وهواه ، وبحسب عقيدته وما يراه . ولكن كان مضطراً إلى أن ينظر إليها بمرآة السلطان والحاكمين وإن لا كان عرضة للعقاب أو المؤاخذة . ولهذا كان الشاعر فى هذا المقام كثيراً ما يجنح نحو مدح السلطان وهجو أعدائه — كما أشرنا — .

ونستطيع أن نجد مصداق ما نقول فى شعر محي الدين بن عبد الظاهر وما نظمه فى وقائع الظاهر بيبرس وحروب المنصور قلاوون . وما دبجته يراعة شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى فى مدح السلطان الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون ، وما قصده ابن حجة الحموى فى وقائع الملك المؤيد شيخ المحمودى ، وهلم جرا .

وعلى هذا الغرار سار ابن نباتة فى مؤيدياته وأفضلياته ، فكانت سياسياته مدائح ووصفيات فى أغلب أمرها . والأوضاع السياسية المفروضة حينذاك

صاحبة السيطرة على الموقف ولا ريب ، بل نستطيع أن نقول إن هذه الأوضاع المفروضة هي التي نشأ الشاعر فوجدها مسيطرة في كل مكان ، كأنما هي فطرة وطبيعة في هذا المجتمع ، فلم يكن من حظ المجتمع أن يوجه نقداً لأعمال السلاطين ولا أن يحرر إليهم توجيهات يسيرون بمقتضاها في هذه الأعمال . اللهم إلا من بعض شيوخ الدين الذين آتاهم الله بسطة في العلم ، وجرأة في الجنان ، وسعة ، من القول ، وبالغاً من الحجة ، ومغامرة في سبيل الحق ، أمثال المعز بن عبد السلام ، ومحيي الدين النووي . ولكن قليل ما هم .

نذكر ذلك حينما ننظر في شعر ابن نباتة وشعر أضرابه من الشعراء ممن ذكرنا وممن لم نذكر ، ونتساءل أين قولهم في ميدان السياسة ، وأين شعرهم في مجالاتها ، وكانت الدولة طافحة بأحداثها ، والشعب مشغولا بفتنها ومغامراتها . فلا نجد أو لا نكاد نجد ، اللهم إلا وصف بعض الحروب والمعارك ، وما يتصل بها ، وفي شعر شعراء أقل من مستوى ابن نباتة .

اتجاه صفي الدين الحلي :

نذكر ذلك أيضا حينما ننظر في شعر شاعر كبير معاصر لابن نباتة ، وهو صفي الدين الحلي . وهما شبيهان في أن كلا منهما نبا به المقام في بلده ؛ فطوحت به يد الغربة إلى بلاد قاصية يعرض فيها بضاعته من الشعر ، ويرجو من وراء ذلك لنفسه مرتزقا ومكانة . لقد نزح ابن نباتة من مصر إلى حماة حيث ملكها أبو الفداء إسماعيل ، ونزح صفي الدين من حلة بابل بالموصل إلى ماردين حيث ملكها المنصور الأرتقي ثم الصالح. لقد كان أبو الفداء بقية من سلالة الأيوبيين الأكراد . كانت له فراهة في الأدب وضلع في الشعر والنثر ، ودربة على التأليف ، وغاية في استضافة العلماء والأدباء . ولكن غلبت عليه ، فيما يبدو ، سياسة القاهرة وخيم على سماء حماة ذلك الجو المضروب على سماء القاهرة . فقد كانت قصارى هذا الملك أو ابنه الأفضل أنهما تابعان من أتباع الناصر بن قلاوون ملك مصر ، كما أشرنا. ولم تضع الدولة في مصر ، نصب عينها برنامجا لتشجيع شاعر أو اصطناع آخر ،

إلا لضرورة تخلقها المناسبة ، ويبرز فيها الشاعر ـ حتى يتكلم بلسانها وينظم الشعر في سياستها . كما لم يستطع شاعر أن ينقدها أو يخوض في أخطائها أو ينتقصها أو يبرز معايبها ، أو يدلي برأى فيها ، إلا إلماما لماما ، لأن أمور السياسة كانت قصرا على الحاكمين سلطانا وأمراء . وكان كل سلطان جديد يتتبع أثر غريمه السابق وأتباعه قتلا وسجناً وكيداً .

أما المنصور الأرتقي فقد كان بقية من دول السلاجقة . وكان في دولته مستقلا يحيط به الطامعون في ملكه من الروم وغيرهم . ويناهضه الثائرون في أطراف دولته . فكان موقفه في إمارته نمطا من أنماط مواقف سيف الدولة الحمداني في إمارته . فتهيأ بذلك كله لصفي الدين أن يخوض معه ومع الصالح بشعره ، في صميم سياسة الدولة وتوجيه حروبها .

أما ابن نباتة فقد خلا شعره من هذا اللون ، على قدرة منه عليه وضلاعة في نظمه . ولكن السبب — على ما نعتقد — هو الفرق بين بيئتين سياسيتين ، كما رأيت — بيئة شب فيها ابن نباتة ونشأ ونما ـ وبيئة شب فيها صفي الدين ولابس أحداثها والتأم فيها طبعه وجوها .

فرار بعض الشعراء :

وإذا كان ابن نباتة قد فر بشعره من مصر إلى غيرها ـ إلى الشام أو حماة ـ فإن بعض الشعراء قد فر بشعره من مصر إلى مصر نفسها! أعني بذلك أنه لم يرحل إلى غيرها . ولكنه رحل إلى شيء آخر غير الشعر . . . لقد رحل إلى العلم أو الكتابة أو الحرفة . . . أن هؤلاء الذين تحولوا عن الشعر ، تحولوا عنه بدافع هذه البيئة السياسية ، التي ظلت هي البيئة الأولى الدافعة الحافزة إلى قول الشعر زمنا طويلا ، قبل العصر الذي نحن بصدده . لقد كانت هي البيئة التقليدية التي تحرك الشعر والشعراء ، والبيئة التي ترفع من تشاء منهم إلى المستوى الذي تريده .

فركدت ريحها فى العصر المذكور ، ولم ترحب بالشعر كما رحبت بالكتابة مثلا ، ولم تبش للشعراء كما بشت للكتاب والمنشئين مثلا ، أو للعلم والعلماء .

ولعل البيئة الاجتماعية تشاركها فى هذا الإثم بعض المشاركة ، على أساس ضعف تشجيع الجماهير للشعراء ، وضيق تلقيهم نتاجهم بالقبول ، وندرة تناول مجالس العلم والأدب والمناظرة لهذا النتاج بالدرس والبحث والنقد والتحليل .

ولو وقع هذا فى البيئة الاجتماعية أو الثقافية ، على نمط مناسب ، لكان لرواج الشعر ونفاق سوقه حينذاك ، أثر كبير فى تهذيبه وفى شحذ قرائح الشعراء ، وفى نتاجهم .

لهذا كله انحرف كثير من رجال الشعر والذين كانت تنبىء بواكيرهم بمستقبل حافل فى ميدان الشعر ، إلى طريق غير طريقه ، إلى طريق الكتابة والإنشاء ، وإلى طريق العلم والفقه والقضاء ، وإلى طريق الاحتراف بحرفة ما ، ولو كانت دنيا ، كالجزارة والحمامية والوراقة وغيرها .

فمن المنشئين ابن عبد الظاهر والشهاب الحلبى والصلاح الصفدى والتقى ابن حجة . ومن الفقهاء والقضاة ابن حجر العسقلانى وتقى الدين السبكى ، وابن دقيق العيد القشيرى . ومن المحترفين أبو الحسين الجزار المصرى ونصير الدين الحمامى ، وسراج الدين الوراق ، وابن دانيال الكحال . وغيرهم كثيرون .

ولم ينحرفوا عن الشعر جملة ، ولم يتركوا ميدانه خلوا لغيرهم ، بل فاءوا إليه الفنية بعد الفنية ، أو قل جـــذبتهم إليه جواذبه ، وحركتهم إليه شياطينه وأبالسته . ودفعتهم إليه وساوسه . وكيف يسلونه وهو فطرة فى نفوسهم وهبة طبيعية وهبها الله لهم ، وفن أصيل جبلوا عليه . لذلك عادوا إليه وفاءوا الآنة بعد الآنة ، والفنية بعد الفنية ، كما قلنا . عادوا ولم تفارق نفوسهم مرارة الإنكار ، وفاءوا ولم تزايل خواطرهم مضاضة التجاهل والحرمان فنفثوا المضاضة شعرا ،

ونظموا المرارة قريضا . وبرز بعض شعرهم فى باب النقد يصرخ مما جنته البيئة السياسية والاجتماعية عليهم ، وينعى عليها تجاهلها أو جهلها ، ويسخر بها ويتهكم . ويمعن بعضهم فى السخرية والتهكم حتى يسخر بالشعر نفسه ويتهكم ، حينما وجده صناعة لاتدر خيرا ولاتيسر رزقا ولا تمنح جاها ولاتنضر عيشا ولا تسد جوعة .

هذا جمال الدين بين نباتة يقول :

تقول بنى الجائعون أما ترى   من الجوع شكوانا لكل فريق
وقد كنت ذا نظم وسعى ببرنا   فما جئت من هـذا وذا بدقيق(١)

وما إن فر ابن نباتة من مصر وبلغ حماة حتى قال لملكها المؤيد :

فاجل عنى حالا أرانى منهـا   كل يوم فى غارة شعواء
فكفى من وضوح حالى أنى   فى زمانى هـذا من الأدباء
ضاع فيه لفظى الجهير وفضلى   ضيعة السيف فى يد شلاء(٢)

ويكرر ابن نباتة هذه المعانى ويزيدها وضوحا فى البيتين التاليين :

لاعار فى أدبى إن لم ينل رتبا   وإنما العار فى دهرى وفى بلدى
هذا كلامى وذا حظى فيا عجبا   منى اثروة لفظ وافتقار يد(٣)

ولم ينع ابن نباتة وحده على صناعة الشعر ولا على موقف بلده منها . فهذا سراج الدين الوراق يصور مبلغ شغف الناس بالشعر فى هذين البيتين الساخرين :

رفضوا الشعر جهدهم ورموه   بينهم بالهوان والازدراء
فلو ان الكتاب كان بأيد   يهم محوا منه آية الشعراء(٤)

---

(١) ديوان ابن نباتة قافية القاف .

(٢) و (٣) راجع ديوان ابن نباتة حرف القاف ثم فى الدال .

(٤) خزانة الأدب باب التورية .

ويربأ بنفسه عن أن يلتى الناس ، وقد علم منهم مقتهم للأديب وكراهيتهم للشعر فيقول .

أصون أديم وجهى عن أناس لقاء الموت عنـــدهم الأديب
ورب الشعر عنـــدهم بغيض ولو وافى به لهـــم حبيب (١)

تنطق الأبيات بأن الجناية من البيئة الاجتماعية . ولكنها فى الحق ، جناية البيئة السياسية من قبلها . ولو جذبت البيئة السياسية بضبـع الشعراء وأعانتهم بشتى ضروب الإعانة – أو ببعضها – على صناعتهم ، لكان لذلك صدى أى صدى فى المجتمع . لقد كان السلاطين والأمراء أعاجم عن العربية ، فهم أعاجم عن شعرها . ولم تدفعهم حاجة دولتهم إلى اصطناعه كما دفعتهم إلى اصطناع الكتابة .

آثر فريق من الشعراء ، إذن ، الاحتراف بحرفة تيسر له الرزق وتحفظ له الكرامة وتبقى ماء الوجه . ومن لطيف ما جنح إليه خيالهم بتورياته وبدائعه أن تحدثوا فى شعرهم عن هذه الحرف ، ونظموا ما يتصل بها من المعانى فى أساليب متهكمة مريرة ، متفكهة ساخرة ، وفى تعليلات قاسية هى وحى البيئة الحارمة الضنينة ، والمجتمع الكز المنكر الشحيح .

يقول أبو الحسين الجزار المصرى – وكان يتعاطى صناعة الجزارة – يمدح صناعته وينعى على صناعة الشعر والأدب ، فى استعارة وتورية ، وفى تعليل مر :

كيف لا أشكر الجزارة ماعشت حفاظا وأرفض الآدابا .
وبها صارت الكلاب ترجينى وبالشعر كنت أرجو الكلابا (٢)

ويكرر هذه المعانى فى بيتين آخرين ، مع مداورة وعكس ، فيقول مفاضلا :

---

(١) خزانة الأديب ص ٢٤٦ .
(٢) خزانة الأدب باب التورية .

لا تعبنى بصنعة القصـــاب فهى أذكى من عنبر الآداب
كان فضلى على الكلاب فمذ صر ت أديبا رجوت فضل الكلاب(١)

احترف إذن ، بعض الشعراء حرفا ، فكان منهم أبو الحسين الجزار — كما شهدت — وكان منهم الوراق والحمامى ، كما ذكرنا . وكان منهم الكحال مثل ابن دانيال الموصلى ، والخياط مثل زين الدين بن الرعاد، وبائع الفقاع مثل علاء الدين ابن مليك ، والدهان مثل شمس الدين الدمشقى محمد بن على بن عمر المازنى .

هؤلاء وغيرهم ممن سلكوا فى طلب الرزق مسلكا غير مسلك الشعر ، تحت تأثير ملابسات البيئة السياسية ، واتجاهات المجتمع المتأثر بمضاعفات السياسة وغيرها ، لم يهجروا الشعر جملة — كما نوهنا — وتفلتوا به إلى نواحى أخرى، ولبوا دعاءه كلما نادى نفوسهم ، ولبى نداءهم كلما هتفت به عواطفهم . واستجابوا لفنيتهم الشاعرة ، فكانت وحدها أحد حوافز الشعر عندهم ليرضوا نفوسهم ويروضوا خواطرهم . وعاون هذا الحافز — أعنى الفنية الشاعرة — حوافز أخرى منها البيئة الاجتماعية والبيئة الثقافية ، وسنشير إلى ذلك فيما بعد .

من نتاج البيئة السياسية

كان فى مقدمة نتاج الشعر بدافع من البيئة السياسية إذن ، ألوان من الشعر السياسى فيها كثير من المدح ، وفيها الفخر والحماسة والزهو والإشادة بالنصر ، ووصف الحرب ، فيها الهجاء الكثير للأعداء ، وفيها الحملة عليهم وتوعدهم وإنذارهم، وفيها استطرادات إلى وصف آلات القتال من خيل وسيوف ورماح وقسى وغير ذلك . ونزعة النقد وتتبع سقطات الحكام والرؤساء ، كانت تتراءى بين آن وآخر على قلق وخوف ، وفى إيجاز واقتضاب .

---

(١) خزانة الأدب باب التورية .

ومحي الدين بن عبد الظاهر كان كاتبا فذا ومنشئا قديرا ومؤلفا بارعا ، وكان شاعراً مجيداً جزل العبارة مبدعا . وقيل إن ديوان الإنشاء بمصر كان يليه فى عهد الملك الظاهر بيبرس ثلاثة رجال ، كان من بينهم القاضى محي الدين بن عبد الظاهر ، وكان أرفعهم درجة(١). وكان بحكم عمله فى الديوان وثيق الصلة بالسلطان والأمراء ، ووثيق الصلة بسياسة الدولة ، ظاهرها وباطنها ، عليما بكل ما يتصل بحروب السلطان والاستعداد لها والخروج للقاء فيها ، والتحرك خلالها بغية النصر وهزيمة الأعداء ، خبيراً بأنباء الانتصارات والانهزامات ، ووقائع الغزو وحوادث الفتح ، وما إلى ذلك . فقد كان من أعماله هو ومن معه من الكتاب تسجيل هذه الأنباء والحوادث وذكر أخبار الفتوح فى رسائل رسمية ، هى وثائق تاريخية عظيمة ، كانت تكتب وتنشر وتسير إلى الآفاق لقراءتها وتناقلها . واعتاد كتابها حينذاك أن يفصلوا فيها القول ، ويسهبوا فى الحديث ويسجلوا الأنباء بزائد من العبارة. واتبعوا فى أساليبها النهج البديعى التقليدى حينذاك من سجع ونظام فقرات ومطابقة ومجانسة إلى غير ذلك ، مع مراعاة رسوم وأوضاع رسمية خاصة بهذه التباشير أو المناشير أو غيرها من الرسائل الديوانية . وكان محي الدين بن عبد الظاهر أحد الذين ابتدعوا لديوان الإنشاء هذه الرسوم والأوضاع والمصطلحات . يقول فى ذلك صاحب فوات الوفيات إنه « وضع كثيراً من اصطلاحات الإنشاء ونظم الديوان . وبقيت نظمه واصطلاحاته معمولا بها فى مصر والشام إلى أن فتح العثمانيون مصر » .(٢)

وكان الكاتب يسبغ فى هذه الرسائل على السلطان وأمرائه وجيوشه آيات الحمد والثناء ، ويكيل المديح كيلا لا تريث فيه ولا مهادنة ولا تأنى . وأصبحت هذه الظاهرة عادة وتقليدا متبعا فى الرسائل لا حول عنه .

---

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤

(٢) فوات الوفيات ج ٢ فى ترجمة محيى الدين بن عبد الظاهر .

من هذا وذاك يتبين لنا أنه كان لابد لمحي الدين بن عبد الظاهر أن ينظم أنباء فتوح سلطانه ، وأخباره تحركاته هو وأمراؤه وجيوشه ، سعيا إلى رد العدو وكبح جماحه أو القضاء عليه ، وانتزاع ما انتزع من أرض السلطنة ، ورد ماسلب من ممتلكاتها ، وفتح ما تحصن وراءه من القلاع والحصون ، والاستيلاء على ممتلكاته ، ونشر المهابة بين صفوفه ، وضرب الخوف والقلق من حوله .

ومحي الدين بن عبد الظاهر كاتب منشئ ، وشاعر قدير ، كما أشرنا ، والشاعر عادة أو غالبا ، يكون أكثر حساً من الكاتب ، وفنه فى نفسه أثبت ، وهو أشب عاطفة وأسرع استجابة إلى لقاء الحوادث وتسجيلها .

ونحن لانرتاب قط فى أن هـذا الرجل — أعنى محي الدين - سجل بشعره ماسجله بنثره ، وخلد الكثير من حوادث السياسة فى زمانه وأنباء الحروب فى أبياته ، كما خلدها بمنشآته - ولكن أين هذا الشعر وأين هذه الأبيات ؟ ليس لدينا منها غير القليل .ونحن لانشك أن كثيرا مما نظمه قد ضاع فيما ضاع من مآثر الأدباء وآثار العلماء . . . وهذا القليل الباقى ينبيء عنه ويشير إليه . فليس من المستطاع تصديقه، أن تمر كل هذه الحوادث أمام شاعر عظيم كابن عبد الظاهر ، ولايسجلها ولا يشير إليها ، وهو بنفسه الذى يسجلها بقلمه المنشيء وسجعاته الطلية ورسائله البديعة .

شجاعة بيبرس :

وقد كان الملك الظاهر بيبرس فارساً شجاعا ، شجاع القلب وشجاع الرأى . كان شجاع القلب لايهاب ، وشجاع الرأى لايستأنى فهو ضراب هامات ، وأخو فتكات، وجوال ميادين،ومقارع سلاطين ، لم تقف أطماعه عند حد ، فقد نشأ وترعرع وشب ووثب ، فلقى بلاد المسلمين تنوشها رماح أعدائها وتنتابها سيوف الطامعين فيها من التتار الوثنيين ، والفرنجة الصليبيين ، فهاله الأمر وكبر عليه الموقف ، وأنفت نفسه أن تستذل بلاده لهؤلاء الأفاقين ، وأن يستباح أهل دينه لهؤلاء الطغاة

الظالمين وما إن آتاه الله الإمارة والملك حتى هب يبذل الرأى ويعمل الحيلة ويدبر الكيد ويحكم الخطة ويجمع الصف ، ليرد أعداء المسلمين عن بلاد المسلمين ، ولكى يشتت شملهم ويفلل كيدهم ويردهم داحرين فأوقع بالتتار فى « عين جالوت » تحت لواء ملكه المظفر قطز ، وكذلك فى « بيسان » : وقضى على الخرافة التى قالت إنهم لا يهزمون . ثم لما آتاه الله السلطنة تتبع التتار والفرنجة قتلا وتشريداً ، وهزم الأتراك السلاجقة . وجرد جيشاً قوياً على بلاد الشام فأخضع الأمراء الثائرين بها واحتازها إلى سلطنته وغزا جملة بلاد ، منها ما فتحها أو ضمها إلى بلاده ، وكان فى جملتها ألبيرة والكرك وحمص وبيسارية وأرسوف وصفد ويافا والشقيف وأنطاكية وحصن الأكراد وعكا وصافيتا ، وبلاد سيس .

هذا فضلا على غزوه بلاد السودان واحتيازه جزءاً منها .

فتح بلاد سيس :

ومحيي الدين بن عبد الظاهر يسجل فى إحدى قصائده ، فتح الملك الظاهر بيبرس لبلاد سيس ، ذلك الفتح الذى تم فى عام ٦٦٤ هـ .

ويجنح ابن عبد الظاهر — كما نوهنا — إلى المديح وإسباغ آيات الثناء على السلطان وأمرائه وجيوشه ، ويشيد بشجاعتهم وينوه بحبهم للإسلام . وهو إذ يسجل هذا الانتصار العظيم ، يسجله بروح إسلامية ، فهو نصر للإسلام والمسلمين . ويصف الظاهر بأنه « سيد الملوك » ، وبأنه « صار حصنا حصينا للمسلمين » . وبأنه « ركن دين الله » وبأنه « أسد الله » . الخ .

وقد كانت بلاد سيس فى يد الأرمن الصليبيين . ويحكمها « التكفور » وهو « ليفون بن هيتوم بن قسطنطين » .

ولهذه المستعمرة الصليبية تاريخ طويل فى النزاع بين حكامها ومحتليها ، وبين السلطنة المصرية والمسلمين . وقد غزاها بيبرس وأحرق عاصمتها « سيس » ، وقبض على ملكها « ليفون » ، وحبسه بمصر . ثم أطلقه بعد مدة ، وفرض عليه

الجزية واسترد منه مدنا[١] .

وبدأ ابن عبد الظاهر قصيدته بتساؤل الفرح الشاكر لله تعالى على هذا النصر المبين الذى أقر به العيون ، وهو فتح بلاد سيس واحتيازها . فلم يصطنع ابن عبد الظاهر مقدمات ولا افتتاحات لهذه القصيدة ، والمقام لا يقتضى ذلك . فبدأ بالشكر توا وبذكر سببه وهو النصر . ثم أخـــذ يعرض صور الحملة المصرية وما تحتوى عليه من جند وخيل ، ومبلغ ما كانوا عليه من همة ومضاء وشجاعة ، ومقدار ما افتتحوا من مدن ، وما دكوا من حصون ، وما أذلوا من ملوك وقواد. ونوه بتولى «ليفون» وفرار التتار وهروب قائدهم «أبغا» [٢] .

ويلاحظ أن الشاعر لم يخض فى غمار السياسة ، ومسها مسا رفيقا . أفيكون هذا لجبن أو خوف حقيقة ، أو لجهل بالأمور وبعد عن اتجاهاتها ؟ إننى أستبعد أن يكون السبب شيئا مما ذكرنا ، فإن مكانة صاحب ديوان الإنشاء حينذاك ، ثم مكانة كاتب السر فيما بعد ، كانت من السمو والدنو إلى السلطان ومجالسه بحيث يعرف مجارى الأمور وأخطار الأحداث واتجاهات السياسة ، وخاصة بعد زمان ابن عبد الظاهر هذا . فإن ابنه فتح الدين — أول من لقب بكاتب السر — حظى

---

(١) راجع تشريف الأيام والعصور ص ٩٢ ، ٩٣ — وبلاد سيس هى أرمينية الصغرى «قيلقية» وموقعها بين أنطاكية وطرسوس وعاصمتها «سيس» هكذا ينطقها عامة أهلها ، وصحة الاسم «سيسية» راجع السلوك — هامش ص ٥٤٩ (عن معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٦٥) وص ٥٦٨ من السلوك — وراجع أيضا «مصر فى العصور الوسطى» للدكتور على إبراهيم حسن ص ٢٧٥ ، وفيه موجز لحروب بلاد سيس مع مصر وعلاقتهما من لدن الظاهر بيبرس وبعده — والتكفور لفظ أرمنى معناه الملك المتوج — راجع هامش السلوك ص ٥٥١ — وكان غزو الظاهر بيبرس لها عام ٦٦٤ هـ وقاد جيشه الملك المنصور صاحب حماة — راجع السلوك ص ٥٤٩ ، وما بعدها إلى ٥٥٣ .

(٢) كان أبغا بن هولاكو يترقب الفرص ، فلما عاين ما أصاب الفرنجة فى سيس ، تراجع وأرسل الرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس ومعهم الهدايا يطلبون الصلح — راجع السلوك ص٥٥٣ وفى حوادث أواخر سنة ٦٦٤ هـ .

وفى غير هـذه المرة كانت بين بعض الفرنجة وأبغا بن هولاكو مراسلات للتعاون ضد السلطان ، وقع منهم ذلك — مثلا — عام ٦٦٨هـ (راجع السلوك ص ٥٨٤ . ٥٨٥) .

لدى السلطان المنصور قلاوون ، وكان منه بحيث لا نخطىء إذا قلنا إنه كان عنده أقرب من أمرائه إليه ، لقد ألقى إليه المنصور بمقاليد الأمور وصارت جميع مكاتباتها إلى يده .

ما السبب إذن فى أن محيي الدين بن عبد الظاهر ، هذا الشاعر المجيد والكاتب القدير ، لم يخض فى غمار السياسة بشعره ؟ نتساءل قبل أن نجيب على هذا السؤال ، ونقول : أخاض فى غمارها فى نثره ؟ أكتب رسائله الرسمية التى تعد وثائق تاريخية من وثائق الدولة يثوب إليها المؤرخون — أو ينبغى أن يثوبوا إليها — عندما يؤرخون هذه الفترة التاريخية من حياة مصر وشعبها وحكامها . الجواب على ذلك أنه تناول فى رسائله أحداث السياسة على نمط قريب مما تناولها به فى شعره .

والسبب واضح بين ، فإن سياسة الدولة الداخلية والخارجيـــة كانت بيد السلاطين ومن إليهم من الحكام ، وما كان للشعب بحسب ماجرت به عليه تقاليد الحكم منذ زمن طويل ، أن يخوض فى صميم السياسة ، وأن يكون له فيها رأى ، أو يسمح له بأن يبدى فيها رأيا . وكان ينوب عنه نيابة تقليدية — هى أشبه بالطبيعة والفطرة - قضاة الشرع وعلماء الدين فى الجملة . والشعراء على غرار الشعب فى هذا . وهم فى هذه الدول ، ومن هذه الناحية نوعان : نوع متصل بالسلاطين والحكام بحكم منصبه ، فهو يخشى على ماله وجاهه ونفسه وأبنائه ، وليس له إلا أن يسير فى الركاب ويتمسح بالأعتاب ، فإذا تحدث عن أحداث سياستهم فى الداخل أو الخارج مسها مسا رفيقا وانساق فيها بما يلائمهم حتى يوافق هواه هواهم ، فيبرز شعره مدحا وثناء . ونوع منفصل عن هؤلاء السلاطين والحكام فهو غير خبير بما هنالك ، ولا يدرى من أمر السياسة وأحداثها إلا ما تطلقه القالة وتتحدث به الشائعة ، فإذا هو رأى أن يسوق فى شعره نقدا أو توجيها ، صنع ذلك فى فكاهة يتستر وراءها ، أو فى وجازة لا يطيل فيها . ولم يكن بين

الجماهير أحزاب ولا طوائف متنابذة فى السياسة على نسق ما نرى بين الشعوب فى العصور الحديثة .

وفى السياسة الخارجية بخاصة لم يكن هناك خلف قط بين الشعب وحكامه . لقد كان الحكام فيها ينفذون سياسة الشعب . هذه السياسة التى لم يرسمها الشعب فى دستور ولا سطور ، وإنما هى أحاسيس وقرت فى نفسه واتجاهات عامة جمعت بين القلوب فيه ، ومصالح مشتركة اقتضته التجمع من أجلها . وتتركز هذه السياسة الخارجية فى دفع العدو ومكافحة الطامعين الزاحفين على البلاد . وقد كان هؤلاء جميعا أعداء العرب وأعداء المسلمين من تتار وثنيين — حتى بعد أن أسلموا — ومن صليبيين مسيحيين . إن الشعب شديد الإحساس مرهفه من هذه الناحية ، لا يرضى أن يتحكم فى بلاده غير مسلم ، مهما عدل وأنصف ، ومهما أعطى وأجزل .

ولقد كان السلاطين والأمراء ، وهم يحاربون التتار والصليبيين ، يحاربون أعداء العرب ويحاربون أعداء دين العرب فالمشاعر مؤتلفة ، والأحاسيس متلاقية ، والأهداف موحدة مشتركة . لهذا كان الشعب سريع الإجابة لهؤلاء الحكام الغرباء عنه عندما ينفرون للقتال ، يقدم إليهم اليد العاملة ، والطعام المخزون ، والضريبة المتأخرة والمفروضة ، ويهلل معهم حين النصر ، ويتحسر حين الهزيمة . وإنما يبدو منه ذلك لأنهم يحققون أهدافه ويسيرون به إلى أمله ، ويستبقون له خيرات بلاده . ولم يكن هناك بين الشعب وحكامه فى انتهاج هذه السياسة خلف . ولم يكن هناك بين السلطان وأمراء دولته فى اتباع هذه السياسة نزاع .

الخلف الحقيقى كان بين السلطان وأتباعه من الأمراء ، وبين الخارجين عليه من الأمراء الطامعين فى السلطنة . ويعتبر هذا الخلف من صميم السياسة الداخلية التى لم يكن فى مقدور الشعب أن يمسها من قريب أو بعيد . فإنه عاش فرأى حكامه هؤلاء يحكمونه ، فرضى بذلك رضا تقليديا كأنه فطرة وطبيعة . رضى بذلك بسبب أنهم مسلمون ، وأنهم يدافعون عن ارض الإسلام والعرب ، وأنهم أبدوا

فى ميدان الدفاع بطولة تحدثت عنها أطراف الأرض ورددها لسان الزمان .

يؤيد ذلك أن العثمانيين الأتراك كانوا مسلمين ، ولما أخذ خطرهم يقترب من البلاد رويدا رويدا ، كان سلاطينها يذودونهم عنها ويكافحونهم دونها ، وهى بلاد عربية ، مهما اختلف عليها الحكام . فكان الشعب يكافح معهم ، حتى إذا أصبح الخطر قاب قوسين أو أدنى من البلاد ، وانهزم السلطان الغورى فى موقعة « مرج دابق » وزحف العثمانيون على البلاد ، وجهـــد الأشرف طومان باى فى جمع الصفوف وتوحيد القوى ، امتنع بعض الناس عن أن يدفعوا له الضرائب حتى ينجلى الموقف ، ثم يدفعوها للغالب ــ ما دام مسلما[1] . ولعل هؤلاء قد خدعوا عن أنفسهم . غير أن جماعات الشعب كانت يقظة فلم تستسلم لهذا الفاتح الجديد ، الذى لقى من القاهريين شر ما لاقاه فاتح .

لا بدع إذا حينما نرى شاعرا فحلا كابن عبد الظاهر يخوض فى السياسة ــ إذا تناولها فى سطحية وعجلة وضيق ، على مقدار ما كانت متاحة له وللشعب فى ذلك الحين .

نذكر ذلك ونحن نتحدث عن إحدى قصائده فى هذا الميدان وهى قصيدته فى فتح بلاد سيس عام ٦٦٤ [2] ، والتى يقول فى مطلعها سائلا سؤال الشاكر :

أى يوم بنصره قد حبينـــا وبه الله قـــد أقر العيونا

يوم جزنا بلاد سيس وقلنـــا أى نصر من ربنا قد جزينا

ويذكر السلطان وأمراءه وجنوده ، وما يركبون من خيول مطهمة ملونة ، بينها شقراء كالسلاف ، وصفراء كالتبر ، وأدهم كالليل ، وأشهب مثل الصبح المبين ، وغيرها . يقول :

إذ تبدى السلطان بين نجـوم من بنى الترك يعشقون المنونا

---

(١) ابن أياس ج ٣ حوادث عام ٩٢٢ ، ٩٢٣ هـ .

(٢) راجع سلوك المقريزى ص ٥٥١ ومابعدها .

يركضون الجياد فى حلبة النصر م فأكرم بمثلهم راكضينا
كل شقراء كالسلاف وصفراء م كتبر قد سرت الناظرينا
وجياد من الأداهم والشهب م ترينا ليلا وصبحا مبينا
وكميت قد راح حى كميت من غدوبها لدى العابرينا
فوقها من بنى الحروب رجال لم يزالوا لربهم شاكرينا

ويشيد ابن عبد الظاهر بهؤلاء الأمراء والجنود — النجوم — ويذكر أنهم أذلوا كثيراً من السادة والرؤساء، ونهبوا وأسروا فيهم، وانتصروا عليهم وفتحوا مدنهم وحصونهم، وذلك بفضل سيد الملوك بيبرس . يقول الشاعر فى ذلك :

كم أذلوا القروم نهبا وأسرا فى انتصار وكم أعزوا القرونا
فتحوا المدن والحصون وكفوا كافريها وسلموا المسلمينا
بسطى سيد الملوك ومن قد صار حصنا للمسلمين حصينا
ركن دين الإله بيبرس الظاهر م خير الملوك دنيا ودينا
أسد الله فى الوجود أتاها بالسطى منه أخذل الظالمينا

ويسجل الشاعر بعد ذلك فرار الفرنجة وهروب التتار وما أصاب الجميع من هزيمة ومعرة . فقال :

وتولى ليفون منه حسيرا خائبا خائفا لعينا مهينا
وكذاك التتار خوفا ورعبا قد تولوا من بأسه هاربينا
آه لو أنهم أقاموا فقالوا أى يوم لشره قد حيينا
أنذروا بالجيوش أبغا فولى هاربا لا يكذب الناقلينا

ويصور ابن عبد الظاهر صدى هذا الانتصار والفتح المبين فى أهل البلاد الأخرى ، وآمالهم فى بيبرس ومناهم فى أن يأتى إليهم غازيا فاتحا ليلقوا بين يديه بمقاليد أمورهم وينقذهم من أعدائهم الذين يتحكمون فيهم ويسيئون إليهم ويسلبونهم حريتهم . فيقول :

وترامت كل البلاد وقالت ليتنا مثـــل سيس كنا غزينا
ليت جيش السلطان وافى إلينا ليت أنا لخيله قـــد وطينا
ليت أنا فى حكمه وفـــداه كل ما للأنام أودع فينـــا
ليت جيش السلطان جاء إلينا ليرانا لحـكمه طائعينـــا
لو قدرنا نأتى إليه أتينـــا ولـكننا من جملة الوافدينا

ويدعو الشاعر للسلطان فى الخاتمة بأن يمد الله فى عمره وينسأ فى أجله وأن يفديه سائر العالمين ، فيقول :

جعـــل الله عمره فى امتداد يتفداه سائر العالمينـــا[١]

الظاهر بيبرس يعبر الفرات :

وعاود الملك الظاهر بيبرس غزو الشام بغية لقاء التتار وإذلال الفرنجة. ففتح المدن المستعصية ودك الحصون وشارك جنوده وعماله بيديه فى أعمالهم الحربية . وخاض الفرات وعبره إلى ألبيرة بخيله – عام ٦٧١ هـ – مطاردا فلول التتار . واندفع من خلفه جنوده حتى شتتوا شملهم وأبادوا جموعهم . فكانت هذه المغامرة وهذه النصرة مثاراً لحماسة الشعراء وزهوهم . فاندفعوا يتغنون بها ويشيدون ببطولاتها[٢] .

فقال ابن عبد الظاهر يذكر هـــذه الواقعة ، ويسجل المغامرة بروح إسلامية واضحة :

تجمـع جيش الشرك من كل فرقة وظنوا بأنا لا نطيق لهم غلبـــا
وجاءوا إلى شط الفرات ومادروا بأن جياد الخيـــل تقطعها وثبا

---

(١) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور تحقيق مراد كامل ، نشر وزارة الثقافة والإرشاد ص ٢١ — وليفون هو صاحب بلاد سيس كما مر بيانه .
(٢) راجع سلوك المقريزى حوادث عام ٦٧١ هـ ، وص ٦٠٦ .

وجاءت جنود الله فى العدد التى تميس لها الأبطال يوم الوغى عجبا
فعمنا بسد من حديد سباحة إليهم فما اسطاع العدو له نقبا [1]

ولم يكن محي الدين بن عبد الظاهر وحده الشاعر الذى تتبع حروب بيبرس، أو تتبع بعضها وسجلها فى شعره . فهناك الشاعر بدر الدين محمد بن يوسف المهمندار . لقد نظم هذه الأبيات التى يصف فيهاعبور الظاهر بيبرس نهر الفرات بخيوله وجنده ، بحماسة وشهامة نادرة ، وهو يسوق خلف أعدائه ، يطاردهم ويصيدهم ويقضى عليهم .

لقد نظم الشاعر المجيد هذه الأبيات التصويرية المتحركة المدوية التى تعتبر مجتمع لوحات فنية بارعة،وصور بها مراحل المعركة المحتدمة من أولها إلى نهايتها . نظمها وهو يشهد المعركة بعينيه ويحسها بمشاعره ويتابعها بعواطفه وآماله، وتنعكس حقائقها فى مخيلته فتنفثها صورا شعرية أخاذة .....

فالخيل تشق العجاج ، وسنا الأسنة يكشف ظلام العثير ،وتقدم الشجاع ووهى الجبان . وتقدمت الخيل بفرسانها تعبر الفرات تدفعها حماستها وإيمانها ، فتبدو من فوقه سدا من حديد ، أو بحرا فى بحر . والعدو يتسابق فى الهرب والفرار ، فترده الرماح وتعيده السيوف ، فيقع صريعا قتيلا . ومازالوا حتى امتلأ الفضاء بالأشلاء ، وسدت قتلى العدو طريق الجيش، فانحرفت الخيل إلى المسالك الوعرة، تتبع فلولهم ،حتى جرت دماؤهم أنهارا ، وامتزج العجاج بالنجيع حتى تراكم فوق السيوف وعلاها كأنه الصدأ . . . أفلا ترى أن هذه معركة مصورة بحركات من فيها وعواطفهم المتتابعة ؟ وهذا مالا تقدر عليه صور المصورين ولا ريشة المبدعين . . . .

يقول الشاعر :

لو عاينت عيناك يوم نزالنـــا والخيل تطفح فى العجاج الأكدر

---

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١١١ فى سياق ترجمة الظاهر بيبرس .

وسنا الأسنة والضياء من الظبــا كشفا لأعيننا قتام العثير
وقد اطلخم الأمر واحتدم الوغى ووهى الجبان وساء ظن المجترى
لرأيت سدا من حديد ما يرى فوق الفرات وفــوقه نار ترى
طفرت وقد منع الفوارس ردها تجرى ولولا خيلنا لم تسكر
ورأيت سيل الخيل قد بلغ الربا ومن الفوارس أبحرا فى أبحر
لما سبقنا أسهما طاشت لنــا منهم إلينــا بالخيول الضمر
لم يفتحوا للرمى منهم أعينا حتى كحلن بكل لدن أسمر
فتسـابقوا هربا ولكن ردهم يوم الهزيمة رمح كل غضنفر
ماكان أجرى خيلنا فى إثرهم لو أنهـا برءوسهم لم تعثر
كم قد فلقنا صخرة من صرخة واسكم ملأنا محجرا من محجر
ملئوا الفضاء فمن قليــل لم ندع فوق البسيطة منهم من مخبر
سدت علينـا طرقنا قتلاهم حتى جنحنا للمكان الأوعر
من كل أشهب خاض فى بحر الدما حتى بدا لعيوننـا كالأشقر
وجرت دماؤهم على وجه الثرى حتى جرت منهـا مجارى الأنهر
والظاهر السلطان فى آثارهم يذرى الرءوس بكل عضب أبتر
ذهب العجاج مع النجيع بصقله فكأنه فى غمده لم يشـــهر (١)

وقد أدلى الشاعر الأديب أبو الثناء شهاب الدين الحلبي بدلوه فى الدلاء ، وسجل الواقعة موقعة على أوتار لفظية رقيقة ، وعبارات موسيقية عذبة ، فيها رنة الفرح بالنصر على الأعداء ، ولحن الابتهاج بالظفر بهم ، ونصر الدين وحفظ البلاد . فها هى ذى الرءوس تتراقص وأوتار القسى تتحرك مطربة ، والخيل تسبح لاتعلق

---

(١) مطالع البدور فى منازل السرور للغزولى ــ مخطوط بمكتبة الأزهر ــ ورقة رقم ١٢٩ ، ١٣٠ وفوات الوفيات ج ١ ص ١٠٩ وما بعدها فى ترجمة الظاهر بيبرس .

بذيولها هرج الصبا ، وإذا بأمواج الفرات تفاجأ،فتحمل فوق متنها أمواجا ، وإذا ببحر الخيل تقله مياه الأمطار – ماء النهر – وإذا الأعداء تتناثر أشلاؤهم وترش الصعيد دماؤهم . ثم تهدأ المعركة فتتوافد إلى ميدانها الآساد والأطيار ، تقيم أفراحها وأعراسها على آثار الأعداء ، وتتقدم المعاقل والحصون،مثنية على همة المليك الذى حفظها ، وتعجل الناس إلى شكره لأنه منعها وحماها وعصمها .

يقول الشاعر مخاطبا الملك :

لما تراقصت الرءوس وحركت … من مطربات قسيك الأوتار
خضت الفرات بسابح أقصى منى … هو الصبا من نعله الآثار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى … بحرا سواك تقله الأمطار
وتقطعت فرقا ولم يك طودها … إذ ذاك إلا جيشك الجرار
رشت دماؤهم الصعيد فلم يطر … منهم على الجيش السعيد غبار
شكرت مساعيك المعاقل والورى … والترب والآساد والأطيار
هذه منعت وهؤلاء حميتهم … وسقيت تلك وعمر ذى الإيثار(١)

ومن سجل الواقعة أيضا الشاعر ناصر الدين بن النقيب ومن أبياته :

ولما تراءينا الفرات بخيلنا … سكرناه منا بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جريانه … إلى حيث عدنا بالغنى والغنائم(٢)

والشاعر موفق الدين عبد الله بن عمر المعروف بالوزان ومن أبياته :

الملك الظاهر سلطاننا … نفديه بالمال وبالأهل
اقتحم الماء ليطفى به … حرارة القلب من المغل (٣)

---

(١) و(٢)و(٣) فوات الوفيات ج ١ ص١٠٩ فى سياق ترجمة بيبرس — وهناك شعراء آخرون، راجع زبدة الفكرة لبيبرس الدوادارى ج ٩ ص ١١١ ، مصورة بمكتبة جامعة القاهرة .

موت بيبرس :

ومات الملك الظاهر بيبرس عام ٦٧٦ هـ — فرثاه ابن عبد الظاهر رثاء مرا ، رثاء باكيا يدل على ماكان له به من صلة ، وماكان له عنده من مكانة . ثم يدل على أنه بقى على مكانته من بعده لدى ولديه اللذين وليا الملك بالتعاقب ، وهما الملك السعيد أبو المعالى محمد ، والملك العادل سيف الدين سلامش .

وقد رثاه ابن عبد الظاهر أكثر من مرثية ، فبكى عليه وتفجع لموته وأظهر الحسرة واللوعة على فراقه ، وسجل الكثير من مآثره ، وفاض بالثناء عليه ، وأعاد ذكرى أعماله المجيدة فى سبيل الإسلام والمسلمين وردد ذكر وقائعه مع الفرنجة والتتار ، ومواقف الشجاعة والفروسية والعزم والحزم أثناء قتالهم . ويقول فى أول إحدى قصائد رثائه يتفجع :

ما مثل هذا الرزء قلب يحمل ... كلا ولا صبر جميل يجمل
الله أكبر إنها لمصيبة ... منها الرواسى خيفة تتزلزل . . الخ

وأخذ يذكر مآثره ومحامده ، فآراؤه مثل السهام ، وعزائمه لا تفل . . .

لهفى على آرائه تلك التى ... مثل السهام إلى المصالح ترسل
لهفى على تلك العزائم كيف قد ... غفلت وكانت قبل ذا لا تغفل . . الخ

ومن مرثيته هذه يذكر بعض مواقفه ويشيد بها ، يقول :

لله موقفه الذى فيه غدا ... للنصر يذهب حيث كل يذهل
وإذا التتار تألفت وتألبت ... فى مرج هوتى والكنائن تنبل[1]
حيث العدى قد أصبحت أجسادهم ... ما شاءت الفتكات فيها تفعل
فى كل رأس ضربة ما تنثنى ... حتى تعد بمتنها الأرجل
وبكل صدر طعنة تحكى فما ... فيه الأسنة كالثغور تكلل

---

(١) نبله : رماه بالنبل .

كم بالسهام لها سؤال قد بدا ولكم بقتل أصبحت تتحلل

ويصل الشاعر مابين مواقف بيبرس والدين ، فيقول :

حيث الصفوف على الصفوف وماله عن موقف يرضى الخليفة معدل
والكفر قد بهتوا له إذ أبصروا حجبا عليه من الوقاية تسبل

وفى الأبيات الأربعة الآتية يعيد البكاء والتفجع ، ويبدى عذره فى ذلك لما كان له من مكانة عظيمة لدى بيبرس وهو بذلك يرمى إلى تذكير ابنه الملك السعيد بهذه المكانة حتى يستبقيه فيها أو يرفعه إليها عنده . ويتهلل للملك القادم ويستبشر ، جامعا بين ملائمات التهنئة والتعزية .

ولعل الشاعر الكبير جمال الدين بن نباتة قد تأثر به فى هذا الفن فتاه ، وأطال فيه فى قصيدته البليغة التى رثى بها الملك المؤيد صاحب حماة ، وهنأ فيها ابنه الملك الأفضل بالملك . وهى قصيدته المشهورة التى مطلعها :

هناء محاذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

وإليك أبيات ابن عبد الظاهر قال :

أنا إن بكيت فإن عذرى واضح ولئن صبرت فإننى أتمثل
خلف السعيد لنا الشهيد فأدمع منهلة فى أوجه تتهلل
للناس من هذا ربيع آخر ومن الشهيد لهم ربيع أول
هذا إلى الرضوان راح وذاله من بيعة الرضوان حبل موصل (١)

ويستمر الشاعر فى تحسره على الراحل وتذكير خلفه بنفسه .

وردد ابن عبدالظاهر هذه المعانى فى غير هذه المرثية . ويعاود ذكرى حروبه ودفعه التتار والفرنجة فيقول :

هذا الذى قال الملوك لرعبه قل يا رسول وما عليك ملام

---

(١) تشريف الأيام والعصور ص ٢٣ .

هذا الذى هزم التتار فأصبحوا تغتالهم عند الكرى الأحلام
هذا الذى قهر الفرنج فكلهم ترديهم من رعبه الأوهام
تعست جياد بعده قد أصبحت يبكى لها الإسراج والإلجام (١)

ثم يثنى الشاعر جيده إلى الملك السعيد فيستبشر به ويتفاءل بمقدمه ، ويرجو أن تعود أيام السرور على يديه ، وتلوح شمس العز بفضله ، إلى آخر هذه المرثية .

وأنت ترى أن قصارى ما حدثنا به الشاعر فى هذا الميدان ، ميدان السياسة والصلة بالملوك والحكام ، وما يدور حولهم من أمور الحرب والقتال والضرب والنزال ، والمكافحة والمدافعة ، مدائح ومراث تشيد بذكرهم وتخلد اسمهم وتسجل محامدهم ، وأهاج موجهة إلى أعدائهم الذين هم فى الحق أعداء البلاد وأعداء المسلمين والعرب .

والواقع أن كفاح أعداء المسلمين والعرب ، والدفاع عن بلادهم ، كان محور سياسة السلاطين والشعب فى ذلك الزمان ، وهى السياسة التى وضعها الجميع نصب أعينهم .

وفى سبيل ذلك رحبوا بالمسلمين الوافدين إليهم ، على اختلاف أجناسهم . ورحبوا بمن جاء إليهم مسلماً مستأمناً .

لقد وفد إلى مصر فى عام ٦٦١ هـ ، جماعة كبيرة العدد من التتار الوثنيين ، قيل كانوا زهاء ألف نفس ، ومن بينهم طائفة من أعيانهم . فطلبوا الأمان ورغبوا فى الإسلام .

فاحتفل بهم الظاهر بيبرس ، ورحب بهم وأنزلهم منزلا رحبا ، ورتب لهم من الرواتب ما يكفيهم .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٥ .

وفى ذلك يقول القاضى محي الدين بن عبد الظاهر يخاطب بيبرس : —

يا مالك الدنيـــا الذى أضحى صـــلاحا للأمم
يا من محا بالعدل ما للظلم فينـــا من ظلم
يا من تساق له التتا ر غنيمة مثـــل الغنم
خافوا سيوفك إنهـــا ستسوقهم نحـــو النقم
فأتوا لبابك كلهم يأوون منه إلى حـــرم
أمنوا به ممـــا يخاف م من البلايا والسقم
جعلوا جنابك جنـــة ورأوا خيولك مستلم
بسطوا يمينـــا للهـدا ية طالما خضبت بدم
أعطيتهم ما المؤلـــفة القلوب من السقم
لازلت يا ملك الملو ك لك الزمان من الخدم(١)

مع المنصور قلاوون :

وعلى هذا الغرار مضى ابن الظاهر فى سياسياته وملوكياته، يمدح ويرثى ويسجل وقائع الحروب وأخبار الفتوح ويمس أمور السياسة مسا رفيقا، لا يعمق ولا يطيل فيه .

ولقد اتصل حبل ابن عبد الظاهر بالملك السعيد والملك العادل ابنى بيبرس . ولكن عهدهما لم يدم إلا ريثما استطاع الملك المنصور قلاوون أن يثب إلى العرش، فاحتازه قسرا وحيلة ، وتمت له السلطنة وتربع على أريكتها عام ٦٧٨ هـ . ومن ثم اتصل حبل ابن عبد الظاهر به وصار من رجاله وكتابه ومنشئيه بل شاعريه .

واعتقادنا أنه تتبع فتوحات المنصور وغزواته وحروبه ، وأخذ كعادته ، يسجلها ويصف أطوارها ووقائعها ،ويمدح ويهجو وفقا لنهجه الذى رأيناه،ويمس

(١) زبدة الفكرة ج ٩ص٧٥ .

السياسة بالمقدار الذى عرفناه ، ولو لم يبق من شعره هذا إلا القليل .

وقد كان المنصور قلاوون نمطا من بيبرس ، وثانيا له فى تأسيس دولة المماليك، بشجاعة فى الرأى والحيلة والسياسة ، وبقوة فى القتل والفتك ، وبتصميم وحرص على الاحتفاظ بأملاك مصر خارج حدودها ، وبما تضمه من أرض العرب والمسلمين إلى سلطنتها الواسعة ، وبعزيمة ماضية وإرادة حازمة فى رد أعدائها عنها وأعداء الدين من تتار وفرنجة .

لهذا ماعتم أن غزا بلاد الشام . وكان بها الأمير « سنقر الأشقر» الذى أعلن بنفسه سلطانا عليها ، فما زال به حتى استسلم له ، وعادت بلاد الشام إلى السلطنة المصرية خالصة . وأعد العدة للقاء التتار الذين أخذوا يهجمون على بلاد الشام ، فخربوا مدينة حلب . فوثب عليهم قلاوون وشتت شملهم . وما زال بهم حتى ارتدوا عن بلاد الشام مد حورين . وحاصر مدينة طرابلس أربعة وثلاثين يوما . وكانت فى يد الفرنجة ، فانتزعها منهم وأوقع بهم وخربها . ثم بنى على مقربة منها مدينه طرابلس الحالية .

الاستيلاء على حمص :

وفى عام ٦٨٠هـ وقعت موقعة رهيبة بين جيش مصر بقيادة قلاوون ، وجيوش التتار أمام مدينة حمص ، استولى إثرها جيش مصر على المدينة بعد هزيمة ساحقة للتتار .

وقد عجل الشعراء ، فسجلوا الواقعة وأشـــادوا ببطولتها ، وحملوا بأقلامهم وبيانهم على التتار حملة صادقة . وكان فى مقدمة الشعراء محي الدين بن عبد الظاهر . فقال عن قلاوون ، والملائكة التى تنجده ، مشبها له بخالد بن الوليد :

لله فى حمص مقام قامـــه ... والنار من بين الأسنة توهج
والناس قد فروا فلا متريث ... والخلق قد هربوا فليس معرج
وهناك من نجد الملائك عصبة ... جاءته للنصر المبـــين تروج

وهناك خالد قد أجار نزيله ونزيل خالد ليس ممن يزعج
فثنى العنان وما انثنى حتى بدا للدين من أمر الأعادى مخرج
ملك به ود العدى لو أنهم مما سبي أولادهم لم ينتجوا

ويمدحه مدحا محمسا فيقول :

والصبح لولا أنه من شهبه مافات ركض البرق منه مهملج
والليل لولا أنه من وهمه ماكان بالشهب الثواقب يسرج
والنصر لولا أنه من سيفه ماكان كرب فى الوجود يفرج(١)

وقد أجاد وصف المعركة ووضح كثيرا من أطرافها ، الشاعر اللبق فتح الدين ابن محيي الدين بن عبد الظاهر ، كاتب السر فى عهد المنصور قلاوون . قال من مطلع قصيدة مخاطبا قلاوون :

الله أعطاك لا زيد ولا عمرو هذا العطاء وهذا الفتح والنصر
هذا المقام الذى لو لم تحل به لم يبق والله لا شام ولا مصر

ويتساءل تساؤل المؤكد المادح ، الذى يقرر حقيقة ، وإن بدت مدحا وثناء :

منذ الذى كان يلقى ذا العدو كذا أو يدزع لأمة مالامها الصبر(٢)
يأيها الملك المنصور قد كسرت جنودك المغل كسرا ماله جبر

ويذكر المغل وتجمعهم وتآلفهم مع الفرنجة الصليبيين ضد مصر ، وعدد جيوشهم ، والتقاء الجيشين وزمانه ، واستمرار القتال :

لما بغى جيش أبغا فى تجاسره وان يمد له إلا القناجسر
استجمع المغل والتكفور واتفقوا مع الفرنج ومن أزدى به الكفر

---

(١) زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٨٢ . — وأوهج النار : أوقدها — والمهملج : المذلل المنقاد .
(٢) لحن الشاعر فى البيت بجزم المضارع المرفوع .

جاءت ثمانون ألفاً من بعوثهـــم لأرض حمص فكان البعث والنشر
وافى الخميسان فى يوم الخميس ضحى وامتدت الحرب حتى أذن العصر
والسيف يركع والأعـلام رافعة والروس تسجد لاعجب ولا كبر
والخيـــل لاتغتدى إلا على جثث والسهل من أروس القتلى به وعر.. الخ

حتى يصل الشاعر إلى خاتمة هذه المعركة ، فيقول عن الأعداء :

فـــكان أسلمهم من أسلموه لأن يقوده القيد أو يسرى به الأسر..الخ[1]

ونظم الشاعر المجيد ناصر الدين بن النقيب قصيدة بارعة فى وصف المعركة ، تقع فى نحو سبعين بيتا . وهى مهللة مكبرة لما أصاب المسلمون من نصر ، وأصاب الكفر من اندحار . يقول فى أولها :

هى النعمة العظمى هى النصرة الكبرى هى اللفظ والمعنى هى البشر والبشرى
هى المطلب الأسنى هى المنحة التى لقد شرفت قدرا وقد عظمت ذكرا
هى الوقعـة الصماء والحطمة التى بها انكسر الكفر الذى لم يجد جبرا
هى الفتك بالأعـداء والظفر الذى شفى القلب من أبغاو قد أثلج الصدرا.. الخ

ويشكر الشاعر الله جلت قدرته على ماوهب من نصر ، ويمهد لمدح قلاوون، ويبين مكانته وبطولته فيقول :

فلله منا الحمـــد والشكر دائمـــاً فقد أصل الإسلام واستأصل الكفرا
فقل لرءوس المغـــل إن قلاونا هو السيف ضرابا لأعناقكم قهرا
هو الملك المنصـــور والله خاذل أعاديه خذلانا وناصره نصرا. . . الخ

ويستعيد الشاعر بهذه المناسبة ذكريات الانتصارات السابقة على أعداء مصر والإسلام فيقول :

أأنسيتم فى عـين جالوت ماجرى وفى العين قـد أجرى دماءكم نهرا
أما كان فى عـــوم الفرات إليكم مقدمة الجيش الذى عـبر البحرا

---

(١) زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٨١ .

وفى البيت السابق يشير إلى جيش مصر أيام الظاهر بيبرس ، حينما عبر الفرات فقد كان يتقدمه الأمير قلاوون - حينذاك - وكان أول من ألقى بنفسه فى الماء على ظهر جواده ، فاندفع الجنود من خلفه . . .

واستمر الشاعر فى حماسياته وذكرياته ووصفياته . ثم أخذ يربط بين بيبرس وقلاوون .ومن أبيات الشاعر تتراءى لنا وحدة الهدف بينهما ،بل وبين سلاطين هذه الحقبة، بل وبينهم وبين الشعب . يقول :

ومن مبلغ بيبرس أن قلاونا   حمى الشام من أعدائها وحمى مصرا
سقى الله عهد الحى والميت منهما   سحائب تكسو الأرض أردية خضرا
وحيا محيا طالع بعد غارب   خلا الهم عن كل القلوب وقد سرا

وترى أن الشاعر قد ربط بين الشام ومصر ، فهما حينذاك يؤلفان وحدة قوية ، ويأبى الشاعر إلا أن يفيض فى شعره بما يتركز فى نفسه ودمائه من ضرورة اكتمال الوحدة العربية ، وافتكاك البلاد العربية كافة من يد أعداء العرب فيضيف بغداد إلى الشام ومصر ، ويفصح عن رجائها فى أن يفتكها قلاوون من يد التتار. فيقول :

وبغداد ترجو أن يسير لنحوها   ويفتكها منهم بأسيافه قسرا . الخ

ويذكر فى الخاتمة مكة والمدينة ، ويبعث لهما بالتهنئة لهذا النصر ، وبذلك تكتمل له وحدة شاملة واسعة ، بل وحدة كانت مكتملة . يقول :

فهن بهذا الفتح سكان مكة   وهن به البيت المعظم والحجرا
وهن به من حل فى أرض طيبة   وسكانها بطنا وسكانها ظهرا .(١)

....

وممن شارك فى وصف المعركة الشاعر بدر الدين محمد بن عمر البزاز المنبجى . وقد دار بمعانيه هذا المدار الذى شهدته من زملائه ، بحيث يقول فى أول قصيدته:

(١) زبده الفكرة ج ٩ ص ١٨٣ .

نشرت بنصرك للعلى أعـــلام يامن تفاءل باسمه الإسـلام [1]

وسيلمع هذا الشاعر وشعره فى مناسبات قادمة . ويبـدو أنه أحسن اتصاله بآل قلاوون ، فصار أحد شعرائهم ومسجلى مفاخرهم .

ومما كان فى يد الفرنجة « حصن المرقب » . قيل إنه مما عمره المسلمون بساحل جبلة بالشام ، وتكامل بناؤه فى سنة ٤٥٤هـ. ثم ما زال حتى اضطربت فيه الأمور فى نحو عام ٥١١ هـ ، فاستولى عليه الصليبيون بقيادة روجار صاحب انطاكية ، فأخرج منه أهله ، وأسكن فيه الفرنجة والأرمن .

وكان حصنا منيعـا حصينا كبيرا ، بنى فيه برج عظيم لا يرام لعلوه وصلابة بنائه . ولما استولى عليه الصليبيون ظل ذلك شجا فى حلق المسلمين ومصدرا لألمهم وحزنهم ، كما كان الحصن ومن فيه من الأفاقين مصدر خوف وقلق المسلمين، وبخاصة الذين يعيشون من حوله وعلى مقربة منه .

ولم يفتحه الملك صلاح الدين الأيوبى فيما فتح من بلاد الشام . وحاول الملك الظاهر بيبرس استرداده ، فما استطاع ، بالرغم من أنه بذل الحيلة والقوة فى سبيل ذلك .

ثم استعد لفتحه الملك المنصور قلاوون ،فظل وهو بدمشق يعد العدة لذلك ويجمع الجند.ويكثر من جلب السلاح ويحشد الرأى والحيلة ويعبىء القوى دون أن يعلم إنسان فيم استعداده ، ثم حاصره ثمانية وثلاثين يوما فى أوائل عام ٦٨٤ هـ[2] وما زال به وبأهله حتى استسلموا له وسلموا له الحصن والبرج ، وطردهم منه إلى طرابلس . وكان ذلك النصر بشرى المسلمين كافة وفتحا مبينا كتبت به البشائر إلى جميع الأقطار[3].

---

(١) زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٨٨ . وبه أبيات الشاعر .

(٢) راجع سلوك المقريزى ج ١ ص ٧٢٧ .

(٣) تشريف الأيام والعصور ص ٥٧٧ .

الشعر يسجل فتح حصن المرقب :

لقد شارك محي الدين بن عبد الظاهر ، فسجل هذا الحادث العظيم فى شعره وفى أكثر من قصيدة ، وعلى النهج الذى رأيناه منه فيما مر فى شعره عن بيبرس.

وهذه بائية عذبة رائقة متهللة ،مستبشرة تنبىء عن تجربة نفسية صادقة بدأها توا بالإشادة بفتوح المنصور والدعوة إلى نشر أخبارها فى سائر الأمصار ، وتوقع منه فتوحات أخرى جديدة ، وسماه أبا الفتح . يقول :

كم لك فتـــح غير هـــذا خبي	فاستوع فتح الأرض واستوعب
وابشر وبشر وإلى ســـائر الأ	مصار فاكتب عنك واستكتب
وخلق الـكتب كأسوارهـا	بأصفر من رنـكك الذهب
لا تحسب النصرة هذى وخـــذ	ماشئته من بعدهـا واحسب
أنت أبو الفتح وكم بعدهـــا	يقول فتح إن هـــذا أبى

ثم أخذ يناديه نداء المعجب المتعجب المادح الذى لا يرى أن القول يسعفه دون أن يرفع الصوت ويدوى به ، كأنما ينشر هذه المحامد فى الآفاق وفى أسماع الناس ، فيقول له ويذكر المرقب :

يا ملك الأرض الذى عـــزمه	قد سهـــل المرقى إلى المرقب
يا من له الرعب الذى قد غـــدا	يملأ من شرق إلى مغرب
يا وارث الأرض الذى مذ بدا	مطلبـه بالحـــق لم يحجب
يا من له الجيش الذى ما لمـــن	يطلبـه فى الأرض من مهرب
يا هـازم التـــاتار يا من له	قالوا وهم يبكون للندب

فماذ قال التاتار للندب وهم يبكون ويستبكون ؟ قالوا إن « هلاون » وهو « هولاكو » زعيم التتار الفاجر الذى أسقط بغداد من قبل ، وكان هو وجيشه قوة لاتغلب، قالوا إن هلاون هذا سباه المنصور وخوفه أكثر من مرة ، فى شخص زعماء التتار الذين جاءوا من بعده ، ومنهم آبغا ومنكو وغيرهما . . . ومن مات

منهم إنما مات من الخوف ، ومن عاش منهم إنما اختبأ من الرعب ، يقول :

قلاون المنصور كم مرة هلاون المقهور منه سبي
فى مثل آبغا ومنكو وفى أحمد فى أرغون فى حشكب(١)
من مات منهم مات من خوفه ومن بقى من رعبه مختبي

ثم يعود ابن عبد الظاهر إلى نداء المنصور باعتباره فاتح هذا الحصن الحصين الذى كان فتحه أمل المسلمين . وذلك النداء تمهيد لطيف لوصف الحصن فيقول فى تشبيهات طلية :

يا فاتح الحصن الذى فتحه يأتى به شكرك من يثرب
حصن عظيم القدر فى سيرة لمن مضى قبلك لم يكتب
إذا بدا والغيم من حوله تقول : نجم لاح فى غيهب
وإن تلح للعين أبراجه يقال : هذا موكب الكوكب

ثم أخذ يذكر الحرب ويصف بعض ماكان لها من استعداد ، وما أعقبته من نصر ، وما تخللها من ظاهرات ، قال :

أنشبت حربا فيه كم رامها قبلك سلطان فلم تنشب
مذ رحت منه تمتطى صهوة لم يبق حصن ثم لم يجنب
أخذت حق الدين من بعد ما مضت سنون وهو لم يطلب
وذات خطوكم لها وثبة عظيمة المسرى إلى المسرب
قد سقتها غابا وآسادها تحملها فى ضيق المذهب
كم نصب الأعداء من هول ما رأوه منها وهى لم تنصب
وكم لها قالوا وقد ركبت أى حصين بك لم يخرب
كأنما الأعناق أمست لها منابت الأملد والأرطب
وكم نقوب فيه صيرتها مهالكا تأتيك بالمطلب

---

(١) أحمد هو تكدار أحد ملوك التتار (تشريف ص)

أبكارها ما افتضها معول   إلا انثنت كالحامل المقرب

ثم أخذ يهنئه ويبشره ويتفائل له ويدعو . فيقول :

فاهنأ بفخر منه قد حزته   أخباره من طيبها تطبي
وليس حصن بعدها مانع   فى الأبعد النائى وفى الأقرب
واعلم بأن السعد قد قال ذا   وقال نصر الله بالموجب [1]

واهتدم ابن عبد الظاهر — على حد قوله ـ جملة من مقصورة ابن دريد[2]، وهى الرجزية التى مدح بها ابن دريد الشاه ابن ميكال وولديه ومطلعها :

أما ترى رأسى حاكى لونه   طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض فى مسوده   مثل اشتعال النار فى جزل الغضى

فحول ابن عبد الظاهر هذه الجملة التى اهتدمها — سرقها أوضمنها — فى قصيدة له رجزية ، إلى مدح الملك المنصور وذكر مناقبه وفتح هذا الحصن وهو « حصن المرقب »

والاهتدام فى رأينا — فى هذا المقام ـ لون من الصناعة يدل على أن الشاعر ذو موهبة فنية مجددة مبتكرة . فليس من اليسير تحويل جملة من الأشطر فى قصيدة واحدة من طريقها إلى طريق جديد ، إن ذلك يتطلب حنكة وخبرة وكياسة فى الملاءمة بين الأشطر ومناسبتها الجديدة .

وهكذا أبى ابن عبد الظاهر إلا أن يبتدع فى سياسياته أو ملوكياته — على حد تعبيرنا ـ التى ترجحت بين ذكر أحداث السياسة ووقائع الحروب وما تستتبعه من مدح أوهجاء أو حماسة دينية . أو تسوق إليه من زهو وفخر ، أو ما تقتضيه

---

(١) تشريف الأيام والعصور ص ٨٢ — وجنبه يجنبه : دفعه وكسر جنبه وأبعده — وأقربت الحامل : قرب ولادها فهى مقرب — وطباه طبوا : دعاه كاطباه — والقول بالموجب : نوع من البديع ، ويقال له أيضا : أسلوب الحكيم — وله تعاريف عدة ، ومنها مخاطبة المتكلم بكلام عكس كلامه ، مع بنائه على أحد ألفاظه — والأدهم : القيد والفرس .

(٢) أبو بكر بن دريد توفى عام ٣٢١ هـ .

من تهنئة واستبشار . وكل هذه المعانى الكلية — أو الأغراض إذا شئت — تنتظمها عاطفة واحدة ، وتسوقها تجربة نفسية واحدة . مما يدل دلالة أكيدة على صدق الشاعر ، وأنه يصدر فى شعره هذا عن إيمان بما يقول ، وعن امتزاج نفسى تام بالموضوع الذى ينظم نواحيه ويصور أطرافه .

وفى رجزيته تلك يبدأ بنداءاته للمنصور — أو صرخاته إذا شئت — صرخات الذى يريد أن يسمع الزمان ويملأ من الدنيا الآذان ، على نمط مما رأيت فيقول له :

ياشاهرا سيف انتصار قد حكى	طرة صبح تحت أذيال الدجى
ومشعلا نيرانه فى كفرهم	مثل اشتعال النار فى جزل الغضى
وآض يبسا روضهم بجيشه	من بعد ما قد كان مجاج الثرى
وقاذفا ملوكهم فى هوة	لاتستقيل نفس من فيها هوى
ومن جرى أبغا له إلى مدى	فاعتاقه حمامه دون المدى
واستنزل الأعداء قسرا وهى من	عقاب لوح الجو أعلى مستمى
ومن له الخيل التى قد أصبحت	ناشرة أكبادها قب الكلى
يحملن كل شمرى باسل	شهم الجنان خائض بحر الوغى
لو مثل الحتف له قرنا لما	صدته عنه هيبة ولا انثنى
ولو حمى المقدار عنه مهجة	لرامها أو يستبيح ما حمى
والناس ألف منهم كواحد	وواحد كالألف إن أمر عنى

وأخذ يخوض فى مدحه ويذكر انتصاراته على أعدائه ويسجل بعض فتوحاته ، ومنها فتح حصن المرقب قال :

قلاون الملك الذى سما به	قوم هم للناس غيث وجدى
هذا الذى مازال يسمو للعلا	بفعله حتى علا على العلا

لو كان يرقى أحـــد بجوده	وبجده إلى الســماء لارتقى
كم للتتار كسرة بسيفه	فيهــا العمى أولى بهم من الهدى
قد أصبحت ســيرته جميعها	فيها حـديث حسن لمن وعى
كم قال يوما للعدى حســامه	أنا لذى الداء الدفين كالدوا
كم قلعة من مثل صهيون ومن	برزته فض لهـا صـلد الصفا ؟
ومرقب مخـــلولق أرجاؤه	مستصعب الآفاق وعر المرتقى
أوفاه والشمس تمج ريقهــا	والظل من تحت الحذاء كالحذا
وكم له من بعدها من نصرة	يعرق أعداء بهـا عرق المدى
لازالت الأقدار تحمى ملــكه	من حيث لايدرى ومن حيث درى
تغـــدو المنايا طائعات أمره	ترضى الذى يرضى وتأبى ماأبى[1]

وفاة قلاوون :

ونواصل الحديث عن ابن عبد الظاهر ونتاجه الشعرى بوحى من البيئة السياسية ، بمرثية حسنة ، رثى بها هذا الملك المنصور ، تقع فى نحو ٥٣ بيتاً من الشعر الجيد .

إن نغمة الحزن العميق واللهفة الأصلية ، تبدو فى هذه القصيدة ، وتتراءى فى كل بيت من أبياتها على وجه التقريب ، لا تكاد ترى بيتاً من بينها لا ينبض بهذه النغمة أو يفيض بهذه اللهفة .

ولقد أجمل ابن عبدالظاهر أعمال هذا الملك وتحدث عنها ، ونفسه تشغلها هذه النغمة واللهفة . ولعل هذا الصدق فى الإحساس ، هو الذى شغله أيضاً عن أن يكون شاعراً حكيما وهو فى مقام الرثاء . شاعراً حكيما يستخلص العبرة من سياق الحوادث ، ويرسل العبارة عنها عامة شاملة .

---

(١) تشريف الأيام والعصور ص ٨٣ .

لقد بدأ قصيدته ، وتحسبه فى بدئه حكيما ، فقد تحدث عن الموت والمقدور ، وأنه لا تنجى منه حماية ولا حذر ، ولا تنفع معه شفاعة ولا فدية . وهذه المعانى عامة يرددها الناس والشعراء ، ولم يرسلها ابن عبد الظاهر عامة شاملة . فقد ضيق نطاقها بذكر المنصور قلاوون وهو جد معذور إذ أن نفسه مشغولة بحادث مرض هذا الملك ووفاته ، أكثر مما هى مشغولة بتصيد الحكمة أو تلمس المثل .

وماذا حول الملك من أمور ووسائل وما هى ملابسات حياته ؟ إنها المعاقل والحصون والمدائن والثغور والخيول والجيوش والأموال والذخائر والأسلحة والحديد والمنشآت وغير ذلك ، مما سيطر عليه الملك وقدر ، ونهى فيه وأمر .

لقد جمعها ابن عبد الظاهر وتابع ذكرها فى مفتتح قصيدته ، لكل منها بيت أو أكثر أو أقل . وبين أنها لا قيمة لها إزاء المقدور وقت نزوله ، ولو كان إنسان يفدى من القدر لكانت هذه كلها فدية للمنصور . لقد بدأ ابن عبد الظاهر قصيدته بهذا البيت الذى يحتوى على ما يشبه المعنى العام فبدا أشبه بالحكمة فيقول :

لو تحامى ذا قدرة مقدور كان يحمى قلاوون المنصور

ثم تابع ذكر ما كان يسيطر عليه هذا الملك ، وبين أنه لم يستطع حمايته من الموت . قال بعد بيته الأول :

وحمته معاقل وحصون وحمته مدائن وثغور
وحماه من خيله كل طرف كل طرف إذا رآه حسير
وحماه من جيشه كل شهم كل سهم عن مرتماه قصير
كل ألف للحرب يقدم ألفاً حبذا الجار منه والمجرور
وفداه من ماله كل مالو كان ماء لقيل هذى البحور
وفدته مراكع كن لولا ه تولى خرابهن الكفور

وأنت تراه — على وجه التقريب — لا يذكر شيئاً من المعاقل والحصون وغيرها ألا شفعه غالباً بوصف يشعر بقوة أو ميزة . فكل طرف من خيله يرتد

عنه البصر حسيراً ، وكل شهم فى جيشه لا يبلغ السهم مرماه وهكذا . وكأن الشاعر يريد بذلك وصف هذه الأدوات والوسائل والملابسات التى عاش بها الملك أو أنشأها وصنعها . وهو مدح ضمنى للملك نفسه . يقول الشاعر من قصيدته على هذا الغرار :

وله من كتائب الكتب جيش منه تسطو على الصفوف السطور
ما حماه هـــذا ولا ذا ولا ذا ك وجاءت بعـــد الأمور أمور
بعد أن أرسل العنان وقالت عكة إننى إلى المصـــير

وكان المنصور قد بلغه عبث الفرنجة بعكا ومسلميها، فأهمه الأمر وأثاره الخبر ، وجمع لهم كيده ليأتيهم ، وحشد جيشه وسلاحه ليؤدبهم ويفتحها . وعول على المسير فى شوال عام ٦٨٩ هـ . فأدركه المرض وأقعده عن المسير ، وكان مرضه هذا مرض الموت الذى وافاه فى ذى العقدة .

وإلى هذا يشير ابن عبد الظاهر ببيته الذى ذكر فيه عكة . والذى يقول بعده يصف استعداد المنصور للمسير إليها :

وتهادت إلى البـــلاد جنـود كل سهل على ســـواها عسير
والمجانيق فى الجبـال تهادى كغياض على الرقاب تسير
قد بكاها الحمام حزنا على قطـــع غصون له بهن وكور

والطريف أن الشاعر فى وصفه وفى تسجيله لأنواع معدات المنصور ، من حديد وسيوف وقنا وخيول وغير ذلك ، يلبسها ثوب الحزن والتفجع لوفاته. فالحديد ذاب قلبه ، والسيوف ثائرة ، والخيام كالقبور ، وصهيل الخيول نواح ، إلى غير ذلك . والشاعر فى هذا يعكس شعوره هو ويخلع أحاسيسه على غيره . وفى سبيل ذلك يعقل ما لا يعقل أو يشخص ، فيبعث الحياة أو الحركة أو الإرادة فى الجماد أو الحيوان . . . يقول :

والحديد استغاث مما شجاه من تلظ وقال مالى عذير

ذاب قلبي ولم أخل قط أني بعد داود ذا المصير أصبر
والمنايا تقول للحزم والعز م رويدا لا بد أني أزور
فأتت والسيوف لم يبق إلا أنها من غمودها ستثور
والقنا أرسلت لها عذبات خاف من عظم فالهن الحذور
والخيام اغتدت من الحزن والشكل تراها كأنهن قبور
وصهيل الخيول يحكي نواحا والبواكي في كل دار تدور
قائلات خابت لغزو ظنون فالعدى للنذير منها نذور
أودعتها عزيمة صار منها للتهادي إلى الأعادي فتور
وظهور تنوء منه ظهور وصدور تغتم منه صدور

ثم طفق الشاعر يصف أحاسيس الناس إزاء هذا الحادث الجلل ، ويرسم مشاعرهم ويصورها فقال :

كم قلوب لما تمرض قالت إن هذى الآمال فيها فطور
أم ترى الأرض قد بها خسف الله تعالى بالخلق فهي تمور
وتمنى كل امرىء لو يوافيه م نصيب من سقمه موفور
قد تجافاه عائدوه وقالوا آذيا مالنا إليه عبور
كيف لا وهو في جنان خيام وخيام الجنان فيها الحور
واغتدوا خيفة عليه ومنه لا أمير يرنو ولا مأمور
لم يزل سقمه يزيد وشكوا ه تنادي أن الحياة غرور
فأتاه ما يذهل العقل واللب لديه ومنه يعمى البصير
وباحتضار له ملائكة الرحمة والعفو والقبول حضور

ثم عاد الشاعر إلى تفجعه . وصب ذلك في شكل أسئلة تعجبية ، فيها التحسر والحزن وفيها العبرة والعظة . وصب هذه الأسئلة عن المتوفى نفسه ، الذى كان له الملك وكان منه العدل والبر ، وكان منه القوة والشجاعة ، وكان منه هزيمة التتار والفرنجة في حمص والمرقب وطرابلس وغيرها .

وهكذا انساب الشاعر ، وهو فى ثوب حزنه ، يعدد محامد سلطانه من جديد ، فيقول على لسان المنايا :

والمنايا تقـــول أين كا ... ن مجيرا إذا الزمان يجـــور
أين من كان ملـكه يملأ الأر ... ض فـكم منـــبر له وسرير
أين من كان عدله يكشف الظلم ... م ومنه داجى الظـــلام ينير
أين من شرد التتار بحمص ... فإلى اليوم جيشهم مكسور
وله المرقب استكان ولولا ... ه تغالت لا بل تعالت صخور
والذى ذل فى طرابلس الـكفـــر بعـزله ونعـم النصير

ووقف الشاعر وقفة محمودة عند ما بلغ إلى طرابلس ، التى عاشت فى أيدى الفرنجة زمنا[1] رعانى المسلمون من وراء ذلك عنتا وألما شديداً . لقد أبى يراع الشاعر إلا التصوير والرسم ، وألا الوقوف بجوار طرابلس بخياله البارع فاستحضر ماضيها وحاضرها ، وصورها مزودين بوقائع التاريخ والحرب ، فقـال :

بعد أن خيمت بحـار لديها ... وعليها جب لهـــا مزور
وتسامت على ملوك سواه ... وهى من دونهم إليه تشير
حكمته يد السعادة فيهـــا ... فأتاها من البلاء ثبور ...الخ[2]

ثم عاد إلى المديح الممزوج بالتفجع ، وهو فى طريق الختام . . .

فى عصر الأشرف خليل :

وولى السلطنة الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٨٩هـ بعد موت أبيه المنصور،

---

(١) افتتح الملك المنصور قلاوون مدينة طرابلس الصليبية عنوة بعد حصار دام ٣٤ يوما ، وبعد رميها بالمجانيق . وكان بالساحل لنجدتها أربع سفائن حربية مجهزة أرسلها ملك قبرص حينذاك . وكان سقوطها فى ٤ ربيع الآخر عام ٦٨٨ هـ راجع سلوك المقريزى ج ١ ص ٧٤٦ ، ٧٤٧ .

(٢) تشريف الأيام والعصور ص ١٨٠ .

واستمر فى السلطنة إلى عام ٦٩٣ هـ . وكان غاشما مستبدا. اشتط فى القبض على الأمراء وغيرهم وسجنهم أو خنقهم . فأدى ذلك إلى حنقهم عليه ومقاومتهم له ، حتى قتلوه قتلة شنيعة .

ولكن قد تم فى أيامه وعلى يده . أعمال جليلة وفتوحات عظيمة ، ومنها فتح « عكا » التى عجز عن فتحها من سبقه من السلاطين . وكان أبوه المنصور قلاوون قد أعد العدة لفتحها ، فعاقه الموت عن ذلك ـ كما أشرنا . وقد فتحها الأشرف بعد رميها بالمنجانيق وهدم سورها وقلعتها . وكذلك فتح بيروت وقلعة الروم وغيرها من البلاد والمواضع التى كانت فى أيدى الصليبيين .

هدية سياسية .

وكان متملك دنقلة وبلاد النوبة ، قد أخر إرسال بعض المقررات عليه ، معتذرا بخراب حل ببلاده ، فلم يقبل الأشرف منه عذره وأنذره . فأرسل إلى الأشرف أخاه ويسمى « البرسى » ومعه فارس الدولة « جريس النوبى » . ومعهما « مطالعة » مضمونها طلب الرحمة واستمطار العفو وقبول العذر واستعطاف الخاطر الشريف . . . ومع الرسولين هدية قيمة وهى : « مائتا رقيق ، ومائتان من الجمال والهجن . ومائتا أردب من التمر ومائة وعشرون قنطارا من الشب ، وألف وخمسمائة رطل من السنباذج ، وأربعة من الأسود والفهود . إلى غير ذلك . (١)

وكان ذلك فى صفر عام ٦٩٠ هـ . فقبل السلطان الهدية وأكرم الرسولين . وسجل الشاعر محى الدين بن عبد الظاهر هذه الزيارة بأبيات يشير فيها إلى إطاعة الأسود والأحمر للسلطان . وإلى سطوته على بلاد النوبة ، ونوه ببعض الهدايا التى أهديت إليه ، قال يخاطب السلطان :

---

(١) راجع « الألطاف الخفية » ص ٣٩ وما بعدها . والسنباذج بضم السين وسكون النون وفتح الذال حجر يجلو به الصيقل السيوف .

أطاعك الأسود والأحمر	فالملك يزهو بك بل يزهر
والدهر فى حكمك تصريفه	يطيع ما تنهى وما تأمر
قد خافت النـــوبة من نوبه	أخرى عليهم منك تستنفر
ما سودت أوجههم إذ هم	قد بيضوها بالذى سيروا
ومنها : ـ وكم هجين أصهب أرسلوا	كالسهم أو كالبرق إذ يخطر
وكل فهد كاسر جاسر	من عين أفعى أبدا ينظر
نقطـــه البـــدر بأنواره	دارهما من فوقه تنشر
لازلت يا خير ملوك الورى	بسيفك الإسلام يستنصر
وكل جنس طائعا يلتجى	لبابك المعمور بل يحشر(١)

لعب الشوانى :(٢)

واهتم الأشرف خليل ببناء «الشوانى» ـ وهى السفن الحربية ـ . وقد وصفها الشاعر المنشىء محي الدين بن عبد الظاهر فى مقالة طويلة وصفا أدبيا ممتعا . وقامت «الشوانى» المذكورة بألعاب استعراضية «مناورة» فى صفر عام **٦٩١هـ**. وبدت فى أبهى زينة وركبت فيها المجانيق وقلاع الأخشاب والبنود والأبراج ، واكتملت بها أدوات القتال وتجمع فوقها الجنود . وعرضت على أنظار الأشرف خليل – الذى وقف على جانب من البحر قرب اللوق . فقال الشاعر مسجلا الحادث مبينا أهمية هذا الاستعداد :

أيا ملكا أمسى له الله كاليا	وشرف أياما له ولياليا
ومن جهز الجيشين فى طلب العــدى ببر وبحر جحفلا وشوانيا	
بجيش به ضاق الفضاء وآخر	له أصبح البحر المحيط سواقيا
ففى ذا على اسم الله تركب موكبا	وفى ذا على اسم الله تركب غازيـ

(١) المرجع نفسه . «الألطاف الخفية» .

(٢) الشوانى كلمة أطلقت على السفن الحربية .

ويبين الشاعر أن هذا الاستعداد الضخم إنما هو فى سبيل الله وفى سبيل دينه، وفى مناهضة الكفار :

سددت ثغور الدين حتى كأنما ... بك الله قد شد الذى كان واهيا
وأقدمت حتى أصبح الكفر كلهم ... وكل امرىء منهم يقول: ورائيا
وأعلنت بالإيمان حتى نذيرهم ... يقول لهم إنا سمعنا مناديا
غزوتهم فالله يبقيك كافلا ... لنصر ويبقى الله عونك كافيا
بشهب ولا ترضى الرياح أعنة ... ودهم ولا ترضى الرواسى مراسيا

ويشير الشاعر إلى جزيرة قبرص التى اتخذ منهـا الفرنجة قاعدة بحرية يتجمعون فيها ، ويبعثون منها عصاباتهم ولصوصهم فى سفن بحرية للإغارة على شواطىء الشام ومصر آمنين دون أن تردهم سفن مصرية مقاتلة ترصد لهم وترد عاديتهم . يشير الشاعر إلى ذلك ويتوعد قائلا ، وكأنه يصور معركة قادمة :

فقل لبنى الإفرنج ما قبرص لكم ... بحصن وليس اليم أن أم واقيا
ستأتيكم هذه الشوانى جواريا ... وكل غلام سوف يسبى جواريا
على كل طرف سابح ليس يرتضى ... بخوض ولو كان السماك مجاريا
إذا أقبلت هذى وتلك ترى لها ... ببر وبحر عاديا ومعاديا ... الخ[1]

فتح عكا :

ومن طريف ما رواه المقريزى قوله إنه روى عن شرف الدين البوصيرى أنه رأى مناما قبل أن يخرج الأشرف خليل إلى عكا . وفيه أن قائلا ينشد هذه الأبيات :

قد أخذ المسلمون عكا ... وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا إليهم ... خيلا تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت ... لاتتركوا للفرنج ملكا

---

(١) الألطاف الخفية ص ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .

فأخبر البوصيرى بذلك جماعة من أحبابه . . . . [١]

أفلا يعتبر هـذا ضربا من الإيحاء والتوجيه ، وتصويرا لآمال النفوس وهواجسها ، وحفزا إلى تحقيقها .

وقد كان خروج السلطان الأشرف خليل لفتح عكا فى ربيع الأول عام ٦٩٠ هـ . فنصبت حولها المجانيق وعدتها اثنان وتسعون منجنيقا . ووقع الحصار . وأتت جموع الفرنجة إليها أرسالا من البحر . وألح الجيش المصرى على أسوارها فنقبها . ومازال بها حتى انهارت وعلت فوقها رايات الإسلام . واقتحمها جنود مصر بعد أن استعصت زمنا طويلا على ملوكها ، وهرب الفرنجة فى البحر ، وهلك منهم كثير ، وأسر منهم وغنم ما لا يحصى ، وأخذ منهم كثير من النساء والصبيان . وكانت مدة حصارها أربعة وأربعين يوما . . . [٢]

وعاد الأشرف خليل إلى القاهرة فى ٢٠ شعبان عام ٦٩٠ هـ — وكان عبوره إلى القاهرة من باب النصر . وقد زينت القاهرة زينة عظيمة . فعندما حاذى باب المارستان نزل إلى القبة المنصورية ، وقد غصت بالقضاة والأعيان والقراء والمشايخ والفقهاء . فتلقوه كلهم بالدعاء حتى جلس . فأخذ القراء فى القراءة .

وقام نجم الدين محمد بن فتح الدين محمد بن عبد الله بن مهلهل بن غياث بن نصر ، المعروف بابن العنبرى الواعظ . وصعد منبرا نصب له ، فجلس عليه . وافتتح ينشد قصيدة تشتمل على ذكر الجهاد ، وما فيه من الأجر . فلم يسعد فيها بحظ . وذلك أنه افتتحها بقوله :

زر والديك وقف على قبريهما   فكأننى بك قد نقلت إليهما

فعندما سمع الأشرف هذا البيت تطير منه ونهض قائما ، وهو يسب الأمير بيدرا نائب السلطنة لشدة حنقه . وقال : ماوجد هذا شيئا يقوله سوى هذا البيت؟

---

(١) سلوك المقريزى ج ١ ص ٧٦٦ حوادث عام ٦٩٠ هـ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٧٦٤ ، ٧٦٥ .

فأخذ يبدرا فى تسكين حنقه والاعتذار له عن ابن العنبرى ، بأنه قد انفرد فى هذا الوقت بحسن الوعظ وألانظير له فيـــه ، إلا أنه لم يرزق سعادة فى هذا الوقت .

فلم يصغ السلطان إلى قوله وسار . فانفض المجلس على غير شىء [1]

وقد عجل الشعراء إلى تسجيل حادث هـذا الفتح العظيم . ومنهم الشاعر الأديب ابن ضامن الضبع . فقال يعزى دمى عكا ويتندر عليها :

أدمى الكنائس إن تكن عبثت بكم أيدى الليالى أو تغير حال
فلطالما سجدت لكن فوارس شـــم الأنوف جحاجح أبطال
فعزاء عن هذا المصاب فإنه يوم بيوم والحروب سجـــال
هـــذا بذاك ولا نعير دهرنا ولـكل دهر دولة ورجـــال [2]

وقد كان فتح عـكا ضربة قاضية أصابت الصليبيين فى الصميم ، فترنحوا تحتها وضعفوا ، وملأ الحزن قلوبهم بل وتوارثت أجيالهم — على ما يبدو — هذا الحزن ، حتى وقتنا هذا . يدلك على ذلك ماقاله السير وليم موير فى كتابه : « تاريخ دولة المماليك » عن الأشرف خليل ، بمناسبة فتح عكا وما بعدها من قلاع الصليبيين ، قال : « ولا يعزب عن بالنا . أن الضربة القاتلة التى قضت على جنود الصليب كانت بيد رجل وضيع الخلق كثيراً ، وهو السلطان خليل »[3] .

ولعل المؤرخ يشير بذلك إلى أن الأشرف كان يقتل الأمراء ويشرب الخمر فى رمضان ويفسق[4] ولكننا نقول له : لا يفل الحديد إلا الحديد ، والوضاعة لا تقلل من أهمية النصر .

---

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٢٠ تحت عنوان : القبة المنصورية .
(٢) سلوك المقريزى حوادث عام ٦٩٠ ج ١ ص ٧٦٧ .
(٣) دولة المماليك البحرية للسير وليم موير ترجمة محمود عابدين وسليم حسن .
(٤) راجع سلوك المقريزى ج ١ ص ٧٩٢ .

الشهاب محمود الحلبي يسجل فتح عكا :

ويبرز فى هذه الآونة ، وفى هذا الميدان الشاعر القدير أبو الثناء شهاب الدين محمود الحلبي ، فيسجل هـذا الفتح المبين فى قصيدة بارعة جيدة جزلة فى نحو ٦٣ بيتاً ، قيل عنها - فى إبانها « البائية المشهورة »[١]. وهو دليل على أنها سارت مع الركبان، وتحدث بها كثير من بنى الإنسان. وكأنى به يعارض بها بائية أبى تمام فى فتح عمورية .

ويطالعنا البيت الأول منها بخلاصة واضحة محددة للقضايا المصرية المعاصرة حينذاك ، وتصوير المشاعر العامة الجارفة المشتركة. ولمدى الامتزاج السياسى بين الشعب وحكامه الأتراك حينذاك ، ورضا الشعب عن أهداف هؤلاء الحـكام التى هى أهدافه قبل أن تـكون أهدافهم ، وغاياته قبل أن تصبح غاياتهم ، وما هم إلا طارئون عليه وهو باق ، ومارون به وهو خالد .

هذه الأهداف والغايات التى قوامها الدين الواحد وعروبة المشاعر والمصلحة المشتركة ، والتى ترمى إلى حفظ بلاد العرب وحماية بلاد المسلمين ورعاية الدين ، ودرء أعدائهم عنهم فى شتى بقاع العروبة والإسلام .

والشاعر فى مطلع قصيدته هـذه بارع الاستهلال قوى الدلالة على أغراض القصيدة ومراميها ، بل على أهداف الحرب والغاية منها . فهو يقول :

الحمـــد لله ذلت دولة الصلب   وعز بالترك دين المصطفى العربى

ونزعة الإسلام تتبدى فى قوله «الحمد لله» و قوله « دين المصطفى » . والمشاعر المشتركة تبدو فى قوله « عز بالترك دين المصطفى العربى » ، وهى موجهة إلى حماية بلاد المسلمين والعرب من « دولة الصلب » .

وفى البيت دلالة على أن حربا قامت شنها الأتراك حكام البلاد دفاعا عنها

---

(٣) فوات الوفيات ج ١ ص ١٩٦ فى سياق ترجمة الأشرف خليل .

وعن أهلها وعن دينها الذى هو دينهم . وأن هذه الحرب كانت ضد الصليبيين ، وأن نتيجتها كانت الظفر والانتصار . هذا كله يستأهل إعلان الحمد لله وشكره على ما أولاه .

وترى الشاعر فى البيتين التاليين للمطلع يفصح عن هذا الإجمال فيه ويفصل بعض التفصيل، فيذكر أن الآمال كانت متعلقة بهذا الفتح وكانت النفوس تتمناه وتشرئب إليه ، ولكنها لم تكن تتوقعه وتترقب حدوثه على هذا النحو الباهر ، ولم يكن يقع فى حدس أحد ولا ظنه ، ولو أن الآمال طلبت أن ترى ذلك محققا فى المنام ، لاستحيت من الطلب لبعده وصعوبة تنفيذه .

هذا الفتح هو فتح عكا . يذكر الشاعر هذا فى بيته الثالث . يعلنه فيحدد موضعه ثم يجعل تفاصيل الموقعة مع نتائجها فى البيت نفسه .

يقول الشاعر :

هذا الذى كانت الآمال لو طلبت رؤياه فى النوم لاستحيت من الطلب

ما بعد عكا وقد هدت قواعدها فى البحر للشرك عند البر من أرب

ويجمع الشاعر بعد ذلك بين ماضى « عكا » وحاضرها . بين ماضيها الذى كانت تعانى فيه من الصليبيين ، ويعانى العرب والمسلمون فيه ما يعانون من اغتصابها وبعدها عن الوطن العربى الكبير ، وبين حاضرها وقد أصبحت فى يد المسلمين وأن هذا مؤذن بزوال الصليبية ومؤد إلى هربهم إنجاء لهم ولكفرهم . فيقول واصفا لها بأنها « عقيلة » ، ويقول ذلك دلالة على منعتها وأصالتها وعزتها :

عقيلة ذهبت أيدى الخطوب بها دهرا وشدت عليها كف مغتصب

لم يبق من بعدها للكفر مذ خربت فى البحر والبر ما ينجى سوى الهرب

وعاد إلى ذكرها أملا بعيدا لم يدر فى الفكر . أو الفكر فيه ضرب من ضروب العجب:

كانت تخيلنا آمالنا فنرى   أن التفكر فيها غاية العجب

والشاعر في البيت المذكور لا يؤخذ بالتكرار – أي تكرار المعنى – وإنما ذلك فطرة في حديث النفس المتلهفة والعاطفة المتشوقة ، تردد المعنى المركز في طواياها مرة بعد مرة ، لتعلنه ولتؤكده ، ولأنه – أولا وقبل هذا – هو الذي كان يشغلها ويشغل فراغها وتأملاتها ، فلا مناص لها من تكراره وترديد ذكره ، كما تكرر في النفس وتردد ذكره في ضميرها .

وخاض الشاعر غمار المعركة وجاب أطرافها ، وصور جوانبها ورسم الكثير من زواياها ، وألم بوقائعها. وها هو ذا يقترب من المدينة المحصنة والقلعة المنيعة ، فيرى من حولها سورين دارا من حولها يحصنانها ويمنعان ساحاتها . فسور من البر ، وسور من البحر . وأقيمت صفاح هناك حولها أكم من الرماح وأبراج من اليلب ترمى بصواعقها من النبل ، وكأن هذه الأبراج وهي ترمى من مجانيقها لهبا ، غمائم تبعث الصواعق من النبل ، وترمى الأرض بالشهب :

أما الحروب فكم قد أنشأت فتنا	شاب الوليد بها هولا ولم تشب
سوران بر وبحر حول ساحتها	دارا وأدناهما أنأى من العطب
مصفح بصفاح حولها أكم	من الرماح وأبراج من اليلب
مثل الغمائم تهدى من صواعقها	بالنبل أضعاف ماتهدى من السحب
كأنما كل برج حوله فلك	من المجانيق ترمى الأرض بالشهب

وبينما القلعة المنيعة في استعدادها وتوثبها ، وبينما هي في مبادأتها وتحفزها إذ تزحف عليها جنود مصر – وهي جنود الله – يقودها ملك غضبان لله ولدين الله لاغضبان للملك ولا جاه ولا مال ولا نشب ولا غنيمة ولا غيرها .

وتبدو في هذه المعاني النزعة الإسلامية مرة أخرى ، ومعها حماستها وأنفتها قوية منقضة انقضاض هذا الجيش المفاجىء الغاضب . يقول الشاعر :

ففاجأتها جنود الله يقدمها   غضبان لله لا للملك والنشب

ومن حق هذا القائد ـ السلطان — ومن حق جيشه المظفر ، أن تسبغ عليهما آيات الحمد والثناء قبل خوض المعركة المرتقبة ليستبين للناس وللتاريخ أى قائد هو ، وأى جيش جيشه . فيذكر الشاعر أن هذه القلعة رامها قبله ملوك وجيوش فعجزت عن الوصول إليها وعن اقتحامها وحوزها فلم ترض همة هذا الملك أن تقعد كما قعدوا ، وأن ترضى بالعجز كما رضوا .

كم رامها ورماها قبله ملك   جم الجيوش فلم يظفر ولم يخب
لم ترض همته إلا الذى قعدت   للعجز عنه ملوك العجم والعرب .. الخ

فلما زحف عليها بجيشه أصبحت واقعة بين بحرين عظيمين . وجيشه هذا من صفاته حب الحروب وخوضها . أما تركها فعار على جنوده ، وأما راحتهم فى القتال . وقد اغتربوا فى سبيل الحرب وفضلوا ميادين الردى . . . ومازالوا بالمدينة الحصينة حتى تسنموا أبراجها وافترعوا حماها :

فأصبحت وهى فى بحرين مائلة   ما بين مضطرم نارا ومضطرب
جيش من الترك ترك الحرب عندهم   عار وراحتهم ضرب من الضرب
خاضوا إليها الردى والهجر فاشتبه الأمران واختلفا فى الحال والسبب
تسنموها فلم يترك تسنمهم   فى ذلك الأفق برجا غير منقلب
أتوا حماها فلم تمنع وقد وثبوا   عنها مجانيقهم شيئا ولم يثب

وعادت الحمية الدينية إلى الشاعر وثبتت نفسه ، فند هنيهة عن استكمال صور المعركة ، ليفصل بين أبيات وصفه بدرات جديدة من أبيات شعره ، يفرغ فيها طاقات هذه الحمية المعاودة . ويذكر فيها « عباد عيسى » الغاضبين و « جيش النصر » الذى أطلعه الله ، وأن « المصطفى الهادى البشير » أشرف على ماقدم السلطان من القرب ، وأنه « قر عينا » بهذا الفتح . وأن « الكعبة الغراء » قد ابتهجت به .. الخ . يقول ويردد ما كانت الآمال تتعلق به بشأن هذا اليوم حتى تم النصر فيه وسرت الفرحة فى البر ، والخوف إلى البحر :

يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت به الفتوح وما قد خط فى الكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر منك فما عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
كانت تمنى بك الأيام مبعدة فالحمد لله نلنا ذاك عن كثب
أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم لله أى رضا فى ذلك الغضب
وأطلع الله جيش النصر فابتدرت طلائع النصر بين السمر والقضب
وأشرف المصطفى الهادى البشير على ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
فقر عينا بهذا الفتح وابتهجت بفتحه الكعبة الغراء فى الحجب
وسار فى الأرض سير الريح سمعته فالبر فى طرب والبحر فى حرب

ثم عاد الشاعر إلى المعركة فصور منها فاصلا آخر ، خاضت فيه البيض فى بحر الدماء وغاصت الزرق فى زرق العيون ، وتوقدت الحرب واشتد لهبها حتى ذاب من حرها الحديد، ووهى من الهول أبطال كانوا كالأطواد، وجرت الدماء بحرا إلى البحر ، وتحكمت السيوف المصرية فى أعدائها فسطت عليهم قتلا ، مع العفة عن الغنيمة.

يقول الشاعر فى تشبيهات لطيفة موضحة :

وخاضت البيض فى بحر الدماء وما أبدت من البيض إلا ساق مختضب
وغاص زرق القنا فى زرق أعينهم كأنها شطن تهوى إلى قلب
توقدت وهى غرقى فى دمائهم فزادها الطفح منها شدة اللهب
وذاب من حرها عنهم حديدهم فقيدتهم بها ذعرا يد الرهب
كم أبرزت بطلا كالطود قد بطلت حواسه فغدا كالمنزل الخرب
أجرت إلى البحر بحرا من دمائهم فراح كالراح إذ غرقاه كالحبب
تحكمت وسطت فيهم قواضبنا قتلا وعفت لحاويها عن السلب
كأنه وسنان الرمح يطلبه برج هوى ووراه كوكب الذهب

ثم عاودت الشاعر الحمية الإسلامية ، وأخذته نشوة النصر مرة أخرى ، وملكه الزهو بملكه ومعجزته التى حاولها من قبله بطل الإسلام والعروبة ناصر الدين صلاح الدين الأيوبى فلم تتهيأ له .

وفى لباقة الأديب وكياسة المهذب اللبيب ، يقرن الشهاب الحلبي بين اقتدار الأشرف خليل على فتح عكا ، وبين امتناعها على صلاح الدين . فيعتبر ظفر الأشرف بها ثأراً لامتناعها على صلاح الدين . فيقول مخاطباً الأشرف يهنئه ويمدحـــه :

بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت ⁂ بك الممالك واستعلت على الرتب
ما بعد عكا وقـد لانت عريكتها ⁂ لديك شيء تلاقيـــه على لغب
فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها ⁂ مدت إليك نواصيها بلا نصب

حتى يقول عن « عكا » وقد امتنعت من قبله على صيد الملوك ، إنها هى التى دعتهم إليها ، وهم الذين امتنعوا . . . وتلك لباقة أخرى وشاعرية كيسة ، وانظر معى إلى التعبير بصيد الملوك « فى هـــذه المناسبة . أنه مدح للأشرف ضمنى ، واحتراس فى جانب الملوك . . .

يقول :

كم قد دعت وهى فى أسر العدى زمنا ⁂ صيد الملوك فلم تسمع ولم تجب
أتيتها ياصلاح الدين معتقـــدا ⁂ بأن داعى صلاح الدين لم يخب
أسلت فيها كما سالت دماؤهم ⁂ من قبل إحرازها بحرا من الذهب
أدركت ثأر صلاح الدين إذ غضبت ⁂ منه اسر طواه الله فى اللقب

ومن التوفيق أن الأشرف خليلا كان يلقب بصلاح الدين ، وإليـه يشير الشاعر فيما مر من الأبيات ، واستطاع أن يستوحى من هذا التوافق بين الأشرف والناصر صلاح الدين ، بعض المعانى والمشاعر كما رأينا . ويروى البيت الأخير « فى الـكتب » بدلا من « فى اللقب » .

ويقال إن صلاح الدين الأيوبى كان قد وقف على كتاب ذكر فيه أن السلطان صلاح الدين يفتتح عكا ويخربها . فرجا أن يكون هو ، فلم يظفر(١) .

(١) عقد الجمان للبدر العينى المجلد (٦٨٩/٦٩٨ هـ) الورقة رقم ٢٦ مصور شمسى بدار الـكتب المصرية .

وكان هذا فاصلا جديدا ، عاد الشاعر بعده إلى ذكر الحرب واشتباكاتها ، على نمط مما سبق بيانه . حتى قرن بفتح عكا فتح مدينة صور ، فتمت به — على حد تعبير الشاعر — النعمة العظمى ، إذ لم يلجأ الجيش فى فتحها إلى ضرب حصار ولا معاناة تعب .

يقول الشاعر :

وتمت النعمة العظمى وقد كملت … بفتح صور بلا حصر ولا نصب

وصارت النار فى أرجائها وعلت … فأطفأت ما بصدر الدين من كرب

ويستمر الشاعر فى وصفه حتى يقترب من نهاية قصيدته البديعة ، فيزجى الأمل وثابا فسيح الأطراف بين يدى الأشرف خليل فاتح عكا . . . ويخاطبه موجها ، ويأمل أن يفتح ما بعدهما من المدن والبلاد ، فإن من فتح هذين الحصنين لن يستعصى عليه غيرهما ، بل الصين أصبحت أدنى إلى يديه من حلب . يقول له ويدعو :

من كان مبدأه عكا وصور معا … فالصين أدنى إلى كفيه من حلب

علا بك الملك حتى إن قبته … على البرايا غدت ممدودة الطنب

فلا برحت قرير العين مبتهجا … بكل فتح مبين المنح مرتقب(١)

وممن أدلى بدلوه فى الدلاء وشارك فى وصف معركة عكا وتسجيل حوادثها الشاعر شمس الدين بن الصائغ . وكان مما قاله يخاطب الملك الأشرف ويمدحه ويقرن بين فتح عكا :

يا أشرف الدنيا تهن فإنه … فتح سواك بمثله لم يحلم

شبهت معتصم الخلافة همة … فالروم منك ديارها لم تعصم

قابلت بلق جيوشهم بسوابق … غر عليها الريح لم تتقدم

كم رعتها بسواد ليل أليل … وصدمتها ببياض يوم أيوم

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١٩٦ ط بولاق فى ترجمة الأشرف خليل بن قلاوون وفيه نص القصيدة . وكذلك فى البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ — انظر أيضا عقد الجمان للبدر العينى المجلد (٦٨٩ — ٦٩٨ هـ) ورقة رقم ٥ مصور شمسى بدار الكتب ونهاية الأرب النويرى المجلد ٢٩ .

وأعدتها المسلمين ولم تكن   منهم ترى التطهير إلا بالدم ..الخ(١)

ومنهم الشاعر بدر الدين محمد بن أحمد بن عمر المنبجي البزاز بالقاهرة الذى يقول فى مطلع قصيدته :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل   وفت شأو ملوك الأعصر الأول
وحزت رق العلى بالجد مجتهدا   وجزت غاياتها سبقا على مهل

ويشيد الشاعر بهذا الفتح المبين ويشير فى أكثر من بيت إلى ارتداد غير من الملوك الصيد عن فتحها وعجزهم عن بلوغ أمل المسلمين باستردادها ، فيقول :

وكم فتحت حصونا طالما رجعت   لليأس عنها الملوك الصيد فى خجل
أنت الذى لم تدع للكفر من بلد   يأوى إليه ولا للدين من أمل
أحرزت من عكة الغراء ما عجزت   عنه الملوك بعزم غير منتثل
عقيلة المدن أمست من حصانتها   وصونها من ليالى الدهر فى عقل
كم قد دعتها ملوك الأرض راغبة   وعطفها عنهم بالتيه فى شغل . الخ(١)

الشهاب الحلبى وقلعة الروم :

وفى عام ٦٩١ هـ فتح السلطان الأشرف خليل أيضا قلعة الروم بعد أن حاصرها خمسة وعشرين يوما - فانبرى للتهنئة الشاعر شهاب الدين الحلبي كذلك ، وسجل للملك وبلاده هذا النصر المبين والفتح العظيم ، فى قصيدة رائية جزلة .

ويبدو فى هذه القصيدة استراحة الشاعر وطمأنينة نفسه ورضا خاطره عن

---

(١) عقد الجمان للبدر العينى المجلد (٦٨٩-٦٩٨) ورقة رقم مصور شمسى بدار الكتب المصرية .

(٢) زبدة الفكرة لبيبرس الدوادارى ج٩ ص٢٨٧ مصور بجامعة القاهرة - ونهاية الأرب للنويرى المجلد ٢٩ ص ٥٦ مصور بدار الكتب المصرية .

ونثل الكنانة : استخرج نبلها فنثره ، ونثل اللحم فى القدر وضعه فيها مقطعا — والعقل بسكون وسطه : الحصن . وحرك للشعر .

هذا النصر الذى تلا نصرا . واعتقادنا أنه يعبر بذلك عن مشاعر قومه ، وعن رضا نفوسهم بهذه الفتوحات المتلاحقة ، التى هى — بلاريب — ظفر للدين والعروبه وأعدائهما . .

وهذه الراحة والطمأنينة سوغتا للشاعر أن يسير وئيدا فى نحو ستة أبيات فى مفتتح قصيدته فى وصف راية السلطان التى هى صفراء كالاصائل ـ وهى رمز النصر ومجتمع القلوب،وهى راية الإسلام يقدمها النصر ،ويرتعب منها من يراها من أعدائه مثل كيقباذ وكيخسرو .

وإذا خفقت هدت بنودها قوى الشرك وعلا الهدى ، وإذا نشرت وقت ضجيج الحرب كشفت النقع بلألائها ، وإذا سارت إلى الأعداء ، سار تحتها الكتائب المظفرة ، ومعها الرماح والسيوف . . . الخ .

يقول الشاعر مخاطبا السلطان ، ولا ينسى لون الراية : —

لك الراية الصفراء يقدمها النصر	فمن كيقباذ إن رآها وكيخسرو
إذا خفقت فى الأرض هدت بنودها	قوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر
وأن نشرت مثل الأصائل فى وغى	جلا النقع من لألاء طلعتها البدر
وأن يممت زرق العدى سار تحتها	كتائب خضر تحتها البيض والسمر
كأن مثار النقع ليل وخفقهـــا	بروق وأنت البدر والفلك والبحر
لهـا كل يوم أين سار لواؤهــا	هدية تقليد يقدمهـــا الدهر
وفتح بدا فى إثر فتح كأنمـــا	سماء بدت تترى كواكبها الزهر

ويستمر الشاعر فى الإشادة بمناقب السلطان وبشجاعته فى حروبه وهمته فى القتال وتدبيره حتى زلت له الحصون العوانس والمعاقل البكر ، وحتى هابته أعداؤه وأصبحت حصونهم لهم سجونا ، وأخشابهم لهم قبورا . .

فكم وطئت طوعا وكرها معـــاقل	مضى الدهر عنها وهى عانسة بكر
فإن رمت حصنا سابقتك كتائب	من الرعب أو جيش يقدمه النصر
ففى كل قطر للعـــدى وحصونهم	من الخوف أسياف تجرد أو حضر

فلا حصن إلا وهو سجن لأهله ولا خشب إلا لأرواحهم قبر

ويتفاءل الشاعر - كعادته - ويعتبر فتح هذه القلعة مقدمة لفتح غيرها . ويستروح قليلا هنا - وقد ذكر قلعة الروم - إلى وصفها الوصف الشاعرى الذى يوحيه الخيال فيرسمها للقارىء فى لوحة من لوحات الطبيعة الساحرة ويزودها باللون والحركة والعاطفة فيقول:

وما قلعة الروم التى حزت فتحها وإن عظمت إلا إلى غيرها جسر
محجبة بين الجبال كأنها إذا ما تبدت فى ضمائرها سر
تفاوت وصفاها فللحوت فيهما مجال وللنسرين بينهما ذكر
فبعض رسا حتى جرى الماء فوقه وبعض سما حتى همى دونه القطر
يحيط به نهران تبرز فيهما كما لاح يوما فى قلائده النحر
نخاص متون السحب فيها كأنها إذا ما استدارت حول أبراجها نهر
على هضب صخر تكلم صخرها الحديد وفيها عن إجابتها وقر
لها طرق كالوهم أعيا سلوكها على الفكر حتى ما تخيله الفكر
إذا خطرت فيها الرياح تعثرت أو الذر يوما زال عن متنه الذر
يضل القطا فيها ويخشى عقابها الـ ـعقات ويهفو فى مراقبها النسر

فهى - كما ترى - قلعة محجبة بين الجبال كأنها سر فى ضمائرها . وهى ذات ، شاطىء يسبح فيه الحوت ، وذات جبال يمرح فيها النسر ، وعلى سفوحها الواطئة تجرى المياه ، وعلى مرتفعاتها يهمى القطر ، ومن حولها نهران يدوران بها بلمعانهما وأضوائهما ، يبدوان كالقلائد فى نحرها أمام الرائى . وتستدير السحب من حول أبراجها كما يستدير النهر ... إلى آخر هذه الأوصاف الطلية التى جعلت فيها متعة من متع الطبيعة الساحرة .

هذا السحر الفاتن وهذا الجمال الباهر ، صبحه الملك الأشرف بجيشه الذى تحكى أبطاله النجوم الزهر . ومعه سيوفه الصوارم كالأنهار ، ورماحه اللامعة الضاحكة كالزهر ... واستمر الشاعر فى وصف الجيش ..

ويتعلب الشاعر بالأسلوب فيفتن فيه . ويذكر الوصف ثم يضرب عنه فى البيت التالى ليعقب عليه بوصف جديد ....

وهكذا انتقل بتشبيههم من البحر إلى الليل ثم النهار ثم إلى الليوث . وفى كل واد من هذه الوديان يتبسط له الخيال ويمد له الفن فى رواقه . ويستعير ملائمات كل واد ليحبك من مجموعها صورة متواصلة الأطراف

فهم كالبحر ، ولكى تكتمل الصورة وتتم المماثلة ، يذكر سيوفهم أمواجا ، وخيولهم سفنا ، وخردهم درا . بل هم كالليل ، ولكى تكتمل الصورة أيضا وتتم المماثلة ، يذكر عوج سيوفهم أهلة ، ونبالهم اللامعة العاجلة أنجما زهرا . بل هم كالنهار ، ولكى تكتمل الصورة أيضا وتتم المماثلة ، يذكر الجيوش شمسا ، والرايات الصفراء آصالا . . وهم ليوث وما آجامها إلا قناها ، وما من يوم ظفر، إلا ولهم فيه ظفر .... الخ .

ويستمر الشاعر فى خياله وأناقته وحماسته ، حتى يندفع فيمزج مزجا فنيا جميلا بين الوصف والمديح والغزل والحماسة ، وهى ضروب من فنون الشعر نادرة الوجود فى الشعر العربى ممزوجة . . . ولعلها من محاسن الشعراء فى العصر المملوكى ، ولدها فى قرائحهم ما كان لجنود الأتراك وأمرائهم من محاسن ومفاتن، تدفع إلى النسيب الرطب والغزل العذب . واقترنت فيهم هذه المحاسن الخلقية بمحاسن الفروسية والشجاعة وحب القتال والمغامرة فى سبيل الانتصار ، حتى ضرب بهم المثل فى الجمال وحب القتال ....

يقول الشاعر :

فصبحتها بالجيش كالزهر بهجة	صوارمه أنهـــاره والقنا الزهر
وأبدعت بل كالبحر والبيض موجه	وجرد المذاكى السفن والخرد الدر
وأغربت بل كالليل عوج سيفه	أهلته والنبـــل أنجمه الزهر
وأخطأت لا بل كالنهار فشمسه	جيوشك والآمال راياتك الصفر

ليوث من الأتراك آجامها القنا | لها كل يوم فى ذرا ظفر ظفر
فلا الريح تسرى بينهم لانسباكها | عليهم ولا ينهل من فوقهم قطر
يرى الموت معقودا بهدب نبالهم | إذا مارماها القوس والنظر الشزر
ففى كل سرج غصن بان مهفهف | وفى كل قوس مد ساعده بدر
إذا صدموا صم الجبال تزلزلت | وأصبح سهلا تحت خيلهم الوعر
ولو وردت ماء الفرات خيولهم | لقيل هنا قد كان فيما مضى نهر

ثم صور الشاعر بعض خطرات المعركة وجوانبها ووقائعها فقال :

أداروا بها سورا فأضحت كخنصر | لدى خاتم أو تحت منطقة خصر
وأجروا إليها من بحار أكفهم | سحاب ردى لم يخل من قطرها قطر
كأن المجانيق التى قمن حولها | رواعد سخط وبلها النار والصخر

ثم خاطب السلطان عقب ذلك وأشاد بشهامته . وحمد إليه الله سبحانه على أن افتر هذا الثغر الذى كان ممتنعا من قبل ، فكان قذى فى عين الدين ، وذخرا لأهل الشرك . أما الآن فقد انعكس الأمر ، فيقول :

فأحرزتها بالسيف قهرا وهكذا | فتوحك فيما قد مضى كله قسر
غدت بشعار الأشرف الملك الذى | له الأرض دار وهى من حسنها قصر
وأضحت بحمد الله ثغرا ممنعا | تبيد الليالى والعدى وهو مفتر
وكانت قذى فى ناظر الدين فانجلى | وذخرا لأهل الشرك فانعكس الأمر [١]

عصر الناصر بن قلاوون :

وقتل الأشرف خليل بعد مؤامرة دبرت ضده . وولى السلطنة مكانه أخوه الناصر محمد، عام ٦٩٣ هـ . وكان حدثا فى سن التاسعة . ودبر له أمر دولته الأمير

(١) فوات الوفيات ج ١ ص١٩٨ ، فى سياق ترجمة خليل بن قلاوون . وفيه نص القصيدة — راجع أيضا عقد الجمان للبدر العينى المجلد (٦٨٩ـ٦٩٨ هـ) مصور بدار الكتب المصرية .

« كتبغا » . وسرعان ما خلع سلطانه وقفز إلى السلطنة . فلبث نحو عامين سافر خلالها إلى بلاد الشام لتنظيم أمورها فخلعه نائب سلطنته الأمير « لاجين » بعد مؤامرة ، وقفز إلى السلطنة مكانه . فلبث قرابة عامين أيضا ، ثم دبرت مؤامرة فقتل . واستقر الرأى على عودة الناصر محمد بن قلاوون . فعاد فى عام ٦٩٨ هـ . فأعد العدة للقاء التتار الزاحفين على بلاد الشام . فوقعت بينهما معركة حامية فى « سلمية » قرب بعلبك ، دارت الدائرة فيها على الناصر وجيشه . وطلب أهل دمشق الأمان من « غازان » ملك التتار ، فأمنهم .

إلا أن الناصر عاود الزحف إلى بلاد الشام عام ٧٠٢ هـ ، ولقى التتار فى موقعة « مرج الصفر » أو « مرج راهط » أو « شقحب » ، فانتصر عليهم انتصارا عظيما ، وقتل منهم عدداً كبيراً وغنم غنائم لا تحصى ودانت له بذلك بلاد الشام .

ثم فسد ما بينه وبين أتابك عسكره الأمير « بيبرس » ، فخلع نفسه واستقر بالكرك . فقفز « بيبرس » هذا إلى كرسى السلطنة، فلبث بها أقل من عام ، وانحاز عدد كبير من الأمراء إلى الناصر محمد، فسار بهم إلى بلاد الشام فملكها . ومن ثم عاد إلى مصر فدخلها منتصراً عام ٧٠٩ . وقبض على « بيبرس » وخنقه .

لبث الناصر محمد فى السلطنة هذه المرة حتى عام ٧٤١ هـ . فنظم الدولة ونمى جيشها ، ومسح الأرض ، وألغى نيابة السلطنة ورحل إلى الشام وحلب، ترقبا للقاء التتار ، ففروا من وجهه . وما زال حتى هيبت سطوته وخطب باسمه على منابر كثيرة وخطب الملوك وده ، وحفر الخليج الناصرى عام ٧٢٥ هـ ، وامتدت رقعة الدولة فى زمانه من كل طرف من أطرافها . وامتلأ عصره بكثير من أفذاذ العلماء والأدباء ، وقد أحصينا عدد الشعراء الذين شهدوا عصر الناصر هذا فكان عددهم — أو عدد من أحصيناهم — نحو مائتى شاعر .

ومنهم الفتح بن سيد الناس ، وابن الوردى . والوداعى والمعمار وابن نباتة والصفدى والحلى وابن دانيال، وغيرهم من المشاهير، عدا المنشئين الشعراء . وأبرز

هؤلاء جميعاً فى ميدان الأدب والشعر اثنان هما جمال الدين بن نباتة « ٦٨٦ هـ - ٧٦٨ هـ » ، وصفى الدين الحلى « ٦٧٧ هـ ٧٥٠ هـ » وهما بحق زعيما الشعر فى زمانهم .

ورحل ابن نباتة إلى بلاد الشام فى نحو عام ٧١٦ هـ وعاش بها ردحا طويلا . فيكون قد عاش بمصر من قبل رحيله ما يقرب من ثلاثين عاما ، من بينها أكثر من عشرين عاما فى عهد الناصر محمد بن قلاوون ، فهو - بلا ريب - بثقافته وأحاسيسه وعاداته وأفكاره مدين للبيئة المصرية بألوانها ، وهو - بلاريب - مترجم عنها متحدث باسمها صادر عن وحيها ، وإن بعد عنها .

على أنه - وقد عاش فى بلاد الشام - فى دمشق أو فى حماة - لم يبعد عن البيئات المصرية ، فهو مغمور بها مغموس فيها ، فإن قلبه ظل مشغولا بمصر وبمن فى مصر من أهله وأولاده وخلصائه وأحبابه . ولم تكن البيئة الشامية من بيئات السلطنة المصرية حينذاك إلا امتدادا للبيئة المصرية بشتى ألوانها وأحاسيسها وتقلباتها ، والوحدة العربية حينذاك وحدة شاملة ممتدة ، ووحدة واقعية بارزة فى بلاد السلطنة المصرية . ومتطلعة إلى غيرها من بلاد العرب والمسلمين .

إلا أن ابن نباتة لم يقيض له الاتصال بالسلطان الناصر ، أو الانضمام إلى رجاله ، فبعد بذلك عن مجال السياسة . أما صفى الدين الحلى ، فقد نشأ ببلده حلة بابل قرب الموصل بالعراق . وأخذ بين الآن والآن يجول هنا وهناك فى بلاد العروبة والإسلام ، ومن بينها مصر زمن الناصر محمد بن قلاوون . فحسن اتصاله به ، وشارك على بعده ، مشاركة ما فى سياسيات مصر ، بخلاف ابن نباتة .

إن السبيل الوحيد الذى كان يفتح أمام الشاعر حينذاك مجال القول والتجارب مع البيئة السياسية ومقتضياتها ، هو الاتصال بالسلطان ، إذ يقربه من الحوادث ويصله بأسباب الحروب ووقائع القتال .

والاستقراء يدلنا على صواب ما نقول . فلم نظفر بشاعر تحدث من بعد أو

قرب — فى هذا العصر — حديثاً ذا شأن ، فى هـذا المجال ، مالم يـكن متصلا بالسلطان .

وقد اتصل ابن نباتة — حقا — ببعض رجال الحكم فى دمشق وحماة . اتصل بأبناء فضل الله العمرى ، وبملـكى حماة المؤيد وابنه الأفضل ، واتصل بكاتب السر بمصر علاء الدين بن الأثير ، ومدحهم ووصف وشكا وسأل . ولـكنه لم يطرق معهم باب السياسة ولا ذكر الحرب . ولو قيض له الاتصال بالناصر لظفرنا منه بالنتاج الوفير فى ميدان السياسة .

موقعة مرج راهط «شقحب» أو مرج الصفر .

لما عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى عرشه العودة الأولى «٦٩٨هـ - ٧٠٨هـ» سرت الأنباء بقرب تحرك التتار على بلاد الشام ، فأخذ النـاصر فى الاستعداد يعاونه فى ذلك الأميران «سلار» نائب سلطنته ، «وبيبرس» الجاشنـكير أتابك عسكره . ثم زحف بعسكر كثيف ، قيل نحو عشرين ألفاً . وكان على ميمنته جمع وافر من العربان بقيادة الأمير عيسى بن مهنا . ولـكن وقعت بين الصفوف فتن كثيرة أصابت الروح المعنوية . فلما كان اللقاء مع التتار فى «سلمية» فى ربيع الأول عام ٦٩٩هـ، أقبلوا عليهم فى نحو مائة ألف جندى بقيادة غازان . وكاد الجيش المصرى يوقع فيهم هزيمة نـكراء ، ثم انقلب الأمر وهرب الناصر وولى الأدبار . .

أخذ بعد ذلك يستعد للقائهم للمرة الثانية ، وتم له ذلك عام ٧٠٢هـ. إذ تواترت الأخبار بنزول غازان على الفرات وبدأ زحفه على بلاد الشام بقيادة الأمير قطلوشاه ، فى عسكر كثيف يبلغ نحو خمسين ألفا . حتى فر كثير من أهل حلب وحماة إلى دمشق ، بل استعد أهل دمشق للفرار . فخف الناصر برجاله متجها إليه من «مرج راهط» ، واتفقوا على المحاربة فى «شقحب» وكان فى جملة جيشه عدد من العربان ، فوقعت معركة مروعة بين الطرفين ، أزالت التتار من مواضعهم وحصدت رءوسهم حصدا ، وعاد الجيش المصرى بعد أن هزم عدوه هزيمة ألقت الرعب فى قلبه وعلمته

الهيبة من الناصر ، فلم يجسر على التجمع للقائه مرة أخرى[1] .

وكان لهذا الانتصار الحاسم رنة فرح فى أرجاء مصر ، وتغنى به شعراؤها . وتقدموا بالتهنئة والمديح إلى سلطانهم المنتصر الناصر محمد ، شاكرين الله سبحانه وتعالى على نعمة النصر ، وعلى هزيمة أهل الكفر .

ومنهم الشاعر علاء الدين بن محي الدين بن عبد الظاهر ، يقول :

لقد تمت النعمى وأوضحت البشرى	وقد أعبق الفتح المبين لنا نشرا
حبانا إله الخلـــق بالنصر والهدى	على الشرك والإيمان قد غلب الكفرا

ويصف طغيان غازان وملوك التتار وكثرة جنودهم ويشير إلى هزيمة سلمية وغيرها ، وانتصار مرج راهط :

ولما غزا غازان عقر ديارنا	وأعطاه من يعطى ومن يمنع النصرا
تمرد طغيانا وتاه تجبرا	ولم يرتفق سعيا ولم يستفق سكرا
وجاء ملوك المغل كالرمل عدة	وقد ملأت سهل البسيطة والوعرا
فأنصفت الأيام فى الحكم بيننا	فكانت له الأولى وكانت لنا الآخرى

ويشيد بإقدام الناصر وعساكره وأمرائه ويحدد وقت المعركة وساعة النصر .

وأقبل سلطان الزمان مؤيدا	يقود الجياد الجرد والعسكر المجرا
وكان نهار السبت بالنصر شاهدا	بصدق وكان الوقت قد قارب العصرا
فلله در الترك كم سفكوا دما	وكم قطعوا رأسا وكم جزروا نحرا
فولت ولاذت بالجبال تحصنا	ولولا تخاف القتل لاختارت الأسرا
فحمدا لسلطان الزمان محمد	وشكرا لمولى قد أباد العدى قسرا

---

(١) راجع السلوك ج ١ ص ٨٨٥ وما بعدها ، ص ٩٣٠ وما بعدها ـ حوادث عام ٦٩٩ هـ ، ٧٠٢ هـ ـ وراجع أيضا بدائع الزهور فى حوادث العامين المذكورين . وروى فى السلوك أن الموقعة كانت فى «شقحب» وروى فى البدائع أنها كانت فى « مرج راهط » وأن الموضع تحت جبل غباغب قريبا من دمشق . وقيل إن مرج راهط هو شقحب وهو مرج الصفر أيضا ـ راجع العبر لابن خلدون ج ٥ ص ٤١٧ ، ٤١٨ . وزبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ص ٢٠٤ ، مصور بجامعة القاهرة .

.... الخ .(١)

ومنهم الشاعر نجم الدين بن العينى ، وليس له بين يدينا غير هذه الأبيات الثلاثه التى يصور بها جو المعركة لقد بدت له سهولها ضبابا وقد امتلأت بالفوارس والجنائب فكأنما نهارها ليل ، ورماحها كواكب ، وفرسانها أسود ، تغدو الأسود لها ثعالب :

وإذا نظرت إلى السهول رأيتها   تحت الضباب فوارسا وجنائبا
فكأنما كسى النهار بها دجى   داج وأطلعت الرماح كواكبا
خيل فوارسها الأسود يقودها   أسد تصير لها الأسود ثعالبا (٢)

ومنهم الشاعر محمد البزاز المنبجى الذى شهدناه يسجل انتصار جيش مصر فى معركة « عكا » وفتحها وفى غيرها . شارك هنا بقصيدة غراء حالية طلية ، أشار فى مطلعها كذلك إلى هزيمة « سلمية » وغيرها ، وأن الدهر جاء بهذا النصر اليوم معتذراً عن تلك الإساءة ..

وافى على قدر ما يختاره القدر   وجاء عما جناه الدهر يعتذر
وإن أساءت لياليه التى سلفت   ظلما فقد أحسنت أيامه الأخر
وبعد إدراكك الثارات منتصراً   فكل ذنب جناه قبل مغتفر

وأخذ يشيد بهذا الفتح العظيم الذى سعد به الإسلام ، ولم يشاهد الناس مثله منذ فتوح عمر — رضى الله عنه — وسارت بذكره الركبان ، ولم تحو مثله الأخبار والسير .

(١، ٢) راجع كتاب الدر الفاخر للدوادارى ص ٨٩، ٩٠، ٩١ ـ وقد نسب الأبيات الأولى إلى شرف الدين بن الوحيد بن عميد الوقت أو عبد الحميد . واعتقد أنه كنى بذلك عن (علاء الدين بن محيى الدين ابن عبد الظاهر) راجع عقد الجمان للبدر العينى (٦٩٨ـ٨٠٧ هـ) ورقة رقم ٣٠٢ ، مصور شمسى بدار الكتب المصرية ، وقد رويت الأبيات فيه باختلاف يسير ، هذا وقد ذكر البدر العينى أن علاء الدين هذا نظم مجلدا صغيرا فى الواقعة وتوصل إلى قراءته على الناصر دون علم سلار وبيبرس فمنحه مائة دينار. واسمه « الروض الزاهر فى غزوة الملك الناصر » ، وتروى الأبيات فيه ببعض الاختلاف .

فتح على جهة الإسلام أسعده ... بالجد والسعد والتأييد منتظر
ما شاهد الناس فتحا مثله أبدا ... إلا فتوحا تولى أمرها عمر
سارت بأخبارها الركبان واقعة ... لم تحو أمثالها الأخبار والسير

ووصف البغاة الطغاة ، وما بيتوا من مكر وما دبروا من كيد وما جمعوا من جند ، فداسوا بها بلاد المسلمين يغرهم جهلهم ويخدعهم التيه والبطر ، وظنوا أن الدهر سيستمر فى محالفتهم كما جرى فى « سلمية » وغيرها . وإذا به فى هذه الواقعة ، واقعة « شقحب » أو « مرج الصفر ، يغدر بهم . فإذا بهم قتلى تحت السنابك بيد عصابة الإسلام :

إن البغاة بنى خاقان أقدمهم ... على هلاكهم الطغيان والأشر
راموا وقد حشدوا غلبا فما غلبوا ... وحاولوا النصر تضليلا فما نصروا
أتوا وقد مكر الله العزيز بهم ... فرد طغيانهم بالغيظ إذ مكروا
وضيقوا الأرض من سهل ومن جبل ... كأنما هم جراد فيه منتشر
داسوا بلادك لا يثنى أعنتهم ... عن قصدها جهلهم والتيه والبطر
غرتهم فلتة فى الدهر عن غلط ... منها خلت بهم من بعدها العبر

ويقول للسلطان .

قابلتهم بجيوش مالهم قبل ... ببأسها فلقد فلوا وإن كثروا
أفنيتهم بليوث منك باسلة ... وهل تقاوم آساد الشرى الحمر

ويقول مفتخرا ومباهيا بهذا اليوم ، فى نزعة إسلامية قوية :

يا وقعة المرج مرج الصفر افتخرت ... بك الوقائع فى الآفاق والعصر
رفعت بالنصر أعلام الهدى ولقد ... جردت للشرك كسرا ليس ينجبر
يوم تدارك جمع المسلمين به ... من لم يزل فى يديه النفع والضرر

ويصف ما لحق الكفار من ذل وهوان وما أصابهم من تلف وبوار ، وما منوا به من تفرق :

دارت عليهم رحاء الموت فانهزموا   فمالهم بعدها عين ولا أثر
وضاقت الأرض مذولوا بمارحبت   عليهم فهم بالخوف قد حصروا
وألبسوا الذل حتى إن أشجعهم   يأتى إليك بألف منهم نفروا
وبعدها قد أمناكل حادثة   فما لنابية ناب ولا ظفر

ويختم زهوه بالناصر على بلائه ، شاكرا له داعياً بدوام الملك .

هزت معاطفها الدنيا به فرحا   وطاب بالأمن فى أيامه العمر ... الخ[1]

مطولة فريدة فى وصف المعركة

وللشاعر القاضى جمال الدين أبو بكر قاضى عجلون قصيدة فريدة مطولة تقع فى أكثر من مائة وخمسة عشر بيتا . شارك بها مشاركة بارزة فى تسجيل هذا الفتح ، والإشادة به وتمجيده وتمجيد مصر وجيشها العظيم ، وأعماله الجليلة وبطولاته الفريدة ، فى سبيل نصر الدين والوطن . وقد ملأت الحماسة الإسلامية والوطنية معا نفس هذا الشاعر البليغ . فصدر عنها بقوة وجزالة ، وبإحاطة وشمول ، وبسعة تفصيل لحوادث المعركة وتطوراتها وتحركات الجيوش فيها وما أصاب التتار فى ظلالها وفى أعقابها من خسف وتلف ، وما منوا به من هزيمة نكراء .

ويبدأ بهذا المطلع الذى يدل على روح إسلامية عالية وعلى أمل فى الله قوى ، وعلى ما كانت تنطوى عليه النفوس من رغبة جامحة فى الظفر بهؤلاء الأعداء الأشرار الطغاة الذين طالما كادوا للعرب وللمسلمين . يقول :

الله أكبر جاء النصر والظفر   والحمد لله هذا كنت أنتظر
وأبرز القدر المحتوم بارئه   سبحانه بيديه النفع والضرر

ويهزأ الشاعر بالمنجمين ونجومهم ، ويبدو أنه كان فى الأمر مايشبه تخرصات المنجمين قبل فتح عمورية .

(١) ص ٩١ من كتاب الدر الفاخر للدواداري . وص ٣٠٤ من عقد الجمان للبدر العينى المجلد (٦٩٨-٧ ، ٥٧) .

يقول :

أين النجوم وتأثير القران وما تخرصوا فيه من إفك ومازجروا
قد دبر الله أمرا غير أمرهم وخاب مازخرفوا فينا وماهجروا

ويمثل العسكر المصرى المنصور وقد أمده الله بجند من الملائكة :

وأقبل العسكر المنصور يقدمه من الملائك جند ليس ينحصر

ويشيد بهذا العسكر وأنه يتحرك لله وفى سبيل الله ، ولذلك تكون عاقبته النصر . ويشيد بثورته وثباته فى سبيل دينه ووطنه ليدرك ثأره ويبلغ طره . وأنه ترك لذة النفس ومتعة الدنيا من أجل ذلك :

كنانة الله مصر جندها ثبتت لا ريب فيه وجند الله تنتصر
ثاروا سراعا إلى إدراك ثأرهم وهجروا فى طلاب المجد وابتكروا
وأسهروا أعينا فى الله مارقدت أكرم بقوم إذا نام الورى سهروا

ويقول :

وخلفوا خلفهم لذات أنفسهم وهاجروا ولذيذ العيش قد هجروا

وبدأ وصف المعركة بالحديث عن الزحف والتجمع وإرسال الكشافة :

وأوجفوا نفرا بالخيل ملجمة وبالركاب ولا ملوا ولا فتروا
حتى أتوا جلقا فى يوم ملحمة فيه الأسود أسود الغاب تهتصر

ويبدأ فى تصوير مشاهد المعركة ، تصويرا حيا متحركا متتابعا مع مراعاة نظير طريفة :

لها السنابك فى الميدان قد حنيت صوالجا ولها روس العدى أكر
وكوثر الحرب قد راقت مشاربه تحت العجاجة والأبطال تعتكر
والنبل ينقط والأقلام كاتبة والضرب يعرب والأبدان تستطر
حتى إذا عب مثل البحر جحفلنا ومدفيضا على أعدائنا جزروا ...الخ .

ويصف الشاعر ما أصاب الأعداء من أثر النيران المرسلة والسيوف المسلولة الثائرة حتى لاذوا بشم الجبال هربا، فلم ينفعهم لياذهم ومزقوا وشردوا وصاروا طعاما للوحوش . ثم يتهكم بهم تهكم الشامت القرير العين .

أصلوهم جاحما يشوى الوجوه وقد حمى الوطيس ونار الحرب تستعر
وأحرقتهم سراعا كل صاعقة من السيوف بنيران لها شرر
لاذوا بشم شماريخ الجبال فما حمتهم قلل منها ولا صور
ومزقوا شردا بين الزحام فكم شلو تنازع فيه الذئب والنمر
أين المفر وقد حام الحمام بهم هيهات لاملجأ يرجى ولا وزر
نادى بهم صارخ أغرى الفناء بهم فإن سألت فلا خبر ولا خبر
كم قد سهرتم دجى من خوفهم حذرا فالآن ناموا فلا خوف ولا حذر ... الخ .

ويصور مصيرهم إلى بطون الوحش والطير :

لم يقبروا فى نواويس ولا جدث وإنما فى بطون الوحش قد قبروا
والطير ترعى نهارا لحمهم فإذا ما الليل جن ففى أقحافهم تكر ..الخ .

واندفع الشاعر اندفاعا حماسيا جارفا يدعو شجعان قومه إلى تعقب أعدائهم بعامة من تتار وصليبيين . وأخذ يذكرهم بجرائم الصليبيين حيالهم وأنهم صنعوا بهم مالا يصنع التتار فيقول :

هبوا إلى سيس من أحلام رقدتكم وسارعوا فى طلاب الثأر وابتدروا
بكل غيران أخذ الروح همته فى غير نفس المنايا ماله وطر
أيرقد الليل فى أمن وفى دعة عن كيد قوم لهم فى شأنكم سهر... الخ .

ويقول مثيرا للعزائم حافزا للهمم ، ضاربا على الوتر الحساس بذكر النساء ، والعجائز والأطفال والضعاف ، والذين شقوا بغارات الأعداء فى بلاد الشام :

أشفوا صدوركم إن كنتم غيرا على نسائكم ياقوم وادركوا

كم من عجوز ومن شيخ ومكتهل ومن فتاة نماها الحسن والخفر
بيضاء خرعوبة بكر محجبة لاالشمس تنظرها صونا ولاالقمر...الخ

ويفيض الشاعر فى هذه الإثارة الحماسية الصادقة النزعة ، ويستغرق فيها نحو الثلاثين بيتا ملتهبة نارية . تفصح عن حقد كامن ومقت شديد للأعداء لما اقترفوه من الآثام وما اجترحوه من الجرائم وما ارتكبوه من الموبقات وما اشاعوه من الفساد . ويقول محرضا للمسلمين أن يصنعوا بهم مثل ما صنعوا :

بزوهم الملك قهرا عن جواركم وخربوا كل ماشادوا وما عمروا
وسارعوا واقتلوهم إنهم قتلوا وبادروا واسروهم إنهم أسروا ..الخ

ويخصص الخطاب لأهل جلق ويدعوهم إلى الاستقامة والاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى توسلا إلى معونته ونصرته ، وسبيلا إلى دفع أعدائهم عنهم :

يا أهل جلق أمنا فى مساكنكم وعاملوا الله رب العرش وانزجروا
صوموا وصلوا وزكوا وارحموا وصلوا وابغوا النجاة وحجوا البيت واعتمروا..الخ

ويقول وكأنه يؤمنهم العاقبة :

ولا تخافوا من التاتار مجلبة من بعدما ارتفع التدليس والعور
لم يطلبوا جلقا بغيا بظلمهم إلا وردوا على الأعقاب وانكسروا.. الخ

وبعد استيفائه هذه الأغراض يتجه إلى ذكر خليفة زمانه وسلطانه فيمتدحهما :

هما ملاذكم فى كل نائبة الروح تفديهما والسمع والبصر

ويخص الخليفة بنحو اثنى عشر بيتا من أبيات المديح ـ على غير عادة الشعراء إذ ذاك ، فقد كان من دأبهم إغفال ذكر الخليفة بجانب السلطان . أما هذا الشاعر فيقول ويبالغ – وقد كان الخليفة هو أبو الربيع سليمان المستكفى بالله العباسى – :

خليفة الله فى الدنيا وطاعته   فرض عليكم وهذا القول مختصر
ما زال مستكفيا بالله معتصما   مستنصرا مستعينا وهو منتصر
لولاه فى الأرض قد مادت جوانبها   وما سقاها إذا غيث ولا مطر
خليفة من بنى العباس باقية   به إلى الله نستسقى فنمتطر ... الخ

ثم يخص السلطان بأبيات أخرى من المديح تبلغ نحو ثمانية عشر بيتا يختتم بها هذه القصيدة الجامعة . ومنها قوله ، يصف هيبته وذل الملوك له :

ترى الملوك صفوفا حوله زمرا   من فرط هيبته لا يرجع البصر
تذل أعناقهم صغرى لطاعته   وليس يعصونه أمرا إذا أمروا

وينزع الشاعر نزعة الوحدة الإسلامية والعربية الكبرى ، ويفيض لسانه بما يجيش به جنانه من الآمال العريضة الواسعة التى يحلم بها شعب العروبة منذ ذلك الزمان البعيد . ولم تكن هذه الآمال حينذاك بصعبة النوال ، ولا عسيرة الوصول ، أن تجتمع البلاد العربية بل والإسلامية فى دولة موحدة تنهض برسالتها الإنسانية وتحمى دين الله وحضارة الإسلام فى هذه الأرض . لقد كانت السلطنة المصرية قد بلغت — كما أشرنا — جهة برقة من الغرب ، وأرض النوبة من الجنوب ، وضفاف الفرات وأرمينية من الشرق ، وضمت الشام وحلب والحجاز ، وخضع لها اليمن خضوعا ما . فلم يبق إلا أن ينضم العراق ببغداده ، وأن يعمل الجميع على تقوية الآصرة ، وتمكين الوحدة والنهوض إلى الهدف .

تلمح هذه المعانى بين ثنايا أبيات هذا الشاعر الذى كان يعيش عام ٧٠٢ هـ لما وقعت معركة « شقحب » وتمت الهزيمة على التتار . وهو فى أبياته تلك يمدح الناصر محمد بن قلاوون سلطان هذه الدولة — بمناسبة انتصاره فى المعركة المذكورة — ويعقد عليه كل هذه الآمال . يقول مخاطبا المسلمين أن يصونوا جيادهم التى يأمل أن يوردها السلطان الناصر نهر دجلة ، وهو يرمز بذلك إلى أمله

فى فتح بغداد على يده وضمها إلى سلطنته توحيدا للعرب وجمعا لكلمتهم :

صونوا جيادكم اللاتى بكم هميت ... فى بارق الحرب والرمضاء تستعر
إنا لنرجوه من بغداد ينهلها ... بماء دجلة يرويها فتصطذر
ويجمع الشمل فى دار السلام بمن ... يودها ويؤدون الذى نذروا
يؤمها وإمام المسلمين معا ... ثقوا بقولى فهذا منه منتظر
فالشام وافاه مع بغداد فى قرن ... ومصر فى ملكه والبر والبحر
والعرب والعجم فى ميمون قبضته ... ومن سطا بأسه قد حارت التتر... الخ (١)

هكذا كان الشعراء يسجلون حوادث السياسة ووقائع الحروب ، ويصورون أمانى النفوس وآمال القلوب ، التى هى آمالنا اليوم وأمانينا . ومن هنا نفهم أن أهدافنا اليوم ليست مدعاة ولا مزعومة . وإنما هى آمال الآباء والأجداد امتزجت بدمائهم ونفوسهم ، ومنهم انحدرت إلينا وورثناها دعامة للحياة الصحيحة والعيش الكريم وعنوانا للحق .

ويقول بدر الدين العينى : « وأحسن ماقيل فى هذه الوقعة قصيدة شمس الدين الطيبى » .

والقصيدة — فى الحق — فريدة فى بابها لجملة أسباب ، منها أنها لم تبدأ بالمدح ولا بما يشعر به أو يمهد له ، وإنما بدأت مباشرة بالحديث عن القتال وذكر أدواته . وأنها لم تتحدث عن قتال الوقعة نفسها أو أدواته ذاتها ، وإنما عممت القتال والأدوات . وأنها أوردت ذلك الحديث مشبها الغزل وما فيه من الوجد والعشق والهيام ؛ فقد تغزل الشاعر فى القتال وأدواته غزل المستهام المغرم

---

(١) الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، لأبى بكر الدوادارى ، وهو الجزء التاسع من كتابه الكبير كنز الدرر وجامع الغرر ص ٩٣ وعقد الجمان للبدر العينى ، المجلد « ٦٩٨ـ٧٠٧ » ص ٣٠٣ .

والعاشق المتيم . وقد مزج فعلا مزج الموازن والمقارن ، بين ملابسات القتال وملابسات الغزل والتشبيب واختار الأولى على الثانية . يقول وكأن فى قوله شيئا من الحكم الحماسية :

برق الصوارم للأبصار يختطف	والنقع يحكى سحابا بالدما تكف
أحلى وأغلى وأعلى قيمة وسنا	من ريق ثغر الغوانى حين ترتشف
ومن قدود القنا مشى شغفت به	لا بالقدود التى قد زانها الهيف
ومن غدا بالخدود الحمر ذا كلف	فإننى بخدود البيض لى كلف
ولامة الحرب فى عينى أحسن من	لام العذار الذى فى الخد منعطف
كلاهما زرد هـذا يفيد وذا	يردى فشأنهما فى الفعل مختلف
والخيل فى طلب الأوتار صاهلة	ألذ لحناً من الأوتار تختلف
ما مجلس الشرب والأقداح دائرة	كموقف الحرب والأبطال تزدلف
والعز من تحت ظل الرمح مقترن	بالعز والذل يأباه الفتى الصلف

ثم يأخذ الشاعر فى الحديث عن فتيان الإسلام الذين يحمونه ويقون ملته وناصريه ويجاهدون فى سبيله ، فيعلى مكانتهم ويرفع منزلتهم فى حماسة بادية وحمية بارزة فيقول :

لا عيش إلا لفتيان إذا انتدبوا	ثاروا وإن بذلوا فى غمة كشفوا
تقى بهم ملة الإسلام ناصرها	كما بقى الدرة المكنونة الصدف
وجاهدوا فى سبيل الله فانتصروا	من بعد ظلم وعما سادهم أنفوا
لما أتتهم جيوش الكفر يقدمهم	رأس الضلال الذى فى عقله خرف
جاءوا وكل مقام ظل مضطربا	منهم وكل مقام بات يرتجف

ثم يبدأ الشاعر فى وصف المعركة الأصيلة فى مرج الصفر ، فيخاطب هذا المرج ويسائله عن حوادثه ويذاكره عن أبنائه فيقول :

يامرج صفر بيضت الوجوه كما فعلت من قبل فالإسلام يؤتنف
أزهر روضك أزهى عند نفحته أم يانعات رءوس قبل تقتطف
غدران أرضك قد أضحت لواردها ممزوجة بدماء المغل تغترف
زلت على كتف المصرى أرجلهم فليس يدرون أنى تؤكل الكتف

واستمر فى وصف المعركة حتى قال مبينا عاقبة هؤلاء الأعداء بين الفرار والأسر والقتل :

فروا من السيف ملعونين حيث سروا وقتلوا فى البرارى حيثما ثقفوا

ويقول :

وملت الأرض قتلاهم بما قذفت منهم وقد ضاق منها المهمه القذف
والطير والوحش قد عافت لحومهم فنى مراح الضوارى منهم قذف
ردوا فكل طريق نحو أرضهم يدل جاهلها الأشلاء والجيف . . الخ

ويأبى الشاعر إلا أن يظهر هو أيضا ما فى نفسه من التطلع إلى استرداد بغداد من يد التتار وضمها إلى بلاد السلطنة العربية المصرية، فيقول مرسلا البشرى بهلاكهم إلى ملك العراق ....!

يا برق بلغ إلى غازان قصتهم وصف بقصتهم من فوق ما تصف
بشر بهلكهم ملك العراق لكى يعطيك حلوانها حلوان والنجف

ويختتم الشاعر بحمد الله سبحانه وتعالى ، ومدح السلطان الناصر :

فالحمد لله معطى النصر ناصره وكاشف الضر حيث الحال منكشف(١)

---

(١) عقد الجمان للبدر العينى ، المجلد (٦٩٨-٧٠٧ هـ) ص ٣٠٦ — مصور بدار الكتب . — والحلوان : بضم أوله ، أجرة الدلال والكاهن ومهر المرأة ، أو ما تعطاه على متعتها ، أو ما أعطى من نحو رشوة . وقال : لأحلونك حلوانك أى لأجزينك جزاءك . وحلوان بلد ، وقرية .

عين الشعر بين الناصر محمد والمظفر بيبرس :

وقد أشرنا من قبل إلى أن الناصر محمد بن قلاوون وعهده لم يسلما من الفتن الضاربة .

فلنحدثك ببعض الطرائف عنها ، ولندلك على أن عين الشعر كانت تلحظها وتعيها وتتحدث أحيانا بلغتها عنها

ذلك أنه قيل إن الملك الناصر المذكور لما سار إلى الكرك عام ٧٠٨ﻫ وخلع نفسه من السلطنة على أثر خلاف بينه وبين أتابكيه «بيبرس الجاشكنير» اختار الأمراء بيبرس هذا سلطانا وقام بنصرته رجال عدة عاونوه على ملكه ولقبوه بالمظفر .

منهم الخليفة العباسى أبو الربيع سليمان . وهو الذى عهد إليه بالسلطنة بعد نزول الناصر عنها ، وكتب له بذلك عهداً – ومنهم المنشىء علاء الدين بن عبد الظاهر وهو الذى أنشأ العهد المذكور .

ومنهم القاضى بدر الدين بن جماعة ، وهو الذى أفتى للمسلمين بقتال الناصر .

ومنهم الشيخ شمس الدين بن عدلان ، أفتى بأن الناصر خارجى وقتاله جائز .

ومنهم الشاعر الشيخ صدر الدين بن المرحل ، وكان قد نظم فى الموضوع قصيدة هجا فيها الناصر وغمزه .

ولما عاد الناصر إلى ملكه ، شرع يعاتب أنصار بيبرس ، ويوبخهم على مواقفهم ويذكرهم بسيئاتهم نحوه ... فقال للخليفة : –

هل أنا خارجى ، وبيبرس من سلالة بنى العباس ؟

وقال للقاضى علاء الدين بن عبد الظاهر : يا أسود الوجه . . .

وقال للقاضى بدر الدين بن جماعة : كيف تفتى المسلمين بقتالى ؟ فقال معاذ الله أن تكون الفتوى كذلك ، وإنما الفتوى على مقتضى كلام المستفتى . « فعزله عن القضاء » .

وقال لصدر الدين بن المرحل : كيف تقول فى قصيدتك :

ما للصبي وما للملك يكفله شأن الصبي بغير الملك مألوف

فحلف ابن المرحل أنه ماقال هذا ، وإنما أعداؤه زادوا هذا البيت فى القصيدة . والعفو من شيم الملوك . فعفا الناصر عنه .

وجاء الشيخ شمس الدين بن عدلان يستأذن للدخول على الناصر . فلم يأذن له وقال لدواداره : قل له : أنت أفتيت أنه خارجي وقتله جائز ـ مالك عنده دخول.

ولكن الدوادار عرف السلطان أنه يكفى ابن عدلان وابن المرحل ، ما قاله الشارمساحى فى حقهما . . . وكان الأديب شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشارمساحى الماجن ، قال فى تهنئته للناصر بعودته :

ولى المظفر لما فاته الظفر وناصر الحق وافى وهو منتصر
وقد طوى الله من بين الورى فتنا كادت على عصبة الإسلام تنتشر
فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه أثواب عارية فى طولها قصر
لما تولى تولى الخير عن أمم لم يحمدوا أمره فيها ولا شكروا
وكيف تمشى به الأحوال فى زمن لا النيل أوفى ولا وافاهم مطر
ومن يقوم ابن عدلان بنصرته وابن المرحل قل لى كيف ينتصر

وكان النيل لم يوف سنة تولى المظفر ، وارتفع السعر(١) .

ومن الطريف أن الزجل شارك فى بعض هـذه الحوادث . فإنه لما شح النيل عام ٧٠٩هـ وكان الناصر بن قلاوون قد خلع نفسه من السلطنة ، وولى مكانه المظفر ركن الدين بيبرس . وكان بالناصر شيء من العرج ، وكان بسلار نائب السلطنة بعض شعرات فى فمه مع أنه أجرد ، فأطلق العامة على الناصر « الأعرج » وعلى بيبرس « ركين » وعلى سلار « دقين » ، وغنوا بهذه المناسبة قائلين متفكهين :

سلطاننا ركين ونائبو دقين يجبنا الماء من أين
هاتوا لنا الأعرج يجى الماء يدحرج(٢)

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر سلاطين مصر ـ والدر الفاخر للدواداري ص ١٩١ .

(٢) بدائع الزهور ج ١ حوادث عام ٧٠٩ .

وكان المظفر بيبرس الجاشنكير ، بعد أن سلب الملك من الناصر بن قلاوون قد أخذ يضايق الناصر . وكان هذا قد سار إلى الكرك - كما روينا - وارتضاها مقاما له .. فلما رأى ذلك سار إلى دمشق عام ٧٠٨ هـ والتف به كثير من الأمراء فانتظم أمره بها . ثم زحف إلى مصر . ففر بيبرس من وجهه إلى أسوان ، وجلس الناصر على كرسى سلطنته يوم عيد الفطر ، ثم وجه إلى بيبرس من أحضره فسجنه ثم خنقه ... وكان ذلك عام ٧٠٩ هـ .

فقال الشاعر علاء الدين الوداعى يعبر عن الفرحة بعودة الناصر :

الملك الناصر قد أقبلت   دولته مشرقة الشمس
عاد إلى كرسيه مثلما   عاد سليمان إلى الكرسى (١)

وقال الأديب صلاح الدين الصفدى فى المعنى نفسه :

تثنى عطف مصر حين وافى   قدوم الناصر الملك الخبير
فذل الجشنكير بلا لقاء   وأمسى وهو ذو جاش نكير
إذا لم تعضد الأقدار شخصا   فأول ما يراع من النصير (٢)

وبرز إلى الميدان شعراء آخرون غير من نوهنا بهم ، نظموا فى هذه العودة ، ومنهم ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر ، وشمس الدين بن سوادة ، ومحمد بن موسى ، ومحمد المنبجى البزاز ، وناصر الدين بن النقيب ، قدموا التهنئة للناصر .

وامتزجت كلماتهم امتزاجا كبيرا بمدحه وذكر جهاده للأعداء وانتصاره عليهم . ويقول ناصر الدين بن النقيب :

عاد للملك صاحب الملك عادا   ثم أبدى النعما لنا وأعادا
مرحبا مرحبا بأوفى ملوك الأرض قدرا فى ملكه وسدادا

ومن شعره ينوه بهيبته فى قلوب أعدائه :

أسكن الخوف فى قلوب أعاديه م فولت تطوى الربا والوهادا

(١، ٢) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر سلاطين مصر .

قرن الرعب فى محمد بالنصر م ولم يشرع القنا الميادا
وأذات له المهابة أعداه فأعطوه صاغرين القيادا ....الخ(١)

الألغاز فى ميدان السياسة :

وكان الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ، الذى كان مملوكا للمنصور قلاوون ، وترقى فى سلك الإمارة حتى بلغ نيابة السلطنة فى عصر السلطان لاجين، قد حظى كذلك لدى الناصر بن قلاوون ، ثم فسد ما بينهما ، ففر مع جماعة إلى « خربندا » ملك التتار ، فأعجب به وزوجه تترية حسناء .

وكان من أمره أنه لما فر من وجه الناصر بن قلاوون ، اتصل بالأمير جمال الدين الأفرم نائب الشام ، وكان هو الآخر على غراره قد فسد ما بينه وبين الناصر . فتذاكرا الأمر ورأى الأفرم أن يتصل بالشيخ صدر الدين بن الوكيل الأديب الشاعر المعروف بابن المرحل، ويطلب إليه أن يتعرف الأحوال بمصر، ويتحسس الأنباء ، ويفهم اتجاه الناصر بشأنهما ، ثم يكتب إليه فى ذلك شعراء ويلغز فيه ، حتى لا ينكشف أمره .

ونهض ابن المرحل بالأمر ، وعرف أن خاطر الناصر لايزال متغيرا ، وأنهما لن تطيب لهما الإقامة بمصر . وكتب إلى الأفرم أبياتا ساقها مساق الشوق والحنين ، وملأها بالأسف والألم على مامضى من الأيام التى لن تعود ، وأظهر التوجع للحالة الراهنة التى لم يعد فيها نضارة ولا نعيم ، ولم ترق فيها الآصال، ولا حركت ريح الصبا بطرب غصنا ، وأنه يلاقى مايلاقى من الضنى ، إلى غير ذلك . . . .

ففهم الأفرم ما يعنيه ابن المرحل ، فأرسل إليه جائزة ، ولحق بقراسنقر

---

(١) راجع أخبار هذه العودة وما قيل فيها من شعر فى ص ١٩٠ إلى ١٩٥ من كتاب الدر الفاخر للدوادارى .

ورحلا إلى ماردين والتحقا بالتتار . . . .

يقول ابن المرحل فى أبياته :

أيا جيرة بالقصر كان لهم مغنى رحلتم فعاد القصر لفظا بلا معنى
وأظلم لما غاب نور جماله وقد كان من شمس الضحا نوره أسنى
يعز علينا أن نرى الدار بعدكم وما نحن فيها سادتى مثلما كنا

ومنها يصف وحدته وتغير زمانه :

ولا غنت الورقا فأشجت بصوتها ولا هزج يجزى ولا مطرب غنى
ولا راقت الآصال إلا صبابة ولا حركت ريح الصبا طربا غصنا

إلى أن يقول — والإلغاز فى هذا البيت :

وإنى ألاقى ما ألاقى من الذى لسمعى قد أصمى وجسمى قد أضنى

ويختتم بهذين البيتين ، وهما من الوادى نفسه :

وكنتم لنا من إن دعونا يؤمنوا وإن هم دعوا أن يجمع الشمل أمنا
وإن عادت الأيام تجمع شملنا سجدنا لرب العرش شكرا وشكرنا (١)

صفى الدين الحلى والناصر بن قلاوون والعلاء بن الأثير :

ولصفى الدين الحلى حديث جميل مع الناصر بن قلاوون ، ومع وزيره وكاتب سره علاء الدين بن الأثير .

لقد ذهب صفى الدين إلى الحج عام ٧٢٣ﻫ . فعرج فى أوبته ، على مصر . فلقى بها حفاوة بالغة وترحيبا عظيما . وكان صفى الدين لا يزال به خوف من العودة إلى بلاده . وعندما دخل القاهرة مدح علاء الدين ، فرحب به وقدمه إلى السلطان الناصر فرحب به أيضا .

---

(١) القصة والأبيات فى ص ٢٤١ من كتاب الدر الفاخر للدوادارى . — راجع أيضا كتابنا عصر سلاطين المماليك مجلد ٦ ص ١٢٤ ، ٢٣٢ .

وقد عجبت كيف أن علاء الدين يحتفى كل هذه الحفاوة بصفى الدين ويقدمه إلى الناصر ، ولا يحتفى حفاوة مثلها بابن نباتة ولا يقدمه إلى الناصر. مع أنه أقرب إليه صوتا وأدنى دارا . . أعتقد أنه الخوف من أن يصل إلى الحظوة لدى الناصر وأن يستأثر بالرضا فيظفر بمناصب ديوان الإنشاء ـ أو أن غضب الناصر على أبيه امتد إليه بجفاه .

ومهما يكن من شيء فقد أشار ابن الأثير على صفى الدين بأن يجمع ديوان شعره .

على أن أثر علاء الدين بن الأثير فيه لم يقتصر على جمع ديوانه ، بل تعداه إلى نواح من النشاط أخرى ، فكثيرا ما كان اقترح عليه النظم فنظم ، وهزه للقريض فجاد وأجاد .

ومن ذلك أنه ذكر له مرة بيتين للشاب الظريف . فيهما جناس تام بين الضرب والعروض لايتهيأ مثله لغيره وهما :

أحسن كل الناس وجهـــا وفما إن لم يكن أحق بالحسن فمن
حـكى الغزال مقلة ولفتـــة من ذا رآه مقبلا ولا افتتن (١)

فنظم صفى الدين على هذا الطراز أرجوزة فى واحد وثلاثين بيتا ، جانس فيها بين ضرب كل بيت وعروضه جناسا تاما ، ومدح بها الناصر بن قلاوون . قال :

كم قد أفضنا من دموع ودما على رسـوم للديار ودمن
وكم قضينا للبـكاء منسكا لما ذكرنا بهن من سكن . . . الخ .

ومنها فى مدح الملك الناصر بن قلاوون :

ملك غـدا لسائر الناس أبا إن سـار فى كسب الثناء أو أبن
الناصر الملك الذى فاض جدى خلته ذا يزن أو ذا جدن . . . الخ (٢)

ولصفى الدين ـ فى ديوانه ـ ثلاث قصائد مدح بها الناصر بن قلاوون ، منها

(١ ، ٢) ديوان الحلى ط النجف ص ٦٥ .

النونية المجنسة السابقة . ومنها بائية عارض بها بائية للمتنبي . ونونية نظمها بمناسبة عيد كسر الخليج ، ووصف فى مطلعها ربيع مصر .

والقصيدة البائية : تقع فى أكثر من ستين بيتا . ويبدو أنها أولى مدائحه للناصر . فقد قيل فى ديوانه إنه نظمها عند قدومه إلى مصر من الحجاز (١) وقد اقترح عليه أرباب الدولة معارضة قصيدة المتنبي التى مطلعها :

بأبى الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلاببا

وقد بدأها صفى الدين بالغزل فقال :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فجعلن حبات القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعة غادرن فود الليل منها شائبا .. الخ (٢)

وانتقل بعد أبيات إلى مدح الناصر الذى استغرق أكثر من خمسة وأربعين بيتا من القصيدة . أجاد فيها صفى الدين إجادة واضحة . وهو الشاعر القدير الذى أسلم له أسلوب الشعر زمامه يصرفه أنى شاء وكيف شاء .

والملاحظ أن أمداح صفى الدين هذه تدور حول المعانى العامة التى تنسب عادة للملوك الصيد ، وتتصل بما لهم من خلق حسن ورأى صائب وحيلة بارعة وكرم رحب وشجاعة غامرة وسطوة على الأعداء وعدالة فى الرعية ، ومهابة بادية وتقوى مشهورة ودعاية للدين مطردة ، إلى غير ذلك ... ولا تخلو الصور الشعرية المعبرة عن جزئيات هذه المعانى العامة من مبالغات وتهاويل . وهذا هو النسق الذى اتبعه صفى الدين فى قصيدته .

ولم يتناول صفى الدين أحداث الحياة الواقعة فى مصر ، ولا وقائع حروبها ولا مغامرات سلطانها العملية ، موضوعا لشعره وتسجيلاته وتصويراته . لم ينسج على منوال ابن عبد الظاهر ، ولا الشهاب الحلبي مثلا ، وإنما مشى فى الطريق الذى مشى فيه ابن نباتة من ذلك ، وجنح جنوحا كاملا إلى المديح .

(١و٢) ديوان الحلي ص ٥٩ .

أقول ذلك ، وأعجب لصفى الدين ، كيف يرضى بهذا المديح العادى ، وهو الفارس المحارب والحماسى الملتهب ، والذى لبث زمانه يحرض ملوك ماردين وغيرهم على مناجزة أعدائهم من الثائرين عليهم أو من التتار المناوئين لهم والطامعين فى أرضهم . ولعل سبب ذلك خلو الوقت - حينذاك - من كبريات حوادث السياسة .

والقصيدة النونية : تقع فى نحو سبعة وستين بيتا ، وقد استغرق فيها وصفه ربيع مصر نحو عشرين بيتا . ومستوى نسجها كمستوى سابقتها . ومدار معانيها مدار سابقتها أيضا . ومطلعها :

خلع الربيع على غصون البان   حللا فواضلها على الكثبان

ومن مدحه الملك الناصر قوله :

الناصر الملك الذى فى عصره   شكر الظباء صنيعة السرحان
ملك إذا اكتحل الملوك بنوره   خروا لهيبته على الأذقان ... الخ (١)

النـاصر بن قلاوون فى شعر ابن نباتة :

وقد لاحظنا أن ابن نباتة على طول ما مدح أمراء الشام ومصر ووزاءهما كالمؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ، وكأبناء فضل الله العمرى وبخاصة شهاب الدين وعلاء الدين ، وككاتب السر علاء الدين بن الأثير وغيرهم ممن ذكرنا وممن لم نذكر - وقصارى هؤلاء جميعا أنهم أتباع للسلطان فى مصر ، وبخاصة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، نقول إنه على طول ما مدح هؤلاء ، لم ينوه فى قصيدة من قصائد مدحه باسم الناصر ولا عرض له بمدح ، إلا نادرا جدا . مع أن فرص الحديث عن الناصر تسنح له فى كل قصيدة ، إذا أراد لها أن تسنح .

يبدو لنا أن ابن نباتة تعمد أن يغفل اسم الناصر ، وأنف أن يذكره فى شعره أو ينوه به ، مادام هو لم يهتم به أو يتنبه إليه أو أغفل أمره . مع أن شعره

---

(١) ديوان الحلى ص ٦٢ .

كان فى عهد الناصر قد شرق وغرب ، وملأ الآذان وسارت به الركبان .

وإذا كان والد ابن نباتة قد أساء إلى السلطان الناصر ، بصورة من الصور ، وكان من أتباع خصمه بيبرس الجاشنكير ، فما ذنب عبقرية فذة ، ونفسية فسيحة المدى رحيبة ، كابن نباتة ، تشرد فى خارج مصر ، وتحرم منها مصر هذا الحرمان الطويل الذى استمر نحو خمسين عاما . . . إنها جناية الصلف أو الغفلة . .

وربما يطالعك فيما سنعرضه عليك من شعر ابن نباتة فى الناصر حسن بن الناصر محمد، حين دعته المقادير أخيراً إلى مدحه ، ذكر لأبيه الناصر . وسترى أن أنفة ابن نباتة لم تفارقه حتى فى هذه المناسبة . فإن ذكر الناصر محمد بن قلاوون ، ذكره على عجلة ويسر ووجازة .

خلفاء الناصر بن قلاوون والشعر :

ومات الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٤١ هـ . فتوالى على السلطنة نحو اثنى عشر سلطانا من آل قلاوون مابين أحداث وصغار ، ومابين شبان ماجنين لاهين فى أغلب أمرهم . فوقعت البلاد فريسة للفتن والمؤامرات الأهلية طيلة أربعين عاما تقريبا . حتى انتقلت السلطنة إلى يد الجراكسة ، وأول سلاطينهم الظاهر برقوق .

ومما يذكر أنه لما مات الناصر المذكور ، ولى السلطنة بعده ابنه المنصور سيف الدين أبو بكر . ثم خلع وقتل فى قوص . وأقيم مكانه أخوه علاء الدين كجك ولقب بالملك الأشرف . وكانت سنه دون ست سنين . فقال بعض الشعراء فى ذلك يصور طفولة السلطان ، والخلف بين أمرائه ، وإغفال المصالح العامة مابين ذلك :

سلطاننا اليوم طفل والأكابر فى ... خلف وبينهم الشيطان قد نزغا

فكيف يطمع من يغشاه مظلمة   أن يبلغ السؤل والسلطان مابلغا[١]

ولما ولى السلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد عام ٧٤٦هـ ، قال الشاعر جمال الدين بن نباتة يهنئه :

طلعة سلطاننا تبدت   بكامل السعد فى الطلوع
فاعجب لها منه كيف أبدت   هلال شعبان فى ربيع [٢]

ويبدو أن ابن نباتة اتصل اتصالا ما بالسلطان الكامل شعبان . ولعل ذلك لأنه أعاده إلى التوقيع بديوان الإنشاء بالشام[٣] ولذلك هنأه ثم مدحه فى قصيدة أخرى تغزل فى صدرها قائلا :

قسما بغض قوامه المتمايل   إنى لتعجبنى عليه بلابلى
ويطيب أفواه العواذل ذكره   حتى أهم بلثم ثغر العاذل
رشأ سرفت مدامعى فى حبه   ياللقتيل بكى لحب القاتل . . الخ

حتى يقول مادحا كعادته مع الملوك وغيرهم :

ملك رأيت الشهب ثم رأيته   فوجدته أعيا على المتطاول
وقصدت عذب البحر ثم قصدته   فوجدته أدنى إلى المتناول
نقلت شمائله صفات جدوده   نقل الرياض عن الغمام الهاطل . . الخ

ونعتقد أنه صرح فى هذه القصيدة بسبب أمداحه لهذا السلطان ــ الكامل ــ وإن كان تصريحا عاما لاتخصيص فيه . فقد قال إنه فاز فى الشام بما يفوق ظن الآمل ، وإنه قبض من مآربه بالكامل ، وأنه بذلك أمن ريب الزمان . يقول ويورى بلفظ « الكامل » فى البيت الثانى :

(١و٢) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر سلاطين مصر .
(٣) راجع ابن نباتة المصرى أمير شعراء الشرق .

من مبلـغ الأهلـين عنى أننى　　فى الشام فزت بفوق ظن الآمل
وأخذت من ريب الزمان أمانه　　وقبضت حق مآربى بالـكامل .. الخ[1]

ولبث الكامل فى الملك سنة وأياما ثم خلع وقتل . وكان من شرار الملوك ظلما وعسفا وفسقاً . فقال صلاح الدين الصفدى يتهكم ويسخر ببيت قلاوون ، موريا :

بيت قلاوون سعاداته　　فى عاجل كانت وفى آجـل
حل على أمـلاكه للردى　　دين قد استوفاه بالـكامل[2]

وأقيم بعده أخوه زين الدين المظفر حاجى بن الناصر محمد عام ٧٤٧ هـ . وكان أحمق مندفعاً ،قبض على عدد من أمرائه وخنق آخرين وتلهى بتربية الطيور والحمام واللعب بها ، وغفل عن شئون الدولة فكانت عاقبته مؤامرة أطاحت به وقطعت عنقه ، بعد سلطنة دامت سنة وثلاثة أشهر فقال الصلاح الصفدى :

أيها العـاقل اللبيب تفـكر　　فى المليـك المظفر الضرغام
كم تمادى فى البغى والغى حتى　　كان بعث الحمام حد الحمام[3]

وقال أيضا :

حان الردى للمظفر　　وفى الـتراب تعفر
كم قـد أباد أمـيرا　　عـلى المعالى توفر
وقاتـل النفس ظلما　　ذنوبـه ماتكفر[4]

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .
(٢و٣و٤) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر سلاطين مصر .

الزجل فى الميـدان :

وعاصر ملوك هذه الحقبة — أعنى منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون إلى قيام دولة الجراكسة — عدد من الشعراء والزجالين ، وهم رجال الحلبة الثالثة التى يعتبر برهان الدين القيراطى رأسا لها . ومن جملتهم شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى . وبهاء الدين أبو حامد السبكى ، وبدر الدين بن الصاحب ، والعز الموصلى والفخر ابن مكانس ، وشهاب الدين العطار وغيرهم . ومن الزجالين قيم الزجل الكبير خلف الغبارى .

ويبدو أن الزجل فى هذه الحقبة وجد مراحا خصبا وسوقا رائجة لدى ملوكها من فلول آل قلاوون وأوائل الدولة الجركسية لعجمتهم الضاربة ولقرب العامية من أفهامهم وضعف فهمهم — فى الجملة — للعربية الفصحى وشعرها ، هذا إلى انشغالهم بالفتن الداخلية .

وسنرى أن هذه الظاهرة اطرد وجودها على وجه التقريب، إلى نهاية العصر ، أعنى طول حكم دولة الجراكسة . وذلك لأمور منها — عدا ماسبق — بروز بعض الزجالين الممتازين فى ميدان الأدب كالغبارى والزيتونى . ومنها ندرة اتجاه السلاطين إلى اصطناع أحد الشعراء فى دواوينهم ، ولو باعتباره كاتبا فى الديوان لكى يستطيع أن يصحبهم فى تحركاتهم ويطلع بحكم عمله على مجارى السياسة والفتن والحروب والمعارك ، فيعمل على تسجيلها . ولذلك لم نجد بين شعر من ذكرناهم من الشعراء وأضرابهم من زملائهم المعاصرين لهم شيئاً من انطباعات البيئة السياسية ، وصفا لحرب ، أو تسجيلا لمعركة ، أو مدحا لقائد ، أو إطراء لسلطان ، أو نعتا لخيل أو سلاح أو قلم ، أو نحو ذلك من مقتضيات هذه البيئة .

نقول ذلك باستثناء شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى ، وباستثناء جمال الدين ابن نباتة من رجال الحلبة السابقة . فقد اتصل كل منهما بالسلطان الناصر حسن

ابن الناصر محمد ، بسبب ما وعلى نحو ما . فكان للبيئة السياسية من كل منهما نصيب سنحدثك عنه بعد سطور .

وباستثناء تقى الدين بن حجة الحموى من بعدهما فى الدولة الجركسية ، وفى النصف الأول من القرن التاسع ، فقد اتصل بسبب ما بالملك المؤيد شيخ ، وببعض وزرائه. فكان الاتجاه السياسى والرسمى نصيب من شعره ، سنحدثك عنه أيضاً بعد صفحات.

ابن نباتة والناصر حسن :

أما جمال الدين بن نباتة المصرى، فقد كان وهو بدمشق يتطلع إلى العودة لمصر فاستدعاه السلطان الناصر حسن وأثابه وطيب خاطره، وطلب إليه أن يقدم إليه نسخة من ديوان شعره ووظفه فى ديوان الإنشاء .

وكان السلطان الناصر حسن قد ولى السلطنة عام ٧٤٨هـ بعد مقتل أخيه المظفر حاجى . فلبث أقل من أربعة أعوام . ثم تآمر عليه بعض أمرائه فخلعوه وولوا مكانه أخاه الملك الصالح . فامتلأت أيامه فتنا وقلاقل وحروبا أهلية ، بين مدبر دولته الأمير «طاز» وأعدائه وأعداء السلطان . ثم خرج على طاعته بعض أمراء الشام بزعامة نائب حلب « بيبغا أروس » فسار إليهم وهزمهم . ثم مالبث أن دبر له الأمير « شيخو العمرى » مؤامرة أودت به وبسلطنته ، وأعادت الناصر حسنا إلى السلطنة عام ٧٥٥هـ. فلبث بها نحو سبع سنين أخر ، قام فى خلالها بإنشاء مدرسته المشهورة بحى القلعة . وأمر بإبطال كثير من ألوان الفساد والعادات السيئة . وبنى فى زمانه الأمير « شيخو العمرى » — الذى صار أتابكيا — خانقاه شيخو المشهورة . ثم قتله أحد أتباعه . وما لبث أن ظهر بديلا منه الأمير «صرغتمش» فخشيه الناصر فخنقه . فخلا جو السلطنة للأمير « يلبغا » الناصرى مملوك الناصر حسن ، الذى مالبث أيضاً أن ثار على سيده وخنقه ، وأقام مكانه فى السلطنة المنصور محمد بن المظفر حاجى ، وذلك عام ٧٦٢هـ .

وكان الناصر حسن إلى جانب حسناته ، له حسنة أخرى وهى عنايته بأهل الأدب والشعر وحبه لها . ولا أدل على ذلك من أنه قرب إليه شهاب الدين بن أبي حجلة المغربى . حتى كأنه أصبح شاعره الأثير . وكذلك احتفل بابن نباتة . وإن كان ذلك قد صادف الشاعر فى أخريات حياته .

وروينا أن ابن نباتة كان يتطلع إلى العودة إلى مصر ، وقد كان دائم الحنين إليها وإلى نيلها ، وكان دائم التذكر لأيام صباه بها ولأيام أنسه وإلى ملاعبه . وظل كذلك حتى كبرت سنه وضعف جسده وضاقت سبل حيله . فتمنى لو يعود إلى بلاده ليموت بها ويدفن فى ثراها . يقول ذلك فى أبيات باكية من مرثية لصديقه — وما كان أكثر أصدقاءه وأعداءه معا — قاضى القضاة تقى الدين السبكى الذى توفى عام ٧٥٦هـ :

يا ثاويا والثنا والحمد ينشره   بقيت أنت وأفنتنا يد الكرب
نم فى مقام نعيم غير منقطع   ونحن فى نار حزن غير منتشب
من لى بمصر التى ضمتك تجمعنا   ولو بطون الثرى فيها فيا طربى
ما أعجب الحال لى قلب بمصر وفى   دمشق جسمى ودمع العين فى حلب

واستمر على أمله ورجائه حتى أرسل إليه السلطان الناصر حسن عام ٧٦١هـ يستقدمه، فعاد فاحتفل السلطان بمقدمه — كما روينا — وأكرمه — وكانت وظيفته التوقيع فى الديوان . ولكنه كان قد عجز عن موالاة العمل والمثابرة عليه . فأعفاه السلطان من ذلك مع إجراء راتبه . وأمر بإعادة أبنائه الذين تركهم فى الشام إليه . لينضموا له فى مصر . فقرت عينه وهدأت نفسه . وبلغ آخر الأمر إلى أمنيته، كما بلغ أعتاب منيته . . . . فمدحه ومدح كاتب سره علاء الدين ابن فضل الله .

ويبدو أن قصيدته الرائية التالية كانت من أوائل مدائحه للسلطان الناصر حسن ،

إن لم تكن أولها ، وهى على ما يبدو أول مطولة قالها فيه . فقد بلغت عدة أبياتها نحو سبعين بيتا .

وقد تغزل فى صدرها غزلا لبقا ، فيه مطالع من أشواقه إلى بلاده ومعالم من رغبته فى العودة إليها . فيقول :

بدت فى رداء الشعر باسمة الثغر فعوذتها بالشمس والليل والفجر
ولو شئت قسمت الذوائب مقسما بطيب ليال من ذوائبها العشر
وقبلتها مصرية حلوة اللمى أكرر فى تقبيلها السكر المصرى .. الخ .

إلى أن يقول :

وإنى لمشتاق إلى ظل روضة على النيل أروى العيش منها عن النضر
لئن حثنى باب البريد إلى مصر لقد حثنى باب الزيادة فى النذر
إلى مصر يحلو نيلها خصب الثرى فيغنى الورى فى الحالتين عن القطر .. الخ

ويتخلص إلى مدح الناصر مبالغا ، فيعتبره إسكندر وقته وسلطان العباد والمزدان بالعدل والتواضع ، وأنه جمع إلى قضاء عمر حلم عثمان ، وإلى بأس على سماح أبى بكر ! وينوه بما قدمه من الإحسان للعلم والأدب والأخلاق ، إلى غير ذلك . يقول :

سلام على إسكندر الوقت إن يفح شذا الذكر عنه فالسلام على الخضر

ويقول :

فملك بلا جور وحكم بلا هوى وأزر بلا وزر وعز بلا كبر
قضا عمر فى حلم عثمان جامعا لبأس على فى سماح أبى بكر . الخ .

ويقول :

بصوتك أركان الشريعة شيدت وصينت ثغور كلها باسم الثغر ... الخ

ويعود الشاعر فى خاتمة قصيدته إلى ذكر أمنيته ويتساءل عن تحقيقها تساؤل الآمل الضارع فيقول :

أحقا أرانى فى ثرى عتبـــاته   نباتا يحيى واكف المزن بالزهر
وأنشد أمداحا تقول لمن أتت   مدحتك بالشعرى وغيرك بالشعر

والقصيدة من أنفس الشعر ، ومما استجابت به نفس الشاعر لملابسات الحياة التى يحياها ، وتأثر فيهـا باتصاله برجالها الرسميين . غير أننا نلاحظ فيها ملاحظتين :

الأولى :

أن الشاعر ظل على مبدئه من عـدم ذكر الناصر محمد بن قلاوون . مع أن مدح الناصر حسن ـ وهو ابنه ـ فرصة لذلك . ومدح أبيه مدح له . وحقا ذكره ونوه به ولـكن فى عجلة وسرعة وتعميم . وذلك حيث يقول :

مضى الشفع من مرأى أبيه وجده   وجاء فلا زالت له دولة الوتر
إلى ناصر من ناصر وكذا على   مدى جده المنصور مسترسل النصر
أجل بيوت الملك بيت قلاوون   وأنت أجل البيت ياوارث الدهر . الخ(١)

قارن هذه السرعة وهذا الإجمال بمدائحه للملك الأفضل ، فإنه كان لا يمل من تفصيل القول عن أبيه المؤيد ، حتى إنه وهو يهنئه بالملك أحال ـ أو كاد يحيل ـ قصيدة التهنئة إلى مرثية للملك المؤيد من تـكرار بكائه عليه .

الثانية :

أن الشاعر لم يتعرض أبدا لذكر أعداء الناصر حسن المحليين ـ وما كان أكثرهم كما رأيت ـ ولا لذكر ما كان بينه وبينهم من فتن ومؤامرات .

وبذلك يكون الشاعر قد استمر على التزام مذهبه فى هذه الناحية وهو ألا يمس السياسة فى كثير ولا قليل حذرا من غدراتها . وإذا كان قد التزم مذهبه هذا فى أوائل حياته ، فهو فى أواخرها أحق بالتزامه وأولى ، لئلا يعكر على نفسه صفو

(١) ديوان ابن نباتة فى حروف هذه القصائد .

الحياة إذا أقام بمصر ، سواء أبقى بها الناصر حسن أم فوز وهلك .

ولكن ما كان أحوج البيئة السياسية وما اكتنفها من جلى الحوادث ، إلى قلم ابن نباتة . لقد باعدت بينها وبينه ، فحرمها رائع شعره ، حتى إذا قربته إليها كان قد جمد على مبدئه من التزام المديح . .

وعلى نسق مما رأيت تطلق شعر ابن نباتة فى مدح الناصر حسن ، ونظم فيه اكثر من قصيدة وأكثر من مقطوعة . وشكره على أمره له بنسخ ديوانه .

ابن أبى حجلة والناصر حسن ورجال عصره :

ووفد على القاهرة واستوطنها شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى التلمسانى . وقد ولد ببلد ، ونشأ بدمشق ثم جاء إلى القاهرة ، وولى بها بعض الوظائف ، ولبث حتى توفى .

وحسنت صلته بالسلطان الناصر حسن حفيد قلاوون ـ ٧٤٨ هـ ـ ٧٥٢ هـ ، ٧٥٥ هـ ـ ٧٦٢ هـ ، وبعدد من أمراء الدولة وأعيانها وعلمائها وأدبائها . واشترك فى أحداث مصر السياسية والاجتماعية والأدبية . وراسل الشعراء فيها وساجلهم . وأصبح معدودا فى جملة أدبائها ورجالها ونظم فيها بعض أشعاره . وألف فى حوادثها وأحوالها بعض مؤلفاته وقدمها إلى الناصر حسن . وبذلك وبغيره بدت آثار بيئاتها واضحة فى شعره وتأليفه وكان نصيب البيئة السياسـية من شعره محمودا . وكذلك كان نصيب غيرها من البيئات .

وممن اتصل بهم ابن أبى حجلة ، من الرجال الرسميين ، الصاحب فخر الدين بن الخصيب الذى ولى الوزارة ، فهنأه ابن أبى حجلة بالوزارة بقصيدة مدحه بها . وقد بدأها بغزل شهى عذب ، ونوه بحبه لمصر وأهلها ، ثم وصف أقلام الوزير وقدرتها على تصريف أمور الدولة ، وأثنى عليه وأشـاد بمكارمه . وقال فى مطلعها :

للحظك سهم فى القلوب مصيب ولى منه حظ وافر ونصيب

وقال منوها بحب مصر ومتخلصا إلى المدح :

سقى مصر من كأس الغرام ربابه ليمسى بها الندمان وهو طروب

فقلبي لم يـــبرح محبا لأهلها وعيشى بها بابن الخصيب خصيب

وزير لمصر منه كاف وكافل خبير بتـــدبير الأمور لبيب

وأخذ يصف أقلامه فيقول :

وأقلامه للجيش كالسمر لم تزل يكف بها فى النازلات خطوب ..الخ[1].

واتصل حبل مودة ابن أبى حجلة بكثير من أمراء زمانه ـ فضلا عن سلطان عصره الناصر حسن ، كما سنحدثك ـ وفى جملة هؤلاء الأمراء :

الأمير سعد الدين بشير الجمدار الذى جدد الجامع الأزهر عام ٧٦١ هـ . وقد مدحه ابن أبى حجلة ونوه بصنيعه ، فقال يخاطبه من قصيدة تغزل فى صدرها على عادته :

ياجامع الشمل يامن حسن مجلسه حوى المحاسن والآداب والملحا

ما بات جامعها المعمور منصلحا إلا دعت لك فيه سائر الصلحا . الخ[2]

والأمير يلبغا العمرى الذى كان مملوكا للسلطان الناصر حسن . ثم أعتقه ورقاه أميرا ، واستمر فى رقى مطرد حتى سولت له نفسه فنازع أستاذه ، وأضمر كل منهما الشر للآخر ، حتى استطاع يلبغا أن يقضى عليه ، وانفرد من بعده بالأمر فى الدولة أتابكيا يولى فى السلطنة من يشاء ويعزل من يشاء ، حتى ثار عليه بعض مماليكه هو فقتلوه عام ٧٦٨هـ . بعد أن عاش حياته فى فتن وحروب أهلية بينه وبين أعدائه

---

(١) ديوان ابن أبى حجلة المغربى ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٢) ديوان ابن أبى حجلة ـ مخطوط بدار الكتب المصرية .

من الأمراء والمماليك(١) كما سبق أن نوهنا .

وعاد يلبغا مرة من دمشق فهنأه ابن أبى حجلة بقصيدة جيدة ، تائية القافية ، كأنما كان يعارض بها تائية ابن نباتة فى الكمال بن الزملكانى - وسنشير إليها - فإنها مشربة بروحها ، ومنسوجة على منوالها ، وتقع فى نحو ٦٩ بيتاً .

وقد بدأها بالغزل الرقيق ، وهو مسلكه الذى اعتاده غالبا فى قصائد المديح . ثم أفاض فى مديح يلبغا وأشاد بهمته فى الحروب وشجاعته فى القتال ، وكسره لأعدائه .

وغزله فى صدرها غزل مذكر . وقد أكثر ابن أبى حجلة من هذا اللون . وكان موضع غزله غلمان الأتراك . فإذا تناول غلاما ، رآه كالكوكب أو البدر ، بل الهلال جبينه والسماء رتبته والنجم قرطه وبدر التم مرآته ، وثغره الدر ، وعارضه المسك وعذاره سطر من الحسن . . . إلى غير ذلك . ومنه قوله :

بى أغيد نسبوه للخطا وله   سهام لحظ لها فينا إصابات
سلطان حسن من الأتراك بات له   من الكواكب مثل البدر هالات . . الخ

ومن أبياته يشيد بشجاعة يلبغا فى القتال ، وبهمته فى منازلة أعدائه :

أمير جيش غدت فى كل نازلة   لقومه فى رءوس القوم نزلات
ساقت عزائمه سحب الجيوش لهم   وبرقها سيفه والرعد كوسات
لخيله وأعاديه إذا برزوا   فى موقف الحرب كرات وفرات . . الخ(٢)

---

(١) راجع ترجمة يلبغا العمرى فى الدرر الكامنة ج ٤ رقم ١٢١٨ - وفى كتابنا عصر سلاطين المماليك مجلد ١ ص ١٥٢ .

(٢) ديوان ابن أبى حجلة . مخطوط بدار الكتب المصرية .

ويهمنا فى هذا المقام أن نذكر صلة ابن أبى حجلة بالناصر حسن . ويبدو أنها كانت صلة طيبة متينة ، وأن الشاعر وجد من لدن هذا السلطان مالم يجده شاعر آخر وأنه أغدق عليه وأعطاه . ولا أدل على ذلك من حفاوة الشاعر البالغة بهذا السلطان. ذلك أنه ألف عدة كتب ورفعها إليه، ومنها كتابه « ديوان الصبابة »، وكتابه « سكردان السلطان » ، وأنه مدحه بأكثر من قصيدة

ولى السلطان الناصر حسن سلطنة مصر عام ٧٤٨ هـ . وكانت سنه آنذاك ثلاث عشرة سنة . ويبدو أن صغر سنه أملى لبعض أمراء زمانه أن ينشطوا للفتنة ، وتستشرى فى نفوسهم الأطماع . فوقعت فتنة ضارية بين نائب دمشق أرغون شاه وبين نائب طرابلس ، بالشام — جبغا — أدت إلى مصرع الاثنين معا . ثم تآمر بعض الأمراء فخلعوا السلطان وسجنوه بعد أن حكم أقل من أربع سنوات وولوا مكانه أخاه الصالح صلاح الدين عام ٧٥٢هـ. ولكن الفتن استمرت فى طريقها . ووقعت حرب أهلية بين الأمير طاز مدبر الدولة وبين أعدائه من الأمراء . فانتصر عليهم وسجنهم . ثم خرج عن طاعة السلطان الأمير « بيغا أروس » نائب حلب ومعه عدد من النواب فى الشام ،فوقعت فتنة طاحنة بسبب ذلك . فخرج الصالح فى جند كثيف فقضى عليها . إلا أن الأمير « شيخو العمرى » دبر مؤامرة ضده ، فخلعه وأعاد السلطان حسنا إلى ملكه عام ٧٥٥هـ .

وما لبثت الأمور أن سارت فى طريق الفتنة أيضاً، إذ اغتال الأمير «شيخو» بعض مماليكه ، فأصبح الأمير صرغتمش منفردا بالنفوذ ، فخشيه السلطان حسن فقبض عليه وخنقه .

وكان للسلطان مملوكه « يلبغا الناصرى » الذى رباه ورقاه . هذا الأمير ثار على سيده واستطاع أن يقبض عليه ويخنقه ويرميه فى البحر فلم يعثروا على جثته . . . وذلك عام ٧٦٢هـ ـ وقد نوهنا بشىء من ذلك.

وهكذا كان عهد الناصر حسن مليئا بالفوضى والمؤامرات . وهو

صاحب مدرسته ـ المشهورة جهة القلعة وجامعه الضخم . وقد سبقت إشارتنا إلى ذلك أيضا .

لم يتعرض ابن أبى حجلة فى قصائده التى مدح بها هـــذا السلطان إلى شيء من هذا النزاع ، ولم يشر إليه ولا نوه به ولا سجل شيئاً من وقائعه : لقد اكتفى بالمدح الخالص والثناء العاطر ، الذى قدم بين يديه الغزليات الرقيقة .

حتى لقد اتصل حبله ـ من بعد الملك الناصر حسن ـ بالملك المنصور محمد بن المظفر حاجي ـ وهو ابن أخى الناصر حسن وقد ولى الملك بعد مقتل عمه ، وكان عمره أربعة وعشرين عاما ، فهنأه ومدحه ونوه فى آخر قصيدته هذه بالناصر حسن ، فترحم عليه وذكر مبراته له وإحسانه إليه وتقديره له ، دون أن يشير بشيء إلى مجرى السياسة والفتنة فى زمانه .

وواضح أن سبب ذلك هو خوفه وخشيته من الأمير «يلبغا العمرى» الناصرى الذى قتل سيده الناصر حسنا، فقد كان هو الذى وكل إليه تدبير أمور الدولة وصار أتابكيا بها ، وذلك فى عهد الملك المنصور بن حاجى المذكور .

ويلبغا هـذا هو الذى مدحه ابن أبى حجلة المغربى بالقصيدة التى سبق لنا التنويه بها والتمثيل ببعض أبياتها .

وبعد ، فقد مدح ابن أبى حجلة الناصر حسنا بقصيدة رائية جيدة تقع فى نحو ٤٥ بيتا . وقدمها بغزل فى المذكر والمؤنث رقيق ، ولكنه استهلك فيه من أبياتها نحو ثلثيها . ويقول فى مطلعها :

تبادره بالبـــدر منه بوادره وتحلو له عنـــد المرور نوادره

وينتقل من غزله إلى مدحه فيقول :

لئن طاب ذلى فى هواها فإننى وحقك ممن عز فى مصر ناصره
مليك يهز الرمح أعطاف قده كما اهتز غصن طار فى الحب طائره

ويقول :

مليك أسود الغاب تحذر بأسه   لأن ملوك الأرض طرا تحاذره
تروعهم شهب السما وبروقها   وما هي إلا سمره وبواتره . . الخ [١]

وعلى نمط من هذه القصيدة ، ومن بحرها ورويها نظم قصيدة أخرى فى مدح هذا السلطان فى أكثر من ثلاثين بيتا ، قال فى أولها متغزلا كعادته ، ويذكر ديار أحبابه البعيدة والقريبة فى المطلع :

لدى سمرات الحى برق يسامره   يذكره بالثغر ما هو ذاكره

ومنها فى مدح السلطان :

هو الناصر المنصور والعادل الذى   بباطنه ماجاز فى الملك ظاهره
له فى سبيل الله خير ذخيرة   وحسن الثنا بين الملوك ذخائره ..الخ

ومنه قوله :

جزى الله عنه مصر ما هو أهله   فكم أمنت فى قطرها من يجاوره
جواد غدت نعماه منا قريبة   وإن بعدت فى السبق عنا ضوامره . الخ [٢]

وواضح أن نغمة السياسة الخالصة ، والتصدى لوصف الحروب والمعارك ، والحط على أعداء الإسلام والعرب ، والدعوة الجارفة إلى منا هضتهم ومجاهدتهم ، قد خف صوتها بعد عصر الناصر بن قلاوون . وسبب ذلك على مايبدو ، انشغال السلاطين والأمراء بأطماعهم ومؤامراتهم بعضهم ضد بعض ، مرة بمصر ومرة بالشام . ومع أن هذه الفتن هى بسبب البلاد وذات صلة وثقى بمصيرها ، لم يطرق

---

(١) مفتتح ديوان الصبابة لابن أبى حجلة . — والسمرات : جمع سمرة بفتح فضم ، وهى الشجرة من الطلح .

(٢) آخر ديوان الصبابة لابن أبى حجلة .

الشعراء بابها ولا ولجوا أعتابها ، إلا على وحى وريبة ، وفى تعميم وشمول . ولعل ذلك خوف وحذر من العاقبة ، والأيام قلب ، أو لعله بسبب شعورهم ـ وهو من شعور الجماهير ـ أن الطرفين المتنازعين هما على حد سواء بالنسبة الملك والطمع فيه والعبث به ، فلا وجه لإيثار طرف على الآخر ، بخلاف موقفهم إزاء أعداء البلاد من التتار أو الصليبيين .

ولهذا اتجهت الأشعار الموجهة إلى رجال الحكم ، نحو المديح ، وكادت تكون مديحا خالصا ، بخلاف ما شهدناه من الشعر فى عصر الناصر بن قلاوون وقبله ، فقد كان المديح فيه لونا من ألوانه وصبغا من أصباغه ، وله نصيب من الأبيات قليل . ويبدأ الشاعر قصيدته بتكبيرة الدين وبما يشعر بالنصر والظفر ، ويثنى بضجيج الحرب وحديث السياسة والتحام الأبطال . أما الآن فيبدأ الشاعر بالغزل الطريف يؤنثه إذا شاء أو يذكره ، وينساب منه إلى مديح السلطان كأنما يتغزل فى غلام من الغلمان . . .

يقول ابن أبى حجلة من قصيدته السابقة فى مدح السلطان حسن :

فمدحى له مدح المحب حبيبه ... إذا زاره والليل قد نام ساهره
وحبى له ما إن يقاس بغيره ... لأنى قيس الحب فيه وعامره ... الخ(١)

وقد مدح شاعر عصره برهان الدين القيراطى السلطان الناصر حسنا بقصيدة عامرة الأبيات ، فيها جزالته وفيها أيضا رقته . تبلغ عدتها نحو ٥٤ بيتا . وجرى فيها مجرى ابن أبى حجلة ، من تصديرها بالغزل التقليدى ، فاستهلك فيه سبعة عشر بيتا . وفى مطلعها يقول :

لم ينقلوا عنى الغرام مزورا ... ما كان حبكم حديثا يفترى

---

(١) آخر ديوان الصبابة لابن أبى حجلة المغربى .

وقضى مع سلطانه بقية الأبيات مادحا . غير أنه افترق فى بعضها عن منهج ابن أبى حجلة، إذ اتجه بمدحه إلى الإشادة بفروسية السلطان وأنه وهبها، كما وهب الرأى للملك وللإسلام ولمصر . ووصفه يوم الروع — أى يوم روع — وأشار إلى أثره فى أعدائه وذكر جيشه وخيله وكماته وصوارمه، إلى غير ذلك، يقول :

ما لاح يوم الروع كوكب سيفه ... إلا وأضحى فى النفوس مؤثرا
لبست بحمر دمائهم وببيضه ... أعداؤه ثوب الهلاك مشهرا
ذو الجيش تسبح فى الدماء جياده ... فتظن أشهبها هنالك أحمرا
عقدت حوافرها الغبار فألفت ... فى الجو ما بين الثريا والثرى
خيل ترى تحت الكماة كأنها ... عقبان جو فوقها أسد الشرى ... إلخ[1]

ولعل القيراطى يقصد بأعدائه، أعداءه المحليين، ولم يفصح عنهم . . .

الغبارى والأشرف شعبان :

وقتل السلطان الناصر حسن عام ٧٦٢ هـ . وولى السلطنة من بعده أربعة من آل قلاوون هم المنصور محمد بن حاجى، والأشرف شعبان بن حسين، والمنصور على بن الأشرف شعبان، والصالح أمير حاج بن شعبان أيضا .

وكان الزجل قد اشتد ساعده وقوى أزره بظهور قيمه القدير خلف الغبارى، الذى شارك بزجله فى جملة فنون شعرية هامة، فنافس الشعر منافسة قوية فيها، ومن بينها الوصف والمدح والتهنئة والرثاء والغزل وتسجيل الحوادث وغير ذلك من الفنون .

وفى ميدان السياسة والاتصال برجال الدولة، جال الغبارى وصال، فى حين

(١) ديوان القيراطى (مطلع النيرين) مخطوط بالمكتبة الأزهرية ص ٢٩ .

توارى الشعر الفصيح عن هذا الميدان .

ولا بأس من أن ننوه ببعض صنيع هذا القيم الذى سد الفراغ بأزجاله ، ولو إلى حد .

فمن ذلك زجله الفريد بمناسبة اعتلاء الأشرف شعبان كرسى السلطنة عام ٧٦٤ هـ ، فهنأه تهنئة حارة ، وقال فى مطلعه :

حب قلبى شعبان موفق رشـيد وجما لو أشرق وما لوحـدود
وأبوه الحسين وعمـه الحسن وارث الملك من جدود لجدود

* * *

سل لحظك صارم لقتل العـدى وأنت منصور طول المدى والسنين
زعق السعد بين يديك شاويش فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصب لك كرسى على المملكة وظهر لك نصره بفتحو المبين
والعصايب من حولك إشتالات خفقت فى الركوب عليك البنود
فاحكم احكم فى مصرنا سلطان لجميع الملاح لحسنك جنود .. الخ[١]

وكان الأشرف شعبان قد ولى السلطنة وهو فى سن العاشرة عام ٧٧٤ هـ ولبث فيها قرابة أربع عشرة سنة . فدبر له الملك الأمير « يلبغا العمرى » . وفى عهده غزا صاحب قبرص مدينة الإسكندرية وخربها ، ولم يستطع الأشرف اللحاق به قبل فراره . وثارت ثائرة بعض الأمراء على السلطان وأتابكه « يلبغا » حتى قضت عليهما . وتولى بعده ابناه المنصور ثم الصالح متواليين .

وكان لمقتل الأشرف شعبان رنة حزن وصدى ألم عميق فى نفس الغبارى ، حتى إنه رثاه بزجلية رائعة بارعة أودعها مشاعره وأحاسيسه ، وبثهـا آلامه وأوجاعه لمقتل هذا السلطان . ويبدو أنه كان كثير البر به .

---

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٢١٣ .

وانفردت هذه الزجلية ـ التى تقع فى أكثر من ثمانين بيتا ـ باحتوائها على جزء غير يسير من تاريخه فى السلطنة والحوداث التى جرت عليه والمؤامرات التى دبرت ضده وأودت به أخيرا .

نقول – انفردت ـ لأننا حتى الآن ، أى حتى هذه السطور ، لم نجد فيما مر علينا من الشعر إلا وصفا للحروب الخارجية وأمداح الملوك والأمراء والوزراء . أما الفتن الداخلية والثورات المحلية والحروب الأهلية ، فلم تظفر بالذكر فى هذا الشعر ، لهذا نحن نبش لهذه الزجلية من هذه الناحية .

وهناك فى الحوادث التالية بعض الزجليات الأخرى التى تنحو نحوها ، ينظمها الغبارى أيضاً ، وينظمها من بعده بدر الدين الزيتونى . ونعتقد أن الغبارى هو الذى سن هـذه السنة الحميدة ، التى خلا منها شعر العصر كله فى هـذه الناحية من حياته .

ويقول الغبارى فى مطلع الزجلية :

عن منازل طالع القلعـــة كوكب السعد اختفى حين بان
اقتران زحل مع المريـــخ كسوف شمس انتقل شـــعبان

وكان الأشرف شعبان قد ذهب إلى الحج ـ فانتهز أعداؤه الفرصة ودبروا مؤامرة لقتله وهى التى أودت به . وفى ذلك يقول الغبارى :

للحجاز لما نوى الأشـــرف ورحل مع جمـــلة العشاق
خامرت ميه من العسكر ولرصـــد الغدر جو أجواق
قتـــلوه شركة وتاريخـــو للعراق ولا صبهان اتساق
وقد أضحى فى الرمال مدفون والذى بيـــه فى طرب فرحان
صار محـــير والحمام فى الدوح ناح لفقدو باختلاف ألحان

وتبدو رنة الحزن والأسى فى الأبيات التالية ، وكذلك يبـــدو حب الغبارى

الأكيد لهذا السلطان ، يرثيه فى الأبيات وكأنه يتغزل فيه . . يقول ، وفى كل بيت صورة شعرية أو أكثر :

ضم الأشرف قبرليت شعرى هو لقنديل نور ضياه جامع
أو صدف فيه خالص الجوهر أوفلك فيه غاب قمر طالع
أو تقول غاب فيه أسد ضارى أو حفير جواه حسام قاطع
أو كناس فيه أحسن الغزلان أو حمى فيه أفرس الفرسان
أو جسد فيه روح من الأرواح أو سواد مقلة وفيه إنسان . . الخ(١)

الغبارى والظاهر برقوق :

وكان برقوق بن آنص الجركسى ، قد لمع نجمه فى عهد السلطان المنصور على ابن شعبان الذى ولى السلطنة عام ٧٧٨ﻫ بعد مقتل أبيه . وما زال نجمه فى الصعود حتى صار أتابكيا وصارت أمور الدولة فى يديه .

ويبدو أن خلفا الغبارى استطاع أن يحظى عنده ، بدليل أنه فى عام ٧٨١ ﻫ وقعت فتنة شعواء بين الأتابكى برقوق ، والأمير بركة أحد كبار الأمراء ، بسبب الأمير « إيتمش » ، وانتهت بهزيمة بركة والقبض عليه وسجنه . فتقدم الغبارى إلى برقوق بزجلية جيدة يهنئه فيها بانتصاره فى هذه الحرب الأهلية ، ويسجل وقائعها . وقد بدأها بقوله :

مصر صارت بعد انقباض فى انشراح وقلعها مزخرف والقصور
يا إلهى احفظ لنا برقوق واحرس الجند وانصر المنصور

* * *

جعل الله لكل واقعة سبب ونقول لك سبب هذه الوقعة
بركة راد يعمل على إيتمش وإلى الشام يسيروا سرعة

---

(١) راجع الزجلية جميعها فى بدائع الزهور ج ١ ص ٢٣٦ بولاق .

طلب الصـــلح بينهم برقوق   فأرســـلوا له اخلع عليه خلعه
وبقى بعض ما بقى فى النفوس   والعليل ما اشـــتفى بغل الصدور
وقد أمســـوا على حذر بايتين   وإيش يفيد الحذر مع المقدور .. الخ(١)

واعتدى عربان البحيرة على مدينة دمنهور فى العام نفسه — ٧٨١ هـ فسلبوا ونهبوا . فسير برقوق لردهم وتأديبهم جمعا من الأمراء على رأس حملة تأديبية عظيمة . فأوقعوا بهم إيقاعا شديدا وأسروا كثيراً من نسائهم وأطفالهم . وفر زعيمهم : « بدر بن سـلام » وسيق الأسرى إلى القاهرة فكان لدخولهم وقع كبير .

وفى هذه الحادثة نظم الغبارى فى تفاصيلها زجلية ليس لها فى موضوعها زميلة مماثلة فى الفصيح ، على ما نعلم . يقول فى أولها :

باسم رب الســـما أبتدى   فارج الهم والكرب
ويفيـد الذى حضــر   قصـــة الترك والعرب

* * *

جاء الخـــبر يوم الأربعا   بأن فى ليلة الأحـد
جاء دمنهور عرب خدوا   سوقهـا واخربوا البـلد
وابن ســـلام أمـيرهم   هو الذى للجميـع حشـد
فبرزوا ايتـــمش سريع   بمماليـــك وروس نوب
وعـدد مالهـــا عـدد   ويطلبوا لهم طلب .. الخ(٢)

واعتلى برقوق السلطنة بعد أن انتزعها من الصالح أمير حاج . فهنأه الغبارى ، بزجلية جديدة ومدحه ودعا له ، واستبشر بسلطنته . وقال :

---

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٧ .
(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ ولعل الحادثة كانت عام ٧٨٣ هـ لا ٧٨١ .

أشرقت دولة المسلمين وزها نجم سعدها الزاهر
وصبح يوم العدل نورو ظهر واختفى ليل الظلم بالظاهر

* * *

مصر صارت روضة بهذا الملك زاهيا طيب عبيرها منشوق
وبالأحمر تفاحها فى البياض قد تخضب لسلطنة برقوق
ورأينا المشمش بلا زعفران صار مخلق بجملة المخلوق
حمل البان صناجقو الزاهرة قابلتها شطفات من التامر
زعق الطير شاويش وغنى الحمام رقص الغصن والنسيم الزامر . . الخ [١]

ابن حجة والأمير منطاش :

إذاً آ لت سلطنة مصر فى عام ٧٨٤ هـ إلى برقوق بن آ نص الجركسى ، فكان أول ملوك الجراكسة بها . واشترى برقوق مملوكه « تمربغا الأفضلى » الشهير بمنطاش . فرباه ثم أعتقه ورقاه إلى سلك الإمارة فما عتم منطاش أن صار مصدر قلق لسيده . فنفاه إلى بلاد الشام . وهناك استطاع منطاش أن يحدث فتنة أزاحت برقوقا من عرشه، وأعادت إليه الملك الصالح أمير حاج من بنى قلاوون . وتمكن منطاش من أن ينفرد بالسلطة فى مملكة الصالح . ثم استمر على كيده لبرقوق، فرغب فى القبض عليه . وكان برقوق مسجونا فى الكرك واجتمع إليه فيها كثير من الأتباع زحف بهم على بلاد الشام فملكها . فخرج إليه منطاش ومعه سلطانه الصالح بحملة كثيفة ، فانتصر عليهم برقوق وعاد إلى مصر سلطانا .

وبقى منطاش فى بلاد الشام يعبث بمدنها وبأطرافها ، واجتمعت إليه فئات من الأمراء وطوائف من العربان والتركمان، ملك بهم دمشق وحماة وحمص وبعلبك

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٩ .

وغيرها . حتى قاد إليه برقوق حملة قوية ناوأته ببلاد الشام . ثم أعمل الحيلة فقبض عليه . فما كان منه إلا أن انتحر .

يبدو أن الأديب الشاعر تقى الدين بن حجة الحموى اتصل فى هذه الأثناء بالأمير « منطاش » ، وبخاصة فى المدة التى ملك فيها مدن الشام ، وكذلك حصن سيواس ومدينة حماة حيث هزم أعداءه وقضى على الأحزاب المتجمعة ضده .

وقد مدحه ابن حجة بقصيدة(١) ، على الرغم من تكلفها ، امتلأت بجملة من المعانى والتصورات الطريفة الجميلة ، مع دقة فى رعاية النظير . وأشاد فيها بشجاعته وفروسيته : ووصف حروبه ودخوله حماة ، وسجل له انتصاراته فى حصن سيواس . وقال ابن حجة عن قصيدته هذه ـ وهو دائما معجب بشعره ونتاجه ـ : « ولعمرى أن رواة الركبان سارت بحديث محاسنها » ، مع أن تكلفها واضح ـ كما أشرنا ـ وبخاصة قياسا على شعر ابن نباتة والقيراطى والبزاز وقاضى عجلون .

ومن أبياتها قوله :

إن أبرقت فى سما الهيجا صوارمه — رأيت غيث دما الأبطال قد مطرا
فمن رأى منهم برقا يلوح له — يظنه سيفه الماضى قد اشتهرا
له مطالعة فى الحرب حين يرى — دم العدى فوق طرس الأرض قد سطرا
أن راسل القوم أنشا فى رسائله — سجعات ضرب بها الهامات قد نثرا
كتابه السيف والخطى له قلم — والرسل أسهم حتف توضح الخبرا
إن كان قد نظم الأعدا مكيدتهم — فقل لهم إنه من قبلهم شعرا
لأنه ببديع السيف لف لنا — شملا ولكن لأرقاب العدى نشرا
وخط من فوق ألواح الصدور لهم — بابا من الخوف فى أحشائهم وقرا

(١) ذكر ابن حجة أنه مدح منطاش الأفضلى بهذه القصيدة حينما كان كافلا لحماة : أى نائبا عليها عن سلطان مصر . وكان ذلك فى مطالع شبابه . راجع خزانة الأدب لابن حجة ـ باب الموارد .

وصار يكتب بالهندى ويعجم بالـخطى فعل شجاع قدقرا ودرى
تراه بالرمح بدرا حاملا غصنا وبالتريكة غصنا حاملا قمرا
إن جس عودا اضرب مال سامعه والخيل يرقصها إن حرك الوترا
كأنما الهام أحداق أضربها سهد وأسيافه فى الحرب طيب كرى

ومنها يذكر انتصاره على الأحزاب المتجمعة ضده فى حصن سيواس [(١)]، قوله :

بالأمس فى حصن سيواس تجمعت م الأحزاب نحوك لما أن أتوا زمرا
فأذكرونا سليمانا وقد نفروا كالنمل من خوفهم يا آية الشعرا
جاءوا بعين ليفقفوا منكم أثرا فما تركت لهم عينا ولا أثرا

ومنها يذكر دخوله مدينة حماة ، وصعوده إلى حمص :

وقد دخلت حماة فهى قد حميت يابرد قلبى بعزم قط ما فترا
وقد تجاسر عاصيها وخرلكم طوعا وساق الجوارى نحوكم وجرى
ومذ صعدت بحمص يوم وقفتها حجبت أعداك حتى ركبهم نفرا
تركتهم لسيوف الهند أضحية لما غدوا لك ياليث الوغى بقرا (٢)

ابن حجة والأمير دمرداش الخاصكى :

وشبيه بحديثه مع « منطاش » حديثه مع الأمير « المقر السبفى دمرداش الخاصكى ، نائب الشام . فقد التحم بجيشه مع عصابة من الفرنجة عام ٨٠٩ وبساحل طرابلس الشام نيابة عن سلطان مصر . فهنأه ابن حجة بانتصاره عليهم

---

(١) سيواس : بلدة بآسيا الصغرى يمر بواديها نهر قزل أرمك ، وهى على مسافة ستين ميلا من قيسارية « سلوك المقريزى هامش ٣١٣ عن معجم البلدان لياقوت » .

(٢) ديوان ابن حجة الحموى « الثمرات الشهية » . ـ وتأهيل الغريب له أيضا ـ باب المديح . ـ والتريكية : بيضة من الحديد .

ووصف موقعته معهم ، وما كان بينه وبينهم من مر القتال ، وذكر كيف أنهم أتوه كقطع الليل وأنه أبادهم فى ظلمائه ، وسمـــاهم « بنى الأصفر » . وسجل له ما نشره بانتصاره هذا فى ربوع الشام من الأمن وطيب العيش ، وأنه حمى حصن حماة من أعدائه . إلى غير ذلك .

وتلحظ الروح الإسلامية متفشية فى بعض الأبيات ، كما أنه اعتمد فى بعضها على الاقتباس والتوجيه بأسماء سور القرآن الكريم .

وإليك بعض سطور هذه القصيدة ، قال فى المطلع :

قرأت نهـار الحرب فى سورة النصر وأعداك تتلو فى التغابن والحشر
إذا جاء نصر الله والفتـــح زلزلت عداك برعد الخوف يامالك العصر
بنو الأصفر اسودت وجوه ليوثهم وفى أسود البحر ارتدوا بالدما الحمر
نثرت رقاب القوم مع نظم شملنـا بحق لقد أبدعت فى النظم والنثر
وفى قطع كالليـل لمـا أتواتلت سيوفك فى ظلمائه ســـورة الفجر
بسطتهم فى البحر ثم كسرتهم نعم أنت عين الدهر فى البسط والكسر .. الخ

ومنها ، يذكر تأمين الشام على يديه وتأمين غيرها من البلاد والمدن :

وأمنتنا بالشام من بعد خوفنا رجاء الهنا من حيث ندرى ولاندرى
وطيبة طاب العيش فيهـــا لأهلها وهب نسيم الغرب من ذلك القبر
وحصن حماة أنت أنت حميتـــه بعزمة ليث لم يخف ســـطوة الدهر
رددت ملوك الأرض عنـه بخيفة تقول وحق العصر إنا لفى خسر
أطاعك عاصيهـا ولـكن لهم عصى فسائلهم مارد إلا من النهر
وكم صمموا فى أخذهـا وتجاسروا منعتهم أن يقربوا طرف الجسر . . الخ

وفى عدة أبيات طريفة يصف أدوات حربه ويبرز عملها ، فى تشبيهات وصور لطيفة ، وكلها تنبىء عن شجاعته وهمة نفسه وحفاظه على بلاد المسلمين والعرب . وأورد الشاعر وهو يصف سيوف الممدوح وقسيه وأوتاره وقناه

وسنانه ، عدة من التوريات المناسبة ، وجملة من الألفاظ الاصطلاحية وجه بها ، وراعى النظير مراعاة معجبة . يقول إن سيوفه كانت تجر العدى جهرا فكأنها أحرف الجر . وقسيه لازمت الركوع ، وقناه ظلت أغصانها تهتز ، وسنانه يكنى أبالهب ، وهو منير كالصبح . . . إلى غير ذلك . يقول :

تجر العدى جهرا لخفض رءوسها سيوفك حتى خلتها أحرف الجر

وهذى قسى الحرب أمسى ركوعها لديك ولم تبرح ملازمة الوتر

وتهتز أغصان القنابك فرحـــة فهل راجعت أيامها فى ربا الزهر

أبا لهب يكنى سنانك فى الوغى وتبت يد الأعداء منه إلى الحشر

به زجر الأقران قبـــل قرانه فقل لبنى لهب : كذا صنعة الزجر

سنان منير يشبه الصبح إن بدا طويل لسان وهو مع أنه جمرى

إذا رمت منه كتم سر عن العدى يسكن ذاك السر فى داخل الصدر

وقد نبهنا إلى ما فى أبيات ابن حجة من تكلف ، وهو كثير مراعاة الصناعة . يؤثر مراعاة النظير ودقائق الملابسات اللفظية ، فعاق شعره عن بلوغ الرتبة النباتية والقيراطية .

ومن المعلوم أن تيمورلنك التترى شن كثيراً من غاراته على بلاد الشام إبان سلطنة برقوق وابنه فرج . وأنهما رصدا لصده بعض جنودهما وإن لم يلتقوا به . وقد خلا الشعر من ذكر هذه الحوادث . — على ما نعلم — .

ابن حجر العسقلانى والخليفة المستعين بالله :

وكان الملك المؤيد شيخ ، أميرا وكافلا ببعض بلاد الشام قبل سلطنته ، وذلك أيام سلطنة الناصر فرج بن برقوق ، قبل عام ٨١٤ هـ . وكون المؤيد لنفسه حينذاك حاشية واصطنع رجالا . وثار فى وجه الناصر فرج ، وعاونه فى ذلك الأمير « نوروز » الحافظى صديقه ومن أكبر أمراء الشام حينذاك واستطاعا بعد حروب وانتصارات وهزائم أن يقضيا على السلطان فرج بعد موقعة « اللجون » .

بينهما . ثم رأيا تقسيم النفوذ ، فيختص « نوروز » بنيابة الشام من غزة إلى الفرات ، ويختص « شيخ » بالأتابكية فى القاهرة — ليكون مدبر الدولة . واتفقا حسما لما يمكن أن يدب بينهما من النزاع على السلطة ، أن يوليا الخليفة المستعين بالله العباسى — خليفة ذلك الزمان — ملكا وسلطانا على البلاد . فتم ذلك عام ٨١٥ هـ وصار المستعين سلطانا . وقد لقبوه بالعادل . فكان هذا الوضع غريبا وسط نظام المماليك المفروض من أول العصر ، لولاية السلطنة .

وتقدم الفقيه الحافظ الأديب الشاعر شهاب الدين بن حجر العسقلانى بتهنئته ومدحه إلى الخليفة المستعين بالله العباسى ، أو الملك العادل . وقد بدأها بالمدح مباشرة دون غزل فى صدرها كما هى عادته ، فقال :

الملك أضحى ثابت الأســـاس ... بالمســـتعين العادل العباسى

رجعت مكانة آل عم المصطفى ... لمحلها من بعد طول تناسى

ثانى ربيع الآخر الميمون فى ... يوم الثلاثا حف بالأعراس

بقدوم مهـــدى الأنام أمينهم ... مأمون غيب طاهر الأنفاس

ذو البيت طاف به الرجاء فهل يرى ... من قاصد متردد فى الياس

فرع نما من هاشم فى روضة ... زاكى المنابت طيب الأغراس

وتبدو ريح السياسة وئيدة فى هذا المديح ، معبرة — إذا صح هذا — عن شعور الناس ـ أو شعور بعضهم على الأقل ـ فإن الشاعر يقول إن الملك أصبح ثابت الأساس ، فهل كان قبل ذلك غير ثابت الأساس ؟ ، . . والشاعر يعلل قوله هذا فى البيت الثانى مباشرة ، وعبر بذلك عن شعوره أوعن أمله فيقول : رجعت مكانة آل عم المصطفى لمحلها ....

أفهل كان ثمة أمل أو تطلع إلى أن تعود الخلافة العباسية قوية مالكة كما كانت من قبل ويكون لها الملك والسلطان ؟ قد يكون شىء من ذلك فى نفوس البعض ولكنه يكتمه أولا يعمل له . على أن استقراءنا لحوادث التاريخ وتسلسل وقائعه واستطلاع مشاعر الناس منها ، لا يعين على تصور شىء من ذلك فى نفوسهم

حينذاك . فلعل الشاعر استوحى القول والمعنى من الملابسة الوقتية ، وربما يكون قد وقر فى نفسه ـ مع أنه المؤرخ الثبت ـ أن هذا الموضع سيدوم .

والشاعر يعترف فى أبياته بالواقع المرير ، وهو أن هذه السلطنة جاءت الخليفة على غير قياس ، فيقول وقد ذكر الناصر فرجا :

بالخاذل المدعو ضـــد فعاله بالناصر المتناقض الآســاس

كم نعمة لله كانت عنـــده وكأنها فى غربة وتنـــاسى

ما زال سر الشر بين ضلوعه كالنار أوصحبتـــه للأرماس

كم سن سيئة عليه أثامها حتى القيامة ماله من آس

إلى أن يقول :

وأدالنا منـــه المليك بمالك أيامه صـــدرت بغير قياس

والشاعر قبل هذه الأبيات يكيل المديح ويسبغ الثناء على آل العباس جميعا بمناسبة بلوغ رجلهم هذا إلى كرسى السلطنة ، فيقول :

أسد إذا حضروا الوغى وإذا خلوا كانوا لمجلســـهم ظباء كناس

مثـــل الكواكب نوره ما بينهم كالبدر أشرق فى دجى الأغلاس

وبكفه عنـــد العلامة آية قلم يضىء إضـــاءة المقياس

فلبشره للوافدين بهاشـــم يدعى وللإجـــلال بالعبـــاس

ويعود فيحمد الله على أن عاد الملك إلى بنى العباس بعد إبلاسه ، فيقول :

فالحمد لله المعز لدينـــه من بعد ما قد كان فى الإبلاس

ولكنه يسارع بجانب ذلك إلى ذكر أمراء الدولة - وهم أصحاب السلطة الحقيقية والكلمة النافذة ومالكو القوة — فيقول ، وهو فى قوله يعبر عن الواقع المرير المسلم به :

بالســـادة الأمراء أركان العلى من بين مدرك ثأره ومواسى

نهضوا بأعباء المناقب وارتضوا فى منصب العليا الأشم الراسى

تركوا العدى صرعى بمعترك الردى فالله يحرسهم من الوسواس
وإمامهم بجلاله متقدم تقديم بسم الله فى القرطاس

وهذا البيت الأخير يحدد بالضبط مركز الخليفة السلطان - إذ ذاك — فى وسط هذه المجموعة الضخمة من أمراء زمانه أصحاب الحل والعقد الحقيقيين . ويبين أنه افتتاح لهم فحسب ، وقد استبشرت به بلاد المسلمين .

فاستبشرت أم القرى والأرض من شرق وغرب كالعذيب وفاس

ويضفى على العباس آيات المديح ويجمع فيه المناقب الحميدة التى كانت للعباس ، ويؤكد له جحود الزمان فى إبعاد السلطنة عنه من قبل . ـ وكأنى به فى توكيده هذا ، يتشكك فى استمرار هذا الوضع ! يقول مخاطبا له .

آيات مجدك لا يحاول جحدها فى الناس غير الجاهل الخناس
ومناقب العباس لم تجمع سوى لحفيده ملك الورى العباس
لا تنكروا للمستعين رياسة فى الملك من بعد الجحود القاسى . . الخ(١)

ولم يستطع الشاعر فى كل ما تناوله فى قصيدته أن يذكر فى صراحة ، أن هذا الوضع ينبغى أن يتبع وينبغى أن يستمر ، وينبغى أن تكون السلطنة باطراد فى هذا البيت العباسى الثانى . ومهما يكن من شىء ، فقد شارك بجهده هذا فى تسجيل إحدى ظواهر المسرح السياسى فى بلاده .

قصائد أخرى لابن حجر :

وبمناسبة الحديث عن قصيدة هذا الشاعر ـ وهو الحافظ الراوية المؤرخ ابن حجر الفقيه الشافعى ـ لابد لنا من أن نذكر أن ديوانه يتضمن فى باب الملوكيات سبع قصائد : هذه القصيدة التى مدح بها السلطان الخليفة العباسى المستعين ،

---

(١) قصيدة ابن حجر فى ديوانه المخطوط بالمكتبة الأزهرية ـ وفى حسن المحاضرة للسيوطى ج١ باب ذكر خلفاء العباسيين فى مصر .

ومنها أربع قصائد مدح بها الملك الأشرف إسماعيل صاحب اليمن . والخامسة مدح ابنه الملك الناصر بن الملك الأشرف المذكور . والسادسة مدح بها الملك المنصور عبد العزيز صاحب تونس .

وهى قصائد مدح عادية مما يشـــيد فيها المادح بمناقب الممدوح ويثنى عليه لشجاعته وعدله وكرمه وعفته ... الخ .

واعتاد الشاعر أن يتغزل فى مقدمة كل قصيدة منها ـ على غير ما رأيناه فى قصيدته فى المستعين العباسى .

ونلحظ بمناسبة هذه القصائد ملحوظتين :

الأولى : أن الشاعر بمدحه ملوك اليمن أو تونس ـ يفصح لنا عن مدى اتصال أدباء مصر ومصر ، بغيرها من البلاد العربية ـ كاليمن وتونس ـ وأن مشاعر الناس فيها كانت متبادلة وأن أمانيهم متماثلة ، وأن هذا البعد الفسيح بين حدود البلاد العربية مع صعوبة المواصلات آنذاك ، لم يكن عقبة فى سبيل التواصل أيا كان نوعه .

والثـانية : أن الشاعر لقب كلا من ملك اليمن ، وملك تونس ، بأمير المسلمين ، فلعله يقصد بذلك أنه ملك من ملوكهم ، وأمير من أمرائهم ، فحسب .

وإليك بعض أبياته من قصيدته الأولى التى مدح بها الملك الأشرف إسماعيل صاحب اليمن . قال فى مطلعها مشببا :

صب للقياك بالأشواق معمود   فقيد صبر عن الأحباب مفقود
ناء عن الأهل والأوطان مغترب   وواجد ماله فى الصبر موجود[1]
متيم قد بكى بعد الدموع دما   كأنمـــا هو فى عينيه مفصود ... الخ .

ومنها فى المدح قوله :

المانح الفضل صفوا فيض راحته   والغيث إن جاد تعبان ومكدود

(١) الموجود : كلمة أطلقت فى العصر المملوكى على ما يملكه الانسان ويدخره من مال وتحف ونحوها .

والمانع السرح حيث الأرض من دم من ‏ ‏ عاداه فى خـــدها المغبر توريد
والنقع ثار دخانا والظبـــا شررا ‏ ‏ وما سوى حطب الأجسام موقود
نام الرعاة وقلب البرق يخفق من ‏ ‏ رعب به وبطرف النجم تسهيد

وفى قصيدته الثانية يسير على نمط من هذا ، ويقول له شاكرا هداياه إليه :

إليك أمير المسلمين بعثتهـا ‏ ‏ تضمن شكرى من طريف وتالد
فكم من أياد منك هن مرافق ‏ ‏ على الدهر لو يسطو وهن سواعدى .. الخ[١]

ولهذا الشاعر قصائد مديح أخرى وجهها إلى بعض الأمراء فى مناسبات ، وهى لا تخرج فى جوهرها عن المدائح المعتادة .

ثم نعود إلى الحديث عن الأمير « شيخ » ، فإنه مالبث بعد ستة أشهر تقريباً أن وثب على السلطنة وخلع المستعين ، بحجة أن البلاد فى حاجة إلى سلطان تركى حازم يتولى بحنكته قيادتها ، وذلك عام ٨١٦ هـ . وتلقب بالمؤيد .

وقد قدم عليه من رجالات الشام عدد ممن اصطنعهم من قبل فيها ، فاستخدمهم فى بعض وظائف الدولة . وكان منهم الناصرى بن البارزى ، فجعله رئيساً لديوان الإنشاء ، وتقى الدين بن حجة الحموى شاعر زمانه فجعله منشئاً للديوان .

وكان من الطبيعى أن يثور فى وجهه الأمير « نوروز » الحافظى . وقد استطاع المؤيد أن يقبض عليه ويجز رأسه ومهد البلاد الشامية والحلبية ودانت له جميع البلاد .

وقيل « إن المؤيد كان يفهم الشعر العربى وينظمه ، ويقرب أرباب الفنون . وكانوا يتباهون فى زمانه لجودة فهمه لفنونهم وحسن معرفته بها . وكان يغنى من فن الموسيقا ويركز الفن . ومن نظمه :

فتنتنـا سوالف وخدود ‏ ‏ وعيون نواعس وقدود
أسرتنا الظبا وهن نعاس ‏ ‏ وخضعنا لها ونحن الأسود[٢]

---

(١) راجع ديوان ابن حجر مخطوط بمكتبة الأزهر .

(٢) بدائع الزهور جـ ٢ ص ٨ فى سياق حديثه عن المؤيد .

ابن حجة والمؤيد شيخ :

ولتقى الدين بن حجة فى المؤيد أكثر من مدحة سياسية ، وهى مشربة — كالمعتاد — بالروح الإسلامية .

ومن بينها قصيدة رائية ، قيل[١] إن المراسيم الشريفة برزت له أن ينظمها ليستوعب فيها الوقائع المؤيدية التى ما برح النصر بها مقترنا . . الخ . فنظم ابن حجة هذه الرائية وأنشدها بين يدى المؤيد بقلعة الجبل فى يوم مشهود ولبس بسببها تشريفة وعين فى ديوان الإنشاء .

وقد نوه ابن حجة فى هذه القصيدة بكثير من أعمال المؤيد الحربية وفتوحاته ووقفاته الرائعة التى توحى بالشجاعة والصبر ، ولا سيما موقعته فى « اللجون » [٢] وكان معه الأمير « نوروز » يعاونه ضد السلطان الناصر فرج وأمرائه وعسكره . وقد أبدع ابن حجة فى بعض الأبيات كما ترى مما يلى ، قال :

كأس المسرة بالبرية دائر والكون بالملك المؤيد زاهر
ملك من الأنصار قد أمسى لدين محمد وله الأنام تهاجر
ياحامى الحرمين والأقصى ومن لولاه لم يسمر بمكة سامر
والله إن الله نحوك ناظر هذا وما فى العالمين مناظر
فرج على «اللجون» نظم عسكراً وأطاعه فى النظم بحر وافر
فأبنت منه زحافه فى وقفة يامن بأحوال الوقائع شاعر
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم دارت عليهم من سطاك دوائر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة فكأن هاتيك السروج مقابر

---

(١) راجع ديوانه المخطوط بالمكتبة الأزهرية .

(٢) اللجون : بلد بالأردن على الحدود الشمالية بينه وبين طبرية عشرون ميلا ويبعد عن الرملة أربعين ميلا « السلوك هامش ص ٨٤ و ص٥٩٣ ، ٧٥٤ عن معجم البلدان لياقوت » . وهى بفتح اللام وضم الجيم ، مع تشديدها .

صغرت ياشيخ كبار ملوكهم قهرا وما فى الخافقين مكابر
وكسرت ناصرهم وما مقداره فى ملتقاك وربنا لك ناصر .. الخ

ومنها . يذكر إيقاعه بالفرنجة وهزيمتهم وانتصار الإسلام على يديه ، قال :

وكذا الفرنج سطت على غربانهم من جو عزمك فى الحروف كواسر
ولسان سيفك فى الحروب بحده قدكلم الأعداء منه زماجر
وغدا على الإسلام منك وقاية لعزيز منعتهما يذل الكافر
وتصفدت أعداك فى صفد وهم عمى وطرف البرج نحوك ناظر
والباب يتلو الفتح حين طرقته عند القتال وللفتوح أشائر

ومنها يذكر أعمالا له أخرى بنواحى الشام وأطرافها فى المرقب وصهيون ، والشهباء وصرخد ، قال :

وكذا فتوح الشام ذكرك خالد فيها وكم لك سيرة وسرائر
وعلوت آدم مرقب وجنيت من صهيون صهوتها وأنت مسافر
هامت بك الشهباء شوقا جمجمت فركبتها ولك السعود مساير
وبصرخد لك وقفة مشهورة وعليك من عين العناية ناظر

ويصف رمحه ونعال خيله فى تصورات بديعة فيقول :

وإذا مددت يراع رمحك ماله إلا قلوب الدارعين محابر
ونعال خيلك كالعيون وما لها إلا جماجم من قتلت محاجر
صولحت مسئولا وعدت مؤيدا للشام منصورا ونجمك ظاهر

ويعود الشاعر إلى ذكر التحام المؤيد بعسكر السلطان فرج ، فيقول :

وأتاك عسكر مصر مع سلطانها فى أثر ذاك وأنت ليث كاسر
فحصرتهم بالواديين وفرقت تلك الجموع وكل عقل طائر

وكتبت بالهندى فيهم أسطرا ... وصدورهم تحت الدروع مساطر
سألوك صلحا بعد إذ فاجأتهم ... هذا وأولهم بمصر عابر
لكنهم خانوك فى أيمانهم ... مذ عاهدوك وأنت نعم الصابر
فورثت أرضهم وجئت ديارهم ... وملكت نصرهم ومات الناصر

وما زال الشاعر ماضيا فى قصيدته هذه على نمط بما رأيت ، يذكر حروب المؤيد وأعماله وأخلاقه واستيلاءه على سلطنة مصر . حتى قال فى الختام :

لا زلت فى مصر عزيزا حاكما ... والشام واديها بعدلك زاهر

وتقع هذه القصيدة الفريدة فى نحو ٨٤ بيتا . ولعل هذا الشاعر هو الوحيد الذى تعرض فى قصائده لوصف حرب أهلية .

واعتلى الملك المؤيد عرش مصر ، بعد أن خلع المستعين بالله العباسى . فنازعه « نوروز الحافظى » بالشام ، فجرد عليه المؤيد حملة ثم قبض عليه ودق عنقه .

وعلى نمط من القصيدة السابقة نظم ابن حجة فريدة أخرى هنأ بها المؤيد بهذه المناسبة ومدحه وذكر ما كان منه من شجاعة وحيلة ، وما كان منه للإسلام من نصر وظفر فى هذه الواقعة وفى غيرها . وأنشدها بين يدى المؤيد بقلعة الجبل بحضور قاضى القضاة وأعيان الدولة الشريفة . . وخلع عليه المؤيد تشريفا يليق بهذا المقام . . .

وقد بدأها الشاعر بقوله ، ذاكرا مقتل نوروز :

أبا النصر قد كنوك ياقاهر العدى ... ومن بعد هـــذا لقبوك المؤيدا
فللنصر والتأييد قد جئت ثالثاً ... فلا عجب أن صرت فى الدهر أوحدا
ظفرت بنوروزين فى عصرنا الذى ... به كل يوم منك بالبشر عيدا
ففى مصر نوروز الذى جاء بالوغى ... وبالشام نوروز الخئون الذى اعتدى

فهذا إلى كل القلوب محب   وذا بغضه فى كل قلب تأكدا

ويذكر أيضا تأييده للدين ونشره للمكارم والعدل فيقول :

وأيدت دين الهاشمى وآله   وأمته حقا نصحت محمدا

وكل عصاة الأرض مذ صرت قبلة   أطاعوا وجاءوا خاضعين وسجدا

وأعداك قد قيدتهم بمكارم   ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

ولما نشرت العدل فى الأرض فاخرت   بمنشورها لما أتاها مجددا

واستمر فى قصيدته يذكر محامد المؤيد ووقائع حروبه ووقائع إحسانه معاً فى نحو ستين بيتا بنى بها هذه قصيدة .

وهكذا استطاع ابن حجة أن يتابع - إلى حد — تاريخ حياة الملك المؤيد فى سلطنته ، ويسجل شيئا من حوادثها ، وأن يسهم بهذا النصيب فى الاستجابة لدواعى البيئة السياسية التى عاش فيها ردحا من الزمن ، والتى كان من أهم مقوماتها ودعائمها الدفاع عن المسلمين وبلادهم ودينهم ، وعن العروبة وأوطانها .

ابن حجة وصاحب تونس :

وهذه النزعة - فى الواقع - لم تكن محدودة الأفق ببلاد المسلمين والعرب على البحر المتوسط وسواحله الشرقية وحدها . بل - فى الحق - تعدتها إلى غيرها من البلاد والآفاق . ويدلنا على ذلك القصة التالية :

فقد بلغ صاحب الأندلس محمد بن الأحمر استيلاء الفرنجة على مدينة سبتة . فبعث إلى صاحب تونس بقصيدة دالية يستنهض همته ويستنصره مطلعها :

حماة الهدى سبقا وإن بعد المدى   فقد سألتكم نصرها ملة الهدى

وقد أجابه عنه أبو حامد القفصى بقصيدة ، ولكنه لم يوفق فيها فبعث صاحب تونس إلى مصر رسولا ومعه القصيدتان ، يطلب قصيدة أخرى مناسبة ليرد بها على قصيدة صاحب الأندلس .

فنظم تقى الدين بن حجة قصيدة دالية من البحر والروى يرد بها على لسان صاحبِ تونس . وتقع فى نحو ستين بيتا حماسياً يهدد فيها وينذر ، ويوعد ويعد .

ويقول فيها :

أجابكم عزم سبقنا به الندى | وأسيافنا والله كذبت الصدى
وأخباركم فى رفعها إن تقدمت | إلينا فإن العزم قد صار مبتدا
ولا عيب فى عطف لنانحو نصركم | وكيف وذاك العطف أمسى مؤكدا
وهمزات سمر الخط موصولة غدت | بأرضكم إن كان قد بعد المدى

إلى أن يقول ملبياً النداء :

فلبيك يامن بالندا صار معلنا | وقد رفع الأعلام فى حالة الندا
ومد يدا ترجو من الشرق نصرة | بعيشك فالمرجو قد بسط اليدا
نعم واشترينا منك ماكنت بائعا | من العرض الفانى بقاء مخلدا
فلا سيف إلا فارق الجفن طرفه | وطاب لذاك الجفن فيه تسهدا

ويقول واعدا ومتوعدا :

وإن لم نعالجكم بفرسان شرقنا | وبالأمس قد رمتم من الشرق منجدا
فليس كما قلتم نرى السيف صارما | ولا الرمح عسالا ولا الطرف أجردا
ولا كانت السمر العوالى لدى الوغى | تثنى ولا البيض المواضى لتغمدا
وذا الفرض لا يقضى إذا فات وقته | وما نحن عند السير ننوى له الأدا
إذا ما تعبدنا وغنت سيوفنا | عليهم يظنوا أن فى القوم معبدا
فلا هيكل إلا وقد صار دارسا | ولا بيعة إلا وتصبح مسجدا . . الخ (١)

---

(١) راجع ديوان ابن حجة الحموى « جنى الجنتين » مخطوط بدار الكتب المصرية . وقد لحن الشاعر فى بعض الكلمات .

ويطالعنا فى زمن الملك المؤيد شيخ ، الأديب شمس الدين المنصورى ، محمد ابن أحمد بن عمر ، ويعرف بابن كبل « ٧٧٥ هـ - ٨٤٨ هـ » . وقد مدح الملك المذكور بقصيدة ذكر فيها طرفا من جهاده وكفاحه ، بدأها بقوله :

لقد جاء نصر الله والفتح قد بدا فأصبحت منصور اللواء مؤيدا

ويقول :

فأصبح شمل الملك ملتئما بهـــا وشمل أعاديك اللئام مبـــددا
ألا رب يوم أسود صار أبيضا بفتح جلا بالبيض ما كان أسودا

ويذكر الشاعر اللبق أن المؤيد جمع بين مصر والشام فى سلطنته ، فجمع بذلك بين أختين . . .

ثم يقدم الشاعر له تحليل ذلك وفتواه بقوله :

جمعت به الأختين مصرا وشامها وليس بحل جمع الاختين فى الهدى
ولـكن بذا أفتى الحسام وطالما رأيناك تستفتى الحسام المهندا . الخ[1]

وزين الدين بن الخراط - المتوفى عام ٨٤٠ هـ - الكاتب الشاعر الأديب يعتبر من حلبة ابن حجة الحموى . وبينهما مشابه أخرى منها أنه من مواليد حماة كابن حجة ، وأنه طاف مثله ثم قطن القاهرة ومدح ملوكها ورؤساءها واشتغل فى كتابة الإنشاء أيام رئاسة الناصر ابن البارزى لديوان الإنشاء . وبعد ابن حجة حل محله فى الديوان . ومدح ابن البارزى .

ومما يذكر أنه كان يعيش فى عصر الأشرف برسباى وكان من مداحه . وقد أرسل أهل المغرب إلى برسباى فى طلب نجـــدة ، فشارك ابن الخراط بقصيدة حماسية طنانة ، قال أبو المحاسن فى المنهل الصافى : « إنه سمعها منه بلفظه ، وأقسم أن

---

(١) المنهل الصافى ، فى محمد بن أحمد بن عمر « مخطوط بدار الكتب » .

أحدا غيره لا يستطيع أن يجيب بمثلها » . وأمن على ذلك شهاب الدين بن حجر العسقلانى(١) .

تأديب ملك قبرص :

وكانت جزيرة قبرص قد عاشت زمنا طويلا وهى محطة صليبية ، تتجمع فيها قوى الفرنجة ، ومن ثم تعتدى على سواحل مصر والشام وتتلصص على شواطئهما ، وتسىء إلى المسلمين .

وقد جهز لها السلطان الأشرف برسباى حملة بحرية قوية يعاونها جنود بريون . فدهمت الجزيرة وأوقعت بحاميتها وشتتت شمل جنودها ، وأسرت ملكها « جينوس بن جاك » ، وغيره من رجاله ونسائه وصبيانه ، وهم نحو ألف إنسان . وقد عادت الحملة بهم إلى مصر فى شوال عام ٨٢٩ هـ ودخلوا بهم القاهرة فى موكب عظيم وخرجوا من باب زويلة إلى الرميلة إلى القلعة ، و « جينوس » خلف الأسرى على بغل وهو مقيد بالحديد . فقبل الأرض بين يدى برسباى . وتأثر برسباى لهذا النصر وشكر الله عليه . وظل « جينوس » زمنا بمصر ، حتى فرض السلطان عليه جزية يؤديها سنويا ثم أطلق سراحه .

قال أبو المحاسن : « استمرت الجزية إلى يومنا هذا » .

وقد سجل زين الدين بن الخراط هذا الحادث الفريد فى إحـــدى قصائده ، وبلغت عدتها ثلاثة وسبعين بيتا ، لم يثبت منها أبو المحاسن سوى سبعة أبيات من أولها ، وهى فى مديح السلطان . وفيها يقول .

بشراك يا ملك المليك الأشرف   بفتوح قبرص بالحسام المشرفى
فتح بشهر الصوم تم له فيـــا   لك أشرف فى أشرف فى أشرف

---

(١) المنهل الصافى ج ٢ ورقة ٣٠٣ فى ترجمة « عبد الرحمن بن محمد بن سليمان » .

فتح تفتحت السماوات العلى   من أجله بالنصر واللطف الخفى . الخ(١)

وهكذا نرى أن الشعر الفصيح انتعش بعض الانتعاش فى الميدان السياسى فى جيل ابن حجة الحموى . وقد يكون ذلك بسبب تتابع الحوادث السياسية نفسها، ذات الطابع الخارجى ، ولو إلى حد .

إلا أننا نرى فيما يلى أن الأحداث السياسية والحروب الخارجية ، قد هدأت حدتها إلى حد كبير ، وتفاقم أمر الخلافات والحروب الأهلية الداخلية . الأمر الذى نرجح أنه السبب الأصيل فى تضاؤل خطى الشعر فى هذا الميدان ، إذ لم يعد له من العوامل والحوافز مايدفعه إلى الظهور والبروز كما كان شأنه فى أوائل العصر ، وهى الفترة الخصبة فى حياة الدولة التى قضتها فى مكافحة أعدائها فى الخارج مكافحة ذات قيمة وحاسمة .

عودة الزجل :

وبعد فقد كان بروز ابن حجة الحموى فى ميدان السياسة بشعره ، رجعة للشعر الفصيح إلى هذا الميدان ، وصحوة بعد هذه الإغفاءة الطويلة التى انتهزها الزجل فاحتل الميدان وسد الفراغ ، فله الفضل ، بالرغم من تكلفه .

وننبه القارئ إلى أن هذه الظاهرة لم تتعد البيئة السياسية . أما ألوان البيئة الأخرى ، فإن الشعر لم يتخل عن أداء واجبه حيالها وعن الاستجابة لمقتضياتها كما حدثناك به فى مناسبات أخرى .

وبعد ابن حجة نشاهد ظاهرة الزجل تعود مرة أخرى وتطغى ، ونرى الشعر بجانبه يتضاءل فى هذا الميدان ويستخذى. ويبدو أن سبب ذلك مانوهنا به من قبل، أعنى ظهور زجال قدير جديد فى الميدان لا يقل مقدرة عن خلف الغبارى . وذلك هو بدر الدين الزيتونى .

---

(١) المستهل الصافى . انظر برسباى .

يبرز بدر الدين الزيتونى فى عصر قايتباى الذى بلغ سلطنة مصر عام ٨٧٢ هـ بعد أن توالى عليها عدة من ملوك الجراكسة امتلأت أيامهم بالقلاقل والفتن ، ومنهم أحمد بن المؤيد شيخ ، والظاهر ططر . وابنه الصالح ، وبرسباى وابنه العزيز ، وجقمق ، وابنه ، وإينال ، وابنه ، وخشقدم . وبلباى ، وتمربغا .

وقد حكم الأشرف قايتباى إلى عام ٩٠١ هـ فلبث فى السلطنة بذلك زهاء تسع عشرة سنة . وامتلأت أيامه كذلك بالحروب والفتن ولكنه كان قوى الشكيمة احتمل مكاره الملك بقلب صلب . وكانت خزائن الدولة خاوية فاحتال حتى دبر لها المال . وانقض الملك « سوار » أحد أمراء التركمان على أملاك الدولة فى شمال الشام وحلب . فجرد عليه قايتباى الحملة تلو الأخرى ، حتى كانت حملة عظيمة من بينها، بقيادة الأمير «يشبك الدوادار» عام٨٧٥هـ، فهزمته وحاصرت قلاعه وبلغت إلى شواطىء نهر جيحون . وما زالت حتى قبضت على «سوار» وعدد ضخم من أتباعه، فساقتهم أسرى أذلاء إلى القاهرة . فقطع الملك رأس «سوار» وعلقه على باب زويلة.

وأغار ملك العراقين «حسن الطويل» على بلاد الشام فرده على أعقابه بحملة بقيادة « يشبك » أيضا . ووقعت فتن شديدة فى مدينة حماة فأطفأها «يشبك» . وأمعن الأمير «يشبك» فى السير شرق الفرات حتى بلغ مدينة الرها ، فحاصرها ، ولكنه أصيب أمامها بهزيمة منكرة قتل بسببها وقتل جمع من المرافقين له أمراء وجنودا ، وكادت بلاد الشام وحلب بسبب ذلك يفلت زمامها من يد قايتباى ، لولا إسراعه بإرسال حملة جديدة بقيادة الأتابكى « أزبك بن ططخ » فأعادت الأمر إلى نصابه .

وبدأ العثمانيون معاكساتهم للدولة المصرية فى أيامه وأخذوا يثيرون ضده الفتن والقلاقل . فقاتلهم أكثر من مرة وانتصر عليهم وساق أسراهم مصفدين فى الأغلال . إلى غير ذلك مما لقيه قايتباى خلال مدة حكمه . واعتدى عليه بعض مماليكه فحزن ومرض ومات عام ٩٠١ هـ .

وكان من أرغب السلاطين فى إنشاء الأبنية والعمائر النافعة ، ومنها برجه العظيم .

بالإسكندرية . غير أنه كان كثير المصادرات وفرض الأتاوات وابتزاز الأموال من الأوقاف . وطاف فى بلاد الشام وحلب زهاء أربعة أشهر وعرج على القدس .

الشهاب المنصورى يسجل حادث سوار :

وكان الشهاب المنصورى أحد شعراء عصر الأشرف قايتباى البارزين . وقد سجل حادث القبض على سوار ، ذلك القبض الذى تم عام ٨٧٧ هـ بعد ما دوخ هذا الأمير الثائر رجال السلطان وجند .

وفى أبياته التالية يحرض الشاعر سلطانه على شنق سوار على باب زويلة ، ويقول :

يأيها الملك الذى سطواته   تغنى عن العسال والبتار
علق سوارا فوق باب زويلة   إن كنت منه آخذا بالثار
فلأنت تعلم أن ذلك معصم   ماكنت تتركه بغير سوار

ويبدو أن الأشرف قايتباى قد سمع فيما سمع ، نصيحة الشاعر واستجاب لتحريضه ، فشنق سوارا وعلق رأسه على باب زويلة . فقال الشاعر فى ذلك مع ترحيبه بمقدم الأمير « يشبك » الدوادار قاهر الملك سوار ، ومورىا بلفظ سوار :

منذ وافى الأمير يشبك مصرا   حبذا مصر موطن الأوطار
لبست حجل نيلها وتحلى   زند بابى زويلة بسوار [١]

الزيتونى يسجل رحلة قايتباى إلى الشام :

وقد تمت هذه الرحلة عام ٨٨٢ هـ . وقد طاف قايتباى فى آفاق هذه البلاد

---

(١) بدائع ابن اياس . حوادث عام ٨٧٧هـ .

وزار مدنها وقام بجملة أعمال إصلاحية جليلة ثم عاد فى حفاوة بالغة .

وقد سجل بدر الدين الزيتونى هذه الرحلة وحوادثها بموشحة زجلية طويلة . وقد قال عنها ابن إياس الحنفى المؤرخ : « وهى من محاسن الفن كلها غرر وجناس تام » . وتبلغ نحو ٥٧ بيتا وهى موشحة نادرة المثال ، كنا نود لو حلت محلها أو زاملتها موشحة فصيحة . وقد تحدث فيها الناظم عن الفرسان من الأمراء والجنود الذين صحبوا قايتباى فى رحلته ، ووصوله إلى بلاد « سوار » شرق الفرات واتصاله بالأمراء والنواب وتقديم الرأى المهم والأوامر العادلة ، والإصلاحات التى قام بها ، والمواكب التى لقيته إلى غير ذلك — وقد قال فى مقدمتها :

سلطاننا الأشرف خرج فى أربعين   من العساكر حين سافر حماه
ومن حلب عدى يروم الفرات   فاسقى الخيول من ماء وربه حماه

* * *

فى مصر فرسان أربعين بالعدد   لدورة المحمل يسوقوا الجياد
ورعبهم ساكن قلوب الملوك   يردوا الخارج وأهل العناد
فى ذا العدد راح الملك وافتخر   بهم على سائر ملوك البلاد
وخوسوار لاقاه وفى صحبته   ولد حسن بك بالخدم ما أباه
وخلع عليه أطمن وخلع على   ولد حسن خلعة وشتت أباه . . الخ(١)

الزيتونى يرثى قايتباى :

ومات الأشرف قايتباى عام ٩٠١ﻫ فرثاه بدر الدين الزيتونى بمرثية هى موشحة زجلية . وقد ضمنها كثيراً من حوادث زمانه ووقائعه ومؤامراته وفتنه بين الأمراء

---

(١) ابن إياس ج ٢ ص ١٧٨ وما بعدها ط بولاق

ومنها يقول ويشير إلى ابنه الناصر :

يرحم الله سلطاننا الأشرف كان مؤيد على العدى ظاهر
وكذا بنو المظفر المنصور بنصر الله العادل الناصر

* * *

لما زاد الضعف بقايتباى والدوادار فى غاية الإمكان
وتوافق مع الأمير تمراز وطلع قانصوه إلى الميدان
وأتى القلعة مع كربتاى والأمارة وهدموا البنيان
هرب أقبردى وقيدوا تمراز وتولى سلطاننا الناصر
من يخالف أمره ومن يعصيه رد مقهور والأمر للقاهر . الخ(١)

الزيتونى يسجل ثورة عرب عزالة :

وولى السلطنة بعد قايتباى ابنه الناصر محمد عام ٩٠١ هـ . وكانت أيامه فتنا طاحنة ذهب من جرائها ، بعد أن حكم نحو سنتين وثلاثة أشهر . ووليها من بعده خاله الظاهر قانصوه عام ٩٠٤هـ . وفى أيامه بعث حملة تأديبية على بلاد حلب والتركان حيث انتشر بها نفوذ غريمه الأمير « أقبردى » الدوادار وأعوانه . فعادت ومعها كثير من الأسرى . وأدب عرب عزالة الضاربين بجهات البحيرة والعابثين بنواحيها .

وقد سجل ثورة العربان وتأديب السلطان لهم ، بدر الدين الزيتونى إذ قال من زجلية فى ذلك :

نحمد الله ونشكرو خالق الجسم والعصب
إذ نصرنا على العرب بالدوادار والعصب

* * *

(١) ابن إياس ج ٢ ص ٢٩٨ .

والعرب أكثروا الفساد　　من عزالة وعزلوا
جو وعدوا وشرقوا　　وعلى الحرب عولوا
وأهلكوا الحرث والنسل　　فى الضواحى وحملوا
من عزالة عرب طغوا　　عمرهم فى الوغى ذهب
جتهم الترك أرخوا　　وواقعتهم بما الذهب . الخ[١]

ومراده بالعرب ، العربان الذين كانوا يضربون فى ظواهر المدن وأطراف الريف فى خيام أو نحوها ويعيشون معيشة فيها استقلال وحرية . وكانوا قليلى الاختلاط بسكانها ، وكثيرا ما كانوا يتغفلون الناس والرؤساء ويغيرون على المدن للسلب والنهب :

الزيتونى يرثى دولة الغورى :

ومضى عهد الظاهر قانصوه ومن بعده الأشرف جان بلاط ، والعادل طومان باى . ثم أهل عصر الأشرف الغورى ومن بعده الأشرف طومان باى آخر سلاطين المماليك بمصر الذى قتل عام ٩٢٣ﻫ .

فى هذه العهود لا تكاد تجد ريحا للشعر الفصيح فى ميدان السياسة وفى مجال الاتصال بالرسميين . واستمر الزجل يؤدى دورا لا بأس به فى هذا المقام وبخاصة فى مقتل الأشرف الغورى ، إلا نادرا .

فقد مرض السلطان الغورى بمرض فى عينيه عانى منه مشقة كبيرة . فقال شاعر مصر وقرن السلمونى ، الأديب محمد بن قانصوه بن صادق . يدعو للسلطان بالشفاء عدة أبيات منها :

---

(١) ابن إياس ج ٢ ص ٣٥٨ .

شفاك الله يا ملك البرايا — من الداء الموكل بالعيون
وأذهب عنهما باللطف منه — سقاما محدثا رخو الجفن .. الخ

ولماشفى هنأه بأبيات منها :

يا ملكا عدله أرانا — تبسما فى فم الزمان
وقد حبانا بحار جود — قصر عن عدها لسانى
اهنأ ببرء يلى بقاء — مؤيدا مظهر التهانى
لا زلت الملك ذا نظام — تبدى به جوهر المعانى[1]

ونقول «بخاصة» فى مقتل الأشرف الغورى ، فإن لهذا المقتل أهمية كبيرة جداً فى التاريخ المصرى . ذلك أن الغورى الذى ملك من عام ٩٠٦ ﻫ إلى عام ٩٢٢ ﻫ صادفته أمور جليلة وخطيرة فى أيام حكمه . ومن ذلك تربص العثمانيين به وترقبهم لظروفه حتى يحاربوه طمعاً فى امتلاك دولته . وقد خرج إليهم الغورى فى حملة مصرية عظيمة كثيرة العدد والعدة ، وكانت جديرة بالنصر والظفر لولا الخيانة التى سرت بين قوادها فنكثت فتلهم وفتتت جمعهم ، فكانت عاقبتهم الهزيمة النكراء فى موقعة «مرج دابق» عام ٩٢٢ ﻫ ، تلك الموقعة التى فتحت الأبواب على مصاريعها للاحتلال العثمانى اللعين .

وقد سجل مصرع الغورى وحادث مقتله فى المعركة الزجال البارع بدر الدين الزيتونى ، وبلغت مرثيته الباكية نحو ١١٧ بيتا . سرد فيها المعركة بحوادثها وظروفها وملابساتها ومقدماتها ونتائجها وبكثير من أسماء أبطالها والمشتركين فيها . ولن تجد لزجليته هذه مثيلا فى الشعر أو الزجل ، تعرض لوصف الحملة وعدتها وخروجها ومواكبها .

وفى مقدمتها يقول :

---

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث ربيع الثانى وشعبان عام ٩١٩ ﻫ .

غربت شمس دولة الغورى   وابن عثمان نجمو طلع ساير
وبهذا رب السماء قد حكم   والفلك دار ولم يزل داير

* * *

ابن عثمان باداه بأخذ القلع   وبمنع التاجر مع الجلاب
أن يجيبوا إلى مصر مملوك   ولا فروة سمور ولا سنجاب
ولا وشق ولا ثعلب يجلبوا   ومن الصوف ماعاد يجينا ثياب
على الصوف ياما قعدنا سنين   ما يجى من هندو ولا تاجر
والأمارة جو الملك قالوا   ابن عثمان باغى علينا جاير

وتراه فى هذه الأبيات قد أفصح عن الأسباب المباشرة للحروب، وهى هذا الحصار التجارى الذى ضربه ابن عثمان، ومنع التجار من جلب المماليك إلى مصر، وإحضار الصوف ونحوه من الثياب الضرورية للبلاد المصرية.

وقال :

الأمير الكبير سمى سودون   للعجم نسبتو خلاف القياس
والمقر الأشرفى العالى   هو أمير سلاح سمى أركماس
وبسودون رأس نوبة النوب   لو رياضة مع سائر الأجناس
وانسباى هو حاجب الحجاب   لو شجاعة فى الحرب بالبـاتر
ومحمد يدعى أمير أخور   نجل سلطان أشرف عزيز ناصر

وفى هذه الأبيات يذكر الشاعر بعض الأسماء اللامعة من أمراء الدولة المشاهير فى الحرب والقتال والفروسية. ومنهم سودون العجمى، وأركماس، وسودون رأس النوبة، وأنسباى حاجب الحجاب، والناصر محمد بن الغورى، ويقول الشاعر :

أشتهى النار لقتلة الغورى   ولعلى أن أبلغ الأوطار
والتهانى ذات النهار عندى   ويغنوا على وتر أوطار

بعد هذا ما أخشى غراب البين إن زعق فى دارنا أو طار
والعجائب فى قتلة الغورى راح برجلو لقتلتو خاطر
وحسبنا كل الحساب إلا ما جرى لو ما مر بالخاطر . . . إلخ (١)

وفى هذه الأبيات ترى الشاعر يندب فقد هذا السلطان ويشتهى أن يشفى غليله بقتل قتلته وإحراقهم بالنار وبعد ذلك لا يبالى شيئاً ويذكر أنهم لم يدر بخلدهم قط ، هذه الخاتمة الحزينة التى رحل إليها الغورى بقدميه .

أعتقد أن الشاعر يتحدث بذلك كله عن مشاعر الجماهير حينذاك ، وماحديثه إلا رجع لإحساسها (٢).

بهذا كله نكون قد سايرنا العصر من أوله إلى آخره مستقرئين الشعر الفصيح ومعه شيئاً من الزجل ، لنرى إلى أى حد تجاوب الشعر مع البيئة السياسية التى عاش فيها متأثرا بها وبملابساتها وظروفها . لا نرتاب فى أن الشعر فى جملته لم يقصر عن الاستجابة ، وفى الحق نرى أن استجابته للبيئات الأخرى كانت أوسع وأتم ، وكانت أسرع وأكمل .

ولكن البيئة السياسية هى التى أضنت عليه بكثير من أسباب نشاطه - فإن كان ثمة تقصير منه فإنما كان ذلك منه ضنا بضن ، وتقتيرا بتقتير .

ولا يهو لنا الأمر ، فنى البيئات الأخرى رى للغلة وإقرار لعين المترقب .

---

(١) راجع بدائع الزهور ج ٥ حوادث رمضان عام ٩٢٢ هـ ، ص ٩٦ .

(٢) راجع بدائع الزهور ج ٥ حوادث رجب عام ٩٢٢ هـ ص ١٩٧ وما بعدها . وفيها قصائد رثاء للغورى ومصر ودولة الجراكسة من نظم ابن إياس ، ومحمد بن قانصوه بن صادق .

الفصل الثالث

فى

أثر البيئة الثقافية فى الشعر

بين العلم والشعر

قد ألمعنا إلى البيئة الثقافية فيما سبق . وشهدنا فيها كيف كان النشاط الثقافى ومدى نتاجه ، وذلك حينما توافرت أسبابه ودواعيه .

وشهدنا أن هذا النشاط اتجه أكثر ما اتجه إلى إحياء علوم الدين وبعثها ثم اتجه من بعد إلى إنعاش الأدب وفنون اللغة . وبذلك كانت الثقافة العلمية واسعة النطاق بعيدة الآفاق بالقياس إلى الثقافة الأدبية .

وعاش الشعراء فى هذه البيئة وتأثروا باتجاهاتها . والشعراء بطبيعتهم وبطبيعة فنهم أسرع إلى التأثر بعناصر الثقافة الأدبية . ولكنهم ـ بلاريب ـ قد أخذوا من الثقافة العلمية بنصيب ، كما أخذوا بنصيب آخر من فنون العربية . وقد كانت الثقافة العلمية مضروبا مشتركا بين عامة المثقفين كما رأينا .

ولا نرتاب فى أن الاشتغال بالعلم ينضج الشاعرية ويوسع مجالاتها ويباعد بين آفاقها ، ويكسب الشاعر حنكة وتجربة وسعة معرفة فى ميدانه ، ويزيده معانى وأفكارا ، ويقدره على حسن التصور وجودة التعبير . فالاشتغال بالعلم ضرورة لابد منها لاكتمال الشاعرية .

لا نرتاب فى ذلك قط ، ولكن بشريطة ألا يطغى الاشتغال بالعلم على النزعة الشاعرة وعلى الموهبة الفنية . وإن لا زاحمها وشاب عذوبتها وكدر صفاءها ، وبلد من نشاطها وكبت من حيويتها .

وكذلك لا نرتاب قط ، فى أن ضعف ثقافة الشاعر ، وضيق معارفه ، وقلة تمرسه بالعلم واطلاعه على تجارب علماء زمانه وعدم متابعته لحركة النشاط العلمى وتطوره فى فهم ودقة وإحاطة مناسبة ، كل ذلك يجنى على شاعريته جناية كبيرة ، ويحبسه فى دائرة ضيقة من الحياة ، محدودة المعالم حائلة الألوان . فيبدو نتاجه وعلى وجهه سمات الهزال وصفات السـقم ، لا سمو فى تصوره ولا جديد فى معانيه ولا متبكر فى أسلوبه ، ولا جدية منه فى معارنة الحياة ولا مشاركة فى الترفيه عنها والترقى بها ، لأنه ضعيف الاتصال بها مفكك الروابط عنها .

شعراء علماء

نذكر ذلك لأننا فى هذا العصر أمام طوائف من الشعراء ، تفاوتت ثقافاتهم واختلفت مقادير معارفهم ، وتنوعت ألوان تخصصاتهم وعلومهم . ولـكن جمعتهم جامعة الشعر ووصلت بينهم وشيجة الأدب .

فمنهم — على سبيل المثال : تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى رأس الشافعية فى زمانه ، التقى الورع الزاهد . ومنهم شهاب الدين بن حجر العسقلانى قاضى قضاة الشافعى وحافظ الحديث ومؤرخ الصحابة وأعلام التاريخ وشارح البخارى . وتقى الدين السبكى مجتهد زمانه وفقيهه ومكمل المجموع فى شرح تهذيب الرافعى فى فقه الشافعية . وجلال الدين السيوطى الفقيه المحدث المؤرخ المفسر .

هؤلاء وأمثالهم يعتبرون رءوسا وقمما للحركة العلمية فى عصر المماليك . وكانوا شعراء . . .

كان الشعر فى نفوسهم منذ الصغر — كما هو الشأن الغالب — موهبة فطرية وطبيعة نشأت معهم . ثم جذبتهم جواذب العلم ، ونزعت بهم نوازع الدين ، فدرسوا الفقه والأصول والتفسير والحديث والـكلام وما إليه . ونبغوا فى ذلك نبوغا رفعهم [illegible] مناصب العلما التى تولوها ، أو تلاميذهم

الكثر الذين تخرجوا بهم ، أو مؤلفاتهم العدة التى خلفوها .

ولكنهم لم يهجروا الشعر أو يهجرهم الشعر ، فمدحوا وتغزلوا ووصفوا واشتاقوا وحنوا وشكوا ونصحوا ، وحاجوا وألغزوا وأجابوا السائل وأفتوا المستفتى ، ورثوا الحبيب الزائل ، ونظموا فى الزهد أو فى الحكمة أو فى غير ذلك .

ولكن ، هل بلغوا القمة بشعرهم كما بلغوها بعلمهم وفقههم . هل كان نتاجهم فى باب الشعر كما كان نتاجهم فى باب الفقه والحديث والعقائد مثلا . لا . لم يكن .

ولماذا هذا لم يكن ، وقد بلغوا من ثقافة زمانهم مداها ، ومن معارف عصرهم أعلاها . ؟

ذلك لأنهم اتجهوا بجمع نفوسهم وبملء قلوبهم إلى الفقه والحديث ونحوهما ، فوهبوا لها الشباب الناضر والعمر الزاهر والفكر الثائر والقلم الواثب الطائر . واعتبروا هذا أمانة يحملونها ورسالة يؤدونها ، فلم يسحرهم عنها وساوس الفن ، ولم يفتنهم عنها شياطين الشعر . فلهوا عنه وعن سحره ووساوسه وشياطينه ليؤدوا رسالة العلم حق الأداء ، ويبلغوا الأمانة حق التبليغ .

ولهذا لم تستطع ثقافتهم الواسعة أن ترفه عن شعرهم ، ولا أن تجذب بضبعه إلى الأمام ، ولا أن تنضح عليه فكرا أو معنى ، ولا أن تجود عليه بخيال أو صورة . وتلك جناية الثقافة ...

وذلك أيضا لأنهم تثقفوا للثقافة لا للشعر ، وتعلموا ليجيدوا الفقه لا ليجيدوا الأدب والنظم .

وغلبت عليهم فى عباراتهم وأساليبهم وألفاظهم ، معاجم العلماء وغاض معين البشاشة فى أبياتهم وغابت عنها عذوبة الشعر ومحاسن خياله ومفاتن تصوره . إلا لماما لماما . وعلى وحى وارتياب ، قد تفيض البشاشة وتفىء العذوبة ، ويحسن الخيال وتفتن الصورة .

ومن المناسب أن نسوق إليك نموذجا من أشعارهم. وسترى فى كثير منها سمة العلم الخشنة، وجفاف عباراته. واتجاهها غالبا إلى مخاطبة العقل أكثر من مخاطبة النفس، وإلى تقرير الحقيقة أكثر من بسط الخيال.

فمن ذلك ما نظمه تقى الدين السبكى فى وصف الرافضة ـ وهم فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن على. ثم قالو له تبرأ من الشيخين أبى بكر وعمر. فأبى وقال: كانا وزيرى جدى. فتركوه ورفضوه ـ وكان قد وقف على كتاب لابن تيمية فى الرد على ابن المطهر الرافضى، فذكره وذكرهم، فقال:

إن الروافض قوم لا خلاق لهم | من أجهل الناس فى علم وأكذبه
والناس فى غنية عن رد إفكهم | لهجنة الرفض واستقباح مذهبه
وابن المطهر لم تطهر خلائقه | داع إلى الرفض غال فى تعصبه
لقد تقول فى الصحب الكرام ولم | يستحى مما افتراه غير منجبه
ولابن تيمية رد عليه وما | بمقصد الرد واستيفاء أضربه
لكنه خلط الحق المبين بما | يشوبه كدر فى صفو مشربه .. الخ[1]

ومن نظم تقى الدين بن دقيق العيد فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، قوله:

ياسائرا نحو الحجاز مشمرا | اجهد فديتك فى المسير وفى السرى
وإذا سهرت الليل فى طلب العلى | فحذار ثم حذار من خدع الكرى
فالقصد حيث النور يشرق ساطعا | والطرف حيث ترى الثرى متعطرا
قف بالمنازل والمناهل من لدن | وادى قباء إلى حمى أم القرى[2]

ومن نظم شهاب الدين بن حجر العسقلانى فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً، قوله:

لام العواذل كل صاد للقا | وملامهم عين الخطا لو يعلموا

(١) طبقات الشافعية ج٦ ترجمة التقى السبكى. (٢) الفوات ج ٢ ص ٣٠٥

لا يعلموا بين الهـــوى لـكنهم لاموا عليه لأنهم لم يفهموا
إن أبرمونى بالمـلام فإن لى صبراً سينقض كل ما قـد أبرموا
ما شاهدوا ذاك الجمـال وقـد بدا فأنا الأصم عن الملام وهم عموا ... الخ[١]

ليس معنى ذلك أن شعرهم كله على هذا الغرار . ولـكن عذوبة الشعر وسحره ورقته كانت تعاودهم بين الفينة والفينة . وربما كان للغرض الشعرى الذى طرقوه أثر فى ذلك .

فمن نظم تقى الدين السبكى قوله فى الغزل :

قلبى ملـكت فمـا به مرمى لواش أو قريب
قـــد حزت من أعشاره سهم المعـــلى والرقيب
يحييه قربك إن منـــت ولو بمقدار تغيب
يا متلفى ببعـاده عنى أما خفت الرقيب[٢]

ومن رقيق غزل تقى الدين بن دقيق العيد قوله :

بالذى استعبد أروا ح المحبين لذاتك
وبلطف من معانيـــك يرى من حركاتك
وبنور الحسن إذ يحـــويك من كل جهاتك
وبسر فوق ما يد رك طرفى من صفاتك
لا تذقنى الموت فى صد ك عنى بحيـاتك[٣]

ومن رائق غزليات ابن حجر العسقلانى قوله :

طيف لمن أهوى ألمـا يطوى ذيول الليل لما
أهلا به لو أن طر فى للمنـام يذوق طعما

---

(١) ديوان ابن حجر ، مخطوط . (٢) الطبقات السبكى ج ٦ فى ترجمة التقى السبكى .
(٣) الطبقات ج ٦ ص ١٠

ونعم لقد أعييت فى طلب الخيال خيال نعمى
فاعجب اصب يدعى علما يحاول فيه خصما . . الخ[١]

شعراء أميون

ومنهم أيضا على سبيل المثال : الشعراء الأميون :

إبراهيم المعمار : كان شاعراً جريئا رقيق الشعر عذب العبارة لاذع النقد من النكتة . وهو صاحب البيتين الآتيين المشهورين :

قد بلينا بأمير ظلم الناس وسبح
فهو كالجزار فينا يذكر الله ويذبح[٢]

وشرف الدين بن أسد المصرى ، قال عنه ابن شاكر الكتبى فى كتابه : «فوات الوفيات» إنه كان شاعرا ماجنا متهتكا ظريفا . وله شعر وزجل وموشحات ، وكان شاعرا مطبوعا قليل اللحن ، وله مؤلفات عدة ونوادر وأمثال[٣] .

وابن الربيع « مجاهد بن سليمان بن مرهف » ويعرف بالخياط . ومن شعره يخاطب برق نجد :

أعد يا برق ذكر أهيل نجد فإن لك اليد البيضاء عندى
أشيمك بارقا فيضل عقلى فوا عجبا تضل وأنت تهدى
ويبكيك السحاب وأنت ممن تحمل بعض أشواقى ووعدى
بعثت مع النسيم لهم سلاما فما عطفوا على له برد[٤]

والأمير بيبرس الفارقانى . قيل : وكانت له مشاركة فى العلم . وكان يزن الشعر بالطباع ، وينظم منه مالا تمجه الأسماع . ومن شعره يتغزل :

ديوان ابن حجر ، مخطوط .

الزهور ج ١ ص ٣٣١ ط بولاق — (٣) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٣٧

فيات ج ٢ ص ١٨٠

من لى بظبى غرير بالّلحظ يسبى الممالك
إذا تبدى بليــــل جلا سـنـاه الحوالك
من حور رضوان أبهى لكنه نجــل مالك(١)

وغيرهم . . .

هؤلاء الشعراء أميون لم ينالوا شيئا من معرفة القراءة والكتابة . ففاتهم — ولا ريب — شيء كثير من ثقافة العصر ومعارفه .

ومسألة الشعراء الأميين مسألة يجمل بنا أن نشير إليها فى تؤدة وهوادة ليستقيم لنا أن ندال بوجودهم على حياة مصر الشاعرة الملهمة التى أنجبت وولدت شعراء أخلدوا ذكرها ، ورفعوا منارها ، وأذاعوا مآثرها . وكانوا رجعا حسنا لبيئاتها .

والحق أنه قد دخل فى عداد الشعراء ، أو دس نفسه بينهم ، عدد من الذين نسميهم : « الشعارير » أو « المتشاعرين » وهذا يقع فى كل عصر من عصور الأدب وبخاصة فى عصور العامية .

وقد عناهم — فى عصر المماليك — الشاعر مجد الدين الخياط بقوله :

وفى متشاعرى عصرى أناس أقل صفات شعرهم الجنون
يظنون القريض قيام وزن وقافية وما شاءت تكون(٢)

وهؤلاء لا وزن لهم فى مجال الحديث عن الشعر . ولكن الذى يعنينا هنا هو الإشارة إلى الشعراء الأميين الذين أجادوا — بالرغم من أميتهم — نظم الشعر الفصيح .

يعنينا ذلك ، لأن بعض مؤرخى الأدب يعتبرهم من سقط الشعراء ، وكلفا

---

(١) توفى الفارقانى عام ٨٠٠ هـ — راجع بدائع الزهور ج ١ ص ٣٥١ ط بولاق .
(٢) الدرر الكامنة ج ١ رقم ٣٤٢

فى وجه شعراء العصر ينبغى إزالته . ويتخذ وجودهم دليلا على انحطاط الشعر والشعراء ، وعلى ضعف ثقافتهم ، ويقول إن الشعر قد هان أمره حتى اقتحم ميدانه الأميون . . .

وكأن إجادة الكتابة والقراءة وحسن المطالعة ، المصدر الأساسى للثقافة وإجادة الشعر ، وليست الموهبة الشعرية والفطرة الفنية هى الأساس الأصيل والدافع الأول .

ونحن لا ننكر كما أشرنا ـ أن الثقافة والاطلاع والأخذ بنصيب من العلم ، زاد ضرورى للشاعر الحريص على التجويد . ولكن ذلك وحده لا يخلق الموهبة ولا ينضج الشاعرية

وقد كان كثير من شعراء الجاهلية ، وممن عاش بعدهم فى عصور الفصحى ، أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، ومع ذلك نظموا الشعر الجيد الرائع ، والجزل الممتع البديع . ذلك لأنهم كانوا أدباء أرباب مواهب ، وشعراء ذوى فطر فنية . لا لأنهم كانوا فصحاء بالسليقة ، وإن كانت فصاحتهم عصمتهم من الزلل ، وجنبتهم مزالق اللحن .

والأميون من شعراء العصر المملوكى ، كانوا قد ورثوا عن أسلافهم فساد السليقة ، وباتوا مغمورين فى العامية والاستعجام . ولكن إلى جانب ذلك كانت لهم مواهب وفطر فنية شاعرة ، دفعتهم إلى النظم فأجادوا ، ولو إلى حد ، والتزموا الفصحى ولم ينحرفوا عنها إلا غرارا . ولم يسلم فحول الشعراء ـ بل وفصحاء الشعر من قبل ـ من الانحراف واللحن . .

فهذه إذن حسنة من حسناتهم ـ لا سيئة من سيئاتهم ـ ينبغى أن نذكرها لهم وأن نمجدها فيهم ، وأن نحمدهم عليها . فقد دللوا ـ على أقل تقدير ـ على خصب مصر وطيب تربتها المنجبة ، وعلى قدرتها على الإخصاب فى الحقل الشعرى ، وعلى حسن إيحائها إلى بنيها سواء منهم المتعلم أو الجاهل ، والقارىء أو الأمى . وبحسبك

لهؤلاء ثقافة ماجربوا فى الحياة وما اختبروا من أحداثها وماسمعوا من أخبارها.

وهؤلاء الأميون المحسنون ، خير ـ فى رأينا ـ فى ميدان الشعر ، من بعض المثقفين الذين فاتتهم فطرة الشعر وفنية النظم ، ثم أصروا على تعاطى هذه الصناعة فلم يحسنوا ولم يجيدوا . ولا يزالون مصرين . . .

ثقافة الشعراء

أما من عدا هؤلاء وهؤلاء من الشعراء ، فعدد ضخم وطبقات متلاحقة وأجيال متعاقبة ، تضمهم فيمن تضم ، وتجمعهم فيمن تجمع . وسننوه بهذه الطبقات أو الأجيال الشاعرة فى حديثنا عن أثر البيئة الاجتماعية .

ونعنى بهذا العدد ، البقية ، وهم أكثر الشعراء . وقد نالوا من الثقافة العلمية والثقافة الأدبية نصيبا ، يختلف باختلاف الأفراد ؛ فمنهم من نال نصيبا موفورا، فبلغ ما بلغ من مجد وسمعة ، وبلغ نتاجه ما بلغ من جودة وكثرة ، ومنهم من نال نصيبا قليلا .

على أنه مما لا ريب فيه أنهم جميعاً عالجوا من ألوان الثقافة الأدبية ، أكثر مما عالجوا من ألوان الثقافة العلمية . ولهذا فارقوا الصنف الأول ـ العلماء الشعراء ـ وغلبت عليهم نزعة الأدب وظللتهم ألوية الشعر ، فعاشوا أكثر ما عاشوا مخلصين للفن مشغولين بهواتفه ، مسحورين برقاه ، مسبحين فى محرابه .

وبلغ بعضهم فى ثقافته بعامة حدا كبيرا أثر فى نتاجه حتى خوله أن يقتعد مقعد الزعامة الأدبية ، ويمسك بيده زماما من أزمتها ، ويصبح قدوة يقتدى بها غيره من أفاضل الشعراء والأدباء ، ويصبح صاحب لواء يسير فى ظله أتباع وأشياع . أو يصبح صاحب منهج ومسلك يجتمع عليه الخلصان والمحبون .

وإليك مثلا الأديب الكبير محي الدين بن عبد الظاهر ، وقد استطاع بأدبه

ونبوغه فى الإنشاء أن يصل إلى مناصب ديوان الإنشاء . وما عتم أن أصبح صاحب هـــذا الديوان فى عهد الملك الظاهر بيبرس . وسن للديوان كثيرا من رسومه وتقاليده الكتابية حتى قيل إن دستوره للديوان ظل مرعيا ومتبعاً طول العصر المملوكى إلى أن زال الديوان فى العصر العثمانى .

وقد ألف كتابه « الروضة البهية فى أخبار القاهرة المعزية » وهو كتاب مفقود، وقد استفاد منه من ألف بعده فى خطط القاهرة وذكروه ونقلوا عنه ، كالمقريزى. وهو دليل على سعة ثقافته .

ولابن عبد الظاهر باع طويل فى ميدان الشعر، فقد كان متابعا ـ إلى حد كبير ـ أحداث السياسة فى زمانه لقربه منها ومن الحاكمين ، فردد أنباءها فى شعره وسجل الكثير منها ـ كما رأيت عند حديثنا عن أثر البيئة السياسية ـ ونظم فى المدح والغزل والوصف وغير ذلك . واتجه فى أسلوبه اتجاها بديعيا .

وإليك مثلا الأديب البارع شهاب الدين بن فضل الله العمرى ، تثقف فدرس علوم العربية على الشيخ كمال الدين بن قاضى شهبة وقاضى القضاة شمس الدين بن مسلم . وأخذ الفقه عن شهاب الدين بن المجد عبد الله ، والشيخ برهان الدين العزازى. والأحكام الصغرى على الشيخ تقى الدين بن تيمية الحرانى ، والعروض على الشيخ شمس الدين بن الصائغ وعلاء الدين الوداعى . وقرأ على الوداعى جملة من دواوين العرب . ودرس الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهانى . واللغة والنحو على أثير الدين أبى حيان [١].

وقد استطاع بأدبه ونبوغه فى الإنشاء أيضا أن يصبح من كتاب ديوان الإنشاء المعدودين فى القاهرة ودمشق .

---

(١) فوات الوافيات ج ١ ص ٩

وقد ألف كتابه المشهور « مسالك الأبصار » وهو مجموع تقويم وتاريخ وأدب وقصص وسير وأخبار ومجتمع نصوص . وله كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » ، وقد ضمنه النص على قوانين ورسوم ديوان الإنشاء فى شتى مكاتباته ومراسلاته وابتدع فيها ما ابتدع ، وزوده بكثير من النماذج الطريفة لكل قانون وكل رسم ، وهى من إنشائه .

ولابن فضل الله العمرى باع طويل أيضاً فى ميدان الشعر . وقد وصف وتفكه وتغزل وتشوق ونقد ، وراسل وطارح إلى غير ذلك .

والشاب الظريف شمس الدين محمــد بن سليمان الذى توفى فى نحو السابعة والعشرين من عمره . وترك شعرا دل على ثقافة أدبية محمودة ، ودل على منهج فى أسلوب الشعر رقيق ، حتى استحق بذلك لقبه الذى أطلق عليه .

ولا بأس من أن ننقل إليك ما وصفه به شهاب الدين بن فضل الله العمرى ، قال :

« نسيم سرى . ونعيم جرى وطيف ، لابل أخف موقعاً منه فى الكرى ، لم يأت إلا بما خف على القلوب . وبرىء من العيوب . رق شعره فكاد أن يشرب ، ودق فلا غرو ، للقضب أن ترقص ، وللحمام أن يطرب .

ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان . وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتتان بشعره ، وخاصة أهل دمشق . فإنه بين غمائم حياضهم ربا . وفى كمائم رياضهم حبا . حتى تدفق نهره . وأينع زهره .

وقد أدركت جماعة من خلطائه لايرون عليه تفضيل شاعر ، ولا يروون له شعرا إلا وهم يعظمونه كالمشاعر . لاينظرون له بيتا إلا كالبيت . ولا يقدمون عليه سابقا ، حتى ولو قلت : ولا امرأ القيس ، لما باليت .

ومرت له ولهم بالحمى أوقات ، لم يبق من زمانها إلا تذكرة ، ولا من إحسانها إلا تشكره . وأكثر شعره ، لا بل كله رشيق الألفاظ ، سهل على الحفاظ . لايخلو من الألفاظ العامية . وما تحلو به المذاهب الكلامية . فلهذا علق بكل خاطر ، وولع به كل ذاكر .

وعاجله أجله فاخترم وأحرم أحباءه لذة الحياة وحرم »[1] .

وصفى الدين الحلى الناشىء ببلاد العراق ، والمطوف فى آفاق البلاد العربية ومنها مصرها وشامها . لم تفصح كتب الأدب والتاريخ عن مدى ثقافته ونوعها وأسماء شيوخه . سوى أن ابن حجر العسقلانى روى : «أن صفى الدين تعانى صناعة الأدب فمهر فى فنون الشعر كلها . وتعلم المعانى والبيان وصنف فيها » .

والناظر فى ديوان صفى الدين يجده قد كتب فى مقدمته مانصه : « إنى كنت قبل أن أشب عن الطوق وأعلم مادراعى الشوق . بهجا بالشعر نظما وحفظا . متقنا علومه معنى ولفظا . وامقا بسبك القريض كارها للكسب بالتقريض » .

وروى الصفدى أن صفى الدين نظم الشعر وهو ابن سبع سنوات .

ويفهم من هذا كله أنه مال منذ حداثته إلى الأدب والشعر اطلاعا وإنتاجا . فأجاد وأفاد وبلغ الغاية من أشعاره وأهدافها حتى سارت بها الركبان .

ونظرة يسيرة إلى ديوانه ورسائله ومؤلفاته تفصح لك عن مقدار ما خط به من الثقافة الأدبية الواسعة ، ويبدو لك جليا مقدار سعة معجمه اللغوى سعة أقدرته على الأسلوب ومكنته من زمامه يوجهه كيف شاء . ويبدو لك أيضا ضخامة ما قرأ من أشعار السابقين وفهم مناهجهم ، حتى تمثلها فى نفسه واهتضمها . وبذلك امتلك ناصية التعبير وطرق التصوير يعلو بها ويهبط ويستوى حسبما يشاء ، ويبدع ويبتكر أو يقلد ويحاكى وفق هواه .

---

(١) فوات الوفيات ترجمة الشاب الظريف ، نقلا عن مسالك الأبصار ج ٢ ص ٢٦٣ ؟

وملأ جعبته بألوان البديع ودراسة المعانى والبيان . لقد درسها دراسة الفقيه العالم لا الشاعر الناظم فحسب. فوجهه هذا إلى ابتكار فن جديد هو فن البديعيات. فنظم بديعيته وضمنها ألوانا من البديع بلغت نحوا من مائة وخمسين لونا . ثم شرحها فى كتاب لطيف .

وروى أنه قبل نظم البديعية قرأ سبعين كتابا ، وأنه قبل تأليف شرحها قرأ مائة وأربعين كتابا(١) .

وجمال الدين بن نباتة : الذى كان أمير شعراء زمانه ، كان أبوه أستاذا للحديث فرواه له ، وعلمه علوما غيره . وقدمه إلى شيخ عصره الفقيه الراوية التقى الورع تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى فأحبه الشيخ وعنى به ، ولعله رواه الحديث وهو صغير فيمن يروى ، وعلمه مع من يعلم . وكان قد اختار له كتاب الحماسة ليقرأ فيه . وقد أباح له مكتبته يقرأ من كتبها ما يشاء ، وقد حدث ابن نباتة عن الإمام تقى الدين قال : إنه « ناولنى كتابا فإذا هو فى الأدب — أحسبه من الذخيرة لابن بسام — فنظرت فيه فاستغرقت ، فجاء أبى ولم أشعر بمجيئه . فتعجب من تمكين الشيخ إياى لنظرى فى كتبه. وكان ذلك كشفا من الشيخ . وتولعت بالنظم من ذلك الحين » . ونظم الشعر حقا ولم يبلغ الحلم .

وقد أخذ علوم الحديث عن الشيخ غازى الحلاوى ، وعن الشيخ عبد العزيز الحصرى . وسمع على هـذا الآخير مجموعة من الأحاديث خرجها له والده شمس الدين . وممن أخـذ عنهم الحديث أيضا عبد الرحيم الدميرى وابن خطيب المزة . وسمع عن الأبرقوهى السيرة النبوية بقراءة الشيخ فتح الدين بن سيد الناس . — وقد أجازه كثيرون .

وبالاطلاع على شعر ابن نباتة يشعر القارىء تماما أنه كان كثير التقليب

---

(١) الدرر الكامنة فى ترجمة الحلى ج ٢ رقم ٢٤٣٠ — وفوات الوفيات ج ١ ص ٣٥٦ .

فى كتب الأدب وتاريخه والتاريخ العام، كما كان متمكنا من اللغة وقواعدها وبلاغتها، خبيرا بمعانى كلماتها. وهذه هى الذخيرة التى عاونته على بلوغ القمة فى إبراز مذهبه فى التورية والاستخدام وغيرهما من ألوان البديع.

ومؤلفات ابن نباتة خير شاهد على سعة علمه وكثرة أدبه وتنوع محفوظه من شتى العلوم والمعارف ما بين تاريخ وتقويم وحوادث أدبية ولغة وغير ذلك. وكذلك مجموعاته ومختاراته.

ومنها مجمع الفرائد وسرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون، وزهر المنثور وهو فى فن الترسل. والفاضل من إنشاء الفاضل، وخبز الشعير، وتلطيف المزاج فى شعر ابن حجاج. وغير ذلك، عدا ديوان شعره ورسائله النثرية[١].

وتقى الدين بن حجة الحموى: أديب زمانه وشاعره، ومنشىء الديوان الشريف بمصر على عهد المؤيد شيخ. كان واسع الثقافة ضليعا بعلوم العربية وبخاصة علوم البلاغة، مطلعا على أدب العربية وتاريخه فى العصور السابقة له كافة، وكان ناقدا ذواقة مقننا للأسلوب، ترى ذلك ماثلا فى خزانة أدبه وكتابه «كشف اللثام» وغيرهما

وقد تتلمذ للشيخ تقى الدين بن الخيثمى الحنفى فقيه حماة وقاضيها. وتتلمذ فى الأدب والعربية على العلامة شمس الدين الهيتى. كما تتلمذ على الشاعر عز الدين الموصلى صاحب البديعية التى عارضها ابن حجة فيما بعد وكذلك أخذ عن قاضى القضاة علاء الدين على بن القضامى.

ومن الطريف ما رواه ابن حجة فى خزانة الأدب إذ قال: إنه وهو فى مطالع شبابه، مدح تمربغا الأفضلى الشهير بمنطاش الأشرفى. وكان تمربغا حينذاك كافلا لحماة. وذلك بقصيدة رائية بديعة. وقرأ أبياتا منها على شيخه قاضى القضاة علاء الدين على بن القضامى الحنفى. ومنها هذا البيت:

---

(١) ابن نباتة المصرى أمير شعراء المشرق لعمر موسى باشا ط دار المعارف ص ٢١٠، – راجع أيضا الدرر الكامنة والوافى بالوفيات ج ١

كأنما الهـــام أحـــداق أضربها سهد وأسيافه فى الحرب طيب كرى

فقال له شيخه : إن أبا الطيب هو أبو عذرة هذا المعنى ، حيث قال :

كأن الهام فى الهيجاعيون وقد طبعت سيوفك من رقاد

واستحسن شيخه منه ما فى بيتـه من زيادات فى المعنى فى قوله : « أضربها سهد » . وفى قوله : « طيب كرى » .

فأقسم ابن حجة أنه ماطالع حتى اليوم ديوان المتنبى ، وماكان طالع إلا ديوانى ابن نباتة والحلى[١] .

ونرى أن ابن حجة وهو فى مطـالع شبابه قد قرأ ديوانى أكبر شاعرين فى العصر المملوكى وهما ابن نباتة والحلى ، ويضم كل ديوان آلافا مؤلفة من أبيات الشعر فى مختلف الفنون والأغراض .

ولا بد أن ابن حجـة قرأهما قراءة الدارس الواعى ، الفطن اليقظ . وهى دراسة واسعة .

هذا ، وأمامك كتب ابن حجة شاهدة على فضله وعلمه وثقافته ومنها خزانة الأدب ، وكشف اللثام وتأهيل الغريب ، وثمرات الأوراق ، وغيرها[٢] .

وبرهان الدين القيراطى : رأس الشعراء والأدباء بعد حلبة ابن نباتة ، وقد أدركه وراسله وأخذ عنه وسلك طريقته فى البديع والتورية ، وقد درس الأدب وطلب العلم ولازم علماء عصره إلى أن برع فى الفقه والأصول والعربية والحديث . وقد سمع صحيح البخارى على ابن شاهد الجيش وسمع منه مشيخته . وكذلك سمع من حسن بن السديد ، وسمع جزءا من السجستانى ، وبعض الغيلانيات على غيره . وقد حدث بالقاهرة ببعض مروياته ، وتتلمذ له كثيرون لعلمه وأدبه ومنهم

---

(١) خزانة الأدب باب الموارده .

(٢) راجع ترجمة ابن حجة فى الضوء اللامع للسخاوى وتاريخ حماة للصابونى ط عام ١٣٣٢ وبحماة .

أبو الفضل العراقى والحافظ نور الدين وبدر الدين البشتكى والجمال بن ظهيرة وولى الدين أبو زرعه وشمس الدين بن الجزرى ونجم الدين المرجانى ، وغيرهم .

وله الشعر البديع والنظم الرقيق . وقد تناول كثيراً من فنون الشعر ، بل هو أحد المفتنين فيه . نظم فى الغزل والخمريات والوصف والإخوانيات من عتاب وشوق ومدح وغير ذلك .

من أسباب نشاط الشعراء

هذه الطوائف من كرام الشعراء ارتزق كثير منهم عن غير طريق الشعر . وأفراد قلائل - كابن نباتة - استناموا إلى التكسب به وحده . فعاشوا فى شظف من من العيش ، وفى ضيق بالحياة أما الباقون فقد ثنوا عنان العزم إلى غير الشعر فاحترف منهم بالكتابة من احترف . وبالتجارة من تاجر ، وبالعمل فى حرفة ما من عمل . وقد أشرنا إلى هذا الوضع فى غير هذه المرة . وذلك لأنه لم يكن من سياسة الدولة ولا من تقاليد السلاطين والأمراء أن يحتضنوا الشعراء ويغدقوا عليهم الأموال والهبات ، كما كان أمراء العرب وملوكهم وخلفاؤهم قديماً يفعلون .

وقد كان ذلك قميناً بأن يقتل فيهم المواهب ، أو يقلل من كفايتها ، أو يعوق عملها الفنى . لولا أن تعلقت هذه المواهب بما تعلقت به من الأسباب التى تعينها على الحياة ، وتساعدها على العمل ، وتفتح أمامها سبيل البروز - كالكائن الحى الذى يدفعه حبه للحياة أن يتشبث بكل سبب من أسبابها يعرض له .

وفى البيئة الثقافية تلاقت مواهب الشعراء ببعض هذه الأسباب . وتلاقت فى البيئة الاجتماعية بأسباب أخرى سننوه بها فى حينها . وإليك بعض الأسباب أو الوسائل التى تلاقت بها هنا ، فكانت حوافز لهـا حفظت لها الحياة وهيأت لها العمل .

والرغبة فى إظهار العلم : قد تكون أولى هذه الحوافز ، ولعلها كذلك أبرزها

وأوضحها . ولا نعنى بها أن الشعراء — وقد أخذوا ، أو أخذ بعضهم بنصيب من العلم ، قل أو كثر ، عمدوا إلى إظهار ثقافتهم وإبراز معارفهم ، فيما ينظمونه من الشعر ، بمعنى تغذية الشعر بالفكرة . وتلوين الشعر تلويناً علمياً ، تتحول فيه الأفكار إلى تصورات أدبية ، أو تصطنع وسائل لإكمال الصورة الأدبية ، وتتميم الخيال الشعرى ، وصيانته من النقص والسطحية والضيق وضعف اللون وبطء الحركة وما إلى ذلك .

لا . وإنما كانت المعارف والأفكار العلمية هى نفسها مادة النظم ، التى عنوا بإخراجها شعراً ، بدلا من أن تكون نثرا . وهذه المعارف والأفكار تواضعت العصور واعتاد العلماء والمؤلفون أن يعبروا عنها بالنثر وأن يكتبوها إنشاء فى مؤلفاتهم ، بل اعتادوا أيضاً أن يصطنعوا لها من النثر أساليب خاصة هى الأساليب العلمية التى تنأى عادة عن مسارح الخيال الشعرى والتصويرات الأدبية ، وتنحو نحو الترتيب المنطقى وسوق المصطلحات ونحو ذلك .

ولكن فى العصر المملوكى اتجه كثير من الشعراء إلى نظم هذه المعارف والأفكار العلمية وإخراجها فى قصائد تطول أو تقصر ، وتزويدها بما ينبغى للأساليب العلمية أن تزود به . فنظموا فى الفقه والمواريث والأحكام المختلفة ، وفى النحو والبلاغة والعروض والتاريخ وغير ذلك كما سنرى .

هذه ظاهرة من ظواهر الأدب الطاغية فى العصر المملوكى . ويرجع وجودها فى رأينا ـ إلى أن عدداً كبيراً من الشعراء الذين فطروا منذ الصغر على نظم الشعر ـ وكان من المحتمل أن يكون لنا منهم شعراء مجيدون وأدباء ممتازون ـ اتجهوا إلى دراسة العلوم والتخصص فى بعضها حتى صاروا فيها أساتذة وأعلاماً وأئمة . ولكنهم لم ينسوا الشعر ، وهو موهبة حبيبة إلى نفس صاحبها أثيرة عنده ، لا يطاوعه قلبه على هجرها ولا التجافى عنها ، بل هو يعود إليها بين الفينة والفينة يستروح انفسه ويستلهم لخياله ويخلو إلى أحاسيسه . وهكذا عاد هؤلاء

العلمـــاء إلى موهبتهم الشعرية للاسترواح والاستلهام والإخلاد طلباً للسكينة والطمأنينة النفسية ، وتجريب الخيال . فنظموا ونوعوا فى نظمهم . وكان فى جملته نظم الأفكار والمعارف .

لقد وجدت موهبتهم سبيلا من السبل إلى الحياة ، ووسيلة من الوسائل للحركة والعمل ، وأداة من الأدوات تعينها على الإنتاج،فاتخذتها حافزاً وسبباً لاستمرار وجودها واطراد نموها . وهكذا تنفست عن طريق النظم .

ربما يكونون قد سبقهم بعض العلماء بهذه الظاهرة . هذا لا يمنع أن نقول إن علماءنا الشعراء استجابوا لوحى البيئة ووحى النفس ، استجابوا لمنطق التفاعل بين فطرهم وسياق العصر ، ولاحاجة لهم إلى تقليد أو محاكاة .

على أنك لو تتبعت آثارهم فى هذا الباب — وسنتتبعه معا فى وجازاتنا ولاريب — ترى أنهم يكادون يكونون أهل هذه الصناعة ، ويخيل إليك أنهم مبتكروها أو أول المتيقظين لهـا ، لـكثرة ماطرقوه من أبوابها ، ووفرة ما أنتجوه فى كل باب .

وعلى هذا نظموا فى حقائق العلوم ، ونظموا البديعيات وهى فى علوم البلاغة والبديع ، وكتبوا الاستفتاء والفتوى شعرا ، وسألوا وأجابوا ، ولاغزوا وحاجوا ، إلى غير ذلك مما سنشير إليه .

وحب البديع : عامل هام من عوامل نشاط الشعر . وانتشار البديع وتعلق الشعراء به فى عصر من العصور ظاهرة أسلوبية جديرة باسترعاء النظر وبالدرس التعليل . وما هى — فى رأينا — إلا طور حتمى من أطوار حياة الأساليب الأدبية .

وهى ظاهرة شديدة الارتباط بحياة المجتمع وطريقة تذوق أفراده وجماعاته لملابسات حياتهم فى شتى نواحيها . ولابد أن أهل العصر المملوكى عاشوا فى عصرهم

عيشا بديعيا . أقصد أنهم فى تصوراتهم وفى تصويراتهم وعباراتهم كانوا يصدرون عن حيل بديعية ومسالك طريفة من مسالك البديع . كاصطناع التورية والاستخدام والمطابقة والتضمين ونحو ذلك . وأنهم فى هذا متأثرون بمظاهر عصرهم وبآيات حضارته ومستواها . وقد كانت حضارة ملونة مزدانة تجنح نحو حب الظهور والمبالغة والتهويل والالتواء والزخرف . بدا هذا فى مواكب السلاطين وخروج المحمل وإقامة معالم الأفراح فى الزواج والموالد والأعياد والمواسم . وبدا فى الصناعات والفنون ومنشآتها وأدواتها كالمنابر والثريات والبسط والزجاج ونحو ذلك .

على أن الأوضاع السياسية القائمة حينذاك كانت تدعو إلى اصطناع هذه الأساليب البديعية ، لما تتطلبه هذه الأوضاع من احتيال فى مخاطبة الحكام ، والتواء ضرورى فى محادثتهم ، خوف غضبهم أو بطشهم . فالمصانعة كانت ضرورية ، وهى فى أسلوب المتكلم أحق بالرعاية حينذاك .

نريد أن نقرر أن الحياة السياسية والاجتماعية شريكتان فى إقرار البديع فى ألسنة الناس والجماهير ، وفى طبعها بطابعها . ولكن للحياة الثقافية من ذلك أوفى نصيب وأكبره . ذلك لأن الأدباء — كما درسنا — نشئوا على ما كان قد نشأ عليه أسلافهم من الكتاب البديعيين فى العصرين الفاطمى والأيوبى ، وأخذوا عن القاضى الفاضل مذهبه وطريقته ، وأخذوا عن ابن الأثير صاحب المثل السائر ، وتأثروا بذلك دراسة وتذوقا ، فسحروا بمذاهب المتقدمين فى هذه الصناعة . وعاونتهم على هذا أو عاون على سحرهم وانبهارهم وإقرار هذه المذاهب فى نفوسهم وأذواقهم ، نظرتهم إلى القرآن الكريم وطريقة دراستهم لأساليبه ، فقد رأوا فى كل نظم من نظم آياته لونا بلاغيا أو بديعيا ، وأخذوا أنفسهم بالاقتداء به والنسج على منواله . حتى أربت أنواع البديع عندهم على ما كان عند أسلافهم ، وزاد عددها زيادة صارخة وتنوعت تنوعا ، للعقل فيه — على ما نعتقد — أكثر

ماالذوق . لقد بلغت أنواع البديع نحو مائة وخمسين نوعا . وتنوع النوع الواحد إلى أنواع كثيرة . وإليك الجناس مثلا ، فمنه التام والناقص ، ومنه المركب والمطلق والمذيل والملفق ، إلى غير ذلك . . .

ومهما يكن من شيء فقد كان البديع وألوانه المعدودات فيما مضى من العصور الأدبية ، مسلكا من مسالك الشعر ، وقالبا من قوالب الأساليب . ولكنه في عصر المماليك أضحى غاية من الغايات التي ينظم الشعر من أجلها ، وهدفا من الأهداف التي يتبارى الشعراء ويتنافسون في سبيل الإجادة فيها وبلوغ الغاية منها . لقد ملك حب البديع على الأدباء والشعر نفوسهم وألسنتهم ، حتى أصبحوا يدورون في فلكه ، ويرون البلاغة كل البلاغة في إجادة أنواعه وفي ابتكار الأفكار والمعاني أحيانا ، وفقا لوحيه ، وصياغتها في قوالبه . وقد أقبلوا بجمع نفوسهم على إصابة أهدافه ، وشلغهم شاغله حتى أنتجوا في بابه وبدوافعه . الكثير الرائع المبتكر المعجب : وبذا صار البديع أحد أسباب النشاط الشعري ، وإن كان غاية من أهم غاياته .

وبسبب حبهم للبديع وولوعهم به ، حمي وطيس المنافسة بينهم ـ كما أشرنا ـ وداروا في أجواء اللغة بحثاً عن مفرداتها وما بينها من تضاد أو اشتراك أو ترادف وغيره من خصوصيات الألفاظ ، وافتنوا في التقاط ما منها يجود فيه المجاز أو الاستعارة أو الكناية أو غيرها . وأسرعوا إلى الشعر يصوغونه ويضمنونه ما التقطوه ، مصنفين منه ما حلا لهم من ألوان البديع

وكان قصارى كثير منهم ـ أحيانا ـ نظم البيت أو البيتين أو المقطوعة فحسب ، دون القصيد الطويل ، مكتفياً بما ضمنه من الجناس أو التورية أو الاستخدام أو غير ذلك .

وكثيراً ما تتداعى الخواطر على لفظ تعذب فيه التورية — مثلا ـ فيتهالك عليه عدد من الشعراء ، يسبكونه في قوالبها ، كل منهم بحسب ذوقه وتصوره

ومقدرته الفنية . وهنا قد تتشابه الأفكار وتتماثل الصور ، فتحدس السرقة وتظن الظنون . بل قد يندفع بعضهم إلى السرقة السافرة تحت تأثير حمى البديع ، غير مبال بالعاقبة .

وهكذا — كما ترى — فتح لهم حب البديع والتعلق به بابا واسعاً للنظم ، ومجالا فسيحة للنشاط ، فتنافسوا وعارضوا وطارحوا وسرقوا . . . وأكثروا من نظمه فى مقطوعاتهم الغزلية والوصفية ونحوها ، وملئوا به أيضاً بطون مطولاتهم .

وسنحدثك فى الفصل الخامس حديثاً مفصلا عن نتاجهم فى هذا الباب ، مدعوماً بأمثلته وشواهده .

والنقد الأدبى : قد تأثر فى هذا العصر تأثراً واضحاً بولوع الأدباء بالبديع . وهو دائما أحد الحوافز إلى النشاط الأدبى والشعرى . والنقد الأدبى — كما نفهم الآن — هو النظر فى النتاج الأدبى لأمة أو فرد ، لمعرفة مدى فنيته ولونها ، متخذين من الموازين الأدبية السليمة مقياساً للحكم على صدقه وقيمته ، وإبراز محاسنه ومساوئه . ومعنى هذا تحليله وتعليله لفظاً ونظماً وفكرة . وتوضيح المؤثرات فيه على اختلافها ، ومبلغ استجابته لبيئاته . ومدى تأثره بغيره من الآداب ، وتأثيره فيها .

والناقد يحتاج إلى سعة من اللغة والأدب والعلم . ودراسة دقيقة لمذاهب النقد والبلاغة قديمها وحديثها ، مع دراسة اجتماعية ونفسية حاذقة عميقة تتناول الفرد والمجتمع .

والنقاد بأحكامهم وإرشاداتهم — يعبرون غالباً عن ذوق معاصريهم وحاجات عصرهم ، ويوجهون الأدباء إلى ماينبغى .

وقد عاش النقد الأدبى وعلوم البلاغة ، قبل العصر المملوكى . وشهدا أطوارا من الدراسة والبحث والتحول والإضافة والتنظيم ، حتى بلغا حداً من النضج محمودا . وكان لذلك كله آثار بعيدة المدى واضحة المعالم فى اتجاهاتهما فى العصر المذكور . ومن ثم فى التأثير فى أساليب الأدب شعرا وكتابة .

وأهم ما يجبهنا من ذلك ، ذوق بديعى عام استحوذ على الأدباء والنقاد جميعا ، لم يعتمد على ما خلفه الأقدمون من قواعد فى النقد البيانى فحسب . وإن كانت هذه القواعد من أهم دعائمه ومصادر إلهامه ، وإن كان قد جمع كل أبواب البلاغة قديمها وجديدها تحت راية البديع .

ولقد أشرنا من قبل ، إلى مذهب القاضى الفاضل . وأشرنا إلى مدى تأثر أدباء العصر به . لقد كان القاضى الفاضل علما من أعلام الأدب شعرا وكتابة . وابتدع فيهما طريقته التى أساسها الإكثار من المحسنات . ومنها الجناس والطباق والتورية والاستخدام ، والإمعان فى اصطناع التشبيه والاستعارة والتلميح إلى الحوادث والنوادر ، والتوجيه بالمصطلح ، والابهام والإقتباس ، وغير ذلك .

وقد انتشرت طريقته هذه — على ما وصفنا — فى العصر الأيوبى ، ونهج نهجه فيها أدباء العصر المملوكى كتابا وشعراء . حتى ظهر شاعر مصر الكبير جمال الدين بن نباتة ، فسار على دربه وتعصب لطريقته وأبرز معالمها ، واتجهت عنايته إلى إجادة التورية والاستخدام ، ومزج بين التورية والجناس فخفف بها ثقله وأزال عقادته . وهكذا ، حتى لا نغلو إذا ذهبنا مذهب ابن حجة الحموى ، وعددنا ابن نباتة صاحب مذهب فى أساليب الكتابة والشعر .

وسار أدباء العصر المملوكى تحت هذين اللواءين : اللواء الفاضلى واللواء النباتى . وانطبع بهما الذوق العام حتى أصبحا أساسا وميزانا يزن به النقاد أسالب الأدباء .

ترى ذلك ماثلا بوضوح فى كتاب « حسن التوسل » للشهاب الحلبى ،

و « خزانة الأدب » لتقى الدين بن حجة الحموى وهما فى مقدمة كتب النقد الأدبى فى ذلك العصر . لقد تأثرا تأثراً ملحوظا بمنهج القاضى الفاضل وابن نباتة . الأول بالقاضى الفاضل وابن الأثير والثانى بهما وبابن نباتة .

ولم يقتصر الاهتمام بالنقد على ذلك ، بل انساق صلاح الدين الصفدى ، مع ولوعه بالجناس ، إلى تكلفه تكلفا شديدا . وألف فيه وحده كتابا أسماه « جنان الجناس » . فتهكم به ابن نباتة وقرأه « جنان الخناس » . وحمل ابن حجة عليه حملة شديدة لهذا الولوع والتكلف . وكذلك حمل عليه كل من شهاب الدين بن أبى حجلة ، وبدر الدين البشتكى(١) .

وتوالت سرقات الأدباء بعضهم من بعض . وتفاقمت سرقات الصفدى من شعر ابن نباتة . فألف ابن نباتة فى ذلك كتابا سماه « خبز الشعير » جمع فيه بين شعره المسروق وشعر الصفدى .

وأشار ابن حجة فى كتابه « خزانة الأدب » فى أكثر من موضع إلى هذه السرقات جميعا وسجل منها نماذج متعددة . ومن الطريف أن ابن حجة نفسه وقعت منه سرقات شعرية تعقبها أكثر من أديب . ومنهم معاصره « شمس الدين النواجى » . نقده النواجى وأفصح عن سرقاته فى كتاب سماه « الحجة فى سرقات ابن حجة » .

هذا كله يشعرنا بأن النقد الأدبى كان على شىء من النضج وأنه كان أحد الشواغل الأدبية التى شغلت خواطر الأدباء . وهذا ـ ولا ريب ـ له أثره فى إنعاش الحركة الأدبية بعامة . والشعر بخاصة . إذ كانت النقدات أكثر ما توجه ،

---

(١) خزانة الأدب باب الجناس وباب التورية .

إلى الشعر ونقد الشعر من ألوان تقديره والتشجيع على نظمه ، والحفز إلى إحسانه وإجادته .

على أن النقد الأدبي كانت له أحيانا مراحات ، ومجالس يتناوله فيها الأدباء ، ويتبادلون فيه الرأى ، ويعرضون فيما بينهم ما طاب لهم من الشعر .

ومما يدلنا على ذلك ، مارواه تاج الدين السبكى فى طبقاته ، عن تاج الدين المراكشى ، أنه « دخل عليه مرة ، وهو ينشد قول ابن تقى :

حتى إذا مالت به سنة الكرى   زحزحته شيئا وكان معانقى
أبعدته عن أضلع تشتاقه   كى لا ينام على وساد خافق

وقول الحكم بن عقال :

إن كان لابد من رقاد   فأضلعى هاك من وساد
ونم على خفقها هدوءا   كالطفل فى هزة المهاد

وهو ومن عنده يقولون . إن قول الحكم أجدر بالصواب . فإنه لا يناسب المحب أن يبعد حبيبه . وينشدون قول صلاح الدين الصفدى فى ذلك ردا على ابن تقى :

أبعدته من بعد ما زحزحته   ما أنت عند ذوى الغرام بعاشق
إن شئت قل: أبعدت عنه أضالعى   ليكون فعل المستهام الوامق
أو قل فبات على اضطراب جوانحى   كالطفل مضطجعا بمهد خافق

فقال السبكى :

إن ابن تقى ، وإن أساء لفظا حيث قال : « أبعدته » فقد أحسن معنى . لأنه وصف أضلعه بالخفقان والاضطراب الزائد الذى لا يستطيع الحبيب النوم معه عليها . فقدم مصلحته على مصلحته ، وترك ما يريد لما يريد . وأبعده عما يقلقه . ولو قال : « أبعدت عنه أضلعا تشتاقه » لأحسن لفظا كما أحسن معنى .

وأما الحكم فإنه وصف خفقانه بالهدوء ، وهو خفقان يسير يشبه اضطراب سرير الطفل . وهذا نقص . .

فوقع النزاع بين المتناقشين فى ذلك ، وأرسلوا إلى القاضى شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى ، صورة سؤال عن الرجلين : ابن تقى والحكم . أيهما المصيب » .

فكتب ابن فضل الله : قول ابن تقى عليه مأخذ . لكنه قول المحب الصادق

يكفيه فى صدق المحبة قوله كى لاينام على وساد خافق

ما الحب إلا ما يهد له الحشا ويهد أيسره فؤاد العاشق[1]

وقد استطرد تاج الدين السبكى عقب ذلك ، فسجل نقداً له وللصلاح الصفدى على بيت لجرير . قال السبكى : « ويقرب من هذه النكتة أن جريراً قال :

طرقتك صائدة الفؤاد وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

فعيب عليه قوله « فارجعى » وهو نقد حسن . فليس أبشع من قول المحب لمن يحبه : « ارجع » .

ورأيت الشيخ « صلاح الدين الصفدى » نفع الله به ، قد قال راداً عليه :

يا خجلة لجرير من قول كفانا الله عاره

طرقتك صائدة الفؤا د وليس ذا وقت الزيارة

هل كان يلقى إن أتا ه خيال من يهوى خسارة

أو كان قلب حوله هو من حديد أو حجارة

فعجبت له كيف ترك لفظة « ارجعى » وهو أبشع ما عيب به على جرير . وقلت :

---

(١) طبقات السبكى ج ٥ ترجمة تاج الدين المراكشى .

أما جرير فجر ثوب العـار فى دعوى الصبابة وازدياد غرام
إذ كذب الدعوى وقال لها وقد زارته فى الغلس : ارجعى بسلام

ثم قلت : لعل الشيخ صلاح الدين إنما ترك لفظة «الرجوع» لنكارتها . وقلت :

إنى لأعجب من جـــرير وقوله قـولا غـدوت به أنـكر حاله
طرقتك صائدة الفؤاد وليس ذا وقت الزيارة فاستمع أقـواله
واعذر فلست بقـادر والله أن أحكى الذى بعد الزيارة قـاله

فلما وقف الشيخ صلاح الدين على كلامى هذا كله ، زعم أنى أعترف له بحسن النقد ، وقال :

أما جرير فلم يكن صـــبا ولكن يدعى
أو ما تراه أتتـه صـــا ئدة الفـــؤاد ولم يـع
بل قال جهـــلا ليس ذا وقت الزيـارة فارجعى
لو كنت حاضر أمره قلت ارجعى وله اصفعى

قلت : « ولا يخفى أن هذه الاعتراضات كلها لفظية ، طرقت قائلها ولم يحقق ، فإن جريراً لم يقصد رجوعها إلا للشفقة عليها من الزيارة فى غير وقت الزيارة . فجاءه الاعتراض من لفظة « الرجوع » فقط . كما جاء ابن تقى من لفظة «الإبعاد»[١]

ومما يشبه ماسبق ، بيتان نظمهما ابن أبى حجلة المغربى ، يتندر على صلاح الدين الصفدى وسرقاته من ابن نباتة ، فقال :

إن ابن أيبك لم تزل سرقاته تأتى بكل قبيحـــة وقبيح
نسب المعانى فى النسيم لنفسه جهلا فراح كلامه فى الريح[٢]

وقريب من هذا أيضا ، إنكار تقى الدين بن حجة الحموى على صفى الدين الحلى ، تفوقه فى فن الإنشاء ، فقال مع التورية الطريفة :

---

(١) المصدر نفسه . (٢) ديوان ابن أبى حجلة المغربى .

قالوا صفى الدين أشعاره ما للورى فى طرقها ممشى
وهكذا إنشاؤه مسكر قلت لهم والله ما أنشا [1]

هذا مثل أو أمثلة مما كان يشغل بال الأدباء من النقد . وما كانوا يتبادلونه من الرأى ، أو يعقبون به وهى أمثلة فيها سذاجة وسطحية . وهى أيضاً نادرة . ولكنها على كل حال ، تصور لنا أن النقد كان أحد شواغلهم فى مجالسهم وفى مراسلاتهم ونحوها .

وبإضافة ذلك إلى ما أشرنا إليه من كتب النقد ـ على قلتها ـ نستطيع أن نذكر أن النقد الأدبى ـ ونقد الشعر بخاصة والحديث عن سرقاته الأدبية ـ كانت بها عناية ، وأن هذه العناية من شأنها أن تزيد فى نشاط الشعراء ، وأن توجههم نحو ما ينبغى مما يتطلبه الذوق المعاصر لهم . وبعد ، فما هو نتاج هذا النشاط الذى حفزته الثقافة وعواملها ؟ نحدثك عنه فيما يلى .

نتاج النشاط

تناول الشعراء ـ بدافع الثقافة جملة من الأغراض الشعرية نوهنا بها هنا أو ببعضها فيما سبق من السطور والآن نفصل لك الحديث فيها بعض التفصيل . واضعين فى الاعتبار أنها صدى لألوان البيئة كلها بعامة ، والبيئة الثقافية بخاصة . فنقول :

حقائق العلوم

يقال إن نظم حقائق العلوم ابتدأه أبان بن عبد الحميد اللاحق فى العصر العباسى . ومن بعده سار بعض الشعراء على نهجه .

---

(١) مجرى السوابق . وقهوة الإنشاء ، مخطوطان بدار الكتب المصرية ـ هذا وقد سبق لنا ذكر حديث النقد فى المجلد السادس . رددناه هنا للمناسبة .

وازدهر هذا الغرض الشعرى وأثمر فى بلاد الأندلس ، إذ نظم كثير من شعرائها حقائق النحو والصرف والقراءات والتاريخ والعروض والقافية وغيرها فى قصائد قد تطول طولا غير معهود .

واشتهر من بينهم ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد ، بمنظومته فى التاريخ ، ومنظومته فى العروض . واشتهر ابن مالك النحوى بمنظومته الطويلة فى النحو والصرف ، والتى اختصرها من بعد فى ألف بيت ، فسميت « الألفية » . وكذلك الشاطبي بمنظومته فى القراءات .

وانتقل هذا اللون من النظم من بلاد الأندلس إلى مصر والشام وغيرها من دول المشرق . وعاون على انتقاله رحلة بعض علماء الأندلس إلى المشرق كابن مالك والشاطبي المذكورين .

وأعجب الناس فى عصر المماليك بهذا الضرب من النظم ويبدو أن ذلك كان بسبب نشاط الحركة العلميـــة والإقبال على نشر علوم الدين واللغة وتعلمها . ووجدت موهبة الشاعر فيه سببا لحياتها ونشاطها ونموها واستمرارها وإنتاجها . فتعلقت به ، على نحو ما أشرنا . وأقبل الشعراء على نظم الحقائق العلمية ليبسروا للطلاب سبيل الإلمام بها وحفظها وسرعة استحضارها وقت الحاجة . فحبكوا مسائلها وقيدوا شواردها وقهروا حقائقها على أن تجتمع وتكتنز وتتركز فى بيوت من الشعر تسكن فيها فتعيش أبدا . ودللوا بذلك على سعة علم وإحاطة معرفة .

ولا نشك فى أن هذه المنظومات عاونت على حفظ مسائل العلوم وأصولها ، وسهلت على الناشئين استذكارها . ثم إنها أصبحت متونا علمية طريفة احتاجت من بعد إلى شراح وموضحين ومن ثم هب لها فريق من العلماء والمتخصصين ووضعوا لها المؤلفات الشارحة الموضحة ، متراوحة بين الطول والقصر ، لتشرح للطلاب ماغمض فيها ، وتفصل ماأجمل مع تزويدهم بالأمثلة والشواهد . ومنهم من استدرك

عليها أو نبه أو حشى . . وهكذا تعددت الشروح وتنوعت وتوالت وكان لنا منها ثروة علمية عظيمة القيمة لايستهان بها .

وتراءى لبعض العلماء اختصار المطول ، وتوضيح الموجز . فتعددت المختصرات والموجزات .

وبدهى أنه لاذنب لهذه المنظومات العلمية ولا لناظميها ، إذا كان العلماء من بعد قد وجدوا فيها غنية وكفاية فوقفوا عندها ، ولم يتجاوزوها إلى غيرها ، أو لم يكادوا يتجاوزونها .

ومما سهل نظم العلوم والفنون فى هذا العصر ، كما رأيت ، أن كثيراً من علمائه كانوا شعراء بالفطرة ، موهوبين عدلت بهم ظروف حياتهم وضرورة السعى لطلب الرزق والجاه ، عن طريق الشعر إلى طريق الفقه والعلم . فلما قبسوا من كل من هذين مقداراً رأوا فى هذا الضرب من النظم ما يجمع بين رغبتهم الفطرية ، ورغبتهم الطارئة المكسوبة فى حفظ العلوم والفنون . فزاوجوا فيه بينهما .

وفى رأينا أن نظم حقائق العلوم ، يدل فى جملته على مقدرة هؤلاء الناظمين وعلى أنهم أوتوا نصيباً من الشاعرية ـ ذلك لأنهم استطاعوا أن يسخروا قوالب الشعر لصب هذه الحقائق فيها ، وحفظها . ولو لم يكونوا قادرين على الشعر ما استطاعوا ذلك ولاعتاص عليهم النظم . وإن كان هذا أشبه بصب العدس المطهو اليابس فى أوانى الفالوذج ، أكسبه الشكل دون أن يكسبه المذاق .

ولعل مانظموه من ذلك ، يربو نتاجه على نتاج أى عصر آخر منه . ولا نبالغ إذا قلنا إن عصر المماليك كان عصراً ذهبياً لهذا الضرب من النظم . كما وتنويعا وطولا . فقد أربت بعض القصائد على ألف بيت .

وظفر «التاريخ» بخاصة بعناية ملحوظة ، إذ نظموا فى حوادثه وفى سير رجاله ،

منظومات لا عدد لها ونظموا فى الفقه والمواريث والقراءات والمنطق والعروض والنحو والسيرة النبوية ، بل ونظموا فى الحساب والمساحة .

ولا بد لنا أن نسوق إلى القارىء طرفا من أخبار هذه المنظومات ، ليتبين إلى أى مدى بلغت عنايتهم بها . فمنها :

أن محي الدين بن عبد الظاهر له منظومة فى سيرة الملك الظاهر بيبرس .

وأن شهاب الدين بن عربشاه المتوفى عام ٨٥٤هـ ، له قصيدة فى العروض عدد أبياتها ١٨٣ بيتا سماها : « جلوة الأمداح » .

وأن صلاح الدين الصفدى المتوفى عام ٧٦٤هـ له أرجوزة نظم بها كتابا لابن عساكر فى أمراء مصر . واسمها « تحفة ذوى الألباب » .

وأن برهان الدين البقاعى المتوفى عام ٨٨٥هـ له أرجوزة مشروحة اسمها « الباحة فى علمى الحساب والمساحة » ، وهى فى نحو ٢٠٠ صفحة .

وأن جمال الدين أبا الحسين الجزار المتوفى عام ٦٧٩هـ له قصيدة تاريخية ذكر فيها حكام مصر إلى الملك الظاهر بيبرس واسمها « العقود الدرية فى الأمراء المصرية »[١] .

وأن شمس الدين الباعونى المتوفى عام ٨٧١هـ له أرجوزة تتضمن أسماء الأمراء والخلفاء والسلاطين الذين تولوا مصر من أول الإسلام إلى الأشرف برسباى . وذيلها ابن أخيه بهاء الدين الباعونى إلى زمن قايتباى . واسم الأرجوزة الأولى « تحفة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء » ، واسم الثانية « الإشارة الوفية » ، وتسمى أيضا : « فرائد السلوك فى تاريخ الخلفاء والملوك » .

وأن شمس الدين الباعونى المذكور له أيضا قصيدة نظم فيها ملحة الإعراب

---

(١) راجع أخبار هذه المنظومات الخمس وأماكن وجودها فى كتاب جورجى زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ج ٣ ص ١٥٤، ١٥٦، ١٦٣ ، ١٦٨، ١٧١ على الترتيب — ومنظومة الجزار مثبتة فى حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر أمراء مصر من بنى أيوب ، الخ

للحريرى ، واسمها « ملخص تضمين الملحة » .

وأن زين الدين بن الشحنة المتوفى عام ٨١٥ﻫ له عدة أراجيز فى اللغة والدين والتصوف والأحكام والفرائض والمنطق ومنها أرجوزة فى البيان شرحها كثيرون .

وأن بدر الدين العينى المتوفى عام ٨٥٥ﻫ له منظومة فى سيرة الملك المؤيدشيخ المحمودى ، تعرف « بالجوهرة » .

وأن بهاء الدين الباعونى المتوفى عام ٩١٠ﻫ له ـ غير الأرجوزة التى أكمل بها منظومة عمه شمس الدين الباعونى ـ أرجوزة فى ٥٥٧ بيتا تشتمل على سيرة برسباى إلى قايتباى . واسمها « القول السديد الأظرف فى سيرة السعيد الملك الأشرف » . وله أرجوزة أخرى فى التربية اسمها « بهجة الخلد فى نصائح الولد » .

وأن للبارزى المتوفى عام ٦٨٣ﻫ أرجوزة تاريخية فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، وفى الدول الإسلامية فى آسيا وإفريقية والأندلس ، وفى جغرافية المملكة الإسلامية وغير الإسلامية اسمها : « مداولة الأيام » .

وأن لجلال الدين السيوطى المتوفى عام ٩١١ ﻫ قصيدة رائية نظم فيها أسماء الخلفاء وسنوات وفاتهم اسمها : « تحفة الظرفاء فى أخبار الخلفاء » .

وأن تاج الدين بن عربشاه المتوفى عام ٩٠١ ﻫ له قصيدة فى ١٢٠٠ بيتا اسمها « مرشد الناسك لأداء المناسك » . يبدو أنها فى الفقه والعقائد والتصوف[1].

وأن شمس الدين بن دانيال الموصلى المتوفى عام ٧١٠ ﻫ له أرجوزة فيمن ولى قضاء مصر من حين فتح العرب إلى عهد القاضى بدر الدين بن جماعة[2] .

راجع أخبار هذه المنظومات الخمس وأماكن وجودها فى تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج٣ ص ١٧٩، ١٨٠، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ٢٣١، ١٢٧ على الترتيب .

(٢) ـ أرجوزة ابن دانيال مثبتة فى حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر قضاة مصر .

وأن لجلال الدين السيوطى منظومة فى الفقه ، وهى نظم كتاب الروضة وتسمى « الخلاصة » .

وأن عبد العزيز الدرينى المتوفى عام ٦٩٧ هـ نظم كتاب التنبيه والوجيز » .

وأن شمس الدين البرماوى « محمد بن عبد الدايم » المتوفى عام ٨٣١هـ له منظومة فى الأصول .

وأن نجم الدين الخضراوى المتوفى عام ٦٦٣هـ نظم المفصل للزمخشرى ، والإشارات لابن سينا ، والسيرة لابن هشام .

وأن نور الدين المقرى « على بن محمد بن الناصح » المتوفى عام ٨٠١هـ له قصيدة فى القراءات[1] .

وأن زين الدين بن الوردى الشاعر المشهور الفقيه ، نظم « البهجة الوردية » فى ٥٠٦٣ بيتا ، وهى فى فقه الشافعية ، أتى فيها على الحاوى الصغير بغالب ألفاظه[2] .

وأن شهاب الدين التنوخى « أحمد بن المنجا » ـ وكان قاضيا عالما شاعرا وتوفى عام ٩٠٨هـ ـ له كتاب « العقيدة » فى نحو ٧٠٠ بيت[3] .

وأن شمس الدين بن القيم المتوفى عام ٧٥١هـ له قصيدة نونية فى السنة ـ أى فى العقائد ـ اسمها « الكافية فى الانتصار للفرقة الناجية »[4] .

وأن شمس الدين بن ناهض الفقاعى أنشأ عام ٨١٨ هـ سيرة الملك المؤيد شيخ نظما ونثرا[5] .

وأن قاضى قضاة الشافعية تقى الدين السبكى له قصائد علمية كثيرة منها قصيدة

---

(١) راجع أخبار هذه المنظومات فى حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ١٥٩ ، ١٩٧ ، ٢٠٧ ، ١٩٤ ، ٢٤٢ على الترتيب .

(٢) الدر الكامنة ج ٣ رقم ٤٧٢ .

(٣) مختصر طبقات الحنابلة لمحمد جميل الشطى ص ٧٤

(٤) المصدر نفسه ص ٦١

(٥) خزانة الأدب لابن حجة باب الابهام .

فى الروافض . وقصيدة فى حكم السماع . وقصيدة فى نحو سبعين بيتاً فى مسائل فقهية اقترحها عليه ابنه تاج الدين . وقصيدة فى حكم « لو » وبيان معانيها وشروطها(١) .

وإليك نماذج من هذا اللون من الشعر :

نظم القاضى علاء الدين القونوى المتوفى عام ٧٢٧ هـ فى « الشجاج » قصيدة من أبياتها قوله :

إذا رمت إحصاء الشجاج فها كها	مفسرة أسماؤها متواليــة . .
لجارحة إن شقت الجـلد ثم ما	أسالت دما وهى المسماة داميـة
وباضعة ما تقطع اللحم والتى	لهـا الغوص فيه للتى مر تالية
وتلك لهـا وصف التلاحم بائن	وما بعده السمحاق فافهمه واعية
وقل ذاك ما أفضى إلى الجلدة التى	تـكون وراء اللحم للعظم غاسية
وموضحة ما أوضح العظم واسمها	منقلة ثم التى هى آتيــة
فمأمومة أمت من الرأس أمة	وقد بقيت أخرى بها العشر وافية
فدامغـة تسمى بخرق جليدة	هى الأم كيس للـدماغ وحاوية
وهذا هو المشهور فى عدها وإن	ترد ضبط حكم الكل فاسمع مقاليه.. الخ

« والشجاج هو أن يشج البعض بعضا . وشج رأسه كسره . والجارحة : تطلق على عضو من أعضاء الإنسان . والباضعة : الشجة التى تقطع الجلد وتشق اللحم شقا خفيفا وتدمى ، إلا أنها لا تسيل . والتلاحم : يقال الشجة المتلاحمة ، وهى الضربة فى الرأس التى أثرت فيه ولم تبلغ السمحاق . والسمحاق : قشرة رقيقة فوق عظم الرأس ، وبها سميت الشجة إذا بلغت سمحاقا . وأفضى إليه : وصل إليه وبلغه ولمسه . والمنقلة : بكسر القاف هى الشجة التى تنقل منها فراش العظام ، أو هى قشور تـكون على العظم دون اللحم . وفراش العظم : بفتح أوله رقيقها .

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ترجمة أبيه تقى الدين .

والمأمومة الشجة التى بلغت أم الرأس . والدامغة : الشجة التى بلغت الدماغ . والجليدة : بالتصغير أم الدماغ ، وهى جلدة صغيرة رقيقة . ». (١)

ونظم الكاتب الكبير شهاب الدين بن فضل الله العمرى قصيدة فى تاريخ الخلفاء الفاطميين ومن بعدهم ، اسمها « حسن الوفاء بمشاهير الخلفاء » ، ومن أبياتها يذكر خلفاء بنى العباس بمصر :

وطار منهم نحو مصر قشعم ... قد جاءها كما يجىء الطائر
قال : أخى مستنصر ووالدى ... والده وهو الإمام الظاهر
فلقبوه مثله مستنصرا ... وذاك إن جد فهذا الناصر
وكان منه الظاهر السلطان ذا ... خوف ومن بأسائه يحاذر
فبايعوا الحاكم بعد أن أتى ... وفر فالتفت به العشائر
وهو أبو العباس أحمد الرضا ... من ولد الراشد نجم الزاهر
وقام مستكف كفاه ربه ... جميع ما يخاف ناه آمر
وبعده الواثق إبراهيم لا ... عاد ولا دارت له الدوائر
والحاكم الآن إمام عصرنا ... بشرى لنا إنا له نناصر(٢)

ولعلاء الدين الباجى ، العالم الفقيه الكبير المتوفى عام ٧١٤ هـ ، أرجوزة طويلة تكلم فيها عن شروط العالم ، وتناول فيها مسائل كثيرة عن العقائد ، وتحدث فيها عن المعتزلة والمتصوفة وغيرهم . وفى مطلعها يقول :

يقول أضعف العبيد الراجى ... مغفرة على بن الباجى
الحمد لله على التوفيق ... لفهم ما ألحق من تحقيق
وكم له من نعمة وجود ... أوله إفاضة الوجود
ثم الصلاة والسلام الأبدى ... على النبى المصطفى محمد

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ج ٦ ص ١٤٤
(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٤

ومنها فى شروط العالم :

اعلم فدتك النفس يا حبيب	أن السعيد العـــالم الأديب
وهو الذى حاز العلوم كلها	وفك مشـكلاتها وحلها
كالفقه والأصلين والتوريث	والنحو والتصريف والحديث
والعلم بالتفسير والمعـــانى	ومنطق الأمين والبيان
والبحث واللغات والأخبـار	عن قصص الماضين فى الأعصار
والطب للأبدان والقلوب	وكل عـــلم نافع مطـــلوب
واستثبت المنقول منها ضابطا	وحقق البرهان والمغـــالطا . . . الخ

ومن إشاراته إلى بعض العقائد الصوفية مبينا رأيه ، والطريقة المثلى للوصول..

وقـد علمت شطحة الحلاج فى	مقـــاله فإثره لا تقتف
إن الطريق همـــة وحال	تثمرها الأعمال لا المقـــال
واسلك طريق العلم والأعمال	كلاهما محقق الآمال
هما طريق الفوز لا محالة	يسلكها مشايخ الرسالة . . . الخ (١)

وللجلال الدين السيوطى أرجـــوزة تقع فى نحو مائة وخمسين بيتاً بعنوان « التثبيت عند التبييت » ، وهى مخطوطة . وموضوعها « أن سؤال الميت فى قبره حق ، وأن الايمان به واجب » . وقد قسمت أبيات الأرجوزة أقساما تناول كل قسم منها موضوعات مما يأتى : وجوب الإيمان بالسؤال — حكمة السؤال — الأمر بتلقين الميت بعد دفنه — اختصاص السؤال بهذه الأمة — أى أمة النبي عليه الصلاة والسلام . سؤال من لم يدفن ، والمصلوب ، ومن تفرقت أجزاؤه ، ومن أكلته السباع . ومن ينقل ، والغريق — من خصوا بأنهم لا يسألون — سؤال الكافر وأطفال المشركين — اسم الملكين وصفتهما وكيفية السؤال —

---

(١) راجع ترجمة العلاء الباجى وقصيدته هذه فى طبقات السبكى ج ٦ ص ٢٢٩

ذكر الملك الثالث والرابع — تكرير السؤال سبعة أيام . — فهذه عشرة موضوعات .

والقصيدة من ناحية النسج ضعيفة وكثيرة الضرورات والأخطاء . ومن أبياتها بعد المقدمة :

اعلم هداك الله للرشاد موفقاً لطرق السداد
أن الذى عليه أهل السنة لحجج أمضى من الأسنة
أن سؤال الملكين من قبر حق والايمان به فرض شهر
أتى به القرآن بالإشارة ووافقت آياته آثاره
تواترت به الأحاديث التى قد بلغت سبعين عند العدة ... الخ[١]

ب ـ الأسئلة والأجوبة

المساءلات أو الأسئلة والأجوبة ضرب شعرى يمكن أن يندرج تحت الضرب السابق — أعنى حقائق العلوم والفنون - لأن موضوعها شرح هذه الحقائق وبسط الكلام فيها توضيحا لها وبيانا لأمرها .

ومؤداها أن يرسل سائل سؤالا إلى أحد العلماء يستوضحه موضوعا من موضوعات العلم . ويستجليه حقيقة من حقائقه . ويكون السؤال شعرا — وقد يكون نثرا - فيجيبه المسئول بالشعر موضحا له ما استبهم ومبينا ما استغلق . وقد يرسل السؤال بغير ذكر اسم السائل ، وقد يكون هدفه منه ـ لا الإجابة ـ ولكن إثارة مشكلة أو فتنة .

وفى هذه المساءلات دلالة على يقظة فكرية لدى العامة ومن يعبرون عن

(١) مخطوطة التثبيت عند التثبيت ضمن مجموعة بمكتبة المنصورة رقم ٣٩ مجاميع ، ويوجد غيرها برقم ١٠٩ مباحث إسلامية .

مشاكلهم الدينية والعلمية ، ودلالة على شعور العلماء بضرورة حمل أمانة العلم وتأديتها للناس . ودلالة على سعة العلم والإحاطة بضروب المعرفة ، فضلا عن تأدية السؤال والجواب نظما مما يضفى عليهما طرافة تلفت الأنظار .

ومن المساءلات ما أورده تاج الدين السبكى فى طبقاته فى سياق ترجمة علاء الدين الباجى ، خاصا بسؤال ورد فى العقائد وفعل العبد . قال السبكى عن ناظم هذا السؤال مانصه :

« يقال إن هذا الناظم هو ابن الثقفى الذى ثبت عليه أقوال تدل على الزندقة ، وقتل بسيف الشرع الشريف فى ولاية الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى . وكان مقصد هذا السائل الطعن على الشريعة . فانتدب أكبر علماء مصر والشام لجوابه نظما . »[1]

وقال السبكى قبل ذلك مامؤداه :

« لما ظهر هذا السؤال الذى أظهره بعض المعتزلة وكتم اسمه وجعله على لسان أهل الذمة ، رد عليه جمع من العلماء من بحره ورويه . ومنهم : علاء الدين الباجى ، وتقى الدين بن تيمية الحرانى ، والأديب ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر ، وشمس الدين بن اللبان ، ونجم الدين الطوسى ، وعلاء الدين القونوى . »

وقد سجل السبكى نص السؤال ، وإجابات هؤلاء الأعلام عليه وهى قصائد طويلة .[2] .

وروى ابن حجر العسقلانى فى كتابه « الدرر الكامنة » أن تقى الدين بن تيمية الحرانى الإمام الحنبلى المجتهد المعروف ، لما وقف على هذه الأبيات ثنى إحدى

---

(١) راجع ترجمة العلاء الباجى وقصيدته هذه فى طبقات السبكى ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٢) راجع طبقات السبكى فى ترجمة العلاء الباجى .

رجليه على الأخرى وأجاب فى مجلسه قبل أن يقوم بمائة وتسعة عشر بيتا .
وروى أن ناظم هذه الأبيات هو محمد بن أبى بكر السكاكينى . (١)

ونص السؤال هو :

أيا علماء الدين ذمى دينكم ... تحير دلوه بأوضح حجة
إذا ما قضى ربى بكفرى بزعمكم ... ولم يرضه منى فما وجه حيلتى
دعانى وسد الباب عنى فهل إلى ... دخولى سبيل بينوا لى قصتى
قضى بضلالى ثم قال ارض بالقضاء ... فهل أنا راض بالذى فيه شقوتى
فإن كنت بالمقضى ياقوم راضيا ... فربى لا يرضى لشؤم بليتى
وهل لى رضا ماليس يرضاه سيدى ... وقد حرت دلونى على كشف حيرتى
إذا شاء ربى الكفر منى مشيئة ... فهأنا راض باتباع المشيئة
وهل لى اختيار أن أخالف حكمة ... فبالله فاشفوا بالبراهين حجتى (٢)

ونكتفى هنا بتسجيل أبيات من إحدى قصائد الرد عليه . وهى للأديب ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر . قال :

سألت ولم تعرب وكم من مباحث ... جرت من أهيل العلم فى ذى الحقيقة
وما أنت ياذمى مبتكرا لما ... توهمته من دون ماضى البرية
نعم كل شئ كائن بقضائه ... وتقديره حتما بأوضح حجة
وهل واقع ما لا يشاء بملكه ... لقد ضل من ذا رأيه فى القضية
وإن الرضا غير القضاء فلا تكن ... تنازع فيما شاءه من مشيئة
له المحو والإثبات جل جلاله ... فلا تعترض فى حكمه وتثبت

---

(١) الدرر الكامنة ج ١ رقم ٤٠٩ فى ترجمة ابن تيمية الحرانى .
(٢) طبقات السبكى ج ٦ ص ٢٢٩ .

وكن بجوابى مسلما ومسلما وكن باتباع الحق من خير أمة ..[١]

وروى تاج الدين السبكى أن القاضى صلاح الدين لعله الصفدى [٢] — بعث إلى الشيخ تقى الدين أبى الفتح محمد بن عبد اللطيف السبكى ، فى بعض مسائل النحو والفقه فأجابه الشيخ تقى الدين بأبيات من البحر والروى .

قال صلاح الدين من أبياته :

تقرر أن فعالا فعولا مبالغتان فى اسم الفاعلية
فكيف تقول فيما صح منه وما الله بظلام البرية
أيعطى القول إن فكرت فيه سوى نفى المبالغة القوية
وكيف إذا توضأنا بماء طهور وهو رأى الشافعية
أزلنا الوصف عنه بفعل فرد وذاك خلاف رأى المالكية .. إلخ

وقد أجابه الشيخ تقى الدين السبكى بأبيات من بحره ورويه ، مبينا الرأى فى المسألتين فقال .

ومن جاء الحروب بلا سلاح كمن عقد الصلاة بغير نية
فظلام كبزار وأيضا فقد يأتى بمعنى الظالمية
وقد ينفى القليل لقلة فى فوائده بنفى الأكثرية
وقد ينحى به التكثير قصدا لكثرة من يضام من البرية
وأما قوله ماء طهور ونصرته لقول المالكية
فجاء على مبالغة فعول وساغ مجيئه للفاعلية
وقد ينحى به التكثير فضلا لكثرة من يروم الظاهرية

---

(١) راجع قصة هذا السؤال والرد عليه فى طبقات السبكى ج ٦ ص ٢٣٢ .

(٢) رجحنا أنه الصفدى إذ اعتاد السبكى أن يذكره هكذا « صلاح الدين » . وكانت بينهما مودة وتراسل .

والسؤال حول « ظلاّم » هل هو لنفي الظلم أو نفي المبالغة فيه . وحول « طهور » يتوضأ منه فرد ، هل تزول طهارته كما تقول الشافعية أو لاتزول كما تقول المالكية .

والجواب أن « ظلاّم » للمبالغة ، وتأتي للنسب في الآية الكريمة ، وأن « طهور » للمبالغة وتأتي بمعنى طاهرة . وهي هنا بهذا المعنى .

وأرسل صلاح الدين الصفدي إلى الشيخ أبي حامد بن تقي الدين السبكي سؤالا في « صلاة الأعمى مأموما ومؤتما ومنفردا » . قال وكأنه يلغز في سؤاله :

أبا حامد إني بشكرك مطرب ... كأن ثنائي في المسامع شنيز
لقد حزت فضل الفقه والأدب الذي ... يفوت الغنى من لا نداك يفوز
وفت المدى مهلا إلى الغاية التي ... لها عن لحاق السابقين بروز
فأصبحت في حل الغوامض آية ... تميل إلى طرق الهدى وتميز
كأن حروف المشكلات إذا أتت ... لديك على حل العويص رموز
ملكت فأخرج للمساكين فضلة ... فعندك من در البيان كنوز
تجيد القوافي والقوى في بيانها ... فبيتك للمعنى الشرود حريز
سألت لخبر عن صلاة امرىء غدت ... بحار بسيط عندها ووجيز
تجوز إذا صلى إماما ومفردا ... وإن كان مأموماً فليس تجوز
فأوف لنا كيل الهدى متصدقا ... فأنت بمصر والشام عزيز
فهذا الذي يرجى وأنت كما ترى ... مجيد مجيب للسؤال مجيز

فأجابه الشيخ أبو حامد من بحره ورويه ، وبدأه بالثناء عليه كما بدأه . قال :

أيا من لشأو العلم بات يحوز ... ومن لسواه المدح ليس يجوز
ومن حاز في الآداب ما اقتسم الورى ... فليس لشيء منه عنه نشوز
ومن ضاع عرف الفضل منه ولم يضع ... بجدواه عرف الجود فهو حريز
سألت وما المسئول أعلم بالذي ... أردت ولا منه عليك بروز

وقلت : امرؤ لا يقتدى غير أنه   إماما وفردا بالجواز يفوز
وذاك امرؤ أعمى نأى عنه سمعه   وليس لأفعال الإمام يميز
فهاك جوابا واضحا قد أبنته   ومثلى عن حل الصعاب ضموز ... الخ(١)

وجواب أبى حامد يدل على : أنه الأعمى الأصم .

وهكذا نرى أن المساءلات الشعرية التى موضوعها حقائق العلوم كانت مجالا من مجالات الشعر ، ومظهرا من مظاهر الفكر ، ومسرحا إخوانياً تنفست فيه العلاقات الشخصية عن طريق الفن الشعرى .

الألغاز والأحاجى

وكما يكون اللغز أو الأحجية نثرا تكون شعرا . وكما يكون موضوعها أدبياً يكون علمياً . والغالب أن يقع اللغز أو الأحجية بطريق السؤال والجواب ، على نمط ما رأينا فى المساءلات .

وشعر اللغز والأحجية أحد فنون الشعر التى تناولها شعراء العصر . لقد أكثروا منه وأطالوا فيه وأجادوا .

وكما أنه مظهر من مظاهر الثقافة العلمية ، هو مظهر من مظاهر الثقافة الأدبية ، فهو مجلى للثقافتين . وهو بلا ريب فى حاجة إلى سعة فكر وقوة ملاحظة وإحاطة بالحقائق وقدرة على المماثلة وسيطرة لغوية وحيلة على التصحيف وتشابه الحروف ، تعين على التعمية التى هى أساس الألغاز والمحاجاة .

من هذه الزاوية ننظر إلى هـذا اللون من النظم الذى غمط بعض مؤرخى الأدب حقه ، ونسبوا أهله إلى فراغ الفكر وفراغ الزمن ، وأنهم قصدوا به

---

(١) القصيدتان عن كتاب « نكت الهميان فى نكت العميان » للصفدى ص ٤٩

فقط إلى التسلية . وأغفلوا جوانبه الأخرى .

وقد كتب ابن حجة فى خزانة الأدب تحت عنوان « الألغاز » وهو فى سياق حديثه عن الألوان البديعية ، فقال :

« هذا النوع ـ أعنى الألغاز ـ يسمى المحاجاة والتعمية ، وهى أعم أسمائه . وهو أن يأتى المتكلم بعدة ألفاظ مشتركة من غير ذكر الموصوف ، ويأتى بعبارات يدل ظاهرها على غيره ، وباطنها عليه » الخ[١] .

ونحن لا ننظر أيضا إلى هذا الفن الشعرى على أساس أنه لون بديعى ، ولكن على أساس أنه لون من ألوان الفكر وأسلوب من أساليبه لإخراج المعانى وتصويرها فى ثوب مزدوج تلعب فيه المماثلة والتورية والتلميحات ونحوها دورها .

ويشترك فى صياغتها ذكاء الشاعر وحدة خاطره وقدرته على الإحاطة بصفات موصوفة واختيار الألفاظ التى تعمى فيها هذه الأوصاف . والتعمية لا تكون مستغلقة ولا تكون مبهمة الإبهام كله ، بل تكون لها مفاتيح يقع عليها ذكاء الملغز إليه وتستخدمها حدة خاطره هو الآخر .

وصناعة الألغاز والمحاجاة وثيقة الصلة ـ كما رأيت ـ بباب الوصف ، والموازنة والجمع بين المتشابهات والمتضادات . ووثيقة الصلة بالفكاهة والمدح ، وهى بعد ، ضرب من ضروب الإخوانيات تعلقت بها الفنية الشاعرة فتنفست عن طريقها . فإنها لا تعدو أن تكون سؤالا وجوابا بين صديقين حميمين . أو كأنها بينهما .

وبرزت هذه الصناعة فى العصر المملوكى بروزا قويا أكثر مما برزت فى أى عصر سابق . وقد تناولوا فيها موضوعات كثيرة مما يقع فى محيطهم كالأزهار

---

(١) خزانة الأدب باب اللغز ص ٣٩٣ .

والنباتات والأطيار والأدوات المنزلية ونحوها . ومزجوا ذلك بالمديح وتبادل الثناء .

وألغز أحمد بن عبد الملك العزازى الذى كان تاجرا بقيسارية جركس ، وأرسله إلى صديقه ناصر الدين بن النقيب ، فى « شبابة » .

فقال :

وما صفراء شاحبة ولكن يزينها النضارة والشباب
مكتبة وليس لها بنان منقبة وليس لها نقاب
تصيخ بها إذا قبلت فاها أحاديثا تلذ وتستطاب
ويحلو المدح والتشبيب فيها وما هى لاسعاد ولا رباب

فأجابه ناصر الدين بن النقيب من البحر والروى ، فقال :

أتت عجمية أعربت عنهما لسلمان يكون لها انتساب
ويفهم ما تقول ولا سؤال إذا حققت ذاك ولا جواب
يكاد لها الجماد يهز عطفا ويرقص فى زجاجته الحباب[1]

وألغز القاضى شهاب الدين محمود الحلبى فى «من» ، وهو لغز علمى بعث به إلى شيخه مجد الدين بن الظهير . فقال :

وما مفرد اللفظ مستعمل لجمع الذكور وجمع الإناث
يحرك بالحركات الثلاث فيغدو من الكلمات الثلاث

فكتب إليه الشيخ مجد الدين الجواب :

قريضك ياملغزا فى اسم من يميل إلى صلة كالذى

---

(١) فوات الوفيات ج١ ص٦٢

غدا حامل المسك بجدى الجليـــس منه ويحظى بعرف شذى [١]

وألغز صلاح الدين الصفدى فى « دينار » وأرسل اللغز إلى صديقه القاضى الخطيب البليغ شهاب الدين أبى العباس أحمد بن عبد الله بن مالك . وقد قدمه بالثناء عليه والتنويه بفضله ، قال :

يا فاضلا من بحره كل الورى تغـترف
ويا خطيبا لفظـــه در وسمعى صدف
إذا عــــلا منبره قلت حمام يهتف
ويا شهابا كم به عنــــا تجلت سدف
ما مفرد مذكر منـــكر معرف
فى جمعـه لم ينصرف والجمع منه يصرف
عروضه واحـــدة وضربه مختلف
مخمس مــــدور محرف مشرف
منقش ومــــاله كف حـلاها بالشرف
أعيننـــا فى عينه شوقا له لا تطرف
أصفر لا من علـة توهنــــه وتضعف
وليس يدرى ما البـــلى ولا براه التلف
وناره لم تلتهب ودينـــه لا يعرف
بينـــه لا برحت فى سعد حيــــاة يكـف
ودمت للفضل الذى ثمـــاره تقتطف

فأجابه شهاب الدين أحمد المذكور من بحره ورويه ، وقارضه الثناء ، وحل له اللغز . قال :

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطى ج ٢ ص ٢٩٨ — نقلا عن التذكرة الصفدية .

يا واحداً في عصره لعبده يشرف
ويا إماماً علمه بين الورى لا يخلف
إن الذى ألغزته بأرض مصر يعرف
تهوى الملوك وصله كيف الكثيب المدنف
متيم في عشقه كذا الربيب الأهيف
عيوننا في عينه وما أراها تسعف
وحسنه ولفظه لمسمعى يشنف
عذراً لعبد فهمه يقصر لا بل يضعف
عن نظم در صغته لأن نظمى صدف
مرصع في ذهب موقع مؤلف
في مثله فسيدى يلغز أو يصحف
لا زلت في سعادة أذيالها ترفرف (١)

وألغز محي الدين بن عبد الظاهر في « كوز » فقال :

وذى أذن بلا سمع له قلب بلا قلب
إذا استولى على حب فقل ما شئت في الصب

وألغز أيضاً في « باب » فقال :

أى شيء تراه في الدور والكتب مجازاً هذا وذاك محقق
هو زوج وتارة هو فرد وهو في أكثر الأحايين يطرق
وطليق في نشأتيه ولكن بحديد من بعد ذلك يوثق
وهو في القلب يستوى وتراه بان تصحيفه لمن يترمق (٢)

---

(١) راجع القصيدتين في « ألحان السواجع » للصفدى مخطوط بدار الكتب المصرية الورقة رقم ١٢
(٢) تأهيل الغريب ص ٨٨ ، خزانة الأدب باب الألغاز ص ٤٨٠

ومن ألغاز جمال الدين السبكى ـ الحسن بن على ـ بن تقى الدين السبكى ، المتوفى عام ٧٥٥ هـ قوله :

يا أيهـــا البحر علما والغمام ندى	ومن به أضحت الأيام مفتخرة
أشكو إليك حبيبا قد كلفت به	مورد الخد سبحان الذى فطره
خمساه قد أصبحا فى زى عارضه	وفيه بأس شديد قـــل من قهره
لا ريب فيه وفيه الريب أجمعه	وفيه يبس ولين القامة النضرة
وفيه كل الورى لمـــا تصحفه	فى ضيعة ببلاد الشـام مشتهرة

قال صاحب شذرات الذهب ، فى ترجمة جمال الدين السبكى : « لعل اللغز فى ريباس » . وقال ابن حجر فى الدرر الكامنة فى ترجمته أيضاً ، كذلك[1] .

قيـل :

« وأما الفواخت فهى عراقية وليست بحجازية . وفيها فصاحة وحسن صوت . وصوتها فى الحجازيات يشبه صوت المثلث . وفى طبعها تأنس بالناس ، وتعشش بالدور . وهذا الحيوان يعمر . وقد ظهر منه ما عاش خمساً وعشرين سنة ، وما عاش أربعين سنة — على ما حكاه أرسطو —

وقد قال القاضى أمين الدين الأنصارى ملغزاً فى فاختة :

وما طائر يهـوى الرياض تنزها	ويسرح فى أفنانهـا ويعـــود
هجاء اسمه خمس حروف نعدها	وخمساه حرف إن تأملت مفرد
وبعدهما تصحيف باقيه إن ترد	بيانا له أفعى تبين وتشـــهد
وفيـه أخ إن تهت عنه فأخته	تدل على ما قـد عنيت وترشد

فأجابه الشيخ زين الدين بن العجمى ، حالا لهذا اللغز ، ومادحاً وواصفاً للفاختة بأوصاف جديدة ، ويلغز :

---

(١) شذرات الذهب ج ٦ ص ١٧٨ الدرر الكامنة ج ٢ رقم ١٦٠٣

أيا من له مجــد أثيل وسؤدد ... غدا دون مرماه سمــاك وفرقد
يفيد يسار المقــترين يمينه ... ويمناه من يمنى الغمامة أجود
سؤالك عن أنثى طروب ولم تزل ... على عودها فى الروض تشدو وتنشد
وتجـذبنى بالطوق حال نشيدها ... لنحو التصابى لا أطيق أفنـد
يطير بهـا نحو النجـاح جناحها ... فتبلغ ما تختار ثم وتقصـــد
وفى بطن أنثى لم تصـــور وإنما ... يصورها من حبسها من يرقد
يذكرنى تذكارها أم هـانىء ... فتشرف فى نفسى إذاً وتمجـــد
ومذبان منها الطرف أمست بعكسها ... تخاف الردى ممن لها يترصد
وإن حذفت ثانى الأخير فلم يكن ... على بخاف بل يلوح ويشهد
وأولها مــــع ما يليه وطرفها ... لنـا فاه بالمعنى الذى منه نقصـد
وحرفان منها فرد حرف لناطق ... وأف لمن بالعكس من ذاك يجحد
وتفتح فاها حـــين نفقد ثالثاً ... وتاليه يخشى من لها يتصيد
فخذه مبيناً مغضيا عن إساءتى ... فإنك للإحسان أهل ومقصد
بقيت بقاء الدهر عـــزك باذخ ... وفى مفرق الجوزا لسانك يعقد
ولا زلت فى الدنيا سعيداً مملكا ... وحظك فى الأخرى النعيم المخلد(١)

د — البديعيات

فن البديعيات صناعة فكرية أكثر منها صناعة أدبية . وهى ضرب من ضروب « شعر حقائق العلوم والفنون » : ذلك لأنه فى جملة ما نظم فيه من القصائد يدور حول ذكر لونين من الحقائق : حقائق الأصباغ البديعية ، وحقائق السيرة النبوية . ولا ننكر أن النزعة الدينية لها صلة ما بوجود هذا الفن .

(١) مطالع البدور فى منازل السرور — مخطوط بالمكتبة الأزهرية .

وهو أحد فنون الشعر المبتكرة فى عصر المماليك وقبل العصر المذكور لم يتنبه الشعراء إليه ولم تتجه نحوه خواطرهم . ومنذ ابتكاره وله سيطرة كبيرة فى دولة الشعراء امتدت إلى زمن قريب .

وأول أسباب ابتكارهم له وتنبهم له هو اتخاذه وسيلة لإظهار القدرة على سبك ألوان البديع . ومادفع الشعراء إلى ذلك إلا حبهم للبديع واعتبار ألوانه فى جملتها دعائم بلاغية تعين على جمال تصوير المعانى ودقته .

وفن البديعيات الذروة التى بلغها الولوع بصناعة البديع . وقصائد البديعيات فى الشعر شبيهة بمقامات الحريرى فى النثر كلتاهما القمة التى بلغتها صناعة البديع .

وأول ما وجه الخواطر إليه ، بردة البوصيرى كما أشرنا عند الحديث عن المديح النبوى — وهى التى مدح بها النبى صلى الله عليه وسلم مدحا ممزوجا بالوجد وإظهار الشوق إليه وإلى دياره ، وذكر سيرته الشريفة والاستشفاع به عند الله سبحانه وتعالى .

وشرف الدين البوصيرى شاعر عاش — كما حدثنا — فى مطالع عصر المماليك وتوفى عام ٦٩٥ هـ . وكان قد أصيب بفالج فاهتدى إلى نظم هذه القصيدة تمدحا بالرسول عليه السلام ، وتقربا إليه واستشفاعا به طلبا للشفاء . وقد شفى .

ومطلع البردة قوله :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وهى قصيدة — كما عرفنا — جيدة النسج كثيرة الحكمة متعددة الأغراض يجرى أسلوبها على النهج البديعى دون تكلف فى جملته ، ودون قصد أساسى إليه ، فجرى هينا كيسا يسير المئونة مقبولا ، ولم يلتزمه الشاعر فى كل بيت منها ، ولم يلتزم عدم تكرار أنواعه .

فأعجب الشعراء بعد البوصيرى بهذه البردة : بحرها وقافيتها وأغراضها ،

ونزعتها فى المديح وأخذوا يعارضونها بقصائد على نمطها . « فكانت البديعيات » .

فالبديعيات إذن ، قصائد من بحر البسيط قافيتها ميمية مثل ميم البردة . وموضوعها مدح الرسول عليه السلام والحديث عنه على طريقة البردة .

غير أن الغرض الأول والرئيسى من نظمها هو أن يتضمن كل بيت من أبياتها نوعا بديعيا واحدا على الأقل . مع الإشارة أحيانا فى البيت الى اسم النوع الذى يتضمنه ، بلفظ ما عن طريق التورية . وقد يشار إلى اسم النوع دون إيراد مثل له فى البيت .

بهذه الأمور افترقت البديعيات عن البردة ، وصارت نماذج بديعية قبل أن تكون شيئا آخر ، أو أصبحت كأنها كتاب فى البديع يستعرض أنواعه ويمثل لها .

لقد تعرض كثير من الأدباء لشرح البديعيات . فشرحوا ألوان البديع فيها دون أن يتعرضوا لشىء من السيرة النبوية الشريفة . صنع ذلك أكثر الشراح ، ومنهم بعض ناظمى البديعيات .

لم يفطن إلى هذا الفن الشعرى شاعر آخر قبل شعراء هذا العصر . إلا أن هناك شاعرا اسمه « أمين الدين السليمانى - توفى عام ٦٧٠ هـ — اتجه إلى نظم أبيات يتضمن كل بيت منها نوعا بديعيا ، دون أن يكون غرضه المديح النبوى ، ولم تكن قافية أبياته ميمية ولا بحرها من البسيط ، ولم يسم النوع البديعى وإليك أبياتا من نظمه : قال :

بعض هـذا الدلال والإدلال حال بالهجر والتـــجنب حالى
حرت إذ حزت ربع قلبى وإدلا لى صبرا كثرت من إذلالى
رق ياقاسى الفـــؤاد لأجفا ن قصار أسرى ليالى طوال .. إلخ (١) .

فى البيت الأول جناس لفظى بين الدلال والإدلال ، وبين حال وحالى —

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٧٢ .

وفى الثانى جناس خطى بين حرت وحزت ، وبين إدلالى وإذلالى – وفى الثالث طباق بين قصار وطوال .

وقصيدة السليمانى فى ٣٦ بيتا ، سار فيها على هذا النمط . وقد تكون بدء النزعة البديعيات وإرهاصا بميلاد فن جديد ، فيه هذا الالتزام وغيره .

ولكن ينبغى القول إن هناك فجوة كبيرة بين مانظمه هذا الشاعر ، ومخترعى فن البديعيات . فإن التزاماتهم فيها أكثر وأدق وذات منهج محدود وهدف معين .

على أن صفى الدين الحلى ـ وهو أول مخترع لفن البديعيات كما يقول ـ يصرح فى مقدمة شرح بديعيته بأنه ابتكر هذا الفن دون أن يتأثر بخطوة شاعر تقدمه . وسياق حديث أدباء زمانه ومابعده يشعر بأنه مبتكرها ومثلا : روى شمس الدين السخاوى فى الضوء اللامع فى ترجمة « شرف الدين السعدى » أنه عمل بديعية على طريقة الحلى [١] .

وإليك ما ذكره ناشر البديعية مما جاء على لسان صفى الدين الحلى ، لبيان غرضه من نظمها . قال :

«قال الشيخ العالم تاج الأدباء والفضلاء ، ملك الشعراء والفصحاء ، صفى الدين أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن أبى القاسم الحلى السنبسى ـ رحمة الله عليه ـ يمدح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ـ وذكر أن موجب ذلك أنه أراد أن يؤلف كتابا يحيط بجل أنواع البديع . فعرت له علة طالت مدتها واشتدت شدتها . فاتفق أنه رأى فى منامه رسالة من النبى صلى الله عليه وسلم يتقاضاه المدح، ويعده البرء من سقمه ، فعدل عن تأليف ذلك الكتاب إلى نظم قصيدة تجمع أشتات البديع . وتتطرز بمدح مجده الرفيع . فنظم قصيدة عدتها مائة وخمسة وأربعون بيتاً فى بحر البسيط تشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعا من محاسن

---

(١) الضوء اللامع ج ٦ رقم ٤٨٤

البديع . وجعل كل بيت منها مثالا شاهداً لذلك النوع . وربما اتفق فى البيت الواحد نوعان أو ثلاثة بحسب انسجام القريحة له النظم » .

ثم قال — أى صفى الدين :

« وألزمت نفسى فى نظمها عدم التكلف وترك التعسف. والجرى على ما أخذت به نفسى من رقة اللفظ وسهولته وقوة المعنى وصحته ، وبراعة المطالع والمخرج وحسن المطلع والمقطع ، وتمكن قوافيها ، وظهور القوى فيها . بحيث يحسبها السامع ، غفلا من الصنائع » .

وقال أيضاً :

« فانظر أيها الناقد الأديب والعالم اللبيب ، إلى غزارة الجمع ضمن الرياقة فى السمع . فإنها نتيجة سبعين كتابا لم أعد منها باباً . فاستغن بها عن حشو الكتب المطولة ، ووعر الألفاظ المغلغلة .

ودع كل صوت غير صوتى فإننى   أنا الصائح المحكى والآخر الصدى، الخ[1]

لم يصرح صفى الدين بأنه ببديعتيه عمد إلى معارضة البردة . ولكن هذه الفكرة واضحة كل الوضوح بدليل الاتفاق فى الوزن والقافية ونوع القافية ، وموضوع القصيدة والاتجاه فى المديح .

ومن غريب الأمر توافق صفى الدين والبوصيرى فى الدافع الأصيل لنظم القصيدة . وهو المرض ورؤية الرسول عليه الصلاة والسلام فى المنام وتقاضيه المديح من كل منهما .

ولكن بينما استجاب البوصيرى فنظم البردة متواجداً مشتاقا مستشفعاً ، إذ نظم صفى الدين بديعيته لتجمع أشتات البديع ويستعيض بها عن كتاب فيه .

---

(١) مقدمة شرح البديعية لصفى الدين الحلى .

وقد عارض البردة من بعد صفى الدين جماعة من الشعراء ، من بينهم — كما سنبينه — تقى الدين بن حجة الحموى . وقد صرح ابن حجة فى مقدمة شرحه لبديعيته بأنه يعارض بها البردة . فقال :

« وبعد فهذه البديعية التى نسجتها بمدحه صلى الله عليه وسلم ، على منوال طرز البردة » . . . الخ(١)

ومهما يكن من شىء فإن من المبتكرين إلى معارضة البردة على هذا النسق : أبو عبدالله شمس الدين الهوارى ، محمد بن أحمد ، المعروف بابن جابر الأندلسى ، الذى رحل إلى مصر والشام زمنا ، واستوطن حلب زمنا آخر ، وتوفى بالأندلس عام ٧٨٠ هـ . وهو رجل ضرير . ولهذا عرفت بديعيته ببديعية العميان .

ويتنازع فى أمر ابتكار فن البديعيات هو وصفى الدين الحلى الذى توفى عام ٧٥٠هـ . ولعل الفكرة خطرت لكلا الرجلين فى وقت واحد(٢) .

وأقبل بعد هذين الشاعرين كثير من الشعراء ، فنظموا بديعيات أخرى على هذا الغرار ، ويعارض بها بعضهم بعضا — وامتد الأمر إلى مابعد عصر المماليك ، فتوالى الناظمون وخرج بعض الناظمين عن بعض التزاماتها .

وعنى أكثر الناظمين فشرحوا بديعياتهم فى كتاب ، تحدثوا فيه غالباً عن أنواع البديع . فكان من البديعيات ومن شروحها مجموعة أدبية قيمة ، تستأهل بحثا مستقلا مفصلا ، يتناول بالحديث منشأها وفكرتها والدوافع إليها ، وطريقة نظمها ومنهج شرحها واستقصاء ما نظم منها ، وما شطر وما خمس وما سبع ،

---

(١) راجع خطبة خزانة الأدب لابن حجة الحموى .

(٢) تحدث المرحوم الدكتور زكى مبارك فى كتابه « المدائح النبوية » عن البديعيات وموضوع ابتكارها . وتحدث عنها محمد بك دياب فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » طبع مطبعة جريدة الإسلام ، بمصر بحارة السقايين عام ١٣١٤ هـ — ١٨٩٧ م . وتحدث عنها جورجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ، وقد اعتمدنا على هذه الكتب .

والمطبوع منها ومن شروحها ، والمخطوط ، وتحقيق هذا كله ، إلى بيان أهميتها فى عالم الشعر والأدب والعلم . وغير ذلك مما يستلزمه البحث .

وقد سمى صفى الدين بديعيته : « الكافية البديعية فى المدائح النبوية »[١] . وقد شرحها صفى الدين فى كتاب سماه : « النتائج الإلهية فى شرح الكافية البديعية » .

وسمى ابن جابر الأندلسى بديعيته : « الحلة السيرا فى مدح خير الورى » . وقد شرحها صديقه « شهاب الدين أبو جعفر المغربى » فى كتاب سماه : « طراز الحلة وشفاء الغلة » . [٢]

وحذا حذوهما عز الدين الموصلى المتوفى عام ٧٨٩ هـ . والتزم فى بديعيته تسمية الأنواع البديعية . وأحياناً يسمى النوع ولا يذكر المثل . وسماها « الفتح الآلى فى مطارحة الحلى » . وشرحها فى كتاب سماه : « التوصل بالبديع إلى التوسل بالشفيع » . [٣]

وقد نقد ابن حجة فى كتابه « خزانة الأدب » بديعية الموصلى نقداً مراً .

وقفى على آثارهما تقى الدين بن حجة الحموى المتوفى عام ٨٣٧ هـ . وقد دفعه إلى نظم بديعيته صديقه ناصر الدين محمد بن البارزى صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية » — أى فى القاهرة . وكان ابن حجة ينظم البيت فى معارضة بيت الحلى والموصلى ويعرضه على ابن البارزى فينقده له أو يجيزه . وهكذا حتى أتم نظمها . وسماها « تقديم أبى بكر » ، وشرحها فى كتاب جليل يعرف الآن « بخزانة الأدب » . وهو أحفل شروح البديعيات بالأدب والنقد والبلاغة

---

(١) يسميها بعضهم « الكفاية البديعية » .

(٢) ذكر ذلك ابن حجة فى خزانة الأدب فى باب الإغراق . ونسب جورجى زيدان هذا الشرح لابن جابر ، وهو وهم — راجع جورجى زيدان ج ٣ ص ١٢٤ فى ترجمة ابن جابر — والشرح مخطوط بدار الكتب المصرية (بلاغة رقم ٢٥٧) .

(٣) شرح بديعية الموصلى مخطوط بدار الكتب المصرية (بلاغة رقم ٦٠٧) .

والتاريخ . ووازن فيها ابن حجة بين بديعيته وبديعيتى الحلى والموصلى بيتاً بيتاً تقريباً .

ومن أصحاب البديعيات بعد هؤلاء فى العصر المملوكى :

تاج الدين عبد الوهاب بن عربشاه المتوفى بالقاهرة عام ٩٠١ ﻫ واسم بديعيته « شفاء الكليم بمدح النبي الكريم » .[١]

وجلال الدين السيوطى المتوفى عام ٩١١ﻫ واسم بديعيته « نظم البديع فى مدح خير شفيع » . وقد شرحها فى كتاب لطيف يسمى « شرح السيوطى » .[٢]

والسيدة عائشة الباعونية المتوفاة عام ٩٣٠ ﻫ ولها بديعيتان إحداهما تسمى « الفتح المبين فى مدح الأمين » وقد شرحتها شرحا لطيفا . طبع على هامش إحدى طبعات خزانة ابن حجة .

وهناك غير هؤلاء أفاضل من الناظمين . وقد اطرد وجود هذه النزعة إلى عصرنا الحديث .

هذا . وبدهى أن البديعيات لها أهميتها من الناحية الفنية . ولكن نزعة الصناعة بها وتكلفها أبعدتها أو أبعدت أكثر أبياتهما عن جو الشعر الأصيل ، وأفقدتها خياله الجميل وروعة تصويره وعاطفيته وسحر تراكيبه ، بل جفت فيها الحكمة الصادقة والمثل السائغ أيضاً . ولم تستطع بديعية منها أن تتعلق من البردة بغبارها . وحسبك أن تقرأ بعض أبياتها لتنتهى إلى الرأى الذى قلناه .

فمن بديعية صفى الدين الحلى قوله فى المطلع :

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم ... واقر السلام على عرب بذى سلم

فقد ضمنت وجود الدمع من عدم ... لهم ولم أستطع مع ذاك منع دمى

---

(١) راجع جورجى زيدان ج ٣ ص ١٢٧ .

(٢) شرح السيوطى مخطوط بدار الكتب المصرية (بلاغة رقم ١٣٥) .

أبيت والدمع هام هامل سرب   والجسم فى إضم لحم على وضم
من شأنه حمل أعباء الهوى كمدا   إذا همى شأنه بالدمع لم يلم ... الخ

وقد التزم صفى الدين ـ كما ترى ـ أن يحتوى كل بيت نوعا بديعيا ، دون أن يذكر اسمه . وفى الأبيات ألوان مختلفة من الجناس .

ومن بديعية تقى الدين بن حجة الحموى قوله فى المطلع :

لى فى ابتدا مدحكم يا عرب ذى سلم   براعة تستهل الدمع فى العلم
بالله سربى فسربى طلقوا وطنى   وركبوا فى ضلوعى مطلق السقم
ورمت تلفيق صبرى كى أرى قدمى   يسعى معى فسعى لكن أراق دمى
وذيل الهم همل الدمع لى فجرى   كلاحق الغيث حيث الأرض فى ضرم . الخ

وقد التزم ابن حجة أن يضمن كل بيت نوعاً بديعيا على الأقل ، وأن يورى بلفظ فيه عن اسم هذا النوع . وفى الأبيات ألوان مختلفة من الجناس . فى الثانى جناس مركب مطلق . والثالث جناس ملفق . والرابع جناس مذيل ولاحق . أما الأول ففيه براعة استهلال .

هـــذا ، ونعيد الإشارة فى أعقاب هذا الحديث ، إلى أن بعض الأدباء فيما بعد ، نظموا بديعيات لم يلتزموا فيها كل شروط البديعية التى أشرنا إليها فى مقدمة كلامنا .

فمنهم من نظمها من غير القافية الميمية ، ومنهم من نظمها من غير بحر البسيط ومنهم من نظمها فى غير المديح النبوى .

ومن الأمثلة لذلك : شرف الدين السعدى « عيسى بن حجاج » نظم بديعيته على طريقة الحلى ومن قافية الراء .(١)

---

(١) روى ذلك السخاوى فى الضوء اللامع . ج ٦ رقم ٤٨٤ ، وعيسى بن حجاج اشتهر بعويس العالية ومات عام ٨٠٧ هـ .

والأديب الشيخ محمد ناظم الملتقى، نظم بديعية قافيتها لامية، أتمها عام ١١٠٥هـ وشرحها فى كتابه « تحفة الأدباء وتسلية الغرباء » (١)

هـ — الحكمة والمثل والنصيحة

الحكمة القولة الصادقة النافذة الجامعة المعللة المنتزعة من حقائق هذه الحياة ووقائعها وتجاربها . والمثل على غرارها ولكنه منتزع من حادثة معينة قيل فيها ، وتردده الألسنة كلما وقعت حادثة مماثلة .

وللبيئة الثقافية آثارها فى إبراز هذه الأغراض وإنضاجها . وقد كانا فى جملة أغراض الشعر فى هذا العصر ، ولا سيما الحكمة وقد ترددت خلال قصائد الرثاء والمديح النبوى والتصوف والزهد والشكوى وذم الشيب والزمان ، وما إلى ذلك . وقد ينظمها الشعراء مستقلة فى قصيدة أو مقطوعة .

والحكمة — فى الحق — أوسع رحابة من أن تدور فى ميدان التصوف والزهد ، إذ حقائق الحياة التى تنتزع منها أبعد أفقاً وأنأى مدى منهما . ولكنها فى هذا العصر نزعت فى أكثر أبياتها منزع الزهد والتصوف والدين .

ونظم فى الحكمة كثير من الشعراء ، ومن بينهم بعض الفقهاء وعلماء الدين والصلحاء

غير أنها فى أغلب أمرها لم تكن وليدة دراسة وحسن نظر وتفكير رتيب فاحص ، واستنباط معلل . أى أنها لم تكن نتيجة تعاط للفلسفة ودراسة الآراء ورغبة لابتكار المذاهب وتعليلها . وإنما هى الحكمة العابرة غالباً ، العارضة خلال الأحداث ، والتى تخرج أحياناً كثيرة مخرج الوصية والنصيحة .

---

(١) راجع فهرس دار الكتب المصرية ج ٢ (بلاغة رقم ٢٧٧ — مخطوط) .

ونبدأ لك بأبى الحسين الجزار المصرى ، الذى ينصح بألا يقطع المرء عادة بر ، جرى عليها . وألا يمسك يده عمن اعتاد منه بذل المعاونة ، عقابا له على جريرة ارتكبها ، أو خلف اقترفه . وينبغى ألا يعاقب المرء بقطع رزقه ، فهذا أدعى إلى إثارة حقده وكراهيته وينبغى أن يحرص الإنسان على بذل العفو للمسىء ، فذلك أدعى إلى استبقائه . . .

يقول الشاعر أبو الحسين الجزار ، ويستدل لقوله ويضرب المثل له :

لا تقطعن عادة بر ولا　　تجعل عقاب المرء فى رزقه
واحرص على العفو فإن الذى　　ترجوه عفو الله عن خلقه
وإن بدت من صاحب زلة　　فاستره بالإغضاء واستبقه
فإن إثم الإفك من مسطح　　يحط قدر النجم من أفقه
وقد جرى منه الذى قدجرى　　وعوتب الصديق فى حقه (١)

وهذا عبد العزيز بن محمد القيسرانى المخزومى نزيل القاهرة والمتوفى عام ٧٠٩ ﻫ يتحدث عن الرزق وطلبه ، ويرى أن كل امرىء يطلب الرزق من غير الله يكون قد ضل سبيل الهدى وحاد عن نيل الأمانى . لأن الذى يعجز عن رزق نفسه كيف يستطيع أن يرزق غيره ويحقق له أمنيته فيه . يقول :

من طالب الأرزاق من عندمن　　يطعمـــه الله ويسقـــيه
يكون قد ضل سبيل الهدى　　وحاد عن نيل أمانيه
لأن من يعجز عن نفسه　　يعجز عن أرزاق راجيه(٢)

---

(١) رياض الألباب لشمس الدين النواجى ، ورقة رقم ١٠ — مخطوط بالمكتبة الأزهرية .
(٢) الدرر الكامنة ج ٢ رقم ٢٤٤٧

وتحدث تقى الدين السبكى رأس شافعية زمانه،فدعا إلى العلم والتزود بالمعرفة ، والتخلق بمكارم الأخلاق ورأى أن كمال الفتى بعلمه لا بمنصبه . وأن العلم هو علم الشريعة الإسلامية السمحة وما يتصل بها من بحث وتحقيق وتحرير البرهان وقطع المغالب . ورأى أن رتبة العلم هى أعلى الرتب وأنها أسمى من المال وغيره ، وأن العالم لا بأس عليه إذا أدبرت عنه الدنيا ومفاتنها ، فإنه قد أصاب من مشاربها صفوها . يقول فى هذه المعانى :

كمال الفتى بالعلم لا بالمناصب ورتبة أهل العلم أسنى المراتب
هم ورثوا علم النبيين فاهتدى بهم كل سار فى الظلام وسارب
ولا فخر إلا إرث شرعة أحمد ولا فضل إلا باكتساب المناقب
وبحث وتحقيق وإيضاح مشكل وتحرير برهان وقطع مغالب
وأحكام آيات الكتاب وسنة أتت عن رسول من لؤى بن غالب
إذا المرء أمسى للعلوم محالفا أضاء له منها جميع الغياهب
وينزاح عنه كل شك وشبهة وتبدو له الأنوار من كل جانب
هى الرتبة العليا تسامى بأهلها إلى مستقر فوق متن الكواكب
فدونكها إن كنت للرشد طالباً تنل خير مرجو الدنا والعواقب
ولا تعدلن بالعلم مالا ورفعة وسمر القنا أو مرهفات القواضب
وهب أدبرت دنياك عنك فلا تبل فعنها لقد عوضت صفو المشارب
فما قدر ذى الدنيا وما قدر أهلها وما اللهو بالأولاد أو بالكواعب
إذا قست ما بين العلوم وبينها بعقل صحيح صادق الفكر صائب
فما لذة تبقى ولا عيش يقتنى سوى العلم أعلى من جميع المكاسب (١)

ولما ولى تاج الدين السبكى توقيع الدست بالشام لدى الأمير علاء الدين

(١) طبقات السبكى ج ٦ ص ١٦١ فى ترجمة تقى الدين السبكى .

الماردينى نائبها ، نصحه أبوه تقى الدين السبكى بعدة نصائح تتصل بهذه الصناعة ، فى مقدمتها ألا يكتب بكفه شيئا يخشى أن يراه ماثلا أمامه يوم القيامة فيحاسب عليه حسابا عسيراً ، وألا يتناول من الأموال إلا الحلال الطيب ، وأن ينأى بجانبه عن المال الحرام ، وأن يكون شعاره تقديم النصح الخالص لصاحب الدست ، وأن تكون تقوى الله رأس ماله فى كل ما يأخذ وفى كل مايدع .

قال تقى الدين السبكى :

أقول لنجلى البر المفدى　　مقالا وثقت منه عـــراه
وليت كتابة أودست ملك　　رست أحكامه وسمت ذراه
فلا تكتب بكفك غير شىء　　يسرك فى القيامـــة أن تراه
ولا تأخذ من المعلوم إلا　　حلالا طيبـــا عطرا ثراه
ونصحك صاحب الدست اتخذه　　شعارك فالسعـــادة ما تراه
ثلاث يا بنى بها أوصى　　فمن يأخذ بهـا تحمد سراه
وتقوى الله رأس المال فالزم　　فمـا للعبد إلا من براه[1]

ويحذر لاجين بن عبد الله الذهبى ـ المولود عام ٦٥٩ هـ ـ من الدنيا وزخارفها ومتعها وباطلها ، ويهون من شأنها ويحقر من أمرها ، وينبه الخاطر إلى أن أطيب مأكول فيها يجنى من حشرة هى النحلة ، وأفخر ملبوس فيها مأخوذ من حشرة هى الدودة . وأولى بالمرء أن يتبع الحق ويعيش لأجله ، ويتيقظ إلى أن أيام الدنيا محدودة ، وأنفاسه فيها معدودة . ولا خلود فيها . ومن بعدها الحساب . يقول :

ميلوا عن الدنيا ولذاتها　　فإنهـــا ليست بمحمودة
اتبعوا الحـــق كما ينبغى　　فإنمـا الأنفاس معـــدودة
وأطيب المأكول من نحلة　　وأفخر الملبوس من دودة[2]

---

(١) طبقات السبكى ج ٦ ص ١٦٧ .
(٢) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٧٠٧ .

وهذان بيتان لشافع بن على العسقلانى المتوفى عام ٧٣ هـ ، فيهما بكاء خفى من على الأحباب الذين واراهم التراب . وفيهما أنس بهذه القبور الموحشة لما تضم من الأحبة . وفيهما العظة البالغة التى تنفر من الدنيا وباطلها وتبرز مساوئها وأنها تحرم المرء احبابه فيصبح فيها ـ وهى آهلة ـ تستشعر الوحشة منها والأنس بالقبور . يقول :

تعجبت من أمر القرافة إذ غدت على وحشة الموتى لها قلبنا يصبو
فألفتيها مأوى الأحبـــة كلهم ومستوطن الأحباب يصبو له القلب(١)

ويتعى مجير الدين اللمطى التميمى على الأخلاء المستغلين الذى لا يبذلون الود للود ، وإنما يبذلونه لرهبة من الجاه أو لرغبة فى المال . فإخلاصهم زائف ليس نابعا من القلب ، وإنما رهين المصلحة والمنفعة . لهذا أصبح لا يستريح لرؤيتهم ولا يرجو منهم نفعا . يقول :

وزهـدنى فى الخل أن وداده لرهبـــة جاه أو لرغبة مال
فأصبحت لا أرتاح منه لرؤية ولا أرتجى نفعـا لديه بحـال(٢)

ولعل الشاعر البارع زين الدين بن الوردى من أكثر شعراء العصر حكمة ومثلا ونصيحة ، وذلك فى لاميته الزاهدة .

واطردت هـذه النزعة منه فى كثير من قصائده ، وبرع فى إسداء النصيحة وسوق الحكمة وضرب المثل .

وفى إحدى قصائده الحـكيمة يرسم للمرء مسالك الحياة السعيدة ويصور له أخلاق الناس وما ينبغى له عمله إزاءها .

---

(١) نـكت الهميان للصفدى ص ١٦٣ .
(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٤ .

فهو يحذره من بنى الدنيا . ويوصيه بأن يكون فى غفلة عنهم ، لا فى يقظة لأعمالهم !! وهذا اتجاه غريب ووصية تحتاج إلى نظر وتعليل . فلعله يريد ألا يشغل المرء نفسه بأعمال الناس ، وألا يتنبه لهم حتى لا يثير ذلك فى نفسه حفيظة عليهم أو حقدا لهم أو يدفعه إلى تدبير أمر لهم ، أو يثير فى نفسه أى شاغل يشغله بهم وبأعمالهم . وهو يرمى من وراء ذلك إلى أن يكون المرء فى شبه عزلة عن الناس حتى يعيش فى طمأنينة بال وبلهنية حال .

وهو يوصى بحفظ الود القديم واحتمال الإساءة من الصديق وغفرانها له ، والإسراع إلى فعل الجميل ، فذلك ادعى إلى رده عند المناسبة . وهو يدعو إلى أن يغتنم المرء فرصة الحياة فيبادر إلى تقديم ما ينفعه فى الآخرة فالدنيا مزرعة لها ، ولتكن تقوى الله إماما له . وليعلم أن الدنيا مليئة بالمساوئ ولا مجال إلى ملافاتها إلا بمداراة أهلها ومصانعتهم حتى يسلم من أذاهم ، إلى آخر ما ينصح به . يقول :

واحذر بنى الدنيا وكن فى غفلة عنهم وجانب كل كلب ضارى
واحفظ لصاحبك القديم مكانه لا تترك الود القديم لطارى
وإذا أساء وفيك حمل فاحتمل إن احتمالك أعظم الأنصار
سارع إلى فعل الجميل وقلد الأعناق حسنى فالزمان عوارى
واجعل إلى الأخرى بدارك بالتقى تغنم فما الدنيا بدار بدار
واعمل لتلك الدار ما هى أهله عمل المدارى أهل هذى الدار
وتوخ فعل المكرمات تبرعا فالمكرمات حميدة الآثار
لا تأسفن لما مضى واحرص على إصلاح ما أبقيت باستكثار
فالمعسرون بنو كلاب عندهم واليوم أهل الفضل أهل يسار
جاور إذا جاورت بحرا أوفتى فالجار يشرف قدره بالجار
كن عالما فى الناس أو متعلما أو سامعا فالعلم ثوب فخار
من كل فن خذ ولا تجهل به فالحر مطلع على الأسرار

ولم يترك ابن الوردى فى قصيدية تلك ، الفرصة السانحة للدعوة إلى مبدئه ومذهبه الذى اعتنقه أخيراً ،وهو الخمول ! ! وينصح باتباعه،لأن الخمول مع غنى النفس والقناعة . سعادة كاملة وعز شامل ، إذ يعصم المرء من رجاء فلان واستعطاف علان . وفى سعى المرء إلى الشهرة خطر عليه فهو يعرضه للرجاء والإذلال .

وهو يطلب فى الأبيات التالية أن يعجل المرء إلى التوبة والندم إذا ابتلى بزلة وتروى فى خطيئة.ويدعوه إلى ألا يظلم الناس حذراً من دعواتهم فى الأسحار على الظالم . وينبغى عليه أن يطيل الفكر فى عواقب تصرفه حذراً من أن يقف مرة موقف الاعتذار ، فهو موقف الضعف على كل حال . وليتجه بوجهه إلى الله سبحانه وتعالى فهو مصدر المعروف دون سواه وها هى ذى الدنيا قد خلت من الأخلاء الذين يرتجون فى الشدة ويقصدون فى المحنة ، ولم يجد بينهم من يتأبى على الأوزار والخطايا ويردد ابن الوردى النصيحة الخالدة القديمة وهى الحذر من العدو مرة ومن الصديق مرارا . لأن الصديق أدرى بالسر وأعرف بالثغرة وأكشف للعيب . . . إلى آخر ما نصح به هذا الشاعر البارع . وفى ذلك كله يقول :

ما العيش إلا فى الخمول مع الغنى	وبالاشتهار نهـــاية الأخطار
واقنع فما كنز القناعة نافداً	وكفى بها عزا لغير عمارى
واسأل إلهك عصمة وحماية	فالسيئات قواصف الأعمار
وإن ابتليت بزلة وخطيئـــة	فاندم وبادرها بالاستغفار
إياك من عسف الأنام وظلمهم	واحذر من الدعوات فى الأسحار
أطل افتكارك فى العواقب واجتنب	أشياء محوجة إلى الأعـــذار
ودع الورى وسل الذى أعطـاهم	لا تطلب المعروف من أنكار
جمد الندى لجمودة الكبرا وما	جمـد الندى لبرودة الأشعار
لم يبق خل للشدائد يرتجى	فى نشر إحسان وطى عـوار

من أين يوجد صاحب مستحسن للخير أوزار على الأوزار
احذر عدوك والمعاند مرة واحذر صديق الصدق سبع مرار
فالأصدقاء لهم بسرك خبرة ولهم به سبب إلى الأضرار
واصبر على الحساد صبر مدبر قد أظهر الإقبال فى الإدبار
كم نال بالتدبير من هو صابر ما لم ينله بعسكر جرار . الخ[١]

و — الشعر الفلسفى والمذهبى

قصر شعراء هذا العصر فى جملتهم فى ميدان « الشعر الفلسفى والمذهبى » . ونعنى به الذى أساسه الفكرة المدروسة والنظرة الممحصة والبحث العميق والحديث العقلى عن الذات الإلهية وما وراء الطبيعة .

كانت قصارى مجهودهم فى هذا الباب ، إنتاج الحكمة العابرة والنصيحة العارضة القصيرة العاجلة ، التى تدور غالبا فى النطاق الإسلامى ، ولا تكاد تتعداه .

ذلك لأن علوم الدين بعامة ، والفقه والعقائد الإسلامية بخاصة ، كانت فى مقدمة علوم ذلك الزمان ، بل كانت علومه الأثيرة التى لها الصدارة فى الدروس المقررة[٢] .

وحقا كانت هناك خوانق ، وشيوخ صوفية ، ودروس فى هذه الخوانق . ولكن اعتقادنا أن الصوفية لم تكن فى هذا العصر تزاول مزاولة دراسية باحثة ، فيها علم وفكر محض . بل مزاولة رياضية فردية . فكانت عملية روحية شخصية هدفها الاندماج فى الذات الإلهية .

وهذا كله لا ينتج فلسفة رتيبة منظمة معللة مقارنة . ومن ثم كان لهذه الحالة

(١) ديوان ابن الوردى ص ٢٠٤ .
(٢) راجع المجلد الثالث من كتابنا عصر سلاطين المماليك .

صداها فى نفوس الشعراء الذين كانوا فى جملة أحوالهم بعيدين عن هذه الدراسات والرياضات. باستثناء بعض الفقهاء الذين نزعوا نزعة صوفية صحيحة وكان لهم فيها شعر صوفى زاهد اتجه نحو الحكمة والنصيحة الإسلامية، دون أن يتحول إلى دراسات فلسفية أو بحـــوث خلقية، مثل تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى، وتقى الدين السبكى. وباستثناء بعض الشعراء الحانقين على أهل الوحدة من الصوفية ممن يذهبون مذهب عمر بن الفارض فقد روى أن شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى نظم قصائد نبوية حمل فيها حملة شعواء على ابن الفارض وأهل الوحدة[١].

هذه على كل حال أحوال فردية ومن بعد، لا ترى لغيرهم فكرة مفصلة أو رأيا مدروسا معللا عن ناحية من نواحى المجتمع أو الدين أو الخلق، إلا ما ندر.

ونعود إلى الحديث عن زين الدين بن الوردى، فهو من هذا اللون النادر فى العصر الذى نحن بصدده. وقد جنح فى أخريات حياته إلى لون من الزهادة سماها «حياة الخمول». فاعتنق «الخمول» مذهبا ومبدأ عن عقيدة وثقة وإيمان. لقد قلب نظره فيه حتى علا جميع نواحيه وأطرافه، وردد الدعوة إليه فى كل مناسبة. لقد دعا الناس إلى الزهادة والرضا بحياة الخمول، بقوة وحرارة، دعوة من يرى فى هذه الحياة سعادة الناس. فى «الخمول» والتوارى عن الناس والرضا بالقليل وعدم الرغبة فى الشهرة، والانزواء بعيداً عن الأضواء قناعة من المرء وحفظ لماء وجهه وصون لكرامته ورضا بمقسومه، وابتعاد عن مواضع الذلة ومصارع الآمال.

واندفع ابن الوردى فى الدعوة إلى مذهبه، حتى عجب لنفسه كيف لم يفطن لمذهبه هذا إلا بأخرة، وحتى عجب للناس كيف يرضون بالذل فى سبيل المجد

---

(١) راجع ديوان ابن أبى حجلة المغربى.

الزائف والجاه الباطل الذى يضيع الكرامة . وأخذ ينعى عليهم كثيرا من عاداتهم وأخلاقهم ، وبخاصة ما يتنافى منها مع مذهبه .

والأبيات التالية من أبيات ابن الوردى ، تحدثك عن شيء من اتجاهه . قال :

أتهزأ بى لما أجد وتلعب ... وتعجب من حالى وحالك أعجب
ألا طالما قد كنت مثلك ساعيا ... لجاه ومال جاهدا أتطلب
وطال اجتنابى للخمول فذقته ... فطاب فأحببت الذى أتجنب
وما العيش إلا فى الخمول مع الغنى ... فشكرا لمن فى فضله أتقلب
رضيت كسادى واستخرت بطالتى ... وقلبى مسرور وعيشى طيب
وما ذاك عن مال جزيل وإنما ... كفانى كفاف والقناعة تغلب
ولو ذقتم طيب القناعة متم ... عليها ولكن بدرها يتهيب
تركت لكم عز القضاء وجاهه ... وأبعدت عنه خائفاً أترقب
فقوموا على ساقى حديد وشمروا ... لنيل علاء واهجروا النوم واطلبوا
وميلوا وجوروا واحكموا وتخولوا ... وصولوا وطولوا وانبذوا الزهد وانهبوا
ستعلم نفس أى حمل تحملت ... ليوم أسى من هوله الطفل أشيب
لقد نلت من كنز القناعة بغيتى ... وجانبت حرصى والحريص معذب
وعفت بنى الدنيا وغادرت برهم ... لغيرى فلا أشكو ولا أتعتب...الخ[1]

وابن الوردى ينوه فى أبياته بالسبب المباشر الذى دفعه إلى طلب الخمول والسعى إليه . وهو أنه كان نائب حكم فى بعض البلاد فأبعده قاضى القضاة عن مقره إلى غيره . فطلب العودة فلم يستجب له . فاستقال من الوظيفة وابتعد عن دنيا الجاه والمجد ، وارتضى حياة الخمول .

---

(١) ديوان ابن الوردى ص ٢٨١

وكان من نتائج رضاه بخموله ، بل وسعيه إليه ، تحديد رأيه فى الحظ . فقد أصبح « الحظ » فى نظره كل شىء فى الحياة . فلا هو نتيجة العمل ، ولا هو نتيجة الذكاء ، ولا هو نتيجة الكفاية .

وما دام الحظ هو كل شىء فقد استوى العلم والجهل ، بل ربما جلب العلم على صاحبه حسد الحاسدين وحقد الحاقدين . فيشوه ذلك من جمال حظه . فما الداعى إذن إلى العلم . وما ضرورته ما دام الحظ مواتيا ، والأيام باسمة ، والعيشة راضيـة .

هكذا انتقل ابن الوردى من فكرة إلى أخرى تسلمه لها . وقد لا تكون فكرته نموذجا يقتدى بها الناس . ولكنها على كل حال فكرة مبنية على منطق مقبول ، وهو منطق اليائس الذى ضاقت به حيله عن إصلاح الناس .

وفى ذلك يقول :

لا تحرصن على فضل ولا أدب ... فقد يضر الفتى علم وتحقيق

ولا تعد من العقال بينهم ... فإن كل قليل العقل مرزوق

والخط أنفع من خط تزوقه ... فما يفيد قليل الحظ تزويق

والعلم يحسب من رزق الفتى وله ... بكل متسع فى الفضل تضييق

أهل الفضائل والآداب قد كسدوا ... والجاهلون فقد قامت لهم سوق

والناس أعداء من سارت فضائله ... وإن تعمق قالوا عنه . زنديق (١)

ومن الأمثلة النادرة أيضا ، جمال الدين بن نباتة ، فقد تحدث عن اللذة . واعتقد أن من واجبه أن ينتهز فرصة حياته ليتمتع ما شاء له التمتع ، ولينعم ما أتيح له النعيم . وليطلق لنفسه عنان اللهو فى ميدانه ، وكلما أمكنته الفرصة اغتنمها ، فإن الحياة لا تعود ، وإن العمر لا يتكرر . . . والأيام تمضى سراعا .

---

(١) ديوان ابن الوردى .

يقول ابن نباتة :

فبادر اللذة يافـلان واغنم متى أمكنك الزمان
ولا تقل مشتى ولامصيف فكل وقت للهنا شريف
كل زمان يتقضى بالجذل زمان عيش كيفما دار اعتدل

وهو يرجو عذوله أن يدعه يغنم عمره ، فالأعمار تسرى سرى السحاب ولا تعود ، وأن يدع فؤاده يختار ما يختار لنفسه من أسباب اللهو قبل أن يدركه الموت ، وهو الذى سيتحمل أوزاره وخطاياه دون عذاله .

يقول ابن نباتة :

ياعـذولى خلنى أغنم عمرى إن أعمار الورى كالسحب تسرى
دع فؤادى والذى يختـاره ما على ظهرك ياعاذل وزرى
دع غوانى مجلسى تصدح لى فغدا تبكى البواكى حول قبرى
يا نديمى وهـذا يومنا يوم صحو فاجعلاه يوم سكر(١)

هكذا كان رأى ابن نباتة فى اللذة واغتنامها . غير أنه لم يلح فى ترديد هذا الرأى ، ولم يلح فى الدعوة إليه ، كما ألح ابن الوردى فى الدعوة إلى الخمول واعتزال الناس والكف عن السعى إلى الشهرة والمجد . وإنما وردت أبيات ابن نباتة فى ذلك لماما لماما فى قصائده .

ويبدو أن دواعى الحاجة والبؤس التى طوقت حياة ابن نباتة ، لم تدع له فرصة للتفلسف واعتناق فكرة معينة عن الحياة ، والإلحاح فى الدعوة إليها .

والشاعران — كما ترى — على طرفى نقيض ، وإن كانت حوافزهما واحدة .

---

(١) ديوان ابن نباتة :

ز ـ الشعر القصصي والتمثيلي

والشعر القصصي والتمثيلي ، يصفان فى أغلب أمرهما نواحى المجتمع . ولكن ذكرهما فى فصل البيئة الثقافية أليق ، وذلك لأنهما نتائج للعلم والمعرفة والملاحظة والتجربة .

وقد قصر شعراء العصر المملوكى فى ميدانهما . وهو تقصير اطرد إليهم من العصور الأدبية السابقة وإذا كانت قد بدرت بوادرهما فى تلك العصور ، فإنها لم تجد ما ينميها .

وقد رأينا كيف برع الشعراء المذكورون فى نظم حقائق العلوم والفنون ، وكيف أجادوا . وفى جملة ما نظموه أخبار التاريخ وأسماء الملوك وطرف وجيزة من أخبارهم . ولقد اعتبرنا ذلك ضربا من نظم العلوم والفنون .

ولو أنهم أطالوا فى القص ، وفصلوا فى الأخبار . وأضفوا على ما سطروا ثوبا من الحماسة ، وشفعوه بشىء من التحليل والتعليل والنقد ، وبدت فيه ملامح شخصيتهم ، وزودوه بالقليل من الخيال وجمال الأداء ، وربطوا الحوادث بعضها ببعض فى تسلسل مقبول جميل ، لاستطعنا أن نعد منظوماتهم فى هذا الباب شعراء قصصيا .

وبمناسبة هذا الحديث ، نسجل خبرين رواهما شمس الدين السخاوى ، قال :

« إن شمس الدين بن الزين ، الشاعر الأديب ، نظم قصة يوسف عليه السلام ، فى ألف بيت » .(١)

و « إن الشيخ ابن ناصر الدين ، الشاعر ، أنشأ قصة ظريفة نظما ونثرا ، على

---

(١) الضوء اللامع ج ٧ رقم ٦٠٩

لسان مدينة المنصورة فى قاضيها شمس الدين بن كميل . » (١)

وليست هاتان القصتان بين أيدينا ، حتى نستطيع الحكم عليهما . ونعرف مدى استيفائهما لشروط القصة ، أم هما لونان من ألوان المنظومات التاريخية .

ومهما يكن من أمر ، فى هذا الخبر ما يشعر بأن ثمة كان اتجاه إلى صناعة القصة الشعرية ، وأن ثمة كان استعداد لنظمها .

اللطائم والأشناف : (٢)

ولعل هذه الأرجوزة التى نظمها فخر الدين بن مكانس ، وسماها « اللطائم والأشناف » ، دليل حاسم على مانذهب إليه ، من أن الاستعداد لنظم القصة كان موجودا ، وعلى تمام الأهبة . ولعل حياة الإغفال والإنكار التى كانت تغمر أكثر الشعراء ، سبب من أسباب كبت هذا الاستعداد .

أما « اللطائم والأشناف » فتقع فى نحو ٥٧٣ بيتا . وهى فى أغراض مختلفة . ومنها على الترتيب : الحمد والصلاة ، وبيان الغرض العام من نظمها ، وهو النصح والإرشاد ، وضرب المثل وسوق الحكمة ، والدعوة إلى طلب العلم ، والنصيحة بالتمسك بالأخلاق الفاضلة ، كالأمانة وبذل المعروف وتوقى دعوة المظلوم ، والتحذير من مصاحبة الملوك ، والدعوة إلى قلة الكلام ، وغير ذلك من الأغراض .

ويهمنا فى هذا المقام ، التنويه بأن الشاعر كان يسوق فى خلال أغراضه هذه ، قصصا طريفة حوارية ، توضيحا لها وتأكيدا لغايته منها .

ومن هذه القصص :

قصة الثور مع الحمار : وتتلخص فى أن ثورا وحمارا عاشا معا فى كنف صاحب

---

(١) الضوء اللامع ج ٨ رقم ٢٢٧ .

(٢) اللطائم : جمع لطيمة وهى وعاء المسك — والأشناف : جمع شنف وهو القرط .

لهما . وكان الحمار يمرح فى بلهينة من العيش ، ويسعى فى طمأنينة وراحة ، بينما كان الثور يشتق فى عمله ويكد ويتعب . فأشفق عليه الحمار ، ونصحه بالتمارض توسلا إلى الراحة. فتمارض الثور . فتركه صاحبه وأراحه من العمل ، حتى يبرأ . وساق الحمار محله ليؤدى عمله فى السقى والحرث . فشقى الحمار فيه حتى سقم وهزل بدنه . وفطن إلى أنه ما أصابه هـذا الأذى إلا بسبب فلتة لسانه وعدم حيطته ، ونصيحته للثور . فأخذ يفـكر ويدبر للخلاص من ورطته ، ودفع هذا الأذى عن نفسه . ثم أتى إلى الثور المتمارض الذى نعم بالراحة زمنا طويلا ، وزعم له أنه سمع صاحبهما يقول : « إن الثور إذا استمر على حاله من المرض ، يذبحه ويستريح منه . » . ودخلت الحيلة على الثور ، وخشى العاقبة على نفسه ، ونشط وأبدى استعداده للعمل ، فساقه صاحبه إليه . . . فنجا الحمار بسبب حيلته . .

ويقول الشاعر فى ذلك .

كم من أسـير بقيود قيله ... وواقع فى الشر من فضوله
فى قصة الثـور مع الحمار ... عـبرة من يكون ذا اعتبار
أمثالها عند جلاها الحـكم ... وذاك أن الحـكما قد زعموا
بأن ثورا وحمارا كانا ... فى دوحـة يانعة زمانا
فـكان فى الروض الحمار يمرح ... والثور فى بحر الشقاء يسبح
قد كل من حرث الأراضى والنصب ... والدوران المستمر والتعب
فبينما بات يئن ليـله ... ولاله فـكر يجيد الحيـله
وافى الحمار نحوه مستفهما ... وقال : ما بالك تشكو الألما . . الخ

وتقع هذه القصة فى نحو ٣٦ بيتا .

ومنها قصة زرادشت : وهى قصة ساخرة ، عن زرادشت الذى كان حـكيما عالما ، ادعى النبوة ، وادعى الحلول ، وأن الخلود رهن بهذا الحلول ـ كما تقول القصة ـ ولم يفهمه أتباعه تمام الفهم ، بل حسبوا أنهم يخلدون ، إذا هو حل فى

جسدهم ولهذا قبضوا عليه وذبحوه ، وطهوه وشربوا حساءه ، راجين الخلود من وراء ذلك . فكانت هذه خاتمته ، بسبب خطئه واندفاعه فى مقاله .

ومنها قصة الحجاج مع العراقيين : وقد أيدها بقصة أخرى ، وصف فيها غابة يونانية أتاها حاطب بفأسه فقطعها .

ومنها قصص أسطورية ، كقصة الملك الذى رأى مناما وطلب إلى وزيره تعبيره . فاستعان الوزير بكاهن ، فعبر له الرؤيا . وكان قد اتفق معه على أخذ مال منه فى نظير ذلك ثم رفض أخذ المال . . . إلخ

ومنها قصة اللص والدراج (١). عند الأمير صقطب ، الذى ولى أمر قوص ، وعزم على محاربة اللصوص ، فشكا إليه أعيانها ، من لص كثير الاعتداء عليهم ، أعجزهم القبض عليه . فاجتهد الأمير صقطب فى البحث عن هذا اللص ، وبذل فى سبيل ذلك كثيراً من الحيـــل . حتى مر به غلام رائع الحسن ، محتشم البزة ، فاستقدمه الأمير وأمنه . ثم سأله عن نفسه ، فإذا هو اللص المطلوب . . .

ثم إن الأمير صاحبه ونادمه ، وجعله من جلسائه ، وجعل يترقب به الفرص ، حتى احتال عليه وأوقعه باعترافاته . ثم قبض عليه وقتله . . . إلخ (٢)

وفى الشعر التمثيلى أو القصصى المسرحى ، لا نرى مناصا ونحن نعترف بتقصير الشعراء فيه — من أن نشير إلى ماورد منه فى كتاب « طيف الخيال » لابن دانيال الموصلى — المتوفى عام ٧١٠ هـ — وقد أشرنا إليه فيما مر ، إشارة وجيزة عندما تحدثنا عن الألعاب . وأوضحنا أن لعبة « خيال الظل » كانت إحداها ، وأن تمثيليات « طيف الخيال » أعدت لهذه اللعبة .

---

(١) الدراج : على وزن رمان ، طائر .

(٢) القصيدة بتمامها فى ديوان فخر الدين بن مكانس ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ، ص ٢٠ .

ولقد احتوى هذا الكتاب الفريد على ثلاث تمثيليات ، تختلف كل منها عن الأخرى فى موضوعها . وقد سماها المؤلف « البابات » ،

فالأولى :

تتلخص فى أن شابا جنديا فارسا ماجنا . طوى جزءا من شبابه فى مجونه . واسمه الأمير «وصال» . ثم أراد أن يتوب بالزواج . فتقدم إلى إحدى الخاطبات وأوصاها أن تتخير له غادة حسناء فخطبت له واحدة ، لم يرها قبل ليلة زفافها . وفى تلك الليلة ، اتضح له أنها عجوز قبيحة شوهاء . فثارت ثائرته . . . ثم ذهب إلى بيت الله الحرام حاجا ، تائبا توبة كاملة . . . .

ويتضح للقارىء من خلال فصول القصة ، ومن أحاديثها وحوارها ، صور اجتماعية ، ونقدات طريفة ، وأوصاف لطيفة ، تكشف عن كثير من نواحى المجتمع إذ ذاك : وتسمى هذه القصة « طيف الخيال » .

والثانية :

تتلخص فى بيان أحوال الغرباء المحتالين ، والأدباء المستجدين ، الذين يتجولون فى الآفاق ، ويعرضون على الناس أدبهم وألعابهم .

وهم فى تجولهم وألعابهم ، أشبه « بالسرك » المتجول ، فى أيامنا الحاضرة .

وتتضمن القصة ، خمسا وعشرين لعبة مختلفة ـ أشرنا إليهـا فيما مر ـ ويبدو كل لاعب على المسرح فيعرض لعبته ، ويستجدى الحاضرين ، ثم ينصرف . ومن بينهم من يلعب ومعه حيوان كالفيل أو القطط أو الكلاب . أو يلعب لعبة رياضية ، أو يعرض بعض المعاجين أو الأدوية أو الرقى . . الخ

وهذه القصة الاستعراضية ، تصور ألوانا من الألعاب المعروفة فى ذلك الحين . وتسمى قصة « عجيب وغريب » . وغريب هو مقدم القصة فى أول أمرها . ومن بعده يتتابع اللاعبون . ثم يختتمها . (١)

---

(١) توجد قصة أخرى اسمها « عجيب وغريب » فى دار الكتب المصرية : لا يعلم مؤلفها وهى =

والثالثة :

تتلخص فى أنها قصة عاشق ومعشوق . والعاشق يقص قصته ويصف وجده وحنينه . ويقابله معشوقه — وهو من حى الحسينية — فيتناجيان ويتواصلان آنا ويتجافيان آنا .. وتسمى هذه القصة « بابة المتيم والضائع اليتيم ».

هذا والبابات الثلاثة تعتبر من صميم الأدب الشعبى موضوعا وأسلوبا معا . أما الموضوع فأمره واضح ، مما فصلناه . وأما الأسلوب فهو حوار وقص وتمثيل ، يمتزج الشعر فيه بالنثر ، مع كثرة النثر . وشعره أبيات كاملة تتخلل فقرات نثره . وتشيع فى سطورها العامية بألفاظها وتراكيبها وعباراتها السائرة ، وتفيض بالفكاهيات والمجونيات المبتذلة ، وبالأدب المكشوف . وربما كان ذلك فى جملة أسباب عدم نموها

وإليك سطوراً من البابة الأولى ، التى نعتبرها أكثرها حبكا وأوفاها بشروط المسرحية : —

نشيد « الريس » :

يخرج « الريس » إلى المسرح ، ويقدم إلى المشاهدين « طيف الخيال » . وهو شخص محدودب مضحك راقص يستجدى الناس . وهو أخو الأمير « وصال » . فيقدمه الريس منشداً نشيد الافتتاح التالى :

خيالنا هـــذا لأهل الرتب ... والفضل والبذل وأهل الأدب
حوى فنون الهزل والجد فى ... أحسن شكل وأتى بالعجب
فانظره يا من فهمـــه ثاقب ... ففيـــه للعرفان أدنى سبب

= قصة نثرية كلها ، يتخللها قليل من الشعر وهى تتضمن قصة أخوين وقعت بينهما حوادث مروعة — وليست هى قصة ابن دانيال الموصلى التى نتحدث عنها هنا .

إن قام فيــه ناطق واحد عن كل شخص ظاهر واحتجب
ترجمته « طيف الخيال » الذى حــكى هلالا طالعا بالحدب
مذاهب الفضــل به جمة فنقطوه ســادتى بالذهب

فإذا فرغ « الريس » من نشيده ، ينــادى : « يا طيف الخيال ، يا كامل الاعتدال » . فيخرج شخص أحدب ، ويسلم . فيقابله « الريس » برد السلام ، وينشد مادحا ومثنيا على حدبته قائلا :

قسما بحسن قوامك الفتــان يا أوحد الأمراء فى الحدبان
أنت الحسام زها ببرشق حدبة فاقت على الخطيــة المران
يا مخجل الغصن الرطيب بقده حاشاك أن تعزى إلى نقصان
ماعاب قامتك الحســود جهالة إلا أجبت مقــاله ببيان

ومنه :

لولاك ما اشتقنا قباب المنحنى من حاجر والتل من عسفان
والعود أحدب وهو ألهى مطرب ولقد سمعت بنغمة العيــدان
وكذا سفين البحر لولا حدبة فى ظهره لم يقو للطوفان .. الخ

فإذا انتهى « الريس » من نشيده هذا ، يطرب « طيف الخيال » ، ويرد على « الريس » قائلا :

« لا فض الله فاك ، وصان من سيف الحسبة قفاك » .

ثم يأخذ « طيف الخيال » فى الرقص والغناء ، منشدا نشيدا لطيفا ، يحيى به السادة الحاضرين .

يقول فى افتتاحه :

سلام على الســادة الحاضرين سلام المشوق الكئيب الحزين
سلام على من حوى ذا المقام من السادة الأتقياء الكرام

فهم خير من خوطبوا بالسلام   وأكرم من صوفحوا باليمين .. الخ

وإليك سطورا من البابة الثانية « عجيب وغريب » :

يخرج شخص و يقول :

عبدكم الغريب . المشوق الكئيب . الذى أذابه الحنين . وغادره البين حتى لا يبين . فتقاذفت به الأقطار . ودار مع الفلك الدوار . بعد أوطان وأوطار . . » ،

ثم ينشد قائلا :

أرث صرف الزمان حالى   فما لدهرى ترى ومالى
حتى كأنى له عدو   يرشقنى منه بالنبال
أين زمانى الذى تقضى   وأين جاهى وأين مالى
وأين خفى وطلسانى   وأين قيلى وأين قالى . . . الخ

ويقع هذا النشيد فى ٢١ بيتا ،

وبعده يقول :

« فأين تلك الأيام وطيبها . وحسن هاتيك الأوقات وأعاجيبها . فرحم الله شيخنا ساسان . فلقد كان إنسان عين كل إنسان . قدوة الأدباء . وأنس الغرباء . وجامع شمل كل محب بسكنه . ورادكل غريب إلى وطنه .

ثم ينشد :

عجبت وشأن الحب غير عجيب   إذا مات بالأشواق كل غريب
تباعدت الأجسام مناوإننا   لنا جامع من رؤية وقلوب
لنا كل يوم منزل تربه النوى   وقرب خليل وهو غير قريب
أفارق خلا بعد خل كأننى   أفارق نجلى أو أخى ونسيبى ... الخ

ثم يقول :

« رحيا الله السادة الحضار . عيون الأعيان ونواظر النظار . اعلموا ياسادة الأعيان . إننى من بنى ساسان . الذين قعدت بهم زمانة الزمان . . . » الخ .

ثم يقول المؤلف :

« وبعد أن يتم حديثه يتوارى . ويخرج « شبل السباع » . ومعه الأسد والأتباع . وهو منقاد بالسلاسل والأغلال . وهو ماش تارة كالمختال ، وآونة كالمغتال . وقد اتخذ من لبدتيه كالغيل . ورد قربته إلى يافوخه فصارت له كالإكليل . ولمر غير خائف ولامرتاب . وكشر عن ناب غير ناب . هذا ، وشبل السباع ، وقتا يروضه . ووقتا عليه يثقل جره ونهوضه ، وهو مع الكل ينشد بقوة جنان . وقلب غير جبان . ويقول :

انظرونى ياسادتى كيف حالى فى مدارات ضيغم قتال

ملك جائر أروم رضاه كل يوم بذلة واحتيال

ليس يبقى على إلا لأنى سائس مطعم بلا إخلال

وأنا فى يديه قطعة لحم فانقذونى من ربقة الأكال

فيبادرون إلى إجابة طلبه . ويستفيدون بالله من الأسد وغضبه . ثم ينصرف . فيخرج « مبارك الفيال ... » الخ

وهكذا بالتوالى ، حتى ينتهى هذا الاستعراض الطريف .

وترى أن كل لاعب يعرض ألعابه ، ويخاطب الحاضرين بالشعر والنثر ، ويطلب منهم فى النهاية أجره ، وذلك كما يفعل الحواة واللاعبون المتجولون فى زماننا .

وإليك سطوراً من البابة الثالثة « بابة المتيم والضائع اليتيم » .

قال ابن دانيال فى مفتتحها :

« ضمنتها طرفا من أحوال المحبين . وطرفا من الغزل الذى هو السحر المبين . وطرفا من الملاعيب . وطرفا من المجون الذى ما عيب :

فإذا دعيت إلى مجلس صدر من صدور الزمان . فاجل الستارة وغن فى أصفهان :

قل لسـادات الزمان لا برحتم فى أمان
وبقيتم فى نـعيم ما تبقى الهـرمان

فيخرج شخص هيجه الغرام . وأتلفه السقام . وأذابه الأرق . حين ذاب لحمه ورق . فيبكى بانتحاب وينشد متأوها باكتئاب :

أهل الغرام تجمعوا وتوسلوا وتضرعوا
دقوا لأبواب الإجا بة بالدعاء لتسمعوا
موتوا تعيشوا فى الهوى وتمزقوا وتقطعوا
وخذوا حديث متيم عمن سواه أو دعوا .. الخ

وبعد أبيات يقول هذا الشخص :

« آه أواه . واحباه . واقلباه . المتيم المسكين ذبح بغير سكين . من أرسل ناظره . أتعب خاطره . ومن بذل نفسه للهلكة . فليصبر على سوء الملكة » .. الخ

وبعد عبارات من هذا النوع ، يقول :

هكذا كل أخى وجد يكون ما أنا وحدى فى هـذا الجنون
بى من الأتراك أحوى أحور لحظه قيد فتور وفتون .. الخ

وبعد أبيات يقول :

« أيها السادة . مسيتم بسعادة . ولا بليتم بعشق متدلل . ولا إفلاس عاشق متذلل . » . الخ

وهكذا يستمر فى وصف قصته ، حتى يلاقيه معشوقه ويناجيه . . . إلى

آخر القصة :[1]

ويلاحظ أن الأديب المؤلف ابن دانيال الموصلى ، يضع فى خلال السطور ما يعين على فهم الشخصية وتلوينها باللون الذى يريده لها . ويضع ما يوجه اللاعب إلى فهم الشخصية التى يلعبها ، وما يتصل بها من حركات وإشارات وانفعالات .

ولكننا بهذا العرض لانبغى أن نقضى بحكم ، وهو أن هناك فى ذلك العصر ، كان شعر تمثيلى أو مسرحى أو قصصى ولكننا لانشك أيضا فى أن فيما عرضناه ، الدليل القاطع على أن بادرة هذه الفنون بدرت فى أذهان بعض شعرائه . وأن ثمة كان لديهم استعداد لإبرازها وتنميتها ، لو هيئت لها عوامل الإبراز والتنمية .

ح - الاستجازة والإجازة

كانت هناك — على ما بينا فى وصف البيئة الثقافية — أنواع من الاجازات العلمية هى إجازة العراضة ، والإجازة برواية الحديث ، والإجازة بالفتوى أو التدريس .

وعلمنا أن الطلاب كانوا شـــديدى الحرص على استمناح شيوخهم هذه الإجازات ، ما داموا قد انتهوا من إحدى مراحل التعليم . بل كانوا شديدى الحرص على استمناح أكبر عدد مستطاع من شيوخهم هذه الإجازات ، توصلا إلى كثرة ما يكون لديهم منها ، وبخاصة إذا منحوها من أكابر العلماء . وكان حرصهم بادياً بارزاً فى طلب إجازات الرواية للحديث من شيوخهم الحفاظ . إذ كان حفظ الحديث وروايته والمشافهة به ، غاية تعليمية ، من الغايات المقدمة .

---

(١) راجع « طيف الخيال » لابن دانيال الموصلى ـ مخطوط بالمكتبة التيمورية ـ فهرس الألعاب .

وعمد بعضهم إلى تأليف معجم لشيوخه الذين علموه والذين أجازوه .

أعتقد أن الأدباء فيما بينهم ، تأثروا بهذا المظهر العلمى ، ونسجوا على منوال الطلاب فى استمناح الإجازة ، وعلى منوال العلماء فى منحها لهم .

ويسمى طلب الإجازة « الاستجازة » . وقد كتبت كل منهما نثرا أو شعرا . فشهد ميدان النثر وميدان الشعر عدة من الاستجازات والإجازات الأدبية .

« والاستجازة » أن يتقدم أحد الأدباء إلى كبير من كبار الأدباء ، يكون فى مقام شيخه ، أو تربطهما رابطة الصداقة والمودة ، أو رابطة الأدب والشعر . بقصيدة شعرية يستمنحه فيها إذنا منه برواية آثاره الأدبية شعراً أو نثرا أو مؤلفاته العلمية أو نحوها . ـ وتسمى الاستجازة أيضا « الاستدعاء » وهو غير الاستدعاء إلى الشراب ونحوه .

« والإجازة » أن يكتب إليه هذا الأديب الكبير ردا على « استجازته » أو « استدعائه » . قصيدة شعرية ، يأذن له فيها برواية هذه الآثار الأدبية أو العلمية .

وترى كلا من الاستجازة والإجازة مملوءة بعبارات المدح وتقارض الثناء بين المستجيز والمجيز ، وتشعر بهما وسيلتين بينهما للتكريم ولتأكيد المودة وتبادل الثقة والتقدير . فهما بهذا ضرب من ضروب الإخوانيات .

وكان من المستطاع أن نسلكهما فى عداد نتاج البيئة الاجتماعية ، لولا هذا التأثر البادى عليهما من مسلك الطلاب والعلماء فى استمناح الإجازة ، وفى منحها . ولولا أن الإجازة بذلك ، يعتبر كالشهادة الدراسية .

ومن الاستجازات — أو الاستدعاءات ـ ما نظمه محمد بن جابر الأندلسى

الضرير ، صاحب بديعية العميان ، وأرسله إلى صلاح الدين الصفدى يطلب إليه السماح له برواية شعره ونثره .

قال ابن جابر فى المطلع يمدحه :

إن البراعة لفظ أنت معناه ... وكل شىء بديع أنت مغناه
إنشاد نظمك أشهى عند سامعه ... من نظم غيرك لو إسحق غناه
تحجب الشعر عن قوم وقد جهدوا ... وعندما جئته أبدى محياه
أتيت منه بمثل الروض مبتسما ... فلو تكلم زهر الروض حياه
حجرت بعد ابن حجر أن يحوز فتى ... محاسن الشعر إلا كنت إياه
وهل خليل إذا عدت محاسنه ... إلا حبيب إذا عدت مزاياه
إذا المعرى رامت ذكره بلد ... قلنا لها الصفدى اليوم أنساه
أعلام كل بديع راق سامعه ... أعلام فخر تلقتهن كفاه

ومنهما يستجيزه :

إن ابن جابر إن تسأله معرفة ... محمد عند من نادى فسماه
لما عمرت مجال السمع منه بما ... لو جال فى سمع ملحود لأحياه
وافاكم مستجيزا والإجازة من ... أمثالك اليوم أحرى ما سألناه
فالفظ مجيزا لنا ما صغت من كلم ... ينازع الروض مرآه وريّاه
نظم ونثر يهز السامعين له ... لو صيغ للدر حلى كان إياه
إجازة شملت ماقد رويت وما ... ألفت يانخبة فيمن رأيناه
فعش لنظم المعانى فى مواضعها ... ودم لوارف عز طاب مجناه(١)

فنظم له صلاح الدين الصفدى « إجازة » رداً عليه فقال من بحره ورويه :

---

(١) عن كتاب « نكث الهميان فى نكت العميان » للصلاح الصفدى ص ٢٤٥ فى ترجمة « محمد ابن جابر الأندلسى » .

يا فاضلا كرمت فينا سجاياه   وخصنا باللآلى فى هـــداياه
خصصتنى بقريض شف جوهره   لمـــا تألق منه نور معـــناه
من كل بيت مبانيـــه مشيدة   كم من خبايا معان فى زواياه
إذا أديرت قوافيـــه وقد ثمل النـــديم أغنته عن راح تعاطاه
وغير مستنكر من أهل أندلس   لطف إذا هب من روض عرفناه
هم فوارس ميدان البلاغة فى   يوم الفصاحة إن خطوا وإن فاهوا
إبه تفضلت بالنظم البـــديع فما   أعلاه عندى من عقد وأغلاه
أقسمت لو سمعته أذن ذى حزن   فى الدهر ألزمـــه البشرى وألهاه
أشرت فيـــه بأمر ما أقابـــله   إلا بطاعـــة عبد خاف مولاه
ولست أهلا لأن تروى فضائح ما   عندى لأنى من التقصير أخشاه
ولست إلا الذى ترضاه فارو عن المـــملوك مارحت تهواه وترضاه[1]

ونظم هذه « الإجازة » صفى الدين الحلى ، مجيزا بها الشيخ العلامة «شمس الدين ابن عبد اللطيف بن خليفة الهمذانى » برواية نظمه ونثره . رادا على استجازته . قال فى المطلع :

أنى لفضلك بالمديح نجازى   شتان بين حقيقة ومجاز
فضلا به ضاق الزمان بأسره   فضلا عن الإرمال والإرجاز

ومنها :

ياصاحب المنن التى آثارها   فينا كفعل الغيث بالإرجاز
لديار مصر لك الهناء وإن غدا   للروم بعدك والعراق تعازى
قوضت عن أعلامها فتنكرت   فكأنها ثوب بغير طراز

---

(١) نفس المصدر السابق نفسه .

ما للمقيم بمصر بعض صفاته | قبل فكيف لعابر مجتاز
وجلوت شعرى فى المحافل بعدما | أخفيتـه بدفاتر وجزاز
وخطبت منى بعد ذاك إجازة | عن نقـله حتى ظننتك هازى
هل يخطب المولى إجازة عبده | ويروم من مولاه خط جواز
ولقد أجبت بأن أجزت بخدمة | فى غاية التلخيص والإيجاز
وأذنت أن ترويه عنى مالـكى | مع كل ما يعزوه نحوى عازى
فهى الإجازة والوداع لأنها | صدرت ومرسلها على أوفاز
متوقع الإغضاء عن تقصيره | منذا يوازن فضلـكم ويوازى
وإذا عجزت عن الجزاء لحقكم | بمدائحى فالله خير مجازى(١)

وكتب زين الدين بن الوردى « إجازة » نثرية أجاز بهـا القاضى نور الدين الفيومى . وفى سياقها نظم هذه الأبيات :

مولاى ياذا المنظر البـاهر | والمنطق المنتظم الزاهر
يا حـاكما شاهـده حاكم | على العلى نفديك بالناظر
أبدعت نثرا قلت لمـا بدا | كم ترك الأول للآخر
وقلت شـعراً محكما مثله | فى الدهر لم يخطر على خاطر
فيـا سريع النظم لازلت فى | خير مديد كامل وافر
جملت مصرا أنت من أهله | وسدت فى البادى وفى الحاضر
فأنت نور الدين حقا ومن | سمى به غيرك كالحائر
وإنمـا كلفتنى خطة | توهى قوى المستأسد الخادر
قلت : أجزنى وأنا قطرة | واحدة من بحرك الزاخر
يوسف أعرض ما الذى تبتغى | من عمر المعدول عن عامر

---

(١) عن ديوان الحلى ط بيروت ص ٤٥٢ .

أمرتنى ما كنت أولى به فشرف المأمور بالآمر
فإن أخالف لم يلق بى وإن أطعت أخشى هزأة الناظر
وطاعتى أمرك ألفيتها أولى وإن شقت على خاطرى
أجزت مولانا كما جوزوا صرف سوى المصروف للشاعر
ضرورة إذ لست أهلا لما طننت يا طائل بالقاصر
إجازة لو أننى منصف سألتها من لفظك الغامر
مثلك لا يجهل مقداره ولا سجايا بيتك الطاهر . . الخ[1]

وبعد فحسبنا ما سطرنا فى آثار البيئة الثقافية ، ولننقل مجال البحث إلى آثار البيئة الاجتماعية فى شعر العصر ، متطلعين إلى فجاح أرحب وميادين أوسع ، وحيث نحدثك حديثا عن الشعراء أكثر تفصيلا مما مر ، وأكثر إنصافا مما ذكر .

---

(١) عن ديوان ابن الوردى ص ١٧٦ ط الجوائب .

الفصل الرابع

أثر البيئة الاجتماعية فى الشعر

فى حديثنا عن البيئة الاجتماعية رسمنا صورة للشعب المصرى أبرزنا فيها أهم ملامح مجتمعه فى العصر الذى نؤرخ شعره . وبدت للبيئة فيها زوايا مختلفة من زواياها الكثيرة . وشهدنا كيف كانت طبقته الحاكمة ، ومن إليها ، واسعة السلطان موفورة القوة ، متعالية العيش ، مستأثرة بأسباب الجاه والثراء ، بينما أكثر الطبقة المحكومة تعيش فى هوان وحرمان ، وفى ذلة وضعف ، مكبوتة الآمال محدودة التطلع ، لا حول لها ولا قوة على جلب الخير لنفسها ، أو دفع الضر عنها . مع أنها القوة العاملة ، واليد المتحركة المنتجة — فيما عدا الجندية وما يتصل بها من الحروب — وهى لم يتأب عليها ولم تفر منها . بل أوضاع المجتمع حينذاك هى التى فرضت عليها ابتعادها عنها . فعاشت أكثر ما عاشت وهى تعانى تلاحق أحاسيسها وتدفق مشاعرها . ولكنها أحاسيس سرعان ما ترتد إلى صدرها . ومشاعر سرعان ما تعود إلى حناياها .

عاشت إذن تجتر آلامها وآمالها ، وتشكو وتكتم ، أو تسرى عن نفسها بالسخرية والنكتة والفكاهة والنقدة اللاذعة العابرة ، التى لم ترق إلى غير آذانها ولم تجاوز مجالها ، ولم تستطع أن تهيء النفوس لعمل جماعى ذى أثر .

تنفست الجماهير إذن عن هذا الطريق ، وتنفست كذلك عن طريق الناحية الدينية . فقد كانت الحمية الدينية — كما شهدنا فى كثير من هذه الفصول — آخذة بالتلابيب ، وكانت الغيرة والحماسة الإسلامية على أشد ما تكون . والرغبة فى التضحية فى سبيل الله والوطن الإسلامى والعربى ، تقتاد زمام النفوس سواء فى ذلك الحاكم والمحكوم . إذ كان أعداء الإسلام وأعداء العرب يتربصون بهما

الدوائر ، ويطمعون فى طمس معالمهما وطي بساطهما ، واحتياز الأرض التى يعيشان فيها .

كان لهذه النزعة رد فعل عظيم ، كما شهدنا ، إذ أقبل الجيش ، وتعاونه طبقات الشعب — على الدفاع تحت راية الدين وباسمه ، وأقبل الناس على تعلم علوم الدين وانتشروا لذلك فى مساجده ومدارسه التى فتحت لهم أبوابها ، ويسرت لهم سبل التعليم فيها ، وأصبح هم المتعلم والمثقف أن ينال قسطا منها ونصيبا من معرفتها ، ومشاركة فى إحيائها وبعثها . وانتشرت بجوار هذا وذاك خوانق الصوفية وربطهم وزواياهم ، ووجد رجال الدين ورجال الصوفية من لدن السلاطين منزلة كريمة وتبجيلا مطرداً وجاها واسعاً . ووجد هؤلاء وهؤلاء لدى جماهير الشعب سوقا نافقة وأذنا سامعة ونفسا طائعة ومكانة عالية ، وأقبل الناس عليهم يلتمسون عندهم الرأى ويطلبون المشورة ، ويستلهمون الفتوى لكشف المجهول وتجلية الغامض وحل المشكل ، إلى غير ذلك .

والجماهير - أو أفراد منها وجماعات - لاتنى بين هذا وذاك ، تفىء إلى اللهو فتقبس منه بمقياس ، وإلى اللعب فتأخذ منه بنصيب ، تتسلى بذلك وتتلهى عن برحائها ، وأعباء كبتها ، وتيسر لنفسها بعض رغباتها وشهواتها ، حتى تستشعر من وراء ذلك بعض الراحة والطمأنينة . وقد تنحدر وهى بسبيل من ذلك إلى المجون والتبذل - كما رأينا - فتشرب الخمر ، وتتعاطى الحشيشة . وتغازل النساء ، وتداعب المرد ، فتقع فى المحرم الممقوت . . ولكنها النفس . . والنفس أمارة بالسوء .

وترى آثار هذا العيش ، ومظاهر هذه الحياة ، بادية فى شعر شعراء العصر . والشعر ترجمان البيئة ، ورجع المجتمع بما فيهما من خير وشر ، وبما فيهما من سمو وضعة ، وبما فيهما من صدق وزيف ، وبما فيهما من نقيض ونقيضه .

سترى الشعر الدينى الذى تتجلى فيه الحماسة للإسلام وحب الرسول عليه

الصلاة والسلام ، والنزوع إلى الزهد والنسك وشكوى الحياة ـ وإلى جانبه شعر الغزل والمجون والتبذل وشعر الخمريات ، وما إلى ذلك .

ولعل البيئة الإجتماعية هنا ، كانت أرحب البيئات أثرا فى حياة الشعراء ، وأكثرها إثارة لشياطينهم ، ذلك لأنها بهم أمس وإليهم أقرب ، وبهم ألصق . ولأنهم فى جملة أمورهم كانوا يعيشون عيش الجماهير ويقاسون ما تقاسيه ويعانون ما تعانيه . إلا قليلا منهم ... وذلك أدعى لأن يحسوا بأحاسيسها لا يفتعلونها ، ويشعروا بمشاعرها لا يحاكونها ، ويتجهوا اتجاهاتها لا يتكلفونها .

والحق أن شعراء العصر ، وقد حرمتهم أوضاع المجتمع عوامل التشجيع ، ولم يجد فيهم الشاعر وسائل الحياة لدى رؤساء هذا الزمان ، ولم تجذب الدولة بضبعه ، اضطروا لأن يلتمسوا لهذا الفن أسبابا للحياة أخرى يتعلق بها ليعيش كأى نبت أغفله أهله ، وهو على الحياة أحرص . إنه ليضرب بجذره فى باطن الأرض يتحسس بشعريات شمه منابع الماء حتى يجدها ...

وهكذا وجد الشعراء فى نزعات العصر وفى اتجاهاته ورغباته وإحساساته ، وسيلة من وسائل الحياة لشعرهم ، فتشبثوا بها واتخذوها دعائم ليحيا بها ويعيش عليها وينمو ويزدهر . وبرهنوا بذلك على حيوية قوية وفنية طاغـــية جديرة بالإعجاب ، إذ لم يأذنوا لموهبتهم أن تذبل ولا لشاعريتهم أن تموت .

وحقاً لم يعش كثير من الشعراء لشعرهم خاصة . واتجهوا بأنفسهم ، طلباً للرزق ، اتجاهات مختلفة فمنهم من صار قاضيا ، ومنهم من صار كاتباً ، ومنهم من صار محترفا جزارا أو دهانا أو وراقا أو حمامياً أو غير ذلك ـ كما سبقت إشارتنا ـ ولكن هذا كان اتجاه المضطر المسوق المرغم الذى لم يجد فى سوق الشعر عيشاً رغدا ولا رزقا ميسراً سهلا ، لكنه ماسلاه ولا عنه لها . بل ظل هو الديدن له والهوى . ولبث هو الغاية والمنى . يعود إليه بين الآونة والأخرى فينفث النفثة منه ويزفر الزفرة فيه ، فيهدأ روعه ويسكن خاطره وتستريح نفسه .

وحقاً أيضاً أن بعض الشعراء بدا منه ما يشعر بريبته فى فنه وأنه إنما يلجأ إليه الفنية بعد الفنية، امتحانا لقريحته، وتمرينا لقلمه وأسلته. وفى رأينا أن هذا اعتذار شاعر، وكم للشعراء فى اعتذارهم من حيلة وستر. وما عهدنا الشعر الصادق إلا نفثة نفس وأنة فؤاد وزفرة صدر.

يقول زين الدين بن الوردى، فى مقدمة ديوان شعره ما نصه: « وقد يقف الناظر فى مجموعى هذا، على وصف عذار الحبيب وخده، ونعت ردفه وقده، وشكوى عشقه وصده. وذم الشيء وحمده، ومدح الشخص لرفده. وجزر القول ومده. فيظن لذلك بى الظنون، غافلا عن قوله تعالى. « وإنهم يقولون مالا يفعلون. » وإنى إنما قلت ذلك على وجه امتحان القريحة. . . » (١)

وابن الوردى هذا هو الذى يقول متغزلا:

يا هند لى نفس بكم مشغولة ... سياقها إلى هواكم ساقها
يقول من يقيس بلقيس بها ... آمرة ناهية عشاقها
إنى وجدت امرأة تملكهم ... وأوتيت من كل شىء راقها
لو تعلم الورق بحسن جيدها ... لمزقت من طرب أطواقها
ولو يذوق عاذلى ريقتها ... صبا معى لكنه ما ذاقها (٢)

تشبث الشعراء إذن بمظاهر وملابسات مما هيأته لهم البيئة الاجتماعية ــ بعدما جنت عليهم البيئة السياسية ــ فاتخذوا منها مراحات يمرح فيها شعرهم، ودعائم يسمق فوقها، وأرضا طيبة يعيش على خصبها. بعد أن قضى على زمان التكسب بالشعر، وعفت الأيام أثره وخبره. ولم يعد الوسيلة المعاصرة، التى يحيا بها الشعر. وتلاحقت إليهم عوامل الركود فى ذلك الزمان.

وتوسلت الموهبة الفنية بوسائل عدة مما أتاحته ظروف البيئة وضرورياتها،

---

(١) مقدمة ديوان ابن الوردى ط الجوائب. (٢) ديوان ابن الوردى ص ٢٢٨ ط الجوائب.

لتهيىء لنفسها سبيل العمل والإنتاج والبروز والمشاركة الفعلية فى حياة هذه البيئة . وقدنوهنا عند الحديث عن أثر البيئة الثقافية ببعض هذه الوسائل . وإليك بعضها مما هيأته البيئة الاجتماعية :

فالعلاقات الشخصية كانت إحدى هذه الوسائل . وإذا كانت فى كل عصر من العصور الأدبية تلعب دوراً رئيسيا فى حياة الأدب والشعر ، وكانت ذات آثار بعيدة المدى فى شحذ المواهب الفنية ، فإنها كانت فى العصر المملوكى من أجمل مظاهر المجتمع ومن أحب الروابط بين الشعراء ، ومن ثم كانت لها آثارها فى نتاج الشعر وغيره .

ونعنى بهذه العلاقات ، العلاقات الإخوانية وصلات المودة ووشائج الصداقة بين الأنداد والنظراء . وقد اتخذتها نزعة الفن الشعرى وسيلة إلى الحياة والإنتاج. ووجدت فيها بديلا وعوضا عما فقدته من ألوان التشجيع ، أو على الأقل شيئا من البديل والعوض . وبها أينع الشعر الإخوانى ووجد سبيله إلى البروز والجودة ، ومازج ألوانا أخرى من الشعر كالغزل والفكاهة والوصف والمجون والمداعبة والمهادحة وغير ذلك .

وقد روى لنا ابن فضل الله فى كتابه « مسالك الأبصار » قصة لطيفة عن أبى الحسين الجزار المصرى وصديقه سراج الدين الوراق ، وصور فيها جوا من الحرية الفنية التى كانا يمرحان فيها ، ويعيشان لنفسيهما . قال :

« حكى أن السراج الوراق وأبا الحسين الجزار خرجا فى صباهما ، والشباب أعقد حباهما ، يريدان النزهة . فوجدا غلامازامرا يتمنى منه اللقاء . ويجتمع فيه الغصن والورقاء . يتلفت بصفحة القمر المنير ، ويطرب كأنما زمره مما أوتى آل داود من المزامير . فلفتاه إليهما لأمر ، وظنا أنه ستلينه لهما الخمر . فأتيا به دير شعران ، وصعدا إليه فوجدا راهبا يصدع حبه الفؤاد . ويطلع قمره ولا شىء أحسن منه فى ذلك السواد . فزاد سرورهما بحصول الزامر والراهب . وأيقنا

ببلوغ المآرب . فلما حميت فيهما سورة الحميا ، وظن كل منهما أنه قد حصل له فراشه وتهيا . فطن الزامر والراهب لمرادهما فتركاهما ومضيا قبل التمام . وتركاهما وكل واحد منهما يشكو ضجيعا لا ينام . . .

فقال السراج :

في نخنا لم يقـــع الطائر　　لا راهب الدير ولا الزامر

فقال أبو الحسين الجزار :

فسعـــدنا ليس له أول　　ونحسنـا ليس له آخر

فقال السراج :

فالقلب في إثرهمـــا هائم

فقال الجزار مكملا :　　والقلب من أجلهما حائر[1]

وفي هـذه القصة ما يصور لنـا بعض جوانب الشعراء وشيئا من مجونهم في عصر تفشى فيه الرقيق وذاع استخدام الجواري والغلمان ، ويبين لنا كيف كان الفن يحيا معهم فيها ، ويستجيبون لوحيه .

وروى تقي الدين بن حجة الحموي قال :

« حكى أن نور الدين علي بن سعيد المغربي صاحب المرقص والمطرب ، مر مع جماعة من الأدباء بالديار المصرية ، منهم أبو الحسين الجزار : فمروا في طريقهم بمليح نائم تحت شجرة ، وقد هب الهواء فكشف ثيابه عنه ، فقـال أبو الحسين الجزار :

« قفوا . لينظم كل واحد منا في هذا شيئا » . فما لبثوا إلا مقدار ساعة ، حتى قال نور الدين علي بن سعيد :

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٦٦.

الريح أقود ما تكون لأنها — تبدى خبايا الردف والأعكان
وتميل بالأغصان عند هبوبها — حتى تقبل أوجه الغدران
فلذلك العشاق يتخذونها — رسلا إلى الأحباب والأوطان

فقال السراج الوراق : « ما أعلم أن أحدا منا يأتى بمثل هذا . سيروا بنا »[١]

وروى ابن شاكر فى كتابه « فوات الوفيات » أن الأديب « كمال الدين بن العديم » كان إذا قدم مصر يلازمه أبو الحسين الجزار ، حتى كانت هذه الملازمة مثاراً لتندر بعض أهل العصر عليهما ، فقال موريا :

يا ابن العديم عدمت كل فضيلة — وغدوت تحمل راية الإدبار
ما إن رأيت ولا سمعت بمثلها — نفس تلذ بصحبة الجزار[٢]

وكانت هناك صحبة أكيدة ومودة . وكان أنس متبادل ، بين الصاحب فخر الدين بن مكانس ، والأديب البارع بدر الدين البشتكى . وقد اجتمعا معا فى يوم أنس سمياه « يوم أنس الهمايل » . — ويبدو أن الهمايل اسم مكان إذ ذاك أو روضة —

وفى اليوم المذكور وضع الشيخ بدر الدين البشتكى نفسه ، موضع الثور فى الساقية ودار بها . فأثار بذلك دعابة صديقه ابن مكانس وأثار تندره . فنظم فخر الدين فى ذلك قصيدة فكاهية لطيفة داعب بها صديقه البدر البشتكى ومدحه .

فقال فى مطلعها :

دورة البدر فى سواقى الهمايل — تركت أدمع العيون هوامل
آه من للرياض ثور أديب — مظهر من كلامه سحر بابل

---

(١) تأهيب الغريب لابن حجة الحموى فصل النسيم .
(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٢٦ .

فاق سعيا على بنى عجل فى الجو　　د وأغنى عن الولى الهاطل

وقد مزج ابن مكانس فى أبياته بين ألفاظ الرياض والرى والماء وملائماتها ، وبين ألفاظ الأدب والشعر ، مزجا لطيفا . واستعار من إحداهما للأخرى . وقال :

يا سعيدا أثرى من النظم والنثـــر　　فأنسى الورى زمان الفاضل
قد سقيت الرياض يا شيخ بالدو　　رفهـا غصنها من السكر مائل

وقال :

وغـــدا بالظلال كل أديب　　فى هجير الرمضا بفضلك قائل
وبروحى عيون نرجس روض　　يغزل الحسن بالندى ويغازل
أنت شنفتها بشعرك زهرا　　وبعثت الميـاه فيها خلاخل

وقال :

أنت لو لم تكن بحار عـــلوم　　ماجرت فى الرياض منك جداول
كنت عندى أجل قدرا وقدرو　　ت من الثور للوجود الحامل
وغدا قس بين لفظك والرو　　ض على الحالتين عندك باقل... الخ[1]

وقد رد عليه الشيخ بدر الدين بقصيدة من البحر والروى ، وفى الموضوع نفسه ، مزجها بالوصف والمدح والفكاهة .

وروى ابن حجر العسقلانى أن الشاعر الأديب الماجن « شرف الدين الأصفونى » المعروف « بقطنبة » ، كانت بينه وبين معاصره الأديب « نبيه الدين

---

(١) القصيدة بتمامها فى ديوان فخر الدين بن مكانس ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ـ وفى مطالع البدور فى منازل السرور ـ مخطوط بالمكتبة الأزهرية وفيه رد البشتكى ـ وفى تأهيل الغريب لابن حجة الحموى فصل الدواليب ـ مخطوط أيضا بالدار .

عبد المنعم ، محاورات ومراجعات . حتى كان أهل عصرهما يشبهونهما بالجزار والوراق[1] .

وكانت بين صفى الدين الحلى وجمال الدين بن نباتة علاقات مودة وأدب . وقد تبادلا قصيدتين من أروع الشعر الإخوانى . تعاطيا فيها العتاب ، وتقارضا الثناء .

فقد أرسل صفى الدين إلى ابن نباتة يقول :

من لصب أدنى البعاد وفاته   إذ عداه وصل الحبيب وفاته
فاته من لقا الأحبة عيش   كان يخشى قبل الوفاة فواته
كان ثبتا قبل التفرق لكن   زعزعت روعة الفراق ثباته

ويقول :

كنت مستنصرا بأسياف صبرى   فنيت بعد فرقة ابن نباته
فاضل ألف الفصاحة والعلم   وضمت آراؤه أشتاته
رب شعر لم يتبع ما روى النا   س ولكن بالفضل يهدى غواته.. إلخ[2]

فأجابه ابن نباتة من البحر والروى ، وقال فى المطلع شاكيا متغزلا فى رقة وجزالة :

ما اظبى الحمى إليه التفاته   بعد ما كدر المشيب حياته
لهج بالهوى وإن نفرت أيدى   الليالى غزاله ومهاته
كلما قيل قد سلا عن فتاة   عاده الحب فاستجد فتاته

ومنها فى الغزل أيضا :

بأبى فاتر اللحاظ غزير   رام تشبيهه الغزال ففاته

---

(١) الدرر الكامنة ج ٢ رقم ١٥٦٦

(٢) راجع ديوان الحلى .

صائل الحسن إن رنا وتثنى سل أسيافه وهـز قناته

ومنها يخاطب صفى الدين :

يا مفيد الورى لآلىء بحـر يعرف الذوق عذبه وفراته

وصل العبد من قريضك بر سر أحبابه وساء عداته .. إلخ[1]

وفى كتاب « ألحان السواجع » لصلاح الدين الصفدى ، قصص وحوادث لا نهاية لها ، هى وليدة العلاقات الشخصية ، ونتيجة روابط المودة والأخوة ، وقد تولد عنها الطريف الرائع من الأدب والشعر .

ومن ذلك ما رواه الصفدى ، قال ما ملخصه :

إن شيخ الإسلام قاضى القضاة تقى الدين السبكى ، لما توفاه الله رثاه برهان الدين القيراطى بقصيدة نونية . فأرسلها ولده الشيخ بهاء الدين السبكى إلى الصلاح الصفدى . فنظم الصفدى قصيدة طائية مدح فيها البرهان القيراطى . فاطلع البرهان القيراطى على طائية الصفدى . فنظم طائية أخرى من بحرها ، أعاد فيها ذكر التقى السبكى ، ومدح فيها الصفدى . فما كان من الصفدى إلا أن نظم طائية جديدة من البحر نفسه ، يثنى فيها على القيراطى وعلى براعته الشعرية .

فهذه أربع قصائد نونية واحدة وطائيات ثلاث . وكلها وليد العلاقات الشخصية .

فمن طائية الصفدى الأولى فى مدح البرهان القيراطى ، قوله ، موريا باسمه مع التجنيس :

وزنت أهل النظم فى عصرنا من غير إجحاف وإسقاط

فأهل مصر عنـد وزنى لهم زادوا على الدنيا بقيراط .. «طى» .. إلخ

---

(١) راجع ديوان ابن نباتة وحرف التاء .

ومن طائية البرهان القيراطى فى الرد على الصفدى ومدحه قوله :

يا حاكما عــــدل أقواله ... فلم يرع يوما بإسقاط
أقمت للشعر عمـــوداً له ... بأرض مصر أى فسطاط
بنـات أفكارك فيه غدت ... مصونة عن شبه الواطى
تسمو قوافيها فتحتطهـا ... من فكركم عزمة محتاط ... إلخ

ومن طائية الصلاح الصفدى فى الرد على القيراطى ثانية ، قوله يمدح قوافيه ويصفهـا :

غيد أما احتاجت لمشاط ... أم در بحر ما له شاطى
أم روضة فيحاء أم حلة ... من رقم تنيس ودميـاط
أم شعر من زادت قناطيره ... فضلا وقد سمى بقيراط «طى». (١)

والإيحاء ، كثيراً ما يكون وليد العلاقات الشخصية ، وأثراً من آثار المودات ونعنى به أن يدفع رجل — أديب أو عالم أو نحوهما — أحد الشعراء من خلصائه وأحبابه ، إلى نظم الشعر بمناسبة من المناسبات . وقد يكون الشعر حينذاك مدحا نبويا أو وصفا أو معارضة أو غير ذلك ، كما أنه قد يكون بعيدا عن طريق الإخوانيات . وذلك بحسب الاقتراح .

وقد كان الإيحاء وسيلة من الوسائل التى راجت فى هـــذا العصر ، بفعل الصلات الاجتماعية ، واتخذتها الفنية الشاعرة تكأة للبروز ، وفرصة للإنتاج . وكثيراً ما كانت النزعة الفنية تعجل إلى الاستجابة كلما دعاها داعى الإيحاء .

وقد ذكر تاج الدين السبكى ما ملخصه :

أن أباه تقى الدين السبكى أنشده لنفسه قصيدته التى نظمها فى الشطرنج ، عندما اقترح ذلك الشيخ أبو حيان على أهل العصر ، وعلى زنة خاصة .

---

(١) راجع « ألحان السواجع » للصلاح الصفدى وبه الأبيات جميعها ـ مخطوط بدار الكتب المصرية .

ومن نبأ ذلك أن أبا حيان اقترح أن ينظم الشعراء على عروض قول ابن حرمون وقافيته ، وهو قوله :

إليك إمام الخلق جبت المفاوزا ... وخلفت خلفى صبية وعجائزا

واشترط أبو حيان على من عارضه ، أن يتغزل ، ثم يذكر الغرض ثانيا ، ثم يمدحه ثالثا .

فقال الشيخ تقى الدين السبكى :

أخا العذل لا تفرط وكن متجاوزا ... فما كل عذل فى المحبة جائزا

ولا كل ذى وجد يطيق احتماله ... وإن كان ذا أيد شديداً مبارزا

ولا كل صب يحسب الغى رشده ... وكيف ومثلى من يفك المرامزا

ومنها قوله :

وإنى لفى أسر الهوى ووثاقه ... حليف الضنى من حين كنت مناهزا

تقاذفنى أمواجه وبحوره ... ولم ألف فيها بين بحرين حاجزاً ..إلخ

قال تاج الدين السبكى إن هذه القصيدة طويلة وعدة أبياتها مائة واثنا عشر بيتا ، لم تتكرر عليه فيها قافية منها . وروى فى مناسبة أخرى أنها مائة وخمسة وأربعون بيتا . (١)

وهذه – على أى اعتبار – مقدرة من شيخ برع فى الفقه وغيره من علوم الدين ، وكان رأس الشافعية فى زمانه . وولى القضاء زمناً وتبدو مقدرته بخاصة فى طول القافية وعدم تكرارها وغرابة حرفها وهو الزاى .

ولم يسجل تاج الدين السبكى فى طبقاته ، من هذه القصيدة إلا أبياتا ، وأغفل بقيتها . وكذلك أغفل تسجيل أبيات غيرها من قصائد المتبارين فى مقترح أبى

---

(١) راجع طبقات السبكى ج ٦ فى ترجمة تقى الدين السبكى ، وتقى الدين أبى الفتح السبكى « محمد بن عبد اللطيف » .

حيان . ولو سجلها لظفرنا بمجموعة نادرة قيمة من الشعر في موضوع واحد يجد فيها الباحث مجالا للبحث والدرس والموازنة والحكم .

وروى تاج الدين أيضاً في ترجمة تقي الدين أبي الفتح السبكي « محمد بن عبد اللطيف » أنه كان في عداد المتبارين في مقترح أبي حيان . وروى من أبياته عدة ، منها في المطلع يتغزل :

بنفسي غزال مر بالرمل جائزا　　فصير قلبي في المحبة حائزا
وفوق سهما من لحاظ جفونه　　فأصمى وما ألفى عن القلب حاجزا

ومنها قوله في الغزل أيضاً :

وماس فأمسى الغصن يهتز مائساً　　وبان فبان البدر يشرق بارزاً
ثوى في حمى نجد وليس بمنجد　　وفوز فاستحليت فيه المفاوزا ... الخ[1]

وروى تاج الدين السبكي أيضاً ، أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، أنشد من لفظه لنفسه ـ ولم يكن له من النظم غيره ـ قوله ، وهو من الشعر الصوفي :

لو كان فيهم من عراه غرام　　ما عنفوني في هواه ولاموا

وطلب إلى تلاميذه أن يجيزوه . . فأجازه منهم « شمس الدين عمر بن عبد العزيز بن الفضل الأسواني ـ قاضي أسوان . فقال :

لكنهم جهلوا لذاذة حسنه　　وعلمتها ولذا سهرت وناموا
لو يعلمون كما علمت حقيقة　　جنحوا إلى ذاك الجناب وهاموا
أو لو بدت أنواره لعيونهم　　خروا ولم تثبت لهم أقدام
فبقيت أنظره بكل مصور　　وبكل ملفوظ به استعجام

ومنها يمدح شيخه العز بن عبد السلام :

---

(١) طبقات السبكي ترجمة محمد بن عبد اللطيف « تقي الدين السبكي » .

مـــولاى عز الدين عزبك العلى　　فخراً فدون حذاك منه الهام
لما رأينا منك علما لم يكن　　فى الدرس قلنا إنه إلهام . . . الخ [١]

وقد أنشد هذا الطالب شعره للشيخ فى مجلس درسه ، وهو يسمع إليه : ولما انتهى من إنشاده قال الشيخ : « أنت إذن فقيه شاعر » .

ولم يسجل تاج الدين السبكى غير قصيدةهذا الشاعر ، ولم يشر إلى ما عسى أن يكون طلاب آخرون قد نظموه .

ومن أوثق ماله صلة بالإيحاء ، استعداد ذوى المنزلة فى العلم أو الأدب للجلوس بين الشعراء مجلس الحكام ، إثارة منهم لنزعات الأدب والشعر ، وإشباعا لرغبات الأدباء والشعراء فى إبراز نتاجهم .

ومن ألطف ما وقع من ذلك ، هذه المحاكمة التى جلس فيها قاضى القضاة ابن حجر العسقلانى . ليقضى فى ثلاث قصائد تائية من بحر واحد . كل تائية لشاعر يعتبر رأس طبقته وهم ابن نباتة والبرهان القيراطى وابن حجة الحموى .

وتائية ابن نباتة مدح بها القاضى كمال الدين بن الزملكانى . ويقول فى مطلعها متغزلا :

قضى وما قضيت منكم لبانات　　متيم عبثت فيـــه الصبابات
مافاض من جفنه يوم الرحيل دم　　إلا وفى قلبه منكم جراحات . . إلخ [٢]

وقد عارضها برهان الدين القيراطى بتائية فى مدح تاج الدين السبكى صاحب الطبقات ويقول فى صدرها متغزلا :

ما لابتداء صبا باتى نهايات　　ياغاية ما لعشق فيه غايات

---

(١) طبقات السبكى ج ٥ ص ١٠٢ فى سياق ترجمة العز بن عبد السلام .

(٢) القصيدة برمتها فى ديوان ابن نباتة حرف التاء .

وياغزالا لنا فى لحظ ناظره   أسد ومن هدبه للأسد غابات .. إلخ[1]

فعارضهما تقى الدين بن حجة بتائية ثالثة ، قال فى أولها متغزلا أيضا :

لعجبه ولذيل الهجر شمرات   وللقلوب من الأجفان كسرات
وصارفى درب وصلى من عوارضه   وأهيف القد دورات وقتلات . إلخ[2]

وقد حكم ابن حجة الحموى فى هذا التائيات ، قاضى القضاة ابن حجر . وكتب فى ذلك يقول :

« يحسن هنـــا إيراد « قبول البينات المبرز فى نظم التائيات » . إذ لدور الـكاسات تسلسل فى مناظر أبياتها ، ولشرب الأدب ميل إلى الرشف من رحيق سلافاتها . والذى أوجب هذه التسمية أن عدول الأدب قديما وحديثا ، شهدوا بترجيح تائية الشيخ برهان الدين القيراطى — رحمه الله تعالى — على تائية الشيخ جمال الدين بن نباتة — سقى الله ثراه — . والترجيح من قبل زيادة النكت الأدبية فى القافية ، لا من قبيل انسجام الألفاظ وحشمتها ، فإن القصيدة النباتية من هذا القبيل مقدمة .

ورأيت جماعة من أهل العصر يقولون : إن هذه القافية صعبت على من يقتفى بعد الشيخين أثرها . وأن نكتها تحجبت عن كل متأدب وأرخت سترها . فعززت القصيدتين بثالثة . فهى ثلاث مالهن رابع . وأقمت بينات البلاغة . فحكم لى قبلة هذا الفن وإمامه الذى هو لشمل العلوم جامع . — وصيغة الدعوى :

« الحمد لله الحكم العدل . يقبل الأرض . وينهى أنه انتصر بنباته الحموى لنباتى مصر وحلاوته . وحرر مع القيراطى موازين الأدب بمعيار البلاغة . والموجب لذلك أن جماعة من عدول الأدب بترجيح تائية القيراطى تشهد . وقد عارضته

(١ ، ٢) راجع تأهيل الغريب لابن حجة . وفيه لابن نباتة ٢٨ بيتا ، وللقيراطى ٥٠ ، ولابن حجة بيتا . وراجع أيضا روض الآداب للشهاب الحجازى ورقة رقم ١٠ — مخطوط بمكتبة الأزهر . وتائية ابن نباتة برمتها فى ديوانه المطبوع ، وتائية القيراطى فى ديوانه المخطوط ص ٤٣ .

منتصرا لمحمد . وأبو بكر أحق من تطلب لنصرة محمد . وسميت هذا التأليف : « قبول البينات للمبرز فى نظم الثائيات . » والمملوك يسأل الحكم لمن قبلت بينة تقديمه فيما ادعاه . أعز الله تعالى أحكام مولانا قاضى القضاة » .

وقد سجل ابن حجة نص حكم ابن حجر العسقلانى فى هذه القضية الأدبية . فقال :

« نسخة ما حكم به مولانا قاضى القضاة شيخ الإسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجر العسقلانى . الناظر فى الحكم العزيز بالديار المصرية وسائر الممالك الإسلامية المحروسة . أعز الله تعالى أحكامه . وأدام على المسلمين من سطور علمه وطروسها لياليه وأيامه » :

« لله الأمر من قبل ومن بعد . الحكم بين النظراء إنما يحسن ممن يماثلهم فيما به يرتفع الحكم . وفى إقدام من لم يرتق إلى تلك الطبقة نوع من الظلم . ولا يرتاب لبيب أن كلا من الثلاثة رأس هذا الفن فى زمانه ، وأنه لا يوازنه أحد من أقرانه .

وثلاثة كثلاثة الراح استوى لك لونها ومذاقها وشميمها

ولكن . لما كان امتثال الأوامر من بعض فنون الأدب . وإجابة الداعى ولا سيما ممن ظنه أهل هذا الفن أمر منتدب . ومرجع الحكم فى هذه القضية إلى الذوق السليم ، فأمكن القول إن لم أقل وجب . فأقول مستعينا بالله متوكلا عليه . ملتجئا فى كل الأمور إليه : الذى تبنى عليه القواعد . ويشهد به الذوق السليم الذى هو فى هذا الفن أعدل شاهد . أن الثالثة أرجح وزنا من الثانية . ولولا حرمة الكمال . والحياء من الجمال . لقلت إن الثانية فى الرتبة الأخيرة تالية . لأن الأولى وإن كانت من الثانية أكثر انسجاما . والثانية وإن فضلت على الأولى فى الدقات الأدبية ابتداء واختتاما . فالثالثة قد جمعت بين المعنيين . وفازت بالحسنيين . ونزلت فى كل وجه من الأدب بمنزلة العين . وقال لسان لحوليتها عند ابن الكلام من غيرها :

للذكر مثل حظ الانثيين . وقد أتت بما غض من الأزاهر النباتية والجواهر القيراطية . وما فاق بمجموعه كل فريد . وراق مسموعه كل مجيد . حتى قال من شهد مثلى ببراعته . وطرب لصرير يراعته .

أقصى نهاية وصفى فيه معرفتى   بالعجز منى عن إدراك معرفته(١)

وبعد أن فرغ ابن حجة من إيراد حكم ابن حجر ، روى أنه حصل على فتوى أدبية أخرى بتفصيل تائيته ، من الحافظ الفقيه شمس الدين الجزرى . وأورد صورة هذه الفتوى وهى لاتخرج عن حكم ابن حجر .

وهكذا كان استعداد بعض الرجال للفصل بين الأدباء ،لونا من ألوان الإيحاء يدعو إلى الإنتاج ، ومحاولة التجويد .

وبهذه المناسبة نلفت النظر إلى أن هذه المحاكمة لون من ألوان النقد الأدبى وطريقة من طرق الموازنة بين الأعمال الأدبية . وقد كانت لهم مسالك أخرى نحو النقد والموازنة .

ولا بأس من أن نشير إلى أن تائية ابن نباتة مثبتة بتمامها فى ديوانه . وعدة أبياتها نحو مائة وعشرة وهى من أبدع قصائده وأجودها . وتمتاز فضلا عن طولها وثبات قوافيها ، بما فيها من عذوبة وتوافق لفظى ، وبما تحتويه من غرائب بديعية كثيرة ، مع تنوع أغراضها .

ونعتقد أن مجال الموازنة بين التائيات الثلاث لايزال مفتوحا . وأن الباحث الموازن سيجد مراحا فيها للقول واسعا ، وأنه سوف يضع بينها حكما أكثر دقة وأوفى تفصيلا وتعليلا من حكم الأديب الكبير ابن حجر وقد ينتهى فى حكمه بما يخالف به ماذهب إليه هذا الأديب . . لاختلاف المقاييس .

---

(١) راجع «تأهيل الغريب» لابن حجة الحموى باب الخمريات.

وقد ترجم تاج الدين السبكى فى طبقاته لكمال الدين الزملكانى(١) . الذى مدحه جمال الدين بن نباتة . ونوه بهذه القصيدة وسجل منها نحو ثلاثة وسبعين بيتاً . ثم قال فى نهايتها مانصه : « ولما قال ابن نباتة هذه القصيدة ـ فى ابن الزملكانى ـ البديعة . حاول أدباء عصره معارضته ، فما أحسنوا صنيعه بل كل قصر ولم يلحق . وتأخر وماجاء بالحق » .

وهذا الخبر لم يذكره ابن حجة فى حديثه عن التائيات وقصة المحاكمة بينها . كما أن تاج الدين السبكى لم يسجل شيئاً من معارضات الشعراء لتائية ابن نباتة. ولو ذكرها لأمدنا بنصوص قيمة ، ولأتاح لنا مجالا واسعاً للموازنة والحكم .

ويهمنا فى هذا المقام الإشارة إلى أن وجود شاعر كبير كابن نباتة ، كان وحده ضربا من ضروب الإيحاء إلى معاصريه للنسج على منواله . وهذا وحده موضوع جدير بالبحث المستقل المستوعب .

وهكذا ترى معى أن مواهب الشعراء تعلقت بكل سبب يمر بها ، يعينها تعلقها به على الحياة والينع والنمو والإثمار . ومن هذه الأسباب الاقتداء والمعارضة . وهذا أيضاً باب يحتاج إلى باحث جديد يفصل الحديث فيه .

ومن أبرز نتائج الإيحاء ، نظم بديعية ابن حجة الحموى ، وتأليفه شرحها الكبير المسمى « تقديم أبى بكر » والمشهور بخزانة الأدب .

فقد قص علينا ابن حجة فى مقدمة شرحه المذكور ، أن ناصر الدين البارزى رئيس ديوان الإنشاء ، هو الذى أوحى إليه بنظم هذه البديعية . وكان ابن البارزى هذا صديقا حميما لابن حجة . احتضنه ووظفه معه فى ديوان الإنشاء لما وفد إلى مصر فى عهد الملك المؤيد شيخ ، وأسند إليـــه المؤيد كتابة السر ورياسة الديوان . فجعل ابن حجة منشئا للديوان الشريف .

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ج ٦ راجع ترجمة الكمال بن الزملكانى .

وطلب ابن البارزى إليه أن ينظم قصيدة بديعية يعارض بها بديعية صفى الدين الحلى ، وبديعية عز الدين الموصلى ، فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام . وشرط عليه أن يضمن كل بيت فيها نوعا بديعيا على الأقل ، وأن يشير إلى اسم النوع بلفظ فى البيت .

فأخذ ابن حجة ينظم بديعيته . وكلما نظم بيتا يعارض به بيتا للحلى وبيتا للموصلى ، عرضه على ابن البارزى ليقره . فينقده ابن البارزى بما يراه ، فيعود ابن حجة فيصلح من شأن بيته . ثم ينظم غيره ، وهكذا دواليك . حتى أتم بديعيته فى أكثر من مائة وأربعين بيتا . ثم شرحها فى خزانته المشهورة .

وهكذا كله بفعل الإيحاء .

والرغبة فى النقد الاجتماعى ، كانت أحد الحوافز إلى النظم . والشعب المصرى نقاد بفطرته ، لا تكاد تمر به حادثة أو يسمع بواقعة ، ثم لا ينقدها ولا يعلق عليها ولا يطلق الشائعات من حولها ، ولا يلائم بين أطرافها المتباعدة ، ثم يستنبط منها ما شاء له حدسه ، ويعلل ما يستنبط بعلل شتى .

ولعل ذلك راجع إلى ذكائه ونفاذ بصره ، أو لعله أثر من آثار ما مر به من دول وأنواع حكم ، ومن طاف به من الراحلين بين الشرق والغرب . فاطلع على نظم وإدارات ، وعلى تقاليد وعادات ، وعلى معارف وثقافات ، عودته التذوق والفهم والحكم والتعليق .

ونشطت نزعة النقد الاجتماعى فى العصر المملوكى . وشارك الشعراء فيها بقسط وافر ، ولا غرابة فهم ألسنة من ألسنة الشعب ، ولهم مشاعر ترجع مشاعر الجماهير . ولعلهم وجدوا فى الحياة التى يحيونها ويحياها الشعب معهم مايدعو إلى النقد ويحفز إليه ، بل هو فعلا يدعو إليه دعوة صارخة . وكنا نحدس أن الخوف التقليدى من الحكام سيعصم ألسنتهم من النقد ، ويجنبهم مزالق الحديث فيه .

ولكن يبدو أنهم أمنوا جانب حكامهم حينذاك، لتعالى هؤلاء الحكام من ناحية، ولعجمتهم من ناحية أخرى، ومع ذلك فسنرى حادثة من الحوادث اجترأ فيها أحد الشعراء على أحد القضاة فنقده وحمل عليه وهجاه، فأوذى فى سبيل ذلك ولحقه الضرر. سنفصل لك الحديث قريبا فى هذا الموضوع وغيره. وسترى أن شعراء العصر — بالرغم مما كان يحيط بهم من أسباب الخوف وتوقع الهلاك، كان لديهم — أولدى بعضهم — إقدام وجرأة فى هذا الباب، فأطلقوا منه نفثة المصدور وأنة المكلوم وعبرة الباكى وصرخة الملتاع، بعيدا عن ميدان السياسة، قريبا من ميدان الحياة الاجتماعية.

وبذلك شارك الشعراء — كالبوصيرى وغيره — قومهم بالتعبير عن أعمق أحاسيسهم، وأحرج مشاعرهم لهم. ولو أكثروا فى هذا الباب، لكان شعرهم فيه هو الشعر اللباب.

وهكذا تلاقت شاعريتهم — كما ترى — بأحد أسباب الحياة، فتعلقت به لكى تعيش وتنتج.

والحق أن فن النقد الاجتماعى — وإن كان فى رأينا حافزا من حوافز الشاعرية فى ذلك الزمان — استوى وبرز بروزا ملموسا بين الأغراض الشعرية. وكان تصويراً لبعض نواحى المجتمع، من ناحية ذكر الواقع الفاسد، ومن ناحية شعور الناس بالألم منه. وربما من ناحية ثالثة، وهى بيان علة الفساد، ورسم الطريق إلى إصلاحه. وهذه النواحى هى جماع اختصاصات وظيفة النقد الاجتماعى.

وبروز هذا الفن فى عصر المماليك ظاهرة أدبية بالغة الأهمية، لأنها نادرة الحدوث فى تاريخ الأدب العربى ولعلها تقنع بعض الناس، بأنها دليل يقظة فكرية وجرأة نفسية لدى شعرائه. ودليل على ارتباط مشاعرهم بمشاعر مجتمعهم، فكانوا ألسنا له وتراجمة عنه.

. لقد تناولوا فى نقدهم السلاطين والأمراء وموظفى الدولة ووزراءها وقضاة الشرع وكتبة الدواوين . ونقدوا التعليم والصوفية وتقاليد الأسرة ، إلى غير ذلك .

لقد ذكروا استبداد السلاطين والأمراء ، واستئثارهم بالأرزاق وحرمانهم الشعب وسجلوا على كتبة الدواوين سرقاتهم وطائفيتهم . وما كان لكل طائفة من ادعاءات ومزاعم ولاموا وزراء الدولة على عدم عدالتهم وعدم ضربهم على أيدى الظالمين والأشرار . وحملوا على قضاة الشرع وإهمال بعضهم فى عمله وقبوله الرشوة وتحليل الحرام وتحريم الحلال ، لدوافع شخصية ومنافع ذاتية . ووصفوا فساد الأسرة المصرية وما ترزح تحت أعبائه من التقاليد السخيفة والعادات المرذولة ، وماتئن منه من الأعباء الاقتصادية التى فرضتها عقليتها على نفسها ، وسجلوا على رجال الصوفية دعاواهم العريضة وأسباب وصولهم ، وما يسترونه من جرائمهم الآثمة باسم التصوف ، ونقدوا التعليم وحملوا على أدعياء العلم وأدعياء الشعر . إلى غير ذلك . . .

ولا نشك مطلقا فى أن كثيراً من أشعارهم فى هذا الباب الحيوى الشائق ، وفى هذا الغرض النبيل ، قد ذهب به النسيان وطوحت به الأيام ، وطوى ما طوى من كثير آثارهم .

والبقية الباقية من هذه الأشعار دليل واضح على أنهم طرقوا هـذا الباب ودقوه فى عنف وجرأة ، وفى عمد وحنق شـديد ، وفى رغبة جارفة أيضاً فى الإصلاح .

ووددنا لو أنهم أفاضوا وأكثروا القول ، أو أن الزمن قد أبقى منه الكثير . إذن لتكشفت لنا صور شتى من صور الحياة الاجتماعية فى هذه الحقبة .

وامتزج نقدهم الاجتماعى فى أحايين كثيرة بالهجاء . وربما كان هجاؤهم بدافع

شخصى . ولكنه — على كل حال — قدتناول رجلا عاما من رجال الدولة ،ومن ناحية عمله الرسمى فيها . فهو فى صميم النقد الاجتماعى .

وامتزج نقدهم — كما سترى — بالتهكم والسخرية — وبالنكتة والفكاهة ، وبالوصف وبغيره .

ونشير هنا إلى أن شرف الدين البوصيرى له قصيدتان فى النقد الاجتماعى ، لهما أهمية بالغة فى تاريخ الحياة الاجتماعية المصرية .

أولاهما : —

قصيدته التى نقد فيها مستخدمى الدواوين ووصمهم بالسرقة وبالخلافات الطائفية ، وبالمزاعم المختلفة فى حق كل طائفة بالاستئثار بمال الدولة . وأشار إلى خيانات القضاة وتأويلاتهم فى سبيل السحت والكسب الحرام .

وثانيتهما : —

قصيدته التى وصف فيها حال أسرته فى شهر رمضان ، وتأخر مرتبه ،وما نجم عن ذلك من نزاع واسع النطاق بين أفراد الأسرة ، ومن خصام مستحكم بينه وبين زوجته .

لا يهمنا فى هذا المقام أن شعر القصيدتين من النوع غير الجيد ، وأن أسلوبهما فيه غثاثة وركاكة ، بمقدار ما يهمنا ما فيهما من الصور الاجتماعية والمعانى النقدية .

إن الصور التى سجلها البوصيرى فى هاتين القصيدتين ، صور تعدد وجودها أو وجود أكثرها ، وتكرر وقوعها فى المجتمع المصرى،من لدن زمان الشاعر - على الأقل - إلى يومنا هذا . وسنرى أن ما شاع فى زمانه فى الدواوين من سرقات ومن ارتشاء ،وما شاع فى الأسرة المصرية من تقاليد رمضان وصناعة الكعك فيه ، والخلاف حوله . صور مما لا يزال يشيع فى بعض دواويننا ، وفى بعض أسرنا .

ومن ثم نستطيع أن نفهم إلى أى مدى قد تطور مجتمعنا فى عاداته وتقاليده من لدن الشاعر حتى أيامنا هذه .

ومن أبيات القصيدة الأولى قوله :

نقدت طوائف المستخدمينا فلم أر فيهم رجلا أمينـــا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم مع التجريب من عمري سنينا
فـكتاب الشمال هم جميعا فلا صحبت شمالهم اليمينـــا
فـكم سرقوا الغلال وما عرفنا بهم فـكأنهم سرقوا العيونا

فى الأبيات يعلن الشاعر مباشرة وابتداء بأنه ينقد طوائف المستخدمين . وبأن موضع نقده عدم أمانتهم . ويدعوك الشاعر إلى تصديقه وإلى الثقة بحديثه ونقده . وذلك لأنه عاشر هؤلاء المستخدمين وخبرهم وجربهم ورأى من خيانتهم ما راعه وآلمه وأمضه . فهو يتحدث وينقد حديث الرائى والسامع والمعاشر ، وينقد نقد المطلع المجرب الخبير .

والحق أن الشاعر ليس فى حاجة كبيرة إلى تأكيد صدقه وإلى توثيق نقده ، وإلى تصديق اتهاماته ، ذلك لأنه فى الأبيات التالية ، وفى هذه الأبيات السابقة توجد بينات الصدق واضحة . فإنه قد عمم اتهاماته ضد المستخدمين فلم يختص بها طائفة دون أخرى ، ولم يتعصب لجماعة ضد جماعة . فالقضاة — وهم بلا ريب قضاة الشرع — خونة خانوا الأمانة وزعموا أنهم حفظتها . وأكلوا الأموال وتأولوا فى أكلها . وفى التأويل الخشية كل الخشية على أموال مصر . . وتناول الشاعر المسلمين كما تناول القبط واليهود ، على حد سواء ، ونسب إلى كل طائفة مزاعمها وادعاءاتها فى مصر وأموال مصر . فالمسلمون لهم حقوق وهم أولى الآخذين . والقبط يزعمون أنهم ملوك مصر وأن غيرهم غاصبون — وتلك دعوى لا يزال منها رواسب — واليهود حللت لنفسها أموال جميع الطوائف . وهكذا ترى الشاعر قد عمم ولم يخصص ونقد ولم يتعصب .

وهكذا أيضاً ترى فوضى الدواوين وعبث موظفيها وادعاءات الطوائف . وكلها تنزع نحو أخذ المال الحرام ، وغصب الثروة ، مع ادعاء الصلاح والنسك ، أو دون تفكير فى الصالح العام ، ودون اكتراث بأهداف البلاد وتأمين حياتها فى حاضرها ومستقبلها .

يقول الشاعر مخاطبا الوزير المختص ، وذاكرا له مزاعمهم الكاذبة وساخرا ، وكأنه يستعديه عليهم ، بل وينقده هو فى سكوته عن هؤلاء اللئام الكاتبين ، وعدم ضربه على أيديهم . وأنت تفهم هذا من تعبيره له بلفظ « غفلت » وهكذا نسب إليه الغفلة . يقول :

أمولاى الوزير غفلت عما ... يتم من اللئام الكاتبينا
تنسك معشر منهم وعدوا ... من الزهاد والمتورعينا
وقيل لهم دعاء مستجاب ... وقد ملئوا من السحت البطونا
تفقهت القضاة فخان كل ... أمانته وسموه الأمينا
وما أخشى على أموال مصر ... سوى من معشر يتأولونا
يقول المسلمون : لنا حقوق ... بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط : نحن ملوك مصر ... وإن سواهم هم غاصبونا
وحللت اليهود بحفظ سبت ... لهم مال الطوائف أجمعينا ... الخ[1]

وتلحظ فى الأبيات حرارة الإيمان فى نزعات الشاعر ، وصدق إحساسه بمآسى قومه فى دواوين دولتهم ، واختلاف طوائفهم وتنازع هذه الطوائف أموال مصر وغير أموالها . ويتجه الشاعر لشدة حنقه وطول غضبه وعمق شعوره وغيظه ، إلى الدعاء على هؤلاء المتنازعين ، وإلى هجائهم والزراية بهم .

ولا ندرى أبلغت هذه الشكاية مسامع الوزير ، ووجدت من لدنه أذناصاغية

---

(١) ديوان البوصيرى — وفوات الوفيات ج ٢ ص ٢٥٦ .

ونفساً واعية وهمة ملبية،فضرب على الأيدى ، وقضى على الآثمين ، وحسم مزاعم المدعين المتخاصمين . .

ولعل البوصيرى شق بهؤلاء الكتاب وضابطى الحساب فى الدواوين ، والمسيطرين على صرف الرواتب، ولعل تأخير صرف مرتبه ، أو أكل جزء منه ، كان له دخل فى هذا الحنق والنقد .

ومن أبيات القصيدة الثانية قوله :

يأيها المولى الوزير الذى	أيامـــه طائعة أمره
ومن له منزلة فى العلى	تكل عن أوصافها الفكره
إليك نشكو حالنا إننا	حاشاك من قوم أولى عسره
فى قلة نحن ولكن لنا	عائلة فى غاية الكثرة
أحدث المولى الحديث الذى	جرى لهم بالخيط والإبرة

والبوصيرى صريح كل الصراحة ، وموجز غاية فى الإيجاز . وواضح كل الوضوح . ذلك لأنه يفصح توا فى أول قصيدته عن غرضه ، ويكشف عن هدفه ، ويحدد لمخاطبه وسيلته التى سيسلكها لاطلاعه على أمره أو شكايته .

وقد بدأ بمخاطبة الوزير وندائه وتنبيهه إليه ، ويمدحه مدحا عاجلا لضرورة المقام ، ولا يفيض فى المدح فإنه ليس هدفا له ، وليس من صناعته الآن . ويكشف للوزير توا أيضاً عن هدفه ـ كما ذكرنا ـ وهو أنه يعيش فى أسرة تعانى العسر مع كثرة أفرادها ، وأنه سيقص عليه قصتها ، ليدعم بتلك القصة دعواه ، ثم يبين حاجته إلى العون ، وهو ليس مستجديا ولا طالب صدقة أو إحسان أو هدية أو منحة ، وإن لا لجأ إلى المدح . . وإنما هو يطلب أجره وراتبه . وهذا حقه . وسترى هذه المعانى فى الأبيات التالية .

والقصة التى يحكيها عن أسرته أو الصورة التى يرسمها لها ، ليست القصة المستديمة أو الصورة المطردة الوحيدة ، وإنما هى قصة من قصص ، وصورة من صور ، ترمز إلى غيرها من مماثلاتها . لأن القصص كلها أو الصور جميعها تتلاقى فى جوهر دوافعها وفى عموم مظاهرها ونتائجها . ذلك أن العسر هو السبب الأصيل . وهو يدفع إلى النزاع والخصام ، ولكن مضاعفات العسر ومظاهره تختلف فى كل قصة عن الأخرى . ونتائجه وآثاره العملية تتغير فى كل صورة عن الأخرى وتسلك مسالك جديدة .

والعسر كان ـ ولا يزال ـ فى مقدمة الأسباب لقلق الأسرة المصرية وعدم استقرارها ، وشبوب المخاصمة بين أفرادها . وفى رأينا أنه ينبغى ألا يكون العسر سبباً فى ذلك كله . فإن الدولة وإن كان عليها أن تهيىء أسباب الاكتفاء المناسب لكل أسرة ، لاتستطيع أن تهيىء لها كل أسباب الاستقرار ، مادام حب النفس وما دامت الأثرة طاغية بين أفرادها . وما دام كل فرد فيها ينظر إلى علاقته بالآخر ، بمنظار مصلحته الشخصية ومنافعه الفردية . فالأثرة وعدم التضحية أساس القلق الماثل الذى يغشى حياة الأسرة المصرية . وكذلك عدم موازنة ميزانيتها على أساس واقعى محدد ، وفى صراحة لا مواربة فيها ، وفى دقة لا عتب عليها .

تعاودنا هذه الأفكار كلما قرأنا هذه الوثيقة الشعرية التى نظمها البوصيرى وصور بها صورة من صور حياة أسرته . تلك الأسرة التى عاشت منذ نحو سبعة قرون ، وانتابها العسر ، وأصابها القلق ، ومنيت بالأثرة وحب النفس ، فاعتورها النزاع واحتدم الخصام . وطغت عليها التقاليد بسلطانها ، والعادات الظالمة بقيودها ، فوقعت فريسة لكل هذه الأدواء ، وكادت هذه الأدواء تقضى عليها وتفرق جماعتها .

لم تكن هذه الأسرة أسرة البوصيرى وحده ، بل أسرة كثيرين غيره .

ولم تكن أسرة عاشت منذ سبعة قرون فى مصر بل أسرة يتكرر وجودها فيها منذ أيام البوصيرى حتى اليوم .

هذه أبيات مريرة وإن تخللتها الفكاهة . وسطور باكية وإن مازجتها النكتة ، وحكاية فيها العاطفة الحانية والأمل المرجو والأثرة الجاهلة والغيرة القاتلة والوشاية الحمقاء والحيلة الضيقة والشكاية اليائسة والعادة المفترسة ، واللهفة المتحسرة والتساؤل المحرج .

يقول البوصيرى ويتحدث عن هذه الأسرة فى صومها وإفطارها ، وفى استعدادها للقاء عيدها ، وفى تفكيرها فى مقتضيات رمضان والعيد :

أحدث المولى الحديث الذى　　جرى لهم بالخيط والإبرة
صاموا مع الناس ولكنهم　　كانوا لمن أبصرهم عبرة
إن شربوا فالبئر زير لهم　　ما برحت والشربة الجرة
لهم من الخبز مصلوقة　　فى كل يوم يشبه النشره
أقول مهما اجتمعوا حولها　　تنزهوا فى الماء والخضره
وأقبل العيد وما عندهم　　قمح ولا خبز ولا فطره
فارحمهم إن عاينوا كعكة　　فى كف طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها　　بشهقة تتبعها زفره
كم قائل يا أبتا منهم　　قطعت عنا الخير فى كره
ما صرت تأتينا بفلس ولا　　بدرهم ورق ولا نقره
وأنت فى خدمة قوم فهل　　تخدمهم يا أبتى سخره

ويعرج البوصيرى بتعبيره السهل وأسلوبه الميسور الواضح ، بل وبألفاظه وتراكيبه العامية المفصحة ، على أخت زوجته فيصف تدخلها فى شئون أسرته وسماعها لشكوى الزوجة واندفاعها بدافع الغيرة والحمق والجهل ، وبغير روية ، فتثير الزوجة على زوجها وتغريها بمنازعته والاعتداء عليه ، فيقول :

ويوم زارت أمهم أختها والأخت فى الغيرة كالضرة
وأقبلت تشكو لها حالها وصبرها منى على العشرة
قالت لها : كيف تكون النسا كذا مع الأزواج يا عرة
قومى اطلبى حقك منه بلا تخلف منك ولا فترة
وإن تأبى فخذى ذقنه وانتفيها شعرة شعرة
قالت لها ما هكذا عادتى فإن زوجى عنده ضجرة
أخاف إن كلمته كلمة طلقنى قالت لها : بعرة
وهونت قدرى فى نفسها فجاءت الزوجة مجترة
فقاتلتنى فتهددتها فاستقبلت رأسى بآجرة
وحق من حالته هذه أن ينظر المولى له أمره[١]

وكان القبط — كما رأينا — من بين موظفى الدواوين وكتاب الحساب ، فكانوا بذلك هدفا من أهداف النقد عند البوصيرى . وكذلك كانوا هدفا عند غيره . فقد حمل عليهم الشاعر شهاب الدين الأعرج ، وحمل على الترك والسلطان معاً ، ونعى عليهم جميعا استئثارهم بالأرزاق دون الناس ، وجمعهم الأموال من غير وجهها ، واستبدادهم فى هذا الجمع ، ودعاواهم العريضة فى سبيله . وحرمانهم الناس من أن ينالوا من الأموال حظاً مناسباً .

وبلغ الأمر بهذا الشاعر أن أفصح عن حظ كل طائفة منهم من الأموال ، فقال ساخراً متهكما إن نصيب الترك والسلطان الثلث ، ونصيب القبط وحدهم النصف . أما الناس جميعا — عدا هؤلاء — فنصيبهم السدس .

وفى إشارته إلى نصيب الترك والسلطان وأنه الثلث — أقل من نصيب القبط

(١) ديوان البوصيرى . وفوات الوفيات ج ٢ ص ٢٥٦ ط بولاق .

— شيء من الزراية بالترك والسلطان أو شيء من الاستعداء . يقول :

وكيف يروم الرزق فى مصر عاقل ومن دونه الأتراك بالسيف والترس
وقد جمعته القبط من كل وجهة لأنفسهم بالربع والثمن والخمس
فللترك والسلطان ثلث خراجها وللقبط نصف والخلائق فى السدس (١)

وروى ابن إياس ، أن الملك الأشرف « قانصوه الغورى » ، أراد أن يرد جوامك الأيتام ، فلم يمكنه الأتابكى « قيت الرجبى » من ذلك . وأعطى جماعة من المماليك ، فنزل الآخرون من القلعة دون طائل .

فنظم ابن إياس فى ذلك :

سـل الله ربك من فضله إذا عرضت حاجة مقلقة
ولا تقصد الترك فى حاجة فأعينهم أعين ضـيقة (٢)

ومن لطيف ما تفكه به الشاعر الكيس الأديب شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى ، على القبط ، وطريف ما سخر به منهم . البيتان التاليان اللذان نظمهما ردا على من لامه على مصاحبته للقبط ، واتخاذه منهم أصفياء . . فقال يرد عليه ويعلل هذه الصحبة بتعليله اللبق . قال :

أيا لائمى فى صحبة القبط إننى وحقك لم يفرح بصحبتهم قلبى
ولكننى أصطاد رزقى بأرضهم ولابد للصياد من صحبة الكلب (٣)

ويبدو أنه كان ثمة فى دواوين الدولة ماينفر ذوى المروءة وأصحاب الضمير ،

---

(١) الدرر الكامنة ج ٢ رقم ١٥٣٥ ترجمة شهاب الدين الأعرج .
(٢) بدائع ابن إياس ج ٤ فى تاريخ الغورى حوادث رمضان عام ٩٠٧ ﻫ .
(٣) راجع ديوان ابن حجلة المغربى حرف الباء .

ويربأ بهم عن التوظف فيها ، ويدعوهم إلى مجافاتها ، وإلى طلب الرزق من باب آخر غير بابها .

والشاعر بدر الدين الدمشقى ، كان يشتغل بالتعليم وكان مخلصا فى أدائه حتى حتى اشتهر بالإجادة فيه . ثم طلب إليه أن يوظف فى ديوان الإنشاء . فرفض وأبى ، لما فى الديوان من ذل وهوان — بحسب تقديره — وفضل عليه صناعة التعليم . فلامه بعض الناس فى ذلك ، فنظم هذه الأبيات حاملا على الديوان ورؤساه الديوان حملة شعواء ، وموازنا موازنة يسيرة بين الصناعتين . ومبينا أهم مواطن شكواه من الديوان وأهله . وهو غطرسة الرؤساء وازدراؤهم المرؤوسين .

قال :

لائمى فى صناعتى مستخفا   بى إذ كنت للعلى مستحقا
ما غزال يقبل الكف منى   بعد برى ولم يضع لى حقا
مثل تيس أبوس منه يداقد   صفرت من ندى لأسأل رزقا
فيولى عنى ويلوى عن رد   سلامى ويزدرينى حقا
فاقتصد واقتصر عليها فما عند   إله السماء خير وأبقى (١)

ونعى ناصر الدين بن النقيب على بعض رؤساء زمانه أيضا ، فقال فى مجهول من النظار فى زمانه ماوسمه بالجهل الفاضح فى صناعته واختصاصه ، وانصرافه عن معرفتهما إلى العناية بمظهره :

قالوا : فلان ناظر فأجبتهم   ما ناظر إلا إلى أعطافه
لم يدر مسح الأرض قلت أزيدكم   أخرى ولا مسحا على أطرافه

وقد كرر مثل هذا النقد أو الهجاء حينما أشار إلى أحد الوزراء ، فوسمه كذلك فى عمله بالجهل المطبق وبأنه لم يعد أن يكون بوقا لغيره وطبلا .. قال :

---

(١) الدرر الكامنة ج ٢ رقم ١٥٣٥ .

أبلم قلدوه أمر الرعايا وهو فى حلية الوزارة عطل
فهو بالبوق فى الوزارة طبل وهو فى الدست حين يجلس سطل [(١)]

وإليك هذه الطريفة أو الطرفة ، التى تصور لك بعض مشاعر الناس فى هذا المجتمع ، عن طريق الأداة الناقدة .

فقد روى ابن إياس أن رجلا فى زمانه ، يدعى « شمس الدين بن عوض » ، كان من فلاحى منية مسير بالغربية — أو من بانوب — دفعه حظه إلى أن صار أستادارا للذخيرة الشريفة ، وصار فى جملة الرؤساء . ولكنه لم يخرج عن طبع الفلاحين . . . .

وقال عنه مانصه : « فكانت عمامته عمامة الفلاحين ، وكلامه كلام الفلاحين ، كأنه فلاح قحف ، كما جاء من وراء المحراث ، ولم ينطل فى رياسته . فكان كما قيل :

ورب قحف قد أتى لنا به الدهر غلط
سألت عنه قيل لى هذا من النخل سقط

وقال آخر فى المعنى :

فقيه ريف يقول إنى برعت فى العلم والرواية
فقلت لاشك أنت عندى تصلح للدرس والدراية » [(٢)]

وفى الشطر الأخير تورية واضحة . والأبيات مملوءة بالتندر والسخرية . والملحوظ أن هذا التندر من ابن إياس على الفلاحين — وهم الطبقة الكادحة —

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٥٣ .

(٢) بدائع ابن إياس ج ٤ حوادث عام ٩٢٠ هـ ص ٣٧٦ .

كان ذائع التكرار على ألسنة الناس فى مصر ، فى حق هذه الطبقة ، حتى وقت قريب ، حتى عالجت الثورة الكريمة هذه الجراح فى أيامنا .

وتعرض لنقد الرؤساء وهجائهم أكثر من واحد من الشعراء ومن الرؤساء — كما علمت — أمراء الدولة وقضاتها . ومن الرؤساء أيضا - كما نعلم حتى اليوم - من يقيم ببابه ، أمينا أو كاتبا ، يصرف الأمور قبل إقبالها عليه ، وينظمها ويحسن تقديمها . وقد يطغى ، ويغريه بالطغيان انصراف رئيسه عن متابعة عمله وتفتيشه ومراجعته . فيصبح بعد قليل ، هو الرئيس الفعلى والمتصرف الأول الحاسم فيما يعرض على رئيسه . ويؤدى ذلك فى كثير من الأحوال إلى اضطراب الأمور وقلقها وإلى إثارة النفوس وحملتها .

ونقد هذه الأحوال وما يترتب عليها ، لون من « النقد السياسى ، لولا أنه أشد صلة بالحياة الاجتماعية .

ويصرح الشاعر سيف الدين السامرى فى جرأة ووضوح ، بما كان عليه حال الأميرين « طوغان » و « إيدمر » . وكان لكل منهما أستادار يسمى « العلم سنجر » ، ونائب بر يسمى « الشجاع همام » ، استبدا بالأمر دون الأميرين ، فكتب الشاعر إليهما يقول فى جرأة :

اسم الولاية للأمير وماله فيها سوى الأوزار والآثام
وجناية القتلى وكل مصيبة تجبى منافعها إلى همام
سيفان قد وليا وكل منهما ماضى العزائم دائم الإقدام
وبباب كل منهما علم ينكل ما يجود به من الإنعام
وقد استحلا منهم مالم يزل من مالهم ودمائهم بحرام
فمتى أرى الدنيا بغير تشاجر والقطع والتنكيس للأعلام (١)

---

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٧٦ .

والشاعر سيف الدين السامرى كان نزيلا بدمشق . وكانت بلاد الشام — كما علمت — فى جملة أقطار السلطنة المصرية . وكان موظفو الدولة — سواء منهم الأمراء والوزراء والقضاة وكتاب السر وغيرهم يتنقلون فى سلك وظائف السلطنة من بلد إلى آخر ، فى مصر أو الشام أو غيرهما ، تنقل الموظفين اليوم بين مدن الجمهورية ، وكذلك كان الأدباء والشعراء يتنقلون طلبا الرزق . و ما كان يجرى من الأمور فى بلاد الشام من أحداث الدواوين والرؤساء نمط مكرر مما كان يجرى فى مصر غالبا .

فلا بأس من أن نروى لك أن السامرى المذكور ، تندر تندراً مرا وفاحشا على القاضى صدر الدين بن سناء الدولة ، وذلك لأنه عدل المدعو « جمال الدين اليزدى » وخلع عليه طيلسانا ، وأحضره فى مجلس قضائه مع العدول وأشهد عليه .

ويبدو أن « اليزدى » كان معروفا لدى الشاعر بسوء الخلق ، ورأى أنه لا يصلح للجلوس مع العدول فى مجلس القضاء ، وأن فى هذا ظلما على المتخاصمين . فسجل السامرى هذه الصورة الاجتماعية فى هذه الأبيات اللاذعة الفاضحة المكشوفة ، التى رمى فيها اليزدى بكل كبيرة وصغيرة ، وتهكم بالقاضى صدر الدين ونسب إليه الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف . . قال :

طاب شرب المدام فى رمضان　　واصطفاق العيدان عند الأذان
والزنا واللواط فى حرم اللـه　　وترك الصلاة بالقرآن
منذ صار اليزدى فى سكك الشـام　　يطوف النايات بالطيلسان
وإذا صارت العدالة فى الفساق　　واللائطين بالمردان
فجدير بأن أكون نبيا　　ويكون الصديق لى التلمسانى
ياعدول الشآم قد سمح القا　　ضى لأصحابه بنيل الأمانى
قامروا واشربوا وقودوا ولوطوا　　وافسقوا والحدوا إذن بأمان

وارفعوا عنكم التستر بالفسق فلا حاجة إلى الكتمان . [١]

قيل: وبلغت هذه الأبيات سمع القاضى صدر الدين . فتألم وغضب . وأعرض عن جمال الدين اليزدى ، ومنعه من الشهادة . فاتصل اليزدى بالشاعر سيف الدين السامرى ، ومازال به حتى نظم شعراً استرضاه به . .

وللقضاة وما قيل فيهم ، حديث آخر سنعرضه عليك بعد قليل ونعود إلى ما نقد به الشعراء أحوال الدولة وجنودها وأمور الأمن فيها ، مما يعتبر نقداً اجتماعياً وسياسياً فى آن واحد .

وهاهو ذا ابن إياس الحنفى المؤرخ صاحب بدائع الزهور يسجل اضطراب الأمن فى عهد السلطان الأشرف الغورى ، وينسب هذا إلى جور الغورى وظلمه ، فيقول فى صراحة :

من دولة الغورى ومن جوره لقد حملنا فوق ما لا نطيق
وقد كفى من فعله ما جرى من قلة الأمن وقطع الطريق [٢]

وبمناسبة حديثنا عن الأشرف الغورى ودولته ، نذكر أن الأمير طراباى الشربفى ،كان أحد كبار الأمراء فى زمن هذا السلطان . وكان نافذ الكلمة واسع السطوة . وأملى له غروره ، حتى صار عسوفا شديد البأس زائد القوة كثير المظالم يصادر أموال الناس ، ويمنع أرزاقهم ويحل أوقافهم .فلما مات هذا الأمير فرح الناس بموته فرحا عظيما وتبادلوا التهنئة .

وابن إياس الحنفى يسجل هذا الحادث ، وينعى على الفقيد ما كان فيه من صلف وظلم ، ويصف فرح الناس لفقده . وينشد هذه الأبيات ، التى،وإن عراها ضعف النسج ، تعتبر فى وصف إحدى نواحى المجتمع .

---

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٨٥ . (٢) بدائع الزهور ج ٤ حوادث جمادى الأولى عام ٩٠٩هـ.

يقول ابن إياس :

بموت طراباى أفرج الله كربة — عن الناس من خلق السموات الأرض
فهذا فتوح عاد فى مصر ثانيـــا — وعمت به الأقطار فى الطول والعرض
وقد كان جبارا عنيـــدا معاندا — فكم جار فى الأحكام بالبرم والنقض
ويبطل حق الناس من كل واجب — ويقضى خلاف الشرع فى الندب والفرض
ولما طغى ظلما وزاد تجـــبرا — فعجل عزرائيل للروح بالقبض
وأسكنه ضيق اللحود معذبا — وأخلى منازله فى طرفة الغمض
وقد جاء يســـعى للجحيم برجله — وأجزم بعد الرفع بالنصب والخفض
ومذ شـــاع بين الناس أخبار موته — فصار يهنى بعض من سر للبعض
فيارب قابله بمـــا يستحقه — وأودعه فى الأغلال للبعث والعرض(١)

وكان المماليك الجلبان ـ وهم مماليك الأمراء يلبغا واستدمر والجاى اليوسفى ، على عهد الناصر حسن حفيد قلاوون ـ أهل فساد ورذيلة ، عانت القاهرة وأهلها ، منهم ألوانا من العبث والأذى ، مراراً ، وكانوا سببا فى فواجع كثيرة وقد استمر عبثهم هذا ، بل ازداد وانتشر ، بمرور الأيام ، وعاشوا وتجددوا ـ كالمعتاد — حتى بلغوا عهد الأشرف الغورى . فوقع بينهم وبين القرانصة — وهم لون آخر من المماليك وعلى مقدار مرذول من العبث أيضاً — فتن ومنافسات لاحد لها . وكانت على أيدى هؤلاء وهؤلاء هزيمة جيش مصر فى موقعة مرج دابق التى صرع فيها الغورى عام ٩٢٢ هـ فقد كانوا من دعائم هذا الجيش حينذاك .

لقد تناولهم الشاعر الساخر المتفكه شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى — شاعر السلطان الناصر حسن — فسجل عليهم ألوان عبثهم وضروب فتنهم . وما اجترحوه فى القاهرة من آثام ، إلى عهده . نظم ذلك فى أسلوب كأسلوب

---

(١) بدائع الزهور لابن إياس ، ج ٤ حوادث عام ٩١٧ هـ ص ٢٠٩ .

البوصيرى . لاجزالة فيه ولا حنكة فى حبك عباراته . ولكنه وثيقة دمغ بها هؤلاء الأشرار . وسجل على صفحة الزمان بها إحدى صور المجتمع . قال إنهم كانوا ينزلون إلى الأسواق فيختطفون العمائم ، ويظهرون التيه وهم على ظهور خيولهم إبرازا لمهارتهم ، ويكورون الدور ويمنعون الكراء ولا يكتبون الإيجار ، ويشنون الغارات فى الطرقات ويدوسون الزروع ، ويفجرون بالعذارى والغلمان ، إلى غير ذلك قال :

غدا الجلبان فى دست الخسارة	وفاتهم بما فعلوا الشطارة
ولم يعرف لهم فى مصر شىء	سوى خطف العمائم والشماره
يرون التيه إن ركبوا بمصر	على ظهر الخيول من المهاره
فكم دار بمصر كوروها	جميعاً كارة من بعد كاره
وكم جاروا بمنع كراء دار	وما كتبوا لإسطبل إجاره
وكم غارت بهم من عين شخص	وكم شنوا على الطرقات غاره
وكم مزقوا السياج إلى المقاثى	وخير من خيارهم الخياره
وكم من زرع فلاح رعوه	ولكن بعدما حرثوا دياره
وكم ركب المكارى الذل منهم	ولا سيما إذا ركبوا حماره
وكم فجروا ببنت وابن ناس	إذا انقضوا وكم فضوا بكاره (١)

ونعود إلى ذكر القضاة ، وحملات نقاد الشعراء عليهم . ويبدو أن الشعراء كانوا آمنين أمنا نسبيا ، إذا قصدوا لنقد القضاة وتفنيد أعمالهم أو أعمال بعضهم وتصرفاتهم ، آمنين أكثر مما كانوا يأمنون جانب السلاطين والأمراء .

وقد تعرض الشاعر الأديب شهاب الدين الشارمساحى لقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، بأبيات رماه ورمى ولده فيها بعظائم وآثام ـ قيل إن أغلبها كذب

(١) ديوان ابن أبى حجة المغربى .

وبهتان ـ ولكنها على كل حال ، تصور لنا إحدى نواحي المجتمع . والصورة التي سجلها الشاعر ، ولو لم تكن صادقة في واقعتها ، هي صادقة الوقوع في حياة المجتمع في ظروف أخرى . فهي تحكي ما كان ينتاب أموال الأوقاف بين آن وآن ، من سلب ونهب وإغارة . وما كان ينعم به بعض الناس من ألوان النعيم ، ويشقى به بعضهم من ألوان العذاب والحرمان . وما كان يصل إليه أقارب الرؤساء ، بسبب قرابتهم ، من مال محرم . .

والحق أن الشارمساحي قد نقد فغلا ، وعاب فتحامل ، وهجا فأقذع . ومن المستطاع أن يكون النقد عفا مع لذاعته ، وبريئا مع مرارته ـ ومهما يكن من شيء فهذه هي أبيات الشارمساحي ، قال :

يموت عديم القوت بالجوع حسرة	ويشبع بالأوقاف أهل الطيالس
فما أحد إلا وحشو حسابه	من الغبن نار دونها نار فارس
وهذا ابن قاضي المسلمين موكل	ب . . . وراح في ظلام الحنادس
وما ذاك إلا أن والده امرؤ	جنوح لما يرضى به غير عابس
وإن رام منه مال وقف يضيعه	فما هو للأموال عنه بحابس
ونعذر نجلا هام في زمن الصبا	بكل صبي فاتر الطرف ناعس
فكم صاد غزلانا من الترك دونها	فوارس حرب يالها من فوارس
وكم باع أموال اليتامى لقربها	توسد للمردان فوق الطنافس
فسل مودع الأيتام ما صنعوا به	وقد كنسوه عامداً بالمكانس
وجامع طولون فما كان وقفه	له إذ أتاه غير لحسة لاحس (١)

والأبيات — كما رأيت — فوق تسجيلها ما سجلته من العبث بأموال الأوقاف وأموال اليتامى وتيسيرها للأقارب والأبناء ، دون حق . تسجل أيضاً ألواناً من الفساد والرذيلة كانت منتشرة في ذلك الزمان بسبب رواج الرقيق وغيره .

---

(١) الدرر الكامنة ج ١ رقم ٤١١ .

ومما روى أنه فى عام ٨٢٠ هـ فى عهد الملك المؤيد شيخ — ولى القضاء القاضى شمس الدين محمد بن عطاء الله الهروى الشافعى خلفا للقاضى جلال الدين البلقينى .

وجلس السلطان مرة فى أحد مجالسه فدست إليه ورقة فيها هذه الأبيات :

يأيها الملك المؤيد دعوة من مخلص فى حبه لك ينصح
انظر لحـــال الشافعية نظرة فالقاضيان كلاهما لا يصلح
هذا أقاربه عقارب وابنه وأخ وصهر فعلهم مستقبح
غطوا محاسنه بقبح صنيعهم ومتى دعاهم للهدى لا يفلحوا
وأخو هراة بسيرة اللنك اقتدى وله سهام فى الجوانح تجرح
لا درسه يقرا ولا أحكامه تدرى ولا حين الخطابة يفصح
فأرح هموم المسلمين بثالث فعسى فساد منهم يستصلح

وترى الشاعر المجهول قد رمى البلقينى بأمور ليست من عمله ، لقل حمل عليه إثم غيره من أقاربه . وهذا نقد ظالم وقـــد رمى الهروى — أخا هراة — بالاستبداد فى حكمه . والضعف فى درسه ، والتعثر فى خطابته . وإذا صح ذلك كان الناقد على حق فى نقده له .

قيل ، وعرض السلطان الورقة على الجلساء من الفقهاء الذين يحضرون عنده ، فلم يعرفوا كاتبها . فأما الهروى فلم ينزعج مما جاء فيها . وأما البلقينى فقد انزعج انزعاجا شديداً ، وأطال البحث والتنقيب عن ناظمها . وبعضهم اتهم الشاعر «شعبان الآثارى» . وبعضهم اتهم «تقى الدين بن حجة الحموى» . وبعضهم اتهم «ابن حجر العسقلانى» — قاله البدر العينى :

وبعد قليل أعيد الجلال البلقينى إلى القضاء[١] .

وقال ابن إياس فى حوادث ذى القعدة عام ٩١١ هـ ، ما ملخصه :

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب قضاة مصر .

« إن القاضى محيى الدين بن النقيب قاضى قضاة الشافعية ، أسند إليه القضاء ثلاث مرات ، وفى كل مرة كان يسعى إلى هذا المنصب ويبذل ما يستطيع . ولكنه لا يمكث إلا قليلا ثم يعزل » .

وقال أيضاً : « وكان غير مشكور السيرة رث الهيئة ، يجافى النفس ويزدريه كل من يراه وقد قال فيه بعض شعراء العصر مداعبة لطيفة ، وهو قوله :

قاض إذا انفصل الخصمان ردهما   إلى جـــدال بحكم غير منفصل
يبدى الزهادة فى الدنيا وزخرفها   جهراً ويقبل سرا بعرة الجمـــل

وقال آخر ، وقد أفحش فى حقه جداً . . ... قال ابن إياس : « فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وأنا أستغفر الله تعالى من ذلك » :

يأيهـــا الناس قفوا واسمعوا   صفات قاضينا التى تطرب
يلوط يزنى ينتشى يرتشى   ينم يقضى بالهـــوى يكذب[1]

نقول إن هذا لون من النقد الجارح الذى ينتمى إلى الهجاء .

ومثله هذان البيتان الفكاهيان اللذان عاون الشاعر فيهما جناسه ، على النقد الهاجى المقذع . وقد نظمها الشاعر الأديب عبد الكريم بن على السهروردى القوصى ، فى أحد التجار ، وكان الشاعر قد طلب منه جوزة هندية ، فرفض التاجر ، فكتب إليه :

طلبت منك جوزة   منعتنى من قربها
وكم طلبت زوجة   منك فـــلم تبخل بها[2]

والشعر على كل حال ، يصور أخلاق بعض الناس .

---

(١) بدائع الزهور لابن إياس ج ٤ حوادث عام ٩١١ هـ .
(٢) الطالع السعيد تحت رقم ٢٥٩

ويبدو أن بعض الشعراء استعذب نقد القضاة . ولدينا شاعر بدا فى جرأة سيف الدين السامرى الذى عرضنا نقده ، بل هو أجرأ وأوسع تفصيلا وأقوى بيانا وأكثر حجة وألذع هجاء . شاعر جاء أخيراً وعاش فى عصر الأشرف الغورى . وملأ هجاؤه الأسماع وبلغ آذان السلطان والعامة ، وكان له دوى ورنين لا يغفل تسجيله تاريخ الأدب .

ذلك الشاعر هو المصرى الصميم « جمال الدين السلمونى » . ويبدو أن العامة أحبته لجرأته وإقدامه على نقد رجال الدولة دون خوف ولا وجل .

وفى عام ٩١١ هـ هجا هذا الشاعر ، القاضى معين الدين بن شمس ، وكيل بيت المال . وأفحش فى هجائه . ومنه هذا البيت الذى فيه من الإقذاع المورى ، ما فيه ، قال :

وحرفته فاقت على كل حرفة   يركب ياقوتا على فص خاتمه

فشكاه معين الدين بن شمس إلى السلطان الغورى . فقال له السلطان : « إن وجب عليه شيء بالشرع فأدبه » . فقبض عليه معين الدين ، وساقه إلى قاضى قضاة الحنفية عبد البر بن الشحنة . فضربه ابن الشحنة وعزره ، وأشهره على حمار مكشوف الرأس ، اعتماداً على دعوى القاضى معين الدين أن السلطان هو الذى رسم بتشهيره ولم يكن السلطان قد رسم بشيء من ذلك .

وبلغت أنباء العقوبة مسامع السلطان ، فشق ذلك عليه ، وأمر بالقبض على معين الدين وآذاه ، وأطلق سراح الشاعر .

وما إن أطلق سراح الشاعر ، حتى أطلق لسانه فى القاضى عبد البر ابن الشحنة ، وهجاه هجاء مقذعا ، ونسب إليه جملة من الآثام والسيئات . قد يكون مبالغا فى نسبتها إليه ، بل قد يكون كاذبا فى بعضها على الأقل ، ولكننا لا نشك مطلقا فى أنه بقصيدته التى ضمنها هذا الهجاء ، صور وضعا من أوضاع المجتمع وحالة من أحواله ، لا ريب فى حدوثها — بصرف النظر عن شخص القاضى

المهجو - فلا ريب أنه كان فى الأحكام زور وباطل، وأنه كانت هناك رشوة أو أجور للقضاة مبالغ فى تقديرها. وأنه كانت هناك سرقات من أموال الأوقاف أو أطماع تدور حولها. وغير ذلك. وما صرخة هذا الشاعر الهاجى الذى أقذع فى الهجاء وأفحش، إلا صرخة الناقد الاجتماعى الذى راعه ما فى هذه الناحية من حياة المجتمع من ضروب العبث والفساد، وإن أساء فى نسبتها إلى شخص معين. ومن هذه الزاوية نظرنا إلى قصيدة جمال الدين السلمونى. فإنها مصداق لما دونه التاريخ فى سير بعض القضاة.

وإليك بعض أبيات هذه القصيدة، قال الشاعر:

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها

أينكر فى الأحكام زور وباطل وأحكامه فيها بمختلفاتها

إذا جاءه الدينار من وجه رشوة يرى أنه حل على شبهاتها

فإسلام عبد البر ليس يرى سوى بعمته والكفر فى سماتها

أجاز أموراً لا تحل بملة بحل وبرم مظهرا منكراتها

ألست ترى الأوقاف كيف تبدلت وكانت على تقديرها وثباتها

وقد وثبت فيها قضاياه بالأذى وبالبيع شبه الأسد فى وثباتها

فإن كان فى الأقاف ثم بقية تكذبنى فيما أقول فهاتها

ولابد من بيع الجوامع تارك الجماعات منها مبطلا جمعاتها

ولابد أن يستبدل الناس أعبدا بأحرارها بيعا لنفس ذواتها

ولو أمكنته كعبة الله باعها وأبطل منها الحج مع عمراتها

ومصداق قولى أنه كان مغريا ليحيى بن سبع فى خراب جهاتها[1]

وقد كان ذئبا لابن سبع وقومه يطالع بالأخبار قبل رواتها

ولو يعط ديناراً وطاوعه الهوى لأسقط عنها صومها وصلاتها

---

(١) ابن سبع كان أميراً ليذبح فى أول عهد الغورى.

شكت ملة الإسلام مما ينالها ... بأفعاله ياهل تزيل شكاتها
فيبكى على الدين القويم وشرعه ... وأحكامه فيها بمنعوجاتها
نعى مذهب النعمان من قبح فعله ... على فتوات الزور لاعن ثقاتها
تعقب يعقوبا وخالف رأيه ... فكم حل من وقف وأبدى شتاتها
وعن زفر قد زفر النقل كاذبا ... بتزويج أرحام لحين براتها
وقد خان قاضى خان فى فتواته ... بتغييرها عن مقتضى موجباتها
فلا تخش إثما أن تخوض بعرضه ... فغيبته للناس خير لغاتها
فماذا على الإسلام حل من الردى ... بأيام عبد البر مع سنواتها(١)

روى ابن إياس أن القاضى عبد البر بن الشحنة — وكان صديقا للسلطان الغورى - شكا إليه ما صنع السلمونى فأمر السلطان باستقدامه إليه ، فقدم . فوضعه فى القيد ووبخه توبيخا شديداً على سوء ما صنع . ثم سلمه للقاضى عبدالبر ليحكم عليه بما يشاء إذا ثبت عليه ما قاله . فتسلمه القاضى واستجوبه فأنكر أنه نظم شيئا . ولكن تقدم بعض الشهود فشهدوا عليه ، وتعصب قضاة الشرع ضده ، وهموا بضربه بالسياط وإشهاره .

ثم ما لبث القاضى عبد البر أن اكتفى بسجنه ، وذلك خوفا من العامة ، فقد كان كثير منهم يحب هذا الشاعر ويقدره ويتعصب له ، حتى إنهم هددوا القاضى عبد البر بالرجم بالحجارة ، إذا هو أساء إليه . .

ولبث السلمونى سجينا مدة حتى أمر السلطان بإطلاق سراحه ، وذلك فى رمضان عام ٩١٣ ﻫ وهكذا ترى أن هذه القصيدة وذيولها ونتائجها شغلت الرأى العام قرابة عامين .

---

(١) بدائع الزهور لابن إياس حوادث عام ٩١١ ﻫ ، ٩١٣ — وج٣ و ص ١٩٤ ط أميرية ، وفى بعض الأبيات لحن ، وقد روى ابن إياس هذه الأبيات وقال : « انتهى ذلك على سبيل الاختصار » ومعنى ذلك أن الأبيات التى رواها ليست جميع أبيات القصيدة .

ومما يعتبر نقداً ووصفاً وتسجيلا لأخلاق بعض الناس وتصرفاتهم – وهذه ظاهرة اجتماعية مطردة فى مجتمعنا حتى يومنا هذا – مانظم فيه القاضى بدرالدين ابن الحبال الحنبلى «محمد بن أحمد» المتوفى عام ٧٤٩هـ ، وذلك حينما عزل عن القضاء بسبب حادثة كان له بها صلة . وجاءه خبر العزل فى أول النهار ، وكان لديه جمع من الناس ، فتفلتوا من لدنه فى الحال ، وأسرعوا إلى الانصراف . وفى آخر النهار جاء أمر بإعادته إلى منصبه وعلم الناس فأقبلوا على داره زمراوحشودا ، حتى كاد باب داره يكسر بسبب زحامهم الشديد .

فقال القاضى فى ذلك :

تحالف الناس والزمان ... فحيث كان الزمان كانوا
عادانى الدهر نصف يوم ... فانكشف الناس لى وبانوا
ياأيها المعرضون عنى ... عودوا فقد عاود الزمان[1]

ولم يسلم رجال الصوفية من خفقات ألسنة الشعراء ولذعات نقدهم ، وكان العصر – كما علمت – يعج بالمتصوفة ، والقاهرة وظواهرها تمتلىء بخوانقهم وأربطتهم وزواياهم . وكان للسلاطين والأمراء بهم عناية، إذ أسسوا لهم المدارس وأوقفوا عليهم الأوقاف وقرروا بمدارسهم الدروس ، وعظموهم واستجابوا لرغباتهم وسمعوا لمشورتهم ، بل والتمسوا منهم البركة وتحقيق الأمل ...

ولكن ما من طائفة كثيرة الجماعة، إلا ترى فيها خوارج وشواذ . وهذه إحدى الطوائف ، ولابد أنه أشيع عنها أو عن أفراد منها ، أمور تشين وحوادث تناقض الطريق ..! والجمهور عميق الشعور بما هنالك، دقيق الحس بما يخفى ، يحدس وكثيرا ما يصدق حدسه . ويظن الظنون ويطلق الشائعات ، وسرعان ما تتكشف الأمور عن صواب ماظنه ، وصدق ما أشاع . وكم تقى تظاهر بالتقوى ستراً لمآثمه .

---

(١) الدرر الكامنة لابن حجر ، ج ٣ رقم ٨٨٥

لقد كان بعضهم ينظر إلى الصوفية نظرة شزراء ، فيها الشك والريبة . وكان بعضهم ينسب إليهم كبائر الإثم يرتكبونها فى الخفاء . ومنهم من اتخذ صوفيته سترا إلى بلوغ رغباته وشهواته .

فلا عجب إذا رأينا شاعرا عرف بالرزانة وعرف بالفقه والعلم ، وكتب سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، يتخذ الصوفية هدفا لنقده وغرضا لسهامه ، فيجهوهم ويفحش فى الهجاء . ذلك الشاعر هو المؤرخ فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى .

لقد نظم هـــذه الأبيات الأربعة ، وهى من الأدب المكشوف . فانظر ما نظم ، قال :

ما شروط الصوفى فى عصرنا قطعـــا سوى ستة بغير زيادة
وهى ..... والسكر والسطلة والرقص والغنــــا والقيادة
وإذا ما اهتدى وأبدى اتحـــادا وجميلا من خلوة وإعادة
وأتى المنكرات عقلا وشرعا فهو شيخ الشيوخ ذو السجادة (١)

لا تعليق لنا على هذه الشروط ، فهى واضحة لمن يريدها ، وهى أشنع شروط تشترط فى عضوية ..! على أن البيتين الأخيرين جديران بالنظر والتأمل . إذ أن الشاعر فى أولهما تراه يتهكم ــ على ما نعتقد ــ بالاتحاد والإحساس به ، ويتهكم بمن يدعيه ، وما أكثر المدعين ! ولندعه إلى البيت الأخير الذى اجتمعت فيه جميع المنكرات . وعندنا أن أنكى من اقتراف المنكرات وآثم من فعلها ، بذل الحيلة فى تسويغها بالعقل وبالنقل . وهذه أظلم هوة يطوح فيها المرء بنفسه ، ولكن هكذا كان وما يزال ديدن بعض مدعى الصوفية وزاعميها .

———

وهذه الحركة التعليمية التى سبق لنا وصفها فى فصل سابق ، ورأينا ما كان

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢١٣

يبذل فى سبيلها من جهود موفقة ورعايات مطردة ، ورأينا كيف آتت أكلها طيبا ، لم تسلم هى الأخرى من لذع النقد وذم الناقدين .

لقد استرسل كمال الدين الإدفوى صاحب كتاب الطالع السعيد ، فى حنقه على التعليم فى زمانه ، فسجل له صورة طريفة لاتزال بعض ألوانها وظلالها ماثلة فى دور التعليم حتى اليوم . . !

فالمباحث لاتنتهى إلى نهاية محمودة حاسمة ، وإنما هى مجادلات ومغالطات . والمدرس يخلط فى دروسه من غير تحقيق ولا ضبط ، والمحدث يتشدق بأحاديث يرويها عن أحد الحفاظ . وهذا هو مدى علمه بالحديث . والفاضل حسبه من الفضل أن ينسب قولا إلى أرسطو أو إلى بقراط ، تماما كما يفعل بعض فضلاء عصرنا ممن ينسبون دائماً إلى الفرنجة ، لايريدون بذلك إعلان الحق بمقدار ما يبغون به الظهور والإعلان بأنفسهم ، وهم آمنون من التعقيب لجهل قرائهم أو لجهل سامعيهم .

يقول الإدفوى فى أسلوب ميسور وعبارات هينة قريبة :

إن الدروس بمصرنا فى عصرنا ... طبعت على لغط وفرط عياط
ومباحث لاتنتهى لنهاية ... جدلا ونقل ظاهر الأغلاط
ومدرس يبدى مباحث كلها ... نشأت عن التخليط والأخلاط
ومحدث قد كان غاية علمه ... أجزاء يرويها عن الدمياطى
وفلانة تروى حديثا عاليـــا ... وفلان يروى ذاك عن أسباط
والفرق بين عزيزهم وغزيرهم ... وأفصح عن الخيـــاط والحناط
والفاضل النحرير فيهـــم دأبه ... أقوال رســـطا ليس أو بقراط
وعلوم دين الله نادت جهرة ... هـذا زمان فيـــه طى بساطى
ولى زمانى وانقضت أوقاته ... وذهابه من جمـــلة الأشراط [1]

(١) راجع الطالع السعيد وترجمة كمال الدين الإدفوى المتوفى عام ٧٤٨ هـ ـ والدرر الكامنة ج ١ رقم ١٤٥٢ :

حتى صناعة الشعر نفسها ، لم تسلم من لذعات الشعراء . ولا غرابة فقد أصبحت فى زمانهم كاسدة السوق بائرة البضاعة ، على ما وصفنا فى أكثر من مناسبة ، فكان من الحق أن يستنيم إليها الشاعر ويتخذها سبيلا إلى الرزق .

وقد تأبى بعض الشعراء عليها حتى ذمها وفضل عليها صناعة العلم . ويقول زين الدين بن الوردى ينصح ابنه :

بنى إياك ونظم الشعر   فإنه بالعلماء يزرى
والله لولا شهرتى وذكرى   بالعلم كان الشعر حط قدرى (١)

وماذا يصنع الشاعر وهو يعيش فى قوم يبغضون الشعر والشعراء . إنه ولاريب معذور إذا نقد صناعته وحمل عليها . يقول سراج الدين الوراق فيمن ازدرى الشعر :

رفضوا الشعر جهدهم ورموه   بينهم بالهوان والازدراء
فلو أن الكتاب كان بأيديهم   محوا منه آية الشعراء (٢)

ويقول :

أصون أديم وجهى عن أناس   لقاء الموت عندهم الأديب
ورب الشعر عندهم بغيض   ولو وافى به لهم حبيب (٣)

وقد أشرنا إلى ذلك .

وهكذا رأينا كيف أن الرغبة فى النقد الاجتماعى كانت حافزا له آثاره فى بروزه بين فنون الشعر . وأن الشعراء عكسوا هذه الرغبة الشعبية البادية أو المكبوتة ، فى شعرهم ، فأبرزوها وأعلنوا بها ، واتجهوا بها اتجاهات عدة ، ونقدوا المجتمع من زوايا كثيرة ، وخلفوا لنا من نقداتهم صورا اجتماعية واضحة .

---

(١) ديوان ابن الوردى .   (٢ ، ٣) خزانة الأدب لابن حجة باب التورية .

الهجاء

ولا بأس من الاستطراد — بمناسبة النقد الاجتماعى — إلى ذكر الهجاء. وقد يكون الهجاء شعراً إخوانياً دعت إليه خصومات وأحقاد مما يقع بين صاحبين، مثلا. ولكنه فى كثير من الأحيان — أو فى أغلب الأحيان — يكون شعراً اجتماعياً أعم منه إخوانياً. ويبدو بسبيل من النقد الاجتماعى، وإن كان يتسم بالتحامل والتجنى والافتراء وساقط اللفظ وسىء العبارة، أحيانا كثيرة. وهو على كل حال يصور بعض نواحى المجتمع، ويركز على المساوىء الشخصية ويضخمها. ولكنها مساوىء — لا ريب — أنها تتكرر فى أشخاص كثيرين، وأفراد عدة من أفراد المجتمع.

والهجاء فى العصر المملوكى، نادر الوجود. ومن أوفى ما قرأناه منه فى بابه، قصيدة طلية ذات نهج لافت، نظمها الشاب الظريف. هجا بها رجلا اسمه «ابن يعقوب». وقبل أن يصرح الشاعر باسم المهجو، حشد فى نحو تسعة عشر بيتا، مجموعة ضخمة من نقائص البشرية ومساوىء مجتمعاتها، بدت الأبيات التى تضمنتها كتأملات ناقم، أو ملاحظات غاضب مستاء متألم، أو لفتات ناقد مهتاج.. ثم عقب عليها ببيت واحد، نسب فيه هذه المجموعة كلها إلى «ابن يعقوب»، على اعتبار أنها «صفات علا» أى أنها محاسن يزداد بها . . . . .

يقول الشاب الظريف:

خذ من حديثى ما يغنيك عن نظرى ... فإنه سمر ناهيك من سمر
كم من أب قد غدا أما لمعشره ... فاعجب لإعطاء أم وهو من ذكر
وناطح بقرون لا قرون له ... وكبش قوم بنقل العلم مشتهر
ورب حامل وزر غير مجترم ... ولائط وهو عف الذيل والنظر

. . . .

وضارب لى أهواه وأكرمه ... أراه يحضر عندى وهو فى النفر

وكم بليد بظهر الغيب حدثنا وذى ذكاء رأيناه من الحمر
وكم بدا عاقل يوما وليس له فكر وليس بمنسوب إلى البشر
وكم نظرت لوجه ليس فى بدن وكم سمعت بصخر ليس من حجر
ورب ناظم أشعار وليس له شعر فهل مثل هذا سار فى السير
وممسك بيــديه النجم يقلعه وليس للمرء نيل الأنجم الزهر
ولابس وهو عار لا رداء له كسوته أطلسا من أخشن الشعر
وعابدين من المحراب قد هربوا ترى المسيح يوافيهم على قدر
ومدبرين وما ولوا ولا اجترموا وينسبون بلا شك إلى دبر
وصالحين رأيت الخمر عنـدهم قد حللوه بلا خوف ولا حذر
وسالحين وما زالت طهارتهم وآمنين وقد أمسوا ذوى خطر
ونازلين بأرض قد أصابهم غيم بلا بلل والقوم فى مطر
وتابعين إماما وهو من خشب وقد يؤنث فى وصف وفى خبر
عجائب ما لها حد فقل وأطل إن شئت أو فاقتصد فى القول واقتصر
كأنها لابن يعقوب صفات علا لذاك إحصاؤها أعيا على البشر[١]

ومن حوافزهم إلى نظم الشعر الرغبة فى التسلية وقطع وقت الفراغ فيما يقضى حاجة النفس من الفن . لقد تعلقت شاعريتهم بهذا الحافز أيضا ، وتوسلت به إلى حياتها واطراد نموها . ووجدوا من الخير أن يملئوا فراغهم بعمــل فنى يـكون مسلاة لهم وملهاة . فلم ينصرفوا فى أوقات فراغهم إلى ما ينصرف إليه عامة الرجال من لعب ولهو ، وبخاصة أننا عرفنا أنه لم يـكن وراء الشعر مايغرى ، وما كان لنا أن نحمل على شعراء انصرف عنهم زمانهم فى جدهم ، فانصرفوا عنه فى لهوهم . ولـكن الشعراء اتخذوا اللهو وأوقاته مطية إلى مناجاة الفن ووسيلة

---

(١) ديوان الشاب الظريف .

إلى محرابه . لقد عمدوا إلى قطع الفراغ بأبيات من الشعر ينظمونها ، أو مقطوعات ، أو قصائد مطولة ، يضمنونها سانحة سنحت لخواطرهم ، أو هاتفة أهابت بنفوسهم ، أو شاردة عبرت فأمسكتها مخيلتهم ، من فكرة جميلة ، أو وصفة مبتكرة ، أو صورة ساحرة ، أو تشبيهة طريفة ، أو تورية لطيفة أو غير ذلك . وكانت هى بعد ذلك ، دليل على ما يتسلون به فى أوقات فراغهم الكثيرة .

ولا حرج على المواهب إذا هى تنفست فى فراغها فعبثت أو جدت ، والتمست بينها وبين نفسها فى خلوتها حرية كاملة وطلاقة . ما دامت لا تجد مراحاتها الطبيعية ميسرة ، وميادينها الضرورية متاحة . ولعل ماتجود به الخواطر حينذاك لا يعوزه الصدق ولا حرارة الإيمان . وهو هو فى صدقه وحرارته رجع البيئة ووليد ظروف المجتمع وإن كان أدل على النفس وعاطفتها .

لقد سار شعراء العصر على هذا الدرب . وفى غضون تسلياتهم وتلهيهم ، تفكهوا وداعبوا وماجنوا وتشاكوا ، وتغزلوا وطارحوا ، وساءلوا ، وحاجوا ولاغزوا ، إلى غير ذلك من ألوان العبث البديع الذى أثرى الشعر من ورائه ثروة كبيرة . مما سنعرض عليك بعض آثاره ، فى سطور تالية .

وتمكنوا فى فراغهم وتسليتهم أن يكونوا أكثر امتزاجاً ببيئتهم وأشيائها . وبذلك صاروا أكثر خبرة بها وتجربة لها ، سواء فى ذلك جليلها وحقيرها ، بديعها ووديعها ، ونابهها وتافهها . فوصفوا هذا وذاك وصفافيه لطف وطرافة .

وقد حدث شهاب بن فضل الله العمرى قال عن دير « بلوزان » :

« مررت عليه . ونزلت إليه . ورأيت به غلاما يفوق الظبي حسنا . ويشبه البدر أو أسنى . بخصر نحيل . وطرف كحيل . قد قطع الزنار بين خصره وردفه . ونفث السحر بين جفنه وطرفه . ثم ماكان بأعجل مما استتر بدره . ولاح ثم خفى فجره فقلت فيه :

حبذا الدير من بلو ذان دارا أى دير به وأى نصارى
فيهم كل أحور الطرف أحوى فائق الحسن فى حياء العذارى
وغلام رأيته كهلال ما بدا للعيون حتى توارى
بقوام إذا تمايل نشوا نافألحاظ مقلتيه سكارى
ناحل العقد حل عقد اصطبارى عندما شد خصره الزنارا
قبل رؤياه ما رأيت غزالا بات يسقى من مرشفيه العقارا(١)

هذه أبيات عذبة وهذا تشبيب رقيق . وصورة من صور الحياة فى العصر . وثمرة من ثمار وقت الفراغ . . ومظهر من مظاهر ضعف الوازع الدينى والانحلال الخلق الذى تفشى نتيجة لإباحة الرقيق واستخدام الغلمان وغير الغلمان . .

وقد حدث أيضا شهاب الدين بن فضل الله العمرى فقال فى سياق حديثه عن دير « شعران » .

« حكى أن السراج الوراق مر على « دير شعران » فى حدود طرا من ضواحى القاهرة . فنزل به فرأى به جماعة من أودائه على راح تقدح لهم أقداحها . وتهدى إليهم أفراحها . وكان السراج قد طفئت فتيلته من شعلة ذلك اللهب . ونكرت قافيته ذاك الذهب . فأتاه بها الساقى فردها وواصلته فى الكأس فصدها . هذا حين نكس الكبر صعدته . وأنفد العمر مدته . وذكر بجلسائها فقد إخوانه . وذهاب زمانه . فلامه من حضر إذ صد عن الكاس . وقال أمالك أسوة بهؤلاء الجلاس ؟ فقال :

عجب الساقى لردى القدحا ولأمر فى التصابى قدحا
وأتانا بحميا كأسه حيث جئنا دير شعران ضحا
قلت : يا قرة عينى ربما غض طرف بعد ماقد طمحا

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٥٨ عند الكلام عن دير بلوذان .

لم أكن أول ولهان سلا لا ولا أول نشوان صحا
أشرب الراح أرجى فرحا فيتيح الحظ منها ترحا
سوء حظى لو رمى الصبح دجا أو رمى ليل عذار وضحا
وخمول منطق بالشتم لى من أرى دهرى له ممتدحا
زاد فى سبى إلى أن خلته شهد الله به قد سبحا
أنا ما ذنبى لحى الله امرأ لام فى التوبة مثلى ولحى
يا نديمى أنت الراح فدعنى أنزح الدمع إلى أن أنزحا
هى أوقات وكل آخذ من صفا أوقاته ما سمحا[١]

هذه قطعة شعرية جزلة رقيقة عذبة جيدة من نفثات الوراق . بل هى حكاية نفس وقصة حياة ورجع مشاعر . وهى طرفة من طرف أوقات الفراغ والتسلية والشيخوخة وماتدفع إليه أحيانا من زهادة .

وأثار الشعراء فيما بينهم ثائرة المنافسات الأدبية ، فكانت حافزا آخر من حوافز شاعريتهم ودافعا من دوافع إقبالهم على نظم الشعر ومزاولة الفن . لقد اتخذتها الشاعرية ، فيما اتخذته ، إحدى وسائلها إلى الحياة والعمل .

والمنافسة عامل ضرورى لقيام أى عمل ، حتى الأعمال الفنية . ومن حسن الحظ أن اتسع أفق المنافسات الأدبية فى عصر المماليك ، بدافع من الحوافز الأخرى . فقد كان كثير من الشعراء متواصلين تربط بينهم المودة ، فتراسلوا بالأشعار ووصفوا فيها العواطف والمشاعر والشوق والحنين ، ووصفوا الآمال . وقد تقع بينهم الجفوة فيتبادلون العتاب والملاحاة ويعجلون إلى الشكاية أو المشاكاة .

ويطرقون فى خلال مراسلاتهم صنوفا من الأغراض وأشتاتا من

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٦٦ .

الموضوعات ، ويعمدون إلى الإجادة ويحاولون الابتـكار تنبيها على مقدرتهم وتنويها بشاعريتهم . فتمت بذلك بينهم روح المباراة والمنافسة ، سواء منهم المرسل أو المرسل إليه ، لأنه بدوره يرد ويحاول فى رده ماحاوله زميله فى رسالته . ومن هنا حظيت المعارضة والمطارحة والمساءلة والملاغزة والمحاجاة والمداعبة والمماجنة ونحوها ، بنصيب وافر من عناية الشعراء وإجادتهم وإكثارهم .

وينساق بعضهم فى خلال إخوانيته ، إلى وصف حالة ، أو تسجيل حادثة ، أو مقارضة ثناء ، أو نحو ذلك . ويبالغ فى الوصف ويغلو فى المدح حتى يظفر بنصيب مماثل ــ على الأقل ــ من زميله فى الرد .

وكان ولوعهم بالبديع وصناعته تكأة كبيرة ، أذكت بينهم عوامل المنافسـة الأدبية ومحاولة الإجادة . وكان الحال أنه ما من خاطر من خواطرهم يقع على معنى أو فـكرة أو تشبيه أو كلمة تصلح أن تسبك فى قالب من قوالبه حتى يتسابق بل حتى يتواثب إليها كثير من الشعراء ، ويتلقفوها فى لهفة وعجلة ، وينظموها فى أبيات أو مقطوعة .

وقد ينساق بعضهم بحكم هذه المنافسة والرغبة الجامحة فى السبق والإجادة ، إلى الوقوع فى السرقة . فيسرق اللفظ والمعنى ، أو أحدهما أو بعضهما ، ويزيد عليه أو ينقص منه ، ويحسن فيه أو يشوه وسنحدثك فى مناسبة قادمة عن بعض هذه السرقات .

وقد لمحت ــ ولاشك ــ ألوانا ووقائع من هذه المنافسات ونتائجها فيما مر .

ومن المنافسات ما وقع بين ابن نباتة ومن عارضه فى بعض قصائده . وما جرى بينه وبين الحلى من ممادحة .

واشتدت المنافسة بين ابن نباتة ومعاصره وصديقه صلاح الدين الصفدى . وسطا الصفدى على كثير من أبيات ابن نباتة حتى ضج ابن نباتة وألف فى ذلك

كتابه ، خبز الشعير ، لأنه مأكول مذموم . أفصح فيه عن سرقات الصفدى منه .

فلما وقعت الجفوة بين الأديبين الكبيرين بسبب المنافسة فى الصناعة ، عاتب الصفدى صديقه ابن نباتة عتابا مراً . فنظم إليـــه قصيدة ضمنها أعجاز معلقة امرىء القيس ، فأخرج هذه الأعجاز ـ فى لباقة وكياسة ـ من طريقها فى المعلقة إلى طريقها فى المعاتبة . وهذا الإخراج أحد فنون الشعر .

ومن قصيدة الصفدى قوله :

أفى كل يوم منك عتب يسوءنى ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

وترمى على طول المدى متجنيا ... بسهميك فى أعشار قلب مقتل

فأمسى بليل طـال جنح ظلامه ... على بأنواع الهمـــوم ليبتلى

وأغدو كأن القلب من وقدة الجوى ... إذا جاش فيه حميه غلى مرجل .. إلخ

وقد رد عليه ابن نباتة عتابا رقيقا ، فى قصيدة من الوزن والروى والتضمين ، فقال :

فطمت ولائى ثم أقبلت عاتبا ... أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

بروحى ألفـاظ تعرض عتبها ... تعرض أثناء الوشاح المفصل

فأحييت ودا كان كالرسم عافيا ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

تعفى رياح العذر منك رقومه ... لما نسجتها من جنوب وشمأل .. الخ(١)

ومن المنافسات ما نظمه شعراء مصر فى عهـد الأشرف الغورى ، ردا على بيتى الشاه إسماعيل الصفوى اللذين أرسلهما تهديدا لمصر فتنافسوا فى الرد عليهما ، وتبارى فى ذلك نحو مائتى شاعر . وسنحدثك قريباً عن هذه الواقعة .

وفى عهد الملك المؤيد شيخ تمت عمارة مسجده المشهور بالقاهرة . وكان الناظر

---

(١) راجع خزانة الأدب باب الإيداع .

عليها بهاء الدين بن البرجى . واتفق بعد بنائها بسنة واحدة أن مالت مئذنتها التى كانت على البرج الشمالى لباب زويلة فتبارى الشعراء فى تسجيل هذه الحادثة ، وفى تعليلها ، وفى التفكه بها .

فقال تقى الدين بن حجة الحموى مع جناس التورية ، وفيه إشارة إلى الناظر بهاء الدين بن البرجى .

على البرج من بابى زويلة أنشئت منارة بيت الله للعمـــل المنجى
فأخنى بهـا البرج اللعـــين أمالها ألا اصرخوا ياقوم باللعن للبرجى

وقال شهاب الدين بن حجر العسقلانى ، مع جناس التورية أيضاً ، وفيه إشارة إلى بدر الدين العينى :

لجامع مولانا المؤيـــد رونق منارته بالحسن تزهو وبالزين
تقول وقد مالت عن القصد أمهلوا فليس على جسمى أضر من العين «العينى»

فقال بدر الدين العينى ، وفيه إشارة إلى ابن حجر . .

منارة كعروس الحسن إذ جليت وهـــدمها بقضاء الله والقدر
قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلط ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر (١)

ووقعت الخواطر وتزاحمت الشعراء على وصف الروضة ودولابها ، لإجادة التورية فى « ضاع » و « دار » . . .

فقال مجير الدين بن تميم .

أيا حسنها من روضة ضاع نشرها فنادت عليه فى الرياض طيور
ودولابها كادت تعد ضلوعه لكثرة ما يبكى بها ويدور

وقال بدر الدين بن لؤلؤ الذهبى .

---

(١) القصة والأبيات فى بدائع ابن إياس ج ٢ ص ٧ ط بولاق — وحسن المحاضرة للسيوطى

وروضـــة دولابهـا إلى الغصون قـد شكا
من حين ضاع نشرها دار عليهـا وبكى

وقال جمال الدين بن نباتة المصرى :

وناعورة قسمت حسنها على واصف وعلى سامع
وقـد ضاع نشر الربا فاغتدت تدور وتبـكى على الضائع(١)

وسيرد عليك فيما يلى ، وعند الحديث عن طبقات الشعراء وكثرتهم ، أمثلة أخرى لمنافساتهم .

وبعد فهذه عدة حوافز هيأتها البيئة الاجتماعية بسياقها ومنطقها ، لمواهب الشعراء فتعلقت بها وتشبثت . واتخذت منها وسائل ودعائم تعيش عليها وتنهض وتنشط . إلى جانب ماهيأته لها البيئة الثقافية وغيرها ، مما سبقت إشارتنا إليه .

ونعود إلى التنبيه على أن ألوان البيئة كلها متعاونة متضافرة دائماً على توجيه الموهبة الشعرية ، ولا نستطيع بالضبط أن نحكم بأن اتجاها معينا تتجهه هـــذه الموهبة ، ونتاجا معينا تنتجه ، هو وليد لون معين من ألوان البيئة دون سواه . إلا أن بعض الاتجاهات وضروب النتاج ، تبرز فيه آثار بيئة معينة ، أحيانا ، أكثر من بروز آثار بيئة أخرى .

وفى الفصول السابقة جميعاً تراءت لنـا بلاريب ، جهود كثير من شعراء العصر . مما يثبت لنا أيضاً سعة يقظتهم الفكرية والنفسية ، وضخامة نتاجهم فى نواحى الشعر وفنونه . وسرعة استجابتهم لألوان البيئة فى زمانهم ، حتى إنه لايعيا الباحث ــ كما شهدنا فى هذا البحث ــ عن أن يلتمس هذه البيئات فى نتاجهم .

---

(١) كشف اللثام لابن حجة الحموى.

وأعتقد أنه قد آن الأوان الآن فى هذا البحث ، لننوه فى إيجاز عن هؤلاء الشعراء الذين دللوا بوضوح على شاعرية مصر ، وعلى أن أرضها الطيبة مستعدة دائما لأن تلد الشعراء . وأن تلد منهم عدداً كبيرا ، وأن توحى إلى كثير منهم من قوة الفن وصفاء النفس ويقظة الفكر وحسن البيان ، مايخلد مآثرها ويسجل حوادثها ويكون مرآة لحياة أهلها .

كثرة الشعراء وطبقاتهم :

أجل ، لا أدل على طيب أرض مصر العربية ، وقوة خصبها وجمال ماتوحى به إلى أبنائها ، فتهتز به مشاعرهم ، وتفيض به خواطرهم ، وتلهج به ألسنتهم ، من هذه الكثرة من شعرائها فى عصر المماليك – بالرغم مما عانوه من المعوقات والمثبطات — ومن كثرة ما أنتجوه فى مجالاتهم الفنية ، وما نوعوه فى اتجاهاتهم الشعرية .

وإنك لتجد فى كل جيل من أجيالهم جمهرة كبيرة منهم تلاحق كل طبقة منها ما يليها ، فى تواصل مستمر وتواص دائم . حتى ليخيل إليك أن البلاد رياض هم عنادلها ، وبساتين هم أطيارها وبلابلها . لا يفتئون يغردون بما تهمس به فى خواطرهم من أغان ومن أهازيج وألحان ، بقيت وستبقى على تتابع الأزمان وتقلب الحدثان .

انظر إلى عهد الناصر محمد بن قلاوون — مثلا – وأحص عدد من عاش فيه أو أدركه من الشعراء — وقد امتد عصر الناصر من سنة ٦٩٣ ﻫ إلى سنة ٧٤١ ﻫ — تجد منهم عشرات . من بينهم النابه المجيد ، والبارع المبتكر المجدد ، وفيهم المنتج المكثار . ومن هؤلاء فى مصر والشام :

تاج الدين الأرمنتى . زين الدين بن الرعاد . جلال الدين الإسنائى . القيسرانى . عبد العزيز بن محمد . ابن دانيال الموصلى . نصير الدين الحمامى . شمس الدين بن

العفيف . علاء الدين الوداعى . قطنبة . ابن هبة الله الأصفونى السمهودى . شمس الدين بن الصائغ . المازنى الدهان . بدر الدين بن جماعة . شمس الدين بن المشد . بدر الدين الدمشقى . مجير الدين بن الخياط . القيسرانى . إسماعيل بن محمد . شرف الدين البارزى . العكوك المصرى . زين الدين بن الوردى . صفى الدين الحلى : أبو بكر بن اللبانة وبدر الدين الغزى الزغارى جمال الدين السبكى : صلاح الدين الصفدى . جمال الدين بن نباتة المصرى .

وذكر تقى الدين بن حجة الحموى شعراء مصر والشام الذين أجادوا التورية ـ والتورية اتجاه أسلوبى وليد الحياة الاجتماعية ـ بعد القاضى الفاضل وابن سناء الملك المصرى . فأورد منهم من شعراء العصر المملوكى إلى عهده :

الوراق . والجزار . والنصير الحمامى . وابن النقيب . وابن دانيال . وابن عبد الظاهر . وشرف الدين الأنصارى . ومجير الدين بن تميم . وبدر الدين الذهبي . ومحيي الدين بن قرناص . وشمس الدين بن العفيف . وسيف الدين بن المشد . وعلاء الدين الوداعى .

وبعد أن أورد ابن حجة طوائف عدة من توريات ابن نباتة ، قال :

« انتهى ما وقع عليه الاختيار ، ووعدت بإيراده من غرائب الشيخ جمال الدين بن نباتة وبدائعه فى باب التورية ، على اختلاف أنواعها .

وقد تقدم قولى إن الراية الفاضلية هو عرابة مجدها وواسطة عقدها وقائد زمامها ومسك ختامها . وقدمت أيضا من مشى تحت الراية الفاضلية من ابن سناء الملك إلى الوداعى .

ولما رفع العلم النباتى كانت هذه الفرقة التى مشت تحت هذا العلم أكثر عدداً وأشهر ذكرا ، وأعلى رتبة ونظما ونثراً .

وقد عن لى أن أذكر هنا لكل من عاصره ومشى تحت علمه النباتى وتحلى

بنكتته الأدبية نبذة من مختار مقاطيعه التى حلاوتها فى الأصل نباتية ، ليظهر صدق قولى فى تفضيل الصحابة المحمدية .

وأشرع بعد ذلك فى إيراد نبذة من نظم التابعين لهم بإحسان ، وأدير هـذا الـكأس بحيث يتسلسل دوره إلى أهل هذا العصر والأوان .

والعصابة التى مشت تحت العلم النباتى وتحلت بقطر نباته هم :

الشيخ صلاح الدين الصفدى . والشيخ زين الدين بن الوردى ، والشيخ برهان الدين القيراطى — ومذهبى أنه أقرب الناس إلى الشيخ جمال الدين نظما ونثرا — والشيخ شمس الدين بن الصائغ والشيخ بدر الدين بن الصاحب ، والشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى ، والشيخ إبراهيم المعمار ، والشيخ بدر الدين حسن الزغارى ، والشيخ يحيى الخباز الحموى ، والشيخ شهاب الدين الحاجبى .

وممن أدركهم وعاصرهم المصنف ـ أى ابن حجة ـ وكتبوا إليه وكتب إليهم، وأنشده وأنشدهم من أهل مصر والشام

الشيخ زين الدين العجمى عين كتاب الإنشاء الشريف بالديار المصرية ، والقاضى فتح الدين بن الشهيد صاحب دواوين الإنشاء الشريف بدمشق المحروسة وناظم السيرة النبوية . نور الله ضريحه . والشيخ عز الدين الموصلى. والشيخ علاء الدين بن أيبك الدمشقى . والشيخ جلال الدين بن خطيب داريا ، والشيخ شمس الدين الرئيس الشهير بابن المزين ، والشيخ فخر الدين بن مكانس وولده الجناب المخدومى المجدى . وسيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء ـ قدس الله روحه . ولـكن ما رأيته . الشيخ شرف الدين عيسى الشهير بعويس . والشيخ شهاب الدين بن العطار ، ولـكن ما حضرته ، والشيخ جمال الدين ولـكن ما رأيته ، وصاحبنا الشيخ شهاب الدين المتنبى المصرى .

والفرقة التى أطال الله بقاءها وأمست قواعد الأدب بها قائمة . وختمت

بهم هـــذه الطريقة البديعية وأخلصوا فى العمل ففازوا فى الحالتين بحسن الخاتمة وهم :

القاضى بدر الدين بن الدماميني المالـكى المخزومى ـ فسح الله فى أجله ـ والشيخ الإمام الحافظ العلامة شهاب الدين بن حجر العسقلانى رحمه الله تعالى والشيخ بدر الدين البشتكى رحمه الله تعالى »[1] .

ثم روى ابن حجة أبياتا لـكل شاعر ممن ذكرهم هنا على سبيل التمثيل .

وهـكذا سجل لنا ابن حجة الحموى ـ وهو المتوفى عام ٨٣٧هـ — طبقات من شعراء مصر والشام متتابعة ، من لدن القاضى الفاضل حتى زمانه .

والذى يهمنا فى هذا المقام من سجلهم من طبقات الشعراء فى عصر المماليك . وقد ذكر منهم من تقدم على جمال الدين بن نباتة . ثم من عاصره ، ثم من جاء بعده فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، ثم من عاصرهم ابن حجة نفسه . فهذه أربع طبقات .

وننبه إلى أنه عنى بذكر شعراء التورية فحسب ، لا لجميع الشعراء . أما جميع الشعراء فهم أوسع عددا ممن ذكر - ولا ريب — على أنه عنى بذكر المشاهير دون المناكير ، فضلا عمن يلهو عنهم ويسهو عن ذكرهم ، وفضلا عمن قد لا يصل خبرهم إليه .

ولا ندرى أى عدد كان يسجله ابن حجة ، ونظفر به منه ، لو أنه لم يتقيد بشعراء التورية ، وسجل أسماء الشعراء فى كل فن من فنون الشعر ، وجادته ذاكرته وتهادت إليه الأخبار بأسمائهم جميعاً .

على أن فيمن ذكرهم مقنعا لنا بما ذهبنا إليه ، وهى أن بلادنا هذه استطاعت فى عصر ركدت فيه دواعى الاشتغال بالأدب والشعر ، أن تنجب وتلد عـدداً

---

(١) راجع خزانة الأدب باب التورية .

كبيراً من هؤلاء الأبناء الفضلاء الذين خلدوا بنتاجهم أنباء إنجابها وجاداته .

وإليك شاهداً آخر على صدق مانقول ، وهو ماروواه ابن إياس في تاريخه ، قال مانصه :

« كان بالقاهرة سبعة من الشعراء اجتمعوا فى عصر واحد ، وكل واحد يدعى بشهاب فكان يقال : « السبعة الشهب » . وهم : الشهاب بن حجر رحمة الله عليه . والشهاب بن الشاب التائب . والشهاب بن أبى السعود . والشهاب بن مبارك شاه الدمشق . والشهاب بن صالح والشهاب الحجازى . والشهاب المنصورى .

فلما مات الستة رثاهم الشهاب المنصورى بهذه الأبيات :

خلت سماء المعانى من سنا الشهب	فالآن أظلم أفق الشعر والأدب
تقطب العيش وجها بعد رحلة من	تجانبوا بالمعانى مركز القطب
تعطلت خرد الأيام من درر	كانت تحلى بها منهم ومن ذهب
لو تعلم الأرض ماذا ضمنت بطرت	بهم كما يبطر الإنسان بالنسب
ولو درى المسك أن الأرض قبرهم	لود نشقة عرف من شذا الترب »(١)

أقول : ومن هؤلاء من أدرك عصر الأشرف قايتباى . وقد كانوا فى القاهرة ، جمعتهم سماؤها كما جمعهم لقبهم . وإذن فكم كان فى القاهرة من الشعراء غيرهم ممن لايدعى « شهاب الدين » . ثم كم كان غيرهم فى غير القاهرة .

على أن ابن إياس يقدم إلينا دليلا آخر ومثالا جديداً قوى الحجة بارز البرهان . إذ يقول فى مناسبة أخرى مامجمله : — وكان ذلك فى عهد الأشرف قانصوه الغورى :

---

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٦ ط بولاق .

« إن إسماعيل شاه بن حيدر الصوفى ، لما تمكن أمره فى بلاد فارس والعراق ، وقتل ملك التتار أزبك خان . أرسل إلى مصر بيتين من الشعر يهددها بهما وهما :

السيف والخنجر ريحاننا أف على النرجس والآس
مدامنا من دم أعدائنا وكأسنا جمجمة الراس

فتبارى شعراء مصر فى الرد على هذين البيتين من البحر والروى . وتسابق فى ذلك نحو مائتين من الشعراء .

وقد ذكر ابن إياس بعض هؤلاء الشعراء . ومنهم : ابن إياس . والسلمونى، ومحمد بن قانصوه . والأشمونى ، وابن الحجار ، والشربينى ، وعلى الغزى ، وابن العاقل ، والشريف العباسى ، وشهاب الدين البحيرى المالكى ، وناصر الدين بن الطحان . وموسى بن بقسماطة ، ونور الدين بن حشيش ، ومحمود الحلبلى .

وسجل ابن إياس شيئاً مما رد به الشعراء على بيتى الشاه إسماعيل :

فقال الأشمونى :

يراعنا الرمح وقرطاسنا صدر عدو منكر الباس
مدادنا من دمه خطنا تاريخ طعن مذكر الناسى

وقال ابن الحجار :

ياقائلا أف على نرجس أف على الباغى على الناس
فإن خير الناس من لايرى شرب دم المسلم فى الكاس

وقال الناصرى محمد بن قانصوه :

العدل والحلم لناحلة حيكت مع القوة والباس
وسنة المختار طرز لها وذكرنا تاج على الراس (١)

---

(١) بدائع الزهور ج ٥ حوادث ربيع الأول عام ٩١٧ هـ .

وعلى هذا النمط كانت ردود الشعراء . لقد هبوا يذودون عن مصر ، ويدفعون عدوها بسلاح أمضى من سلاحه ، ويذكرونه بمفاخرها وقوتها وبأسها . ويتنافسون فى أداء هذا الواجب تنافسا قويا .

وشاهدنا هو هذه الكثرة النشيطة من الشعراء ، الذين ظهروا فى مناسبة واحدة . فبلغ عددهم مائتين .

وقد كانت السلطنة المصرية — كما ذكرنا آنفا — ممتدة الرقعة واسعة النطاق تشمل البلاد المصرية والشامية والحلبية والحجازية . وكان الاختلاط بل الامتزاج مستديما ومطرداً بين أهل مصر والشام . وكانت الصداقات وشتى العلاقات من إخوانية وغيرها تربط بين شعراء مصر والشام . وكانت رحلات العلماء والأدباء والشعراء لا تنقطع بين البلدين ، وكان من النادر أن ترى أحد هؤلاء الأعلام من بلد منهما ، لارحلة له إلى البلد الآخر . ولهذا يندر أو يصعب عليك أن تميز فى هذه الحقبة بالذات ، شعراء مصر من شعراء الشام ، وهذا جمال الدين بن نباتة شاعر مصر يمم الشام وحماة زمنا وأقام فيهما ، وهذا تقى الدين بن حجة الحموى شاعر حماة وأديبها يمم شطر مصر وأقام بها ردحا . وهكذا دواليك . واعتقادنا أن شعراء الشام حينذاك أفادوا من أدب مصر وثقافتها وكان لذلك أثر فى شعرهم ، فى الجملة ، كما تبين من حديث ابن حجة عن شعراء التورية .

ونستطيع بعد ذلك ، القول إن هذا العصر شهد عددا من شعراء مصر والشام ، ضخما . ويتألف من كل طائفة متعاصرة منهم فى جيل واحد ، رجال حلبة واحدة . وما تكاد تنقضى حلبة برجالها حتى تتراءى حلبة أخرى .

وتتبع الحلبة منها الحلبة ، دون أن تمر بين الحلبتين فترة ركود أو برهة خمود . ويكاد يكون لكل واحدة منها زعماؤها ومقدموها ، بل وأميرها الذى يدينون له بالإمارة . .

ويشهد لذلك ما قاله شهاب الدين بن حجر العسقلانى الإمام الحافظ والأديب الذواقة الشاعر ، لما حكمه تقى الدين بن حجة الحموى فى قصائد تائية ثلاث من قصائد المعارضات ، أولاها لابن نباتة المصرى ، وثانيتها لبرهان الدين القيراطى ، وثالثتها لتقى الدين بن حجة نفسه — وقد نوهنا بذلك فى مناسبة سابقة .

وقد حكم ابن حجر بينها جميعا ، وقال فى عداد حكمه مانصه عن أصحاب القصائد الثلاث :

« إن كلا من الثلاثة رأس الفن فى زمانه ، ولا يوازنه أحد من أقرانه » (١)

والواقع أن العصر المملوكى ـ بين مصر والشام ـ شهد ست حلبات من الشعراء متعاقبة ، تتصل إحداها بالأخرى . وذلك على أساس احتساب حلبة واحدة لكل نصف قرن .

ونستطيع ترتيبها على وجه التقريب ، كما يلى ، ذاكرين بعض رجال كل حلبة منها على سبيل التمثيل ، لا الحصر :

الحلبة الأولى :

وهى الحلبة المخضرمة التى شهد كثير من رجالها عهد الأيوبيين وأوائل عصر المماليك . ويعتبر محيى الدين بن عبد الظاهر « ٦٩٢ هـ » رأسها . ومن رجالها ، بين مصر والشام :

سيف الدين المشــــد « ٦٥٥ هـ » . عبد العزيز الأنصارى « ٦٦١ هـ » . أبو الحسين الجزار المصرى « ٦٧٩هـ » .(٢) بدر الدين يوسف الذهبى « ٦٨٠ هـ » . مجير الدين بن تميم « ٦٨١ هـ » . محيى الدين بن قرناص الحموى « ٦٨٥ هـ » ، الشاب الظريف « ٦٨٨ هـ » . ظهير الدين البارزى « ٦٨٨ هـ » . ناصر الدين بن النقيب

---

(١) تأهيل الغريب وخزانة الأدب .

(٢) ذكر ابن حجة فى كتابه « كشف اللثام » أن وفاة أبى الحسين الجزار كانت عام ٦٧٢ هـ .

« ٦٨٧ هـ » . معين الدين بن لؤلؤ الفهرى المصرى « ٦٨٥ هـ » . أبو جلنك الحلبى « ٦٩٢ هـ » . تقى الدين السروجى « ٦٩٣ هـ » . سراج الدين الوراق « ٦٩٥ هـ » . شرف الدين البوصيرى « ٦٩٥ هـ » . مجد الدين الإربلى « ٦٩٧ هـ » .

الحلبة الثانية :

وهى التى عاش أكثر رجالها فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، أو أدركوه ، أو قضوا فيه أطيب أيام حياتهم : ويعتبر جمال الدين بن نباتة المصرى « ٧٦٨ هـ » . وصفى الدين الحلى « ٧٥٠ هـ » زعيمى هذه الحلبة . ومن رجالها :

صدر الدين بن الوكيل « ٧٠٥ هـ » . (١) شمس الدين بن دانيال الموصلى « ٧١٠ هـ » . نصير الدين الحمامى « ٧١٤ هـ » . شمس الدين محمد بن العفيف « ٧١٥ هـ » . علاء الدين الوداعى « ٧١٦ هـ » . شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبى « ٧٢٥ هـ » . مجد الدين بن الخياط « ٧٣٥ هـ » . شمس الدين الواعظ الواسطى « ٧٤٤ هـ » . فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى « ٧٤٠ هـ » . أبو حيان النحوى « ٧٤٥ هـ » . جمال الدين بن غانم « ٧٤٤ هـ » . شهاب الدين بن فضل الله العمرى « ٧٤٨ هـ » . زين الدين بن الوردى « ٧٤٩ هـ » إبراهيم المعمار « ٧٤٩ هـ » . أبو بكر بن اللبانة « ٧٥٢ هـ » بدر الدين الزغارى « ٧٥٣ هـ » . صلاح الدين الصفدى « ٧٦٤ هـ » . نور الدين الإسعردى « ٧٦٦ هـ » .

وهذه الحلبة هى التى شهد رجالها عصر الناصر محمد بن قلاوون ، وقد سبقت الإشارة إليها . وتعتبر أملأ حلبات عصر المماليك بالرجال ورجالها أجد رجال الحلبات فى جملتهم ، كثرة نتاج وجودة إخراج وتنوع افتنان ، وتعدد ألوان .

وحسبك أن من بينهم ابن نباتة ، والصفى الحلى ، وابن الوردى ، وابن فضل الله العمرى ، والصلاح الصفدى ، والشهاب الحلبى ، والعلاء الوداعى .

---

(١) ذكره ابن شاكر فى فوات الوفيات ، وحدد وفاته بعام ٧١٦ هـ . ويقال له أيضا « ابن المرحل » .

الحلبة الثالثة :

هى التى ظهر أكثر رجالها فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى وهى وثيقة الاتصال بسابقتها ويعتبر برهان الدين القيراطى « ٧٨١هـ » علم هذه الحلبة . ومن رجالها :

بهاء الدين أبو حامد السبكى « ٧٧٣هـ » شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى « ٧٧٦هـ » . نور الدين على بن سعيد المغربى « ٧٧٨هـ » بدر الدين بن حبيب الحلبى « ٧٧٩هـ » . أحمد سميكة « ٧٨٢هـ » . بدر الدين بن الصاحب « ٧٨٨هـ » . عز الدين الموصلى « ٧٨٩هـ » . فخر الدين بن مكانس « ٧٩٤هـ » . شمس الدين بن الصائغ « ٧٩١هـ » . شهاب الدين بن العطار « ٧٩٤هـ » . إبراهيم المعمار « ٧٨١هـ »[1] .

ومن رجال هذه الحلبة : زين الدين الحلبى ، ويحيى الخباز الحموى ، وشهاب الدين الحاجبى .

الحلبة الرابعة :

هى التى ظهر أكثر رجالها فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى ، وهى آخذة عن سابقتها ووثيقة الصلة بها أيضا . ويعتبر تقى الدين بن حجة الحموى « ٨٣٧هـ » رأس هذه الحلبة . ومن رجالها :

شهاب الدين الأوحدى « ٨١١هـ » . ابن خطيب داريا « ٨١٣هـ » . شهاب الدين الباعونى « ٨١٦هـ » برهان الدين القرشى المعروف بابن زقاعة « ٨١٦هـ » . شهاب الدين الكاسى « ٨٢٥هـ » الآثارى « ٨٢٨هـ » . غرس الدين خليل القاهرى « ٨٤٣هـ » . ابن الخراط « ٨٤٠هـ » شهاب الدين بن بكتمر « ٨٤١هـ » . برهان الدين البهنسى « ٨٤٦هـ » . شمس الدين بن كميل « ٨٤٧هـ » . شمس الدين النواجى « ٨٥٩هـ » شهاب الدين بن حجر العسقلانى « ٨٥٢هـ » .

---

(١) هذا على رأى من يؤرخ وفاته بعام ٧٨١هـ

ومنهازين الدين العجمى . فتح الدين بن شهيد . علاء الدين بن أيبك . شمس الدين بن المزين . مجد الدين بن مكانس . بدر الدين الدماميني . بدر الدين البشتكي . أبو الفضل بن أبي الوفاء . شرف الدين عيسى الشهير بعويس . شمس الدين المتنبي المصرى .

الحلبة الخامسة :

هى التى ظهر أكثر رجالها فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى . وهى كذلك شديدة الاتصال بالحلبة السابقة . ويعتبر الشهاب الحجازى « ٨٧٥هـ » والشهاب المنصورى « ٨٨٧ هـ » أبرز رجالها ومنهم :

الشهاب بن الشاب التائب « ٨٦١هـ » الشهاب بن صالح « ٨٦٣ هـ » الشهاب بن أبى السعود « ٨٧٠هـ » . برهان الدين الباعونى « ٨٧٠هـ » . غرس الدين خليل بن شاهين «٨٧٣هـ» شهاب الدين الميقاتى « ٨٩٧هـ » .

الحلبة السادسة :

وهى التى عاش رجالها فى أواخر العصر وماتوا بعد عام ٩٠٠هـ ، وشهد عدد منهم عصر الأشرف الغورى والغزو العثمانى ؛ ومن رجالها :

شمس الدين القادرى « ٩٠٣هـ » . بدر الدين بن جمعة « ٩١٤هـ » . عبد القادر الدماصى « ٩١٥ هـ » . أبو النجا القمى « ٩١٦هـ » . علاء الدين بن مليك الحموى « ٩١٧هـ » . بدر الدين الزيتونى قيم الزجل « ٩٢٤هـ » . ومنهم : جمال الدين السلمونى . الناصرى محمد بن قونصوه بن صادق . ابن إياس الحنفى المؤرخ [1] .

---

(١) تراجع تراجم هؤلاء الشعراء فى كتب تراجم الأعلام مثل : الطالع السعيد ثم الدرر الكامنة ثم الضوء اللامع ثم بدائع الزهور، تباعا بحسب أجيالهم : هذا فضلا عن الوافى بالوفيات وعقد الجمان والمنهل الصافى.

نتاج هؤلاء الشعراء :

أما نتاج هؤلاء الشعراء فنقول إن لبعضهم دواوين موجودة ما بين مخطوطة ومطبوعة ، ومنهم ابن حجر العسقلانى . والصفى الحلى ، والجمال بن نباتة ، والبرهان القيراطى ، والفخر بن مكانس ، والتقى بن حجة الحموى ، والشهاب العطار ، وابن مليك الحموى .

ولكثير منهم أشعار منثورة فى كتب الأدب ، وأغلب الظن أنها لم يجمعها جامع حتى اليوم . ومن هذه الكتب : تأهيل الغريب وخزانة الأدب لابن حجة الحموى ، وغيرهما من كتبه أيضاً . ومنها « تشنيف السمع فى انسكاب الدمع » و « ألحان السواجع فى البادى والمراجع » وهما لصلاح الدين الصفدى . ويحتوى « ألحان السواجع » وحده على أكثر من اثنى عشر ألف بيت من نظم الصفدى وشعراء عصره .

ومن كتب الأدب كذلك : نهاية الأدب للنويرى ، وكتب التراجم مثل فوات الوفيات والوافى بالوفيات ، والمنهل الصافى ، والضوء اللامع . وكتب التاريخ العام مثل النجوم الزاهرة وسلوك المقريزى وبدائع الزهور لابن إياس . وغير ذلك من الكتب الأدبية والتاريخية .

وإذا راعينا ما أصاب كتب العلم والدين والأدب على يد العثمانيين ، غب الغزو وبعد الفتح طوال حكمهم ، سرقة ونهبا وتشتيتا ، نشعر بأن هناك — ولابد — كثيراً من كتب الأدب والشعر ضاعت معالمها ونسيت محتوياتها وجهلت مضموناتها . ولو علمت وكشف عنها ، لأمدت تاريخ الأدب بكثير من النصوص والمعلومات .

ونلحظ ، ونحن نقرأ تراجم شعراء العصر ، أنباء نتاجهم الشعرى ، وأخبار دواوينهم ، مما يقطع بضخامة ما خلفوه منها ، دون أن نعثر له على أثر .

وإليك مثلا :

الشاعر « يوسف بن سيف الدولة » ، قال السيوطي عنه : « له فضل مشهور وشعر مأثور » [١].

والشاعر « شهاب الدين العزازي » قال السـيوطي عنه : « له ديوان في مجلدين » . [٢]

والشاعر « برهان الدين الباعوني » قال عنه السخاوي : « إنه برع في الأدب نظما ونثرا وتصنيفا ، حتى صار شيخ الديار الشامية في الأدب بلا منازع . » وقال أيضاً : « وله ديوان خطب وديوان شعر ، وله كتاب « الغيث الهاتن في وصف العذار الفاتن » وفيه نحو ١٥٠ مقطوعة شعرية في وصف العذار ابتكر معانيها . [٣]

والشاعر « شهاب الدين الأوحدي » قال عنه السخاوي : « ونظمه سائر وله ديوان شعر » . [٤]

وعن الشاعر « غرس الدين خليل بن شاهين الشيخي الظاهري » الذي كان مملوكا للملك الأشرف برسباي : « إنه نظم الشعر وله فيه ديوان » . [٥]

والشاعر « الآثاري » روى عنه السخاوي أن له من المؤلفات ما يربو على الثلاثين . ومنها ديوان في النبويات اسمه « المنهل العذب » . [٦]

وفي هذا التنويه ما يكفي في مقام التدليل على ضخامة هذا النتاج الشعري .

وبعد ، إننا في هذا الفصل تحدثنا عن بعض الحوافز التي ولدتها البيئة الاجتماعية ، وكان لها أثر كبير في توجيه الشعراء نحو نتاج شعري معين ، وفصلنا القول تفصيلا مناسباً في هذا النتاج .

(١، ٢) راجع حسن المحاضرة تحت عنوان الشعراء .

(٣، ٤، ٥، ٦) راجع الضوء اللامع في تراجم هؤلاء الشعراء .

وليس وحده هو كل ما ولدته البيئة الاجتماعية . ولا كل ما استجاب لها به شعراؤها . فلنحث الخطا إذن للتفصيل والإفاضة حتى نعطى لكل ذى حق حقه . ولنتحدث فى أغراض شعرية أخرى هى وليدة المجتمع ـ كما سبقت إشارتنا إلى ذلك فى أكثر من مناسبة ـ

فن أغراض الشعـــر :

١ ـ المديح النبوى :

لا يزال المديح النبوى من لدن الرسول عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ، يحتل ، باعتباره فنا من فنون الشعر ، مكاناً مرموقاً . لما للممدوح عليه الصلاة والسلام من منزلة عظيمة عندنا معشر المسلمين . ولما له من جليل الأثر فى تعليم الناس وتهذيب البشرية وتبليغ رسالات ربه .

وقد امتزج منذ مطلعه عند الأعشى بالمدح والمنافرة على طريقة الجاهليين ، وكذلك بالغزل والاعتذار عند كعب بن زهير . ولما تسلم حسان بن ثابت راية هذا الفن الجليل مدح الرسول عليه السلام مبهوراً بجلال دعوته ، مسحوراً بجمال رسالته وعظمة عمله . فمدحه مدح المدافع المفدى ، والجندى المضحى فى سبيل قائده وفى سبيل عقيدته .

ثم أخذ هذا الفن بعد صدر الإسلام ، على يد الكميت وغيره يمتزج بالنزعة السياسية والاحتجاجات المذهبية ، واتخذوه وسيلة إلى نصرة أوليائهم من أهل البيت وتسفيه أعدائهم .

وما زال هذا الفن حتى وافى العصر المملوكى . وقد رأينا كيف كانت النزعة الدينية به طاغية ، وكان لها آثارها الضخمة فى الحيـاة السياسية ، وكيف غذتها العوامل الثقافية ، وكيف عاش المجتمع على دعامة قوية منها . وكيف كانت العناية بارزة، بدراسة حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبروايته وشرحه.

أضف إلى ذلك حياة الشظف والضنك والحرمان والكبت التى عاناها هذا الشعب العربى، فى مرتزقه ومعاشه، ومن أداة حكمه التركية والجركسية، مما يدعو بعض الناس ولا ريب — إلى اللياذ بالزهادة، والجنوح إلى حالة من التصوف، ونوع من التطرف الدينى، يجد فيه ملجأ وراحة وتفسيراً يخدع به نفسه عن حقيقة الحرمان ويبعدها عن آلامه.

تأثرت نزعات الشعراء بهذا كله، واستجابوا — أو استجاب كثيرون منهم — لذلك وكانت الاستجابة قوية وسريعة وبارزة وواسعة النطاق. وكان المديح النبوى ميداناً واسعاً لهذه الاستجابة، وتلقف شرف الدين البوصيرى «٦٩٥ هـ» هذا الفن، فنظم فيه مدائحه المشهورة، ولا سيما قصيدته «البردة». فنقله نقلة واسعة المدى، وخلصه من شوائب المنافرات والمفاخرات. وشوائب السياسة والدعاية. جرده من ذلك، ونحا به منحى جديدا وهو مزجه بالحب الخالص والوجد الصفو، واللوعة القلبية الصادقة نحو الرسول عليه الصلاة والسلام. وأساس ذلك تقديس المحبوب إكباراً لعمله وإجلالا لخلقه وتعظيما لجمال نفسه ورحابة قلبه. ويتبع ذلك الشوق والحنين إليه وإلى دياره المباركة الشريفة، ومعاهد رسالته، وذكر معالم سيرته، والتودد إليه والاستشفاع به لدن رب العالمين.

وقد ظل هذا النهج دستوراً قائماً حتى يومنا هذا. اتبعه — ولا يزال يتبعه — شعراء المديح النبوى. وما كان أكثرهم وأكثر نتاجهم فى العصر المملوكى.

وما من جيل من أجيال الشعر — بعد البوصيرى — إلا قد سعد بطائفة من الشعراء، أبدعوا فى هذا الفن ماشاء لهم الإبداع، وأطالوا فيه ما شاء لهم طول نفسهم، وتباروا فيه مباراة الحريص على النصر والظفر، وعارضوا فيه القدماء والمحدثين فيما نظموه فيه حتى صار هذا الفن بنتاج الشعراء فيه، جديراً

بدراسة خاصة مستقلة فيها استيعاب وتفصيل وعمــق ، يبين معالمه ويفصح عن اتجاهاته ومبتكراته ، معانى وصناعة . .[١]

ومن هؤلاء الشعراء من اتخذ قصيدة البردة وحدها — بحراً وقافية — نموذجاً له يحتذيه وينظم على نمطه . ويضمنه ماراقه من ألوان البديع . ومن ثم تولد فن فى الشعر جديد هو « البديعيات » الذى تحدثنا عنه فى الفصل الخاص « ان أثر البيئة الثقافية .

ومن شعراء المديح النبوى فى العصر المملوكى : الشاب الظريف . ومحى الدين بن عبد الظاهر ، وتقى الدين بن دقيق القشيرى ، وزين الدين بن الوردى . والشهاب محمود الحلبى . وابن أبى حجلة المغربى وتقى الدين بن بنت الأعز ، والفتح بين سيد الناس اليعمرى . وشمس الدين الباعونى ، وجمال الدين بن نباتة المصرى ، والبرهان القيراطى ، والنواجى ، وشهاب الدين بن حجر العسقلانى . وزين الدين بن الشحنة . والشهاب المنصورى . وعبد العزيز الدرينى والبهاء السبكى ، ونجم الدين الخضراوى ، وتاج الدين بن عربشاه . وصفى الدين الحلى . وعائشة الباعونية . وعز الدين الموصلى . والتقى بن حجةوغيرهم .

وبعض هؤلاء له أكثر من مدحة ، وبعضهم أطال فى مدائحه وأســهب . وبعضهم نظم فى المديح النبوى ديوانا بأكمله أو أكثر من ديوان .

وعلى سبيل المثال نذكر أن شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى ، ذكر فى مقدمة ديوانه - المخطوط بدار الكتب المصرية — أنه نظم فى مدح الرسول أربعة دواوين .

---

(١) للمرحوم زكى مبارك كتيب فى تاريخ المدائح وهو « المدائح النبوية » — وهناك ديوان جمع مئات من هذه المدائح وهو « المجموعة البهائية » .

ونذكر أن فتح الدين بن سيد الناس له فيه ديوان « بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب » وهو مرتب على حروف المعجم ومبدوء بقصيدة تعارض « بانت سعاد » . (١)

وقصيدة البردة التي نظمها شرف الدين البوصيري ، كانت طليعة هذا الفن كما ذكرنا . والرؤيا التي رآها البوصيري قبل نظمها وهو مريض ، وتحدث عن رؤيته النبي عليه الصلاة والسلام فيها ، وأنه تقاضاه المديح ، تلقي ضوءا عند تفسيرها ، على صواب ما قلناه من نزوع بعضهم نحو الزهادة والتطرف الديني بدافع حوادث الحياة - وإن تكن للبوصيري حالات شخصية فإنما هي نموذج لحالات غيرها كثيرة .

ومهما يكن من شيء ، فالبردة أجود المدائح النبوية التي نظمها البوصيري - ومنها الهمزية والمضرية - وأفضلها أسلوباً وعبارة وأجمعها أغراضاً وأروعها أمثالا ، كما أنها أبلغها أثراً في الأدب العربي . وقد اجتمعت فيها أغراض متعددة كذكر ديار الرسول عليه الصلاة والسلام والتشوق إليها والتحذير من هوى النفس ومدح صفات الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذكر مولده ومعجزاته وبخاصة القرآن الكريم ، وذكر الإسراء والمعراج والجهاد ، إلى غير ذلك من حوادث السيرة النبوية الشريفة ، فضلا عن ذلك التوسل والاستشفاع والمناجاة . ولأول مرة في تاريخ الشعر ، تجتمع هذه الأغراض في قصيدة واحدة بمثل هذا الطول . لقد بلغت عدة أبياتها نحو مائة وستين بيتا . ويقول البوصيري في مطلعها متشوقا إلى ديار الرسول عليه الصلاة والسلام :

أمن تذكر جيران بذي سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق في الظلماء من إضم

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٠٨٨ أدب .

فما لعينيك إن قلت اكففاهمتا ... وما لقلبك إن قلت استفق يهم

ويقول فى تحذير النفس من الهوى مشيراً إلى الشيب :

فإن أمارتى بالسوء ما اتعظت ... من جهلها بنذير الشيب والهرم

ولا أعدت من الفعل الجميل قرى ... ضيف ألم برأسى غير محتشم

ويقول :

من لى برد جماح من غوايتها ... كما يرد جماح الخيل باللجم

فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها ... إن الطعام يقوى شهوة النهم

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

ويقول فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذكر صفاته الكريمة وأخلاقه العظيمة :

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى ... أن اشتكت قدماه الضر من ورم

وشد من سغب أحشاءه وطوى ... تحت الحجارة كشحا مترف الأدم

وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم

وأكدت زهده فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصم

وتتخلل القصيدة أبيات بارعة جرت مجرى الأمثال ، لحكمتها ورصانة نظمها . ومن أمثلة ذلك قوله :

محضتنى النصح لكن لست أسمعه ... إن المحب عن العذال فى صمم

وقوله :

واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فرب مخمصة شر من التخم

وقوله :

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم

وقوله :

وقاية الله أغنت عن مضاعفة   من الدروع وعن عال من الأطم

وقد أثرى الأدب العربى ثراء كبيرا من وراء هذه البردة ، فإنها ـ كما نوهنا ـ فسحت أمامه أفقا جديدا للشعر ، واقتدى بها كثير من الشعراء على مر العصور حتى يومنا هذا ، معارضة أو نظم بديعية . كما أكثروا من تشطيرها أو تخميسها أو تسبيعها . كما وضع لها كرام من الأدباء شروحا عدة .

ومن هذا كله ترى أن « البردة وأثرها فى الأدب العربى » موضوع جدير بدراسة مستقلة .

ولم يقتصر المديح النبوى على معارضته البردة والنسج على منوالها ، ولا على معارضة الهمزية واحتذائها ، ولا على معارضة « بانت سعاد » والاقتداء بها ، ولا على معارضة غيرها من مشهورات المدائح ، ولا تشطيرها أو تخميسها أو نحو ذلك .

بل كان أفق المديح النبوى أوسع مدى من هذه الأعمال الأدبية ، وأكثر حرية من أن يدور فى فلكها .

والحق أن قصائد هذا المديح ، أكثر من أن تعد أو تحصى ، نقصد القصائد التى لم تتأثر بهذه المدائح الرئيسية فى بحرها وقافيتها ، بل تعددت فيها البحور والقوافى .

ولكن الذى لا ريب فيه ، أنها كلها نهجت نهج البردة ، فى جملة أغراضها ، وفى اللون العاطفى الذى برز فيها .

وهذا الشاب الظريف ، يقول فى مدحه نبوية ، ويشيد بذكر العرب وسكان طيبة :

أرض الأحبة من سفح ومن كثب سقاك منهمر الأنواء من كثب
ولا عدت أهلك النائين من نفس الصبا تحية عانى القلب مكتئب
قوم هم العرب المحمى جارهم فلا رعى الله إلا أوجه العرب
أعز عندى من سمعى ومن بصرى ومن فؤادى ومن أهلى ومن نسبى
لهم على حقوق مذ عرفتهم كأننى بين أم منهم وأب
إن كان أحسن مافى الشعر أكذبه فحسن شعرى فيهم غير ذى كذب
حياك يا تربة الهادى الشفيع حيا بمنطق الرعد باد من فم السحب
يا ساكنى طيبة الفيحاء هل زمن يدنى المحب لنيل الحب والأرب
ضممت أعظم من يدعى بأعظم من يسعى إليه أخو صدق فلم يخب
وحزت أفصح من يهدى وأوضح من يبدى وأرجح من يعزى إلى نسب. إلخ[1]

والشاب الظريف فى أبياته هذه ، يفصح عما فى نفسه من حب العرب ، ويشيد بهم وبمجادتهم . ويطفر من قلبه على لسانه ، هذا الدعاء الحار : « فلا رعى الله إلا أوجه العرب » . وهو دعاء مزدوج . هو دعاء للعرب ، ودعاء على غير العرب .. — أى الترك — لأنهم أقرب غير العرب إليه سكنا ...

بذلك زفر الشاعر زفرته ، ونفس عن كبته ، وأفصح عما يعانيه هو وأمثاله العرب ، على يد حكامهم غير العرب ، وهم الترك الغرباء الأعاجم . . .

ويقول الشاعر « تقى الدين شبيب بن حمدان » الطبيب الكحال المتوفى عام ٦٧٥ هـ ، مادحا . وهو فى مدحه يعكس مشاعره وأحاسيس نفسه ، عن مقام الرسول عليه الصلاة والسلام .

فهو يستجلى منه نور الهداية ، ويلثم ترابه المسكى ، ويستجير بحماه ،

---

(١) عن ديوان الشاب الظريف .

ويستوضح به الحق من نور الإله ، هذا النور الذى تجاوز اشرفه فلك الأثير الأكبر .

يقول شبيب :

هـذا مقام محمد والمنبر فاستجل أنوار الهداية وانظر
والثم ثرى ذاك الجناب معفرا فى مسك تربته خدودك وانخر
واحلل على حرم النبوة واستجر بحماه من جور الزمان المنكر
فهناك من نور الإله سريرة كشفت غطاء الحق المستبصر
نور تجسم فارتقى متجاوزا شرفا على الفلك الأثير الأكبر.. إلخ(١)

وفى البيت الثالث ، استجارة صارخة ، واستغاثة ضارعة ، للرسول عليه الصلاة والسلام ،من جور الزمان المنكر. ومايتمثل جوره إلا فى حكامه الطغاة، وسلاطينه البغاة ، الذين استأثروا بأطيب الرزق وأرفه العيش ، قوة واقتداراً ، دون الشعب المكافح .

وسترى مثل هذه الاستجارة والاستغاثة فى أبيات قريبة لابن نباتة ، نذكرها بعد .

وزين الدين بن الوردى ، يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، فيصفه بعلو القدر وعظم التقى وتمام الجاه وكمال الحجا . . . إلى أمثال ذلك من الصفات الجليلة .

ولكن ذلك نمط من المديح العادى ، لم يبلغ به ما ينبغى لمقام الرسول عليه السلام . ولكنها اللغة وحدودها اللفظية . .

ثم أخذ الشاعر فى بيان مشاعره ، وفى الحديث عن معجزات الرسول عليه السلام . . .

---

(١) فوات الوفيات ج ١ فى ترجمة شبيب بن حمدان .

يقول ابن الوردى :

أعلى الورى قدرا وأعظمهم تقى   وأتمهم جاها وأكملهم حجـــا
وأحدهم سيفا وأكثرهم ندى   وأعز منزلة وأعظم منهجـــا
من أين فى الثقلين مثل محمد   نرجوه فى كرباتنا أن تفرجا
كم للنبى محمد من معجز   أو هى قوى من عاندوه وأزعجا

ويقول مستشفعا :

كن لى شفيعاً إن ظهرى مثقل   بالسيئات وقد شجانى ما شجا
كم ذا أسوف بالمتاب توانيـــا   حق لدمعى بالدما أن يمزجا
إنى لأحوج مذنب لشفـــاعة   إن الكرام يقدمون الأحوجا .. الخ(١)

وجمال الدين بن نباتة المصرى ، أكثر من مدحة نبوية جيدة . ومن بينها قصيدته الرائية البارعة التى يقول فى أولها :

صحا القلب لولا نسمة تتخطر   ولمعـــة برق بالغضى تتسعر

ويقول منهـا فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام :

نبى له مجــــد قديم وسؤدد   صميم وأخبـــار تجل وتخبر
تحزم جبريل لخـــدمة وحيه   وأقبل عيسى بالبشارة يجهـــر
فهذا يضاهيه وجبريل خادم   لمقدمـــه العالى وعيسى مبشر

ويقول :

علا عن محاكاة الغمام لفضله   وكيف يحاكيه الخديم المسخر

ويقول :

هو البحر فياض الموارد للورى   ولكنه العذب الذى لا يكدر

---

(١) عن ديوان ابن الوردى ط الجوائب ص ٢٥٨ .

ويستشفع ابن نباتة بالرسول عليه الصلاة والسلام . وهو لا يستشفعه ابتغاء أن يغفر الله له ذنوبه فى الآخرة فحسب . بل أن يهيء له أسباب الخير والراحة والعزة فى الحياة ...

وكان مثار شكواه الذى تقدم بها بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ، اثنين : الدنيا والآخرة :

الدنيا ، لما أصابه فيها من ذل وغربة ، وعيش مرير ، ولما حرمه فيها من عز وقرار بالوطن .

والآخرة ، لما آده من ذنوب ، وأوقر ظهره من آثام ، ولما أصاب عزمه من ضعف ، عن أن يقوم بما تتطلبه الآخرة من صالح الأعمال . . .

وإذا تأملنا شكواه من الدنيا وأسبابها ، تبدت لنا مساوىء العصر بعامة ، ممثلة فى أبياته وشكواه . إنها الذل والغربة . إنها الذل فى الوطن لأن أسباب العزة معقودة بيد غير يد أهله . والغربة عن الوطن ، لأن أسباب الاستقرار فيه ، لا يملكها ذووه .

وفى رأيى أن الغربة التى يكره عليها المرء ، مظهر صارخ من مظاهر الذل أو الإذلال . ولعلها أشق ألوانه على نفس الحر المحب لوطنه ، إلا إذا كان اغترابه فى سبيل وطنه وفى سبيل مجده .

هكذا يلجأ الشاعر إلى حمى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وإلى قلبه الرحيم ، ليشفع له عند الله سبحانه وتعالى ، أن يرحمه مما يعانيه من ذل وغربة . وفى اللجوء راحة وأمل ، تستشفى بهما النفس المعذبة .

يقول ابن نباتة :

إليك رســـول الله مدت مطالبى ... على أنها أضحت على الفور تقصر

خلقت شفيعاً للأنام مشفعـــا ... فرجواك فى الدارين أحرى وأجدر

ولى حالتا دنيا وأخرى أراهما ... يمران بى فى عيشه تتمـــرر

حياة ولكن بين ذل وغربة فلا العز يستجلى ولا البين يقتر
وعـزم إلى الأخرى يهم نهوضه ولكنه بالذنب كالظهر موقـر
تصبرت فى هـ ـذا وذاك كأننى من العجز والبؤسى قتيل مصبر . الخ(١)

ب ـ الزهد والتصوف :

وأشعار الزهد والتصوف ، مضاعفة من مضاعفات النزعات الدينية الجارفة. فلا غرابة إذا قيض لها الذيوع والانتشار ، فقد توافرت عواملها ودواعيها ، مما أشرنا إليه عند حديثنا عن المديح النبوى .

وكان هذا اللون الشعرى ، قد ذاع فى العصر الأيوبى ، الذى نضج فيه الغزل الإلهى وشعر الدعوة إلى الفناء فى الذات الإلهية ، والعزوف عن الدنيا وما فيها ، طلبا الآخرة .

وورث العصر المملوكى نزعات كثيرة من العصر المذكور . على أن الأتراك كانوا أميل ، فى جملتهم ، إلى التصوف ، وإلى اصطناع الزهادة ، وإلى حب العبادة ، وتعظيم الصوفية والعناية بهم وبخوانقهم وزواياهم .

وهذا هو ماشهدناه فى العصر المملوكى ، حتى غلا بعض ملوكهم وظنوا أن بعض المتصوفة لهم دعاء مستجاب ، ولهم رأى يستلهمون فيه الغيب ، فوثقوا بهم ، واستشاروهم ، وائتمروا بأمرهم أحيانا .

ولعل ذلك ، كان من بعضهم تظاهرا بالتقوى وحب المتقين ، سترا لطغيانهم واستئثارهم ، أو تغطية لمجونهم واستهتارهم . أو لعل ذلك كان زلفى إلى الله ، طلبا لمغفرته ورضاه . . .

وسرت هذه الروح وبدا صداها فى الشعر . ولعل شعر الزهد قد صادف هوى فى

(١) ديوان ابن نباتة ، حرف الراء .

نفوس بعض الشعراء ، فقد كانت أسباب الحرمان موفورة من حولهم ، فوجدوا في الزهد سترا وسلوى وغنية ، هي غنية المضطر وسلوى المغلوب .

يقول جمال الدين بن نباتة :

منعتني الدنيا جنى فتزهد ت ولكن تزهد المغلوب

نظم بعض الشعراء — ومنهم الفقهاء والمتصوفة — في هذا الغرض الذي ينفس عن المرء بعض كربه ، ويعبر بصدق عن بعض مايصيبه من بؤس أو يأس، تتبدى من أجله الدنيا أمامه شمطاء خادعة ، لاحسناء بارعة رائعة . إذ تتكشف لعينيه محاسنها ومفاتنها عن زيف باطل وبهرج كاذب ، وتتراءى وعودها سرابا أخاذا خادعا لاماء فيه. وخير منها الدار الآخرة،فنعيمهامقيم حافل ، والله يجزى به عباده الشاكرين الطائعين . فما بالهم لايتبتلون له ، ولا يبتهلون إليه ، ليحسن عقباهم ويجعل الجنة مثواهم . وما بالهم إذن لايكرهون الدنيا ويمقتون غرورها ويعزفون عنها . . .

في فلك هـذه المعاني دارت أبيات الشعراء ، حينما تصدوا للنظم في الزهد والنسك والتصوف . معبرين فيها عن أنفسهم وداعين إليها غيرهم ومصورين بذلك بعض جوانب حياتهم وحياةالناس من حولهم ، صادقين لاكاذبين ولكن دون أن يتجهوا فيها اتجاها علميا أو فلسفيا خاصا يشرح وجهة نظر فكرية مما يتجه إليه الصوفية ، ويوضح معالمها وأدلتها ودرجات المسير فيها ، وطرق الوصول إلى أهدافها ، على نمط من أنماط ابن الفارض ، إلا ماندر .

فإننا — على طول ماقرأناه من تراجم أعلام الشعر في هذا العصر — ومن بينهم رجال الصوفية وهم كثيرو العدد ، لم نجد بينهم شاعرا اتجه في شعره اتجاه ابن الفارض أو قريبا منه ، إلا نادرا — كما ذكرنا —

ومن هـذا النادر الشاعر المتصوف ابن وفاء السكندرى ، والفقيه الصوفي

عبد العزيز بن أبى فارس المتوفى عام ٧٠٣هـ ، إذ قيل إن له ديوانا شعريا فى التصوف . وإنه كان يميل إلى القول بالاتحاد ، ويتبع ابن عربى . ومن شعره فى ذلك قوله :

وجدت بقائى عندفقد وجودى　　فلم يبق حد جامع لحدودى
وألغيت سرى من ضميرى ملوحا　　برمز إشاراتى وفك قيودى
فأصبحت منى دانيا بمعارفى　　وقد كنت عنى نائيا بجمودى[1]

ووقف بعض الشعراء قصيدة برمتها على الزهد والتصوف ، على النمط الذى أشرنا إليه ، وقد ينساب منه إلى الحكمة وضرب المثــــل ، وتتفاعل فيه حينذاك آثار الثقافة والمجتمع . وقد ينساب إلى شكوى الحال ودم الدنيا وما إلى ذلك .

ومن رجال هذا الفن على هذا النحو ، الشاعر المجيد زين الدين بن الوردى . وله فى الزهد والنسك والتصوف أكثر من قصيدة . وغلبت عليه هذه النزعة أخيراً بسبب ماقاساه من تنكر له وقسوة عليه . ومالاقاه من رؤسائه فى مناصب القضاء من التجنى . فقد كان يشتغل فى قضاء بعض نواحى الشام ، فنقل إلى ناحية أخرى لم يسترح إليها . وألح فى العودة فلم يسمح له ولم يلتفت إلى إلحاحه ورجا فلم يسمح لرجائه . فوجد فى نفسه ، وشعر أن كرامته جرحت ، وأن مكانته زحزحت . فطلق القضاء والوظائف ثلاثا ، بغير رجعة . وتركها لطلاب الجاه الزائف والمجد المبهرج الباطل ، مبقياً على كرامته . وآثر التوارى عن الأضواء إرضاء لضميره وإراحة لنفسه . وقنع بالقبوع فى داره ، واعتنق مبدأ الخمول الذى سبق لنا التنويه به والحديث عنه فى الفصل السابق .

واتجه ابن الوردى بشعره أو بكثير من أبياته إلى الزهد والنسك والدعوة

---

(١) الدرر الكامنة ج ٢ رقم ٢٤٣٥

إليهما ، وإسداء النصيحة إلى الناس بهجر الدنيا وزخارفها ، والسعى إلى الآخرة بالعمل الصالح والتقوى . وله فى هذا الباب قصيدته اللامية المشهورة التى أثرى الأدب من ورائها ثروة لا بأس بها .

وهى فى نحو سبعين بيتاً ، من أجود ما نظم ابن الوردى ، ومن أجمعه للحكمة والعظة . لقد دعا فيها إلى التدبر فى الأمر قبل الإقدام عليه ، وفى التفكير فى العاقبة قبل بلوغها . ودعا المرء إلى هجر المنكرات من غناء وغزل وخمر وحب مرد ومداعبة نساء وهزل ، وحببه فى طلب العلم ففيه الخير . ورغبه فى العمل الصالح وهجر النوم ، والعزوف عن الدنيا . ونهاه عن طلب المال والجاه لأنه متاع زائف . ونصحه بعدم الفخر بالنفس لأن أصل الناس واحد ، ولا يفترقون إلا بصالح الأعمال والتقوى . ورأى له أن يحسن السياسة والمصانعة حين تدعو ضرورة إلى ذلك . ولا يعلق أمله بمنصب ، ولا ينخدع بالظواهر ، إلى غير ذلك من النصائح .

واللامية فى جملتها سلسلة العبارة سائغة الأسلوب واضحة المعانى ، مما حببها إلى الناس وسهل لهم ترديد أبياتها . ولذلك ذاع منها الكثير على ألسنتهم .

ويقول فى مطلعها :

اعتزل ذكر الأغانى والغزل   وقل الفصل وجانب من هزل
ودع الذكر لأيام الصبا   فلأيام الصبا نجم أفل

ويبغض فى العشق وحب الخمر فيقول معللا :

وافتكر فى منتهى حسن الذى   أنت تهواه تجد أمرا جلل
واهجر الخمرة إن كنت فتى   كيف يسعى فى جنون من عقل

ويذكر بالله وقدرته بالموت ونزلته :

حارت الأفكار فى قدرة من   قد هدانا سبلنا عز وجل

كتب الموت على الخلق فكم　　فل من جمع وأفنى من دول

ويرجع أصل الفتى إلى خلقه وعمله لا إلى حسبه ونسبه :

لا تقل أصلى وفصلى أبداً　　إنما أصل الفتى ما قد حصل
قد يسود المرء من غير أب　　وبحسن السبك قد ينفى الزغل

ويقول :

قيمة الإنسان ما يحسنه　　أكثر الإنسان منه أو أقل . . الخ(١)

وعلى نمط مما رأيناه فى البردة ، عنى بعض الأدباء بتشطيرها وتخميسها وشرحها . وذلك يستأهل أيضاً بحثاً مستقلا .

وراج شعر الزهد والنسك والتصوف على ألسنة كثير من الشعراء غير ابن الوردى ، فقهاء وغير فقهاء .

وشمس الدين بن القيم كان أحد فقهاء الحنابلة البارزين ، وهو تلميذ ابن تيمية الحرانى وقد ألف كثيراً من الكتب فى علوم دينية مختلفة ومنها « مدارج السالكين » وهو فى صميم التصوف الإسلامى والأخلاق .

هذا الفقيه رأينا من بين فرائد شعره ، قصيدة شائقة هى نتاج الصوفية الصحيحة التى هى رجع النفس الورعة التقية الصافية التى راضها الدين القويم وتعاليمه السمحة . لقد اتجه فى قصيدته هذه وجهة ندر أن اتجه إليها غيره ، وهى وصف الجنة وما فيها ، وصف المحب الواله المشوق المترقب . وفيها يقول :

فلله ما فى حشوها من مسرة　　وأصناف لذات بها يتنعم
ولله برد العيش بين خيامها　　وروضاتها والثغر فى الروض يبسم
ولله واديها الذى هو موعد الـ　　ـمزيد لوفد الحب لو كنت منهم

---

(١) راجع ديوان ابن الوردى .

بذيالك الوادى يهيم صبابة محب يرى أن الصبابة مغنم
ولله أفراح المحبين عندما يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة فلا الضيم يغشاها ولا هى تسأم
فيانظرة أهدت إلى الوجه نضرة أمن بعدها يسلو المحب المتيم ... إلخ(١)

ومن الشعراء فى هذا الباب ، الحافظ الكبير صلاح الدين كيكلدى العلائى . وفى إحدى قصائده يقرر خصالا ثلاثا يرغب فى الحياة من أجلها . وشتان بين ثلاثه هذه وثلاث شاعر الجاهلية طرفة صاحب الدالية .

يقول :

ألا إنما الدنيا مطية راكب تسير به فى مهمه وسباسب
فإما إلى خير يسر نواله بها وإما إلى شر وسوء معاطب
فلولا ثلاث هن أفضل مقصد لما كنت فى طول الحياة براغب
ملازمة خير اعتقاد منزهاً عن النقص والتشبيه زين المواهب
ونشر علوم للشريعة ناظما عقود معانيها لتفهيم طالب
وصونى نفسى عن مزاحمة على دنى حطام أو على مناصب
فنى ذاك عز بالقنوع وراحة معجلة من خوف ضد مغالب... إلخ(٢)

وجماع هذه الثلاث ـ كما ترى ـ العمل بالشريعة ونشرها والقناعة . وفى الحق ليس هناك سعادة أوسع ولا أروح للنفس من هذه الثلاث، ففيها غنى الدنيا وثراء الآخرة . وفيها توقى مواطن المذلة والهوان ، وفيها التصون عن مزالق الأمل الخادع .

وجمال الدين بن نباتة شاعر عصره ، ممن ضربوا فى هذا الميدان بسهم وافر .

---

(١) كتاب « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » لابن القيم .
(٢) طبقات السبكى ج ٦ ص ١٦٢ فى ترجمة تقى الدين السبكى .

وكم له من أبيات عزف فيها عن الدنيا ونعى عليها فتونها وندم على ذنوبه وتاب عنها وزجر نفسه ودعا ربه وذكر الموت ، ونزع فى ذلك منزع الحكمة والنسك. يقول فى إحدى قصائده :

إليك مدير الكأس عنى فإننى ... رأيت دموع الخوف تقطع للصدى
وإياك بالمياه يشرق خدها ... فإنى لم آنس على ناره هدى
نزعت فلا الساقى لدى براكع ... وليست أباريق المدامة سجدا
وما أنا بالساعى لمحراب طرة ... على طلعة كانت لعشق مشهدا
كفى مااستبنت اليوم لى من جرائم ... إذا لم أبدلها فياخجلى غدا
إلهى قد مد الرجا يد قاصد ... وجودك أولى أن تبلغه يدا
وقد بنت آباء ونسلا فكيف لى ... بباقية والأصل والفرع قد غدا
وفاض ولى من دموعى فعله ... يكون وليا للإنابة مرشدا
بروحى أناسا قبلنا قد تقدموا ... ونادوا بنا لو أننا نسمع الندا
وسارت بهم سير المطى نفوسهم ... وبعض أنين القادمين لهم حدا
وأمسوا على البيداء ينتظروننا ... إلى سفر يقضى بأن نتزودا
فريدون فى أجداثهم بفعالهم ... وكم بينهم من ساق جندا مجندا
تساووا عدى تحت الثرى وأحبة ... فلا فرق مابين الأحبة والعدى . إلخ(١)

ونهج هذا الشاعر نهج أبى العلاء فى زهدياته ، ونظم قصيدة بارعة استقل بها هذا الغرض الشعرى دون سواه ، واجتمع فيها كل أسباب الزهد ومعايب الحياة التى تنفر منها .

وقد بدأها الشاعر بالاستغفار ، وإعلان الزهادة فى الدينا ، وأنه لم يعد يأسى على فراقها ولا يحزن على انقضائها . فإنه، وهو فيها ، كان سيء الحظ كثير النكد .

---

(١) عن ديوان ين انباتة ص ١٣٩ .

أما إذ اضمه التراب فله من التراب جلاء .... ثم أفصح الشاعر عن مشاعره بالحياة وعن مدى تصوره لها ولمتعها الباطلة ونعيمها الحائل فليست فى نظره غير سجن وفيه الهم والكمد . وما نافعه فيه عيشه إن لم تسعه رحمة الله . وأخذ ينعى على جامع المال والبخيل المتكبر والواثق بالليالى ، إلى غير هذا وذاك ، وذكرهم بلقاء الموت فى غدهم ، وضجعتهم من بعد فى التراب فى هوان ومذلة . . . إلى غير ذلك . يقول :

أستغفر الله لا مالى ولا ولدى	آسى عليه إذا ضم الثرى جسدى
عفت الإقامة فى الدينا لو انشرحت	حالى فكيف وما حظى سوى النكد
وقد صدئت ولى تحت التراب جلا	إن التراب لجلاء لكل صدى

ويقول :

حيـــاة كل امرىء سجن بمهجته	فاعجب لطالب طول السجن والكمد
أما الهموم فبحر خضت زاخره	أما ترى فوق رأسى فائض الزبد
وعشت بين بنى الأيام منفـــردا	ورب منفعـــة فى عيش منفرد
لأتركن فريدا فى التراب غـــدا	ولو تكاثر ما بين الورى عددى
ما نافعى سعة فى العيش أو حرج	إن لم تسعنى رحمى الواحد الصمد
يا جامع المال إن العمر منصرم	فابخل بمالك مهما شئت أو جُـــد
ويا عزيزا يخيط العجب ناظره	اذكر هوانك تحت الترب واتئد
قالوا ترقى فلان اليـــوم منزلة	فقلت ينزله عنها لقـــاء غد
كم واثق بالليالى مد راحتـــه	إلى المرام فنـــاداه الحمام قـــد
وباسط يده حـــكما ومقدرة	ووارد الموت أدنى من فم ليد ...إلخ(١)

(١) ديوان ابن نباتة ص ١٣٩ .

ح ـ الشكوى :

والشكوى أدنى وشيجة وأقرب نسباً إلى الزهد والتصوف . وشعر الزهد يعتمد اعتماداً أصيلا على الشكوى . فلا بد فيه من شكوى الدنيا وذم الزمان والنعى على أخلاق بعض الناس ممن لا وفاء لهم ولا مروءة ... والأبيات السالفة لم تخل من عنصر الشكوى .

وفن الشكوى فى الشعر المملوكى كان أرحب أفقاً وأوسع ميداناً من صلته بالزهد أو التصوف أو ذم الدنيا ونحوه . ولعل شعراء العصر كانوا أحق بالشكاية وأولى . وكانوا أجدر بالتصريح بها والإلحاح عليها وإعلانها . إذ حرمتهم الدنيا ـ أو حرمت الكثير منهم ـ الخير والجاه والمنصب ، مما كان له أهلا . بل ربما حرمت بعضهم حتى اضطر إزاء إلحاح الحاجة عليه أن يتكفف الرؤساء والأعيان بشعره ، وأن يرحل من بلد إلى بلد سعياً وراء قوته وقوت عياله . وأن يصرح بحاجته ويكشف عن هوانه ويسأل العطاء ... بل ربما ألحت على بعضهم فأوهنت ثقته بصناعته وفنه . . .

كان الشعراء إذن ، أو كان بعضهم على الأقل ، أحق بأن يكون فن الشكوى فنا أصيلا فى شعرهم ، وخصوصية مميزة تطبع الكثير من قصائدهم بطابعها ، وإن كانت تهدف إلى أغراض أخرى .

ترى ذلك فى أبياتهم فى النقد الاجتماعى وفى إخوانياتهم وفى المدح ، بل وتراه فى شعرهم الفكاهى . ولعل الفكاهة كانت به أمس وألصق ، بل لعلها كانت مظهرا من مظاهر الشكاية ووسيلة من وسائلها .

لقد تناولوا فى شكواهم ذم الزمان لصروفه وغيره وغدره . وأخلاق الناس لحقدهم وحسدهم ومكايدهم وأثرتهم . وذكروا الشباب الماضى وتحسروا ، والشيب الفاضح وحزنوا ، وذكريات الصبا وبكوا ، وعهود الوصال المنقضى والتاعوا . . .

وبهذا كله سجلوا بعض نواحى المجتمع ، وصوروه فى جانب من أهم جوانبه النفسية .

ولابن الوردى معان فى الشكاية رددها أكثر من مرة ، وهى شكوى حاسديه والحاقدين عليه ، لما له من الفضل والعلم . حتى كانوا بذلك فى جملة أسباب اعتزاله منصبه ، بل واعتزال الناس جملة . وأدت به إلى حياة من الخمول فرضها على نفسه ، وقنع بها وسعد ـ كما أشرنا فقال :

أشـــكو إلى الله زمانى الذى صرت إليــــه وتحيرت فيه
أى امرىء جربت من أهله يظهر منـــه كل أمر كريه
كم حاسـد كم مارد كم عدى كم عائب كم مبغض كم سفيه
فليفعل الحاســـد فى دهره ماشـــاه لا بد وأن يلتقيه
ما بين أعدائى وبينى سـوى أن بهم جهلا وأنى فقيه (١)

وفى الأبيات التالية يعرى الزمان من مروءته ويشكوه إلى الله لأنه قلب الحقائق فأعز العبيد وأذل الأحرار . وينعى على حساده ويطلب الرحمة لهم طلب المغيظ المحنق ، لقد حقدوا عليه وكرهوا ذكره وكرهوا أن الله رعاه ، وما ذلك إلا لاتقاد قريحته وسعة علمه ، حتى بلغت أخباره الأقطار . . .

وترى ابن الوردى فى الأبيات المذكورة مزج الشكوى بالفخر ، وكاد يخرج بالشكوى إلى طريق الهجاء . قال فى جودة وجزالة .

ما للزمان عن المروءة عارى ما عنده فى منكر من عار
أشكو إلى الله الزمان فدأبه عز العبيد وذلة الأحرار
لا غرو إن حسدت بنوه مناقبى كل على مجـــرى أبيه جار
وارحمتـــا للحاسدين فنارهم قد سعرت بعدا لهم من نار

---

(١) ديوان ابن الوردى .

وإذا جرى ذكرى تكاد قلوبهم ... تنشق أو تغتالنى بشـــرار
كرهوا عطاء الله لى يا ويحهم ... لشقائهم كرهوا صنيع البارى
ويزيدهم نارا وقـــود قريحتى ... وبلوغ أخبارى إلى الأقطار
يا سعد ساعدنى على هجـــرانهم ... فى الله هجـــر مجانب متوارى
واحذر بنى الدنيا وكن فى غفلة ... عنهم وجانب كل كلب ضارى .. [1]

وهذا الشاب الظريف الذى ذوى عوده وهو فى عمر الورد ، وانتهى أجله وهو لما يمتع بالشباب ، كان يشكو .

وفى سياق إحدى مدائحه يجنح إلى شكواه فيبث أبياته حديث نفسه وهجس فؤاده ، ويستعيذك الله مما يكابد من الهم ، وما يلقاه من الدهر من جهل بمقداره. هذا الدهر الذى لم يستقر بوجه غير مبتذل ، ولا يأمن جار له بوائقه . . الخ .

يقول فى جودة وجزالة أيضا ، وهو يخاطب ممدوحه :

أعاذك الله من هم أكابده ... أقول كرها لأحشائى به ذوبى
ملئت بالدهر علما وهو يملأ لى ... جهلا ويحسب منى غير محسوب
إحدى الأعاجيب عندى منه لو وصفت ... لكان وصفى لها إحدى الأعاجيب
لا يستقر بوجه غير مبتذل ... ولا يسير بعرض غير مسلوب
ولا يبيت له جار بلا فرق ... ولا يسر له ضيف بترحيب
يصدعنى إذا قابلته غضباً ... كـكافر صد عن بعض المحاريب
ولو ضربت بأدنى الفكر قلت له ... قتلت فى شر ضرب شر مضروب
يفدى نعالك ما ضمت أسرته ... وإن فدين بممقوت ومسبوب
إن المعالى براء من تجشمها ... تلبس المجد فيه بالأكاذيب
فليت كل مريب غاب عاتبه ... فداء كل برىء العرض معتوب

---

(١) ديوان ابن الوردى .

وليت أنى لم أدفع إلى زمن ألقى الأسود به طوع الأرانيب
إن يحجب الأضعف الأقوى فلا عجب فرب عقل بستر الوهم محجوب
والدهر ليس بمأمون على بشر يديره بين تنعيم وتعذيب
فلم يرق مسكن فيه لساكنه ولم يثق صاحب فيه بمصحوب(١)

ومن المبرزين فى هذا الباب جمال الدين بن نباتة ، وكان كثير الشكاية دائبها، وكادت الشكاية تكون فى شعره كله مزاجا مشتركا . فقد تضافرت عليه فاقة آلفة وحرمان مصاحب مقيم ونكران معن ، وشيب عاجل مبكر ، وأبناء صغار كثر يعجل إليهم الموت .

فضلا عما لقيه من رؤساء زمانه ، من تنكر لفضله وجحود لبلاغته ، وتجاهل لمنزلته من الأدب والشعر ، وحقد عليه ، وتجاف عنه ، وإبعاد له عن مناصب الدولة . حتى اضطر إلى النزوح عن بلده مصر للارتزاق ، كما اضطر غيره من الشعراء أمثاله ، إلى الاحتراف للارتزاق أيضاً . فمن أولى منه بذم الزمان وشكواه . . .

يقول وقد دهمه المشيب فى أوان الصبا :

عجبت خلتى لوخط مشيبى فى أوان الصبا وغير عجيب
من يعم فى بحار همى يظهر زبد فوق فرعه الغربيب
من يحارب حوادث الدهر يخفى لون فوديه فى غبار الحروب
أى فرع جون على عنت الأيام يبقى وأى غصن رطيب
لوهمى ماء معطفى من اللين لأفنته مهجتى بلهيب
رب يوم لولم أخف فيه عقبى سوء حالى لخفت عقبى ذنوبى
ظاهر دون باطن مستجار ليت حالى يكون بالمقلوب

---

(١) راجع ديوان الشاب الظريف .

منعتنى الدنيا جنى فتزهد ت ولكن تزهد المغلوب
ووهت قوتى فأعرضت كرها عن لقاء المكروه والمحبوب . . الخ[1]

وامتزجت الشكوى بالفكاهة فى إحدى قصائد الشاعر الساخر الهازل شمس الدين بن دانيال الموصلى ، التى وصف فيها حالته مع زوجته ، عارضا أمرها على القاضى ، قال :

بك أشكو من زوجة صيرتنى غائبا بين سائر الحضار
غيبتنى عنى بما أطعمتنى فأنا الدهر مفكر فى انتظار
غبت حتى لو أنهم صفعونى قلت كفوا والله عن صفع جارى
فنهارى من البلادة ليل فى التساوى والليل مثل النهار
دار رأسى عن باب دارى فبالله اخبرونى ياسادتى أين دارى
ملكتنى عيارة عيارا حين زادت بالدردبيس عيارى
أين مخ الجمال من طبع مخى فى التساوى وأين مخ الحمار
غفر الله لى بما رحت للبحر من البرد أصطلى بالنار
وتجردت للسباحة فى الآل لظنى به الزلال الجارى
ولكم قد عصيت رجلى برؤيا أوطأتنى حلما على مسمارى . . الخ [2]

د ـ الشعر الإخوانى :

وشهد الشعر الإخوانى فى هذا العصر فترة ذهبية كريمة ، فقد انتهزت الشاعرية فرصتها فى العلاقات الحبية والمودات الإخوانية التى استعاض بها الشعراء من مودة المجتمع وعرفانه . فتشبثت بها واتخذتها وسيلة إلى الظهور ـ كما وصفنا آنفا ـ

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ٢٣

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ . والعيارة الـكثيرة الحركة الذكية الطوافة .

والشعر الإخوانى ، وإن بدأ شخصياً فردياً ، هو فى مجموعه صورة بارزة من أهم صور المجتمع . فهو وليد الصداقات بين أفراده . وكثيراً ما يحيون فيه حياة نفسية صادقة ، يتبين لنا من ورائها مجموعة من أخلاق المجتمع والصفات المشتركة بين أفراده ، وما يجرون عليه فى حياتهم من عادات وتقاليد وصلات .

وقد اتسع نطاقه وتعددت آفاقه . فمن تشوق إلى غائب ، إلى لوم لهاجر ، إلى عتاب لمخطىء ، إلى تذكير لصاد ناس .

والشاعر يحن إلى أسرته وأولاده ، ويتشوق إليهم ويتلهف على لقائهم . وذلك إذا طوحت به أيدى الزمان مرغماً ففرقت شمله وباعدت بينه وبين فلذات كبده . ويحن إلى أصدقائه وخلانه ، إذا زايلوه وتركوه وحيداً ، إلى ديار أخرى . أوصدوا عنه وتجافوا ، وقاطعوه لسبب ما كنميمة أو وشاية أو وقيعة . فيتشوق ويلوم ويذم الواشى والنمام ، ويعتذر ويتبرأ ، إلى غير ذلك مما تستدعيه الأخوة الأكيدة والمودة الكريمة .

ولج شعراء العصر باب هذه الأغراض بخطى واسعة ، وشغلوا أنفسهم بها وأجادوها وصدقوا فيها ، وأكثروا منها ، حتى إنه ربما كان لأحدهم الديوان الكامل فيها .

فإذا ذكروا وحنوا ، استرجعوا العهود المواضى وأيام الوصل واللقاء . وتذكروا ما كان بها من روفق الحياة وطيبها ، وسماح الدهر وكرمه ، وتهلل الوجوه وبشرها ، وامتلاء الدار بالأنس والطمأنينة ، وخلود القلب إلى الراحة والسكينة .

وإذا ذكروا البين وصفوا طوله ولوعته ، ولهيب أشواقهم فيه ، واشتعال وجدهم ، ودموع حزنهم . وتعلقوا بالأمل المضنى فى اللقاء والوفاء . ودعوا للمنازل وتشوقوا إلى الأحياء ، وتلمسوا الرسل وتنسموا الأخبار ، وساءلوا البريد ، وخاطبوا البرق . وبثوا كل ما يعتلج فى صدورهم من المحبة ، وما يعانونه من القلق والانتظار .

وقد يمتزج بالإخوانيات غيرها من الأغراض ، كالوصف والمدح وذكر الحوادث .

وكان بين الشاعرين الأديبين علاء الدين بن غانم ، و «صلاح الدين الصفدى» مراسلات إخوانية طلية . وقد أرسل الأول من دمشق ، إلى الثانى بمصر ، يتشوق ، فذكر ضرام الفراق ونبو المقام من بعده . وذكر أيام أحبابه بمصر فكأنها مرت بها أحلام . وتمنى عود الزمان بهم . إلى آخر ماتعيه هذه الأبيات ، قال :

لى فى الضمير من الفراق ضرام وهوى يهيجه جوى وغرام
مذغاب عنى من ألفت دنوهم ونبا بهم بعد المقام مقام
واستوطنوا مصر التى طابت لهم دارا وأين ديارهم والشام
سمحت بهم أيدى النوى واسترجعت فكأنما سمحت بهم أحلام
أترى يعود بهم زمان قد مضى أم هل يرى لى بعدهم إلمام
غابوا فلم تطب الحياة لبينهم والنوم بعدهم على حرام
والدهر كان بهم كيوم واحد وأراه عيدا كله لو داموا
كان الزمان بهم ربيعا وجهه متهلل بدنوهم بسام
ونأوا فقطب بالفراق فوجهه جهم وسحب المهجات جهام
لا أوحشت دار خلت من أنسهم فضياؤها فى ناظرى ظلام
يا غائبين نأى السرور لبينهم فعليهم وعلى السرور سلام
لى كلما هجع الخلى من الهوى دمع يقرح مقلتى وهيام ،. إلخ (١)

وقد رد الصلاح الصفدى بقصيدة مماثلة من البحر والروى ، ومعها رسالة منثورة ، وقد بادله شوقا بشوق وحنينا بحنين ، وشكاية بشكاية وأملا بأمل . وقد قال من قصيدته :

---

(١) ألحان السواجع للصفدى مخطوط بدار الكتب ـ ورقة رقم ١٣ ، ١٤ .

وافى كتابك فاستنار ظلام ... وغدت بدور الأفق وهى تمام
يا كاتبا كبت العدى لما كبت ... من خلفه فى شوطها الأقلام
صلى وراءك فى القريض جماعة ... ممن يعانيه وأنت إمام
أهديت لى طرسا سطور بيانه ... روض ومعناها البديع حمام
وكأنما تلك الحروف جواهر ... فيها تأنق جهده النظام
لا بل كئوس مدامة من فوقها ... قد در من مسك الختام ختام
لا بدع إن مالت بعطفى نشوة ... فمن الكلام إذا اعتبرت مدام
ياساكنين دمشق لى فيكم وإن ... طال البعاد صبابة وغرام
بينى وبينكم إذا حققتم ... عهد به شهد الصفا وذمام
بحياتكم راعوا الوداد فإنكم ... عندى على بخل الزمان كرام
وتذكروا تلك الليبلات التى ... فى عودها قد خانت الأيام .. إلخ (١)

ومن جزل الشعر وعذبه ، ورقيق النظم ورطبه ، مادبجه الأديب البارع شهاب الدين محمود الحلبى ، من الديار المصرية إلى صديقه « تقى الدين الصالحى » بجبل الصالحية بالشام . يتشوق إليه ويعتب عليه ، فيقول :

هل عند من عندهم برى وأقسامى ... علم بأن نواهم أصل آلامى
وأن قلبى وجفنى بعد بعدهم ... ذا دائم وجده فيهم وذا دامى
بانوا فبان رقادى يوم بينهم ... فلست أطمع فى طيف بإلمام
كتمت شأن الهوى يوم النوى فنما ... بسره من جفونى أى نمام
كانت ليالى بيضا فى دنوهم ... فلا تسل بعدهم عن حال أيامى
ضنيت وجدا بهم والناس تحسب بى ... سقما فأبهم حالى عند لوامى
وليس أصل ضنى جسمى النحيل سوى ... فرط اشتياقى إلى لقيا ابن تمام

---

(١) ألحان السواجع للصفدى مخطوط بدار الكتب ـ ورقة رقم ١٣ ، ١٤ .

مولى متى أخل من بر برؤيته ... خلوت منه بأشجان وأسقام
نأى ورؤيته عندى أحب إلى ... قلبي من الماء عند الحائم الظامى
وصدعنى ولم يسأل بجفوته ... عن هائم دمعه من بعده هامى
يا ليت شعرى ألم يبلغه أن له ... أخا بمصر ضعيف الجسم منذ عام
ما كان ظنى هذا فى مودته ... ولا الحديث كذا عن ساكنى الشام
يا غائبا داره قلبي ولو هجعت ... عينى لأدنته منى رسل أحلامى
أصبحت بعد اشتطاطى فى الحقيقة من ... لقياك أخدع آمالى بأوهامى ... إلخ(١)

ورد عليه تقى الدين بن تمام الصالحى بقصيدة من الوزن والقافية ، طاف فيها بما طاف به الحلبي ، من المعانى النفسية والخواطر الإخوانية ، فقال من قصيدته الطويلة :

يا ساكنى مصر فيكم ساكن الشام ... يكابد الشوق من عام إلى عام
الله فى رمق أودى السقام به ... كم ذا يعلل فيه نضو أسقام
ما ظنكم ببعيد الدار منفرد ... حليف هم وأحزان وآلام
يا نازحين متى تدنو النوى بكم ... حالت لبعدكم حالى وأيامى
كم أسأل الطرف عن طيف يعاوده ... وما لجفنى من عهد بأحلام
أستودع الله قلبا فى رحالكم ... عهدته منذ أزمان وأعوام
وما قضى بكم من حبكم أربا ... ولو قضى فهو من وجد بكم ظامى
منذا يلوم أخا وجد يحبكم ... وأبعد الله عذالى ولوامى
فى ذمة الله قوما ما ذكرتهم ... إلا ونم بوجدى مدمعى الدامى
قوم أذاب فؤادى فرط حبهم ... وقد ألم بقلبي أى إلمام ... إلخ(٢)

(١، ٢) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٦١.

هـ ـ الاستدعاء :

هذا لون من ألوان الشعر الإخوانى . وهو دعوة الخلصان والأحباب إلى مجلس أنس أو حفل سمر أو مائدة شراب . حيث تتوافر أسباب اللهو ودواعى التسلية وأدوات اللذة والمتعة ، من كل ماتهفو إليه النفوس ، وترنو نحوه الحواس من المأكول والمشروب ، ومن المسموع والمشموم والمنظور . . . وهو غير الاستدعاء الذى هو بمعنى الاستجازة .

وتعقد هذه المجالس فى الليل ، عادة ، إذ يكثر الفراغ ، ويفرغ القلب ، وتطلب الراحة ، ويحلو اللهو ، ويطيب الحديث . دفعاً للأحزان وجمعاً لشمل الإخوان ، ومحاربة للوحدة ، وتمكيناً للألفة ، وتقوية المودة ، وتجديداً للعهود والمواثيق ، وتنشيطاً للعقول والنفوس ، وملءا للبطون ، وقضاء للشهوات . . .

واعتاد المستدعى أن يهيء لمدعويه كل أسباب المرح واللهو والتمتع . فمثلا يعد المكان ويختار الزمان ، ويبسط الأثاث ويمهد الرياش ، من كل ناعم وثير ، وخز وحرير . وتمد الموائد ، وتزود بأنيق الأدوات وحالى الأوانى . ويعد مالذ وطاب من الطعام والشراب ، من خمر عتيق ولحم لذيذ وفاكهة طازجة ، وغير ذلك .

ويوكل أمر الخدمة إلى الحسان من الجوارى والغلمان والندمان ، الذين مهروا فى فن هذه الخدمة ، وعرفوا معنى النظرة والبسمة ، وتأدبوا بآداب هذه المجتمعات ، حتى صاروا فيها نجوماً لامعة وبدورا ساطعة ، يدورون على الجلاس بالإيناس ، ويملئون الكئوس ، ويروون بمحاسنهم ظمأ النفوس . . .

وقد وضعوا للنديم والمنادمة آداباً تتبع واشترطوا فيهما شروطاً تلتزم .

ولا ينسى الداعى أمر الغناء ، فيتخير له من يرى من مهرة الفنانين والفنانات . فيلعبون بالعود ، ويضربون بالجنك ويدقون بالدف .

والأزهار هنا وهناك ، منثورة ، من كل ورد جميل أو قرنفل عاطر ، أو ياسمين ضاحك أو غير ذلك . ورائحة الند تملأ الأنفاس والخياشيم ببخورها المنعش وبخارها الحفاز . . .

شاعت هذه المجالس الصاخبة اللاهيـــة فى عصر المماليك ، وشاعت الاستدعاءات إليها ، وشارك الشعراء بدورهم بتسجيلها ورسم صورها . فنظموا الأشعار وقصدوا القصائد وأرسلوا الرسل . ووصفوا لإخوانهم ما هيء لهم فى المجلس الحافل من طعام وشراب وغلمان وجوار وندامى وسقاة وأقداح . . . وأثنوا عليهم الثناء المستطاب .

وبذلك أبرزوا جانبا حيا نابضا من جوانب المجتمع يتحرك بالعواطف والأحاسيس .

لقد كان الشعراء يصفون — عادة — لإخوانهم ، كيف أعدوا العدة للقاء، وأخذوا الحيطة من الرقيب ، ورفعوا عنهم أسباب الخوف والحذر ، وضاعفوا دواعى السرور والصفو ، وحثوهم على الحضور ، والبركة فى البكور . . .

وترى استدعاءاتهم ممزوجة غالباً بخمريات عذبة ومجونيات سائغة أو سافرة ، وفكاهيات نادرة فضلا عما فيها من الأوصاف والغزليات والإخوانيات كالشوق والعتاب على القطيعة ونحوها .

على أن الاستدعاءات من أجمل ضروب الإخوانيات وأنسها ، وأطربها وأعذبها ، ومن أصدقها لا أكذبها .

وكثيراً ما يرد المدعو على الداعى مستجيبا له . بشكر رقيق وشعر أنيق ، يحمد له فيه اهتمامه به ودعوته له واشتياقه إليه ، ويثنى على همته العالية وشهامته النبيلة .

ولا يفوتنا أن نذكر أن بعض الشعراء نظموا فى الاستدعاء تمرينا للقريحة وتنفيسا عن الأمانى المكبوتة . . ولم يخرجوا — مع هذا — عن أن يكونوا قد سجلوا هذا الجانب الطريف من جوانب المجتمع .

وقد حكى الأدفوى فى كتابه « الطالع السعيد » عن الشاعر « الحسن بن هبة الله الأدفوى » أنه كان خفيف الروح ، ينظم الزجل والشعر . وتوفى عام ٧٢٠ هـ .

ومن استدعاءات هذا الشاعر ، قوله ، وقد هيأ للمستدعي كل وسائل الأنس واللهو والتسلية . وقد جانس بين قوافى الأبيات :

إن المليحة والمليح كلاهما	حضرا ومزمار هناك وعود
والروض فتحت الصبا أكمامه	فكأنه مسك يفوح وعود
ومدامة تجلى الهموم فبادروا	واستغنموا فرص الزمان وعودوا[1]

وللأديب الألمعي الشاعر فخر الدين بن مكانس شعر فى هذا الباب . ومن بينه قصيدة دالية فيها وصف ومجون مكشوف . وفيها دعابة وشوق وعتاب على طول البعدو الصد .

وقد قدمها الأديب تقى الدين بن حجة الحموى بقوله :

« ونقلت من خط الصاحب فخر الدين بن مكانس ما صورته : كتبت إلى صاحبنا الأديب الفقيه العالم الحافظ الراوية أبى حفص سراج الدين عمر السكندرى الشهير بالقوصى ، أستدعيه وفى الاستدعاء بعض المداعبة :

« الحمد لله المجيب لمن دعاه .

يا ذا الذى فكره مثل اسمه يقد	فندت عنا وما من شأنك الفند
بم اعتذارك عن هذا الصدود لنا	هذا وقد ضمنا بالجيرة البلد
عافاك ربك من داء القطيعة بل	شفاك من كل داء أمره نكد
فيم التوانى وشهر الصوم مقتبل	عن خمرة ضوؤها فى الكأس يتقد
وفتية مخلصين الودَّ قد جبلوا	على المحبة لا حقد ولا حسد

(١) الطالع السعيد تحت رقم ١٤٢

إن ذاع وصفك فى ناديهم طربوا أو جال ذكرك فيما بينهم سجدوا
إن لم تشرف بناديهم فما شرفوا أو لم تنفق لهم آدابهم كسدوا
لم ذا هجرت بنى الآداب فابد لنا بم اعتذارك لا أهل ولا ولد
قد صرت توحشهم بعداً وإن قربوا وكنت تؤنسهم قربا وإن بعدوا
تركت عشرتهم لما رغبت إلى جاه طويل عريض زانه مدد
ما هكذا تفعل الدنيا بصاحبها فالناس بالناس والأحوال تنتقد
وبعد فاحضر فذنب البعد مغتفر ولو تطاول من هجرانك الأمد
أو لا فعصبة فسق كلهم شبق سود غلاظ شداد ما لهم عدد
لهم . . . . . . قيام طول دهرهم من حين إدراكهم بالجس ما رقدوا

وسدر الشاعر فى مجونه الفاحش وأدبه المكشوف ، حتى قال :

ومن رأى وقعتى هذى وليس يرى عقيبها حاضراً لم يلهه أحد
بادر لنا فبنو الآداب كلهم تجمعوا من فجاج الأرض واحتشدوا
مولاى إنى محب فاتخذ كلمى بصحبة فعليها الخل يعتمد
وأنت أدرى بقوم إن قلوا سلقوا بألسن ما افتلى حربها قود
لا زالت ترقى على زهر النجوم على ما حلت الريح أقوام وما رصدوا
وأوعدوك فإن لم تأت نحوهم فكلهم منجز فى الحال ما يعد(١)

ونظم صفى الدين الحلى استدعاء عرض فيه ما لديه من المعدات وأدوات التسلية واللهو . قال :

أيا ابن الكرام الكماة الحماة كنوز العفاف وكهف العفاة
ويا من يرى الجود حتما عليه وفرض الصلات كفرض الصلاة

---

(١) تأهيل الغريب ، باب الاستدعاءات — ومطالع البدور فى منازل السرور للغزولى مخطوط بالمكتبة الأزهرية .

ومن رأيه فى الأمور الجسا م سبل النجاح وسفن النجاة
لقد ساعد الفطر رب الصيام بعيد مواف وعيش موات
وعندي ظبي غريب الجمال غزير الصفاء عزيز الصفات
يدير الصفاء كماء الحيا وماء الحياء وماء الحياة
وقد طبق الجو غيم جهام أحاط به من جميع الجهات
ونحن نقاتل جيش الربيع بزف الهناء وزن الهنات
فساعد سعدت بنيل الوفاق لأهل الوفاء قبيل الوفاة
وزرنا فإن ألذ الهبات إعادة أيامنا الذاهبات[1]

ولصفى الدين أيضاً فى المعنى نفسه :

ليس عنك مصطبر حين أسعد القدر
إن صفو عيشتنا لا يشوبه كدر
فابتدر لمجلسنا فاللبيب يبتدر
واستجب لشمس ضحا قد سعى بها قمر
والخطوب غافلة والرفاق قد حضروا
والعيون ناظرة والقلوب تنتظر
غير أنهم نفر عن رضاك ما نفروا
إن منحتهم شكروا أو منعتهم عذروا[2]

وللشاب الظريف يستدعى أحد أصدقائه :

يوم أتانا برده فى بردة أضحى بها مثل الحديد الماء
والأرض قد بسطت لحسن صنيعه بالثلج فى الأرض اليد البيضاء

(١ ، ٢) ديوان صفى الدين الحلى ص ٣٤٧

فاحضر فنحن كما تحب بمجلس لو لم تغب تمت به السراء

ومما له صلة وثيقة بالاستدعاء ، الحديث عن آداب النديم والمنادمة . ولابأس بالاستطراد إلى ذكر شيء منه لما له من الصلة ولما فيه من الطرافة . ولدلالته كذلك على بعض آداب المجتمع . وقد تحدثوا عنه نثرا وشعرا . وقرأنا النثر .

وقد نظم الشاعر الكيس الظريف الأديب فخر الدين بن مكانس قصيدة عذبة رائقة فكاهية فى هذا الموضوع . وهى مزدوجة مجزوءة تقع فى نحو ثمانين بيتا ، وضع فيها للنديم منهاج المنادمة ، وخط له سبيل المشاربة . وسماها « عمدة الحرفاء وقدوة الظرفاء » . وقد قال عنها تقى الدين بن حجة الحموى « إنها طرفة من الطرف » . وضمنها نصائح وآدابا اجتماعية صادقة . . . .

قال فخر الدين بن مكانس فى مطلعها .

هل من فتى ظريف معاشر حريف
يسمع من مقالى ما يبهر اللآلى
أمنحه وصيه سارية سرية
تنير فى الدياجى كلمعة السراج
رشيقة الألفاظ تسهل للحفاظ
جادت بها القريحة فى معرض النصيحة

ومنها يقنن للنديم آداب المنادمة . فيقول :

ألبس حلا الخلاعة واخلع ردا الرقاعة
ولا تطاول بنشب ولا تفاخر بنسب
المرء إبن اليوم والعقل زين القوم
ما أروض السياسة لجامح الرياسة
إن شئت تلقى محسنا فلا تقل قط أنا

وإن أردت لاتهن   إذا ائتمنت لا تخن
العز فى الأمانة   والكيس فى الفطانة
لا تغضب الجليسا   لا تسخط الرئيسا
لا تصحب الخسيسا   لا توحش الأنيسا
لا تكثر العتابا   تنفر الأصحابا
فكثرة المعاتبة   تدعو إلى المجانبة
وإن حللت مجلسا   بين سراة رؤسا
أقصد رضا الجماعة   وكن غلام الطاعة
واختصر السؤالا   وقلل المقالا
ولا تكن معربدا   ولا بغيضا نكدا
ولا تكن مقداما   تسطو على الندامى
لا تمسك الأقداحا   تنغص الأفراحا . . الخ[1]

إلى آخر هذه الأرجوزة الطريفة . وترى فيها ما يتطلبه القوم من آداب فى النديم ، وأخلاق وعادات منه وقت المنادمة . ومن ذلك أن يتحلى بالخلاعة ولا يتوانى فى ذلك متراقعا . وألا يفخر أمام الجلاس بحسبه أو نسبه لأن ذلك يؤدى إلى نفورهم منه . وأن يكون كيسا لبقا ذا سياسة ومصانعة حتى يخضع له القوم ويقبلوا عليه . وألا يتشدق بمفاخر نفسه ، وأن يكون أمينا لطيف الحديث لا يغضب جليسه ولا يسخط رئيسه . . إلى آخر ما رأيت فى هذه الآداب .

وهى آداب فى جملتها تدل على أن المجتمع وصل إلى قدر كبير من الحضارة والأناقة فى مجالس لهوه ومنادمته ، حتى أصبح سماره من رهافة الحس ورقة الشعور إلى هذه الدرجة التى تطلبت من النديم كل هذه الآداب .

---

(١) راجع تأهيل الغريب باب « النديم » — ومطالع البدور فى منازل السرور للغزولى ج١ — مخطوط بالمكتبة الأزهرية ورقة ٨٩ وروض الآداب للشهاب الحجازى مخطوط بالمكتبة الأزهرية — وديوان فخر الدين بن مكانس مخطوط بدار الكتب المصرية .

و ـ المجون :

ولعل حديثنا عن الاستدعاء والمنادمة يجرنا إلى التحدث عن مجونياتهم . والشعر لم يقصر فى أن يكون صدى لما يحدث فى مجالس مجونهم ، أو يكون ترجمانا لما يدور بينهم من ضروب المجون . بل لقد انحدر الشعر إلى أن يكون فى وصف المجون صريحا مكشوفا ، يصطنع القول المرذول واللفظ الساقط العبارة . واعتقادنا أنه بذلك معبر تمام التعبير عن واقع المجتمع . ونحن لانزال حتى اليوم نئن أنينا متواصلا من سلاطة ألسنة الناس واندفاعهم فى ذكر فاحش اللفظ والتعبير ، فى مجونياتهم وغير مجونياتهم .

نقول إن الشعر هنا عبر فأحسن التعبير عن واقع المجتمع ، وإن كنا نربأ بالشعر أن يهوى إلى هذا الحضيض من اللفظ المكشوف ، وإن فاته الصدق وجانبته الأمانة ...

ونحن نحدثك هنا فى حذر واقتضاب دون أن ننساب فى التمثيل مع المنسابين فى التعبير . . .

على أنه لابد من القول إنه ما من مجتمع خلا من خلاعة ومجانة ، فهما فى المجتمعات فطرة لا فرار منها ، شأنها فى ذلك شأن الغزل . وكثيراً ما يكون المجون أحد منحدرات الغزل ، حينما لا يتورع العاشق المفتون عن أن ينساق فى غزله إلى وصف دقائق الصلات الحسية بين العاشق والمعشوق .

والمجون قديم فى الشعر العربى منذ لدن الجاهلية حتى اليوم . وقد راج فى العصر المملوكى رواجا عظيما ، إذ كان المراح ممرعا والمرعى خصيبا . فقد امتلأت بيئاته بأسبابه ودواعيه ، وتوافرت أنواع اللهو ما بين خمور وحشيش ورقص وغناء ، إلى ما كان مباحا من الأرقاء الحسان ، سواء من الجوارى أو الغلمان . لقد كثر التسرى واستخدم الغلمان فى ألوان الخدمة ، مع ما لهم من جمال أخاذ ومحاسن

فاتنة ، فدعرت بسبب ذلك جوانب من الحياة ، وفجر كثير من الناس ، وتنفس بعض الشعراء فسجلوا ما يرون ومايسمعون وما يقترفون أو ماينقمون .

وكما يدفع ضيق الحياة وشظف العيش ومعاناة الحرمان والفراغ من العمل الجدى ، إلى لون من ألوان اليأس ، يفضى بالمرء إلى الزهادة والنسك والتصوف – كما أشرنا – قد يفضى به أيضا إلى التهالك على طلب اللذة والاستمتاع ، ما وجد إلى ذلك سبيلا ، ليعوض نفسه مافقدته ، ويتنفس بها عما كبتته .

وقد يبالغ فى ذلك ، حتى يتهاوى إلى المجون والمبتذلات ، تشفيا من زمانه الجاحد ، وأيامه المشقية . . .

يقول زين الدين بن الوردى مصورا بقلم الناصح المرشد الحكيم المتبرىء ، ما استشرى بين قومه من محبة الغلمان ، وما اندفع إليه الشعراء من وصف هؤلاء الحسان :

من قال بالمرد فاحذر أن تصاحبه ... فإن فعلت فثق بالعار والنار
بضاعة ما اشتراها غير بائعها ... بئس البضاعة والمشرى والشارى
ياقوم صار اللواط اليوم مشتهراً ... وشائعا ذائعا من غير إنكار
ذنب به هلكت من قبلنا أمم ... والعرش يهتز منه هز إكبار
جنات عدن عن اللوطى قد حرمت ... الله أكبر ما أعصاه للبارى
أستغفر الله من شعر تقدم لى ... فى المرد قصدى به ترويج أشعارى
لكن ذلك قول ليس يتبعه ... خنا وحاشاى من أفعال أشرار
قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهار[1]

---

(١) ديوان ابن الوردى ص ٢٥٦ والأطهار : أيام طهر المرأة .

ومهما يكن من شيء، فقد صار فى الشعر معارض حافلة لهذه الحياة الماجنة التى اتصلت حبالها بشرب الخمر ونحوه ، وبالاستدعاء إلى مجالس الأنس والمنادمة ، وبالرغبة فى التفكه والدعابة .

ومن مجان العصر : الوراق والجزار والسروجى والإسعردى وابن دانيال الموصلى وإبراهيم المعمار والصلاح الصفدى والفخر بن مكانس .

ولم يحتشم بعض كبار الشعراء والجادون منهم عن الإسفاف إلى المجون والتصريح بما لا ينبغى التصريح به . ومن هؤلاء الجمال بن نباتة ، والصفى الحلى والزين بن الوردى ومحيي الدين بن عبد الظاهر .

ومن مجونيات محيي الدين بن عبد الظاهر قوله :

أنا فى العالم طرفة ... من أشد الناس حرفة
إن أجد ردفا ثقيلا ... كان فى الصرة خفة
أو أجد هذا وهذا ... لم أجد فى الحال غرفة
أو أجدهن جميعاً ... كان فى الآلة وقفة
فترانى طول دهرى ... تائبا من غير عفة (١)

وللصلاح الدين الصفدى فى غلام :

أهوى بمر شفه إلى وقال ها ... ويلاه من رشأ أطاع وقالها
فرشفت من رشفاته معسولها ... وضممت من أعطافه عسالها
وظفرت فى اليقظات منه بخلوة ... ما كنت آمل فى المنام خيالها (٢)

---

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٧٩ (٢) عن دمعة الباكى للصفدى

ولفخر الدين بن مكانس من قصيدة استدعائه الماجنة ، يصف عددا من رفاقه المجان :

لهم ... قيام طول دهرهم   من حين إدراكهم بالحس مارقدوا
كأنهم من حديد جمعوا زبرا   يستوثبون فلايقواهم الأسد
من كل ... يحك السحب هامته   يهيج كالبحر إذ يبدو له زبد
مزنفل مكفهر مغضب شرس   لظهره جملونات بها عقد
مسكرج الرأس فى عرنينه شمم   معشر الدور فى حلقومه غدد
تلك .... تراهم فى بكورهم   كأنهم تحت فسطاط السما عمد(١)

ولعز الدين الموصلى وفيه اقتباس وتورية :

قد سلونا عن المليح بخود   ذات وجه به الجمال تفنن
ورجعنا عن النهتك فيه   ودفعناه بالتى هى أحسن(٢)

وقال الأديب عبد الكريم بن على السهروردى القوصى المتوفى بعد عام ٧٠٠هـ يهجو بعض التجار ، وكان قد طلب « جوزة هندية » ، فلم يرسلها إليه :

طلبت منه جوزة   منعتنى من قربها
وكم طلبت زوجة   منك فلم تبخل بها(٣)

ولصفى الدين الحلى يصف ليلة سهاد :

وليلة طال سهادى بها   فزارنى إبليس عند الرقاد
فقال لى : هل لك فى شقفة   كبشية تطرد عنا السهاد

---

(١) عن دمعة الباكى للصفدى .   (٢) خزانة الأدب ص ٢٥٤ .
(٣) الطالع السعيد رقم ٢٥٩ .

قلت : نعم . قال : وفى قهوة   عتقها العاصر من عهد عاد
قلت : نعم قال : وفى مطرب   إذا شدا يطرب منـــه الجماد
قلت : نعم . قال : وفى طفلة   فى وجنتيها للحياء اتقاد
قلت : نعم قال : وفى شادن   قد كحلت أجفانه بالسواد
قلت : نعم : فقال : نم آمنا   يا كعبة الفسق وركن الفساد(١)

ومن مجونيات علاء الدين الوداعى قوله :

قيل إن شئت أن تكون غنيا   فتزوج تكن من المحصنينا
قلت مايقطع الإله بحر   لم يضع بين أظهر المسلمينا(٢)

ز ـ الخمريات :

والمجونيات موصولة الحبل بالخمريات ، فهما فى أكثر الأحوال شقيقان متلازمان ، أو صنوان لايفترقان . وقد وجدت الخمريات لها رجالا من شعراء العصر . كما وجدت فى سائر عصور الأدب . فالخمر لازم من لوازم هذه البشرية الشقية . سعى إليها السلطان والأمير والشريف والحقير والكبير والصغير ، وامتدت راياتها ودارت كاساتها وانتصب سقاتها وتتابع رواتها ، واجتمعت من حول مجالسها المفاسد والشرور ، ومغامرات الفجور . وشدا بذكرها الشادى وتغزل فيها الغزل ، وانقطع لها المنقطع .

وهكذا استشرى خطرها فى عصر المماليك ، وخطر الحشيشة معها . وتعددت لها الدور ، واتسعت لها الصدور وحاول بعض العلماء الأعلام محاربتها غيرة على الدين والخلق الكريم ، فأمر بعض الحكام بكفاحها والقضاء عليها وعلى أنصارها هى والحشيشة سواء بسواء . ومنهم الظاهر بيبرس والظاهر لاجين : ولكن هيهات هيهات لإنسان سدر فى غيه وانصرف إلى هواه . . .

---

(١) ديوان الحلى ص ٤٢٥   (٢) خزانة الأدب ص ١٣٧ .

ونظم بعض الشعراء فيها فوصفوها فى قناتها ودنانها ، وفى قديمها وحديثها وفى خبائها وجلائها . وفى ألوانها وأشعتها ، ووازنوا بينها وبين الشمس والقمر، وبين السحب والمطر . وفاضلوا بينها وبين الحشيشة الخضراء ، وما تصنع كل منهما فى عقول الأنصار والمغرمين . وتحدثوا عن مجالسهما ووصفوا ما تفعل كل منهما فى نفس الكريم والبخيل ، والفارس والجبان .

وذكروا ، عند ذكر الخمر، جمال الليل ولمعان النجم ودنو الفجر وحسن السقاة وحديث الندامى ، وخلطوا الغزل بها بالغزل فى المعشوقين ، ومزجوا محاسنها بمحاسنهم ، ومفاتنها بمفاتنهم ، حتى صار قولهم فيها صرفا مرة ، ومقتولا مرة أخرى . وأحله بعضهم فى مطالع القصائد محل الغزل .

وهكذا كان شعرهم فيها رجعاً للبيئة وأثراً من آثارها وصورة لأحد جوانبها.

ولا نجزم بدليل قاطع على أن أحد هؤلاء الشعراء قد اقترف إثمها فعلا وارتكب موبقتها عملا ، إلا إذا نص على ذلك نص تاريخى وثيق .

ولنور الدين الأسعردى المتوفى عام ٦٥٦ﻫ قصيدتان داليتان من بحر الطويل، يفضل فى أولاهما الحشيشة على الخمر ، ويفضل فى ثانيتهما الخمر على الحشيشة . وقد علق ابن شاكر الكتبى فى كتابه « فوات الوفيات » على ذلك بقوله :

« تأمل هاتين القصيدتين وكيف ناقض بينهما . وبهذا يعرف حذق الشاعر ، فإنه يمدح الشيء ويذم ضده ثم يعكس . فيميل الطباع إلى مامدح ويصرفها عما ذم، من غير أن يغير حقيقة هذا ولا هذا »[1] .

فمن قصيدته الأولى يفضل الحشيشة على الخمر قوله :

لك الخير لا تسمع كلام المفند ودونك فى فتياك غير مقلد
سألت عن الخضراء والخمر فاستمع مقالة ذى رأى مصيب مسدد

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٢ وبه القصيدتان .

وحقك ما بالخمـــر بعض صفاتها   أتشرب جهراً فى رباط ومسجد
عليك بها خضراء غير مبالغ   بأبيض ورق أو بأحمر عسجد
ولكن على رغم المدام هدية   تنزه عن بيع بغير التزهد
رياضية يحكى الجنان اخضرارها   وخمرهم كالمارج المتـــوقد
مدامهم ينسى المعانى وهـذه   تذكر أسرار الجمال الموحد .. الخ [1]

ومن قصيدته الثانية يفضل الخمر على الحشيشة قوله :

فديتك نور الحق قد لاح فاهتد   نديمى وكن فى اللهو غـير مقلد
أترضى بأن تمسى شبيه بهيمة   بأكل حشيش يابس غير أرغد
فدع رأى قوم كالدواب ولا تدر   سوى درة كالـكوكب المتوقد
مدام إذا ما لاح للركب نورها   وقد ضل ليلا عاد بالنور يهتدى
حشيشتهم تـكسو المهيب مهانة   فتلقـاه مثـــل القـاتل المتعمد
ويبدو على خديه مثل أخضرارها   فيضحى برجه مظلم اللون أربد
وتفسد من ذهن النديم خياله   فينظر مبيض الصباح كأسود
وخمرتنـا تـكسوا الذليل مهابة   وعزا فتلقى دونه كل سيد .. الخ [2]

وقد مد محيي الدين بن عبد الظاهر هذه المائدة ، ودعا إليها الأحباب، فاستطابوا هذا الشراب . فنظم وقال :

خمـــرة للشقيق أمست شقيقه   بنت كرم بالمكرمات خليقه
قال قوم من لطفها هى فى الـكأ   س مجـاز والـكأس قالت حقيقه
كيف تغدو عتيقـة لدنان   وهى فى قبضة الندامى رقيقه
نتجت فرحـة وجاءت بكأس   صبغت حمـرة فنعم العقيقه

(١و٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٢ وبه القصيدتان .

هي مخلوقة من الماء فأعجب كيف نار من مزنة مخلوقه
كم تبدت بها معاني سرور بسوى الماء لم تكن مطروقه
سلفتنا على العقول وقالت بتوالى الحباب كنت الوثيقه
حملت همنا فحمدا وشكرا لعجوز على بنيها شفيقه
كم بدت بالدموع منها الرواويـ ق ووجنات جيبها مشقوقه
أتراني أعصى إلهي فيها ثم أخشى من أن يقول الخليقه(١)

وحكى أن السراج الوراق ، كان يغشى راهباً بدير شعران ، وافر العقل كامل الفضل . فخرج إليه في جماعة من أهل الأدب . وشعبان قد بقي على أقل من نصفه ، وبدره قد أخذ يتقهقر إلى خلفه . وشهر رمضان قد آن له أن تغل فيه شياطين الأنام . ويختم فيه على الأفواه بالصيام . فألفوا الراهب وقد لبس مسحه وساح . وعزل الدير فما هبت فيه رائحة راح .

فلما رأوا أن دين رمضان قد حان حلول أجله . وأن وجه الدير الوقاح مادبت فيه من الخمر حمرة خجله . خافوا أن يأتي الصيام ، وما تشعشع سوى قنديل سحوره الذي بان . ولا ملك مدام يأتي منه أوائل ورد في أواخر شعبان .

فندب السراج إليه راهبا من شباب الدير ، ليتبعه . وكتب معه :

أبلغ الفاضل الرئيس السلاما شق عن زهره الصباح كماما
قل له : أيها الحكيم الذي في دين عيسى قد برهن الأحكاما
كم رقبناك كالهلال إلى أن لحت للناظرين بدرا تماما
يا أبا الملة المسيحية ارحم معشرا مذظعنت عنهم يتامى
فطموا من رضاع كأس الحميا وهي أنكى للمرضعين فطاما

---

(١) مطالع البدور في منازل السرور للعلامة الغزولي ج ١ .

واستحلوا وضع الصليب من الرا   ووق من بعد حمله أعواما
عدموا راحة النفوس من الرا   ح فدارك بالأنفس الأجساما
وأطالوا حبس المدامة فى الد   ن ويكفى حبس المدامة عاما
ودعا الديك للصبوح فهبوا   كالمحبين لا يعون الملاما
فاسقهم من سلافة تطرد الهم   وعجل لهم بذاك اهتماما
وعسى قائل يقول لحظى   ونصيبى : أطلت فى ذا الكلاما
كذب المدعى وآخر شعبا   ن ينادينى الصيام الصياما[1]

ومدح جمال الدين بن نباتة ، كمال الدين بن الزملكانى فصدر مدحته له بأبيات خمرية عذبة جزلة . وقد أشرنا إليها عند حديثنا عن « الإيحاء » ، وما كان من أمر المحاكمة بينها وبين تائيتى القيراطى وابن حجة .

والحق أن ابن نباتة أجاد فيها وأبدع ، وأفاد وأمتع . وقص خلالها قصته مع الخمر وندمانها وسقاتها ومغناها . وقد كان يطرق حانتها مبكرا فى الليل إذ كانت له فى صباه إليها عادات بالسبق ، ويقصد ديرها البعيد الذى أضاء ـ تحت جنح الليل ، فتتبدى له فى حجبها فيكشفها عنها ، ويزحف بها على جيش همومه ويجلوها الندمان . مع أنها مصونة انقطعت دونها الغايات ، ومضيئة من حولها أشعتها . وإذ بشربها يصرعون دون مجلسها ! وهكذا ثأرت منهم لأنهم داسوها قديما بأرجلهم . . . إلى آخر ما وصف .

قال فى أسلوب جزل وعبارة طلية ، ومعانى اللهج المستمتع النشوان :

ورب حانة خمار طرقت ولا   حانت ولا طرقت للقصف حانات
سبقت قاصد مغناها وكنت فتى   إلى المدام له بالسبق عادات

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٦٦ وما بعدها .

أعشو إلى ديرها الأقصى وقد لمعت ... تحت الدجى فكأن الدير مشكاة
وأكشف الحجب عنها وهى صافية ... لم يبق فى دنهـا إلا صبابات
راح زحفت على جيش الهموم بها ... حتى كأن سنا الأكواب رايات
وبت أجلو على الندمان رونقها ... حتى لقد أصبحوا من قبل ما ماتوا
مصونة السر ماتت دون غايتها ... حاجات قوم وللحاجات أوقات
تجول حول أوانيها أشعتها ... كأنما هى للكاسات كاسات
ويصبح الشرب صرعى دون مجلسها ... وهى الحياة كأن الشرب أموات
تذكرت عند قوم دوس أرجلهم ... فاسترجعت من رءوس القوم ثارات
واستضحكت فلها فى كل ناحية ... هبات حسن وفى الآناف هبات
كأنها فى أكف الطائفين بها ... نار تطوف بها فى الأرض جنات
من كل أغيد فى دينار وجنته ... توزعت من قلوب الناس حبات
مبلبل الصدغ طول الوصل منعطف ... كأن أصداغه للعطف واوات
ترنحت وهى فى كفيه من طرب ... حتى لقد رقصت تلك الزجاجات
وقمت أشرب من فيه وخمرته ... شربا تشن به فى العقل غارات .. إلخ[1]

ويكاد برهان الدين القيراطى يجرى فى نظم خمرياته وبناء أبياتها وإسكانها المعانى ، على تصميم نباتى متين . وفى إحدى هذه الخمريات يبدع ويبتكر ، ويعجل إلى الخمر فينادم بدر سمائها ، ويرى شمسها تشرق فى أكف السقاة . وقد ركب إليها الليالى دهما ، ورفع كئوسها على جباهها غررا ، وأنفق ديناره وأعوامه على دينارها وساعاتها ... إلخ .

يقول :

كم ليلة نادمت بدر سمائها ... والشمس تشرق فى أكف سقاتها
وجرت بنا دهم الليالى للصبا ... وكئوسنا غرر على جبهاتها

---

(١) ديوان ابن نباتة — وتأهيل الغريب باب الخمريات .

فصرفت ديناري على دينارها　　وقضيت أعوامي على ساعاتها
حالفت في الصهباء كل مقلد　　وسعيت مجتهدا إلى حاناتها
فتحير الخمار أين دنانها　　حتى اهتدى بالطيب من نفحاتها
فشممتها ورأيتها ولمستها　　وشربتها وسمعت حسن صفاتها
وتبعت كل مطاوع لا يختشي　　عند ارتكاب ذنوبها تبعاتها
يأتي إلى اللذات من أبوابها　　ويحج للصهباء في ميقاتها
ياصاح قد نطق الهزار مؤذنا　　أيليق بالأوتار طول سكاتها
نخذ ارتفاع الشمس من أقداحنا　　وأقم صلاة اللهو في أوقاتها
إن كان عندك يا شراب بقية　　مما تزيل به العقول فهاتها
وإذا العقود من الحباب تنظمت　　إياك والتفريط في حباتها ...(١)

وملأ صدر الدين بن الوكيل المصري بعض زجاجاته من هذا الفن ، فعتقت ، ولم يبال في سبيل ذلك بلوامه ولا بفضته ولا ذهبه ، ولم يأسف على مال تتلفه السقاة والخرد ، فما كسوه حلة من راحها إلا خلعوا عنه ثوب الهم . وما هي إلا التبر المسبوك . وقيراط منها على قنطار من الحزن ، يحيله أفراحا . . . إلى غير ذلك من المعاني الغزلية الخمرية قال :

ليذهبوا في ملامي أية ذهبوا　　فالخمر لا فضة تبقى ولا ذهب
لا تأسفن على مال تمزقه　　أيدي سقاة الطلا والخرد العرب
فما كسوا راحتي من راحها حللا　　إلا وعروا فؤادي الهم واستلبوا
راح بها راحتي في راحتي حصلت　　فتم عجبي بها وازداد لي العجب
إذ ينبع الدر من حلو مذاقته　　والتبر منسبك في الكأس ينسكب

---

(١) تأهيل الغريب باب الخمريات ـ ورياض الألباب النواجي مخطوط ـ ومطالع البدور للغزولي ـ مخطوط بمكتبة الأزهر ـ وروض الآداب للشهاب الحجازي ورقة رقم ١٣ ـ مخطوط بمكتبة الأزهر .

وليست الكيميا فى غيرها وجدت　　وكل ما قيل فى أبوابها كذب
قيراط خمر على القنطار من حزن　　يعود فى الحال أفراحا وينقلب
عناصر أربع فى الكأس قد جمعت　　وفوقها الفلك السيار والشهب
ماء ونار هواء أرضها قدح　　وطرفها فلك والأنجم الحبب ... إلخ[١]

ومن الطريف أن الظاهر بيبرس ، لما أمر بإبطال شرب الخمر والحشيش ، جعل الحد على إثمها الضرب بالسيف . فأمسك المدعو « ابن الكازرونى » وهو سكران . فأمر الظاهر بصلبه وفى حلقه جرة خمر . . .

فقال شمس الدين بن دانيال الموصلى :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه　　خفيف الأذى إذ كان فى شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبى　　ألا تب فإن الحد قد جاوز الحدا[٢]

وهكذا يسجل ابن دانيال واقعة التحريم وواقعة العقوبة ، بأسلوبه الفكه ، الذى لم يخل من النكتة ومن النقد . إذ ذكر أن العقوبة قد جاوزت الحد الذى رسمه الشرع . . .

ومن هذا القبيل أيضاً ، بيتاه الآتيان . وفيهما يذكر نهى السلطان والعقوبة التى قررها كذلك . ويتفكه ابن دانيال فيهما ، ويذكر أن ملوك الجن خشيت العقوبة — وهى ملوك　فلم تجسر أن تدخل فى القنانى .

يقول ابن دانيال :

نهى السلطان عن شرب الحميا　　وصير حدها حد اليمانى

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣١٧ — ومطالع البدور للغزولى — مخطوط بمكتبة الأزهر .
(٢) فوات الوفيات لابن شاكر ج ١ ص ١١٥، ١١٦ ط بولاق .

فما جسرت ملوك الجن خوفا　　لأجل الخمر تدخل فى الفنانى[1]

....

ويتفكه الشاعر ناصر الدين بن النقيب ، ويسخر بإبليس ، بهذه المناسبة . ويرى أنه لم يعد له فى مصر ، ماء ولا مرعى . أى لم تعد له فيها وسائل الحياة .

والشاعر يرمز بالماء والمرعى إلى الخمر والحشيش . فقال موريا :

منع الظاهر الحشيش مع الخمـــر فولى إبليس من مصر يسعى

قال مالى والمقام بأرض　　لم أمتع فيها بماء ومرعى[2]

وهكذا اضطر إبليس اضطرارا ـ بفضل السلطان الظاهر بيبرس ـ إلى عدم دخول مصر ولم يعد له فى ربوعها طمع . وأصبحت غير بلاد هذا السلطان هى مأواه .

وإلى هذا المعنى يشير الشاعر « القاضى ناصر الدين بن المنير » ، ويرمز أيضاً بالماء والمرعى ، كما رمز ابن النقيب ، فيقول .

ليس لإبليس عندنا طمع　　غير بلاد الأمير مأواه

منعته الخمر والحشيش معاً　　أحرمتـــــه ماءه ومرعاه[3]

———

ولا بأس من أن نذكر لك فى أعقاب هذا الحديث ، أن الزجل شارك الشعر فى هذا الباب ، كما شارك فى كثير من الأبواب . ومن بدائع ما نظمه فى ذلك منه الشاعر ابن دانيال أيضاً　وله زجلية فريدة فى هذا الباب بموضوعها وطولها وتفصيلها ، لما سجلته من النوازع النفسية والانفعالات العميقة . التى تدل على تأثر عظيم بحادث النهى عن شرب الخمر وفداحة العقوبة عليه . هذا مع البساطة فى التعبير ، والوضوح فى الصورة ، وإسباغ الجو الفكاهى المعتاد من ابن دانيال ، وهو الجو الغالب ، الذى تشيعه الروح المصرية المرحة الناقدة .[4]

———

(١، ٢، ٣) فوات الوفيات لابن شاكر ج ١ ص ١١٥، ١١٦ ط بولاق .

(٤) تراجع زجلية ابن دانيال فى بدائع الزهور لابن إياس ج ١ ص ١٠٥ .

ح - الغزل :

وتسلمنا الخمريات إلى الغزل . وكثيرا ما يكون أحدهما داعيا إلى الآخر . والمرء أن يتساءل : هل كان النـاس فى ذلك الزمان يعشقون ويتغزلون . وهل كانوا يهشون للوصول ويحزنون للفراق . وهل كانوا يسهدون والأشواق تلعب بهم ، والآمال تداعب نفوسهم . وهل كان شعراؤهم على غرارهم يعشقون ويتألمون وينفثون أشواقهم وأحاسيسهم شعرا سائغا وغزلا رطبا . ويعبرون بذلك عن مكنون آلامهم وآمالهم ويصورون به صورة طلية من صور المجتمع . صورة من أهم صوره النفسية . وأدق مظاهره العاطفية ؟؟

وكيف لا ، وأسباب الحب من حولهم موفورة ، ودواعى العشق متكاملة . والعصر عصر الرقيق وعصر التسرى وعصر حرية خلقية واسعة النطاق ، لا حرج فيها ولا خشية منها ولا رقيب عليها ، إلا الوازع الشخصى . . .

لقد كانت مجالس الأنس والشراب حافلة ، وأوقاته معمورة يغشاها الغنى المترف ليصيب بماله ما شاء من اللذة . ويختلف إليها الفقير المدقع ليدفن فيها ما أشقاه من الهموم ، ويذيب أحزانه بشرابه ، ويفرج من كربه بغزله ومرحه . . والشاعر يرى ويحس ويشارك ، فيغنى نفسه وغيره ، ويصور عصره . .

لا عجب إذا ما رأينا الغزل بين فنون شعرهم حينذاك ، بل فى مقدمتها . لقد نظم فيه شعراء العصر وأجادوه ، وافتنوا فيه ونوعوه . ومقطوعاتهم فيه لا تعد ولا تحصى . ومطولاتهم أكثر من أن تستقصى .

نظمه بعضهم وهو صادق فى شعره ومعبر عن نفسه وضميره . ونظمه بعضهم تقليدا ومحاكاة وتمرينا للقريحة . ونظمه بعضهم لالتئام ضرب فيه من ضروب البديع كتورية أو اقتباس أو تضمين أو جناس أو مطابقة أو غيرها . ونظمه بعضهم ممزوجا بالوصف أو الخمريات . وأغرم به الأدباء كما نظمه العلماء والفقهاء

بل والنساك والأتقياء كشرف الدين البوصيرى وشهاب الدين بن حجر العسقلانى .

ويختلط الغزل ببث الأشواق وشكوى الفراق ، وذكر الهجر والصد ، ووصف السهد والوجد ، أو نعت الطرف والخد ، والردف والقد . واستعطاف الجمال ، واستسماح الدلال . وذكر الواشى النمام ، والرقيب المحتال . والعذول القوال . أو مناجاة الطيف وتوصية الرسول ومساءلة النسيم ، أو مخاطبة منازل الأحبة . ومغازلة الرياض الرطبة . وما فيها من الورود والأزاهير . والعنادل والطيور . وقد ينزلق المتغزل إلى المجون ، وإلى اللفظ كيف يكون .. وفى كثير من غزلياتهم همسات نفسية جميلة ، وهجسات عاطفية نبيلة . .

وغلب عندهم تذكير المحبوب على تأنيثه . ولعل بعضهم أراد بذلك تذكير اللفظ فحسب مع تأنيث المعنى ... ولكن إلى جوار ذلك تغزلوا فى المذكر غزلا صريحا لامواربة فيه ولا تأويل له . فوصفوا مثلا عذاره وعارضه ، ونعتوا فروسيته وفتكه بعاشقه وذكروا اسباله وشاربه . وغير ذلك .

وحوادث العصر وجملة وقائعه الأدبية تدل على أن الشعراء تغزلوا بالمذكر على الحقيقة لا على المجاز . وأن محاولتهم للاتصال بالذكران ، مذكورة . ولا عجب! فهذا عصر المملوك والرقيق ، وبينهم المحبوب والصديق وجمال الترك والجركس ومن إليهم صارخ ، مع سهولة الوصول ، والبلوغ إلى المأمول . .

يقول صلاح الدين الصفدى فى مقدمة كتابه « دمعة الباكى » ما مؤداه : « إنه كان خاليا من العشق والهيام حتى صادف جماعة من الغلمان الأتراك فأصابه مس من الهوى ولا سيما من أحدهم . ثم أتيحت له فرصة الاختلاء به . فعنفه هذا الغلام على حبه . بعدما كان يزجر المحبين من قبله . فادعى له أنه قدر محتوم وقسم مكتوب . ثم طفقا يتناجيان الغرام واللوعة . ويتبادلان اللثمة والدمعة . وكل ذلك فى لطف عبارة وجميل إشارة ثم افترقا بعد أن تشاكيا . وتواعدا ثم

تراسلا ثم تلاقيا . . وهكذا . .[١]

وقال الصفدى يصف غلمان الأتراك :

لم تترك الأتراك بعد جمالها ... حسنا لمخلوق سواها يخلق
جذبوا القسى إلى قسى حواجب ... من تحتها نبل اللواحظ ترشق
نشروا الشعور فكل قد منهم ... لدن عليه من الذوائب سنجق
لى منهم رشأ إذا قابلته ... كادت لواحظه بسحر تنطق
إن شاء يلقانى بخلق واسع ... عند اللقاء نهاه طرف ضيق[٢]

وقال الصفدى أيضاً يذكر العارض .

وأهيف كالغصن الرطيب إذا انثنى ... تميل حمامات الأراك إليه
له عارض لما رأى الطرف ناعسا ... أتى خده سراً فدب عليه[٣]

ويصف جمال الدين بن نباتة العذار السائل ، وقد أجاد التضمين والتورية ، وأخرج المضمن مخرجا جديدا :

وضعت سلاح الصبر عنه فماله ... يقاتل بالألحاظ من لا يقاتله
وسال عذار فوق خديه جائر ... على مهجتى فليتق الله سائله[٤]

ويتغزل بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى ، غزلا مذكرا رقيقا جدا ، فيذكر رح العطف وشبا الطرف ، وبرد الثغر وبدر الأفق ونبت العذار . .

ويستمر فى توجيهاته المورية الطريفة ، التى استمدها من الذهب وصرفه وحاصله وباقيه والمنتظر عليه والمكسور منه . . الخ .

---

(١) مقدمة دمعة الباكى للصفدى .
(٢) دمعه الباكى للصفدى .
(٣) خزانة الأدب باب . .
(٤) ديوان ابن نباتة حرف اللام .

يقول:

وافى يصول بأسمر من عطفه ... وبأبيض ماضى الشبا من طرفه
يفتر عن برد بفيه أذابنى ... ظمأ وكدت أذيبه من رشفه
عاينت بدرا فى الثريا طالعاً ... من وجهه لما بدا فى شنفه
وسنان ساجى الطرف نبت عذاره ... غصن يصان بذابل من عطفه
فارحم معنى فى هواك معنفا ... قد شفه ألم القطيعة فاشفه
ألقاه كالذهب الخلاص زمانه ... فلذاك قد أجنى عليه بصرفه
متصرف فى الحب حاصل دمعه ... كاف وباقى صبره لم يكفه
فإلى متى يشكو ظلامة ناظر ... أو حاجب لا يرعوى فى عسفه
فالقلب مكسور على جرح الضنى ... ومتى استقال من الهوى لم يعفه [1]

وللعلامة شمس الدين بن خلكان المؤرخ ، قصيدة غزلية رقيقة ، نسب فيها ، وذكر حالى لياليه الماضية مع أحبابه ، وخاطب فيها ديارهم ، وتشوق إليهم ، وشكا فراقهم ، وتمنى فى المنام زيارة طيفهم ، ورجا من الله قريب وصالهم . .

قال فى رقة وفى لفظ غزل عذب ، وقافية ناعمة لدنة . . .

يا ديار الأحباب لازالت الأد ... مع فى ترب ساحتيك مساله
وتمشى النسيم وهو عليل . . ... فى مغانيك ساحبا أذياله
أين عيش مضى لنا فيك ما أسـ ... ـرع عنا ذهابه وزواله
حيث وجه الشباب طلق نضير ... والتصابى غصونه ميالة
ولنا فيك طيب أوقات أنس ... ليتنا فى المنام نلقى مثاله
وبأرجاء جوك الرحب سرب ... كل عين تراه تهوى جماله
من فتاة بديعة الحسن ترنو ... من جفون لحاظها مغتاله

---

(١) رياض الألباب لشمس الدين النواحى ـ مخطوط بالمكتبة الأزهرية ـ ورقة رقم ٣٨

ورخيم الدلال حلو المعانى تتثنى أعطافــه مختاله
ذو قوام تود كل غصون البان لو أنها تحاكى اعتداله
وجهه فى الظلام بـدر تمام وعذاراه حوله كالهاله
ظبيـة تبهر العيون جمالا وغزال تغار منه الغزالة . . الخ(١)

وما كان أكثر غزليات الشاب الظريف . وما كان أرقها وأعذبها ، وما كان أدلها على نفس عاشقة ، وقلب مشوق . وأغلب مافى ديوانه غزل رقيق تتدفق منه العاطفة . ولعله أصدق الشعراء غزلا وأرقهم تشبيباً .

وهاهى ذى بعض أبياته التى تنم عن محب مغرم ، شفه الوجد . ونم عليه الدمع والسهد . قال فى صدر إحدى مدائحه :

لى من هواك بعيده وقريبه ولك الجمال بديعه وغريبه
يا من أعيذ جماله بجلاله حذرا عليه من العيون تصيبه
إن لم تكن عينى فإنك نورها أو لم تكن قلبى فأنت حبيبه
هل حرمة أو رحمة لمتيم قد قل فيك نصيره ونصيبه
ألف القصائد فى هواك تغزلا حتى كأن بك النسيب نسيبه
هب لى فؤادا بالغرام تشبه واستبق فودا بالصدود تشيبه . . إلخ(٢)

وتقى الدين السروجى يذيع هواه المكتوم ويشرح هواه المضنى ويقرأ كتاب أشواقه ويترجمه بدمعه ويكتبه على خده . ويقول مخاطباً معشوقه :

سأودعك السر الذى قد كتمته وأعلمك الأمر الذى قد علمته
وأفهمك المعنى اللطيف من الهوى وأشرحه حتى تقول فهمته

(١) فوات الوفيات ج ١ ص٧٣ . (٢) ديوان الشاب الظريف .

فعندى حديث منك سوف أقوله   إذا ما خلونا ساعة الوصل قلته
وتقرأ من شوقى كتابا مترجما   بدمعى على خدى إليك كتبته
وبى منك داء أصله كان نظرة   عدمت اصطبارى عنك لما وجدته . الخ(١)

وتغزل سراج الدين الوراق ، غزلا مؤنثا . وفى قوله مناجاة وقصة ، قال :

شمت برقا من ثغرها الوضاح   والدجى سيره مهيض الجناح
فتمارى شكى به ويقينى   هل تجلى الصباح قبل الصباح
فأجابت متى تبسم صبح   عن حباب أو لؤلؤ أو أقاح
ومتى كان للصباح شميم ال   مسك أو نكهة كصرف الراح
سل رحيق المسكوب تسأل خبيرا   باغتباق من خمرة واصطباح
قلت مالى وللسكارى فقالت   أنت أيضاً من الهوى غير صاح
حجة من مليحة قطعتنى   هكذا كل حجة للملاح
لا ولحظ كفترة النرجس الغـ   ـض وخد كحمرة التفاح
ماتيقنت بل ظننت ومافى ال   ظن ياهذه كبير جناح
وكثيرا شبهت بالبدر والشمـ   س وسامحت فارجعى للسماح
وافعلى ذامن ذاك واطرحى القو   ل اطراحى عليك قول الملاح(٢)

وصدر الشاعر المجيد شمس الدين القادرى إحدى مدائحه بغزل مؤنث تقليدى ولكنك ستشعر من أبياته بأنه ينفثها من ذات نفسه ومن بين أضالعه . ومزج فيها بين الوصف الحسى والمعنوى مزجا شهيا ، لم تزايله العاطفة ولم يفارقه لونه الوجدانى . قال فى عبارات لحلة وتراكيب جزلة :

وبى غادة كالشمس فى أفق حسنها   نأت وبقلبى حرها يتوقد

---

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٨٧   (٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٨

ولو هددت رضوى بتبريح هجرها ... لأمسى من التهديد وهو مهدد
خفيفة أعطاف نشاوى من الصبا ... ثقيلة أرداف تقيم وتقعد
من النافثات السحر فى عقد النهى ... بنجلاء عنها سحر هاروت يسند
وعينى تروى عن معين دموعها ... وسمعى عن عذل العذول مسدد
وأعجب من جسم حكى الماء رقة ... يقل بلطف قلبها وهو جلمد
محيا كبدر التم فى جنح طرة ... يظل به غصن النقا يتأود
وجنات وجنات بماء نعيمها ... على النور نار أصبحت تتوقد
مهاة إذا استنت بعود أراكة ... على متن سمطى لؤلؤ يتردد
تريك ثنيات العقيق وبارق ... جلالى النقا منه العذيب المبرد . . الخ(١)

وتهالك صدر الدين بن الوكيل على الخمر ، فشبب بها ، وملأ أقداح فنه من ذهبها . وانساب فى إحدى خمرياته إلى وصف منادمته فى شربه ، وهى حسناء من بنات الترك ، لها بها ، فألهته عن خمره ، وأيقظته على ملاحتها فانثنى يصفها وينعت محاسنها ويبث أبياته فيها ، ما فى قلبه من حس بها ولاعجة بحبها .
قال :

عاطيتها من بنات الترك عاطية ... لحاظها للأسود الغلب قد غلبوا
هيفاء جارية للراح ساقية ... من فوق ساقية تجرى وتنسرب
من وجهها وتثنيها وقامتها ... تخشى الأهلة والقضبان والقضب
يا قلب أردافها مهما مررت بها ... قف بى عليها وقل لى هذه الكثب
وإن مررت بشعر فوق قامتها ... بالله قل لى كيف البان والعذب
تريك وجنتها ما فى زجاجتها ... لكن مذاقته للريق تنتسب
تحكى الثنايا الذى أبدته من حبب ... لقد حكيت ولكن فاتك الشنب . . الخ(٢)

(١) حسن المحاضرة ج ١ باب ذكر الشعراء والأدباء . (٢) تأهيل الغريب باب الخمريات .

ولنختتم الحديث عن فن الغزل بالإشارة إلى غزل « شرف الدين البوصيرى » صاحب البردة ومادح الرسول عليه السلام ، ذلك الشاعر الذى كان فى عصر المماليك صاحب مدرسة فى هذا الباب . على ما رأينا ، وكان رجلا تغلب عليه التقوى وينزع نحو التصوف . فهو بفطرته ونشأته واتجاه الحياة به ، أبعد عن الغزل ومغامراته .

نقول ذلك لأن له قصيدة كاملة فى الغزل . وهى قصة وصف فيها مغامرة طريفة وقعت له مع جارية حسناء . فهى من الفن الشعرى الرقيق الذى سبق به امرؤ القيس وأرسى دعائمه عمر بن أبى ربيعة .

وهى إلى جانب غزلها القصصى والحوارى ، وإلى حوادثها أو خطواتها الواقعية التى تجعلها من قبيل « الاعترافات » ، تصاحبها الفكاهة والنكتة وأساليب العامة وأمثالها ، كعادته .

يقول الشاعر :

أهوى والمشيب قد حال دونه — والتصابى بعد المشيب رعونة
أبت النفس أن تطيع وقالت — إن حبى لا يدخل القنينة
كيف أعصى الهوى وطينة قلبى — بالهوى قبل آدم معجونة
سلبته الرقاد بيضة خدر — ذات حسن كالدرة المكنونة
سمتها قبلة تسر بها النفس — فقالت : كذا أكون حزينة
قلت : لابد أن تسيرى إلى الدا — ر فقالت : عسى أنا مجنونة
قلت سيرى فإننى لك خير — من أب راحم وأم حنونة
أنا نعم القرين إن كنت تبغين — حلالا وأنت نعم القرينة
قالت: اضرب عن وصل مثلى صفحا — واضرب الخل أو يصير طحينة
لا أرى أن تمسنى يد شيخ — كيف أرضى به لطشتى مشينة
قلت إنى كثير مال فقالت — هبك أنت المبارز القارونة
سيدى لا تخف على خروجا — فى عروضى ففطنتى موزونة

كل بحر إن شئت فيه اختبرنى ‏ ‏ ‏ لا تكذب فإننى يقطينة [١]

لقد علق المرحوم زكى مبارك على هذه القصيدة وقال عنها : « هذا أيضاً شعر ضعيف ولكن فيه حكاية ظريفة من حكايات مولانا الشيخ رضى الله عنه وأرضاه» [٢] .

والشعر ضعيف حقاً . وهو مستوى البوصيرى فى النظم – فيما عدا البردة – غير أن الناقد يتهكم بالرجل . ويغلب على الظن . بل نعتقد أن البوصيرى ساق القصة ، وللخيال فيها أكبر نصيب . دأبه فى ذلك دأب كثيرين غيره من شعراء عصره ، ممن دفعهم التقليد إلى تكلف الغزل . وحسب البوصيرى من هذه القصة اختبار القريحة وتمرين الخيال والشاعرية .

والقصة بعد ، بعيدة الوقوع من رجل كالبوصيرى غلبت عليه نزعة التصوف والتوجه إلى الله ورسوله . أو لم ينظمها وقد وخطه المشيب ؟ وهو نفسه يقول :

أهوى والمشيب قد حال دونه ‏ ‏ ‏ والتصابى بعد المشيب رعونة

ونعتقد أنه مشيب فى زمانه وموعده ، وليس مبكراً . والاستفهام فى البيت للتعجب أو الدهشة أو الإنكار . وهو دليل على ضعف الشيخوخة الذى يشعر به الشاعر ، وهو لا يعين على التصابى . . وبعد فليس فى القصة حرارة الشباب ولا اندفاع الرغبة ولا حيلة الغزل . . إنما هى مراودة مكشوفة ساذجة ، ومحادثة عشق فاترة ، ومغريات لا افتنان فيها ، لا يلهج بها عادة رائد من رواد العشق والغزل ، فضلا عن شاعر يصدر عن مشاعر صادقة ، ويترجم عن نفس مؤمنة بما تقول . .

ويثير ذكر الغزل فى خواطرنا ، ما تناوله الشعراء من نواحى الجمال الإنسانى فوصفوه وأبدعوا فى إبراز صفاته . فمن ذلك ما قالوه :

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٢) المدائح النبوية لزكى مبارك .

في العيون :

قول علاء الدين الوداعي في سود العيون ، التي رمت فأصمت ولم تخطيء ، لأنها سهام ليل :

رمتني سود عينيه فأصمتني ولم تخط
وما في ذلك من بدع سهام الليل ما تخطى (١)

وجمال الدين بن نباتة يجد في لحاظ العين أسهما مسددة رشيقة ، ومن سحرها تجرد فيلقاً غازياً يلقى به في الهلاك ، يقول :

حربي من مهفهف القد رام أسهم اللحظ ما أسد وأرشق
كلما قلت يفتح الله بالوصـل رماني من سحر عينيه فيلق(٢)

وكرر ابن نباتة ذكر سحر العينين وقرنه بقوسي الحاجبين ، في قوله مع الاقتباس :

وأغيد جارت في القلوب لحاظه وأسهرت الأجفان أجفانه الوسنى
أجل نظراً في حاجبيه وطرفه تر السحر منه قاب قوسين أو أدنى(٣)

ووصف شهاب الدين بن حجر العسقلاني تفويق سهم الألحاظ وتقوس الحاجبين في قوله :

سألت من لحظه وحاجبه كالقوس والسهم موعداً حسنا
ففوق السهم من لواحظه وانقوس الحاجبان وقت رنا(٤)

وفي قوله : « وقت رنا » أو « واقترنا » جناس التورية .

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) تأهيل الغريب باب سهام العين .

في اللحظ :

لقد تخيلوه سهما وسيفا ، وتخيلوا الطرف سيفا ، والجفن غمدا . وتلاعبوا بلفظى السيف والغمد ، كما شاء لهم الخيال . والسهم يجرح ، والسيف يردى ، وكلاهما يخشيان . .

ويقول مجير الدين بن تميم فى ذلك ، مع التضمين البديع :

بروحى من الأتراك ظبي تخافه   إذا ما سطا أسد الشرى وتحاذره
فما حيلتى فيمن إذا رمت وصله   ثنى طرفه نحو الحسام يشاوره(١)

ويقول شمس الدين بن الصائغ :

قد زاد فى التفنيد لى عاذلى   على هوى من لم أطق بينها
حتى بدا من لحظها صارم   ففر لما أن رأى عينها(٢)

وكثيراً ما يقف العذار ناهياً عن المحبة ، ومحذرا من الدنو ، وعاذلا رقيبا فى طريق الهوى ، فيغرى اللحظ بها ويدفع إليها . وفى هذه المعانى يقول ابن نباتة مضمنا أحد مطالع أبى تمام ، ويخرج بشطر البيت المضمن عن طريقه الأول إلى طريق الغزل . يقول :

خط العذار نهانى عن محبته   وقال حسبك قد أسرفت فى الطلب
ولحظه قال لى سلوانه غلط   والسيف أصدق أنباء من الكتب(٣)

ويستعير ابن العفيف ، السنان للحظ . ويتلاعب بلفظ السنان . ويمهد لتلاعبه . وذلك بقوله :

بدوى كم جدلت مقلتاه   عاشقا فى مقاتل الفرسان

(١ ، ٢ ، ٣) تأهيل الغريب باب سهام العين .

ذو محيا يصيح ياهـلال ولحاظ يقول ياسنان(١)

وجمع البرهان القيراطي بين السيف والسنان في قوله ، مع التورية اللطيفة :

شبه السيف والسنان بعيني من لقتلي دون الأنام استحلا
فأبى السيف والسنان وقالا حدنا دون ذاك حاشا وكلا(٢)

وجمع ابن نباتة بين الهلال في الوجه ، وبين الغزال في جمال العين وسحرها ، وذلك بقوله مع التورية في توكيده :

نسبوه حسنا للهلال وعينه للظبي تنسب لا رميت ببينه
فإذا بدا فإلى هلال أصله وإذارنا فهو الغزال بعينه(٣)

وينتقل مجير الدين بن تميم باللحظ إلى الصهباء . فيمزج بينهما مزجا لطيفا ، ويجمع شمليهما . ويقيم من اللحظ ساقيا لها ، ويمهد بذلك لذكر انكسار الطرف . يقول :

روحي الفداء لمن أدار بلحظه صهباء في عقلي لها تأثير
فاعجب له أني يصون بلحظه مشمولة وإناؤها مكسور(٤)

وتغار عيون النرجس من عيون الحبيب . وفي الجمع بينهما على أساس من الغيرة ، تشبيه ضمني طريف . — لقد نظم ذلك المعنى ، الأديب شهاب الدين بن حجر العسقلاني ، في بيتيه اللذين يصور فيهما زيارة حبيبه الروضة . يقول :

ولم أنس إذ زار الحبيب بروضة فغارت من المعشوق أعينها المرضى
ولاح بخد الورد حمرة خجلة إلى أن رأينا طرف نرجسه غضا(٥)

وفي لفظ «المعشوق» تورية بمعنى المحبوب ، وبمعنى مكان ومنزه في الروضة . — وفي لفظ «غض» تورية أخرى بمعنى الفعل أو الاسم .

وفي سحر العيون تحدث ناصر الدين بن النقيب ، فقال :

(١، ٢، ٣، ٤، ٥) تأهيل الغريب باب استعارات السنان للحظ .

ومالى سوى عين نظرت لحسنها   وذاك لجهلى بالعيون وعرتى
وقالوا به فى الحب عين ونظرة   لقد صدقوا عين الحبيب ونظرتى(١)

وصرح شهاب الدين أحمد بن عبد الدايم ، بما فعلته به العيون ، وما رمت به القلوب . وهو إلى هذا يدعو لها . ويقول :

لا واخذ الله عينيه فقد نشطت   إلى تلافى وفيها غاية الكسل
ترمى القلوب فما ندرى أقام بها   هارون أم ذاك رام من بنى ثعل(٢)

وجمع تقى الدين شبيب النميرى بين شقائق الخد ولآلىء الثغر وغزالى الطرف ، موريا بأسماء بعض الأعلام ، فقال :

ومهفهف قسم الملاحة ربها   فيه وأودعها بغير مثال
فلخده النعمان روض شقائق   ولثغره النظام عقد لآلى
ولطرفه الغزال إحياء الهوى   وكذلك الإحياء للغزالى(٣)

ويدعو الشاب الظريف للعيون بأن يعز الله أنصارها ويخلد ملكها ، ويضاعف بفتورها اقتدارها . يقول :

أعز الله أنصار العيون   وخلد ملك هاتيك الجفون
وضاعف بالفتور لها اقتدارا   وإن تك أضعفت عقلى ودينى(٤)

فى الدمع :

ومن لوازم المحبين ، وجد مقيم وعذاب أليم . وشوق وحنين ، وبكاء وأنين ، وزفرات حارة حامية ، ودموع واكفة جارية . وهذه الدموع من أعذب ما تفيض به الطبيعة وتسيل به محاسنها ، تخفيفاً للوعة ، أو تنفيساً لكربة ، أو عونا على هم ناصب ، أو جلبا لعطف حبيب ، أو استشفاعا لبلوغ أمل ، أو اعتذارا عن

(١ ، ٢) تأهيل الغريب باب استعارات السنات للحظ .

(٣ ، ٤) المصدر السابق .

ذنب . فهى فطرة من فطر الإنسان طبع عليها ولازمته ، واتصلت اتصالا وثيقا بمشاعره وعواطفه ، بل هى الناطق عنها والمعبر بلسانها ، والبرهان على صدقها . وقد افتن الشعراء فى وصف هذه الدموع الجارية . ومنهم شعراء العصر المملوكى ، وذلك فى سياق أغراضهم الشعرية .

وقد قال صلاح الدين الصفدى فى مقدمة كتابه « تشنيف السمع بانسكاب الدمع » ماملخصه :

« رأيت الشعراء قد أطنبوا فى ذكر الدمع . وبالغوا فى وصفه ضمن الرثاء والتشبيب . وتفننوا وسلكوا فى تشبيهه طرقا متشعبة ، واستعملوا فيها ضروبا مختلفة . لأنه فاضح سرهم ، وكاشف أمرهم ، لمن يحاولون كتمانه عنهم من ذوى قرابة المحبوب والرقباء ، ويجعلون الذنب فى إفشاء السر المكتتم له . ومنهم من ذكره بغير مبالغة ، ومنهم من أخرجه عن دائرة المعهود ، فجعلوه متصل الجرى دائم الهمول ، من غير فترة فى وقت دون وقت . ومنهم من ادعى أنه مثل المطر ، حتى سقوا به الديار ، ورووا به الأطلال الدارسة المقفرة . ومنهم من تجاوز به فشبهه بالأنهار الجارية ، والغدران الطافية ، والسيول المنحدرة من أعالى الربا إلى بطون الوهاد . وغلا بعضهم ، فوجده فى البحار وشبهه بالطوفان . ومنهم من بدل الدم به ، وشبهه بالعقيق وبالمرجان وبالياقوت . وجرح به الأجفان وقرح المآقى ، وأذهب العين . أوجمده فلم يذب . واستنصروا به على الوجد والحزن . واستعانوا به على الهجر والصد ، واستشهدوا به على العشق والسهد . أو استنجدوا به الإخوان والأصفياء ، أو استرحموا به العذال والحساد والرقباء . إلى غير ذلك »[1] .

وقد فتح شعراء العصر المملوكى ، عيونهم على الدمع فلم يغفلوه ، واستسقوه فلم يبخل عليهم . فجاد خاطرهم بكثير من الأبيات وصفاله وتصويرا .

---

(١) مقدمة تشنيف السمع للصفدى ط مطبعة الموسوعات عام ١٣٢١ هـ

وهذا شهاب الدين محمود الحلبي يطلب إلى صديقيه اللذين فقدهما ألا يلوماه إذا أجرت حرقته ماء عينيه نهرا :

لا تلوماني إذا أجرت لظى حرقتي من ماء عيني نهرا
فالذي قد راعني من فقدكم يقتضي أكثر مما قد جرى[1]

وينم قلبه إلى طرفه بما كتم أحبابه ، فجرى بدمعه خلفهم يقول :

سخوا بروحي وشحوا بالوداع على عيني فما زودوها منهم نظرا
ونم قلبي إلى طرفي بما كتموا عنهم فسار على آثارهم وجرى[2]

وتفيض عيون الشهاب محمود بدموع الفرح ، وقد لاح له نور القرب ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من ديار الأحبة . وفي ذلك يقول في جزالة :

غنى بذكر الحمى فارتاح كل شج وخاض بالدمع حادي الركب في لجج
حتى إذا لاح نور القرب وابتسمت تلك الثنيات عن وجه الحمى البهج
فأي ماء دموع لم ترق فرحا وأي نار ضلوع ثم لم تلج
وكم لسان فصيح كل من دهش فصاح نحو لسان المدمع اللهج[3]

ويرى أبو الحسين الجزار ، أن الجفون مواطن الكرى ، فإذا نأى عنها بكته ، وهذا من العجب ، ويرى أن طرف المحب فم ، وأن دمعه لسان عنه يذيع خبر الجوى عن المحب إن صمت لسانه ، يقول :

طرف المحب فم يذاع به الجوى والدمع إن صمت اللسان لسان
تبكي الجفون على الكرى فاعجب لمن تبكي عليه إذا نأى الأوطان[4]

ويحيل سراج الدين الوراق دموع محاجره دماء . ليبكي بها ليالي حاجر . حيث أحبته وذكرياته ويتجاوب بأرقه مع ورقاء هيجته . فقال :

---

(١) تأهيل الغريب باب وصف الدمع .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) تشنيف السمع ص ٤٧ .
(٤) تشنيف السمع ص ٥٠ .

دع مقلتى للدمع والأرق الذى　　كم هيجته حمامـــة ورقاء
أبكى ليالى حاجر بمحاجر　　بســوى العقيق دموعهن دماء (١)

ويقف مجير الدين بن تميم دمعه على محبوبه النائى ، فيقول موريا :

لما لبست لبعده ثوب الضنى　　وغدوت من ثوب اصطبارى عاريا
أجريت واقف أدمعى من بعده　　وجعلته وقفا عليـــه جاريا (٢)

ولمحيي الدين بن عبد الظاهر ، وقد جمع بين دمع العين ودم القلب ، مع تورية .
قال :

ياسيدى إن جرى من مدمعى ودمى　　للعين والقلب مسفوح ومسفوك
لا تخش من قود يقتص منك به　　فالعين جارية والقلب مملوك (٣)

وشبه صلاح الدين الصفدى ، الدموع بالغوادى . وورى بما صنعته على الخد ، فقال :

إن عينى مذ غاب شخصك عنها　　يأمر السهد فى كراها وينهى
بدموع قد أشبهتهـــا الغوادى　　لا تسل ما جرى على الخد منها (٤)

وافتن صلاح الدين الصفدى كذلك ، وتصرف فى المعنى . ورفع لمعشوقه قصة حاله مكتوبة بدموع عينه ، فقال :

رفعت له فى شرح حالى قصة　　وقد كتبت عينى على طرسها سطرا
وأوصى بجسمى أن تعفى رسومه　　فقلت له : دمعى ، فوقع أن يجرى (٥)

وجعل ابن نباتة دمعه سائلا ومجيبا فى آن واحد ، فقال موريا .

إذا سألونى عن هوى قد كتمته　　سكت أراعى واشيا ورقيبا

---

(١) تشنيف السمع ص ٦٥ .　　(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) تأهيل الغريب باب وصف الدمع .

وجاوب عنى سائل من مدامعى   فلله دمعى ســـائلا ومجيبا (١)

وجمع ابن نباتة أيضا بين دمعه وخد معشوقته فجمع بين غدير وروضة ، فقال :

أسرت إلى سمعى غداة ترحلت   حديثا إلى حفظ العهود يشير
وهيج عندى قرب خدى لخدها   بكا فتلاقى روضــــة وغدير (٢)

قال ابن حجة إن ابن نباتة أخذه من قول خالد الكاتب :

لئن كان أضحى فوق خديك روضة   فإن على خدى غديرا من الدمع (٣)

ولكننا نرى أن ابن نباتة فرق بين الخدين ، ولاقى بين الروضة والغدير ، بينما فرق بينهما خالد الكاتب .

واستبق الشهاب محمود الحلبي الروضة لجمال أحبابه ، وحول الغدير أنهارا . فقال :

أحبابنا إن نأت عنى دياركم   بعدا وفارقت أوطانا وأطارا
فإن لى نصب عينى من جمالكم   روضا نضيرا ومن عينى أنهارا(٤)

ويقف أبو الحسين الجزار المصرى ، فى وقت السحر يوم الرحيل ، يودع أحبابه الذين سحروا قلبه وطاروا بفؤاده ، ولهج القلب لحزك الطرف ، فآبت جفونه مؤتمرة بأمر القلب ، لتعينه على ماهو بصدده من هم وحزن ووله . .

وهو موقف نفسى يتكرر للشاعر ، فتكرر معه همومه وأحزانه ، وتفيض له المآقى بعبراتها ، والجفون بدموعها .

يقول الشاعر :

أستودع الله من ودعتهم سحرا   يوم الرحيل وهم للقلب قد سحروا

(١ ، ٢) المصدر نفسه وديوان ابن نباتة :   (٣ ، ٤) تأهيل الغريب باب وصف الدمع .

وقال قلبي لطرفي عنـــد فرقتهم ماذا لدمعك فيـــه اليوم تنتظر
هنـاك آبت جفوني وهي مسرعة إن الجفون بأمر القلب تأتمر[1]

وتملأ الحيرة فؤاد الشهاب الحلبي ، وهو يودع أحبابه . ويهوله الموقف وقد آذنوه ببين . يودعهم وعينه تتملأ برؤيتهم قبل الرحيل . فتمتلىء بعبراتها ألما له ، فلا يدري أعبرات الفرح بهذا القرب الحالى ، أم دموع الحزن لهذا البين المنتظر . قال :

قالوا الرحيل وما تملت باللقا عيني ولا امتلأت بغير مدامعي
حيران لا أدري لقرب أنني أذرى المدامع أو لبين رائع[2]

ويعقد صلاح الدين الصفدي مسابقة في الجري غريبة ، بين قلبه وأدمعه ، فلقد وقف لوداع حبيبه ، فعجل قلبه فسار في ركبه قدامه . وعجلت أدمعه فجرت خلفه فلم تلحقه . ومطابقته في البيتين التاليين هينة لطيفة طبيعية . قال :

لما اعتنقنا لوداع الهـــوى وكدت من جمر الجوى أحرقه
رأيت قلبي سـار قـــدامه وأدمعي تجري فمـــا تلحقه[3]

وقد هدأ لفظ « كدت » من نتيجة « أحرقه » . .

ويقع الصفدي بين الرغبة في البكاء ليهدىء من تلظى قلبه ، ويستعين بدمعه على آلام سهده ، وبين الرغبة في الكتمان مخافة أن تفضحه عيونه أمام الرقباء . فيحار دمعه في جفنه ولا يدري هو كيف يصرفه ، أيمنعه أو يجريه . . . يقول متعجباً .

قد حار دمعي في جفني مخافة أن يدري الرقيب بأن الجفن يدريه
يا للرجال لأمر قـــد بليت به على سهادي وقلـــبي في تلظيه

---

(١) تشنيف السمع ص ٢ . (٢ ، ٣) تشنيف السمع ص ٣ .

حتى ولا دمع عيني لم أجد فرجا منه ولم أتصرف بالبكا فيه[١]

ويحيل السراج الوراق أدمعه جمانا وعقيقا . فى أبيات عاطفية تصويرية جيدة، يقول فيها :

لست أنسى ساعة البين وقد وجم الشائق منا والمشوق
ورجوعى بدموعى عاثرا لست أدرى بعدهم أين الطريق
وعلى الأكوار منهم قمر ليس للأقمار إن لاح شروق
كلما أم العقيق امتزجت أدمعى فهى جمان وعقيق[٢]

وجعل الصاحب زين الدين ، والسراج الوراق ، الدمع بينهما حديثا جرى ، على إثر حديث نسيمات الصبا لهما عن أحبابهما .

يقول الصاحب زين الدين للوراق :

أهدى له البرق من أحبابه خبرا فبات ناظره يستعذب السهرا
وحدثته نسيمات الصبا سحرا فلا تسل عن حديث الدمع كيف جرى

فأجاب الوراق ، وزاد ، بهذه الأبيات :

جاءت مخبرة عنهم معطرة منهم وطيب شذاها أوضح الخبرا
هيهات أن يجمع المشتاق منذ نأوا جنبا لمهد ولا جفنا لطيب كرى
يا منزلا بالحمى حييت من وطن كم بلغتنى أيامى به وطرا
فجادك الغيث إنى يوم بينهم أفنيت دمعى وقد أوصى به الخبرا[٣]

ويطارح السراج الوراق حمامة أذابت فؤاده بتغنيها وشكواها وأنينها . وما تغنت إلا بشكواه هو ، وما صدحت إلا بأنينه . وكلاهما يبكى هواه وشجوه . ويفضلها هو بعبرته الفائضة المستمرة .. قال :

ألا قاتل الله الحمامة إنها أذابت فؤاد الصب لما تغنت

---

(١) تشنيف السمع ص ٤٥ . (٢) المصدر نفسه ص ٦٧ . (٣) المصدر نفسه ص ٨٠ .

أطارحها شكوى الغرام وبثه ... فما صدحت إلا أجبت بأنتى
كلانا بكى شوقا ومعتبر الهوى ... يفضلنى عنها بفائض عبرتى
وإن قيل لا يبلى على الدهر طوقها ... كذلك لا تبلى عهود أحبتى[1]

في العذار .

وافتن الشعراء فى وصف العذار ، وتأثروا بمن سبقهم من الفحول وتصرفوا فى المعانى والصور ما شاء لهم الفن والإبداع . وأطالوا فى ذلك وأسهبوا ما طاوعهم النفس الشعرى . وراج هذا الفن لديهم برواج الرقيق واستخدام المماليك الغلمان فى المنزل وغير المنزل . .

وافتتنوا بالعذار واستشعروا فيه ألوانا من الجمال ، جذبت إليه العيون والنفوس . وأجادوا فى تشبيهه ، وتناولوه بالحديث فى غزلهم بالمذكر ، بل ربما كان أحد أسباب توسعهم وإطالتهم فى هذا الضرب من الغزل .

لقد شبهوه بالليل المظلم ، وقالوا عنه إنه من الجفون ، ودبيب النمل ، وأوائل الريحان فى أواخر الورد . وإنه نبت الخد ترعاه العين . وإنه الآس وإنه البنفسج واعتبروه زردا للخد وحارسا يحميه من القبل . ورأوا فى حركته دورا وتسلسلا . ووجدوه قد دار حول الخد كاللام ... إلى غير ذلك من التصورات البديعة التى تبرزها التأملات النفسية العاطفية . فتبدو ترجمانا عنها ولسانا لها ..

ويعتبر ابن حجة الحموى هذين البيتين التاليين ، من المخترع المبتكر فى معناه وتصوره ، وهما لصدر الدين بن الوكيل قال :

إذا قلت ثغرك صن باللثام ... يقول سيحميه صارم جفنى
وإن قلت قد صار فى قتله ... كليلا يقول عذارى مسنى[2]

---

(١) تشنيف السمع ص ٨٤ .

(٢) تأهيل الغريب فصل العذار .

وأنبت مجير الدين بن تميم هذا العذار نباتا حسنا ، وكفله . . . إذ قال مع التورية :

قالوا بدا نبت خديه خذ بدلا عنه فقلت لهم حاشاه حاشاه
إن لاح فى خده نبت فلا عجب الله أنبته والعين ترعاه(١)

وقال أيضا وقد بدا لعينه العذار الأشقر :

شبهت خدك يا حبيبى عندما أبدى الجمال به عذارا أشقرا
تفاحة حمراء قد كتبوا بها خطا دقيقا بالنضار مشعرا(٢)

وفى وصفه سيما الترف والحضارة . .

والسراج الوراق يشبه العذار بالزرد للخد ، يحميه من لحاظ العين أو القبلة ، يقول :

وفاتك يخرج سيف لحظه مجردا من جفنه ومغمدا
خاف على خديه من لحاظه فبات فى عذاره مزردا(٣)

ومن طرائف الشاب الظريف قوله فى العذار مع التورية فى الدور والتسلسل :

لحاظك أسياف ذكور فما لها كما زعموا مثل الأرامل تغزل
وما بال برهان العذار مسلما ويلزمه دور وفيه تسلسل(٤)

وقال أيضا – ويعده ابن حجة من المخترع – مع التورية فى « باقل » :

أيسعدنى يا طلعة البدر طالع ومن شقوتى خط بخدك نازل
ولو أن قسا واصف منك وجنة لأعجزه نبت بها وهو باقل(٥)

وأبدع صلاح الدين الصفدى فى وصف العذار والصدغ فقال :

أقول له ما كان خدك هكذا ولا الصدغ حتى سال فى الشفق الدجى
فمن أين هذا الحسن والظرف قال لى تفتح وردى والعذار تخرجا(٦)

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) تأهيل الغريب — فصل العذار .

وأجاد ابن نباتة وصف العذار مع التورية والتضمين . وقد أخرج عبارته المضمنة عن طريقها فى المدح إلى طريقه فى الغزل . فأضاف فنا إلى فن وقال :

وضعت سلاح الصبر عنه فما له يقاتل بالألحاظ من لا يقاتله
وسال عـــذار فوق خديه جائر على مهجتى فليتق الله سائله[١]

وجمع ابن نباتة بين الصدغ والخد والعذار ، فجمع بين المرعى والماء والظل ، فى قوله :

بأبى من إذا تثنى دلالا أطرقت فى رياضها القضب خجلى
مد صدغا على عذار وخـــد فرأينـــا مرعى وماء وظلا[٢]

وتلطف ابن حجة الحموى فى وصف مرور العارض ، فقال :

يقول عارض حبى حين مر على روض الخدود كمر الطيف فى الوسن
أصبحت ألطف من مر النسيم سرى على الرياض نسيم الوهم يؤلمنى[٣]

وفخر الدين بن مكانس يفقد صبره وتكل سيوفه ، حين بدا آس العوارض . فيقول لمن يلومه موريا :

يالائمى إن فقدت الصبر فى قمر أصداغه سلبت أهل الهوى وسبت
كلت سيوف اصطبارى عنه حين بدا آس العوارض فى وجناته ونبت[٤]

ويستدل سراج الدين الوراق على أن معشوقه غصن آس ، باخضرار عارضيه ، فيقول :

وأهيف لم يزل للبـــان متهما وللأراك بقد منه ميـــاس
حتى إذا اخضر فى خديه عارضه ما ارتبت فى أنه غصن من الآس[٥]

———

(١) تأهيل الغريب ــ فصل العذار .

(٢،٣) خلع العذار فى وصف العذار لشهاب الدين عبد الوهاب الحنفى المصرى مخطوط بمكتبة بلدية المنصورة .

(٤،٥) خلع العذار فى وصف العذار .

في الخال :

وعلى الخد الوسيم يقف الخال الكريم . ! فيضفى بسواده على احمرار الخد جمالا وحسنا . وينقطه فتشرق بهجته ، وتتفتح وسامته ، ويزيد طبيعة الجمال جمالا ، وموضع الحسن حسنا .

وتلاعب الشعراء بألفاظ الخال والحسنة والشامة ونحوها . وتولدت لهم من ذلك معان كثيرة ، وصور عدة ، مع التوريات اللطيفة الممتعة . وقد تغزلوا فى خد الحبيب وخاله . ووصفوا اجتماعهما وسرح خيالهم فى ذلك مسرحا واسعا ، فسحه لهم هذا الجمال الطبيعى المحبوب ، الذى غمر عصرهم .

وهذا ابن نباتة يذكر هذه الحسنات ، ويغفر من أجلها السيئات ! فيقول :

إن أســـاء الحبيب قامت بعذر   وجنة منه فوقهـــا شامات
يالهـــا وجنة أقابل منهـا   حسنات تمحى بهـــا السيئات(١)

وابن نباتة يأبى إلا أن يورث الخال ! ولكن أى خال وأى ميراث؟ يقول :

لله خال على خـــد الحبيب له   فى العاشقين كما شاء الهوى عبث
أورثته حبـة القلب القتيـل به   وكان عهدى أن الخال لا يرث(٢)

وبرهان الدين القيراطى يورى بكلمة « الخال » ويحشد له الحسن كله . ويقول :

بروحى أفـدى خاله فوق خده   ومن أنا فى الدنيا فأفديه بالمـال
تبارك من أخلى من الشعر خده   وأسكن كل الحسن فى ذلك الخال(٣)

ويأبى تقى الدين السروجى إلا أن « يمسك » الخال ، وأن يعجمه ، وذلك بقوله فى توررياته :

فى الجانب الأيمن من خدها   نقطة مسك أشتهى شمهـا

(١، ٢، ٣) تأهيل الغريب ، فصل الخال .

حسبته لمــا بدا خالهــا وجدته من حسنه عمهــا(١)

ويمزج عز الدين الموصلي بين الخال والعم كذلك . ويقول :

لحظت من وجنتهــا شامة فابتسمت تعجب من حالى
قالت قفوا واستمعوا ما جرى قد هام عمى الشيخ فى خالى(٢)

ويقيم ابن العفيف من الخال حارسا لخضرة العارض ، ثم يعاتبه على قيامه بهذه الحراسة ، ويقول :

يا خاله خضرة بعارضـه حرستهــا عن متيم مغرى
كف عن العاشقين مقتصرا هل أنت إلا حويرس الخضرا (٣)

ويصور علاء الدين الوداعى من مسك الخال ورحيق الثغر ، جنة لاريب فيها ، ويقول :

انظر إلى الجنة فى ثغره لاريب فى ذاك ولاشـك
أما ترى فيهــا الرحيق الذى ختامه من خاله مسك (٤)

ومجير الدين بن تميم يروعه عدد من الخال ، قد بدا فى خلال العذار ، فقال مشبها :

ومهفهف خيلانه وعـذاره قد جاوزا حد الجمال فأفرطا
فـكأنما كتب العذار بخده سطرا بحبات القلوب منقطا (٥)

وجمع ابن نباتة بين الخال والثغر واللمى ، وعقد بهذا الجمع تشبيها طريفا ، وأطلق فيه بلالا بين الصبح والسحر . قال :

عرج على حرم المحبوب منتصبا لقبلة الحسن واعذرنى على سهرى
وانظر إلى الخال فوق الثغر دون لمى تجد بلالا يراعى الصبح فى السحر (٦)

(١،٢،٣،٤،٥،٦) تأهيل الغريب ، فصل الخال .

مواضع أخرى :

ومواضع الجمال والحسن الإنسانى كثيرة ، عداما تناولناه بالحديث . ومنها : الخصر والردف والقد ، والثغر والشفاه والعطف والخد والهدب والأجفان ، والحاجب والأسنان والسوالف والشعور . وثمار الكواعب فى الصدور ... حتى الشيب الباكر والشباب الطائر . . . إلى غير ذلك .

اتجه الشعراء بنفوسهم وخواطرهم إلى هذه المواضع ، وكان لهم فيها رجع بعيد وأثر جديد . لقد مدوا إليها العين واللسان ، لكى يزودوا منها ، ويحسنوا فى وصفها البيان . ومزجوا هذا الوصف مزجا مشهيا بأغزالهم البديعة .

ويطول المقام إذا ذهبنا نفصل القول فى كل منها ، فلنجتزىء من ذلك بالأبيات الآتية فى وصف بعضها :

ويعتبر ابن نباتة المصرى فى مقدمة الغزلين جنانا ولسانا . وقد تغزل فى صدر إحدى مدائحه فى « رشأ » فوصف المقلة والسوالف والأعطاف والقامة ، وأفصح عن بعض آثارها فى النفوس والقلوب .

فالمقلة الكحلاء علمة الجنون بالسوداء . ودبيب النمل فى السوالف أثار خواطر الشعراء . وضيق العين ينبىء عن بخل يعنى : وهذه الأعطاف يشتهى منها اللقاء . وتثنى القامة اللدنة كعطو الظبية الدرماء . . . إلخ .

يقول الشاعر موريا :

قام يرنو بمقلة كحلاء علمتنى الجنون بالسوداء
رشأدب فى سوالفه النمل فهامت خواطر الشعراء
روض حسن غنى لنافوقه الحلى فأهلا بالروضة الغناء

ومنها :

ضيق العين إن رنا واستمحنا وعناء تسمح البخلاء

ليت أعطافه ولو فى منام وعدت باستراقة للقاء
يتثنى كقامة الغصن اللد ن ويعطو كالظبية الأدماء
ياشبيه الغصون رفقا بصب نائح فى الهوى مع الورقاء (١)

ومن قصيدة أخرى يذكر ابن نباتة صولة الحسن من غزال جميل ، فاتر اللحاظ ، يسل أسياف عينه ، ويهز قناة قده ، ويثور ورد خده ، فيحلو لمحبه أن يفديه بأبيه ، وإن هدد بالبعاد وعاقب بالسهاد . . . إلخ .

يقول الشاعر :

بأبى فاتر اللحاظ غرير رام تشبيهه الغزال ففاته
صائل الحسن إن رنا وتثنى سل أسيافه وهز قناته
لعيون الورى بخديه ورد طالما عاقب السهاد جناته (٢)

وقد جمع هذا الشاعر المبدع فى إحدى قصائده ، مجموعة من هذه المحاسن والمفاتن . وما منها إلا وله فى النفس مكانه ، ومن الوصف بيانه فاللحظ مهند يسطو . والقد تروى عنه صحاح العوالى ، والردف والعطف يشجيان بالقعود والقيام . وثغره خاتم عقيق يغرى باللثم . . إلخ .

يقول الشاعر :

غزال يناجينى بلفظ معرب ولكنه يسطو بلحظ مهند
وقد روت عن لينه واعتداله صحاح العوالى مسندا بعد مسند
إذا قعدت أردافه قام عطفه فيا طول شجوى من مقيم ومقعد
كلفت به من قبل ما طال قده فطوله فرط العناق المردد
وعاينت من فيه العقيق خاتما فصغت له باللثم فص زبرجد
وحدثنى من ثغره ورضابه عن الجوهرى المنتقى والمبرد
وكنت حذرت الخود حين تمردت فأوقعنى طرفى لأمرد أمرد

---

(١) ديوان ابن نباتة حرف الهمزة . (٢) ديوان ابن نباتة حرف التاء .

يخيل لى أنى له لست عاشقا لأن ليس لى فى حبه من مفند
ولولا الهوى ما بت بالدمع غارقا عليه وأشكو للورى غلة الصدى
وألثم عطفيه وجفنيه بعد ما قتلت برمح منهما ومهند ... إلخ[1]

ويذهب الشاعر الغزل العذب ، فخر الدين بن مكانس ، هذا المذهب ، فى صدر إحدى قصائده ، فيجمع فى أبياته بين مواضع عدة من مواضع الحسن الأخاذة ، ومواطن الجمال المثيرة ، كالمراشف اللعساء والخدود النارية واللحاظ الفاتكة الساحرة ، والأجفان السقيمة ، وسهامها المفوقة ، والضفائر المرسلة الجعدة الخ .
يقول الشاعر فى رقة وجزالة :

شفنى ألعس المراشف ألمى بخدود من نارها يعصر الما
لاتقل زينب وهند وسعدى وسعاد فإنما هى أسما
إن حمت ثغرها بجاه لحاظ ففؤادى بجاه وجدى أحمى
بالحاظا بسحرها فتنتنا وأرتنا من صحة الجفن سقما
لم أمست جفونها ناظرات مقلتى والحديد ما زال أعمى
وسهاما إن فوقت عن قسى لم تدع فى الفؤاد للصبر سهما
إن بدت خلفها الضفائر تسعى حية زد هوى ولا تخش وهما
كم تذللت للرسول وكم قلـ ـت له يارسول من يرحمى
رح إليها واستطلع السر منها فى دجى الليل إن فى الكتم حزما.. الخ[2]

وعلى نمط من فخر الدين بن مكانس ، ترى غزل البرهان القيراطى ، الذى سحرت نفسه بالعيون القاتلة للآساد فى غاباتها ، وبالأجفان السود التى تفتك ألحاظها فتك السيوف ، مع أنها وسنانة ، وبالمعاطف التى فضحت بتثنيها الغصون . .

---

(١) ديوان ابن نباتة حرف الدال .

(٢) ديوان فخر الدين بن مكانس ورقة ٧ — مخطوط بدار الكتب المصرية — أدب ٨٢ م .

يقول الشاعر :

أما عيونك فهى من عاداتها ... أن تقتل الآساد فى غاباتها
أجفانها السود التى ألحاظها ... تحكى فعال البيض فى فتكاتها
وسنانة هجرت جفون محبها ... لنعاسها فى الحب وصل سباتها
ومهفهف من صده ووصاله ... يلقى النفوس بموتها وحياتها
فضحت معاطفه الغصون لأنه ... حركاته تغنيك عن حركاتها .(١)

والشيب أحد مظاهر الطبيعة البشرية . يأتى بعد شباب نضر ملىء بالقوة والأمل والمغامرة العذبة . وتصاحب الشيب عادة ملامح الضعف واليأس والألم . ولهذا ندر أن مدحه أحد أو أثنى عليه . وأكثر الشعراء من ذمه وإظهار الأسف لقدومه ، وتذكروا الشباب وعهده السمح الجميل ، ولياليه العذاب .

ووصفوا الشيب بالنهار ، والشباب بالليل ، واعتبروه فى الرأس اشتعالا ، واعتبروه يقظة من حلم الشباب ، وممطرا للدمع ، وثوبا من أثواب التقى . ورأوه قذى أمام الحبيب ، وآية لهب فى الرأس ، وتبسما وضحكا على ذقن الفتى ... الخ .

ويقول صلاح الدين الصفدى :

ياساحبا ذيل الصبا فى الهوى ... أبليته فى الغى وهو القشيب
فاسبل بدمع العين ثوب التقى ... ونقه من بعد عصر المشيب(٢)

ويقول برهان الدين القيراطى :

عيرتنى المشيب وهو وقار ... ليس فى الشيب يا أمامة عار
لم تخافى شبيبتى وهى ليل ... كيف خفت المشيب وهو نهار(٣)

(١) ديوان القيراطى ـ مخطوط بالمكتبة الأزهرية ـ ورقة رقم ٨٩ .
(٢) تأهيل الغريب ـ باب إنذار المشيب .
(٣) ديوان القيراطى ورقة رقم ٢٨ .

وأبدع جمال الدين بن نباتة فى وصفه . فقال فى إحدى نبوياية يصفه ويصور ماخلفه ظهوره فى نفسه من حسرة :

سقى الله أكناف الغضى سائل الحيا ... وإن كنت أسقى أدمعا تتحدر
وعيشا نضا عنه الزمان بياضه ... وخلفه فى الرأس يزهو ويزهر
وكان الصبا ليلا وكنت كحالم ... فيا أسفا والشيب كالصبح يسفر
يعللنى تحت العمامة كتمه ... فيعتاد قلبى حسرة حين يحسر
وينكرنى ليلى وما خلت أنه ... إذا وضع المرء العمامة ينكر
إذا حل مبيض المشيب بعارض ... فما هو إلا للمدامع ممطر(١)

ى - تسجيل الحوادث والعادات :

إن اتجاه الشعراء إلى تسجيل الحوادث التى تمر بالبلاد ، هو إحساس اجتماعى كريم ، يدل على يقظة نفسية قوية تربطهم بالبيئة التى يعيشون فيها . وتدل على مشاعرهم بشأن هذه البيئة ، وبأن ما يجرى عليها من حوادث ومايقع فيها من وقائع ، إنما هم فيه معها شركاء . وبخاصة حوادثها العامة ، وما يتصل منها بصميم الحياة ووسائلها ومظاهرها ، وما يمس العمر والرزق من بينها .

ونعتقد أن هذا الاتجاه يعتبر فى جملة مميزات الشعر فى هذا العصر ، ومما يضفى على شعرائه تقديراً هم أهل له . ولا يقلل من أهمية هذا الاتجاه أننا سنرى فيما نعرضه ، شعراً ركيكا أو غثا . إن هذا لا يطعن فى شعور الناظم ولا يغض من تقديره .

لقد شارك كثير من الشعراء فى وصف حوادث الزلازل والسنين التى عمت فيها الأوبئة ونزلت الطواعين . ووقفوا عند مواسم الغرق والجفاف ، ومشاهد

(٤) ديوان ابن نباتة ،حرف الراء .

الجدب والقحط . وارتفاع أسعار القوت واشتداد الغلاء . مما له رجع بعيد المدى فى حياة الناس وقلق نفوسهم جميعاً وارتفاع عقائرهم بالشكوى ، واضطراب موازين الأخلاق ، وغير ذلك من مضاعفات تتوالد فى مثل هذه الفواجع . كما شاركوا فى رثاء الموتى من أعلام البلاد .

ولم يقصروا أيضاً فى تناول الحوادث المقابلة ، أعنى التى تشيع فيها البهجة وتعم آيات السرور .

على أن فى مقدمة ما يعنينا فى هذا المقام، استجابة الشعراء لمقتضيات البيئة فى هذا المجال ، وتسجيلهم صوراً من مظاهر المجتمع فيه . وإن خلطوا الوصف والتسجيل بالفكاهة والسخرية أو غيرهما .

وفى عام ٦٩٥ هـ شح النيل وأجدبت الأرض ، وصار الناس يتساقطون موتى حتى خلت منهم شوارع وأزقة. فقال إبراهيم المعمار :

يا طالبـــا للموت قم واغتنم ... هـــذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهـــله ... ومات من لا عمـــره ماتا[1]

وفى عام ٧٦٢ هـ زاد النيل زيادة فادحة حتى أغرق نواحى البلاد . وبسبب ذلك انتشرت الأوبئة . فنظم الشاعر شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى قصيدة طريفة ، تحدث فيها عن أحوال الناس حينذاك ، ووصف أخلاقهم ومشاربهم وأقاويلهم . وترحم على من مات منهم ، وعلل وقال :

عم الوباء لأن الناس قد باءوا ... وزاد طغيانهم لما طغى المـــاء
باءوا بإثم وتاب الآن طائعهم ... وما لعـــاصيهم لام ولا باء
تالله ماراعهم من موت أكبرهم ... بمصر ميم ولا واو ولا تاء
ياواسع الجود رفقاً بالعباد فقد ... ضاقت بمصر من الأموات أحياء

---

(١) بدائع الزهور ج ١ حوادث عام ٦٩٥ هـ .

يارب إن الوبا حمت ركائبه وحل بالناس لما حم حماء
مستهم منه صفر الا مساس لها لو مسها حجر مسته ضراء
أمسى الطبيب مريضاً كالمريض بها حديث هذا وذا رمز وإيماء
تغير الريح فى مصر فساكنها إذا سرى نكبته منه نكباء
هذا على قول قوم لا عقول لهم فى زعمهم أنهم قوم أطباء
وقائل هذه سوداء محرقة ثارت بهم فى جميع الناس صفراء
وقائل إن ماء النيل حين علا وعم عم الورى من أجله داء
هيهات قل الذى يهذى بحكمته عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء .. إلخ(١)

وفى عام ٦٩٣ هـ بلغ ارتفاع النيل إلى خمسة عشر ذراعا وثلث . فغلت الأسعار وتضاعفت نتائج هذا الغلاء .

وقد انبرى الشاعر « شهاب الدين البزاغى » بقصيدة ميمية طويلة سجل فيها أنباء هـذا الغلاء ومضاعفاته ، من بكاء الناس وانتشار الموت وشمول الأسى والحزن ، فضلا عن موت الخيل وكساد الأسواق وقلة الأقوات ، إلى غير ذلك .

يقول الشاعر ، وإن كان شعره غير جيد النسج :

ولما غاض بحر النيل فاضت دموع من محاجرهم سجام
ومد به من الأموات سيل لنقص عبابه منه تمام
عروا مما عراهم فى شعاب الـ أسى وجرت مدامعهم فعاموا
قضى بعض على بعض من الحز ن واستولت على الموتى الهوام
فلا دار يقر بها قرار ولا سفر يجر له زمام
ولما أن نأت عنهم جميع البلاد بكتهم حتى الشآم
وماتت خيلهم حتى المواشى وأخلى السرج واجتنب اللجام

---

(٢) ديوان ابن أبى حجلة المغربى .

وباد الزارعون وخلفوا كل م ما زرعوا وفاتهم الصرام
وأرباب الصنائع قارنتهم نحوس للكساد بها لزام
وأسواق البضائع حل فيها وقوف للعقود به قيام . . إلخ(١)

ولا بأس من أن ننقل إليك ، ماسجله الجلال السيوطى فى كتابه « كوكب الروضة » بمناسبة توقف النيل عن الزيادة فى ميعادها ، عام ٧٠٩ هـ . وهو فى جملته تصوير لمشاعر الناس وعقائدهم إذ ذاك ، فى إحدى نواحى حياتهم .

قال السيوطى :

« قال الشهاب الحجازى : « وجدت فى رسالة فى وصف النيل :

« كتب الشيخ نور الدين على ، سبط الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض ، إلى القاضى معين الدين بن حشيش وهو يومئذ بالشام :

« المملوك ينهى أنه كان فى سنة ٧٠٩ هـ ، لما كان مولانا السلطان الملك الناصر بالكرك ، غضب النيل على أهل مصر ، لغضبه . ففعل بهم ما فعل وترك ماترك . ـ تذكر كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى نيل مصر ، عند توقفه فى زمانه . وهو كتاب مبارك تشرف النيل بعنوانه . وافتخر بخطاب ابن الخطاب له وقبله وقبله وجرى . ببركة أم المدائن والقرى . ولم يتقبل منهم بعد ذلك قربانا ولا قرى . فطاف المملوك بمغناه . ونظم فى معناه . وقال :

يأيها النيل المبارك إن تكن من عند ربك تجر فاجر بأمره
أو إن تكن من عند نفسك آتيا فالله يبسط بره فى بره
كم من بلاد لست تعرف أرضها ملأ الإله بيوتها من بره
ياذا الوفاء أراك جئت بلادنا والحر لم يشن الوفاء بغدره
إن كان رفدك لا يجىء تأدبا إلا بإذن مليكه فبعذره

---

(١) كوكب الروضة ص ١١٣

فإذا الصليبي اللعين بجهـله والكفر يركض فى جوانب صدره
مسرى سرى والنيل أصبح واقفا قد فاتنا تعليقـه فى شهره
فقضى النسىء وليس فيه زيادة إن النسىء زيادة فى كفره
أهـون به وبشهره ونسيئه وشهيد شبراه وطينة بثره
نحن الذين لنـا بجاه محمد عند الإله بحمده وبشكره
ما يرتجيـه غنينا بغنـائه وفقيرنا بالمـال زار بفقره
تدعو ونستسقى الغمام بوجهه فبذاك أخبر عمه فى شعره » .. الخ ،

وبعد أن أتم القصيدة — قال — أى الشاعر — :

« وكتب المملوك بهذه الأبيات العربية . وجعلها فى قصبة فارسية . وألقاها فى البحر عند المقياس . على ذلك المقياس . فتفجر الماء من منابعه . وأشار إلى الوفا بأصابعه . واستمرت الزيادة قبل الوفاء وبعده على العادة . حتى انتهى إلى حده . وجبر الله تعالى القلوب بكسر سده . وعمر الأرض ببركات عمر . وعمر آجال الأنهار وعمر . وأقبل أمين الماء يهلل ويلبى . ويقول : هذا رحمة من ربى . وانحط السعر الغالى . وتواضع قدره العالى . وذهب البأس واليأس وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس » .[1]

أما شمس الدين النواجى صاحب قصيدته الفائية الممتعة ، التى سجلناهـا فى فى المجلد السابع ، وسميناها « تسبيحة النواجى أو تغريدته » ، وهى التى هلل فيها وكبر بوفاء النيل عام ٨٥٥ هـ ، « فقد كان فى عام ٨٥٤ هـ سجل فى إحدى قصائده عدم بلوغ النيل حد الوفاء فى ميعاده ، إذهبط وشرقت الأراضى ووقع الجدب وانتشر الغلاء فارتفعت أصوات الناس بالشكاية .

---

(١) عن كوكب الروضـة ص ١١٩ ، والقصيدة والقصة فيـه برمتها — وفى الدر الفاخر للدوادارى ، نسب الأبيات للشهاب محمود الحلبى ، وقد أشرنا إلى ذلك فى المجلد السابع هامش ص ٣٧٩

والنواجي في قصيدته تلك يسجل حادث نقص النيل وشكوى الغلاء ، ويصور ماانتشر من الجدب ويحدث عن دموع الناس وفاقة الأغنياء بله الفقراء ، ويعجل إلى الله سبحانه مستغيثاً مستسقياً بجاه النبي عليه الصلاة والسلام .

يقول النواجي :

لرب العلا نشكو أذى القحط والغلا — وما مسنا فيه من الضر والبلا
ونسأله في البأس واليأس والرجا — رجا فقد متنا وعاجلنا البلى
غلا أرخص الأرواح لما تسعرت — بجور ضرام في صميم الحشا غلى
ودارت رحاء الجدب في كل بلدة — وما تركت للخصب في مصر منزلا
فلا بر يرجى منــه بر ببرة — ولا بحر ري طاب عذبا وسلسلا
ولا عين أرض قد بكت فتفجرت — علينا ولا دمع من الغيث أهملا
ولم يتخلق بالوفا نيــل مصرنا — ولا ذيل ستر بالهنا راح مسبلا
ومذ غاض مقياس المنى ضاق عيشنا — وأحل ربع الأنس والصبر ماحلا
به الأغنيا يشكون فقرا وفاقة — فكيف بمن أمسى معيلا ومعولا
حنانا حنانا يا مغيث الورى فقد — يئسنا وكل الخلق أصبح مبتلى
فما مملق إلا إلى بابك التجا — ولا معدم إلا عليك توكلا
وسقيا ورعيا للمواشي فقد بدت — كلاها وكل السير في طلب الحلى
وإن تاه قوم بالغلا وترفعوا — علينا ومالوا للقطيعة والقلى
فوالله لا نرجو سواك ولا نرى — علينا لهم فضلا بيوم ولا ولا
إليك توسلنا بجاه نبينا — فما خاب من أمسى به متوسلا [١]

ولا بن إياس الحنفي المؤرخ بيتان طريفان قالهما في الطاعون الجارف الذي

---

(١) كوكب الروضة ص ١٣٥

أصاب البلاد عام ٩٠٣ هـ . وقد مزج الشاعر فى بيتيه بين النقد والوصف والفكاهة . فقال :

قد قلت للطعن والمماليـ ـك جزتما الحد فى النكاية
ترفقا بالورى قليلا فى واحد منكما كفاية .

وفى وباء عام ٩١٠ هـ نظم الجلال السيوطى هذه الأبيات يشكو ويدعو ويصف وهى — وإن كانت ركيكة النسيج — صادرة من شعور صادق وقلب متأثر ، قال :

يارب بالهادى النبى المجتبى أغمد عن الإسلام أسياف الوبا
يارب لا نشكو أليم عذابه إلا إليك فقد أخاف وأرعبا
كم حل فى دار فبدد شمل من فيها فلا يجدون منه مهربا
يارب لطفا بالعباد فما لهم رب سواك يقيهم المستعصبا
إنا اعترفنا بالذنوب فكلنا عاص مسىء للعذاب استوجبا
لكن إذا قرنت عظيم ذنوبنا بعظيم عفوك كان عفوك أغلبا
إن كان لا يرجوك إلا محسن فى العالمين فمن يجير المذنبا . . الخ [١]

وانتشرت موجة غلاء فاحش فى عام ٨٥٣ هـ وارتفعت أسعار الخبز ، وضج الناس . فروى أن بعض الشعراء رثى الخبز هذا الرثاء الفكاهى الطريف ، فقال ، وهو غزل لطيف فى جماعات الرغيف . والجوع يثير ثائرة الفن . . .

قسما بلوح الخبز عند خروجه من فرنه وله الغداة فوار
ورغائف منه تروقك وهى فى سحب الثفال كأنها أقمار
من كل مصقول السوالف أحمر الـ خدين للشونيز فيه عذار

---

(١) بدائع ابن اياس ج ٤ حوادث عام ٩١٠ هـ

كالفضة البيضاء لكن يغدى ذهبا إذا قويت عليه النار
تلقى عليه فى الخوان جلالة لا تستطيع تحدها الأبصار
فكأن باطنه بكفك درهم وكأن ظاهر لونه دينار
ما كان أجهلنا بواجب حقه لو لم تبينه لنا الأسعار
إن دام هذا السعر فاعلم أنه لا حبة تبقى ولا معيار (١)

وفى عام ٧٦٢هـ سقطت إحدى منارات جامع السلطان حسن . وهى المنارة التى على الباب . فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس من الأيتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل، ومن غيرهم . فلهج الناس بأن ذلك ينذر بزوال دولة السلطان . فنظم الشيخ بهاء الدين السبكى فى ذلك ، هذه الأبيات الطريفة . وفيها يعلل لسقوط المنارة تعليلات أدبية ، منها أنه قرىء القرآن من تحتها فاستمعت إليه ومالت لخشيتها من الله . . ومنها أن سلطانها كان قد غاب عنها فاستوحشت فرمت بنفسها بسبب الجوى . . قال الشاعر يخاطب السلطان :

أبشر فسعدك ياسلطان مصر أتى بشيره بمقال سار كالمثل
إن المنارة لم تسقط لمنقصة لكن لسر خفى قد تبين لى
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت فالوجد فى الحال أداها إلى الميل
لو أنزل الله قرآنا على جبل تصدعت رأسه من شدة الوجل
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت من خشية الله لا للضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت فرمت بنفسها لجوى فى القلب مشتعل
فالحمد لله حظ العين زال بما قد كان قدره الرحمن فى الأزل
لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسة شيدت بنيانها للعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأت علما فليس بمصر غير مشتغل (٢)

---

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢ حوادث عام ٨٥٢ هـ .
(٢) حسن المحاضرة ج ٢ عند ذكر مدرسة السلطان حسن .

ومن لطيف ماسجله الشعر ، وسجله بأسلوب ناقد وعبارة ساخرة ، ماوقع لليهود والنصارى فى مصر والشام عام ٧٠٠هـ . فقد أمر السلطان أن يلبس اليهود العمائم الصفر ، والنصارى العمائم الزرق ، والسامرة العمائم الحمر . فسخر بهم علاء الدين الوداعي وقال :

لقد ألزموا الكفار شاشات ذلة تزيدهم من لعنة الله تشويشا
فقلت لهم ما ألبسوكم عمائما ولكنهم قد ألبسوكم براطيشا (١)

ولفظ « البراطيش » عامى ومعناه معروف إلى زماننا ، وهى الأحذية القديمة المتسعة غير المنتظمة المتهالكة لكثرة الاستعمال .

وقال شاعر آخر :

تعجبوا للنصارى واليهود معا والسامريين لما عمموا الخرقا
كأنما بات بالأصباغ منسهلا نسر السماء وأضحى فوقهم فرقا (٢)

وفضلا عن تسجيل هذه الصور ، ينم الشعر هنا عن لون من الشعور العام نحو هؤلاء وهؤلاء حينذاك .

وانظر إلى مارسمه السلطان للأشراف بالديار المصرية والشامية عام ٧٧٣هـ ، وهو أن يلبسوا عمائم بعلامة خضراء تميزا لهم عن الناس . ففعلوا ذلك فى مصر والشام فنظم فى هذه الحادثة جماعة من الشعراء . قال السيوطى : « مايطول ذكره » . ومنهم الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم الدمشقى . قال :

أطراف تيجان أتت من سندس خضر بأعلام على الأشراف
والأشرف السلطان خصصهم بها شرفا ليعرفهم من الأطراف (٣)

وتستطيع أن تقرن بين العاطفة فى هذين البيتين ، وبين العاطفة فى الأبيات السابقة ، وتستنبط ما تشاء .

(١ ، ٢) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر الحوادث الغريبة .
(٣) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر الحوادث الغريبة .

رثاء الأعلام :

وقد يعتبر من قبيل تسجيل الحوادث ، رثاء من يموت من أعلام البلاد فى العلم أو الأدب . ولعل العلاقات الشخصية ذات صلة بهذا الرثاء . أو لعلها الدافع إليه . ولكننا فى هذا المقام ننظر من زاوية خاصة ، وهى ما يتصل بالبلاد بعامة . فليس موت أحد أعلامها أمراً هيناً عليها ، ولا هو ككل حوادث الموت وليس الرثاء فيه ككل وقائع الرثاء . ولا ريب أن موت أعلامها يصحبه حزن شامل وجزع عام . ولا بد للشعراء من التعبير عن أنفسهم وأنفس الناس ، فى مثل هذه المناسبات . وهذا مظهر اجتماعى نبيل ، فيه تقدير ووفاء .

وحصيلة الشعر المملوكى فى هذا الباب وفيرة زاخرة . وفى المراثى ذرفوا الدموع ، واستبكوا الرياض والأزهار والأطيار . وذكروا الوحشة والغربة . وجاشوا بالزفرة ، وامتلئوا حزناً بغير صبر ، وجزعا بدون أناة . وخاطبوا القبر واستوصوه بالخير . واستمطروا الغيث واستنزلوا الرحمة واستظلموا الليل ودجاه ، وسخطوا على الحمام وما جناه . وتحسروا على البيوت وقد خوت ، وعجبوا من القبور وقد امتلأت . وتوقعوا الشر لما كان الفقيد يليه . وسجلوا المحامد . وتمنوا فداء الميت . إلى غير ذلك من مظاهر الحسرة والتفجع .

ولم يصلوا فى أغلب مراثيهم إلى مرحلة التعميم والشمول ، حيث تتجه النفس ويتنبه الخاطر إلى التقاط الحكمة وقيد المثل .

ومن المبرزين فى المراثى العامة : ابن نباتة والصفدى والقيراطى وابن الوردى ، وابن حجر العسقلانى ، وابن حجة الحموى والشهاب المنصورى ، والشهاب الحجازى ، والجلال السيوطى . وغيرهم كثيرون .

وروى أنه لما مات العالم الكبير تقى الدين السبكى عام ٧٥٦ هـ - وكان رأس الشافعية فى زمانه وأحد كبار أئمتهم - رثاه جمع من الشعراء ، منهم ابن نباتة والصفدى والقيراطى . وأطالوا .

ومما قاله ابن نباتة :

نعاه للفضل والعلياء والنسب ناعيه للأرض والأفلاك والشهب
ندب رأينا وجوب الندب حين مضى فأى حزن وقلب فيه لم يجب
نعم إلى الأرض ينعى والسماء على فقيدكم يا سراة المجد والحسب
بالعلم والعمل المبرور قد ملئت أرض بكم وسماء عن أب فأب . . إلخ(١)

ومما قاله صلاح الدين الصفدى :

أى طود من الشريعة مالا زعزعت ركنه المنون فمالا
أى ظل قد قلصته المنايا حين أعيا على الملوك انتقالا
أى بحر كم فاض بالعلم حتى كان منه بحر البسيطة آلا
أى حبر مضى وقد كان بحرا فاض للواردين عذبا زلالا . . إلخ(٢)

ومما قاله البرهان القيراطى :

أمسى ضريحك موطن الغفران ومحل وفد ملائك الرحمن
حيا المهيمن منك روحا قد علت حييت بذاك الروح والريحان
وتبوأت غرف الجنان وجوزيت فيها على الإحسان بالإحسان
وتلقيت بتحية وأتت لها تحف الجنان على يدى رضوان . إلخ(٣)

وشيخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، كان البعض يعتقد أنه العالم المبعوث على رأس المائة التاسعة . فلما مات رثاه الحافظ العلامة الأديب شهاب الدين بن حجر العسقلانى ، وضمن رثاءه رثاء الحافظ زين الدين العراقى . وعدة أبيات هذه

---

(١) ديوان ابن نباتة — وحسن المحاضرة ج ١ باب ذكر الأئمة المجتهدين — وطبقات الشافعية للتاج السبكى ، فى ترجمة تقى الدين السبكى .

(٣،٢) حسن المحاضرج ١ باب ذكر الأئمة المجتهدين — وطبقات السبكى ج ٦ فى ترجمة تقى الدين السبكى .

المرثية المزدوجة نحو ١١٧ بيتاً .(١)

ومراثى هذا العصر كثيرة وأوفر من أن تعد أو تحصى .

رثاء بركة الرطلى :

ولعل من المراثى التى ينبغى الاستطراد إليها ، لطرافتها وندرتها فى هذا العصر ، بل وربما لندرتها فى الأدب العربى كله . هذه المرثية التى نظمها الشاعر الأديب الزجال البارع بدر الدين الزيتونى ، ورثى بها حى « بركة الرطلى » . ونعتبرها ذات صلة وثيقة بموضوعنا الذى نتحدث عنه ، وهو العناية بتسجيل الحوادث العامة .

وقد كانت « بركة الرطلى » سوقا آهلة وحيا عامرا ومنزها مقصودا ومرتادا للهو مفضلا فى ذلك الزمان — وقد أشرنا إلى ذلك فيما مر من الحديث — وفى عام ٩٢٢ هـ خرج سلطان مصر الملك الأشرف قانصوه الغورى إلى قتال العثمانيين المغيرين على السلطنة ، حيث لقيهم فى « مرج دابق » . فكان ذلك آخر عهده بمصر ، وعهدها به .

وأناب السلطان عنه أثناء غيبته الأمير الدوادار « طومان باى » . فأمر الناس بعدم السكنى بجسر بركة الرطلى وبعض نواحيها ، خوفا على أسر المغتربين فى الحرب ، أن يقعوا فى الفتنة . ولم تجد عنده شفاعة الشفعاء . وبذلك أخذ عمار البركة يتناقص . ومن ثم أدركها الخراب وانطوى ما كان فيها من العمار ، وانقضت بها أسباب اللهو .

فنظم بدر الدين الزيتونى قصيدته هذه يرثى البركة ويذكر أيامها ولياليها ، وما كان فيها من لهو وسمر وسهر ، ولذة ومجون ومباذل . ثم ما أدركها فى حاضرها من خراب ودمار .

---

(١) المرثية بتمامها سجلها السيوطى فى حسن المحاضرة .

والقصيدة - وإن كانت ركيكة النسج ضعيفة العبارة - وثيقة تاريخية نادرة سجلها الأدب بخياله الشعرى وعاطفته الحارة . وطرق فيها مرائى ومشاهد يقل الظفر بها فى كتب التاريخ . وصور بذلك زاوية من زوايا المجتمع .

وقد بدأها الشاعر بوصف عواطفه نحو سلطان بلاده الأشرف الغورى الذى خرج لقتال أعداء البلاد ، قال :

سألت إله العرش ينعم بالنصر لسلطاننا الغورى فهـو أبو النصر
مليك عزيز أشـرف ومظفر مؤيد دين ظاهر كامل القدر
لغيبته أضحى على الكون وحشة فها بركة الرطلى مدمعها يجرى

ومنها ينوه بما كان يظفر به الخلعاء فيها من الوصل . ويذكر جميزتها التى طاب ظلها ، وساقيتها التى بكت على جسرها . قال :

لقد كان فيها للخليع تواصل لعمرك إن الوصل خير من الهجر
وكان بها جميزة طاب ظلها فناح عليها الطير والوحش فى القفر
على ما جرى للجسر ساقية بكت وصاحت بقلب صار فى غاية الكسر

وقد أصبحت دوحة الجسر تبكى بجامعه . والشامى يبكى على حكره ، وبيوته خالية لا يسكن مالكها ولا مؤجرها ، وخلت قصوره من أهلها يقول :

ودوحته تبكى بجامعـه دما وقد أصبح الشامى يبكى على الحكر
وأضحت بيوت الجسر خالية فلا لصاحبها سكنى ولا أحد يكرى
وقد أصبحت تلك القصور خواليا فيا وحشة السكان من كل ذى قصر

ويبكى الشاعر وينوح ويندب . ثم يصور لنا صوراً طريفة جداً من المناظر الشعبية اليومية المنتشرة فى الأسواق والأحياء الآهلة بجماهير الشعب . ونحن مضطرون إلى إثبات هذه الصور - بالرغم من ركاكة الشعر وضعف أبياته . لقد ذكر فيها القادسى وحلاوته ومشبكه ، وبائع الفاكهة وخوخه ورمانه ، والورود والأزهار ، وبائع الجبن ، وآكلى القطائف المحشوة . وذكر متعاطى الحشيشة والخمر وما كانا يصيبانه فيها من راحة وهناء . ورا كبى المراكب

والمغنين والمنشدين والمطربين وآلاتهم، إلى غير ذلك مما درست معاهده وناحت عليها الغربان والبوم . قال الشاعر :

على بركة الرطلى نوحوا وعددوا — لما حل فيها من نكال ومن خسر
فكان بها للقادسى حلاوة — مشبكها يشدو من المسك والعطر
وكان بها الفكاه يسعى بمركب — بخوخ ورمان يبشر بالبشر
وزهر ونسرين وآس ونوفر — لها بهجة المرء طيبة النشر
وكان بها الجبان يقلى بمركب — فيجمع بين النار والماء فى البحر
وكان بها الآكلين قطائف — بها عطش تسقى من الغيث بالقطر
لها رونق فى الصحن من فستق بها — وسكرها يروى حديث أبى ذر
وكان بها الحشاش يسرد بهجة — فمذ قطعوا لذاته صار فى فكر
وكان بها السكير فى غاية الهنا — يدير كئوس الراح فى ليلة البدر
وكان بها الراكبين مراكب — مستترة فيها وأخرى بلا ستر
وكم داخل فيها مغن ومنشد — بنغمة فم من خفيف ومن شعر
وكم آلة المطربين عهدتها — وجنك وأعواد تغرد كالقمرى
وقد درست تلك المعاهد كلها — وناحت بها الغربان والبوم فى الوكر. إلخ[1]

ونجتزىء بالأبيات السابقة عن بقية القصيدة . وحسبنا أن أوضحنا شيئا منها ومما صورته .

هذه البركة التى رثاها الزيتونى ، شهدت ليالى مرح وأيام فرح ، لا عدد لها . وقد أقام كاتب السر القاضى أبو بكر بن مزهر عام ٨٨٦ هـ احتفالا عظيما لختان أولاده - سبق التنويه به - وكان ذلك فى بركة الرطلى . قال ابن إياس إن بعض الشعراء نظم فى ذلك شعراً ، منه :

طابت على بركة الرطلى ليلتنا — حتى تباهت على الخلجان والبرك

---

(١) القصيدة بتمامها فى بدائع ابن إياس ج ٣ ص ٣٨ ط بولاق .

حفت بضوء مصابيح زهت زغدت   تضىء فى حندس الديجور والحلك
فكان لما تناهى حسن وقدتها   تخفى شموس الضحا فى وقدة الفلك[1]

وقال فى ذلك شمس الدين القادرى :

تاه الأنام بجنح الليل فاتخذوا   لهم دليلا لدى الظلما من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت   عن لونها وكأن الشمس لم تغب[2]

ويصف المؤرخ ابن إياس ، فى قصيدة خفيفة ، ليلة حافلة قضاها السلطان الأشرف الغورى بقصره فى مقياس النيل عام ٩١٨ ﻫ وسجل فيها ما كان خلالها من مرح ولهو ، وما صحبها من مواكب حافلة ، وما أطلق أثناءها من ألعاب نارية ، كما سجل فيها بعض عادات الشعب وتقاليده فى هذه المناسبة وأمثالها . قال منها :

لم يسمح الدهر فيما جاد من فرج   كليلة سمحت للأشرف الغورى
فإن ترد وصفها أنشدت مرتجلا   فى وقدة الليل بالأملاك والدور
من بر مصر ومقياس يقابله   كان التقابل بين النار والنور
حاكت مصابيحها ضوء النجوم إذا   ما أزهرت بالدجى فى ليل ديجور
وكم رأينا قلاعا فى ذخائرها   صوارخ بضياً فى الجو منشور
كواكب النفط قد حاكت لنا قمرا   بضوء زهر بدا فى الماء منسور
قلوب أزياره صارت مفرقعة   من وهج نيرانها فى زى مقهور
وصوت بارودة مثل الرعود إذا   ما صرخوه يحاكى نفخة الصور
وضاق رحب الفضا فى البحر من سفن   لما بدت فى ازدحام كل شختور
وكم سمعنا مغن صوته طرب   يشدو على آلتى عود وطنبور
قالت لنا روضة المقياس ذا عجب   هل بعد يوم الوفا جبر لمكسور ..الخ[3]

---

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٠٨ حوادث عام ٨٨٦ ﻫ .   (٢) المصدر نفسه .
(٣) بدائع ابن إياس ج ٤ حوادث عام ٩١٨ ﻫ ١٣ جمادى الآخرة .

نكتفى بهذا القدر من قصيدة ابن إياس . ونثنى العنان إلى فن من الشعر ، قريب من تسجيل الحوادث البيئية ، وهو وصف أدوات البيئة الاجتماعية ، فنقول :

ك — وصف أدوات البيئة :

وأدوات البيئة التى نقصدها ، هى التى فرض المجتمع بعاداته وتقاليده واستخدامها فى المنزل والسوق والمحفل والديوان ، ونحو ذلك من الأدوات التى تتطلبها طبيعة العمل أو العادة ، وفقا لمقتضيات الحضارة القائمة والنظم المتبعة . وذلك كالسكين والمبراة ، والقلم والسجادة والمبخرة والإبريق .

ونعتبر وصف الشعراء لهذه الأدوات لونا من استجابتهم لوحى البيئة الاجتماعية ، وإن بدا تسلية وقطع وقت فراغ ، فليس إفلاسا من موضوعات الشعر الجدية ، وبخاصة بعد أن طرقنا معهم أغراضا شتى من أغراض الشعر . لقد دل الشعراء بوصف هذه الأدوات على عمق امتزاجهم ببيئتهم ، وصدق إحساسهم بوجود هذه الأدوات التى تشاركهم حياتهم ، ولها فى هذه الحياة دور عملى تقوم به ولا غنى عنها للقيام به . فمن حقها عليهم أن تشغل بالهم بعض الشغل ، وتأخذ من أدبهم وشعرهم نصيبا . ومن حقها عليهم أن يسجلوها تسجيلا يخلد ذكرها ويبقى مآثرها . ويستكملوا بوصفها بعض جوانب المجتمع .

وكم من أداة — فى عصرنا الحديث - مستحدثة ، وكم من آلة مبتكرة ونافعة ، مجلوبة ومحلية يستخدمها الناس فى منازلهم ، ويستخدمها الشعراء أيضاً ، ولا يكادون — حتى اليوم — يعرفون اسمها ، فضلا عن دراسة خصائصها وأجزائها والطريقة التى تعمل هى بها ، هذا كله فضلا عن أن يفطنوا إلى ماينبغى لها من الوصف والتشبيه لإخراجها وتسجيلهما فى صورة أدبية طلية .

وذلك كالثلاجة والموقد الغازى والعصارة والخلاط والتلفزيون ومثات

من أدوات المطبخ ، والسيارة ووسائل النقل الحديث والإضاءة والسقى ، إلى غير ذلك .

فحيا الله أسلافنا الذين أعطوا أدوات مجتمعهم — مع الفارق — هذا الفيض من العناية ، وشعروا بها وكأنها أحياء تحس وتتحرك وتشاركهم مشاعرهم . فوصفوها وشبهوها وأبرزوا معالمها ومعالم عملها إبرازا جميلا ، وعللوا تعليلات أدبية لما يصادفهم احيانا من طبيعة صنعها أو عملها .

وممن وصف شيئا منها الشاعر سراج الدين الجان لقد تناول إبريقاً من الفخار فقال فيه :

يا حبذا شكل إبريق تميل له ... منى القلوب وتصبو نحوه الحدق
يروق لى حين أجلوه ويعجبنى ... منه طلاوة ذاك الجسم والعنق
كم قد شربت به ماء الحياة ولن ... ينالنى منه لا غص ولا شرق
حتى غدا خجلا مما أقبـــله ... فظل يرشح من أعطافه العرق(١)

ووصف قنديلا فقال :

يا حسن بهجة قنديل خلوت به ... والليل قد أسبلت منا ستائره
أضاء كالكوكب الدرى متقدا ... فراق باطنه نورا وظاهره
تريده ظلمة الليل البهيم سنا ... كأنما الليل طرف وهو باصره(٢)

ووصف شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى مبخرة ، فقال :

ومبخرة تحكى المتيم فى الهـــوى ... تبوح بما تلقاه من شدة الكرب
تقول وقد نمت بعرف بخورها ... أأكتم ما ألقاه والنار فى قلبى (٣)

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٠

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ديوان ابن أبى حجلة .

ووصف محي الدين أبو الحسين النحوي المتوفى عام ٧٤٦ هـ كتابا فقال :

وافى الكتاب فلا عدمت أنا ملا ... رقمت على ذلك البياض سطورا
منظوم در لو تجسم لفظه ... لحسبت ذلك لؤلؤا منثورا (١)

ووصف الشاب الظريف القلم ، فى سياق مدحة له جزلة مشهورة . لمحيي الدين ابن عبد الظاهر كاتب الإنشاء البارع . فناسب أن وصف له أقلامه ، فقال :

توحى إلى كل قرطاس بلاغته ... سحر البيان ومن أقلامه الرسل
سمر تروقك رأى العين عارية ... ومن بديع معانيه لها حلل
من الأسنة فى أطرافها سنة ... لولا النضارة قلنا إنها ذبل
من كل معتدل كالميل إن رمدت ... عين المعالى ففيها نقسه كحل .(٢)

ومن عنى بوصف القلم وتشبيهه ، تقي الدين بن حجة الحموى . وقد قال فى إحدى قصائده التى مدح بها القاضى علاء الدين بن أبى البقاء الشافعى :

له يراع سعيد فى تقلبه ... إن خط خطا أطاعته المقادير
محبر وبتحرير العلوم إذا ... جرى يرى منه تحرير وتحبير
غصن عليه طيور العلم عاكفة ... وجانس النور من أوراقه النور
وأشقر يده البيضاء غرته ... له إلى الرزق فوق الطرس تسيير
بل أسمر عينه الكحلاء تلحظنا ... وهدب أجفانها تلك التشاعير
أو سهم علم بأطراف السطور غدا ... مريشا وله فى الضد تأشير
ومذ أقام حدود الله فى يده ... ولاح فى مهج الأعداء تشطير
قلنا وقد لاح هذا ذو الفقار بدا ... لنا بكف على وهو مشهور
كذا محابره سود العيون فإن ... دانت أياديه فهى الأعين الحور.. الخ(٣)

---

(١) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٤٨٦

(٢) ديوان الشاب الظريف .

(٣) ديوان ابن حجة الحموى « الثمرات الشهية من الفواكه الحموية » مخطوط بدار الكتب المصرية

ومن قبل ابن حجة ، أكثر ابن نباتة المصرى شاعر عصره ، من وصف أقلام ممدوحيه ، ممن اتخذوا الكتابة صناعة ومن ديوان الإنشاء مناصب .

ومن ذلك وصفه البديع النادر لأقلام بدر الدين بن فضل الله العمرى ، فى سياق مدحة جيدة قدمها إليه . يقول فيها :

بكم آل فضل الله تمت مقاصدى	وتم على نجح الرجاء بكم نسكى
رفضت الورى لما علقت حبالكم	ونزهت دين الحب فيكم عن الشرك
وسر فؤادى أن أقلام بدركم	سرور لذى ود وغيظ لذى محك
لأقلام مولانا ثنا متضوع	فهل هى فى الكافور تكتب بالمسك
وما هى إلا القضيب إما موانسا	وإما مواضى الحد تحمى حمى الملك
إذا ما دعاها الرأى يا عزة الهدى	بذا قد دعاها السطو ياذلة الشرك
إذا أتبعت ألفاظها بصريرها	طربنا لأقوال البلاغة فى هنك
إذا ما اليد البيضاء ألقت عصاتها	تلقف صنع الحق صنع ذوى الإفك
وإن لم تكن موسى فإن محمداً	كثير الأيادى البيض فى الظلم الحلك
نعم إنها فى كفه قصب العلى	بسفن وتحملن العلى ضخمة السمك
دقاق تحملن الجليل وتشتكى	إليها فلا تشكو ولكنها تشكى
تربت بآكام الأسود ترابها	مواقع سحب مانداها بمنفك
فجاءت تحاكى الأسد والسحب سطوة	وجودا وللحاكى فخار على المحكى
مسخرة تجرى بما ينفع الورى	على يده فانظر إلى البحر والفلك
مؤمرة تسرى إلى حومة الوغى	ومن أسود فى أبيض علم الرنك
مسددة الأفعال والبأس والندى	مثقفة الآراء فى الأخذ والترك
فأحسن بها فى الطرس هيفا كحيلة	ترك قدود العرب مع ثقل الترك
وأعجب بها كالنبل تنكى وتارة	تحصن من وقع النبال التى تنكى
وبالظل منها وهو ظل براعة	تمر على الدنيا ستورا من الهتك
هى الألفات المائلات بكفه	على أنها اللامات فى المعرك الضنك

قصار تحاماها الرماح طويلة نواحل يستشفى بها الحال من وعك
وأقسم ما الشهب المنيرة فى السما إذا كتبت يمناه أرفع من تلك.. الخ(١)

وبعد . حسبنا هذا فى بيان استجابة الشعراء لوحى البيئة الاجتماعية . لقد اتجهنا بالشعراء إلى جملة زوايا من زوايا مجتمعهم ، ورأينا كيف كانوا ملبين لها متأثرين بها . لقد سجلوا صورة هذه البيئة من كثير من زواياها . بما لا يدع مجالا للشك ، فى يقظتهم الفكرية والنفسية .

والآن ، وقد أنهينا الحديث عن بيان آثار ألوان البيئة كلها فى شعر شعرائها، نثنى عنان البحث إلى بيان الناحية الفنية لهذا الشعر . وذلك بدراسة طرق تصويره وقوالب معانيه . إلى غير ذلك .

ومن أجل هذا نعقد الفصل الخامس التالى .

---

(١) ديوان ابن نباتة .

الفصل الخامس

أثر البيئة بأنواعها

فى نواحى الشعر الفنية

أساليبه وطرق تعبيره وعرض معانيه

لا نشك فى أن البيئة بشتى نواحيها ، ذات سيطرة واسعة فى توجيه الأدب والشعر ، سواء أفى الموضوع كان ذلك أم فى الأسلوب .

وباختلاف البيئة وأنواعها ، فى مصر دون مصر ، وفى عصر دون عصر ، تختلف موضوعات الأدب وأساليبه . وقد تتشابه بعض الموضوعات ، وتتماثل بعض الأساليب فى أدب عصرين . ولكن موضوعات أدب عصر وخصائص أساليبه ، تختلف فى جملتها — ولا ريب — عن موضوعات أدب عصر آخر وخصائص أساليبه ، فى جملتها .

وهذا الاختلاف من صنع البيئة وألوانها . فهى السبب الأصيل فى إبراز شخصية الأدب وأقلمته .

وقد يكون لأديب أو آخر ، جهود فى ابتكار موضوع ، أو خلق أسلوب ، قد لا يشاركه غيره فى ابتكاره أو خلقه . إلا أن هذه حالة فردية . ولا يصعب ردها إلى موحيات البيئة ، إن لم ترد إلى طبيعة خاصة بارزة فى الأديب وحده ، لا يشاركه فيها غيره .

وبعد أن تحدثنا طويلا عن أثر البيئة فى موضوعات الشعر « فى العصر المملوكى ، نتحدث فى السطور التالية عن سمات أساليبه وخصائصه الفنية ، لنرى مبلغ أثر البيئة فى إيجادها .

ونحن، إذ نتحدث عن ذلك، نقرر مبكرين، أن هذه السمات والخصائص الفنية، إنما هى الصفات والاتجاهات الغالبة فى شعر العصر المذكور. وهى نتيجة لتأثر شعرائه بموحيات البيئة المشتركة.

ويضاف إلى ذلك سمات أخرى لمعت وبرزت أكثر من بروزها فى أى عصر مضى حتى لفتت الأنظار، وقد يكون بعضها عيباً من عيوب الشعر الفصيح، ولكنها برزت بفعل البيئة وألوانها، وإن لم تغض فى جملة أمرها من براعة شعراء العصر.

عن هذه وتلك نتحدث فى هذا الباب، حديثاً مدعوماً بالنصوص والنماذج، المعززة بالشرح المفصل، والإيضاح المناسب.

---

١ - توخى السهولة

كان أحد الفضلاء قد سمع شعر صفى الدين الحلى فقال: «لا عيب فيه سوى قلة استعماله لغة العربية». — وهو يعنى بذلك أن لفظه سهل لا غرابة فيه —:
فكتب إليه صفى الدين هذه الأبيات:

إنما الحيزبون والدردبيس والطخا والنقاخ والعلطبيس
والحراجيج والشقحطب والصقعب والعنقفيز والعنتريس
والغطاريس والعفنقس والعفلق والجر بضيض والعيطموس
والسبنتى والحقص والهيق والهجرش والطرفسان والعسطوس
لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الوحشى منها ويترك المأنوس
أين قولى: هذا كثيب قديم ومقالى: عقنقل قدموس
لم نجد شاديا يغنى: قفانبك على العود إذ تدار الكئوس
لا ولا من شدا: أقيموا بنى أمى إذا ما أديرت الخندريس

ومنها :

خل الأصمعى جوب الفيافى   فى نشاف تخف فيها الرءوس
وسؤال الأعراب عن ضيعة اللفظ   إذا أشكلت عليه الأسوس
درســت تلـكم اللغات وأمسى   مذهب النـاس مايقول الرئيس
إنمـا هذه القلوب حديد   ولذيذ الألفاظ مغناطيس (١)

وصفى الدين الحلى فحل شعراء الجزيرة فى زمانه ، وند جمال الدين بن نباتة المصرى شاعر مصر والشام فى وقته . وصفى الدين - وإن لم يعش فى مصر زمناً يسمح لنا بأن نسلكه فى عداد شعرائها - نعتقد أنه قد تأثر بالثقافة المصرية وبالاتجاهات المصرية فى الأدب واصطناع الأسلوب - ولو إلى حد - إذ كانت هذه الثقافة واتجاهاتها الأدبية قد فرضت نفسها على شتى أرجاء العالم العربى ، لمكانة مصر من زعامتها وقوتها بينها ، ولأنها دار الخلافة إذ ذاك ومثابة علوم الدين واللغة . وكذلك رحل صفى الدين إلى مصر ، وأقام بها ردحا فى عهد ملكها الناصر محمد بن قلاوون ، ونال من صلاته ومدحه ووصف ربيع مصر فى قصيدة مشهورة . واتصل برجال الناصر ومن بينهم علاء الدين بن الأثير كاتب السر ، وهو الذى أشار على صفى الدين بجمع ديوان شعره .

نقول هذا لنسجل أن صفى الدين وشعره واتجاهاته الأدبية ليست مقطوعة

---

(١) ديوان الحلى ص ٤١٨ ط بيروت ، والخيريون : العجوز ـ الدردبيس : الداهيـة والشيخة الفانية ـ الطخا : أصله الطخاء وهو السحاب المرتفع ، والـكرب على القلب ـ النقـاخ : الماء البارد والعذب الصافى ـ العلطبيس : الأملس البراق ـ الشقحطب : الـكبش له قرنان أو أربعة كشق حطب ؛ وجمعه شقاحط أو شقاطب ـ الصقعب : الطويل ـ الغطاريس : جمع غطريس بكسر أول وثالثة ، وهو الظالم المتـكبر ـ العقنفس : اللئيم ـ العفلق : الفرج الواسع الرخو ، والمرأة الخرقاء السيئة المنطق ـ العيطموس : التامة الخلق من الإبل والنساء ، والمرأة الجميلة أو الحسنة الطويلة ـ السبنتى : الجرىء والنمر ـ الحقص : الشد ـ الطرفسان : القطعة من الرمل ـ العسطوس : شجرة كالخيزران ، ورأس النصارى بالرومية ـ العقنقل : الـكثيب ـ القدموس : القديم ـ الخندريس : الخمر .

الوشيجة بشعر مصر واتجاهاتها الأدبية . ومن المستطاع الاستئناس بهما . ونحن نتحدث عن البيئة المصرية وتأثيرها فى الشعر وطرق تعبيره .

لقد توخى شعراء مصر فى تلك الحقبة التى نؤرخ شعرها ، السهولة فى أكثر ما نظموه منه . اختاروا اللفظ السهل العذب الرقيق ، والأساليب المستساغة والتراكيب السمحة . وابتعدوا عن الألفاظ الغريبة والجمل والعبارات القوية التى تلفت السمع بجلبة رنينها وصلابة حروفها ، مما يتسم بالجزالة الصوتية قبل أن يؤدى معنى من المعانى ، ومما يتصف بالفحولة قبل أن يعبر عن فكرة من الفكر .

وأبيات صفى الدين التى صدرنا بها هذا المقال ، شهادة عتيدة على ما توخاه القوم إذ ذاك من لفظ وأسلوب .

ولعل صفى الدين لم يكن فيها يدافع عن أسلوبه ، بمقدار ما كان يقنن للأسلوب الشعرى ويدلل على سلامة هذا التقنين بهذا الحشد العظيم من الكلمات اللغوية الغريبة الثقيلة المتنافرة التى كتبها ، فظاهرته مظاهرة صاخبة عززت رأيه . وهو بهذا يعبر عن ذوق العصر وعن اتجاه شعرائه بعامة . قال زين الدين ابن الوردى .

إذا أحببت نظم الشعر فاختر   لنظمك كل سهل ذى امتناع
ولا تقصد مجانسة ومكن   قوافيه وكله إلى الطباع

ولا ندرى بالضبط كيف نعلل هذه الظاهرة . فهل سببها بعد العهد بشعراء العصر عن أيام الجاهلية وأيام غرابة اللغة ؟ نعتقد أن هذا ليس السبب الأصيل ، ذلك لأن اصطناع السهل المألوف من اللفظ المفرد والتركيب ، ظاهرة عرفت فى العصر العباسى . ونحن أهل العصر الحديث أشد بعداً عن أيام الجاهلية ، ولكن

شعراءنا فى جملتهم أجزل لفظاً وأقوى أسلوباً من أسلافهم فى عصر المماليك .

فهل سببها ضعف الثقافة اللغوية بين ألوان الثقافات التى تثقف بها الشعراء — ومن بين الشعراء أميون لا يقرءون ولا يكتبون — لا نستطيع الجزم بذلك بالنسبة للجميع ، لأن من بينهم أصحاب ثقافات عالية ، ومنهم من قلب فى اللغةوأدبها فى عصورها الماضية وأرخ لها وشرحها ونقدها ، أمثال شهاب الدين ابن فضل الله العمرى ، والجمال بن نباتة والصلاح الصفدى والتقى بن حجة الحموى — وفى شعرهم سهولة ووضوح .

يبدو أن السبب الأصيل لذلك أو صاحب الأثر الأول ، هو طبيعة الشعب المصرى — كما أشرنا آنفا — الناشئة من طبيعة أرضه السمحة السهلة الواضحة ومن جود أرضه ومن رغد عيشه وتوافر طعامه وسهولة حصوله عليه ، فلم يكدح حينذاك كما يكدح سكان الجبال ولم يتعرض للهلاك كما يتعرض الباحثون عن المعادن ، فلم يكسبه ذلك رغبة فى التعمق عند التفكير ، ولا مشقة عند التعبير ، بل أطلق اللفظة على سجيتها . يعبر بها عن ضميره ، ويصور بها ما يدور فى نفسه ، فى بساطة وسهولة .

وهكذا درج على توخى السهولة اللفظية عند الحديث ، واختيار اللفظ والتركيب المتسم بالسماحة والكثير التداول الذى يعذب سماعه ويتحقق فهم معناه فور النطق به .

وكان شعراؤه حينذاك منغمرين غالبا فى أوساط العامة ، وهم منهم ، فتأثروا بأساليبهم وتوخوا فيها ما يتوخونه . فاصطنعوا العذب السائغ المقبول ، وتجافوا عن الصلب والغريب والطنان .

وهذا النحو من الأسلوب هو الشائع الذائع بين شعراء جيلنا الآن بحجة أن الشعر من الشعب وإلى الشعب ، فينبغى أن يكون بلفظه وأسلوبه ، ومختارا من معجمه ليفهمه ويتأثر به دون حاجة إلى وسيط .

وهذا اتجاه خطير فى حاجة قصوى إلى مناقشة حاسمة . فإن بعض الشعر الحديث قد أمعن فى السهولة وتخفف ما استطاع من الجزالة ، واصطنع الدائر على ألسنة العامة ، حتى صار شعره أشبه بالأزجال وأسجاع العامة .

والأدب العربى ولغته إنما يحييان بشعر جزل قوى فيه صلابة لا تخرجه عن موسيقاه ، وفيه تماسك واكتناز لا يبعده عن رقته وعذوبته . وفيه ثقافة أدبية متنوعة تثقف العامة وتهذبها وتسمو بمستواها ، فتستفيد بذلك من الأدب واللغة .

ولم تصل سهولة الشعر المملوكى إلى مستوى سهولة بعض الشعر فى جيلنا الحاضر . فقد كانت سهولة مقبولة فى جملها ، وكانت هذه السهولة وسيلة إلى تأدية المعانى واضحة جلية ، يستطيع الطالب استيعابها فى يسر وسرعة .

والملحوظ أن هذه الظاهرة بدت فى المطارحات والمراسلات الإخوانية والمعارضات والمساءلات والمناقضات والسرقات والتوشيحات والمقطوعات الوصفية ، والغزل والمجون والاستدعاء ، أكثر مما بدت فى سواها .

ومن الشعر السهل السائغ قول الشاب الظريف يشكو ويتغزل .

نمت بما تحنو عليه ضلوعه ... أسقامه وشجونه ودموعه
جلبت نواظره لمهجته أسى ... وجوى يذيب ببعضه مجموعه
مغرى بوسنان اللحاظ وإنما ... فى حبه هجر المحب هجوعه
أبدى محياه وأسبل شعره ... والبدر يحسن فى الظلام طلوعه
للطرف فيه سنا وفيه بارق ... هذا وذاك يروقه ويروعه
دارت عقارب صدغه فى خده ... فغدا وقلبى فى الهوى ملسوعه
يا وافر البحر الطويل توسلى ... فيه ألا وعد يجود سريعه
نبه جفونك من نعاس فتورها ... لترى محيا ذاب فيك جميعه

ما أنت يا طـــرفى بمتهم على سرى فكيف إلى الوشاة تذيعه . إلخ (١)

ومنه قول جمال الدين بن نباتة المصرى فى صدر مدحه ، يتغزل :

لا وخمـــر بابلية فى ثنـــايا لؤلؤية
لا رقى سفح دموعى فى هوى تلك الثنية
ربع سلوانى خـراب وشجـــونى عامرية
حربى من ذات حسن باسم تبـكى البرية
غادة يروى لماهـا عن صحاح جوهرية
من بيوت الترك ترمى عن قسى عربية ... الخ(٢)

وللصفى الدين الحلى يتشوق :

إن غبت عن عيانى يا غاية الأمـــانى
فالفـكر فى ضميرى والذكـر فى لسانى
ما حال عنك عهـــدى ولا انثنى عنـــانى
شـــوقى إليك باق والصبر عنك فان(٣)

ولبدر الدين الذهبى يصف دولابا فى روضة :

وروضـة دولابهـــا إلى الغصون قـــد شـكا
من حين ضاع نشرها دار عليها وبـكى(٤)

ولصلاح الدين الصفدى فى وصف الدموع :

جرحت قلبى فأجريت الدموع دما ففيض دمعى من تلك الجراحات

---

(١) عن ديوان الشاب الظريف . (٢) عن ديوان ابن نباتة ص ٥٦١
(٣) ديوان الحلى ط بيروت ص ٢٨٢ . (٤) كشف اللثام لابن حجة .

وراح دمعى بجارى فيك نطق فمى   فالشأن فى عبراتى والعبارات[1]

ونماذج الشعر السهل الرائق السائغ كثيرة موفورة .

غير أننا نحب — بعد ما أوردناه منها — أن ننبه إلى أننا حينما نتحدث عن إحدى الظواهر الأدبية التى نمت عن تأثيرات البيئة ، نتحدث عن ظواهر غالبة لا عامة شاملة ، وعن اتجاه يتكرر أكثر من تكرر غيره . وعلى هذا نتوقع أن يكون هناك من الجزئيات ما يخالف هذه الظواهر ، ومن النماذج ما يغاير هذا الاتجاه . ولا يصعب تعليل وجود هذه الجزئيات والنماذج أيضا . كما سترى .

نقول ذلك بمناسبة ما نراه من الجزالة بل القوة والصلابة فى أساليب بعض الشعراء ، وما يجنحون إليه أحيانا من غريب اللفظ وحوشيه .

حتى صفى الدين الحلى نفسه ، ذلك الشاعر الذى نعى على الغرابة والحوشية وسفه الناقد الذى عاب شعره لخلوه من الألفاظ الغريبة ، نقول حتى صفى الدين هذا ، الذى استشهدنا بشىء من شعره السهل الرقيق ، نرى له أحياناً شعرا جزلا قويا ، بل صلبا حوشيا ، لا نبالغ إذا شبهناه بشعر البداة فى الجاهلية ، وبنظم الأعراب .

وقد أشرنا إلى أن صفى الدين يرجع فى ثقافته إلى العراق ، وقد يكون متأثرا بالثقافة المصرية التى كانت — ولا ريب — أوسع أفقا فى جملتها من ثقافة العراق آنذاك ، ولا نرتاب فى أن ثقافة العراق إذ ذاك قد أفادت منها .

فاعتقادنا أن جنوح صفى الدين إلى الغرابة والصلابة أحيانا ، ليس وليدا للثقافة اللغوية التى أفادها من هنا أو من هناك . بل يرجع إلى مقدرة خاصة وإلى ثقافة فردية أفاد منها عند المناسبة ، وعندما أراد أن يثبت لنفسه أمام

---

(١) كشف اللثام لابن حجة .

نقاده مقدرة فنية وثروة لغوية وتصرفا أدبيا متنوعا . وبهذا جمع الفضل من أقطاره وملك الأدب من نواصيه .

على أن أمثال صفى الدين فى هذه الخصوصية قليلون . وسنرى فيما يلى من النماذج شيئا من شعرهم جميعا . وقبل أن نوردها نلاحظ — بصفة إجمالية — أن الشعراء الذين اشتغلوا بالكتابة - كابن عبد الظاهر وابن نباتة والصفدى وابن حجة - كانت لغوياتهم أكثر وأبرز من سواهم . إذ كانت صناعة الكتابة أشد احتياجا إلى معجم لغوى واسع . ونلاحظ أيضا أن المحصول اللغوى فى مجموع الشعر كان يقل تدريجيا كلما سارت الأيام إلى نهاية العصر . ونلاحظ أن الجزالة والغرابة اتصلتا ببعض أغراض الشعر أكثر من سواها من الأغراض ، كالمدح والنبويات والوصف والفخر .

ومن شعر صفى الدين الحلى يفخر بقومه ويصف الخيل فى المطلع ، يقول :

لمن الشوازب كالنعام الجفل ... كسيت جلالا من غبار القسطل
يبرزن فى حلل العجاج عوابسا ... يحملن كل مـــدرع ومسربل
شبه العرائس تجتلى فكأنها ... فى الخدر من ذيل العجاج المسبل
فعلت قوائمهن عند طرادها ... فعل الصوالج فى كرات الجندل
فتظل ترقم فى الصخور أهلة ... بشبا حوافرها وإن لم تنعل .. الخ[1]

ومن جزالة ابن نباتة وقوة ديباجته قوله فى إحدى نبوياته ، يتذكر ويتشوق ويتشكى :

---

(١) ديوان الحلى ط بيروت ص ١١ — الشوازب : الضامرة — الجفل : النافرة — الجلال : جمع جل هو ما تلبسه الدابة صيانة لها — الطراد : المطاردة . الصوالج : جمع صولجان وهو المحجن ، أداة للصد أو الصرف أو الجذب كمضرب الكرة .

صحــا القلب لولا نسمة تتخطر ولمعــة برق بالغضى تتسعــر
وذكر جبــين البابليــة إذ بدا هلال الدجى والشيء بالشيء يذكر
سقى الله أكناف الغضا سائل الحيا وإن كنت أسقى أدمعا تتحدر
وعيشا نضا عنه الزمان بياضه وخلفه فى الرأس يزهو ويزهر
تغير ذاك اللون مع من أحبه ومن ذا الذى ياعز لا يتغير ... الخ(١)

ومدح الشاب الظريف محي الدين بن عبد الظاهر ، فقال من قصيدة جيدة جزلة :

أضحت يداه لعقـد الجود واسطة فليس يدرى لجود بعده عطل
يجود حتى يمل الناس أنعمــه وليس يدركه من بذلها ملل
سادت وسارت بها الأفواه معلنة فقد غــدت مثلا يغدو بها المثل
بنى لأبنائه بيت العــلى وثوى فيما بنــاه له آباؤه الأول
كانوا أتم الورى جوداوإن صمتوا وأعظم الناس أحلاماوإن جهلوا. الخ(٢)

---

٢ ـ اصطناع البديع

يعتبر هذا العصر عصر البديع ، لقد أغرق فيه كتابه وشعراؤه إغراقا منقطع النظير ، لا شبيه له فى أى عصر أدبى آخر . ومرجع ذلك فى رأينا إلى عدة أمور تعاونت على توجيه الأدب فى هذا الاتجاه ، منها (٣) :

أثر الدول الحاكمة :

توالى الدول الحاكمة على البلاد من خارج حدودها ، ومنها الدولة القائمة

---

(١) ديوان ابن نباتة حرف الراء . (٢) ديوان الشاب الظريف .
(٣) نوهنا بشيء من ذلك عند حديثنا عن خصائص النثر .

التركية أو الجركسية . فقد تتابع على البلاد بعد الفتح العربي بزمن حكام طارئون من غير أبنائها ، وكانت جيوشهم فى أغلب أمرها من غير هؤلاء الأبناء . وكانت الصلة بينهم وبين شعبها صلة الحاكم الظالم الطاغية المستعلى المستبد ، بالمحكوم المستغل المظلوم المسوق الخائف المترقب . فأورث ذلك أبناءه حقدا دفينا لم يستطع إبرازه إبرازا إيجابيا إلا لماما ، وكبته في نفسه ومعه مرارة بالغـــة . وتنفس عن طريق النقدة العابرة واللذعة الطائرة والمؤاخذة الساخرة المتفكهة والنكتة المتنكرة . واحتال فى حديثه فاصطنع التورية والإبهام والاستخدام لما فيها من المعانى المتشابكة التى تدعو إلى الريث وتعفى من اللوم ، وتهيء التبرىء ... إلى غير ذلك من مسالك الأسلوب التى رسخت فى ذوق هذا الشعب الذكى الكريم الحيلة . وانطبع شعراؤه بطابعها ، فكانوا أدنى شعراء عصر إلى تمثيل أهله .

وملأت الدولة الحاكمة وأمراؤها وجنودها ومن لف لفهم من أعيان البلاد ورؤسائها ، أنظار الناس بما دفعوا إليه من حضارة ومدنية وصناعة وفن ، قوامها جميعاً التمويه والزخرف والتهويل والمبالغة فى اللون والشكل ، بدا ذلك فيما اتخذ من الملابس والمطاعم والمشارب ، وفيما أقيم من الحفل فى الأعياد والمواسم ، وفيما شيد من الأبنية والعمائر والمساجد والسبل ، وفيما اصطنع من الأثاث والرياش . إلى غير ذلك مما لا يزال ماثلا فى آثارهم .

فبهروا الأنظار وسحروا الخواطر وطبعوا الأذواق بطابع التلوين والصبغ والتشابك والزخرف ، وكان لذلك أثره الماثل فى تخاطبهم وأحاديثهم . وانطبع شعراؤهم بطابعهم . فأقبلوا على المماثلة وعقد التشابه والاحتيال والتلوين فى الأسلوب وربط الألفاظ بعضها ببعض بمجانسة أو ازدواج أو مطابقة أو مقابلة أو لف أو نشر . . . وانساقوا إلى الحلية والزينة ، واتخذوا ذلك أساسا ودعامة يبنون عليها بيوت الشعر ويشيدون القصائد .

مذهب القاضى الفاضل :

وهناك عامل ثقافى له خطورته وأثره فى هذا الاتجاه ، وهو مذهب القاضى الفاضل فى أساليب الكتابة والشعر . لقد كان هذا المذهب الدعامة الأولى التى اتخذها الشعراء أساسا لنظم الشعر . ولقد كان القاضى الفاضل إماماً فى ذلك له قدسيته .

عاش القاضى الفاضل فى أواخر العصر الفاطمى وأوائل العصر الأيوبى ، وشهد عصر صلاح الدين الأيوبى وكان وزيراً له دبر له دولته برأيه وشباة قلمه . وابتدع مذهبه هذا الذى يعتبر فى جملته امتدادا لمذهب ابن العميد .

لقد لمع البديع وبرزت منه أنواع عدة منذ فجر الأدب . وعرف من أنواعه فى العصر الجاهلى - مثلا — السجع والازواج . وما زالتْ تبزغ ألوانه حتى ظهر ابن العميد — توفى عام ٣٦٠ هـ فسلك فى الأسلوب مسلكه وذهبه مذهبه واستحسن السجع وقصر الفقرات واستملح الجناس ، واستطاب الطباق والمقابلة والتضمين والاقتباس والتلميح ، واستعمل شيئاً من غريب اللفظ . وعنى بالتشبيه والاستعارة ، إلى غير ذلك ، مما هو معروف عن طريقته التى كان لها أثرها فى الكتابة والشعر .

وزادت موجة البديع بعد ابن العميد ، ودخلت أساليب الأدب فى طور هندسة وزخرف بتأثير اتساع الحضارة وتفشى الصناعات والفنون ، وتنافس الدول الإسلامية الناشئة بجوار الدولة العباسية ، فى ذلك .

وورث القاضى الفاضل كل هذا التراث ، وبخاصة بعد العصر الفاطمى الذى شغل الناس بمواسمه وأعياده ومواكبه واحتفالاته ، وبراياته وشعاراته . فارتضى لنفسه التزام مستحسنات ابن العميد . وزاد عليها دقة فى نظام الفقرات ، وإصرارا على التورية والاستخدام ، وعمقاً وتعقيـــداً فى اصطناع التشبيه والاستعارة ، وتوسعا فى استعمال التضمين والاقتباس . إلى غير ذلك من لوازم

طريقته . وذاع ذلك فى زمانه وفى دولة بنى أيوب ، بين كتابها وشعرائها فى الجملة . واتجهوا بذلك نحو الزخرف والزينة .

وكان عصر المماليك فى جملة مظاهرة امتدادا لعصر بنى أيوب . وزادت الأسباب الداعية إلى الاحتيال فى الأسلوب ، والجهد فى تزيينه وتجميله كما سبق. فأوسع ذلك ميدان الانتصار أمام مذهب القاضى الفاضل ، ووجد من أسباب الرواج والانتشار ما لم يجده فى عصر آخر ، فقد وافق أذواق الناس والشعراء والكتاب ، وأقبل النقاد أنفسهم يتحدثون فى نقد الشعر والنثر على أساسه وعلى هدى منه . وأكثر ابن حجة الحموى - مثلا - فى خزانة أدبه من الإشادة بالفاضل وكتابته وشعره ومذهبه وذوقه ، وهو يدرس الشعر والكتابة . واعتبر أن له راية هى «الراية الفاضلية» وأن له «عصبة» من أدباء عصر المماليك ، ساروا تحت رايته . .

هذا وغيره ، يشعرنا بما كان لمذهب هذا الأديب الكبير ، دراسة وتذوقا ، من أثر ضخم فى طبع أساليب الأدب فى عصر المماليك بطابعه .

وخلف من بعده خلف كان على رأسهم جمال الدين بن نباتة الذى أتم تمصير مذهب القاضى الفاصل ، وطبعه بطابع الذوق المصرى الأصيل ، وذلك بالإكثار من التورية والاستخدام ، وباستعمالها بلباقة ورقة ولطف لا تظفر بها فى أدب الفاضل ، وبالسماحة البادية فى استعمال التشبيه والاستعارة ، وبإخراج الجناس ممزوجا بالتورية حتى تذهب عنه عقادته ، وبالتفكه وإطلاق النكتة المليحة . . إلى غير ذلك .

لقد اعتبره ابن حجة الزعيم الثانى للطريقة الفاضلية ، وأن له راية خاصة هى «الراية النباتية» . وأحصى عـــدداً من الأدباء مشوا تحت هذه الراية . وهم عصابته وأتباعه . .

وحق ابن نباتة أن يعتبر زعيما مستقلا ، ذا طريقة خاصة ، يتمثل فيها الذوق المصرى الصميم .

أمثلة من شعر الفاضل :

ومن شعر الفاضل قوله يمدح الملك العادل ، من قصيدة :

أهذى كفه أم غيث غوث　　ولا بلغ السحاب ولا كرامة
وهذا بشره أم لمع برق　　ومن للبرق فينا بالإقامة
وهذا الجيش أم صرف الليالى　　ولا سبقت حوادثها زحامه
وهذا الدهر أم عبد لديه　　يصرف عن عزيمته زمامه
وهذا نصل غمد أم هلال　　إذا أمسى كنون أو قلامة
وهذا الترب أم خد لثمنا　　فآثار الشفاه عليه شامه

ومنها :

وهذا الدر منثور ولكن　　أرونى غير أقلامى نظامه
وهذه روضة تندى وسطرى　　بها غصن وقافيتى حمامه
وهذا الكأس روق من بنانى　　وذكرك كان من مسك ختامه(١)

وقد قدم ابن حجة الحموى هذه الأبيات بقوله :

« قول إمام هذه الصناعة . ومالك أزمة البلاغة والبراعة . القاضى الفاضل » .

وعلق عليها أيضاً بقوله :

« سبحان المانح هذا الأديب الذى لم ينسج الأوائل على منواله ، ولا تتعلق الأفاضل من المتأخرين بغبار أذياله » .

وأنت ترى فى هذه الأبيات فنوناً من البلاغة والبديع . وذلك كالتشابيه

---

(١) خزانة الأدب ص ١٥٥ ، باب تجاهل العارف .

فى الكف والغوث . وفى البشر ولمع البرق . وفى الجيش وصرف الليالى ، وفى الدهر والعيد ، وفى نصل الغمد والهلال . وفى القلامة والنون والهلال . إلى غير ذلك .

وفيها تجاهل العارف . وهو واضح فى الاستفهامات المتوالية فى الأبيات كقوله : أهذى كفه . أهذا بشره . أهذا جيشه . . إلخ .

ومن أبدع تمثيله وأجمل مخترعاته قوله :

وهذى روضة تندى وسطرى بها غصن وقافيتى حمامه

وهو يقصد بالروضة الصحيفة التى يكتب فيها . فسطره فيها غصن ، وقافيته حمامة ساجعة . .

ومن شعره يشبه ثلاثا بثلاث :

كأن ضلوعى والزفير وأدمعى طلول وريح عاصف وسيول

ومن طريف تورياته قوله يتغزل :

وكنت وكنا والزمان مساعد فصرت وصرنا وهو غير مساعد
وزاحمنى فى ورد ريقك شارب ونفسى تأبى شركها فى الموارد(١)

والتورية فى لفظ « شارب » بمعنى شعر الفم أو اسم الفاعل من شرب يشرب .

ومن جناسه وفيه تورية أيضاً قوله :

لو كنت جاوبت الحمائم نائحا قال الوشاة أذاع سرك بائحا
سل طائعاً صدع الفؤاد بسحره أتراه عرض صادعا أم صادحا
ياضعف من أمسى الفريسة فى الهوى وغدا الحمام له هنالك جارحا(٢)

---

(١) خزانة الأدب باب التورية ــ الأبيات وما قبلها .

(٢) تأهيل الغريب باب الأغزال البديعة .

والجناس : بين نائح وبائح ، وبين صادع وصادح . والتورية فى « جارحا » أراد من جرح يجرح فهو جارح ، أو صار من الطيور الجوارح .

هـــذا وسنسوق لك أمثلة ونماذج من شعر جمال الدين بن نباتة فى عداد ماسنسوق من أمثلة ونماذج . وسنوضح لك فيها ما تحتوى عليه من ألوان بديعية .

وبعد فهذه الصناعة البديعية لم يعد أكثر نقادنا وأدبائنا فى العصر الحديث يأبهون لها . بل يحملون عليها ويعيبونها وينادون بالانصراف عنها إلى إجادة الفكرة وتمحيصها ودقة إخراجها .

وملابسات عصرنا وتوثبه الثقافى وتتابع وفود الثقافات الأجنبية إلينا ، وسهولة وصولها وسرعتها ، وعجلة تطور الحياة وتجدد أسبابه ، كل هذا كان له أكبر الأثر فى انصراف أدبائنا عن الصناعة البديعية ، إلى صناعة الفكرة وخلق المعنى وإبراز الخلجات النفسية .

ولكن من الحظل أن نعيب شعراء هذا الزمان البعيد لولوعهم بالبديع ، ونقيسهم بمقاييسنا ، ونحكم فيهم أذواقنا ، دون رعاية لملابسات حياتهم وما كان هذا الولوع إلا طورا طبيعيا وضروريا ، من أطوار حياة الأساليب الأدبية .

ونحن لاندافع عن البديع ولانتحذاه . ولكننا لانستطيع أن نغفل أنه فن جميل من فنون القول . لانستطيع أن ننكر ما فيه من براعة وكياسة وذوق . لا نستطيع أن نجحد ما فيه من دقة ملاحظة وعمق فهم . بل لانستطيع أن نتجاهل أو نجهل أن بعض ألوانه يعتبر أحيانا ضرورة من ضرورات التعبير ، ولا نستطيع كذلك أن ننسى أن فى لغة عامة بلادنا منذ ذلك الزمان حتى يومنا هذا أصباغا منه عدة ولانستطيع كذلك أن نفرق بين الأسلوب الأدبى — والشعرى بخاصة — وبين غيره من أساليب القول ، إذا لم يكن مزودا بألوان منه ومعتمدا على مسالك من مسالكه . وليس هو الذى يئود الأسلوب ، ولكن

سوء استعماله هو الذى يشوده ثم كم بين الأساليب غير البديعية من غث وضعف ومسترذل ...

على أن أدباء عصر المماليك وشعراءه ، استطاعوا باصطناع البديع ، وبرعاية قوانينه التى وجدوا فيها رجعا لما فى نفوسهم ، وموافقة لأذواقهم ، أن يدالوا عمليا على عمق فهمهم للفن ، وأن يبرزوا ما فى ألفاظ العربية من أسرار ومزايا ، وما بينها من ألفة وتقارب ، وما فى طبيعتها من تعاون وتآزر على تصوير المعانى . وأن يجلوا ضروبا من جمال اللغة كانت خافية مجهولة . واستخرجوا من مفرداتها المتشابه والمتقارب والمشترك والمتضاد وغيرها ، وجذبوا بها بصفتها هذه — إلى ميدان الفكر والأدب والتعبير ، وذلك بالاستعمال .

بهذا وذاك أصبح البديع وقيوده ميزانا من موازين الأدب لدى نقاد العصر . ـ كما نوهنا ـ وقد وزنوا به النثر والشعر ، ووزنوا به الشعر أكثر مما وزنوا به النثر ـ كما يتراءى ذلك فى خزانة الأدب لابن حجة ـ وتلك سنة قديمة للنقاد أن يهتموا بنقد الشعر أكثر من اهتمامهم بنقد النثر .

واعتبر نقاد العصر كل نوع من أنواع البديع ، مسلكا من مسالك البلاغة ، وبذلك رادفوا بين البديع والبلاغة .

ولم يكن الشعراء — وإن مشوا جميعا تحت راية البديع ونظموا من أنواعه — على مستوى واحد من الإجادة ، ولا على درجة من الإقبال واحدة ، على كل ألوانه . فمنهم من أجاد التورية ومنهم من أخفق فيها ، ومنهم من جانبها . ومنهم من عف عن الجناس إلا إذا كان غير متكلف ، أو أخرجه مخرج التوريه ، ومنهم من أقبل على الجناس بجمع نفسه ولو كان متكلفاً ساقطاً ، أو كان عارياً عن التورية . وهكذا .

لم يسيروا جميعاً على وتيرة واحدة لاختلاف الذوق والثقافة والمقدرة . وقد

كان أديب كبير كشهاب الدين الحلبي ، وأديب بارع كشهاب الدين بن فضل الله، لا يقبلان على صوغ التورية،ولم يعتبر كلا الرجلين من فرسانها . وكان جمال الدين ابن نباتة وتقي الدين بن حجة الحموى لا يميلان إلى الجناس ، وإذا صاغه ابن نباتة لم يكن متكلفاً فى صياغته . واستحسن أن يمتزج بالتورية . وكان صلاح الدين الصفدى مولعاً ولوعاً شديداً بالجناس يتكلفه ، ويعلم أنه يتكلفه ، وألف كتاباً سماه « جنان الجناس » وأن ابن نباتة قرأه هكذا « جنان الخناس » .

وإننا بعد ذلك لا ننكر أن اللجاج فى استعمال البديع وعدم الحنكة والكياسة فى صوغه ، يسقطه ويوقع فى التكلف المرذول ، ويبعد به عن سمت البلاغة ، وقد يحيل الأسلوب إلى آجر يابس لا بشاشة فيه .

ولا ننكر أن الانصراف إلى إجادة البديع ليكون وسيلة إلى الزينة والحلية ؛ يستنفد من الشاعر مجهودا ضخما ، أجدر به أن ينفقه فى ابتكار الرأى وخلق المعنى ، ولا سيما فى زماننا .

الدراسات القرآنية :

وهذا عامل آخر له أهميته فى اتجاه أدباء العصر نحو البديع ، فقد عنى النقاد والدارسون بدراسة أساليب القرآن الكريم ، وطريقة نظمه ، وكانت دراستهم أساسها التسليم بإعجاز القرآن وبلوغ أساليبه حد الجمال الفنى فى الصوغ والتأليف . ولهذا كان همهم متجهاً إلى بيان وجوه إعجازه ووجوه الجمال فى أساليبه . وكلما تنبه خاطرهم إلى وجه من الوجوه ، أو إلى توافق ما ، عدوا ذلك لوناً من ألوان البديع .

وتحدث نقادهم وتكلم بلاغيوهم ، فى أبواب النقد والبلاغة . وقدموا فى الاستشهاد فى كل باب ، نموذجا أو أكثر من آيات القرآن الكريم . واتضح ذلك بعد ، فى كتاب « حسن التوسل » للشهاب الحلبى ، و « خزانة الأدب » لابن حجة .

هذا الاتجاه أوسع الميدان أيضاً أمام مذهب القاضى الفاضل ومذهب جمال الدين بن نباتة ، فانتصرا على طول الخط .

وبهذا وذاك صار العصر عصر البديع ، وأغرق فيه كتابه وشعراؤه إغراقا منقطع النظير ، كما أشرنا .

وفى السطور التالية نتحدث عن بعض ألوان البديع التى ظهرت فى شعر هذا العصر ، وكانت لها سيادة فيه وسيطرة عليه ، مع أمثلتها وتحليل بعض هذه الأمثلة بالقدر المناسب .

ولن نستطيع أن ندرس كل ألوان البديع ، لكثرتها وترادف أنواعها . ولأن دراستها جميعاً تخرج بنا عن نطاق بحثنا . وقصارانا هنا فتح الباب بالتمثيل القليل والشرح المناسب .

على أن الذى نريد التنبيه عليه ، هو أن شعراء العصر لم يتركوا - أو لم يكادوا يتركون — نوعاً بديعياً إلا وقد نظموا فيه . ومن الأنواع ما كانوا يتنافسون فى إجادته وفى الإكثار منه كالتورية .

وحسبك أن تعلم أن شعراء البديعات ضمنوا بديعاتهم نحو مائة وأربعين نوعا بديعيا . وفى هذا كله ما فيه من تكلف . فمن هذه الأنواع[1] .

(ا) براعة الاستهلال :

براعة الاستهلال أو براعة المطلع ، يسميها ابن المعتز « حسن الابتداء » . ويفرق بعضهم بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء .

---

(١) من الكتب التى ألفت فى عصر المماليك وتحدثت عن أنواع البديع وشرحت كل نوع ومثلت له: حسن التوسل للحلبى ، خزانة الأدب لابن حجة . جنان الجناس للصفدى . كشف اللثام لابن حجة . وشروح البديعات وهى كثيرة .

ويشترط فى مطلع القصيدة لكى يكون بارع الاستهلال جملة شروط ، منها :

١ — أن يكون مطلع القصيدة مستقلا فى معناه عما بعده فلا يتعلق به .

٢ — أن يكون رقيق النسيج متخير اللفظ غير حوشيه .

٣ — أن يكون فيه من المعانى ما يشعر بالغرض العام من القصيدة ، أو الغرض الرئيسى لها .

٤ — أن يحتوى كل واحد من شطريه على معان مساوية لما يحتوى عليه الآخر ، فلا يثقل ميزان أحدهما ويخف ميزان الآخر .

٥ — أن تكون معانى كل من الشطرين من واد واحد ، حتى يكون التناسب بينهما واضحا تماما . فلا يكون أحدهما فى المدح ، والثانى فى الغزل مثلا :

ومن الأمثلة التى ضربوها لذلك ، مطلع معلقة امرىء القيس وهو قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل … بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ومطلع قصيدة النابغة الذبيانى ، وهو قوله :

كلينى لهم يا أميمة ناصب … وليل أقاسيه بطىء الكواكب

وفضلوا الثانى على الأول ، لاستيفائه الشروط المطلوبة فى براعة الاستهلال . ولأن بيت امرىء القيس إكتنزت معانيه فى شطره الأول ، وكاد يخلو منها شطره الثانى ، بخلاف مطلع النابغة فالمعانى فيه موزعة على الشطرين .

قال ابن حجة : « وقد سمى ابن المعتز براعة الاستهلال « حسن الابتداء » . وفى هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع ، وإن أخل الناظم بهذه الشروط لم يأت بشىء من حسن الابتداء ، وأورد فى هذا الباب قول النابغة : كلينى لهم . . . الخ ، وقال :

« قال زكى الدين بن أبى الأصبع : لعمرى لقد أحسن ابن المعتز الاختيار . فإنى أظنه نظر بين هذا الابتداء وبين ابتداء امرىء القيس حيث قال :

قفا نبك . . إلخ . فرأى ابتداء أمرىء القيس على تقدمه وكثرة معانيه متفاوت القسمين جدا ، لأن صدر البيت جمع بين عذوبة اللفظ وسهولة السبك وكثرة المعانى ، وليس فى الشطر الثانى شىء من ذلك . وعلى هذا التقدير مطلع النابغة أفضل من جهة ملاءمة ألفاظه وتناسب قسميه . . إلخ [١] .

وعلى أننا نلاحظ أن المطلع — مع براعة استهلاله — كثيراً ما يتخلف فيه شرط الإشعار بغرض القصيدة . وربما صدر الشاعر قصيدة المديح — مثلا — بأبيات غزلية أو خمرية ، لا تشعر بما يليها من المديح .

وقد تبارى الشعراء — شعراء عصر المماليك — فى تجويد مطالعهم جاهدين فى أن تكون مستوفاة الشروط وقد بلغوا من ذلك مبلغا محمودا .

ومن براعة الاستهلال قول جمال الدين بن نباتة :

فى الريق سكر وفى الأصداغ تجعيد　　هــذى المدام وهاتيك العناقيد

وترى فى البيت استقلالا فى المعنى — كما اشترطوا — عما بعده ، لانتهاء معناه بانتهائه . وترى عذوبة ألفاظه بادية . وأى عذوبة تفوق ريق الحبيب . إنها عذوبة السكر والمدام . — وأصداغه بتجاعيد واواتهــا صاوت شــبيهة بعناقيد الكرم .

وقد عقد الشاعر تشبيها واسع النطاق بين صورتين معشوقتين محبوبتين هما ينبوع لذة ومعين متعة ، يشترك فيها الذوق والشم والبصر . الصورة الأولى : ثغر الحبيب بما فيه من الريق العذب المسكر المشهى ، وبما يتدلى على مقربة منه من خصلات الشعر المجعدة . والصورة الثانية : الكرمة وما فيها من عناقيد جميلة مدلاة بفروعها وما تحتوى عليه من خمرة لذة للشاربين .

---

(١) خزانة الأدب باب براعه الاستهلال .

ويبدو أنه كان من عادات نسائهم وجميلاتهم ومحبوباتهم عقد الشعر وعقصه، وجمع كل طائفة من تجاعيده فى تشكيلة واحدة مثناة. فبدا فى مثنياته المدلاة من أصولها، كالعناقيد المدلاة من غصونها.

والملاحظ أن هذا البيت فى صدر قصيدة مديح، ومع هذا لم يشعر بغرض القصيدة. فلعل الشاعر تجاوز عن هذا الشرط فلم يرتبط به كل الارتباط.

والملاحظ أيضاً أن المنشئين كانوا أكثر ارتباطا بهذا الشرط. وأدق رعاية له فى رسائلهم، من الشعراء ولعل ذلك كان بسبب ما للرسائل — وبخاصة الديوانية منها — من جدية، وبسبب ما لها من رسوم موضوعة مقررة فى الديوان، لا محيد عن اتباعها. هذا إلى ما يتمتع به الشعر والشاعر من حرية نسبية. لبعده — عادة — عن الرسميات والديوانيات.

ومن براعة استهلال ابن نباتة أيضا - وثقافته مصرية خالصة — قوله فى مطلع قصيدته التى هنأ بها الملك الأفضل صاحب حماة على توليه عرش أبيه الملك المؤيد إسماعيل بعد وفاته:

هنـــاء محا ذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

لقد هنأه بولاية العرش، وعزاه بفقد أبيـــه، فجمع بذلك بين غرضين متضادين. وهذا الجمع يسمى «الافتنان». ويعد مطلعه هذا من أبرع المطالع استهلالا. فإنه مع عذوبته ووضوح معانيه وتوزيع أجزاء المعانى على قسميه بالتساوى، واستقلاله عما بعده، قد جمع خلاصة الموقف الذى سيقت فيه القصيدة. وما جاء بعده من أبياتها تفصيل لما أجمل فيه.

وقد أورد ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب. أمثلة كثيرة لبراعة الاستهلال نذكر لك بعضا منها على سبيل التمثيل، مما نظمه شعراء العصر.

فمن ذلك قول الشاب الظريف :

أعز الله أنصار العيون ... وخلد ملك هاتيك الجفون

وقول ظهير الدين بن البارزى :

يذكرنى وجدى الحمام إذا غنى ... لأن كلانا فى الهوى يعشق الغصنا

وقول صفى الدين الحلى :

قفى ودعينا قبل وشك التفرق ... فما أنا من يحيا إلى حين نلتقى

وقول عز الدين الموصلى :

سمعنا حمام الدوح فى روضة غنى ... فأذكرنا ربع الحبائب والمغنى

وقول الجمال بن نباتة فى رثاء والده :

الله جارك إن دمعى جارى ... ياموحش الأوطان والأوطار

وقول علاء الدين الوداعى :

بدر إذا ما بدا محيـــاه ... أقــــول : ربى وربك الله

(ب) الجناس :

الجناس هو أن يكون فى الـكلام لفظان على الأقل ، بينهما توافق ما فى نطق حروفهما ، مع الاختلاف فى المعنى . وذلك كقول جمال الدين بن نباتة :

هات كأسى وإن لحنت من السكر م فــلا تلحنى إذا قلت هــــانه

فبين اللفظين « لحنت » و «تلحنى» توافق ما فى نطق الحروف ، مع الاختلاف فى المعنى . فالأول من اللحن والثانى من لحى يلحى .

والجناس عرض من أعراض الأساليب الأدبية . وقد أخذ يروج ويلمع لما اتجه العباسيون إلى اصطناع البديع وتـكلفه ، وأغرم به الصاحب بن عباد غراما شديدا .

واطرد بروزه بين سائر ضروب البديع حتى العصر المملوكى . ويكاد يكون هناك إجماع من الأدباء فى العصر المذكور على أن الجناس محسن لفظى وأنه أقل رتبة من غيره ، ولاسيما التورية والاستخدام والاستعارة والتشبيه ، وأنه يعوق الأديب عن ابتكار المعانى .

قال ابن حجة : « أما الجناس فإنه غير مذهبى ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب . وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ ، فإن كلا منهما يؤدى إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة فى مضمار المعانى المبتكرة »

وقال أيضاً : « ولا بأس به فى مطالع القصائد إن تعذر على الناظم أن يركبه تورية ، فإنه نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع ، كما قرره مشايخه ، كالتورية والاستخدام والاستعارة والتشبيه ، وما قارب ذلك من أنواع البديع »(١) .

وابن حجة بآرائه فى خزانة الأدب وغيرها من كتبه . يمثل روح عصره واتجاه الأدباء فيه . ومن ذلك رأيه فى الجناس . وأدباء عصره لا يمنعون استخدام الجناس إذا جاء حسنا .

وقد قال الشهاب الحلبى : « وإنما يحسن الجناس إذا قل وأتى فى الكلام عفوا من غير كد ولا استكراه ولا بعد ولا ميل إلى جانب الركة »(٢)

ومما يرفع عن الجناس عقادته وثقله مزجه بالتورية . وهذا هو مذهب ابن نباتة ومن سار تحت لوائه . ولم يشذ عن أدباء العصر إلا من ندر . وفى المقدمة صلاح الدين الصفدى . فإنه أولع بالجناس وجن به . فهو فى هذا الولوع شبيه بالصاحب بن عباد . وقد ألف كتابا فى الجناس سماه « جنان الجناس » ملأه

---

(١) خزانة الأدب باب الجناس .
(٢) راجع حسن التوسل .

بجناساته الثقيلة المتكلفة . فكان هدفا لنقد الناقدين . حتى إن ابن نباتة قرأه هكذا « جنان الخناس » . — كما سبقت إشارتنا —

ومن جناس الصلاح الصفدى قوله :

ومر على غيرى سقام وصحة ولم يرقان مثل ذى يرقان

قال ابن حجة : « ورأيت بخط الشيخ بدر الدين البشتكى تحت هذا البيت والذى قبله : « وهو الضعيف باليرقان وأن من ذلك مبلغه من النظم لجدير أن يقعد مع صغار المتأدبين » .

والجناس أنواع كثيرة تحدثت عنها كتب البلاغة والنقد ، ومنها :

الجناس المركب :

وهو أن يكون أحد الركنين كلمة مفردة والأخرى مركبة من كلمتين ، وهو على ضربين :

الأول : ما تشابه لفظا وخطا ويسمى « المتشابه » . ومثاله قول شمس الدين محمد بن عبد الوهاب .

حار فى سقمى من بعدهم كل من فى الحى داوى أو رقى
بعدهم لا طل وادى المنحنى وكذا بان الحمى لا أورقا[1]

والجناس بين «أو رقى» و «أورقا» .الأولى رقى يرقى ، والثانية أورق يورق .

ومثاله أيضاً قولى صلاح الدين الصفدى « فى كتابه جنان الجناس » .

يا من إذا ما أتاه أهل المودة أو لم
أنا محبك حقاً إن كنت فى القوم أولم

(١) هذان البيتان وما يليهما فى خزانة الأدب أو دواوين الشعراء .

والجناس بين « أو لم » من الوليمة ، و « أو لم » لم حرف نفى .

والثانى : ما تشابه لفظا لا خطا ويسمى « المفروق » .

ومثاله قول العلامة شهاب الدين محمود الحلبى .

ولم أر مثل نشر الروض لما تلاقينا ببنت العامرى
جرى دمعى وأومض برق فيها فقال الروض فى ذا العام ربى

والجناس بين « العامرى » و « العام ربى » .

ومثاله أيضا قول ابن نباته :

قمرا نراه أم مليحا أمردا ولحاظه بين الجوانح أم ردى

والجناس بين « أمردا » و « أم ردى » .

ومثاله أيضا قول القاضى بهاء الدين السبكى :

كن كيف شئت عن الهوى لا أنتهى حتى تعود لى الحياة وأنت هى

والجناس بين « أنتهى » و « وأنت هى » .

هذا ومن أنواع المركب نوع يسمى « المرفو » ، وهو أن يكون أحد الركنين جزءا مستقلا ، والآخر جزءا من كلمة أخرى . وهو لا يخلو من عقادة وتعسف ، — هكذا قال ابن حجة .

الجناس التام :

وهو ما توافق فيه الركنان توافقا كاملا فى الحروف نطقا وعددا وترتيبا وشكلا .

ومثاله قول شمس الدين الكوفى :

إن لم تقرح أدمعى أجفانى من بعد بعدكم فما أجفانى

والجناس بين « أجفانى » و « أجفانى » . الأولى جمع جفن ، والثانية أفعل تعجب .

ومثاله أيضا قول صفى الدين الحلى :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القـــلوب ذوائبا

والجناس بين « ذوائبا » و « ذوائبا » الأولى جمع ذؤابة ، والثانية جمع ذائبة .

الجناس الناقص :

وهو مافقد فيه أحد الركنين واحدا مما توافق فيه حروف ركنى الجناس التام :

ومثاله قول ابن نباته :

الله جارك إن دمعى جارى ياموحش الأوطان والأوطار

والجناس بين « الأوطان » و « الأوطار » . افترقا فى الحرف الأخير .

ومثاله أيضا قول شمس الدين الـكوفى :

مالى وللأيام شتت خطبهـــا شمـــلى وخلانى بلا خلان

والجناس بين « خلانى » و « خلان » الأولى بفتح الخاء ، والثانية بضمها .

الجناس الملفق :

وهو ما كان كل ركن من ركنيه مكونا من أكثر من كلمة . وبعضهم لا يفرق بينه وبين الجناس المركب .

ومثاله قول تقى الدين بن حجة الحموى ، فى بديعيته مشيرا إلى اسم النوع .

ورمت تلفيق صبرى كى أرى قدمى يسعى معى فسعى لـكن أراق دمى

والجناس بين « أرى قدمى » و « وأراق دمى » — وقد أشار إلى اسم النوع فى قوله « تلفيق» .

ومثاله أيضا قول صفى الدين الحلى فى بديعيته مع تسمية النوع :

وقد ضمنت وجود الدمع من عدم لهم ولم أستطع مع ذاك منع دمى

الجناس بين « من عدم » و « منع دمى » .

وزعماءها . ولم يأت من بعدهم من تعصب لها وابتكرها وأحسن استخراجها وسلك سبيلها فى التعبير .

والتورية تتم بحسن اختيارها ولطف ابتكارها ، عن ذوق سليم وطبع قويم وأدب جم وحس لطيف وفهم دقيق .

ويعتبرها أدباء العصر المملوكى ، فى جملتهم ، من أغلى فنون الأدب ومن أرقها وأدقها بين مسالك التعبير ، ومن أعلاها رتبة . ويقول ابن حجة : « إن لها سحراً ينفث فى القلوب ويفتح أبواب عطف ومحبة » .

والحق أن التورية من أجمل الأساليب الأدبيـــة وأعذبها وأدقها فى تأدية المعانى ، ففيها مداعبة للفكر ومفاكهة للنفس ، وحسن فى التصوير ، لوجود مرشحات المعانى ، ودفع إلى الموازنة بين المعنيين ، وإلى بحث الرابط بين المجتمعين ، وإلى الفحص عنه للوصول إلى المعنى المراد . إلى غير ذلك .

والتورية كانت — ولا تزال حتى يومنا هذا — من صميم مسالك التعبير لدى الشعب المصرى . وكثيراً ما ترى الرجل العامى الأمى ، ينظم فى عباراته التورية السائغة العذبة يخرج بها معانيه ويصل بها إلى هدفه ، من إيضاح أو مقارنة أو مفاكهة أو تندر أو نقد أو غير ذلك .

وبروزها فى الشعر الفصيح فى العصر المملوكى من أبرز الأدلة على مدى تأثر شعرائه بأساليب الشعب وتعبيرات البيئة .

وقد عدد ابن حجة فى خزانة الأدب — باب التورية — شعراء التورية وأحصاهم على وجه التقريب . من لدن القاضى الفاضل حتى زمانه . وقد أشرنا إليهم عند حديثنا عن طبقات الشعراء .

ونحن نعتقد أن ابن نباتة كان فارس التورية غير منازع . وأن الشهاب الحلبي والشهاب بن فضل الله العمرى لم يكونا من فرسانها — كما أشرنا — .

ومثال التورية قول عز الدين الموصلي :

لقد كنت لى وحدى ووجهك قبلتى وكنا وكانت للزمان مواهب
فعارضنى فى ورد خدك عارض وزاحمنى فى ورد ريقك شارب[1]

والتورية فى قوله : عارض ، بمعنى المعارض والمزاحم ، وبمعنى شعر صفحة الخد ، وهو المراد .

وفى قوله : « شارب » بمعنى المزاحم الذى يشرب ، وبمعنى شعر أعلى الفم ، وهو المراد .

ومثالها أيضاً قول الجمال بن نباتة .

قبلته عند النوى فتمررت تلك الحلاوة بالتفرق والجوى
ولثمته عند القدوم فحبذا رطب الشفاه السكرى بلا نوى

والتورية فى قوله « نوى » بمعنى « بذر الرطب » وبمعنى « الفراق » وهو المراد .

ومثالها أيضا قول الجمال بن نباتة كذلك . وقد مزجه بالتضمين ونقل المضمن من باب المدح إلى باب الغزل ، فافتن بذلك ضروبا من الافتنان :

وضعت سلاح الصبر عنه فما له يقاتل بالألحاظ من لا يقاتله
وسال عذار فوق خديه جائر على مهجتى فليتق الله سائله[2]

وقد ضمن بيته الثانى جزءاً من بيت أبى تمام وهو قوله فى المدح :

ولو لم يكن فى كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

والتورية فى قوله « سائله » من سأل يسأل ، أو من سال يسيل وهو المراد .

ومثالها أيضا قول سراج الدين الوراق :

(١و٢) أبيات التورية عن خزانة الأدب .

رأيت قطوف عفوك دانيات فنحن على المدى نجني ونجني
وكم بات المسيء قرير عين وسيفك إن حللت قرير جفن

والتورية في قوله « جفن » بمعنى «جفن العين » ويلزم منه الراحة والطمأنينة ، وبمعنى « قراب السيف » ويلزم عنه الاستقرار أيضاً ، وهو المراد .

ومثالها أيضا قول محي الدين بن قرناص :

مذ أتينا نبغي زيارة دوح قد حبانا بالجود والإكرام
ناولتنا أيدى الغصون ثمارا أخرجتها لنا من الأكمام

والتورية في قوله « الأكمام » بمعنى أطراف الثياب مما يكون على الأيدى . وبمعنى مكان خروج الثمر ، وهو جمع « كم » وهو المعنى المراد .

د — الاستخدام :

وهو لون بديعي طريف ، ومسلك تعبيري جميل ، قريب الشبه بالتورية ، وهو على ضربين :

الأول : استعمال اللفظ بمعنى من معانيه اللغوية ، ثم إعادة ضمير أو أكثر ، عليه بمعنى آخر من معانيه قد يكون حقيقيا ، وقد يكون مجازيا .

والثاني : استعمال لفظ له معنيان — أي من المشترك الحقيقي أو المجازى — وفي الكلام ما يرشح لمعناه الأول ، وما يرشح لمعناه الثاني ، ويراد كلا المعنيين .

ومن النوع الأول قول ابن نباتة :

سقى الله أكناف الغضى سائل الحيا وإن كنت أسقى أدمعا تتحدر
وعيشا نضا عنه الزمان بياضه وخلفه في الرأس يزهو ويزهر

(١، ٢، ٣) المصدر نفسه .

والاستخدام فى قوله « بياضه وخلفه ، فالمراد ببياض العيش صفوه وجماله ورخاؤه وأمنه . والمراد بالضمير فى « خلفه » – وهو يعود على « بياض العيش » ـــ الشيب .

ومثاله أيضاً قول ابن نباتة من القصيدة نفسها :

إذا لم تفض عينى العقيق فلا رأت منازله بالوصل تبهى وتبهر
وإن لم تواصل عادة السفح مقلتى فلا عادها عيش بمغناه أخضر

والاستخدام فى قوله « العقيق » فهو بمعنى الدمع ، وفى الضمير الراجع إليه فى « منازل » استخدام بمعنى المكان المسمى « العقيق » .

وكذلك فى قوله « السفح » فهو بمعنى ذرف الدموع . وفى الضمير الراجع إليه فى « مغناه » استخدام بمعنى المكان المسمى « السفح »

ومثاله أيضاً قول تقى الدين بن حجه فى بديعيته مشيراً إلى اسم النوع :

واستخدموا العين منى فهى جارية وكم سمحت بها أيام عسرهم

والاستخدام فى قوله « العين » فهى العين الباكية ، وأعاد عليها فى قوله « بها » بمعنى المال .

والثانى : استخدام لفظ له معنيان ، يتوسط بين ما يرشحه لأحد المعنيين ، ويسبقه ، وبين ما يرشحه للمعنى الثانى ويلحقه .

وينسب هذا النوع إلى الشيخ بدر الدين بن مالك .

قال ابن حجة نقلا عن الصفدى فى كتابه « فض الختام » :

وأعظم الشواهد على طريقة ابن مالك ومن تبعه ، قوله تعالى : « لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت » . فإن لفظة « كتاب » يحتمل أن يراد بها الأجل المحتوم ، والكتاب المكتوب . وقد توسطت بين لفظتى : « أجل

ويمحو » . فاستخدمت أحد مفهوميها — وهو الأمد — بقرينة الأجل .
واستخدمت المفهوم الآخر — وهو الكتاب المكتوب — بقرينة يمحو » .

قال ابن حجة : « ومنه قوله من القصيدة النباتية :

حويت ريقاً نباتياً حلا فغـدا ينظم الدر عقدا من ثناياك

فإن لفظة « نباتى » يحتمل الاشتراك بالنسبة إلى السكر . وإلى ابن نباتة الشاعر . وقد توسطت بين الريق وحلاوته ، وبين الدر والنظم والعقد . فاستخدمت أحد مفهوميها وهو السكر النباتى بذكر الريق والحلاوة ، واستخدمت المفهوم الآخر وهو قول الشاعر النباتى بذكر النظم والدر والعقد . وليس فى جانب من المفهومين أشكال »[1] .

والنوع الأول هو الذائع الشائع . قال عنه ابن حجة : « وعلى هذه الطريقة مشى أصحاب البديعيات والشيخ صفى الدين الحلى والعميان — أى ابن جابر الأندلسى — والشيخ عز الدين » — « أى الموصلى » — وهلم جرا » .

والاستخدام — كما رأيت — مسلك دقيق لا يتيسر لكل أديب . قال عنه صلاح الدين الصفدى فى كتابه : « فض الختام » :

« ومن أنواع البديع ما هو نادر الوقوع ملحق بالمستحيل الممنوع . وهو نوع التورية والاستخدام . الذى تقف الأفهام حسرى دون غايته عند مرامى المرام » .

وروى أن الأوائل لم يستطيعوا أن يتغلبوا على صعابهما ويذللوا جموحهما حتى جاء القاضى الفاضل . قال الصفدى :

« وأظن أن القاضى الفاضل — رحمه الله تعالى — هو الذى ذلل منهما

---

(١) راجع خزانة الأدب ، باب الاستخدام

الصعاب . وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب . » . . إلخ .

وسار على نهج الفاضل كثيرون بعده وزادوا عليه .

وابن حجة يقدم الاستخدام على التورية ، ويقول ما نصه :

« وهو أعلى رتبة عند علماء البديع من التورية ، وأحلى موقعاً فى الأذواق السليمة ولكن قل من ظفر منه بسلامة التخلص من علق النقد ، وصعد من غور التعسف إلى نجد السهولة » .

ونلاحظ أخيراً على الاستخدام أنه قليل الورود فى النثر بالنسبة إلى الشعر ، وأنه فى الجملة من أندر أنواع البديع وقوعا فى أساليب الأدباء . وأن نوعه الأول أكثر ذيوعا من نوعه الثانى - كما يقول ابن حجة — ولكن كان ذلك فى زمانه . أما فى عصرنا الحديث الذى نفض فيه الأدباء يدهم من كثير من أصباغ البديع وزايلوا بذلك كثيراً من مناهج العامة ومسالكهم فى التعبير ، فإننا نشعر بإقبال العامة على اصطناع الاستخدام فى تعبيراتهم ، ولا سيما نوعه الثانى فإنه أكثر رواجا .

هـ — التضمين :

التضمين هو أن يدخل الشاعر فى شعره بعض المأثور من كلام غيره ، بتصرف أو بغير تصرف . وقد يكون هذا التصرف قليلا أو كثيراً . وقد يكون بشىء من التغيير فى اللفظ يقتضيه المقام . وإذا استطاع المضمن أن يغير تضمينه عن اتجاهه الأصلى ، دل بذلك على قدرة أدبية ولطف ذوق عميق . كأن يوجهه — مثلا — من الغزل إلى الهجاء ، أو من المدح إلى الغزل ويعتبر هذا أحد فنون الأدب ، ولا ريب .

وقد سمى ابن حجة هذا النوع « الإيداع » . وعرف « التضمين » بأنه توقف

البيت فى معناه على البيت الذى بعده . — وهذا الذى يسميه بعضهم « الإيطاء » .

والتضمين — أو الإيداع على رأى ابن حجة — فى مقدمة مسالك البديع التى اصطنعها أدباء العصر المملوكى . وأولعوا بها وأكثروا منها كثرة ملحوظة ، وتلاعبوا بها وأجادوا فيها ، وخرجوا بالمضمن فيها من بابه إلى أبواب أخرى .

ويصرح مجير الدين بن تميم بولوعه بالتضمين فيقول :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيـــه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى [(١)]

ومن يستدل بكثرة تضمينهم على ضعفهم وقلة حيلتهم فى ابتكار الجديد ، وعلى جنوحهم إلى السرقة ، يظلمهم ظلما مسرفا . فإن الناظر فى أغلب تضميناتهم يرى فيها سيما التجديد وسعة الحيلة ورهافة الذوق ، فى تحويل المضمن عن مناسبته الأولى إلى مناسبته الجديدة . دون أن يعتريه قلق أو نبو أو غربة ، لما يتمتع به فيها من حسن ربط ودقة صلة وطيب جوار .

وقد قال ابن حجة : « وأحسن الإيداع ما صرف عن معنى غرض الناظم الأول » .

والتضمين أنواع ، منها أن يختار الشاعر شطر بيت — صدره أو عجزه — ويضمنه شعره فينظم للصدر عجزا ، أو للعجز صدرا . وقد يضمن البيت كله ، ويدخله فى عداد قصيدته . وقد يضمنها أكثر من صدر ، أو أكثر من عجز ، أو أكثر من بيت . كما قد يتخذ صدور قصيدة بأكملها أو جزء كبير منها ، وينظم لها أعجازا ، أو العكس .

والتضمين يفترق عن التشطير . إذ التشطير أن ينظم الشاعر لصدر البيت المضمن عجزا ، ثم فى بيت آخر ينظم لعجزه صدرا . وهلم جرا فى بقية أبيات القصيدة المشطرة .

---

(١) باب الإبداع بخزانة ابن حجة .

والتشطير بهذا يتصل حديثه بحديث الوزن والقافية ، دون أن يكون من فنون البديع .

وهو أيضاً غير التشطير الذى هو ضرب من ضروب السجع ، يقتضى تقسيم كل شطر فى البيت شطرين ، يصرع بينهما بقافية واحدة ، مع المغايرة بين قافيتى الشطر الأول من البيت ، وقافيتى الشطر الثانى منه .

ومثاله قول صفى الدين الحلى فى بديعيته :

بكل منتصر للفتح منتظر وكل معـــتزم بالحق ملتزم

وأولع شعراء العصر المملوكى بهذا التضمين أو الإيداع . ويأبى ذوق ابن نباتة ومن سار تحت لوائه ونهج نهجه من فحول الشعراء ، أن يصطنعوا هذا التضمين دون أن يحلوه بالتورية أو ما يناسبها من أنواع البديع .

وقد قال جلال الدين القزوينى فى التلخيص :

« وأحسنه مازاد على الأصل بنكتة كالتورية والتشبيه » (١)

ومن لطائفهم فى التضمين ، ما تبادله جمال الدين بن نباتة وصلاح الدين الصفدى ، من العتاب . فقد عمد كل فحل من هذين الفحلين إلى معلقة امرىء القيس ، فضمن قصيدة عتابه أعجازها ، فأخرجها بذلك عن مناسباتها القديمة سواء أكانت فى الوصف أم الغزل أو غيرهما ، وأحلها كريمة مطمئنة فى مناسباتها الجديدة .

وبدأ الصفدى تضمينه فقال معاتباً الجمال بن نباتة :

أفى كل يوم منك عتب يسوءنى كجلمود صخر حطه السيل من عل
وترمى على طول المدى متجنيا بسهميك فى أعشار قلب مقتل

---

(١) خزانه الأدب باب الإبداع ص ٤٦١ .

فأمسى بليل طال جنح ظلامه ... على بأنواع الهموم ليبتلى
وأغدو كأن القلب من وقدة الجزى ... إذا جاش فيه حميه غلى مرجل .. إلخ[1]

وأجابه الجمال بن نباتة فقال :

فطمت ولائى ثم أقبلت عاتبا ... أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
بروحى ألفاظ تعرض عتبها ... تعرض أثناء الوشاح المفصل
فأحييت وداً كان كالرسم عافيا ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
تعفى رياح العذر منك رسومه ... لما نسجتها من جنوب وشمال . إلخ[2]

وقد سار كل من الشاعرين هذا المسار إلى آخر قصيدته . فأخرجا أعجاز المعلقة عن طريقها إلى طريق العتاب والمودة .

وانظر إلى التورية اللطيفة فى قول ابن نباتة : « أفاطم » وقد مهد لها بقوله « فطمت ولائى » ، فصارت ذات معنيين : المعنى الأصلى على التشبيه . والمعنى الجديد اسم فاعل من فطم ، وهو المراد هنا .

وقوله : « أفاطم مهلا .. » إلخ صدر بيت فى المعلقة وليس عجزا ـ بخلاف الأشطر الأخرى .

وبمناسبة تضمين أشطر المعلقة نذكر ما رواه ابن حجة ، قال :

« وأما أعجاز قصيدة امرىء القيس اللامية المعلقة، فإن جماعة من أهل الأدب ثابروا على تضمينها وتضمين البعض منها وسبكوها فى قوالب مختلفة الأنواع » .

نقول ، ومن ذلك قصيدة فى التشوق أرسلها صدر الدين بن الآدمى الحنفى إلى تقى الدين بن حجة الحموى ، ضمنها أعجاز المعلقة . ورد عليه ابن حجة بقصيدة ضمنها أعجازاً من المعلقة .

وداعب الأديب البارع والشاعر المصرى المبدع فخر الدين بن مكانس ، رجلا

(١، ٢) باب الإلايداع فى خزانة الأدب .

من أصحابه كان كبير الأنف ، فوصف أنفه بأبيات ضمنها أعجازا من معلقة امرىء القيس ، فأخرجها إلى وصف الأنف مع الدعابة والسخرية والهجاء .

وقد قال ابن حجة عن أبيات ابن مكانس :

« والذى أقوله إن المهيع الذى اخترعه الصاحب فخر الدين بن مكانس ، ومشى عليه فى تضمين هذه المعلقة يعد من المعلقات فى بابه .... وأتى بما لا اختلج فى صدر متأدب ، ولا سمع بعده المرقص والمطرب »

ومن أبيات الفخر بن مكانس قوله :

تأنف عن وصف الغزال تغزلى بلحية أنف ذى عقاص ومرسل

من البق فيها جملة قد تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

فياقبح شعر فوق أنف معرقص أثيث كقنو النخلة المتعثكل

وقالوا اختبا فى شعره فكأنه كبير أناس فى بجاد مزمل .. الخ[1]

هذا ومن تضمينا تهم كذلك قول ابن نباتة :

يا من يوفر طيفها سهرى لقد أمن ازديارك فى الدجى الرقباء

فيه تضمين لشطر من بيت المتنبي :

أمن ازديارك فى الدجى الرقباء إذ حيث كنت من العيون ضياء

ولسراج الدين الوراق :

وضاع خصر لها ما زلت أنشده إذ رق لى ورثى للسقم من بدنى

وقال لى بلسان من مناطقه لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

ضمنه الشطر الثانى من بيت المتنبي :

---

(١) باب الإبداع بخزانة الأدب .

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخـــاطبتى إياك لم ترنى

وللشاب الظريف فى الغزل :

وأهيف فاق الورد حسنا بوجنة أنزه طرفى فى رياض جنـــانها

كأن بها من حول خاليه حمرة تشب لمقرورين يصطليانهـــا

ضمنه الشطر الأول للأعشى فى المحلق :

تشب لمقرورين يصطليانهـــا وبات على النـار الندى و المحلق

(و) الاقتباس :

الاقتباس تضمين الـكلام بعضاً من آى القرآن الـكريم . ويصح أن يـكون هذا المضمن غير خارج عن معناه الذى ورد به فى القرآن الـكريم . ويصح أن يكون خارجا عنه بشىء من التصرف . وفى الحالة الأولى يعتبر المضمن قرآنا، بشرط ألا يكون فيه أدنى تحريف لفظى . وفى الحالة الثانية لا يعتبر قرآنا ولو لم يتغير لفظه . ولو ضمن بشىء من التغيير اللفظى فلا يعتبر قرآنا ولو وافق فى معناه معنى ما اقتبس منه . — وفى رأيى أن هذا اللون ضرب من ضروب الحل .

وعلى كل ، فهذه كلها ضروب من الاقتباس ، وهى أنواع بديعية .

وأكثر مقتبسات الشعراء من النوع الذى فيه لفظ القرآن دون معناه ، ودون شبه مناسبته . أو دون المحافظة الدقيقة على معناه .

وبعض علماء البـديع يعتبرون التضمين من كلام الرسـول عليه الصـلاة والسلام ، اقتباسا .

وبعضهم يدخل فى الاقتباس : التضمين « الإيداع » ، والتوجيه بمصطلحات العلوم ومأثور ألفاظها ، وبذلك يجعله أعم .

والاقتباس فى الجملة أدق من التضمين ، نظراً لما له من الصلة بكلام الله عز وجل. وهو أحوج منه إلى الذوق الصقيل والأدب الكامل والفهم الدقيق ، الذى يحسن اختيار المناسبة ، دون أن يعترى اللفظ شذوذ أو قلق أو حرج ، ودون أن يبدو الكلام مرذولا مردوداً ، لامقبولا محموداً . وإذا كان فى النثر محتاجا إلى دقة وسعة ذوق ، فهو فى الشعر أشد احتياجا إلى ذلك .

هذا . ولا بد من القول إن فطنة الشعراء فى اقتباساتهم لفتتنا إلى كثير من الآيات القرآنية التى جاءت على موازين الشعر . والاقتباس بدوره أحد الأدلة البارزة على تأثر الأدباء بالدراسات القرآنية .

وقد افتن شعراء العصر المملوكى فى هذا اللون البديعى الجميل . ومن يستقرىء اقتباساتهم يشهد لهم بطول الباع واليد الصناع ، والأدب الجم والذوق الأصيل. ونَدَر أن تجد من بينهم شاعرا ليس له اقتباسات .

وكثيرا ما أودعوه مقطوعاتهم ، أو نظموا المقطوعة ونحوها من أجله ، حينما يستقيم لهم معنى يروق فيه اقتباس . وسلكوا به مسالك الغزل والمدح والوصف والإخوانيات بل والحماسة والرثاء وغيرها وكثيرا ماجملوا به قصائدهم ومطولاتهم ، ومزجوه بالتورية أو غيرها .

ومن الاقتباسات قول محيى الدين بن عبد الظاهر فى النسيم :

إن كانت العشاق من أشواقهم   جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذى أتلو لهم ياليتنى   كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

ومنه قول جمال الدين بن نباتة:

سكنت وابنى بدار قوم   أوقاتنا تارة وتارة
فإنها بالخصام نار   وقودها الناس والحجارة

ومنه قول ابن حجر العسقلانى :

خاض العواذل فى حديث مدامعى ... لما جرى كالبحر سرعة سيره
فحبسته لأصون سر هواكم ... حتى يخوضوا فى حديث غيره

ومنه قول صفى الدين الحلى :

قلوبنا مودعة عندكم ... أمانة يعجز عن حملها
إن لم تصونوها بإحسانكم ... أدوا الأمانات إلى أهلها(١)

ولمحي الدين بن عبد الظاهر فى الحماسة ووصف الحرب :

وجاءت جنود الله فى العدد التى ... تميس لها الأبطال يوم الوغى عجبا
فعمنا بسد من حديد سباحة ... إليهم فما اسطاع العدوُّ له نقبا(٢)

ولابن نباتة :

سألت قلبى عن ذوى العشق وعن ... ما أوتيته من فنون الحسن مى
فقال لى إنى وجدت امرأة ... تملكهم وأوتيت من كل شى(٣)

ز — الطباق :

الطباق ذكر الشيء وضده . وفيه تفصيل واسع لا مجال لبيانه فى هذا المقام . ونجتزىء بأمثلة له . فمنها : قول محي الدين بن عبد الظاهر فى وصف الشبابة :

وناطقة بالنفخ عن روح ربها ... تعبر عما عندنا وتترجم
سكتنا وقالت للقلوب فأطربت ... فنحن سكوت والهوى يتكلم

والطباق بين « سكوت » و « يتكلم » .

ولمجير الدين بن تميم مع التورية فى الشكوى :

(٣،٢،١) راجع خزانة الأدب باب الاقتباس ، وفوات الوفيات ج ١ فى ترجمة ابن عبد الظاهر وراجع كتب تراجم الشعراء ودواوينهم .

لما لبست لبعــــده ثوب الضنى وغدوت من ثوب اصطبارى عاريا
أجريت واقف مدمعى من بعده وجعلته وقفا عليـــه جاريا

والطباق بين « لبست وعاريا » وبين « أجريت وواقف مدمعى » . — والتورية فى « وقفاً وجارياً » .

ولجمـــال الدين بن نباتة مع التورية أيضاً فى المدح :

قصدت معاليك أرجـــو الندى وأشكــو من العسر داء دفينا
فما كان بينى وبين اليســـار سوى أن مددت إليك يمينا

والطباق بين « اليسار واليمين » وفى « اليسار » تورية ، بمعنى اليد ، وبمعنى الغنى وهو المراد .

ونجتزىء فيما يلى بذكر أمثلة لأنواع أخرى راج استعمالها حينذاك . فمنها :

ح – المقابلة :

ومنها قول صفى الدين الحلى :

ورنح الرقص منه عطفا خف به اللطف والدخول
فعطفه داخـــل خفيف وردفه خارج ثقيـــل

والمقابلة بين « داخل خفيف » و « خارج ثقيل ، وهى مصطلحات موسيقية ورى بها .

ولابن حجة فى بديعيته :

قابلتهم بالرضـــا والسلم منشرحا ولو غضـابا فيا حربى لغيظهم

والمقابلة واضحة بين ألفاظ الشطر الأول ، ونظائرها فى الشطر الثانى .

ط — الاكتفاء : وهو حذف كلمة أو جزء من كلمة من القافية ، يتطلبه المعنى ، ولكنه مع حذفه يفهم من السياق . ومنه قول ابن نباتة :

ما كان فى العشرين يهفو منطقى   أيكون فى الخمسين فعل هافى
شيم عن السلف الذكى ورثتها   لا فى الصبا عيب على ولا فى[2]

أى « ولا فى الكبر » .

وقوله أيضا :

فى نظمه عنكم وخط يراعه   صفر فلا ألفا أجاد ولا با
باب البديع فتوحكم وأنا امرؤ   لا طاقة لى فى البديع ولا با[3]

أى « ولا باب » أو « ولا باع » .

ى — حسن التعليل : وهو ذكر علة أدبية لظاهرة أو حادثة :

ومنه قول الشاب الظريف مادحا لابن عبد الظاهر :

أغر ماأبدت السحب الحيا لسوى   تقصيرها عن نداه حين ينهمل[4]

ك — لزوم مايلزم : وهو التقيد بقيود فى القافية ، لايشترطها العروضيون .
ومنه قول ابن أبى حجلة المغربى يمدح القاضى ناصر الدين النشائى كاتب الدست ، قال .

قال العواذل فى المحبوب ماشاءوا   ومادروا أن أذن الصب طرشاء
يا عاذلى دع ملامى فى الحبيب فما   عينى كعينك فى رؤياه خفشاء

---

(١) بديعية ابن حجة .   (٢ ، ٣) خزانة الأدب باب الاكتفاء
(٤) ديوان الشاب الظريف .

هـذا الحبيب لنا ورد بوجنته ... وابن النشائى له كالزهر إنشاء
لناصر الدين أوراق مدبجـــة ... كأنها روضة بالزهر رقشاء ... الخ [١]

التزم الشاعر فى القافية الهمزة الممدودة والشين قبلها .

ل — التورية بالمصطلحات :

ومنه قول ناصر الدين بن النقيب .

يا مالكى ولديك ذلى شـافعى ... مالى سألت فما أجبت سؤالى
فوخـــدك النعمان إن بليتى ... وشـكيتى من طرفك الغزالى [٢]

استخدم الشاعر الألفاظ : مالكى وشافعى وأجبت سؤالى والنعمان والغزالى . وهى معروفة فى الفقه والـكلام .

ومثله قول الشاب الظريف :

يا ساكنا قلبى المعنى ... وليس فيه هواك ثانى
لأى معنى كسرت قلبى ... وما التقى فيه ساكنان

استخدم الشاعر : ساكن ، وقلب ، وكسرت ، والتقى ساكنان ، وهى معروفة فى النحو والصرف .

ومن التوجيه بالمصطلحات أيضـــاً قول علاء الدين الوداعى مادحا ، مع التورية :

من أم بابك لم تبرح جوارحه ... تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والـكف عن صلة ... والقلب عن جابر والأذن عن حسن

---

(١) ديوان ابن أبى حجلة المغربى .
(٢) فوات الوفيات ج ١ ص ١٥٠ .

والتوجيه فى قوله : قرة ، وصلة ، وجابر ، وحسن ـ وهم من رواة الحديث .
وكلها توريات مناسبة لما سبقها .

وهناك ألوان بديعية كثيرة . وقد بلغت ألوان البديع أكثر من مائة وخمسين ، من بينها ما يصطنع فى النثر ، وقد بدا ذلك فى خزانة الأدب وشروح البديعيات ، وغيرها من الكتب التى تحدثت عن فنون البلاغة والبديع .

وقد استنفد شعراء العصر المملوكى جهداً كبيراً فى اصطناعها ، بل وتسابقوا فى إبرازها ، ولم يبرأ شعرهم فيها من التكلف بل ومن الغثاثة والسقوط أحيانا . ولكن هذا كله يرسم لنا صورة عنهم وعن مدى تأثرهم الواسع بألوان الثقافات التى ثقفوا فيها ، وبملابسات البيئة التى سبقت لنا الإشارة إليها .

وليس من همنا هنا الاستيعاب والاستقصاء ، ولكن التمثيل والتدليل . فحسبنا من أصباغ البديع ما ذكرنا ، ومثلنا له .

---

٣ – الوضوح

نقصد بالوضوح أن تكون المعانى قريبة التناول يفهمها القارىء المتعاطى للأدب عند قراءتها ، ويفطن إلى مراميها ويدرك تصويرات أساليبها . دون حاجة إلى كد الذهن وشحذ القريحة وإجهاد النفس وحسن النظر . ويكاد يفهمها دون معاودة . وأن تكون المعانى غير عميقة وليست معقدة تعقيدا يبعدها عن الإدراك ويخفيها عن الفهم ، وأن تكون نتيجة النظرة الأولى للموضوع ، تناولته من جهته البارزة الواضحة التى يفطن إليها الباحث لأول وهلة ، دون تناول لأطرافه وتفاصيله ودون سوق لتعليلاته ، ودون تسجيل لموازنة أو مقارنة أو استنباط ،

ووضوح المعانى والأخيلة ، قد تكون نتيجة من نتائج تمكن الشاعر من اللغة ، وقدرته التامة على التعبير عن تصوراته بأساليب سهلة ذات ألفاظ وتراكيب لا تند عن معاجم أوساط القراء ، بل عذبة مستساغة لا يكتنفها غموض ولا يشوبها إبهام . وهو أيضاً قد يكون نتيجة من نتائج سيطرة الشاعر على تصوراته مع وضوح هذه التصورات فى عالم خياله وضوحا كاملا ، ومع استساغته التامة لما وقع عليه خاطره وخياله من هذه التصورات . وقد يكون أيضاً نتيجة من نتائج الفنية الشعرية الموهوبة التى تفطن خواطرها إلى الألفاظ السائغة المناسبة لإسكان شوارد المعانى ، فتبدو فيها مستقرة مطمئنة واضحة المعالم لا خفاء فيها ولا غموضة .

وقد تكون المعانى هنا عميقة أو مركبة أو معقدة ، وقد تكون التصويرات بعيدة ، لا يقدر على استحضار مضمونها خاطر المثقف العادى ـ عادة ـ ولكن تمكن الشاعر من اللغة وطرق أدائها ، وهيمنته على تصوراته وإدراكه التام لها، وفطنة موهبته الفنية ، كفيل بأن يقدره على صبها فى قوالب من اللفظ يسهل منها إدراكها . أما إذا تعثر فى إخراجها واستعان ببعض التشبيهات الغريبة أو الكنايات البعيدة ، أو قدم وأخر ، أو حذف أو ذكر ، دون غاية بلاغية وضرورة معنوية ، ودون هدف مقصود . فإن هذا يوقعه فى الغرابة .

وإذا طغى الاشتغال بالعلوم العقلية ، والنظر فى المذاهب الفلسفية ، والتعمق فى دراسات العلوم المختلفة ونحو ذلك على الشاعر ، أبعده عن الوضوح وقرب بينه وبين التعقيد . إذ من شأن هذه الدراسات أن تنضح على الدارس وتجنح به إلى المعانى والأفكار البعيدة الغور ، الغريبة التصور ، التى لا تشغل — عادة — عامة القراء ، والتى تند — عادة — عن مداركهم . إذ لا بد لإدراكها من معلومات خاصة ومقدمات متعددة تمهد لها ، ولا بد لإدراكها من استعداد هذبه طول النظر ، واطلاع على آراء ومصطلحات ، مع مقارنات وموازنات، إلى غير ذلك.

والوضوح صفة غالبة على معانى الشعراء فى عصر المماليك . ويبدو أن العوامل التى نوهنا بها لها دخل فى هذه الظاهرة وبروزها . وقد كان الشعراء ألصق بالشعب منهم بالخاصة . فضلا عن أنهم كانوا من صميمه فى هذا الوقت الذى ساد فيــــه نظام الطبقات ، أو على الأقل نظام طبقتين لا تجانس بينهما ولا جامعة تربط صلاتهما سوى الدين .

ولا نشك قط فى أن نشأة الأكثرية الساحقة من شعراء العصر ، من بين الأوساط الشعبية الصميمة ، بل ومن الممتهنين للحرف الدنيا من حرف المجتمع ، مع شدة لصوقهم بالشعب وضعف تهافتهم — ككثير من أسلافهم — على الاتصال بالخاصة وأشباه الخاصة والتمسح بأعتابهم واستجدائهم . نقول لا نشك فى أن ذلك كان له أثره فى ظواهر عدة بدت فى أشعارهم ، من بينها هذا الوضوح والقرب .

فالشعب المصرى منذ زمن قديم عاش وهو يتأبى بفطرته ونشأته فى بيئته الطبيعية ، على الغموض والإبهام ، ويجنح غالباً إلى الصراحة والوضوح . ومنذ زمن قديم وهو يتأبى على الغوص الشديد وراء المعانى المعقدة ، ويتأبى على حياة التفلسف المعقـــدة ، التى تنشأ عادة عن عمق النظر وطول البحث ودقة المقارنة الحرة ، والجرى وراء الحقائق العقلية والاستدلال عليها قانعاً بما يجىء إليه من الأديان ، وبما توحى به من النظر والإيمان .

وهذه أيضاً طبيعة الشعر العربى كله ، منذ العصر الجاهلى . حتى جعلوا ذلك « عموداً » للشعر ، من خرج عليه حمل عليه النقاد ، كحملتهم على أبى تمام . ولذلك قالوا : أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر هو البحترى . وذلك لأنه شعر طبع ، أو كأنه شعر طبع ، لأنه لم يزايل عمود الشعر .[1]

---

(١) راجع كتاب « النابغه الذبيانى » فى فصل أثر الصحراء فى الشعر الجاهلى . وكتاب « الفتوة عند العرب » فى فصل العقلية العربية . والكتابان للأستاذ عمر الدسوقى .

وفى هذا العصر بالذات لم ترج حركة ترجمة المعقولات . ولم يكن هناك جنوح كبير نحو الدراسات العقلية والبحوث الفلسفية ، لأن العصر كان عصر تجديد وإحياء لعلوم الدين وبعث لحقائق الإسلام ، وكفاح فى سبيل تثبيت عقائده ونشرها وإيضاحها وتعليلها .

لقد شمر الفقهاء — فقهاء هذا العصر — عن ساعد الجد فألفوا فى الفقه وجمعوا معلوماته واجتهدوا فيه بالرأى . ونشط علماء الكلام فكتبوا الرسائل وتناقشوا فى المجالس والمحاكمات وحلقات الدرس ، فى مسائله ، ورد بعضهم على بعض . وكافح بعضهم الشذاذ والخارجين ، وامتلأت المكتبات برسائلهم فى هذا السبيل ، كما حفلت كتب التاريخ بأنبائهم وشنوا الغارة على الرافضة والجهمية والمعطلة والنصرانية وغيرهم . ودار ذلك فى فلك الإسلام وآرائه وروحه .

فلا غرابة وقد نشأ الشعراء فى هذا المجتمع — أن يتأثروا بنزعاته ، وأن يغلب عليهم الوضوح والقرب فى تسجيل المعانى وتصويرها .

وأعتقد أن هذه الخصوصية جعلت نتاجهم أحب إلى القلوب وأقرب إلى العقول وأشهى إلى النفوس من نتاج غيرهم . فليست هاتان الصفتان قدحا فى نتاجهم ولا عيبا فى شعرهم ، بل هى أدل على شاعريتهم وفهمهم لرسالة الشعر ، فالشعر — كان وسيبقى — عاطفة قبل أن يكون فكراً ، ووجداناً قبل أن يكون رأياً ، وخيالا قبل أن يكون حقيقة ، وتأثيراً نفسياً عاجلا قبل أن يكون حثا على النظر الرتيب الوئيد .

ولا يقلل من شأن هاتين الصفتين أو يطعن فيهما ، اتجاه الشعراء إلى الحلية البديعية . فقد يقال إن الحلية تؤدى إلى الغموض والإبهام . وحقاً قد تؤدى إليهما ، ولكن هذا ليس إلا نادراً . والحلية إنما تصطنع تجميلا للمعنى وإبرازاً له فى صورة واضحة مزدانة تتضح فيها محاسن له خافية ، ومفاتن له مستكنة ، وظلال له كانت حائلة .

يتكامل هذا العمل لأصباغ البديع ما دامت محبوكة فى حنكة ، ومصوغة فى حكمة ، وموشاة فى ذوق ، ليس فيها من المبالغة ما يمج ، ولا من الثقل ما يستسمج، ولا من التهويل ما يهرج ، شأنها فى ذلك شأن كل أسلوب .

وإليك بعض الشواهد على « الوضوح والقرب » ، فضلا عما قدمنا ، ولم تقلل من شأنهما وبروزهما أصباغ البديع .

يقول تقى الدين بن حجة الحموى متغزلا وموريا تورية مجنسة :

هويت غصنا لأطيار القلوب على قوامه فى رياض الوجـــد تغريد
قالت لواحظه إنا نســـود على بيض الظبا فلت أنتم أعين سود « سود » (١)

المعنى الواضح :

أحب الشاعر معشوقا معتدل القامة كالغصن ، إذا رأته القلوب الشبيهة بالأطيار فى حركاتها غردت وغنت على قوامه ـ أى بسببه ـ فى رياض وجدها . والوجد ـ عادة ـ نار ولوعة . ولكنه رياض لما يتمتع به المحب فيه من اللذة .

ولواحظ المعشوق ـ يريد عيونه ـ قالت إنها تسود على بيض الظبا . أى أنها أحد من السيوف وأقطع من الأسنة . ولهذا تكون لها السيادة عليها . فقال لها الشاعر : أنتم أعين سود . متصفة بهذا السواد الذى هو جمال جذاب فلها أن تسود .

وفى قول الشاعر : « سود » تورية مجنسة . لها معنيان : الأول جمع سوداء ، والثانى فعل أمر من ساد يسود .

وفى البيتين أصباغ بديعية منها : الاستعارة المصرحة فى « غصنا » . والتشبيه

---

(١) تأهيل الغريب باب غزل التورية .

البليغ فى « أطيار القلوب » ، و « رياض الوجد » . والاستعارة المصرحة فى « تغريد » بمعنى حركات القلوب واستبشارها . والاستعارة التبعية فى « قالت لواحظه » . والتورية فى « سرد » . والطباق فى « بيض وسود » . ومراعاة النظير فى ذكر الغصن والأطيار والرياض والتغريد .

ومدح ابن نباتة الملك المؤيد صاحب حماة فى قصيدة قال منها :

ملك باهر المكارم يروى وجه لقياه عن عطاء وبشر
زرت أبوابه فقرب شخصى ومحا عسرتى ونوه ذكرى
وتحابى من المكارم نحوا صاننى عن لقاء زيد وعمرو
وتفننت فى مفاوضة الشكر م إلى أن أعيا التطول شكرى

يقول الشاعر إن هذا الملك مكارمه كثيرة ونفيسة ومبذولة بغير كلفة ، فهى باهرة . ولقاؤه يؤذن بالعطاء والبشر ، العطاء الكثير الباهر ، والبشر الدال على أصالة الأريحية وعراقة الكرم وطيب اللقاء والفرح به . فليس فيه زيف .

والشاعر يورى أو يوجه بلفظتى « عطاء وبشر » كأنهما من رجال الحديث . ومهد لذلك بكلمة « يروى » .

وفى كل ذلك — مع وضوح المعانى وكثرتها ووجازة التعبير عنها ـ إثارات فكرية لمعان أخرى ، وتذكير بميدان آخر غير ميدان المكارم والمنح ، وتوجيه إلى الموازنة والربط بين الميدانين .

وفى البيت الثانى يصرح الشاعر فى وضوح ، بأنه زار أبواب هذا الملك ، فحظى من لدنه بالقرب وطيب اللقاء . وفى هذا مايشعر برفع المنزلة وتقدير الأدب ولطف الحديث . ويصرح الشاعر بأن الملك محا عسرته . ودل بذلك على أنه كان يعانى ضنكا وضيقا فمحاهما الملك ، ونوه ذكره أن رفع مكانته وبسط له فى مجلسه .

تطالعك هذه المعانى فى يسر وسهولة وسرعة . وفى البيت رسم وإيضاح كامل لحالة الشاعر قبل رحيله إلى هـذا الملك ، وبعد وصوله إليه . فكأنما هى قصته حكاها فى بيت واحد .

وفى البيت الثالث يلقى الشاعر على قصته هذه أضواء جديدة ، ويوضح منها ما أجمله فى البيت السابق . فيذكر أن المؤيد افتن فى مكارمه ، وسلك بها سبيلا صان بها الشاعر من حاجته إلى الناس على اختلافهم .ومن كان الشاعر قد يحتاج إليهم ويقصدهم دون تصون ، ودون تأكد من أنهم سيعطونه أو يحرمونه .

ويبدو لك أدب الشاعر الجم وفنه الطريف فى إسناد هذه الأفعال إلى الملك نفسه وهى على التوالى : قرب ومحا ونوه ونحا وصـــان . ولم يبنها للمجهول أو يسندها إلى نفسه .

وفى البيت الرابع يذكر أن نتيجة ذلك وجوب الشكر عليه للملك ، وأنه افتن فى شكره فعجز افتنانه عن إيفاء الملك حقه من الثناء جزاء ماقدم من إحسان، ولتطوله المستمر والمتنوع .

ومن يتأمل الأبيات فى قليل من الروية والدقة يجد فيها جملة من المعانى الأخرى غير ما ذكرناه ، دون جهد ولا شقة ولا معاناة .

ومن اليسر ان تستخرج من الأبيات جملة صور ولوحات فنية طريفة أعان على إبرازها وإيضاحها فن الشاعر الموهوب ، وامتلاكه ناصية القول ، وصدق شعوره وسلامة عاطفته .

ومن خمريات الشاعر الأديب ابراهيم بن على الحرانى المشهور « بعين بصل » ما ساقه خلال قصيدة يصف فيها دمشق . قال :

ورب صافية فى الـكأس مشرقة كانت وما كان فى العلياء كيوان

راح أراحت لمن حلت براحته روحا لها القار والفخار جثمان
صبت لنا فهى ماء فى زجاجتها وأشرقت فهى فى الكاسات نيران
يسعى بها رشأ بالسحر مكتحل حلو الدلال لجند الحسن سلطان

يصف الشاعر فى هذه الأبيات الخمر فيقول إنها قديمة قبل أن يوجد النجم «كيوان» وهو زحل. وأثبت لها صفتين: الصفاء والإشراق.

وهذه الراح ساقت إلى يد شاربها روحا — وهى هى الروح — كان الفخار والقار عليه، جسدا لها.

ولها حالتان متضادتان: فهى ماء ونار. ماء وهى فى زجاجتها. ونار حينما أشرقت فى كاساتها، هى ماء لسيولتها واستقرارها، وهى نار بلونها ومتناثر حبابها وبما تثيره من دفء وحرارة.

وقد سعى بها غلام جميل كالظبى الصغير رقة عطف وخفة ظل ورشاقة حركة. اكتحلت عيناه بالسحر، وامتلأ جانبه بالدلال الحلو المحبوب، فصار سلطانا لجنود الحسن.

هذه معان واضحة جميلة تطالعك رائقة صافية مشرقة فى أساليب شفافة وتراكيب جزلة فى رقة.

ولم يثقل ما فى الأبيات من ألوان بديعية. بل إن بعضها لا يكاد يلحظ، لالتئامه مع السياق، ولتطلب المعنى له، ومن ذلك المقابلة فى قوله: «كانت وما كان». و«الماء والنيران». — والجناس فى قوله: راحت وأراحت». ويبدو أن تكرار الراء والحاء أضاف ثقلا إلى ثقل الجناس.

وتستطيع قياسا على ما تقدم أن تلحظ ما ذهبنا إليه من غلبة هاتين الصفتين على معانى الشعر وهما: الوضوح والقرب.

وقد قلنا « غلبة هاتين الصفتين » ، لأنه ربما فجأك نص ترى فيه غموضاً وتعقيداً .

ويبدو الغموض والتعقيد – عادة – فى حالتين :

الأولى : عندما يجنح الشاعر إلى التفلسف وذكر المبادىء والنظريات والحديث عن العقيدة .

والثانية : عندما يقصد إلى الإلغاز والمحاجاة . والإلغاز هو التعمية .

ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن حجر العسقلانى قال :

« إن محمد بن أبى بكر السكاكينى نظم أبياتاً على لسان ذمى ، فى إنكار القدر ، وأولها :

أيا علماء الدين ذمى دينكم تحير دلوه بأعظم حجة
إذا ما قضى ربى بكفرى بزعمكم ولم يرضه منى فما وجه حيلتى .. الخ

وقد رد عليه جمع من العلماء من بينهم العالم المجتهد الإمام تقى الدين بن تيمية الحرانى . قال ابن حجر ما نصه : فوقف عليها ابن تيمية فثنى إحدى رجليه على الأخرى وأجاب فى مجلسه قبل أن يقوم بمائة وتسعة عشر بيتاً » (١)

ومن أبيات ابن تيمية قوله :

سؤالك يا هذا سؤال معاند يخاصم رب العرش رب البرية
وهذا سؤال خاصم الملأ العلى قديماً به إبليس أصل البلية
وأصل ضلال الخلق من كل فرقة هو الخوض فى فعل الإله بعلة
فإن جميع الكون أوجب فعله مشيئة رب العرش بارى الخليقة الخ(٢)

---

(١) راجع ترجمة ابن تيمية فى الدرر الكامنة ج ١ رقم ٤٠٩ .
(٢) راجع الأبيات فى طبقات السبكى ج ٦ ص ٢٢٩ فى ترجمة العلاء الباجى .

وقد أشرنا عنـد الحديث عن « المساءلات » فى باب أثر البيئة الثقافية ، إلى أبيات هذا الذمى ، وإلى أبيات من ردوا عليه من العلماء .

والسؤال يدور حول مسألة شائـكة اختلفت فيها مذاهب أهل الـكلام ، واختلفت استدلالاتهم . وهى أعمال العبد ، هل هى من فعله ابتداء ، أو هى مما قدره الله عليه فلا مشيئة له فيهـا . فقوم يقولون إنها من فعل العبد ابتداء ، هو الذى ينشئها ، ولهذا يحاسبه الله سبحانه ، ويثيبه أو يعاقبـه . وعدالة الله تأبى أن يعاقب العبد على شيء قدره هو عليه ولا مفر له من عمله . — وقوم يقولون إنها من تقـدير الله على العبد . ولا يمـكن أن تـكون من صنع العبد ابتداء ، لأن فى ذلك مساسا بعلم الذات الإلهية ومشيئتها وقدرتها . أما محاسبة العبد فإنما تجرى لجهله بما قدرالله عليه ، فهو محجوب عن معرفة الغيب ، وله القدرة على الاختيار ، فى ظاهر الأمر .

والـكلام فى هذا يطول ، وتفترق عنده المذاهب وتتعدد الفرق الـكلامية .

وأنت ترى أن الموضوع دينى فيه نظر وفلسفة وعمق . ولـكن مهما يـكن من أمره فقد كان ولا يزال حديثا للعـامة ، وإن كانت ثائرته قد هدأت فى عصرنا الحديث نسبيا ومع أنه من حديث العامة ، هو من الأحاديث الشائكة التى يتعثر فيها المتحدث ما لم يـكن على ذكر من العلم .

وأبيات السائل صريحة فى موضوعها إذ يقول : ما وجه حيلته إذا كان الله قد قضى بـكفره وأرغمه عليه ثم لم يرضه منه وعاقبه عليه .

وأبيات ابن تيمية طويلة فى موضوع الرد . والأبيات الأربعة التى سجلناها هنا ، ترد على السائل وتصمه بأنه معاند وأنه يخاصم الله جل جلاله وهو رب العرش ورب البرية ، وينبغى له بهذه الصفة الخضوع والاستسلام لمشيئته . وفى وصف الله سبحانه بهاتين الصفتين إشعار بهيمنته على جميع خلقه بما له وبما عليه .

ويذكر ابن تيمية أن السؤال كان سببا فى أن إبليس قديما خاصم الملأ الأعلى ، وأن سبب ضلال الخلق من كل فرقة ، هو البحث فى موضوع شائك ، وهو فعل

الإله وأن جميع الكون - وقد برأه الله وخلقه — أوجبت مشيئته تعالى فعله ، وأنها هى التى قدرته وقضت به .

لسنا هنا نتحدث عن هذه العقيدة ، وعن هذا الموضوع الخطير ، ولكننا أردنا بالحديث المقتضب السالف، بيان مافى الأبيات من المعانى التى دارت حوله . وواضح كل الوضوح الصعوبة النسبية التى تعترض المتفهم للأبيات بسبب عمق الموضوع ومشقة تصور معانيه بطبيعتها . إذ استغلقت هذه المعانى بسبب هذه الطبيعة لا بسبب الألفاظ المعبرة عنها أو غرابة التراكيب .

ومن أمثلة الألغاز ما نظمه تقى الدين حجة الحموى فى « قصب السكر » وأرسله إلى صديقه المقر الأشرف الناصرى محمد بن البارزى الجهنى ، وقد نظمه فى ٢٢ بيتا . نروى لك منها الأبيات الآتية :

وعسالة تبدو بغير أسنة ولاطعن فيها وهى داخلة الصدر
عشقة هيفاء حلو قوامها به تطرح المراق فى المهمه القفر
منعمة لفاء مهضومة الحشا تكاد بأن تنقد من رقة الخصر
وتحلو على البيض الرشاق شمائلا إذا ما تثنت فى غلائلها الخضر
يلذ قبيل العصر فى الظهر رشفها وبرد لماها من أليم الجوى يبرى
وإن سقيت ماء سقتك سلافة بطيب مزاج وهى طيبة النشر ..الخ[1]

واللغز - كما أشرنا — يعتمد على التعمية وقصد الغموض ، وذلك بالتصحيف وبالعكس ، وبذكر الصفات المشتركة ، وبالتوريات ، وبالألفاظ والمرشحات التى تقرب معنى وتبعد آخر ، وبغير ذلك مما يدعو إلى كد الذهن وإجهاد الخاطر حتى تصل الفطنة إلى المعانى المطلوبة ، وتقع على محل اللغز .

وليس هنا سبب الغموض صعوبة المعانى وعمقها وعقادتها ووعورتها ، بل

---

(١) تأهيل الغريب ص ٩٩ — وخزانة الأدب ص ٣٩٨ وبهما القصيدة بتمامها .

استخدام الألفاظ والتراكيب استخداما قصد فيه إلى التعمية بها، بذكرها محتملة لعدة معان، أو موجهة إلى معنى غير مقصود، وهلم جرا.

والشاعر فى أبياته هذه « يقصد بالعسالة » عيدان القصب لما تحتوى عليه من العسل، أو تصنعه أو تعطيه منه. وهو يشبهها بالرماح العسالة فى اهتزازها. « تبدو بغير أسنة » فذكر « الأسنة » يوجه إلى معنى الرماح وهو فى الوقت نفسه يفطن إلى غيرها. — وكذلك قوله « ولا طعن فيها » وقوله: « وهى داخلة الصدر » وهذه كلها من ملابسات الرماح. واختياره للفظ « عسالة » مناسب المقام.

ويقول إنها « ممشقة » أى ممدودة حسنة القوام رقيقة الجانب تزرى بالرماح الصلبة. وإنها نشأت فى نعمة أو أنها ناعمة الملمس. وإنها لفاء فيها سمن وشىء من الضخامة، ومع ذلك فيها لطف فى شمها، ورقة فى جانبها، ودقة فى باطنها، حتى إنها تكاد تقطع من رقتها.

وهى أحلى من الحسان الجميلات الرقيقات فى شمائلها، وبخاصة إذا تمايلت فى شعاراتها الرقيقة الخضراء.

ويبدو أن الشطر الثانى من البيت الرابع وصف للعسالة لا البيض الرشاق - مع احتماله العكس - ويريد حينئذ بالغلائل الخضراء، أوراقها.

وفى البيت الخامس يورى الشاعر بلفظ « العصر » وهو الوقت، ويريد به تحويل القصب عصيراً.

وفى البيت السادس يشبه عصيرها بسلافة ممزوجة طيبة النشر .... إلخ.

هذان مثلان أحدهما سؤال عن « القدر »، وثانيهما لغز عن «القصب». وقد بدت فيهما غموضة المعانى وصعوبة استنباطها. فى الأول لوعورة المنزع وطبيعة

الموضوع . وفى الثانى لقصد التعمية ، وللاشتراك فى الوصف . ولذكر ملابسات كثيرة للمعنى القريب غير المراد .

ولكن ليس التفلسف والكلام عن العقيدة ، وليس الإلغاز ، هما كل الشعر ، ولا معظمه . بل هما فنان من فنونه الكثيرة .

---

٤ - الوصف والتصوير والتشخيص

الوصف والتصوير ظاهرة من الظواهر التى بدت فى أساليب الشعراء عند أداء المعانى . ونقصد المعانى الجزئية . ومن شأن العناية بوصفها وبحسن تصويرها أن تؤدى إلى وضوحها . فهما إذن دعامتان من دعائم الوضوح الذى تحدثنا عنه .

لقد جنحوا فى توضيح المعانى — فى كثير من أساليبهم — إلى الوصف والتصوير ، حتى ليمكن تسميتها بالأساليب الوصفية أو التصويرية . وترجحت بين الوصف الحسى والمعنوى ، وإن كان للأول بروز وغلبة .

ويعتمدون فيهما على ألوان من البديع كالتورية والتضمين والاقتباس، وألوان من البيان كالتشبيه والمجاز والكناية أحيانا .

ويلعب الخيال الشعرى دوره الكبير فى ابتكار الصورة والملاءمة بين أجزائها، وعقد الشبه بينها وبين غيرها ، وفى تكوينها أو تحريكها ، أو تعقيل مالا يعقل من أدواتها وأجزائها . ويلعب الخاطر الملهم دوره كذلك فى تخير اللفظ وانتقاء التركيب .

ونقصد بالخيال الشعرى إحدى القوى الذهنية التى عملها الانتفاع بالحقائق والمعلومات المختزنة فى خزانة الذهن لتوليد الجديد من الصور ، وتكوين المبتكر من الأشكال ، التى تصب فيها التصورات التى يسرح إليها الخيال ، أو تطفر على صفحته . والتى ترتب فيها الحقائق ترتيبا جديدا لاعهد للذهن به من قبل .

ويقوم الخيال بعمله تحت تأثير الانفعالات العاطفية والسمو الفكرى . وهو الذى يبرز الصور المولدة ، والأشكال المبتكرة فى أثواب من الألفاظ جميلة خلابة لامعة ، وقوالب من التراكيب جذابة رائعة ، فيها للقارئين متعة ولها فى قلوبهم أثر ، وفى نفوسهم هزة وطرب .

هذا الخيال المبتكر المجدد ، هو الذى يكشف الخفى ، ويوضح الغامض ويفخم الضئيل . وهو الذى يضفى على الأدب جدة وينشر فيه روحا ، ويربط بين القارىء والحياة ، ويصل ما بين نفسه ونفس الأديب . وهو الذى يخلق من الحياة العامة الهادئة ضروبا من الحياة متحركة صاخبة مدوية مليئة ، فيها قصص وروايات ، ووقائع وحادثات ، وفيها مواقف تحدث الوجدان وتثير العاطفة وتنطق الجماد والحيوان ، وتنسب إليهما من صفات الإنسان ما هو مقصور عليه . ومن ألوان المعانى والأفكار ما هو خاص به[1] .

« وللخيال شأن فى تحويل المدركات ، فهو يخرج من الصامت صورا تفيض بالحياة ، ويحول المحسوس إلى معنى ، والجماد إلى مدرك وجدانى ، تهتز له النفس . فترى المحسوس المجسم وقد تحول إلى فكرة متموجة قائمة ، ننعم بجمالها الفنى وقوتها المعنوية »[2] .

وإذا كان شعراء العصر العباسى لهم فضل السبق والإجادة فى هذا الباب . وبخاصة باصطناع أساليب البيان ، فاعتقادنا أن شعراء العصر المملوكى يفوقونهم فيه باصطناع أساليب البديع ، ولا سيما ما كان لها منها السيادة فيه كالتورية والاقتباس والتضمين والطباق — إلى جانب ما أجادوه من أساليب البيان .

---

(١) راجع المجلد السادس من كتابنا عصر المماليك ص ٣٢٥ .

(٢) الأصول الفنية للأدب ، للأستاذ عبد الحميد حسن ص ٩٨ فى سياق فصل « الخيال » .

وإليك قول جمال الدين بن نباتة :

ورب حانة خمـــار طرقت وما	حانت ولا طرقت للقصف حانات
سبقت قاصد مغناها وكنت فتى	إلى المـــدام له بالسبـــق عادات
أعشو إلى ديرها الأقصى وقد لمعت	تحت الدجى فكأن الدير مشكاة
وأكشف الحجب عنها وهى صافية	لم يبق فى دنهـــا إلا صبـــابات
مصونة السرح ماتت دون غايتها	حاجات قـــوم وللحاجات أوقات
راح زحفت على جيش الهموم بها	حتى كأن سنا الأكواب رايات
وبت أجلو على الندمان رونقها	حتى لقد أصبحوا من بعد ما ماتوا
تجول حول أوانيهـــا أشعتها	كأنمـــا هى للكاسات كاسات(١)

يصف الشاعر ذهابه المبكر إلى حانة الخمر ليبتاع ويشرب ويسمر . ويبين لك هذا البكور بأنه قبل ميعاد فتحها وطرقها للهو . أى قبل أن يقصدها روادها. ويؤكد هذا المعنى فى البيت الثانى ، ويزيد عليه بأنه له بالسبق إليها عادات . وهو بذلك يصف نفسه بحبها وإدمانها متفوقا بذلك على غيره من محبيها .

وفى البيت الثالث إيضاح جديد لسيره إليها . فهو يعشو إلى ديرها النائى البعيد على هدى ضوئها — وقد لمعت تحت الدجى — فيبدو له الدير كالمشكاة أى كالطاقة التى ينبعث منها الضوء وسط هذا الظلام الدامس .

فإذا بلغ خباءها كشف عنها حجابها، فبدت له صافية خالصة من أوشابها وقد انتفت عنها أكدارها ، فلم يبق فى دنها إلا صبابات ، هى إكسيرها وروحها وجوهرها . وفى هذا دلالة على أنها معتقة مصونة محفوظة ، تطلع كثير من المحبين إليها فلم يظفروا بها، لأن ميعاد وصالها لم يحن . ولهذا قال فى البيت الخامس مصونة السرح . . إلى آخر البيت .

---

(١) عن ديوان ابن نباتة — وتأهيل الغريب باب الخمريات .

ثم لاشك أن الشاعر العاشق قد ظفر بهذه الصبابات ، وتغلب بها على جيش همومه وأحزانه ، وأنها أعادت إليه عهد أنسه وسروره . ولهذا يقول : « راح زحفت على جيش الهموم بها . . الخ.وهذه إحدى صفاتها ويمهد بها إلى تشبيهه الطريف وهو تمثيل سنا الأكواب بالرايات .

وبعد أن قص الشاعر قصة رحيله إليها ، أخذ يقص قصة إخوانه الذين لحقوه إلى الدير ، فقد أخذ يجلوها عليهم ويعرض محاسنها على أنظارهم . فحسوا منها حتى بعثوا من جديد إلى حياة السرور بعدما أماتهم الجد والهم .

وصارت الخمر تجول أشعتها حول أوانيها وكاساتها حتى أصبحت كاسات حول الكاسات .

وفى كل ما ذكرنا أوصاف وصور :

فمن الأوصاف : قص القصة ، وهى قصة الرحيل إلى معشوقته الخمر فى ديرها ليلا ، وتشبيه الدير بالمشاة ، ووصفها بالمحجبة المخدرة ، وبالصفاء وذهاب أكثر ما خالطها ، وبأنها مصونة السرح ممنوعة لا يقرب حماها أحد ، ولا يستطيع اقتحامه أحد . وبأنها معشوقة مات دون وصالها عاشقون وذوت آمالهم وبأنها تعين على إزالة الهموم ومحاربتها ، وبأن سنا أكوابها كالرايات وبأن أشعتها كالكاسات .

ومن الصور : صورته وهو يسير ليلا تحت جنح الدجى نحو الدير البعيد اللامع فى الظلام كالمشكاة ، سباقا إليها كعادته .

وصورته وهو يقربها وهى ممنعة محجبة ، فيحتال لبلوغها فيجدها جواهر أو إكسيرا قد ذهب عنها ما يخالطها .

وصورتها وهى مصونة ممنوعة السرح يتهاى دون الوصول إليها عشاقها وتنتهى آمالهم دون بلوغها .

وصورته مع الندامى الذين نشطوا من عقال وصحوا من موت ، وأفاقوا من

سبات الهم ، وأوانيها تجول بينهم وأشعتها تملأ العيون ، حتى بدت كأنها كاسات حول كاساتها .

وترى فى الأبيات ألوانا من الحسيات ، كاللمع تحت الدجى ، وتشبيه الدير بالمشكاة ، والسنا بالرايات ، والأشعة بالكاسات .

ولكنها حظيت بجانب ذلك بلفتات معنوية عدة ، وتنبهات نفسية . كعاداته بالسبق إلى المدام ، وعشوه إلى ديرها فى الظلام ، ونسبة الدير إليها ، وكشفه الحجب عنها ، وصفائها . .

وفى قوله : أكشف الحجب عنها ، ومصونة السرح ، تشبيه لها بالمخدرة المرجوة . وهو تصوير معنوى . وكذلك قوله : ماتت الغايات دونها وزحفت على جيش الهموم بها ، تصوران معنويان .

وفى نسبة الحجب إليها ، وكذلك السرح ، واتخاذها معينة له فى حرب الهموم ، تشخيص لها .

ومن رقيق الشعر ورائقه ما وصف به شمس الدين المشد « محمد بن داود ابن على » المتوفى عام ٧٣٤ هـ ، حادثة شمعة ، إذ قال :

وذى شنب مالت إلى فيه شمعة   فردت لإشفاق القلوب عليه
فمالت إلى أقدامه شغفا به   فقبلت البطحاء بين يديه
وقالت بدا من فيه شهد فهزنى   تذكر أوطانى فملت إليه
فحالت يد الأيام بينى وبينه   فعفرت أجفانى على قدميه(١)

هذه قصة طريفة تتجلى فى هذه الأبيات الوصفية الرقيقة . وهى واقعة سريعة عاجلة من الوقائع العارضة ، يبرزها الشاعر الرقيق فى أبيات جميلة معللة

---

(١) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١١٦٨ .

مطربة ، ليست قصة صامتة جامدة ، ولكنها ناطقة متحركة ، ومبتدئة ومنتهية معاً فى حركات طبيعية وخطوات لا تكلف فيها . وقد امتزج فيها الوصف العذب بالغزل الجميل .

وتتلخص القصة فى أن شمعة موقدة مالت إلى فم هذا المحبوب . ويبدو أنها لمسته أو كادت تلمسه ، وكادت تسىء إليه ، فانزعج وابتعد ، فسقطت على قدميه ولمست الأرض .

وأبى خيال الشاعر إلا أن ينسجها قصة كما رأيت ، فيها من البيان تشبيه لشنب المحبوب بالشهد . وفيها من البديع مراجعة ، وهى ترديد ما وقع فى شكل قصصى . وفيها تعليلان أدبيان طريفان .

وفيها تشخيص وإسناد صفات العاقل لغيره ، وذلك من صنع الخيال الشعرى . انظر إليه يقول إن الشمعة مالت إلى أقدام المحبوب . وإلى هنا لم يظهر الخيال ولا التشخيص ، ولكن التعليل بقوله « شغفا به » أبرزه فى قوة ووثوب . فقد جعل ميلها إليه عن سبب دفعها وعاطفة حركتها . واستمر بروزه بإسناد تقبيل البطحاء بين يديه ثم بإسناد القول إليها ، واهتزازها لتذكر الأوطان ، وتعفيرها أجفانها إحياء لذكرى أوطانها .

وفى هذه الأبيات التى تصف مشهداً حسياً بحتا ، ترى الشاعر خرج به بكياسة إلى نطاق المعنويات ، فأصبحت القصة نفسية رائعة ، تملأ جوانبها العاطفيات والمشاعر ، كالشغف والتقبيل وتذكر الأوطان ، وتعفير الأجفان إحياء للذكرى . . هذا كله فضلا عن التشخيص ، كما أشرنا .

ومن أوفق ألفاظها قوله على لسان الشمعة : « فهزنى » . إنها رقيقة لبقة ، وضعت فى أنسب موضع . والتورية فيها جميلة ممتعة . رجحتها بين الاهتزاز الحسى ، لوقوعها على الأرض . وبين الاهتزاز المعنوى ، لتذكر الأوطان .

ولعل جمال الدين بن نباتة ألمع شعراء العصر اتجاهاً نحو الوصف والتصوير، - كما رأيت - وإخراج المعنى كاملا بذيوله وحواشيه وظلاله. سواء احتاج فى أدائه إلى مسالك بيانية أو ألوان بديعية، أم لم يحتج.

وقد أبدع ابن نباتة أيضاً فى تصوير الخمر وبيان الكثير من صفاتها المحبوبة عند ندمانها. وذلك فى أبيات صدر بها إحدى مؤيدياته. يقول:

عوض بكأسك ما أتلفت من نشب	فالكأس من فضة والراح من ذهب
واخطب إلى الشرب أم الدهر إن نسيت	أخت المسرة واللهو ابنة العنب
غراء حالية الأعطاف تخطر فى	ثوب من النور أو عقد من الحبب
عذراء تنجز ميعاد السرور فما	ترمى إليك بكف غير مختضب
مصونة تجعل الأستار ظاهرة	وجنة تتلق العين باللهب

فهو يبرز لك الخمر حسناء جميلة غراء حالية الأعطاف، مضيئة مشرقة، عليها عقودها، يبرزها لك بذلك فى أجمل صفاتها وأشدها إغراء. لقد جعلها إنسانة فتانة جمعت الجمال والأصالة والكرم من أطرافها.

انظر إليه وإلى طرائفه، لقد أخذ يشير لك إلى نسبها، وهو نسب كريم ذو حسب عظيم، فهى أم الدهر، وأخت المسرة، وأخت اللهو، وابنة العنب، وهذه أسرة كريمة بلا ريب. - وإن لم يوفق الشاعر فى وصفها «بالأم» فى هذا المقام .. وإن أراد به قدمها.

وبالدهر أثبت لها قدم النسب، وبالمسرة وصفها بطيب العشرة وحسن المصاحبة، وباللهو وصفها بقدرتها على إزالة الأحزان ومحو الهموم، وبالعنب أفصح عن حلاوة منبتها وعذوبة منشئها وكرم أصلها.

وهذه صفات حسية ومعنوية يرغب فيها الخاطب، وتزدان بها العروس، وتتيه العذراء ..

وقد أفصح الشاعر عن أنها عذراء، بعد أن أضفى عليها أثواب جمال أخرى

فهى غراء بيضاء مشرقة لامعة تلفت النظر وتنبه الخاطر ، وهى مزدانة الجوانب متجملة المظهر ، فوق جمال أصلها وكرم محتدها ، وهى تخطر كما تخطر العروس أو الفتاة إذا ازداد جمالها . — والحسن بالتيه يأمر — وهى تخطر فى ثوبها الموشى بما يشبه الزهر ، أو المضىء بما ينبعث منه الضوء والنور ، وعليها حببها عقدا منظوما جميلا محببا ..

ومع أنها عذراء فهى تنجز ميعاد السرور ، فتريح عشاقها ، وتفى بميعادها ، وتمد إليهم كفها غير الخضيبة داعية راضية . ومع أنها مصونة ، فإن أستارها ظاهرة قريبة ، وإذا تلقتك — وهى الجنة — باللهب ، ففيها من اللهب الاصفرار واللمعان والدفء ، وهى تريح النفس كما تريحها الجنة . . .

وهكذا اعتمد ابن نباتة على الوصف ورسم الصور فى إبراز محاسن الخمر . وفى كل بيت من أبياته الخمسة صورة .

الأولى : رجل جلس إلى مائدة الشراب ينفق الذهب فى سبيل الخمر ويحتسيها فى كأسها الفضى ليعوض ما أنفق .

الثانية : خاطب يتقدم إلى خطبة عذراء ذات حسب ونسب ، وصفت حبيبة إلى الزوج .

الثالثة : فتاة جميلة حسناء مشرقة الجبين تخطر فى أثوابها الموشاة وعقودها المحلاة . مقبلة إقبال الدنيا إذا رضيت ، والحظ إذا ابتسم .

الرابعة : عذراء بكر تدعو عشاقها وتمد إليهم أكفها الرخصة ، التى لم تحتج إلى خضاب .

الخامسة : الفتاة المصونة التى يتهافت إليها عشاقها ويسعون إلى أستارها الظاهرة . . . وأكثر هذه التصورات — كما ترى — تصورات معنوية .

واصطنع الشاعر ألوانا من البيان ، ومنها الكنايات فى البيت الثانى فى أم الدهر ، وأخت المسرة واللهو ، وابنة العنب .

ومنها الاستعارات فى قوله : حالية الأعطاف . وعذراء . وتنجز ، وتومى . وكف . وأستار .

والتشبيه فى قوله : الراح من ذهب . وثوب من النور . وجنة . وعذراء .

واصطنع ألوانا من البديع ومنها : الطباق بين فضة وذهب ، وجنة ولهب — ومراعاة النظير فى أم وأخت وابنة .

اطردت هذه النزعة على وجه التقريب ، فى كل ما تناوله الشعراء من أغراض الشعر ، حتى الرثاء والنقد والفكاهة والشكوى وغير ذلك .

وإليك أبياتا أخرى فى أغراض مختلفة ترى فيها هذه النزعة . فمن ذلك :

قول الشاب الظريف فى الغزل :

فى غزلى من لحظ ذاك الغزال   أخبار صب قتلته النبال
غصن سقته أدمعى ثم ما   أثمر لما مال نحو الملال
وهبته ياقوت دمعى ولا   يسمح لى مبسمه باللآل
حل ثلاثا يوم حمامه   ذوائبا تعبق منها الغوال
فقلت والقصد ذؤاباته   ياسهرى فى ذى الليالى الطوال (١)

وقول مجير الدين بن تميم فى وصف نهر وقت الأصيل :

ونهر إذا ما الشمس حان غروبها   ولاحت عليه فى غلائلها الصفر
رأينا الذى أبقت به من شعاعها   كأنا أرقنا فيه كأسا من الخمر (٢)

وقول شرف الدين الرومى المتوفى سنة ٧٠٧ ﻫ فى طالب المستحيل :

ومن يقصد الأمر الذى ليس ممكنا   ويطمع أن يمسى به وهو ظافر
كباحث صخر يبتغى فيه حاجة   أنامله تدمى وتحفى الأظافر

---

(١) ديوان الشاب الظريف . (٢) خزانة الأدب ، باب التشبيه .

وقول علاء الدين بن أيبك المتوفى عام ٨٠٣ هـ . من خمرياته الغزلية :

كأن الراح لما راح يسعى بها فى الراح مياس القوام
سنا المريخ فى كف الثريا يحيينا به بدر التمام

وقد انصرفت عناية ابن أيبك ، إلى إيضاح الراح والساقى إيضاحا حسيا ، وذلك بذكر السنا والمريخ والكف والثريا وبدر التمام . وتركيب التشبيه جميعه حسى كذلك ، وإن تخللته التحية ، فإنها مشتركة بين الحسى والمعنوى .

وقول مجير الدين بن تميم ، فى وصف جواد كميت :

وطرف يفوق البرق لونا وسرعة فكالصخر إذ يهوى وكالماء إذ يجرى
تبدى بعرف أسود فوق أحمر فقل فى دخان تحته لهب الجمر[1]

وترى الوصف الحسى طاغياً فى بيتى مجير الدين . إنه لم يتجه إلى وصف أخلاق جواده ونعت تصرفاته . وإنما اتجه إلى إبراز لونه وسرعته . فقارن بين البرق وبينه فى هاتين الصفتين الحسيتين الواضحتين فى البرق . ثم ثنى بتشبيهين آخرين حسيين ، قوى بهما تصور السرعة وأوضح مقدارها ، فهو فى سرعته كالصحراء إذ يهوى ، وكالماء إذ يجرى .

ويبدو لأول وهلة أنه بهما أضعف تشبيهه الأول ، إذ أن البرق أشد سرعة — ولا ريب — من الصخر ومن الماء . ولكن هوى الصخر فيه ضراوة وقسوة وتحطيم ، وجريان المـاء فيه اكتساح وتفتيت وحمل . وهذا مالا يصاحب البرق .

وترى الألوان الحسية بارزة فى بيته الثانى ، وفى تشبيهه . فقد عنى - كما ترى - بإبراز لونى الجواد ، وهما السواد والاحمرار ، بعقد هذا التشبيه التمثيل الذى من عناصره الدخان الأسود إلى أعلى ، واحمرار الجمر أسفل منه .

---

(١) راجع تأهيل الغريب ، باب وصف الخيل .

٥ — الفكاهة والنكتة

وقل ألا تجد فى شعر قوم فكاهة يتسلون بها أو نكتة يتندرون بها. غير أن شعراء العصر المملوكى دعتهم إلى الشعر الفكاهى دواع كثيرة أربت على ما عند غيرهم من شعراء العصور الأخرى. ومن ذلك فراغ بعضهم من العمل الجدى، أو بعدهم عن المناصب الرفيعة ذات الشأن التى تدعو إلى الجد وتذود عن مهاوى الهذر والمزاح. هذا إلى ولوعهم بالبديع ومحسناته وما فيها من تورية وتوجيه وإبهام وغيره. وقد كان هذا الولوع مزاجاً متأصلا فى الشعراء كما نوهنا، حتى عددناه أحد حوافزهم إلى النظم.

على أنه مما لا ريب فيه أن تتابع الدول الحاكمة الطارئة من خارج البلاد، ووقوع شعب البلاد فريسة باردة لهذه الدول، وفى جملتها دولتا المماليك، رسب فى النفوس مرارة بالغة، مازجها الخوف من البطش، والخشية من غلظة الحاكمين فتنفست هذه النفوس عن طريق الفكاهة لتتسلى وتتعزى وتسرى عن برحائها، وعن طريق النكتة والنقدة والسخرية لتعبر فى هوادة عن آلامها وعن شقائها بزمانها وحكامه وعيشه.

وجرى ذلك على ألسنة الشعراء فكانوا مرآة لمعاصريهم.

على أن عزوف الدهر عن كثير من هؤلاء الشعراء. وإنكار العصر لهم ونقصه من مقدارهم، دعاهم إلى الشكاية، ودفعهم إلى السخرية والهجاء، ولكن فى رق وكياسة، وفى حياء لبق، عرف عن أهل مصر.

كانت الفكاهة إذاً فى مقدمة أساليبهم الشعرية، وكانت النكتة وسيلة من وسائل التعبير وإبراز المعنى فبدت الشكاية ظريفة كيسة والنقدة اللاذعة لطيفة ضاحكة. وسرت هذه الروح فى فجاج كثيرة من فجاج الشعر، فقد تراها فى الوصف والغزل والهجاء والعتاب وغيرها.

وقد نظم شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى ، على لسان دابته تشكو الجوع إلى السلطان الناصر حسن ، وتطلب إليه شعيراً ، قال من قصيدة فى ذلك :

وجع الجوع ماله من طبيب   غير أكل الشعير عند الغروب
ليت شعرى هل للشعير غبار   فأراه وقت العليق نصيبى
أوقف الضعف حالتى حين أمسى   بعد جرى بقـــوة ووثوب
كنت كالطير فى المسير إلى أن   أوقعتنى مع الأديب ذنوبى
فترانى صفراء من غير عشق   وصدود جرعته من حبيب .. الخ [١]

ولشهاب الدين بن أبى حجلة كذلك، هذه الأبيات الخفيفة الإخوانية الفكاهية العاتبة . وقد أهدى إليه أحد أصدقائه خروفا . فقال :

أتانى كبشكم فى العيـــد يمرح   كجاموس ببحر الدهن يسبح
سمت نحو السماء له قرون   فبات لجديها والثــور ينطح
لئن أمسى كهدى قلدوه   فكم لى فى القـــلائد فيه مطمح
فكبشكم المليح أتى ولكن   رضاكم مع وصول الكبش أملح
فمن لى لو رضيتم بعـــد عتب   كنايته من التصريح أصرح
وقد وشحتموه ببعض غيظ   فطرفى بالدمـــوع أتاه يرشح
وعندى مثل غيظكم ولكن   إذا أنصفت كان الصلح أصلح
فخـــذ ما شئته واستبق ودى   فأخذ الروح عندى منه أروح
وإن تذبح محبك بعد هذا   فعيـــد النحر قد وافاك فاذبح
لئن ســـددت باب العتب عنى   بما أبديتـــه فالله يفتح
وإن ألممت يوما ما بذنب   فمثلك من يرى ذنبا ويصفح
وما للعبـــد ذنب غير قولى   لعيـــدكم بباب الدار : افتح [٢]

---

(١) ديوان ابن أبى حجلة — مخطوط بدار الكتب المصرية .
(٢) ديوان ابن أبى حجلة

ونظم الأديب كمال الدين الأعمى المتوفى عام ٦٩٢ هـ قصيدة طويلة يذم فيها دار سكناه . فقال فى أولها :

دار سكنت بها أقل صفاتها ... أن تكثر الحشرات فى جنباتها
الخير عنها نازح متباعد ... والشر دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته ... كم أعدم الأجفان طيب سناتها
وتبيت تسعدها براغيث متى ... غنت لها رقصت على نغماتها
رقص بتنغيص ولكن قافه ... قد قدمت فيه على أخواتها . . إلخ(١)

ولأبى الحسين الجزار المصرى يصف داره المتهدمة بهذه الأبيات المشهورة :

ودار خراب بها قد نزلت ... ولكن نزلت إلى السابعة
طريق من الطرق مسلوكة ... محجتها للورى شاسعة
فلا فرق ما بين أنى أكون ... بها أو أكون على القارعة
تساورها هفوات النسيم ... فتصغى بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة ... فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت إذا زلزلت ... خشيت بأن تقرأ الواقعة(٢)

وكتب الصاحب تاج الدين بن الصاحب فخر الدين — المتوفى عام ٧٠٧ هـ — إلى الشاعر سراج الدين الوراق . وكان قد سقط حماره فى بئر فمات :

يفديك جحشك إذ مضى مترديا ... وبتالد يفدى الأديب وطارف
عدم الشعير فلم يجده ولا رأى ... تبنا وراح من الظما كالتالف
ورأى البويرة غير خاف ماؤها ... فرمى حشاشة نفسه لمخاوف

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٠٢ .
(٢) خزانة الأدب ص ٢٥١ .

فهو الشهيد لكم بوافر فضلكم هذى المكارم لا حمامة خاطف
قوم يموت حمارهم عطشا لقد أزروا بحاتم فى الزمان السالف

وقد أجابه السراج الوراق من الوزن والقافية ، فقال :

أدنت ثمار قطوفها للقاطف وثنت بأنفاس النسيم معاطفى

ومنها :

ولكم بكيت عليه عند مرابع ومراتع رشت بدمعى الذارف
يمشى على عسرى ويسرى صابرا بمعارف تلهيه دون معالف
وقد استمر على القناعة يقتدى بى وهى فى ذا الوقت جل وظائفى
ودعاه للبئر الصدى فأجابه واعتاقه صرف الحمام الآزف
وهو المدل بألفة طالت وما أنسى حقوق مراتعى ومآلفى . . إلخ[1]

٦ — المعارضات والمناقضات

كانت المعارضات والمناقضات أسلوبا من أساليب الشعراء ومسلكا من المسالك التى طرقوها لعرض معانيهم . وليست أسلوبا خاصا وقالبا يصب فيه المعنى الجزئى ، على نمط ما رأينا فيما سبق . ولكنها كانت أسلوبا عاما ، وشكلا من أشكال القصيدة .

والمعارضة أن ينظم الشاعر قصيدة على نمط قصيدة لشاعر آخر ، يتفق معه فى بحرها ورويها وموضوعها ، سواء أكان الشاعران متعاصرين أم غير متعاصرين . ويجرى ذلك بدافع المناقشة أو المباراة أو الرغبة فى إظهار البراعة والتفوق ، أو نحو ذلك .

والمناقضة ضرب من ضروب المعارضة . غير أنها تكون ردا ونقضا للقصيدة المعارضة .

---

(١) خزانة الأدب ص ١٩٢

وقد ترى فى عصر من عصور الأدب عددا من المعارضات والمناقضات . ولكن العصر المملوكى كان بحق عصر هذا اللون من الشعر ، ولا سيما المعارضات التى نعتقد أن محصولها فيه يربى على محصولها فى أى عصر آخر . ويندر أن ترى شاعراً كبيراً لم يطرق باب المعارضات .

ولعل سبب ذلك الرغبة الجامحة فى إظهار البراعة والتفوق ، إذ يبدو ذلك فى المعارضات بدوا واضحا بارزا ، وبخاصة فى معارضة شاعر سابق انعقد له الرأى على إجادته وسبقه . أو شاعر معاصر تقدم الصفوف وانعقد له لواء الزعامة فى ميدان الشعر . وقد يكون السبب تأثير المعارض بغيره إلى حد الرغبة فى تقليده ومحاكاته .

وكثيرا ما عاونت العلاقات الإخوانية معاونة كبيرة على رواج هذه المعارضات بين المتعاصرين . إذ دفعتهم إلى التسلى بالتراسل والمساءلة ، فكثرت بينهم المراسلات والمساءلات الشعرية ، وكانت وسيلة أخرى من وسائل إبراز الموهبة الفنية ، وأسلوبا تعلقت به لتتنفس عن طريقه وتثمر ثمارها .

وهذه المراسلات والمساءلات – وقد سبقت لنا إلماعة إليها – كانت تنظم إحداها وترسل إلى صديق فيرد عليها بقصيدة من بحرها ورويها وفى موضوعها .

ومن المعارضات ما رواه صلاح الدين الصفدى فى كتابه « ألحان السواجع » قال : إن قاضى القضاة أحمد بن على السبكى ، مدح الكاتب المنشىء كاتب السر القاضى علاء الدين بن فضل الله العمرى بقصيدة من بحر الكامل قافيتها هائية مكسورة ، مطلعها :

كن كيف شئت عن الهوى لا أنتهى حتى تعود لى الحياة وأنت هى

فعارضه صلاح الدين الصفدى بقصيدة من البحر والروى ، يمدح بها القاضى علاء الدين أيضاً ، وتغزل فى صدرها وشكا ، فقال :

حاشا عهودى فى الصبابة أن تهى أو أن تحسن لى السلو فانتهى
ياعز عزى فى هواك مذلة وتولعى بك قد قضى بتولهى
أصبحت منك توجعى ومن الجفا ء توحشى وإلى حماك توجهى
فترفقى بى فى الهوى وترفعى عن قتلتى وعن الصدود ترفهى
قد زاد فيك تألفى بتألمى وتفكرى فيك انتهى لتفكهى

ومنها فى المدح :

ذى نسبة قرشية عدوية عمرية وإلى على تنتهى
فالعلم معلمه به لم يندرس رعيا له والحلم لم يتسفه
ما دبر الأملاك مثل يراعه حفظ النظام به فدام ولم يه ... إلخ (١)

وتلاحظ عناية الصفدى بالجناس وتكلفه .

ومن المعارضات قصيدة صفى الدين الحلى البائية ، التى مدح بها الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر لعهده . وقد عارض بها بائية أبى الطيب المتنبى ، واقترحها عليه بعض رجال الناصر عام ٨٢٦ هـ حينما مر بمصر عائدا من الحجاز .

ومطلع بائية المتنبي :

بأبى الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلاببا

فقال صفى الدين متغزلا المطلع :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فجعلن حبات القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعة غادرن فود الليل منها شائبا
بيض دعاهن الغبى كواعبا ولو استبان الرشد قال : كواكبا
سفهن رأى المانوية عندما أسبلن من ظلم الشعور غياهبا

---

(١) الحان السواجع للصفدى :

وسفرن لى فرأين شخصا حاضراً ‏ شـــدهت بصيرته وقلبـا غائبا
أشرقن فى حلـــل كأن وميضها ‏ شفق تدرعه الشـــموس جلاببا
وغربن فى كلل فقلت لصاحبى ‏ بأبى الشموس الجانحات غواربا.. إلخ(١)

ونظم جمال الدين بن نباتة تائية طويلة فى مدح كمال الدين بن الزملكانى ، وهى من أجود الشعر . وهى التى وصف فيها الخمر وفى مطلعها يقول النسيب :

قضى وما قضيت منكم لبانات ‏ متيم عبثت فيـــه الصبابات
مافاض من جفنه يوم الرحيل دم ‏ إلا وفى قلبـــه منكم جراحات
أحبابنا كل عضـــو فى محبتكم ‏ كليم وجد فهل للوصل ميقات

وقد ذكرها تاج الدين السبكى فى كتابه « طبقات الشافعية » فى سياق ترجمة كمال الدين بن الزملكانى فقال :

« ولما قال ابن نباتة هذه القصيدة فى ابن الزملكانى ، البديعة ، حاول أدباء عصره معارضته فما أحسنوا صنيعه ، بل كل قصر ولم يلحق ، وتأخر وماجاء بالحق » .(٢)

وممن عارض ابن نباتة فى قصيدته تلك من معاصريه : شمس الدين بن يوسف المعروف بالخياط الشاعر . وكان قد أنكر على ابن نباتة أن يتغزل وينسب على الوجه الذى جاء فى مطلع مدحته ، وهو يمدح عالما من علماء المسلمين ، فنظم قصيدته المعارضة مادحا بها أيضاً ابن الزملكانى . ومن أبياتها قوله — وكأنه ينعى على ابن نباتة وينقده :

ما شاد مدحى لكم ذكر المدام ولا ‏ أضحت جوامع لفظى وهى حانات
ولا طرقت حمى خمارة سحـــرا ‏ ولا اكتست لى بكأس الرأس راحات

---

(١) ديوان الحلى باب الناصريات ص ٥٥ القسم الثانى .
(٢) طبقات السبكى ج ٥ ص ٢٥٥ وقد توفى ابن الزملكانى عام ٧٢٧ هـ

وإنما أسكر الجلاس من أدب   يدور منه على الأكياس كاسات . . الخ

والقصيد – كما ترى – فيها نزعة المناقضة .

ولابن نباتة أيضاً قصيدته النبوية الرائية البديعة التى مطلعها :

صحا القلب لولا نسمة تتخطر   ولمعة برق بالغضى تتسعر

وقد ذكرها ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب ، وعقب عليها بقوله :

« وعارض الشيخ جمال الدين بن نباتة جماعة نسجوا على منواله فى عصره . لكن الذوق السليم يشهد أنهم كانوا خلاصة قطره ، وهذا الشرح هو جامعهم الكبير . وإذا ذكرت فيه نظائرهم ، فاعلم أنه ليس له فيهم نظير » .

ووقائع المعارضات كثيرة ، ومنها « البديعيات » التى سبق لنا الحديث عنها ، وهى – أو أغلبها – معارضات لبردة البوصيرى شاركتها فى البحر والروى ونوع القافية والموضوع وأغراضه الجزئية .

أما المناقضات فهى – كما نوهنا – نادرة .

ومما عثرنا عليه من المناقضات الطريفة ، أبيات للشاعر ابن البقق المصرى المتوفى عام ٧٠١ هـ – وذلك أنه سمع أبياتاً للفقيه الكبير الأديب القاضى تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى – المتوفى عام ٧٠٢هـ – يوازن فيها بين أهل المراتب وأهل الفضائل ، ويقول :

أهل المراتب فى الدنيا ورفعتها   أهل الفضائل مرذولون بينهم
فما لهم فى توقى ضرنا نظر   ولا لهم فى ترقى قدرنا همم
قد أنزلونا لأنا غير جنسهم   منازل الوحش فى الإهمال عندهم
فليتنا لو قدرنا أن نعرفهم   مقدارهم عندنا أو لودروه هم

لهم مريحان من جهل وفضل غنى   وعندنا المتعبان العلم والعدم

والأبيات ـ كما ترى ـ جيدة النسج جزلة التراكيب موفقة التعبير ، واضحة المعانى ، تناولت إحدى ظواهر المجتمع ، وهى ظاهرة مطردة البروز فى كثير من المجتمعات الشرقية والعربية ، وقصاراها استعلاء الرؤساء والحكام على العلماء وأهل الفضل ، لما لهم من الجاه والغنى ، ولكنهم مع ذلك جهلاء أراحهم الجهل من فهم الحق ومعرفة منازل الناس ، بينما أتعب العلم والعدم أهل الفضل ، وقللا من منازلها .

وقد جرى ابن البقق فى أبياته المناقضة شوطا قليلا مع أبيات ابن دقيق العيد ، وخالفه فى أن هؤلاء الحكام وأصحاب المراتب لا قيمة لهم بالنسبة إلى العلماء ، وهم فى حقيقة الأمر وحوش ونعم ، وإنما تقودهم حكمة العلماء . وأن العلماء لم يحظوا لدنهم بالمنازل التى يستأهلونها ، لأنهم أهملوا ذلك ، ولأن أهل المراتب لا ضمير لهم ولا شعور ، وماالعلم والعدم إلا مريحان للعلماء . وما الجهل والغنى إلا متعبان لأهل المراتب .

وهاك أبيات ابن البقق :

أين المراتب فى الدنيا ورفعتها   من الذى حاز علماً ليس عندهم

لاشك أن لهم قدرا رأوه وما   لمثلهم عندنا قــدر ولا لهم

هم الوحوش ونحن الإنس حكمتنا   تقودهم حيثما شئنا وهم نعم

وليس شيء سوى الإهمال يقطعنا   عنهم لأنهم وجدانهم عــدم

لنا المريحان من علم ومن عدم   وفيهم المتعبان الجهل والحشم[1]

وقريب من ذلك أيضا ما رواه شهاب الدين بن حجر العسقلانى أيضا من أن كمال الدين الشريشى — المتوفى عام ٧١٨ هـ ـ والذى كان فقيها ومدرسا ـ كتب

(١) الدرر الكامنة ج ١ رقم ٧٨٤

إلى بدر الدين — لعله بدر الدين بن الصاحب — هذين البيتين المشهورين « هكذا وصفهما ابن حجر » — يعاتبه موريا بلفظ « الكمال » ، وهو لقبه :

مولاى بدر الدين صل مدنفا صيره حبك مثـــل الخلال
لا تخش من عيب إذا زرته فما يعاب البدر عند الكمال

فبلغ ذلك صدر الدين بن الوكيل ، فناقضهما بقوله من البحر والروى .

يا بدر لاتسمع كلام الكمال فكل ما نمق زور محال
فالنقص يعرو البدر فى تمه وربما يخسف عند الكمال(١)

أما المراسلات الشعرية فقد كانت كثيرة متداولة بين الشعراء ، وكانت أسلوبا إخوانيا متبعا بينهم ، وقد تكون مستقلة ، أو يصاحبها النثر .

والمراسلات لون من المعارضات ، لما كان يتوخاه المرسل إليه من الاقتداء بصديقه المرسل فى بحره ورويه ونوع قافيته وموضوعه ، مع سمة الرد والإجابة ومبادلة العاطفة .

ومن المراسلات ما بعث به علاء الدين بن غانم الشاعر الأديب ، إلى العلامة شهاب الدين محمود الحلبى صاحب ديوان الإنشاء بدمشق إذ ذاك ، يشكو إليه طول غيابه عنه ، فقال :

لقد غبت عنا والذى غاب محسود وأنت على ما اخترت من ذاك محمود
حللنا محلا بعـــد بعدك ممحلا به كل شىء ما خلا الستر مفقـــود
به الباب مفتوح إلى كل شقوة ولكن به باب السعادة مسدود

فأجابه الشهاب محمود بقوله من البحر والقافية :

أأحبابنـــا بنتم وشط مزارنا برغمى وحالت دون وصلكم البيد

---

(١) الدرر الكامنة ج ١ رقم ٦٤٦ .

وروعتم روض الحمى بفراقكم   فشابت نواصى بانه وهو مولود
ومن لم تهجه الورق وجداً عليكم   توهم أن النوح فى الدوح تغريد(١)

« روى الأبيات صاحب فوات الوفيات . ونرجح أن لها بقية طويلة ، لم يثبتها صاحب الفوات مجتزئاً بهذه الأبيات » .

ومن المراسلات أيضاً ما نظمه الأدب جمال الدين بن غانم — وهو فى دمشق — إلى الصلاح الصفدى — وهو فى مصر — قال :

ذكرت قلبى حين شط مزارهم   بهم فناب عن الهوى تذكارهم
وبكى فؤادى وهو منزل حبهم   وأحق من تبكى الأحبة دارهم
وبجلق الجفن الهمول كأنما   لمحته عند مرورهم أنوارهم
تذرى الدموع عليهم وكأنهم   زهر الربا وكأنها أمطارهم . . إلخ

فرد عليه الصلاح الصفدى من الوزن والقافية فقال :

أفدى الذين إذا تناءت دارهم   أدناهم من دارهم تذكارهم
فى جلق الفيحاء منزلهم وفى   مصر بقلب الصب تضرم نارهم
قوم بذكرهم الندامى أعرضوا   عن كأسهم وكفتهم أخبارهم
وإذا الثناء على محاسنهم أتى   طربوا له وتعطرت أوتارهم . . إلخ(٢)

والقصيدتان طويلتان .

وفى أعقاب حديثنا هذا عن المعارضات والمناقضات والمراسلات وما يتصل بها ، نلفت النظر إلى أن هذا الموضوع يستأهل بحثاً مستقلا ، تبحث فيه أسبابه وعلله ودوافعه فى كل عصر من عصور الأدب ، وتسجيل أهم القصائد وأجودها ،

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٩٨ .
(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٩٢١ وبه القصيدتان بتمامهما .

مع شرحها وضبطها والتعليق عليها ، وتحليلها ، والموازنة بينها ، والتنويه بالثروة الأدبية التى نجمت عنها ، إلى غير ذلك مما يتراءى للباحث .

٧ – السرقات الشعرية

وحديث المعارضات يجرنا إلى الحديث عن السرقات الشعرية بعامة . وذلك لأن المعارض قصاراه أن يدور فى فلك من يعارضه ، ويتحذاه ويقتدى به متأثرا بنهجه وأسلوبه ومعانيه . وقد يؤدى به هذا إلى الوقوع فى السرقة الشعرية .

وفى الحق ، لم يكن الوقوع فى السرقة الشعرية أمرا مقصورا على المعارضين ، ولكنه كان شائعا أيضا عند غيرهم . بل نود أن نقول إنه كان اتجاها وأسلوبا عند كثير من الشعراء فى العصر الذى نتحدث عنه .

بل يبدو لنا أنه كان ظاهرة أدبية برزت فى العصر المذكور أكثر من بروزها فى غيرها .

ويستطيع أى ناقد أن يتخذ هذه الظاهرة وسيلة للحط من قدر شعراء العصر وقيمة شعرهم . ولكن ينبغى له أن يضع فى الاعتبار أسبابا جوهرية جذبت هؤلاء الشعراء إلى نطاق السرقات . ومنها رغبة بعضهم فى المعابثة والمداعبة الأدبية ، وإثارة المنافسة والمنازعة . كما أن حب البديع كان سببا أساسيا فى هذا الاتجاه ، فكثيرا ما كان يقع خاطر أحدهم على لفظ أو تركيب نضجت له فيه تورية ، أو حلا جناس ، أو استقام معه طباق أو اقتباس . أو نحو ذلك . فينظم البيت أو البيتين فيه يضمنهما إياه . وما هو إلا أن ينظمه حتى يشرق ويغرب . فيتهافت عليه ويتهادى إليه كثير من الشعراء يعارضونه . فيعجبون بالمعنى أو الصورة اللفظية ، ويحبون إظهار براعتهم ومقدرتهم فى هذه المعارضة . فينظمون له البيت أو البيتين أيضاً ، من بحره ورويه أو غيرهما يضمنونهما المعنى أو يزيدون

عليه أو ينقصون منه ، وبلفظه ، أو بجزء منه ، أو بلفظ مغاير له .

وهكذا ترى حب المعارضة – وهو وحده أسلوب – قد جر إلى السرقة ـ وهى أيضاً أسلوب من الأساليب .

وليست السرقة الشعرية معيبة دائما ، بل منها مايعد تجديدا وتوليدا فيه متعة وطرافة ، كما سترى .

وقعت السرقات ـ كما أشرنا ـ من كثير من شعراء العصر . ووقعت من فحولهم ومجيديهم . وعيبت من بعضهم وعدت من هناتهم . ومنهم : علاء الدين الوداعى . وجمال الدين بن نباتة المصرى وصلاح الدين الصفدى . وزين الدين بن الوردى . وشهاب الدين بن أبى حجلة المغربى . وغيرهم من الفحول .

وروى ابن حجة الحموى قال :

« إن الشيخ علاء الدين الوداعى سبك التورية فى قوالب لم يسبقه أحد من هذه الجماعة إليها . ولا سقط فكره عليها . ومع علو قدر الشيخ جمال الدين بن نباتة ـ وهو الذى مشت ملوك الأدب قاطبة بعد الفاضل تحت أعلامه ـ تطفل على موائد نكت الوداعى ومعانيه »[1] .

وروى أيضاً أن صلاح الدين الصفدى كان يسرق معانى ابن نباتة . فكما سلط ابن نباته على علاء الدين الوداعى ، سلط الصفدى عليه . وقد حداه هذا إلى أن يؤلف كتابا سماه « خبز الشعير » بين فيه سرقات الصفدى من شعره .

قال ابن حجة فى ذلك مانصه ، وهو يتحدث عن براعة الاستهلال :

« وأما براعة الشيخ جمال الدين بن نباتة فى خطبة كتابه المسمى « بخبز الشعير » فإنها خاص الخاص .

---

(١) خزانة الأدب باب التورية .

ولا بد من مقدمة تكون هى النتيجة الموجبة لتسمية هذا الكتاب بخبز الشعير . فإنه مأكول مذموم وما ذاك إلا أنه كان يخترع المعنى الذى لم يسبق إليه ، ويسكنه بيتا من أبياته العامرة بالمحاسن . فيأخذه صلاح الدين الصفدى بلفظه ، ولا يغير فيه غير البحر ، وربما عام به فى بحر طويل يفتقر إلى كثرة الحشد واستعمال مالا يلائم .

فلم يسع الشيخ جمال الدين إلا أنه جمعه من نظمه ونظم الشيخ صلاح الدين . واستهل خطبته بقوله تعالى : « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا » . ورتب كتابه على قوله : قلت أنا . فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال . . » الخ(١)

وروى ابن حجة جزءا آخر من خطبة ابن نباتة ، أنه قال :

« بلغنى أن بعض أدباء عصرنا ممن منحته ودى وأنفقت على ذهنه الطالب ماعندى . وأقمته — وهو لا يدرى الوزن — مقام من زكاه نقدى . وأودعته ذخائر فكرى وأنفقها . وأعرته أوراقى العتيقة ، فلا والله ما ردها ولا أعتقها . بل إنه غير الثناء بالهجاء . والولاء بالجفاء ونسبنى إلى سرقة بيوت الأشعار مع الغنى عنها والغناء . فتغاضيت وقلت : همار مشاء بنميم . وغصة صديق أتجرعها ولو كانت من حميم . وأخليت من حديثه باب فمى ومجلس صدرى وصرفت ذكره عن فكرى .

ولكن وقفت على تصانيف فى علم الأدب ـ والعلم عند الله تعالى ـ ووشحها بشعره ، وشعرى المغصوب المنهوب يقول ياصاحبى ألالا . وما يتوضح من تلك الأشعار لمعة إلا ومن لفظى مشكاتها . ولا تتضوع زهرة إلا ومنى فى الحقيقة . نباتها . فضحكت والله من ذهنه الذاهل . وذكرت على زعمه قول القائل :

وفتى يقول الشعر إلا أنه   فيم علمنا يسرق المسروقا

---

(١) خزانة الأدب باب براعه الاستهلال وباب التورية .

وعجبت له كيف رضى لنفسه هذا الأمر منكرا . وكيف حلا لذوقه اللطيف هذا الحرام مكررا .

وقد أوردت فى هذا الكتاب قدرا كافيا . ووزنا من الشعر وافيا . وسميته « خبز الشعير » المأكول المذموم . وعرضته على معدلة مولانا ليعلم أينا مع خليله مظلوم » .

وقد اشتهرت سرقات صلاح الدين خليل الصفدى من ابن نباتة ومن غيره . فقد قال فيه الأديب شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى – موريا — وذلك لأنه سرق معنى للنسيم نظمه محيى الدين بن عبد الظاهر :

إن ابن أيبك لم تزل سرقاته تأتى بكل قبيحة وقبيح
نسب المعانى فى النسيم لنفسه جهلا فراح كلامه فى الريح (١)

ومن طريف ما اعترف به زين الدين بن الوردى على نفسه بالسرقات قوله الصريح :

وأسرق ما استطعت من المعانى فإن فقت القديم حمدت سيرى
وإن ساويت من قبلى فحسبى مساواة القديم وذا لخيرى
وإن كان القديم أتم معنى فذلك مبلغى ومطار طيرى
فإن الدرهم المضروب باسمى أحب إلى من دينار غيرى (٢)

واجتمع من سرقاتهم الشىء الكثير مما حدا ببعض الناقدين إلى تتبعها وردها

---

(١) خزانة الأدب باب براعة الاستهلال وباب التورية .
(٢) ديوان ابن الوردى ص ٢٣٣ ط الجوائب .

إلى مصادرها وبيان الطريف منها وغير الطريف . ومنهم ابن نباته فى كتابه السالف الذكر « خبز الشعير » فى سرقات الصفدى منه :

وقد أثبت ابن حجة فى كتابيه « خزانة الأدب » و « تأهيل الغريب » كثيراً من هذه السرقات فى أبواب عدة . وألف شمس الدين النواجى كتابه « الحجة فى سرقات ابن حجة » .

ونورد فيما يلى أمثلة وشواهد من سرقاتهم على اختلاف ضروبها . فمنها :

قول شيخ الشيوخ عبد العزيز الأنصارى :

وبدر دجى لم ينتقل كسميه　　ولكنه مازال فى القلب والطرف
يلوح لعينى ما شقا نون صدغه　　فأعبد خلاقى على ذلك الحرف

قال ابن حجة : هذه النكتة أخذها ابن الوردى بقافيتها وغالب ألفاظها ومعناها . ولعمرى إنها سرقة فاحشة .

قال ابن الوردى :

يا بدر تم نوره باهر　　منزله فى القلب والطرف
صدغك حرف النون فى مشقه　　من يعبد الله على حرف

وقال شيخ الشيوخ أيضاً :

أفدى حبيباً رزقت منه　　عطف محب على حبيب
بوجنة ما أنم ربحى　　وقد غدا وردها نصيبى

أخذه ابن نباتة فقال :

فدتيك غصنا ليس يبرح مثمرا　　من الحسن فى الدنيا بكل غريب
تفتح فى وجناته الورد أحمرا　　فياليت ذاك الورد كان نصيبى

والسرقة فى البيت الثانى . وتنصب على التورية فى قوله « نصيبى » ، وترى أن

ابن نباتة تصرف فى الترشيح لتوريته ، وذلك بذكر الورد الأحمر فى الشطر الأول . وقد خلا منه بيت شيخ الشيوخ . وقرنه ابن نباتة بالتمنى أيضا ـ وعلى كل فالفضل للمتقدم .

وقال جمال الدين بن نباتة :

ومـــولع بفخاخ يمدهـا وشبـاك
قالت لى العين ماذا يصيد قلت كرك « كراكى »

ورى الشاعر فى قوله « كراك » وهو الكرى . أو جمع كركى وفيه جناس التورية .

أخذه صلاح الدين الصفدى فقال :

أغار على سرح الكرى عندما رمى الـــكراكى غزال للبدور يحاكى
فقلت ارجعى ياعين عن ورد حسنه ألم تنظريه كيف صاد كراكى « كراك »

أطال الصفدى فى بيته الأول وذكر الكرى والكراكى ، وأفصح عن الغزال الصائد . وهو الغلام الجميل . وتكلف فى التعبير وأطال حينما قال « أغار على سرح الكرى » ـ والبيت الأول لابن نباتة يتضمن هذا كله ـ باستثناء الكراكى التى لم تزد بيت الصفدى إلا ثقلا .

وأطال الصفدى كذلك فى بيته الثانى دون معنى قيم ، وتكلف فى ذلك ليمهد للتورية .

وقد بلغ ابن نباتة هدفه من ذلك كله دون تكلف وفى إيجاز ، وفى بحر من الشعر قصير .

وقال القاضى الفاضل موريا :

وكنت وكنا والزمان مساعد فصرت وصرنا وهو غير مساعد
وزاحمنى فى ورد ريقك شارب ونفسى تأبى شركها فى الموارد

فأخذه عز الدين الموصلي وقال :

لقد كنت لي وحدي ووجهك حضرتي وكنا وكانت للزمان مواهب
فعارضني في ورد خدك عارض وزاحمني في ورد ثغرك شارب

والبيت الأول واضح السرقة بالمعنى وأكثر اللفظ . مع تغيير لفظ « مساعد » بلفظ « مواهب » . هذا إلى أن بيت الموصلي يتضمن نصف المعنى لا المعنى كله ، فقد أغفل معنى النصف الثاني من البيت .

وفي بيته الثاني اختلس قول الفاضل « وزاحمني في ورد ريقك شارب » بتغيير غير جوهري في لفظ « ريقك » إذ استبدل به « ثغرك » . وحقيقة زاد عن الفاضل معنى الشطر الأول وألفاظه وهو قوله « فعارضني في ورد خدك عارض » .

وقال محي الدين بن عبد الظاهر في النسمة :

شكرا لنسمة أرضكم كم بلغت مني تحية
لا غرو إن حفظت أحا ديث الهوى فهي الذكية

والنكتة في قوله « الذكية » بمعنى اليقظة اللبيبة الفطنة . وبمعنى الذاكية النشر الضائعة العطر . وهو المراد من التورية .

فأخذ المعنى صلاح الدين الصفدي وقال :

يا طيب نشر هب لي من نحوكم فأثار كامن لوعتي وتهتكي
أهدى تحيتكم وأشبه لطفكم وروى شذاكم إن نشركم ذكي

وبيتا ابن عبد الظاهر أوجز وأبعد عن الحشو ، وأبعد عن تكلف التمهيد إلى النكتة .

وهذه السرقة هي التي أشار إليها ابن أبي حجله المغربي في بيتيه نقدا للصفدي . وقال إنه نسب المعاني في النسيم لنفسه فراح كلامه في الريح .

ومن بديع ما صور به أبو نواس الكاسات ، قوله فى خمرياته

بنينا على كسرى سماء مدامة مكللة حافتها بنجوم
فلو رد فى كسرى بن ساسان روحه إذاً لاصطفانى دون كل نديم

وقد ألم بهذا التصوير أكثر من شاعر . وممن ألم به صلاح الدين الصفدى وأجاد إلى الغاية مع التضمين ، فقال :

ومشمولة قد هام كسرى بكأسها فأضحى ينادى وهو فيها مصور
وقفت لشوقى من وراء زجاجة إلى الدار من فرط الصبابة أنظر

وألم به بعده الصاحب فخر الدين بن مكانس فقال :

إذا ما أديرت فى حشاً عسجدية بها كل ذى تاج وقصر تصورا
فحسبك نبلا فى السيادة أن ترى نديميك فى الكاسات كسرى وقيصرا

وقال محي الدين بن قرناص الحموى :

وحديقة غناء ينتظم الندى بفروعها كالدر فى الأسلاك
والبدر يشرق من خلال غصونها مثل المليح يطل من شباك

وأخذه صلاح الدين الصفدى فقال :

كأنما الأغصان لما انثنت أمام بدر التم فى غيهبه
بنت مليك خلف شباكها تفرجت منه على موكبه

ذكر ابن حجة أن هذا التشبيه غير بليغ . وروى ما نقده به بدر الدين الدمامينى فى كتابه « نزول الغيث الذى انسجم » . حيث قال :

« إن ظاهر عبارة الشيخ صلاح الدين تشبيه الأغصان فى حالة انثنائها أمام البدر فى الدجى ، ببنت مليك تطل من شباكها للنظر فى موكب أبيها . وذلك عن مظان التشبيه بمعزل . ومقصوده أن البدر فى حالة ظهوره من خلال الأغصان المنثنية على الصفة المذكورة ، يشبه بنت مليك على تلك الحالة تمثيلا للهيئة

الاجتماعية . لكن اللفظ لا يساعده على ذلك المطلوب . فإنه جعل الأغصان مبتدأ ، وأخبر عنه بقوله : « بنت مليك » فلم يتم له المراد » .

ونقول إن الصفدى سرق الفكرة وتصويرها من ابن قرناص . وقد صورها ابن قرناص فى بيت واحد هو البيت الثانى . وأجاد مع الوضوح ودقة التشبيه وجمال الصورة . أما الصفدى فقد صورها فى بيتين . واعتاص عليه إبراز التشبيه كما نقده ابن الدمامينى .

وقال علاء الدين الوداعى :

من آخذ من خده بدم الشهيد المغرم
فالريح ريح المسك منه ولونه لون الدم

فأخذه ابن نباتة وقال :

لا ينكر الكاسر من جفنه دم الشهيد الصابر المغرم
فالريح ريح المسك من خده كما ترى واللون لون الدم(١)

وترى جوهر المعنى واحدا . وأطال ابن نباتة فى إبرازه ، وحوره بعض التحوير الذى لا طرافة فيه . وحشا فى قوله « الصابر » وقوله « كما ترى » . — وطالب الوداعى بأخذ الدم ، وسكت عنه ابن نباتة . وذكر الوداعى أن الدم يؤخذ من الخد — وكأنه هو سبب القتل أو هو القاتل . واحمراره دليل على جنايته ومناسبة ذلك واضحة . — أما ابن نباتة فجعل القاتل هو الجفن . وبدهى أن الجفن أقتل من الخد ولكن أين الدليل ، وهو الاحمرار ؟ لقد سقط دليل ابن نباتة ، إلا إذا جعل الاحمرار فى الجفن ، وليس فى ذلك ملاحة .

وحسبنا بهذا ما سجلنا من السرقات على اعتبار أنها لون من أساليبهم . على أنك ولا ريب لحظت فيما سجلناه أذواقا أدبية ونفوساً شاعرة .وعقولا ذكية،

---

(١) ارجع فى نماذج هذا الفصل إلى خزانة الأدب باب التشبيه وباب التورية وباب السرقات ، وأيضا كتابه تأهيل الغريب . ودواوين الشعراء .

وأذهانا مصورة وخيالا مبتكرا . وإن لم تدفع إليه عاطفة جياشة أو وجدان ثائر .

وليس معنى هذا أنهم لم يقعوا على القديم ، ولم يقتدوا بالسابقين ولم يحاكوهم . بل نقول إن هذه هى التهمة التى يرمى بها شعراء العصر الذى نحن بصدده . وأن قصاراهم المحاكاة والتقليد .

فلا بأس بنا وقد استطرنا إلى هذا الموضوع أن نتحدث فى وجازة عن الشعراء بين التقليد والتجديد .

التقليد والتجديد :

اتهم شعراء العصر بأنهم مقلدون لا جديد عندهم ولا ابتكار دار بأذهانهم . والتقليد والمحاكاة قصارى رأى السادة الناقدين والمؤرخين — أو أكثرهم — ممن تصدوا للحديث عن هذا العصر بأجمعه وعن شعرائه وأدبائه وعلمائه .

وهذه فرية إن دلت فإنما تدل على أن السادة لم يستوفوا أطراف البحث ، ولم يدوروا فى فجاج العصر ، ولم يفتشوا تفتيش المستقرىء المستقصى ، وحكموا حكما فجا على العصر وأهله . مأخوذين بما أحاط بالعصر من مثبطات الأدب ومعوقاته .

والعصر المملوكى — ككل عصور الأدب بعامة — فيه المحاكاة والتقليد ، وفيه الابتكار والتجديد . فى المعانى وأساليب تصويرها وإبرازها .

واستقراؤنا ثبت أمامنا هذه النظرة ، وأقر هذا الرأى .

إننا — وقد آمنا بشاعرية هؤلاء الشعراء وآمنا بصفاء قرائحهم وأصالة مواهبهم ونقاء فطرهم — لانستطيع أن نجردهم من صدق تجاربهم النفسية وعمق انفعالاتهم العاطفية ، وشدة امتزاجهم بما حولهم من أجزاء البيئة ونواحيها . وهذا من شأنه أن يدفع إلى الابتكار والتجديد دون مشقة .

والبحث فى أساليب عصر من العصور ، وفى معانى الشعر فيه ، لاستخراج الجديد من بينها ، والمبتكر الذى لم يطرقه طارق ولم يسبق إليه سابق ، مهيع شاق وطريق وعر ، يحتاج إلى جهد مستقل ومقام غير هـذا المقام . يستطيع فيه الباحث ارتياد ميادين الأساليب والمعانى الشعرية فى كل عصر أدبى ، ليعقد الموازنة والمقارنة ، حتى يستخرج الجديد من بينها والمبتكر ، فى العصر الذى نؤرخه.

على أننا نكتفى فى هـذا المقام بأن نورد لك جملة من النماذج يبدو لك فيها جديد الأسلوب وطريف المعنى ، فمن ذلك :

قول فخر الدين بن مكانس فى قصيدته البارعة فى وصف « سرحة النيـل » يصف انحناءها فوق النهر :

مالت على النهر إذ جاش الخرير به كأنهـا أذن مالت لإصغاء

الشطر الأول من البيت تعبير عادى جدا ، يصف المنظر وصفا طبيعيا لا خيال فيه . ولكن الشطر الثانى أكسبه روعة وأجرى بما فيه من الخيال ، روحا قوية دافقة فى أوصاله . وأبرز السرحة حسناء جميلة عاشقة حانية عاطفة أثار أحاسيسها جيش النهر بخريره ، فانجذبت إليه سامعة متلهفة .

قال ابن حجة :

« الذى يظهر لى أن الصاحب فخر الدين بن مكانس ولد هـذا المعنى من قول الأرجانى :

كم طعنة نجـلاء تعرض بالحمى من دون نظرة مقلة نجلاء

فتحدثا سرا لخول قبابها سمـر الرماح يملن للإصغاء [1]

ومن تصور ابن العفيف وتصويره ، قوله مع الاقتباس والتوجيه :

لو لم تكن إبنة العنقود فى فمه ما كان فى خده القانى أبو لهب

(١) تأهيل الغريب باب الغزل المحمس .

تبت يدا عاذلي فيـــه فوجنته حمالة الورد لا حمالة الحطب (١)

قال ابن حجة ما معناه : « إن الشعراء بعد ابن العفيف تلاعبوا بهذه النكتة الأدبية وأغاروا عليها » .

ومن طرائف مجير الدين بن تميم قوله من خمرياته :

وليلة بت أسقى في غياهبها راحا تسل شبابي من يد الهرم

ما زلت أشربها حتى نظرت إلى غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم (٢)

وذكر ابن حجة قول أبي نواس في مدح الأمين :

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذي نعني

ثم قال : « هـذا المعنى أهل الشيخ جمال الدين بن نباتة غريبه في مدح الملك المؤيد صاحب حماة المحروسة ، فجاء أبدع وأغرب وأبلغ ، حيث قال:

من مخـــبر الملك المؤيد أنني لولاه ماسميت نفسي شاعرا

وحلفت لم أمدح سواه لرغبة لكنني جربت فيه الخاطرا (١)

أقول إن ابن نباتة كرر هذا المعنى ، مع التوليد منه ، في أكثر من مناسبة ، فمن ذلك قوله من مؤيدية :

أجابني قبل أن ناديت جودك إذ ناديت جود بني الدنيا فلم يجب

فإن يكن بعض أمداح الورى كذبا فإن مدحك تكفير عن الكذب (٢)

ومن غريب ماصوره ابن حجة الحموي في مدح الملك المؤيد شيخ بعد انتصاره

---

(١) خزانة الأدب ص ٣٣٦

(٢) التأهيل : باب التشبيه .

(٣) التأهيل باب المديح .

(٤) ديوان ابن نباتة حرف الباء .

على السلطان فرج بن برقوق ورجال جيشه ، قوله يصف حركة قتاله لأعدائه وقتله إياهم :

وإذا مددت يراع رمحك ماله إلا قلوب الدار عــين محابر
ونعال خيلك كالعيون ومالها إلا جماجم من قتلت محاجر
وكتبت بالهندى فيهم أسطرا وصدورهم تحت الدروع مساطر[1]

وتراه قــد مزج بين أدوات الكتابة ومصطلحاتها ، وأدوات الحرب ومصطلحاتها ، واستعار البعض للبعض ، وأدى ذاك تأدية مقبوله ، وأخرج هذه المعانى الطريفة بهذا التصوير البارع الواضح .

فالرمح يراع ، والقلوب محابر ، والصدور مساطر ـ ويراع الرمح انغمس فى محابر القلوب ، والسيوف تكتب سطورها على الصدور .

وفى البيت ، جعل نعال الخيل كالعيون . وجماجم الأعداء كالمحاجر .

وتوريته فى قوله «بالهندى» طريفة، إذ فيها معنى الخط الهندى ، ومعنى السيف الهندى . .

ولشهاب الدين بن حجر العسقلانى فى وصف روضة ، مع التورية :

ولم أنس إذ زاد الحبيب بروضة فغارت من المعشوق أعينها المرضى
ولاح بخـد الورد حمرة خجله إلى أن رأينا طرف نرجسه غضا[2]

ولسراج الدين الوراق يتغزل فى بدوية ويورى فى كلمة « البادى » :

وبى من البدو كحلاء الجفون بدت فى قومهـــا كمهاة بين آساد
فلو بدت لحسان الحضر قمن لها على الرءوس وقلن الفضل للبادى[3]

---

(١) تأهيل الغريب باب المديح . (٢) التأهيل : باب الاستعارة .
(٣) التأهيل باب غزل التورية .

ولمجير الدين بن تميم يصف وردة مبكرة :

سبقت إليك من الحدائق وردة　　وأتتك قبل أوانها تطفيلا
طمعت بلثمك إذ رأتك فجمعت　　فمها إليك كطالب تقبيلا(١)

وله أيضاً يصف الآذريون :

وكأن آذريونها فى روضة　　سرج تضىء على صفا أنهارها
والسرج تخفيها الشموس وهذه　　سرج تزيد الشمس فى أنوارها(٢)

ولمحيي الدين بن قرناص يهيم بالرياض :

لم لا أهيم إلى الرياض وطيبها　　وأعيش منها تحت ظل واف
والزهر يلقانى بثغر باسم　　والنهر يلقانى بقلب صاف(٣)

ولعلاء الدين الوداعى من خمرياته :

قم هاتها يا صاح مشمولة　　تحسبها فى الكأس مصباحا
جسم بلا روح ولكنها　　تحدث فى الأجسام أرواحا　(٤)

ولسيف الدين بن المشد يصف مطرباً بشبابة :

ومطرب قد رأينا فى أنامله　　شبابة لسرور النفس أهلها
كأنه عاشق وافت حبيبته　　فضمها بيديه ثم قبلها(٥)

---

٨ — العبارات والأمثال السوقية

يلوك العامة فى لغتهم المعاشية الرتيبة ألواناً من العبارات ، ويرددون

---

(١) التأهيل باب الربيعيات .
(٢) التأهيل باب الربيعيات .
(٣) التأهيل باب الربيعيات .
(٤) التأهيل باب الخمريات .
(٥) التأهيل : باب ما ورد من الغريب فى مدح المغنين .

أخلاطا من الأمثال يعبرون بها أو يضربونها فى مناسبات حياتهم ، فى منازلهم وفى مجالسهم وفى أسواقهم وما إلى ذلك .

ويكثر منهم تكرارها واختيارها كلما دعت مناسبة ، وكلما عنت ضرورة، فى حديث أو جدال أو بيع أو شراء أو حفل أو سمر أو نحو ذلك . وقد يكون لها أو لبعضها وقع خاص فى النفوس ومحل قبول ـ وقد يؤدى بعضها معنى لا تؤديه لغة الخاصة بإيجازه ووضوحه .

هذه العبارات والأمثال هى ما نطلق عليه العبارات والأمثال السوقية .

وبدهى أنها من صنع الشعوب غالباً ، أى عوام الشعوب . وأنها كثيراً ما تتغير وتتجدد بتغير الشعوب وتجدد الأجيال .

وفى الشعوب العربية صارت هذه العبارات والأمثال السوقية عامية منذ أمد بعيد . بل أصبحت غارقة فى العامية وإن كانت محرفة عن الفصيحة ، أو يمكن تفصيحها بشىء قليل أو كثير من الإعراب . وربما صارت مبتذلة بكثرة استعمالها لدى العامة ، فأصبح الخواص والفصحاء ينظرون إليها نظرة شزراء ، ويأنفون من التعبير بها واصطناعها فى أساليبهم سواء فى النثر كان ذلك أم الشعر . ويسمو بعضهم عنها إلى أفق أعلى فيه الفصاحة والجزالة .

فى حين أن بعض الخواص والفصحاء هؤلاء ، يرى أحياناً فى بعض هذه العبارات والأمثال ملاحة ، أو تضطره مناسبة ، فيستعملها بين كلامه . فينصب بذلك لنفسه شركا يقع فيه ، يتصيده من خلاله النقاد وحفاظ الفصيحة . مع أنه يفصحها قبل استعمالها ويضفى عليها ثوباً من الإعراب . وإن لم يستر هذا الثوب عاميتها .

والشعب المصرى فى عصر المماليك كانت لغته فى تخاطبه ،العامية المحرفة عن الفصيحة، التى بها لوثة من التركية . وكانت ـ ولاريب ـ ملأى بالعبارات والأمثال السوقية .

ولكننا لا نستطيع أن نحكم حكما قاطعاً على عبارة معينة أو مثل معين ، بأنهما من وضع عصر بعينه ، إذ ليست لدينا نصوص تاريخية ولا صوتية كافية تمدنا بالدليل القاطع فى هذا الموضوع .

غير أننا على ضوء ما نعرفه من عامية زماننا ، وقياساً على ما نفهمه من عباراتها وأمثالها ، نستطيع أن نحكم على عبارة ما ، أو مثل ما ، وردا فى نص من أحد العصور ، بأنهما كانا حينذاك عاميين أو سوقيين .

وعلى هذا الأساس نستطيع القول إنه ما من شاعر من شعراء العصر المملوكى إلا والتاث شعره بعبارات عامية وأمثال سوقية كثيرة . وندر أن سلم أحدهم من العيب جملة . .

ونقول «هذا العيب» لأننا من أنصار الفصحى ومن المتعصبين لها والحريصين عليها ، والداعين إلى استخدامها حتى فى لغة التخاطب والمحادثة . . .

غير أن ذلك لا يمنعنا تعليل هذه الظاهرة ـ ظاهرة بروز العامية فى الشعر الفصيح ـ تعليلا مقبولا مستساغا ، فيه عدل وإنصاف ، لاظلم وإجحاف . ويكون هو التعليل الحق الذى لازيف فيه ولا باطل .

ذلك لأن بعض النقاد ينعى على الشعراء ، استخدامهم شيئا من عامى عصرهم ، وينسب ذلك إلى ضعف ثقافتهم ، وضيق معجمهم اللغوى ، وقرب أفقهم الأدنى حتى إن من بينهم شعراء أميين لايقرءون ولا يكتبون ...

وليس استعمال العامى دليلا على ذلك ، ومن الحمق أن نتهم شعراء فحولا مجيدين أمثال شهاب الدين الحلبى ومحيى الدين بن عبد الظاهر ، وشهاب الدين بن فضل الله العمرى ، وجمال الدين بن نباتة المصرى ، وصلاح الدين الصفدى ، وتقى الدين بن حجة الحموى ، بضعف الثقافة أو ضيق المعجم أو بغيره . وما منهم إلا وفى شعره عبارات وأمثال سوقية .

وإذا كان من بين شـــعراء العصر أميون ، فلا طعن على شاعريتهم من هذه الناحية . لأن الأمية لا تكبت الشاعرية . ولأن شعراء الجاهلية كانوا أميين ، ولم يطعن فيهم طاعن ، لأميتهم وقد ألمعنا إلى ذلك .

والتعليل الذى ندين به ، أن شعراء العصر نشئوا فى بيئات شعبية ، وهى بيئات عاشت أكثر حياتها فى شبه عزلة وانقطاع عن البيئة الحاكمة المستعلية . ولم تمكن سياقات الحياة - لكثير من هؤلاء الشعراء أن يعيشوا بعيدين عن بيئات الشعب وعوامه . فلا غرابة أن تأثروا بعباراتهم وأمثالهم ، ورسخت هذه العبارات والأمثال فى ألسنتهم وجرت فى منطقهم . وتهاووا إليها فى شعرهم الفصيح تأثرا بذلك أو تفكها بها واستطابة لها ، وليكونوا أدنى ، باستخدامها ، إلى نفوس العامة وقد استخدموها بعد تفصيحها .

لقد استطاع الشعراء بذلك أن يكونوا ، فى أساليبهم ، أدنى إلى تمثيل جمهورهم وأدل على بيئتهم ، من كثير من شعراء العصور الأدبية الأخرى .

والآن نسوق إليك نماذج مما وقع للشعراء من عبارات وأمثال سوقية . فمنها :

ما نظمه الشاعر على بن برد بك . فى صديقه بدر الدين الدميرى « محمد بن يوسف المتوفى عام ٨٨٧ هـ » ، موريا عن « كتكوت » ، وهو لفظ كان يطلقه الناس على الدميرى المذكور . قال :

إن الدميرى صديقى فلا   أسمع فيـــه قول واش ولاح
ولا أرى كالغـــير تقبيحه   بل هو عندى من ملاح الملاح

والنكتة واللفظ العامى فى قوله « ملاح الملاح » أى من الكتاكيت .

و « ملاح الملاح » نداء ينادى به باعة « الكتاكيت » عليها . ولا يزال نداء مستعملا فى هذا المعنى حتى يومنا .

وما نظمه الكاتب المنشىء الكبير والشاعر البارع القدير محيي الدين ابن عبد الظاهر :

يا رب كأس صرت من شربها من بعد رشفى ريق معشوقى
ملتهب الأحشاه نارا لأن شربتها منه على الريق[1]

والشطر الثانى تعبير عامى ويتضمن تورية لطيفة . ويقصد به أنه شرب الكأس بعد رشف ريق معشوقه ، وكان الريق أحلى وأعذب وأجمل إطفاء لنار الأحشاء من الكأس - أما المعنى العامى وهو غير المراد فإنه شربها قبل أن يطعم شيئا . والتعبير المذكور هو « شربها على الريق » .

وما نظمه جمال الدين بن نباتة فى الشكوى :

قل عونى على الزمان فأصبحت صبورا على مراد الزمان
حابس اللفظ واليراع عن النا س فلا من يدى ولا من لسانى[2]

وفى الشطر الثانى عبارة عامية وهى « لا من يدى ولا من لسانى » ومعناها ضعيف الحيلة . ويريد بها أنه لم يعد يصل إليهم من يده مكاتبة ولا من لسانه حديث . وفى البيت لف ونشر ، وفيه اكتفاء أيضا .

وما نظمه شمس الدين بن دانيال الموصلى فى شكوى حظه ، ويذكر أنه باع حماره وعبده معا ، فأصبح بذلك فقيرا لا يملك شروى نقير ولا قطمير . قال :

---

(١) خزانة الأدب ص ٢٥٥ .

(٢) ديوان ابن نباتة ص ٥٣٦ ،

ما عاينت عيناى فى عطلتى أقل من حظى ومن بختى
قد بعت عبدى وحمارى وقد أصبحت لا فوقى ولا تحتى(١)

والبيتان معا مشربان بروح العامية . ولا سيما قوله « أصبحت لا فوقى ولا تحتى » فهى عبارة عامية لا تزال تتردد فى العامية حتى يومنا هذا . يعبرون بها عن نفاد المال والجاه .

وفى البيت الثانى لف ونشر ، وفيه اكتفاء أيضا . وفيه مجانة يفطن إليها اللبيب . . .

وما نظمه زين الدين بن الوردى متغزلا فى « تاجر مليح » :

وتاجر شاهدت عشاقه والحرب فيما بينهم ساثر
قال : علام اقتتلوا هكذا قلت : على عينك يا تاجر(٢)

والبيت الثانى عامى التعبير وذلك فى قوله : « علام اقتتلوا هكذا » . وفى قوله : « على عينك يا تاجر » ، ولا تزال عوام بلادنا ترددهما حتى اليوم . والعبارة الثانية حملها الشاعر بما مهد فى البيت الأول ، تورية معناها القريب « صراحة وعلى المكشوف دون مواربة وخفاء » ، والمعنى البعيد المراد « بسبب عينك الساحرة أيها التاجر المليح ، وما فيها من فتنة » .

وما نظمه صلاح الدين الصفدى يصف جرة خمر » :

وجــرة قــدموها تنفى الهموم الحزينة
بكر عروس جلوها والراح فيها كمينة

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٤٧ وديوان ابن الوردى .

شممت طينـة فيهـا فرحت سـكران طينة [١]

وقـوله : « سكران طينة » تعبير عامى تستعمله العـامة حتى اليوم ، ومعناه « سكران جداً » ، وتدل على المبالغة فى السكر لـكثرته أو أصالة الخمر . ومهد له الشاعر بقوله « شممت طينة فيها » فحملته التورية .

وما نظمه زين الدين بن الوردى أيضاً فى لاميته المشهورة :

واهجر الخمرة إن كنت فتى كيف يسعى فى جنون من عقل [٢]

وعبارته « إن كنت فتى » عامية إذ يريد بهـا بالضبط معنى العبـارة العامية « إن كنت جدع » . أى شهما عاقلا ، وذلك بدليل الشطر الثانى .

وليس من معانى « الفتى » الشهم أو العاقل ، إلا بتجوز أو لزوم . والفتى هو الشاب السخى الـكريم ، والفتوة الـكرم .

والذى أبرز عامية التعبير هنا . وضع العبارة فى صورة الشرط . فإن الشاعر شرط هجر الخمرة بحالة الفتاء . وهى حالة موقوتة . والشاعر — ولا ريب — يريدها نصيحة غير موقوتة ومن هنـا فسرنا قوله « إن كنت فتى » بمعنى « إن كنت جدع » العامية . فهى مرادفة لها .

وما نظمه ناصر الدين بن النقيب يشكو نحول جسده :

يقول جسمى لنحولى وقـد أفرط بى فرط ضنىً واكتئاب

فعلت بى يا سقم مالم يـكن يلبس والله عليه الثياب [٣]

وقوله : « يلبس عليه الثياب » تعبير عامى شائع تردده النسوة بمعنى « لا يطاق ولا يحتمل » ، وحملها الشاعر تورية ، والمعنى البعيد المراد « النحول » فالسقم أنحل جسده حتى أصبح غير صالح لحمل الثياب .

---

(١) تأهيل الغريب ص ١٣٠ ورياض الألباب لشمس الدين ـ مخطوط بمكتبة الأزهر ورقة رقم ٧٩

(٢) ديوان ابن الوردى ولاميته ، (٣) فوات الوفيات ج ١ ص ١٥٣

وما نظمه أيضاً جمال الدين بن نباتة متغزلا :

سألت النقا والغصن يحكى لناظرى روادف أو أعطاف من زاد صدها
فقال كثيب الرمـــل ما أنا حملها وقال قضيب البان ما أناقدها (١)

وفى البيت الثانى توريتان هما : « ما أنا حملها » و « ما أناقدها » ، وهما تعبيران عاميان ، الأول بمعنى « لا أستطيع مجاراتها ومنافستها » . والثانى بمعنى « لست مثلها » . وهما متقاربان فى المعنى أو لازمه .

وقد استخدمها الشاعر بلباقة وبراعة ورعاية نظير جيدة . فقد قدم لذكر « الحمل » بذكر « كثيب الرمل » وهو مناسب له . وقدم لذكر « القد » بذكر « قضيب البان » وهو مناسب له أيضاً . ومراده بالقد الجسم وطوله وامتداده .

والمعنى : ما حملى كحملها فى ضخامته ولينه وماقدى كقدها فى طوله وامتداده واستقامته .

ولصفى الدين الحلى فى معرض الغزل ، يصف الصباح :

والصبح قد أخلقت ثوب الدجى يده وليتـــه جاء للعشاق بالخلق (٢)

وفى الشطر الثانى تعبير عامى . وقد مهد له الشاعر تمهيداً سائغاً ، وهو قوله « أخلقت » فى الشطر الأول ، ومراده بالعبارة « ليت الليل جاء بأثواب خلقة ستر بها العشاق » .

وما نظمه شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى ، يهجو صلاح الدين الصفدى لسرقاته الشعرية :

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ١٧٣ . (٢) ديوان الحلى .

إن ابن أبيك لم تزل سرقاته　　تأتى بكل قبيحة وقبيح
نسب المعانى فى النسيم لنفسه　　جهلا فراح كلامه فى الريح(١)

والتعبير العامى هو قوله : « فراح الكلام فى الريح » ، ومعناه أنه ذهب عبثاً دون جدوى وتطاير ولم يثبت . وفيه تورية . والمعنى القريب أنه أراد أن يصف النسيم فوصف الريح ، فكأنه لم يوفق فى وصفه .

والذى أكسب التعبير قوة التورية ، هو المعنى العامى الذى يحمله .

ومما نظمه سراج الدين الوراق يتغزل :

ومهفهف عنى يميل ولم يمل　　يوماً إلى فقلت من ألم الجوى
لم لا تميل إلى يا غصن النقا　　فأجاب كيف وأنت من جهة الهوا(٢)

وشاهدنا فى قول الشاعر : « أنت من جهة الهوا » . وهو تعبير عامى ، معناه هنا : أن عاشق الغصن يقف فى مكان يمر به الهواء أولا ، ثم يمر على غصن النقا فيميله بعيداً عن عاشقه ولا يمكن أن يميل الغصن إلى عاشقه أو مخاطبه ، وهو بهذا الوضع .

وفى التعبير تورية . والمعنى القريب هو ما أشرنا إليه ، والبعيد أنه من جهة الهوى – لا الهواء – أى من جهة العشق والحب ، لذلك فهو يتأبى على الميل إليه . .

ومما نظمه برهان الدين القيراطى فى شكوى الهجر :

يا هاجرا أوقعنى هجره　　وصده فى حالة صعبة
أخذت قلبى بالتجنى وما　　تركت لى منه ولا حبة(٣)

---

(١) خزانة الأدب باب التورية وباب السرقات .　(٢) خزانة الأدب باب التورية .
(٣) تأهيل الغريب ص ٧٣ .

وفى عجزى البيتين عبارات عامية . وفى قوله « حبة » تورية، يريد حبة القلب وسويداءه . ورى عنها بمعنى « حبة » وهو « قليل » .

وما نظمه ناصر الدين بن النقيب :

ودعتهم ثم انثنيت بحسرة تركت معالم معهدى كالبلقع
ورجعت لا أدرى الطريق ولاتسل رجعت عداك المبغضون كرجعى[١]

والشطر الأخير مفصح العبارة العامية « رجع رجعة الأعادى » . ومعناها أنه رجع فى حالة يرثى لها كما يرجع الأعادى المهزومون . أوكما ترجو أن يرجع أعاديك . — وفى شطر البيت دعاء على الأعداء .

وما نظمه شرف الدين البوصيرى صاحب البردة . وذلك فى قصيدته التى يشكو فيها إلى أحد الوزراء حال أسرته :

فى قلة نحن ولكن لنا عائلة فى غاية الكثرة
أحدث المولى الحديث الذى جرى لهم بالخيط والإبرة[٢]

والبيتان — بل والقصيدة — تتراءى فيها عامية التعبير . وتبدو فى البيتين فى قوله « فى غاية الكثرة » بمعنى كثيرة العدد جداً . وفى قوله « جرى بالخيط والإبرة » أى جميعه . ولايزال عوام بلادنا يستخدمون هذا التعبير - أو « بالخيط والمخياط - فى المعنى نفسه .

وما نظمه شمس الدين بن دانيال الموصلى فى إحدى قصائده الماجنة :

وإذا ما خلوت فى خلوة المسجد قل للضيوف : عندى ضيوف[٣]

---

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١٥٤ .
(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٥٥٨ ، (٣) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٣٩ .

والعامية بادية فى قوله : « قل عندى ضيوف » .

وما نظمه جمال الدين بن نباتة فى آخر قصيدة إلى صفى الدين الحلى فى المعاتبة الإخوانية :

زوجتنـــا حمـاة نعمى يديه   فغدا كلنـا يحب حمـاته (١)

والعامية بادية فى قوله : « يحب حماته » . وقد أخرجها مخرج التورية : والمعنى البعيد اسم المدينة « حماة » .

وما نظمه شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى :

لئن سددت باب العتب عنى   بمـا أبديتـــه فالله يفتح
وإن ألحت يوما ما بذنب   فمثلك من يرى ذنبنـا ويصفح (٢)

والعبارة العامية قوله « فالله يفتح » . وهى كثير الاستعمال فى الأسواق ومقامات البيع والشراء ، وتحمل معنى « الرفض وعدم الرضا » . وهى تحمل هنا تورية . ومعناها القريب أن الله يفتح باب العتاب ، ورشحه بقوله « سددت باب العتب » . والمعنى البعيد المراد هو ما أشرنا إليه أولا . وقد حملها التورية المعنى الذى تستعمل فيه فى العامية .

وما نظمه صلاح الدين الصفدى يتغزل :

أنفقت كنز مدائحى فى ثغره   وجمعت فيـــه كل معنى شارد
وطلبت منه جـــزاء ذلك قبلة   فأبى وراح تغزلى فى البارد(٣)

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ٢٣ .
(٢) ديوان ابن أبى حجلة المغربى ـ مخطوط بدار الكتب المصرية .
(٣) تأهيل الغريب ص ٨٤ .

والشاهد فى قوله : « راح فى البارد » وهو تعبير عامى معناه « ذهب بغير فائدة، دون جدوى » — وفى رأينا — أن هذا المعنى هو المعنى المراد من التورية بهذا التعبير — والمعنى الآخر أن تغزله انحصر فى ثغر حبيبه العذب البارد . ويمكن أن يحمل لفظ « راح » معنى استمر واطرد ، ومعنى ذهب ولم ينفع .

وما نظمه بدر الدين بن الصاحب يرد على لائم ويتغزل فيه :

ولائم زاد لوما فى أسود أشتهيه

وقال : أسودَ تهوى فقلت : عيناك فيه (١)

وقوله : عيناك فيه . تعبير عامى . ومعناه « أنك تشتهيه . أو أنك تحسده » . وورى به عن معنى آخر وهو أن عينى اللائم سوداوان ، انتقل سوادهما إلى هذا الأسود، فزينه وجمله وحببه ـ وهو تعليل لطيف .

وبعد فهذه أمثلة متعددة — وهناك أمثلة أخرى كثيرة — تدل على مدى ما كان فى الشعر الفصيح من عبارات وأمثال عامية .

ونحن — كما أشرنا — ننظر إليها ، أو إلى ظاهرتها هنا ، من زاويه معينة . أعنى من ناحية دلالتها على مدى تأثر شعراء الفصيحة بعامية زمانهم ، ومدى تأثير هذه العامية وسلطانها على هؤلاء الشعراء .

وباستجابة الشعراء لهذا التأثير وانصياعهم له ، وإنتاجهم بوحى منه ،عاونوا على إبراز إقليمية الشعر بصورة أخرى وبمظهر جديد

ونحن نرى أن هذه الاقليمية التى أخذت تبدو رويدا رويدا فى الأدب العربى المصرى ، منذ زمن بعيد ، قد لمعت وبرزت وقويت فى هذا الأدب ، وفى هذا العصر الذى نؤرخه .

---

(١) تأهيل الغريب ص ٨٤.

وما ظهور الأمثال السوقية والعبارات العامية فيه حينذاك ، وفى هذا النطاق الواسع إلا برهان قوى على توطد هذه الإقليمية وهى بروز خصائص الإقليم فى أدبه ، وبها يتميز عما عداه من آداب الأقاليم الأخرى .

على أن لهذه الأمثال والعبارات السوقية المترددة فى الشعر الفصيح ، أو فى الأدب بعامة ، دلالة أخرى تبين لنا طرفا من ارتباط لغتنا العامية الحاضرة بلغة آبائنا وأجدادنا العامية ، ومدى تطور هذه العامية وتحولها حتى وصلت إلينا . وكذلك تفصح عن طريقة تصورهم للمعانى وتصويرهم لها ، وعلى قدرتهم فى استخدام الأساليب المختلفة فى المناسبات المتعددة . ثم على مبلغ نصيبنا نحن من هذا كله ، ومبلغ الارتباط بيننا وبينهم فى ذلك ، ومدى تطورنا وتحولنا فى هذا التصور والتصوير .

---

٩ — الخروج عن اللغة وكثرة الضرورات الشعرية

والحديث عن الأمثال والتعبيرات السوقية يجرنا إلى ذكر عيب من العيوب التى لحقت الشعر المملوكى وهو الخروج عن اللغة .

ونقصد به استخدام اللفظ العامى المحرف عن العربية ، واللفظ الدخيل غير العربى ، واللحن وهو عدم رعاية قواعد النحو ، وعدم التزام الإعراب . وكذلك الانحراف عن الاستعمال العربى الصحيح ، والاشتقاق دون قاعدة صحيحة . إلى غير ذلك من ألوان الخروج عما تلتزمه العربية الفصيحة .

وهذه ظاهرة اتضحت فى أشعار الكثيرين ومنهم الفحول . ولدينا عليها أمثلة وشواهد لا حصر لها .

ونعود إلى القول إن هذه الظاهرة دعت بعض النقاد إلى رمى الشعراء ، ممن التات شعرهم بهذا العيب أو لم يلتث ، بضعف الثقافة وضيق الأفق وقلة بضاعتهم

من العربية الصحيحة ، حتى إنهم لم يميزوا بين الفصيح وغير الفصيح . . . إلى آخر ماردداه فى الفصل السابق، وهو فصل الحديث عن الأمثال والتعبيرات السوقية .

ولسنا من أنصار استخدام العامية فى الأساليب الفصيحة مطلقا ،إذ أن هـذا — فى رأينا — يشوه جمالها ويغض من محاسنها . وهو خطر إذا استشرى وامتد قضى على الفصيحة .

لذلك عبنا على الشعراء استخدام الأمثال والتعبيرات العامية. ولـكننا — مع هذا — عللنا له ، ونفينا عنهم ما وصموا به من جرائه ، واتخذناه دليلا على تمـكن الصلة بينهم وبين بيئتهم ، وعلى اتجاههم إلى تمثيل بيئتهم فى أساليبها ، إلى آخر ماتحدثنا إليك به .

ولعل فى جملة الأسباب التى دعتنا إلى ذلك ، أنهم فصحوا هـــذه الأمثال والتعبيرات وأعربوها .

أما أنهم يلحنون أو يضعون اللفظ عاميا أو دخيلا كما جرت به ألسنة العوام، فهذا مانأباه عليهم ونعيبهم به . ونود لو برئوا منه . وبخاصة فحولهم ، حتى لا يبدو فى شعرهم — كما بدا — كلفا فى صفحة البدر .

ولـكن ينبغى ألا نتخذ هـذه الظاهرة دليلا حاسما على الضعف الثقافى أو قلة البضاعة من العربية الصحيحة . فإن تاريخ بعضهم ونشأته وآثاره الأدبية تـكذب هذا الدليل .

وإنما التاث شعرهم بهـذا العيب لشدة انطباعهم بطابع العـامة ، وانفعالهم بانفعالها ، بالإضافة إلى ما أغرموا به من فـكاهة أو دعابة أو مجانة أو بديع وصناعة ، ؟ يدفع ببعضهم إلى الخروج عن اللغة والتزاماتها ، ليصل بهذا الخروج إلى تحقيق هدفه .

ومن اللطائف التى تساق فى هذا المقام ، تصريح جمال الدين بن نباتة المصرى — وهو فحل زمانه وشاعر أوانه — بتعمد اللحن لتستقيم القافية ، مع التعليـل

الأدبى الطريف حيث يقول لنا فى قصيدة تائية جيدة جزلة يرد بها على عتاب صفى الدين الحلى :

ساقى الراح بادكار لقـــاه لا عد منا ذاك اللقـا وسقـاته
هات كأسى وإن لحنت من الســكر فلا تلحنى إذا قلت هاته(١)

وقد لحن فى قوله « هاته » بفتح التاء طوعا للقافية . وهو يعرف أنه يلحن إذا قال هـذا . ويعلله بسكره . ويعتذر ويطلب عدم اللوم . فلا لوم عليه إذن ولا تثريب . . .

ومن الشواهد فى هذا الباب :

قول إبراهيم المعمار فى وصف مغن ومشبب :

مغنى نافســـه مشبب لمـا جلس
فذاك لان قوله وذا تكلم بنفس(٢)

ترى الشاعر قد أثبت ياء « مغن » وسكن ميم « تكلم » .

وقد علق ابن حجة على هذين البيتين بقوله : « سكون تكلم يغتفر له . فإن الجماعة سامحوه فى جميع اللحن لغرابة نكتته الأدبية » .

ولم يشر ابن حجة إلى لحن الشاعر فى قوله « مغنى » ولكنه نبه إلى أن المعمار — وهذا طريف — يعرف عن نفسه اللحن ، وأشار إلى ذلك فى بيتين فكاهيين ناقدين، هما:

يقولون هـــذا ماله عربية وليس نراه للنحاة يجـــارى
فقلت لهم من أين لى عربيـــة وما فزت فى الدنيا بغير حمار(٣)

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ٧٢ قافية التاء .

(٢ ، ٣) تأهيل الغريب : فصل فيما ورد من الغريب فى مدحهم « مدح المغنيين » .

وقد كان المعمار أمياً ، فله عذره فى اللحن . وبدهى أنه كان أمياً لا كأمية شعراء الجاهلية . ذلك لأن أميتهم كانت فصيحة معربة ، وأميته لاجة فى العامى والدخيل لفظاً وأسلوباً .

وفى بيتى المعمار دليل ناطق على أن أهل عصره وأدباءه كانوا يؤاخذون الشاعر إذا لحن وخرج عن اللغة .

ومن الشواهد قول نصير الدين الحمامى يصف شخصاً ويتفكه :

رأيت شخصاً آكلا كرشة   وهو أخو ذوق وفيه فطن
وقال : ما زلت محبــاً لهـا   قلت : من الإيمان حب الوطن(١)

واللفظ « كرشة » عامى ، وعربيه « كرش » على مثال « كتف » .

ومنها قول أبى الحسين الجزار المصرى يصف أحد الأتراك :

وكم قابلت تركيا بمدحى   فكاد لما أحاول منـــه يخنق
ويلطمنى إذا ما قلت « ألطن »   ويرمقنى إذا ما قلت « يرمق »
وتسقط حــــرمتى أبداً لديه   فلو أنى عطست لقال « يشمق »(٢)

والكلمات : ألطن . يرمق . يشمق ، غير عربية فهى دخيلة .

ومنها قول زين الدين بن الوردى فى ليلة عناق ، وفى صبح حاسد :

قلت : وقـــد عانقته   عندى من الصبح قلق

---

(١) فوات الوفيات ترجمة النصير الحمامى .
(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٩٩ .

قال : وهـــل يحسدنا قلت : نعم . قال : انفلق(١)

ولفظ « انفلق » عربي فصيح . ولـكنه انحرف إلى العامية وأغرق كما هو بنطقه دون معناه . إذ أصبح معناه « دعاء على الحاسد مثلا أو العذول والعدو » . وفى اللفظ هنا تورية معناها « طلع الصبح » وهو غير مراد . والمعنى الثانى المراد، هو الدعاء على الحاسد بمعنى « يرن ويطق » كما يراد فى العامية . — والملحوظ أن لفظ « انفلق » هنا ، بهذا المعنى الثانى ، فعل ماض ، وحقه أن يكون مضارعا .

ومنها قول شمس الدين الواعظ الواسطى من قصيدة يتذكر فيها أيامه الماضية :

فلله ما أحلى قــديم حديثكم وأطيب عندى من عشائى وغدوتى
عسى تسمح الأيام تجمع شملنـا وترجع أوطـارى ولذتى التى (٢)

حذف الشاعر صلة الموصول فى الشطر الأخير بعد قوله « التى » . وهى لون من البديع فى نظره ، وهو الاكتفاء .

ومنها قول زين الدين بن الوردى يهجو ويتفكه ساخراً من أحد القضاة :

لا تقصد القـاضى إذا أدبرت دنيـاك واقصد من جواد كريم
كيف ترجى الرزق من عند من يفتى بأن الفلس مال عظيم(٣)

وفى الشطر الثـانى عدى الفعل « اقصد» بحرف الجر « من » ، وحقه أن يتعدى بنفسه ولعل الشاعر حذف المفعول به . ومراده : اقصد الرزق أو المال مثلا .

---

(١) ديوان ابن الوردى ص ٢٦٥ ط الجوائب .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٦٧ (٣) ديوان ابن الوزدى ط الجوائب .

ومنها قول شرف الدين البوصيرى من قصيدته التى ينقد فيها مستخدمى الدواوين فى زمانه :

وأقلام الجماعة جائلات كأسياف بأيدى لاعبينا
وقد ساومتهم حرفا بحرف وكل اسم يخطو منه سينا(١)

فى الشطر الأخير حذف نون الرفع من « يخطون » بغير ناصب ولا جازم . وقد ألجأته إلى ذلك الضرورة الشعرية .

ومنها قول الشاعر الكبير جمال الدين بن نباتة فى المديح :

أخذ الإمام مديحى فى كل صاحب رتبة
قاضى القضاة الملبى تاج السراة الألبة(٢)

جمع الشاعر « لبيب » على « ألبة » وصوابه « الألباء » .

ومنها قول مجير الدين بن تميم يصف النرجسة :

شبهت نرجسة أهدى إلى بها خلى وقد جئت فى التشبيه بالعجب
كفا من الفضة البيضاء ساعدها زمرد وسطه كأس من الذهب(٣)

الشاهد فى قوله « أهدى إلى بها » وصوابه « أهداها إلى » .

ومنها قول ناصر الدين بن النقيب فى وصف الحرب :

ولما تراءينا الفرات بخيلنا سكرناه منها بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جريانه إلى حيث عدنا بالغنى والغنائم(٤)

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٥٧
(٢) ديوان ابن نباتة ص ٥١ ، ٥٢
(٣) تأهيل الغريب ص ١١١
(٤) فوات الوفيات ج ١ ص ١١١

الشاهد فى قوله « تراءينا الفرات » عدى الفعل ، وحقه أن يتبعه الجار فيقول : تراءينا على الفرات » ، وقد يكون الشاعر ضمنه معنى « قابلنا » المتعدى ، وهو بعيد . — وهذا وذاك ضرورة لجأ إليها الشاعر .

وقوله : « سكرناه » بفتح السين والكاف ، معناه « سددناه » وإذا كان من السكر ، فهو لازم ويكون الشاعر قد عداه إلى المفعول . وهى ضرورة أخرى .

ومنها قول صدر الدين بن الوكيل المصرى فى إحدى خمرياته فى سياق وصف الكأس :

وإن أقطب وجها حين تبسم لى   فعند بسط الموالى يحسن الأدب

عاطيتها من بنات الترك عاطية   لحاظها الأسود الغلب قد غلبوا (١)

فى الشطر الأول حرك باء «أقطب» مع أنها مجزومة بإن الشرطية . وهو لحن ألجأته إليه الضرورة . وفى قوله « غلبوا » عدى الفعل بحرف الجر فقال قبله « للأسود » . وفيه واو الجماعة تعود على غير العاقل .

ومنها قول تقى الدين بن حجة الحموى فى سياق لغزه عن « قصب السكر » :

منعمة لمياء مهضومة الحشا   تكاد بأن تنقد من رقة الخصر (٢)

زاد الشاعر باء الجر فى خبر كاد ، وهى ضرورة .

ومنها قول صفى الدين الحلى فى قصيدة عتاب إلى ابن نباتة ، ويمدحه :

وهبته العلياء همة قلب   طهرت من شوائب العيب ذاته (٣)

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣١٧   (٢) تأهيل الغريب ص ٨٩

(٣) ديوان الحلى حرف التاء باب الإخوانيات .

وصوابه «وهبت له».

ومنها قول سراج الدين الوراق يهنئ برهان الدين الخضر بن الحسن السنجارى باستقراره وزيرا للديار المصرية.

تهن بخلعة لبست جمالا بوجه منك سمح يجتلوه
وقال الناس حين طلعت فيها أهذا البدر قلت لهم: أخوه(١)

حذف نون الرفع فى قوله «يجتلوه» بدون ناصب أو جازم.

ومنها قول تقى الدين السبكى فى سياق قصيدة أجاب بها على سؤال عن السماع والغيبة — عند المتصوفة على مايبدو — قال:

والعارف المشتاق إن هو هزه وجد فقام يهيم فى سكرات
لا لوم يلحقه ويحمد حاله ياطيب ما يلقى من اللذات
إن نلت ذا يوما فقد نلت المنى وغنيت فيه عن فتاوى الفاتى (١)

والشاهد فى قوله «الفاتى» صاغه من الثلاثى، وحقه من الرباعى فيقول «أفتى».

هذا والأمثلة كثيرة.

وقد رأيت فيما سقناه من الأمثلة أن الشاعر أحيانا يخرج عن اللغة والتزاماتها بدافع ضرورة الشعر، فيلجئه الوزن إلى زيادة حرف جر، أو تعدية بغير الجار، أو حذف نون الرفع، أو نحو ذلك.

والضرورات الشعرية تسوق أحيانا إلى مد المقصور، أو قصر الممدود —

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤١.
(٢) طبقات الشافعية للتاج السبكى ج ٦ ص ١٦٣.

مثلا — أو إلى صرف الممنوع من الصرف ، أومنع ما يصرف ، أو تحريك المجزوم ، أو نحو ذلك . وهذه ضرورات مباحة ، ولا تعتبر خروجا عن اللغة أو التزاماتها .

ومن الضرورات أيضاً زيادة الظروف وألفاظ القسم والتوكيد والشرط والأمر مثلا دون غاية بلاغية وهى عيوب فى الشعر وأسلوبه وليست خروجا عن اللغة والتزاماتها .

وقد وقعت هذه الضرورات فى الشعر المملوكى . وهى فى جملتها عيوب فى الشعر ، وإن لم تكن كلها خروجا عن اللغة كما أشرنا .

على أن العروضيين أباحوا للشعراء أن يلجئوا إلى الضرورات ـ إذا احتاج الأمر ـ بشرط ألا تكون خروجا عن اللغة ، وبشرط عدم الإكثار منها والاعتماد عليها .

ومن لطيف مانظمه الشاعر المصرى الكبير ابن نباتة فى هذا المعنى قوله :

قالوا عهدناك ذا شعر نلذ به   ما باله قد تولى حسنه الآتى
فقلت من كثر ما أشكو به ضررا   والشعر يفسده كثر الضرورات(١)

ومن شواهد الضرورات الشعرية :

قول نور الدين الإسعردى فى قصيدته الماجنة التى يفضل فيها الخمر على الحشيش :

فدع رأى قوم كالدواب ولاتدر   سوى درة كالكوكب المتوقد

دعاه الوزن إلى عدم تشديد باء «الدواب» وهى جمع دابة .

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ٧٩ .

وقول ابن نباتة فى غزله :

رب ليل زار فيـــه قمر خده المحمر بالأقمار شـــامت
ذو نطاق وســـوار لم يدع ناطقا غيرهما عنـــدى وصامت[١]

سكن التاء فى « صامت » للضرورة . وحقه النصب .

وقول ابن نباتة أيضاً :

حبي له حب الثنـا لعليـــه هذا لعمر أبيك مع هذا فشا
قاضى القضاة وإنها لمـكانة خطبت تقاه كما نشا وكما يشا[٢]

فى البيتين عدة ضرورات منها حذف همزة : الثنا . ونشا ويشا . ومنها أيضاً القسم فى قوله « لعمر أبيك » .

وقول شمس الدين الخياط « محمد بن يوسف » من قصيدته التى مدح بها كمال الدين بن الزملكانى ويعارض تائية ابن نباتة فى مدحه :

عن منظر الروض يقنعنى القريض وعن رقص الزجاجات تلهينى الحرارات
عشوت منهـا إلى نور الـكمال ولم يرد على خاطرى دير ومشكاة[٣]

الفعل « يقنعنى » مرفوع وينبغى تحريك العين فيه بالضم . فسكنها الشاعر للضرورة . فالبحر بسيط .

وقول بدر الدين بن الدمامينى فى سياق قصيدة ألغز بها فى « قربة » :

تشدّ وكم فى الأرض قار أمالها وصدق إذا ما قيل تملى وتـكـتب

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ٧٨ (٢) ديوان ابن نباتة حرف الشين .
(٣) طبقات السبكى ج ٥ ص ٢٠٥ .

ولفظ « قار » هنا اسم فاعل من قرأ ، سهلت همزته وعومل معاملة المعتل .
فاشتق منه اسم فاعل عومل معاملة المنقوص .

وقول تقى الدين السبكى من قصيدة ينصح فيها ابنه الأكبر :

واخش المهيمن وأت ما تدعو إليـــه وانتهى عما نهى وتزهد(١)

والشاهد فى قوله : « وانتهى » أثبت فيه حرف العلة – وهو الياء – مع أنه فعل أمر مبنى على حذف حرف العلة .

الأوزان والقوافى وما يتصل بها

من المناسب أن نختتم هذا الباب بحديث وجيز عن الأوزان والقوافى وما يتصل بها ، لما لها من الصلة الوثيقة بأساليب التعبير ، فهى – فى الواقع – وعاؤها وإناؤها . وهى – فى الحق – الأسلوب الأول للشعر ، والقالب الأساسى الذى على مقداره تصب الأساليب والتراكيب ، وبه تكتسب نصيباً وافراً من الموسيقية التى لا طعم للشعر بدونها .

المطولات والمقطوعات :

وقبل أن نتحدث فى صميم الموضوع يجب أن نشير إلى مطولات الشعر ومقطوعاته ، وهى تمت إليه متاتا تاما وبخاصة إلى القوافى .

وقد لحظنا فى استقرائنا لشعر هذا العصر ، أن الكثير من شعرائه قصائد مطولة تعد أبيات كل منها بالعشرات بل بالمئات أحياناً . وبينها الكثير المبنى على قافية واحدة . طرقوا بها أغراض الشعر وأبوابه مع المحافظة على

---

(١) طبقات السبكى ج ٦ ص ١٦٠ .

مستوى الأسلوب ، فى الجملة . وهذا دليل بارز على طول نفسهم وتمكنهم من صناعتهم وأصالة فنهم وواسع ثقافتهم .

ومن مطولاتهم : بردة البوصيرى ، والبديعيات التى عارضتها . وتزيد أبيات كل بديعية على المائة . ومنها قصيدة « مصائد الشوارد » أو « نظم السلوك » لجمال الدين بن نباتة . وهى أرجوزة فريدة وصف بها الصيد والقنص فى وديان حماة ، وتقع فى أكثر من مائة وستين بيتا . وتائيته فى مدح كمال الدين بن الزملكانى وهى من أروع قصائده ومن أجود الشعر ، وتقع فى نحو مائة وعشرة أبيات . ولفخر الدين بن مكانس قصيدة جيدة فى وصف سرحة الليل فى نحو ستة وخمسين بيتا . وللشاب الظريف قصيدة فى مدح القاضى محيى الدين بن النحاس فى نحو ستين بيتا . ولصفى الدين الحلى عشرات القصائد المطولة مثبتة فى ديوانه ، ولتقى الدين حجة الحموى فى مدح المؤيد شيخ ، ومدح الناصرى بن البارزى عدد من المطولات .

ولا ننسى فى هذا المقام منظومات حقائق العلوم فقد بلغ بعضها مئات الأبيات .

أما المقطوعات فقد راجت فى هذا العصر رواجا عظيما ، وأقبل الشعراء على نظمها إقبالا ملموسا . بدافع حبهم لأصباغ البديع وصناعة التشبيه والتورية ، وبدافع حب الوصف والتصوير . فمتى سنحت لهم لفظة ينسبك معها لون بديعى أو يحلو به مجاز طريف أو تشبيه مبتكر ، عجلوا إلى نظمها فى البيت أو البيتين مثلا . وأذكى بينهم هذه العجلة حب الابتكار والإبداع ، ورغبة المنافسة والتفوق ، والميل إلى التلهى والتسلى والمداعبة والمماجنة .

لهذا كله تعتبر مقطوعاتهم مجلى واسعا لفنيتهم الأصيلة ، ودليلا عليها وعلى حضور بديهتهم وحسن إيجازهم ودوام اتصالهم بصناعتهم وانشغالهم بها .

لقد قيدوا بهذه المقطوعات خواطر شاردة وأخيلة كثيرة عابرة . ومعانى عدة جديدة وطرقوا بها أبواب المجون والفكاهة والغزل واللغز وغيرها .

ومن أخبار المقطوعات وأنباء رجالها أن « زين الدين بن الوردى » له كتاب « الكلام على مائة غلام » وبه مائة مقطوعة لطيفة . وكتاب « الدرارى السارية فى مائة جارية » وبه مائة مقطوعة أخرى .

وروى فى تاريخ الشاعر « زين الدين بن الرعاد » أن له مقطوعات كثيرة نقل منها أبو حيان فى كتابه « مجانى العصر » .

ومن شعراء المقطوعات « بدر الدين بن الصاحب » ، فقد روى أنه أجاد المقطوعات وأكثر منها وأفرد لها ديوانا خاصا سماه « مقطعات النيل » .

ومنهم « شهاب الدين بن العطار » و « أحمد بن مسعود » و « تقى الدين السبكى » و « شمس الدين الدمشقى » .

وما من فحل من فحول شعراء العصر إلا وله عدد كبير من المقطوعات . ومنهم : الجزار والوراق وابن النقيب وابن عبد الظاهر وابن نباتة والصلاح الصفدى والتقى بن حجة وابن أبى حجلة والعلاء الوداعى والفخر بن مكانس والبدر الدمامينى والبرهان القيراطى والشاب الظريف وسراج الدين المحار وغيرهم.

ونسوق إليك أمثلة من هذه المقطوعات :

من مفاكهات صفى الدين الحلى ومجانته قوله :

وليـــلة زارنى فقيـــه ... فى رشده ليس بالفقيـه
رأى بيمناى كأس خمـر ... فظل ينـــأى ويتقيـه
فقلت : هلا فقـــال كلا ... فقلت لم لا فقـال إيه

ما ذاك فنى فقلت عـــدل   أنزه الكأس عن سفيه (١)

ومن اقتباسات الشاب الظريف وجناساته قوله :

كيف يــذوق عاشـــق   حـــلاوة فى صـــبره
فاعجب لنــور زهـــره   واعجب لنـــور زهره
ياعاشـــقين حـــاذروا   من غدره ومكره
وطـــرفه الساحر مـــذ   شـــككتم فى أمـــره
يريد أن يخرجـــكم   من أرضـــكم بسحره (٢)

ومن اقتباسات علاء الدين الوداعى ومطابقاته قوله :

الزهر فى الأكمام راح مقطبا   والريح قد خطرت عليه بذيلها
وغدت تبشره بإقبـــال الحيا   حتى تبسم ضاحكا من قولها (٣)

ومن مراجعات سراج الدين الوراق وتوريته بلقبه قوله ، وقدعلاه الشيب :

وقالت ياسراج علاك شيب   فدع لجديده خلع العـــذار
فقلت لها : نهـــار بعد ليـــل   فما يدعـــوك أنت إلى النفار
فقالت : قد صدقت وما علمنـــا   بأضيع من سراج فى نهار (٤)

ومن تشبيهات سراج الدين المحار ، يصف قنديلا ، قوله :

ياحسن بهجة قنديل خلوت به   والليـل قد أسبلت منا ستائره
أضاء كالكوكب الدرى متقدا   فراق باطنه نـورا وظـاهره

١ـ ديوان الصفى الحلى ط بيروت ص ٣٣١   ٢ـ ديوان الشباب الظريف ص ٣٨
٣ ـ الوفيات ج ٢ ص ١١٢   ٤ ـ فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٥

تزيده ظلمة الليل البهيم سنا　　كأنما الليل طرف وهو باصره(١)

ومن تضمينات ابن نباتة واكتفاءاته ، قوله يتغزل ويمدح ابن العديم :

جن الدجا واشتقت حسنك　　وقرعت يا ذا العـــذل سنك
يا عاذلى فى الحب أو　　يا ليل ســـهدى ما أجنك
عشق بجور ابن العـــديم　　م نخل فى السلوان ظنك
قاضى القضـــاة أخا التقى　　لا يعـــدم الطلاب منك
أكدت فى فى الثنـــا　　ء وفى النـــدى والعلم فنك
فالنـاس تعـــلم أننى　　فى النظم أو فى الفضل أنك
« فلأشـــكرنك ما حييت　　م وإن أمت فلتشكرنك »(٢)

الأوزان القديمة :

وقد بان لنا من ترادف الأمثلة والشواهد أن الأوزان القديمة المعروفة ، كانت – فى الغالب – قوالب الشعر وموسيقاه الملتزمة . سواء أكان ذلك فى مطولاتهم أم مقطوعاتهم . وعلى نمط مما ورثوه عن أسلافهم .

وبنسبة مانظم الأقدمون من كل بحر. نظموا هم أيضاً ، على وجه التقريب . فكانت كثرة نتاجهم من الطويل والكامل والبسيط والرجز والوافر والرمل ، فالمتقارب والسريع والمنسرح والمجتث ، فغير ذلك من بحور الشعر .

نظموا من هذه البحور كاملة ومجزوءة ومشطورة .

ولنضرب لك أمثلة من شعر شاعر واحد هو جمال الدين بن نباتة ، مكتفين به عن سائر الشعراء فى هذا المقام .

فمن الطويل قوله مهنئاً بقدوم من الحج :

قدمت قدوم الغيث والحى مجدب　　وعدت كعود البدر والأفق غيهب

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٤٠ .　　(٢) ديوان ابن نباتة ص ٥٢٥ .

وسرت بك الأوطان فالغصن شامخ   دلالا على الأنهار والروض معجب

ومن الكامل قوله متغزلا فى صدر مدحة :

شب الحشا قول الكواعب شابا   واها لهن كواعبا وشبابا
ومضى الصبا ومن التصابى بعده   صيرت للدمع الدماء خضابا

ومن البسيط قوله يخاطب دار لهوه ، فى صدر مدحة :

سقى حماك من الوسمى باكره   حتى تبسم من عجب أزاهره
يا دار لهوى لا واش أكاتمه   ولا رقيب بمغناه أحاذره

ومن الرجز قوله فى مزدوجته « مصائد الشوارد » :

أثنى شذا الروض على فضل السحب   واشتملت بالوشى أرداف الكثب
ما بين نور مسفر اللثام   وزهر يضحك فى الأكمام

ومن الوافر قوله ، فى مطلع مدحة يمدح بها جمال الدين بن الشهاب محمود، يتغزل :

بدت ورنت لواحظه دلالا   فما أبهى الغزالة والغزالا
وأسفر عن سنا قمر منير   ولكنى وجدت به الضلالا

ومن الخفيف قوله فى الخمريات ، فى مطلع مدحة يمدح بها ابن اليزدى :

من عذيرى من الطلا والأغانى   وليال مرت على حلوان
ذهبت بالذى ملكت من الما   ل كأنى سبكته فى القنانى

ومن الرمل قوله فى الغزل فى مطلع مدحة :

بأبى مائسة يثنى على   قدها بان النقا إذ تنثنى
نطقت وابتسمت عن جوهر   ياله فى فمها من معدن

ومن المتقارب قوله يخاطب معشوقته فى مطلع قصيدة :

غنيت بحسنك عن واصف   وما كل غانية غانية

ووافقني في طريق الردى   حسام لو احظك العـــادية

ومن السريع قوله في أول مدحة :

صـــيرني في كل واد أهيم   من حظ قلبي منه هاء وميم
مبخل يشبه ريم الفـــلا   وأطول شجوى من بخيل كريم

ومن المنسرح - وهو نادر في شعره - قوله يتغزل :

وغادة في جفـــونها مرض   في قربه لى الشفا من المرض
خوفني النـــاس سهم مقلتها   وما دروا أن سهمها غرضى

ومن مخلع البسيط قوله يصف جوادا :

وأدهم اللون حنـــدسى   في جريه للورى عجـائب
يقصر جرى الرياح عنـه   فـكلها خلفه جنائب

ومن المجتث قوله يستعطف :

مولاى رفقا بصب   صدعتـه بجفائك
لا تـكسرن إناء   مـــلآنة بولائك

ومن مجزوء الرمل قوله :

أيهـا الـكامل قصرا   وولاء وثنـــاء
أحمد الله الذى قد   جعل الشمس ضياء

ومن مجزوء الـكامل قوله :

ماذا على ذى الحسن لو   أفضى إلى إحســـانه
ملك المـــلاح كما ترى   والـكل من غلمانه

ومن مجزوء الرجز قوله :

يا سيـــدا حاز المعا   لى طولهـــا وعرضها

لى جبـة رفوت منهـا البعض إذ لم أرضهـا
فاعجب لهـا عتيقة دبرت منهـا بعضها[1]

القوافى :

وعند حديثنا عن مطولاتهم أشرنا إلى أن بعضها يحتوى على عشرات الأبيات . وهى مبنية على القافية الواحدة . ويدل ذلك على المقدرة والتمكن وسعة المعجم .

ولم يقتصروا فى قوافيهم على الحروف السهلة الميسورة ، والكثيرة الدوران فى أواخر الكلمات ، كالباء والراء والدال واللام والميم والسين والفاء والقاف والنون . بل أقدموا على غيرها من الحروف الصعبة النادرة والشاقة مثل : الضاد والظاء والخاء والغين والثاء والزاى . إلا أن الإقدام عليها أقل من الإقدام على غيرها .

وممن نظم فى القوافى الصعبة : جمال الدين بن نباتة ، وصفى الدين الحلى ، وزين الدين بن الوردى . مع تمكنهم .

ومن نظم ابن نباتة :

فى قافية الثاء قوله فى مدح العلاء بن فضل الله العمرى :

أرى لعلى رتبة وفضـائلا تقر لهـا هذى النجوم المواكث
فأحجم إجلالا عن القول واللقا ويبعثنى من سائق البر باعث
وأحلف مافى الدهر مثل عليه ويحلف أهل العصر ما أنا حانث

وفى قافية الخاء قوله :

أخط سـؤالى بالرقاع ولا أرى جفاءك يا هـذا بوصلك ينسخ
ويذبح جفنى بالدمـوع وما له سوى الشهر بعدالشهر فى البعد يسلخ

---

(١) هذه النماذج جميعها من شعر ابن نباتة — راجع ديوانه فى حروف القوافى .

وفى قافية الذال قوله :

أفدى غزالا من الأتراك مقلته   فى صنعة السحر أعيت كل أستاذ
نبـــاذ عهد بذاك اللحظ يسحرنى   يا حسرتى بين سحار ونبـــاذ

وفى قافية الشين قوله :

مـذ قيـــل فرعك بالذوائب عرشا   شرب المتيم كأس حبـك وانتشى
وببعض ما فعلت بقلبي فى الهـــوى   عينـاك صار الليث صيداً للرشـــا

وفى قافية الصاد قوله :

ليهن حمى الشهباء قاض حوت به   كمالا على تفضيـله اتفق النص
فلو مثلت كتب النحـاة بنعته   لمـا جاز أن يجرى على نعته النقص

وفى قافية الطاء قوله :

وأغيد كل شيء منـــه يعجبنى   كأنمـــا هو مخلوق على شرطى
أجفانه السود لا يخطى إذا رشقت   سهامها وسهام الليـــل لا تخطى

ومن قافية الظاء قوله فى مدحة لبهاء الدين السبكى :

أعيذ بالكهف ألحاظا منـاقضة   تخالهن رقودا وهى أيقاظ
ومبسما لبهى الدر متسقاً   كأنه لبهـــاء الدين ألفاظ

ومن قافية الغين قوله :

رشأ رشفت رضا به أو ثعلب   ما للمحب إلى رضـــاه بلوغ
حلو اللمى متمنع يعطيك من   طرف اللسان حلاوة ويروغ(١)

دار الشعراء — كما رأيت — فى فلك الأوزان القديمة . ولكنهم منحوا أنفسهم بعض الحرية والتحلل من ربقتها ، فخرجوا بعض الخروج على ما رسمه الخليل والأخفش . كما خرج الأندلسيون من قبلهم .

(١) الأبيات وما سبقها من ديوان ابن نباتة — راجع حروف القوافى .

ومما يذكر أن جمال الدين بن نباتة له قصيدة ، يتكون كل شطر منها من تفعيلة واحدة وزنها « مستفعلن » إحدى تفعيلات الرجز . والتزم فى جميع ضروبها وأعاريضها حرفا واحداً هو حرف الراء . وقيل إنه اقتدى فيها بقصيدة للشاعر المشهور « أسعد بن مماتى » .

ومن أبيات هذه الأرجوزة النباتية قوله :

أفدى قمر   عقلى قمر   ثم غدر   لما قدر
فلا وزر   ولا مفر   يامن شهر   سيف الحور
على البشر   فما فتر   حتى استعر   وهج الفكر
ولو أمر   ذاك الخصر   من الثغر   أطفا شرر . الخ(١)

ولعل من المناسب فى هذا المقام ، الإشارة إلى ما ذكره « محمد بك دياب » فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وهو يتحدث عن الرجز المجزوء ، إذ قال :

« قال الزجاج : ولو جاء منه شعر على جزء واحد مقفى لاحتمل ذلك ، كقول عبد الصمد بن المعذل :

قالت أجل   ماذا الخجل   هذا الرجل   حين احتفل   أهدى بصل

فجاء بالقصيدة على « مستفعلن » . ومثله قول يحى بن على المنجم :

طيف ألم   بذى سلم   بعد العتم   يطوى الأكم
جاء بغم   وملتزم   فيه نظم   إذا يضم

ويقال إن أول من انتزع مثل هذا « سلم الخاسر » فى قصيدة مدح بها موسى الهادى رابع خلفاء العباسيين وهى :

موسى المطر   غيث بكر   ثم انهمر   أروى المدر
كم اعتسر   ثم ايتسر   وكم قدر   ثم غفر . . الخ

(١) ديوان ابن نباتة .

ثم قال : « ولم يسمع شيء من هذا عن العرب . وأقل ما سمع لهم على جزئين » .

هذا ولم يذكر دياب بك ما نظمه جمال الدين بن نباتة . يرمى من قوله : « ولم يسمع شيء من هذا عن العرب » إلى العرب الذين يحتج بشعرهم ، وأخذ عنهم الخليل بن أحمد أبحره وقوافيه .

ومن غريب ما تصرف فيه محي الدين بن عبد الظاهر ، أبيات نظمها من بحر الكامل ، مع بناء الشطر الأول من كل بيت ، على ثلاث تفاعيل من «متفاعلن» . وبناء الشطر الثانى على تفعيلتين فقط . مع ترفيل فى آخره .

وكان قد كتب تقليدا شريفا — أى أمر تعيين — للأمير بيدرا ، عن لسان السلطان ، بنيبه عنه فى قلعة الصبيبة . وهو تقليد نثرى طويل . وقد ختمه بهذه الأبيات التى أشرنا إليها . وفيها يمدح الملك الأشرف خليل بن قلاوون . . قال منهما :

متكرم يهب الحصون مع القلا ... ع بكل ما فيها ومنها
ويرى له الذكر الجميل مخلدا ... ومعوضا عنه وعنها
كم رامت السحب الهواطل أن تكو ... ن كراحتيه فلم تكنها
ومن الحصون الشامخات له العطا ... ء يعاب جود لم يزنها . . . إلخ [1]

وأقبل بعض الأدباء على نظم الموشحات والأزجال والبلاليق والمواليا والدوبيت .

وسنحدثك فى إيجاز عن الموشحات والأزجال . أما الدوبيت فقد نظموه ملحونا . ويتكون من بيتين لكل بيت شطران . ويتوافق الأشطر الأربعة فى الوزن والقافية . وقد يخالفها الثالث فى القافية فقط .

---

(١) الألطاف الخفية » ص ٣٩

وقيل إن وزن الدوبيت هو « فعلن متفاعلن فعولن فعلن » فى كل شطر . ولكن الاستقراء يدلنا على أنه يجيء بأوزان مختلفة ، ولعلها محرفة عن هذا الأصل .

ومما نظمه ابن الوردى من الدوبيت الفصيح المعرب قوله :

ياروضة حسن ليتها لى وحدى الشركة فيك قد أذابت كبدى
ما ضرك أن تسق بماء فرد والواجب أن يكون ماء الوردى «الورد»(١)

ومن نظمه أيضاً وهو يخالف البيتين السابقين فى الوزن :

قالوا فلان أبدا زنديق فى حبك قلت يكذب الزنديق
من أين لرافض هنا تصديق واسمى عمر وجدى الصديق (٢)

ومن نظم الدوبيت والمواليا ناصر الدين الواسطى الواعظ الأديب الصوفى - المتوفى عام ٧٧٧ هـ ومما نظمه فى الدوبيت مما يبدو فصيحا قوله :

إن ضرمنى بجذوة التذكار حبى وبرى جسمى شكرت البارى
فالعاذل فى هواه لاعقل له ما أبلد عاذلى وأذكى نارى

ونلاحظ فى دوبيت ابن الوردى توافق الأشطر الأربعة فى القافية . وفى دوبيت ناصر الدين اختلاف الشطر الثالث عن الثلاثة الأخر .

ويبدو أن الدوبيت كان مستثقلا فلم يقبل على نظمه كثيرون .

وأقبل كثير من الأدباء أيضاً على تخميس بعض القصائد المشهورة كبردة البوصيرى .

والتخميس الذى نقصده ، هو أن يأتى الشاعر بثلاثه أشطر من نظمه ، على

(١، ٢) عن ديوان ابن الوردى ط الجوانب .

وزن القصيدة المخمسة ، ثم يتبعها ببيت من القصيدة المذكورة . وهذا هو المتبع المشهور .

وقد يخالف المخمس هذا النظام فيبدأ مثلا بصدر بيت من القصيدة ثم ثلاثة أشطر من عنده ثم عجز البيت .

ونذكر ـ على سبيل المثال ـ بعض الذين خمسوا البردة ، فمنهم : مجد الدين إسماعيل الكنانى — المتوفى عام ٨٠٢ هـ وبرهان الدين البهنسى — المتوفى عام ٨٤٦هـ ـ وقد اتبع فى تخميسه النظام الثانى[١] . وناصر الدين المنزلى ، وقد خمسها وخمس بديعية صفى الدين الحلى ،وخمس غيرها . وشمس الدين القادرى ، وناصر الدين المحمدى ، وغيرهم كثيرون .

وممن تعاطى التخميس : تقى الدين بن حجة الحموى . فقد خمس قصيدة السهيلى التى منها :

يامن يرجى للشدائد كلها   يامن إليه المشتكى والمفزع

فقال ابن حجة :

قالوا اعداك وأنت لاتتسمع   قد أضمروا لك مصرعا وتوقعوا   ناديت والأجفان منى تدمع

يامن يرى ما فى الضمير ويسمع   أنت المعد لكل مايتوقع

وهكذا . . . إلخ[٢]

والملاحظ فى التخميس أن قوافى الأشطر الثلاثة الأولى تكون على وفق قافية الشطر الأول من البيت المخمس . ولم نلحظ إقبال الأدباء على التشطير الذى هو إضافة عجز إلى صدر بيت ، ثم تقديم عجزه بصدر آخر .

---

(١) الضوء اللامع ج ١ رقم ٨١ :

(٢) تأهيل الغريب باب المواعظ : وفيه التخميس جميعه :

وقد أقبلوا حقا على « التضمين » أو « الإيداع » وهو وضع بيت أو نصف في خلال أبيات القصيدة ، مع تمام مناسبته .

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن جمال الدين بن نباتة وصلاح الدين الصفدي تبادلا قصيدتين في العتاب ، ضمن كل منهما أبياتها أعجاز معلقة امرىء القيس . وهذا من « التضمين » لا « التشطير » لعدم اطراده .

الموشحات :

أفردنا الموشحات بالذكر لأهميتها وكثرة نتاج الشعراء في ميدانها . وقد تهاوى هذا الفن إلى الشرق من الأندلس . فعرفه المصريون قبل العصر المملوكي كابن سناء الملك . وأخذوا في تقليده ومحاكاته إظهارا للقدرة والبراعة ، وسداً لحاجة مجالس اللهو والغناء . واستمر ذلك .

والملحوظ في الموشحات أنها لون من التحرر من التزام البحور والقوافي المأثورة . قد تنظم من وزن واحد ، أو من أوزان متعددة ملفقة تمازجت تفعيلاتها . ولكنها مع هذا وذاك لابد فيها من اختلاف القوافي .

وهذا المزيج من التفعيلات الملفقة والقوافي المتنوعة ، يلتزم شكله في كل مجموعة من مجموعات أبيات الموشحة ، وبذلك يتم الترابط الموسيقي بين أجزائها .

ولا ريب أن الموشحة أخف حملا من القصيدة ، وألذ وقعا ، وأكثر موسيقية ، وأنسب للتلحين والغناء لما فيها من المخالفات الموسيقية المتفقة في المتناظرات .

وتمتاز الموشحة — عادة — برقة ألفاظها وسلاسة تراكيبها . وبهذا كله يقبل عليها العامة والخاصة .

وتتألف الموشحة — عادة — من بيتين في مفتتحها ، يكون لوزنهما وقافيتهما أثر كبير في بناء الموشحة ، ويسميان « مذهبا » أو « قفلا » . ثم يليهما ستة أدوار — أو أبيات —

يتألف كل دور ـ أو بيت ـ منها ، من مجموعة من الأبيات المعتادة فى القصيدة المألوفة وقد تكون هذه المجموعة ثلاثه أبيات منها ، يليها بيتان على نسق بيتى القفل وزنا وقافية . ـ ثم يتكرر هذا النظام نفسه فيما بقى من المجموعات .

على أن الملاحظ أن هذا النظام فى جملته ، لم يتبع فى دقة فى كل الأحوال . وأصبح الشاعر ذا حرية واسعة فى ابتداع النظام الذى يروقه فى بناء موشحته ، ما دام مراعيا فى جميع مجموعاتها ـ أدوارها ـ نظاما واحداً والتزامات مشتركة. ومراعيا النظام الذى بدأه فى القفل وفى البيت الأول ـ أعنى المجموعة الأولى ـ كما أنه لم يلتزم فى كل موشحة أن تكون مجموعاتها ستا .

وراجت هذه الموشحات فى عصر المماليك ـ كما أشرنا ـ وأقبل على نظمها فحول الشعراء كالشاب الظريف وابن نباتة وصفى الدين الحلى وابن حجر العسقلانى وصدر الدين بن الوكيل وأبو حيان النحوى وتقى الدين السروجى وسراج الدين المحار ـ وله فيها ديوان مستقل ـ ونصير الدين الحمامى ، وأبو بكر الخطيب قاضى صفد المتوفى فى دمياط عام ٧٤٠ هـ . وأحمد بن عبدالملك العزازى وابن وفاء السكندرى المتوفى عام ٨٠٧ هـ ، وغيرهم[1] .

ونظمها الشعراء فى أنواع مختلفة من الشعر ومنها: المدح والغزل والوصف والخمريات والوعظيات حتى الرثاء ، وممن نظمها فى الوعظيات صفى الدين الحلى وابن وفاء السكندرى .

ومن موشحاتهم:

خمرية للشاعر أحمد بن عبدالملك العزازى قال فيها :

ياليلة الوصل وكأس العقار   دون استتار   علمتماني كيف خلع العذار

* * *

اغتنم اللذات قبل الذهاب وجر أذيال الصبا والشباب وإشرب فقد طابت كئوس الشراب

على خدود تنبت الجلنار   ذات احمرار   طرزها الحسن بآس العذار .. الخ[1]

يلاحظ فى هذه الموشحة أن القفل ـ أو المذهب ـ يتألف من ثلاثة أشطر . الأول والثالث من وزن السريع مع زيادة حرف ساكن فى التفعيلة الأخيرة .

والبيت ـ أو الدور ـ يتألف من ثلاثة أشطر من بحر السريع . ثم ثلاثة أشطر على نظام القفل . وهكذا .

وغزلية لشهاب الدين بن حجر العسقلانى يشكو فيها الفراق . قال فيها :

سقمت من بعدكم فعودوا   فما على محسن جناح

عشقت بدرا بلا مراء   فلحت من بعده فلاح

* * *

بدر أنا فى الهوى شهيده   لما بسيف الجفون صال

وطرفه والجفا رجيده   ماض ومستقبل وحال

لو صدقت باللقا وعوده   ماعلل القلب بالمحال

رأى الذى لامنى سديد   حق وحق الهوى صراح

لكننى لست باختيارى   ياعاذلى فى هوى الملاح .. الخ[2]

---

(١) فوات الوفيات ج١ ص٦١ ورياض الألباب لشمس الدين النواجى ـ مخطوط ورقه رقم ٥٨ ـ

(٢) عن ديوان ابن حجر ـ مخطوط بدار الكتب المصرية .

ويلاحظ أن وزن هـذا الموشح هو مخلع البسيط . واطرد ذلك فى القفل والبيت على السواء .

واختلف فى القفل قافية الشطر الأول والثالث . واطرد هـذا الاختلاف فى نظائرهما فى كل بيت . مع التزام قافية الشطر الأول فى القفل ـ وهى الدال ـ فى نظائره . وكذلك التزام قافية الشطر الثانى والرابع من القفل فى نظائرهما ـ وهى الحاء .

وغزلية لصدر الدين بن الوكيل ، قال منها :

ما أخجل قده غصون البان   بين الورق
إلا سلب المها مع الغزلان   حسن الحدق

* * *

قاسوا غلطا من حاز حسن البشر
بالبدر يلوح فى دياجى الشعر
لا كيد ولا كرامة للقمر
الحب جماله مدى الأزمان   معناه بقى
وازدادسناوخص بالنقصان   بدر الأفق . . . الخ(١)

هذا الموشح عارض به صدر الدين بن الوكيل ، موشحاً لسراج الدين المحار . والمحار بدوره نظم موشحه هذا معارضاً به موشحاً للشاعر أحمد الموصلى .

ويلاحظ أن الشطر الأول من الموشح من وزن غريب . ويبدو أنه ملفق من تفعيلات متفرقة .

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٢٠ وبه الموشحات الثلاث .

ولا يعسر على القارىء ملاحظة ما فيه من مخالفات وموافقات ، قياساً على ما مر من شرحنا .

وغزلية للشاب الظريف ، قال منها :

بدر عن الوصل فى الهوى عدلا   مالى عنه إن جار أو عـــدلا

مذهب

* * *

مترك اللحظ لفظه خنث   إليه تصبو الحشا وتنبعث

أشكو إليه وليس يكترث

دعا فؤادى بأن يذوب قلى   الموت والله من مقالى لا .. الخ(١)

أقرب

وغزلية لجمال الدين بن نباتة . قال منها :

زحفت بيض الظبا لما رنا   فتلقـــاها سريعاً مقتلى

* * *

ملك عم الورى بالمنن   وكفاهم مرتبات المحن

طاهر الأسرار شهم العلن

راقب الله وأسدى المننا   فهو الوسمى فينا والولى ...(٢)

---

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٨٦ وما بعدها   (٢) ديوان ابن نباتة ض ٥٩٢

ويستطيع القارىء على ضوء ما شرحنا أن يلاحظ وزن هذين الموشحين ، وما فى كل من مخالفات وموافقات .

الزجل :

وقد رأينا فيما سلف كيف انساق بعض الشعراء إلى اصطناع الأمثال والتعبيرات السوقية ، وإلى الخروج عن قواعد اللغة والتزاماتها . وذلك بدافع انتشار اللغة العامية والدخيلة ، وبدافع نشأة الشعراء فى بيئات الشعب .

ورأينا كذلك كيف حرر كثير من الشعراء شعرهم من قيد الوزن والقافية ، فنشأ من ذلك فن التوشيح الذى لا نعده جديداً فى المشرق ، فقد انبثق من قبل فى بلاد الأندلس .

وباستشراء هذه الظاهرات واتساع مداها ، ورغبة بعض الأدباء فى تقديم لون شعرى إلى العامة هو أقرب إلى فهمها وأدنى إلى تذوقها ، نشأ فن الزجل .

وفن الزجل هو فن الشعر الشعبى الذى تلتزم فيه اللغة العامية ، ويكون الإعراب فيه من عيوبه .

وقد ذاع الزجل — كما ذاع التوشيح - فى بلاد الأندلس أيضاً ، لانتشار العامية ، ومنها رحل إلى المشرق وأقبل عليه أدباء العصر المملوكى . لاستشراء العامية واستعجام الخاصة والعامة ، حتى كان بعض الخاصة يشجعون أهله

وفن الزجل أكثر حرية فى أوزانه وقوافيه من التوشيح ، وليس معنى ذلك أنه خال من القيود والنظم الرتيبة ، فقد يلتزم الزجال فى زجله قيوداً ونظما تفوق فى الدقة والحنكة والرعاية ما يلتزم فى الموشح .

راج الزجل إذاً فى مصر فى العصر المملوكى وشجعه آل قلاوون وآل برقوق وغيرهم . وأقبل الزجالون ينظمونه فى أغراض الشعر كافة ، ولم يقتصروا فيه على أبواب دون أبواب ، حتى زاحم بذلك الشعر الفصيح فى مجالاته وفنونه .

فطرقوا به باب الوصف والمدح والفكاهة والمجون والخمريات والنقد الاجتماعى والغزل وتسجيل الحوادث العامة ورثاء الدول الزائلة والأحياء الدارسة ، والحماسة ووصف الحروب والرثاء والشكوى والحكمة ، وغير ذلك ،واصطنعوا فيه ألوان البديع وزخارفه وأصباغه .

وتسجيل الزجل والعناية بدراسته أمر ضرورى لاستكمال تاريخ الأمة الأدبى . فقد ترى فى أبياته من ألوان الأخيلة والتصورات مالا تراه فى الشعر الفصيح ، ويصادفك فيه من الآراء والأفكار والنقد ما يعز وجوده فى سواه . وهو من أهم الصفحات التى تطالع فيها اللغات الشعبية وتطوراتها .

والعقبة الكأداء فى سبيل دراسة الزجل - زجل العصور الأدبية السابقة - هى عدم درايتنا الكاملة الصحيحة بطرق أدائه وقراءته . فليس لدينا منه تسجيل صوتى يرشدنا إلى حقيقة ذلك والزجل حينما يسجل فى الكتب والمؤلفات يفقد كثيراً من روائه وحقيقة أدائه ، إذ أنه - عادة - يفصح عند التسجيل ، ويكتب بمألوف ما تكتب به اللغة الفصيحة . وقد فطن تقى الدين بن حجة لهذا المعنى فقال :

« والزجل فن يتمكن الناظم فيه من المعانى لجولاتها فى ميادين الأغصان والخرجات . وهو لا يحسن رسمه فى الكتابة إلا من عرف اصطلاحه »[1] .

وقال أيضاً ، بعد أن سجل زجلا للقيم ابن مقاتل ، تغزل فيه فى خياط ، ومطلعه :

نهوى خياط سبحان تبارك من بالجمال جملو

« كأنى بمتأمل نظر فى رسم كتابة هذا الزجل ، فأنكره ، لبعده عن رسم الألفاظ المعربة الخالية من اللحن ويعذر فى ذلك ، لأنه ليس له إلمام بمصطلح

(١) خزانة الأدب ص ٣٨ .

رسمه . ومن رسمه على غير هذا الطريق لم ينفذ له مرسوم . فإنه يؤديه إلى خطأ في وزنه وإعراب لحنه .

ومصنفه أبو بكر ن يحيي بن قزمان الوزير ، قال فى خطبته : وقد جردته من الإعراب تجريد السيف من القراب . ولم يطلب من الزجل غير عذوبة ألفاظه وغرابة معانيه » .

ولا ريب أن تسجيل الأغانى والأناشيد والأزجال والقصص والمسرحيات فى العصر الحديث تسجيلا صوتيا ، سيعاون معاونة قيمة عند تاريخ لغة الأمة ولغة عوامها ، إذ أنه سيكون مدعوما بأمثلة ونصوص صوتية حاسمة فى الدلالة. وسيكون مددا لكتابة تاريخ أدبنا الشعبي بصورة أصح

وقيل إن القصيدة الزجلية تسمى «حملا» تشبيها لها بحمل الدابة ، لأن شطورها الرباعية -غالبا- منقسمة إلى قسمين ، كل واحد منهما يشبه أحد جزئى الحمل ويقطعون «الحمل» أو «الزجلية» إلى جملة أدوار . ويتألف كل دور من أبيات ذات أشطر .

ويبدو أن هذا هو النظام الذى كان متبعا أو مألوفا عند بدء النظم والأزجال. ولكننا بالاستقراء ، وباستقراء أزجال المصريين أو الشآميين فى العصر المملوكى، نشعر أن نظام الأزجال وأوزانها أوسع من هذا ، وأنها تنوعت فى أوزانها وفى قوافيها كما كان الشأن فى الموشحات، على نحو ما أشرنا آنفا .

وهناك أوزان أخرى ، أو فنون أخرى من الشعر العامى غير المعرب . منها : القوما وكان وكان والمواليا والدوبيت . ولها نظام خاص فى صوغها . ويعتبرها بعض الأدباء ألوانا أخرى غير الزجل .

وأشرنا إلى أن الدوبيت منه المعرب وغير المعرب .

أما القوما أو القومة ، فيتكون كل دور فيه من بيتين على وزن « مستفعلن

مستفعل » وهو لون من مجزوء الرجز ، وتتحد قوا فى شطورها ماعدا الثالث فيخالفها . وكان يسحر به فى شهر رمضان . ولم نجد له رواجا فى العصر المملوكى .

وكان وكان ، يتألف كل دور فى موشحته من أربعة أشطر . الأول والثالث من وزن المجتث « مستفعلن فاعلاتن » . والثانى والرابع من مجزوء الرجز « مستفعلن مستفعلن » . وتلتزم قافية الرابع فى كل قافية رابعة من أدواره . ولم نجد له أيضاً رواجا وذيوعا فى العصر المملوكى .

والمواليا ، قيل كان أول ظهورها فى بغداد على لسان موالى البرامكة ، ثم ذاعت . ويتألف — عادة — من أربعة - وقد تكون خمسة أو سبعة - كلها من البسيط . وتتفق جميعها فى القافية . وقد يختلف ثالثها عنها . فإذا كانت سبعة أشطر اتحد كل ثلاثه أشطر ، ثم اتفق الأخير مع الثلاثة الأول .

ويبدو أن هذا اللون من الزجل حاز إعجاب الناظمين فى العصر المملوكى ، وأنه صادف موقع القبول من نفوس العامة . فأقبل الناظمون على نظمه وكان له نتاج لابأس به .

وباستقرائنا صادفنا نماذج من الزجل والمواليا والدوبيت فحسب . وكان الزجل أوفاها نصيباً .

ومما يذكر أنهم أطلقوا لفظ « البلاليق » على نتاج الزجالين . وذكر الإدفوى فى ترجمة « الحسن بن هبة الله » الزجال ، قال : « إنه أخذ ورقة وكتب هذه البليقة » ثم سجل الإدفوى زجلية للحسن . ثم قال : « أما البليقة فنى الفكاهة والنقد »[1] .

وكذلك كانوا يسمون الزجال المشهور : « القيم » .

---

(١) الطالع السعيد للأدفوى ، رقم ١٤٢

وممن نظم الزجل أو المواليا ونحوهما فى مصر فى العصر المملوكى :

خلف الغبارى وعاش فى عصر آل قلاوون وقد استخدم الزجل فى كثير من أغراض الشعر .

ومنهم الشيخ أحمد الدرويش البرلسى . والشيخ علاء الدين بن مقاتل الحموى. وشمس الدين بن دانيال الموصلى الشاعر الكحال . والمؤرخ ابن إياس الحنفى . وبدر الدين أبو النجا الزيتونى العوفى . والحسن بن هبة الله بن عبد السيد الأدفوى. وصدر الدين بن عبد الحق. وصدر الدين بن الوكيل ، وشرف الدين بن أسد المصرى. وزين الدين بن الوردى محيي الدين بن عبد الظاهر . وزين الدين العجمى وحطيبة. وناصر الدين الواسطى . والرويس . وزين الدين الشهرزورى وابن الطفال ، والأمشاطى ، وغيرهم .

وإليك بعض نماذج الزجل ، ويتضح لك منها بعض الأدوار الأدبيـــة والاجتماعية الهامة التى أداها الزجل ، وشارك بها فى الحياة القائمة . واستجاب بها للبيئة التى عاش فيها فتأثر بها فنم عنها وتكلم بلسانها وصور جملة من نواحيها . فمنهـا :

أنه لمـا وفى النيـل عام ٩٠٢ هـ قبل شهرى مسرى على غير عادته ، فرح الناس واستبشروا وصنف منادى البحر أغنية منها .

يا حبيب اهنــا وطيب النيـــل أوفى فى أبيب
وقـــد بقينا فى هنـــا يافرحنا . . . الخ (١)

ولما عزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون نفسه من الملك – وكان به بعض العرج – قام من بعده بالسلطنة الملك « ركن الدين بيبرس الجاشنكير » وكان

---

(١) بدائع الزهور ج ٣ حوادث ٩٢٢ هـ

العامة يلقبونه « الركين » وكان نائب سلطنته الأمير « سلار » ، وكان أجرد فى فمه بعض شعرات ، لأن أصله من التتار ...

وشح النيل فى ذلك العام - عام٧٠٩هـ - فنظم بعض العامة زجلا يتفكهون به ، جمعوا فيه بين هذه الحوادث ، وعبروا فيه عن مشاعرهم إزاءها . فقالوا :

سلطاننا ركين   ونائبو دقين   يجينا الماء من اين

هاتوا لنا الأعرج   يجى الماء يدحرج . . الخ(١)

قيل - فكان هذا الزجل سبباً فى قطع ألسنة بعض العامة بأمر هذا السلطان لما بلغه الزجل ....

واهتم السلطان قانصوه الغورى بإقامة المنشآت والعمائر : فانساق إلى أن أكره القاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش ، ابن يوسف ناظر الخاص ، أن يعطيه قطع الرخام المثمن الموجود بقاعة والده المسماة « نصف الدنيا » ليستخدمها فى بناء قاعة البيسرية . فقال ابن إياس الحنفى فى ذلك ناقدا موريا :

سلطاننا الغورى قد جار   والصبر منا قد أعيا

وصار فى ذا الجور عمال   حتى خرب نصف الدنيا(٢)

ومن الزجالين الممتازين ، القيم خلف الغبارى - وتعتبر زجلياته فريدة فى بابها . ومن بينها زجليات سجل فيها بعض حوادث مصر ، مما لا نظفر له بنظير فى الشعر الفصيح .

ومن زجلياته زجلية هنأ بها الأشرف شعبان حفيد الناصر بن قلاوون

---

(١) بدائع الزهور ج ١ حوادث عام ٧٠٩هـ

(٢) بدائع الزهور ج ٤

باعتلاء السلطنة عام ٧٦٤ .وكان الأشرف صغير السن . وزجلية أخرى رثاه بها لما قتل عام ٧٧٨ هـ [١] وقد سبقت إشارتنا إلى ذلك .

ومن زجليات الغبارى أيضا ماسجل فيه اعتداء عرب البحيرة بزعامة أميرهم ابن سلام ، على مدينة دمنهور عام ٧٨١هـ ، وقيام فريق من جنود المماليك الأتراك بقيادة الأمير « إيتمش » بصدهم والإيقاع بهم .

وقد سجل الغبارى هذه الواقعة فى نحو ٦٧ بيتا وفصل فيها الوقائع والأحداث والأسباب والنتائج بمالا تظفر به فى كتب التاريخ . قال فى المطلع :

باسم رب السما ابتـدى   فارج الهـم والكـرب
ويفيد للـــذى حضر   قصة الترك والعرب . . الخ [٢]

ولخاف الغبارى غزليات عذبة ، ومنها زجلية افتتحها بقوله مع التـورية والتوجيه :

جا. حبيبى فقلت داالحجاج   حايجـــور أو يزيـــد
لو عدل عشت بو مسرور   ويـكون الرشيد . . الخ [٣]

ومن أبرع الزجالين الشيخ بدر الدين الزيتونى الذى عاصر قايتباى وشهـد عصر الغورى ومات عام ٩٢٤هـ وكان علامة زمانه فى فنون الزجل . وقد سجل فى ديوان زجله جملة من حوادث زمانه لم ينهض الشعر الفصيح إلى تسجيلها .

وله زجلية سجل فيها رحلة قايتباى إلى الديار الشامية عام ٨٨٢ هـ حيث قضى

---

(١) بدائع الزهور ج ١ حوادث عام ٧٦٤هـ . وحوادث عام٧٧٨هـ وفيه الزجليتان .
(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ حوادث عام ٧٨١هـ وفيه الزجلية بأكملها .
(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد دياب ج ١ ص ١٣٥ ـ وبه الزجلية بأكملها .

نحو أربعة أشهر ،قام خلالها هناك بأعمال وإنشاءات جليلة . ومنها يقول .

سلطاننا الأشرف خرج فى أربعين   من العساكر حين سافر حماه
ومن حلب عدى يروم الفرات   فاسق الخيول من ماه وربه حماه ..الخ[١]

وفى سنة ٨٩٧ﻫ انتشر طاعون بالديار المصرية أباد كثيرا من الناس . فوصفه الزيتونى ورثى لأهل مصر مما أصابهم وقال :

وحدو من قد حكم بالموت   ونفذ حكمه بما يختار
واحتجب عن العيون سبحان   جل من لا تدركو الأبصار .. الخ [٢]

ولما مات الأشرف قايتباى عام ٩٠١ﻫ رثاه الزيتونى بزجلية طريفة ضمنها كثيرا من صفاته وحوادثه وأعماله[٣] .

وفى عهد الظاهر قانصوه ثار عربان عزالة على كاشف البحيرة فجرد عليهم السلطان حملة شتتت شملهم وذلك عام ٩٠٤ﻫ وقد سجل هذه الحادثة وماجرى فيها ، بدر الدين بن الزيتونى [٤] .

ولما مات الأشرف الغورى — أو قتل — فى موقعة مرج دابق عام ٩٢٢ﻫ رثاه الزيتونى ورثى دولته فى قصيدة زجلية جيدة جملة أبياتها ١١٧ بيتا . طرق فيها الشاعر أبوابا وفنونا . لقد تتبع حملة الغورى فوصفها فى ترتيب طبيعى تقريبا، من لدن خروجها من مصر حتى تمام الهزيمة وما أعقبها . وقد سجل أسباب الحملة وأسماء كبار الأمراء الذين صاحبوها ومشوراتهم وترتيباتهم وتاريخ خروج الحملة

---

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٦٨ وفيه النص بأكمله .
(٢) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٧٥ ط بولاق . وفيه النص بأكمله
(٣) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٩٨ ط بولاق المرثية بأجمعها
(٤) بدائع الزهور حوادث عام ٩٠٤ﻫ

ووصف هذا الخروج ودخولها بلاد الشام لحلب ، وأشار إلى خديعة السلطان سليم بطلب المصالحة ، وميل الغورى إلى ذلك ثم إيثاره القتال . ووصف المعركة وانتصار « المصرى على الرومي » . ثم انشغال الجيش بجمع الغنائم ، ثم مفاجأة الغورى بمن قتله . وهنا يتفجع الشاعر لمقتله ويتوجع ويذكر محاسنه ومحامده ، وينوه بمن كان معه آنذاك من الأمراء والعسكر ، وما تحلوا به من الهمة والشجاعة . ثم ما أصابهم من القتل والتشتيت والتمثيل على يد ابن عثمان — السلطان سليم —

وفى نهاية الزجلية يذكر الشاعر اسمه وصناعته ويتمدح بهما . وتلك كانت عادته فى زجله .

ويقول فى المطلع وبه براعة استهلال .

غربت شمس دولة الغورى وابن عثمان نجمو طالع ساير
وبهذا رب السما قــد حكم والفـــلك دار ولم يزل داير

* * *

ابن عثمان باداه بأخذ القلع وبمنع التاجر مع الجلاب
أن يجيبوا إلى مصر ممـــلوك ولا فروة سمور ولا سنجاب
ولا وشق ولا ثعلب يجلبوا ومن الصوف ماعاد يجبينا ثياب
على الصوف ياما قعدنا سنين ما يجى من عنـدو ولا تاجر
والأمارة جو للملك قالوا ابن عثمان باغى علينـا جاير

ومنها يبدى عواطفه لمقتل الغورى فيقول :

أشتهى النـار لقتلة الغورى ولعلى أن أبلغ الأوطار
والتهانى ذاك النهار عنـدى ويغنـــوا على وتر أوطار
بعد هذا ما أخشى غراب البين إن زعق فى دارنا أوطار

والعجائب فى قتلة الغــــورى راح برجلو لقتلتـــــه خاطر
وحسبنا كل الحســـاب إلا ما جرى لو ما مر بالخاطر ... الخ[١]

ومن بدائع الأزجال ما نظمه الأديب إبراهيم المعمار حينما أمر الملك الظاهر بيبرس بإغلاق محال الفسق والخمور . فقال المعمار :

منعـــونا ماء العنب ياسين رب سـلم لم يمنعونا التين

* * *

هات قل لى إذا منعنا الراح وحرمنـا من الوجوه الصباح
بيش تبقى نستجلب الأفراح والخليع كيف نراه يعيش مسكين . الخ[٢]

ومن المواليا قول حطيبة ، يشـكو ذل العشق :

سرى فضحته وأنتم سركم قد صنت فقصدى رضاكم وأنتم تطلبون العنت
ذليت من بعد عزى فى هواكم هنت ياليت فى الخلق لا كنتم ولا أنا كنت[٣]

وهذه مواليا لزين الدين العجمى ، فى غزل التورية :

للحب قالوا معناك الذى أذبتو جد لو بقبله فعقلو فيك خبلتو
فقال أقسم لوان البوس سبلتو ومات للشرق ما درتو وقبلتو[٤]

ونختتم حديث الزجل وما إليه ، بأن نذكر العلامة ابن خلدون سجل فى

---

(١) بدائع الزهور لابن إياس ج ٣ حوادث عام ٩٢٢ هـ .
(٢) الزجلية فى ٣٩ بيتاً سجلها ابن إياس ج ١ ص ١٠٥ ط بولاق .
(٣) الضوء اللامع ج ٣ رقم ٦٢١ . وحطيبة — بالتصغير — أديب زجال جذب بسبب عشقه ، ومات فى دمياط عام ٨٠٨ هـ .
(٤) كشف اللثام لابن حجة الحموى .

مقدمته تحت عنوان « الموشحات والأزجال للأندلس » ، أمثلة عدة للمواليا والدوبيت ، مما نظمه القاهريون .

بهذا الفصل نكون قد طفنا بالبيئات المصرية على اختلافها ، وبآثارها فى النتاج الشعرى بموضوعاته وأساليبه . وآن لنا أن نختتم هذا البحث بالكلمة التالية .

خاتمة

وبعد . إن من أهم ما يعنى به تاريخ الأدب وتهدف إليه بحوثه ، الوقوف على شخصية الشعوب ومعرفة مدى يقظتها العاطفية والعقلية وإحساساتها ، ممثلة فى أدبائها وشعرائها ، وذلك عن طريق بحث كبحثنا هـذا ، فى ميدان الشعر أو النثر . وقد كان هذا هو هدفنا من بحثنا فى المجلدين السابع والثامن من هذه الموسوعة ، اللذين درسنا فيهما شعر البيئة المصرية .

وقد راعينا فى عرض نماذج الشعر أحياناً ، شيئاً من الاستقصاء وإيراد النص الكامل . وذلك حينما رأينا ضرورة للبرهنة على أصالة فكرة أو اتجاه . ولا تتم إلا بهذا الاستقصاء والإيراد كما راعينا أحياناً التحليل الدقيق للنص ما استطعنا ، وبمقدار يطيقه البحث ، توصلا إلى فهم صناعة ، أو إيضاح معنى ، أو كشف عاطفة .

وراعينا كذلك ، ما استطعنا ، أن نجمع بين نتاج كثير من الشعراء فى موضوع معين ، عن التصدى للحديث عنه ، توضيحاً له ، وتأكيداً لما ذهبنا إليه فيه . فإن تأثر مجموعة من الشعراء بموضوع واحد ، مع تماثلهم فى الأحاسيس والمشاعر ، يجعل الجمع بين نتاجهم الشعرى فيه ، ضرورياً لتوضيحه وفهمه . فحين يكون عدة أدباء من بلد واحد وعصر واحد ، ينتسبون إلى مدرسة واحدة ، أو يعرف بعضهم بعضاً ، أو قرأ بعضهم لبعض ، أو أعجبوا جميعاً بنموذج واحد ، أو خضعوا جميعا لنفس التأثيرات الفلسفية والأخلاقية والدينية والفنيـة ، بل والاجتماعية والسياسية ، أو عبروا جميعاً فى عصر واحد عن أفـكار واحدة ، أو استعملوا جميعاً أسلوباً واحداً ، فلا شك أن الواجب

فى هذه الحالة أن يجمعهم الـكتاب ، كما جمعتهم الحياة . »(١)

ولقد بحثت عن شعر هـــذه الحقبة — العصر المملوكى — فى كل مكان استطعت الوصول إليه . بحثت فى دواوين شعرائه وكتب تراجم رجاله ، وكتب تاريخه العام ، وكتب خططه وغيرها .

وهكذا طفت فى جوانب العصر ، واستغرقت فى هذا الطواف - كما ترى - زمناً طويلا ، وبذلت جهداً كبيراً فيه ، حتى دخلت إليه فى أكثر زواياه ، وتجولت فى أكثر نواحيه ، وتبينت أكثر أوضاعه ومعالمه . واستطعت أن أكشف كثيراً مما تردد خلاله من أفـكار وخواطر ، وما جاش فيه من عواطف ومشاعر . وكان شعراء هـــذا الشعب ، فيما قرضوه ، ألسنته وتراجمته - كما أشرنا فى المقدمة - .

ولقد كان الشعب يعشق طبيعة بلاده ، ويقدس نيلها المبارك ، فتغنى بهما شعراؤه . وقد أكدنا بما درسناه من أشعارهم ، هذا العشق والتقديس ، وتضينا فى حزم ، على تلك الأكذوبة المفتراة عن بلادة حسهم نحو بلادهم ونحو نيلها ، وهو سبب حياتهم .

وقد كشفنا مبلغ اهتمامهم بسياسة بلادهم ، ومدى اشتراكهم فى حوادثها بأحاسيسهم وعواطفهم ، على الرغم مما اقتضته ظروف الحـكم من إبعادهم عن مسرحها عمليا .

ورأينا أن مصر كانت محوراً ومصدراً للثقافة الإسلامية والعربية ، وأن الشعر ترجم هذا بلغته وفى ميدانه ورأينا أن مصر كانت تحيا حياة حضارية ، قد تـكون أرقى ألوان الحياة الحضارية فى زمانها . وأن الشعر كان مرآة لها فى ذلك ؛ بدت فيها محاسنها ومساوئها ، وسموها ومباذلها ، وحقها وزيفها . وأن ألسنة

---

(١) الأدب المقارن لفان تيجم ص ٢٠٣.

الشعراء كانت وراء حوادث المجتمع ، ووراء مظاهر حضارته ، تسير معها وتتابعها ، أو تصفها وتسجلها ، أو تنقدها وتحمل عليها .

وبذلك كله تعرفنا على بعض جوانب الشخصية المصرية حينذاك ، وعرفنا كيف كان الشعب يقضى فى أموره ويعالج مشاكله ، ويتصل بصميم حياته ويزاولها ، وأنه — فى الحق — لم يكن بعيدا عنها ، ولو بمشاعره .

هذه نتائج وصلنا إليها عن طريق دراسة الشعر ، وربطه بأسبابه البيئية ، بعد دراسة هذه الأسباب . وإذا كنا قد وصلنا إليها وكشفنا عنها ، فلن ننكر ما لاحظناه من أن الشعر كان يشتد صوته ويعلو ضجيجه ، بل قد يلذ لحنه ويروق نغمه ويطول نفسه وتنشط أوتاره ، فى موضع ، ويهدأ أو يخبو فى مواضع أخرى . وشأنه فى ذلك شأن الشعر فى عصور الأدب كافة . غير أن الهدأة لا يصعب تعليلها ولا يعسر بيان سببها .

لقد رأينا الشعر محتفلا عالى الصوت جميل اللحن ، إذا غنى بالطبيعة أو بالنيل أو بالرياض . ورأيناه وثيق الصلة ببيئة الثقافية والاجتماعية ، ورأيناه ذا اهتمام واسع بالسياسة وأحداثها وحروبها .

ولكن اهتمامه بالسياسة ، كان فى أوائل العصر ، أكثر مما كان فى أواخره . ولا يصعب تعليل ذلك ، فقد كانت أحداث السياسة فى أوائله متجهة فى أغلب أمرها ، إلى مكافحة العدو الخارجى ، وإلى حربه . وكان هذا الاتجاه وثيق الصلة بآمال الشعب وعواطفه ، فوجد صداه فى الشعر . وكانت أحداث السياسة فى أواخره متجهة فى أغلب أمرها ، إلى مقاومة الفتن والمؤامرات فى الداخل ، فكانت أشبه بالحروب الداخلية ، وكان الطرفان المتنازعان ، وهما من رجال الطبقه الحاكمة ، متساويين — غالبا — فى المنزلة فى نظر الشعب . وهو نزاع على حكمه ، فهو ضحية الغالب منهما على كل حال . لذلك لم يشعر الشعب أن هذا النزاع نزاعه ، فلم يشترك فيه شعراؤه ، إلا لماما .

وفى الحق أيضاً ، لم نظفر بين شعراء الطبيعة ، بشعر يصف الريف ومحاسنه ، ويمجد الفلاح ويحيى كفاحه . والفلاح ـ كما نعلم ـ اليد العاملة ، والقوة المحركة المنتجة ، يحرث الأرض ويسقيها ، ويبذر الحب ويتعهده ، ويرعى النبات ويحصد ثمره . فالحقل والفلاح ، سبب النعمة لهذه الأمة ، بعد النيل . فلماذا لم يتغن بهما شعراؤها .

نقول ـ فضلا عن أن أكثر من عرفنا من الشعراء كانوا يعيشون فى المدن ، بعيدين عن الريف والفلاح ـ إن الشاعر الذى قال :

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب فى الماء جذوة نار

قد صدق ، وبالحق نطق .

قل لى ، أين هو الحقل ، وأين هو الفلاح السعيد بحقله ، فى ذلك الزمان ، حتى يحييهما الشعراء ، ويمجدوهما ويهزجوا باسمهما ، ويترجموا عن سعادة الحقل بفلاحه ، وسعادة الفلاح بحقله ....

لقد كان الحقل إقطاعا يحتازه سلطان أو أمير . وكان فلاح الحقل عبدا قنا للإقطاع الذى يعيش فيه ، وقفا على العمل به ، هو ومن يولد له . يعمل ويكدح ، ويسقى ويفلح ، ويجنى ويحصد ، ويجمع ويحمل ، فى سبيل صاحب الإقطاع ، وفى سبيل رفاهيته وسعادته . فماذا جنى الفلاح من الأرض غير الشقاء ، وماذا جنت الأرض غير الاغتراب والاغتصاب .

هكذا كان الريف مصدر شقاء للفلاح وبلاء . فكيف يحكى الشاعر أحاسيس هذا الفلاح ، ويغنى أهازيجه ويرتل أناشيده ....

ولقد كانت الأمة غارقة فى حياة إقطاع ، مرت عليها حقبتها ، وهى غافلة عن حقيقته غفلة دعمها تسلسل الأيام وأوضاعها . فلم يكن ثم شعور قوى يربط بينها وبين أرضها وحقوقها.

وبعد ، فقد عانيت فى هذا البحث ماعانيت ، وجاهدت فيه ما استطعت . ورجوت أن يحقق الهدف الذى له سعيت ، وهو التدليل على أن الشعب المصرى فى العصر المملوكى ، كان يقظ الفكر والعاطفة . ودللت على ذلك عن طريق دراسة شعره مرتبطا بعوامل بيئاته . وأعتقد أننى حققت هذا الهدف .

ولا أستطيع أن أزعم أن هذا البحث هو آخر البحوث فى موضوعه ، ولا أنا بلغت به حد الكمال . بل أعتقد أننى فتحت به باب البحث ، ويسرت سبيله لمن يلج طريقه ، ويلحب لحبه ، ويتبع نهجه .

وقد طفت ـ كما ذكرت ـ بكثير من الدواوين الشعرية ومجاميعها وكتب التاريخ ونحوها ، مخطوطة ومطبوعة ، ولا أقول إننى حملت فى ذلك مشقة ، فالمشقة ضرورة مطردة من ضروروات البحث .

ولكن موضوع الشكاية حقا ، فقدان كثير من المراجع ، التى كان من المستطاع والمترقب أن تمدنا بنصوص ووثائق قيمة فى الموضوع، تعين على دراسة مكتملة ، وعلى حكم أكثر صحة .

ومنها على سبيل المثال ـ لا الاستقصاء ـ هذه الدواوين الشعرية :

١ — ديوان نور الدين الأسعردى ويسمى « سلافة الزرجون فى الخلاعة والمجون » .

٢ — ديوان أبى الحسين الجزار المصرى ويسمى « تقاطيف الجزار » .

٣ — ديوان ناصر الدين بن النقيب : وقيل إنه فى مجلدين ملأهما بالمقطعات .

٤ — ديوان سراج الدين المحار : وقيل إنه ديوان موشحات مشهور .

٥ — ديوان صدر الدين بن المرحل : واسمه « طراز الدار » وهو مملوء بالموشحات .

٦ — ديوان شمس الدين بن الصائغ : قيل إنه فى مجلدين .

٧ — ديوان إبراهيم المعمار : قيل إنه كان مشهورا .

بل قل : أين شعر ابن عبدالظاهر جميعه ، وكذلك شعر الشاب الظريف ، والسراج الوراق ، وشمس الدين القادرى ، والشهاب الحجازى ، والجمال السلمونى ، وغيرهم .

إن هذه الدواوين ، وشعر هؤلاء الشعراء ، فى حاجة إلى باحث يكشف عنها ويبرزها أو يجمعها وينشرها . على أن شعر العصر فى جملته ، لم تبذل له مصر من العناية والاهتمام ، جزءا مما بذلته وتبذله لشعر العصور الأخرى . إنه فى حاجة إلى بذل وعناية ، لتحقيق المخطوط وضبطه وشرحه والتعليق عليه ، وطبعه ، وذلك كديوان القيراطى وابن حجة وابن حجر ، ومثل مجاميع ألحان السواجع للصفدى، وتأهيل الغريب لابن حجة الحموى ، وروض الآداب للشهاب الحجازى، ورياض الألباب للشمس النواجى ، وكوكب الروضة للجلال السيوطى ـ وهذه الدواوين والمجاميع المخطوطة موجودة حاليا بدور الكتب .

وكذلك إنه فى حاجة إلى إعادة طبع ماسبق طبعه ، بعد التحقيق والضبط والشرح والتعليق ، ومنه ديوان ابن نباتة وصفى الدين الحلى والشاب الظريف .

هذا كله عدا ضرورة جميع المتناثر من شعر العصر فى كتب التاريخ العام وتراجم الأعلام وكتب السير والخطط وغيرها .

وإذا كان لنا أن نضيف إلى ماتقدم ، موضوعات جديدة جديرة بالدراسة والمعالجة والبحث ، فإننا نضيف مايلى إلى ماسبق أيضاً التنويه به خلال سطور هذا البحث :

١ — المدائح النبوية فى العصر المملوكى ، عواملها ، اتجاهاتها ، أنواعها ، نتاجها .... الخ .

٢ — بردة البوصيرى وأثرها فى الأدب ، اتجاهها ، معارضاتها ومنها البديعيات ، تشطيرها ، تخميسها ، شروحها . . .

٣ - البديعيات ، منزلتها وشروحها .

٤ - النكتة والفكاهة فى الشعر المملوكى .

٥ - الشعر المملوكى بين الفكر والعاطفة ، وبين الطبع والصنعة . أو مدارس الشعراء فى العصر المملوكى .

٦ - النيل فى الأدب المملوكى شعره ونثره .

٧ - صدى الإسلام فى الأدب المملوكى ، موضوعا وأسلوبا .

٨ - صوت العروبة ، فى الأدب المملوكى .

٩ - العلاقات الإخوانية ونتاجها فى الأدب المملوكى .

١٠ - دراسات مفصلة عن كل شاعر من شعراء العصر ، أمثال : الشاب الظريف . ابن عبد الظاهر . القيراطى ، ابن حجة . ابن حجر : الشمس النواجى . . . . الخ .

والله أعلم

بذلك انتهت هذه الموسوعة والحمد لله رب العالمين

رمضان المعظم عام ١٣٨٥ هـ - يناير عام ١٩٦٦

من مراجع المجلد الثامن

١ ــ ابن نباتة المصرى أمير شعراء المشرق للأستاذ عمر موسى .

٢ ــ ألحان السواجع لصلاح الدين الصفدى ـ خط بدار الكتب المصرية .

٣ ــ الأصول الفنية للأدب للأستاذ الجليل عبد الحميد حسن .

٤ ــ الألطاف الخفية فى سيرة الملك الأشرف خليل بن قلاوون لمحيي الدين ابن عبد الظاهر .

٥ ــ بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس الحنفى .

٦ ــ تأهيل الغريب لتقى الدين بن حجة الحموى ـ خط بمعهد الإسكندرية الدينى ودار الكتب المصرية .

٧ ــ تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور «قلاوون» لمحيي الدين ابن عبد الظاهر ـ نشر الدكتور مراد كامل .

٨ ــ الثمرات الشهية « جنى الجنتين » ـ ديوان ابن حجة الحموى ـ خط بدار الكتب المصرية .

٩ ــ جنان الجناس لصلاح الدين الصفدى .

١٠ ــ حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لشمس الدين بن القيم .

١١ ــ حسن التوسل بصناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبى .

١٢ ــ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطى .

١٣ ــ خزانة الأدب « تقديم أبى بكر » لتقى الدين بن حجة الحموى .

١٤ ــ الخطط لتقى الدين المقريزى .

١٥ ــ خلع العذار فى وصف العذار لشهاب الدين عبد الوهاب الحنفى ــ خط بدار الكتب بالمنصورة .

١٦ — الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لشهاب الدين بن حجر العسقلانى .

١٧ — الدر الفاخر لأبى بكر الدوادارى .

١٨ — دمعة الباكى ولوعة الشاكى لصلاح الدين الصفدى .

١٩ — دولة المماليك البحرية للسير وليم موير . تعريب الأستاذين محمود عابدين وسليم حسن .

٢٠ — ديوان برهان الدين القيراطى « مطلع النيرين » . خط بالمكتبة الأزهرية .

٢١ — ديوان جمال الدين بن نباتة المصرى .

٢٢ — ديوان زين الدين بن الوردى ط الجوائب .

٢٣ — ديوان الشاب الظريف .

٢٤ — ديوان شرف الدين البوصيرى .

٢٥ — ديوان شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى — خط بدار الكتب المصرية .

٢٦ — ديوان شهاب الدين بن حجر العسقلانى . خط بالمكتبة الأزهرية .

٢٧ — ديوان الصبابة لشهاب الدين بن أبى حجلة المغربى .

٢٨ — ديوان صفى الدين الحلى . ط النجف .

٢٩ — ديوان فخر الدين بن مكانس — خط بدار الكتب المصرية .

٣٠ — روض الآداب لشهاب الدين الحجازى . خط بالمكتبة الأزهرية .

٣١ — رياض الألباب لشمس الدين النواجى . خط بالمكتبة الأزهرية .

٣٢ — زبدة الفكرة لبيبرس الدوادارى . مصور بمكتبة جامعة القاهرة .

٣٣ — السلوك لتقى الدين المقريزى .

٣٤ — صبح الأعشى لشهاب الدين القلقشندى .

٣٥ – الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع لشمس الدين السخاوى .
٣٦ – الطالع السعيد لكمال الدين الأدفوى .
٣٧ – طبقات الشافعية لتاج الدين السبكى .
٣٨ – العبر وديوان المبتدأ والخبر لولى الدين بن خلدون .
٣٩ – عقد الجمان لبدر الدين العينى ، مصور بدار الكتب المصرية .
٤٠ – الفتوة عند العرب للأستاذ عمر الدسوقى .
٤١ – فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى .
٤٢ – كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام لتقى الدين بن حجة الحموى .
٤٣ – كنز الدرر وجامع الغرر لأبى بكر الدوادارى .
٤٤ – كوكب الروضة لجلال الدين السيوطى – خط بدار الكتب المصرية .
٤٥ – كيف يعمل العقل للسيرسرل برت – تعريب الأستاذ محمد خلف الله أحمد .
٤٦ – المدائح النبوية للدكتور زكى مبارك .
٤٧ – مسالك الأبصار لشهاب الدين بن فضل الله العمرى .
٤٨ – مصر فى العصور الوسطى للدكتور على إبراهيم حسن .
٤٩ – معجم البلدان لياقوت الحموى .
٥٠ – مطالع البدور فى منازل السرور ، للغزولى ، خط بالمكتبة الأزهرية .
٥١ – المنهل الصافى لأبى المحاسن بن تغرى بردى .
٥٢ – النابغة الذبيانى للأستاذ عمر الدسوقى .
٥٣ – نكت الهميان للصفدى .
٥٤ – نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى .
٥٥ – الهامش على سلوك المقريزى للدكتور محمد مصطفى زيادة .

فهرس موضوعات المجلد الثامن

فهرس أعلام المجلد الثامن

(ك)

(ل)

(م)

انتهى والله أعلم . والحمد لله من قبل ومن بعد